محمد كرد علي

المذكرات

تصفو الحياة لجاهل أو غافل   عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه   ويسومها طلب المحال فتطمع

« المتنبي »

١٣٦٧ هـ   مطبعة الترقي بدمشق   ١٩٤٨ م

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الأول

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ... عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ... ويسومها طلب المحال فتطمع

« المتنبي »

١٣٦٧ هـ ... مطبعة الترقي بدمشق ... ١٩٤٨ م

روح المذكرات

ليس الموضوع الذي اعالجه (١) الآن ذا مكانة كبرى في ذاته ، إذا نُظر اليه أنه مذكرات شخصية ، كتبها رجل ما كان في مقام تشخص اليه أبصار العالم ، ولا هو من أمة كان له التقديم والتأخير في مجرى سياستها .

أنا أعرف أنه ما كان لبلادي إلى عهد قريب كيان تعرف به في العرف الدولي ، ولا هي من إحكام الأمر بحيث يرهب بأسها ويسمع صوتها ، ولا هي من العلم والفن بحيث يُمَكَّنُ لها في مجالس العلماء ، ولا هي رابحة الصفقة في أسواق الحضارة ، فيتنافس العارفون في اقتناء بدائعها وأعلاقها . وأعلم أن من الأشياء ما يكبر بكبر مصدره ، ومن الرجال من يعظم في العيون بقدر ما لأمته من عظمة .

أصوِّر بهذا التقييد طائفة ممن عشت بينهم صورة صادقة ، وأدوِّن كل حق عرفته ، ليشاركني أبناء هذا الجيل والذي بعده في الانكار على من أضجروني بقصورهم ، وآلموني بغرورهم .

كتبت كتباً كان الجد سداها ولحمتها ، وما جوَّزت لنفسي الحياد عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتأخرين ، وأريد هنا أن أنزع قيوداً أثقلتني وأنا أراعيها ، وأن أبعد عن ذاك الطراز المقيد ، وأخرج إلى هذا الاسلوب المطلق .

احاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرَّها ،

---

(١) كنت أحرص في هذه المذكرات على ألا أتكلم عن نفسي ، وألا أقول قلت وفعلت ، فتعذر ذلك لأن أكثر ما فيها مما سمعته أذناي ، ورأته عيناي ، ووعته نفسي ، فمن الصعب ذكره مجرداً من سامعه ورائيه وواعيه ، وهوَّن عليَّ هذا الأسلوب أن رأيتني لم آت بدعاً ، وتابعت طريقة من سبقوني من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات .

وكرعت خلها وخمرها ، أن أهزل أحياناً ، وأسخر أحياناً ، وأضحك أحياناً ، وأبـكي أحياناً ، لأن نفسي سئمت التزام الجد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زمناً طويلاً ، وطبيعتي تعصي على العيش الرتيب .

ورجائي ألا يبادر القارئ في الحـكم عليّ ، فيتهمني أني أكتب صحيفة في التشاؤم ، والتشاؤم يـكثر في الشيوخ ، فأنا وان قضيت شطراً كبيراً من العمر في سلطان التفاؤل ، لا أتفاءل ولا أتشاءم . وأفضل جهدي أن أزن الأشياء بمقاديرها ، وأن أعطي كل أمرئ حقه .

وامنية النفس يوم تنشر هذه المذكرات ألا يشمئز منها تاليها وسامعها كثيراً ، وأنا إلى هذا لا أطمع أن يجمع الملأ على استحسانها ، فتلك بغية ما تمت حتى الآن لتأليف ، ومن أين لصفحات محـدودة أن تستوفي عامة شهوات النفوس .

ربما يتألم بعض من عرضت لذكرهم بما قـد يسخطهم ، فأنا لا أحفل غضبهم ، ولا أسعى إلى رضاهم . ولعلي تعمدت أحياناً هتك سترهم لأنهم يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة لا يبالون .

وإذا كنت لم استخذِ أمام من كان في أيديهم النفع والضر ، فأنا لا أصانع من لا يرضيهم إلا سكوتي عن مساويهم . دأبت على قتال الأردياء ، والشبابُ غضّ ، والرغبة في اطالة حبل الأجل عظيمة ، فحريّ بي ألا أكف عنهم ، وأنا أطوي آخر مراحل العمر ، وأنفض اليد من بهرج الحياة .

قصدت بما دونت التحذير من دَجْل الدجالين ، والتنبيه على أحابيل المبطلين ، والعمل على مـكافحة الظالمين ، ليُعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يحلو لهم الجهر بالحق مهما جشّمهم ، ومن أفضل الطرق اليه ضرب السفهاء في وجوههم بعيوبهم .

جربت السكوت عمن لم يأتوا ببرهان واحد على حبهم الخير ، وما جنيت من الاغضاء الا البلاء .

الجهر بالحق ، ومقاومة الظلم ، من أول مراتب النهوض ، « والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

لقب أسرتنا

تفضل رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالنيابة رصيفي الدكتور فارس نمر باشا يوم افتتاح مؤتمر الدورة الثالثة عشرة وسألني في الملإ بعد أن تكلمت في المضافات والمنسوبات أن أكشف الغطاء عن حقيقة اسم اسرتنا « كرد علي » ، وأذكر الأصل في هذه النسبة وهذه الاضافة فوعدته باجابة طلبه وان أحل هذا اللغز الغامض الذي طالما كان موضع أخذ ورد ، كنت فيها في مصيبة ، ومصائب الدنيا كثيرة ومن جملتها هذا الاسم .

جاء جدي من مدينة السليمانية من بلاد الاكراد (شمال العراق) وسكن دمشق قبل نحو ١٥٠ سنة وامي شركسية من قفقاسيا فأنا على رغم أنف من آمن وكفر من جنس آري لا يقبل النزاع ، وليس للغربي ولا للشرقي ما يقول في دمي . سماني أبي محمداً وكناني بفريد ، فلما دخلت المدرسة الثانوية سألني الناظر التركي من أي محلة أنا ، وكان من عادتهم أن ينسبوا التلميذ إلى حيه الذي يسكنه ، فحرت في الجواب لأن اسم محلتنا ما كان من الرشاقة بحيث أجوّز لنفسي أن يطلق عليّ اسمه « زقاق البرغل » فقلت له أنا من التعديل ، اسم محلة أخرى كان يسكنها أبي لما كان طفلا ، فكنت محمد تعديل ، ست سنين مدة الدراسة الثانوية ، ولما وظفت في الحكومة لم يرض رئيس الديوان أن يعيدني إلى اسم اسرتي فاكتفى بمحمد فريد وحذف اسم عائلتي على عادة الاتراك ، ولما بدأت أكتب في الصحف كان أقصى همي أن أعود إلى اسمي الأول وإلى لقب بيتنا القديم فأصبحت « محمد كرد علي » واغتبطت ان حافظت عليه طول عمري وبه اشتهرت .

واستبان لي بعد ذلك أن في الناس من يحيدون جاهلين أو متجاهلين

عن اطلاق الاسم الذي اخترته ، ومنهم من يحب المناكدة أو لا يحفظ اسماً ولو كررته على مسامعه ألف مرة ، فما لبث بعض من عرفوني حتى في أيام ظهوري في الرياسات والوزارات ان تداخلوا في صيغة اسمي يحاولون أن يبدلوه بما يتراءى لهم فعدت إلى البلاء الذي اصبت به في العقد الثاني من عمري ، وكنت أظن بعد أن ربحت معركة الاسماء أنني نجوت مما لم ينجُ منه المصريون في التسمية ، لقد أضاعوا انسابهم وأصيبوا ببلبلة عظيمة كادت تكون هزلا ، وهل من المعقول أن يكون اسم شقيق أحمد زكي باشا ، محمود بك رشاد ، واسم شقيق حسن صبري باشا محمود بك فؤاد ، واسم عم علي ماهر باشا عبد الرحمن بك فهمي ، واسم شقيق محمد بك الخضري عبد الله بك عفيفي ، وان يكون اسماعيل صدقي باشا شقيق عزت بك شكري .

نعم ظللت في كرب من هذا اللقب وهو وان لم استسغه كثيراً لأنه ليس ببليغ ولا فصيح ، لكنني رأيت في المحافظة عليه معنى من معاني الثبات ، وقد صقل على الأيام بعض الشيء . ومن الغريب أن أحد وزراء معارف سورية ما زال يناديني إلى اليوم « محمد علي بك » وأحد وزراء مصر للمعارف أيضاً ما برح يخاطبني « بكردي بك » وقد قلت للأول لما سمعته يكرر هذه التسمية : أنت وزير معارف ومفروض فيك الذكاء والمعرفة كيف لم تحفظ اسمي على حقيقته وقد ورد في الكتب والصحف وعلى الألسن مئات الألوف من المرات ، فان كنت لم تتعلم أبسط الأشياء فأي شيء تعلمت بالله عليك ؟ أما وزير معارف مصر فما خلصت من تحريف اسمي في خطابه لي إلا بعد أن هددته بأني سأعمل على تحريف اسمه وأعامله بمثل ما يعاملني ، وأنا على شك إلى الآن فيما إذا كان حفظ اسمي كما انزل ، وكذلك رأيي في وزير الشام . والأنكى من كل هذا وذاك ان هذا المجمع مجمع فؤاد الأول للغة العربية الذي كان لي شرف الانضمام اليه منذ تأسيسه ما برح مكتبه يجود عليّ باسمي محرفاً ، ويتكرم ويزيد عليه لقباً أو رتبة

مثل « الفاضل » أو « صاحب العزة » وما رقاني الى أرقى من هذين اللقبين مدة سبع عشرة سنة ، هذا والرئيس والاخوان يخاطبونني بسعادتك وصاحب السعادة وهذه ما أكثر ما أسمعها في مصر من مختلف الطبقات ويزيدون فيها « بك » فتكون سعادة البيك ومن لم ينسوا اني عملت وزيراً مدة طويلة لا يحرموني ، جبر الله كسرهم ، من لقب معاليك وصاحب المعالي . ألقاب بمجموعها ما أحببتها ولا حرصت عليها ، ولطالما عمدت إلى اتقائها بكل حيلة كما حرصت على عهد الترك ألا أتزين برتبهم ، وفعلت في عهد الفرنسيس حتى نجوت من وسام جوقة الشرف . ولطالما أعلنت لمن يؤذونني بالقابهم ان لفظ الاستاذ أحب الألقاب إلى قلبي ، وان ابتذلت حتى صارت تقال للمستجدي في الشوارع ، ولقد جرى على لسان زملائي أعضاء المجمع العلمي العربي أن ينادوني بالاستاذ الرئيس وهذا كان منسجماً مع الحقيقة لكنه سبق ان تكنى به ابن العميد في القدماء وكان لقب كثير من الرؤساء في فارس أزماناً طويلة .

ولقد خلت جمهوريتنا السعيدة من هذا الحرج وقضت الا يطلق بعد الآن على احد من أبنائها الا لفظ « السيد » مهما بلغ من مكانته ، وإذا عنّ لكم ان تعرفوا أصل معنى السيد في اللغة فارجعوا إلى المعاجم لتقعوا على ما تريدون ، والظاهر ان من مضى عليهم زمن طويل وهم يسرحون ويمرحون بألقاب الترك لا يروقهم التخلي عنها ، وإذا خاطبهم مخاطبهم بالسيد يعتبرون ذلك تحقيراً لهم ، ويهللون اذا أضفت إلى خطابك « سعادتك » « دولتك » « معاليك » « فخامتك » ولكن المولعين بهذه التحليات سوف يذهبون من الارض ويخلفهم جيل شعبي جديد يقنع بلفظ « سيد » ويعدها نعمة على العالمين .

وبعد فقد كاد هذا التبلبل في صيغة اسمي ايام الصبا ان يحرمني راتب التقاعد (المعاش) ذلك ان خبثاء في ديوان المالية قالوا ان محمد

فريد الذي كان موظفاً في قلم الامور الأجنبية كان تركياً مات من سنين رحمه الله وان دعواي انني أنا هو غير صحيحة ، وشهد معلمان كانا اخرجا من خدمة المعارف بسوء سيرتهما ، فما وسعني الا أن أتيت بشهود عدول من كبار رجال الدولة عرفوني في ذاك الديوان منذ أول نشأتي ومنهم جيراني ولداتي في المدارس ، وما نلت حقي في الراتب بعد هذا الا بايعاز للديوان من مصدر عال لم يسع المالية إلا ان تعطيه على مضض ، وكان من المقاومين في اعطائي ذلك وزيران من وزراء المالية لا يعرفان من أمرها أكثر مما أعرف من علم الكيمياء مثلاً هذا الى ما عرفا به من الأذى لمن لا يشايعهم على أهوائهم .

هذا ما أورثنيه اسمي من الاضطراب وضياع الوقت والاثبات والاشهاد وهاكم الآن ما كتبته في مذكراتي بشأن هذه المعضلة الخطيرة عسى أن يكون فصل الخطاب في هذا الباب ولا احتاج بعدها الى سؤال ولا الى جواب وأخلص أنا من العذاب فلا يطلق عليّ « افندي » ولا « بك » ولا « باشا » ولا « خواجه » ولا « شيخ » ولا صاحب العزة ولا صاحب السعادة ولا صاحب المعالي وبكل هذه الالقاب المشرّفة لقبت وهي ألقاب لا يجوز لي ان اتقلدها بعد ان حاربتها بالقلم واللسان .

حاول احد خُلَّص أصدقائي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ان يبدل كنيتي « كرد علي » ويستعيض عنها بعلي فقط وأخذ يقنعني بذلك زمناً ويكتب لي بها إذا راسلني وحجته ان هذا الاسم من الالقاب المرعبة فاذا أطلق عليّ يؤخذ منه ان صاحبه كردي فظ لا يعرف غير السلب والنهب الى ما شاكل ذلك . وكنت أحاجه في هذا المعنى واريده أن يتفضل عليّ بكنية أسرتي يطلقها عليّ في الكتاب والخطاب وأقول له ان في كنى الافرنج والعرب اثقل من كنيتي وأخوف منها ، وان في أجدادنا الماضين من كانت كنيتهم أوحش وأسمج مثل ابن بصاقة وابن ابي كدية وابن كتاكت وابن كحينا وابن زبر وابن بهايم وابن فار وكم في الرجال الأجلة من لزمتهم ألقاب قبيحة كمعاوية بن عبد الكريم الضال وانما ضلّ في طريق مكة

وعبد الله بن محمد الضعيف وانما كان ضعيفاً في صحته لا في حديثه

وقد كتب الاستاذ المؤيد إلى صديقي المحبوب الاستاذ رفيق بك العظم في القاهرة ما نصه : « ان الانكشارية كانوا يلقبون الطائشين منهم بألقاب مرعبة مثل قره محمد وكور أحمد ودلي يوسف وبكري مصطفى وبالطه‌جي مسعود وبهلوان أيوب وانجه بيرقدار ، وكرد علي الخ ... ثم انقرضت بانقراضهم واستبدلت الألقاب بمثل مدحت وعزت وبهجت ونشأت عند الاتراك ، ومثل حمدي ووجدي وشهدي عند المصريين ، وتوفيق ورفيق وامثالها عندنا فيقول الترك مثلاً خليل رفعت محمد مدحت أحمد عزت والمصريون محمد حمدي أحمد وجدي والعرب محمد توفيق أحمد رفيق محمد حسن محمد علي الخ ولم يعد يلقب بتلك الألقاب القديمة إلا النادر ممن يوهم لقبه من لا يعرفه انه شخص مرعب ولو كان أرق خلق الله وألطفهم . فلو انفذت اليك بطاقة زيارة صحبة خادمك من زائر لا تعرفه وقد وقف بالباب ينتظر الجواب ولما قرأتها وجدت عليها لقباً من تلك الألقاب المفزعة قره‌محمد مثلاً أو بالطه جي مصطفى أفلا يأخذك العجب وكيف تتصور هذا الزائر . وبعد فقد جاء في ألفية ابن مالك :

ترخيما احذف آخر المنادى   كيا سعا لمن دعا سعادا

أما حذف أول المنادى أو وسطه ففيه نظر وعندي (وان لم يكن لي عند) انه لا بأس به لنتمكن من ترخيم لقب أخينا المشار اليه ... »

هذا وقد وأردت ما تقدم على سبيل العلم أولاً والفكاهة ثانياً والحمد لله خير الأسماء .

ذكريات الطفولة

وما شغفي بالماء إلا تذكراً لماءٍ به أهلُ الحبيب نزول
وما عشتُ من بعد الأحبة سلوةً ولكنني للنائبات حمول

يقول العلماء إن من علت بهم السن يذكرون ما وقع لهم وهم أطفال ، ذِكرَهم حوادثَ الشباب والكهولة والشيخوخة ، ولا يذكرون من الحوادث ما قرب منهم عهده ، وأول ما يصابون بنسيانه أسماء الاعلام . وأنا أتذكر حوادث وقعت لي بين السادسة والثامنة من عمري ، وأذكر الأشخاص الذين كانوا معي كأني أراهم الآن ، وأذكر الزاوية التي كانوا واقفين فيها أو قاعدين ، والمقعد الذي جلسوا عليه ولونه وشكله ، وأذكر أكثر ما قلت لهم وما قالوه لي ، وما تأثرت به نفسي ، وجال في خاطري .

استصحبتني والدتي وأنا في السادسة لتزور أسرة الاستاذ الشيخ محمد الطنطاوي (في زقاق النارنجة بمحلة القيمرية بدمشق) فأدخلوها القاعة البرانية التي يجلس فيها الشيخ (السلاملك او المندرة) فوقع نظري لأول مرة على رفوف في الحيطان ، مصفوف عليها مجلدات ، فشهقت متعجباً مما نظرت وسألت والدتي عن هذه الأشياء التي رأيتها على الجدران فقالت : هذه كتب يقرأ فيها العلماء . فأعجبني هذا المنظر الطريف ، وقلت لامي : أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة .

وكانت أمي تذكرني بما قلت كلما أرادت أن تبعث همتي على حفظ دروسي ، للوفاء بما كنت رجوته من تعلم تلك الصنعة . وكان أبي ينشطني على الدرس ، ولما أصبحت يافعاً وشاهد استغراقي في كتبي ، حتى الهزيع الثاني من الليل ، أخذ ينصح لي بالاعتدال في المطالعة ، خشية على عيوني وصحتي ، وكثيراً ما كان يطفئ المصباح ليضطرني إلى النوم .

أسلمني أهلي إلى مدرسة « كافل سيباي » الابتدائية ، وأنا في الخامسة من عمري ، يتولى ابن عمي ملاحظتي وهو دون العاشرة . وكان مرة في سدة الجامع مع بعض الأولاد يؤذّن بصوت رخيم ، وصوته كان جميلاً ، فدخل المعلم فارتعش الفتى وبال على ثيابه ، فقطرت على رؤوس بعض المصلين تحت السدة من الأولاد قطرات ، فكانت قصةً ضحك لها كل من في المدرسة .

رأيت في الصف مشهداً استغربته ، رأيت ذات يوم شيخاً ما كنت رأيته من قبل وشاهدته ، وقد ظهرت من بعض الأطفال حركة لم يستحسنها على ما يظهر ، يسرع فيضرب المذنب على رأسه بطرف جبته ، ويوبخه بلهجة مغربية ، فاستغربت صورة الضرب بالجبة ، فسألت من هو هذا الضارب ؟ فقيل لي هذا المفتش ، وهو أعلم من شيخنا ويقدر أن يعزله . فقلت في نفسي : ياليتني أكون مثله . وما كان هذا المفتش إلا استاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري الذي اتصلت به بعد سنين ، وقد بدأت أكتب في الصحف ، وأطلب العلم عند المشايخ .

وضعوني مرة عند شيخ قرب دارنا ، كان اتخذ له من دكان متسع مكتباً ، وحشر فيه عشرات من الأطفال ، والباب مقفل ، والطاقات مسدودة ، فكانت رائحة كريهة وللشيخ عصا طويلة يضرب بها الولدان في صدورهم وظهورهم ورؤوسهم ، ولعله ضربني ضربة واحدة من أول يوم ، واستعفيت في الغد من الذهاب إلى هذا الكتاب ، وبكيت لوالدي فرق لي ، وقلت له : لا أحب التعلم إذا كان المعلم يضرب كل ولد في الكتّاب ، سواء أخطأ أم لم يخطيء ، فأعفوني من الدوام على المكتب وبقيت أسرح وأمرح طول الصيف ، واطوّف الماء عند عصر كل يوم في صحن الدار ، وأسبح وأغطس في الحوض حتى أتبرد ، ولما انتهت العطلة المدرسية رجعت إلى « كافل سيباي » .

أركبني والدي معه على فرسه ، وقصدنا قرية جسرين في الغوطة اول

مرة ، وكان ابتاع بها مزرعة منذ اشهر قليلة ، واخذ يعمّر في الدار هناك عُليّة إلى جانب عليّةٍ كانت من قبل ، والنجارون ينجرون الأبواب والنوافذ ، وصمدت سلماً منصوباً على الطريق من خارج الدار ، واصحبوني برجل يلاحظني وأنا اصعد ، حتى لا تزلق رجلي فأقع ، وما زال بعض من رأيتهم من الفلاحين هناك ، كأنهم أمامي الآن أنظر اليهم واحادثهم ، وكنت بعد سنين أذكر لهم ما قلته وما قالوه فيهتزون طرباً لهذه الذكريات .

وكان أحد سادة القرية أبا سعيد درويش عند أبي يجلسان في دهليز بيتنا هناك ، فطلبت إلى والدي أن يزيد في نفقتي اليومية ، وما كانت تتجاوز المتاليكين (نصف القرش) ووجوته زيادة متاليك آخر فأبى ، وقال إن متاليكين يكفيانك ، فغضبت وظهر الغضب في وجهي ، فلما رآني أبو سعيد أحب أن يبدد من آلمي ويداعبني فقال لي : إن أباك قال لي إن الدراهم التي كانت عنده مخبوءة في البدراويات (سلات الأرز) دفنها لك في التراب ، أي اشترى لك المزرعة ، فلم يعد عنده ما يعطيك ، أليس « الحانوت » أحسن لك من متاليك زائد على خرجك كل يوم ؟ فسكت وقلت في نفسي : المزرعة أكبر ، وفيها أشجار اعلق عليها أرجوحتي وألعب عليها ، وتقذفني بها اختي وأقذفها ، وفيها حقول واسعة أطير عليها طيارتي في الهواء ، وفيها نهر صغير أسبح فيه .

وما كنت أزعج إلا عندما يقال لي غداً السبت تهيأ للنزول إلى البلد ، وإذا تخلفت فرفاقك في الصف يسبقونك ، وفي ليل مفارقة القرية وألعابها ينقبض صدري ، وأغبط الضفادع على استمتاعها في مناقعها ، وأندب حظي على حرماني سماع نقيقها أياماً . وبين القرية والحاضرة ثمانية كيلومترات ، لا بد من ركوب ساعتين على ظهر الحمارة ، وصرف الاسبوع كله في الدار ، والخروج إلى القرية آخر الاسبوع . يتخيرون لركوبي الحمارة حتى إذا سقطت عن ظهرها يكون الخطر أقل ، وأصل إلى الأرض بدون ألم يذكر .

وما زلت أذكر أني أردت مرة اجتياز جدول صغير فكاد التيار يأخذني

لو لم تنقذني شقيقتي الكبيرة . وسقطت مرة من رأس غصن عال من شجرة جوز ، حاولت نصب أنشوطة الأرجوحة عليه ، وما أظن علوه يقل عن ثلاثة أمتار ، ووقعت على أرض لينة ، فتألمت كثيرا ، ولم أبك مخافة أن يشعر أهلي ، ويلوموني على تسلق الشجرة ، وكثيراً ما كنت أعثر في البيدر وأنا أطير طيارتي ، فتتخدش يداي ، ويتهيّج وجهي ، ثم أعود فأطيرها وأنا موجع ، أكتم وجعي مخافة أن يضحك مني أبناء الفلاحين ، وينسبوني إلى ضعف الهمة ، وقلة الرجولة . ولا أزال إلى اليوم أذكر بعض من كنت أقذف معهم طيارتي تحلق في الجو ، ويعجب لتحليقها صبيان الفلاحين ، ويعجب من مني بعملي ، ومن سرعتي في العَدْو ، وبعضهم مازال حياً ولله الحمد ، أذكرهم بألعابنا ويذكرونني ، وهم كانوا أترابي في القرية ، ومن أحب أهلها إلى قلبي ، وفي مقدمتهم السيد عبد المعطي درويش ابن ذاك الذي قال لي وأنا غاضب على أبي لامتناعه عن اعطائي متاليكا آخر زيادة على نفقتي : إن أباك دفن في التراب دراهمه التي كانت مخبوءة في السلال وما بقي عنده ما يعطيك .

كان والدي كل سنة يدعو بعد الحصاد زمرة من الحصّادين الذين حصدوا حبوبنا ورجدوها أي أتوا بها من الحقول إلى البيادر (الاجران) ويسمون هذه الدعوة (الجَوْرعة) ويدعو معهم أجراءنا ومرابعينا والمصيفين والنواطير والحارس والخطيب وبعض أصحابه من وجوه القرية ، ويأتي بهم إلى أجمل حمام يستحمون فيه « حمام القيشاني » وهناك كنت أفرك ظهور أجرائنا ، فيضحكون ويدعون أني أنزع الأوساخ عن أبدانهم بيدي الصغيرة . حتى اذا أتموا استحمامهم يأتون الى دارنا يتناولون ما هيئ لهم من طعام شهي ، وأعد لهم من الحلوى المعروفة بالبقلاوة وكانت تحشى بالفستق إذا كان سعره معتدلاً ، وإذا غلا ثمنه تحشى باللوز أو الجوز . ويعطى كل واحد من العَمَلة الذين أحسنوا الخدمة مقداراً من البقلاوة يحملونها إلى عيالهم في القرية ، ويقبض كل من أجاد عمله قدراً من المال يُناسب مكانته

وغناءه . وقد بطلت هذه الجَوْرعة أي ضيافة العَمَلة في أيامي ، وأصبح العامل يفضل أن يأخذ ريالاً أو ريالين على أن يعطل يوماً كاملاً في الحاضرة للاستحمام ، وتناول الطعام .

كانت لي خالة امرأة أب محبوبة من إخوتي وأخواتي ، نحبها كما نحب أمنا ، وكنا نناديها بيا (أمي ستي) ، وكانت تتولى تربية كل ولد أتمت أمي إرضاعه . و (أمي ستي) من أصل الباني قوية الشكيمة وتقية بارة . كنت أدهش من مواظبتها على صلواتها ، وكانت تتهجد من الليل وتصلي مئة ركعة ، وتتوضأ من حوض الماء في صميم الشتاء ولا تخاف البرد ، ولا تشعل النار لتتدفأ ، وتهمهم عندما تقرأ وردها ، فكنت وأنا في الفراش أسمع تمتمتها وهمهمة القطة التي كانت أمي ستي تنيمها في فراشها معنا ، وكانت لها سبحة أطول من ليالي شتاء ، يقولون لها الألفية لأنها تضم ألف حبة كبيرة ، وعندنا إلى اليوم بعض حباتها احتفظ بها أهلي للبركة .

شعرت أول ما وعيت على نفسي بعطف النساء ، وكنت أحب الاجتماع إليهن ، وأفضله على الاجتماع إلى أترابي ، وأحب سماع كلام من يختلف منهن إلى دارنا في القرية ودارنا في المدينة ، ومنهن من كنَّ أرضعنني فصرت ابنهن من الرضاع ، وغدا أولادهن أخواتي وإخوتي . وكان الكهلات والشابات والعجائز من أولئك النسوة ، الفلاحات منهن والبلديات يضممنني إلى صدورهن ويقبلنني وأضمهن وأقبلهن ، وأحسن ما كان يشوقني الجلوس في حجورهن ، والعبث بنهودهن وشعورهن وضفائرهن . وكنت أحب ذات الشعر الأثيث ، ومن وجدت لمعاناً في وجهها أعتقد أنها تدهنه بالزيت في الحمام ، وذلك لأن أمي حملتني معها إلى حمام القرية مرة ، فشاهدت الفلاحات يدهنَّ أجسامهن بالزيت والزيتون فقلت لا بد أن يكون كل النساء على تلك الشاكلة .

وكنت أشتاق جداً إلى سماع ما يقص عليَّ النساء من حكاياتهن الشهية ولا سيما ما كان فيه نكتة وشيء من الغرابة وكنت أميز بين التي تحسن

الحديث وبين التي لا تحسنه ، وأرجح الاولى ، ولو كانت عجوزاً شمطاء بشمة الصورة ، على الصبية ولو كانت خلابة المنظر وكانت لي أخت من الرضاع جميلة الوجه بضة اسمها (بحرية) ، وكنت أستغرب هذا الاسم وأقول في نفسي : لعلها ولدت في البحر ببيروت فسموها بحرية . وكنت أقبل (بحرية) قبلات حارة وتقبلني كذلك ، وقالوا لي مرات : ليتها تجوز لك حتى نزوجك منها متى كبرت ، وبالطبع ما كنت أعرف ما هو الزواج وأجيبهم زوجوني بها فاني أحبها ، وكنت يومئذ في السابعة من عمري وربما كانت هي في الخامسة عشرة . وبقيت بعد ذلك أوثر مجلس النساء مهما كان لونه ، على مجالس الرجال إلى أن شببت وشبت .

وممن كنت أعبث بهن امرأة مرابعنا سلطان في القرية (وسلطان اسمه وهو أفغاني الأصل) كنت أكثر من زيارتها وهي عجوز شوهاء فقدت بنيها كلهم ، فكنت أسمعها تندبهم أكثر الأحايين فأشفق عليها ، وكنت أفلي شعر رأسها لأخرج لها الصئبان ، فأجمل بين ظفري حركة يسمع لها صوت كأني أقتل القمل فتسرّ وأضحكها . وأعظم ما كان يعجبني في دارها الواسعة بالنسبة لدور الفلاحين في القرية ذاك النبات المعرش واسمه « الساعة » ويحمل زهراً مدوراً ملوناً مستديراً فكانت تتحفني منه بما أحب فأحمله إلى أمي فتسرّ وتفرح بعشرة امرأة مرابعنا الحزينة ، وتدعو لي ولأولادها بطول العمر ودوام الصحة .

أخذتني أمي معها إلى عرس عظيم في دار آل البكري ، وأجلستني إلى جانب تخت المغنية ، وكانت صاحبة التخت أشهر مغنية في عصرها ، على ما قيل لي بعد ، اسمها أنيسة بنت جلالة ، وهي حنطية اللون ، دعجاء العينين ، تلاطف من يقترب منها ويكلمها من المدعوات ، وأظنها عند الصباح رقصت وهي تغني ، وكان بيدها سيف . استمعت إلى أنيسة وجوقتها ، ثم غلبني النوم فما صحوت ، والوقت كان صيفاً ، إلا على صوت المؤذن ينغم بالصلوات في المأذنة القريبة بصوت جميل ، وبلبل تلك الليلة انيسة يرن

صوتها في فناء تلك الدار القوراء ، والنساء يصفقن تصفيقاً حاداً بين حين وآخر ، ويدعون للمغنية ، ويستحسن كل ما تغنيه ، فطربت كثيراً ، واظن كان ذلك اول عهدي بالطرب ، واخذت ادرك معنى الصوت الحسن واشتاق الى سماعه ، واتوقع ان اسمع ما ينعش ، وكثيراً ما كنت اقول لامي بعد تلك الليلة المطربة ، خذيني معك الى العرس كما اخذتني الى عرس بيت البكري ، واذا احتفل بعرس ولم تأخذني معها اغضب وتدمع عيني ، واغبطها لانها سمعت بنت جلالة ، لاعتقادي بأن أنيسة تكون مغنية كل عرس يحتفل به .

أذكر أن (امي ستي) كانت لخوفها عليّ من العين ، إذا عمل لي والدي مضربة ، أتي بها برد الشتاء تبادر إلى ترقيع أكمامها بقطع ليست من لون قماشها ، ليقول من يشاهدونني ألبس مرقعة اني ابن فقراء ، فتتخطاني عيونهم ولا ينظرون اليّ نظر حسد ، وأذكر أن أبي ابتاع لي على العيد صرماية حلبية أي نعلاً حلبياً احمر ، ومعها جوارب غليظة من شغل الاكراد بطن قدماها بالسختيان ، وذلك لأخرج معه صباح اول يوم من العيد الى المقبرة لزيارة الأموات . وكنت لشدة فرحي بهذا النعل الأحمر اضعه بجانبي في الفراش ، وانتبه مرات قبل ان يؤذن الصبح ، ويحين وقت الخروج الى المقبرة ، ثم الذهاب الى المسجد الجامع لصلاة العيد ، والفرجة على (السلاملك) اي حفلة خروج الباشا والي البلد بالعساكر من الجامع الى السراي . وكنت افرح فرحاً كثيراً لقرب ايام العيد ، فاذا انقضت اكتئب ، وذلك لما يقام فيه من الألعاب في الشوارع ، فافرح بذلك اكثر من فرحي بما يصنع في بيتنا من الحلوى والمعمول ، ويجلب له من المربيات والملبس وغير ذلك مما يعمل بالسكر والقلوب من الجوز واللوز والفستق . فان هذه الأشياء كانت موفورة في بيوت اهل اليسار معظم أيام السنة . واكثر ما يطربني في الأعياد الألعاب المألوفة : ركوب (الدويخة) و (المَرجوحة) و (القَلاّبة) و (المركبات) التي تجر باليد او بالحمار .

كنت أستاء كل الاستياء عندما يكرهني أهلي على الذهاب إلى الحمام

مع والدي — وما كانت الحمامات إلا في الأسواق ، والبيوت يومئذ لا أعرفها — أستثقل الحمام لما فيه من الحرارة الزائدة . ولكي يضطروني إلى الرضا بحكم والدي ووالدتي ، كانوا ينصبون لي خيالاً أشبه برجل فظيع له قرون تنطح ، يجعلونه وراء الخوابي في بيت المؤنة المظلمة ، ويمسكونني بيدي لأرى هذا الخيال ، ويقولون لي هذا البُعْبُع ، إذا لم تقبل أن تذهب إلى الحمام اليوم نقول له أن يأكلك ، فأذهب صاغراً متألماً من هذا التحكم خائفاً من سطوة البعبع . وأذكر أن والدتي أخذتني معها إلى حمام النساء فقالت لها إحداهن : لماذا لم تأت بأبيه معه ؟ فانقطعت أمي عن أخذي معها إلى الحمام من ذاك اليوم .

وحملني أبي على دابته عصر يوم من أيام القيظ الشديد ، وأركبني أمامه خوفاً عليّ من أن أهوي عن الدابة إذا ركبت وراءه ، وقصد إلى قرية دمر لزيارة الأمير عبد القادر الحسني الجزائري في قصره . والتقينا بالشاذروان أي في نحو منتصف الطريق بعربة يركبها مشايخ ، قال لي أبي إن فيها صديقه الشيخ سليم العطار من أكبر العلماء . فسأل الشيخ والدي عن مقصده من الركوب في ذلك الوقت فقال : لزيارة الأمير . فقال له : إن الأمير متمرض ولم ينزل من غرفته . فقال : اذاً أتابع سيري ليستريح الصبي في حديقة الأمير قليلاً ثم نعود . وسرنا حتى بلغنا قصر الأمير ، فلما أخبر بوصول والدي ، سأل هل معه ابنه ، فقيل له نعم ؛ نزل من غرفته ورأيته . وربما كنت رأيته مرات قبلها فأنسيته ، ولا أذكر صورته إلا هذه المرة . فكان يلبس قفطاناً أبيض مثل قفاطين المغاربة وعلى رأسه طاقية بيضاء ، ووضعني في حِجره ، وقرأ على رأسي المعوذتين وبعض الآيات والتوسلات .

والسبب الذي حدا بالأمير على أن ينزل من غرفته وهو منحرف المزاج ، ولم ينزل لأحد من زواره ذاك اليوم ، كونه يعتبرني ابنه الروحي

وذلك لأنه صنع لي « التابعة » فعشت بعدها . وكانت أمي مات لها ولدان قبلي فقال لها من يعتقدون بهذه الأمور إن الأمير يعمل التابعات ، فإذا عمل لك تابعة يعيش ولدك الذي في أحشائك . والتابعة كناية عن قصبة تلف عليها خيوط من الحرير ويقرأ عليها ويعزّم ، وتأخذها الحبلى وتدفنها في قبر مهجور ، وترجع خطوات إلى الوراء ، وأظنهم قالوا يجب دفنها قبل شروق شمس السبت . وبعد مدة سمعت أن الأمير توفي وحزن والدي ووالدتي عليه (١٣٠٠ هـ) .

أخذني والدي قبيل طلوع الشمس يوم السبت لزيارة سيدي أبيّ خارج سور البلد ، قرب الباب الشرقي . وكانوا يعتقدون أن كل ولد زوّره أهله قبر هذا الصحابي ثلاثة أسابيع يفتح الله قلبه للعلم ، وتحسن ذاكرته فيحفظ دروسه . وصيغة الزيارة أن تتقدم من القبر بخشوع وتقرأ الفاتحة ، ويأتيك السادن بعصا يضربك بها على رجلك ، ويقول لك : إحفظ درسك ، فتتباكى وتقول له أحفظه ، ثم يناولك حبات من الزبيب تقضمها . وما كان الضرب بالعصا موجعاً بل كان صورياً . وبهذا هيأ لي أهلي سبيل الحفظ والتعلم أثابهم الله !

وحمدت الله يومئذ على نجاتي من تطبيق خرافة أخرى عليّ ، كانت تمثل بالقرب من الباب الشرقي أيضاً قرب مستشفى المجذّمين (الأعاطلة) وكان الاعتقاد السائد أن كل من يصاب بالبرداء (الملاريا) — والكينا على مايظهر كانت عزيزة — يأتي به أهله إلى النهر الأسود الذي تلقى فيه قاذورات قسم عظيم من مدينة دمشق ، ويغطسون المريض سبع غطسات — وأظنهم قالوا الأفضل ان يوم السبت — فيشفى باذن الله .

ولطالما ذكرتني خالتي وأمي بعد أن كبرت قليلاً كيف كنت أنادي كل ساعة (ياخدى) بدون أن أتعلم ذلك من أحد ، بل كنت أنادي بفطرتي . ومعنى (خدا) بالفارسية (الله) وقالتا لي إني بينا كنت أنادي يوماً في فناء الدار ندائي المعتاد زار والدي أحد أصحابه المسيحيين ، وقالتا لي إنه كان يعرف الفراسة ، فلما سمع ندائي تأمل وجهي قليلاً وقال

لأبي في الحال : يافلان اعتن بهذا الصبي سيكون عالماً ، — والله أعلم .

ومن حسن توفيقي أن والدي كان ينوي أن يجعل علينا وصياً أحد رجلين من أصدقائه : الأول تاجر غني والآخر مزارع عظيم ، فما هي إلا أعوام قلائل حتى بلغت مبلغ الرجال فأقامني وصياً على اخوتي ولم يحتج إلى أحد في هذه المهمة . ولو كان قدّر لي أن أكون صغيراً أحتاج الى وصيّ ، ووصى والدي مضطراً أحد خليليه هذين لما خرّجاني إلا في صنعتها حتى أعرف كيف أغتني ، ولا يجوّزان أن ينفقا شيئاً من مالنا على تعليمي وتعليم اخوتي . ذلك أن الصديقين كانا لايقدران حاجات الزمن ، وكانا في عقلية أهل القرن الماضي من أن العلم اذا لم يضر لا ينفع . ولطالما حثثت المزارع أحد الصديقين بعد ماكبرت أن يعلم ولداً من أولاده فن الزراعة الحديثة فكان يحاول ألا يجيبني وينقل الحديث إلى موضوع آخر . وسمعت والدي غير مرة يشير على صديقه ذاك التاجر العظيم أن يعلم أحد اولاده اللغة الفرنسية ليستعين به في تجارته الواسعة فيعد هذه النصيحة مستغربة واستمعت اليه مرة يقول لوالدي يافلان إن كاتباً براتب ثلاثمائة قرش في الشهر يغنينا عن تعلم ابني لغة اجنبية . فماذا كان حالي ياترى مع احد الصديقين الصادقين لو كتب لهما ان يكفلاني حتى أشب ؟

وما برحت أذكر قصصاً مستغربة سمعتها من والدي وأنا صبي في أواخر العقد الاول من حياتي ، ومنها ماجرى له مع الامير سليمان الحرفوش المتغلب في تلك الأيام على أرجاء بعلبك (وهو الذي قتلته الدولة العثمانية في قلعة دمشق) قال : كنت في بدء حياتي التجارية تعرفت الى هذا الأمير ، وكان يزورني في مخزني ، واحتاج الى المال فاصبح يقترض مني ما يلزمه حتى تجمع لي عنده خمسمائة ليرة ذهبية ، وعاد بعد حين الى بلده واعداً أن يعيد اليّ باسرع ما يمكن مااقترضه مني قرضاً حسناً وطال هذا الوعد أشهراً اضطررت بعقبها الى أن أقصد الأمير في بعلبك أتقاضاه ما استدان مني ، ونزلت عند امرأة عجوز أربعة أشهر حتى تيسر المال لمديني

ودفعه اليّ ريالات فضية ، فأودعته عند حبيب مطران من خدام الأمير يومئذ — وهو الذي غدا بعد سنين من أعيان سورية ونال رتبة باشا — ليحفظه لي عنده ريثما أعود الى بلدي ، وسألني الأمير لماذا أمنت على مالي حبيب مطران ؟ فقلت له لأن المسيحيين يعرفون قدر الدراهم أكثر من المسلمين . ثم دنا الرحيل فأمر الأمير مناديه في القصبة ، أن يعلن أن عميل الأمير مسافر فأعد أهل البلد طعاماً اختار كل واحد منهم اللون الذي يحسنه ، وحملوه كعادتهم الى رأس العين . وحضر الأمير فتقدم والدي اليه وسارّه في أذنه قائلاً له : اني وحيد أمي وبلغني أن من عادتكم بعض الأحيان أن تدفعوا الى مدينكم ماله في ذمتكم فاذا بعد عنكم قليلاً أرسلتم من يقتله ويعيد اليكم ما أخذه منكم ، فان كانت عينك في المال الذي أعطيتنيه فانا مستعد من الآن لأن أعطيك سنداً بقبضي له وأذهب الى بلدي بحشاشة نفسي ، فطمنه الأمير وذكر له معروفه يوم ضائقته وأصحبه بعبدين أسودين ، اسم أحدهما دُعَيْبِس واسم اخيه قضيب ، وأوعز اليهما أن يذهبا من طريق الجرْد ويوصلاه الى قرية مَهين في جبل قلمون ويأخذا من شيخها وصلاً بوصوله . قال وبينا نحن سائرون أصيل ذاك النهار في محل اسمه « بير صرير » صادفنا سرباً من الغزلان فاصطاد أحد الرفيقين واحداً منها وتبسم لصديقه وتبسم له ، ثم تهامسا كأنهما يذكران أمراً وقع لهما . فسألتهما عما يشيران اليه فأبيا أن يبوحا به ، وبعد إلحاحي عليهما قالا انهما كانا يجتازان هذا النجد منذ مدة فشاهدا رجلاً وقع في نفسهما أن معه شيئاً يسلبانه اياه فامتنع منهما فقوي ظنهما أن معه مالاً فقتلاه ، وما أشدّ خيبة أملهما اذ لم يسقطا في جيبه على غير قرشين . فلما سمع أبي هذا الحديث اللطيف هلع قلبه وقال لهما : أسرعا اسرعا ، والشقيان القاتلان يعلمان أن في الخرج الذي تحت والدي عشرات الألوف من القروش . وسلم الله ووصل عميل الأمير الى مهين بعد أن نفض عنه غبار الموت كما قال : وعاد الرفيقان المحترمان يحملان الايصال الى أميرهما بوصول من رافقاه الى مأمنه . ولو كان والدي يفكر ملياً ما خاطر بماله ثم بروحه مع أمير يجهل أمره ، والغالب أنه لم يكن يعرف يومئذ أن عشرة الكبراء تتعب الرأس والرجلين .

عوامل المثبطين

خرجت إلى ميدان العمل أعزل لا أحسن الحرب ولا الضرب ، ويدخل المرء في الحرب يوم يدخل العالم كما قال فولتير . وما إن مشيت خطوات قليلة حتى وقف المثبطون في طريقي ، يحاولون صرفي عما عقدت العزم على التمحض له . وكانت تأخذني الصدمات فأتقيها . وما أدري إن كان ما لقيت جلب لي نفعاً ، أو عاد عليّ بضرر فيما استقبلت من الأيام . ومع هذا ما ونيْت ولا تراجعت ، ولا قطعت خيط الرجاء من النجاح .

ما خرج ما نشرته لأول نشأتي عن مقالات ، لم تصل إلى أكثر من أقوال مبتدئ ، وكان جمهور الناقدين من المشايخ غالباً ، يتطالون لأن يكونوا المهيمنين على كل ما له اتصال بالدين والدنيا ، كانوا يغتابونني منفردين ، وقد ينافقون لي في الحضرة ، ومنهم من يستكتب الفيْنة بعد الفينة تقريراً باسمه ، يقدمه إلى صاحب السلطة ، ويحذره عاقبة أمري ، وبذلك كبّروني في عيون الحكام أكثر من جرمي ، وألبسوني من خيالهم حلة تزيد على جسمي . ورأيت منهم من تراجعوا بعد حين ، وراعهم ما سمعوه من قوتي على حين لم أكن يومئذ أكثر من طائر لا زَغَب له أمام بواشق كاسرة وعلم من عرفوا من أنفسهم العجز بعد ، فكفوا ألسنتهم وكفَوْني شرهم . ومنهم من ظلّ يطعن في الأحايين حتى لا يقال إنه تراجع ، ومنهم من اعترف بقصوره ، وطلب أن يقدّم في الدعوات ، ويدعى إلى الحفلات ، ويذكر اسمه في المناسبات !

توفر أحد المقدمين فيهم على الطعن عليّ في درسه في المسجد الجامع سنين ، لأني لم أمكنه من إلقاء محاضرة في ردهة المجمع العلمي ، وهو لا يحسن أن يحاضر ، وبضاعته من الادب والعلم مزجاة ، وادعى بأخرة

أنه قرأ ما كتبته في الاسلام فاستحسنه ، وأحب أن يجعلني ببركاته من أصحاب الجنة ، وكان من قبل يتوعدني بالنار ، ولما رآني أسير سير المؤمنين حدثته نفسه أن يعقد الصلات معي ، وعزم أن يزورني ويتودّد إليّ فما زدت على أن قلت للوسيط : ليحذف صاحبك هذا المدح الآن من قدحه فيّ أمس ، فاذا زاد القدح فأنا أسامحه ، وإذا زاد المدح فهو وشأنه ، ولا وقت لي لسماع مصانعات المصانعين ، ولا للدخول في مماحكات المماحكين .

وكان من أحدهم ، وهو مثل الشيخ السالف ، ضيق فكر وقلة بضاعة أن يزودني بآرائه في كل ما أكتب ، ويقدم فيّ تقاريره متبرعاً بالتجسس عليّ أكثر من خمس وعشرين سنة ، وما تعب ولا كف ، كان يطالع كل ما أكتب ويستعين ببعض طلبة العلم ، يستخرجون له الضارّ من كتاباتي ، والضار في سياسة الدولة ، وفي الدنيا والاخرى ، قاتله الله ما أشد سلاطته وعبثه . وكان يكثر من إتهامي بالوهابية عند الأتراك ، ورأيته بعد سنين يثني في مجلس خاص على الملك عبد العزيز آل سعود ، وعلى الوهابية فقلت له : الحمد لله يا شيخ على أن أحياني حتى رأيتك تثني على من كنت تطعن عليهم وعليّ اعواماً طويلة . وما أظنك الآن تتوقع من هذا المدح إلا أن تحج وتأخذ من صدقات ابن سعود ، فرأيت من تمام الحيلة أن ينقل عنك أنك من أحبابه . وكان الأمر كما قلت له . ذهب إلى الحجاز في الموسم بعد أن قضى حياته في التجسس ، ومات بعد مدة غير مأسوف عليه ، وكنت كثيراً ما أنصح له أن يكف عن الوشاية ، ويقلع عن الغيبة والنميمة فيقول : إذا انقطعت عن هذه الخطة لا يسقيني اهل هـذا البلد الماء البارد .

وتألفت جماعـة باسم الدين وألفوا مجلة دينية ، وأنشأوا يتسقطون لي ولاخواني العثرات ، ويقوّلونني ما لم أقل ، وولجوا كل باب للظهور بالنيل مني ، فـكان صراعاً ظاهراً بين القديم والحديث ، وبين المجددين والجامدين ، ورجعوا بعد ثلاث سنين بصفقة المغبون ، وقد نفـدت ثرثرتهم ، وفرغت

جعبتهم ، فأراحوا قراءهم من حشوهم الذي ادعوا أنه حقائق ، متمزقين غيظاً لأنهم ما سمعوا كلمة واحدة في الرد عليهم . وكانوا ينتسبون الى العلم فما نجحوا في باب من أبوابه ، فودعتهم لما فقدتهم بمقالة «أعداء الاصلاح» تقرؤها في كتاب (القديم والحديث) وقال لي أحد أساتذتي إني لم أكتب أشد منها ، ومنهم من تجسس بعدُ للغريب على القريب ، مقابل عرض تافه من عروض الدنيا . وهو الى هذا يظهر الغيرة على الدين . أسخِفْ به وأسخِفْ بعقول من يعتقدون صلاحه .

جلب الاتحاديون رجلاً مصرياً محكوماً عليه في مصر بعدة أحكام لجرأته على شتم قومه كان يعزّ وجود مثله في السفهاء الهجائين ، يحفظ من معاجم الشتم كل قبيح مقذع . ولما أغدقوا عليه الذهب الوهاج واتته قريحته في اختراع أساليب التشفي والتشهير . وكانوا لا يطلبون منه الا أن يقف مني ومن أصحابي ، في جريدة لهم سموها (المشكاة) ، موقف الهجاء . وظنوا لقلة تجاربهم أنّ الشتم سلاح قوي فعال ، وما دروا أنه سلاح العاجز الحق . فأشرت على أصحابي بالاعراض عما يلغط به سفيه المشكاة . وكان يبلغنا أنه يود لو أجبناه بكلمة في جريدتنا أو في جريدته ، ومضت الأيام وهرب المستأجر للتطاول على الاحرار ، هو وبعض من أنشأوا تلك الصحيفة السخيفة الى الاستانة ، فصادفني في أحد شوارعها ، فاقترب مني يخفض لي جناح الذل ، وهش وبش ، طالباً العفو عما بدر منه نحوي . فأكدت له أني لم أقرأ شيئاً مما كتب ، فزاد ألماً وسب نفسه على أن كانت حملاته كصرخة في واد .

وعهد الاتحاديون الى (ع . س) أن يمدهم بنوره في المشكاة ، فغذاها بزيته المكر ، كما كان (ز . م) المصري الذي أعطى نفسه لقب باشا ، وهو يستجدي الأكف في القاهرة ، وأخذ الخلف يسير على قدم السلف ، يطعن الطعن المبرح بمن يرسم له سادته الطعن عليه ، ويحمل على أبناء بلده ليتقرب من قلب الغريب . وتجسم لؤمه يوم برأتني المحكمة مما كان أقيم علينا من الدعاوي . وكنت اعتصمت بمصر ، وأخي مسجون في الاستانة

بدعوى نشرنا قصيدة في الاصلاح ، لأحـــد علماء المدينة الشيخ ابراهيم الأسكوبي ، كانت نشرتها بعض الصحف الشامية قبل نشرنا لها . فما سئل ناشرها الأول ، ونحن أغلقوا صحيفتنا دون غيرها ، ورأيت (ع . س) يوم تبرئتنا ، يخاطب المحـكمة ويهددها ويقول لها إنهـا لم تعرف من برأت ، برأت أعظم عدو الدولة وعدّد سيئاتي .

ولما قرأت ما كتب قلت : هذا والله من أبشع ما رأيت من ضروب الوشاية واللؤم . صاحب الجريدة مشرد عن بلده ، واخوه مسجون في العاصمة ، وجريدتها معطلة ، والـكاتب اللبق يحاول نكبتنا اكثر مما نكبنا ، ويطمع في ان يظهر لمن استخدموه انه يحب الدولة ونحن نبغضها . وقد نفاه الاتحاديون في الحرب العامة الى الأناضول . ووصمته حكومتهم بالخيانة فذل .

ودارت الايام واتيت بهذا الرجل إلى عمل يرفع منه واحسنت عشرته فقال لي احد رصفائي متعجباً ، كأنك نسيت ما كتبه فيك ؟ فقلت لعمري ما نسيت وما عاملته بما عاملته به إلا مـكافأة له على عنايته بالادب العربي في العهد التركي ، وهناك سرّ لا يعرفه إلا الخلّص من الاصدقاء ، وهو اني كنت اكثر السواد بمثل هذا النوع ، على تخالف بيننا في العقل والروح حتى لا يكونوا عيوناً عليّ وعلى ديواني فاستميلهم واتقي شرهم ، وما زلت مع صاحبي هذا حتى فرق الموت بيننا ، وقد ابنته يوم مات ، وذكرت مزاياه الحسنة ، واغضيت عن غيرها ، وما خسرت شيئاً ، والله أعلم من الخاسر منا .

وأذكر أني ناقشته مرة واحدة ، وبالحري أني أجبت صاحب الجريدة على ما كان يحاول أن يجرّني اليه ، وكان يفيض على هذه الجريدة بآرائه ، فسولت له نفسه أن يثير الرأي العام ، أو أن يجعل للجريدة الخاملة التي يكتب فيها شهرة بين الصحف ، وأظنه كان يقصد الغايتين . كتب في تلك الجريدة يقول : إني ما قصدت بما كتبت الا إلقاءَ التفرقة بين النصارى والمسلمين . فكتبت في الجواب على خلاف العادة : إني ما زلت منذ وعيت على نفسي ، أسعى للتأليف بين الطوائف ، وأدعو الى القومية العربية ، على ما هو باد فيما

كتبت ونشرت . ورجوت صاحب الجريدة أن يتباعد عن الخوض في هذه الموضوعات المؤذية . وكان صاحب الجريدة حدّاداً في البقاع العزيزة وظهر في دمشق بعد مدة محامياً مؤلفاً صحافياً ، وهو أمي وما أكثر حظ الغريب عندنا ، وما أوفر الأميين يومئذ في المحامين والمؤلفين والصحافيين ، بل في المدرسين المتعممين والمتطببين والقواد والولاة .

أوردت هذه الأمثلة من عمل الجماعات والأفراد في حرب الناشئة ، ومقاومة كل داع الى الاصلاح ، ورب سفيه كان يرزق من الطعن علي ، وبئست الطُعْمة. قلت يوماً للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد بالقاهرة : بلغ عدد الجرائد الأسبوعية الساقطة التى تطعن فيك نحو عشر صحف أما من وسيلة للتخلص منها ؟ فقال ببرودة قلب : دعهم يعيشون ولو بالطعن فيَّ . وانا كنت شهد الله أحب أن يتعلم هؤلاء الطاعنون ولو بالطعن عليَّ أيضاً .

طريقة التماس الشهرة بالتحكك بأربابها شائعة كثيراً ، وقد نامت في مصر ، وعهدي بها على حصة موفورة فيها ، وأكبر ظني أنه كان لتطبيق العقوبات على السفهاء دخل كبير في قمعهم ، وقلّ أن رأيت في مصر والشام من اصحاب الأقلام على كثرة من رأيت منهم ، رجلاً اتخذ سبّ الناس وشتمهم سلّماً إلى الكسب والشهرة فباءَ بغير الفقر ، ووُسم بغير الرقاعة وربح غير المقت .

كان في بيروت وكيل لبعض الصحف ، وكان من أتباع شيخنا الشيخ طاهر الجزائري ، وزين لشاب أديب الطعن في الشيخ قائلاً له إنه لايشتهر إلا إذا سلك طريق الحط من العلماء المشهورين . فكتب الشاب المغرور مقالتين في الطعن على الشيخ فأدى ذلك الى سقوطه وسقوط الجريدة التي نشرت له ؛ لأن فضل الأستاذ لايطفأ بمقالة ، وأدرك المدركون أن غرض الكاتب أن يشتهر على حساب الشيخ الجزائري ، حتى يقول العامة انهما كالأمثال الأقران .

يحب الجمهور المطاعن ويلذ له ، ويشغف بالماحكات مهما كان لونها . واني

زمن والجريدة التي تخلو من هذه المهاترات لاتكاد تقرأ حتى ليضطر أربابها أن يخلقوا موضوعات يناقشون فيها غيرهم ، ويتحينون الفرص لفتح أبواب المطاعن لترويج جرائدهم الكاسدة . وكان القوم يتلقفون الصحف التي ترى رواجها بالقذف في الأعراض ، كما يتلقفون اعز شيء عليهم ، واذا نفدت أعدادها ، يدفعون في اقتناء النسخة الواحدة عشرة أضعاف ثمنها ، وأكثرهم يؤيدون فريقاً على فريق ، ويزينون لهذا ماينكرونه على ذاك ، والجمهور مجنون ، ونعوذ بالله من جنون الجماهير .

النقد شيء والطعن شيء آخر . وقلّ أن رأيت أحداً من المنورين السع صدره لنقد الناقدين . ومن هنا جاء امساك النقاد عن النقد النافع لئلا ينزعج المنتقد عليه ، ويتخذ من ناقده عدواً له . ورأى النقاد في مصر على عهدها الأخير أن يدهن بعضهم لبعض ، ويسكتوا عن نقد ماينتقد ، وفي النقد حياة المجتمعات ، والمنتقد يزيد قدره إذا ماتلقى الانتقاد بالقبول ، ولقد بلغت القحة ببعض أصحاب النفوس الصغيرة أن توهمت أن كل أعمالها سديدة لاتستحق إلا الاعجاب والتقريظ .

قال أحد علماء المشرقيات وكان قضى سنين في القاهرة إن من سوء حظ النقد في مصر أن معظم النقاد ينزلون العاصمة فتضطرهم واجبات الجوار والمعرفة إلى أن يصانع بعضهم بعضاً ، ولو كانوا متفرقين في بلدان مختلفة لايرى الواحد صاحبه كل يوم لجسروا على نقد من يجب نقده منهم ولما أصيبوا في هذا الشأن بحياء لامحل له .

الصادّون عن العلم

لما ضعف العلم الاسلامي حاول بعض الأسر القديمة التي استحلّ أبناؤها الاستئثار بالمدارس والأوقاف والوظائف الدينية بدون أن يكون لهم شيء من العلم ، أن تبقى لهم هذه المغانم والمظاهر وقفاً أبدياً على الدهر. وفكروا في أسهل حيلة تديم عليهم نعمتهم ، فكان منها منع الشبان من التعلم ، ليكون القضاء والافتاء وأعمال التدريس والوعظ والخطابة والامامة محتكرة لهم ولأعقابهم من بعدهم . وممن دأبوا على هذه الدعاية شيخان من دمشق ، كان يعزّ عليهما أن يتعلم إنسان ، وما كان عيشهما يطيب إلا إذا صدّا الطلبة عن العلم .

وكان الشيخ طاهر الجزائري يكرههما كراهة عظيمة ، وسألته ذات يوم عن سبب كراهته لهما ، وعما حدث بينه وبينهما فأدى إلى هذا العداء العظيم ، فقال : إنهما مازالا يحولان بين الناشئة وبين التعلم ، وبعملهما انقطع أربعون شاباً عن طلب العلم . فقلت له : هذا حقّ وقد حاول أحدهما أن ينصح لوالدي ، وأنا في أول نشأتي ، ليخرجني من حظيرة الدرس إلى التجارة . وقال له وأنا أسمع ، وهل ترانا نحن العلماء في حالة حسنة ، وإن أحدنا ليطلب العلم ثلاثين سنة ، وغايةُ مايحصل عليه راتبٌ ضئيل في إحدى المدارس ، أو إمامة في أحد الجوامع ، قد لايتجاوز راتبها المئة والخمسين قرشاً ، فإن كنت تريد الخير لبيتك ، فاقطع ابنك عما شغلنا به قبله أعواماً ، وما عاد علينا بغنىً ولا رفاهيةً .

وكان شيخنا يقول : لولا أن شغل كلا الأخوين أحدهما بالآخر للاختلاف بينهما في قضية ، وكان الواحد يتغيب سنة في الاستانة لملاحقة

دعواه ، ويعود في السنة التالية إلى بلده ، فيسافر أخوه فيتذرّع بمثل ماتذرّع به شقيقه ؛ وظلاّ على ذلك طول العمر ، وماتا ولم يُبدَتّ في تلك الدعوى المباركة — لولا أن شُغلا بأنفسهما لنزل بالناس منهما شرٌّ كثير.

وكَبرتُ وصرتُ أكتب بالصحف ، وأصبح لي أصدقاء وأعداء ، وكان ذاك الشيخ الذي سوّلت له نفسه ان يمنعني من ورود حياض العلم ، يوم كنت طالباً صغيراً ، ينظر إليّ نظر من آمن لمن كفر ، وأنا وكثير من أهل البلد نعرف مبلغه من الدين والأخلاق . قال لي يوماً : بلغني ان عندك خزانة كتب . قلت صحيح مابلغك ، منها ما كان اشتراه والدي لي ومنها ماابتعته انا . فقال : أريد أن أزورها ، فقلت له : لاتزورها ولا تراها . قال : ولِمَ ذلك ؟ قلتُ : لأنك تسرق الكتبَ على ما أكد لي غير واحد ، ولذلك لن تراها . فَبهت من قولي وتفارقنا ، وكان في شيخوخته يطعن عليّ وعلى الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري وغيرهما وأنا ماقلت له ماقلت إلا لأنه كان حقيقة يسرق صفحات وأحياناً كراريس من الكتب المُدبجّة المُذَهّبة ، ومنها ما أخذ طرّته . واستحل لذلك مجموعات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وخزائن الأفراد في كل مكان دخله فشوّه الأصل ولم ينتفع كثيراً بالفرع .

وبعد ذلك يُعتّب علينا ، لأنا لانحترم هؤلاء الذين ينسبون زوراً إلى الخواصّ ، وعلم الله أن العوام أكثر منهم عملاً بالدين ، والوقوف عند مناهي الشرع .

أخلاق بعض القضاة

لم أر فيما رأيت من أنواع المداوات أشد من تمادي المشايخ ، ولا أكثر من غمط بعضهم حق بعض ، ولا أشدّ من تهالكهم على أبواب الأمراء والحكام . ولقد رويت لي روايات عنهم ما كنت أصدقها ، لولا أن رُواتها لم يُعرفوا بكذب ، ولما أخذت أتعرف إلى الرجال رأيت ماهالني ، وأيقنت أن القليل منهم عرَفوا الكرامة وعزة النفس ، وهم الذين جعلوا صناعتهم بصنعهم علامة ضعةٍ ، وكانت آية الشرف . ولقد أصيبت جمهرتهم بغرور ظنوا معه أن سلطانهم القديم على الملوك فمن دونهم يبقى لهم بهذا الجهل وهذا الفساد .

قلت يوماً لعالم درس تاريخ الاسلام درس تَدَبُّر وعرف استخراج عبره : أما كان في العصور الماضية قضاة جاهلون فاسقون سارقون ، فكتب الأدب تتعرض لذكر كثير مما كانوا يُتَّهمون به ، أليس ما رُوي عنهم بصحيح أم صنعوه للنكتة ؟ فأجاب : أكثر ما رُوي في سيرة القضاة قديماً صحيح ، والجهل وسوءُ الخلق ما انقطع دابرهما من الارض ولكن إذا فرضنا أنه كان في المملكة الإسلامية ألف قاض في الدهر الغابر ، وألف مثلهم في هذه الأيام ، فان الألف السابقين كان فيهم عشرة فاسدون لا يصلحون ، أما الألف اللاحقون فالفاسدون منهم يُعدّون بالعشرات .

وأظنُّ السلطان يلْدِيرِم بايزيد العثماني هو الذي جمع قضاةَ مملكته وأمر بقتلهم لما ثبت له من قلة دينهم وتلاعبهم بالحكومة . فلما حقت عليهم كلمة العذاب لجأوا إلى أحد ندمائه ، ورشوه بمبلغ من المال ، فذهب إلى السلطان لابساً ألبسة السفر ، فسأله السلطان عن الداعي إلى اكتسائه هذه الكسوة فقال : إنه ذاهب إلى صاحب القسطنطينية — وكانت يومئذ بأيدي الروم —

لآتي من عنده بقسيسين يتولون القضاء في مملكة السلطان ، فضحك هذا وعفا عن القضاة ، على ألا يعودوا إلى سالف سيرتهم القبيحة .

وما زالت حال القضاة في تدهور ، العصر بعد العصر ، حتى كانوا هم السبب الاعظم في إدخال قوانين الغرب على الدولة العثمانية . والحكومة المصرية والإمارة التونسية ، لكثرة ما أساءوا إلى الشرع ، وعبثوا بأصوله وفروعه ، وبقلة دينهم وقلة علمهم ، أمست أحكام المحاكم الشرعية سلسلةً من الخلل والعلل ، فأكرهت دول أوربا الدولة الاسلامية على قبول قوانينها ، ظناً منها أن الفساد آتٍ من الشريعة ، وما العيب إلا من جهل المنفذين لأحكامها ، وفساد أخلاقهم .

وقد شاهدنا تحسناً ظاهراً في قضاة الشرع ، لما أنشأت الدولة مكتب النواب في الاستانة ، وكان المتخرجون على أساتذته إلى الاستقامة والعلم أكثر ممن سبقوهم ، وعلى مثل ذلك شاهدنا القضاة في مصر لما أنشأوا يختارون الصالحين وكان في الجيل الماضي يتولى الاغمار القضاء . أما أنا فقد بحثت سيرة من أهمني أمرهم من القضاة منذ خمسين سنة فرأيت من نعدّه مستقيماً قد لا يتعفف عن قبول الهدايا من أرباب المصالح .

قصة لطيفة وقعت لقاض من أهل دمشق كان في دُومة من الغوطة . وكان مضحاكاً خفيف الروح والظل ، يحفظ كثيراً من النوادر والفكاهات ، أتاه ذات يوم رجل اسمه محمد عبد النافع ، أحد ظرفاء دومة بكتاب يقول فيه : إن الله خلقه بغير إرادته ، وأتى به إلى هذا العالم ولم يستشره ، وزين له أن يتزوج ففعل ، ورزقه أولاداً ليقرَّ بهم عيون والديهم ، فكانوا علة افلاس والدهم ، وشقاء والدتهم ، وإن فقره يزيد كلما زاد عدد أولاده ، فهو لذلك يلتمس من القاضي أن يجاب إلى محكمته العادلة المُدّعى عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى ليتقاضى وإياه . فرأى القاضي أن صاحب الدعوى من أصحاب النكتة ، فانتظر حتى أنجز أرباب الأشغال مراجعاتهم ، وأغلق باب المحكمة ، ولم يترك فيها غير الموظفين ، وطلب المدعي ، وهو والحاضرون يتكلفون الجدّ ، فسأله

من دعواه على الحق تعالى ، فقال : إن دعواه مكتوبة في القصة التي قدمها . فقال القاضي المدعي بعد أخذ ورد قليلين : هل تسقط دعواك ياشيخ ، إذا أعطيت من مال الله خمس ليرات وكيس طحين ؟ قال افعل . قال القاضي : أنا سائلك سؤالاً تجيبني عليه بصراحة ، فقال : الأمر لسيدي . فقال القاضي : جاء هذه البلدة قضاة كثيرون قبلي فلم لم تتقدم اليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك ممن تدعي عليه سبحانه ؟ فقال له : لم يكن القضاة الذين يقدمون لتولي القضاء في بلدنا مثلك ، كانوا يخافون منه ! فصفق الحاضرون تصفيقاً شديداً ، استحساناً لهذا الجواب . وربما قال القاضي في سره : إنه والله لصادق . فأنا أعلم من نفسي أن معظم القضاة لعهدنا لايخافون الله ، وهم لصوص تحمل رؤوسهم عمائم بيضاء ، وأن طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم من أموال اليتامى والأيامى .

وبلغني عن قاض ولي صفد فارلئى قبل أن يصل إليها بمبلغ عظيم . ونزل مدة في دار من تناول مالاً من خصومه ليسلبه ملكه ويعطيه لمن رشاه . وقد خلف ثروة طائلة انفقها أولاده بعده في سنتين . كنت أقول وأنا أرى هذه الرواميز من البشر المضر : إن المولى أخذ يجازي في العاجلة وينقد عند الحافرة ، وكان يجازي بالسيئة فيرجىء العقوبة إلى الآجلة . ورأيت عشرات ممن جمعوا أموالهم من القضاء خصوصاً ، رأوا في حياتهم خروج ما كسبوا من ايديهم ، وهذا من الجزاء العاجل .

العلماء يحترفون

إلى عهد قريب كان العالم يحترف ويعيش من كسبه، ويربأ بنفسه عن الناس احسان السلطان، وأكل أموال الأوقاف والمدارس والجوامع. والناس يرون طلب العلم فريضة، والأخذ منه بنصيب نافعاً في الدين. وقلّ أن يتطلب صاحبه مكافأة عليه في الدنيا، وإذا نفعه في حياته جاءت الفائدة منه مُزْدوجةً، وكل فرد يرى الأخذ عن المشايخ، والقاء الرجال شرفاً عظيماً.

كان بنو العمادي مفاتي دمشق، خرج منهم فقهاء وتسلسل الافتاء في بيتهم عدة بطون، ولما ضعف الأحفاد عن اللحاق بالأجداد، وأصبحوا وليس لهم من العلم إلا زيّه، صارت تصدر عنهم فتاوى ضعيفة تدل على جهل بالشريعة، وتتناقلها أيدي العارفين، وتعرض على الشيخ اسماعيل الحائك في جملة من تعرض عليه من أهل الفقه. وكان الشيخ اسماعيل حائكاً بالفعل، وهو فقيه حنفيّ محقق مشهود له بين أقرانه، ومعروف في بلده، فيبين وجه الخطأ فيها، ويدل على الصواب، والقول الصحيح، أخذاً من المراجع والامهات المعتبرة. ويبلغ المفتي اعتراض الشيخ اسماعيل على فتاويه فيغضب ويغضبُ جماعته، ولا يجدون للنجاة من تحكمه بفتاواهم باباً

وكان من عادة الشيخ اسماعيل أن ينقطع يوم الجمعة عن عمله في الحياكة، ويذهب في الضحى إلى الحدائق راكباً حماره، يحمل في خرجه ماياً كل، وكتباً يطالعها. وكان في طريقه إلى نزهته يجتاز بدار الفتوى غالباً، فاتفق في بعض الجمع أن صادف الشيخ وهو ذاهب إلى البستان، على باب آل العمادي، ابن المفتي وأخاه فسلم عليهما. فقال له أحدهما بتهكم وازدراء إلى أين ياشيخ اسماعيل، هل أنت ذاهب لأخذ منصب الفتوى؟ فأجابه الشيخ: أفعل إن شاء الله. ومضى الشيخ في طريقه، وتحوّل من سكة أخرى إلى داره فأخذ شيئاً مما كان

ادّخر من الدراهم ، ودفع لزوجه جانباً ، وسافر على حماره يريد الاستانة ، فبلغها في أربعين يوماً . وجعل يجلس في حانوت على باب الخان الذي كان نازلاً به . وعرف صاحب الحانوت وجيرانه ، أن هذا الرجل الشامي من العلماء ، فكانوا يحترمونه ويكرمونه . واتفق أن عُرضت على الدولة من بعض الدول الأجنبية ، فتوى تعذر على علماء الاستانة الاجابة عليها ، وقص بعضهم على الشيخ قصة الفتوى ، وعجز العلماء عن معالجتها ، وحمل الشيخ على الذهاب إلى أمانة الفتوى ، ليأخذ السؤال منها ويجيب ففعل . ولما عرض ما كتبه على شيخ الاسلام أعجبه ، فبعث يستدعيه ، وعرض جوابه على السلطان فسرّ كثيراً ، وصدرت إرادته بمنح الشيخ منحة عظيمة من الدنانير ، وقال لشيخ الاسلام : لا شك أن هذا العالم الكبير قدم العاصمة لغرض له يريد تحقيقه ، فاسأله ما شأنه وما يريد ، فقال الشيخ اسماعيل : افتاء دمشق وتدريس المدرسة الفلانية والوقف الفلاني ، فكتب له المراسيم بها . وعاد شيخنا الحائك على حماره حتى بلغ دمشق . وحدثته نفسه أن يجتاز بيت العمادي قبل أن يدفع كتاب السلطان إلى والي البلد بنصبه مفتياً ، فصادف على الباب أيضاً شقيق المفتي ، فسأله بتلهف أين كنت يا شيخ اسماعيل ؟ إنا لم نرك منذ زمن طويل . فأجابه ألست كنت قلت لي أن آخذ الفتوى ؟ فأنا عملت بقولك فوجهها عليّ السلطان ، فسقط في أيدي بني العمادي ، وذهب الحائك العالم بالافتاء ، وخصومه يظنون أن منصبهم يدوم لهم بالجهل آخر الدهر .

أدب

دعاني السيد توفيق البكري نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية إلى تناول طعامه في سرايه في الخرنفش بالقاهرة المعزية ، فرأيته متكلماً منطيقاً ، حلو الحديث ، يمت الى الأدب بصلة قوية ،وهوأقرب الى أن يكون شاعراً منه إلى أن يكون ناثراً ، وأدنى إلى أن يكون أمير مجلس من أن يكون رجل سياسة . يجيد الفرنسية اجادة حسنة ، ويجمع بين معرفة القديم والحديث .

وسألت عنـه استاذه الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، وكنت أعلم أنه أخذ عنه كثيراً ، وأن بينهما صحبة وثيقة فقال لي : ما رأيت رجلاً فتح الله عليه بغلط مثل توفيق البكرى في كتابه أراجيز العرب ، فهو من أوله إلى آخره مغلط . وهـذا كلام غضبان ينطوي على كثير من المبالغة . ومما قال لي الشيخ الشنقيطي في ذاك اليوم : انه ليس في مصر من يفهم كلام العرب غير اثنين (الشيخ محمد عبده) و (أحمد تيمور بك) — وأظنه سمى شخصاً آخر نسيته - وهـذا أيضاً من المبالغة بمكان .

بعث الي السيد توفيق البكري ذات يوم يستدعيني إلى داره لغرض مهم . فذهب الفكر حالاً إلى أنه يريد أن يستنصرني في مسألة له خاصة وقدم لي مبلغاً من الجنيهات لمعاونتي على اصدار مجلة المقتبس . فقلت له : يا صاحب السماحة — وكانت رتبته باية استانبول — إن المجلة رأس مال ودخلهـا يفي بخرجها ، وشكرته ، وظهر علي الانقباض . ثم التفت وقلت له : ثق أن جريدة الظاهر — وكنت رئيس تحريرها — لا تدخل في مسألتكم وهذه مسائل لا تنفع القراء ، وليس من مصلحة الجريدة أن تخوض فيها . فسر بذلك ، وانصرفت ولم ألقه بعدها.

كان السيد البكري على جانب عظيم من الذكاء ، وضع عدة كتب في الادب ، ونشر في الصحف والمجلات نظماً ونثراً ، وكان عظيم الهمة في الطبع والنشر . وأحب أن تقرأ أسفاره في الشام ، فدفع الي عدة مجموعات منها أرسلتها إلى أصحابي .

والظاهر من حاله أنه كان يحب المغامرات السياسية ، أثر الجهد في مجموعته العصبية، فاستلزمت صحته ان يصرف عدة سنين في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان ، عاد في آخرها إلى مصر فمات فيها . ولو كان عقله على نسبة ذكائه ، لجاءَ منه رجل ينفع مصر كثيراً .

ليس من اشتهروا في القاهرة هم كل رجال مصر فهناك في الريف من اصقاع الفلاحين ، الوف من فضلاء القوم امتازوا بصفات طيبة ، وعلم جمّ ، وأدب غزير وهم لم يشتهروا ، ويذهبون من هذا العالم ولا يعرف بهم أحد ، وما زلت أهتدي إلى أناس من هذا القبيل كلما زرت بعض ضياع الوجه البحري والوجه القبلي وتحدثني نفسي أن بعض من اشتهروا كانوا مدينين بشهرتهم لنزولهم العاصمة ولاعتبارات اخرى تنشأ بالضرورة في البلدان الكبيرة .

دعاني صديقي عبد المعطي حسين عمدة الصوالح في الشرقية يومئذ (أي قبل أكثر من ثلاثين سنة) مع استاذي الشيخ طاهر الجزائري ، وصرفنا عنده ثلاثة ايام ، فكان يزورنا كل يوم شيخ من قرية قريبة من الصوالح أنسيت اسمه واسم قريته (عرفت بأخرة ان اسمه الشيخ حسين ابو مكي) وكان في نحو الستين من عمره ، يذاكر شيخنا في مسائل عويصة من العلم تدل على تبحره في الشرع وشدة حرصه على نشدان الحقيقة ، فسألته عن ترجمته ، وانا متعجب من حاله ، فعلمت انه يعيش من زراعته ، وانه درس في الازهر حباً بالعلم والتفقه بالدين فقط ، ولم يأت القاهرة منذ عهد الطلب ، وشهد الله اني ما عددت عليه خرافة واحدة على كثرة ما افاض فيه من الاحاديث خلال الايام الثلاثة التي لزمنا فيها وسلانا . ومن العجب الا يظهر مثل هذا العالم بالمظهر الذي يليق بعلمه ، ولا يعرف قدره حتى اهل قريته . وكم في المغمورين من هم افضل من النابهين .

وكم في العرس ابهى من عروس　　　ولكن للعروس الدهر ساعد

أمي صاحب أخلاق

تولى ولاية سورية على العهد العثماني وال اسمه حسن باشا . وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، قيل انه كان مصارعاً عند السلطان عبد العزيز . وكان طيب القلب ، نقي السريرة ، لا يحب الحاق ضرر بأحد . هذا الوالي الأمي دفع عن سورية غائلة عظيمة ، لما جيء به من بغداد إلى دمشق ليحقق في قضية جمعية سرية كانت فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي . وكان دخل فيها نحو ثلاثمائة انسان فيما أذكر في دمشق فقط . وأدمجني رفيق بك العظم في جملة الداخلين على صغر سني يومئذ ، وأنا لا أعرف إلا من أدخلني ومن أدخلته بعدي .

كان المشير عبد الله باشا قائد الجيش الخامس يؤكد وجود الجمعية ، ويؤيد رأيه أحد كبار الاعيان ، واتفقا على أن الجمعية تبدي نشاطاً كبيراً في بث دعوتها ، وأن برنامجها مضر بكيان الدولة . فلما جاء حسن باشا كذب المشير وصاحبه تكذيباً قطعياً ، وزيف تقاريرهما إلى المابين ، وأطفئت المسألة وخفت صوت الجمعية وصار للوالي حظوة عظيمة في ولايته ، ولولا سياسته لخربت عشرات من البيوت ولامتلأت السجون بالمجرمين السياسيين ، هذا ما تم على يد أمي بصير . وكان هذا الوالي سأل كبيراً من علماء بغداد أن يدعو له فقال له : بصَّرك الله بالعواقب ، فكان حقاً من البصراء بالعواقب .

كنت في تلك الاعوام كاتباً في قلم الامور الاجنبية فشهدت نجلَيْ ذاك الوجيه يكثران من زيارتي . وقال أحدهما يوماً هازئاً بمن يطعن على والده لطوعه في كشف سر الجمعية ان هـذه وظيفته . وهو يفاوض المابين مباشرة بالارقام ، ولاتسل عن حراجة مركزي يومئذ ، وعما كان يلقيه عليَّ أحدهما من الاسئلة ، فكنت أتباله ، والتباله ينفع في مثل هذه الأحوال ، وأتحاشى معهما الخوض في شيء اسمه سياسة حتى مضت الأعوام الطويلة ، وما عرف صاحباي أني رب شبهة ولله الحمد . وأم ما كان يعجبان به أني كنت متمكناً من الفرنسية . ومعرفة المسلم

الفرنسية في ذاك الدور كانت تعد منقبة عظيمة . وقد طلب مني والي الولاية حسن باشا أن أدرّس ابنه النجيب هذه اللغة ، فكنت أكرر له اللفظة أربعين مرة فينساها في المرة الحادية والاربعين ، فغضبت على اليوم الذي تعلمت فيه هذه اللغة ، وما جنيت منها إلا تشهي الولاة عليّ كل حين تعليم أولادهم .

كان ذاك الوجيه شريك المشير في القول بتأصل حزب الاتحاد ذكياً منوراً غير محدود العقل . وكان بعض الاعيان يتنافسون في كسب رضا رجال الاستانة والتقرب من قلوب عمال الدولة في سورية ، وعلى ذلك كانت تتوقف مظاهرهم ، وبغير هذه الاساليب لاتحمى ثروتهم . وأذكر أن والدي ابتاع لي كتباً من احدى التركات ، وكانت تباع التركات في الجامع الاموي بعد صلاة الجمعة ، وغرّم فيها ألفاً وخمسمائة قرش فبلغ ذاك الوجيه الخبر ، وجاء إلى دارنا في المساء ، وكان يعرف والدي وله به صحبة فطلب إليه أن يعطيه الكتب أو بعضها على سبيل العارية فأبى والدي أن يدفعها إليه وقال له : إنني اشتريتها للصبي يتعلم بها ، ولا سبيل إلى أن أخرجها من خزانته حتى لا أكسر شوقه . وقال لي بعد انصرافه : يا ولدي لو دفعناها إليه ما عادت إلينا .



اجتماعات مفيدة

كنا جماعة نجتمع على قراءة كتاب بعض ليالي الأسبوع ، يكون موضوعه الدين أو التاريخ أو الأدب ، فاذا فرغنا من المذاكرات العلمية تجرنا الاحوال إلى البحث في الشؤون السياسية ، وكان اجتماعنا في بيوتنا ، وفي مدرسة عبد الله باشا في غرفة محمد علي افندي مسلم ، وكان على جانب عظيم من الأدب والتهذيب ، ومن أخصاء شيخينا سليم افندي البخاري والشيخ طاهر الجزائري روح تلك الجماعة . وكان يدعي صداقتنا كلنا أحد رجال الشرطة والظاهر من حاله أنه يحب الجماعة ويعشق الاجتماع بهم ، وان نفسيته ليست نفسية شرطي يعمل لحساب الشرطة التركية ، وينقل إليها أخبار جماعتنا ، وكثيراً ما كان بعضهم يفتح قلبه وينطلق حراً في كلامه . وأظن الكبار منا يومئذ بعلمهم وتجربتهم ما كان يخفى عليهم أمره ، وما استطاعوا دفعه عنهم خيفة أن ينبهوا الانظار اليهم ، وعندها لاتؤويهم دمشق ، ويُشتتون تحت كل كوكب ، وهذه القاعدة في تأليف قلوب أصحاب الاخبار كثيراً ما كان يعمد اليها أصحابنا وأنا أنابذهم عليها مكرهاً ، فكنت أبش في بعض وجوه بعضهم وقلبي يلعنهم .

كان هذا المجلس نافعاً من كل وجه ، كأنه مبعث دعاية إلى الحق والنور في عاصمة ماخلت في كل عصور الاسلام من علماء عاملين ، يرمون ببصرهم إلى بعيد ، ويرون من واجبهم أن يعملوا للأمة كل مفيد . وكان بعضهم ينظر إلى هذه الجمعية نظر الريبة ، وتذهب الظنون في الحكم عليها مذاهب ، وكلما كانت المطاعن توجه إلى القائمين بها يزيدون تألفاً وتماسكاً . وعقل الشيخين الرئيسين يرد عنا ضربات أصحاب الاغراض ، ويقيها شر الدساسين والسائسين وكان معظم الطاعنين يعرفون مايجري فيها من الاحاديث النافعة ، وما يلقي فيها من النكات والبدائع ، فتشتاق نفوسهم إلى الانضمام إلى أربابها ، ولا يتيسر لهم ذلك .

عرف بعض الأعيان أن جماعة أكثرهم من العوام ، يجتمعون عند أحد التجار مرة أو مرتين في الأسبوع ، برياسة شيخنا السيد محمد المبارك وأن من جملة من يضم هـذا المجلس استاذ الشيخ المبارك الشيخ طاهر الجزائري . وكان ذاك الوجيه يكره الشيخ طاهراً كما يكرهني . فأرسل أحد خاصته ينبه على صاحب البيت الذي يختلف اليه الجماعة ، وكان تاجراً متمشيخاً متصولحاً ، فقال له في سر ، إن الوالي غاضب غضباً لا مزيد عليه على الشيخ طاهر وعلى تلميذه كرد علي ، فمن كلمهما يستهدف لغضب الوالي وغضب الوالي من غضب السلطان ، وغضب السلطان من غضب الله ، فكلم التاجر شيخ الجماعة وتعاهدوا في الحال على ألا يكلمونا — وانا لم أدخل مجلسهم قط ولا أعرفهم إلا من بعيد — ولم يلبث الدخول في هذه المؤامرة غير صديقين لنا السيد عبد الباقي الحسني ، ومحمد افندي الحكيم ، فأخذا يتعمدان الاكثار من زيارتنا أكثر من قبل . وما لبث شيخنا المبارك أن تبين له تعجله في تصديق الدساسين ، وأدرك كيف حيكت الدسيسة . وكان للشيخ طاهر يد طولى في كشف المؤامرة ، وما خلت من نكات أضحكت جماعتنا وتلهوا بها زمناً . ذكرت هذا نموذجاً من أخلاق الأعيان .

وزار الشيخ طاهر على أثر الفتنة الفاشلة مدينة القدس ، وعاد يثني على أهلها ، فعجب الحاضرون من المبالغة في مديحهم ، وكلهم يعرف أن المقادسة لا يمتازون بشيء عن غيرهم من سكان مدن الشام . فسأله الأمير شكيب ارسلان ، وكان حاضراً في الجلسة : يامولاي وما وجه تمييز اهل القدس عن غيرهم ، وانا ارى ان اهل دمشق احرى بهذا الثناء . فأجاب الشيخ : اهل القدس جهلاء ويعترفون بجهلهم ، ويحبون ان يخرجوا منه ، فيحاولون ان يتعلموا اما غيرهم من اهل المدن الأخرى فانهم لا يدرون ولا يدرون انهم لا يدرون . فجهل المقادسة إذاً جهل بسيط وجهل غيرهم جهل مركب . فرفع شكيب يديه إلى السماء ، وقال : اللهم ارزقنا هذا الجهل البسيط . والشيخ يقصد من ذلك شحذ الهمم ، والقاء المنافسة بين البلدان لتهب نحو العلا .

شعراؤنا

الشعراء الخمسة المجمع على تقدمهم البارودي فصبري فحافظ فشوقي فمطران .
كان البارودي مجدد ديباجة الشعر الحديث وكان صبري مثال الرقة في الشعر وحافظ آية الجزالة والوطنية الملتهبة وشوقي أمير الشعراء حقاً خاض في موضوعات لم يخضها أحد قبله من شعرائنا ، ومطران أدخل في الشعر العربي روحاً جديداً وكان آية الابداع في كتابته وشعره وأحسن مابه أنه الشامي الوحيد الذي نزل مصر وتمصر وما عدت عليه غلطة فكان مخلصاً لوطنه الثاني اخلاصه لوطنه الاول . واذا قلت ان صديقي الابر خليل مطران هو أول من رفع رأس الشامي في مصر وكان مثال المروءة والفضل لا أعد مجازفاً .

أما شعراء الشام والعراق فكثير عددهم وممن قرأت من المتأخرين شعرهم واعجبت به خير الدين الزركلي بشارة الخوري فؤاد الخطيب شفيق جبري خليل مردم بك عمر أبو ريشة محمد سليمان الاحمد (بدوي الجبل) ومن العراقيين رضا الشبيبي معروف الرصافي جميل صدقي الزهاوي وكل قصائد هؤلاء النوابغ مما يرقص ويطرب ويعلم ويهذب .

شر أصبح خيراً

وقع في ملك الخديوي اسماعيل جزء عظيم من أراضي مصر رأى أنها تحتاج إلى ترعة ترويها وكان أكثرها ماعرف الريّ منذ عرف التاريخ وأهلها يموتون بقربها عطشاً والنيل على مقربة منهم فعمد الخديوي إلى الطرق التي ماعرف الناس غيرها إلى ذاك العهد وهي السخرة فسخر الفلاح وكانت السياط تنهال على أجسام الفلاحين وهم يفتحون لغيرهم ترعة لاينالهم منها أدنى خير وتقلبت

الاحوال وتنازل اسماعيل عن عرش مصر وكان الاحتلال فرأى اللورد كرومر مصالح مصر أن هناك أراضي واسعة ربما بلغت نحو نصف المزروع من أرض القطر المصري يومئذ وكان اسماعيل عجز عن ادارتها وما كانت لتغل له ما ينفق عليها فاستعان بالدائنين من الافرنج فما هي إلا أعوام حتى آلت إليهم ملكيتها وهم أيضاً ما عرفوا كيف يدبرونها . فكان رأي كرومر هو الصواب قسمها وباعها من المصريين فعاد إليهم ملك كان خرج من آبائهم بطرق غريبة وانتفعت مصر كلها بترعة الابراهيمية وهي ترعة صناعية طولها ١٥٠ كيلو متراً تمشي على وجه الارض بعض الاحيان تمتد من ديروط إلى عمل اسيوط إلى الجيزة في حيطان القاهرة ، أصبح ذاك الثمر بعد نصف قرن خيراً لمصر .

فقيد السياسة الغالي

احتفلت الجمهورية السورية بمرور سنة على وفاة الزعيم العظيم السيد سعد الله الجابري رحمه الله واشتركت البلاد العربية بهذه الذكرى ذكرى عظيم خدم استقلالها .

وقد تلي في الجامعة السورية مقر الاحتفال من ضروب المنظوم والمنثور كل جيد واثبتت الأمة أنها تقدر رجالها أقدارهم .

خرج صديقي سعد الله من الدنيا ولم يخلف سوى ثيابه واسماً لا يبلى وكان شقيقه الاكبر الصدر المقدم السيد فاخر الجابري هو الذي يتولى الانفاق عليه لأن ماتؤديه اليه الامة ما كان يكفيه للصدقات أما أجور الفنادق وسائر نفقات الفقيد الباهظة فكان يسددها السيد فاخر وما زال بنو الجابري في حلب منذ أيام الترك يحملون مشعل الوطنية العربية وقد عانوا في سبيلها أشد الآلام وما التوى لهم عصب وظلوا على ما توجبه المروءة قدوة من أحب وطنه وعرف واجباته .

مايغلب على مدن الشام

عنوان مستغرب وأغرب منه الحكم الذي نحكم به الآن في موضوع يصعب الخروج منه واعني به الغالب على كل مدينة والظاهر من التجانس في كل بلد . فاهل دمشق لا كلمة فيه إلا للمسلمين وسائر الطوائف تتبع لهم في السراء والضراء وأهل حمص يشترك مسلموهم ومسيحيوهم مشاركة قوية لان الكلتا الطائفتين غنى وله رجال وأهل حماة لاشأن فيه لغير المسلمين وأهل حلب يتقاسم المسلمون والمسيحيون السلطان شق الأبلمة ولا أرى أجمل من تجانسهم واحترام بعضهم بعضاً وهذا قديم فيهم وبقى متسلسلاً في أصولهم وفروعهم إلى اليوم . لذلك وقى الله بلدهم شر الدسائس السياسية فلم تقم بها مذبحة ولم يكد يعتدي مواطن على مواطن كما حصل في دمشق وبيروت سنة الستين وبعدها وقبلها وأهل طرابلس نموذج المواطنين الخلص الوطنية الصحيحة وان كان أكثرهم مسلمين لايشعر كل ساكن فيها إلا أنه أخ لمواطنه حقيقة وأهل اللاذقية ديمقراطيون بكل مافي الديمقراطية من معنى شريف كأن صنيعهم هذا تكفير لسيئات الارستقراطية المتأصلة في جبالها وأهل بيروت كسائر المدن التجارية في حوض البحر المتوسط مشاغيل بتجارتهم لاتهمهم السياسة إلا إذا مزجوها بالتجارة والتجانس نقل فيهم . ولما كان المسيحيون أكثر تعلماً كانوا بالطبيعة المسيطرين على المسلمين وإن كانت الاغلبية في لبنان للطوائف الاسلامية وفي يافا الكلمة الاولى للمسلمين وفي القدس وتل أبيب لليهود وكذلك يقال في حيفا . وعكا وصفد اسلاميتان والناصرة نصرانية ونابلس وغزة اسلاميتان وهكذا كل بلدة يغلب عليها السواد الاعظم سنة الله في خلقه .

انصاف آلهة

كثيراً ماانتقدت في باطني ما أراه من اعتزال بعض أعضاء الاسرة المالكة في مصر يشيحون بوجوههم عن الرعية كأن لسان حالهم أنهم من عنصر غير عنصر الامة التي هم بعض أفرادها وما ميزهم عنها إلا كون جدهم الاعلى كان له الفضل الاعظم على مصر واشتغل لمصر فقط لا لنفسه خلافاً لاكثر أخلافه . نعم اشتغل أكثرهم بانفسهم فما أغنوا أنفسهم ولا أمتهم على نقيض ما كان من الامير عمر طوسون رحمه الله فان هذا من الشذوذ فيهم ببصيرته وهديه . ويسرني أن بعض أبناء هذه الاسرة الكريمة طلقوا العزلة فى العهد الاخير واختلطوا بسواد الشعب وعدوا أنفسهم خدمة للعملة وأرباب الصناعات والحرف والطبقات التي يسمونها النازلة وهي سواد الامة والحجر الاول في بنيانها ، والرجاء أن يجري سائر أفراد البيت الملكي على هذه الطريقة لينفعوا وينتفعوا . وأنا على حساب نفسي آليت ألا أسأل عن أحدهم وكان صديقاً لي ويظهر لي التودد العظيم إذا قصدته واجتمعنا . ولكن ما كان يسأل عني ولو غبت عنه سنين فهو من الضرب الذي يجوز أن نسميه انصاف الالهة كأنه نسي إن ما كان يمثل في الماضي لايتأتى الآن تمثيل مثله وأن القلوب لاتستمال إلا بالعطف . وان كل إنسان في غنية عن الآخر مادام البشر كثيراً عديدهم . وما جزاء الاحسان إلا الاحسان ،وإن من لايعمل الخير بدافع نفسي لايجمله في نظر الامة شيء .

التطويل فى المقالات

زرت الاستاذ عبد القادر حمزة صاحب البلاغ في إدارته فجاء ابنه محمد فقلت له اريد أن ألفت نظرك إلى المقالات الأدبية التي تكتبها في البلاغ كل اسبوع فانها مطولة جداً وما اخال احداً يقرؤها واللغة العربية لغة الايجاز وأنت لا تكتب قصة ولا رواية تتوسع فيها لتأخـذ من وقت القراء فهلا عودت نفسك الاختصار ما أمكن فلو كتبت ثلاثة أعمدة بدلاً من ستة لكان الأمثل بك ولماذا لا تقتدي بوالدك وايجازه في أدق الموضوعات السياسية وقد كان بطريقته هذه العامل الأول في اسقاط وزارة من أرسخ الوزارات واكفاءها فقال عبد القادر حمزة اسمع يا بني نصيحة الاستاذ الحكيمة واجعلها منهاجك في حياتك الصحافية تنجح بحول الله .

الرافعى مؤرخ العصر

طالعت كل ما خطته انامل الاستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخ مصر الحديث فرأيت امانة المؤرخ وبحث العالم ونظر السياسي متجلية في كل صفحة من صفحات كتبه . ولقد حاول بعضهم ان يكتبوا في تاريخ مصر ومنهم حملة الشهادات العالية من جامعات الغرب واساتذة في جامعة مصر فما افلحوا وكانوا ان تمت لهم الادوات تخونهم التجربة فينقلبون نظريين لا عمليين ومنهم من عد التاريخ باباً من أبواب الرزق فكتب تاريخاً في سيرة بعض الولاة المتأخرين في مصر كان في كل صفحة ينادي على نفسه بالغلو والمراوغة ومنهم الافاقون أشبه بمراسلي الصحف اليومية لا يهمهم ان يكذبهم الواقع ولا تحمر وجوههم إذا انكشف كذبهم ولذلك حق لي أن أقول أن حبيبي السيد الرافعي هذا هو مؤرخ العصر الحديث في مصر بلا مراء بل مؤرخ الأقطار العربية لأننا لم نطلع على تواريخ لها تروي الغلة من كل وجه وإذا جود بعضهم في ناحية فالمخرقون أوفر عدداً على مارأيت .

تمثال تيمور

لقيت اسماعيل باشا تيمور في قصر عابدين وذكرته بما اقترحه يوم ذكرى والده في اوبرا مصر (فبراير ١٩٤٥) من اقامة تمثال له وحضضته على العناية بهذا الأمر المهم الذي يحفز الشباب إلى السير على أقدام الشيوخ فبكى وقال لي لم أجد أحداً وفى لوالدي مثل ما وفيت له أنت فأجبته لو كنت ُمت قبل أبيك لقام نحوي بأكثر مما قمت أنا نحوه . بدأت مصر باقامة تماثيل للسياسيين الوطنيين وهي بعيدة اليوم عن اقامة تماثيل للعلماء العاملين ولو كانوا من عيار أحمد تيمور باشا قضوا حياتهم كلها في عمل الخير ونشر العلم وما فكروا فيما سوى ذلك .

أما الاقتراح فقد كتبته إلى صديقي الشيخ خليل ثابت بك رئيس لجنة الاحتفال ورئيس تحرير المقطم الذي جعل من هذه الجريدة مدرسة سيارة تعلم قارئها سياسة الدول والامم ولا تطالعه بغير المعقول .

عزيزي الاستاذ خليل بك ثابت المحترم

تفضلت وطلبت اشتراكي في إحياء ذكرى صديقي العلامة « أحمد تيمور باشا » رحمه الله . وإذ قد سبق لي أن دونت كل ما عرفته من سيرته الخاصة والعامة لم أرَ الآن أن أشغل الناس بحديث معاد . وغاية ما أرجو أن ينجلي اجتماع يوم الذكرى عن تحقيق أمنية من عرفوا جهاد تيمور المظيم في خدمة الادب وذلك بطبع كل ما خطته يمينه من كتب ورسائل ومقالات وتعليقات . وإذا صحت النية على البر بعلم الاعلام فخير ما يكون منه لعلم المصريين أن يقام له تمثال ينصب أمام مجمع فؤاد الاول للغة العربية عنواناً على الاعتراف ببيض أيادي ابن مصر البار على هذه اللغة وعلى تاريخ الاسلام .

والسلام عليك أخي

محمد كرد علي

الشاميون في مصر

كتب إليّ أحد شبان الدمشقيين من نزلاء مصر، وأنا في تحرير «المؤيد»، يرجو أن أعاونه في الجريدة على تأليف جمعية سورية اسلامية تتولى من الشاميين في القطر المصري ما تتولاه جمعيات البر والاحسان التي يؤلف مثلها النزلاء الاجانب فنصحت له أن يعدل عن هذه الفكرة لأن الشاميين المسلمين في مصر ينزلون على اهلهم وعشيرتهم، اما غير المسلمين من اهل الشام، فان شعَر بعضهم بالغربة في مصر فذاك لأن منهم من جاؤا القطر واستخدموا في اعمال آلمت المصريين، كوظائف الأمن العام وغيرها (ومنهم افراد كانت لهم علائق غير محمودة مع ارباب المقامات المالية خلفوا بها الوفاً من الفدادين وعقارات كثيرة، وتمتعوا بأضخم الألقاب) فأبغضهم المصريون واستثقلوا ظلهم.

ولما نشر هذا الرأي حملت عليّ كل جريدة فيها يد للبناني، وانحوا عليّ انحاء شديداً، وزيفوا اقوالي، وعتبوا عليّ أن وصمتهم بما وصمتهم، فحمدت لهم تماسكهم ودفاعهم عن ابناء مذهبهم، وتمنيت لو كان المسلمون في كل ارض على مثل هـذا القدر من التعاون. وما انقذني من ايدي المحررين الذين كتبوا فيّ ما كتبوا إلا الشيخ طاهر الجزائري واحمد زكي باشا ومما قاله زكي باشا في معرض الدفاع عني، لينقذني من مخالب المهاجمين: إني لم ارزق حظاً من التعبير فيما كتبت فبدت مقاتلي.

وحقيقة اني ما زلت اكره التمييز بين سوري ومصري ومغربي، لمضرة هذه التفرقة بين شعوب لا فارق بينهم في الحقيقة. ولقد زرت مع بعض اصدقائي السوريين ناديهم في شارع وجه البركة بالقاهرة فأنكرت على جماعته تسمية ناديهم بالنادي السوري وعددت هذا هضماً لحقوق مصر في مصر. وزاد انكاري لما عرفت انهم ما ادخلوا معهم احداً من المصريين، بدعوى ان السوريين المسيحيين يأتون مع نسائهم إلى النادي، والمصريين يحضرون وحدهم، فقلت لصاحبي: إنكم

بذلك تسيئون لانفسكم اكثر مما تسيئون للمصريين ، فان تباعدكم عنهم يضركم وقد لا يضرهم ، اما وقد هاجرتم من بلادكم هجرة قطعية ، ومنكم من هاجر من مئة وخمسين سنة ، مثل اجدادك انت (اي مخاطبي) فلا معنى للاحتفاظ بالثوب القديم بل حسبكم الجديد وعليكم العناية به ، حتى يطيب العيش مع اهل القطر بامتزاجكم بهم فتفيدون وتستفيدون . وإني اعرف رجالاً من الشاميين قضوا في مصر اربعين سنة واغتنوا فيها وتناسلوا ، وعظمت مظاهرهم ، وما عرفوا من المصريين إلا ظواهرهم ، فأي جفاء اعظم من هذا الجفاء ؟ .

ولطالما تألمت نفسي في مصر والشام ممن ينشيء نادياً او جمعية يسميه او يسميها بالكاثوليكية او المارونية او الارثوذكسية او القبطية او الاسلامية او العلوية او اليهودية ، . وكل ذلك تفرقات لا معنى لها في هذا العصر .

ظلّ المصريون اي سوادهم الاعظم إلى عهد قريب يعتقدون ان الشاميين ليسوا سوى اللبنانيين الذين جاءوا مصر ، وتاهوا وباهوا على عهد الاحتلال الانكليزي ، ذلك لأنه قلّ المهاجرون من مسلمي الشام من الطبقات الصالحة ، ولما هاجرت طبقة راقية من المسلمين ، أدرك المصريون أن الشام على غير ما كانوا يتخيلون ، وأن لبنان جبل من جبال الديار الشامية اقتضت سياسة أوربا ، وتنافس البروتستانتية مع الكثلكة أن يتعلم فتعلم قبل غيره . وأن في رجال الاسلام أناساً يفكرون تفكيراً صحيحاً ، وينشرون الجرائد والمجلات ، ويعرفون معنى المدنية ويتذوقونها ويدعون اليها .

قال أحد المفكرين إن مصر لم يجئها من الشمال إلا فاتح . ومن الغرب إلا صاحب طريق ، ومن الجنوب إلا خادم ، ومن الشرق إلا تاجر ، وهو كلام في جملته صحيح يثبته الواقع ، فالسوريون أتوا مصر تجاراً ولذلك يستثقل ظلهم بعض المصريين . وقد ادعى عميد الاحتلال لورد كرومر في بعض كتبه في مصر أن الجالية السورية فيها أرقى من جميع الجاليات بتهذيبها وترتيبها ، وأظنه تشيع لهم بعض التشيع ، وقصد بهذا الثناء مكافأتهم على حسن خدمتهم لدولته ، فحكم على المجموع بما لقيه من رقي أفراد .

لولا لائحة رياض باشا التي تحظر على غير المصريين الاستخدام في وظائف الحكومة المصرية إلا بشروط ، حتى لا يحرم المصريون التوظف ، لزاد عدد السوريين كثيراً في خدمة مصر . وعادت هذه اللائحة مع هذا على السوريين بفائدة عظيمة ، فتعلقت هممهم بالتجارة والزراعة ، وانصرفوا عن الاستخدام إلى الاعمال الحرة فاغتنوا ، وجاء زمن وقد بلغت ثروتهم في مصر خمسين مليون جنيه أو عشر ثروة القطر المصري ، وذلك قبل أزمة سنة ١٩٠٨ .

ومما كان يؤلم المصريين دعوى بعض الشاميين أنهم حملوا إلى المصريين النور والعلم ، وكانوا من قبل في عماية وجهل ، لا يقيمون وزناً للمدنية . وهي دعوى غير صحيحة كررها بعض اللبنانيين كثيراً ، وما زالوا يكررونها حتى اعتقد السذّج من بينهم بصحتها ، فان المصريين ، والتاريخ ناطق بذلك كانوا سائرين نحو المدنية قبل الشاميين بعشرات من السنين ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمذاهب التعلم والتربية منذ فجر القرن التاسع عشر ، وقد أنشئت مدرسة الطب واللغات عندهم منذ أكثر من مئة وعشر سنين .

والشام لم يعهد فيها شيء من علوم الحضارة الحديثة قبل أن وافاها المرسلون الأجانب بكثرة ، عقب مذابح سنة ١٨٦٠ ثم انشئت المدارس في لبنان ، ومن أهله من تعلموا في مدارس الاميركان البرتستانية ، ومنهم من تعلموا في مدارس الفرنسيين الكاثوليكية . وبالاحتلال الانكليزي ١٨٨٢ كثر تسلل اللبنانيين إلى مصر ، فمنهم من كان يستخدم في الحكومة ، ومنهم من يترجم في الصحف ، أو يستخدم في بعض المصارف والشركات كاتباً أو محاسباً أو وكيلاً أو سمساراً ، وكان المصريون في ذاك العهد يقبلون على التوظف في الحكومة ، ويفضلون الوظائف على غيرها من مذاهب المعاش ، ومنها الصحافة .

فلما امتلأت الشواغر في الدواوين ، انقلب المصريون نحو الصحافة فأنشأوا جرائد ومجلات لا تقل بمكانتها ومظهرها عن الجريدتين اللتين عاونتهما فرنسا وانكلترا ، ولا عن المجلتين العظيمتين اللتين عاشتا بمعونة وزارة

المعارف . وما كان « المؤيد » و « اللواء » من حيث التحرير يقلان يومئـــذٍ مكانة عن « الأهرام » و « المقطم » ، ولا تقل مكانة مجلة « الثقافة » و « الرسالة » اليوم عن مكانة « المقتطف » و « الهلال » ، فليس من الانصاف والحالة هذه أن يقال : إن الشاميين علموا المصريين ، وقد سبق المصريون إلى إنشاء الصحف والمجلات ، وما حال دون اطراد صدور ما صدر منها إلا داء التوظف ، وما زالت عقـابيله متجلية فيهم إلى الآن ، وهو من أمراض مصر وقاها الله منه .

الاشتغال بالصحافة

بدأتُ أقرأ الجرائد العربية في الثالثة عشرة من عُمري ، وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية . وبعد حين اشتركت بجريدتين (بيروت) الأسبوعية و (لسان الحال) نصف الأسبوعية . وما كان يصدر في دمشق إلا جريدة (سورية) الرسمية الأسبوعية ، وهي ذات وجهين ، وجهان منها بالتركية ، ووجهان بالعربية ، وعربيتها مترجمة عن التركية ، مثال الركاكة وضعف التركيب ، تُنشر فيها الأوامر الرسمية ، وما يسرّ الوالي من أنباء حكومته وإعلانات المحاكم .

وأولعت بمطالعة لسان الحال لأن فيه أخباراً طريفةً معربةً عن الانكليزية ، وفيه مناقشات ومساجلات وأدبيات ، واشتركت لما كنت في السنة الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة افرنسية أسبوعية تصدر في باريز اسمها (صديق الريف) L'ami de la Campagne ، وكان أهم مباحثها الزراعة وما إليها ، تُحبب سُكنى الأرياف لسكان المدن ، وفيها من كل فن خبر ، فشُغفتُ بدرسها ، وكنتُ أقرؤها قراءة تدَبرٍ لا قراءة تفكه ، وقد أتصفحها مرتين وأكثر ، حتى يجيءَ العدد الجديد . وأطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الاستانة ، ولا سيما المجلات الأدبية والتاريخية . وقد أقرأ بعض المقالات التي تروقني أكثر من مرة ، ولا سيما مقالات كبار الكتاب المفكرين في السياسة والاجتماع . وما بلغت السادسة عشرة حتى أخذت أكتب أخباراً ومقالات في الجرائد .

ما كنت أظن أن هذه البُداءة تنتهي بي إلى الغرام بالصحافة ، وبلغ بي الحالُ أن أحرر أولَ جريدةٍ ظهرت في دمشق ، وأطرد صدورها مدة ؛ واسمها « الشام » ، كانت تصدر أسبوعية لصاحبها مصطفى أفندي واصف (الشقللي) ، مدير مطبعة الولاية ومدير إطفاء الحريق .

وفي مطبعة الولاية كان يطبع جريدته . ولم يكن يُحسنُ الكتابة بالعربية فاتكل على صهره أديب أفندي نظمي (الطنّاحيّ المصري) ، وكان هذا يُلفّق بين جمل يحفظها لبعض الكتاب المحدثين ، ومنها عبارات لأديب إسحاق ، ويصوغ من عنده بعض جمل . واتكل أيضاً على إسماعيل أفندي النابلسي من أبناء الأعيان . وكلا الرجلين لم يدرس آداب اللغة العربية الدرس المطلوب ، ولا أرَب له من تحرير الجريدة إلا أن يتخذ منها سلماً إلى الترقي ، ووسيلة إلى التقرب من قلوب بعض من يهمه التقرّب منهم . وكلا الرجلين كان في القضاء ، ويعرف القوانين والأنظمة المتعارفة ، ويتكلم بالتركية ويكتبها . وإسماعيل النابلسي من أحفاد الشيخ عبد الغني النابلسي عالم دمشق في المئة الثانية عشرة .

مَلّ صاحب « الشام » على ما قال من إعنات هذين المحرّرَين له ، فعهدَ إلي بتحرير جريدته . ولما أخذتُ بالنقل عن التركية والفرنسية شعرتُ بخطورة العمل الذي وُسد إلي . وأشدّ ما كان يؤلمني كابوس المراقبة ، وما ألقاه من الغيظ حتى يُؤذَن للجريدة بالطبع . وما كان مراقب الجريدة غير صاحبها وهو من عُمّالِ الحكومة ، ومن اعرف الناس بما يُرضيها وما يُغضبها ، وغاية ما يتوخى ان يرضى الوالي عنه ابداً . والصعوبة في المراقبة انها لا قاعدة لها يُرجع إليها ، وليس لها قانون ثابت معروف ، وربما كتبتَ القطعة لظنّ انها لا تروق المراقب فيقرّها ويستحسنها ، وقد تكتبُ غيرها وانت لا ترى فيها ما يُقال ، فتحذف . فلا قاعدة في المراقبة غير ذوق المراقب وهواه ، ولا قانون إلا ما يستمدّه من روح الحكومة الاستبدادية . واكثر ما يجب ان يتوقاه المحرر ذكر شيءٍ يَمسّ السلطان من قريبٍ او بعيدٍ ، او يَمسّ عُماله ورجاله وجيشه وإدارته وسياسته ، وألا يشير إلى مسألة تاريخية فيها ذكر الخلافة والحرية والشورى والدستور وقتل الملوك وخلعهم .

ولطالما تألمت نفسي لحذف صاحب الجريدة المقاطع الكبيرة مما أكتب ،

وأحياناً المقالة برمتها . أما حذف الأخبار الصغيرة فأيسر ما يفعل . وقد يحذف ما يكون منقولاً من صحف الاستانة . فاذا سألته عن السبب في ذلك قال : إن هواء سورية غير هواء فروق عاصمة الملك . وكنت أسمع لعليلات وتمحكات ما أنزل الله بها من سلطان .

وددت منذ السنة الأولى أن أستعفي من تحرير هذه الصحيفة إلا أن استاذي كان يقول : إن تحريرك لها بمثابة المشق (يمشق) عليه الأولاد لتحسين خطهم . وعلى هذا بقيت ثلاث سنين في تحرير (الشام) فلقيت من الصحافة عرق القربة لأول أمري ، وبعد ذلك اتصلت بمجلة « المقتطف » المصرية وأخذت أوازر فيها . وكان صاحبها شكا إلى صديقي الأمير شكيب أرسلان أنه مضطر إلى أن يكتب المجلة كلها ، وحجمها يزيد على مئة صفحة في الشهر . وبكتابتي في هذه المجلة امتدت شهرتي . وكلما طال العهد بالصحافة زدت بها ولوعاً حتى بلوت منها الحلو والمر في مصر والشام .

ربَّ شرٍّ أنتج خيراً . فالمراقبة على ظاهرها شر محض ، وقد نشأ لي منه بعض الخير ، ذلك أني مرنت بها على البديهة والارتجال ، لأن تلك المقاطع والمقالات التي يحذفها قلم المراقب بحبره الأحمر ، يضطر المحرر أن يملأ مكانها بأشياء من نوعها ، تكون مقبولة في ذوق المراقب ، والجريدة لا يجوز أن تشطب منها سطور وأعمدة ، وتنشر الملأى كالعين المقلوعة . والوقت ضيق ، والبريد حافز ، والطابع يرجوك العجلة ، والقراء يتوقعون تناول جريدتهم في وقت صدورها ، وإلا جاءك بعضهم إلى المطبعة ، يسأل عن سبب التأخير .

ربما قال القائل وأنت لماذا تتصعب هذا التصعب ، وتتعصب هذا التعصب ، اكتب مايجوزه المراقب ، وتوقَّ ما تعرف أن مصيره الحذف ، وسر بما يمكن لتستريح وترح . وهذا كلام يقوله من لم يعش في ذاك الجو المشبع بالكثافات ، ولا يفوتنا أن المراقبة من أشكل المشاكل ، وما هي إلا صراع

بين الحرية والاستبداد ، وناهيك به من صراع ، والقابضون يومئذ على زمام الامر يهزأون بالحرية وأنصارها .

ومما يضحك أن صاحب الجريدة طمع في طبع محرر جريدته الناشئ بطابعه ، فبشرني وهو فرح جذلان ذات يوم بأنه توسط لي مع الوالي فاستكتبه مقترحاً (إنهاءً) لي برتبة ، وظن أن هذه البشارة من أعظم ما يزفه إلي من البشائر . وأكبر نعمة أحصل عليها في ذاك الدور ، فقلت له : وأين الكتاب الذي يطلب لي فيه هـذا التشريف ؟ قال أرسل مع البريد إلى الاستانة . فقلت له ، وأنا ممتعض امتعاضاً عظيماً : تعلم ولا شك أني لم أسع لضرر إنسان في حياتي ، وإن كنت أنت قد سعيت لضرري باستحصال رتبة لي ، فسأضربك في مقالتك وأنا أعرفها ، بحيث لا تقوم لك قائمة ، وعندها خاف صاحبي سورتي ، واستعاد الكتاب من البريد أو من الديوان بواسطة جماعة الوالي ، ونجوت من تقلد الرتبة ولُبس القصَب ، وكان المدير يستغرب مني هذه الحركة ، وربما عدها في باطنه رقاعة ، لأن تسعين بالمئة من عمال الحكومة وغيرهم إذ ذاك كانوا مخدرة أعصابهم بهذه الخيالات ، يبذلون ماء وجوههم ولا يخجلون في سبيل أخذ رتبة ووسام وقد يدفعون في ذلك الرّشاوى والهدايا العظيمة ، وكان بعضهم يرى أنه لا معنى للعيش بدون شرف السلطان !

كتبت أول مقالة في مجلة « المقتطف » شيخة المجلات العربية في القاهرة وكان موضوعها « أصل الوهابية » فاتهمني المتهمون بأني وهابي ، وأصبح الوهابيون يعدونني منهم ، واستبشروا بقبولي دعوتهم ، وتكثيري سوادهم ، وظل المشاغبون يصمونني وأصحابي بالوهابية سنين طويلة ، والوهابي نسبةً إلى محمد بن عبد الوهاب الذي دعا إلى مذهبه في نجد في العصر الماضي ، وعاونه على بث دعوته الأمير ابن سعود الأول . ومذهبـه مذهب أحمد ابن حنبل ، أحد الأئمة المشهورين عند أهل السنة . والوهابيون هم الذين قبلوا دعوته ، وكانوا قبلها في جاهلية جهلاء . فردهم إلى الكتاب والسنة ،

وانتشلهم من تيه الوثنية إلى حظيرة التوحيد . ويحب الوهابيون أن يطلق عليهم اسم السلفيين أو الحنابلة .

وما أدري وجهاً لاتهامي بالوهابية ، وكيف ينسب إلى جماعة من عرّف بهم بدون قذف ولا تحامل ، وكان الشعب في تلك الحقبة تبعاً لمشايخه وحكومته ، وهذه من مصلحتها أن يصم كل وهابي بالضلال . ومنشأ هذه الدعايات الكاذبة خوف العثمانيين على الولايات العربية من صاحب نجد . فلما دعا ابن عبد الوهاب إلى لباب الدين ، وألف شمل النجديين بعد لشتته ، لم تترك الدولة العثمانية باباً من أبواب الدس عليهم إلا ولجته . وأفعل التهم التهمة في الدين ، ومن تتهمه بهذه التهمة كأنك دعوت إلى قتله ، وربما هدرت الحكومة دمه فقتلته الغوغاء . وما قصر علماء الحجاز واليمن والعراق والشام في إثارة النفوس على ابن سعود الأول ، ومن نقلهم من قومه من الظلمات إلى النور ، مدعين أن ذلك منهم غيرة على الدين ، وأرجح أنهم فعلوا ذلك تقرباً من السلطان ، ولالتماس عطاياه ورواتبه ومراتبه .

كان الأتراك إلى آخر أيامهم يحسبون حساب أمراء نجد ، وآخر من استدعوه للتحقيق معه في المحكمة بدمشق ، صديقي الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فسألوه عن (البريد الطيار) (كذا) بينه وبين ابن الرشيد ، واتهموه بأنه يسعى لسلب الخلافة من بني عثمان وإعطائها لأمير نجد ، فضحك وكان من ظرفاء العلماء ، وقال : إذا كنت أستطيع أن أسلب الخلافة من بني عثمان وأعطيها لأمير نجد فلماذا — وقبض على لحيته البيضاء — لا آخذها لهذه اللحية ؟ وهل الخلافة تفاحة حتى أخرجها من جيبي وأدفعها لمن اريد ؟ هذا والله من أجمل ما سمعت ، فضحك المحقق وأطلق سراحه . وفي الواقع انهم اتهموه هذه التهمة لأنه وبعض علماء دمشق وبغداد صرحوا يومئذ أن القوم ما عرفوا حقيقة الوهابيين ، وأن مذهبهم مذهب التوحيد لا غير .

وكتبت مقالة في الزيدية أهل اليمن ، على غرار المقالة التي درست فيها مذهب الوهابية ، فلم أتهم بالقول بمذهبهم ، كما اتهمت باتباع مذهب ابن عبد الوهاب ، بمقالة كتبتها في حقيقتهم على أسلوب علمي . وكانت

تفيدني مقالة الوهابية من جهة لو عرفت الاتجار بالكتابات والمقالات . ولقد دعيت بسببها إلى نجد غير مرة ، في عهد آل الرشيد وعهد آل سعود ، فاستعفيت من الرحلة إلى أرض لا غرض لي من زيارتها ، خصوصاً ونفسي زاهدة في الضيافات والخلع والعطايا . وفتقت الحيلة لأحد أصحابي من أهل لبنان باب رزق فقصد إلى أمير نجد ، وكتب له ما أرضاه ، فأثبت أنه من تجار الفينيقيين ، وأن التجارة متأصلة في خلفائهم اللبنانيين .

وأول مرة (سنة ١٩٠١) دخلت مصر قاصداً زيارة آثارها ومصانعها والتعرف إلى رجالها ثم أرحل عنها إلى باريس لقضاء بضعة اشهر الدرس والنظر . فعرض عليّ صاحب جريدة « الرائد المصري » نصف الاسبوعية نقولا افندي شحاده بواسطة صديقي الاستاذ السيد رشيد رضا صاحب المنار أن احرر له جريدته . ولما كنت انوي السفر اعتذرت ثم عرضت مسألة في دمشق اضطرتني إلى البقاء في القاهرة فصرفت النظر عن الذهاب إلى فرنسا ، وقبلت بتحرير تلك الجريدة .

وليست جريدة الرائد المصري من الجرائد المقروءة ، وصاحبها رجل مهذب ، وهو من أهل زحلة في لبنان جعلها واسطة للطعن بأصحاب المقطم ، وكان بينه وبينهم خلاف مالي قديم . وجريدة الرائد من جرائد المعبة لتصطنع الطعن بالمجتلين وكأنها ابنة جريدة « المؤيد » أو ذيلها وكان صاحب المؤيد يعطف على صاحب الرائد المصري نكاية بأصحاب المقطم فيما كنت أرى . وظل السيد نقولا شحادة على طول مقامه في القطر المصري يتكلم العربية باللهجة الزحلاوية ، وكان يعرف دخائل السياسة المصرية إلا أنه كان كل ساعة يدق عنق سيبويه فلا تستطيع أن تدخل له سطرين إلى المطبعة قبل أن تنظر فيها وتنقيها . وما أظنه ارتقى عن الدرجة التي بدأ بها لأنه تعلق بالكتابة وهو كبير السن . وبعد عشرة أشهر قضيتها في تحرير هذه الجريدة عدت إلى الشام فاراً من الوباء الذي انتشر في القطر المصري . وقد تخلصت من تحرير الرائد ؛ وما كنت احرص على تحريره قليلاً ولا كثيراً .

الصحافة أيضاً

هبطت مصر للمرة الثانية (١٩٠٥) عازماً أن أصدر بها مجلة شهرية باسم (المقتبس) تبحث في العلوم والآداب ، وعرضت على الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، وكان يعرفني بما كتبته في جريدته ، وبما تنشره لي مجلة « المقتطف » من الفصول أن أكتب في صحيفته مقالات يعيّن هو مقدارها ، ويطبع لي المجلة في مقابلها . فقال إنه عازم على انشاء عدد أسبوعي من المؤيد ، برسم الولايات العثمانية والاقطار الاسلامية سيعهد بتحريره الي وفي المطبعة أشغال كثيرة لاتستطيع انجازها قبل شهرين . فلم أرتح لهذا الجواب وقلت له : لايسعني الانتظار ، وصاحب الحاجة أرعن لايروم الا قضاءها .

وبعد أيام دفعت أصول المقالات إلى المطبعة العمومية ، لنشر المجلة المزمع نشرها ، وصدر العدد الأول . وما هي إلا أيام حتى طلب إليّ صديقي سامي أفندي قصيري أحد محرري المقطم أن أذهب لمقابلة محمد بك أبي شادي صاحب جريدة الظاهر اليومية وقال إنه محتاج إلى محرر . فقابلت رئيس تحرير هذه الجريدة محمود أفندي واصف فسألني إذا كنت أعرف الترجمة من الفرنسية فأجبته بالايجاب ، فدفع إليّ برقيات ذاك اليوم من شركتي (روتر وهافاس) فترجمتها في أقل من ربع ساعة فنظر فيها وقال : لابأس : وذهب إلى صاحب الجريدة وأطلعه على الترجمة فأعجبته فعاد وقال لي : تجلس هنا على هذا المقعد إلى هذه المنضدة ، وتبدأ بالتحرير غداً .

وكان في زاوية الغرفة شاب قصير القامة أبيض البشرة تبدو عليه علائم النشاط ، بادرني بعد انصراف محمود واصف إلى غرفة مدير

الجريدة ، فسلّم عليّ ورحّب بلهفة وأدب ، وقال لي . ألست فلاناً ؟ قلت : بلى . قال : ألست أنت الذي تكتب مقالات المقتطف ؟ قلت . نعم قال : كيف قبلت ان يفحصك محمود واصف ، فقلت . لايتسع المجال الآن لأقول لك شيئاً وسأذكر لك عذري . فتواعـدنا على أن نجتمع خارج الادارة في المساء ، وهذا الشاب هو الاستاذ محمد لطفي جمعـة المحامى الكاتب الخطيب المؤلف المشهور وكان يترجم للظاهر عن الصحف الانكليزية ، وتصاحبنا كأننا كنا يعرف أحدنا أخاه منذ سنين . وقال لي : إن الرجل الذي رضيت بأن يمتحنك عاجز عن الكتـابة ، ويزيده خبالاً مايتعاطـاه من المخدّرات ، وقد يحفزه رئيس المنضّدين بعض الأيام ليدفع اليه مواد للجريدة ، فلا يرى أمامه غير اعلانات الجريدة الرسمية يعطيها له للصف ، لتنشر في الصفحة الأولى من الجريدة على أنها مقالة افتتاحية ، وقصصتُ باختصار على صديقي الجديد ما دعاني إلى الرضا بامتحان محمود واصف ، وهو أني اصدر مجلة تضطرني إلى المقام في مصر ، فأنا في حاجة إلى عمل آخر مع المجلة حتى تكفيني في القاهرة واردات ملكي في الشام . ثم إن صاحب هذه الجريدة لايعرفني كما يعرفني صاحبا المؤيد والمقطم مثلاً .

وأخذت من الغد أترجم عن الصحف الفرنسية والتركية ، وأنقل البرقيات ، وأشغل الوقت بكتابة مقالة سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، فتغير مقامي في الادارة ، وأخذوا ينظرون إليّ غير نظرهم الاول : وبعد أيام جاءني سيد بقطر كاتب الاستاذ أبي شادي بك في مكتبه مكتب المحاماة وقال لي : هل تريد أن تكون رئيس تحرير الجريدة بدلاً من محمود واصف ؟ فقلت له : إذا رآني صاحب الظاهر أهلاً لذلك ، وعاد من الغد إلي وقال : إنك مقبول جداً هنا ، ونحن سنرفع هذا المحرر ، ونرجو أن تكون عند قولك . فأكدت له انني كذلك . وبعد أيام رجع عليّ وذكر أنهم سيصرفون رئيس التحرير ، وطلب مني ألا أقول غداً مايشعر بزهدي في هذه المهمة ، فقلت له : أنا عند قولي ، وثقة صاحب الجريدة في نظري شيءٌ يعتدّ به ،

وما كان اليوم الخامس عشر من دخولي جريدة الظاهر حتى كنت في منصة رئيس التحرير أرأس بضعة محررين ومخبرين ، وأتصرف في سياسة الجريدة ، وقد علا راتبي ومرتبتي .

ومضى شهران أو ثلاثة ، وانتشر المقتبس الشهري ، وقرظته الصحف والمجلات وكان تقريظ المؤيد من أحسن التقاريظ ، أفادني في انتشار المجلة لأن المؤيد كان مقروءاً في كل الطبقات ، وكان صوته يومئذ أعلى الأصوات ، وكان صوت الأهرام والمقطم خافتاً . وإذا بالشيخ علي يوسف يستدعيني ويقول لي : إن المطبعة انتهت من مطبوعاتها وإن الجريدة الاسبوعية التي كان عازماً على إصدارها كما كان قال ، يمكنني الآن أن أستلمها ، وأنه سيعهد إلي معها بفتح البريد ، قبل كل أحد في إدارته ، لأنظر في الصحف الأجنبية ، وأشير إلى المقالات التي يجب ترجمتها ، وأدفعها إلى محرريه محمد أفندي مسعود وحافظ أفندي عوض وأشرف على تحريرها وعلى الجريدة عامة . فأجبته إني توليت رياسة تحرير الظاهر ، وأن صاحبها صرف الرجل الذي كان قبلي ، واعتمد عليَّ في إصدار جريدته ، فلا يسعني أن أتركه . وشكرت له وانصرفت.

وكان من أهم العوامل التي دعتني إلى الإباء كون مسعود وعوض من أصدقائي ، وأعرف أن على يديهما قام المؤيد ، وأن لهما الفضل في إنشائه . وهما على غاية الكفاءة علماً وأخلاقاً . وكيف يجوز أن أرأسهما وماضيهما في المؤيد ماضيهما ، وهما مصريان ، وأعرف مني بما ينفع جريدة مصرية ، وربما كان دخولي المؤيد على هذه الصورة مقدمة لإخراجهما منه ، على ما وقع في نفسي واستنتجته من كلام صاحبها . وأنا ما ضاق علي العيش في مصر حتى أكون علة لقطع رزق صاحبين عزيزين ، ما شهدت منهما إلا اللطف ، وهما أولى مني بهذه الخدمة .

ترك مسعود وعوض جريدة المؤيد بعد حين وأتى صاحبه بجميل افندي مدوّر من أدباء السوريين يعاونه في القلم الإفرنسي ، وعرض عليه سليم أفندي سركيس من كتاب السوريين أيضاً مؤازرته في القلم الانكليزي

فقبل منه . وأخذ علاء أعمدة المؤيد بالاعلان عن نفسه . ومات المدوّر بعد مدة قصيرة ، وكنت تركت الظاهر مع جميع محرريه ، لعجز الادارة عن تأدية الرواتب في اوقاتها ، وأخذت أترجم روايات لخليل بك صادق صاحب مجلة مسامرات الشعب ، وكان يلحّ عليّ أن أعطيه رواية ليطبعها فأعده ، فلما فرغت من التحرير انصرفت إلى الترجمة فنقلت روايتين كبيرتين في ثلاثة أشهر .

وفي خلال ذلك دعاني الشيخ علي يوسف إلى تولي التحرير في جريدته فقبلتُ ، وكان معي سيد كامل وكامل فيضي يترنان على النقل من اللغة الفرنسية ، وعُهد إلي النظر في المقالات الواردة من المؤازرين ، مما كان موضوعه الأدب والإسلام والتاريخ ، والاشراف على الجريدة ، وكتابة الافتتاحيات إذا اقتضت الحال . ووقع لي لما اصطاف الشيخ في سورية في آخر السنة الثانية لتولي تحرير جريدته ، وكان أوصاني بالانتباه لجميع شؤون الجريدة ، أن حَدَثتْ الأزْمة المالية في مصر ، فاضطررتُ إلى كتابة فصول في معالجة الأزْمَة ، وفي الشؤون المالية والاقتصادية ، موضوعات ما سبق لي الاشتغال بها ، خُضتها مضطراً بعد درسٍ مستعجل ، لأن حالة الجريدة تستلزمها . والجريدة اليومية لا تتطلب التعمق كثيراً ، وتستلزم الخوض في الموضوعات التي تشغَل بال قرائها ذاك اليوم .

عرفتُ في المؤيد سِرْباً من المصريين ، وكان تحريري فيه الدّعامة الثانية في شهرتي بعد مجلة المقتطف ، وبه صار لي أصدقاء رأوْا إخلاصي في خدمة مصر ، فصاروا يفتحون لي قلوبهم ، ويُطلعونني على ما لا يطّلع عليه إلا خاصة الخاصة منهم ، وكنتُ جِدّ حريصٍ على صداقتهم ، وهم كانوا كذلك

لهم مُنتهى حُبي وَصفوُ مودّتي   وَمحضُ الهوى مني وللناس سائرُهْ

وقد حاربت مع المحاربين دنلوب مستشار المعارف ، وانتقدتُ عليه ما كان يرمي إليه من تأخير الدروس العربية ، فأدرك رجال ذاك الدور

وناشئته ما يحمل قلبي من حب مصر ، وكنتُ أوَقعُ مقالاتي ، فعرفوني وجازَوْني على خدمـــة بلادهم بصداقتهم وثقتهم ، فاغتبطت ونشِطتُ ، وأصبحت في مصر كأني في بلدي ، تهمني من وراء الغاية سياستها وسعادتها .

كان الشيخ علي يوسف في عهده من أعظم الكتاب الذين قلَّبوا المسألة المصرية على وُجوهها كلَّ مُقلَّب ، وكان ذا بديهة مؤاتية ، وعارضة قوية ، شهدته يرُدّ على لورد كرومر عميد إنكلترا في وادي النيل ردَّه المشهور الذي جعل منه كتاباً بعد — وقد نقلت له عن الفرنسية النصوص اللازمة — يدفع رده للطبع ورقة بعد ورقة ، وأمامه ضيوفه في مكتبه يَلغطون ويتحاورون . وكان العقلاء ينعون عليه تلونه في مشربه ، ويقولون إن أصحابه اليوم أعداؤه غداً واعداءه اليوم اصحابه غداً ، ومن كان في مثل حاله يَخدُم العظماءَ لا يُستكثر عليه هذا ، ومن ثمَّ له مظهرٌ عظيم بعد أن كان نكرةً قد يزدهيه العزّ . ومع ذلك كان الشيخ علي على صفات حسنة من سَعة الصدر ، وفرط الذكاء ، والاغضاء عمن يؤلمه ، والاحسان لعدوه . ويقول مَن ينتقد سيرته أيضاً إنه لو عُرِضَ على صاحب اخلاق أن يطعن فيمن نشلوه من سَقْطته ، ورفعوه بأقلامهم وأموالهم ، لآثر الخروج من الصحافة كلها على ارتكاب ما ارتكبه مع أخلص محبيه وحُماته .

ومما لا يُعذر عليه أيضاً تقليدُه رئيس الحزب الوطني مصطفى كامل باشا صاحب جريدة اللواء ، وكان هذا يطالب باستقلال مصر جهرةً ، وله قبول عند الناس أكثر من الشيخ علي ، والأموال تنصب على إدارته كما ينصب ماء المطر من فم الميزاب . وكانت تربيته عصرية ، ويُعدّ من الخطباء الأبيناء . وكلاهما يصدع بأمر الخديوي . فأحب صاحب المؤيد أن يظهر بمظهر صاحب اللواء على ضعف موارده فأضاق ، وزاد ضائقته اشتغاله بالمضاربة في الأراضي ، فخسر كل ما يملك حتى اضطر آخر عمره أن يتقلد مشيخة طريقة ويأتي أموراً لا تتفق مع ماضي رجل كانت جريدته لسان حال العالم الاسلامي .

لما اشتد الضغط على الافكار في الارض العثمانية أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني لجأت إلى مصر كما لجأ إليها بعض أحرار الشاميين وعاهدت النفس على نشر جريدة يومية باسم المقتبس في دمشق ، إذا نُفس خناق الحرية ، أخدم بها الديار الشامية خاصة والبلاد العربية عامة . فلما أعلن القانون الأساسي وسقطت دولة الاستبداد رجعت في سنة ١٩٠٨ إلى دمشق وأنشأت مطبعة وأصدرت المقتبس اليومي السياسي مع المقتبس الشهري العلمي، وكان المقتبس السياسي أول جريدة يومية صدرت في دمشق .

وباستقلالي بجريدة يومية ، وكنت أكتب في مثل هذه الصحف باسم غيري ، عرفت مقدار التبعات ، ولقيت خيراً قليلاً وشراً كثيراً . عاضدني بعض العلماء المنوّرين والشبان المثقفين ، وقاومني بعض المشايخ الجامدين ، وسرّاق العمال المستبدين ، وعادى المقتبس كل مضرّ مهما كان حاله وشأنه ، غير خائف ولا مجمجم ، وما كان الأهالي والحكام يعهدون مثل هذا النقد وهذه الحرية في الكتابة ، ولا أنكر أن التيار كان يأخذني أحياناً ، ويشطّ بيَ القلم على غير إرادتي ، لكني لم ألجأ إلى الطعن الشخصي بأحد بل كانت جملة المطاعن موجهة للأعمال النابية عن حد القوانين والدساتير .

ولم يرَ الحكام وجهاً لتقليم أظافري وإخفات صوتي ، أفضل من الالتجاء إلى المحاكم ، يقيمون عليّ القضايا ، فكنت أصبر عليهم ، وأصحابي يعْجَبون من صبري على ماألقي من العَنَت ، وكانت نزاهة القضاء تشجعني على المُضيّ في طريقي . وكان القضاة الاتراك والعرب على السواء ينصفونني كل الانصاف ، والعــــدل عدلٌ عند كل جنس وفى كل لغة .

وتتلخص الدعوة التي دعوت اليها في المطالبة بالاصلاح ، وطرد لصوص الموظفين من خدمة الدولة وحفز العرب الى العمل النافع ، والتذرع بالمشاريع المنتجة ، وبعث القرائح واستخدام الكفاءآت ، ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة . وفّقْت في هذه الدعوى إلى حدّ ما كنت أتطال إلى

مثله ، وكان المصفقون لي أكثر من المصفرين ، وتجلى الانتفاع بما ينشر من المقالات والأفكار ، وكان معظم القوم لم يَمْهَدوا تلاوة الجرائد ، فحببت المقتبس اليهم المطالعة ، وكلما رأيت فتوح الجريدة في ازدياد ، ازداد نشاطاً ومفاداةً . والواقع أن العامل الأكبر في انتشار الجريدة ، وثقة الامة بها ثقة عمياء ، اقتصارها على مواردها الشرعية من الاشتراكات والمبيعات والاعلانات فقط ، وتنزهها عن كل عَرَض مادي مهما كان مصدره . وحاول الاتحاديون القابضون على زمام الأمر أن يرشوني فلما يئسوا مني تحيلوا أن يغتالوني وخصوا الذي أعدوه للقتل بمبلغ من المال لايستهان به فنصحه صديق له اطلعه على مانوي وبيّن له عاقبة ماستجني يداه فأعاد الدراهم الى أصحابها . وتعرضت بسبب الجريدة للأخطار والمغامرات مرات وأشاع الوالي في رجال الأمن الفُرْسان ، أن من يقْبض عليّ حيّاً أو ميّتاً يرقيه ويكافئهم . وساعدني التوفيق ولم أحبس يوماً واحداً ولا خسرت قرشاً واحداً ونحّيت من الخدمة عشرات من الموظفين فيهم الوالي ومتصرفان وعدة قوام المقام ومديرين وقضاة وغيرهم من صغار العمال وكبارهم ، حاولت الحكومة شَغْلي بنفسي، فهددتني وروّعتني بطرق مختلفة فيها وعد ووعيد، وأغلقت الجريدة غير مرة لأسباب تافهة أشهراً ، غُرّمت بها مئات من الجنيهات ، ثم عوّضت عليّ الحكومة زمن الحرب العامة ، لما اشتدت حاجتها إلى الجريدة، واعترفت بأنها ظلمتني بالاغلاق مرتين ، حتى أزمعت أن أترك الصحافة . ولولا أن هددتني ضمناً بفتح الحسابات الماضية ما كنت أعود إلى إصدار صحيفتي . أما مجلة المقتبس العلمية فانقطع صدورها في الحرب العامة ، بعد أن صدر منها ثمان مجلدات وعددان من المجلد التاسع ولم تعد بعدها إلى الصدور .

ولما وضعت الحرب أوزارها أخذت نفسي تكره الصحافة شيئاً فشيئاً ، وانصرفت إلى التأليف ، وكان السبب الاكبر لاغلاقي المقتبس السياسي أن سلمت تحرير الجريدة بعد وفاة أخي أحمد ، وأنا في الوزارة ، إلى محرر أراد أن يخدم بعض الأحزاب على حسابي وبلسان جريدتي ، وأطال لسانه

في بعض زملائي الوزراء فأمرت باغلاقها (١) وكان ذلك ختام حياتي الصحافية ولم أكتب بعدها في غير المجلات العلمية ، والسع لي الوقت لنشر ما كنت اعد من التآليف فطبعتها في مصر والشام ، والحمد لله على كل حال .



(١) كنت غير راض عن بعض ما ينشر في المقتبس لي عهد الانتداب الأول وقد كتبت يوم ٢٩ كانون الأول ١٩٢٤ الى شقيقي أحمد أسأله عن مقالة للصفدي وعن أخرى لراصد وهددته بسحب امتياز المقتبس اذا هو ظل على نشر مثل هذه الآراء السخيفة يكتبها أطفال السياسة وهم من طبقة تسجد للفرنسيين بعشر ليرات وقدجعل الانتداب لفرنسابقرار دوليومن سياستي أن أتفاهم مع المنتدبين ولو غضب الصفدي وأمثاله ، واتهمني بالمروق من الوطنية . وأوعزت اليه ألا ينشر في المقتبس شيئاً لهؤلاء الاحداث لأني لا أريد أن يكون المقتبس كالعمران قارورة أقذار وأوساخ . وبهذه المناسبة أن بعض ما نشر من المطاعن بالمقتبس في بعض رجال السياسة ومنهم صديقي حقي بك العظم لم يكن بايعاز مني ولا لي رأي في نشره ولا نشر غيره .

ناظم باشا والمقتبس

شق على والي سورية في عهد الحرية والدستور أن يسمع في الجريدة المطالبة باصلاح شؤون الولاية ، ونقد ادارته أحياناً . وله الحق أن يتأفف وهو ممن ربوا في عهد الاستبداد الحميدي ، ورجل هذا نشأته . يصعب عليه ان يسمع أصوات الأحرار ، وهو الذي اعتاد أن يرى أعظم أعيان ولايته يقبلون ركبته ويلثمون أذياله . ووهم بأني أتطاول على مقامه لاسقاطه ، وأن الشعب قد مقته ومقت حكومته ، لكثرة مارددت من أخبار الضعف في ادارته ، فلم ير ليشغلني عنه أنجع وسيلة من أن يقيم عليّ بعض العمال ممن انتقدت أعمالهم ، دعاوي لدى المحاكم ، يزين الوالي لهم اقامتها ، ويعاونهم عليّ ، وهم في باطنهم لو تركوا واختيارهم لما أقدموا على اقامة قضايا قد تنكشف خلال النظر فيها سيئاتهم ، وهم أدرى بأنفسهم وبما يرتكبون ، والخائن خائف.

وأتى زمن علينا أمام القضاء نحو من ثلاثين دعوى من هذا القبيل ، يطلب بعض أربابها جزاء المفتري أي حبسنا ثلاث سنين . وجاءنا الفرج بعد حين على ما لم يكن في الحسبان ، وذلك بتعيين رجل من أهل القدس اسمه اسحق روحي افندي البديري رئيساً لمحكمة بداءة الجزاء ، فدرس عامة الدعاوى المرفوعة علينا ، فوجدها كلها من نوع واحد فوحدها ، وأقنع المحكمة بأن صاحب الجريدة لا غرض له إلا الاصلاح ، ولا حرج في القوانين على من يطالب به ، وليس فيما كتبته الجريدة ما يمس عاطفة المكتوب فيه ، ولا ما يثلم شرفه ومروءته ، فحكمت المحكمة بتبرئتنا من كل القضايا ، فصعق الوالي والاتحاديون ، ومن سار تحت علمهم ، واستأنفوا النظر في الدعاوي أمام محكمة الاستئناف ، فحكمت بتأثير رئيسها شكري بك ، وكان تركياً من جماعة الاتحاديين ، بسجن شهر واحد على أخي

أحمد مدير الجريدة المسئول ، ثم أنزل الحكم إلى النصف ، وطلب إليه بعض رجال القضاء أن يدخل من بابٍ من أبواب السجن ، ويخرج من آخر لتتم الصيغة القانونية ، ويقـال إن المدير حُبس ، ويقيد ذلك في السجل فأبى . وأعلنت الحرب العامة فذهبت الدعوى مع ذهاب المملكة كلها . ومن الغريب أننا ما كنا نعرف رئيس المحـكمة السيد البديري الذي حكم ببراءتنا ولا هو يعرفنا إلا من الجريدة .

قلت إن الوالي كان يتألم للتعرض لأعماله في المقتبس ، وكانت بيننـا برودة بسبب ذلك ، وهو يوالي اقامة الدعاوى على الجريدة بواسطة أعوانه ولكثرة ماراه أصحابه حانقاً عليّ عرض عليه أحد أعيان الجزائريين ، بل أمير من أمرائهم وباشا من باشاواتهم أن يقتلني . فقال له الوالي : لاتفعل ، وتبين بعد أن هذا الجزائري كان من الخائنين للدولة ، ونفي بسبب ذلك إلى الاناضول . وخاف الوالي هذه المرة مغبة القتل ونهى عنه . أما ذاك الشقي فلطالما قتل الفلاحين وهتك اعراضهم بواسطة أعوانه الاشرار حتى اغتنى وترك ثروة كبيرة ، تمزقت شذر مذر في بضع سنين ، وكان في تجويز قتلي يرمي إلى غايتين ، الأولى مصانعة الوالي ، والثانية خلاصه من نقد جريدتنـا لتزويراته أحياناً .

جاءني ضابط تركي اسمه جميل بك ، وهو من دعاة حزب الاتحاد والترقي ، يخطب بالتركية ، ويثرثر في فضل الجمعية على العالمين ، فرجاني أن أصالح الوالي ، وطلب أن أرافقه إلى دار الحكومة لهذا الغرض ، فقلت له : باسم الله ، اعلم يا صاحبي أن ليس بيننـا وبين الوالي عداوة شخصية ، وما نكتبه في الجريدة فلمصلحة الدولة ، ونحن إذا لم نوجه الـكلام إلى الوالي المسئول فلمن نوجهه ؟ فلما اجتمعنا في دار الولاية سرّ الوالي جداً ، وظن أن الأمر يقف عند هذا الحد بهذا الصلح ، فلا أعرض له بعدها . فيسير كما يشاء مع من يدبر الأمر في هـذه الولاية

العظيمة على هواه لا كما تقضي القوانين والمصلحة ، ومما قال لي : لقد أسقطتني من الأنظار بما كتبت عني في جريدتك ، وأصبحت خجلاً في نفسي ، حتى إني لأقول للحوذي أن يسير بي بين البساتين إلى داري ، لئلا أستهدف للعن في الطريق ، ويقولوا : هذا هو الوالي الذي يكتب المقتبس في إجراآته الخارجة عن النظم والأوامر المرسومة . قال : وفي الحق إني لم أرك يوماً أهنتني بكلمة واحدة ، أو تعرضت لشخصي باشارة أو تصريح . فأجبته : إنا نكتب ما نكتب لنعرض رأينا على أنظاركم ، وندلكم على عورات الضارّين في الادارة الحكومية ، وغرضنا في ذلك شريف ما أظنه يسوءكم ، وهو إصلاح حال الادارة التي لم يغير الحكم الجديد شيئاً من روحها ، ونحن لا نخرج بحال عن استعمال الحرية التي منحنا الدستور إياها . أما قولكم : إننا لم نذكركم بما فيه إهانة شخصكم الكريم . فنحن لا نقول بهذه الطريقة ، ونتعلم الأدب وحرمة الكبار منكم ، وأي دخل للخصوصيات في مسألة عمومية .

وحقاً كان هذا الأسلوب في الانتقاد مما يؤلم عمال الدولة وغيرهم أكثر من السباب والشتائم ، وكنت أتوقى أن أمسّ إنساناً فيما أكتبه ، وحصرت الجهد في مناقشة العمال ، وكان كل ما يكتب في الغالب مستنداً إلى وثائق ، مدعوماً بنصوص القوانين ، ويؤازرني سراً في ذلك بضعة شبان سوريين تخرجوا من المدرسة الملكية في الاستانة ، مدرسة السياسة والادارة ، وعادوا إلى سورية ليتمرنوا في دواوين الولاية ، ثم يعينون قوام المقام ، وهم الذين كانوا يكتبون بالدقيق والجليل مما يجري في مقر الوالي ، ومنهم من كانوا من أعزّ أصحابي ، وممن عرفوا باخلاصهم للدولة وحبهم للعرب والعربية . وعمدتنا في مراسلات الجهات على أناس متعلمين من أصدقائنا كانوا يعاوننا بجلب الأخبار الصادقة حباً بالاصلاح لا طلباً للظهور ولا للمادة ، ولذلك جاءت تأثيرات الجريدة فوق المأمول ، فكانت إدارة فعالة في تنحية الولاة ، وعزل المتصرفين ، وقوام المقام وغيرهم .

ارتشت محكمة الاستئناف في جناية ارتكبت في دمشق ، كانت من أفظع ما سمع من أصناف الجنايات ، فما زلنا نكتب في تبرئتها للقاتل ، وكان والده من كبار المرابين ، حتى أقيلت المحكمة بكل من فيها من كتاب وأعضاء . وكان عبد الرحمن باشا وزير العدل على عهد أواخر السلطان عبد الحميد الثاني ، رجلاً عظيماً يكره المرتشين كراهة شديدة ، إذا ثبت له أن بعض القضاة تلوث برشوة وأضاع الحقوق والدماء ، يغتاظ ويحنق ويكتب بجانب اسمه (م) في مفكرته ، ولا يعود إلى توسيد عمل اليه ، ولو طلب اليه ذلك السلطان نفسه ، وكان السلطان يحترمه لهذه الأخلاق ولا يتدخل في شؤونه .

أصبح للمقتبس مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة العثمانية ، التي تصدر باللغة العربية ، لأنها كانت تكتب بحرية زائدة حتى ليظنها العارفون جريدة من الجرائد الوطنية في مصر ، تصدر على عهد العميد لورد كرومر ، وفي ذاك العهد كانت حرية مصر تشبه حرية بلاد الانكليز . ولطالما هدد أصحاب الظلامات صغار الموظفين إذا لم ينصفوهم بأن يرفعوا شكواهم إلى المقتبس ، أي أن المقتبس صار حكومة او محكمة على الأقل ، وهذا النفوذ هو الذي كان يتخوف منه الولاة ويكتبون به إلى مرجعهم الأعلى في دار الملك ، وهو يعظم وينمو كل يوم .

ويعذر الاتحاديون على تأففهم من نقد الجريدة ، لأنها كادت تكوّن رأياً عاماً في ديارنا ، وهذا ما راق ولن يروق أحداً من الأتراك منذ القديم ، وسياسة الترك مع العرب في معظم أدوار التاريخ نمط واحد ، وهي ألا يعترفوا للعرب بشيء من الحقوق ، لئلا يرفعوا رؤوسهم أمام غالبيهم وسادتهم ، وكانت المركزية في عهدهم من أشد ما عهد من نوعها تشبه مركزية فرنسا مع كل ما في الحكم الاستبدادي من عوج . وكان كل انسان يطلب اصلاحاً في أرجاء هذا الملك الواسع سواء أكان تركياً أم من عنصر آخر من عناصر الدولة ، يعامل أسوأ معاملة . ينفى ويسجن ويصادر

ويقتل هو ومن يقول بقوله ، ويتقولون عليه الأقاويل ، وأقل ما يتهمونه به أنه مارق من الدين ، يدعي النبوة ، ويقول بأباحة النساء ، وشرب الخمر إلى آخر أكاذيبهم . ويعد من بلغتنا أخبارهم من هذا القبيل بالعشرات وكثير من هذا الطراز قتلوا ولم يعرف بهم أحد . ولذلك كان من المستغرب نجاتي من تلك الأيدي الأثيمة .

لا تعجبن من هالك كيف هوى　　بل فاعجبن من سالم كيف نجا

كنت عارفاً هذه الحقيقة عن رجال الدولة ، ومع ذلك كنت أمضي في سبيلي أحاربهم ، وأنا عارف بما يهدد حياتي كل حين ، وليس لي مستند إلا عواطف الامة ، وإذا جدّ الجد يقل الآخذون بيدي ، وأترك وشأني ، ولسان الحال يقول : (يداك أوكتا وفوك نفخ) .



الأخلاق الطيبة

كان لوالدي صداقة وثيقة العرى مع السيد عبد الغني القوتلي (جد رئيس جمهورية سورية الحالي) وكثيراً ماسمعته يقول : يا بني قد تلد الولادة مثل عبد الغني القوتلي ولكن أعظم منه باخلاقه وكرمه فلا . وكان أبي يعجب من ثباته على عمل الخير وتفننه في ممارسة ضروبه .

قال كان يدعو الى قصره العظيم كل مدة أربعمائة أو خمسمائة فقير يهيء لهم الذ المآكل التي تفاخر بها دمشق ويجهز لهم الحلويات وما يتبعها من صنوف الفاكهة حتى إذا طعموا خرجوا من الباب ، وخدامه قد اعدوا لكل مدعو قماشاً مع بطانته يعمل منه ثوباً ، ونعلاً يلبسه برجله ، وريالاً ينفق منه على عياله ، يعمل كل هذا لايتبجح ولا يتنفج ولا يقصد إلا وجه ربه .

بلغه مرة أن أحد سماره الذين يختلفون إلى داره قال ان السيد عبد الغني القوتلي وجد كنزاً في داره فعمر منه جامع السادات في سوق مدحت باشا فكتم القوتلي الامر حتى جاء شركاؤه من البر فبعث يدعو صاحبه الذي اتهمه بالعثور على الكنز ليتناول طعام العشاء معه ، ولما فرغوا من طعامهم استدعى صاحب الدعوة كاتبه وأخذ يحاسب عملاءه حتى نظر في حساب جملة منهم فكان مجموع ماربح بواسطتهم خمسة آلاف ليرة عثمانية — وهذا المبلغ ضخم جداً في حساب تلك الأيام — والتفت الى المدعو صاحب الكنز وقال له يا أبا فلان ان من يربح من تجارته في سنة مثل هذا المبلغ العظيم عدا غلة أملاكه في القرى وريعها في المدينة لايصعب عليه أن يبني مسجداً بثمانمائة ليرة . وهكذا بكته بهذا الاسلوب الرقيق .

وقصصت يوماً على شكري القوتلي قصة رويت لي مرة عن جده العظيم

قلت : بلغني أن جدك حمل اليه ذات يوم من قريته اثنا عشر حملا من الحطب ، وكان يطل من طنف غرفته على الشارع فشاهد أحد الجمالة يقتطع حملين ويسوقها أمامه فاتبعه السيد حتى رآه أناخ الجملين أمام بيت في محلة النوفرة فبصر في الدار فرآها خالية من كل شيء يدل على حياة ، فأمسك بيد الجمال وابتاع له كيسين من الدقيق وصفحة سمن وصفحة زيت وصفحة دبس وسلة أرز وسلة بن وكل مايلزم للطعام وقال له ممازحا الآن يلزمك الحطب أما من قبل فماذا تعمل به ؟ مثال من التفنن في الاحسان .

وكان السيد القوتلي لا تنقطع صدقاته بجريها على مئات من أهل الستر ومن ابتلاهم الله بالفقر مما تنوء به خزائن الملوك يومئذ ، فكان حقاً ملك الكرم في عصره ، ومثال الرجل الصالح ، والمسلم الذي تمثل الاسلام حقيقة ، دأبه جباية الأموال ودأبه انفاقها في وجوه البر وعلى المحاويج والمعوزين . وكثيراً ما قلت للسيد شكري حفيده قبل توليه رئاسة الجمهورية يجب وضع ترجمة حافلة لجدك فان في سيرته ماربما يحفز الناس إلى عمل الخير وليس من العدل أن يقتصر أرباب التراجم على الترجمة للفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء فقط ، وما كان أجدر برجال المال والأعمال أن يتدارس الناس سيرهم ليقتدوا بهم ، فكان يصرح بأني أعرف عن جده ما لا يعرفه هو فقلت له : الفضل في هذه المعلومات لوالدي .

وحدثني من أثق بصدقه من قدماء أصحابي أرباب المطابع قال : إلى اليوم يتحدثون في حينا حي القيمرية بقصة وقعت لتاجر مفلس مع السيد عبد الغني . ذلك أن أحد جيرانه من التجار تأخرت أحواله فعزم أن يبيع داره ويتوسع بثمنها ويستعيد شرفه فبلغ القوتلي ماصارت إليه حال جاره فارسل يدعوه اليه وقال له : انتهى إلي أنك في ضائقة وأنك تريد بيع دارك قال : نعم ياسيدي ضرورة دفعتني إلى ذلك قال السيد : أنت إذا زهدت في جيرتي فانا لا أبيع جوارك مهما كلفني الأمر وهذه صرة من النقود تدبر نفسك بها وكف عن البيع لأجل خاطري ، فذهب صاحبه مجبور الكسر

وكان اميناً صادقاً واشتغل بالتجارة فاسترجع بعد زمن نعمته وخفَّ إلى من أسدى اليه هذه اليد ، وأولاه هذه العارفة يشكره يعيد اليه المبلغ الذي كان أقرضه إياه إلى أجل غير مسمى . فضحك السيد وقال للتاجر : أنا لا أنزل عن جوارك وأنفق أضعاف أضعاف هذا المبلغ لبقائك جاري وان كان لا بد من رده فارجوك أن تتصدق به على من تحب . وهكذا ظهرت هذه المكارم في المحسن والمحسن إليه على أشرف ما كانت عليه أخلاق المسلمين يوم كانوا مسلمين عاملين باكثر شروط الاسلام ، وما ترددوا في بوءرة هذه المادية القذرة . يوم كانوا مسلمين لابورقة الهوية وتذكرة النفوس وكتب الجغرافيا .

حدثني الاستاذ الشيخ عيد السفرجلاني مربي ثلاثة أجيال من أبناء دمشق وقد اشتهر بتقواه وصلاحه قال : حججت في بعض السنين واتفق أن كان في الموسم السيد عبد الغني القوتلي ، فلو قلت لك ياسيدي أنه لم يبق في الركب الشامي رجل لم يأكل على مائدة القوتلي أو أخذ من صدقاته لكنت صادقاً في قولي ، وأعتقد أني لا أقول إلا ما رأيت .

قال إن فقراء بيت الله الحرام انهالوا عليه بما يضجر منه الحليم فكان يفضل عليهم مغتبطاً واتفق ذات صباح أن الشمس كادت تشرق والسيد يسارع إلى المسجد ليصلي الصبح حاضراً وعلى ظهره عباءة ثمينة فلقيه الشحاذ والسيد لا يحمل كيس دراهمه فما وسعه إلا أن خلع عباءته ونجا بريشه مجرداً إلا من ثوب رقيق .

وحدثني أبي أن السيد عبد الغني القوتلي قاطع أخاه مراد أفندي ، وكان لا يقل عنه بكرمه وحسن اخلاقه ، لانه بلغه أن السيد مراد قال للفلاحين في الحديثة اتركوا مقبرة المرابعين بعد الآن لا تدفنوا فيها موتاكم وقد خصصتكم بالارض الفلانية للدفن فقال السيد عبد الغني لأخيه ما كفاك بضع مئات من الافدنة في الحديثة وبالا حتى لعتدي على قبور المسلمين لتقيم عليها حديقة الدار التي تبنيها . وكان مراد وعبد الغني شريكين في الاملاك والتجارة

الاول يتعهد أملاك الغوطة والمرج والثاني يقوم على التجارة في المدينة .

وربما يسأل أحد الفضوليين وما معنى هذا الاسم التركي (قوتلي) يطلق على أسرة عربية وقد حل هذا الاشكال لي من أثق به ، قال كان يقال لهذه العائلة بيت النحاس وكانوا تجاراً كباراً في الثياب وكان حجاج الاناضول من الاتراك يأتون في طريقهم إلى الحج كل سنة ويبتاعون هـذه البضائع ويقولون عند ما يساومون فيها بالتركية (حاجي قوتلي قماش ايسترز) أي يا حاج نطلب منك قماشاً متيناً (قوتلي) . وما زالت هذه الكلمة تتردد بين البائع والمشتري حتى غدت تطلق على بني النحاس والله أعلم .



لبنان

أحسن تعريف مختصر للبنان ان جباله أكثر من سهوله وانه من أجمل سواحل الشام اشتغلت فيه يد الخالق وأيدي الخلائق قروناً وكان في الاسلام عمالة من عمالات دمشق مقطوراً معها يسايرها في السراء والضراء بدون أخذ ورد . ولما أراد البركستانت أن ينشروا مذهبهم في الشرق لم يجدوا أحسن من لبنان فجاؤا وأنشأوا مدارس في الجبال ثم أقاموا الجامعة الاميركية في بيروت وغار اليسوعيون من اللاتين على الكثلكة فحذوا حذو الاميركان . ولبنان عش الموارنة والموارنة كاثوليك مرتبطون بالكرسي البابوي في رومية . ونفخ الواغلون على البلاد في السكان روح التعصب الديني فكان من ذلك الضرر عليهم وعلى البلاد عامة . ولما تخرج الطلاب بالجامعة الاميركية لم يطب عيشهم في بلادهم فتفرقوا في الارض وكان الاحتلال الانكليزي لمصر والاحتلال يحتاج إلى من يخدمه فرأى في اللبنانيين المتخرجين باللغة الانكليزية أحسن أنصار فأخلصوا كلهم له ونسوا مصلحة مصر فاستفادوا من ذلك فوائد مادية لا تقدر وخسروا كثيراً في المعنويات .

وقويت الهجرة إلى الاميركتين فكان اللبنانيون في الطليعة من أكثر من هاجروا ، غادروا البلاد إلى غير رجعة ، فبدأت القرى تخرب والعيش في تلك الجبال يضيق . ولما جاءت فرنسا إلى هذه الديار عطفت على لبنان من النصارى عطفاً غريباً فاسترجع الجبل بعد ذلك بعض قوته واشتدت الدعايات للاصطياف فأصبح جبل لبنان مثابة المصطافين من الشاميين والعراقيين والمصريين وغيرهم من الامم فأفاد من ذلك وما هو إلا جيل حتى غدا كل لبناني يفكر في الدعاية للاصطياف كما يفكر في مصلحة أولاده وبيته .

وظل التعصب الذميم في بعض العناصر اللبنانية على أشده حتى إذا أراد اللبنانيون بل أرادت فرنسا أن يجعلوا لهم كياناً خاصاً وألفوا الجمهورية

اللبنانية كانت سورية خلالها تمد يدها إلى اللبنانيين وهم ينأون بجانبهم، ولما تألفت الجامعة العربية لم يدخلوا فيها حتى تمهدت لهم سورية بحقهم وبغير حقهم . وإلى اليوم يتدلل لبنان على سورية ويهدد ضمنا بانه إن لم يعطه ما سأل كل يوم ينضم إلى دولة قوية ربته وعلمته . ولا يجب أن ننسى مع هذا أن الاكثرية الساحقة في لبنان للمسلمين ولكن النصارى سبقوا وتعلموا قبلهم بواسطة الاوربيين والاميركيين وأخذوا يعملون هذه الاعمال .

انا على يقين ان الصحف اللبنانية غداً متى صدر هذا الكلام ستسلقني بألسن حداد وتقول فيَّ ما قاله مالك في الخمر وقد حدث ذلك مرات والمثل الدارج يقول : (من احب ان يسكر لا يعد الاقداح) .



جمعية الاتحاد والترقي

استلمت جمعية الاتحاد والترقي زمام الدولة ، بتهديد السلطان عبد الحميد الثاني ، ونشرت الدستور ودعت المجلس النيابي الى الاجتماع ، وزالت شوكتها بعد أن الف السلطان جمعية سرية سماها الجمعية المحمدية ، اغتالت بعض أفراد الاتحاديين في الاستانة ، وبث فيها روح الثورة والعصيان ، وعاد الاتحاديون فتغلبوا على السلطان وخلعوه ونفوه الى سلانيك ، وقضوا على زعماء الحركة المحمدية في العاصمة والولايات ، وأخذوا يكثرون من اغتيال المعارضين لسياستهم ، من أرباب الاقلام في الاستانة ، وأحبوا أن يجروا على هذه الطريقة في الولايات ، وكانوا من قبل يحاذرون أن يأتوا فيها شيئاً مما أتوه في دار الملك فبدأوا بي ، وأرسلوا دركياً تركياً يهددني في رابعة النهار ، وأنا سائر مع رفيقين لي على جادة الصالحية ، وقال لي ما معناه : يكفي ياسيد ماعملت فالعاقبة لاتعرف ماتكون . ولما انتهرته هرب . وفي غضون تلك المدة أعطى الاتحاديون مبلغاً من المال لأحد الاشقياء ليغتالني قائلين له : (إني كافر وعدو الدولة) فذكر لأحد أصحابه ما أنيط به القيام به فقال له : ويحك إن أهل دمشق يمزقونك إذا فعلت ما أمرتك به الجمعية ، الرجل معروف بأنه ليس بكافر ، وأهل هذا البلد يحبونه ، فالأولى لك أن تعيد الدراهم لمن أخذتها منهم ، والله يرزقك من غير هذا الباب .

هذا كل ما استطاع الاتحاديون أن يأتوه انتقاماً لجمعيتهم مني ، بعد أن أصليتهم ناراً حامية على السياسة التي نهجوها مع العرب ، وكانوا يرسلون اليّ يعدونني باعطائي ماأطلب من المال ، على أن أعدل لهجتي في نقد أعمالهم ، واقترحوا عليّ أن يعينوني والياً في إحدى الولايات ، او في منصب يعادل

منصب الولاية ، على أن أترك الجريدة . فأجبت إن مطالبنا بالاصلاح إذا تحققت ترقى الشام فأستفيد أنا في جملة ملايين من الخلق ، وأنا لا أكتب لمغنم أصيبه ، وغايتي تعليم الشعب المطالبة بحقوقه ، ودعوته إلى القيام بواجباته ، حتى تنتظم أمور المحكومين والحكام معاً .

علم الاتحاديون حرصي على الدستور ، وعلى الحكم النيابي ، يوم قامت الجمعية المحمدية في الاستانة والولايات ، ودخل الناس أفواجاً ، كيف تهورت في حرب هذه الجمعية الارتجاعية حتى قررت قتلي . وقال لي عبد الرحمن باشا اليوسف من كبار الاتحاديين : إن القوم يعني جماعة المحمدية ، يبيتون لك القتل ، فأنا مرسل لك ثلاثة أشخاص من شجعان الاكراد يرافقونك حيث ذهبت ، أو تنقطع على الاقل عن التجول ليلاً في المدينة ، فقلت له : إنهم أضعف من ذلك . وهذا مثل قولي لفوزي بك البكري وقد طلب مني أن أكف عن التعريض بشفيق بك المؤيد ، وقال لي إن والده عطا باشا قال : إذا لم أعدل عن غمز أعيان البلد فان قتلي محقق ، فأجبته : إني إذاً في موتي لسعيد ، وأنا أعتقد أن عشرات من الشبان يقومون بعدي يستلمون زمام ما بدأت به ، وأي سعادة لي أعظم من ان أرى في أمتي من يتصدى للقتل لمقصدٍ شريف ، ويناقش بالحسنى كل من يقف في سبيلنا .

وبينا كانت الجمعية المحمدية تحاول قتلي ، كان جماعة من شبان الميدان — أعظم حيّ في دمشق — يتحالفون على حمايتي من الأشرار ، وقضوا بالمناوبة بينهم عشرين يوماً يتناوبون حراستي منذ خروجي من داري إلى أن أعود إليها ، في الهزيع الأول أو الثاني من الليل ، أخذوا على أنفسهم أن يحموني من إطالة أيدي الأذى إلي . وهؤلاء كانوا من قراء المقتبس ومن المعجبين بما يكتب في الحكام الظالمين ، وما عرفتُ ما بدا من مروءتهم إلا بعد مدة ، وما كنت أعرف منهم معرفة شخصية سوى رجل واحد فقط .

وبعد هذا أتهمتُ بالارتجاع ، أي بمشايعة من يحاول إعادة العهد الاستبدادي ، وأنا الذي كنت من أول الناقمين عليه ، والمحاربين له ، وللفرار منه فارقت الأهلَ والوطن سنين ، ورضيت بالاستخدام في الصحف المصرية حتى أعيشَ شريفاً لا أسفّ إلى ما قد يُسف إليه بعض أمثالي .

هذا عملي وهذا عمل الاتحاديين ، والاتحاديون أعاجم لا يفهمون ولا يحبون أن يفهموا ، أقوياء الشكيمة ، لا يرضيهم إلا أن يسير كل إنسان في المملكة على برنامجهم الأعرج ، بدون بحث ولا نظر ، وإلا فالقتل مصيره ، والقتل أيسر الأمور في نظرهم ، وأي حرج عليهم فيه ما داموا يحاولون سلامة الوطن ! وما أعرف كم مرةٍ هددني الأتراك وأشياعهم بالقتل منذ قبضت يدي القلم ، حتى خرجوا من الديار الشامية . وكان يضحكني وعيدهم ، كما كنت أهزأ بوعودهم .

جاء مصر قبل اعلان الدستور العثماني بسنة أو سنتين أحمد رضا بك صاحب جريدة تركية ، كان يصدرها في باريز ، واجتمع الي المشتغلين بالمسائل السياسية من اللاجئين إلى مصر من أبناء العرب ، وسألت رفيق بك العظم ، وكان يدخل مع كل جماعة تتذرع بامر ينفع الشام وغيرها ، وقد اختلط به كثيراً ، عن رأيه في الدستور الذي يطالب به ، فقال انه يرى أن يكون دستوراً فيه التفوق للأتراك في كل حال ؛ ولا ينال سائر العناصر شيء من الحقوق التي تضر بسلامة المملكة ، فقلت له : ان القوم لايفلحون ، وكيف لمملكة سكانها ثلاثون مليوناً أربعة منهم من العنصر التركي ، وخمسة عشر مليوناً من العنصر العربي ، والباقون من أجناس مختلفة ، ومنهم الأكراد والبشناق والشركس واللاز والروم والارمن ، ان يكون بعض الاقلية الكل في الكل ، ويهمل امر سائر العناصر ، ولا سيما العنصر العربي (البغي آخر مدة القوم)

سلطان الأعيان

استدعاني ناظم باشا والي سورية وطلب إليّ أن أتولى تأديب ابنه ، وقال لي : أكتفي منك بأن تلقنه ما أخذته من أفكار شيخك الشيخ طاهر الجزائري ، فاعتذرت بأن أشغالي الزراعية في القرية تحول دون غشيان الحاضرة كثيراً . فلم يقبل عذري على ما قرأت في أسارير وجهه . وعدّه مخرجاً من هذه السخرة ، أو ترفعاً عن تدريس طفل ، أو سوء أدب من صغير إلى كبير . ورد كلام المظلم كان غير مألوف ، ولو كان في غير معقول .

وأتت علينا سنة جفت فيها الينابيع ، وغاض ماء الانهار ، فقام جيراننا أهل نهر المنيحي في الغوطة يعتدون على نهرنا نهر الداعياني ، ورفعوا بسط الماء القاسم بيننا ، فسال معظمه من ناحيتهم . والداعياني يروي أراضي أوسع وقرى عامرة بالسكان أكثر من المنيحي ، فشق الأمر على أصحاب الحق في قرانا ، وأرادوا ردّ مقسم المياه إلى حاله بالقوة . واجتمع كبار المزارعين وكنت في جملة من انتدبوا لرفع ظلامة الأهلين إلى الحكومة ، فنزلت هذه على إرادة المغبونين ممن كان الحق في جانبهم . فتأثر أحد أصحاب نهر المنيحي ، لانكشاف المؤامرة عند أهل القرى وعند الحكومة ، وخصني بقسط وافر من غضبه ، أن كانت لي يد في إرجاع القديم إلى قدمه .

مضت أيام ونشبت فتنة في اليمن ، وأقبلت الحكومة العثمانية في دمشق تسخّر الدواب لنقل مهمات الجيش ، وكانت تضع يدها في جملة ما تضع على الجياد المطهمة وخيل السباق . وممن اعتدت عليهم أحد وجوه تجار الخيل أخذت خيوله ، وكان يعدّ بعضها للسباق ، أو لتباع من الجيش الانكليزي في مصر ، فعظم ذلك عليه ، واستكتب أحد اصحابه بياناً بالعربية في وصف إدارة الوالي . ومما قال فيه : انه سلّم لحيته لذاك الوجيه (خصمنا في

الماء) يجره إلى حيث يشاء وشفع ذلك ببعض العبارات الجارحة .
وُعلّق هذا البيان على جدران المدينة فاهتم له الوالي ، وحاول بكل مالديه من وسائط أن يعرف الكاتب . فقال له ذاك الامين : إن كاتبه فلان ، يريدني ، مدعياً أن البيان كتب بقلمي ، وليس في المدينة من يكتب بالعربية غيري ! فصدر أمر الوالي بتفتيش داري ، ففتشوها وروّعوا عيالي ، وأخذوا أوراقي ودفاتري . ولما بلغني الأمر لغيبت عن الانظار في بعض القرى ، وكان ذلك في شتاء ١٣٢٢ (١٩٠٤) ، ولما لم يجدوا أقل إشارة إلى أني أنا واضع ذاك البيان ، أراد الوالي تلافي الأمر ، فكلم الامير شكيب ارسلان قائلاً : إنه ليس له نحوي أدنى فكر سيء : وما يحب أن يتقول الناس عليه بسببي ، فجئته وأمر أن تدفع إلي أوراقي ، وكان فيها أشياء لا تروق السياسة المتبعة يومئذ ، والغالب أنها لم تهمه كما اهتم للطعن عليه . وحاول أمين سره ولي أفندي أن يؤخر أوراقي عنده فأخذتها منه على رغم أنفه . وهذه الحادثة السياسية استحالت فكاهة أدبية كما قال الامير شكيب أرسلان ، وكان يردد أبياتاً نظمها على البديهة فيما أصابني ؛ راقت الشيخ طاهراً فأراده على أن يتمها قصيدة يصف الحال ، ومن الغد كانت قصيدة في أكثر من خمسين بيتاً بدأها بقوله يداعبني :

ألا قل لمن في الدجى لم ينم ... طلاب المعالي سمير الألم
ومن أرقته دواعي الهوى ... فدون الذي أرقته الحكم
فكم في الزوايا تخبى فتىً ... شريد الكتاب طريد القلم
يرى الأرض ضيقاً كشق اليرا ... ع ويهوي على ذا الوجود العدم

ومنها :

وفي كل يوم سؤال وبحث ... وأنى تولى وأين انهزم
وقد كان في كبسهم بيته ... بجلق قال وقيل عمم
فكانت على كتبه غارة ... كغارات عرب (الصفا) بالنّعم
وقالوا سينفى إلى (رودس) ... وقالوا سيجزى بما قد جرم

وقالوا سيحمله أدهم بمرقاة لا تستريح القدم
وقد قيل (فزان) من دونه وتلك السموم وتلك الحمم
وبعض بسجن عليه قضى وبعض بضرب عليه حكم
و (كرد علي) غدا عبرة ففات ومنه الرجاء انصرم
فيا كرد لا تحزننك الخطوب فان الهموم بقدر الهمم
ومن رام أن يتعاطى البيان توقع أن يبتلى بالنقم
فذي حرفة القول حريفة وكم أدركت من لبيب وكم
وكم نكتة أعقبت نكبة وكم من كلام لقلب كلم
ومن بالكتابة أبدى هوىً فان الكآبة منها القسم

وبقي ذاك الوجيه المعتدي علينا في الماء يحمل احقاده إلى مجيء احمد جمال باشا قائداً عاماً على الشام اوائل الحرب العامة ، فكان مما نصح له فيما قيل ان الدولة لا تستريح في هذه الديار إلا إذا صلبتني ، فاني عدوها اللدود ، اتلاعب بعقول الناشئة فأفسدها وان مقالاتي في الحكومة تشهد بانحلال عقدة الوطنية ، والخروج على الجامعة العثمانية . وقد قال لي جمال باشا بعد مدة مشيراً الى هذا الاقتراح بما يقرب من الصراحة . قال لي ، وانا في بيته ازور بامره الاديبة التركية المشهورة خالدة اديب خانم ، وكانت نزيلته إن بعض الاعيان اقترح عليه قتلي ، فقلت له مهما قيل فاني مدين بالحياة لك ، فقال كنت أنوي شنقك ولكني وقَّرت علمك .

والحق مع ذاك الوجيه في أن يحاول التخلص مني ، لأني منذ أنشأت جريدة المقتبس اليومي في دمشق ، وأنا أنبه الحكومة لتنقذ الاهلين من تسلط أعيانها ، وأن تقصيهم عنها لئلا تزيد في سيطرتهم ، فيقوون على العبث بحقوق الشعب وحقوق الدولة ، ولو بحثنا عن مصادر ثروة معظم تلك الطبقة ما رأيناها تعدو مصدرين اثنين سرقة الدولة وسرقة الأهالي . وقد حاول ذاك الوجيه أن يستميلني بعد مدة ، وأظنه ما اقتنع أن مبدأ ضغينته كان لدفاعي عن حقي وحقوق الضعفاء في قريتي وما جاورها ، وكنت الظافر في تلك الوقعة ، وتأكدت أن الاعيان يبغضون من أرباب الأقلام كل من ينبه الافكار .

نجوت من الفاروقي وجبل الدروز

لما اعتدى بعض دروز حوران على جيرانهم أهالي قريتي غصم ومعربة وسكانها مسلمون سنيون ومسيحيون، وقتلوا منهم نحو ستين رجلاً وامرأة، ونهبوا بعض قرى السهل القريبة منهم، كتب المقتبس هذه الاخبار مفصلة، وما زال يكتب فيمن دأبوا على شق عصا الطاعة، حتى عزمت حكومة الاتحاديين أن ترسل حملة على الجبل لتعيد الأمن إلى نصابه، ولتضرب على أيدي الخارجين على السلطان. وأرسلت الحملة بقيادة اللواء سامي باشا الفاروقي.

أخذت الجريدة تروي الأخبار بصورة تفت في عضد العصاة، وتضعف شوكتهم، حتى قال لي سامي باشا الفاروقي إنه كان من نفع «المقتبس» في الحملة، ومن تأثيراته فيمن أخلوا بالأمن، ما يوازي تأثيرات فرقة من الجند، وأن صوته نفع الدولة كما كان يتوقع من عشرة آلاف جندي في مثل هذه الحال. وكان صاحبنا خليل رفعت الحوراني يكثر في الجريدة من الكتابة في كل ماله علاقة بأحوال الجبل، يبين مسالكه ومضايقه، وسهوله ووعراته، يتلقطها من أفواه العارفين، ولا سيما من صديقنا علي آغا العسلي والد شكري بك، فكان كلامه على الطرق والمياه، وعلى أخلاق القوم وعاداتهم مما يزيد أمراء الجيش بصيرة، وأكد رئيس أركان حرب الحملة أنهم انتفعوا بالخرائط التي رسمها خليل رفعت الحوراني وغيره في جريدة المقتبس أكثر من انتفاعهم بما لديهم من المصورات المختلفة، ذلك لأن الخريطة الوطنية مفصلة، فيها ما يحتاج إلى معرفته بدون تحريف في الاسماء، وخلت من الاغلاط التي تتسرب إلى الغريب إذا أراد أن يكتب في شؤون بلد غير بلده.

وثارت عرب الكرك خلال هذه المدة لأن الدولة أرادت إحصاء نفوسهم، كما أحصت نفوس حوران وجبل الدروز، فقامت الحملة الفاروقية

بتأديبهم فعم الأمن الأرجاء ، وشنق بعض زعماء الدروز والكركيين ، فذل المتزعمون وأرباب النفوذ في المدن والقرى . ولا تسل عما أصبح للقائد الفاروقي من الموقع في القلوب ، وغدا اسمه مضرب الامثال في الرهبة يخاف منه البادي والحاضر .

وما هي إلا أيام حتى وقع الاختلاف بيني وبين القائد ، وانصرفت عنه فلم يترك وسيلة لاسترضائي إلا أتاها ، وأنا لا أزيده إلا تجهماً ، وانقطع صوت الجريدة عن نشر محامده وأعماله ، كما كانت من قبل ، وما عاد يجري فيها ذكر لجبل الدروز ولا للحملة . حداني على ذلك ماثبت عندي وعند صديقي شكري بك العسلي من أن الفاروقي جار على بعض رؤساء الدروز فعاقبهم بما لا يستحقون ، وأعفى من العقوبة اكابر المجرمين ، وربما وقع له أن جرّم البريء وبرّأ المجرم ، فأكبرت الأمر جدّاً ، ولمت نفسي على تحمسي في تأديب الجبل ، وعلى اغضاب القوم ، وفيهم الاصدقاء والخلان ، وفيهم كرام الناس ، واصحاب النجدة والمروءة . فدهش القائد لوصولي إلى حقيقة ماجرى ، وما ظن أني اصل إلى كشف مادبر في سرّ . وما زلت أكشر له عن نابي ، وهو يرجو ان أقابله او اقبل دعوته ، فأرفض ويتوسط بعض أحبابي من ضباط العرب ليقنعوني بحسن حاله ، ويذكروا لي محبته لي ، ويريدوني على أن أزوره ، وبت مصراً على الابتعاد عنه ، أشير من طرف خفي لما حصل ، وهو يدرك أني لم اذكر لجماعته إلا بعض ما أعرف ويحاذر ان ابدأ بتسطير ما لا يليق من اعماله على صفحات الجريدة .

وأصيب القائد بالحمى بعد حين ، وبلغني أنه كان يقول في بحرانه : لئن أحياني الله لأنتقمن من (كرد علي) و (العسلي) انتقاماً يتفق ومعاملتهما لي ، سأقتلهما شر قتلة ، وأجعلهما عبرة ، فأريح البلد منهما ، وقضى نحبه بعد أيام . وقيل إنه كان أدخر من الاموال التي دخلت عليه جانباً عند أحد التجار العراقيين بدمشق فانكرها بعده ، ولم يصل إلى أسرته منها شيء ، لأن ذاك التاجر كان عارفاً بأصل هذه الأموال وآثر الفاروقي

أن يخبأها عنده ، لعلمه بأنه يظهر أمره إذا أودعها في أحد المصارف والغالب أن التاجر الباقعة لاشتهاره بالأمانة لم يأخذ منه الفاروقي سنداً بماله ، فاستحل أكله بعد موته .

حدثني صديقي يحيى بك الاطرش أمير الجبل في عهده أنه مانجا من يد الفاروقي يومئذ إلا بفضل ماأهدى اليه وانه سجنه في درعا ، وكان كل مرة يوهمه انه سيحكم عليه ، فيبادر الى تقديم مايرضيه . وأنا ما اضطرني الحال الى التزام الصمت في الجريدة عن الفاروقي إلا لكونه من أبناء العرب وصعب عليّ اذ ذاك ان نفضح أنفسنا أمام الأتراك ، فيكون مما نكتب حجة لهم علينا في إقصاء العرب عن الوظائف الكبرى ، مع أن من كانوا على هذه السيرة منهم يعدون بالعشرات ، والفاروقي إن صح مانسب اليه ، هو ابن تربيتهم . فاكتفيت بمقاطعته فقط وعرّفته إني عرفت ، وأسفت على ماقدمت له من الخدم ، واحتسبت عملي في خدمة أمتي ، ورجائي أن اكون مخطئاً في حكمي عليه .

ووقع لي مرات أن وقعت في مثل هذه المآزق ، فكنت أخلص القصد ثم يلتوي عليّ الأمر بالتواء من وضعت ثقتي به ، فأخاصم حتى من بأيديهم اضراري وتعطيل عملي . طعن بي أحد الكتاب المصريين مرة لأني ماتطوعت كما تطوع غيري فقلت إنه اشعر من شوقي وحافظ ، وما جعلت من مجلة المجمع العلمي بوقاً لشعره ، قال : إني مااشتغلت مع انسان إلا اختلفت معه في الآخر ، وكان هذا الطعن صحيحاً من بعض الوجوه ومن لي بأن ينصفني الطاعنون فينظروا في وجه اختلافي مع من اتصلت به هل كان لأجل حظ نفسي أم المصلحة العامة ، وأظن أن في تجهمي لمن تجهمت شيئاً من المنطق أكثر مما في دعوى خصومي . وهذا الفاروقي هل من سبيل معه الى ألا نتخالف في الآخر ؟ أنا مع هذه الطبقة خادم أمين مادامو على الحق ، فاذا اتضح لي أنهم حادوا عنه فكيف تود أن أحاسنهم ولا نتنازع . ؟

في الهزيمتين

من أجمل الذكريات ذكريات الصبا وما فيه من مغامرات ، وما يتخللها من توفيق وخيبة ، قد لا يصيب المرء مثلها ، ولا يجسر على اقتحام أخطارها إذا طعن في السن ، « والذكريات صدى السنين الحاكي » وهي مما يُحرَص على تدوينه لما تحمل من عبر وسلوى .

وهذا تفصيل ما وقع لي عند هزيمتي مرتين ، من وجه من أراد بي السوء من عمال العثمانيين قبل أكثر من ثلاثين سنة ، وهو تدوين لا يخلو فيما أرى من طرافة وتفكيه . ولكثرة ما انهزمتُ ، ووفقتُ في هزائمي كلها ، فأبنت عن مهارة في الهزيمة دعاني بعض الظرفاء « هزيمة » وأرادني أحد العلماء من المصريين (العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله) أن أؤسس في القاهرة مدرسة أُعلم فيها كيف ينهزم الخائف الذي يترقب ، كما يتعلم الطلبة علوم الدين في الجامع الأزهر وعلوم الدنيا في الجامعة المصرية . ولعلي كنت أجيب الطلب لو طال ذاك الحكم في قطرنا أكثر مما طال .

أقام والي سورية دعوى على جريدتي واحتال لاقفال الجريدة واغلاق المجلة والمطبعة قبل صدور الحكم علينا ، وبعث إلى مرجعه الأعلى في الاستانة يستأذن في الموافقة على مقترحاته ، فوافقه بلسان البرق على إلقاء القبض عليّ واقفال الجريدة والمطبعة . وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محلة القيمرية كان لأحدهما الصال بادارة البرق ، عرفا بالأمر فطلبا إليّ أن ألبس ثيابي وأسير معهما ، فان الشرطة تأتي بعد حين إلى داري لتفتشها وتقبض عليّ ، وكان الأمر كما قدّرا ، وسرت معهما وأنا لا أعرفهما وغاية ما عرَف أخي أنهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروءة من الشبان ، فبت ليلتي في دار أحدهما وهي دار الشيخ غزال ، وبعد أيام أكرم أهل الدار مثواي

فيها انتقلت إلى حي السوَيقة ، وأويت إلى دار صديقي الشيخ عبد الرحيم البابلي يطربني بصوته الرخيم وإنشاده البديع ، ثم عدت إلى داري وأعددت معدات الرحيل ، وقلت : ما دمت مضطراً إلى الاختفاء في البيوت ريثما ينظر في دعواي ، وقد يطول النظر فيها عمداً ، فالأولى أن اصرف هذا الوقت في اوربا ، وكنت منذ سنين أريد الرحيل إليها للدرس والبحث فتعوق العوائق .

وفي ليل الثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٢٧ ﻫ ركبتُ من دمشق يرافقني صديقي السيد شريف تقي الدين ، وكان بطلاً نزّالاً يعرف الطرق والمسالك . ومن قرية القابون سِرنا قبيل الفجر ، ومنها إلى قرى بَرْزه فمعربا فبسيمة فدير مُقرّن فكفيْر الزيت فدير قانون فكفْر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلتنا الأولى . ومن الغد قصدنا إلى سوق وادي بردى فعيتا الفخار فكامدِ اللوز فجبّ جينين فلالا فبعلول ، وفي هـذه القرية بتنا الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة بلد المدابغ ، وأنجدنا قاصدين جزين في جنوبي لبنان . وعاد صاحبي إلى البلد وسرت وحدي إلى تاتِر فعماطور فالمختارة فدير القمر وبتُّ فيها ، ووصلت إلى البارُوك مارّاً ببيت الدين وكفرنبرخ . وبت ليلتين في الباروك ومنها سرت إلى عين زحلْتا فبت فيها ، ومنها إلى حمّانا فقرْنايل فصليما وبت فيها ثلاث ليال ، ومنها إلى بحنّس فبكْفيّا فبيت شباب ، وقضيت في هـذه القرية الكبيرة فيما اذكر ثلاث ليال ثم قصدت إلى قرية الشاوية فقضيت فيها نحو عشرة ايام واخترت المقامَ في هذه القرية لأكون على مقربة من الفرَيكة بلد الاستاذ امين الريحاني اقضي معه بعض ساعات النهار ، ومن الشاوية نزلت الى بيروت في دار صديقي السيد احمد إياس ريثما تيسر لي بعد الغروب النزول إلى باخرة نمساوية قبيل إقلاعها بقليل .

كان رآني في فندق دير القمر السيد صادق الكسم من تجار دمشق فأنكر عليَّ جرأتي في رحلتي ، وقال لي ان الوالي يفتش عليك ، وكان

الوالي عدوي نقل من دمشق إلى بيروت ، فالأولى أن ترحل إلى مصر براً . فقلت له هذا متعذر الآن فقال : إذاً تأوي إلى القرى ، وتتخذ من بيوت العجائز مسكناً ، ولا تنزل في الفنادق ، ولا تجتمع إلى الرجال ، وعلى هذا أردت النزول في عين زحلتا في دار عجوز ، ولما وقعت عينها عليّ بكت ، فسألتها ما يبكيك يا أماه ؟ فقالت : كان لي ولد في اميركا مات منذ مدة وليس لي غيره ، وكان يشبهك بالصورة ، فلما رأيتك تذكرته ، ثم سألتني عن ديني فقلت لها برتستانت ، ففرحت ، وقالت : وأنا برتستانت وهذه التوراة ، وأشارت إلى المنضدة ، والقسّ يسهر عندنا . فلما سمعت باسم القس خفت أن يجيء تلك الليلة وتنكشف له حقيقتي .

وكنت قرأت تاريخ الاصلاح الديني ، وعلقت في ذهني شبه البرتستانتية على الكثلكة ، حتى لأستطيع أن أتكلم ساعة في البرتستانتية ولا أعرف ، إلا أن يكون المخاطب قساً مثلاً ، فانه إذا كان ذكياً يتجلى له أمري بعد قليل . فلما قالت المرأة ان القسّ يجيئها من الليل ، ادعيت أن غرفتها لم تعجبني ، واكرمتها ببضعة قروش ، وخرجت إلى أسفل القرية فنزلت في الفندق . وكنت صنّعت اسماً أردت أن اتسمى به ذاك اليوم ، وهو اسم أحد اصحابي المسيحيين بدمشق (خليل العبسي) فلما رآني صاحب الفندق وعرف اني دمشقي قال لي : ان خليل العبسي شريكي في هذا الفندق ، وكان الآن عندي وسافر ، فحمدت الله على اني لم استمر اسمه ، وسألني عن اسمي فاخترت له اسماً آخر من اسماء النصارى ، وأظنه أعفاني من السؤال عن مذهبي .

وفي لبنان لا بدّ لك أن تبوح بثلاثة وأنفك راغم : مذهبك وذهبك وذهابك ، امور كانت العرب تحرص على كتمانها . واللبناني لتدينه يحاول ان يعرفك بما تدين ، ليزيد انسه بك وتبسطه معك إذا كنت على مذهبه ، ويريد ان يعرفك إذا كنت (مقرشاً) أم لا ، فان معاملة الموسر تختلف عن معاملة المعسر ، ويودّ ان يطلع على مقدار مقامك عنده ليكون على

بصيرة من أمره . وأنا في تلك الحال لا استطيع أن أقول إلا اني برلستانتي ، والحكومة لطاردني ، والوالي غاضب عليَّ ، والأنظار ترمقني . وقد جازت برلستانتبتي على من نزلت عليه ، وهو خوري الشاوية وعلى الخورية امرأته ، واتفق ان ابتعت من الطريق عدة كتب من كتب البرلستانت ، فتمت الحيلة على الخوري والخورية عشرة أيام . وكان الخوري يراني اقرأ كتب البرلستانت وانا اقصد بالقراءة الا أطيل الحديث معه ، وهو يسألني لماذا يقرأ البرلستانت كثيراً ، فأجيبه لأن رؤساءنا يوصوننا بذلك . واتماماً لما تحيلت له كنت أطلب من الخورية ان تأتيني بزجاجة عرق ، وليس من نيتي أن أشرب منها ، فاذا انصرفت عني أخذت قدحين وصببتها في الحديقة ، لأوهمها اني تناولت من عرقها .

ودعوى البرلستانتية ما نفعتني في « بيت شباب » ذلك ان صديقي أمين الريحاني قال لي إنه زار حبيس مار بطرس قرب بيت شباب ، وهو يلبس المسوح على عادة قدماء الرهبان ، وانه كتب فيه مقالة بالانكليزية فقلت له : وانا اريد ان ازوره واكتب فيه مقالة بالعربية . فقال لي : وانت في اي حال الآن ؟ فقلت له : لا بدَّ من زيارته . ومن الغد استصحبت ولداً من ابناء القرية يدلني على قلاية الحبيس ، فما إن حييته حتى وجه إليَّ السؤال عن مذهبي . فقلت له : برلستانت ، فصاح : انت هالك ، انت هالك ، وهل انت الذي صبأت عن دينك الأصلي ؟ قلت له : جدي . قال : وهل لك راتب من البرلستانت ؟ قلت لا ، قال اتعرف القراءة ؟ قلت : قليلاً . قال : اقرأ الكتاب المقدس تعرف ان لوثيروس ما قال بالبرلستانتية إلا ليتزوج ، إلى غير ذلك مما أفاض فيه . واظن معلوماته عن النصرانية لا تزيد على معلومات العامة ، وربما كانت معلوماتي يومئذ أرقى من معلوماته .

وكان الحبيس أكرمني بحفنة من التين المجفف فاخذت أتناول منه ، والغلام الذي رافقني يحدجني بنظره ، والغالب أنهم لايتناولون منحة القس امامه ويجعلونها للبركة فقط ، كما يتبارك حجاج المسلمين بماء زمزم .

وبدا المطر ينهمر ، فلا والله ماخلصت من عظاته ، وتكفيره لي ، وتخويفي عاقبة أمري ، إلا بانقطاعها ، وهرولت انا ودليلي ، وقد اعطيت الحبيس شبه وعدٍ أن أعود إلى قراءة الكتاب ، وارجع إلى حجر الكنيسة .
وسرّ دليلي بما سمع من وعظ الحبيس لي . وقال لي أن انتصح بقوله حتى انجو من العذاب يوم الدّينونة . ثم قال : (يامعلمي ، شفت هذا الحبيس ؟ كان قبل ان ينقطع في صومعته يقف ساعة امام المرآة يصفف شعره وّيرْطله ، وكان من شباب البلد ، وخطب ابنة عمه فأبت ان تتزوج به ، ولما امتنعت منه امتناعاً قطع معه امله ، دخل في الرهبنة ، فقلت له : هذا قد يقع فيعشق المرء ويخيب أمله في عشقه فلا يجد غير الرهبانية والانقطاع إلى الله عزاءً له وسلوى عما شغل قلبه مدة .

صادفت في الباخرة النمساوية التي هربت عليها من بيروت ، صديقي سعاد بك مدير صحة ولاية سورية ، وشقيق حسين جاهد بك رئيس تحرير جريدة « طنين » التركية في الاستانة ، ومن زعماء حزب الاتحاد والترقي ومن اكبر كتاب الترك ، ومعه صديقه صلاح الدين جمجوز بك صاحب جريدة « قره كوز » الهزلية التي تصدر في الاستانة ، ففرح سعاد لتمكني من الهرب ، وسرته نجاتي من الوالي ، وكان من انسبائه الا انه مشهور بكراهته له ، وأحب أن يغيظه فقال لي سأكتب اليه : كيف تدعي أنك كنت ناظراً للضبطية (مدير الامن العام) لمثل السلطان عبد الحميد ، وهذا عدوك يمرّ من تحت لحيتك في بيروت ولا تدري به فأين معرفتك ويقظتك ؟ فرجوته ان يرجئ هذا المزاح والتشفي من نسيبه على حسابي إلى ما بعد اقلاع السفينة من ميناء يافا ، حتى لا يكون للوالي ولا الدولة العثمانية بجندها وحرابها سلطان عليّ .

وفي هذه الرحلة قضيت في باريز أشهراً حتى برئت ساحتي ، ورجعت إلى بلدي عن طريق الاستانة . وكان الداعي إلى الرحلة شراً فأنتج خيراً كثيراً .

أما الهزيمة الثانية فكانت أهم من الأولى لتشعبها ، وطول الطرق التي سلكتها براً ولأني كنت فيها كل ساعة معرضاً للخطر ، وقد أرسلت حكومة الولاية بصورتي إلى جميع المخافر والثكنات والمرافئ في سورية لاعرف عند رجال الدرك والشرطة فيقبض عليّ حالاً . ونوعت الأساليب حتى أعفي أثري ويغمّ على الوالي أمري ، وأقنعه بأني خرجت من ولايته فما اقتنع ، حتى ان أحد خلاني أتاني بورقة من أوراق الرسائل وبغلاف مطبوع عليها شعار البواخر الفرنسية (الميساجرى ماريتيم) وكتبت كتاباً بالريشة الدقيقة يشعر بأني كتبته على ظهر الباخرة ، ووضع في البريد من بيروت باسم أخي عساه ينفس خناقه قليلاً ويكف الطلب عني ، فلما ألقي إلى الوالي تأمله فقال : الخط خطي ، والورقة المطبوعة ورقة الباخرة ، لكني ما برحت دمشق . وبهذا فقط أثبت أنه ناظر ضبطية قديم .

لما فوجئت بهذه الدعوى الجديدة كنت راجعاً من رحلة إلى المدينة المنورة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً . وكان غرض الوالي من هذه الدعاوي الملفقة اشتغالي بنفسي ، والراحة من نقد صحيفتي ، ولو أياماً قليلة ، وكان الوالي في هذه المرّة أشد نقمة عليّ من المرات السالفة ، وذلك لاعتصامه بالاتحاديين ، وكانوا أتوا به إلى سورية مرة اخرى ليعاضدهم في انتخاب اعضاء مجلس النواب ، فنفذ لهم ما أرادوا ، وهو ما كان من حزبهم ولن يكون ، ورأى أن الفرصة سانحة للقضاء عليّ آخر الدهر . ولما فررت أشاع في جماعة الجند والدرك ان كلّ من يأتي بي اليه حياً أو ميتاً يرقيه من جندي عادي إلى رتبة « بوزباشي » مباشرة ، عدا ما يعطاه من مكافأة نقدية .

كنت قادماً بعد العصر إلى ادارة الجريدة ، فرأيت سرية من الجند

تحيط بها ، فغمزني أحد الشبان أن أرجع ، وكنت على بضع خطوات من الباب فرجعت وتبعني فقال لي : إن أخاك قبضوا عليه الساعة وهم في تفتيش الادارة . ولما رجعت إلى داري وقع في قلبي أن القوة المسلحة لا تلبث ان تأتي للقبض عليّ . وكان الأمر كما حسبت ، فخرجت من داري سائراً على قدمي بين الحدائق لا ألوي على شيء ، ومعي السيد حكمة المسلي ، وانا افكر كيف اقطع نهر يزيد الحائل بيني وبين الجبل ، وكان الوقت ربيعاً ، والأنهار طافحة بالمياه ، فطلبت إلى فلاح هناك ان يجتاز بي النهر فمشى إلى مجاز يعرفه ، وما كان اكثر تعجبه ان رأى شجرة صفصاف كبيرة قلعت من جذعها وأسندت على شاطئي النهر ، كأنها جسر وضع لأعبر عليه ، وسرت قليلاً حتى بلغت قبة السيار ، ومنها سقطت إلى دمر اقصد بيت صديقي الامير عمر الحسني ، وكان حانقاً عليّ لأني كتبت ، او كتبت الجريدة ، تعريضاً بأخيه الامير عبد الله باشا لما قام بدعوة الجمعية المحمدية هو والسيد عبد القادر العجلاني في دمشق ، وكانت قامت هذه الجمعية بايعاز السلطان عبد الحميد ، لقلب النظام الدستوري ، وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي ، وسيق القائمان بها إلى الاستانة المحاكمة وبعد جهد جهيد كتبت لهما النجاة من القتل .

قصدت دار الأمير عمر لأنه افرنسي التبعة ، ومن المتعذر تفتيش داره ، ومع هذا احتاط وخبأني ثلاثة ايام في دار بعيدة . وفي اليوم الرابع ركبنا مع الامير طاهر ابن اخي الامير عمر من وراء جبال دمر فبلغنا المزة . وفي تلك الليلة بحثت الحكومة عني في قرية المزة هذه ، وكبست في صالحية دمشق دار صديقي عبد القادر بك المؤيد ، ولم نقف في المزة بل اجتزنا ارضها فقط ومنها سرنا إلى قرية بلاس وهي مزرعة الامراء آل الامير عبد القادر ، فنزلت في دار الامير محمد ابن السيد محي الدين ، وامه ابنة الامير عبد القادر الكبير ، فقضيت عنده اياماً على غاية من الهناء والطمأنينة ، حتى ابتاع لي الامير طاهر ثياباً بعضها من سوق الخلق

كالمعطف والعباءة ، وهذه أول مرة لبست فيها ثياب غيري ، ولا سيما مثل هذه الثياب الوسخة ، وقد تكون موبوءة ، وذلك لينطلي أمري على من يراني ، وكنت اطلقت لحيتي من يوم استترت ، وشمشت هندامي حتى أشبهت صورتي بعض سكان الحاضر في حماة . وكان جاءني أحد أصدقائي عبد القادر آغا سكر من أعيان حي الميدان وأبطال الرجال يريد أن يصحبني إلى مصر فظننته هازلاً فاذا هو يجد ، ورجع بعد أيام يركب حصانه ، وقد ابتعت حصاناً يحملني ، وفي الساعة التي كانت النار تلتهم سوق الحميدية بدمشق ، والحكومة والناس مشتغلون باطفائها قال الوالي : الآن يفر صاحب المقتبس مغتنماً فرصة اشتغالنا بهذه الفادحة ، فأمسكت عليّ محطات السكك الحديدية كلها ، وفاته أن لدمشق عشرات من المنافذ وأن من اتهم تهمتي لا يهرب من طريق السكك الحديدية مادامت الأرض واسعة . وسرنا عصر ذاك اليوم من بلاس حافظاً لصديقي الأمير محمد أجمل ذكرى ، وقد كتم وجودي في بيته حتى عن أهله وأنسبائه ، ومنهم من كان يكرهني ، وربما كان يتقرب من العثمانيين بدلالتهم على مخبئي .

سلكنا سبيلاً معوجاً في أول مرحلة رحلناها من حوش بلاس ، فاجتزنا أرض المزة وبلاس والأشرفية وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب من قرى وادي العجم فدَير العدس فالحارّة من اقليم الجيدور حتى النقرة من اقليم الجولان ، وانتهينا عصر اليوم التالي إلى نهر الرّقاد ، ولم نهوّم في الطريق إلا دقائق قليلة ، لأن صاحبي كان يوجس خيفة من أن يعرف أصحاب الحكومة بالأمر فيلحق بنا الجند ، وكنا رأينا في الليل والقمر ليلة البدر ، بضعة انفار من الدرك فوقفنا عليهم وشربنا ماءً ، وكلمهم صاحبي بلهجة مغربية فعرفوا أننا مغاربة (وسأل أحدهم في عودته عن سبب مرابطتهم هناك ، فقالوا : إن صاحب المقتبس سيمر من هذه الأرجاء وقد أمرتنا الولاية بالقبض عليه !)

وتعرّف صاحبي عبد القادر آغا في الجولان إلى رجل نجدي اسمه عبد العزيز المحيسني يقود إلى مصر مع ستة من الرعاة سبعة وسبعين جملاً ، هي ملك أحد أصدقائي الحاج ياسين دياب من تجار دمشق . فذكر عبد القادر آغا للمحيسنيّ ماوقع لي ، وما يتوقع من شر يصيبني إذا سقطت في يد أحد رجال الحكومة ، وانه رافقني حتى يبلغني مأمني ، فقال انه سمع بقصتي . ومما قال له صديقي أنك إذا اخذته تحسن لأهل دمشق ، وهو يحمل دراهم يعطيك بقدر ما تحب . فأجابه : تقول لي انك تحسن لأهل دمشق إذا نجا بروحه ، وتعرض عليَّ ان آخذ منه اجرة ، ومتى كان العربيّ يأخذ أجراً على المعروف .

وعاد صاحبي عبد القادر آغا سكر ، وسرت على بركة الله مع جمال النجديين ، فقطعنا سهل الجولان وبتنا تلك الليلة دون عقبة فيق . واقترب مني ساعة نزولي فارس من خفراء شركة الدخان ، يحادثني ويتحبب إليّ ، فأزعجني بكلامه ، ولاحظ اني متعب كثيراً فقال لي : مالك وللجمال تتجر بها — ورُعاة الجمال يوهمون من نصادف اني انا صاحبها — لو فتحت لك دكاناً في سوق باب البريد ببلدك لعشت في نعيم ؛ وخلصت من هذا الشقاء ، ومن قطع الصحاري والبراري ، فتثاءبت وتناومت . فقال لرفاقي « إنه تعبان المسكين » وتركني وانصرف .

ومن الغد هبطنا العقبة فأشرفنا على اراضي غوْر بيسان وبحيرة طبرية ونهر الاردن (الشريعة) فاجتزنا الجسر القديم المتداعي سباحةً على الدواب ؛ ثم توقلنا الجبل الى موقع الدّلايكة ؛ وهو بين جبلين منفرجين متآزبين ، وبتنا ليلتنا في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة . وفي اليوم الرابع دخلنا في غابة عظيمة من شجر البطم نحو ساعتين ؛ فبلغنا قرية دبورية ؛ وفي منقطع ارض هذه الدسكرة يبتديء مرج ابن عامر (سهل يَزْرَعيل) فقطعناه عرضاً في اربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ؛ ومنها إلى وادي عارة ؛ وطوله ثلاث ساعات ؛ وهو ضيق متوازي الاضلاع . وبتنا

الليلة الخامسة في عيون الأساور على ساعتين من قيسارية ؛ واجتزنا في اليوم السادس بقرى نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة ، فبلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا .

وحدثني من أثق به بعد مدة ؛ أن جماعة من أعيان نابلس وشبانها المثقفين ؛ ومعظم شبانها مثقف ؛ استصرخوا أهل قرى نابلس التي يلاحظ اني اجتاز بها ؛ وأشاروا اليهم إذا رأوني أن يحملوني الى مكان بعيد ، ويبعدوني عن أنظار كل من له علاقة بالحكومة ؛ فكان أهل القرية من القرى المستصرخة ينتدبون أناساً من شجعانهم وأصحاب المروءات منهم ، يقفون على الطرق في الليل والنهار ، لينقذوني من مخالب الظالمين وباتوا يترصدون المعابر والمسالك أياماً وليالي حتى قرأوا في الصحف المصرية أني بلغت مصر . وهذه مروءة عربية استرق بها النابلسيون قلبي مادمت حياً .

وفي اليوم السابع اجتزنا قرى الساحل مثل جبنة ، سدود ، مجدل بربرة ، بير هِدِيد ؛ غزة . ورأينا بعض المستعمرات اليهودية الزاهرة . وقضينا الليل في دير البلح . وفي اليوم الثامن دخلنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة ، وبعد مسيرة ست ساعات بلغنا محطة رَفح اول حدود مصر والشام . وفي اليوم التاسع دخلنا في رمال خمسة أيام حتى قالت الاسماعلية : ها أناذه . وكنا نسير في هذه الجفار على مقربة من البحر لانبعد عنه كثيراً ، والرمال لايتبدل شكلها .

ذكرت هذه المراحل لأني قطعتها على راحلتي وما كنت لأقطعها لو خُيرْت . وقد استفدت من هذه الرحلة فوائد جغرافية وطوبوغرافية . وما كان يومئذ خط حديدي يصل بين آسيا وافريقية أو بين دمشق والقاهرة ، ولا طرق معبدة تسلكها السيارات . وقصدت بتقييدي هذا تسجيل ظاهرة غريبة ، أو بدْع قديم َبطلَ ، وذكرى أيام قضيتها في عالم الأباعر فاستحليتها وهي مُرّة .

✡ ✸ ✡

قلت في محاضرة ألقيتها في الاسبوع الذي بلغت فيه القاهرة ، في فندق ادن بالاس ، اجابة لمقترح جماعة من السوريين ، بعد أن عددت ماوقع لي منذ خرجت من بلدى إلى أن دخلت الاسماعلية ، وألممت بتاريخ ذاك الطريق الذي كان من أعمر الطرق منذ كان الاسلام : وكأن رحلتي في الشهر الماضي الى الحجاز وجنوبي الشام ونزولي على أهل البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هـذا الشهر من مؤاكلة الاعراب في صفحة واحدة ، وفقدان الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والأكل من طعامهم تُمَّنِ العراق وجريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة أو على الساج يُسجر ببعر الاباعر ، والرمال تسفو فتدخل كل مايعمل هناك من خبز وأدم ، وكل مطبوخ ومعجون .

ولقد حملوا لي الماء في قربة فما هي إلا ساعات حتى تغير منه الطعم واللون والرائحة ، وبقيت خمسة ايام أسقى من هذا الماء وأعده نعمة بالقياس إلى مياه الجفار البشعة المهوّعة ، وهي بعض ماء البحر روّقتها الرمال قليلاً . وأذكر ان « خَويي » الحيسني ناداني مرة ، وجمالنا مسرعة في طريقها ، وحاديها يحدو لها بصوت يذكر بنجد وأهل نجد ، فالتحقت به مسرعاً ، وما انحرفنا دقائق عن قارعة الطريق حتى كنا وسط فريق من العرب فاستسقى فأتوه بذُكرة شرب منها وأعطاني فاذا بها لبن رائب ثم ارادني ان اشرب واشرب ، واردت ان اعطيهم شيئاً فأشار إليّ الا افعل . وكنت اتمنى شربة واحدة من هذا اللبن كل يوم وادفع فيها جنيهاً وانا غير مغبون . وكنا مرّة نزولاً على بئر أنشيء على عهد الخديوي عباس الثاني ، وعليه كتب اسمه ،فاتاني وليد بمقطف من الطماطم (البندورة) الصغيرة فأحببت أن أعطيه ريالاً فصرخ خَويي « بشلك » ثم قال لي : اذا توسعت في اكرام البدو هذا التوسع تضرّ بنا فنحن لانزال نجتاز بهم طول السنة فاذا تعودوا الكثير نضطر أن نعطي كل مرة كما أعطيت فلا يستقيم لنا بعد ذلك حال معهم .

وكنت في الليلة التي نجتاز في صباحها برفح آخر الحدود العثمانية المصرية قلقاً جداً ، وقضيت ليلي وأنا في هواجس أدبر وأقدر . وسرت قبيل الفجر أمام قطار الجمال وأنا أقول في نفسي : الآن فصل الخطاب فاما أن أنجو وأدخل أرض مصر ممتعاً بالنعيم بعد هذا الشقاء ، أو أعود أدراجي وأنا في قبضة الترك إلى مُطبِق من مطابقهم ، ألقى ما ألقى من معاملتهم الجائرة . وبعد خمس ساعات سألت المحيسني متى نبلغ رفح فقال : قطعناها منذ كذا ساعة ودفعنا عنك للجندي ثمن علبة دخان لما اعترضنا قائلاً إن إخراج الخيل من الأرض العثمانية ممنوع ، فأقنعناه بأن هذا حصان راعي الجمال الذي تراه . فأخذ « البشلك » وهي قطعة تساوي قرشين ، ولم يمسسنا بسوء ولم يحقق من أمرنا غير ما رأى .

وسعدت في هذه الرحلة ان رأيت بين الشام ومصر صورة مصغرة من عيش اهل جزيرة العرب ، وذلك بالاختلاط مع تجار الجمال ورعاتها ، وكلهم نجديون لا يعرفون الفضول ، وما رأيت أحداً سأل خويي عبد العزيز عني بالاشارة ولا بالعبارة ، وكانوا في كل مساء وصباح يختلفون إلينا ونختلف إليهم ونشرب القهوة معاً ، وحديثهم في البعير وسوقه ورعيته وثمنه ورواجه وكساده . ولم اسمع في اربعة عشر يوماً بلياليها كلمة هجر وبذاء ، ولا تجديفاً ولالعناً ، ولانميمة ولا غيبة ولا كذباً ولا منكراً . وكان اولئك الأعراب مواظبين على صلواتهم ، يتيممون بالرمل إذا اعوزهم الماء ولا يسرفون فيه إذا وجد . وأنست بلهجتهم وفيها كثير من الفصح ولها رنة تطربك .

نزلت في الخيام في الشهر الذي وقع قبل هذه الرحلة ثلاث ليال في أرض ابل على شيخ من عرب الشرور اسمه محمد ابراهيم ، وأخرى في بير البيطار على محمد ابي الفرج شيخ بني عطا وهذان المنزلان على مقربة من وادي موسى ، وبت ليلة في الزيزاء (الزيزة) عند صديقي فواز بن سطام شيخ مشايخ بني صخر فرأيت العيش البدوي على اختلاف درجاته ، وكان

العيش في الليلتين اللتين قضيتهما في بلاد الشراة « ديمقراطياً » وفي ارض البلقاء « ارستقراطياً » نمنا هنا على فرش الحرير محشوة بريش النعام ، وشربنا في الصبح لبن النياق .

سألني أحد الأعراب أي العيش افضل لنا نحن البدو : الحضارة ام البداوة ؟ فقلت له : ابقوا على بداوتكم واقتربوا من المدنية ما سمحت لكم حالتكم وإياكم أن تغفلوا عن تعليم أولادكم . وإني اخاف إذا عاشرتم الحضر فأكثرتم من عشرتهم ان يختلط عليكم أمركم وتخرجوا عن فطرتكم واخلاقكم إلى ما تئن منه حضارتنا من النفاق والكذب والتزوير والخديعة . ولولا الغارات المتواترة عندكم لآثرت أن اعيش في هذه الديارات بين البوادي ولو اشهراً في السنة .

زرت في تلك الرحلة عمان والصلت والكرك ومادبا ومؤته ، وجئت معان فقصدت إلى عاملها صاحبي القديم حليم بك ابو شعر وطلبت منه ان يصحبني بدركي لزيارة وادي موسى فنادى دركياً واسرّ إليه شيئاً في اذنه ، واظنه قال له أن ينتبه لحديثي مع البدو وان يجيئه بخبري كله . وشكرتُ له لأنه لم يقل له جئني برأسه ، ولو فعل لجلب السرور إلى قلوب الاتحاديين ، القابضين على زمام المملكة يومئذ ، ولرقيت درجته في ذاك الاسبوع . وانتهى بنا السير قبيل الغروب إلى عين ماء عذبة على خمس ساعات من معان فقلت للدركي : نتعشى هنا ، فاستنكر ذلك وقال : وهل يمكن هذا وبعد ساعة نصير إلى قبيل العرب فيذبحون لنا ؟ فأقنعته بأن نأكل من زادنا لأني لا اريد ان اشق على الفقراء فنزل واكلنا .

وفي العشاء كنا نزولاً على العربان فما ان ترجلنا حتى سمعت صوت « المهباج » لعمل القهوة واصواتاً اخرى تنبئ بأن الخروف يذبح . فقلت للدركي : قل لهم انا تعشينا : فقال : هذا كلام لا يسمع ، دع هؤلاء الذين تراهم من الصبيان والشبان والرجال يأكلون الليلة على جرايرك (بسببك) فانهم ينتظرون قدوم الضيف على شيخهم حتى يذبح له فيأكلون الفضلات . وانتظرنا

ساعتين فخرج الخروف في قصعة صغيرة وجعلت تحته رقاق من الخبز لُتت بالمرق واللبن الرائب فأصبنا منه قليلاً إرضاءً لهم ، وكنا نراهم . والقريب من القصعة يتبعض للبعيد عنها ، فتسافر قطع اللحم من فوق رؤوسنا وتتعاور العظامَ أيدي البدو فأعمهم وهم يَعرقونها بأسنانهم كما يعرق الكلاب العظم . وخمنت من تناولوا من الخروف تلك العشية بنحو خمسين نسمة ، ولو لم نجئهم لباتوا على الطوى . ولو قدرت انا سننزل على مثل هؤلاء الاعراب يكرموننا هذا الاكرام على فقرهم لحملت اليهم من معان على الأقل بعض الثياب أكسو بها بعض أبنائهم وبناتهم لأنهم كانوا أشبه بعراة .

وأعظم ما ملأ نفسي سروراً في رحلتي إلى المدينة المنوَّرة أن رأيت العمران بدأ يسري ، بفضل السكة الحجازية ، إلى بعض المحطات ، وأخذت المدنية تدخل في تلك القفار ، ويجري الانتفاع بالمياه المخزونة في بعض الأودية في ارواء الارض ، فأنشئت الحقول والحدائق بعد بلدة معان ، وبدأ الأعراب هناك يتذوقون طعم السكنى ، ويتعهدون الزرع والشجر ، ولو ظلَّ استثمار الخط إلى اليوم لرأيت قرىً قامت على جانبي هذا الطريق الطويل ، وصار للبادية ما تتبلغ به وتعيش ، ولقامت بعد الديار الشامية حتى مدينة الرسول « هجرات » على النحو الذي قامت في بلاد نجد بفضل الملك عبد العزيز آل السعود فأغنى أهلها عن الغارة ، وعلمهم الحرث والكرث ، وحبب اليهم عيش المدَر بعد عيش الوبر .

ولاحظت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام أن جميع العناصر الاسلامية تدخل بخشوع وأدب لا يكونان في أبناء العرب ، فان هؤلاء يضطجعون ويأخذون حريتهم ، ويلقون بنعالهم كيف اتفق ، مما لا يصدر مثله من الهنود والأفغان والجاويين والايرانيين والقوقازيين والسودانيين والاتراك ، كأن أبناء العرب يرون ان صاحب هذا القبر الشريف هو بعض أبناء عمهم أو احد إخوتهم ترتفع بينهما الكلفة ، على ماهو الحال بين ابناء أسرة واحدة .

ولسألني وقد ألعبتك بما قصصت عليك ، وأنت هل تعبت بقطع هذه المسافات التي قطعتها راكباً حتى بلغت مصر ، فأقول لك ان ربك يبتلي عباده ويعينهم. كنت إذا ركبت دابتي إلى قربتي ثلاثة ارباع الساعة أضطجع إذا نزلت عنها ساعة أو ساعتين للاستجمام ، ولم تنقص أقل مرحلة قطعناها هذه المرة عن اثنتي عشرة ساعة ، وكثيراً ما كنا نسير ثماني عشرة ساعة في اليوم ، وسرنا في اليوم الأول اربعاً وعشرين ساعة متتابعة ، فكانت مرحلتنا الأولى كسائر المراحل غير شاقة ، وما أحسست بتعب يذكر ، وقد نكتفي بنوم ثلاث ساعات ننشط عقبها للركوب كأننا نمنا ثماني ساعات على فراش وثير ، ذلك لأن نومنا كان بالعراء على الأرض بعيدين عن القاذورات والرطوبات . وكنت أنشط اليوم بعد اليوم وآلف هذا العيش لا أتبرم به كثيراً ، وهو جديد بالنسبة لابن المدن والرفاهية .

ولما بلغت بعد ظهر اليوم الاخير من هزيمتي مدينة القاهرة قصدت إلى مقهى « اسبلنديدبار » تواً ولم أكن أحمل معي شيئاً إلا ما عليّ من ثياب وسخة . فكان كلما جاء واحد من اصحابي الصحافيين يعمى عليه أمري ، حتى أتكلم وأضحك ، أو يذكر له من سبقه اسمي الصريح ، وتجمع عليّ منهم بعد ساعتين عشرات شغلنا النصف البراني من القهوة ، والانظار تحدجنا ، والطليان ينظرون الينا شزْراً ، وكان مقهاهم وراء مقهانا ، ولعلهم ظنوني بعض أولئك الأعراب الفارين من ليبيه ، وكانت الحرب يومئذ على ساق وقدم بينهم وبين العثمانيين . واخذني حقي بك العظم وصورني بذاك الهندام العجيب ، وساقني رفيق بك العظم أمامه إلى داره ، فقلت له : انزل في الفندق ، فقال : ما من فندق في القاهرة يقبلك وانت على هذه الوساخة . ومن الغد خلعت حلتي ، وحلقت لحيتي ، وعدت إلى قيافتي . وعندها بدأ التعب يدب في جسمي ، ولم ترجع إليّ قواي إلا بعد نحو اسبوعين ، حمدت الله على السلامة ، وأنشدت مع من أنشد « أنت يامصر ملجأ الأحرار »

شبك نجوت منه ونجوت به

زارني في داري قبل الحرب العامة بنحو سنتين أحد موظفي خارجية فرنسا (ج . ب) ، وكان أوصاني به قنصل دولته في دمشق ، فرأى على مكتبي جريدة (الطان) ففتح الكلام بأن قال : إن اهل الشرق الأدنى يتوهمون أن هذه الصحيفة هي لسان حال خارجيتنا ، والصحيح أنها لسان حال نفسها لا تنطق بلسان الحكومة ، ولا هي من الصحف الرسمية . ثم قال إن جريدة المقتبس إذا خدمت سياستنا ، فلصاحبها أن يطلب ما يحب مقابل خدمته ، وقرّب وبعّد من هذا المعنى . فأجبته بلطف بما معناه : إنك تعرف ولا شك الاتحاديين ، جماعة حزب الاتحاد والترقي ، القابضين اليوم على زمام الدولة ، وتعرف أن الأتراك مثلنا من أهل الاسلام ، لا فرق بيننا وبينهم إلا هذه اللغة ، وتعرف أن جامعتنا بالأتراك لم تبدأ بفتح العثمانيين أرض العرب ، بل كانت علائقنا بهم وشيجة منذ انتحلوا الاسلام أوائل الحكم العباسي ، وقد ساروا معنا في قتال الصليبيين جنباً إلى جنب ، وبهم وبالأكراد دفعناكم عن بلادنا في القرون الوسطى . ولما بدا للاتحاديين أن يتركوا العناصر كان من رجال العرب أن حاربوهم بكل ما عندهم من أسباب الكفاح . وذلك لأن العرب لا يريدون أن يتخلوا عن لغتهم وقوميتهم ، يعتزّون بتاريخهم ويعجبون بحضارتهم . وأنتم كيف تريدوننا أن نسير معكم مع مخالفتكم لنا في الجنس والمدنية واللغة والدين . وكيف نشايعكم وأنتم تحاولون القضاء على لغتنا وقوميتنا في كل ارض حللتموها . بدّلوا سياستكم في الجزائر وتونس ، والمسلمون طيبة قلوبهم يعترفون بجميل من يسدي إليهم يداً ، ونحن في الحال نردد صدى امتناننا منكم ، بدون مقابل على ما ننشر ثم إني وإخوتي مكفيون مؤنة الرزق ، ولنا مزرعة في

الغوطة ترتفق بريعها ، وأنا واثنين من إخوني نعمل في الجريدة ، فاذا كانت الصحيفة مثلاً تكلف غيرنا في السنة ألف ليرة فنحن تكلفنا خمسمائة وجريدتنا رائجة ولها قراء ، وتباع في جميع مدن سورية ، ولها موارد جيدة من الاعلانات .

تململ الزائر من هذا الجواب ، وأكد عليّ قبول اقتراحه فقلت له : لا يسعنا إلا أن نكون مع العثمانيين . وجاءني بعد الحرب العالمية بأكثر من ست عشرة سنة يزورني في داري فلم يجدني . والغالب أنه اشتاق إليّ وأراد أن يذكرني باجتماعنا السرّي على عهد العثمانيين ، وبما بدر على لساني يومئذ ، والسياسة تتبع الأحوال ، وتتبدل بتبدل الأزمان .

ومن كان يظن بأن ما جرى بيني وبين الرجل قد حفظت صورة منه في دار القنصل . وتصرّفت الأقدار تصرفها ، ونشبت الحرب العامة ، ووضعت الدولة يدها على القنصليات ، وفتشت أوراقها ، واهمها الاطلاع على أسماء من كان لهم من الأهالي صلة بها ، فخرج تقرير ذاك الرسول الذي كان قصدني قبل الحرب ، وفيه تفصيل لما وقع لنا من حديث ، فدهشت الحكومة العثمانية من تصريحاتي هذه ، وكانوا يتهمونني بالتصالي بفرنسا تارة وبانكلترا أخرى ، ويرمونني بخيانة الدولة على كل حال ! ثم خرجت لي أشياء في أوراق دور قناصل فرنسا في بيروت وحلب ، ومنها منشور عام من سفير فرنسا في الاستانة إلى قناصل دولته في الديار الشامية يقول فيه : إن كردعلي شخص لا يركن إليه ، وإن الحكومة التركية استرضته مؤخراً ، وبرأته من دعوى كانت أقيمت عليه ، وحذّرهم مني وقال : إني لا أسير إلا مع الأتراك .

وكان السبب في نزع الثقة مني أني أبنت عن رغبتي لأحد أصحابي في باريز ، وهو المسيو لشاتليه صاحب مجلة العالم الاسلامي الفرنسية ، بزيارة المانيا في عودتي من فرنسا (١٩٠٩) فقال لي : إذا فعلت اخرجك من صداقتي ، ولا أعرفك ولا تعرفني . وعجيب من حال بعض السياسيين من

الغربيين ، يطلبون منا أن نوالي من يوالون ، ونعادي من يعادون ، ونحن لا دخل لنا في سياساتهم المتبدلة .

ووقع الاتحاديون في كتب ضبطوها من البريد على ما يؤيد أيضاً تعلقي بالعثمانيين ، وهو كتاب من رفيق بك العظم إلى فرع حزب اللامركزية في دمشق ، جواباً على كتاب رئيس الحزب خلاصته أنهم عرضوا عليّ الدخول معهم فأبيت ، وقلت لهم : إن الدولة تعد برنامج هذا الحزب خروجاً على سلطانها . فكان جواب رفيق بك : دعوه وشأنه ، إنه يعترض أبداً فيخرب ما نريد أن نعمره . ذكر لي ذلك ضيا بك ضيف جمال باشا الذي أشرت اليه في مكان آخر .

أدرك الاتراك أنهم ضلوا كثيراً باتهامي زمناً بأمور أنا بريء منها ، وجاءتني التبرئة بطبيعتها تمشي على قدميها ، ومضت أعوام وأنا أرمى بكل كبيرة ، ويتهمونني بأني عدو أزرق لدولتهم ، جرياً على العادة المتبعة في اتهام من يقصد اتهامه بأقصى التهم وأشدها . وكنت أرى من الغضاضة عليّ أن أبريء نفسي مما ينسب إليّ ولم يخطر لي ارتكابه ببال . وما كان يتأتى لي ذلك ، ولو أتيتهم بألف برهان على براءتي ما صدقوني ، لان معظم الخلق ينضح من انائه ، والكذاب يعتقد ان كل انسان يكذب ، والسارق يعتقد ان كل امريء يسرق . وكنت اكتفي بأن اقول إن كانوا يتهمونني بأن لي ضلعاً مع الانكليز او الفرنسيين فان من يشايع دولة لا بد ان تظهر على كلامه امارات التحزب لها ، وتبرير مواقفها في سياستها ، فهل يجد الاعداء يا ترى في كل ما كتبت في جريدتي المقتبس وفي الصحف التي آزرت فيها في مصر كالمؤيد والظاهر واللواء والرائد المصري كلمة واحدة تشعر بتشيعي للدول صاحبة المطامع في الشرق . ولطالما انتقدت سياسة الدولتين اذا رأيت ما يحق لي نقده .

وبعد فان هذه التقارير والشهادات كانت سبب نجاتي من القتل اثناء الحرب العامة . وكان اعدائي واوليائي يقولون اني سأكون اول المصلوبين

من ابناء العرب إذا وضع الميزان للحساب . وكان الاتراك يحرقون عليَّ الأُرَّمَ ، لكثرة ما تأذوا بما كتبت . والحق إني كنت الحي على القائمين بالامر ، كلما تقاضيتهم بعض حقوق العرب المشروعة ، وهي مطالب لاتخرجهم من حظيرة الدولة وتزيد قلوبهم ارتباطاً بها . واكثر ما كنت اردد نغمته التعليم باللغة العربية في الابتدائي والثانوي ، وجعل المحاكمات بالعربية في الولايات العربية ، وان يعرف العمال بأجمعهم اللغة العربية ، إلى غير ذلك من المطالب المعقولة ، وكان بعض الاتراك يتألمون من سماع هذه النغمة ، لئلا تسري بزعمهم إلى الاكراد والالبان والروم والارمن وغيرهم من العناصر العثمانية .

بالغ الأتراك في اضطهادي ، وانا صابر لا يزيدني ما القى من اذاهم إلا ثباتاً على المطالبة بحقوق الامة . ولقد اغلقوا الجريدة مرات في عهد الدستور والحرية ، بضروب من التهم المضحكة لفقوها ، وآخر اغلاق كان لنشري مقالة عنوانها (حجاب النسوان) نقلت عن صحف الاستانة ، فصدر الامر باقفال الجريدة شهراً ، بدعوى أن المقالة خدشت الاذهان ! ثم رخصوا باعادة صدورها ، فاستنكفت من معاودة نشرها واعلنت اني لا احب العودة إلى الصحافة لما اورثتني من متاعب ، وهنا عرض عليَّ قنصل فرنسا معاونته بواسطة صديقي جورج فاخوري اولاً ، ثم كلمني شفاهاً بنفسه ، فأبيت اخذ شيءٍ منه ، وشكرت له عاطفته الكريمة . واخذ الجواسيس يراقبونني ، ويتبعونني في غدوي ورواحي ، ويكتبون اسم كل من يزورني في داري ، وازوره في داره او مكتبه . ودام ذلك اشهراً حتى اعلن النفير العام ، وعزمت الدولة العثمانية على الدخول في الحرب إلى جانب دول اوربا الوسطى .

والي سورية خلوصي بك

نصب والياً على سورية خلوصي بك شيخ المهندسين في الدولة العثمانية ، وهو رجل عظيم بأخلاقه وعلمه ، وكان يحب الشام ويعطف على أهله . وقيل لي انه كان ربي فيه صغيراً ، وإنه يحسن التكلم باللهجة الدمشقية ، وأنا لم أكلمه بها . جاء في أول النفير العام قبل اعلان الحرب العامة بأشهر قليلة ، فزرته أول مرة في مكتبه ، فقابلني بعبوس وتجهم ، ثم قال لي : إن الوقت ضيق ، وأشار إليّ أن أزوره بعد رمضان ، وكنا في أوله . وبعد أسبوع بعث يطلبني اليه بواسطة الشرطة فأتيته ، فقال لي : إن الحالة السياسية الحاضرة اقتضت أن يعجل الاجتماع بي ، وذكر لي أنه يحمل من الاستانة اضبارة ما أتهم به ، وان الحكومة تنسب إلي مسألتين ؛ احداهما أني أعقد الآمال على استيلاء فرنسا على هذه الديار ، والثانية أن قنصلها في دمشق يزورني وأزوره . فلما سمعت قوله انتصبت قائماً ، والغيظ آخذ مني ، ضربت بيدي على مكتبه بدون اختياري ، وقلت له بصوت عالٍ ، مما يخالف أصول الأدب مع الكبراء : إني أرى يادولة الوالي ان وجودي اصبح عبئاً ثقيلاً على الحكومة العثمانية في هذه الارجاء ، وانا منذ مدة والجواسيس يتبعونني حيث سرت ، وتكتب كل يوم قائمة باسماء من يدخل بيتي أو أدخل بيته ، ويراقب بريدي مراقبة مضحكة ، فهلا امرتم باخراجي من المملكة كلها ، او بحبسي في إحدى القلاع ، او نفيي إلى بلد بعيد ، انقطع فيه عن اتيان ما تعتقدونه ضاراً . اما آمالي مع فرنسا فان لم أكن اول من يعرف غوائل الاستعمار فأنا ولا شك احد افراد خمسة على الاكثر يعرفون ما هنالك . وأما صداقتي لقنصلهم فسببها انه رجل مستعرب يحسن العربية ، وكان اسمه المسيو اتافي ، وهو يستعير مني كتباً ، وانا أستعير منه الصحف

الممنوعة ، ثم إني إلى ذلك أجتمع مع معظم القناصل ، لأني أحب أن أتخبر لجريدتي ، وهم عارفون بالحركة السياسية ، ووكلاء الدول طبقة مهذبة في أممهم ، واجتماعي بهم أعود عليَّ وعلى امتي وجريدتي من اجتماعي بالعامة ومن في حكمهم .

فحدق الوالي النظر فيَّ دقيقتين ثم أجاب : يا هذا ليس لك أن تغضب ، ما دمت موقناً أنك على حق . وأنت عالم بأن المشتغلين بالسياسية عرضة أبداً لطعن خصومهم فيهم ، ينالون من شرفهم ، ويتهمونهم بأمانتهم ، ويضربونهم في كل عزيز عليهم . إذا عرفت هذا فليس لك إلا أن تضحك مما يلصق بك أعداؤك من التهم ، فمن الطبيعي أن يعاملوك هذه المعاملة ، ولا تتوقع منهم غيرها . فشكرته على هذا العطف واللطف ، وانصرفت من لدنه وهو يرجوني أن أزوره كلما السمع لي الوقت ، فقلت له ضاحكاً : على شرط ألا أجيءَ بواسطة شرطي . قال : وهو كذلك .

وجئت الوالي المظم بعد أسبوع فقال لي : وهو ضاحك مستبشر ، أكثر من زيارتي لتقلل من تقارير الجواسيس فيك ، فاني لاحظت أن تقاريرهم خفت هذا الاسبوع ، وآخر تقرير منهم كان فيه أنك اجتمعت وشكري بك العسلي وشخصاً آخر سماه ولا أذكر الآن اسمه ، وأتيتم براقصة وعريتموها من ثيابها ولففتموها بالعلم الفرنسي ، فضحكت وقلت له : من رآنا ونحن على هذه الحال المنكرة ؛ وهلاّ أغلقنا النوافذ والشبابيك أصلحنا الله ؟ وثقوا أن هذه الرواية الخلاعية لا يمثل مثلها في باريز ، كأن تكون في العراء أو في غرفة مفتحة من كل أطرافها ، وإني لم اجتمع مع شكري بك وأصحابه على منكر قط .

زرت الوالي بعد العيد فأهل بي ورحب وبشَّ لي كثيراً ، وقدمني إلى من كان في مجلسه ، ومعظمهم من كبار الموظفين الاتراك والنواب ، فاتفق أني ما كنت عرفت واحداً منهم ، فقال لي : من الغريب أنك لا تعرفهم وهم أرقى فئة من عمال الدولة هنا ، فقلت له : إن بعضهم جاء سورية

من عهد غير بعيد ، وليس لي بهم علاقة ، ولم يتفق لي الاجتماع بهم ، لأنهم في واد وأنا في واد . ثم قال لي : أهنئ نفسي وأهنئك ، أهنئ نفسي لأنك تذكر اجتماعنا في أول شهر رمضان ، وقد ذكرت لك ما يوجهونه إليك من التهم ، إني في ذاك النهار برأتك على الفراسة لجماعة الاستانة ، ونفيت عنك ما ألصق بك ، وأنا الآن أغتبط بأن كنت صادقاً في تبرئتي لك . لأن أوراق قنصل فرنسا أثبتت أنك كنت واخوانك مخلصين صادقين لهذه الدولة ، وكنا نعتقد في جماعة الاخلاص ونرميكم بالخيانة ، فثبت الآن أن من توهمناهم مخلصين هم الخائنون حقاً ، وأنتم الصادقون (وأشار إلي أحد الباشاوات) فاسرح وامرح بعد الآن ، فقد برئت براءة قطعية ، فلك تهنئاتي وتهنئات حكومتي . فشكرت وانصرفت ، وفرحت وفرح معي كل من يحبني فرحاً عظيماً .

استحكمت أواصر الصداقة مع الوالي ، وغدا يكلمني بحرية قلما عهدتها في تركي ذي منصب سياسي خطير ، ولكن خلوصي بك كان عالماً كبيراً من علماء الدولة العثمانية ، قبل ان توسد إليه الولاية ، والعلماء أحرار بالطبع . وصرت اجلس في حضرته الساعة والساعتين ، وهو يمازحني ممازحة الأب لابنه ، ويلاطف بعض الموظفين والعمال ، وبعض كبار ارباب المصالح . سألني مرة ماذا دبرت لاعفائك من الجندية ، ألست ممن أصابتهم القرعة ؟ فقلت له أصابتني القرعة وأصابتني مصيبة بدفع أربعين ليرة بدلاً نقدياً . فقال : أحسنت بأدائك البدل ، وبايثارك دفع المال على الخدمة الفعلية ، فقلت له : ولم ذلك ؟ وانا لم أفهم قول سيدي الوالي أحسنت . وكيف أحسن بتفريطي هذا المبلغ ، في وقت سُدَّت فيه أبواب المصارف في وجوه معامليها ، فلا يستطيع أكبر غني أن يأخذ شيئاً من ماله ، ولا رجاء لمضيق أن يستدين من أحد ديناراً واحداً . قال : نعم أحسنت لأنك لو دخلت في الخدمة لأفسدت الجيش ، فلو كنت في خمسة آلاف جندي لفضضتهم ، بما تورد لهم من البراهين على قلة فوائد الحرب ، وعلى فظاعة

القتل ، فيرجعون من حيث أتوا . فقلت له : كأن مولاي يعرف ما في قلبي ، والله لو علمت أن هذه الدعوة تنجم ما تأخرت عن الجهر بها لحقن دماء البشر ، وتقليل نصيبه من الشقاء .

قلت لخلوصي بك ذات يوم إن قنصل ألمانيا يطلب مني أن أعود إلى إصدار جريدتي المقتبس ، ويلح كثيراً للاسراع بذلك وكان صديقي نظيف بك الخالدي المهندس كلمني سراً أن أصدرها وقال : إني إذا بقيت على امتناعي عن إصدارها ، يعد الاتحاديون ذلك تمرداً على الدولة ، وينبشون دفاتري العتيقة ، وهم لا يتلكئون عن إيقاع شرّ بي ، والعهد قريب بما كتبت فيهم وفي حزبهم . وقلت للوالي : إني قلت للقنصل بالواسطة إنني أحتاج إلى ألفي ليرة عثمانية لاصدار الجريدة ، لأني مدين بألف ، وأريد استخدام الألف الأخرى في تغذيتها سنة او سنتين على الأقل ، فاستعظم القنصل هذا المبلغ ، وقال إن جريدة من جرائد الولايات لم تقبض قط اعانة عظيمة كهذه .

وقال لي الوالي مرة : إلامَ أقول لك أن تعود إلى إصدار جريدتك وأنت تأبى ، وما أدري وجهاً لابائك وعليك دين فمن يسدّ عنك ديونك وأنت مدين بألف ليرة كما أخبرني شكري بك العسلي ، فقلت له توفيها عني فرنسا أوانكلترا أو ايطاليا فدهش الوالي لقولي ايطاليا وقال : صحيح إن لفرنسا وانكلترا مطامع هنا ولكن ما شأن إيطاليا في الأمر ؟ فقلت له : إني في السنة الماضية (١٩١٣) رحلت إلى ايطاليا لأبحث عن مواد تاريخية كانت مجموعة في خزانة خاصة لأحد علماء المشرقيات الايطاليين ، فكتبت صحفكم الاتحادية ، أني قبضت من إيطاليا عشرة آلاف ليرة . وبينا كنت أبكي في رومية يوم افتتاح مجلس نوابها ، لانتزاع طرابلس وبرقة من الحكم العثماني ، وقد تعرضت حكومة إيطاليا لذكر ذلك ، وفاخرت به في أول جلسة من دورة مجلس النواب كان أعدائي يتهمونني بأني ذهبت إلى رومية لقبض رشوة حكومتها ، وأنا لا ناقة لي ولا جمل في ليبية . فضحك الوالي حتى بدت ثناياه ، وضحكنا ضحكاً سمعه من كان ينتظر على الباب ليؤذن له على الوالي . ولما جاء الآذن يستأذن لأحدهم سلّمت وانصرفت .

جمال باشا والمقتبس

بينما كانت المفاوضات جارية بشأن اصدار المقتبس ، وأنا اقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، وقنصل ألمانيا يلحّ على الاتحاديين لاقناعي باصداره حالاً ، نصب قائداً على الشام ناظر البحرية احمد جمال باشا . ولما خلا بالوالي خلوصي بك ذكر هذا له ما يقترحه القنصل بشأن اعادة المقتبس ، فسأل جمال باشا عني وقال : أليس هذا هو الذي كان يكتب فينا تلك الكتابات المرة ؟ فقال له : نعم هو بعينه . فلما رآه قد استغرب هذا الاقتراح قال له سأطلعك على ما ظهر له من اشياء تثبت شدة تعلقه بعثمانيته ، وجاءه بالأوراق التي ظهر فيها ذكري في القنصليات الفرنسية ، فدهش القائد لما رأى وقال : وعلى ذلك فالرجل قد ظلم ظلماً فاحشاً ، وعلى الدولة لا على المانيا أن تعوض عليه خسائره الناشئة من اغلاق جريدته مرتين . وطلب الوالي إليّ مقابلة القائد فذهبت اليه وبحثنا في شؤون الجريدة . ودفع إليّ في الحال كيساً فيه اربعمائة ليرة عثمانية ، وقال لي : بعد أيام سأتمم لك المبلغ إلى ألف ليرة ، واكراماً لخاطري ، وقبض على لحيته ، أصدر الجريدة بأسرع ما يمكن ، فقلت له إن الجريدة تصدر بعد غدٍ بحسب أمرك فسر كل السرور .

وعادت الجريدة إلى الظهور ، وبقيت مدة لا أكتب فيها مقالات افتتاحية ، فلفت القائد جمال باشا المرسيني نظر القائد أحمد جمال باشا إلى ذلك ، فسألني عن سبب امتناعي عن الكتابة ، فقلت له : كتبت فحذف المراقب ما كتبت غير مرة ، فقال : اكتب وأنا أراقب ما تكتب ، فكتبت مقالة قرأها مع الأمير شكيب أرسلان ، وأرسلها لتطبع ، وأمر ألا يحذف شيء مما أكتب ، وأن يتخطى قلم المراقبة مقالاتي وقال إني أعرف كيف أدير القلم في خدمة الحكومة ، واقدر الحال الذي نحن فيه .

وبقيت على ذلك حتى صدرت جريدة (الشرق) جريدة الدعاية التركية الالمانية ، ووسدت إليّ رياسة تحريرها ، وطلب مني القائد رفع اسمي من

جريدة المقتبس ، لترويج الجريدة الجديدة ففعلت ، وتركت الجريدة لأخي احمد يتولى تحريرها وحده .

وأخذ جمال باشا يحترمني كثيراً ، ويمازحني ونتباسط ، ولكن لابالصورة التي كان يعاملني بهـا الوالي خلوصي بك فمع هذا كانت صداقة أكيدة ، وعين الحب ظاهرة فيه كل الظهور . سألني القائد مرة مازحاً : مالك لا تكتب مقالات في العرب ، ومجد العرب ، وفضل لغة العرب ؟ كما كنت تكتب قبل الحرب ، فقلت له : الآن نحن فيشغل شاغل عن ذلك ، وبعد الحرب نعود بحول الله إلى ما كنا عليه ، فضحك ضحك استهزاء ، ولسان حاله يقول : لئن كتبت الآن هذا لأصلبنك . وسألني مرة كم عمرك ؟ فقلت ثمانٍ وثلاثون سنة . قال هذا كثير فقلت له : يعني أني صرت كبشاً ثميناً ، وحان وقت ذبحي لتأكلوا لحمي ، فضحك كثيراً .

وما زال جمال باشا يظهر لي كل عطف ، ويتحبب إليّ ، ويقول فيّ كلام المعجب بصاحبه . قال لي أحد ولاتهم ، ونحن نجتاز الجسر في الاستانة ، أواخر الحرب العامة ، وكان جمال باشا قد غادر الشام منذ مدة . قل لي ماذا كان منك لجمال باشا حتى وقمت من نفسه هذا الموقع ؟ فأجبته إني لم آت شيئاً ، ومن انا ، وهو ورجل عظيم ، حتى أؤثر فيه . فقال لي : ليس الأمر كذلك ، كنا منذ أيام نتذاكر من يحسنون الأدب العربي ، والمجلس غاص ، فذكروا رجلاً يعرف هذا الأدب معرفة عظيمة ، فضحك جمال باشا وقال : إن فلاناً لا يعرف واحداً من مئة مما يعرف كرد علي . فقلت لصاحبي : هذا من حسن ظنه بي . وقال في القدس علناً وأنا أخطب امامه على مائدة ضمت زمرة كبيرة من اعيان الديار الشامية : إني لا أفهم أحداً ممن يخطبون امامي باللغة العربية في سورية وفلسطين إلا كردعلي ، فاني افهم ما يقول ، ويكهرب أعصابي أيضاً . هكذا قال ويسرّ المولى أن عظمت في عينه ، وأنا اعرف بنفسي من جمال باشا . وكان من إعجابه أن استمتعت براحة نسبية مدة الحرب العامة ، والناس يومئذ في بلاء وشقاء .

سأل صديقي الاستاذ كمال ملص صاحبه وصاحبي الشيخ اسعد الشقيري هل كان جمال باشا على شيء من الشعور الديني فأجابه نعم كان على جانب بارز منه . وقصَّ عليه قصة تشعر بغيرته على المسلمين قال : أمر جمال باشا مرة أن يرسل من المنزل إلى دار مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجـا مقدار من الارزاق ومبلغ من الورق المالي لاعداد ضيافة عظيمة في داره يدعو اليها أعيان بيروت على اختلاف طوائفهم . وحضر الباشا الدعوة ونزل صاحب البيت مع المدعوين لاستقباله في مدخل الدار ، فلما وقعت عين جمال باشا على المفتي قبَّل يده ، وأشار اليه بالصعود ثم اشار إلى الشيخ اسعد الشقيري أن يلحق به ، ثم صعد هو وراءهما ، حتى إذا جلس الجمع كان على يمين القائد الشيخ المفتي وعلى شماله الشيخ الشقيري وعند انتهـاء المأدبة عاد الباشا وقبَّل يد المفتي شاكراً له حفاوته . وركب الباشا مع الشقيري عائداً إلى منزله وقال له في الطريق : اني أعرف من هو مصطفى نجا وما رفعت شأنه اليوم إلا لأرفع بذلك شأن المسلمين .

ووقع لي ان ذكرت لجمال باشا أن خالد بن الوليد لما جاء دمشق فاتحاً ركز العقاب راية الرسول في رأس الثنية المعروفة بثنية العقاب (الثنايا) اليوم المطلة على الغوطة والمرج من الشمال ، وهي ذاك الجبل الهرمي الشكل الصعب المرتقى ، وحارب بني غسان في يوم فصحهم فكتب له النصر عليهم . وقلت له ان مما يحفظ هذه الذكرى العظيمة اقامة مسجد في قمة ذاك الجبل العالي فوعدني بذلك . ثم راجعته مرة ثانية فأثنى على هذه الفكرة وقال انه لن ينساها ووعد بان يقوم بانجازها على ما أريد بعد الحرب . ولحظت منه غيرة دينية وشعوراً اسلامياً في احاديثي الكثيرة معه ، ولكنه كان في المسائل السياسية لا يغفر لاحد زلة إذا حاد قيد أنملة عن قانون الوطنية العثمانية .

ومما اعده له في باب الغيرة الدينية ما اقترحه عليّ من أن أضع على

رأسي عمامة ليوسد إليّ افتاء دمشق فأتمكن من ادخال الاصلاح على اهل السلك العلمي ، فتبسمت في المرة الأولى لكلامه وقلبت الحديث إلى ما يشبه الهزل . فلما تكرر ذلك منه بعد حين قلت له : اظن مولاي يهزل في اقتراحه هذا عليّ . فأقسم انه يجد وانه يتوقع من ذلك خيراً للمسلمين لاعتقاده أن من الصعب أن يقوم بهذا من لم يثقف الثقافة اللازمة . وقال إن معالجة المشايخ ببلسم الاصلاح خدمة للاسلام والمسلمين . فشكرت له فضله وغيرته ، وتنصلت واعتذرت من عمل قد لا يجلب عليّ غير الضرر .



الجاسوس السافل

سألت صديقي الدكتور عبد الرحمن شهبندر عن (خ . ز) ، وكان والده سكن الأناضول . سألته وقد أتى دمشق بعض السنين يهب المدارس الأهلية هبات جيدة فكان الجواب : إن الرجل مطعون في آدابه ، يستعمل أشياء لا تليق بشريف . فحفظت هذه الترجمة ، وصرت كلما ذكر اسمه في الجريدة أذكره بصورة عادية . وبينا كانت الدولة العثمانية في جناق قلعة في مركز حرج للغاية وذلك في الاشهر الأولى للحرب العامة جاءني الدكتور شهبندر يصحبه (ذاك التاجر) إلى قرية المزة حيث كنت ساكناً ، وقال لي : هلمّ نسمر عند رضا باشا الركابي فرافقتهما . فبدأ الدكتور يذكر ما يقاسيه جيش الدولة في حرب جناق قلعة من الضربات ، وقال ان الواجب أن يفكر أهل هذه الديار في مصيرهم ، كأن تؤسس جمعية سرية تتصل بالانكليز للاتفاق على خطة إلى غير ذلك .

فذكرت للجماعة ما لقينا من القوم عندما أنشأنا حزب الائتلاف ، وأن هذه الأمة يصعب الاتكال عليها ، لأنها لم تربَّ تربية سياسية تُعرّفها الصواب في قولها وعملها ، وقد جرّبناها غير مرة فضاع تعبنا وجهدنا معها وقلت إن الحرب تتقدم وتتأخر تبعاً للأحوال ، وما يدرينا أن تكون الغلبة غداً للدولة ، وأرى البحث في مصير الديار الشامية أكبر من عقولنا ، ونحن يسعنا ما يسع أهلها إذا نزل البلاء . فقال الدكتور متهكماً : وكيف إذاً تدعي أنك تخدم العرب ؟ وأين حميتك ووطنيتك ؟ فقلت له : لم أصحح شيئاً من هذا مع الأسف ، وإذا مت فاكتب على قبري : هذا خائن العرب ، وانظم قصيدة في هجوي ، وأنا لا أدخل ولن أدخل في مثل هذه المسائل . فقال الباشا صاحب الدار : اذا كان فلان يمتنع عن الدخول فأنا لا أدخل ، وافترقنا متعاهدين على الكتمان .

لحظت بعد حين ان جمال باشا أخذ يزيد في إكرامي وإكرام الركابي وأن عطفه على الدكتور يتناقص ، ولم ادرك إلا بعد مدة أن ذاك الرجل المنحط — الذي لم آمنه على روحي ، واشترك معه في جمعية سرية ، لأنه لم يؤتمن على عرضه — كان له اتصال عظيم بجمال باشا ، وانه كان مفلساً فوفق بينه وبين والي تلك الولاية العظيمة الغنية التي ينزلها ، وتشاركا لاستغلال النقليات على الطرق الحديدية ، وأعاد إليه الوالي بضائع كان اباعها وعاد فباعها بأثمان باهظة ، واشتركا في كل انواع التجارة ولا سيما المأكولات واعطى لشريكه معملاً عظيماً يستثمره . وكان جمال باشا يغدق على والدة ذاك الجاسوس ، مقادير من الأرزاق من المنزل يمونها بها ، ولما ماتت خرج في جنازتها سرية من الجند منكسي اسلحتهم . وهكذا استغلّ الجاسوس الوشاية بنا .

قال لي ذاك الجاسوس المنحوس ذات يوم ، وقد صادفته في المرج الأخضر في طريقي إلى داري : أرأيت هذا الشاب ؟ وأشار إلى أحد المارة ، وكان يلبس ألبسة من الجلد ، وهو شاكي السلاح . فقلت له : نعم قال : هذا ابن مرضعتي ، ولي عليه سلطان عظيم ، لأنه ربي في دارنا ، فأنا إذا قلت له : اقتل جمال باشا يقتله بدون توقف . فجسست في الحال نبضه ، لأرى إن كانت حرارته متصاعدة عن المعتاد . وقلت له : أمريض أنت أم مجنون ؟ ويحك ولماذا ، أسألك بالله ، تقتل أحمد جمال باشا ؟ قال : حتى يستقل العرب . وهذه فرصة لنا في هذه الحرب القائمة . فقلت له متحمساً : قولك هذا من أسخف الآراء ، وهل تقتل رجلاً مسلماً جاء ليدفع عن ديارنا أعداءها ؟ وينقذنا من براثنهم . وبالله لو بعثت الاستانة كافراً ، وجاءنا يقول إني على أن أدفع عنكم عدوكم لقبلنا يديه ورجليه ، ثم إن الدولة يا صاح إذا قتل جمال باشا لا تعدم عشرات مثله ، ترسلهم ليخلفوه ، فيجعلون عالي ارضنا سافلها ، انتقاماً من اهلها لقتلهم رجل الدولة . فبالله عليك إذا بدرت من لسانك هذه البادرة الآن ، وما كنت أظنها تبدر منك ، فلا تقل لأحد

مثل هذا القول ، وأنا اعاهدك على كتمان ما بسطت به لسانك . وهكذا اتقيت شره ، وأعتقد أنه نقل كلامي إلى جمال باشا ، وربما كان هو الذي وضع له صيغة استدراجي بهذا اللسان . ولما دخل الحلفاء الأناضول قبضوا على ذاك الجاسوس ، وزجوه في السجن أشهراً ، وصادروه في كل ما يملك ، فمات بعد أشهر قليلة مجرداً من كل نعمة .

بقيت تحك في صدري حالة ذاك الجاسوس أربعاً وعشرين سنة ، ولم أرَ فرصة أخلو بها بالدكتور شهبندر لأذكره بما قال في نمته ، يوم سألته عنه قبل الحرب ، وما كان فعله معنا من ابلاغ جمال باشا صورة اجتماعنا ، واعاتبه على تهوره معه ، وهو يعرف أكثر مني مبلغه من الأخلاق ، حتى كانت السنة الماضية (١٩٣٨) فذكرت له ذلك في داره في القاهرة ففكر ملياً بضع دقائق وقال : صحيح هكذا كان ، الحق معك . وقد يغلب على المرء حسن الظن في الخلائق ، فيعاملهم معاملة الشرفاء . وأنا لم أحتط هذه المرة مع ذاك السافل إلا بعد أن وقعت غير مرة مع غيره ، فعلمتني الأيام ، ولو عملت باقتراح شهبندر لكان القتل مصيري ومصيره لا محالة .

كثيراً ما قلت لصديقي شهبندر أوائل الحرب العامة إني في ريبة من أمر عبد الكريم الخليل — شاب كان يعمل مع أبناء العرب وأحزابهم المشتغلة بالاستقلال — وهو يغلّب حسن الظن ويستبعد ان يصدر منه مايؤذينا ، على مارأى من شدة اختلاطه بجمال باشا ، وكانا يتهامسان ، والاعيان ينتظرون في الباب الاذن لهم بالدخول فلا يؤذن لهم . وصلب جمال باشا عبد الكريم ، فتبين بعد ذلك ان الرجل على تقية مستحكمة فيه ، كان يشتغل للترك وللعرب في آن واحد ، مثل رجل من بني الجندي قتله الترك ايضاً وكان يشتغل لهم وللعرب والافرنج ، ومثل رجل من بني الشنطي وكان مذهبه كذلك وقد صلب أيضاً . وربما اشتغل أحدهم لعدة دول وعدة مذاهب سياسية .

سئلت وانا في بيروت قبل اعتقال عبد الكريم الخليل بأيام عماذا كنت داخلاً

في الجمعية التي الفها فأجبت بالسلب ، ثم لقيته فقلت له : بلغني انك تقول هنا إني والركابي داخلان في جمعيتك فهل دخلت معك ؟ وهل سألتك يوماً عما تعمل منذ عرفتك ؟ قال : لا . فقلت له : لماذا تذكر اسمي وأنا لست معك ولا من رأيك ؟ قال إن القوم يسألونني عندما أريد ادخال احدهم في جمعيتي فيما إذا كنت والركابي داخلين فاذا قلت لا ، لا يدخل أحد معي . فهددته بان لا يتجر باسمي ، ولا يعود إلى ذكري لأحد ، وانا اكتم سره ولا أتدخل في شؤونه . فعاهدني واظنه عاهد كثيرين قبلي ، وعهده عهد اولاد طائشين ، وكان على شيء من البلاهة ، مهملا لأوراقه ، وربما تركها في أيدي من لا يعرفهم ، وخرج لقضاء حاجة . ومثل هذا لا يستودع سراً ، ولا يلقى المؤتمرون معه إلا شراً .



المتطوعون بالجاسوسية

حقيقة إن اسم « عاليه » كان يفزع الاحرار خلال الحرب العامة فالى هذه القرية اللبنانية كان يساق المتهمون بالسياسة ، يحشرون فيها زرافات ووحداناً ، وفيها يعقد الديوان العرفي اي المحكمة التي تصدر فيها الاحكام النافذة عليهم ، لا استئناف فيما حكمت ، ولا نقض لما أبرمت ،

وقد طلب هذا الديوان مرة إلى جمال باشا أن يبعث بي اليه للتحقيق معي في بعض المسائل ، او لاستشهادي بأمر ، فأبى إرسالي ، وامر ان يكتب بالسؤال فأسأل عنه في دمشق بدون ان اذهب إلى عاليه . ولم يبلغني ذلك إلا بعد حين وبالعرض ، وهذا من منن الباشا عليَّ ، فانه لم تسمح نفسه أن اضايق بشيء بعد ان ثبت اخلاصي الدولة بأوراق القنصليات ، وتأكد أنني كنت اطالب بالاصلاح للمملكة بأسرها ، واني كنت أخدم الدولة زمن الحرب خدمة حسنة .

جيء بالشيخ عبدالحميد الزهراوي — وكان الاصلاحيون رأسوه على مؤتمرهم في باريز ، ثم استرضاه الاتحاديون وجعلوه عضوا في مجلس الشيوخ — إلى الديوان العرفي في عاليه مخفوراً ليحاكموه . مع ان الحكومة ادعت يومئذ انها لا تؤاخذ احداً بما كان منه قبل الحرب ، بل تحاسب على الاعمال التي يقوم بها اعداء الدولة في مدة الحرب ، ومن قتلتهم كان قتلهم بما قدمت ايديهم سابقاً ، وفي الحرب لم يستطع أحد أن يتحرك فيما أحسب ، إلاأن يكون بعضهم تصدى للدعوة للانكليز .

ولما وصل الزهراوي إلى حلب أبرق إلى جمال باشا يقول له إن لديه معروضات خاصة ، يرجو ان يدلي بها اليه مشافهة . فأجاب القائد طلبه ، واستمع لما عرضه ، وما عرضه غريب في بابه . قال الزهراوي انه وان كان ذهب إلى

باريز ، ورأس مؤتمر الاصلاحيين ، فان نيته كانت سليمة ، وما كان يضمر خيانة للدولة ، وان الرجل الذي كان يفاوض الاجانب ، ويعرف اللغة الافرنجية ، هو صاحب المقتبس كرد علي ؛ اطلقوا سراحي بضعة أيام لآتيكم بأعداد من جريدته تقرأون فيها مبلغه من الوطنية العثمانية . فأجابه الباشا عليك ان تقول هذا الكلام في الديوان العرفي في عاليه .

وذهب الزهراوي إلى عاليه ، واورد امام الديوان العرفي ما قاله لجمال باشا ؛ فالتفت رئيس الديوان وقال له : هل تعرف عثمان بك العظم . فقال : نعم اعرفه . قال : هو شقيق رفيق بك العظم . قال:نعم . قال إن الديوان العرفي برأ عثمان بك لأنه لم يدخل فيما دخل فيه أخوه ، وما وجد وثيقة تثبت ادانته ، وحكم على رفيق بالقتل ، لأنه ظفر برسائل مكتوبة بخطه تؤيد خيانته . فأنت إن كان لديك شيء بخط صاحب المقتبس وتوقيعه يستدل منه انه احد اعضاء جمعية سرية تذرعت لقلب الحكومة ، او الدعوة إلى دولة اجنبية ، او غير ذلك من انواع الخيانات فأبرزه ونحن نأتي به حالاً ، واما ان يجلب باشارتك فلا . وقولك إنه كتب اشياء في الحكومة في جريدته فهذا نعرفه وعندنا مجموعته .

هذا ما قاله رئيس المحكمة العرفية المتطوع لقتل اخيه ، وهذا ماقاله جمال باشا التركي ، وتوسل به صاحبي العربي لخلاصه واتهامي . ولطالما احسنت اليه مذ جاء منفياً إلى دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وآنسته وخففت من كربته ، وكان يومئذ كذاك السامري لا مساس ، ومن يجرأ ان يقترب من مغضوب السلطان ، وما رأى مني منذ عرفته إلا الاخاء واللطف .

حاول الزهراوي الاشتهار بالعلم فكشفت الأيام أمره . بعث إليّ وأنا بمصر مقالة لتنشر في مجلة المقتطف كتبها على أسلوب القرآن فدفعتها إلى منشئ المجلة فلم تنشر ، وبعد مدة راجعته لكثرة إلحاح الزهراوي فقال لي صديقي الدكتور يعقوب صروف : إن من عادتي في المقالات الواردة من

المؤازرين أن أدفعها إلى ابنتي فتقرؤها ، فاذا رأيتها قد فهمتها وتسوغتها انشرها وإلا فلا . ومقالة صاحبك دفعتها على العادة إلى ابنتي فتلتها فما أدركت مغزاها ، فقلت : إن كانت البُنيّة لم تفهم فالقراء أجدر ألا يفهموا .

وكتب إليّ الزهراوي من حمص مرة يسألني عما إذا كنت قرأت مقالاته في مجلة المنار (نظام الحب والبغض) فأجبته إني قرأتها ولم أفهم ما يريد منها ، فقال : اقرأها ثانية نفهمها ، ووافني برأيك فيها . فقرأتها ثانية فلا والله ما فهمت لها معنىً ، وخفت أن أذكر له ذلك ، وبوعز إليّ أن أقرأها مرة ثالثة فأجبته إني قرأتها مرة ثانية كما أشار إليّ ، والظاهر أن عقلي غير مستعد لفهم الفلسفة العالية ، وهذه المقالات من هذا الطراز على ما ظهر لي فاعفني من إعطاء فكري فيها .

وكنت مرة أتحدث إلى صديقي إبراهيم بك رمزي من أدباء مصر فقال كلاماً فهمت منه أن الشيخ محمد الشربتلي مات ، فأسفت لوفاته فقال : لاتأسف فالعوض في حياة أخيه « المقداتي » الثاني الذي عندكم وهو الشيخ الزهراوي . ويريد بالمقداتي الذي لا يبين عما يريد في كتابته . وكان الشيخ الشربتلي مع الشيخ الزهراوي في هذا الباب فرسي رهان . كتب الزهراوي جريدة « الحضارة » في الاستانة مدة فما كانت تفهم مقالاته السياسية ، وكتب أشهراً في « الجريدة » بمصر فاضطروا إلى إخراجه منها لأن القراء لم يفهموا أقواله ، ولا حلوا معمياته وألغازه . ولم يشهد من يتطوع في تقريظه غير صاحب المنار فانه صوره صورة لا تقل كثيراً عن تصويره للسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده !

وكان الزهراوي إلى ذلك خدّاعاً ، نصحني غير مرة أن أترك مطالعة الكتب القديمة ، وأكف عن قراءة كتب الغزالي وابن تيمية وابن حزم الخ وأكتب من فكري دون الرجوع إلى هؤلاء الأئمة قائلاً : إني أعلم منهم ! فكنت أجيبه إني أتسلى بكلامهم فقط أوقات الفراغ ، وقصصت ما دار بيننا على

استاذي الشيخ طاهر الجزائري فقال : إن الرجل يقصد غشك . فقلت له : عرفت ذلك وأجبته جواباً مبهماً ، فقال ما معناه : إنه لم يتعلم ولا يرغب في أن يتعلم ، ويشق عليه أن يتعلم أحد ، ما زادت معلوماته عما أخذه عن الشيخ فلان في المدرسة الرشدية في حمص ، وهو لا يحب أن يتعب نفسه بالمطالعة ، فاذا طالعت أنت تفوقت عليه ، فهو لا يجاري المتعلمين ، وما طبع عليه من حسد يحمله على أن يصد كل راغب في العلم ، حتى لا يظهر في المستقبل الفرق بينه وبين من تعلم .

عود إلى المتطوعة بالجاسوسية ، وممن ذكرني وأكثر من ذكري في الديوان العرفي صاحب جريدة المفيد عبد الغني افندي العريسي فانه بدا له أن يتوسع في أجوبته فكتب فيما قيل نحو مئة صفحة كبيرة ، ذكر فيها حتى صبيان المدارس ، رجاء أن تعدل الحكومة عن مس كبار المجرمين بأذى إذا اتسعت المسألة إلى حد بعيد ، وقد خصني من هذه الصفحات بأربع ، الله أعلم بما حشاها به . وهو أيضاً لم ير مني إلا التنشيط الجميل . وكان من سيف الدين الخطيب ان ذكرني غير مرة ومما قال انهم كانوا في المدارس لا يعرفون ما هي السياسة ولا الاحزاب والجمعيات ، فصاحب المقتبس هو الذي علمنا ودربنا . وهذا كالعريسي والزهراوي ممن قتلوا صلباً ومما أغنت عنهم وشاياتهم بالابرياء .

ومن الأشراف الذين أثبتوا وطنيتهم ولم يبوحوا باسم أحـــد ، على كثرة ما لاقوا من التعذيب ، شاب متعلم من أهل صيدا اسمه توفيق البساط فانه آثر الموت والنكال على كشف سر أحد . ومنهم صديقي سامي بك العظم ، وكان مراسلاً للمقتبس في الاستانة ، فانه اهين في الديوان العرفي فتباله ، وأنكر ان يكون يعرفني ، أو أنه كان يراسلني بما يحدث من الأحداث الدقيقة في العاصمة ، فبريء على أنه أبله ، كما بريء بعده بهذه الصفة صديقي الأمير طاهر الحسني .

ولقد أيقنت بعد الاستقصاء أن بعض ما اتهم به المتهمون في عاليه كان قائماً على الظن ، ولم يرجع في الأكثر إلى وثائق قانونيـة . وقد سألت الوالي خلوصي بك ، وكان ذهب إلى بيروت واجتمع إلى أعضاء الديوان العرفي ، عما كانوا يتهمون به فقال : إنهم أتهموا بضروب من التلفيقات ، أنزل الله البلاء بهم ، أي بالاتحاديين . ومن الحق أن نقول إن من اتهموا ما خلوا من شهادة بعضهم على بعض ، ومن أصحابهم من تبرعوا بالشهادة عليهم كما كان من شاب شهد على بعض أصحابه . ذكرت ذلك لوالده وكان صديقي فأنكر فعل ابنه ، وقال إنه يقصد مما فعل انقاذ عمه ، أي أنه تطوع بالوشاية ببعضهم وهيأ للحكومة العثمانية أسباب قتلهم حتى ينقذ عمه ؛ ولولا أن القائمين بالأمر كانوا يرجعون إلى المنطق وإلى القانون في معظم الحالات ، لامتلأت بيوت عاليه وبيوت القرى المجـاورة لها من المجرمين السياسيين ، لكثرة ما وشى الناس بعضهم ببعض . وقد قال أحـد ضبـاط الديوان العرفي : إن حال أهل هذا القطر عجيب ، كنت في الروم أبلي عضواً في احد الدواوين العرفية في بلد كذا . وكنا نأتي بالبلغاري لتقريره فلا يبوح بشيء ، ونعذبه أنواع العذاب ، ونحمي الطست ونضمه عليه ، فيسيل دمه ويحرق جلده ، فلا نسمع من فمه اسم أحـد ولا اشارة الى سر والأهالي هنا يتبرعون محتسبين بالوشايات حتى أضجرتنا كثرتها ، وبلبلتنا أنواعها ، ولو عملت الحكومة بما ورد مع البريد فقط من الكتب الصادرة عن أميركا بأسماء السوريين ، وفيها أشياء كتبت عمداً لتضر بالمكتوب اليهم ، لبلغ المتهمون بالخيانة الوفاً . فنحن نشفق عليهم وهم لا يشفقون على أنفسهم ، وعلى أبناء وطنهم وجنسهم .

ومثل ذلك حدث أوائل الاحتلال الافرنسي فان تقارير الجواسيس كثرت على القائد فأحالها إلى الديوان للترجمة ، فكان بضعة تراجمة يترجمون كل يوم عشرات من هذه الاوراق ، فلما رآها متشابهة في معناها ، وأنها كلها تقارير وشايات دنيئة يبدو الغرض الشخصي منها ، قال إنها من شكل

واحد ، وهذا لا يفيد سماعه ولا العمل به ، فأمر باحراقها كلها قبل النظر فيها وكانت بضعة الوف . وقال لي رجل من اسرة هاني في بيروت : إنني أعرفك من زمن ، فقلت له : أنا لا أذكر أنني رأيتك ، فأين كانت هذه المعرفة ، قال : كنت رئيساً على التراجمة أول الاحتلال فعرفتك من التقارير التي كتبت فيك . وانا اعرف ان احد المستخدمين عندي كتب فيَّ ثلاثة تقارير للسلطة الفرنسية لأنني دعوته مرات الى القيام باحسان عمله ، وطلب مني مرة ان أشهد له في المحكمة شهادة زور تنفعه في مسألة إرث فأبيت . وكان عندي ثلاثة التمسوا مني زيادة رواتبهم ليرة أو ليرتين لكل واحد ، والقانون لايسمح بذلك فلما أبيت اجابة طلبهم شكوني إلى السلطة .

السياسيون والصحافيون

يُحسن رجال السياسة استدراج البسطاء لتسقط الأخبار . وممن رأيت من هذا القبيل الهر لود فيد قنصل ألمانيا في دمشق زمن الحرب العامة ، كان يهودياً ألمعياً داهية ، سألني مرة : هل تعرف فلاناً وفلاناً قلت نعم أعرفهما قال : أريد أن تقفني على ماهيتهما . فقلت : ليسا من بلدي ولا علم لي بحالهما . قال : وكيف ذلك ؟ قلت : وهل الواجب أن أعرف الخلق كلهم ؟ قال : لا . ولكن هذان ممن يجب أن تعرفهما وهما من أرباب الأقلام . قلت : ما عرفتهما فقال : جاءآني منذ أيام يشكوان ضيقاً وضنكاً فأعطيتهما على سبيل الصدقة عشرين ليرة عثمانية . فسكت ولم أبد استحساناً ولا استهجاناً .

وكان هذا القنصل كثيراً ما يسألني عن جمال باشا فأثني وأمجد ، وأذكر له أن القوم يحبونه ويدعون له بالتوفيق . ورأيت اتقاء شره ألا أقول له شيئاً إلا إذا كان من هذا البحر والقافية . وحاول مرة أن أصرّح له برأيي في الباشا وضايقني فقلت له : إن عوام دمشق يعتقدون أن يوم ينزل عليهم جمال باشا من الشمال أو الجنوب أو الغرب تمطر السماء وتنزل الرحمة ، فهز رأسه وهززت رأسي ، وتفارقنا بسلام .

مضت أيام وانتصر الجيش العثماني في كوت الأمارة بالعراق ، وأسر ثلاثة عشر الف جندي والجنرال الانكليزي طاوسهند ، فجاء القوم يهنئون القائد العام أحمد جمال باشا في فندق فكتوريا بدمشق فِرَقاً فرَقاً . وخففت لتهنئته مع أرباب الصحف ، ولم يكن منهم في دمشق غير اثنين صحبتهما فلما دخلنا على جمال باشا عبس . وكان قبل دخولنا يضحك ، فسلمنا وجلسنا ثلاثتنا . فافتتح الباشا الكلام وقال موجهاً الخطاب إليّ : هل قصرت معكم

في كل ما طلبتم مني ؟ فقلت له : قد أغرقتنا بانعامك . قال : فما هذا الذي يبلغني عن قرع بعضكم أبواب الأجانب لأخذ إعانات منهم ! هل رأيتم اجنبياً قط جاء يدق بابنا ؟ يطلب مثل هذا الطلب منا ولما سمعت قوله هذا سرّي عني ، وتذكرت حالاً ما كان قاله لي القنصل عن شخصين استجدياه . ثم تكلم الباشا هنا كلاماً لم يبق معناه على خاطري ، والتفت إليّ وسألني لماذا توقفت عن إصدار مجلة المقتبس ؟ فأجبته إن من الصعب صدورها ، والزمن زمن حرب ، والناس متجهة عقولهم وقلوبهم إلى ساحات القتال ، ومتى انتهت الحرب بالنصر إن شاء الله أعود إلى إصدارها ، ثم إن الورق عزيز جداً ، فقال لي : أنا عندي ورق تعالَ إلى بيروت أعطك منه المقدار الذي يلزمك ، وعد إلى إصدار مجلتك ، واكتب بها مقالات لتعلم الاخلاق فقلت له : سيكون ذلك بسعدكم ، ومؤازرة رصيفيَّ هذين . قال : نعم ، فضحكنا وانصرفنا .

وبلغني من رجل كان حاضراً في مجلس الوالي خلوصي بك أن هذين الرجلين استأذنا عليه بعض الأيام فرحب بهما ولاطفهما ، فأخذا يندبان طالعهما ، وقالا إنهما لقيا أعظم الشدائد لاتصالها بخدمة الاتحاديين ـ الحزب المتغلب يومئذ على الدولة ـ وأن أحدهما ضُرب وسُجن وأهين من أجل نزعته الاتحادية ، فكيف واخلاصهما اخلاصها يُعطى كل واحد منهما عشر ليرات في الشهر إعانة لجريدته ، وآخذ أنا الف ليرة عثمانية دفعة واحدة ، وقد حاربت الاتحاديين وسقيتهم من دنيّ كل كدر ، فابتسم الوالي ، وتطلع بعينيه من وراء زجاجة نظارتيه ، وقال بين هازل وجاد : الغالب أن الدولة تعطي كل واحد بقدر ما يساوي ، رأت فلاناً يساوي ألفاً فأعطته ألفاً ، ورأت الواحد منكما يساوي عشر ليرات فرتبت له عشر ليرات مشاهرة . فتألم الصحافيان لهذا الجواب وانصرفا من لدنه يلعنان الساعة التي جمعتهما به ، وصرحا بما صرحا به حتى سمعا ما سمعا . ولو لم تكن الحرب والصحافة مقيدة ، لسلخا جلد الوالي ولعنا أباه وأمه .

عقول الاتحاديين والانكليز

زارني في داري قبل الحرب العامة مدير الشرطـة ، وهو من أصل الباني وكثيراً ما كان يزورني ويدعي صداقتي ، ويبوح إليّ بذات نفسه ، ويتظاهر ببغض الاتحاديين ويذكر مساويهم . وكنت معـه كما كنت مع جمهور الموظفين ابتاع منه ولا ابيعه كما يقولون ، لأني كنت أغلب سوء الظن مع كل من ساير الاتحاديين ، وما عرفت ترجمته الحقيقية وميله الأكيد ، ومما قال لي : إن جماعـة الاتحاديين يزعمون أن لك ضلعاً مع الانكليز ، وأنك تقبض منهم كل شهر تسعين جنيهاً . فتأثرت وقلت له : جماعتـك لا يعرفون الوطن والوطنية ، ويفصلون كل شيء على الدينار معبودهم ، لأنه هو في نظرهم كل شيء لا يعدله الشرف ولا المروءة ، ولا حب الخير . توهموا لما رأوني أدعوا إلى الاصلاح أني أخدم مقصداً خاصاً ، ونسوا أن في الكتاب من يكتب للنفع العام ، وعندهم أن كل من يطالب بمطلب شريف ، هو مدفوع بعامل من العوامل . لو عقل أصحابك لسألوا دائرة البريد عما يحمل كل يوم إلى الجهات من جريدة المقتبس ، وهم يرون انتشارها المظيم في دمشق ، أو لسألوا المطبعة كم عـدداً تطبع كل يوم وما دخلها من الاعلانات . ومن كانت جريدته رائجة هـذا الرواج ، يستطيع أن يعيش بدون معاونة دولة اجنبية . ثم إن الحكومة التي زعموا أني آخذ معونتها لا تعطي درهماً إلا إذا رأت مغنماً لها ، وهل رأى أصحابك في صحيفتي إلى اليوم كلمة تشعر بأني مشايع لانكلترا أو أن الأمر عكس هذا ، اناقش أعمالها أحياناً ، وأنقدها النقد المعقول المعتدل ، ولا أغلو مخافة أن يدخل القنصل على الوالي إذا غضب على الجريدة ، فلا يخرج من عنده إلا وقد أوقفها لأجل مسمى أو غير مسمى .

ومن غريب المصادفات أن الاتحاديين بينما كانوا يتهموني بالتشيع للانكليز ، كان قنصلهم حانقاً عليَّ إلى التي ليس بعدها . فقد خرج ذات يوم للصيد فاعترضه بعض السلبة فنجا منهم بعد جهد . فكتبت الجريدة أنه كان عليه أن يطلب جندياً أو جنوداً تحرسه كلما خرج إلى مكان بعيد ، حتى لا يقع عليه ما تكون عاقبته سيئة ، فيحدث بذلك مشكلة للحكومة . وكان هذا القنصل في جده فأطلق عليه العرب بنادقهم ، وما زال الرصاص في صدره . وقام القنصل بعد مدة يريد أن يؤسس نادياً في دمشق سماه « النادي الشرقي » فدخل معه كثير من الموظفين والاعيان ، وأبيت الدخول معتذراً بأن في النادي مسكرات وقماراً ، وأنا لا أشرب ولا ألعب ، فزاد القنصل غضباً عليَّ . وكان رجاني بعض القائمين بتأسيس النادي أن اعد خطاباً ليلقى يوم افتتاحه فأعددته فمنعني القنصل من تلاوته .



التجارة في السياسة

صادفت في الطريق في الاشهر الاولى للحرب العالمية صاحبي بشارة افندي الاصفر ترجمان قنصلية المانيا بدمشق وأحد كبار تجارها ، فقال لي إن القنصل قال له : لماذا لا يأخذ صاحب المقتبس اعانة مني لجريدته ، انه إذا طلب معونة اعطيه بقـدر ما اعطيت ارباب الصحف بأجمعهم في سورية . وقال : يا أخي كل يوم لا تنشب حرب كالحرب الحالية ، وهذه فرصة لك لا تقع على مثلها ، خذ من القنصل ما هو مستعد لاعطائك اياه تبنِ به على الاقل داراً لأولادك . فأجبته : إني أخذت من جمال باشا ما كنت في حاجة اليه من المال ، حتى أصدرت جريدتي ووفيت ديوني ، والخزانتان الالمانية والعثمانية في حكم خزانة واحدة الآن ، والكيسان كيس واحد ، ورجوته أن يسلم على القنصل ويبلغه شكري ، لحسن عاطفته نحوي ، واتبعت هذا بقولي : قل لسعادته إني إذا احتجت إلى شيء لا أتأخر عن طرق بابكم . فاستغرب صاحبي هذا الجواب ، لانه لم يحقق رغبة قنصله ، وكان يحب أن اغلب الفكرة التجارية على الفكرة السياسية ، وقد نقل كلامي بالطبع إلى قنصله ، وقنصله نقله لقائد الجيش ، وهذا أعجبه مني هذا الاباء ، واليه أشار لما لقيته مع الرجلين اللذين طلبا معاونة القنصل يوم جئنا نقدم تهانينا اليه بانتصارات كوت الامارة . وقوله لي لما سألني عن السبب في توقف مجلة المقتبس عن الصدور إنه يعطيني ورقاً لاصدارها ، لا كتب فيها مقالات لعلم الناس الاخلاق .

ظن بعض المشتغلين بالصحافة في الشرق أن الجرائد باب من أبواب الكسب فقط ، والماهر من يكون خراجاً ولاجاً . وهذا مازهدني في الصحافة منذ قام المتجرون بالوطنية . ولقد اقترح عليّ كثيرون أن اعود الى اصدار

جريدة المقتبس فاعتذرت قائلاً : إن نفسي سئمت منذ سنين هذه الصناعة ، وقد رأيت كل حكومة منذ عهد الترك تحاول أن تفسد أخلاق أرباب الصحف ، حتى غدا معظم الصحافيين يجوزون لأنفسهم ان يقبضوا زمن السلم معونات من بعض الدول ، ومن الشركات ، ومن كل من يريد ان ينتفع من الثروة العامة . وصعب على الشريف أن يمتهن هذه المهنة التي عز فيها الصدق ، وهي من أشد مايكون احتياجاً له . ومن المتعذر أن تسقط على صحيفة لم تلوث بما لوثت به الصحف في الغرب . عدّوا الجرائد متجراً ومرتزقا يحل لصاحبها كل مال فخرجت هذه الأداة الجميلة عما وضعت له من نقل صادق الأحاديث ، والدعايات الوطنية النافعة ، والدعوة إلى الحق والمدنية .

لو تيسرت لي الأسباب لأصدرت جريدة أوزع اكثرها مجاناً أبتعد بها عن كل ما يدنس سمعتها ، وأعتقد ان صوت مثل هذه الصحيفة يصل إلى اعماق القلوب ، ويؤثر في الأمة التأثير المطلوب ، لاني أتوخى ان اصونها عن كل ما يكون منه استخفاف بالقراء ، أي بالكذب عليهم والتضليل لهم . الجرائد مرآة الأمة واذا اراد الغربي أن يحكم علينا بما ينكشف في هذه المرآة ، واعتقد أن هذه الصحف ناطقة بما في قلوبنا ، معبرة عن تربيتنا وأخلاقنا ، فالويل لنا ثم الويل .

السياسة صعبة المراس جداً ، ولا سيما الجزء العملي منها ، واظن احسن تعريف لها انها خلاصة العقل البشري ، وزبدة علوم العالم ، ويحتاج صاحبها إلى حسن فراسة ، وبعد نظر ، وبديهة مطواعة ، وقريحة فياضة ، ودرس متواصل ، وأظن من جمعوا هذه الصفات قلائل في الغرب فما بالك بالشرق .

بعض الانكليز

سألني الأمير زيد بن الحسين ، وهو ينوب عن أخيه الأمير فيصل في الحكم أثناء تغيبه في أوربا : لماذا لا يحبني الانكليز ، فقلت له : ربما يطمع الانكليز أن يماشيهم المرء بدون بحث ولا سؤال ، وأنا أحب أن أضع رجلي على صخر مخافة أن أتهور إذا سرت في الرمل . فأدار وجهه إلى الحائط ، وأحسبه ظن أني أعرّض بوالده في هذا الجواب .

استدعاني الأمير فيصل ليلاً ، وطلب إليّ أن أدعو الشاميين ليقولوا بانتداب انكلترا عليهم ، فيوحد الانتداب في أرض العرب، وكانت اللجنة الاميركية على وشك الشخوص إلى سورية ، لتسأل أهلها رأيهم في الدول التي يفضلون أن تنتدب عليهم . فقلت : كان عليكم أن تأمروا بذلك قبل ستة أشهر على الأقل ، لاعداد الافكار لقبول هذا الرأي . فقال : في الوقت متسع لمن يعمل ، ويمكن تدارك ما فات ، وأنت بما لك من الثقة عند القوم تدعوهم فيستجيبوا لك . وكان وراءه صديقي الدكتور أحمد قدري يشير إليّ ألا أناقشه ، وأن أظهر امتثال أمره ، فسكت .

ومن الغد وردت عليّ كتب من الأحزاب بدمشق ، يطلب إليّ كل حزب منها أن أذهب إلى اللجنة الأميركية وأذكر لها رأيي . ومن هذه الأحزاب من يطالب بالاستقلال التام الناجز لا حماية ولا وصاية ، ومنها من يشير ضمناً إلى القول بالانتداب الانكليزي . وكانت الصيغة التي لُقنها القوم : « نريد انتداب أميركا علينا ، فان لم يمكن فانكلترا ، ونرفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً . » ففكرت في نفسي وقلت : كيف أطلب انتداب دولة ، والاستقلال غاية كل وطني عاقل ، وهل من اللائق أن أطلب الانتداب الانكليزي ، وقومي في مصر تحصدهم رشاشات البريطانيين في

شوارع القاهرة والاسكندرية ، وكان ذلك خلال ثورة مصر الاخيرة .
اينتدب من يُنتدب بدون طلب مني ، ولزمت بيتي لا أخرج منه . ولم أذهب إلى اللجنة الأميركية ولا طلبت انكلترا ولا فرنسا ولا اميركا .

وكان المطلعون يعرفون من المعاقدات التي حصلت بين الانكليز والفرنسيين أن سورية ولبنان من حصة فرنسا ، وقالت لي صديقتي ميس بل الانكليزية قبيل الحرب العامة ، من دون سؤال وقع مني لها : إنكم حصة فرنسا فهي أنفقت كثيراً على سورية ، وجهزتها بالمدارس والخطوط الحديدية وغير ذلك من المشاريع ، ونحن الانكليز لم ننفق شيئاً عليكم ، فاستغربت كلامها كل الاستغراب وكأن قولها كان نبوءة بما سيحصل ، وهي من جماعة الاستخبارات الانكليزية ، ذهبت بضع مرات من دمشق إلى بغداد على متون الابل ، وآخر مرة وقعت فكسرت ساقها ، وجعلت معاونة الحاكم العراق لما سقط في سلطان بريطانيا العظمى .

بعث إليّ الأمير فيصل من باريز كتاباً بخطه يقول : إن الانكليز السكسونيين (انكلترا وأميركا) يعاونوننا على نيل استقلالنا وأننا سنحرزه ، ويوصي ألا أعبأ بغير هذا ، وأن ارفض كل قول يخالفه ، واظنه كان يقصد بكلامه تضليل عقلي ، وربما كان جماعته أشاروا اليه بالكتابة إليّ في ذلك . ولما جدّ الجدّ أوعزت انكلترا إلى الامير فيصل أن يبارح لندن الى باريز ليتفق مع الفرنسيين وأوصت به ، فكان الانتداب لفرنسا على سورية ولبنان ، وذهب كل ما أمله المؤملون كفقاقيع الصابون .

عاد فيصل إلى الشام وهو يطمع في أن يكسب رضا البريطانيين والفرنسيين . اي ان يجمع بين الضرّتين المتنافستين ، ولا يزيده غلمان السياسة إلا إحراجاً . ويقللون علناً من مكانة الفرنسيين ويهددون ويتوعدون ، ولا يدرون ما هم فاعلون ، حتى دخل جيش الاحتلال بالقوة إلى دمشق وحلب ، وركن بعض أولئك السياسيين إلى الهرب ، بعد أن هلك بتحميسهم وتحميس غلاة الوطنية ، والغيورين على الدين مئات في دمشق وميسلون .

إني مازلت أعجب بالانكليز فرادى ، ولا أرتضيهم جماعات ، تروقني ادارتهم ، ولا تعجبني سياستهم . وكلما ذكرت أن عرب السلطنة العثمانية كادوا ينالون استقلالهم ثلاث مرات ، وتكتب في قائمة الامم وحدتهم ، وأن الانكليز كانوا يقضون على هذه الأمنية ، آلم الألم كله ، ولا استطيع مهما أحسنت ظني ، ان أغتفر هذه الاساءة ، وعندما أرى ان من الثورات الأخيرة في جزيرة العرب ماقام فيما قيل بايد اجنبية ، تشتد كراهتي لهذه السياسة يتبعها القوي مع المستضعف . وكلما تمثل لعيني ان الانكليز في فلسطين يسلحون الصهيونيين ، ويجردون العرب من السلاح ، ويحكمون على هؤلاء باحكام ثقيلة جداً ، وقد يعفون أولئك من العقوبات ، أو يخصونهم منها بما خف ، يزيد غمي وتألمي .

ولقد جرت عدة محاولات لارجاع السكة الحديدية الحجازية كما كانت قبل الحرب ، فكان الانكليز يقاومون هذا المشروع سراً فيما بلغني لأنهم يحاولون ألا يكون ركوب الحجاج في غير بواخرهم ، وأن ينقطع الاتصال بين اجزاء الامارات العربية . وبذلك تأخرت تجارة الشام والحجاز ، وعادت الوحشية إلى الجزيرة ، وقد كانت أوشكت تدخل في المدنية .

انا اعرف ان الاستعمار الانكليزي أخف أنواع الاستعمار ، يبقي المستعمرين ما يتبلغون به ، ولكنني ما أحببت الاستعمار قط فأحبه منهم . هذا رأيي فيهم ، وهذا ما يفسرونه ببغضي لهم . وما قيمة بغضي وحبي لدولة تملك خمس سكان الارض .

الامير فيصل

عرفت الأمير فيصل بن الحسين ، وعرفت اخوته قبل الحرب العالمية . ووافى دمشق في الحرب ضيفاً على جمال باشا ، فتأكدت الصداقة بيننا ، وكنت أخلو به ساعات ، ونتفاوض أموراً كثيرة ، ويبوح كل منا لعشيره بما لا يبوح به لأقرب الناس اليه . ولطالما كان الشيخ اسعد الشقيري ، ونحن في معسكر القائد العام ، يحرضني على قطع الوقت معه ، لئلا يضيق صدره ، او يتبرم بالمقام في الشام ، وقال لي مرة : عجباً لهؤلاء القوم (يريد جمال باشا وجماعته) دعوا ابن الرسول واهملوه هذا الاهمال .

وكان الامير يقترح عليّ اعداد بعض ألوان من الطعام ، ويستأذن جمال باشا بالتخلف عن مائدته ، ليكون في ضيافتي . ومقصده من ذلك أن نخلو بانفسنا في دارنا ، بعيدين عن البيئة الرسمية في المعسكر . ويأتي معه احياناً من يحب من اصحابه ، وبطبيب والده الخاص ، وهو تركي يدعي أنه لا يعرف العربية ، مع انه قضى سنين طويلة في الحجاز ؛ وكنت ألفت نظر الأمير إلى التوقي أمام طبيبه ، فكان يقول لي إنه من خواصهم ، عاش بنعمة أبيه زمناً ، وعلمت بعد مدة أن جمال باشا اتي هذا الطبيب في حوران ، وكان الشريف حسين ثار في الحجاز ، فقال له باشمئزاز : أنت تركي ، ولعد من حاشية الشريف حسين ، وتدخل في حرمه ، فكيف لم تطلع على نيته في العصيان على الدولة ، والغالب أن هذا الطبيب كان عند حسن ظن الأمير فيصل فيه ، كان صادقاً لآل الحسين ، ومات منذ بضع سنين في القاهرة .

ولما أراد الأمير فيصل ان يفرّ إلى الحجاز نافضاً يديه من العثمانيين ، وقد كتب له والده أن يعجل العودة اليه ، بعث مع أحد آل البكري أصدقائه ، يقترح عليّ أن اصحبه إلى مكة ، فقلت له إن القوم ينكبون

عيالي إذا هربت ، وإن صحتي لا تحتمل عيش البوادي ، فعدّ رفضي معقولاً ، وعذرني على توقي الشرّ والضرّ . ولما عقدت الهدنة ودخل الأمير فيصل دمشق مع الجيش العربي وجيوش الحلفاء ، كان أول ما طلب إلى أخي ان يكتب إليّ في استانبول بالحضور حالاً ، ولما زرته كان لقاؤنا لقاء أخ بأخيه ، وتفضل وعاون المقتبس على الصدور ، وكان توقف قبل جلاء العثمانيين عن دمشق . ومع هذه الصداقة القديمة المستحكمة الأواخي ما كنت أرى لمجيزه ، وقد أصبح أمير سورية ، على نحو ما كان يفعل بعضهم ، ومنهم رئيس المؤتمر السوري ، فانه ما كان يتوقف عن الاختلاف اليه قبل الشمس في غرفة منامه ، ولا في ساعة متأخرة من الليل ، وهو يتهيأ للدخول في فراشه . يباغته في خلوته وجلوته حتى ضاق به ذرعاً على ما فطر عليه من سعة صدر . ثم غضب على والده الملك حسين ، وكتب فيه ما لا يكتب وطعن في نسبه بما لا يقره عليه عاقل . أطلعني على الطعن صديقي الأمير شكيب ارسلان في برلين وقال : انظر ما كتب صاحبك ، فقلت له هو صاحبك قبلي ، وأنتما تتقارضان المديح . قال شكيب ؟ أنت تعرف ما بيني وبين الهاشميين من أجل السياسة التي انتهجوها في معاداة الدولة ، ومع ذلك لا أستبيح أن أطعن بهم هذا الطعن ، وأرى من واجبي إذا رأيت الطفل منهم ان أقبل يده لأنه ابن الرسول .

كثر من يصدّعون الأمير فيصل بزيارتهم ، وهو يقابلهم بلطف ، ويرضيهم بما تصل يده اليه ، وكانت الفوضى بادية في ادارته في دمشق ، على نحو ما كانت ظاهرة في حملته بالبادية . وإذا كان له بعض العذر في فوضاه يوم كان في الصحاري ، فهو لا يعذر على الفوضى في حالة الاستقرار بالمدن . والفوضى تبدو جلية في الحضر أكثر من البوادي . وكان الاسراف في قصره كثيراً ، وفيه سرّاق من كل صنف وأناس لا يهتمون لغير مصلحتهم ، وكان الانكليز يعطونه كل شهر مئة وخمسين ألف جنيه مصري ، ينفقها بكثير من التبذير ، هذا عدا ما في هذه الديار من موارد تدخل خزينة الدولة ،

وهو يحرص على ارضاء مشايخ الاعراب ، ومقدمي الريف ، والزعماء من سكان المدن واستمالة قلوب المسلمين وغير المسلمين ، والشاميين والحجازيين والعراقيين والبريطانيين والأجانب ، لذلك كان من واجب أصحابه أن يوفروا له وقته ، ولا يزيدوه ألماباً إلى الماية بمقابلاتهم وطلباتهم ، وهو مضطر كل ساعة إلى أن يقابل أصنافاً من الخلق ، ولو لم يكن لديه إلا المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين ، وكل من الفريقين يحاول أن تكون لدولته الكلمة العليا في الشام ، لكفاه ذلك هماً ومشغلة . أضف إلى هذا أن القوم لم يربوا التربية السياسية المطلوبة ، وهم خارجون من أيدي حكومات عبثت بحضارتهم ، وأضرّت بتربيتهم .

استصحب الأمير فيصل من باريز الكولونيل تولا ، فأنزله في دار عبد الرحمن باشا اليوسف ، ولعرفت اليه أول وصوله ، ونبهت على حاشية الباشا وأقاربه ألا ينطلقوا أمامه بالكلام ، ولا يستعملوا معه غير الأدب متحفظين ، اذ قد يدرك الغريب الأعجمي مرمى ما يتكلم به المتكلمون من نبرات أصواتهم ، وأسارير وجوههم ، وإن جهل اللغة التي يتخاطبون بها . وطال نزول الكولونيل في دار صديقي عبد الرحمن باشا ، وهذا يكرر رجاءه ألا أنقطع عن الدار ، لأن أعماله الخاصة تضطره إلى التغيب ، فأكون أنا مع ضيفه على المائدة ، نائباً عن صاحب البيت ، وكان السيد تولا لا يترك القصر في النهار كثيراً ، ويجلس في ردهة الاستقبال يتوقع أن يكلمه أحدهم أو أن يتكلموا أمامه . وتبين بعد أشهر وقد نجزت مهمته ، أنه يحسن العربية ، وما نطق بحرف منها أمامي ، ولا أمام أحد من أهل الدار ، مدة مقامه بينهم . فحمدت الله تعالى وجماعة المضيف على هذا الاحتياط ، وعلى ما ظهر به بيت عزيزي الباشا من مظاهر الوقار والأدب أمام الغريب .

تعلمت هذا التحفظ من حادثة وقعت لنامق كمال الأديب التركي المشهور قصها علي صديقي الأمير أمين أرسلان قال : كان نامق بك مسافراً في

قطار الشرق من الاستانة إلى سويسرا ، يصحبه بعض ادبائهم ، وكانت في المركبة عجوز افرنجية . فأخذ مع رفاقه بأطراف الحديث ، وتناشدوا الاشعار ، وتطرقوا إلى ما ابتلوا به من رفقة تلك الشمطاء الدردبيس ، وأطالوا في هذا الباب وأكثروا وهي كالتمثال المنصوب لاتبدي ولا تعيد ، ولا تتكلم ولا تبتسم ، ولا تعبس ولا تنقبض . ولما قربوا من لوزان تقدمت العجوز اليهم ، وكلمتهم بلغة تركية راقية ، وقالت إنها مسرورة بسماع كلام ادباء الترك ، وقالت إنها لم يجر لسانها باللغة التركية منذ مدة ، وعرفتهم بنفسها فكانت امرأة سفير انكلترا في الاستانة سابقاً ، فصعقوا لما بدر من فلتات لسانهم ، ولما دل ما فاهوا به على قبح أدب . ثم دعتهم إلى تناول الشاي في منزلها من الغد في مدينة لوزان ، فأحبوا أن يفلتوا من دعوتها ، فأصرت عليهم ، وأرسلت من عرف المنزل الذي ارتادوه ، فاضطروا إلى الحضور مكرهين ، يتعثرون بأذيال الخجل ، ورأوها قد دعت سرباً من حسان الاوانس والعقائل ، وما تركت للاديب التركي ورفاقه مجالاً ليعتذروا ، وودعتهم إلى الباب ومن حولها الشابات الصباح ، كأنهن بعض وصيفاتها وخادماتها . وهكذا ضربت الانكليزية رفاقها في القطار ضربة موجعة على ام الرأس .

والانكليز من أعرف الامم بتسقط الاخبار ، ومن أقدر الخلق على كظم غيظهم ، حدث أن سفير انكلترا في الاستانة أرسل إلى قنصل دولته في دمشق ، قبيل الحرب العامة بنحو شهرين ، يقول له إن ضابطين تركيين برتبة كبيرة غادرا الاستانة إلى فلسطين ، ولم يعرف الغرض من سفرهما ، وطلب اليه التحقيق عن الدواعي اليه . فبحث القنصل عن الضابطين فعلم ان وجهتهما فلسطين ، وملأ سلتين من المآكل والمشروبات ، وتحين دخول الضابطين إلى المركبة في قطار فلسطين فركب معهما فكلماه بالفرنسية فقال لهما بالانكليزية إنه سائح اميركاني ، ولا يعرف غير الانكليزية ، وأخرج كتاباً انكليزياً يتلوه وتغابى ، ثم نبش السلة وفتح زجاجة من الويسكي

ودعاهما لتناول قدحين فأجاباه إلى دعوته اللطيفة، ثم شرب وناولهما واطمعهما ما يتمززان به، وأخذا بأطراف الحديث، وقال أحدهما لصاحبه لنتكلم فهذا حيوان لا يفهمنا. ولكن القنصل كان يحسن التركية، وما إن بلغ القطار محطة سمخ حتى عرف المهمة التي هما مسافران من أجلها. ونزل من القطار وانزل سلتيه، وسلم على رفيقيه، وانتظر قطار دمشق فركبه، وكتب إلى سفيره بسر الضابطين.

ومما يدل على مهارة الانكليز بأخذ الأخبار حادثة سمعتها عن رجل منهم عاش بين الأتراك في الحرب العامة أربع سنين، وهو من أعلق الناس بقلوبهم، ومن أقرب رجال الحكومة إلى أخذ أسرار الدولة. ذلك أن جمال باشا لما أتى الديار الشامية استصحب معه من الاستانة شاباً شركسياً اسمه ضيا بك، كان مقدماً عند الاتحاديين ونائباً في مجلس النواب العثماني وتعارفت إليه وتحككت به، فألفيته ذكياً مرحاً يحفظ بعض جمل بالعربية ويوردها في المناسبات، وكان ينادبني (يا خالي) إشارة إلى أن أمي شركسية وهو أخوها. وكان يطلعني على أشياء تخصني ويقوي عزمي ويبدد همي، وأنا أستغرب منه ذلك وأقول: هي التربية، ولا بد أن يكون هذا الرجل عاش مع جماعة راقين مدة في اوربا. وأصبحت لضيا بك منزلة في معسكر القائد العام، يذهب في المهمات، ويؤتمن على الأسرار ويجتمع إلى من يحب، ويختلط بالناس، ولا يعرف عنه غير هذا.

وبلغني بعد الحرب أن هذا الرجل الشركسي كان انكليزياً صرفاً. ولد في القوقاز بين الشركس فحذق لغتهم، ثم انتقل الى آسيا الصغرى، ونشأ بين الشراكسة كأنه واحد منهم، وتدخل مع الاتحاديين فعدّوه في جملتهم، وانتخبوه نائباً في المجلس النيابي عن إحدى مقاطعات الأناضول، ثم نشبت الحرب الكبرى، فكان من حاشية جمال باشا يركب بركوبه وينزل بنزوله. وقيل لي بعد الحرب إنه كان معه مجوهرات كثيرة، كان يهدي منها من يريد اكرامه واستخدامه وذكرت اسمه لأحد رجال الترك

بعد عقد الهدنة مع الحلفاء ، وما كان من أمره فقال : عزمت عليك ألا تذكرني بغباوتنا .

عود إلى الأمير فيصل . قيل إن مبايعة فيصل بملك الشام كانت بتدبير جماعته الذين عوّل عليهم واصطفاهم لسياسته ، وكانوا يعتقدون أنهم يجعلون انكلترا وفرنسا أمام أمر واقع إذاهم تقدموا فبايعوه ، فلم يرضَ الانكليز والفرنسيون عن هذه المبايعة ، وما دام هذا الملك سوى أشهر معدودة . وسواء كان الانكليز راضين عن هذه المبايعة أو غير راضين ، فقد خذلوه لما جاء دور الرسميات . وبدخول الجيش الفرنسي دمشق خرج الملك فيصل وبث الفتنة في الجنوب ، ونادى بالنقمة على المحتلين ومن عاونهم ، فكان من ذلك قتل الحوارنة رئيس الحكومة علاء الدين بك الدروبي ، وأحد وزرائه عبد الرحمن باشا اليوسف . وكان هذا دعاني إلى أن أصحبه في رحلته هذه ، فاعتذرت وقلت له : ما دمنا نسافر غداً إلى بيروت فأنا في هذا النهار أتفرغ لقضاء أشغالي ، فسلمت بفضل الله من هـــذه الغائلة . وعلاء الدين بك الدروبي من أهل حمص ، تخرج بعد أن درس في المدرسة الملكية بحسين حلمي باشا في الادارة . وأظهر نكراناً لجميل فيصل ، وتناسى أفضاله عليه بعد رحيله ، فطعن فيه في دار الحكومة في خطاب رسمي . وتهور بعد ذلك بزيارة حوران ، وكان متصرفها السيد أبو الخير الجندي كتب إليه سراً أن الحالة الروحية سيئة في لوائه ، فالأولى أن يؤخر رحلته فلم يستمع له ، وكان في ذلك حتفه وحتف صديقه وغيرهما ، وبعقتلهما خربت حوران ، بما ضرب عليها من الغرامات ، وما عرف القاتل الحقيقي .

كان القوم على عهد فيصل في قلق واضطراب ، يعقدون أعظم الاماني على ملك الهاشميين ، ويرجون بهم إرجاع دولة العرب . وأكثر ما أضرّ بذاك الملك وعجّل في القضاء عليه الاعتماد على الصعاليك الأغمار ، ومعظمهم أطفال في السياسة يريدون الظهور والانتفاع قبل كل شيء ، وكان الأهلون من ذلك في غمرة ، ولو طال ملك فيصل ، وأراد الانكليز نجاحه لما كان

مصيره ما كان . فقد رأيناهم لما صحت عزيمتهم على فلاحه في ملك العراق كيف هيأوا له ذرائع التوفيق ، وكان هو قد تعلم سياسة الخلق في الشام فما ارتكب ما ارتكب هنا من أغلاط . هذا والعقلاء العارفون يجمعون على أن استعداد الشاميين للحكم أكثر من استعداد العراقيين ، والنور باكر الأولين قبل أن يباكر الآخرين ، ولكن حظ العراق أعظم من حظ الشام ، وللبقاع نصيبها من الشقاء والسعادة .

ومن أسباب زوال ملك فيصل من الشام ضعف إرادته ، ومن ضعف إرادته أنه كان من أسرع ما يكون إلى نقض القانون فيعفو في الحال عمن التمس منه الصفح عنه ، ولو كانت المادة مادة قتل والمسامحة بها تضر بمصالح الدولة ، وكان كثيراً ما يعمد إلى سياسة الارضاء ، فقد نصب الشيخ تاج الدين بن الشيخ بدر الدين رئيساً على العلماء في دمشق ولما تتجاوز سنه يومئذ الحادية والعشرين .

وكان المتكلم الأخير مع فيصل هو الذي يقبل رأيه ويعوّل على كلامه مهما بلغ من سخف وضعف . وقد صحبه صديقي الاستاذ فائز بك الغصين — وهو من أذكياء العرب ، كان أبوه زعل الغصين من رؤساء اللجاة — في رحلته إلى باريز فلم يلبث أن رجع ، فسألته عن سبب عودته قبل إتمام أعمال الأمير فقال : إن الأمير يصعب العمل معه ، فهو أذن يستمع لكل من يأتيه بخبر ، تراه أبداً متقلقل الرأي ، ضعيف العزيمة ، وحقيقة ما قاله ابن الغصين ، فان الأمير لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبين ، ما وقعت وقعة ميسلون ، ولا دخل المنتدبون أرضنا بالقوة . ومع هذا فقد كان من أفضل أولاد الحسين ، أسمع صوت العرب في الغرب ، وعرّف السياسيين بأن للشعوب العربية مطالب يثورون من أجل تحقيقها ، وأنهم أمة ذات ماض مجيد ، يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار ، فنشأت بذلك مسألة اسمها المسألة العربيـــة .

بطريرك الروم

عرفت صديقي البطريرك غريغوريوس حـداد قبيل الحرب العالمية ، ولا أذكر بأي واسطة من وسائط التعارف كان اجتماعنا أولاً ، وبلغني عنه أن أحد الشمامسة جاءه ذات يوم يقول إن الحنطة التي كانت مخزونة في مخزن الدير بدمشق قـد كادت تنفد ، واقترح على بطريركه أن يخص بصدقاته أبناء طائفته بعد ذاك اليوم . وكانت البطريركية لما اشتد الجوع أيام الحرب العـامة توزع طعاماً على الفقراء من جميع الطوائف . فعبس البطريرك ، وصمت دقائق ، ثم قال للشماس ساخراً : إذهب ولا تعط صدقة إلا لانسان ترى منقوشاً على جبينه (روم ارثوذكس) ، وخصه بالطعـام ولا تعط لغيره شيئاً . ثم قال بصوت متهدج : إدفع الصدقة لكل من يطلبها ، فالخلق كلهم عيال الله .

نُقل إليّ هذا الحديث عن ثقات أعتقد صدقهم ، فعظم البطريرك في عيني ، وأيقنت أن نفسه صفت من لوُثات التعصب الأعمى ، وكنت في دعوة أقامها في دمشق قائد الجيش جمال باشا ، وكان السيد غريغوريوس في جملة المدعوين ، ولما اقترب من الردهة همست في أذن القائد وقلت له : إن هذا البطريرك من العلماء الأجلة ، ومن أهل التقوى والصلاح ، وهو إلى هذا عريق في عثمانيته أكثر منكم ومني ، وقصصت عليه باختصار ما كان منه مع الشماس في توزيع الصدقات على المحاويج من كل نحلة . فقال لي الباشا : هذا الرئيس الديني جدير بأن يعاون إذاً . فقلت له : ويكون لمعاونته إذا تفضلتم دولتكم بذلك أحسن الأثر عند طائفته ، وعنـد جميع الطوائف ، ولا سيما عند المسلمين ، لأنه محبوب عندهم ، وموقر عنـد عقلائهم وأهل الرأي منهم . واتصل بي أن « صاحب الدولة » ارسل إلى

« صاحب الغبطة » مقدار وافرة من الحنطة ، ومنحه مبلغاً عظيماً من المال وأحله من نفسه محل التجلة والاكرام ، وما زال على معاونته حتى غادر الشام .

ما اطلعت البطريرك على حديثي مع قائد الجيش مدة الحرب ، لأن صداقتنا كانت حديثة العهد يومئذ ، وقد توطدت دعائم المحبة مع البطريرك بعد ذلك ، وصرنا نقضي ساعات معاً نتذاكر في امور علمية وأدبية ، ونخوض في موضوعات اجتماعية وسياسية ، وما كنا نتعارض ولا نتصادم . قضيت في سوق الغرب في لبنان أياماً ما كدت أفارق صديقي ، وكان مصطافاً هناك في ديرهم ، إلا وقت النوم ، وكنت أشهد مائدته في الظهر وفي العشاء ، وما استطعت لما له من السلطان على القلوب أن افلت من ضيافته . ولما انشأت المجمع العلمي اهداه ما عنده من الآثار والعاديات . وفرغ بعض السنين محل عضو في المجمع كان فيه رجل من طائفة الروم فأحب البطريرك ان اجعل خلفه شخصاً من ابناء طائفته فأبيت ، وقلت له : عضويات المجمع توزع على ارباب الكفاءات ، لا على المذاهب والديانات ، فعذرني .

كانت معرفة غريغوريوس بالتاريخ الاسلامي والفقة الاسلامي كفاء سعة عقله وعظيم تجاربه ، وكان من الخطباء الأبيناء ، والأدباء العارفين ، لا تمل حديثه ولاتمل من مجالسه ، وكنت كلما اطلت النظر في اخلاقه أقول إن هذا الرجل جمع بين النصرانية والاسلام ، واخذ من روح الديانتين كل ما اشتد حاجة البشر إليه .

ولما أخذ بعض ابناء طائفته ينقمون منه اشياء ويتحاملون عليه . تطوعت لرد هجماتهم ، وقلت لبعض أصدقائي منهم : إنكم تحاولون العبث باوقاف الطائفة ، وان تتصرفوا بأمورها على هواكم ، والبطريرك فيما أرى يحول بينكم وبين ما تحيلون له ، والله لتبكنّ عليه بكاءً كثيراً اذا فقدتموه ، فكانوا يبسمون لقولي ويدركون اني عرفت ما تكنُّ صدورهم . وكان مما يعدون عليه أنه يعطي لابنة اخته راتباً شهرياً ، فكنت اقول لهم : إن الذي يأتي طائفته بعشرات الالوف من الجنيهات ، يصرفها في تعليم أولادهم وإطعام فقرائهم ،

تستكثر عليه إعطاؤه عشرات من الليرات في السنة لسيدة محتاجة ، وهي الوحيدة الباقية من رحمه في الارض .

دامت صداقتي مع السيد غريغوريوس إلى ان وافاه أجله ، وكانت من امتع الصداقات ، وأوفاها صفاء. ولما نقل جثمانه من لبنان ليدفن في دمشق ، كان المسلمون هم الذين تولوا الاحتفال بتشييعه ، فحضر جنازته منهم ما لا يقل عن خمسين الف انسان آسفين مكتئبين . وقد عجبت النزالة الأوربية يومئذ ان احتفل المسلمون برئيس ديني لا صلة لهم به في الظاهر ، هذا الاحتفال الباهر الذي يدل على عاطفة كريمة ، فأجبت بعض من سألني عن سرّ ذلك منهم قائلاً : لا تعجبوا لهذا الحب المتجلي في هذا الحفل ، فتحابب الناس متأصل في قلوبهم في هـذا القطر منذ زمن طويل ، وما كانت تقع امور غير مستحبة بين ابناء هذا الوطن أحياناً إلا بألاعيبكم ، والاعيب ساسة الدول العثمانية ، ورجل من عيار هـذا الراحل العظيم يحبه جميع الطوائف ، لأنه على شدة تمسكه بدينه ما غفل عن حقوق وطنه ووطنيته . ومع انه بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ، وطائفته في هذه الديار أكبر الطوائف النصرانية عدداً ، فهو اقرب الرجال إلى قلوب السواد الأعظم من السكان ، يحبونه حبهم لاعز رجل من رجالهم ، وكثيراً ما أطلقوا عليه اسم بطريرك المسلمين محمد غريغوريوس . وزار مرة بيروت فخرج إلى لقائه اربعون سيارة تحمل مستقبلين من ارقى طبقة من المسلمين وكانوا يصرخون وهم فرحون بمقدمه عليهم : إنا نستقبل حبر النصارى والمسلمين.

كان السيد غريغوريوس من التقشف والزهد على جانب عظيم ، خرج فيما روي لي عما يملك من صلبان الذهب ، باعها وأنفق ثمنها في إطعام الفقراء وإغاثة البائسين مدة الحرب العامة ، وكان يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ولا يألم إلا اذا قصده قاصد وليس لديه مال يواسيه به . وطالما قلت امام الموافق والمخالف إن غريغوريوس من اعرق الناس في حب قوميته ، وأكثرهم تناغياً بعربيته ، واتمنى لو كان كثير من مشايخ المسلمين على سمته وأخلاقه ، او كما قلت .

وفد جناق قلعة وشؤون

ألف جمال باشا في السنة الأولى للحرب العامة وفداً من مفاتي سورية وفقهائها وشعرائها ووجوهها ، وشفعه بأربعة من الصحافيين أدمجني في جملتهم . فسافر الوفد إلى الاستانة ثم إلى جناق قلعة (الدردنيل) ليزور المشاهد التي تدل على عظمة الدولة ، ويرجع إلى سورية يخبر أهلها بما رأى وما سمع . والحقيقة أن الباعث إلى ارسال هذا الوفد كان للامتداح من أعمال جمال باشا أمام ولاة الامر في الاستانة ، وكان مركزه مزعزعاً فاعتزم تثبيته بهذه الواسطة .

وكان الوفد برياسة الشيخ أسعد الشقيري العكاوي ، الداهية الباقعة ، الذكي القلب ، الخفيف الروح ، وكان يخطب باللغتين العربية والتركية ، ويحسن في جملة ما يحسن ادب الكبراء ، ويعرف طبائع الاتراك ، لانه عاش بينهم زمناً طويلاً ، وكانت دراسته الاولى في الازهر ، ويرجع السبب في طلاقة لسانه إلى كون ابيه او جده من اهل وادي النيل .

واتم الوفد مهمته على ما يحب مرسله ، وتجلت في هذه الرحلة اطماع بعض افراده وجشعهم ، فتأذى بهم رئيس الوفد ، وكان يتوسطني لاكلم بعض من يشذون عن قانون الجماعة ، ومصطلح المدنيين في الاكل والجلوس والسير والاجتماع والخطاب ، فألقى ويلقى هو من بعضهم عنتاً وما دعا إلى هذه البلبلة الا عدم التجانس بين الموفدين ، على ان الوفد لو كان من غير جماعة المشايخ ما كان له ذاك الوقع في نفوس اهل الاستانة ، وما عرفوا ان منهم الجهلاء ، ومنهم من يشهد الزور ، ويكذبون ولا يرون في الكذب غضاضة ، وقد يفتونك فيما تعتقده محرماً ، ويبيحون لك ما كان محظوراً ، ومنهم من يحبون ان يستثمروا كل شيء لجيوبهم ومظاهرهم .

تمارض احـد اعضاء الوفد صديقي الشيخ بدر الدين النعساني الحلبي ، لما بلغنا الاستانة ، وتخلف عنا ولم يرافقنا الى جناق قلعة . وركب الوفد إلى هذه الارجاء باخرة من بواخر المستشفيات الخاصة بنقل المرضى ، وكان الخطر محدقاً بنا من الغواصات ، ودأب المشايخ يتلون حزب البحر ، داعين الله ان ينجينا من الغرق ، فنجونا ببركات انفاسهم الطاهرة ، واثر حزبهم في البحر وما هاج ، بفضل توسلاتهم ، وتخطتنا غواصات الحلفاء وما كنا من المغرقين ، ولما عدنا إلى استانبول رأينا مريضنا قد ابلّ ، فقال لي إنه كان يدعو الله آناء الليل واطراف النهار ان يغرق سفينتنا ، لينقذ سورية من ثلاثين شيخاً ، وان غرقت انا معهم فانه يبكيني ، ويسره ان يكون المشايخ طعام الاسماك في قاع البحر . وطالب ذلك شيخ ايضاً ، وقد ظلمه من ادخله في سلكهم . قال هذه النكتة وكلامه لا يخلو من حقيقة جارحة .

وعدنا إلى مسافط رؤوسنا يحمل كل واحد منا نوط الحرب وساعـة من ذهب ، ولـكل واحد من ارباب الجرائد مئة ليرة عثمانية معونة لجريدته . فسقط في ايدي بعض اعضاء الوفد لما بلغهم ما ناله ارباب الصحف ، وودّ بعضهم لو كان في الامكان عده في الصحافيين ، حتى يقبض ما قبضوه ، ولو بخلع عمامته وحلق لحيته ، وجعله في مؤخرة الصفوف .

زرت القائد العام في فندق فيكتوريا لدن عودتي من الاستانة ، وصادفت عنده رضا باشا الركابي ، فرحب بي ترحيباً كثيراً ، وشكرني على مهمتي في الاستـانة ، ثم قال لي : بلغني انك تحب الذهاب إلى جبل الدروز ، لتحدث اهله بما رأيت في دار الملك . فقلت : هكذا النية اذا صدر امر دولتـكم . فقال : نعما تفعل ، وسأرسل معك نسيب بك الاطرش ليتولى خدمتك بما لا تقدر ان تتولاه بنفسك ، وعندها تكلم الركابي فقال : يا حضرة الباشا كان لفلان ، يعنيني ، صحيفة سوداء قبل الحرب ، فلما جئتم هذه الديار بيض صحيفته بخدمة الدولة (او ما هذا معناه) فقاطعه جمال باشا وقال : ثبت لي اخـلاصه وغيرته على هذه الدولة ، واني ما وثقت به إلا

بعد ان جربته عشرين مرة . ومعنى هـذا انه وضع عليّ عيوناً يأتونه بأخباري ، واهم ما كان يهتم له شخصه ورأيي فيه . وانا كيف افوه بشيء يؤلمه وهو الذي عاملني معاملة رفع بها من مقامي ، ووقاني اذى المؤذين ، وما اكثرهم إذا شاهدوا ممن يؤذونه ضعفاً .

وكان في جملة العيون عليّ شاب من اهل حمص ذكر لي هو ذلك ، وذاك الجاسوس السافل الدمشقي وكان الشيخ الشقيري قال للباشا ، وقد رآني في عودتي إلى دمشق كاسف البال واجماً ، لأن فريقاً من اصحابي سيقوا إلى سجن عاليه مدة غيابي : إن فلاناً الذي خدمك كثيراً في الاستانة ما ذا يكون مصيره بعد أن قبض على أصحابه ، واودعوا السجن رهن التحقيق في عاليه ؟ فأجابه إنه راض عني كل الرضا ، ويعتقد بقوة ايماني وعقيدتي الوطنية ، ويحب أن ألقاه ليطمئنني بنفسه . وكان أن صدر منه الكلام الذي قاله لي في فندق فيكتوريا .

ولقد شجعني على المضيّ في نقل حسنات قائد الجيش ، كلما دعا إلى ذلك داعٍ ، نصيحتان لعظيمين يعرفان نفسية الكبراء في هذا الشرق . إحداهما نقلها لي صديقي الشيخ أحمد حسن طبارة صاحب جريدة الاتحاد العثماني في بيروت قال : ابلغك نصيحة الشيخ طاهر الجزائري ـ لما عرّج على بيروت في طريقه إلى مصر قبل نشوب الحرب بأيام ـ قال : انشر للأتراك كل ما يريدونه في جريدتك ، وقل لصاحب المقتبس ان يجري على مثل طريقتك ، وإذا لم تفعلا فأنتما مقتولان لا محالة . ولكن حب الكسب غلب على طبارة فنشر في جريدته حوادث لا ترضي العثمانيين ، كان يبعث اليه بها احد قناصل الحلفاء مع اجرتها القليلة ايام النفير العام وقبله بقليل ، وانا عرضت على جريدتي مثل هذه النشرات لم ار من الحكمة نشرها ، وهي صادرة عن عن اجنبي لا اعلم النية فيها ، والدولة في احرج اوقاتها ، فسيق صاحبي إلى عاليه ، وهو من جماعة الاصلاحيين ، وربما كان مع غيرهم أيضاً ، وحوكم مع من حوكم فحكم عليه بالقتل .

والنصيحة الثانية صدرت عن رجل عرف الزمن وأهله معرفة حصيفة ، ألا وهو خلوصي بك والي سورية ، فاني لقيته في الاستانة مُنْصَرَفنا من جناق قلعة ، وكان استقال من ولاية سورية لأن جمال باشا عزم على قتل المتهمين بالسياسة في عاليه ، ولما لم يقنعه ولم يقنع الاستانة برأيه في الابقاء عليهم استقال ، على شدة الحاح رجال الدولة بالبقاء . ولما لقيته ظهر الكدر على أسارير وجهي ، فالتفت إليّ وقال : خلوصي حيث كان خلوصي ، فقلت له : يبقيك الله ياسيدي ، إن مقام دولتك لا يحتاج إلى دليل ، وارجو ان تتمتع بالصحة انت وعيالك . وانا اندب فقط سوء حظنا ،فقد كان اقصى آمالنا ان ننتفع بثمرات عملك وتجاربك ، وقد علم مولاي مبلغ تعلق اهل سورية بشخصك الكريم ، لكثرة ما لقوه من عنايتك بأمرهم ، وغيرتك على مصالحهم . وكان اهل دمشق خرجوا لوداعه لما رحل عنهم يبكون ويأسفون . ثم قال لي : اسمع مني ثلاث كلمات تنج من هذا الرجل السفاح (جمال باشا) لا تطلب الذهاب إلى المانيا او النمسا ، فانه يعتقد انك تحاول الفرار للالتحاق بالحلفاء ، كما كنت طلبت ذلك آنفاً وارتاب منك ، ولاتكثر الاجتماع بالاهلين على ما كنت تفعل ، والزم دارك واقلل من الاختلاط ، وحاول من حين إلى آخر ان تمدحه في الجريدة ، وإلا فأنت مقتول . وإذا رأيت نفسك في ضيق ، وايقنت بتغير قلبه عليك ، فاكتب لي ان الجريدة لا تفي وارداتها بنفقاتها ، فأفهم انك ازمعت ان تعتصم بالاستانة ، وانا كل ساعة مستعد ان اجد لك وللدكتور عبد الرحمن شهبندر هنا منصباً لا يقل راتبه في الشهر عن خمسة آلاف قرش لكل واحد منكما . فودعته وكلي اسف على فراقه ، وانفذت امره في كل ما نصحني به ، وحفظت اجمل ذكرى لأشرف والٍ عرفته من ولاة العثمانيين .

أسرار الترك

عيل صبر والي سورية خلوصي بك مني ، لكثرة ما ذكرت له خلال احاديثنا اسم الاتحاديين،ولقولي له جماعتكم الاتحاديون ، وعمل الاتحاديون وقال الاتحاديون فقال لي : أنا لست اتحادياً ولعنة الله على الاتحاديين . هم فئة تسير بالمملكة إلى الخراب ، وعلى أيديهم ستنقرض وتبيد . وإني ما وصلت إلى هنا والياً عليكم حتى دخلت في كل المضايق ، وعرفت تصاريف الدهر بأهله . وأشار إليّ بالكف عن نسبته إليهم . وقال لي يوماً : ثق يا فلان أن بلادكم خرجت من حكم العثمانيين ويا للأسف ، بفعل هؤلاء الاتحاديين المجانين . ولما سمعت ذلك منه تطلعت ذات اليمين وذات الشمال مخافة أن يكون سمعه احد . وخفت ان يكون اصيب بضربة جنون ، فما زدته على ان تغافلت وتغابيت كأني ما سمعت . وكيف لا اخاف ان يكون استدرجني للكلام ، وانا كنت يومئذ احتاط في كلامي مع كل تركي ، واتوقى اكثر ابناء العرب ، فبالأحري ان احاذر واليهم ، على ما كان بيني وبينه من صلات كلها ود وحرمة وثقة .

ووقع لي مع جناب شهاب الدين بك من علماء الترك وادبائهم ـ وكان دعاه جمال باشا هو وصديقه سليمان نظيف بك العالم الأديب المشهور لزيارة الديار الشامية واوصاني بأن الزمهما واكرمهما ، ونزلا في دار صديقي عبد الرحمن باشا اليوسف ، وقد خلونا مرة بأنفسنا في ردهة الاستقبال ، وكثيراً ما كنا نخلو ونتسار ـ وقع لي ان قال ما ادري كيف اصف هؤلاء الذين قبضوا على زمام الملك ، وكأنهم مستأجرون للقضاء الأخير على هذه الدولة ، إنهم سخفاء اغبياء يحاولون ان يستأثروا فقط بالدعوة إلى القومية التركية (المتكلم من صميم الترك) ولا يتركون مجالا لنصف سكان المملكة

وهم العرب ان يجروا على مثالهم في هذا المضمار . هذه المملكة يا صاحبي لا تعيش إلا كما تعيش امبراطورية النمسا والمجر ، ولا معنى ان اختص انا بالدعوة للقومية التركية ، ولا يكون لك انت العربي حظ منها . فاما ان ادعو انا وتدعو انت ، وإما ان اكف عن الدعوة وتكف انت . هـذا هو الانصاف .

قال : حقاً إننا ضعاف في إدارة الشعوب والممالك ، وقد حاولنا فيما مضى ان نُترّك الروم فخرج الروم عن حكمنا ، ثم حاولنا بعد ان نترّك الصرب والبلغار والرومان فخرجوا كلهم عن حكمنا ، وحاولنا ان نُترّك الألبان فنزعوا ايديهم من ايدينا ، والآن نحاول ان نترّك العرب وسيخرج العرب من سلطاننا . وسألته ما العمل إذاً ؟ قال : لا شيء ، قريباً يخرج عليكم الافرنج من البحر فتسقطون في ايديهم غنيمة باردة . نبّه على من تحب وتعرف ان يدخر قوتاً في بيته يكفيه وعياله اشهراً ، فربما طال حصاركم ، ولا تفكروا فيما سوى ذلك .

وقال لي مرة « جناب » المشار إليه ، ونحن سائرون في بعض ازقة دمشق على الأقدام ، وقد رأى حمل حطب على حمار يسوقه صاحبه مذعوراً ، كأنه يهرب حشيشاً أو أفيوناً . أصحيح إن الحطب عزيز في هذا البلد ؟ فقلت له : نعم ، حتى أنني منذ مدة احاول ان أجلب إلى داري حطباً من قريتي وأخشى ان يصادر في الطريق . فاهتز لهذا وقال : اذا كان مثلك لا يقوى على جلب حطب بيته من مزرعته ، فكيف تطلب من العرب أن يحبوا الترك ؟ كل جفاء يبدو من العرب نحونا هم معذورون فيه .

هذه حرية علماء الترك ، وهذه نفوسهم الصافية ، وهذه ثقتهم بالمخلصين من ابناء العرب . ولقد بالغ الأديبان التركيان لما حللت الاستانة بالحفاوة بي . وكان سليمان نظيف يقول لي : انا هنا اخدمك كما كنت أنت تعاملني في دمشق . فأقول له : إنمقامك يا مولاي عظيم جداً ، فأرجوك ألا تعاملني هذه

المعاملة . فكان يقول : أنا أقوم بواجب ، وساطلعك على أماكن لا عهد لك بها في هذه العاصمة ، وحقيقة أطلعني على خزائن كتب لا أعرفها وعرفني إلى شخصيات عظيمة ما كنت لولاه اصل اليها . وكانوا إذا حضروا مجلسه يوم الأحد من كل اسبوع يعرفني إلى من لم اكن أعرف بقوله : هذا من أحرار العرب هذا صديقي فلان . ويدعوهم إلى ان يتكلموا بحرية أمامي كأني منهم ، وبذلك عرفت مكانة رجال الترك معرفة يصعب أن يعرفها كثيرون حتى من الترك أنفسهم ، وأوقفني على ما كان يستتر عن الغريب لا محالة ، أهديته لما كان في دمشق اعداداً من مجلة المقتبس فطالعها مطالعة امعان ، وقال بعد أيام لصديقه جناب بك شهاب الدين : طالع هذه الاعداد التي تفضل صديقنا كرد علي وأهدانيي إياها ، اننا إلى الآن لم نستطع (اي الترك) أن ننشر مثلها ومتى طالعتها تحكم على العرب . فقلت له : هذا من فضلك وحسن ظنك بالعرب . فقال : هذه الحقيقة وتعرف اني لا أحب النفاق .

وفي الحق ان المنورين من علماء الترك وأدبائهم كانوا يحبون العرب . ويعجبون بالآداب العربية وبتاريخ العرب ، ويشمئزون من كل من ينال منهم ويطعن فيهم ، وكان رجال الاستانة مثالاً من هذا اللطف والعطف .

قلت لصديقي علي كمال بك — من أكبر ادباء الترك وكتابهم ، وكان يحفظ جانباً عظيماً من شعر المتنبي والمعري ويستشهد به في كتاباته بالتركية — عندما دخل الأمير فيصل إلى دمشق وكنت في الاستانة : بلغني ما ساءني من أخبار بلدنا ، بلغني أن شكري باشا الأيوبي عامل الاتراك معاملة نابية عن الانسانية ، لما جلت الحكومة العثمانية عن ديارنا ، وأنه لم يحسن معاملة النساء خاصة . فقال لي : لا تصدق ياعزيزي ، العرب لا يصدر منهم مثل هذا ، لو دخل الاتراك عليكم ظافرين لعاملوكم بمثل هذه المعاملة ، أما أنتم العرب فلا تفعلون ذلك . فتوقف فكري لقوله ، وجاءت الاخبار بعد اسبوعين أن الأمر في دمشق كان خلاف ما بلغني أولاً ، وأن الاتراك لقوا عند سقوط دمشق من اخوانهم العرب كل رعاية . فذكرت ذلك لعلي كمال بك فقال : أما قلت

لك ، أنا عارف بطباعكم ، وكان قضى شطراً من حياته في مصر وفي حلب ، وهو الذي مزّقه الكماليون شر ممزق لما وافت جموعهم ضواحي الاستانة ، وكانت لي معه في مصر وفي أوربا مذاكرات ومهامسات . وكان الاتحاديون لأول نشأتهم غاضبين عليه فقلت لطلعت باشا وزير الداخلية : إنكم تحسنون صنعاً إذا استدعيتموه من اوربا ، وكان أمامكم هنا ، وربما سار معكم ، إذا أحسنتم سياسته ، وذلك خير من ان يكتب فيكم وهو بعيد . فاستدعوه وجعلوه استاذاً في دار الفنون ثم أصدر جريدة (پيام پيام) ووقع الخلاف بينهم لأن الاتحاديين لا يحتملون الحرية ولو كان من بدرت منه تركياً من صميم الترك مثل علي كمال بك .

واتفق لصديقي أحمد جودت بك صاحب جريدة (اقدام) أكبر صحف الاستانة في عهد العثمانيين أن نشرت جريدته مقالة عن اليمن فيها طعن في العرب ، فتحمس بعض طلابنا في الاستانة ، وهاجموا ادارة (اقدام) وحطموا الزجاج ، ومزقوا الأثاث ، وشتموا صاحب الجريدة . فكتب المقتبس يوبخ طلبة العرب ، على ما أتوه مستنكراً له واعتذر عن صاحب (اقدام) بأنه قد لا يكون اطلع على المقالة ، ولو رآها لما نشرها . وصحيح أن الأمر كان كما قدرت ، وصاحب (اقدام) كان آية في أدبه واطلاعه ، ما أحصيت عليه غلطة في باب الطعن بالعرب ولا غيرهم ، وعلى العكس كان يرفع مقام الأمة العربية ، وماكان في رجال الصحافة من يماثله بوقوفه على روح المملكة العثمانية وخصائص شعوبها . وكان لدفاعي عنه في المقتبس تأثير كبير في الأندية التركية في العاصمة والولايات أدركوا به أن العرب يحبون الترك ، وأن عقلاءهم يربأون بأبنائهم عن أن يشبوا على المشاغبة والسلاطة وقلة الانصاف . وأثبت أحمد جودت ، ولطالما أثبت من قبل ، أنه عظيم في ذاته واخلاقه ، ولم يعط النفس هواها ، وظلّ على حبه للعرب وتقدير قدر علومهم وآدابهم وماضيهم وحاضرهم .

كانت لي صلات عظيمة بكثير من ادبائهم وشعرائهم وعلمائهم ، ومنهم صديقي جلال نوري بك وكان صاحب جريدتين يوميتين احداهما تصدر بالتركية

والثانية بالفرنسية ، وكان من عظماء المفكرين فيهم ، وله عدة تآليف مفيدة نقل بعضها إلى العربية ، ولم ار في جميع ما قرأته من كتبه ومقالاته كلمة واحدة تشعر بالحط من قدر العرب ، وعلى العكس كان معجباً بتاريخهم اكثر من العرب أنفسهم ، وقال إن امته لم تنجب عالماً واحداً يذكر من عيار ابن رشد ولا غيره من علماء العرب وفلاسفتهم .

ومنهم صديقي لطفي فكري بك وهو من الاكراد المتتركين ، على ما كان صديقي ديران كيليكيان رئيس تحرير جريدة صباح من الارمن المتتركين ، وكان هذا غاية بين كتاب السياسة عند الترك بقلمه وطول باعه ونفسه . وكان لطفي بك عظيماً في حريته وبلاغته حتى قال فيه صديقي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ، وكان قرأ مقالاته في جريدته التي كانت تصدر في الاستانة لسان حال المعارضين ، لما سمعه يخطب في حديقة الامة بدمشق : ما رأيت مثل هذا الرجل جمع الله له المزايا العجيبة التي قل أنْ يمن بها على أحد ، فهو كاتب عظيم ، وخطيب عظيم ، جميل الوجه ، جميل النغمة ، قوي الحجة ، واسع الحرية .

هذا إلى أمثالهم ممن يقل في رجالنا أشباههم ، وقد تقدمونا في الكتابات السياسية والاجتماعية . وكثيراً ما كنت أعارض بين مقالات أرقى جرائدنا وأرقى جرائدهم ، فأجد جرائد الترك أرقى كتابة وبحثاً وتوسعاً من جرائد الأقطار العربية ، ذلك لأنّ دولة الترك العثمانيين امتازت منذ القديم برجالها في السياسة ، كما امتازت برجالها في الحرب ، ولم تنجب في غير هذين الفرعين ، وأرباب القرائح عندهم كانوا يدرسون كما يدرس أرباب العبقرية من الافرنج ، يحاولون ابداً اتقان صناعتهم . وكلامي هذا يتناول المملكة العثمانية ورجالها من الترك قبل انفصال العرب عنهم بعد الحرب الكبرى .

جمال باشا والبارون أوبنهايم

كنت مع جمال باشا في حلب بعد قدومه الشام بمدة وجيزة ، وكنت نازلاً معه في فندق بارون ، وبينا أنا جالس في الصباح على سطح الطابق السفلي مع الشيخ أسعد الشقيري نمازح ونتضاحك ، وقعت على رأسي من الطابق العلوي قطعة من الخبز ، فالتفت فرأيت جمال باشا مع والي سورية خلوصي بك ، فوجهت الخطاب إلى جمال باشا في الحال وقلت له : ولمَ الخبز تقذفنا به يا باشا ؟ فنعمتك علينا دافقة ، يقول المثل العربي (أجع كلبك يتبعك) وأنتم بحمد الله أشبعتم كلابكم ، وهم يتبعونكم حيث ذهبتم . فأغرب وصاحبه في الضحك وقال : قبحك الله ، لسانك طلق لا يسكت فأجبته : إذا وجد مجالا للقول قال .

وقال لي الباشا في هذه السفرة : هل تعرف البارون أوبنهايم ، فقلت له : أعرفه من مصر معرفة جيدة ، فقال لي : إحذر منه هو رجل دساس فحفظت وصيته وعملت بها . ووافى البارون أوبنهايم دمشق لتأسيس جريدة ألمانية عثمانية باسم (الشرق) ، فاستدعاني وتفاوضنا طريقة إصدارها ، وبحثنا في الاشخاص الذين سيؤآزروننا ، ومما قلته له لنضم إلينا يوسف أفندي العيسى فقال : ومن هو يوسف العيسى فقلت : صحافي من يافا . فسألني عن دينه فقلت روم أرثوذكس ، فانقبض ، وكان كثيراً ما ينقبض صدره من المسيحيين إذا رآهم أو ذكروا أمامه ، وذكرت له أن العيسى ما كان من حزبي ولا من أصدقائي ، ولما كتب في الصهيونية أحببته . فانتفض البارون وقال : إذا حارب الصهيونية فهو عدو بلاده ، فسكتُّ وساد السكوت ، ووقع في نفسي في الحال أن البارون يهودي النحلة (ابن حايم حُرِّفت اونهايم على ما يظهر) يؤيد ذلك أني كثيراً ما سمعته يقول بدون أن يُسأل :

الحمد لله إني كاثوليكي تقي . Grace à Dieu je suis uu bon Catholique

وعاد البارون بعد حين يحاول مفاوضتي فأعرضت عنه ، واغضيت عن الاجتماع إليه . ورأيته في الشارع مرة فلم اسلم عليه السلام الذي كان يتوقعه مني . وبعد حين علمت أن البارون قصد إلى جمال باشا في القدس وشكاني إليه ، مدعياً اني لم أساعده على إصدار الجريدة المساعدة الواجبة لأني افرنسي النزعة والعواطف ! وهو ألماني ، لا أحب له النجاح في مهمته قال : ولو كنت افرنسياً لكان عطفه أكثر من ذلك . وقال : إن ديار الشام لا تستريح ما دام هذا الرجل حياً ، اقتلوه فان خيانته لكم لا تحتاج إلى دليل ، وأشياء من هذا القبيل انبعق بها ، وهو لا يرى من الباشا إلا الابتسام ، وقال الباشا على المائدة لرئيس أركان حربه فؤاد بك : جاءني هذا الصباح البارون أوبنهايم يسوّد لي صحيفة (كردعلي) ويقترح عليّ أن أقتله لأريح البلاد منه ، بدعوى أنه افرنسي بشعوره ، ولأنه لم يعاون البارون على إصدار الجريدة ، وبالحق إن (كردعلي) كبر في عيني كثيراً لأنه أنفذ إرادتي ، فأنا الذي حذرته من البارون منذ مدة ، فما نسي قولي له ، ولم يخرج عن العمل باشارتي .

ومن عجيب الاخلاق أن هذا البارون نسي أو تناسى سعيه في قتلي زمن الحرب العامة ، وباغتني منذ بضع سنين وأنا في مكتبي الرسمي في وزارة المعارف ، فقابلته بتجهم ، فلم يفهم ما قدمت يداه ، وألحّ بطلب تآليفي هدية لخزانة كتبه ، فأعطيته إياها لأسلم من إلحافه ، ثم جاءني هـــذا الربيع (١٩٣٩) إلى داري ، وكان كتب لي كتاباً يطلب مقابلتي فلم أجبه ، وقصدني مرة ثانية في داري فلم أقبله ، وأنا في الدار . وبلغني أن دولته حجزته من التصرف بأمواله ، لاسرافه فيما قيل في الانفاق على ربيطة له (هو في الثمانين من عمره اليوم) والحقيقة أنه من أصل يهودي ، واليهود اليوم أعداء ألمانيا الألداء ، ولديه مجموعة من العاديات النفيسة يخشون

خروجها من ديارهم ، وهو ينفق على حفريات يجريها في أقصى حدود الشام بمعرفة علماء معروفين من الألمان ، ومنهم من يكتب له الكتب فتصدر باسمه ، لأنه على ما قال لي أحد علمائهم لا يحسن أن يكتب بلغته كتابة لائقة ، وهو من طبقة العوام فيها ، ومعلوماته ضئيلة حتى في الفن الذي يدعيه ، وهو فن العاديات والآثار ، وقلت لمن يتولى من كتب البارون ما يتولى ، ما قاله أحدهم في القديم : اللهم ارزقني حظاً يخدمني به أرباب الخطوط ، ولا ترزقني خطاً أخدم به أرباب الحظوظ . وكم في المؤلفين المزيف وكم من أغنياء بمالهم فقراء بعقولهم ومعارفهم .



أحرار العرب

كنت أبداً احاذر التبسط مع القناصل (ومع الأجانب عامة) في سياسة العثمانيين . وكثيراً ما ألفابي إذا جالوا في مثل هذه الجولات ، وكنت اوصي رفاقي ممن يختلفون اليهم أن يأخذوا حذرهم فلا يصرحون بأفكارهم لأنا لانأمن من أن يشيع ما يقال لهم . وهم في الغالب يدونون منه المهم ، وما كتب يتناقل ولا يؤمن ذيوعه . وما كان يخطر بالبال أن تنشب الحرب الكبرى ، ويتوصل العثمانيون إلى أن يضعوا أيديهم على أوراق القنصليات ولا سيما قناصل فرنسا . وقد احتاط قناصل البريطانيين ، فأحرقوا ما لديهم من الأوراق ، وكان عند قنصل دمشق مصورات وخرائط حفظ النقاط المهمة منها وأحرق الأصل .

ومن رجالنا من كانوا لا يحتاطون كثيراً في كلامهم مع القناصل ، ولهذا سقطت الدولة العثمانيـة في أوراق وكلاء الدول على أسرار باح بهـا بعض أحرار العرب ، وكانت من العوامل في تجريم بعضهم ومحاكمتهم في الديوان العرفي ، والحكم عليهم بالقتل صلباً ، وممن صلبوا وهم زهرة الرجال صديقي عبد الوهاب بك الانكليزي ، ولما حكم الديوان العرفي عليه بالقتل بكى أعضاؤه ، ولو عرف أنه سيحاكم ويحكم عليه لرضي باقتراح طلعت باشا وزير الداخلية عليه ، أراده أن يهيءَ له سبيل الهرب من الاستانة إلى الخارج وقال له اذا طلبت إلى سورية فلا أستطيع انقاذك .

وعبد الوهاب بك الانكليزي من الممتازين بعلمهم وأخلاقهم ، قلّ أن أنبغت الشام مثله في عهدهـا الأخير . كان مرة قائم مقام في « الباب » من عمل حلب ، وكان الأعيان على عادتهم يستحلون أكل أعشار الدولة ، ويقومون للوصول إلى ذلك بحيل مدهشة ، فزاد هذا المال بدون ضجـة

أكثر من عشرين الف ليرة عثمانية ، فكتب والي الولاية إلى وزير الداخلية بما وفق له قائم مقام الباب ، فكتب وزير الداخلية إلى عبد الوهاب بك مباشرة كتاباً بخطه ، يشكره على عمله الجليل الذي أخبره به الوالي ، ويهنئه على صدق العمل وحسن الادارة ، ومما قال له ، وقرأته بنفسي : لو كان عند الدولة عشرة قوام مقام من عيارك لعدت من أرقى حكومات العالم . والوزير يومئذ طلعت باشا الاتحادي المشهور الذي خاف على حياة عبد الوهاب واقترح عليه أن يهربه إذا كان له شيء يتذرع به لمحاكمته فأبى .

ذكرت وأنا ادون هذا برقية وردتني ذات صباح من أنطاكية هذا نصها :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

سليم الجزائري شكري العسلي عبد الوهاب الانكليزي

وهؤلاء الثلاثة أصحاب اغتبطوا أن اجتمعوا بعد فراق طويل ، صلبهم الاتحاديون مدة الحرب في ساحة الشهداء بدمشق . وكانوا من أخلص أصدقائي ، وهم من أعظم شباننا بذكائهم ومعارفهم واستقامتهم .

وشكري بك العسلي كان قائم مقام في الناصرة ، ودرس المسألة الصهيونية واطلع على خفاياها ، ولما انتخب عضواً في مجلس النواب العثماني ، أراد الاتحاديون أن يبيعوا من الصهيونيين ثلاثة ملايين دونم من أرض فلسطين صفقة واحدة ، بمعاونة جاويد بك وزير ماليتهم ، وكان مذهبه مذهب اليهود الصابئة (دونمة) ، فكان شكري بك أول من رفع عقيرته في أضرار الصهيونية ، وخطب في الموضوع حتى سقط المشروع . وكان شكري بك هذا صنو عبد الوهاب بك إذا ذكر اسم أحدهما يذكر معه اسم صاحبه . أما سليم بك الجزائري فهو رجل الجيش ، درّس علوم التعبئة والمصافات في المدرسة الحربية بالاستانة سنين ، وأبانَ عن اقتدار قلَّ أن كان لأمثاله ، وكانت دعوته العربية متجلية فيه ، والأتراك يضمرون له الشر ، فلما قويت كلمة الاتحاديين في الحرب قتلوه أيضاً ، وهو من أنبغ من أخرج العرب من رجال الحرب ، وهو ابن أخي شيخنا الشيخ طاهر الجزائري .

قتل الاتحاديون ثلة من أبناء العرب بدعوى خيانة الوطن ، حاسبين الحرب العامة فرصة لا تتاح كل حين للخلاص منهم . قتلوا نحو ثلاثين رجلاً ما أظن يستحق القتل منهم غير أفراد قلائل ، هذا إذا تسامحنا في فرض العقوبة . مثل ذنب من قال (شفيق بك المؤيد) لوكيل فرنسا في القاهرة أقطعوا بجيوشكم الخط من الاسكندرونة ، ونحن في الداخلية نادي حالاً باسمكم . هذا رأي ، إن صح أنه قاله ، والقانون لا يقتل إلا من تشبث فعلاً بالشروع بالعمل ، وظهرت نتيجة تشبثه إلى حيز الوجود .

وبعد كتابة ما تقدم قرأت في مذكرات صديقي الاستاذ فائز الغصين وهو ممن اشتغلوا بالمسألة العربية ان العرب ألفوا ثلاث جمعيات سرية عقيب انتشار القانون الاساسي (سنة ١٩٠٨) وحرب الطليان في طرابلس وبرقة مع العثمانيين وهي جمعية العهد ألفها ضباط العرب مثل سليم الجزائري وعزيز علي ونوري السعيد وامين لطفي الحافظ فدخل فيها أكثر الضباط العرب والثانية ألفها طلاب المدارس العالية في الاستانة وعلى رأسهم عبد الكريم الخليل ، والثالثة ألفها عبد الغني العريسي وهي التي أظهرت نشاطاً عظيماً في الحرب العالمية ويقال انها انكليزية النزعة . وقد قتل الترك معظم رؤساء تلك الجمعيات .

ولقد حاولت أن استعطف القائد العام على المجرمين السياسيين ، فالتمست من فضله العطف عليهم ، في محاضرة القيتها في سينما جناق قلعه بدمشق ، محل دار الندوة الآن ، وذلك عقب عودتي من دار الملك مع الوفد السوري (١٩١٥) وتوسلت اليه أن يرحمهم ويرحم عيالهم ، فاستدعاني من الغد فؤاد بك رئيس أركان حرب جمال باشا وقال لي : إذا كنت تريد رضا الباشا عنك فلا تذكر السجناء في « عالية » بخير ولا شر ، وأنت هل يذكرك أحد بسوء ، فما لك ولهم ؟ فالتزمت الصمت بعد ذلك .

أما صديقي الشيخ أسعد الشقيري خطيب الجيش ، ونديم أحمد جمال باشا ، والمقرب اليه أكثر مني بكثير ، فانه ما ترك باباً يمكن الدخول منه إلا ولجه ، ليرق قلب القائد العام عليهم ، وخاب سعيه في كل ما تذرع به

ومن ذلك اشارته على بني البكري أن يقيموا مأدبة لجمال باشا في قصرهم في قرية القابون ، وكان الامير فيصل بن الحسين في جملة المدعوين ، وهناك خلا الأمير مع الشيخ أسعد بجمال باشا ، ورجاه اصدار عفوه عنهم أو حبسهم أو نفيهم فرد قوله .

وكذلك تقدم الشيخ أسعد في بيروت وقبّل ركبة القائد جمال باشا في دار عزمي بك والي بيروت ، يتوسل اليه أن يجعل اولئك السجناء في قلعة يموتون فيها بآجالهم ، وأن يرجع عن قتلهم لما في القتل من الشؤم على الدولة . فتجهم القائد للشيخ الشقيري ، وغضب عليه غضباً شديداً ، وذلك بمشهد من عبد الرحمن باشا اليوسف ، وهو الذي قص عليّ ما وقع ، وقال له : أنت شيخ لا تعرف السياسة فلا تتعدى طورك ، وأنا أعرف ان مثلك إذا خدم مثلي خدم آماله وأفكاره ، وأنت تحاول أن تتدخل فيما لا يعنيك ، كأنك تقصد أن تلقنني ما لا أعلم . وهذه مسائل تتجاوز دائرة تقديرك ، فكف عن تعجيزي بذكر هؤلاء المعتقلين .

ودخلت على الشيخ الشقيري في الفندق لأودعه ، وأنا مسافر إلى بيروت فرأيته مصفر الوجه ، كأنه لم يرقد منذ أيام ، ولما رآني دمعت عيناه وبكى ، وقال لي : يا فلان شنق الجماعة . ومن الغد شنقوا بالفعل في مدينتي دمشق وبيروت . وهذا أهم رعيل شنق . وأغرب من هذا أن بعض الأدنياء يتهم مثل هذا الشيخ بأنه ممن زين لجمال باشا شنقهم ، وهو لم يترك حيلة لخلاصهم إلا تذرع بها من تلقاء نفسه ولوجه الله .

كان جمال باشا على ما يظهر يكره الوساطات . كلمته ست مرات أنا والدكتور شهبندر في رضا بك الصلح وابنه رياض بك فكان جوابه لي ولشهبندر آخر مرة يخاطبني : هل تعرف كل شيء ؟ فقلت : كلا . قال : إن رضا الصلح الذي تتوسط له قد أتى امراً لو أتاه ابني لاغرقته في البحر حباً بسلامة الدولة ، ثم اقف أبكي عليه بصفته ابني (علمت بعد سنين ان الرجل كان يتهم بالدعوة لانكلترا) وطلب ألا نعود إلى الكلام في هذا المتهم ،

ومع ذلك رأينا ان لمجيز الباشا بالعفو عن الرجل وابنه قد أفاد ، فلم يقتلها كما كانت نيته ، وا كتفى بنفيها إلى آسيا الصغرى ، وكان تساهله أكثر مما كنا نطلب منه ، وما كنا نتطلب إلا حقن دمها ولو بالسجن سنين .

جئت جمال باشا ذات يوم مودعاً إلى بيروت ، وكان قبل يوم صلب فيها يوسف الهاني من أغنى تجارها ، لتوقيعه بياناً بطلب فرنسا للاستيلاء على هذه الديار . فسألني الباشا : ماذا يقول القوم عني الآن في بيروت بعد قتل يوسف الهاني ؟ فقلت له وأنا أتبسم : يقولون إنهم توسلوا إليك بأنواع التوسل وأقاموا لك اجمل المآدب ، وأتوك بأجمل النساء يضرعن اليك ، وما تركوا شيئاً يعتقدونه انه يسرك ويؤثر في عواطفك إلا فعلوه ، ولا انساناً يعتقدون أنه ذو منزلة عندك إلا رجوه أن يتوسل إليك ، ومع كل هذا شنقته ، شنقته ، شنقته ، فضحك وضربني على كتفي وقال لي : اذهب بسلامة الله .

ولقد بليت من هذا الرجل بمصيبة ، فكان يطلبني لمقابلته أحياناً فأزور في نفسي جواباً او جوابين اقدر أنهما يجزئانني فيما يسألني ، فيتفق سؤالي في غير ما قدرت ، فأجيبه في الحال جواباً كجوابي له عن ابن هاني القتيل ، يسره ولا يضرني ، فيعلم أن كلينا عالم بالترّهات . وسألني مرة من هم المشار اليهم من رجال دروز جبل حوران ، فذكرت له منهم من كان اسمه على خاطري فقال : أظن انه فاتك غيرهم ، فاستأذنته وسألت من هو اعرف مني برجال الجبل ، فكتب إليّ جريدة باسمائهم دفعتها اليه . وكان ينوي أن يستدعيهم لأخذ ما يلزم من قراهم من الحبوب للجيش .

ولما عدت في السنة الأولى مع الوفد كان الدكتور شهبندر قد ركن إلى الفرار لأنه قرأ في وجه جمال باشا الغضب ، وأحس بأنه غادر به لامحالة ، لما كان ذاك الجاسوس السافل قص عليه خبر اجتماعنا الاخير في قرية المزة قُبَيل سفري ، وما قال شهبندر وما قلت انا : فسألني جمال باشا عن شهبندر ، وقال إنه بلغه أنه مختبيء في دمشق وأني اعرف مخبأه ، فقلت له : بلغني انه قد فر إلى جهة غير معلومة ، ولا أعرف غير هذا . فقال : أنت تعرف أمره

وتكتم عني ، إنه خرج من البلد ثم عاد وهو الآن متوارٍ عن الانظار .
فأكدت له اني لا أعرف شيئاً عنه ، فاستغرب ذلك ، ولم أنج من الحاحه
في استنطاقي حتى قلت له بعد اخذ ورد : إن شهبندر ليس بشجاع فيخرج
من هذا البلد ويعود اليه ، وهو أيضاً ليس بمجنون يكتب له أن ينزع يده
من القفص ثم يقف ببابه يتوسل بالرجوع اليه . وبعد أيام عاد فسألني عن
شهبندر وأجبته اني لا أعرف إلا أنه هرب . فقال : وهكذا تحقيقاتي الأخيرة .
فقلت له : الحمد لله على أني لم أكذب . وسؤال الباشا عن الدكتور شهبندر
غريب ، فانه يعلم ما بيني وبينه من صداقة ، وكان عليه أن يعرف خلقي ،
وقد رأى انه ما سمع مني كلمة تضر أحداً ولا ذكرت أمامه انساناً بسوءٍ ،
ولا أفشيت سراً عرفته ، طول مدة ارتباطي به ، فكيف كان يريدني أن
ادله على مخبأ الصديق شهبندر حتى يقتله ، وكنا يومئذ نستر على أعدائنا ،
ونعمل لهم ما استطعنا من خير .

كره الاتراك للعرب

بدت كراهة الاتراك للعرب ، منذ فتح العثمانيين الولايات العربية : أمة غالبة من مصلحتها اخفات صوت الأمة المغلوبة ، وأمة مغلوبة تبكي مجدهـا الضائع ، ولا عزاء لها إلا ما تردده ألسنة بنيهـا من عبارات الأسف على ماضيها ، وكان الترك منذ أول فتحهم استأثروا بالمناصب الرئيسة في السياسة والادارة والقضاء والجندية ، وخرجوا من ديار العرب بعد أربعة عصور من حكمها ، وما أشركوا العرب في سلطانهم اشراكاً فعلياً ، وربما كان بعض افراد من العرب استتركوا وتركوا جنسيتهم ، وذابوا في البوتقة التركية ، ودخلوا مع الاتراك على انهم منهم ، ولا أذكر انهم ادخلوا في وزاراتهم غير ثلاثة من ابناء العرب ، وذلك في آخر ايامهم ، ولم يوسدوا إليهم سوى وزارات لا شأن لها الزراعة والاوقاف .

كان السواد الاعظم من الترك سكان آسيا الصغرى يرون حب العرب من القربات ، مذ كان للترك ذكر في آسيا الصغرى ، وهم على ذلك الى اليوم . والذي رأيته ان حب العرب ظاهر فيمن كان على الفطرة السليمة من الترك . ويقلّ بين طبقة المتعلمين منهم ، أو من كانوا اقرب إلى المشتغلين بالحكم .

حدثني صديقي الياس بك مطران ، وقد رأيته في بيروت قبل ان تضع الحرب العامة أوزارها ، وكان جمال باشا نفاه إلى الاناضول في جملة من ابعدهم من اهل سورية ، قال : وانا أسأله عن حاله في منفاه : إنه ممتن جداً من هذا النفي ويشكر جمال باشا عليه ، لأنه عرف الشعب التركى حق المعرفة ، وثبت له انه شعب قلّ نظيره بأخلاقه وميزاته ، وأن ما رآه من لطف الترك وطيب قلوبهم يعجز لسانه عن شكره قال : ولقد ودوا مدة مقامي بين اظهرهم ألا امشي إن امكن على الأرض حرصاً على اكرامي ،

وكانوا يقبلون يدي وعيني وركبتي ، ويتبركون بي فأقول لهم أنا مسيحي فيقولون الست عربياً من بلاد محمد (ﷺ) فابكي ويبكون ! هذا هو الشعب التركي الذي اغتبطت بأني رأيته في أرضه ، أفلا أشكر من نفاني بعد ان رأيت ما رأيت .

ومع هذا كان بعض العمال من الاتراك المتعصبين لقوميتهم تعصباً اعمى يشمئزون كل الاشمئزاز من رجل يتكلم بالعربية ، وإذا كان موظفاً عندهم عدوا عليه من النقص تكلمه بالعربية ، وربما وضع الرئيس بجانب اسمه علامة تؤخر ترقيته ، وكان كثير من الاتراك والاكراد وغيرهم من العناصر يعرفون العربية وينكرون أنهم يعرفونها ، ليرضى عنهم بعض اصحاب الدولة ، كأن معرفة اللغة العربية جرم من الأجرام .

ومذ تولى أمر الترك مصطفى كمال باشا (كمال آتاتورك) انتقل تباغض الترك والعرب إلى الطور العملي ، بقطعه كل صلة مع العرب والعربية ، حتى لقد كان يُضطهد كل من يتكلم في تركيا بالعربية ، وكل من يكتب التركية بحروفها العربية القديمة ، وكانت الرسائل في بريد تركيا تقبل باللغات كلها إلا اللغة العربية ، ويخطب الخطيب في الجمع والأعياد بالتركية وينادي المؤذن إلى الصلاة بالتركية ، وحذفوا من لغتهم كل ما أمكنهم حذفه من الألفاظ العربية ، واستعاضوا عنه بألفاظ افرنجية وتركية قديمة . وأراد رئيس الجمهورية الأول أن يترّك كل شيء . ورأيت كتاب قراءة تركية في العقائد الاسلامية كتب بالحروف اللاتينية ، على طريقة السؤال والجواب ، ومما جاء فيه : ومن نبيك ؟ سيدنا محمد رسول الله . وهل محمد من العرب ؟ معاذ الله هو تركي . وهذا من السخافة التي اشبهت سخافتهم في دعواهم مؤخراً أن الترك هم من نسل الحثيين ، وقد ألفوا في إثبات هذه الاكذوبة الكتب وكتبوا الرسائل والمقالات ، والترك فرع من فروع التتر معروف أصلهم وموطنهم معرفة أكيدة لا تقبل المجادلة .

نشأت العداوة قديماً بين العرب والترك من أجل المغانم والمناصب ،

واليوم ذهبت الدواعي لأثارتها . والعهد بجمهور العرب وعقلائهم أنهم لا يكرهون الترك ، ويتمنون لهم كل خير ، يفرحون لفرحهم ويتألمون لما يسؤهم . ولما ظفر الترك باليونان في وقعة سقارية ، وكان الترك قد خرجوا من الشام ، ودخلت هذه في حكم الحلفاء ، والنفوس لا تزال مملوءة غيظاً من استبداد العثمانيين ، أقام أهل سورية الزينات والمهرجانات فرحاً بهـذا الظفر الذي أحرزه اخوانهم الترك ، ولكن سياسة الكماليين أبت إلا قطع كل صلة مع العرب خاصة ، ومع أهل الاسلام عامة ، وكان اقتطاع الترك في العهد الأخير لواء الاسكندرونة من جسم سورية بدون مسوغ شرعي ، والسواد الأعظم من سكانه عرب ، مؤلماً لقلب كل عربي .

حدثني أحد أصدقائي من قناصل فرنسا ، ونسيت إن كان المسيو بيات أو المسيو اوتافي ، وكان كلاهما يحسن العربية ويكتبها كأهلها ، قال : كنت قنصلاً في طرابلس الغرب ، أسمُر عند الوالي في بعض ليالي الأسبوع ، ويسمر معنا القناصل وكبار موظفي الولاية ، وكان دأب هذا الوالي التركي لعن العرب جهاراً . فاتفق في إحدى الليالي أن كان المجلس خالياً من سمّاره وقد قذف لسان الوالي لعناته المعهودة ، فالتفت إليه متأثراً من ترداد هذه النغمة وقلت له : ولمَ دولتكم تبغضون العرب إلى هذا الحد ، وتلعنونهم عند كل فرصة ، وهل لهذا من سبب ؟ إذا كان هناك شيء أرجو أن تتفضلوا ببيانه . فقال : لا أعرف لذلك سبباً ، وهذا ما ألفته من صغري ، وكأنه مغروس في قلبي ، وأشربته مع اللبن . فقلت له عند ذلك : أنت مخطيء يا صاحب الدولة ببغضك العرب ، وبلعنك لهم كل حين ، وكان على العرب أنفسهم أن يبغضوكم معاشر الترك ، لأنكم كنتم السبب في زوال دولتهم ، وعشتم أجيالاً بما أتوكم به من دين ومدنية ، وركلتم كثيرا في الأقطار التي افتتحتموها وهي بالحقيقة من فتوحهم . وإنا إذا أنصفنا وألقينا نظرة عامة على ما قام بأيدي العرب من المصانع ، مبتدئين بالأندلس حتى نصل إلى الهند لا نجد فيـه يداً لتركي ، وهو من صنع علماء العرب

ومهندسيهم وحكوماتهم . ذهبت دولة العرب منذ أعصار وأعمالهم في الحضارة بارزة للعيان ، على كثرة ما دمرتم فيها ، وأنتم إذا ذهبتم غداً من الارض هل تبقى لكم غير تلك الجوامع التي عمرها سلاطين آل عثمان في استانبول ؟ دعك يا سيدي من غمز العرب ، ولصاون عن بعضهم ، فبغض أمة بأسرها أو لعن قوم بعينه أبداً ، لا يليق بمن كان في مثل مكانتك ومنصبك . قال : وما سمعت الوالي بعد تلك الليلة فاه بكلمة يُشتَمّ منها بغض العرب ، ورجع عن لعنهم على ما ظهر لي .

هذا ما بقي في ذهني من المعاني التي ذكرها القنصل ، وقد وقعت لي حادثة غريبة تدلّ على مبلغ سعي الاتراك في تجهيل العرب ، وذلك أن إسماعيل فاضل باشا ، كان والياً على سورية ، وأصله من أهالي كريت ، وما أدري إن كان رومي الأصل أو تركيه ، وأرجح أنه من أتراك اقريطش ، وكان يدعي صحبتي ، ويحاول استمالتي . طلب مني عامل جبل عجلون وكان تركياً ، وأظن اسمه سزائي بك ، أن أنتخب له ستين معلماً لستين مدرسة أهلية ، عزم سكان عجلون أن ينشئوها بأموالهم ، فقضيت ثلاثة أشهر أبحث عن معلمين يحسنون التعليم في الجملة ، فلم أظفر بأكثر من ثلاثة عشر معلماً ، ومنهم من كان صاحب دكان ، ومنهم من كان له كتّاب خاص . ورافقتهم إلى الوالي ليسلموا عليه ويودعوه ، ولأطلب لهم رخصة بالركوب في القطار بنصف اجرة . وكان أول سؤال سألهم إياه هل تعرفون اللغة التركية ؟ فأجابوا بغير الايجاب . فامتقع لونه ، والتفت إليّ قائلاً : وكيف ذلك ؟ فقلت له أرجو أن يتعلموا ، والآن سيعلمون أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والخط والحساب والعبادات ، وانصرفنا من لدنه غير موفقين ، فقلت للمعلمين إذا لم يكذب حدسي فأنتم غير ذاهبين إلى عجلون غداً ، وبعد ساعتين تناولت برقية من عامل عجلون يتوسل إليّ

ألاّ أرسل المعلمين ، بعد أن كان يلحّ بسرعة إيفادهم . فعلمت أن ذلك كان بايعاز الوالي ، وأنه قال له : كيف ينتخب فلان المعلمين وأنت ترضاهم؟ وأظن الوالي ما عتم أن رفع من عجلون ابن جنسه الذي كان يريد لأهلها الخير . ومضت أيام ثلاثة ، وزرت الوالي في داره بعد الغروب ، وكان احتسى كؤوساً من المسكر ، وعيناه تقدحان شرراً ، فأول ما قال لي : يا فلان هل أنت ولد ؟ فقلت له : أنا رجل بحول الله ، فقال : كيف تظن أنا نعطي العرب سلاحاً يقاتلوننا به ، العلم سلاح ولا نريد أن نسلحكم إن من سياستنا ألا نعلمكم ، فتألمت لهذا ، ودعوت الله في سري ألا يطيل أيام هذه الدولة ، وقلت في نفسي إذا هم منعوا التعليم الابتدائي عن رعاياهم العرب ، وهو بمثابة الخبز في التغذية ، كيف تصفو لهم قلوب الخواص منهم ؟.

وطلب مني هذا الوالي أن يقضي يوماً في مزرعتي ، فقلت لأعيان القرية اطلبوا منه تأسيس مدرسة لتعليم أولادكم ، فأظهر استحساناً لهذا الاقتراح وقال عليكم تقديم البناء ، والمعارف ترسل إليكم المعلم ، فتبرعت لذلك بخمس وأربعين ليرة عثمانية عني وعن إخوتي ، وتبرّع احد الوجوه بالأرض للبناء ، واخذ الفلاحون يبتاعون الحجارة ويأتون بها من المقلع ، ثم رأيت الهمة قد تراخت وأصبح بعض أهل القرية يصرحون بأنهم لا يريدون تأسيس مدرسة ، فعلمت أن احد الدمشقيين ممن اعتاد ضمان أعشار القرية والانتفاع من جهل أهلها قال لهم : إن تأسيس المدرسة في قريتهم يسهل على الدولة أخذ أبنائها للجندية ، مع أنهم كانوا كلهم يخدمون فيها أسوة سائر القرى ، والغالب أن اخفاق المشروع كان باغواء الوالي فنفذ سياسته عند العمل ، وكان عند القول استحسنه وأظهر الرغبة فيه .

وكنت في الاستانة أنزل في (قاضي كوى) عند امرأة مسيحية ، وكان زوجها طبيباً تركياً في الجندية برتبة عالية فكف بصره ، وكنت أتحدث إليه وألاطفه فعرف أني من دمشق ، فقال لي : إن ابن اختي اسماعيل

فاضل كان والياً عندكم ، فسكت . ثم قال لي في جلسة ثانية : إن ابن اختي يحب أن يراك ، هل تأمر بضرب ميعاد للاجتماع معه ؟ فسكت وتشاغلت . ثم ألحّ في المرة الثالثة فقلت له : قل لابن أختك إن الذي يحاول أن يبقي العرب في الجهل لا أرى أن أجتمع إليه وهو يعرف معنى هذا الكلام ، وانقطع الحديث وما عدت أجتمع بالدكتور الأعمى كالأول .

والشيء بالشيء يذكر إن عدوي اللدود ناظم باشا والي سورية ، وكان يسكن « قاضي كوى » أيضاً حاول غير مرة أن يكلمني ويتحبب إليّ فرأيت الابتعاد عنه ، وهذا الوالي حاول قتلي لما كان في سورية ، وما أدري بأي وجه كان يود أن يكلمني ، وأنا رأيت ألا أضيع وقتي معه ، وأسمع اعتذاره وهو من المعروفين بكثرة المداهنة ، والقدرة على الضحك من كل من يواجهه ، وخلاصة ما بيننا أنني حاولت أن أدعوه لانفاذ القوانين ، وتوخى هو أن يفلت منها وأن ينجو من نقد جريدتي بأي حالة كانت .

رجع إلى الاتراك ومحاولتهم ابقاء العرب في الجهل . قصّ عليّ الشيخ طاهر الجزائري قصة عجيبة في هذا الباب قال : قال لي كمال بك مدير معارف الولاية في احدى العشايا ، وكان كرع كؤوساً من الشراب ، وهو سكران طافح : يا شيخ ما هذا الاهتمام منك بنشر المعارف ؟ (وكان الشيخ في أول شبابه مفتشاً لمعارف سورية ، وهو الذي أنشأ لها مدارسها الابتدائية ، وألف لها كتب التعليم الابتدائي كلها) أنا أخذت من وزارتي كتاباً سرياً بالأرقام تقول فيه إنه تبين أن المعارف عند المسلمين في سورية قد ارتقت إلى درجة كافية فاعمل جهدك على أن تؤخرها لا على أن تقدمها . وكان عدد الاميين يومئذ في ديارنا أكثر من سبعة وتسعين في المئة ، وأظن هذه الحادثة وأمثالها مما وقع للشيخ طاهر الجزائري هي التي حدت به على أن يبغض دولة الترك بغضاً شديداً ، ويلقى الله ببغضها وكراهة سياستها ،

وكان يقول من سوء بخت المسلمين أن الدولة العثمانية استولت على اعمر الولايات الاسلامية وأهمها ، وكان مع هذا ينوه كثيراً بتربية الشعب التركي ، وارتقاء الاسرة وتقدم البيوت ، ووفرة الأدب والتهذيب في جماعتهم .

وبعد فانا بهذه الوقائع عرفنا مبلغ حب حكومة الترك للعرب في الدور العثماني ، وكانوا يوسدون عن قصد للعربي الذي لا يجيد التركية تدريس البلاغة التركية ، وللتركي الذي لا يحسن النطق بكلمتين بالعربية تدريس النحو والصرف والمنطق وبلاغة العرب في مدارسهم الثانوية . وحدث أن أرسلت الاستانة إلى مدرسة تجهيز بيروت معلماً أرمنياً لتدريس الدين الاسلامي وكان لما عينوه يصرخ قائلاً لهم أنا مسيحي لا أعرف الاسلام ، ويجيبه من عينه ، لا بأس يمكنك أن تدبر نفسك ، وهذا ليس بالأمر الصعب عليك . ومثل ذلك كان في دمشق انتدب للعلوم الدينية مسيحي مستترك .

إن من أدرك سر توفر الاتراك على تجهيل العرب يقيم بعض العذر المسلمين على ما صاروا اليه من التأخر في هذه الديار . وكانوا لغباوتهم يرون من الواجب عليهم أن يسكتوا عن مساوئ الحكم العثماني ، لأن القائمين بالأمر مسلمون . وبهذه الدعوى خدر الأتراك الأعصاب وجعلوا العرب وراء الامم الراقية . على حين كان جيرانهم من النصارى يرتقون سنة عن سنة معتمدين في رقيهم على مدارسهم الطائفية ، وعلى ما تتفضل الجمعيات التبشيرية فتبعث به اليهم من المبشرين والمرسلين ، يفتحون لهم المدارس ، ويعلمونهم اللغات والعلوم ، ويعدونهم للكفاح في ميدان الحياة ، والمسلمون لشقائهم يعتصمون بدولة الخلافة ، وتغويهم كلمات الاسلام والمسلمين ، ومشايخهم ينيمون أفكارهم باسم الدين ، وهم كانوا من العوامل في تضييعه ، لسكوتهم عن الحق واقرارهم الباطل ، وأصحاب الخلافة التركية يكافؤنهم على قلة دينهم ، وينفلونهم الرواتب والرتب ، ويخلعون عليهم السيم والقصب . وكان الذين يبيعون ذممهم أيام دولة الخلافة هم بأعيانهم الذين أصبحوا يتقربون

الى من جاء بعـد الترك ، يتجسسون لهؤلاء كما كانوا يتجسسون لأولئك ، ويصانعون القادمين بمثل ما كانوا يدهنون للراحلين ، ومنهم من يمدون أيديهم اليوم فيقبضون من صناديق الاستخبارات ما يسدون به نهمتهم ، ويزيدون به راتباً آخر الى رواتبهم ، ويصدعون بما يؤمرون بالدعوة إلى تفريق القلوب ، وتمزيق الامة شيعاً حتى إن منهم من قالوا وما خجلوا لكبير من ساستهم إنهم رأوه في الحلم يرتع في الجنة مع الصالحين من المؤمنين ، ومنهم من قال احمدوا الله على وجود الأجانب عندنا فان بوجودهم حفظ الدين وكان قبل أشهر ينادي بالقيام عليهم من أجل الدين .



دعوة غريبة

قال لي الشيخ أسعد الشقيري ونحن في المعسكر في سفح قاسيون أواخر الحرب العالمية . أطلعني أمس جمال باشا على كتاب ارسله اليه من الاستانة كاتبه الخاص فالح رفقي يقول له فيه إنه زار منتديات العاصمة بعد ان تغيب عنها مدة ، وتعرف إلى رجال (ترك يوردي) (ترك اوجاغى) (ترك درنكي) فرآهم على شبه الاجماع ان دخول الترك في الاسلام قد أخرهم وأخملهم ، واطمع فيهم اعداءهم : جرّدهم من شخصيتهم ، وأبعدهم من قوميتهم ، وانتزعهم من حجر حضارتهم ، وانهم لو ظلوا على عبادة الكواكب كما كان طوران ما وجد أهل الغرب اليوم سبيلاً إلى محاربة دولتهم ، الى غير ذلك من السخف . وإذا صح قول فالح رفقي فيما كان يذهب اليه الأتراك الذين رآهم فهم جماعة الاتحاديين ، ومن قال قولهم ، وتقرّب منهم وصانعهم من شبان الترك وكهولهم ، ومن هذه الزمرة خرج اناس التحقوا بالكماليين ، ومنهم الدكتور رضا نور وزير معارفهم ، فانه صرّح في كتابه تاريخ الترك ان مردّ جميع ما صار اليه الاتراك من البلاء يرجع إلى اسلامهم ، وأنهم لو لم يسلموا لكانوا ارقى مما هم عليه ، وأنهم غفلوا عن العلم فتعلمت العناصر التي كانت تحت حكمهم ، وهم لم يعلموا أبناءهم وكان على العثمانيين ألا يتركوا المجال للعناصر غير التركية ان تتعلم .

وإذا جاز هنا الاستنتاج فلنا أن نقول ان ماقام به كمال آتاتورك من القضاء على ما رأى الخير في القضاء عليه من أوضاع الترك والاسلام ، إنما قام عن رأي من كان أمامه من انصار كثار مالؤه على هذه الافكار الغريبة ، وكان هو يفكر فيها ، وهو طالب في المدرسة الحربية . فطبقها في كهولته وهو صاحب قوة . والشروع مُلْزم كما يقولون ، فلما بدأ آتاتورك

بدعوته استجاب لها الطامعون في المناصب والمغانم ، والناس تبع لصاحب القوة يقلدونه في كل ما يحب ، ويسيرون على هواه ويتحببون اليه ، وربما غلوا فأعطوه أكثر مما يتقاضاهم . فأصل المسألة إذاً قديم ، وهذه الدعوة أقدم من ظهور الاتحاديين أيضاً . وقد أتم الكماليون ما بدأ به الاتحاديون من قبل ، وجهروا بالدعوة ونفذوها ، ولو عاشت دولة الاتحاديين إلى ما بعد الحرب الكبرى لدعوا إلى مثل دعوة الكماليين ، وربما زادوا واغرقوا . ذلك لأن تلك الأفكار كانت مغروسة في طبقة من الفتيان لا يعرفون عن الاسلام شيئاً يذكر ، أما عن العرب والشرق فصورة مشوّهة لم يصور الصليبيون أبشع منها .

كانت الدعاية إلى الكفر بالاسلام ، والرجوع إلى عبادة الاصنام ، والأخذ بالقومية الضيقة قومية الترك . الخالصة ، ظاهرة قبل العهد الكمالي في تركيا ، وكان توفيق فكرت من أكبر شعراء الترك المتأخرين وهو الذي تنصر بأخَرة ومات على غير الاسلام يحفز أرواح ناشئتهم ، ويدعوهم إلى التجرد من مشخصاتهم القديمة ، ومما قال وهو ما حفظه المتعلمون من الفتيان عندهم .

ساده توركدن بر حكومت قورمز لازم كلير
بشقه قومي يورد مزدن قوغمز لازم كلير
أسكى زماندن وار بزم بر مذهب مخصوصمز
بت پرستلكدر بدردن مذهبي موروثمز
جد مزاول جنكيز عاقلدر بزم
جد مز جد الحسينه معادلدر بزم

معناه : علينا أن نؤسس حكومة من الترك فقط
وأن نطرد الشعوب الأخرى من حِجْرنا
نرجع إلى ما كان لنا من مذهب قديم
ورثناه عن أبينا وهو عبادة الاصنام
إن جدنا الأعظم هو العاقل جنكيز
وجدنا من عيار جد الحسين

أي أن شاعرهم دعا إلى ثلاثة أمور : أن يشيد الترك ملكهم من

أنفسهم ، ويطردوا منه كل عنصر غريب عنهم ، وأن يعودوا إلى عبادة الأصنام مذهبهم القديم المتسلسل فيهم ، وعليهم أن يفاخروا بجدهم جنكيز العاقل الحكيم ، فهو مثل جد الحسين سبط الرسول . يعني أن جنكيز الذي خرب الممالك وأتى على الحضارة ، ولم يعهد مثله فاتح سفك الدماء على وجه الدهر ، هو مثل رسول الله ، وجنكيز هو الذي وضع قانوناً سماه (اليساق) أي المحظور ، حلّل فيه المحرّم وحرّم فيه المحلل .

ولم يطبق الترك دعوة توفيق فكرت بالحرف لأنها هذيان وهراء . وكان العرب وكل من لهم صلات بالأتراك من المسلمين يعلقون آمالا كبيرة على رئيس جمهورية الترك الحالي عصمت اينونو ، لما عُرف من اعتداله وتدينه (وهو مشكوك في جنسيته) ويعتقدون أنه يعدّل بعض التعديل في دستور الترك ، حتى تنزع الفوارق من بينهم وبين جيرانهم الشرقيين ، فان قانون سويسرا صعب تنفيذه في مجتمع متأخر كالمجتمع التركي . والقوانين لا تخلق الأمم والأمم تخلق القوانين .

كانت العرب أكثر العناصر تأذياً بالدعوة التركية ، ذاك لأنهم أصحاب هذا الدين الذي شكا من انتحاله أولئك المارقون ، وأصحاب المدنية التي عاشت دولة الترك ببقاياها ، واحتقار لغة العرب وقوميتهم من النغمات القديمة وإليها أشار الشاعر الهجاء أشرف بك لما غضب أحد أدبائهم أديب بك على ما عبثت به يد المراقبة في ديوانه بقوله :

أصولدندر چيزرلر هر أثردن برطاقم يرلر

أديبم صانمه كيم سادەسنك ديواني چيزمشلر

كچن كون أنجمندە يوق إمش حيرت

بتون هيئت عربجه بر كتاب ظن أيليوب قرآني چيزمشلر

ومعناه : من الأصول أن يحذف من كل تأليف عدة أماكن

فيا أديبي لا تظن أن ديوانك فقط هو الذي حذفوا منه

حدث أن كان منذ أيام حيرت (افندي) متغيباً عن المجلس (مجلس المعارف)

فظنت الهيئة كلها القرآن كتاباً عربياً فحذفته

شؤون مع الاتحاديين

سقطت القدس أو كادت بأيدي الحلفاء ، فرأى جمال باشا أن يبادر إلى مغادرة سورية على ألا يعود . وقبل سفره ألقى خطاباً في دعوة أقامها في دار الحكومة بدمشق لأكثر من مائتي شخص ، قال فيه إن طالعه قضى عليه أن يعهد إليه انزال العقوبات بأعداء الدولة ، فكان هو الذي تولى في الاستانة قتل جماعة صالح باشا (ابن الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي ومن أصهار البيت السلطاني) كما قتل في سورية من ارتكبوا ما يعاقب عليه القانون في سبيل سلامة الدولة ، ونسي أن يذكر أنه قتل كذلك خلقاً في ولايتي اطنة وبغداد لما وليهما . وكان يستحل غالباً اهراق دم كل من يعتقد أن في قتله حياة الدولة ، ويحب كل من يسهل له ذلك . وقيل إنه سمح للضباط خلال الحرب أن يقتلوا بالقرعة للارهاب ، من يشاءون من الجند ، بدون محاكمة ولا تحقيق ، ولا أعتقد صحة هذا الخبر . وعزم مرة على قتل أحد المهندسين لأنه أمره أن ينجز طريقاً في مدة عينها هو له فما أتمه ، ولم يعف عنه إلا لكونه تركياً يافثياً ، فتوسل اليه أصحابه الأتراك أن يبقي عليه فعفا عنه بعد اللتيا والتي .

ولما غادر جمال باشا أرض الشام اعتزلت رياسة تحرير جريدة الشرق ، فبعث لي جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير أكبر القواد بعد قائد الجيش الرابع ، وكان معروفاً بحسن السيرة والناس يحبونه ، أن أعود إلى ما كنت عليه زمن جمال باشا الكبير في جريدة الشرق ، وهو يعطيني راتبي ريالات فضية لا ليرات ذهبية ، اذ نضب الذهب من خزانة الجيش ، فقلت للواسطة : ليست المسألة مسألة فضة وذهب ، المسألة أني استعبدت مرة واحدة في حياتي ، ولا أحب أن أستعبد مرة ثانية ، استعبدني جمال

باشا الكبير لانه حماني منذ وافى هذه الديار من دسائس الدساسين ، وأنا أكره الاستعباد مهما كانت صورته ، ولست كفوطة الحمام انتقل من جسم إلى جسم .

ثم تعاقدت مع بعض التجار وأخذت مبلغاً من المال اتجر به في المانيا والنمسا ، وسافرت الى الاستانة ، وزرت جمال باشا الكبير فأهل وسهل كثيراً ، وسألني عن سبب مجيئي فذكرته له فقال : وأنت تشتغل بالتجارة ؟ كان عليك يا صاحبي أن تمارسها منذ عشرين سنة ، ولو فعلت لكنت اليوم غنياً . وأوعز إليّ أن أقابل سبقي بك أحد امناء سر أنور باشا ، وكيل القائد العام ووزير الحربية ، فقابلته مرة ثم وعدني ان اقابله مرة ثانية فجئته ، وحجبني ربع ساعة فتركته وانصرفت . فسألني جمال باشا بعد ايام عما تم بيني وبين سبقي بك فقلت له : قابلته مرة ، وكان في الزورة الثانية على ما يظهر مشغولاً فما اذن لي بمقابلته ، فكلمه بالهاتف ومما سمعته يقول له إن « كرد علي » لم يخدم في سورية جمال باشا ، بل خدم الدولة العثمانية ، ومن العار ان يقول القوم هناك إننا غيرنا سياستنا . وسمعته ايضاً يعبث بسبقي ، ويرجوه متهكماً ان يقبلني المثول بين يديه إذا جئته ، وان يتنازل فيكلمني ، فاني احسن الكلام ، وقال اشياء في مدحي اغرق فيها جداً حتى عرقت خجلاً . وكانت النية ان يعطوني شاحنة من الورق للجريدة والمجلة وسبعة آلاف ومائتي ليرة عثمانية ورقية مخصصات سنة كما كنت آخذ في جريدة الشرق ، وان اذهب والصرف كما اشاء في سورية .

ولما سقطت دمشق هرب جمال باشا وجماعته من الاستانة ، وكان ارسل يطلبني الى مواجهته قبل سفره بثلاثة أيام ، ولم تصلني دعوته إلا بعد أن غادر الاستانة بثلاثة ايام ، وما ادركت ما كان يقصد من مقابلتي له ، وقد قال لي لما سقطت دمشق : إياك أن تعود اليها ، فان الشريف حسيناً يقتلك ، ثم لقيت جمال باشا المرسيني على الجسر في الاستانة ، فسألني عن حالي فذكرت له ما كان ينويه اخوه جمال باشا الكبير فقال : تعال نذهب معاً

إلى وزارة الحربية وانا أعرف سيفي بك فتأخـذ ما وعدت به ، فاعتذرت لأني لم أر من الحق ان آخذ معونتهم بعد سقوط دولتهم .

شخص انور باشا وكيل القائد العام إلى سورية وزار الحجاز ، فقال للشيخ اسعد الشقيري في طريق المدينة ، وكان جمال باشا يرافقه في تلك الرحلة : إيه يا أسعد افندي دبرت انت وجمال باشا مسألة (كرد علي) وانقذتماه من القتل ، وما علمتما ان (كرد علي) بعد الحرب لا يكون غير (كرد علي) قبل الحرب . فأجابه الشيخ : من انا حتى آتي ما تعزوه دولتكم إليّ ، سلوا اخاكم جمال باشا عما ظهر للرجل ، وعما يعمل الآن ، فأجاب جمال باشا : لم أغض عن (كرد علي) قط ، وقد استبان لي انه كان صادقاً الدولة ، كما ثبت بأوراق القناصل ، وإذا لم يقنعك قولي فاني مرسل الآن برقية إلى الديوان العرفي في عاليه ، وعنده اضابير المتهمين بالسياسة ، ليرسل لنا إضبارته ، فتعرف إذا كان داخلاً في جمعية سرية لقلب الدولة ، او له مدخل مع إحدى الدول صاحبة المطامع في سورية او غير ذلك من الجرائم ، ولعرف انه عرضت عليه رشاوي عظيمة من دولة غريبة فأبى اخذها وفضل خدمة الدولة العثمانية ، ثم إنه اليوم يسير معنا قلباً وقالباً . فاذا كانت السياسة التي اتبعتها في سورية لا تعجبكم فأنا اعود إلى الاستانة ، وترسلون إلى هنا من ترضيكم سياسته . وعندها اورد الشيخ أسعد آية « إن الحسنات يذهبن السيئات » وترجمها بالتركية ، وقال إن حسنات (كرد علي) الحاضرة تمحو سيئاته الغابرة ، فقال انور باشا : يا شيخ انا امزح واعترف بحسن سياسة جمال باشا .

والغالب أن جمال باشا حاذر من شر يلحقني من صاحبه انور باشا ، فأوعز إليّ ان أكتب له رحلته إلى المدينة المنورة ، وان لم أذهب معها ، على مثال ما كتبت رحلة الوفد السوري إلى دار الخلافة وجناق قلعة ، وبذلك استمال قلبه إليّ في الظاهر ، وكان الامير شكيب أرسلان من جماعة انور يحميه ويحبه ، وكنت انا من أخصّاء جمال يحبني ويحميني ، والله أعلم

بنيات الاثنين نحونا ، وانا لا أعتقد بأن قلب أمثالهما من القلوب التي تحب ، وما حبهما لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لهما والدولة .

أكد لي بعض العارفين أن انور باشا كان إذا اراد قتل انسان ، وقام إلى الصلاة وأتم صلاته ، ورأى ان امره لم ينفذ ، يأمر بقتل من امره بالقتل وتلكأ ، ثم يقتل الاول الذي كان قضى بقتله ، وكان في آخر أيام الحرب يعذب في سجن استانبول نحو مئة ضابط ، لأنهم قالوا إن الاستمرار على الحرب لا يورثنا إلا خسارة في الانفس والاموال ، وذلك بانواع من الارهاق لم يروا افظع منها في محكمة التفتيش الدبني في العصور الوسطى . وكان انور باشا يتظاهر بالدين والعفة ، ويعمل له في مزارعه أربعة آلاف جندي في آخر سني الحرب ، والدولة في حاجة شديدة إلى الجند يومئذ ، وهذه المزارع اغتصبها من رجل رومي فيما احسب ، وصودرت منه يوم سقوطه فافتقر عياله .

واشترك انور باشا ذاك التقي النقي ، مع جمعيته جمعية الاتحاد والترقي في تجارة السكر فربحوا عشرات الملايين من الليرات ، في زمن كان فقراء المملكة العثمانية ، وكل اهلها فقراء ، يحرمون السكر اربع سنين ، وبيعت الاوقية منه عندنا بريال بمعنى أن الرطل الشامي كان يساوي ليرتين عثمانيين وربع ليرة ذهباً ، ولا أعلم أي دين هذا وأية امانة .

أما صاحبه جمال باشا فقد ذكر لي عبد الرحمن باشا اليوسف ، أنه ذهب ذات صباح يودع عقيلة جمال باشا في المحطة ، وكانت مسافرة إلى سويسرا ، فرأى أربعة جنود يرفعون إلى القطار حقائب ثقيلة ، يلهثون كلما حملوا واحدة منها . وكانت عشر حقائب ، فذهب به الظن إلى أنها ذَهَبٌ لما شاهد من ثقلها ، وقد رأينا عيال جمال باشا بعد الحرب يشتكون الفقر . فهل استحال ذلك الذهب ، إن صح انه ذهب ، في مصارف المانيا ماركاً المانياً من الورق ام ماذا ؟

وكذلك كان حال بعض رجال الدولة استحلوا الاتجار بهذا الضرب من

الاحتكار في اشد اوقات الضيق التي اصيبت به الامة ، فاغتنى كثير منهم في الحرب بمثل هذه الوسائط ، وما بقي لهم ولا لذراريهم ما جمعوا . ومن الذين اغتنوا سفير فينا حسين حلمي باشا ، فانه ربح بالسكر مئات الالوف من الليرات على ما أكد العارفون ، وكان هذا الرجل من عظماء العثمانيين في عصره ، يحفظ القوانين ويحسن الكتابة الرسمية ، وكان مشهوراً بالاستقامة ، وانا ما اعتقدتها فيه ، منذ قص عليّ عبد الرحمن باشا اليوسف ان جده سعيد باشا شمدين مؤسس بيتهم كان يعطي حسين حلمي باشا راتباً مقرراً كل شهر قدره خمسون ليرة عثمانية ذهباً ، مدة مقام حسين حلمي كاتم اسرار ولاية سورية أو رئيس ديوان الانشاء (مكتوبجي) . ومن يقبض مثل هذا المال من صاحب نفوذ له كل يوم مشاكل ذات شأن مع الحكومة والاهالي يتعذر عليك أن تعده عفيفاً مستقيماً ، وإن قيل عنه أنه كان ينفق نصف راتبه ويدخر النصف الآخر خلال المناصب التي شغلها ، ولذلك اقتصد مبلغاً يعد ثروة في تلك الايام . وإذا صحّ تلوثه بتجارة السكر فتكون عفته ضرباً من العفة التي لا اعرف كيف اصفها ، فما العفة بالاغضاء عن المبلغ الحقير وأخذ الكبير ، بل بالزهد فيهما على السواء . ومن جاءني يدل عليّ بهذا النوع من الاستقامة ، فأنا أفضل عليه قطاع الطريق .

الاهداء والاستهداء

وشاء ربك أن ينشأ (ي . ر .) من بيت يحب ربه أن يهدي إليه . وكان قاضياً ، ورجائي أن يكون من قضاة الجنة لا من قضاة النار . فنشأ ابنه على حب الاهداء والاستهداء ، ونسي بعد حين عادة الاهداء وأتقن عمل الاستهداء . وأهدى صاحباً ، أول نشأته ، صندوقاً من التفاح ، وادعى انه من حديقة بيته وهو لا يملك يومئذ داراً ولا عقاراً ولا مزرعـة ، ليوهم مهديه انه لم يكن استهداء ، بل هو من ماله وصلب حاله . فأجابه صديقه بالشكر جواباً داعبه فيه ، فأظهر انه ما أحب منه هذه الدعابة ، وحلف ألا يهدي غيره بعدها شيئاً . اتخذ من مداعبته بمـا أغضبه حجة لينقطع عن الاهداء طول العمر . وخلاصة ما كتب له صديقه : « إني أردت أن أقابلك على هـديتك ، كما جرت عادة الناس ، وتطلعت ذات اليمين وذات الشمال في الأرض التي أورثنيها أبي ، فلم أرَ غير صنفين من الحاصلات : التبن والشعير ، وهما اجدر بالتقديم إلى البغال والحمير ، وشجيرة القنب ، وهو لا يستخدم في غير الشنق والحرق ، فان كنت ترغب في استهداء شيء منها فأنا على أتم الاستعداد لأُرسل المقدار الذي يلزمك عن طيبة خاطر » .

ودار الفلك دورته ، وعُمِّلَ هذا المهدي على بعض بلاد الجزيرة ، فعرف أهلها ، أو عرَّفهم هو بنفسه أنـه يحب الاستهداء ، فأهدوه حتى كادت تستنزف هداياه وُجْدُم ، فما هي إلا أشهر معدودة حتى صدر الأمر بنقله إلى عمالة أخرى بعيدة ، أرادت الدولة بهـذا النقل ألا يفوت سائر عمالاتها عدله وإصلاحه ، لأنه كان حيث ينزل لا يفكر في الاستهداء بقدر ما يفكر في نشر العلم وفتح المدارس وعمارة الطرق ، وإبطال الرشوة ، وإمتاع الفلاح بحقوقه ! ولمـا آذنت ساعة الرحيل كتب إلى صديق له .

أن اهل تلك المالة ـ التي قضى بين أهلها أياماً عدها من أمتع أيامه ، لأنه ما خلا فيها يوماً من استهداء شيء ـ هم فقراء بالنقـد اغنياء بالماشية ، إذا احبوا ان يهدوا الموّلى عليهم هدية يهدونه مما حوت اسطبلاتهم وحظائرهم : بقراً ، حميراً ، خيلاً ، بغالاً ، خرافاً ، تيوساً ، معيزاً ، دجاجاً ، طيوراً إلى ما شاكل ذلك من الحيوانات والدواجن . وانه اجتمع له من هـذه الاصناف قطمان يتعذر عليه نقلها إلى مقره الجديد ، وليس يرى في ناحيته من يشتريها ، ويدفع له ولو ثمناً زهيداً فيها ، ولا تسمح نفسه بارجاعهـا إلى اهلها ، وسأل صاحبه أن يمنّ عليه برأي يخرجه من ورطته ، لينتفع بما كسبه من المـال الحلال !

وعين الله ترعى هذا الفاضل الـكامل الذي فاق كل مستهدٍ أو مرتش على اختلاف في الاسماء ، ولشدّ ما صرف وكده ، وبذل ما أوتيه من ذكاء ودهاء في اختراع طرق توصله إلى غرضه . وكانت له مزية لا تنكر عليه وربما عدها بعض أترابه ضعفاً ودناءة ، وما هي إلا تفضل وتساهل . ذلك انه ما كان يحب أن يشق على المهدي ، فان كانت المسألة تحتمل عشر ليرات قنع منه بخمس ، وإن كانت تساوي خمساً رضي منه بنصفها ، لاعتقاده ، وهو من دارسي الاقتصاد السياسي ، بأن الربح القليل من الكثير أعوَد على فاعله من الربح الكثير من القليل .

حقيقة ان خطْب الرجل سهل ونفسه متواضعة . كان مرة محافظاً في احدى العواصم فوضع جُعلا مقرراً على كل من له علاقة به ، ليحمل إليه ولو إناء من ابن رائب وعشرين رغيفاً من الرقاق ، وطبقاً من الزبد أو القشدة ، وما شاكل ذلك من المأكول الذي يجود عندهم ، ويخرج من ارضهم ، أو تعمله ايديهم . يأتي هذا ليجعل للخبز والملح بينه وبين من يدير شؤونهم حقوقاً وواجبات ، فانظر بالله ما أطيب هذه النفس !

وكان اذا زاد ما يصرفه من هذه الأصناف عن طعامـه يبيع الفضل ويجعله نقداً في صندوقه ، وقاعدته ان الساقية الجارية خير من النهر المقطوع ،

وانه اذا اقتصر على الأخذ من المسائل الكبرى يفوته 'جمْل المسائل الصغرى والعدل يتقاضاه وهو من أكبر الغُيُر عليه ، أن يساوي بين الجميع في القضاء والاقتضاء . ولولا ان الله حبب إليه المغامرة في بعض الليالي ، وكان يخسر في أكثر ألعابه ، لخلف ثروة عظيمة لا يخلف نصفها عشرة من اقرانه مجتمعين . هذا مع كل هذه القناعة في الاخذ ، والضنانة في العطاء !

وارتقى هذا البطل المغوار ، وعين الله عليه ، بهذه الصفات النادرة ، واصبح له من السلطان ما يستطيع معه أن يضر وينفع في الأمور الكلية ، فأغلى الجعالة والهدية ، ورفع ثمن كل قضية . واستنجد به اناس من المشتغلين بالدفاع عن حقوق الناس . كانوا اقصوا بدعوى سوء حالهم وجهلهم ، فأخذته الشفقة عليهم اكثر مما اشفق على حقوق هذه الامة ، لأن المجموع في نظره اغنى من الفرد ، فهم لذلك احق بالرعاية ، فعلمهم ساعة من علمه اللدني ، وأفاض عليهم من ادبه الكسبي ، وارجعهم على بركة الله إلى ما كانوا عليه ، وما اخذ من افرادهم ما يشق عليهم اداؤه ، بل كان مجموعه حسناً بلغ ثمانمائة دينـار ، ثم انه أخـــذه على ان يؤديه كما قال الى رئيسه يتقاسمانه ، وكان هو واسطة خـير ليس غير ، ورضي أن يخدمهم لوجه الله لأنه كان دائماً يقصد بمثل هذه الخدم وجه الله ! وقد تناول ما تناول وقلبه مطمئن بالايمان ، ونفسه تحدثه ، والله أعلم بالسرائر ، بأن ما أتاه كان رحمة بهم وبالقضاء ، وفي عمله إحقاق للحق ونصرة للعدل .

ومن عجب امر هذا الرجل المولع بالاستهداء أنه نوّعَ الاساليب في اخذها ، وما ترك فرصة تفلت من بين يديه ، وكل ما يساوم عليه تكون عقباه الانتفاع بشيء يأخذه على سبيل الذكرى لتواضعه ، ومن تواضعه انه لا يجوز كسر خاطر احد يقدم اليه شيئاً مهما قلّ ، فاعجب لهذه النفس الترابية التي لا تعرف الزهو والكبرياء .

وهو إلى هذا يحب أن يظهر بالعلم ، وأن يشتهر بالأدب ، وليس أشق عليه من رؤية أحـد يتفرد دونه بشهرة ، او تكتب له مـكانة في أندية

العلماء ، ويرى ان تفوقه في هذا الباب لا يكون إلا باسقاط ارباب هذا الشأن ليخلو له الجو ، ويستأثر بالصيت الحميد دونهم . وكان يسره ألا يذكر احد بمحمدة ، ويدعو إلى الاعتدال في تقريظ الممدوحين ، حتى يكون الناس كأسنان المشط في الاستواء . وهو إذا كان يحب الاقتصاد حتى من اموال مهديه ، فكيف لا يحب الاقتصاد في مدح من يعدهم منافسيه .

وما ادري اين تعلم مكارم الاخلاق افي مجالس الذكر عند اخوانه اهل طريقته الدينية ، أم مع اخوانه في الماسونية الذين ارتقى الى اعلى درجات رتبهم ، وبرّز أيّ تبريز في محافلهم . ومن مزاياه ان كل مفعول جائز ، وأن للمرء أن يعمل كل ما يريد ، لا يصده عن سبيله صاحب قوة ، ولا مصطلح من عادة وخلق ، وانه إذا جاز سرقة مال الغير فمن أيسر الأشياء أن يسرق أفكار الغير ، ويغير على ألقابه فينتحلها غير خجل ولا وجل .

وعلى كثرة معرفته نسي ان المرء لا يأخذ اكثر من جرمه ، وأن من واجب العاقل ان يقف حيث وضعته الفطرة ، وان من نجح في ناحية يستحيل عليه أن ينجح في جميع النواحي ، وانه إذا تعلم فرعاً من فروع المعارف البشرية ، بطول الزمن وكثرة التمرين ، يتعذر عليه ان يتعلم مثلاً علم الأخلاق ويعلمه ، وصياد الدينار غير صيـاد العلم ، وحب الدنيا لا يجتمع في قلب امرىء مع حب الآخرة ومن الصعب الجمع بين طرفين متباعدين ، والاحتيال على سلب الناس ثم النفاق عليهم بالأخلاق الفاضلة .

مسكينة هذه الأمة بليتها بالجهلاء كبليتها بالمتعلمين ، ومصيبتها بالمعممين « المتجببين » كمصيبتها « بالمطربشين » « المتبنطلين » . وربما كانت البلية بالمتعلمين أقطع لأن المتعلم يعرف كيف يضر ويؤذي ، وكيف يهدي ويستهدي ، وكم في الخلائق من إذا تأملت فيهم يعجبك ظاهر حالهم ، وإذا خبرتهم تتقمص نفسك ، تراهم على حسن سمت وجميل وقار ، وتستمع من أفواههم ألفاظ

المروءة والشرف والصون فاذا فحصت نفسيتهم فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

وتكرم بعض المعلمين والمديرين فعاملوني كما عاملوا أ كثر اسلافي وأخلافي بالهدايا يقدمونها ، وكنت اردها اليهم ناصحاً لهم ألا يعودوا إلى اتيان مالا يليق صدوره من طبقتهم ، ومنهم من كنت ادفع اجرة عن هديته حتى أعيدها اليه . ومن اجمل ما رأيت من ضروب الاهداء هدية أحد التجار ، زار المجمع العلمي العربي واعطاه اعانة دفعها للآذنين يشترون بها بذلا صيفية ، وما جاء الشتاء حتى رأيته يرسل إليّ صندوقاً من سمك بحيرة الريحانية ، وكان هو ضامناً لها ، فرأيت بعد التردد الكثير قبولها والمقابلة عليها ، وماذا أرسل بدلها ، وليس عندي تفاح ولا دراق ، فقام في نفسي ان اهديه بدل هذه الالطاف كتباً ورسائل ، وأحببت ان تكون من الجنس الذي يتيسر له الاستفادة منه ، ويتسلى به آونة فراغه . وكانت هدية السمك تتكرر مرتين او ثلاث مرات في كل شتاء ، ودام الضمان ثلاث سنين ، فكنت في المرات الأخيرة في حرج من قلة الظفر بكتب تروق صاحبي وتنفعه ، وخفت أن تنفد من حوانيت الوراقين في مصر والشام . ولما انتهت مدة الضمان هنأته وهنأت نفسي ، وحمدت الله على النجاة من هدايا السمك اللذيذ ، وإرسال كتب تلذ مطالعتها في مقابلها . وسألت صاحبي إذا كان ربح من الاسماك فقال إنه خسر ، وعين مقدار الخسارة ، فقلت له : أصلحك الله . وقع العجز في ربع ضمانك لكثرة ما أهديت من هذا السمك الذي تلذذ به عشرات من اصحابك ، أتقنت فن الاهداء ، ولم تتعلم كصاحبي ذاك فن الاستهداء ، فكان شأنك ما رأيت .

إن كان يقلّ في الامم المصلحون ، فان في امتنا يكثر المفسدون ، وإذا كانت هناك اختراعات تنفع الامم وتنشل الدول ، فان هنا اختراعات تضر بالجماعة وتدك معالم الممالك . وما عهدنا عندنا مخترعاً اخترع ما ينفع ، ولدينا عشرات يخترعون في الشر فقط ، يفسدون ولا يصلحون .

وهذا الرجل طلب صداقتي وأنا لا أعرفه (ي . ر) وخدمني على العهد التركي خدمة أنقذني بها من معضلة ، وبت أرقب الأيام لأكافئه على جميله ، وسعيت لما حانت الفرصة باسناد منصب كبير اليه ، تولاه وهو لا يصدق أنه يبلغه . وكان غاية ماعرفت عنه يومئذ أنه يحسن عمله ، لا يأتي ما يؤاخذ عليه ، متوسط الذكاء ، وفي طبقة الموظفين كثيرون مثله .

وما تربع في الدست حتى حدثته نفسه أن السعادة اقبلت ، وان من لا يغنم الفرص يضيع الحزم ، فشمر عن ساعد الجد ، إلى اقصى حد ، ورجع إلى فطرته ، فأظهر ما كان يكتمه من مذهبه ، وتجلت فيه عادة الاستهداء ، فأخذ بالكبير والصغير ، فكان له فيه اختراعات ومكتشفات ، واطرح كلمة خذ ، وأتقن كلمة هات . وساعده ديوانه أن كان متشعب الجنبات ، كثير الاموال جم الصادرات والواردات ، وكونه عارفاً بصناعته تخرج فيها من البزرة كما يقول الترك ، وأتقنها قبل ان يبلغ الحلم بحكم الضرورة . وعرف بمرور السنين مداخلها ومخارجها ، كما عرف أهلها كبيرهم وصغيرهم . أما معلوماته فما زادت عن معلومات المدرسة الابتدائية ، وكان يصطنع الرزانة ويتعمد الوقار ، ويسكت في المجالس ، ويبسم كأنه يفهم ما يلقى فيها ، وهو بعض منسياته ، على حين لا يمتاز عن العامة بمعلوماته ، إلا انه يتقن عملية الجمع والطرح والضرب والقسمة .

وزعمت لك أنه أتقن فن الاستهداء ، وله فيه مخترعات ومبتدعات ، أما الاهداء فما عرفه ، اللهم إلا ماكان من ورائه رد عادية غريب عنه ، او الاستشفاع إلى رجل له يد باسطة في تأخير أموره وتقديمها ، أو له سيطرة عليه من بعيد أو قريب ، وأحبَّ أن يقوى في ذاته فلم ير خيراً من الاعتصام بجمعية سرية . فاتخذها مجناً يتترس وراءه ، فيدرأ به عن نفسه العوادي ، وأخلص في خدمتها حتى وصل إلى أرقى درجاتها ، ونال أعظم مراتبها وأوسمتها ، واقترح يوماً على صاحبه أن يدخل في جمعيته فتوسد إليه

الوزارة بعد أربعة أيام ، فقال له : إنه ما تولى منصباً باستظهاره بجمعية ولا بجماعة ، وأولى له ثم أولى ألا يكون شيئاً من أن يدخل في شيء لا يريده للوصول الى شيء قد يريده وقد لا يريده . وأحب أيضاً ألا يخليه من معاونته فتوسط له باعطائه مبلغاً من المال باسم صحيفة له يشرف عليها ، والمترجم له لا يحسن الاهداء إلا إذا كان من مال غيره ، وفي سبيل تلويث سمعة من لم يتلوثوا ، من باب ودت الزانية لو كان كل النساء زانيات .

وأزيدك أن الرجل ما عرف معنى للصداقة طول عمره ، ولا عطف على بائس عائل ، ذلك لأن قلبه ما أحب إلا معبوداً واحداً هو المال . ومن قواعده أن ما دخل عليه من النقد لا يخرج من صندوقه إلا الى المصارف والخابئ في داره ، ويرى انه لا يناسب منزلته أن يبتاع شيئاً من السوق فيأتيه بكل ما يحتاج إليه أولئك الذين قضت الأقدار عليهم أن يصبحوا تحت يده ، يصرّفهم ويتصرف بأمورهم .

ومن اختراعاته في الاستهداء أنه إذا جاء لاستلام منصب جديد يرسل منشوراً إلى من هم تحت إشرافه من العمال في الارجاء يقول فيه إن بيته يحتاج في سنته إلى ست صفائح من السمن ، ويرجو ان ترسل إليه مصحوبة بقائمة ثمنها : فيأتيه السمن هدية من كل مكان ، حتى لغص داره بما ضمت من الصفائح وتمسي بسمنها أغنى مما يملك منه تاجر كبير .

هـذا إلى ما يطلبه من كل مأمور من الحاجات الاخرى ، وهو على رأس كل سنة وفي الأيام الاولى من كل موسم يجدد طلب السمن ، ويطلب الصفائح منه ، ومرءوسوه يبيضون صحائفهم معه بأن يدرّوا عليه كل ما يطلب وما لا يطلب من حنطة وخراف وأوز ودجاج وطيور وأسماك وزيت وعسل وبيض وفاكهة وبقول . فان فاض ما عنده منه عن حاجته ، وحاجته منه قليلة جداً ، اتجر بما اختزنه ولا يعرضه في السوق على أيدي سماسرة بررة إلا عند ارتفاع الأسعار ، والخوف على الفقير من الجوع . فيبيعه نكاية بالخائفين من التجار والمضاربين !

رأيتَ بهذا انه وضع ُجعلا على كل واحد له به شبه الصال ، ومهر في استخراج الهدايا وتطبيق أساليب الاستهداء مهارة زائدة ، وهو أبداً يجد ولا يتوانى في الاستخراج ، والجد ينبض الماء من الحجارة . والكتمان منه وممن يعطيه أصل النجاح في هذا الباب ، وكل سر جاوز الاثنين شاع . وله مع من كانت يده كزّة لا تندي بشيء اسلوب منتج للاهداء : يبدأ بتهديده تهديداً خفيفاً . كأن يقول انه مقصر في عمله ، او ان المستشار تكررت على مسامعه الشكوى من تقصيره ، وقلة معرفته ، وجهله بوظيفته ، وانه حاول هو رد هذه الشكاوى ، وهو يجهد ليقيه العزل او النقل ، فيهرول المهدد البائس من ساعته ويدفع له هدية من الورق او الورِق او من تلك الاصناف التي تمون بيت صاحبه طول السنة ، فيستغرق ما يعطيه إياه راتبه اشهراً ، ويضطر المسكين الى الرجوع على ارباب المصالح ليسد عجز ميزانيته الخاصة ، بما حوته جيوبهم وغرّمه إياه رئيسه الجليل .

وصاحبي هذا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويمارس من اركان الاسلام ما لا يكلفه مالاً ، يصلي ويصوم ، اما الزكاة والحج فلا ، ويعتقد الى هذا بنعيم الآخرة الا انه يفضل عليه نعيم الدنيا . ولدوام هذا النعيم تراه يضن بالدانق لا يبذره كيف اتفق . وما وصل الى سمعي انه دعا احداً الى طعامه ، ويفضل ابداً ان يتناول من طعام غيره ، وكيف يعمل حتى تتكرر له المآدب ، ولا ينقطع سندها عنه ولو في الاسبوع مرة او مرتين ؟ ولبلوغ ذلك هداه ذكاؤه الى اختراع كان من جملة ما ُسجل من اختراعاته . ولما كان يستطيب طعام الناس اكثر من طعام بيته رأى ان يعوّد مرءوسيه الكرم فأنشأ يدربهم عليه ، ويستطعمهم بأن يقول لأحدهم : إن اهل بيتك يا هـــذا يجيدون طهي الصنف الفلاني . ومن الغد يطبخ له فيدعى إليه او يحمل إلى داره مع أطباق اخرى لذيذة يقدّرون انه يستطيبها . ويقول لآخر :

بلغني ان الصنف الفلاني من الطعام يحسن حريمك تحضيره . وأنت يا فلان « ممن كان الحجاب بينه وبينه مكشوفاً بعض الشيء » متى تدعونا الى دارك ثانية ، فقد طال العهد بآخر أكلة اصبناها من طعامك الشهي . ومنهم من يكلفهم أن يخرجوا به إلى الحدائق والمنتزهات أيام العطلة مع ثلة ممن اعتاد قبول دعوتهم ، فيتجشم الداعي نفقات تدخل الضيم على وفره ، إلى غير ذلك من ضروب التطفيل والتدجيل .

اللصوص يسرقون على الاكثر في الليل من يحاولون سرقته ، وهـذا يسرق ليله ونهاره ، وقريحته لا تفتأ تملي عليه اختراعات في هذا الباب . وهو لا يبالي بما يقول فيه مستخدموه في سرهم من التغالي في هذه الدناءات ويلعنونه في قلوبهم .

وما انتهت مهمة هذا العامل الجهبذ حتى كان قد استرهن من العقارات والجوهرات الشيء الكثير ، ووظف امواله في أعمال رابحة ، وكثرت صفقاته المالية حتى كادت تمادل بتنوعها وتفرعها أعمال مصرف من مصارف الرهونات . وفي خزانته الخاصة من الاحجار الكريمة المرهونة التي يصعب فك رهنها ما لا تجد له مثيلاً إلا في قصور الملوك . اغتنم شدة عوز الناس فاستثمر أموله بالربا الفـاحش واحتال على الذهاب بالأصل المرتهن ، وهو كلما زاد الراهن عجزاً عن الاداء في الميعاد أقدم على ضبط عقاره وحليه .

وسألت بعض العارفين عمن أخذ هذا المحتال دروسه الأولى فقال إنه أخذ عن أستاذ له كان أعظم لصوص عصره ومصره . كان هذا قابضاً سنين طويلة بيد من حديد على ادارة فيها كل أسباب الاستهداء وأخـذ الاموال ، وكان مخترعاً أيضاً إلا أن اختراعاته محدودة يجتزيء بضروب قليلة منها ، يتربع بها كثيرا ، وما وفق لما طلب إلا بمشاركته لرؤسائه في المغانم وتهيئته لهم كل ما فيه مباهج حياتهم . وبينا كان الموظفون لا يتناولون في الدور الحميدي رواتبهم القليلة بصورة مطردة ، وبينما كان أرامل المتقاعدين

ويتامام لا يأخذون ما يتبلغون به كانت تسول له نفسه أن يقتطع من رواتبهم مقداراً معيناً يعرفه الصيارف . وإذا كان في نساء المتقاعدين ذات الجمال يشفع لها حسنها فيعف عن راتبها ولا يعف عن عرضها . ومات وخلف ثروة كبيرة ما جمع مثلها أعظم الخائنين ، وقد أنفق في حياته وأسرف في انفاقه ، وعاش عيش الملوك ، وارتكب كل محرم ، واحتقب كل اثم .

هذا الاستاذ البارع خلف ذاك التلميذ الأبرع ، وما مات من خلّف ، وكلاهما لم يترك ذكوراً يذكرونه بالرحمة ، وخلف مئات ممن سلبهم نعمتهم يجأرون إلى السماء ، في كل صباح ومساء ، ألا يبارك الله له فيما آخذ واقتطع ، وأكل وبلع . وكانت عاقبة الأول تبديد كل ما جمع ، وستكون مثلها عاقبة الثاني ان شاء الله .



غاياتي من سياحاتي

زرت أوربا أربع مرات (في سنة ١٩٠٩ و ١٩١٣ و ١٩٢١ و ١٩٢٨) وكانت الغاية من رحلاتي تجديد مارثّ من قواي ، وترويض الجسم ، وتسلية الروح ، والتعرف إلى مدنية الغرب ، ودرسها في أرضها درساً عملياً ، بعد صرف جانب من الوقت في درس النظريات . وما كنت أدخل بلدة قبل أن اطالع في وصفها كتاباً أو كتباً ، حتى أتلذذ بما اشاهده ، وأستفيد من زيارتها استفادة حقيقية .

زرت فرنسا وانكلترا وايطاليا والمانيا وسويسرا والنمسا والمجر والصرب والبلغار واليونان والبلجيك وهولاندة واسبانيا ، ومنها ما زرته أكثر من مرة مثل انكلترا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا ، وأخذت فكراً إجمالياً عن أوصافها وشؤونها وعاداتها ومميزاتها . والاشتغال بموضوع خصائص الشعوب رياضة ذهنية إذا قيس بالنصب الذي يلقاه من ينصرف إلى الأعمال العلمية الجافة ، ويصرف ساعات عمره في تحليل المركبات .

كنت في فرنسا وفي الجزء الفرنسي من بلجيكا وسويسرا كأني في أرضي وداري ، بين معارفي وأحبائي ، وذلك لمكان اللغة ، أما في سائر الممالك فقد كنت شبه متطفل عليها ، أدرس حالتها في الكتب ، وأستعين بالتراجمة وبأصحابي الشرقيين والمستشرقين على النفوذ إلى روح تلك الشعوب ، عرفت الاولى مباشرة وعرفت الاخرى بالواسطة . وشتان بين ما حققته بنفسك حتى استسغته وتمثلته ، وبين ما حققه لك غيرك ورويته عنه . وما أدركت سر هذه الحضارة الغربية في الجملة ، ولا تذوقتها بعض تذوق إلا في ربوع سويسرا . والغالب أن البحث في الأمر الصغير المنظم أسهل من درس الكبير المنتشر . أدركت ذلك في رحلتي الثانية ، وفي الرحلة الاولى لم

أعثر في فرنسا ، على معرفتي بتاريخها وأدبها ، على ما أتلقف به حضارتهم ، وإن كتبت في مدنيتها كتاباً ونشرته .

استعنت على التقصي والبحث بما كنت أبذل من دراهم قليلة ، قد يضن بها بعض أرباب الرحلات ، فكنت أستميل قلوب التراجمة بدعوتهم إلى تناول الطعام معي في بعض الوجبات ، فآخذ عنهم ما يسوغ استخدامه من المعلومات ، ومنها ما كان يجلي أمامي شيئاً من حقائق تلك الامم ، وألغابي عما يعود على التراجمة من فائدة مادية . فقد يقترحون عليَّ زيارة بعض الأماكن وشراء بعض الأشياء من محل كذا ، وأنا عارف بأن ليس لي من وراء ذلك كبير أمر ، وأعرف أن الترجمان يأخذ قسطاً مما انفق .

قال لي ترجمان في مدينة قرطبة من أرض الاندلس ، وقد صرفت في تلك المدينة الجميلة بضعة أيام : إنني احترف هذه الحرفة حرفة الترجمة في هذا البلد منذ أربع عشرة سنة ، رافقت خلالها مئات من أجناس البشر ، ومنهم عرب من شمالي إفريقية ، ومن بلادكم مصر وما وراءها ، فما دعاني واحد منهم إلى تناول طعامه ولا قهوته ولا شرابه قط ، كما فعلت أنت ، وكنت تحرص طول المدة التي قضيتها هنا ألا افارقك ليل نهار ، تريد أن تواكلني حتى في فطور الصباح ، عجبت من صدور هذا منك ، على حين يظهر من حالك أنك لست غنياً ، فما السرّ في كرمك هذا الذي استغربته ، فأجبته : السرّ في ذلك أن أهل بلادنا اعتادوا أن يأكل الصديق عند صديقه ، وقد تأصلت فينا هذه العادة على الأيام ، ومنا اليوم من إذا لم يكن في بيته من يواكله يقف على بابه يتسقط رجلاً يدعوه إلى مشاركته في طعامه . فتعجب من هذه العادة ، وما عرف أني أقصد بدعوته أولاً أن ازيل عني وحشة الغربة ، وأن أستفيد منه أشياء لا تعرفها الكتب ، وأني أقع ، بانفاق زيادة طفيفة على نفقاتي المقررة ، على فوائد يصعب تلقفها بغير هذه الصورة ، وهي في نظري لا تقدر بثمن لأني احب سماع كل غريب .

كثيراً ما كان يعذلني بعض أصحابي على استغنائي عن مرافقة احد في

رحلاتي ، والواقع أني ممن يصعب عليهم أن يقيدوا أنفسهم ويقيدوا غيرهم ، وما دمت في مهمة أريد القيام بأعبائها أولا وبالذات من الصعب ان يتيسر لي استصحاب من يوافقني على تحقيق مآربي كلها . وأكثر من يرحلون منا إلى الغرب تكون رحلاتهم للتجارة أو للنزهة . وهذان الصنفان من أرباب الرحلات لا يوافقاني على ما أريد الدخول فيه . فالتاجر لا يهمه أن يجتمع إلى عالم مشهور ، ويسمع كلامه ويحمل فوائده ، ولا أن يدرس مخطوطاً عربياً في خزانة كتب ، ولا أن يبحث عن الاسفار النادرة ، بقدر ما يهمه أن يقابل اصحاب المعامل ، ويقضي ساعات مع وكيله وعميله ، وكذلك الذاهب لغرض السياحة والنزهة ، لا يهمّ إلا الاطلاع على ماتحمله المدنية الغربية من المباهج . وهمّ التاجر الاقتصاد في النفقة ، والمتنزه يهون عليه التوسع فيها ، ومثلي قد يؤثر التوسط في ذلك . ومن المتعذر الجمع بين المطالب المتباينة . على أني كنت في معظم البلدان ولا سيما في الرحلتين الاخيرتين أتمنى لو كان معي رفيق من لحمي ودمي أفزع اليه فيؤنسني ، وأبوح اليه بذات صدري ، فيسري عني همي ، ونتنادر ونتضاحك ، ولكن كنت أقول إن كل ما في الترافق من محاسن يزول ساعة يتخالف المتصاحبان ، ويعتقد أحدهما ان صديقه يعتدي على حقوقه ، ويستأثر بالوقت او بالنفقة دونه ، ويجحف به ولا يعرف له قدره .

اكثر ما كنت ارتاح اليه مقابلة علماء المشرقيات ، فانهم لقربهم من منازعنا ، ومعرفتهم بعاداتنا ، ووقوفهم على غابرنا وحاضرنا ، اقرب الينا من معظم من في الغرب من اهل المدارك ، وبهم كنت اتعرف إلى سائر الطبقات ، فهم بلا جدال همزة الوصل بين الشرق والغرب . ويبالغ المستشرقون باكرامك في بلادهم إذا توقعوا منك بعض الفائدة لهم او لامتهم ، لدن عودتك إلى وطنك ، ومنهم من يدعوك إلى داره مع فقره الظاهر ، وذلك لمعرفته العادات الشرقية . اما هم فقد وقفوا علمهم قبل كل شيء على خدمة دولهم .

دعاني احـد المستشرقين في باريز على غير معرفة قديمة به ، فعجبت لهذه الدعوة وسألت احد اصدقائي ممن لهم الصال بالداعي عن سر دعوتنا فلم يعرف ، وحضني على الحضور . وكانت الدعوة جامعة اسباب السرور ، وفيها اكثر من اثني عشر مدعواً ومدعوة ، وانصرفنا في ساعة متأخرة من الليل شاكرين لحفاوة الداعي ، ولطف من دعا من الاوانس والعقائل . وما إن عدت إلى دمشق حتى تناولت كتاباً ضخماً من طريق رسمي ومعه اضبارة كبيرة ، كأنها مسودات كتاب ، وإذا بصاحبي صاحب الدعوة المجهول سرها ، يدعوني ان اكتب له معلوماتي عن القباب في سورية ومن رقد تحتها من الأولياء والقديسين ، فوضعت مقترحه في إحـدى جلسات المجمع العلمي فقال بعضهم : إن هذا الموضوع يحتاج إلى درس خمس سنين ، وقال آخر : إنه يحتاج إلى خمسة اشخاص ، يدرسون ويبحثون خمس سنين ، وقال آخر غير ذلك . واستقر الرأي على ان هذا البحث ليس من اعمال المجمع ، وعمله لا يتعدى اللغة والادب . وعنـد ذلك فهمت سر تلك الدعوة ، وزال عجبي ممن حاول باطعامي وجبة من طعامه ان اضع له تأليفاً يضع اسمـه الشريف عليه . وبديهي ان الكتاب الذي يتطلبه لا يكتب في خزانة الكتب ، ولا في مكتب مؤلفه ، بل يحتاج إلى التنقل في ارجاء سورية ليدرس قبة قبة ، ومنها ما يتعذر الوصول اليه ، ولا تسل عما يحتاج ذلك من اوقات ونفقات ، والكرم الحاتمي الذي ظهر من صاحبنا المستشرق هذا يعد من التجارات الرابحة التي تربح مئتها عشرة آلاف .

وفي الحق إن ما لقيته من كرم إخواني علماء المشرقيات في انكلترا وهولاندا وألمانيا واسبانيا وفرنسا وغيرها صادر عن عاطفة شريفة وليس فيه ما يؤخذ عليهم . وللكرم عند الغربيين كسائر عاداتهم اصول وحدود ، فلا تتوقعن ممن لا تعرفه ، وليس بينك وبينه حقوق سابقة أن يكرمك ، ولا تستغربن إذا زرت احداً ولم يقدم لك فنجان قهوة ولا كأس شاي ولا كوباً من المرطبات فان ذلك لا يقدم لك إلا إذا دعاك صاحب الدار ، وعندئذ

يحتفل بك كثيراً إذ يكون على استعداد للقائك . وإذا دُعيت يجب عليك أن تجيب بالايجاب أو تعتذر إذا كنت تريد التخلف . وإذا أكلت طعام الدعوة وجب عليك أن تزور أصحابها بعد أيام لتشكرهم . وإذا دعيت إلى تناول كأس من الشاي كان عليك أن تكتب بالقبول أو الرفض ، والشكر تحمد على كل حال . والخلاصة فان لكل شيء في الغرب قيمة وقاعدة ، وياويل من لا يعرفها . وعليك أن تلاحظ أن للوقت في أوربا ثمناً غالياً أكثر من بلاد الشرق ، فاذا أعطاك الغربي من وقته ساعة فكأنما أعطاك الشرقي عشر ساعات .

اشتغلت في خزانة الامير ليوني كايتاني في رومية شهراً كاملاً (سنة ١٩١٣) ولما أنجزت عملي قدمت له بضع مجلدات من مجلة المقتبس هدية ، واستأذنته بالسفر إلى سويسرا ، وشكرت له فضله على قبولي للبحث في خزانته العظيمة ، فقال لي وهو مرتبك : ولِمَ هذه السرعة في سفرك ؟ أرجئ هذا لأيام أخر ، فقلت له : قد ضاق صدري في رومية من عدم فهم اللغة الايطالية ، وإن كان الخاصة كلهم يكلمونني بالفرنسية وكذلك في النزل فان الكلام فيه بالفرنسية أيضاً على المائدة ، لأن نزلاءه من أجناس مختلفين من أهل الأرض ، ومع هذا فأنا مستوحش وأريد أن أسمع كلام الشعب ، ولا يتيسر لي ذلك إلا في سويسرا الفرنسية ، وفيها أنوي أن استريح شهراً ، وهذا غير ميسور لي هنا ، وأنا من الصعب عليّ أن أتعلم لغة في برهة قصيرة ، مع سهولة تعلم الايطالية على من يحسن الفرنسية . وربما كان سبب ارتباك الأمير لما استأذنته كونه ذكر حالاً أنه لم يدعني إلى داره ، ولا عرّفني إلى أهل بيته ولا إلى أصحابه ، وقد قضيت معه ثلاثين يوماً ، وأيقن أن هذا مناف للعُرف ، وهو يعرف حفاوة الشرقيين بالغربيين في بلادهم . وقد كتب لي إلى سويسرا يدعونني ثانية أن أعود لانجاز عملي ، ويقول إن وجودي عنده يحدث له سروراً عظيماً . وقال لي احد أصحابي الايطاليين إن الأمير ذكرني في احد كتبه بخير . ولما نشروا

قائمة خزانته التي أهداها لمجمع لنشاي العلمي في رومية قدموا لها المقالة التي كتبتها في الأمير بالعربية وترجموها إلى الايطالية .

كان الامير خلال مقامي عنده مشغول الفكر أكثر الايام بانتخابات مجلس النواب . سألني نائب (رافنا) في جنوبي ايطاليا ، وكان نازلاً معي في منزلي ، عما أعمل في رومية ، فقلت له : إني أبحث عن مواد تاريخية حفظت في خزانة الامير كايتاني صورها الشمسية ، فعجب لمعرفتي به ، ولاحتواء خزانته على هذه المجموعة ، وقال لي ابلغه سلامي ، وذكر لي اشارة يعرفها الامير وقعت في المجلس النيابي ، ثم قال : إن الامير اليوم يحاول ان يعاد انتخابه في هذه الدورة نائباً في مجلس النواب ، وما إخاله ينجح ، فهو منكم ويغار عليكم ، اي أن عواطفه مع الشرق والعرب . وقال : إنه خطب في مجلس النواب وذكر ان ما اقدمت عليه ايطاليا في الاستيلاء على طرابلس وبرقة لا يليق بامة كانت مبعث النهضة في العالم ، وأن الاعتداء على شعب آمن مطمئن في أرضه بلا مسوغ شرعي أشبه بعمل قرصان بحرٍ منه بعمل دولة شريفة . قال : وما اكتفى بذلك بل كتب في الصحف الايطالية والأجنبية يقبح عمل الحكومة ، فما اظنه يفلح في الانتخابات هذه المرة ، وكان الامر كما قال . أخفق السيد كايتاني مع انه أنفق في هذه السبيل عشرين الف جنيه ذهباً ، وأنفق منافسه خمسة وثلاثين الف جنيه فاحرز الأكثرية وتغلب عليه .

ولقد شهدت الامير مدة الانتخابات يتغيب عن مكتبه في الصباح ساعة أو ساعتين ، وكان من قبل يواصل النهار وزُلَفاً من الليل في عمله ، فسألت أحد أمناء سره السنيور جويدي الصغير (ميكل انجلو) عما يشغل بال الأمير هذه الأيام فقال : مسألة تجديد انتخابه عضواً فى مجلس النواب ، فقلت له : قل له أرجو ألا ينجح في الانتخابات ، فان عند ايطاليا مئات يصلحون للنيابة عن امتهم ، وليس عندها غير واحد من عيار كايتاني في علم المشرقيات ، والنيابة لا تشرفه كما تشرفه تآليفه واعماله العلمية ، والأجدر

به ان ينصرف إلى ما اشتهر به . وقال لي جويدي بعد أيام : لقد استجيبت دعوتك ، إن الأمير لم ينجح في الانتخابات .

كان الأمير ينفق في السنة على العلم فقط عشرة آلاف جنيه ، وكان غنياً جداً يقدرون ثروته يومئذ بمئة مليون لير أو بخمسة ملايين جنيه ايطالي ذهباً عدا ثروة زوجته . وهذه الثروة الضخمة تبخرت كلها بعد الحرب الكبرى بفعل الايام التي لا تبقي سعيداً في سعادته ولا شقياً في شقائه ، تخفض العالي وتعلي من سفل .

قلت إن الامير كايتاني وهب خزانة كتبه لأحد مجامع ايطاليا العلمية ، وقد رأيت أحد علماء المشرقيات في اسبانيا الاستاذ ريبرا عزّ عليه ان تتفرق كتبه بعد وفاته ، فأوصى بها لتلميذه الاب آسين بلاسيوس ، على أن يشتغل بها طول حياته ، ويفتح بابها لطلاب الاستشراق ، ثم يتركها لمن يرى فيه الكفاءة للاستعانة بها بعده . فان لم يظفر به يجعلها في أحد دور الكتب العامة في اسبانيا . وفي هذه الخزانة جزازات السيد ريبرا في تراجم ثلاثين الف عالم من علماء العرب وأدبائهم في الأندلس وهي من الاعمال العظيمة في خدمة المدنية الاسلامية ، وتاريخ المسلمين في الاندلس خاصة .

وباهداء العلماء مجموعاتهم في الغرب إلى دور الكتب العامة اغتنت خزائنهم ، فتجاوزت في الامم الكبرى أعداد الكتب في خزائن عواصمهم البضعة الملايين . وللخزائن الكبرى والصغرى قوائم وسجلات تستطيع أن تجد فيها ما تميل للكشف عنه في دقائق قليلة ، وأكثرها من حيث الانتفاع بالسرعة العجيبة خزائن المانيا فيما رأيت . والالمان مشهورون بتدقيقهم ، ومعرفة استخراج الفوائد ، والانتفاع من كل مادة الانتفاع المطلوب ، وعلماؤهم من أكثر الامم اشتغالاً ودؤوباً ، وصفهم بذلك مدام دي ستال الأديبة الفرنسية العظيمة في كتابها (المانيا) وقالت إن علماء شمالي المانيا — في القرن الماضي — يشتغلون ست عشرة ساعة في اليوم . وكنت في أكسفورد في مؤتمر المستشرقين (١٩٢٨) أسمع المنادي ينادي مستشرقي كل أمة لمقابلة

نائب الملك ، فلما نادى جرمانيا جاء نحو ثلاثين مستشرقاً ، وكنت أسامر صديقي العلامة ڤران الفرنسي فقال لي وقد هاله ما رأى من انحناء قاماتهم : أرأيت انحناء ظهورهم إنه ليس من طول السنين بل هو من كثرة الاشتغال .

رأيت روح الجماعة والاجتماع ترفرف على كل شيء في الغرب ، لذلك تمّ لبعض الأمم الفقيرة بالقليل الذي جمعته واحسنت استخدامه اعمال يستحيل على الأفراد ان ينجزوها ، ضاهت بها ما تم في الممالك الكبرى . قلت لترجماني في لندرا : اجتهد أن نتناول طعام الظهر وطعام المساء كل مرة في مطعم جديد حتى نرى مختلف المطاعم والترتيبات فيها . وبعد يومين قلت له : كأنك نسيت أن تنوع لي المطاعم ؟ وأراك لم تصحبني إلا إلى مطعم واحد فقال : إنا لم ندخل إلى مطعم دخلناه من قبل ، فقلت : وهل انشئت المطاعم التي دخلناها كلها على طراز واحد . قال نعم ، هذه شركة رأس مالها ثلاثون مليون جنيه أسست في لندرا سبعين مطعماً كلها من طراز واحد وذات ثلاث طبقات ، فعجبت لهذه المشاريع الضخمة التي تنم عن غنى القوم وثقة بعضهم ببعض .

أجمل ما كان يطربني في اوربا بلاد الريف ونشاط الفلاحين فيها ، وما فيها من عناية ظاهرة وما هناك من غابات وحقول ومزارع ومباقل ليس لنا مثلها في الشرق . وأكثر الاصقاع الاوربية لا فرق فيها بين المدن والقرى إلا اسبانية ، فان الفرق فيها ظاهر بين الريف والمدن ، والغالب ان اسبانيا كمصر اكتفت ببذل العناية بالمدن وغفلت عن القرى ، فجاء الفرق واضحاً بين المدنيين والريفيين . العصور الوسطى جار حكمها إلى اليوم في مصر وأسبانيا وكذلك القرن العشرون بما فيه من رفاهية .

ظاهرة غريبة تمثل لعينيك في بلاد الانكليز وهي انك تدفع الحلوان (البخشيش) في المطاعم والفنادق لا إلى يد من تريد اكرامه من الخدمة والخادمات ، بل تجعله تحت طبق الأكل فيجيء الخادم او الخادمة الموكل بذاك الحلوان يلتقطه في سرّ بعد ذهابك ، وهو يرفع الأطباق والصحاف

والكؤوس المستعملة . وإذا دفعت حلواناً لأحد غلمان الفندق او اعطيت الحمال او الحوذي او اياً كان من اصحاب هذه الحرف دراهم لا ينظر فيها ويضعها في جيبه ولا يزيدك على كلمة شكر ، وانت بالطبع تعرف واجبك فتعطيه ما يجب ان يعطى . وفي المانيا ينادون غلام القهوة او المطعم او الحانة بيا سيدي الخادم (هراوقا) مبالغة في الاحترام كما يبالغ الانكليزي فيختم كتابه بقوله « عبدك الخاضع » وقد يكون في كتابه ما فيه .

اما في فرنسا فقد يهينك غلام المطعم او غيره من ارباب هذه الحرف إذا استقلّ ما اديته له ، وقد يساومك على المقدار الذي يستطيع ان يستخلصه من جيبك . وليس في طول فرنسا وعرضها شيء يقضى بغير هبة ، واهل هذه الطبقة لا رواتب لهم في المحال التي يعملون فيها كالفنادق والمطاعم والمقاهي والحانات ، وربما قاسمهم من يستخدمونهم ارباحهم ، ويزيد ما ينفق في هذه السبيل عشرة في المئة . وانت لا تأمن سماع كلام قاس ، إلا إذا كنت في مطعم او فندق يزيد على القائمة نفقة الخدمة عشرة في المئة فيريح قلبك . وكثيراً ما كنت ادفع الحلوان سلفاً في البواخر والفنادق حتى انصح وعند مغادرتي المحل ادفع ايضاً ما تيسر ورأيت البلدان الانكليزية السكسونية في هذا المعنى اقرب إلى المعقول من الممالك اللاتينية .

ومن القواعد الشاقة في الفنادق الكبرى والبواخر الغنية أنك تضطر الى أن تلبس في الظهر كسوة غير كسوة العشاء مراعياً فيها قواعد الأزياء الرسمية . وهذا التشدد على اتمه في بريطانيا وفي بواخرها . ويتشددون كذلك في جميع السهرات والمجتمعات . ومن دور التمثيل كالاوبرا في باريز ما اذا كانت كسوتك لا تناسب مصطلحهم وأنت في الدرجة الاولى ، يخرجونك من محلك ، ولو كنت حاصلاً على تذكرة دخولك من قبل ، واذا جئتهم بكسوة عادية تطلب مكاناً رفيعاً يأبون عليك ذلك ولا يدخلونك . والحاصل فان تشدد الاوربيين في الرسميات مما يصعب على الشرقي الخضوع له وتطبيق برامجه المعقدة . والشرقي الذي عاش في الفوضى مضطر في الغرب الى ان ينفق جزءاً من وقته ليساير الأزياء .

والحشمة في الظاهر غالبة في بريطانيا العظمى والحكومة لا تعترف رسمياً بوجود أماكن الفحش ، والحرية في الديار اللاتينية أوسع ويباح كل محرم إذا بعد عن الانظار بحسب ما رسمته القوانين . الانكليزي يتستر ويبالغ في التستر أكثر من غيره من الأمم والحياء يغلب عليه ، وقد يفتح اللاتيني معك حديثاً إذا ابتسمت له وكلمته ، وربما مازحك وتوسع معك في القول ، وربما مازحك وسخر منك . . وهذا لا تراه في الأرض الانكليزية ، وإن كانت الدعابة تغلب عليهم كما تغلب على سائر اجناس البشر .

لكل امة في الغرب مصطلح ، قد تخالف فيه جارتها تخالفاً لا يدرك مداه إلا الذي يطيل المقام بينهم ، وللحرارة والبرودة ، والبعد من سمت الشمال والقرب من الجنوب دخل كبير في تكوين الرجال والنساء ، فالشابة في بلاد الانكليز لا تبلغ الحلم قبل الثامنة عشرة على حين ترى في جنوبي إيطاليا جدّة لا تتجاوز سنها الخامسة والعشرين ، ولا يختلف الهواء بين جنوبي جزائر بريطانيا وشمالها ، والمسافة لا تقل عن ثمانمائة كيلومتر . ورأيت شمالي فرنسا والمانيا وايطاليا أرقى من جنوبها ، وجنوب اسبانيا أرقى من شمالها . وشاهدت البلاد البروتستانتية أرقى من الاصقاع الكاثوليكية ، كما هو ماثل للعيان في سويسرا ، وأيقنت أن الامم الأوربية كلها لا تعرف الشرق والاسلام والعرب معرفة حقيقية ، وقد استأثر بهذه المعرفة علماء المشرقيات في كل امة وقليل ما هم .



علماء المشرقيات والاسلام

أشرت في الفصل السابق إلى أثر بعض علماء المشرقيات من أهل الغرب في التقريب بين الشرق والغرب . وكنت كلما مدحتهم أمام جماعتنا ، يتأففون من سماع كلامي ، لأنهم من الصنف الذي لا يعمل ، ولا يحب أن يعترف لأحد بأنه يعمل . وقد رأيت أن أنشر هنا مقالتين في هـذا الباب كنت نشرتهما في جريدة (البلاغ) المصرية [1] قلت :

بدأ علماء المشرقيات بطبع كتب العرب والاسلام يوم اخترعت الطباعة في الغرب خلال القرن السادس عشر من الميلاد ، وما زالوا يبالغون بالعناية فيما يطبعون ، ويقربون مناله على الباحثين بمـا يعارضون عليه الكتب من النسخ ، ويُحلونها به من الفهارس ، وقـد طبعوا من هذا التراث العظيم إلى الآن ما تتألف منه خزانة عظيمة في مختلف العلوم والفنون ولولا عنايتهم لبقيت أمهات كثيرة من كتب السلف مهملة لا ينتفع بهـا ، ولعميت علينا أسرار عظيمة من كنوز مدنيتنا .

أما الشرق الاسلامي فلم يشرع بطبع كتبه إلا بعـد قرنين ، من هذا التاريخ . وقلما جُوّد الطبع ، وعُني بالتصحيح والتعليق ، ووضع الفهرستات ، ذلك لأن معظم من عانوا هذه الصناعة صناعة الطبع والنشر كان قصدهم الربح لا الخدمة العلمية ، خلافاً لعلماء المشرقيات من الغربيين ، فانهم يتوخون بطبع كتبنا الفائدة العلمية قبل كل شيء .

---

(١) راجع بحثنا المطول (أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية) في المجلد السابع من مجلة المجمع العلمي العربي .

كنا على عروبتنا نخلط ونرتكب الفاحش من الأغلاط ، وكانوا على عجمتهم يجيدون ويجودون ، وما خلونا مع ذلك من دعوى عريضة ، وظلوا هم على تواضعهم ، يزيدون ما ينشرون تجويداً الحقبة بعد الحقبة . وجدنا فلم نتقدم إلا قليلاً .

في مصر اليوم اكثر من مائتي مطبعة ، وفيها ألوف من الدارسين والعالمين ، ومصر تبيع مطبوعاتها من العالم الاسلامي ، ومع هذا ما زلنا نتوقع عناية علماء المشرقيات بنشر ما حوت خزائن الشرق والغرب من أسفارنا ، ننتظر ما ينشرون ، ولا تحفزنا الهمة إلى تناول ما تناولوا وتقليدهم فيه ، وهم الغرباء عن هذا اللسان ، والدخلاء على هذه المدنية . ولو قدر فقط لعلماء الأزهر ودار العلوم منذ خمسين سنة أن يختص كل واحد منهم بنشر شيء من مخلفات علماء الاسلام لما بقيت الوف منها ، لو طبعت لغيرت من طرق تفكيرنا ، وأجزلت مادتنا من البحث والنظر .

نحن لو رزقنا جانباً من همم المستشرقين ودؤوبهم ما احمرت وجوهنا خجلاً عند ارادة التنظير بين ما يفعل الغريب بمال غيره ، وما يفعل القريب بمجده وتراثه . وفي الحق إن من شهد بروح الاخلاص بما قمنا به في هذه السبيل ، وقابله بما تم على أيدي اولئك الأعاجم ، لا يسعه إلا أن يبالغ في الثناء على ما بذلوه من خدمة العلوم والآداب ، فأحيوا ما كان مدفوناً ، وعرفونا بما كان عندنا مجهولا ، فخدمونا بالعرض وخدموا العلم بالذات ، جزاهم الله عنه خيراً .

أمامي الآن مجموعة من أمهات كتبنا القديمة في الدين والتاريخ واللغة ، نشرها مؤخراً ثلاثة من علماء المشرقيات من الألمان . الأول كتاب (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) لأبي الحسن الأشعري جامع مذهب أهل السنة ، نشره في مجلدين العلامة ريتر وهو اليوم ينشر (الوافي بالوفيات) للصفدي . ونشر العلامة برتزل كتاب (التيسير) في القراءات السبع و(المقنع) في رسم مصاحف الأمصار وكلاهما للداني المتوفى ٤٤٤ وقد أتم

في مصر طبع كتاب (طبقات القراء) لابن الجزري في مجلدين وكان بدأ بطبعه العلامة برجسترازر ، فلما مات أتم تلميذه ما بدأ به الاستاذ .

ونشر العلامة كرينكو (جمهرة اللغة) لابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهرسته في مجلد ضخم ، و (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) لابن حجَر العسقلاني في اربعة مجلدات ، وكتاب (التيجان) لوهب بن منبه ، و (أخبار عبيد بن شرية) و (حماسة ابن الشجري) ويطبع ويصحح كتاب اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه والمجلدات الثلاثة الأخيرة من (التاريخ المنتظم) لابن الجوزي وطبع معجم الشعراء للمرزباني و (المؤتلف والمختلف) للآمدي وكتاب (نحاة البصرة) للسيرافي وكتاب (الجماهر في معرفة الجواهر) لابي الريحان البيروني إلى غير ذلك مما يطبعه من كتبنا في الهند ومصر والشام والجزائر . وهو يحذق العربية ، كعلمها كالفارسية والهندية بدون استاذ ، عدا ما يعرفه من لغات اوربا ، فكأن هذا الكامل العامل مجمع علمي برأسه .

هذا مثال من عناية الغربيين بالعلوم الاسلامية ، وتفانيهم في نشر أصولها وفروعها ، ولو اردنا ان نمثل لذلك بامثلة أخرى ما عزّ على الباحث ايجادها ، فهل بلغنا مساماة أولئك الجهابذة الأعلام ، أو وصلنا إلى نصفهم أو ربعهم ؟ ونحن اصحاب البيت زهدنا فيه وبما فيه ، فانتقل إلى من حرص على بقائه والانتفاع بما حواه ، فنظمه على أحسن نظام وترتيب ، ووقاه العوادي والبوائق .

عنيت أمم اوربا بلغتنا حتى فنلندا والسويد والنروج ، وبذلت جهوداً غير قليلة لنشر آدابنا وعلومنا ، ونحن متناومون عما نسمع ونرى ، كأن الامر لا يعنينا . ولئن كان لنا بعض العذر في الماضي لتخلفنا في ميدان الثقافة ، لما عذرنا اليوم وقد تمثلنا كثيراً من طرائق القوم وأساليبهم ، وجاريناهم في كثير من مظاهرهم ، ولكننا على ما يظهر لم نحسن تقليدهم في تسلسل افكارهم ونشاطهم ، ورعايتهم للنظام ، وولوعهم بالترتيب . وقصارى الرجل منا أن يوسع عليه في الرزق فاذا نال ما تطمع فيه نفسه فكأنه حاز السعادتين .

قال لي أمس عظيم من عظماء مصر « إن الطلبة الذين خرجهم محمد علي في مدارس الغرب قد انتجوا انتاجاً نافعاً للعلم ، مع أنه ما كان يدرّ عليهم في اليوم غير ثلاثة قروش ، اختارهم من النابهين من طلبة الازهر اذ ذاك ، وأدار شؤونهم وهم في باريز ومصر ادارة عسكرية فأفلحوا وافادوا . وأن الأزهر لما كان العالم فيه يتبلغ براتب لا يتجاوز في الشهر ثلاث جنيهات أو أربعة او خمسة كان يفيد المسلمين اكثر من العهد الذي زيدت فيه الرواتب حتى أصبح الاستاذ يتقاضى ثلاثين جنيهاً او اربعين او خمسين ، وان المدرّس بهذه التوسعة عليه انصرفت همته إلى رفاهيته ، وكانت من قبل مصروفة إلى الافادة والاستفادة » .

في هذا القول كثير من الحق لا يسع المنصف إلا اقراره . وسر هذا الوناء استحكام داء التوظف في الدينيين والدنياويين ، سرى إلى من وكل الله اليهم أمر دينه وخدمة شريعته ، وكان المأمول أن تبعد بهم مواهبهم الكسبية واللدنية إلى مدى أرفع من المنافسة على المناصب ، والطمع في تسلق المراتب ، وأن يجعلوا لهم غاية نافعة غير المادة يتوجهون اليها بعقولهم وقلوبهم ، وكان بعض الطلبة من العرب اليوم ، على استمتاعهم بحرياتهم والتوسعة عليهم في ادراراتهم ، لا يطمعون في غير احراز شهاداتهم ، حتى اذا حازوها كان التوظف في دواوين الحكومة ومقاصير القضاء أقصى ما تطمع فيه نفوسهم ، لاعتقادهم أن الموظف يعيش آمناً مطمئناً في حياته ومماته ، فاذا تم لهم ما أرادوا لووا وجوههم عن المقاصد العالية ، وما لهم ولها بل ما لها ولهم ، وهم قد بلغوا ما تطالوا اليه من رفيع الدرجات .

كلما قلنا لأساتذتنا الدينيين والمدنيين إن علماء الغرب ممن يخدمون العلم أجل خدمة هم من طبقة الفقراء المفلوكين ، قالوا ونحن أيضاً صعاليك مفاليس ليس لنا مال يساعدنا على اتمام امر ، ولا حكومات تعطف على ما نتوفر على اخراجه ، ولا جمعيات منظمة لضم شملنا وترعانا ، كلام من يقر على نفسه بالعجز المطلق ، وحجاج من ماتت فيهم الهمم فاعتذروا عن

كسلهم وتقصيرهم اعتذاراً لا يؤيده الحق . هـذا ونهضة الغرب ما قامت لأول عهدها إلا بأيدي ابنائه لا بأيدي حكوماته ، وأبناؤه هم الذين أكرهوا ساداتهم وكبراءهم على السير في طريق سعادتهم ، فانشأ الافراد الصالحون الحكومات الصالحة .

أظننا لم نشهد رجلاً جود شيئاً ولم يظفر بمن يعاونه على تحقيقه . وشهدنا من قعدت بهم الهمة عن اتمام عمل جدي ينتظرون أن تضمن لهم منه الماديات من أول يوم ومن يعتقد منا أن كل عالم أو أديب أو مخترع أو مكتشف في الغرب ينال كل رعاية منذ اليوم الذي يتكوّن فيه عمله تكوّن الجنين في بطن امه ، وأنهم كلهم من أصحاب الالوف وعشرات الالوف فهو مغالط لنفسه ولامته . فما كل حرفة في الغرب تغني صاحبها ، ولولا الغرام بالمعنويات لحسن الذكر والاثر ، وعظيم الاجر والفخر ، ما قام دين ولا صلحت دنيا . ولولا هذه العوامل ما بهرتنا هذه المدنية الحديثة وغزتنا بكل ما فيها من قوة وابداع ، ونحن عما يصلح لنا منها غافلون .

لولا تفضيل المعنويات على كل أمر ما قام علماء الاسلام في الدهر الغابر بما عقمت الايام عن تحقيق عشر معشاره اليوم على أيدي من خلفوهم . وقرأنا سيرة أئمة المسلمين فما رأينا الموسع عليه منهم غير أفراد في كل عصر ، وأيقنا أن الاصل في جماعتهم الفقر . وهذا لم يمنع العاملين منهم من الضرب بسهم وافر في كل ماعانوه من أدب وعلم .

ليت شعري ما ذا أصاب هـذه الامة ، وهواؤها هواؤها ، وسماؤها سماؤها ، وأرضها مازالت تلك الارض التي سار على أديمها الآباء والجدود ، ونحن نرى اليوم أدوات العلم والعمل موفورة ، والعلماء غير مقتر عليهم كما كانوا في سالف الاعصر ، يستمتعون بحريتهم ، والعبر تأتيهم تترى فيعتذرون عن القصور والاتكال بما لا يقبله المنطق ولا يقره العقل .

ألفنا أن نتوقع كل خير من الحكومات تضمن لنا مقدماته ونتائجه . ومن هي الحكومات حتى نعتصم بها ونجعلها معقد آمالنا في كل شيء ؟ للحكومات

فروض غير التي نتطلبها منها ، إن هي أحسنت القيام عليها فليس من الانصاف أن نتقاضاها غيرها . الحكومات لا يتطلب منها غير احقاق الحق ، والقاء السلام ، وضمان حريات الناس ، وما عدا ذلك فهي ان لم تر من مصلحتها التنشيط فلا يسعها التثبيط .

الحكومات منا ولنا ، فهل سمعتم بحكومة قام فيها عقلاء من بنيها ، وتذرعوا للقيام بمشروع مفيد فحالت بقوتها دون انبعاثه ؟ هل حاربت حكومة أولئك الافذاذ من رجالنا لما أجمعوا على تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية العروة الوثقى وبنك مصر ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومشروع القرش وغير ذلك من المشاريع العلمية والاقتصادية والصناعية ، أم شهدناها تأخذ بأيدي القائمين عليها ، وتفاخر بهم لما أثمرت جهودهم .

لا أحد يضمن لأحد في هذا الكون نجاحه ، وما وقف مشروع قط إلا بضعف في تراكيبه ، وخور في عزيمة القائم به ، وليس في مقدور أحد أن يشغل مكان غيره ، يستصفيه هيناً ليناً ، ويتصدر فيه من دون صاحبه إن لم تؤهله له نفسه ، والعاقل العاقل يشق أبداً بذاته طريق نجاحه ، ولا يعتمد على غير جهده وكده .

انظروا قليلاً في سيرة نوابغ مصر لعهدنا هل ترونهم توقفوا في أول أمرهم على احد ، أم ذللوا بأنفسهم لأنفسهم ما اعترض سبيلهم من العقبات ، وراحوا ينسجون بأيديهم أسلاك مجدهم ، وينشؤون بدؤوبهم صرح سعادتهم ، حتى إذا تمت ادوات الفضل فيهم ، صفقت لهم أمتهم وهللت ، ومضت تمشي وراءهم طائعة مختارة .

قل للعالم الازهري ، إن ما يتطلبه منك دينك ومجتمعك كثير ، وعليك وحدك تبعة عملك . وقل للعالم المدني إن اكتفاءك بأخذ المناصب وتوقع الترقية في مصالح الحكومة صنيع من سقطت هممهم ، وأمتك ترجو منك أكثر مما تقوم به ، وقل لمن يتعلمون ، لو تعلمتم العلم للعلم ، وآمنتم أن العلم يقصد لنفعه ولذته ، وقمتم بواجبكم من دون جلبة ، لحمل اليكم علمكم شيئاً من الماديات

أيضاً . أما أنتم فكونوا على مثل اليقين أنكم مضمون لكم العيش إن عَلِمْتم وَعلَّمتم وَعمِلتم ، ونشطتم وما ونيتم ولا تهاملتم .

قل للدينيين كم من كتاب نشرتم فحللتم به غامضاً ، وجلوتم بمضامينه حقيقة قل لهم إن العلم النظري وحده ، وحفظ الدساتير جميعاً ، لا يغنيان الغناء المطلوب إن لم يقرنا بالعمل المنتج .

قال أحدهم لشيخ الاسلام ابن تيمية إن فلاناً حفظ صحيح البخاري فأجابه : زادت نسخة اخرى في البلد . ومن الحكمة أن لا نزيد عدد النسخ من البخاري بل أن نستخرج منه ما ننتفع به وننفع .

وقل للمدنيين لو فكر كل واحد منكم في موضوعه حق التفكير ، وخدم صنعته ما وسعته الخدمة ، ونشر للناس تحقيقاته ومبتدعاته ، لأصبحت الخزانة العربية في جيل واحد غنية بمطالبكم وأبحاثكم ودراساتكم ، واستغنى قومنا في الآداب والفنون عن الكتب الاجنبية .

داء الشرق الاتكال ، وداء الشرق قلة الاحتفال بالكفاءات الموجودة ، وداء الشرق إهمال التنظيم وعصيان القانون ، وداء الشرق قلة الدؤوب والملل من الاتقان . فهل نصحح نياتنا على معالجة هذه الأدواء لنستوي امة رشيدة يكون لها الحق في الحياة على اختلاف مظاهرها ، وهل نتعلم أن البكاء لا يجدي ، وأن التمجد بالباطل لا ينتج ، وان العظمة الحقيقية بممارسة العمل .

مع مواطنينا

كان المستخدمون من النصارى في الحكومة على العهد العثماني قليلاً عددهم فى الشام ، فلما خرجت من حكم العثمانيين أخذوا يتقلدون اعمال القضاء والادارة والمعارف والامن العام والاشغال وغير ذلك . وكان منهم وزراء العدل في بعض السنين ، ووزير العدل يعين قضاة الشرع ! وقد كثر اليوم عددهم في الدواوين بالنسبة لنفوسهم ، يدخلون منها الصالح وغير الصالح ، وقد يغض الطرف عن السارق المرتشي منهم أكثر مما يغض عمن كان مثله من المسلمين ، ويتسامح مع من تقل مؤهلاتهم في التعيين ، على مالا يجد مثله غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى .

ألفت الحكومة فى الحرب الأخيرة مجلساً للميرة فكان رؤساؤه ومرؤوسوه من النصارى ، فزار احد الظرفاء مكاتبه في دار الحكومة ، فلما وقع نظره على المستخدمين قال هذه بيعة للنصارى لا ينقصها إلا ناقوس . وقال أحد المفكرين من رجال السياسة لأحد أرباب السلطة العليا أن تسعة وتسعين وثلاثة أرباع ممن ينتج الحنطة في سورية هم من أهل الاسلام أفما كان من الانصاف أن تنصبوا عضواً واحداً منهم في مجلس الميرة مع مواطنيهم النصارى ، وذلك نزولا على اعتبارات ما زلتم أنتم تراعونها ؟ وقد جرت عادة كبار النصارى إذا وسد اليهم أمر من أمور الحكم ألا يصطنعوا غير أبناء مذهبهم ، يستكثرون من استخدامهم في مختلف درجات الأعمال ولا يعينون المسلم إلا كارهين . قال أحد أعيان الكاثوليك وهو يمدح بعض رجال الانتداب ومنهم كبار الضباط وأنا أوافقه على حديثه ولكن هنالك عشرات من المستخدمين منا ينفق الواحد منهم خمسة أضعاف راتبه ومنهم الذين يكتبون تراجم الناس في جزازات ، فهؤلاء ليس من مصلحتهم أن يدلوا على أرباب الشرف

والنزاهة وسمى أناساً من تجار المسلمين من أهل الخير والمروءة .

والغالب أن دولتي الانتداب في الشام لم تريا من مصلحتها إلا الاعتماد على غير المسلمين في الادارة فقد قيل لي ان احصاء الموظفين في فلسطين هكذا : ٦٠ في المئة من المسيحيين (وهم لا يتجاوزون مئة وخمسين ألفاً) و ٣٠ من المسلمين و ١٠ من اليهود وأما حكومتنا الانتداب في سورية ولبنان فما اعتمدت إلا على المسيحيين في الترجمة وأغرقت الدوائر بسوادهم في لبنان وإلى اليوم تحاول اغراق دواوين الشام بهم .

وحدث مرة أن جاء ضابط افرنسي يستلم قلعة دمشق ، فاستلم معها السجناء ، وعرضت عليه قوائم بأسماء المحبوسين بمسائل سرقات واختلاسات ، فسأل عنهم ، فأجيب هؤلاء المفلسون وأكلة أموال الدولة . فقال : أف ما أقل الأمانة في هذه الدولة ، وعرَّض بالمسلمين ، فقال له كاتب جريدة الأسماء : ولكن يا سيدي ان معظم الموقوفين غير مسلمين ، فبهت الضابط وقال : هذا يؤيد ما كان يقال لنا في أوربا من أن أخلاق المسلمين في الشام أرقى من أخلاق غيرهم من الطوائف .

وبعد فان انصراف المتعلمين من النصارى في سورية ولبنان وفلسطين إلى التوظف مبدأ فقرهم ، وان ارتاشوا بحسب ما يظهر الآن . وقد كانوا في متاجرهم وصناعاتهم أسعد حالاً ، والموظف مهما كانت درجته لا يخرج عن كونه عبداً بأجر زهيد يفنى في غيره ، وتضمحل ارادته ويموت فقيراً معدماً ، الا من نهب وسلب .

كان المسيحيون يتعلمون الفرنسية لتعاطي التجارة والصناعات الحرة ، فلما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان كانت الفرنسية لهم أداة التوظف في مختلف الدوائر ، على نحو ما أصبحت الانكليزية في فلسطين . كتب إليَّ الاستاذ فارس الخوري من حيفا أول الاحتلال الانكليزي يقول : « اللسان الرسمي في هذا الاقليم هو لسان الدولة المحتلة ، ولذلك أصبح لا يليق بالوظائف الا من كان عارفاً بهذا اللسان ، فاقتحمها غلمان المدارس

وتراجمة السياح ، واحتلوا القسم الأعظم منها ، وناهيك بخبرتهم وتجربتهم وأخلاقهم دليلاً على مجرى الادارة والعقل الذي يرافق الأعمال » . ومثل هذا يقال في بعض من تعلموا الفرنسية واستخدمتهم حكومة الانتداب في لبنان وسورية .

يحاول النصارى في هذه الديار أن يكونوا ، كما كان المسلمون فيها على العهد التركي ، لا ارتباط لهم إلا بالدولة القائمة ، وكان من الثقة التي وضعتها فيهم حكومتا الانتداب أن اغتنوا بعض الشيء فتوفروا على تعليم أولادهم ، وبنوا القصور ، وعمروا المزارع هذا ما كان من حالهم ومعايشهم ، أما إذا وقع حدث عظيم فانهم ينحازون ابداً إلى الفريق الذي فيه أهل دينهم ، وإذا جاء دور المغانم تقدموا فأخذوا حصصهم ، وقد يطلبون زيادة على حقهم ، يدعي المسلمون إلى الكريهة وهم يدعون إلى السعادة ، وانهم لمهرة فيما ينفعهم واتقاء ما يضرهم ، ولا شك أنهم سبقوا المسلمين إلى التعلم والتمدن ومنهم كثير من أهل الفضل والعقل الراجح ، وقل مع هذا أن رأينا من قام يناصر المسلمين في مطالبهم الوطنية اللهم الا أفراداً يعدون على الأصابع ويتحركون في دائرة معينة لا يغامرون البتة ، فاذا زال الخطر تقدموا أول المتقدمين يطالبون بحقوقهم المغصوبة ، ولم نر في الثورتين الفلسطينية والسورية منهم سوى أفراد قلائل جداً اشتركوا فيها بالفعل ، وتولى المسلمون كِبْرَ الثورتين وقتلوا بالمئات والألوف .

في اليوم الذي انهزمت فيه فرنسا أمام ألمانيا في النصف الأول من شهر حزيران سنه ١٩٤٠ نسيت الطوائف البابوية وفي مقدمتهم الموارنة أفضال فرنسا عليها منذ اجيال وراح بعض رجال الدين منهم يفاوضون ايطاليا لتكون القيمة عليهم ، فدهش الفرنسيون لهذا التبدل الفجائي يأتيه من حَموهم وعَدّوهم حزبهم الصادق في الديار الشامية . أرادوا أن يبدلوا السيد الكاثوليكي بسيد كاثوليكي آخر . عجب الفرنسيون لهذا وزاد عجبهم ان رأوا المسلمين على اختلاف طوائفهم يشاطرونهم مصابهم ويخففون من

آلامهم وشهدوا أناساً كانوا بالظاهر من المنحرفين عنهم ، وربما كانوا من المضطهدين منهم ، يجيئونهم يوم محنتهم ويواسونهم ويأسفون لما حل بأمتهم . وقد ادرك بعض المنتدبين أنهم كانوا مخطئين في حكمهم على المسلمين وأنهم باعتمادهم في الأخبار على التراجمة أضلوا الصواب وكانوا على غير هدى منذ ملأوا الوظائف بغير الكفاة من غير المسلمين ولا سيما في المعارف والجمارك والبريد والامن العام حتى لقد حاول بعض الأغمار منهم أن يستأثروا بالوظائف في دواوين كثيرة ايجعلوها كدواوين المالية في مصر وقفاً على الأقباط .

رأيت علائق النصارى مع اخوانهم المسلمين منذ نحو خمسين سنة اقرب إلى الاخاء والصفاء من اليوم ، فان توهم بعضهم أنه صار لهم عزة وقوة حرك فيهم نزغات غريبة ما كانت تظهر من قبل ، كتب غوستاف لبون الفيلسوف إلى احد رجال الاسلام يعتذر بأن التربية التي يلقنها الكاثوليك خاصة لا يتأتى منها الا ان تخرج أناسا يكرهون المسلمين . وإذا كان بعض أهل الذمة يذكرون شيئاً من العبث بحقوقهم على العهد العثماني ، فليس هذا من قانون الاسلام ولا من صنع المسلمين أبناء هذه الديار ، بل هو ممن كانوا يحكمون ولا رادّ لحكمهم أهل السياسة يومئذ ، فهم الذين كانوا يسوقون الرعاع لامتهان بعض الطوائف أحياناً ، ويزينون لبعض اذنابهم أن يعملوا على التفرقة بين أبناء الأمة الواحد . وعهدي بالنصارى والمسلمين في القرى يتحابون ويتساندون كأنهم أبناء بيت واحد ، أكثر من هذا العهد الذي قد ينظر المواطن فيه إلى مواطنه شزراً ، ويحتقره في باطنه على ما يضر بمصلحة الطائفتين .

لما اعوز القوت في لبنان أيام الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٩) منح جمال باشا قائد الجيش الرابع مقادير وافرة من الحنطة حملت إلى الجبل من الارجاء المجاورة ، فما كان من بعض المطارنة والاعيان هناك الا أن اتفقوا على اخذ نصف القمح واتجروا به لحسابهم ، وخلط النصف الآخر

بالتراب ، فأكل الفقراء منه وهلكوا . وكان ذلك برأى من بطريرك الموارنة يومئذ . وأشاعوا أن القائد تعمد اجاعة الجبل ليهلك أهله لأن أكثرهم نصارى ، ولو نفذ البطريرك تعاليم دينه لما انتظر اعانة من أحد ولباع بعض أملاك الكرسي البطريركي وصرفها في اطعام أبناء الطائفة ، وأملاكه تستغرق ربع لبنان ، وبذلك كان يتيسر له أن ينجد قومه زمن العسرة ، ولو كانت الرحمة وجدت طريقاً إلى قلبه لحذا على الاقل حذو الجامعة الاميركية في بيروت فان رئيسها السيد دودج لما نفد ما عنده من المال زمن الحرب ، وتعذر عليه جلب شيء من اميركا لاطعام الفقراء ، رهن أملاك الجامعة واستلف مالاً اطعم به البائسين والمعوزين حتى عقدت الهدنة ، وكأن الرئيس الاميركي فهم من النصرانية ما لم يفهمه منها البطريرك العربي . !

وكان بعض الملتزمين للجيش من أهل لبنان يجوزون مزج الدقيق بالرمال والرماد فانكشف أمرهم ، وحكمت عليهم الدواوين العرفية باحكام مختلفة ، وعملهم هذا لا يرضى به الاسلام ولا تقول به النصرانية . وبعض النصارى هنا على الاغلب تجار وللتجارة خلقوا فاذا صار لهم شيء من الامر عملوا فيه باخلاق التجار لا يستهدفون غير الربح ويعرفون كيف تصل ايديهم اليه .

كانت الطوائف الاسلامية كالشيعة والنصيرية والاسماعيلية والدروز اخوان الكثرة الكاثرة من أهل السنة في الشام ، وكانوا يرضون بكل ما يعطونه من حقوق ، فلما جاء الغريب انتفضوا كما انتفض العصفور بلله القطر ، وقاموا يطالبون بحقهم المزعوم ويذكرون حوادث افرادية وقعت في الدهر الغابر ، ويقع مثلها بين أبناء الأب الواحد ، ولا يفتأون يرددون نغمة الأحقاد القديمة ، وود أصغرهم عدداً لو أسس دولة برأسها ، وأن يجعل كياناً خاصاً لبضعة الوف . وأعظم ما يعبث بعقولهم الجهل وقلة الحساب للمستقبل ، ويعرف العقلاء منهم حق المعرفة أن نار الأكثرية أحسن في العقبى من جنة غيرهم .

من غريب أمر الطوائف في المنشأ ان الكاثوليكي يبغض الارثوذكسي أكثرمما

يبغض المسلم ، ويعتقد كفره وهلاكه ، فاذا كان للباباوي مصلحة ينحاز إلى الارثوذكسي ويترك المسلم . ورأيت المسيحيين لا يتبايعون على الأغلب إلا مع أبناء دينهم ، ولا يستخدمون إلا أبناء طوائفهم ، وهذه الخلة المضرة راسخة في الأرمن أكثر من غيرهم ، ولو عاملهم المسلمون هـذه المعاملة المضحكة ، وقاطعوهم مدة لماتوا جوعاً ، واضطروا بعد حين إلى الهجرة ، ولكن سماحة الاسلام أكثر مما يصور لهم بعض قسيسيهم الذين سمعت أن من مواعظهم لابناء طوائفهم أن المسلم إذا كان مـكاً يجب على المسيحي ألا يضعه في ُعبه . وأرجو أن يكون هذا الـكلام غير صحيح .

وعهدي بالمسلم في مدينة دمشق يوصي مسيحياً بأولاده بعده ، وكذلك المسيحي مع مواطنه المسلم . وأعرف جماعة من النصارى وجل أصدقائهم من المسلمين ، وهم كأبناء أسرة واحدة ، وأعرف مسلمين لا يألفون إلا المسيحيين ولا يتعاملون إلا معهم . وما ينتقد على المسلمين وعلى المسيحيين فهو أثر عصور الظلمات ، خلقته الحكومات ونمتـه وغذته ، ثم جاءت مدارس المبشرين فأذكت نار التباغض . وكان الروم الارثوكس يميلون إلى سياسة اسلامية ، وقال لي أحد مندوبي فرنسا في دمشق : إن الروم الأرثوذكس لا يسيرون إلا معكم فهم منكم فقلت له : لنا الشرف بذلك .

وأختم هذا الفصل بقصة مضحكة وقعت لي مع رجل من المنتسبين للأدب ومن أعضاء المجمع العلمي العربي . ذلك أني تغيبت مدة في أوربا بعض السنين ، ولمـا عدت رأيته قـد قرّظ كتاب مختصر تاريخ سورية الأب لامنس اليسوعي ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، وبالغ في الثناء عليه ، وأنا أعرف من هو لامنس وما يكتب ، وما رأيه في الاسلام والعرب . فطلبت الكتاب فرأيته لم تشق أوراق صفحاته ، فقلت للمقرظ الزميل هل تعرف الفرنسية ؟ قال : لا . قلت : كيف تقرّظ كتاباً كتب بالفرنسية في مجلة جليلة الشأن كمجلة المجمع العلمي ، على حين لم تقرأ الكتاب ، ولا تحسن هذه اللغة ، ولا ترجم لك مترجم ما يحويه . فكان جوابه : أليس الأب

لامنس مشهوراً بتأليفه وعلمه ، فكتابه من الطراز الذي يصدر منه ؟.

وقرأت كتاب لامنس فكانت تمروني هزات ألم عند تلاوته ، لما أرى من غمطه حق العرب والمسلمين ، والعبث بالتاريخ والحقائق ، ولما أتممته كتبت فيه نقداً لأنشره في مجلة المجمع ، وأحببت قبل أن أدفعه للطبع أن أقرأه على بعض زملائي ، فلم يستحسنه العضوان المسيحيان ، وقالا إنه ينم عن تعصب ، أما السيد لامنس فله أن يقول فينا ما شاء ، ولا ينسب إلى التعصب ، ومن السماحة أن نسكت عما يهيننا به من أقواله ، وارتأى هذان الزميلان أن أطوي النقد ولا أنشره فأبيت . وخرجت من المجمع فاتبعني أحدهما برجل من أصحابي المستخدمين كانوا في دار الكتب . يعرض عليّ ألاّ أنشر النقد على كتاب لامنس . فقلت له : لا بد من نشره مهما كلف الحال ، فقال : إن المفوض السامي هو الذي أمر بتأليف هذه المحاضرات التي جعلها لامنس بعد ذلك كتاباً . فقلت له : إن المفوض السامي أمر أن يحاضر لامنس بتاريخ سورية ، ولم يأمره أن يطعن بالعرب والمسلمين ، ولا أن يحرف تاريخنا ويسقط رجالنا . ثم التفت إليه وقلت له : هل يستطيع المفوض السامي أن يقتلني كما كان يفعل جمال باشا مع من يغضب عليهم من أعداء الدولة ؟ قال : لا . قلت : غاية ما في الأمر أن يكتب إلى مندوبه في دمشق يقول له : أوعز إلى « كرد علي » أن يستقيل من رياسة المجمع العلمي ، فأستقيل ضاحكاً وأقبع في داري ، ولي فيها ما يشغلني أكثر من عمل المجمع وألذ وأطرب .

ونشرت نقدي ، وردّ الأب لامنس عليه رداً ضعيفاً ، وأراد أن يدخل المهاترات في مناقشته فما مكنته . وكان من نتائج هذه المناقشة أن صدر الأمر برفع الكتاب من المدارس ، وكانت النية ادخاله في المدارس الاسلامية والنصرانية . وهو كتاب إذا قرأه التلميذ المسلم ينشأ على بغض أبناء دينه ويحتقرهم ويمتهن الاسلام وإذا قرأه الطالب المسيحي يكره المسلمين والاسلام والعرب والعربية .

وبعد فأرجو ألا يحمل كلامي هذا على غير محمله من ارادة الخير لمجموع هذه الامة ، على اختلاف الملل والنحل ، وأن يعرف من لم يعرف أن الاديان جاءت للسلام ، ولطهير النفوس ، وهي متحدة في جوهرها ، فالنصرانية دين الرحمة والمحبة ، والاسلام دين العدل والاحسان . فدسّ بعض من تلقوا هذا التراث اشياء ليست من متن الدينين ولا من صُلبهما ، ووضعوا من عند انفسهم هراءً ما انزل الله به من سلطان .

اضحكتني جملة وردت في جريدة تونسية هزلية مرة ، وقد جاء دمشق رجل من ابناء تونس اسمه صالح التونسي درس في جامع الزيتونة ، وكان من التعصب على جانب عظيم ، فعزم ان يظهر علمه بالقاء درس عام في الجامع الاموي ، فأسفر درسه عن قيل وقال ، كاد يؤدي إلى تلاطم وتلاكم ، فكتبت تلك الجريدة فصلاً ، عنت له ما معناه (فساد التعليم في جامع الزيتونة احدث فتنة في دمشق) ونحن نقول من الواجب اصلاح التعليم عند النصارى والمسلمين ليخرج المتعلمون المواطنون اترابا متحابين ولئلا يؤدي فساد التعليم إلى ما لا تحمد عقباه .قرأت في تقاييدي أن سائحاً ألمانياً عاشر أهل العراق نحو عشرين سنة ، واطلع خلالها على علومهم وأحوالهم ، فألف كتاباً قال فيه إن الأمم الشرقية آخذة بالانقراض لرداءة التعليم بين أظهرها وخمود أفكار بنيها .



مع العامة

ربما خفي على كثيرين عذري في الاعراض عمن لا يستحقون صداقتي ولا عداوتي . الناس درجات في الصداقة ودرجات في المداوة . فمنهم معارف قضت حالة من الحالات أن تعرفهم فليس لك مع هؤلاء أن تزعم أو يزعمون لك أن بينكما صداقة . ومنهم من عرفتهم فراقك سمتهم ، فصحبتهم صحبة وقتية لم تدخل في الصميم . ومنهم من كانوا لك بمثابة الأخ والوالد والولد . وهكذا يقال في المداوات ، فمنها عداوة من تعرض عنه لا تحب أن تصاحبه ، ومنهم من قد تضطرك الحال اليه ، وكلاكما يكنُّ لصاحبه عداوة ، فأنتما لا تتحابان ولا تتعاديان علناً ، ومنهم من تجاهره ويجاهرك المداوة لاتبالي به ، لأن أقل ما يبيته لك مما يسوءك ، وأدنى ما يضمره ثلمك وسلبك .

كنت مرة في الشمال وعزمت أن أذهب إلى احـد الاقضيـة لافتش مدارسه ، فعرض عليَّ العامل الاكبر هنـاك أن يصحبني فقبلت . وأخذ في خلال الطريق يسألني عن رئيس الوزارة وعمله ، وعن علاقته بالسلطة وعن الوزارة وطول عمرها وقصره . أسئلة ما أظن وزيراً يُسألهـا عن وزارته ، وكنت كلما وضع سؤالاً من أسئلته أبسم ولا أجيب . وبعد أن أتم كلامه قلت له : يهمني أمر المدارس والكتاتيب قبل كل شيء ، ولا أعرف علاقة الرئيس بالمنتدبين ، ولا ما يكون منه إلا في الرسميات ، والرسميات معروفة لكل أحد ، ثم حدقت النظر فيه وكلمته بنعومة في البيان ، وخشونة في المغزى قائلاً : ظلمني من عينوني وزيراً ، لأن لي خلقاً من الصعب أن يلتئم مع حكومة من الحكومات ، أما أنت فقد خلقت لتكون مع كل حكومة ، لأنك تأخـذ أخباراً وتأتي بأخبار ، ومثلك ينفق على من عينوه أياً كانوا .

هذا الرجل من الأذكياء ، ويعرف الادارة بالنظر والعمل ولا يفسر كلامه إلا بأنه يريد أن يستدرج وزيراً أكبر منه مقاماً وتجربة ليتسقط من لسانه الأخبار ، بأسلوب يوهم أن الوزير تجوز عليه طريقته في استدراج بعض المستخدمين في ديوانه ، إذا حاول كشف مخبآتهم . ولقد كانت برقيات هذا العامل تترى في تهنئتي في الأعياد والمواسم ، فلما تركت الوزارة انقطعت تهنئاته وبرقياته ، لأنه كان يهنئ الكرسي ، ويريد دوام صداقة الكرسي ، وعلاقته بالكرسي لا بصاحب الكرسي . ومعظم من يدهنون لأرباب الدولة هم على هذه الشاكلة ، أصحاب لهم ما داموا في الكراسي ، فاذا تخلوا عنها فكأنهم لم يتعارفوا ساعة اليهم .

وتنكر ودّ المرء في لحظ عينه ولعرف عقل المرء حين تكاتبه

مضت أعوام وكنت في مأدبة حافلة فتقدم ذاك العامل يحييني ومد يده ليصافحني ، فأعرضت عنه مظهراً أني لا أعرفه ، وأحب أن يكلمني فتصاممت ، وتركت محلي ، فمدا ورائي ، وأنا لا أزيده إلا تجهماً ، فلاحظ أحد أصحابي ذلك ، وسألني لماذا أحاول الابتعاد عن هذا الرجل على هذه الصورة ، فقلت له : إنه ممن لا يحبون إلا الكرسي ، ولا يحترمون إلا الكرسي ، وذكرت له ما وقع منه معي فقال : لك الحق ، وغريب منه أن يحاول استخبارك واستدراجك .

قالوا خص بالبلاء من عرفته الناس ، بل خص بالبلاء من عرف الناس . وكيف لا تهزأ برجل لا يسأل عنك إلا إذا كان له مغنم يحاول أن تعينه على أخذه ، او فائدة خسيسة يتوقع استحصالها ، وهو يدعي صحبتك ، وتمضي السنون ، ولا يراك ولا يسأل عنك ، إلا إذا واجهك بالعرض في الطريق ، او في أحد المجالس ، ولا يزورك إلا في وقت يختاره ولا يناسبك وقد يستغرب أنه لم يجدك ، وأنت ليس بينك وبينه موعد ، كأن مقامك يقضي عليك ان تكون تحت الطلب ابداً لترضيه وترضي غيره . وعندي ان من كانت هذه حاله هو احد رجلين : إذا كان متعلماً مهذباً يعامل غير

معاملة الجاهل الذي لم يتهذب ، وهذا يضحك من عقله ويقال له ما قاله الشاعر :

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب

جاءني مرة رجل من جيراني لم أره حياتي ، كان أهلي وأهله أصدقاء . فقلت له معاتباً : إني أسكن في جوارك منذ سبع سنين ، والآن تسأل عني مع معرفتك بصداقة أهلنا ، ثم علمت أن زيارته كانت تجارية ، يحب أن يستنجدني لأكلم له مدير الشرطة ، ليعيد الحارس الذي كان يقف أمام داره . فتأففت وقلت له : لن أكلم مدير الشرطة ، وأنا ليس لي مال أخاف عليه اللصوص ، ومن كان غنياً فليسع هو ليحرسه الحراس ، وكان من الأغنياء الذين لم ير أحد ما في داخل دورهم .

هذا خلق يلومني عليه أيضاً بعضهم ، ذلك انهم اعتادوا أن يدهن بعضهم لبعض إذا تراءت الوجوه ، وأن يلعن بعضهم بعضاً في الغيبة ، وأنا أمقت هذا الخلق الوضيع وان علمت ان العالم يكرهون من يحيد عن مصطلحهم مهما بلغ من سخف ، ويسخرون في سرهم ممن سار على قواعد معقولة وضعها لنفسه فاراحته .

مما يؤلمني أن يتسلق العامة إلى مقامات الخاصة ، وان يحاول الجهلاء أن يكونوا سادة العلماء ، وهذا ناشيء عن تخاذل الخواص ، ألقوا الحبل على الغارب ، وما أهمتهم غير أغراضهم الموقتة ، فترك المجال للهمج الرعاع . وربما كانت لهؤلاء رابطة تربطهم أكثر من الفريق الآخر الذي منه يؤمل الخير العام . يقول ابو حيان التوحيدي في طلب الخاصة رضا العامة : ان التصدي للعامة خلاقة ، وطلب الرفعة بينهم ضعة والتشبه بهم نقيصة ، وما تعرّض لهم أحد الا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولوثته ونفاقه وريائه أكثر مما يأخذ منهم من اجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم .

يهمس كثيرون أنني ضنين بجاهي ، لا أشفع لكل من يقصدني ، ولو بالكذب عليه . حقيقة أنا لا أشفع لكل أحد ، ولا أحب التوسط لمن لا أعرفه ، فالشفيع مسؤول عن شفاعته ، فكيف أشفع لمن لا أعرف ،

وشفاعتك شهادة فيه . ولطالما توسطت لبعض أهل هذه الطبقة التي يغشك أصحابها لتشهد لهم الزور ، ثم ندمت على ما أقدمت عليه ، وقد ثبت لي بعد أن ليس لهم حق في شكواهم ، وأنهم كذبوا عليّ ولم يصدقوني حقيقة أمرهم . ثم إن من لتعتقد أنهم يحققون ما ترجوه منهم ، قد لا يجيبونك إلى طلبك ، إما لأن المسألة عقيمة متعذرة ، أو لأنهم يأبون النزول على ما تطلبه منهم ، ولذلك علمني الدهر ألا أوصي بمن يحاول أخذ وصاتي ، واكتفي بأن اقدم طالب الوصاة للموصى عليه فقط ، وهو وشأنه ، ولو كانت القوانين نافذة على الكبير والصغير لما احتاج هذا الصغير أن يتوسط أحداً في الحصول على حقه . والظاهر أن خمسة في المئة ممن يطلبون الشفاعة هم محقون فقط . وهذه المسائل تروج على الاكثر في الحكومات التي تعمل شكلين ، وبين أمة جاهلة لا تعرف ما لها وما عليها .

وصعب أن يحب الخلق من يبدو لهم بهذا الخلق ، فالرعونة تغلب على صاحب الحاجة لا يهمه غير قضائها ، وكثير من هذا الضرب من البشر يقرعون بابك بعد أن يكونوا قرعوا أبواباً كثيرة وما نجحوا . وصاحب الشرف يرى من الفضاضة أن تهمل وصاته ، أو يتخذها من تُكتب له حجة يخرجها ذات يوم يتبجح بها .

دعاني أحد أصدقائي في القاهرة إلى النزول في داره ، وأقيمت لي مآدب كانت الصحف تذكرها وتذكر أسماء من يحضرها ، فكثر المراجعون لي ، لما عرفوا أن لي علاقات مع رجال الحكومة المصرية ، ومنهم أصدقائي فكان بعضهم يقصدني على غير معرفة سابقة ، ومنهم من يحاول حلّ مشكلته القديمة مع زوجته ، لأن وليها صديقي ، ومنهم من يطمع أن يتقدم في درجته ، وثالثة تود أن ترتقي وظيفتها وراتبها في التعليم ، ورابع يود أن يدخل ابنه مجاناً في المدرسة ، ويعفى من أجورها لفقر حاله ، وخامس اختار أن يبيعني مدبحه ، وسادس أن ابتاع اطاراً كتب فيه قصيدة يمدحني بها ، وكلهم ظنوا أني أصبحت في مصر ، أقدم وأؤخر في دفع ألم المتألمين

وجلب الاحسان إلى البيوت وادخال السرور على القلوب ، واحقاق الحق ، وازهاق الباطل . وضاق صدري من الحالة التي صرت إليها ، فلم أرَ أحسن من أن أكتري لي غرفة في منزل يوناني ، وكتمت اسم منزلي ، وتواريت عن الأنظار حتى آن الرحيل من مصر ، وبقيت معظم السنين أرتاد لي منزلا لا يعرفني فيه إلا الخلص من أصدقائي ، مخافة أن أضيع أوقاتي في الشفاعات ، وأخجل من أحبابي في الحكومة ويخجلون مني ، إذا لم يستطيعوا أن يجيبوا طلبي فيما التمسته منهم لارضاء من لا أعرف .

كثيراً ما سمعت من استاذي الشيخ طاهر الجزائري أنه في اليوم الذي يجمع الناس على حبه يعتقد نفسه ساقطاً ، ذلك لأن معنى الاجماع أن الممدوح ينافق كل انسان ، لا ينكر منكراً ، ولا يدعو إلى معروف ، وصاحب الاصلاح ، في العادة يمقته فريق ، ويرضى عنه آخر ، ومن أراد تطبيق ما يعلم ، يتأفف منه السواد الأعظم .

ولقد نصحني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري نصيحة وَقتْ أوقاتي من الضياع ، وفكري من البلبلة ، وكان ذلك لما بدأت بتحرير جريدة « الشام » قال : إذا أحببت النجاح في هذا البلد فلا تلق باذنك لما يقال فيك من خير وشر ، وارمِ ببصرك فقط إلى الهدف الذي يمنيك الوصول إليه ، ولا تلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال ، وإذا وضع لك واضع حجراً في طريقك فتنحَّ عنه ، وعد إلى سلوك محجتك .

تقبلت هذه النصيحة ، وما عبأت بعدها بسماع أقوال المثبطين ، ولا بعصابة المداحين ، وعرفت مع الزمن أن أصوات أهل هذه الفئة تضيع في الهواء كالهباء ، وانهم كسالى لا يعملون ، ويشق عليهم أن يروا أحداً يعمل ، وما كنت أردّ على من يناقشني ، لئلا أدخل في أخذ ورد ، فان كان ما قاله مما ينفع أنقله وأنشره وأشكره عليه ، وإن كان من الهُراء المعتاد أتحول عنه ، ولا أشغل الوقت بما كتب . وأكثر من جروا على هذه الطريقة إنما يكتبون للشغْب ، والكشف عن المساوي ، والظهور على الاقران

وكل صعلوك مغمور يحاول في العادة أن يشتهر بالنيل ممن هم أفضل منه . وما أفلح من ساروا على هذه الطريقة ، ودخلوا في الاعتراض ، وبعدوا عن الاشتغال بخويصة أنفسهم ، الثرثارون الطعانون يقضون أعمارهم في حسرة ولا يأتون ما ينفعون به أنفسهم ولا غيرهم ، ورأيت منهم جماعات ماتوا بغيظهم ، وكان من نجحوا من الفريق الذي يقلل من الاعتراض .

ونصح لي استاذي لما أصدرت مجلة المقتبس في القاهرة ألا ألتفت إلى المشاغبين ولا أكترث بهم ، وإن جلوا ، فان الحكيم من يسعى إلى تمام القصد وأقل ما يستفيد المشاغبون إضاعة وقت من اكترث بهم ، وإن قلّ فالوقت ثمين . قال أقبل على شأنك واعرف مقتضى زمانك ، ولا يمنعك تنكيت المنكتين المكبتين من تنبيهك على غلط فرط منك فيما سلف ، وكلما عثرت على شيء من ذلك في عدد فنبه عليه فيما يلي فان ذلك أقرب إلى الاعتماد على ما تكتب . وأكثر العلماء الذين انتفع الناس بكتبهم كانوا على هذه الطريقة ولم يتنكبها الا الحشويون ومن نحا نحوهم . وقال : أعرض عمن يبحث عن تفضيل بلدة على بلدة ونحو ذلك فان مثل هذا من مباحث الحشوية . قال وقد سألني منذ أيام أحد السياح عن حد المصري والسوري فقلت له : المصري من ينفع مصر والسوري من ينفع سورية ، وكل من نفع بلدة فهو منها طبعاً ، فالمصري الذي ينفع سورية مصري سوري والسوري الذي ينفع مصر سوري مصري ومن لا نفع لديه لكلتيهما فهو ليس بمصري ولا سوري . وقد انتبهت أمريكا لهذه الحكمة الكبرى فجعلت كل من ينفع أميركا نفعاً ما أميركياً فنجحت .

قيم الاشياء

قال لي احد اصدقائي من أساتذة كلية الآداب بمصر : ألا تنكسر قلوبنا إذا رأيناك تلقي في الجمعية الجغرافية الملكية ، تحت اشراف كلية الآداب ، ثماني محاضرات في الادارة الاسلامية ، كان البحث ماثلا فيها ، وتكون المكافأة عليها خمسين جنيها ، في حين القى السير دنيسن رُس ،مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ثلاث محاضرات على منبر تلك الجمعية نفسها ، لم تنمّ عن شيء من العناية ، اللهم إلا ما كان هناك من قصص أضحكت السامعين ، فلما انجز محاضراته دفعت اليه الحكومة مئتي جنيه فامتعض وعبس ، ثم زادوه مئة أخرى فسكت ، وما أظهر رضى ولا شكر . فقلت : لا تأسف يا أخي فان القوم لا يعطون على الغناء ، ولا على قدر العناء ، وإنما عطاؤهم قائم على الارضاء ، وعندكم من ذلك نماذج كثيرة في الجامعة وغيرها في تفضيل الغربي على العربي . إن بلادكم مأخوذة با كبار اصحاب القبعات ، ولو كنت أفرنجياً لنظرت اليّ حكومتكم غير ذلك النظر . وأظنها مع هذا لا تراني بالعين التي ترى بها العربيّ الغريب ، لسابقتي في خدمة مصر ، ولأن من خدموا هذا القطر باخلاص يضارع اخلاصي قلائل ، ومن خدمها كان موظفاً يعيش بخيرها ، ومن مصلحته أن يعمل لها . ولما منح وزير المعارف هذه المكافأة القايلة قال لعميد كلية الآداب : إن هذا لاجل (فلان) فقط ، وإياك أن تأتيني باحد من فلسطين أو غيرها .

لما صدرت ارادة الملك فؤاد الاول عليه رحمة الله بتأليف مجمع اللغة العربية الملكي ، وكان اعضاؤه عشرة من المصريين وخمسة من الاقطار العربية وخمسة من المستشرقين من أهل الغرب رأى وكيل وزارة المعارف يومئذ أن تكون نفقات إقامة الغريب من العرب في مصر أقل مما يخصص لنفقة اقامة

العضو الغَرْبي . ورأيت هذا القرار ماساً بالكرامة ، فعزمت أن استقيل من عضوية المجمع الجديد ، لهذه التفرقة التي لا موجب لها بين العربي والغربي ، لو لا أن الملك لم ير وجهاً لهذا التمييز بين الاعضاء الاجانب على اختلاف أصقاعهم واجناسهم .

واقسم أن مشروع المعجم الذي عرضه زميلي الاستاذ فيشر على مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة ، وتأليفه ونشره يكلف الحكومة المصرية الوفاً من الجنيهات ، لو أتى بمثله مؤلف من أبناء العرب لانهالت الصحف لضربه وتدميه ، ولسخر منه وتقع فيه ، ولكن صاحبي افرنجي ، والافرنج عامة لا يقولون عبثاً ، ولا يضعون من التآليف إلا ما يفيد ، ولا يرسلون مثلنا القول جزافاً . وهذا مما يثبت قاعدة ان الاشياء تعظم بعظم مصدرها .

حقيقة أن من نشأوا من أمة صغيرة لا ينظر إلى أعمالهم مهما عظمت بالعين التي ينظر بها إلى من جاؤوا من أمة عظيمة . ومن كان على حال كحالي مثلاً لا أمة تعضده ، ولا جامعة يرتبط بها ، ولا مجمع يأخذ بيده ، كثير عليه لعمر الحق ما تم على يده ، ومستغرب منه ما انتجه . وربّ مشروع أردت أن أبدأ به موقناً فيه الخير للعلم والآداب ، ولهذه الامة العربية التي تنقصها أشياء ، فأخرني عن المغامرة فيه قلة الظهير والنصير . واني لا استحي من هذا التصريح ، وارجو ألا تؤثر هذه المثبطات في نفوس الناشئين على عهدي ومن بعدي .

لا أكتم أني اغتبطت بما صار إليّ ، وقلت وما زلت أقول إني نلت من المظاهر فوق ما كنت أرجو ويرجو من كان في مثل حالي ، وأن عشرات من القدماء والمحدثين لم يحصلوا على بعض ما حصلت عليه ، وانا ما كنت أعد طول حياتي من الموسرين ، ولكنني ما كنت أعد من المعسرين . وكنت أرى من التوفيق العظيم ، إذا طبعت الكتاب وردت عليّ نفقاته فقط بعد سنين ، أو نشرت مجلة أو جريدة وما خسرت شيئاً يذكر على نشرها . ذلك

لأني أقدر الحال والموقع ، وأعرف ان من يقرأ الكتب والصحف في أمتي لا يتجاوز بضعة الالوف ، في حين يعد من يقرأون الكتب في الأمم الكبرى لعهدنا يعدون بمئات الالوف . وما توقعت ربحاً مما كتبت ونشرت قط ، وربما كان لمن قدر له أن يكتب مقدار ما كتبت ان يجني فوائد مادية كثيرة ، وانا ما خلقت تاجراً ، وللتاجر منازع غير منازعي . ومن طبعي إذا أقبلت الدنيا ان لا أسر بها ، وإذا تخطتني لا أستاء . وكيف أسر وأكتئب وانا عارف طاقة أمتي ، ومبلغ معرفتها ودرجة نهضتها .

لو كان في امكاني ، وأنا أرى الفقراء لا يقدرون على اقتناء الكتب ، على حين هم الذين يقرؤون ويستفيدون ، لطبعت من أسفاري وأسفار غيري الوفاً ووزعتها عليهم مجاناً . ومن عظيم الأسف أن المقتدرين على ابتياع الكتب إذا اهديت اليهم اخذوها ، ومنهم من لا يشكرك على هديتك ، على ما تقضي بذلك قواعد اللياقة واللباقة ، أما أنهم يطالعونها ويستفيدون منها فهذا علمه عند ربي . ورأيت منهم من يبيع هذه الهدايا وينتفع بثمنها مع استغنائه عنه ، وذلك قبل ان يقص ورقها ، او ينظر في صفحة منها ، ويؤسفني ان تتعاور الأيدي بعض النسخ من الكتب ، وقد يتناولها المقتدرون على اقتنائها ، لكنهم مثل اكثر الجمهور في هذا الشرق الفقير ، يعدون الكتب من الكماليات ، خلافاً للافرنج فانهم يعدونها من الحاجيات ، فترى الواحد منهم يقيد في مفكرته الشهرية ثمن الكتب والصحف كما يقيد نفقة الخبز واللحم والمشروب والملبوس ، واجور حضور التمثيل والسينما والنزهة .

فأمة كأمتنا هذا مقدار سخائها على العلم ماذا يرجو منها المشتغلون بالتأليف ؟ ومتى يا ترى يقدر لأبنائها وبناتها أن يولعوا بالمطالعة ، ويعدوها حاجة من حاجات النفس ، لا غنية عنها لغذاء الروح . امم الغرب بما بلغته من درجات الرقي هي التي يعيش منها ، بما تبذل في سبيل العلم ، الوف من المؤلفين لا صلة لهم بجامعة ولا بحكومة ولا بمجمع ، ولا يطلب منهم

إلا أن يجوّدوا عملهم فقط ، وينتجوا انتاجاً مطرداً ، فتنهال عليهم الأرباح ، وقد يثري الممتازون منهم الذين كتبت لهم شهرة كما يثري ملوك الفولاذ والحديد والنفط في اميركا .

ثم لمعظم قيم الأشياء إذا صدرت من اناس كان لأمتهم قيمة في الوجود وقد كان الملوك والأمراء والاغنياء عند العرب في الدهر الغابر يتولون الأخذ بأيدي المؤلفين ، واليوم لظاهرهم في الغرب المجامع والجامعات والجمعيات والجماعات . وترى عندنا اعمال الافراد ضعيفة على نسبة ضعف اوضاع ديارهم والمؤلفون بمعزل لا يؤبه لهم ، واكثر من يصنفون الكتب منا هم من طبقة الموظفين في الدولة ، ومعظم ما يؤلفونه كتب للمدارس طمعاً بربحها المضمون ، او قصص للعامة لا تعلو عن مستوى عقولهم ، يُقبلون على مطالعتها فلا تفيدهم كبير امر ، ويستفيد منها المؤلف والطابع اكثر مما تفيد المتصفح والمطالع . والقراء من وراء ذلك لا يتناولون إلا ما يعرض عليهم بالحاح ، ولا يدرون غالباً بالجيد الذي يكتب وينشر .

هزل مصر والشام

تشهد في مصر ما تشهده في الممالك الكبرى من مظاهر الحياة . ففيها الجد على أتم حالاته ، وفيها الهزل على غاية من الاتقان ، ويُطربني جدّها وهزلها ، وأنا في مصر مصري وما أنا بمصري ، فلئن تخطتني جنسيتها ، فما حرمتني الفطرة مشاركة أهلها في عواطفهم وشعورهم ، وكثير من أطوارهم . كانت إقامتي في مصر متقطعة ، فلم أرَ أن اعرض لسياستها إلا بقدر معلوم ، وما ُعنيت العناية اللازمة بالوقوف على تراجم أهلها ، وتوخيت أن أعرف مجملات عنهم ، وذلك لتشعب أطراف موضوع لا يبرّز فيه إلا من تمحض له وانقطع إليه . واحتاج على الاكثر أن أعرف من رجال مصر تراجم العلماء والأُدباء ، أما تراجم السياسيين وغيرهم فشرح يطول .

من الطبيعي أن يتآلف المتشاكلون في الفكر والثقافة . وفي القاهرة من ذلك ضروب وألوان ، ولا يصعب كثيراً على النازل عليهم أن يصل إلى الطبقات المنوعة ، إذا كان أدلاّؤه مهرة ، ما دام المصريون معروفين بهذا الظرف وهذا اللطف . وبعض سكان عاصمتها كأهل العواصم في الغالب لصدهم متاعب العيش فيها عن الافتكار فيما تفكر فيه الناس في العادة ، من مثل الوفاء ولعهد الصاحب ، فيصدق عليهم أنهم من الطبقة التي لايسرها من حضر ، ولا يسؤها من غاب ، أو أن هـــذا من خلق عدم المبالاة المتأصل في بعض أفرادهم .

مصر من البلاد التي يعيش فيها الغريب خمسين سنة ، ولا يفتأ كل حين يقع فيها على شيء جديد ، ويظفر بموضوع طريف ، ما كان له به عهد بالأمس . عرفت صديقي وحيد بك الأيوبي وهو وأنا في ميعة الشباب وكان من أبناء الأعيان المفكرين المثقفين ، وتفارقنا زمناً ثم التقينا قبل اثنتي

عشرة سنة ، وإذا به رئيس جمعية جهرية سماها اسماً غريباً (البُمكوكة) وبمكوكة الناس مجتمعهم على ما في القاموس . كانت هـذه البمكوكة تلتئم كل ليلة في قهوة متواضعة من منعطفات شارع ابراهيم باشا ، ثم انتقلت إلى قهوة السلام في نفس الشارع . ويبدأ اجتماع أعضائها من بعد العشاء وينصرفون في ساعة متأخرة . وتتألف من محامين واطباء ونواب وموظفين ورؤساء دواوين ومؤلفين وصحافيين وأعيان أصحاب أطيان موسرين وغيرهم ، ولا يقل المواظبين منهم عن ثلاثين رجلاً ، ما فيهم إلا الممتاز بأدبه وفضله . فاذا اجتمعوا تجردوا عن مظاهرهم ، وكانت اجتماعاتهم للمرح والتنادر وسماع الأخبار . ويجاهرون بأن بمكوكتهم فوق الأحزاب وفوق السياسة ، ولا غاية لهم إلا الضحك والاضحاك . والرئيس وحيد بك الأيوبي ، ونائب الرئيس ادوارد بك القصيري من أكبر المحامين في مصر .

هؤلاء الجماعة من رجال الأعمال ، فاذا انتدوا كل ليلة ـ وقد يزورهم في بمكوكتهم اخوان لهم من حين إلى آخر ـ فللترويح عن نفوسهم ، وللخوض في لهو الحديث . ولك أن تصف جماعة البمكوكة بأنهم مجدّون في أوقات الجد ، وهازلون في أوقات الهزل ، وياما أحيلا اجتماعاتهم ، وأوقع في الأذن أصوات محاضراتهم ، وشرّفني الرئيس بضمي إلى جملتهم ، وأمرني أن انشئ بمكوكات أو بماكيك في بلاد الشرق ، فصدعت بأمره ، وأنشأت في داري بمكوكة يختلف إليها أخلص الأصدقاء . ولكن إذا شابه خلاني بماككة دمشق اخواني بماككة القاهرة في دراساتهم وثقافاتهم ، فلن يشاركوهم بخفة ارواحهم وتنكيتهم . بلاد الشام سهلية جميلة معتدلة يغلب الانقباض على اهلها ، وبلاد مصر سهلية حارة يغلب المرح والطرب على أهلها .

ولله ما يجري في هذه البمكوكة المصرية ، فان كل أعضائها ، والرئيس على رأسهم ، يصطنعون المرحَ ويلتمسون الضحك ، وناهيك بجمعية فيها مثل الدكتور محجوب بك ثابت المشهور بعلمه وخفة روحه وحضور نكتته

وأذكر أني عدت من الشام في بعض السنين ، وكنت متلهفاً شوقاً الى اخواني البمكوكيين ، فقصدت إلى البمكوكة لأستطلع طِلع أحوالهم ، فرأيت بعضهم مكتئباً ، والرئيس مقطباً ، فسألت عن السبب فقيل لي إن الرئيس مصاب بضعف بعض الاعصاب ، والاعضاء في حزن من جراء ذلك ، وكل منهم يكد قريحته ، ويستوحي علمه ، لايجاد علاج يعيد إلى الاستاذ نشاطه وصحته ، ويتنافسون في هذا الشأن ، ولا تنافس وزراء السلطان ابراهيم العثماني في ايجاد مقو لضعفه ، مع الفارق بين أعضاء البمكوكة وأعضاء وزارة الفاجر ابراهيم . وفي الحقيقة أن أعضاء البمكوكة كانوا يجدون في شفاء رئيسهم مخافة أن يصاب المرؤوسون بمثل ماأصيب به رئيسهم . ولا تسل عما ذكر خلال تلك الايام من نكات وحكايات وأشعار وآثار ، وأكثرها مما يضحك الثكلى ويسلي الحزين ، التزم فيها جانب التورية والتعريض ورعاية آداب الاجتماع .

رجعت إلى الشام وكتبت كتابين مطولين في فترة قصيرة الى الرئيس أذكر له بعض مافتح الله عليّ من أدوية لدائه ، فلما قرأهما الرئيس على الاعضاء تجددت لهم عناية بمداواته ، وبقى القوم يهتمون لذلك أشهراً ، لاتخلو ليلة من الالماع إلى سير مرض الرئيس وإلى ماظهر من الادوية ، والى ماوفقوا لمعرفته من طلاسم وأدعية الى غير ذلك مما ينجع في شفائه والرئيس يشكو ، وهم يخففون عنه آلامه ويسلونه ، ولما عدت في الشتاء التالي إلى القاهرة سألت الرئيس عن حاله ، فضحك وقال : وأنت أيضا صدقت مازعمته لكم ، اني ادعيت هذه الدعوى لأضحككم ، وقد حصل المقصود من هذه الفرية حولاً كاملاً ، وأنا بحمد الله ليس لي ما أشكو منه مما ذكرته لكم . فعجبت وأكبرت صفات الرئيس وحبه لمرؤوسيه ، كما كنت أعجب بكرمه على كل بائس مملق . وقلت له إن انتسابي إلى بمكوكته أحب إلى نفسي من كل لقب لقبت به ، ومن كل مجمع علمي

شرفني بعضويته ، فمع جماعته السلوى والسرور ، ومع أولئك كد الذهن ، وكرب الجد .

يكتب رئيس البعكوكة في الاحايين في جريدة الاهرام قطعاً لطيفة في اللغة والادب والسياسة . وجاء البرق ذات يوم ينقل كلام أحد رجال السياسة ويقول إن الانكليز رابطون بجيشهم في مصر لحماية الاستقلال ، ومن الغد كتب الرئيس بضعة أسطر في الاهرام يكبر هذه العناية بامر مصر ، ويقول ان عندنا الآن إذاً احتلال واستقلال ، فماذا نسميها ؟ نسميها (الاحتقلال) نأخذ من الأول حرفين ومن الثاني ثلاثة . وسأله مكاتب التيمس في القاهرة ، وماذا نسمي ذلك بالافرنجية فقال على البديهة Occupendance مأخوذة من Occupation الاحتلال و Indépendance الاستقلال . وكثر السائلون الرئيس عن هذا الاسم الجديد ، وعما إذا كان له أصل في اللغة ، وهنأوه على توفيقه للعثور على هذه اللفظة الجميلة وعبثاً حاول أن يقنعهم أنها لفظة وضعها وضعاً ، وما كان يرضي بعضهم إلا أن يكون وجدها في معجمات اللغة .

ورئيسنا يعطف على كل من يعده الناس ثقيل الظل ، فاذا سمع بمن هذه حاله احتضنه وبره . وقد يصحب أحد الصعاليك المعدمين إلى مطعم الكونتننتال يغدّيه او يعشيه . وقد اعترض عليه مرة نائب رئيس البعكوكة قائلاً له : إن فلاناً في حاجة إلى (بنطلون) فسراويله ممزقة ، وانت تنفق عليه في الوجبة الواحدة ما يزيد على الاربعين أو الخمسين قرشاً صحيحاً ، اعطه ثلاثين قرشاً يشتر بها بنطلوناً بعشرين والعشرة ينفقها على عياله . فأجابه الرئيس : سبحان الله يا ادوارد بك ، ألا تعلم اني إذا عاونته على ابتياع بنطلون جديد اكون قد غيرت معالمه وابدلت شكله ، واظن الرئيس يقصد باستصحاب الفقراء إلى مطاعم الاغنياء ليقول لهؤلاء بلسان الحال إنه لا قيمة لما تتعاظمون به من الانفاق ، وأن الفقير قد يشاطرهم هناءهم ببذل عرض قليل .

وعقل رئيس البعكوكة ، والحق يقال ، ليس من العقول المحدودة ، عقله مبتكر مبتدع ، فقد اصدر في صباه ثلاث جرائد في وقت واحد بأسماء مختلفة ، ومديرين ومحررين منوعين ، جعلها كلها لمقاومة الاحتلال ، وجعل لها كتاباً ومراسلين ومحررين ، وكان يصدرها في اوقات مختلفة . وليس لها كلها ادارة غير جيب الرئيس وقمطره ، يكتبها أو اكثرها وينشرها على أنها ثلاث جرائد مختلفة الوضع والطبع ، متحدة المنزع والغاية . ولم تكشف هذه اللعبة إلا بعد مدة ، وله من هذه الالعاب اشياء تسر ولا تضر ، يَضحك منهـا ويُضحك .

في مصر اليوم عدة جماعات ومجتمعات تظفر في بعض حواشيها بأفراد ممتازين يختلفون إلى المقاهي ويزهدون في الاجتماع في بيوتهم ، وكذلك الحال في الشام ، وكانت فيها الأندية الخاصة او البماكيك في كل حي من احياء المدن والقرى الكبيرة . ولي جمـاعة في « بار اللواء » امام ادارة جريدة الاهرام بالقاهرة ، وهم بقايا صالحة من ارباب الثقافـة العالية ، والوطنية الحقة الصامتة . ومنهم صديقي القديم الابر محمد بك علي المهندس . وقـد وقع لي وانا اسير معه في بعض الشوارع ، وهو اسوَد البشرة محمود الصفات — وامه شريفة من اسرة الاسعدي في اسيوط — خدم السياسة المصرية بما يخدمها به الرجل الشريف اعواماً طويلة ، وما طلب على خدمته وطنـه مكافأة ، ولا طمع في مظهر من المظاهر التي يطمع فيها المتجرون بالوطنيات — وقع لي ان لاقيت على الجادة صديقاً لي آخر اسمه صالح افندي السوداني ، وهو مزاحم محمد بك علي بلون السواد ، وهو من ارباب الاقلام المخلصين في خدمة مصر ، فقلت لهما : خطرت ببالي الآن قصة وقعت لي في بلدي ، وانا في صدر الشباب ، وكان لنا جار ، وهو اخي من الرضاع ، اسمـه رشيد الهبل من ابناء البيوتات القديمة ، خلف له اهله ثروة جيدة ، وكان اسود اللون قاتمـه مثلـكما — ولـكما المثل الاعلى — وكنت يومئذ اركب الخيل وعند والدي وعنده ما نمتطيه عند الاصيل ونخرج إلى المتنزهـات

والبساتين ، فقال لي والدي يوماً : إنك يا بني تثبت كل يوم حسن نوقك ، أما رأيت في هذه المدينة الكبيرة اجمل طلعة من جارنا ابن الهبل تصحبه إلى نزهتك ، ودعا لي بالتوفيق والغبطة . والتفت إلى الصديقين وقلت لهما من باب مطابقة الحديث للترجمة : اليس قول والدي يصدق عليَّ الآن ، ولا شك ان الناس هنا ادق شعوراً ، فيضحكون إذ يرونني بينكما فضحكنا ضحكاً كثيراً . وتالله إني لأفضل هذين الاسودين بما فيهما من صفات غرٍّ على كثيرين من البيض اصحاب الصحائف السود .

كان الشيخ طاهر الجزائري كثيراً ما يحدثنا بأخبار الدكتور حسين عودة نزيل صيدا ، يلقيها علينا ممزوجة بهزل وغير خالية من جد . فامتلأت الرؤوس بأخبار صاحبه ، وود كل واحد منا لو يطير إلى صيدا ، فيتعرف إلى هذا الطبيب . وما كتب لأحد من جماعتنا ان يقوم بهذا الغرض قبل صاحب هذه المذكرات . فاني قصدت إلى صيدا لألقى فيها جامع شتات الفضائل بلدينا حسين عودة ، فأبل غليل شوقي إلى رؤيته .

واريد ان يعرف اولاً من هو الدكتور عودة . ولد الدكتور في دمشق والتحق في صباه بمدرسة القصر العيني في القاهرة لأخذ الطب . فرسب لشدة ذكائه عدة سنين ، وما زال يرسب في صفه ، حتى جاء مصر الأمير عبد القادر الحسني الجزائري يوم فتح قسم من ترعة السويس سنة ١٨٦٣ وقد رجاه أهل حسين عودة ان يكلم الخديوي اسماعيل ليسهل على ابنهم أخذ شهادة الطب ، فصدر الأمر بمنحه شهادته ، فاغتبط واختار السكنى في صيدا ، زاهداً في نزول بلدته الاصلية ، لئلا يكون موضع سخرية عند ارباب الهزل من اهل دمشق ، لان خلقته وقيافته لمضحكان حقيقة ، فهو مجدور وفي عينه الواحدة شتر ، وفي رجله عرج . ووفاء لمدرسته لم يرض ان يخلع بزتها طول عمره ، فكان إذا بلي المعطف ، وقد كتب على ازراره (تلميذ القصر العيني) اوصى على معطف جديد من نمطه وذلك كل عشر سنين مرة ، ورفع الازرار عن المعطف القديم ، واناطها بالبذلة الجديدة ، يذكر الناس بأنه خريج كريم ، من ذلك المعهد العظيم .

كانت هدايا الدكتور تترى إلى صديقه الشيخ طاهر الجزائري بدمشق يحملها المكار كل مدة من عاصمة الفينيقيين الى عاصمة الامويين ، أتدرون ما كانت تلك الهدايا النفيسة ؟ كانت قصاصات من جرائد مصرية وسورية قديمة وحديثة ، أقدمها لايزيد على بضعة أشهر ، وعمر أحدثها شهر واحد فقط . وكان يقطع من كل جريدة ما راقه ويجمع الباقي ويضمه في كيس نظيف أبيض ويخيطه جيداً حتى لاتمتد الأيدي الى السرقة منه . وقد اتحفني المهدى اليه مرة بشيء منها ، فلما رأيتها قديمة استعفيت من أخذ حصتي في الدفعة الثانية ، وأحببت أن أخص بها من يحبون الجرائد ، ولو كانت قديمة بالية .

كان الدكتور حسين عودة مولعاً بالحشائش ، يطب مرضاه بها على الدوام . وقد ملأ المجلات الطبية في عصره بفوائدها ، فأول ماوقعت عيني عليه فى داره مجموعات عظيمة من هذه الحشائش مرتبة مصففة مجففة ، جعلت على مناضد ومقاعد ، وكتبت اسماؤها عليها ، مثل ماترون من نوعها في متاحف النباتات ومعارضها ، وألقيت نظري على الحائط فاذا به عال جداً ، لايقل علوه عن اثني عشر ذراعاً ، فسألته ولِمَ هذا الحائط شاهق الى هذه الدرجة ؟ فقال : لأن النظر إلى البحر يوءذيني ، ويحمل الكرب إلى قلبي ، ولذلك كان هذا السور نعمة عليّ لانه يحول دون نظري وما يكره !

كان الدكتور يطب الاغنياء في بيوتهم بقرش ونصف فاذا زاروه في عيادته أخذ منهم ربع قرش (متاليك) أما الفقير فان قصده او ذهب هو اليه بنفسه ، لا يقبض منه شيئاً ويعطيه ثمن الدواء ، والدواء بالطبع بعض تلك الحشائش . ولذلك يعد الدكتور عودة من أبرّ الاطباء بيمينه الذي اقسمه يوم خرج من المدرسة الطبية إلى مدرسة الحياة . وسرت مع الدكتور في اسواق صيدا وضاحيتها ، فرأيت اهل البلد كبيرهم وصغيرهم رجالهم

ونساءهم اطفالهم وبناتهم يعرفون الدكتور ويعظمونه ويسألونه في الطريق علاج اسقامهم ويدعون له بطول العمر .

ودّعت الدكتور وقد شفيت النفس من المتعة به ثلاثة ايام ، وكنت نازلاً في الطبقة الثالثة من فندق المطران فقيل لي بعد الغروب بثلاث او اربع ساعات ان الدكتور آت لزيارتك ، فعجبت وخففت لاتلقاه على السلم وقلت له لماذا تصدّع نفسك ياسيدي ، وقد ودع كل منا صاحبه في النهار ، فقال : هذا واجب أقوم به ، فشكرت له ادبه وتفضله . ورأيته في هذه الزيارة الليلية يحمل « نبوتاً » اطول منه ، وفانوساً صغيراً ، ويلبس في رجليه قبقاباً عالياً . فسألته بأدب ، لم يلبس القبقاب والوقت صيف ، فأجابني بما معناه : إن دبابات الارض كثيرة ، ولا يأمن الساري في الليل من شرها ، فلكي يكون بمأمن من قرصها يحمل هذا المصباح يستصبح به ، علّه يراها قبل أن تصل اليه ، فاذا اقتربت منه ضربها بالعصا ، وإذا حاولت الصعود اليه تعذر عليها الصعود إذ يقتلها قبل أن تصل إلى رجله ، وكان في قوله جاداً ، وكان جداً كله ، وهذا وجه لطافته .

ومن جملة جده انه كان يعتقد انه يعيش العمر الطبيعي ، والعمر الطبيعي عنده مائة وخمس وثلاثون سنة ، أو مائة واربعون لا أدري ، ولما كان هو على غاية من التقوى ولم يسيء استعمال قوته قط ، فانه بالغ بحول الله هذا العمر لامحالة . أما هو فعاش في هذا الامل اللطيف نحو تسعين سنة ، ومن اخبار جدّه ، وهو معتقد بما يقول ويفعل ما حدث له مرة ، وهو يتنزه على شاطيء البحر مع صاحبه الشيخ طاهر ، وقد لحق بهما احد الطلبة ، وكان هذا لا يخلو من جذب ، على ما يظهر ، فمضت أربع ساعات على اجتماعه اليهما ثم التفت إلى الدكتور وقال له : ياسيدي الدكتور أرجو ألا يكون في حضوري ما ينغص عليك خلوتك إلى الشيخ ، فأجابه الدكتور بدون توقف : يا بنيّ نحن لم نحسّ أنك معنا ، إنا في شاغل عنك ، نحن الآن ندبر أمر ثلاثمائة مليون من المسلمين . وهكذا كان وما شاء الله كان .

اللطف الخفي

ما تطلعت إلى ما في ايدي الخلق ، ولا حسدت ذا نعمة على نعمته ، وكانت نفسي راضية كلما اغضبتني الايام ، ضاحكة مستبشرة مهما قست الأزمات . اضقت اول شبابي ، وكنت اعول أسرة كبيرة مؤلفة من بنات واطفال صغار ، والمنظور الينا بين قومنا وفي حينا انا من الاغنياء . وكان معوّلنا في معاشنا على مزرعة لنا اذا اكدى ريعها بعض السنين نضيق ، فلا ارى غير الصبر على الشدة ، مع اني استطيع ان اقترض ما اتوسع به بالنظر لما كان تحت يدي من ملك ثابت يقدر يومئذ بنحو عشرة آلاف دينار عثماني . فكنت اجانب الاستدانة مخافة ان اعجز من قابل عن الاداء ، فتضطرني الحال إلى الرجوع الى الاصل ، ويخشى ان ينزع من بيتنا بعض ما نملك ، وبذلك حفظ ماورثناه وزاد ولم ينقص .

ولما انشأت الجريدة والمطبعة ، كان بعض المعارف يقرضوننا ما يلزمنا من المال ، علماً منهم بأنا نرجع اليهم ما اخذناه مهما كانت الحال ، واعتماداً على ما نملك ، فنعمنا بهذه الثقة ، وما أزعجتنا الازمات الاقتصادية كما ازعجت غيرنا ، وما اسففنا لتناول شيءٍ لا يحلّ لنا ، وما وقفت اعمالنا من قلة . قال لي صديقي الاستاذ عبد القادربك المؤيد ، وكان رحمه الله من رجال المال والاعمال ، وله عليّ عطف كبير : إنك اخذت من جمال باشا الف ليرة ، فلم لا تبتاع او تبني لك داراً ؟ فقلت له : قد بنيت في دمشق اربعين داراً ، فقال وكيف ذلك ؟ قلت : كنت مديناً لاربعين شخصاً فدفعت اليهم ديونهم كاملة ، وأمسيت ولا دين عليّ ، فسارت اشغالي بانتظام . فسكت ثم قال : وفاء الدين قبل كل شيء . ومعظم من وفيتهم ما كان لهم عليّ من دين في تلك الأيام المدلهمة (سنة ١٩١٤) ، وقد امتنعت المصارف من اداء ما عندها لمعامليها من أموال ،

كانوا يقولون إن ليرة واحدة يوم اقرضونا تساوي بضع ليرات يوم ارجاعها وكانوا جد مسرورين ومتعجبين .

حدث في بعض السنين ان تأخر أكثر المشتركين عن دفع ما عليهم لادارة الجريدة في أوقاته ، وكانت سنة رديئة الغلات ، وأتى الشتاء قاسياً بثلوجه حتى انقطع الطريق بين دمشق وبيروت أربعة وأربعين يوماً . فتأخرت الادارة على خلاف العادة عن اداء المياومات والمشاهرات ، لنحو ثلاثين عاملاً من عمال الجريدة والمطبعة ، وغلت أسعار الحاجات ، وكان الورق قليلاً في مستودع الجريدة ، فأخذنا نبتاعه بالثمن الفاحش ، وبالطبع كنت وشقيقي اللذين يشتغلان معي على تلك النسبة من الضيق . وكنت أحضر إلى ادارة الجريدة فلا أجد مكاناً أجلس فيه ، لكثرة ما تساقط من ثلج ومطر على السطوح ، فلا أصل إلى تلفيق الجريدة إلا بمشقة زائدة . وفي تلك الحقبة جاءني الرجل الذي كان يحاول ان يرشيني لأخدم دولته وأطلب ما أشاء ، فرددته بلطف ، وتظاهرت بالغنى ، ولم أقص ما وقع لي معه إلا على استاذي سليم افندي البخاري فقط ، فقال : نعما عملت ، وفي الله العوض عن هذا المال مهما كان مقداره .

ومضت أيام ونحن على هذه الحال صابرون ، لا نعرف لما نحن فيه مخرجاً ، وديوننا عند المشتركين لا تقل عن ألفي ليرة عثمانية ، لا نستطيع استيفاء شيء منها ، فاذا بأزمتنا تنفرج بطريقة ما خطرت لنا ببال . وافانا عالم من أقاصي كردستان اسمه بديع الزمان عازماً أن يطبع رسائل وكتباً فطبعناها له بسرعة ، وكانت اجرتها حسنة ، وأخذت ترد علينا من وكلائنا في الديار الشامية وغيرها سفاتج من المال هي بعض مالنا عندهم فكانت جملتها كبيرة . ووضعت قائمة بما ورد على الادارة في شهر واحد من مال ، وفينا به جميع ما علينا للمستخدمين ، وعاشت بيوتنا والجريدة ، ولم يبق علينا ذمة لأحد ، واطلعت استاذي البخاري على هذه القائمة فسر جداً وقال لي : أما قلت لك إن في الله العوض ؟ وها قد عوضك من مالك ما كان متأخراً عنك ،

ولم تلوث ذمتك بمال فيه كل الشبهة ، ولو كنت تناولت ذلك المال العظيم الذى عرض عليَّ لقتلني الاتحاديون أول يوم عثروا فيه على أوراق قنصل فرنسا ، وقد عشت بحمد الله بعد ذلك أعواماً ، ونعمت بالحياة ، وقطفت ما كان حصرماً وحراماً كله ، وقد أصبح طيباً حلالاً ، وعمرت داراً وتمتعت وعيالي بمباهج الحياة ، وربيت أولادي الستة وزوجتهم كلهم ورأيت أولادهم . وهذا من اللطف الخفي الذي لا اعرف تعليله .

أتت علينا أعوام قلَّت فيها البركة فكان يلذ لي الصبر على الضائقة ، ويزيد عزائي إذا أيقنت أني ما استدنت لأتوسع في النفقة مجاراة لأقراني وجيراني . عرضت عليَّ في أول نشأتي قطعة أرض في قريتي مساحتها فدانان ، فقلت لشريكي أنا لست مستعداً لابتياعها ، وغاية ما أستطيع أن اقتصده مبلغ كذا ابتاع به الارض الفلانية ، وهي أقل من نصف مساحة الأولى فقال لي : خذ هذه أحسن لك ، وتستطيع أن تقلب المبلغ المرهونة لقاءه عند المصرف الزراعي إلى حسابك ، وتدفعه مقسطاً على سنين ، فأجبته إني لا أحب التعامل بالربا دائناً ولا مديناً ، وابتعت الأرض الصغيرة فأثرتها وزرعتها وبعت منها أشجاراً للوقود ، فجمعت نحو ضعفي ثمنها في سنتين . واضطرت غير مرة إلى ابتياع أرض من مزرعتنا من أحد الشركاء فاشتريت بالربا ، فما رأيت البركة فيها ، وربما وقعت عليَّ بعد حساب الفائدة التي أديتها بضع سنين إلى الصيارف أو المصرف ضعفي ما كنت مضطراً لأخذها به ، ومع ذلك لطف الله بي .

ووقع لي أن تعرضت حياتي للخطر مرات ، ونجوت على أهون سبيل ومن عادتي ألا أتوقى كثيراً (ومن التوقي عدم الافراط في التوقي) وأستمد الرأي من أصحابي إذا وقعت في مأزق ، فهم يشيرون وأقبل مشورتهم وأتحمل تبعتها وحدي . وكانت مشوراتهم سديدة أبداً ، وإذا مرض الطبيب الماهر يحتاج إلى من يطبه . وما وقعت في يد خصومي قط ، ومنهم من كان يبيت لي القتل ، ويتطلع كل حين إلى اهانتي ، ولم أُحبس ولم أُنفَ ،

وكنت أهادن الخصم وأتمهل ، وأرجئ الحملة عليه إلى وقت تكون فيه قوى المدافع والمهاجم متكافئة بعض التكافؤ .

ومن اللطف الخفي أن المصلحة اقتضت بإيعاز المنتدبين أن يقام معرض الصنائع الشرقية برياستي ، بصفتي وزيراً للمعارف والفنون الجميلة في مدينة دمشق ، وفي قاعات المجمع العلمي العربي ، وكان هواة العاديات وبعض بيوت دمشق وغيرها متأثرين من السلطة لأنها أخذت عدة صناديق من النفائس إلى معرض مارسيليا عارية مسترجعة ولم تُعدها إلى أربابها . وفي هذه الحالة الروحية تحتم انشاء المعرض فأعلنت أني آخذ على عهدتي وحسابي الخاص جميع ما يعرض من الآثار ، مدة انعقاد المعرض ، فقبل بذلك حتى جماعة من الفرنسيين ، لأن الحكومة كانت فقدت ثقة الاهلين بها . وكان مقدار من عرض آثاره ومصنوعاته ٨٦ شخصاً وعرضت فيه (٦٢٧) قطعة مختلفة ، وزار المعرض أربعون ألف انسان منهم ثلاثة عشر الف امرأة (٨ — ١٥ حزيران ١٩٢٨) وكنت في مدة المعرض في قلق عظيم من تعهدي هذا لاصحاب الآثار والمهيمنين عليها ، مثل ادارة الاوقاف ، كنت أخشى السرقة والحريق وغير ذلك من المصائب ، فمنّ المولى بمرور هذا الاسبوع ولم يُفقد شيء ولم يعطب شيء ، وما عُرض اعيد لاربابه سالماً . وربح تجار الاقمشة أرباحاً طيبة ، وما خجلت أمام المواطنين ولا أمام المنتدبين .

أحباب الانكليز

كان لرضا باشا الركابي سطوة أوائل الاحتلال الانكليزي بعد الحرب الكبرى ، عينه المارشال اللنبي حاكماً عسكرياً في دمشق . وكان عند العثمانيين برتبة عالية في الجيش ، فاستقال باعلان النفير العام ، قيل لمرض أصابه . وأصاب الانكليز باعتمادهم عليه ، وأثبتوا أنهم قد يحسنون الاختيار ، فالركابي من أقدر من تولى الأحكام في الشام بعد انتزاعها من أيدي العثمانيين . ومع أنه جندي أتقن طرفاً من القوانين ، لعلمها لما ولي ولاية البصرة بالوكالة ، ومحافظة المدينة بالأصالة وهو من فئة قليلة وقفت على روح الجماعات يشتد ويلين عند الاقتضاء ويتجاهل ويتغابى .

قلت له يوماً : أرجو أن توعز لفلان أن يواظب على عمله في المجمع العلمي ، فانه هناك الكاتب والمحاسب ، ولا يأتي إلى عمله غير مرة أو مرتين في الأسبوع ، والقبض والصرف في يده ، وبتخلفه تتأخر الأشغال . فقال مستفهماً جاداً : ومن هذا ؟ فقلت له ، بأسلوب من التهكم شديد : هو قريبك الذي وضعته عندي بدون علمي ، وفرضته عليّ فرضاً ، ما هذا التجاهل يا باشا سامحك الله ؟

وله أمثال هذا كثير كان يصدر منه فأنكره ، وأذكره له فيقطب أو يتكلف التبسم ، وكأنه يقول في باطنه لا يجرؤ احد عليّ مثلك . وكنت للصداقة القديمة بيننا أذكر له ما يحضرني من غلطاته الادارية ، حرصاً على مصلحة الحكومة الجديدة ، فكان يشق عليه سماع كلامي ، وقد يكون ما بدا منه موعزاً اليه به من مقام عال ، وهو لفرط مهارته يوهم من يوهم أن ما يأمر به كله من بنات أفكاره .

كان الركابي يعتمد على الغرباء في انشاء حكومته ، أكثر من اعتماده

على أبناء البلد . وكثر ثناؤه على مدير الشرطة الفلسطيني ، وما كنت أجيبه بحلوة ولا مرة ، على نحو ما كان يبدو منه اذا ذكرت انساناً بخير أمامه ، كان يسكت وينظر الى وجهي ، كأنه لا يوافقني على قولي ضمناً .

وأقيل الركابي مرة من منصبه فزرته ، فوجدت داره محاطة برجال الشرطة السرية ، فقلت له : والله لقد شمتُ بك ، وأنا أشهد الساعة الجواسيس يقفون في مدخل دارك ومخرجها ، وما جاؤوا إلا بأمر مديرهم صنيعتك ، فأنت الآن تنال جزاءك لاعتمادك على مثله ، كأنك لم تجد من أبناء البلد من يقدر أن يكون مدير شرطة في هذه المدينة ؟ ويكون أكثر ادارة من هذا الذي أضجرتني بثنائك عليه . فسكت ، كأن الكلام غير موجه اليه .

قال لي يوماً : قل لأصحابك فلان وفلان أن يعتدلوا وإلا عزلتهم ، فقد بلغني أنهم يتجوزون في الخروج على القوانين ويضيعون الحقوق . فقلت له : إن هذه الملاحظة إذا صدرت منك يكن لها الوقع الذي تتوخاه ، فانهم أحبابك مثلي ، وأنت الذي أتيت بهم إلى الحكومة ، والأجدر بي الا أكون سفيرك اليهم بذلك . ولو كان ينوي عزلهم حقيقة ما توقف عنه ، كما فعل مع من لم ترضه حالتهم وأراد انقاذ الحكومة منهم ، فنحاهم بطرق له غريبة ، فيها كثير من الدهاء والذكاء .

كنت أقول للركابي باشا : انكم لتسارعون إلى تعيين الموظفين من الفلسطينيين وفلسطين فيما أحسب ستنفصل عنا ، فان كنا نحبها فلنترك لها رجالها ، ونحن هنا في غنية عنهم وعندنا من عيارهم كثير ، والمصلحة أن نوظف من كثرت شكواهم من حرمان الوظائف ، والأولى بنا أن نستخدم الشبان ونمرنهم لننتفع بمواهبهم ، فكان يشق عليه قولي . وما أدري إن كانت هذه خطة مدبرة بينه وبين أولياء الشأن حتى يخلو الوطن القومي اليهودي الجديد من الرجال ، ويعمل اليهود في أرض الميعاد منفردين لتأييد سلطانهم عليها .

وقال لي الأمير فيصل في هذا الصدد شيئاً فقلت له : قلتم لنا أو قالوا ستكون الولايات العربية كلها دولة واحدة ، فاغتبطنا وفرحنا ، وتطوع أبناؤنا في خدمة السلطان والدك لتحقيق هـذه الغاية ، ثم قلتم سيستقل الحجاز وحده ، وسورية وحدها ، والعراق وحده ، فرضينا مرغمين ، والآن نحشر الرجال كلهم في سورية ونخلي فلسطين من أبنائها ، فتقولون إنكم وفلسطين سواء . فأكد لي أن مصير سورية الجنوبية وسورية الشمالية واحد ، ولعله كان يعني أن يكون لهما انتدابان مختلفان فقلت له : اللهم استجب ، وأكبر ظني أن هـــذا الكلام كان مما لقنه من الذين كانوا يوحون اليه من وراء ستار . ولعله كان لمن حرص كثيراً على جلب الفلسطينيين إلى سورية الجنوبية ، دخل في نقل حديثي إلى من يعنيهم الشأن . فكان درس الأمير فيصل الذي القاه عليّ فصل الخطاب في هذا الباب .

ارتأى الركابي مرة أن يصانعني ، وهو معزول عن منصبه ، فقال لي أثناء زيارته لي في داري ، وقد استقبلته في مكتبي ، وأنا وراء منضدتي : أرى أنه سينبعث علم كثير من هذه الغرفة ، فشكرت لطفه ، وما كان يصدر منه بعض هذا المدح لو كان قابضاً على زمام الأمر . لانه تتبدل نفسيته وهو في المنصب تبدلاً محسوساً على ما كنت أراه .

بدا له أن يعرّب الحكومة والأهالي ، فكان لا يسمح لأحد أن يتكلم بالتركية أمامه ، ولو كان لا يعرف غيرها ، وينفر من كل من يلفظ لفظة واحدة منها ، وقيل انه استدعى مرة ترجماناً ليترجم له كلام رجل تركي وينقل له كلامه بالتركية ، وهو يعرف التركية كالأتراك ، قضى جل عمره لايتكلم بغيرها ولا يكتب سواها .

ولما عاد الركابي من شرقي الأردن ، وقد اقيل أو استقال من رياسة وزارتها ، حدثته نفسه أن يكون مع الفرنسيين كما كان مع البريطانيين ، لأنه خدم الفرنسيين خلال الثورة السورية كما قيل ، فأقبل يتودد اليهم ،

وما أدري أي خيبت وعده بمعاضدة الفرنسيين ، إذا خاض المعركة النيابية ، فتورط ودخل الانتخابات ففشل ، وكان كل رجائه أن يعود إلى رياسة الوزراء في سورية ، وأتخذ لذلك عامة الأسباب ، واستكتب الصحف والكتاب ، ناسياً أن التجلي لا يعـاد ، وأن من الصعب التمتع بالحظوة في دورين .

نحي السيد الركابي مرة فجمع له عبد الرحمن باشا اليوسف أعيان البلد ، وأصرَّ عليَّ اصراراً شديداً أن أرافقهم الى الأمير زيد انشفع بالركابي فنعيده إلى عمله . ولما استمع الأمير اليهم ودعهم ، وأشار اليَّ بالتخلف عنهم وقال : وأنت أيضاً يا استاذ تشفع للركابي كأنك لا تعرفه ؟ أتدرون ماذا كانت مكافأة عبد الرحمن باشا من الركابي ، لما عاد فاستلم زمام الحكم ؟ كانت مكافأته أن أثار عليه فلاحيه في البطيحة ودياب على ما نقل إليَّ . وإذا ثار عليه فلاحوه خسر مزارعه هنـاك ، وثمنها لا يقل يومئذ عن مليون ليرة عثمانية ذهبية .

ونقل لي أنه دخل عليه أثناء جلاء الترك مبلغ من المال عظيم أعطاه الأتراك أياه ليستخدمه في أمور سياسيـة لمصلحة الدولة التركية ، وقيل إن البدو سلبوه إياه ، والذي عرفته أنه يكره المرتشين والسارقين ، ولو صح ما يتهمه به بعضهم لكان له في آخر أيامه مال يترفه به ، وقد رأيناه مقتراً عليه على كثرة الرواتب التي درت عليه ، والهبات التي وصلته ، والنفقات المستورة التي كان اليه صرفها ، وهو غير متهم بريبة ولا يقامر .

لما دخل الفرنسيون دمشق ارتأيت أن يؤلف وفد من شبان المسلمين الذين يحسنون الفرنسية لزيارة الجنرال غوابيه ، وقلت في نفسي إن ما حسبه العقلاء قد وقع ، والعاقل من يخفف الشرّ ما أمكن . والأحجى أن يظهر شبان البلد بمظهر الكرامة . فاتفقت مع السيد صبحي الحسيبي على الأشخاص الذين يدعون إلى الذهاب ، على ألا أكون معهم . وكان الركابي دخل الدار ، وأنا خارج منها ، فسأل عن سبب مجيئي فذكر له ابن الحسيبي

ما عوانا عليه من دعوة الشبان لزيارة القائد ، فقال : إنه يطمع في أن يستغلكم . كأن بيني وبين الفرنسيين حاجزاً لا يزيله غير هؤلاء الفتية ، وكانت النتيجة التي كنت أتوقعها أن المنتدبين لم يتعرفوا الى شبان دمشق وأتوا بغيرهم ، ووسدوا اليهم الوظائف ، فكان أعظم عظيم منا يحجبه المستخدم اللبناني (الذي جرى التعويل عليه) الساعة والساعتين لا يبالي به ، وظهر للداخلين أننا أمة لا نعرف مصلحتها . وكل ذلك بفضل نصائح الركابي واساءة ظنه بي .



تأثير البيئة

لشدّ ما أشعر في مصر اني غير ما أنا في الشام ، وفي الغرب غيري في الشرق ، وفي القرية غير ما أكون عليه في الحاضرة ، ولذلك أعذر بعض من تستهويهم بيئتهم ، فتصدر عنهم آراء مستغربة متضاربة ، ولا أعذر من يطلق المنطق الصحيح ، مهما كان البلد الذي ينزل فيه ، والنحلة التي ينتحلها ، فالمنطق واحد في كل جيل وقبيل ، وفي كل مصر وقطر .

حدَت شهوة الشهرة والإغراب صاحبي أمين الرَّيحاني اللبناني (١) على ان يظهر مرة في مظهر مؤرخ ، وما كان ُعرف بغير الكتابات الادبية ، ومعظم تاريخه في نجد كان املاء صاحب نجد على ما روى الراوون . فاقتبس من كتابي (خطط الشام) السيئات التي راقته وجسمها ، وألبسها ثوباً من خياله ، ونشرها في كتاب سماه « النكبات » حمل فيه على بعض رجال الاسلام ، وزيف ما قاله المنصفون فيهم ، ولجأ إلى قاعدة « خالف ُتعرف » ومما نصح به المسلمين أن يتركوا التناغي برجالهم وتاريخهم ويتبعوه ، وما أعرف إلى أين ؟ ولعله يقصد أن يلتحقوا به ليمتلوا ملته ، وكان جاهر كثيراً أنه خرج عليها ، وإن كان حبها مما أشربه قلبه ، وهو معذور في ذلك ، فان من المعتقدات ما ُيتوارث مع الدم على ما يظهر . وغريب هذا القول ممن يدعي

---

(١) كتبت هذا قبل أن أفجع بفقده ، وكنا منذ تعارفنا يحب أحدنا صاحبه محبة أكيدة ، ثم طرأت بيننا اختلافات في الرأي ، أهمها جرأته على الطعن بتاريخ العرب والهزوء برجال الاسلام . وكان على ما يظهر صاحب أحوال ، مأخوذاً بالخيال ، وبعض ما كتبه لايفهم ، وآخر ما كتبه جملة مطولة في رثاء الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، أرسلها لي فلم أحلّ معمياتها ، ودفعتها الى الاستاذ فارس الخوري فتلاها ، وهو أيضاً لم يفهم منها شيئاً وأوصى الريحاني أن يدفن على طراز لايشعر بدينه فأبى مطارنة الموارنة الا ان يحملوه الى مرقده الأخير على حسب طقوسهم لم يُخِلّوا بشيءٍ منها ، فلم يُفلت من تأثيرات رجال دينه في الحياة وفي الممات .

الفلسفة ويلقب بفيلسوف الفُرَيكة — والفريكة مزرعته التي ولد فيها — ونعته بالفيلسوف سواء كان من صنعه او صنع أحبابه جميل وعجيب .

والريحاني إذا حاول كتابة التاريخ الاسلامي ، وهو فارغ الذهن منه ، مثلي إذا توخيت ان أدون مناقب قديسه وشفيعه مارمارون ، أو بطل لبنان يوسف كرم الذي غلا بعضهم بشجاعته غلواً مضحكاً ، ليقولوا للناس إن جبلهم الاشم أنبغ الابطال كما أنبغ الفلاسفة . إن الريحاني ما تحلل على ما رأيت من تأثير البيئة ، وإن قال بالفلسفة ، ودعا إلى حرية الرأي ، وغاية ما أرجو له ومنه ألا يخرج عن المنطق .

كان الريحاني مرة عندي في الدار هو والسيد فارس الخوري يتفاوضان ، وأنا ومن حضر في ناحية بحيث نسمع كلامهما ، فكان مما قالاه ان النصارى في الديار العربية بأسرها لا يكاد يتجاوز عددهم المليون والنصف المليون ، تتخذهم أوربا آلة لسلب حق الاكثرية في الاستقلال ، فالأولى بنصارى الشرق أن ينتحلوا الاسلام ، أو يهاجروا إلى أميركا أو غيرها ، ويتركوا العرب يؤلفون دولتهم الجديدة ، وهم لا يقلون عن ستين مليوناً . ومن كان يقول بهذا القول عاد ينصح المسلمين أن يتركوا تاريخهم ويتبعوه .

أشرت غير مرة على منشيء جريدة هزلية أن يرعى رجال المسلمين قليلاً ، ولا يهزأ بهم ويسخر منهم على الدوام ، وقلت له إن الانصاف يقضي عليه إن كان لا بد من الضحك والاضحاك أن يشرك معهم مواطنيهم من ابناء دينه ، فكان يبسم لقولي ، ومن مصلحته ألا يسقط احداً من أبناء نحلته ، وقاعدته وقاعدة امثاله أن يرفع ابداً من شأنهم ، وإن كان بعضهم موضوع كل سخرية .

ورأيت صحفاً لبنانية تتجاهل ان في العالم شيء اسمه النهضة المصرية ، وما اوّلت ذلك إلا ان هذه النهضة عربية اسلامية في ذاتها ، ويسوء المتعصبين أن يعترفوا بما وصلت اليه مصر من الرقي ، وأن ينسب لغير ابناء دينهم شيء من النهوض ، وكان بعضهم إذا اضطروا الى ذكر امر عن مصر ،

يذكرونه باشمئزاز وتقزز ، وهذا من اشنع اصناف التعصب ، يحمل في مطاويه ، المكابرة في البديهيات والمحسوسات . وما إخال هذا التمويه ينطلي حتى على السذج من سكان مزارع قمم لبنان .

لي صديق من اعيان الموارنة وأغنيائهم المثقفين ، سافرت معه مرة بحراً من بيروت إلى مرسيليا ، وعدنا معاً من مرسيليا إلى بيروت وكنا طول الطريق نتصارح ونتبادل الافكار ، ونتناقش مناقشة جميلة ، وكذلك كان دأبنا كل عام منذ خمس عشرة سنة نتفاوض في السياسة الوطنية . فكان إذا ذكرت له سورية انقبض صدره ، ويزيد انقباضه إذا ذكرت له الوحدة السورية ، وبينت له فوائدها الاقتصادية والقومية ، وكان يدعي أن النصارى يذوبون في الوحدة السورية إذا تمت ، لأن الأكثرية تكون بيد المسلمين ، ويصبح النصارى اقلية ، وليت هناك من يسأله ولمَ لم يذب النصارى تحت حكم المسلمين خلال ثلاثة عشر قرناً في هذه الديار ؟

وكثير ما صرح فقال : إنكم (أي المسلمون) منحطون ونحن (اي النصارى) ارتقينا الى درجة لا نستطيع معها أن نعيش معكم ، والى اليوم لم تأتوا ببرهان على ترقيكم ، ومتى كشفتم حجاب نسائكم على الاقل تثبتون أنكم تمدنتم ، فكنت اقول له ان رجالنا اليوم احسن منهم أمس ، وان الحجاب يزول بطبيعته على ما نشهد ذلك في مصر وبعض حواضر الشام ، وان الحجاب اليوم مفقود تقريباً من القرى . ورجوته غير مرة أن ينزل عليّ ضيفاً في داري ، لأجمعه الى مختلف الطبقات من المسلمين فيسمع كلامهم ، ويحكم بنفسه أنا ارتقينا ، وأنا لسنا كما يتوهمنا المتعصبون شعباً لا يقيم للحضارة وزناً . وقال لي غير مرة : لو كان كل المسلمين مثلك لدخلنا في الوحدة معكم ، فكنت أقول له : إنك تطلب المستحيل لو كان كل المسلمين مثلي لانقرضوا ، وعجبت من هذا المنطق المقلوب ، والتمويه الذي لا يجوز على عاقل .

ومن جملة ما أورد عليّ من عيوب المسلمين قوله إنهم غير أهل للحكم وذكر لي مثالاً على إثبات قضيته وقع له في محكمة لبنانية رئيسها مسلم ،

وخلاصة ما قال ان له اراضي كان ابوه يملكها من قبل ، لم يحكم له المحكمة بها لأنه غير مسلم ، وبحثت عن هذه الأرض فعلمت أنه حكم له بها في محكمة البداية ، وكان الرئيس مسيحياً . ثم اخذ هذا الرئيس واودع السجن مدة لما ثبت عليه من الرشوة ، وسألت القاضي الذي لم يحكم في الاستئناف وهو صديق لي قديم ، فعرفت ان مساحة تلك الاراضي واسعة جداً ، تبلغ عشرات الألوف من الأفدنة ، قامت عليها مزارع وأحياء وجوامع وكتاتيب ، وهي اليوم تساوي بضعة ملايين من الليرات ، وكان أبوه ادعى ملكيتها ومعه سند تمليك مزوّر ، وأرادت الحكومة العثمانية القبض عليه فهلك قبل أن يقع في قبضتها ، فانظر إلى هذه الأهواء الشخصية التي مزجت الخصوصيات بالعموميات .

أبحرت مرة من بيروت قاصداً مرسيليا ، وكان رفاقي في الدرجة الأولى زمرة من أعيان تجار اللبنانيين المسيحيين من نزلاء أميركا الجنوبية عادوا بعد أن تفقدوا أهلهم ووصلوا رحمهم ، ونشقوا هواء مساقط رؤوسهم ، فتعرفت إليهم وحصلت في الحال معهم ألفة ، كأننا كنا أصدقاء من القديم وما كنت عرفتهم من قبل ، وبعضهم عرف اسمي من الصحف والكتب ، وكان معنا على ظهر الباخرة آنسة افرنسية راقية لصحبنا طول الطريق ، لا تكاد تفارقنا إلا في ساعات النوم ، فعجبت من هذا الحب الماثل بيننا وهذه العواطف التي كنا نتبادلها ، وقالت لي : عجيب تحابب السوريين ، فقلت لها : صحيح أننا أبناء وطن واحد إلا أن أول تعارفنا كان في هذه الباخرة ، فزاد عجبها ، فقلت لها : نحن السوريين على ذلك إذا كنا خارج أرضنا ، بعيدين عن المؤثرات الطائفية والنعرات السياسية .

فتح لي اولئك الوطنيون قلوبهم ، وكانوا يأسفون لتمزيق سورية إلى دول صغرى ، ويودون لو تمت الوحدة العربية ، ليكون لهم كيان في أرض المهجر ويعتزوا بقوميتهم ، على ما يرون اقل الامم شأناً يفاخر أبناؤها بجنسيتهم . ولم أعلل كلام رفاقي الأفاضل ، وكانوا يتكلمون عن عقيدة

لا رياء فيها ولا تدجيل ، إلا لكونهم عاشوا في أرض حرة ، وأدركوا فيها معاني الوطنية والقومية ، وسلموا من عسلطات رجال الدين ، وتضليلات الكهنوت الغربي . وما كانوا كالذين يدعون الفلسفة وأعمالهم على خلافها ، ولا كذاك الصحافي يُضحك قراءه على حساب المسلمين ويستثني من السخرية عمداً أبناء طائفته ، ولا كذاك الوجيه الماروني الذي يطمع أن يستولي على أرض تبلغ مساحتها مساحة ناحية كبيرة بطريقة غير شرعية ، وإذا لم توافقه المحكمة على رغبته فالمسلمون أغبياء أرباب تعصب وأصحاب أغراض ، وليسوا أهلاً لتولي الاحكام . نعم أدرك اولئك التجار الأذكياء من اللبنانيين أن بلادهم لا تنجح إلا اذا اتحد أهلها ، وتحابوا على اختلاف نحلهم وأصقاعهم وقصوا عليّ من ويلات رجال الدين قصصاً لا يبوح بها إلا أمثالهم من المنورين الأحرار ، وما كانوا بحاجة إلى أن يصانعوني ، ولا أن يصانعوا غيري ، والذي يظهر غير ما يبطن قد تدرك حقيقته بالنظر إلى وجهه .

ثوب الرياء يشفّ عما تحته فاذا التحفت به فانك عاري

ولطالما قلت مع القائلين إن جماعة الانفصال عن سورية من أهل لبنان لا يبلغون خمسة في المئة ، واكثرهم ممن يطمعون في حلب المنزة ، وأن يتولوا الوظائف ويستثمروا لبنانيتهم ، والباقون وهم السواد الأعظم لا يرون غير الوحدة مخرجاً ، لما يتوقعون من ثمراتها الجنية ، يقطفها المواطنون على السواء . وكلهم لا يصورون المسلم شخصاً مرعباً ، كما يصوره رجال الدين والسياسة والمستوظفون جرياً وراء أغراضهم .

حدثني صديقي لبيب الرياشي من أدباء لبنان النصارى ، وهو الذي وضع كتاباً في الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال : سألني أحد قضاتنا في جونية عما أكتب في النبي العربي ، فقرأت له فصلاً من فصول كتابي ، فاستمع إليه وهو واقف موقف الخشوع والتأدب . فسألته لِمَ يقف على هذا الشكل ؟ فقال : إن من عادتنا أن نقف اجلالاً لمن نرى أنهم كبار

أفلا نقف لأعظم عظيم في العرب الذي هدى ثلاثمائة مليون من البشر لعبادة الخالق . ونحن وإن كنا نصارى فالواجب علينا تعظيمه لأنه رسول العرب ونحن منهم . فانظر الى هذا الأدب وقسه بما صدر من مسيحي آخر يوم احتل الفرنسيون دمشق بعد وقعة ميسلون قال لصاحبه المسلم ، وهو أخوه في الماسونية وينتحل الكثلكة : يا فلان هل بقي لكم شيء تستطيلون به علينا ، أصبحتم أنتم ودينكم ونبيكم وكعبتكم تحت أقدامنا . وكان هذا الرجل وأبوه وجده ممن عاشوا بنعمة المسلمين ، وما رأوا منهم إلا كل رعاية . فكان هذا شعوره الذي أوحته اليه بيئته ، يوم رأى أعلام الفرنسيس ترفرف على سورية ، فأهان الاسلام وصاحبه هذه الاهانة . وكأن الجيش الفرنسي اتصل به يومئذ ما ينبعث من أفواه بعض المتعصبة ، فنشر منشوراً علقه في الكنائس جاء فيه أن كل من يذكر الاسلام ورسوله بسوء يقتل بالرصاص حالاً ، فسكتت ألسن المتعصبين والحمد لله رب العالمين ، رب اليهود والنصارى والمسلمين ، ورب المجوس والبراهمة والبوذيين .

عظيمان عند ابن عمان

ألا من حدثته نفسه أن يعرف كيف يحطّ الحظ بعض الخاملين فيرفعهم إلى مراتب النابهين في الحكومات الاستبدادية فليسمع ما قصه علي والدي :

« كنا بضعة تجار من الشاميين في استانبول ننزل في خان من خاناتها ، ولم تكن الفنادق يومئذ معروفة ، وكنا نتآلف ونشترك في النفقة والسمر . وكان يزورنا درويش شاب أسمر اللون ، جهوري الصوت ، تبدو إمارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعتمّ بمئزر ، ويكتسي عباءة وقفطاناً ، ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم . وما كان يشاركنا في النفقة ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة . وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي الرفاعي وليد قرية خان شيخون من عمل حلب .

« وجرنا الحديث في إحدى العشايا الى البحث عن أفضل من مشى على الأرض بعد رسول الله ، وذهبت بنا الآراء كل مذهب ، وأخذ كل منا يدلي بما يراه ، فصرح أبو الهدى برأي لم يرض عنه الجماعة ، وعدّوه تهجماً على الصحابة الكرام . قال إن نقطة واحدة أُهريقت من دماء آل البيت أفضل من كل من مشى على الارض بعد الرسول ، فقال له مناقشوه : فأين إذاً ياجاهل يبقى ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وكبار الصحابة والائمة ، وقام أحدهم ولطم أبا الهدى على وجهه ، وحاول أن يزيده صفعاً ، فحلت بينهما ، معتذراً عن أبي الهدى بأنهم لم يفهموا قصده ، وأولوا كلامه تأويلاً ما كان يريده .

« مضت أيام انقطع فيها أبو الهدى عن مجالس أصحاب الخان ، وعرضت في غضون ذلك لبعض الشاميين مسألة اقتضى أن يكلم بشأنها ناظر الضبطية (الامن العام) فانتدبني اخواني للقيام بهذه الوساطة ، بدعوى أني أعرف

قليلاً من التركية ، وصورتي مقبولة ، وأني جسور اعتدت مقابلة الكبراء ، فذهبت الى النظارة ، واستأذنت على الناظر ، ولما فتحت لي ستارة البهو ، كان أول ما وقع عليه نظري ذاك الصاحب الذي انقذته من الصفع يوم الخان ، شاهدته قاعداً في صدر المجلس والناظر جالس بين يديه جلسة الصغير مع الكبير . وأدركت في الحال أن الشيخ أبا الهدى أصبح ذا مظهر جديد حتى صار مثل ناظر الشِّحنة على رفعة مقامه يقعد منه مقعد المخبت المتهاوت . ولم ألبث أن عدَّلت على رأسي عمامتي ، ورددت طرف جبتي على قامتي ، وتقدمت بأدب نحو أبي الهدى أسلم عليه أولاً ، وأظهر أني أحاول تقبيل يده . فلما شاهد أبو الهدى حركتي هذه انتصب قائماً وخفَّ للسلام علي ، وعانقني بلهفة عناق الأخ أخاه ، وأخذ يسألني عن صحتي وأعمالي . والتفت إلى الباشا الناظر يعرفني اليه تعريفاً جميلاً ، ويثني علي الثناء المستطاب ، قائلاً هذا فلان من أعيان دمشق وكبار تجارها ، وهو على جانب عظيم من الأدب والفصاحة ، ثم تكلمت في المسألة التي جئت من أجلها فانحلت في الحال .

« وبعد مغادرة النظارة علمت أن السبب في تقدم أبي الهدى هذا التقدم السريع هو أن امرأة الناظر هذا أصيبت بمرض أعجز الأطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فتذرع بكل مافي وسعه لشفائها ، ولما كاد ييأس من عافيتها وصفوا له أبا الهدى الصيادي ، وما يكتب من حجب وتمائم ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ، فاستدعاه ليطب حبيبته بما عنده من بضاعة المشايخ ، بعد أن عجز الطب الحديث عن برئها . والغالب أن الشيخ لم يقطع ترتيب الطبيب ، وترك السيدة تتناول ما وصف لها من أدوية وعقاقير فبرأت بعد أيام . فعظم مقام الشيخ في عين سيدها وشاع بذلك ذكره في دار الملك ، وكثر قصاده والمعتقدون به ، وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم ، ويسارعون إلى تصديق من يعتقدون فيه الخير .

« ولم تمض أيام حتى أصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثاني

بعارض يشبه عارض امرأة الناظر ، فعلم الوزير بالامر وعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبي الهدى مع زوجه ، وقال فيه كل خير حبَّبه إلى السلطان ، فاستدعاه لمداواة حظيته بأدعيته ، فجاء يداويها بما داوى به امرأة الناظر ، فشفيت الجارية بعد أيام . وأعقب ذلك الصال أبي الهدى بالسلطان عبدالحميد.

أقبلت السعادة على الشيخ الصيادي فتقمصها ، وسيق اليه العز بعد الخمول . فاصبح مستشار السلطان ، وأحد الرجال الممتازين في دولته ، يستأمره في المسائل العظمى ، ولا لصبر نفسه عن فراقه زمناً طويلاً ، وكان من أعماله مكافحة المذهب الوهابي لئلا يتسرب إلى العراق والشام ، لأن السلطان كان يخاف على ملكه في ديار العرب من الوهابيين وصاحبهم . وقد يتعمد الشيخ أحياناً اظهار الغضب على السلطان ، فينقطع عن غشيان قصره مدة ، فلا يرى السلطان بدأ من أن يسترضيه بالهبات العظيمة ، ليعود إلى ما كان عليه معه من التواصل ، وأصبح صاحب الكلمة العليا حقاً بين أرباب الدولة ، والشفيع الصادق الذي لا ترد شفاعته ، يشير على السلطان بنصب من يرضى عنهم من الرجال ، وينصب حتى (الصدور العظام والوزراء الفخام) وبعمله هذا أصبحت الوزارات أو بعضها رهن اشارته في كل ما يطلب اليها .

وكان من سياسته أن يحمل سلطانه على الاعتقاد أنه صاحب النفوذ الاكبر في الولايات العربية ، رصاه رضا العرب وغضبه غضبهم ، وأن عرب السلطنة العثمانية في قبضته ، يحركهم ويسكنهم كما يشاء . واقتضته هذه السياسة أن يتخذ لها من الذرائع السرية والجهرية ما يلجأ اليه بعض الماكرين من السياسيين الماهرين ، ويتحيل لبلوغ مقصده بكل ماأوتيه من ذكاء ودهاء . ولقد رأى من متممات هذه السياسة أن يفتح بابه لكل طالب ، فشخص اليه أرباب المصالح من الاقطار العربية ، يتوسلون بجاهه للحصول على رغائبهم . هذا يريد أن يتولى القضاء أو الافتاء ، وهذا يرغب في ترقية درجته في دائرته ، وهذا ينشد عملاً يعيش به في بلدته ، وهذا تحلب شفتاه لاحراز رتبة وتقلد وسام ، وهذا يكتفي بأن يثبت له نسبه ويصادق عليه ، وهذا يطمع

في الاستيلاء على وقف عظيم ، وهـذا ينازعه جاره او شريكه في أرض ويحاول هو استصفاءها كلها ، كل هؤلاء ومن على شاكلتهم يفدون على السيد أبي الهدى فينشلهم من الفقر ، ويسوّدهم على الدهر .

وعلى ما بلغ الشيخ من مقام سام ، ظل محافظاً على ما كان عرف به أول أمره ، فلم تلهه مباهج الحياة ولا القرب من خليفة الترك ، ولا ما كان يتمتع به من جاه عريض ، عن ممارسة طريقته ، والولوع بالانشاد كما كان ينشد ليالي الخان مع مواطنيه الذين ماعرفوا قدره . فأقام إلى جانب قصره لهذا الغرض زاوية ، ينزل بنفسه إلى حلقة الذكر فيها ، مرتين في الاسبوع ، وينشد ، وهو يضرب على الطار ، ما طاب له أن ينشد . ويترنم بقصائد كان يؤثرها ويقول إنهـا من شعر شيخه الرواس ، زاعماً ان هذا الشيخ كان بغدادي الاصل ، تعلم في أزهر مصر ، وأنه وافاه في آخر عمره إلى قرية خان شيخون ، وأعطاه الطريق ودفع اليه شعره ولقّنه سره . وقد بنى الصيادي لشيخه زاوية في مدينة السلام ، وفاءً لحقه عليه ، وتكريماً لاسمه ، وتنويهاً بتقواه ، كما بنى مثلها في أماكن من ديار العرب ، رأى حاجتهـا ماسة إلى نشر طريقته . أما الشيخ الرواس صاحب الشعر الذي كان محبباً إلى قلب أبي الهدي فقد حدثني الثقة أنه شخص موهوم ، وما عرف رجل اسمه الرواس صاحب طريقة وشاعر مقبول الشعر . سرّ من الاسرار لم ينكشف لأحد ،

يقول بعضهم إن أبا الهدى لم يكن على شيء كثير من العلم والأدب أول ظهوره ، فلما عظمت شخصيته جلب معلمين لأولاده ، فكان بحجة أنه يلاحظ دروسهم يستمع لما يلقيه الاساتذة ، وبذلك تعلم ما قوي به على وضع بعض كتب في التصوف والأدب بلغت نحو أربعين رسالة وكتاباً . وقيل إن بعض خواصه نحله بعضها ، وإنه ما كان ينظم ولا ينثر ، والناظمون والناثرون بعض قاصديه وعفاته . على أن من زاروا الشيخ في أواخر أمره كان يستهويهم بجميل حديثه ، وسعة محفوظه ومكارم أخلاقه ، وشدة عطفه على العرب من دون سائر العناصر العثمانية .

وأهين الشيخ في الانقلاب العثماني (١٩٠٨) اهانة لا يليق صدورها من أولياء الأمر يومئذ ، سلطوا عليه الرعاع ، وهم يحملونه مريضاً إلى الحبس وهو شيخ معمر ما كان مع السلطان في مقام المتجسس ، بل في مقام الناصح المرشد ، دلت على ذلك تقاريره التي عثر عليها في جملة ما ظفروا به من اضبارات السلطان المخلوع . وأكد العارفون انه ما خاطبه مدة اتصاله به إلا بما فيه نفع الدولة ، حتى لقد قال كبير حزب الاتحاد والترقي لجماعته ، لما عرتهم الدهشة مما في هذه الأوراق : اكتموا الأمر ولا تنشروها ، وإذا فعلتم لعلو منزلة أبي الهدى في النفوس ، وربما عاد القوم فقدّسوه وتبركوا به ، فتزيدون ولياً آخر إلى أوليائكم .

هذا مجمل ما يقال في أولية السيد أبي الهدى وخاتمته ، وهو لم يتوخ في معظم ما أتاه إلا رضاء السلطان لتدوم له نعمته ، وما كان في الواقع غير رجل وصل إلى ما وصل إليه بمواهبه وجربزته . وما كان لنغمة الاصلاح مكان في نفسه ، ولا لتوسيد أعمال الدولة للكفاة شأن عنده ، بل كان هواه في تكثير عدد أنصاره ، وارضاء المرتزقة الذين دأبوا في كل زمن أن يعيشوا على عاتق الملة حلمة طفيلية تمتص الدم وتعرق العظم . والمصلحون أفراد في كل امة ، وابو الهدى ما ادعي أنه منهم ، فهو قد نشأ على حب الطريقة ، والتغني بالجمال ، والغرام بالخلوات ، وبقي طول اتصاله بالسلطان لا همّ له في الظاهر إلا بثّ دعوته واثبات نسبته . سعى لما فطر عليه وأخذ من نفسه ، ولا ينفق الانسان إلا مما عنده .

بعد أن استمتع أبو الهدى بالحظوة لدى ابن عثمان أعواماً ، وخدم السلطنة العثمانية بمحاربته الوهابية ، جاء رجل آخر من أبناء العرب نفق عليه بأسلوب خالف فيه اسلوب الأول ، وخدمه في سياسته الداخلية والخارجية ، وكان من عادته أن يبدد أوهامه ، ويجرئه على ساسة الغربيين ، ويقفه على أحابيلهم ودسائسهم ويقول له أبداً : إن دول الغرب إذا وقع

اتفاقها على الدولة فلا رجاء في بقائها ، أما وهي متخالفة فعلى السلطان أن يسرح ويمرح ، وألا يلتفت إلى ما يلقيه بعض رجاله في رُوعه بتخويفه غضب رعاياه وغضب اوربا ، فهذه مسائل ليست في الحقيقة مما يجب أن يأبه له أمير المؤمنين .

هذا الرجل من أهل دمشق ينتسب إلى قبيلة الموالي العربيه ، جاء السلطان العثماني بجهاز لا بأس به من لغات ومعلومات حقوقية ومالية ، واسمه أحمد عزت العابد ، من أسرة ذات وجاهة وسابقة في خدمة الدولة . وكان أيضاً نادر الذكاء ، واسع الحيلة ، أوصله إلى المليك أحد كبار مقربيه ، وكان من قبل في منصب عال في الاستانة ، فاختبره السلطان ثم جعله موضع ثقته ، واتخذ منه رجلاً يرسله في العظائم ، ويعوّل عليه في الخطوب .

كان اسم وظيفته الرسمية قرين الحضرة السلطانية والكاتب الثاني في القصر الملكي ، وعمله في الحقيقة من أهم الأعمال . كان ينظر في الارادات السلطانية ويرى فيها رأيه ، وقد يوقف نشر بعضها بعد صدورها إذا وقع فيها على نقص ، أو ما يلحظ منه ضرر يعود على السلطان أو السلطنة ، فتعاد الارادة لتلبس قالباً ثانياً ثم توشح بالاسم السلطاني ، أو يصرف النظر عنها بالمرة . والسلطان يحمد ذلك من معتمده ويرتضيه ، لاعتقاده اخلاصه ومعرفته . وأكد العارفون أنه كانت تعرض للسلطان في الليل عوارض تضطرب لها أعصابه فتصدر بعض اراداته في تلك الساعة خداجاً ناقصة . فمنزلة أحمد عزت باشا في القصر كانت إذاً منزلة المستشار الثقة وصاحب الخبر الأمين .

تفانى ابن العابد في حب مولاه ، وكان يهون عليه أن يحتمل ضروب الاهانات ، وأن تشوه صحيفته عند الخواص والعوام إذا كان في ذلك رضا سلطانه ، وربما كان من أهم أعماله مراقبة أحوال الوزارة وما تنقضه وتبرمه ، وكثيراً ما يلقى من ذلك عنتاً إذا كان رئيس الوزارة أو أحد وزرائها حراً أبياً كما وقع أن هجم عليه مرة رضا باشا وزير الحرب وضربه بالكرسي على رأسه فأدماه ، لما دخل عند انعقاد مجلس الوزراء ، وليس

من حقه أن يدخل إليه ولا أن يتكلم فيه ، وكان الوزراء يتفاوضون في ثورة اندلع لهيبها في اليمن ويفكرون بارسال حملة تطفئها .

نعم كان يجعل من نفسه مجناً يدرأ به عن سيده ، فيحتمل دونه تبعة أعمال سياسية خطيرة . ووقع له لما خبأ في جيبه برقيات أتت من قائد الحملة اليونانية ، لأن مولاه كان يحاول التسويف في اعطاء الجواب ، ولا يحب في باطنه أن يدخل في حرب مع اليونان ولا مع غيرهم . فرضي ابن العابد أن يطعن به الطعن الشديد ، ويُغضب رجال الدولة ، وكانوا يرون اشهار الحرب على العدو ضربة لازب .

وربما لم يحنق الأتراك على أحد من أبناء العرب الذين شاركوهم في الحكم مثل حنقهم على ابن العابد ، جاهروه بالكراهة الشديدة ، وكراهتهم له ناشئة من استئثاره بمقدرات المملكة ، وببعض الغنائم التي كانت وقفاً على أفراد منهم ، ولأمور كانوا يعزونها اليه تتعلق بالأعراض . وحدثني أحد من اختلطوا به كثيراً أن حب قوميته كان ماثلاً فيه كل المثول ، حتى ليجهر بقوميته أمام أعرق الأتراك في التغني بقوميتهم ، ولطالما أظهر لهم الوشم الذي طبع على معصمه الأيمن ، وهو يوقع الأوراق الرسمية ليريهم أنه فخور بعربيته ، وأن أصحاب الدولة في حاجة ماسة اليه ، على طول استئثارهم بأمور الملك ، ولكن هذه الفصول أشبه بالهزل منها بالجد . ولو كان على اخلاص فيما زعم لأتى بدليل حسي على حبه قومه ، ومن يهوى أمته وكان في مثل مقامه ينهض بها ويدلها على الطريق السوي ويحقق لها امنية من أماني المصلحين .

وإذا جئنا ندرس أخلاق المترجم له فلا نجدها تخرج عن أخلاق سائر المتعلمين من أبناء السلطنة في ذلك العهد ، يتقنون لغة الدولة للتسلق إلى المناصب ، ويتفقهون فيما يلزمهم من العلم ، ليجدوا السبيل إلى تسديد أعمالهم ، ويجمعوا أموالاً من طرق يستحلونها . ولم نسمع أن أحداً من أبناء العرب على العهد الأخير بذل لقومه من ماله وجاهه ما ينفعهم حقيقة ، ومنهم من كانوا إذا خلوا بالأتراك يبرؤن من قوميتهم ويشتمون قومهم . أما أبو

الهدى الصيادي وعزت العابد فقد أرضيا الناس بالقشور ، وقد تكون مُرّة ومضرة أحياناً ، فأعمياهم بالمناصب والرتب والأوسمة ، وحملا حثالات من الموظفين على رقاب الامة حتى ضجت بالشكوى من مظالمهم واستباحتهم كيد الضعفاء . كان من دواعي تقدمهما كونهما من أبناء العرب ولم ينفعا من تقدما على حسابهم بشيء يذكر . وكان السلطان يصطنع العرب وغيرهم من العناصر ليقوى بهم على الترك ، وهؤلاء كانوا يبغضونه وما زالوا به حتى خلعوه .

كان عزت العابد مثل رجال السلطنة في أخلاقه ، ولا يتيسر أن تكون سيرته أطيب من سيرتهم في مملكة غاية ما يقال فيها أنها مجموعة عناصر متشاكسة ، نصف أهلها على النصف الآخر جواسيس ، كما قال أحد الظرفاء ، وفي عهد سلطان حببت اليه الوشايات حتى أصبح الابن يتجسس على والده ، والمرأة على زوجها ، وهو لا يرى سلامة ملكه إلا إذا كان رجاله مختلفين ، وامته متدابرة متباغضة ، كأنه كان يحب أن يحكم رعيته بالدسائس لا بالعدل والاحسان .

وبينا كان الشيخ الصيادي متوفراً على تأييد نفوذه في ارض العرب ، ودعوته اناشيد وطارات ، وخوانق ورباطات ، كان أحمد عزت باشا يجد لانشاء الخط الحديدي الحجازي من حيفا إلى درعا ومن دمشق إلى المدينة ، لتربط جزيرة العرب بآسيا الصغرى رباطاً محكماً ، واليه يرجع الفضل بعد اعانات العالم الاسلامي في تمديد هذا الخط العظيم ، وقيل إنه ما انتفع بشيء من أمواله . ولو تأخر سقوط عبد الحميد عامين آخرين لاتصل الخط بمكة ثم بصنعاء .

لهج عزت باشا بتجهيز الشام والحجاز بالكهرباء ، وخطوط الحديد والترام ، كما لهج منافسه بعمل كل ما يؤثر في أفكار أهل الأمصار ، ومن الطرق إلى ذلك ارضاء قصاده ، وكان يعاني من تثقيلهم ما لا يكاد يحتمله انسان . وخدم عزت باشا مولاه أيضاً في المسائل العربية ، وكان ملماً بها لأنه عاش زمناً في الشام حتى بلغ الكهولة ، فعرف نفسية العرب

أكثر من رجال القصر السلطاني ، ومعظمهم لم يخرجوا من فروق الى بعض الولايات إلا على سبيل النزهة أياماً معدودة . والغالب أن سلطان العثمانيين صنف كبار رجال سلطنته أصنافاً صنفاً منهم احتفظ به لخدمته في العاصمة وآخر أرسله إلى الولايات . وابن العابد جمع تجارب أهل القاصية والدانية من رجاله .

كان عمل العربيين العظيمين عند السلطان متشابهاً من وجه ، ومتخالفاً من آخر ، وهو صدق السلطان عن الاخبار ، وكانت المنافسة بينهما على أتمها ، قضت سياستهما أن يعرف (ولي النعم) أنهما عدوان لدودان ، فكان أحدهما يتكلف الطعن بالآخر ، ويظهر كل واحد مساويء قرينه ، ويتزيد في بغضه له .

مات ابو الهدى فقيراً ، وكان متلافاً مسرفاً ، وهلك زميله غنياً موسراً ، ضاماً إلى ثروته الأصلية من رواتبه الضخمة والانعامات السلطانية المتواترة عليه ، عشرات الألوف من الليرات ، أخذها من الامتيازات والشركات وغيرها ، فمدت ثروته بمئات الالوف من الدنانير ، وكان جد عارف باستثمار الأموال وانتهاز الفرص للاثراء ، وهو إلى هذا مقتصد اقتصاداً هو البخل بعينه .

كان الأول قروياً من بيت فقير ، وكان الثاني مدنياً من بيتٍ غنيّ . عانى الأول شيئاً يمت في ظاهره إلى المعاد ، وعني الثاني بما يحتاجه من القوانين وعلوم السياسة . فكانت تربية الأول تربية قديمة ولك أن تقول إنها تربية ابن القرن الحادي عشر من الهجرة ، وتربية الثاني تربية ابن القرن التاسع عشر للميلاد . حاول الأول أن يعيد الخلق إلى ماض خيالي لانفع منه ، وحرص الثاني أن يدفع ببلاده إلى الأمام بعمرانها ومدنيتها . استفاد الأول في حياته ثناء من أحسن اليهم ، وما نفعه يوم سقوطه ، واستفاد الثاني ما كثرت به أمواله فكان عملياً في حياته ما أهمه المدح ولا القدح ، ولا ثناء صحيفة ولا قول شاعر . عشق الشيخ المعنويات وهام الباشا بالماديات .

الرجال الذين عرفتهم في مصر

دخلتُ مصر لأول مرة (سنة ١٩٠١) وبدأت أتعرف إلى رجالها ولا سيما رجال الصحافة منهم وكانت كثرتهم القاهرة يومئذ من أبنــاء سورية ولا سيما من لبنان . وكان الشيخ عبد الحميد الزهراوي الحمصي نزيل دمشق ألّف رسالة في الفقه والتصوف وطلب مني أن أطبعها له في القاهرة ففعلت . وعرف اسم الطابع من البريد ، لأن الرسائل الواردة من مصر تفتح كلها . وعمل الجواسيس من هذه الرسالة موضوعاً يتقربون به إلى ولاة الأمور ، فكان طابع الرسالة كمؤلفها من المغضوب عليهم . فاضطررت إلى البقاء في القاهرة ريثما تسكن العاصفة وينسى الذنب الذي اقترفته .

وكانت جريدة (مصباح الشرق) أرقى جريدة اسبوعية صدرت ، يحررها محمد بك المويلحي ويؤازره فيها أبوه ابراهيم بك من أكبر كتاب ذاك العصر ، وأقدرهم على كتابة الهزل في الجـد . ويطبعها في المطبعة العمومية بشارع عبد العزيز حيث يطبع « الرائد المصري » الذي بدأت احرر فيه في الشهر الثاني من نزولي مصر .

ولم اجرؤ على التعرف إلى المويلحيين ، وخصوصاً الاب ، وتباعدت عنه لما رأيته ينــال كثيراً من استاذي الشيخ محمد عبده ، ويتقول عليه ما لم يقله ، ويصنع عليه أموراً لم يفعلها ، وقيل انه كان مدفوعاً إلى ذلك من مقام عال . وأنا كنت يومئذ أعشق الشيخ ، وأفتخر بالانتساب إليه ، واعجب ببلاغته والقائه ، وأدهش بسيرته وحريته . وكنت أحضر دروسه في التفسير مرتين فى الاسبوع في الرواق العبــاسي في الأزهر . وأغشى مجلسه الخاص في داره بعين شمس مرة في الاسبوع . وسمعت أحد الحاضرين في بعض مجــالسه يقول والمجلس غاص بأصحــاب الشيخ : أرى ابراهيم

المويلحي في هذه الأيام ساكتاً عن مولانا الاستاذ . فقال الشيخ : أنا أحمد الله على ذلك ، ولولا أن الأسد مصاب بالنسيان لافترس جميع الحيوانات . أو ما هذا معناه .

لقيت من الشيخ محمد عبده أول تشرفي به عطفاً استعبدني به ، ولقد قال لجماعته ساعة اجتمعنا أنه قرأ ما كتب في مشروع السكة الحديدية الحجازية ولم يدرك الغاية منها ، ولا تخيل عظم هذا العمل ، ولما قرأ ما كتبته ، وأشار إليّ ، في مجلة المقتطف ، وقع في مقالتي على ما لم يقع على مثله في الجرائد الاخرى . فعندها شخصت الابصار اليّ ، وقد عرّفني إلى جماعته بما قال تعريفاً مقبولاً نفعني ، وما أظنه كان يقصد بالتنويه بعملي إلا الأخذ بيد شاب مغمور إلى طريق الشهرة . وبالفعل كان من حسن حظي أن تعرفت بعد هذه الجلسة إلى كثير من الرجال ما كان يتيسر لي أن أعرف أمثالهم في أشهر طويلة . وكان يوم الاستقبال في داره بعين شمس أعظم واسطة لمعرفة طبقات مختلفة من أعيان الامة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم .

كان الشيخ إلى علمه الواسع رجل سياسة عظيم ، يستخدم الاساليب السياسية لنفع الامة . رأيت الشيخ محمد شاكر ، وكان من أذكى الأزهريين في عصره ، يحمل في بعض الصحف على الشيخ بامضاء مستعار . وما راعني وأنا عنده في عين شمس جالس في المجلس وما كان أتى أحد من الزوار ، إلا والشيخ شاكر يحضر ويسلم على الشيخ تسليم حب وتعظيم ، ويقبل راحة الشيخ من قفاها وباطنها ويبالغ في احترامه ، فاستغربت ذلك ، وكأن الشيخ لاحظ هذا فما زادني على نظرة بابتسامة وعلمت بعد ذلك أن الشيخ هو الذي أشار إلى الشيخ محمد شاكر أن يغمزه في الأحايين ، ويظهر للملاء أنه من خصومه ، ليقنع القصر أنه واياه على طرفي نقيض . ذلك لأن الشيخ كان يريد اصلاح معهد الاسكندرية ، وما كان يرى من رجال الأزهر من يحسن الاضطلاع بذلك غير الشيخ شاكر . واعتقد أن الجناب العالي لا يرضى بالشيخ شاكر لهذا العمل ، إذا كان موصى عليه

من الشيخ محمد عبده . فأوعز إلى الشيخ شاكر أن يظهر الخلاف عليه ، فتم له ما أراد من اصلاح المعهد الاسكندري على يد الشيخ شاكر . وكان المشهور أن الشيخ شاكر من أخصاء الشيخ ، وهو الذي اقترح على لورد كرومر أن يجعله قاضي قضاة السودان ، لكفاءته وبعد همته .

كنت أعلم أن الخديوى عباس كان يعجب بالشيخ محمد عبده ، ويعتمد على رأيه ويستشيره في الأزمات ، ثم غضب عليه فتقدمت بعض الصحف تنادي باسقاطه . وقيل إن سبب غضبه منبعث من كونه قاومه في بعض مسائله الخاصة في الأوقاف ، وكان ذلك مبدأ العداوة . وكان العبث بأموال الأوقاف على ما روى لي صديقي عبد الرحمن بك فهمي (وكيل وزارة الأوقاف سابقاً) السبب الأكيد في جعل وزارة الأوقاف وزارة برأسها كسائر وزارات مصر تابعة لمجلس الوزراء مستقلة في موازنتها .

كان الفضل في تقديمي الى فضلاء المصريين في رحلتي الأولى إلى مصر لصديقي رفيق بك العظم والسيد محمد رشيد رضا وكان من أعظم أماني النفس أن أتعرف الى علماء القطر وادبائه ، فقرت العين منهم بنفر لم أشهد مثلهم في أرض الشام . ولا سيما جماعة الشيخ محمد عبده وجماعة دار العلوم ، وهم أيضاً من أصدقاء محمد عبده يفتخرون بالنسبة اليه . وكان شوقي اليهم لا يوصف بعد أن غادرت القطر في الرحلة الاولى على ألا أعود اليه ، لكثرة ما كنت متبرماً بالعيش فيه . فلما أقمت شهراً في بلدي عاد الحنين إلى مصر وأهلها . وما أعظم تبدل الحالات النفسية .

كان أصحاب الشيخ المفتي بحكم منصبه أخلاطاً ، المتخرجون في دار العلوم نمطاً واحداً . وانعقد اجتماعات هؤلاء كل مساء في قهوة مناتيا أمام حديقة الازبكية ، واليها كان يختلف المشايخ والافنديه والبكوات والباشاوات : محمد المهدي . أحمد الاسكندري . محمد الخضري . عبد العزيز شاويش . حسن توفيق العدل . سلطان محمد . حفني ناصف . أحمد ابراهيم . حسن منصور . محمد دياب . محمد عبد المطلب . وكلهم تلاميذ دار العلوم وأكثرهم يدرس

فيها أو في مدارس اخرى ، وكان يرأسنا الدكتور عثمان باشا غالب مدير القصر العيني ، وهو عالم بالطب والمواليد الثلاثة ، وله تآليف جليلة وثقافة افرنسية ، يحسن هذه اللغة كما يحسنها أدباؤها . ويختلف الينا شاعر النيل حافظ ابراهيم . ولا تسل عن روعة ذاك المجلس ، وإن كان أكثر من فيه من الشبان ، ولكن شبان ولا كالشبان ، ومجلسهم في الحقيقة مجمع علمي في مقهى ، تسمع فيه من كل فن خبراً .

هذا عدا من كان يختلف إلى هذا المقهى من رجال العلم والأدب ، وكان مجيئهم على غير اطراد . أمثال علي بهجت ، اسماعيل رأفت . مصطفى لطفي المنفلوطي . محمد لطفي جمعة . احمد مفتاح . وبصورة مستديمة أمام العبد الشاعر . ويجيء إلى هذا المجلس بعض الصحافيين ، وان كان عشهم في قهوة اسبلنديدبار في شارع ابراهيم باشا . وهناك تلقى محمد مسعود . حافظ عوض . داود بركات ، يوسف الخازن . أحمد الألفي . صادق عنبر . نجيب شاهين . اسكندر شاهين . محمد السباعي . ولي الدين يكن . ابراهيم سليم النجار . خليل زينية . سليم سركيس . علي يوسف الكريدلي . الياس فياض . طانيوس عبده . سامي قصيري . توفيق حبيب . يوسف يكن . يوسف البستاني . مصطفى الدمياطي . احمد حليمي . ومن علماء السوريين وأدبائهم الراتبين في هذا المقهى . سليمان البستاني . رفيق العظم . شبلي شميل . عبدالرحمن الكواكبي . خليل سعادة . رشيد رضا . خليل مطران . داود عمون . وبعد حين انضم اليهم الشيخ طاهر الجزائري ، ولأجله كان يحضر احياناً أحمد تيمور بك واحمد زكي بك العالمان المشهوران . ويتردد اليها كثير من رجال القضاء والادارة امثال محمود رشاد . اسكندر عمون . سعيد شقير . نعوم شقير . ابراهيم مصور وهناك كثير من الأدباء والعلماء لا يختلفون الى المقاهي كثيراً ويقصدهم من يريدهم في بيوتهم ومكاتبهم أمثال قاسم أمين . فتحي زغلول . حسن عاصم . محمد فريد . محمود سالم . محمد محمود التركزي الشنقيطي . ابراهيم اليازجي . يعقوب صروف . فارس نمر . محمود سامي البارودي . اسماعيل صبري أحمد شوقي . عبد العزيز فهمي .

أحمد لطفي السيد . جرجي زيدان . علي يوسف . مصطفى كامل . أحمد كمال . اسماعيل حسنين . محمد الببلاوي . عبد الحميد البكري . عبد العزيز محمد . عبد المحسن الكاظمي .

ولم يكن يذكر في مصر يومئذ من يتولون زعامة الآداب والعلوم اليوم مثل محمد مصطفى المراغي . علي مسرور الزنكلوني . محمود أبو العيون . طه حسين . علي مشرفة . سليم حسين . ابراهيم الهلباوي . عبد الرزاق السنهوري . محمد حسين هيكل . مصطفى عبد الرازق عبد الرحمن الرافعي . أمين الرافعي . مصطفى صادق الرافعي . أحمد أمين . أحمد زكي . علي ابراهيم . عبد القادر حمزة . منصور فهمي . عباس محمود العقاد . ابراهيم عبد القادر المازني . انطون جميل . خليل ثابت . عبد المنعم رياض . محمود شلتوت . محمود عزمي . أحمد حسنين . صادق جوهر . محمد توفيق دياب . عبد الحميد حمدي . أمين سرور . اسعد لطفي . سعيد لطفي . أسعد برادة . امين معلوف . أحمد نسم . محمد الهراوي . أحمد الكاشف . أحمد محرم . علي فؤاد . محمد رياض . عبد الحميد العبادي . عبد الوهاب عزام . عبد الرحمن عزام . أحمد حسن الزيات . محمود الزناتي . محمد عبد الوحد خلاف . عبد الوهاب خلاف . زكي محمد حسن . أحمد عاصم . محمد عوض محمد . عبد الرحمن البرقوقي . عبد العزيز البشري . احمد فهمي العمروسي . أحمد ضيف . أحمد العوامري . علي الجارم . أحمد فريد الرفاعى . حسن ابراهيم حسن . محمد أحمد الغمراوي . أمين موسي قنديل . توفيق الحكيم . مصطفى زيادة . أحمد عبد السلام الكرداني . وحيد الايوبي . ابراهيم مصطفى . عبد المجيد نافع . حسن الشريف . حسن السندوبي . محمد بدر . محمد عبد الله عنان . علي فكري . اميل زيدان . امين الخولي . شفيق غربال . صبري أبو علم . محمد فهيم . محمد أحمد جاد المولى . محمود تيمور . محمد فريد أبو حديد . أحمد زكي أبو شادي . محجوب ثابت . أحمد عيسى . جرجي صبحي . ابراهيم رمزي . طنطاوي جوهري . أحمد خليل . فؤاد صروف . محمد هاشم عطية . عبد الرحمن الجزيري . الدمرداش محمد . ابراهيم

مدكور . احمد مصطفى المراغي . كامل كيلاني . راشد رستم . محمد امين حسونة . عبد الوهاب حمودة . أمين واصف . نسيم صيبعة . يوسف كرم محمد صبري . مظهر سعيد . أمير بقطر . عبد الله عفيفي . فكري اباظة . حسين شفيق المصري . أحمد وفيق . سلامة موسى . محمد الصادق حسين . محب الدين الخطيب . ابراهيم جلال . صالح جودت . عبد العزيز أحمد . محمد عبد الغني حسن . توحيد السلحدار . أمين عثمان . أحمد الشايب . حافظ رمضان . ابراهيم دسوقي أباظة . فؤاد أباظة . علي أدهم عبد الحميد السنوسي . مصطفى نظيف . حسن القاياتي . محمود محمد شاكر . أحمد محمد شاكر . محمدبدران . عزيز خانكي . حنفي محمود . عبد الحميد بدوي علي توفيق شوشه .

هؤلاء الذين عرفتهم في الدور الأخير من العلماء والادباء ، وقرأت كتبهم ومقالاتهم وعاشرتهم وجالستهم وهم جيل جميل ، وأكثرهم بين الأربعين والخمسين وقليل منهم تجاوز الستين . وبعضهم سبقونا إلى رحمة الله . ولعل هناك من عاثلهم في القطر لم أحظ بلقائهم وأعرفهم من كتبهم أمثال أمين سامي . محمد فريد وجدي . أو هم ممن شغلتهم مناصبهم عن اظهار علمهم واشتهروا في ناحية اخرى وهم في حقيقتهم علماء مفكرون ، ما نسوا خدمة الآداب على كثرة ما لديهم من الشواغل . عرفت منهم حافظ عفيفي . أحمد شفيق . علي ماهر . بهي الدين بركات . طلعت حرب . محمد علي علوبة . محمد حلمي عيسى . نجيب الهلالي . صبري ابو علم . محمد الشماوي . علي الشمسي جعفر ولي . محمد رياض . علي زكي العرابي . سنى اللقاني . سليم حسن أحمد فخري . عادل غضبان . السيد احمد صقر . شوقي ضيف . عدا من نسيتهم ولم يبقوا على خاطري .

أخرجتْ مصر في العهد الأخير عظماء في معظم الفنون والعلوم ، ولتغير نظام الأزهر فأخذ يخرج من دار العلوم والجامعة طبقات من الأدباء والباحثين ما كان لمصر ولا للشرق العربي عهد بأمثالهم ، فنبغوا وساعدهم على نبوغهم كونهم من أمة متألفة منذ عهد محمد علي الكبير ، وكان لهم

مما تدر ديارهم من أخلاف الرزق ، ويفيض فيها من معين الغنى ، أكبر معوان على التثقف والتعلم . يضاف إلى ذلك ما خصّ به المصري من ذكاء فطري ، وما امتازت به أرضه لقربها من اوربا ، فكان احتكاكهم بالغربيين أكثر من جميع أمم الشرق . ولا يكاد يجول في الخاطر فن إلا ونجد فيه اليوم اخصائياً أو عدة أخصائيين ، وأكثر ما غلب عليهم من العلوم علم الحقوق والطب وهندسة الريّ وهم متأخرون في التجارة والصناعات ، لا يضاهون في مضمارها الرومي والارمني واليهودي والطلياني والسوري من سكان حوض البحر المتوسط .

قال لي أحد أصدقائي في القاهرة منذ بضع سنين إن فلاناً يريد أن يتعرف إليك ، فقلت له : أرجئ ذلك الآن . وسألني عن السبب الذي من أجله استنكفت عن الاجتماع إلى صاحبه . فقلت له إن من عرفتهم من الرجال في هذا البلد قد شغلوني عن غيرهم ، واستهواني لطفهم وأدبهم عن أن استكثر من الصحاب . وللصداقة قواعد لا بد من مراعاتها ، وهي مشاركة الصديق صديقه في فرحه وترحه ، وفي كل حالاته ، لا بد له من ذلك في السفر والحضر ، فاذا كثر على المرء عدد الأصحاب ، فله أن يختار حالاً من حالين ، إما أن يصرف شطراً من وقته في تعهدهم ، والقيام بواجباته نحوهم ، وإما أن ينصرف إلى عمله فيضعف عن وفاء حقهم . انكم كلكم معاشر المصريين تحبون بما فطرتم عليه من حسن العشرة ، ورقة الخصال ، وحضور الذهن ، وجميل الأدب ، فاذا كبرت جريدة من أعرفهم منكم اقتضى لي أن اقتطع من وقتي جانباً انفقه في خدمتكم وتعهدكم ، وليس لي كاتب سر يعاونني ويخفف عني حمل عبء الجزئيات لأنهض بثقل الكليات . ورجل واحد لا ينهض بواجبات كثيرين ، ومطالب الحياة وافرة ، وشهوات النفس لا تقف عند حد ، ولا بد للمرء من تحقيقها ، والعمر قصير ، والزمان غادر غير عاذر .

درجت على البعد عن رجال السياسة ما وجدت إلى البعد عنهم سبيلا ، وكنت أنظر إليها بأنها علم واختار تحاميها في العمل[١] ، وما عرفت من رجال السياسة إلا من قضت الأحوال بمعرفته بدون تقصد . وزهدني في بعضهم اني لحظت أن منهم من يترفعون عن الناس ويشمخون بأنوفهم ، وقد تتغير أخلاقهم إذا جلسوا على منصة الحكم . ومن الصعب أن تتألف من روحه غير روحك ، ومن غايته في الحياة غير غايتك . وكيف تخالل من يعتقد في باطنه أن بينك وبينه فوارق ، وأنى تحب من يرفعك ويسترضيك ما دام يؤمل منك منعاً ، ويتباعد عنك إذا ظهر له انه في غنية عنك . من عادة رجل السياسة خصوصاً ان يحاول الانتفاع من كل قوة تعرض امامه ، وانا لا احب في الجملة ان استثمر .

عرفت بعض امراء البيت المالك في مصر فأكبرت فيهم ادبهم وفضلهم ، وصادقت منهم الأمير عمر طوسون ، والأمير يوسف كمال ، فرأيت من تفانيهما في خدمة مصر ما عظم موقعهما من القلب والعين ، ولو كان كل أمير في الشرق يقوم بواجبه كما يقومان لتغير ولا جرم وجهه ، ولزادت بين الأمم قيمة أهله . كان منهما أن جعلا ما هما فيه من نعمة سابغة وقفاً على خدمة مصر ، وشغلا ساعات الفراغ في تدوين الابحاث ووضع الكتب . فأخرجا من ذلك مجموعات مفيدة جداً ، يتعذر على كل مؤلف أن يصل إلى مثلها .

---

(١) كتب اليّ الأمير شكيب ارسلان من لوزان يوم ٣٠ نيسان ١٩٢٨ ما نصه : ما ذكرته لي عن مصر والشام واحوالها السياسية كله معروف ومؤسف ولكن المنافسات الشخصية وحب الظهور والرئاسة وما يتبع ذلك هي التي تبلي الأوطان بهذه الأمور ، وأكثر ما يقع منها يكون بلية على الذين بدأوا بها وجعلوا ديدنهم من أول الزمان الكيد لزيد والدس على عمرو والارجاف بخالد ظناً بأن هذا هو الذي يُسقط الجميع فتبقى هناك رئاسة واحدة لا نزاع فيها ... نعم ان الذين سنوا هذه السنة حسداً من عند أنفسهم وكانوا يعتدون على الناس الذين ما تعرضوا لهم طول الحياة بأذى هم هم الذين وقعوا اليوم في الحفر التي طالما حفروها لغيرهم ، والله تعالى يصلح الأحوال ويلهم الناس عزم الأمور وان كان لا بد من قاذورات السياسة في البلاد فالأولى بالحازم الرشيد ان يلجأ الى قنة العلم ويترك هذه القاذورات لمن يتمرغون فيها ا ه .

الدعايات الاجنبية

كثرت رحلات الاجانب قبيل الحرب الاخيرة إلى الشام ، ولكل دولة من الدول بيننا ظهراء ولكل مذهب سياسي جديد أو عتيق منتحلون . فبعضهم يعمل للديمقراطيات (حكم الشعب) وآخر يعمل للديكتاتوريات (حكم الفرد) ، وآخر يعمل للشيوعيين المتطرفين ، او الاشتراكيين المعتدلين ومنهم من يحبذ الاتراك الكماليين ، وآخر يدعو للملك ابن السعود أو للامير عبد الله بن الحسين إلى غير ذلك .

جاءني منذ خمس سنين أحد نواب ايطاليا يحمل من استاذه صديقي العلامة نلينو وصاة ، يقول إنه يحب أن يدرس حالة التعليم الابتدائي في سورية وفلسطين والعراق ومصر ، لتطبق حكومته من هذه الانظمة ماترى فيه فائدة لأهالي طرابلس وبرقة (ليبية) وطلب مني ان اذكر معلوماتي في هذا الشأن ، فاعتذرت بتغير بعض نظم التعليم بعدي ، وأرسلته إلى الوزير السيد سليم جنبرت مع كتاب مني . وعاد من الغد ورفيقه الذي معه ، وهو ايطالي ولد في سوريه ، يقول إنه يكتفي بما لدي من معلومات عن التعليم وان كانت قديمة ، وأشار إلى أن الوزير الذي أرسلتها اليه لا يعرف شيئاً من أمور المعارف ، فقلت له : إن من عنده من الموظفين يعرفون ، وكان عليه أن يطلب منهم ما يلزم ، فقال رفيقه : نحن نكتفي بمعلوماتك فقط ، وعرّض بأني أحلتها على وزير عامي .

ومما ذكر النائب الايطالي أن فرنسا في سورية على ما رأى ، عنيت فقط بتزيين المدن وأهملت القرى . فقلت له : إنها أنجزت في القرى أشياء نافعة ، وطدت الامن ، وعبدت بعض الطرق ، وخففت الضرائب ، ومنعت السخرة ، ورفعت سلطة المتغلبين على المستضعفين ، ونرى اليوم اضعف الفلاحين يقيم

على اكبر أرباب النفوذ من المزارعين وغيرهم قضية ويربحها إن كان محقاً إلى آخر ما قلت . فاقترح علي ان اذهب الى رومية لألقي محاضرات ، والتقي باصحابي المستشرقين ، فاعتذرت عن الرحلة (لأني ذهبت إلى رومية مرتين) لتعاقدي مع الجامعة الاميركية بالقاهرة لالقاء محاضرات فيها ، خلال انعقاد جلسات مجمع اللغة العربية الملكي التي انا مضطر لشهودها بصفتي عضواً فيه . وقال لي إذا زرت طرابلس وبرقة ، وأجور السفن رخيصة جداً ، تشهد ما تم فيها من الاصلاح على يد الحكومة الفاشستية ، وما أنشأناه من الطرق والجوامع وعمرنا من الدساكر والقرى . وقال إن من سياسة ايطاليا الاستعمارية ان تجعل بيت العربي إلى جانب بيت الايطالي حتى يمتزجا على الايام . وذكر ما تحرص عليه ايطاليا من اسكان ابنائها في ليبية ، وما تهيء لهم من سبيل التشويق لذلك .

ثم صرّح بأكثر من هذا وقال : لماذا لا تحب الذهاب إلى ايطاليا ؟ واحبابك فيها كثار وهل تحسب لاصحابك هنا حساباً (يعني الفرنسيين) أم هم يحولون دون ذهابك؟ فقلت له: إني لاأخشاهم ، ولاهم يحظرون علي السفر إلى الجهة التي اختارها ، على أنني لا أرى إن صح أنهم لا يرضيهم ذهابي إلى ايطاليا ، أن آتي ما يغضبهم . ولِمَ أُغضِبُهُم وأنا لم ألق منهم إلا كل رعاية منذ وافوا هذه الديار ، فقد ادخلوني الوزارة مرتين بدون علمي ، ورفعوا مقامي بين ابناء قومي ، ولعاونت معهم فما اختلفنا ، كانوا يقنعوني فأسير معهم ، او أقنعهم فيسيرون معي . واتفق ان اختلفت مع مستشاري فعزوت اليه أموراً حققوها ورأوا صدقي فيها ، فما لبثوا أن نحّوه عن عمله ، واستعاضوا عنه بمستشار من اصحابي ، واوصوه أن يسير معي سيراً حسناً . وكان لهم اثر ظاهر في مظاهرتي على تأسيس المجمع العلمي العربي والمتحف ودار الكتب ، مما لم ألق بعضه من الحكومات الوطنية نفسها . فمن يُعادي يعادي لسبب ، وانا لم اجد سبباً لمعاداة المنتدبين . أما الفرنسيون عندنا فهم من طبقة الموظفين ينفذون فقط ما يؤمرون به . ولي في باريز اصدقاء اعزة عليّ لا ارى ان يجول في خواطرهم أني اتيت مالا يرضيهم ،

وإن كان ادبهم يمنعهم من التصريح بشيء من ذلك ، فليس بين ... الفرنسيين إذاً إلا الثقة المتبادلة .

ومن الغد لقيت في ساحة الشهداء أحد أصحاب الأخبار ، فسلم علي ، وقال لي باشاً جداً ، إن نسيبه (الرجل الذي كان مع النائب الايطالي) حدثه أمس بحديثي مع النائب بحذافيره ، وبالطبع هو نقله الى من يشتغل لهم في البعثة ، وما كنت أعتقد أن الأمر يجري كما جرى ولا ... رفيق السائح الايطالي هو ايطالي متبلد في ديارنا وله فيها أقارب .

وبعد مدة عرضت عليّ محطة باري اللاسلكية في ايطاليا أن أوافيها بخمس عشرة محاضرة في الموضوعات التي اختارها ما عدا السياسة ففعلت ، والقيت المحاضرات باسمي . وقال لي أحـــد أصحابي ان قبولك بمحاضرة المستمعين من محطـة باري اللاسلكية هو خدمة ايطاليـا من طريق غير مباشرة . فأجبته إنها خدمة العرب من طريق مباشر ، والموضوعات علمية أدبية تاريخية فـكاهية . فالعرب هم الذين أتوخى نفعهم ، وهم الذين يستمعون اليها ، ولو طلبت مني سائر المحطات العربية في الغرب أن اوافيها بمثل هذه المحاضرات ما تأخرت عن اجابة طلبها ، ما دام الذين يستمعون اليها هم قومي . أما خدمة سياسة ايطاليا أو غير ايطاليا فلها أشخاص غيري يحسنونها أكثر مني .

وكتب إليّ في هذا الربيع (١٣٥٩ — ١٩٤٠) المستر باربر المستشرق الانكليزي أنه وسدت اليه خدمة في محطة الاذاعة اللاسلكية في لندن وطلب مني أن أوافيه بأحاديث تاريخية وادبية لتلقى باسمي من تلك المحطة ، فاخترت له عشرة أحاديث من مذكراتي الخاصة ، قدرت أنها مما يلذ سماعه ، فاستلمها وأكد لي أنها ستحوز القبول من كل بد عند اللجنة الموكول اليها النظر في أحاديث المحدثين . وأشرت اليه أن له الحرية أن يحذف من أحاديثي ما يشاء ويبقي على ما يشاء ، فأرجعها بعد مـدة معتذراً ، ومما قال في كتابه (وعندنا أنكم اذا جمعتم هذه الأحاديث في كتاب عن مذكراتكم فانه ولا شك يصادف قبولاً عظيماً ، لا من العالم العربي ، بل من هؤلاء

الانكليز المهتمين بشؤون الأقطار العربية ... وعلاوة على ذلك فانها كـكل المذكرات الشخصية تتضمن بعض اشارات الى شخصيات بارزة بعضها لا يزال على قيد الحياة ، والبعض الآخر قد اختاره الله تعالى إلى جواره . ومع أن هيئة الاذاعة البريطانية هيئة مستقلة فنشعر بأن اعتقاد الجمهور أنها على صلة بالحكومة الانكليزية (كذا) قد يعرضنا للنقد إذا نحن أذعنا مثل هذه الأحاديث ، وأظن محطة الاذاعة اللندنية استفتت أيضاً اضبارتي ، فما رأتني على الأرجح حرياً بأن أستمتع بثقتهم ، والله يعلم السر وأخفى .

والمستر باربر الذي تفضل وطلب إليّ أحاديث للمحطة اللندنية ، كان زارني منذ سنين يحمل وصاة من الدكتور أحمد سامح الخالدي من رجال التعليم في فلسطين فأهلت به ورحبت ، ورأيته مستشرقاً مستعرباً ، وقد كتب كتاباً بالانكليزية في التمثيل العربي في مصر ، وهو من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، كان مراسلاً لجريدة التيمس فاستقال ، وهو على جانب عظيم من التهذيب ، سألت عنه احد رجال فلسطين فقال : هو كما قال لك الخالدي من أحباب العرب ، وخبرناه بالاشتغال معه فكان صادقاً في قوله وعمله . وتباحثنا ساعات طويلة في سياسة الانكليز مع العرب ، وفي الوحدة العربية ، وفي اغلاط الحكومات الانكليزية في هذا الباب . وقلت له : إن العرب احبوا الانكليز فما قابلوهم على حبهم لهم بحب مثله ، وما شرط من يحب إلا ان يحب . وبحثنا في انحطاط المسلمين ، وفي ثورة فلسطين ، وفيما ارتكبه البريطانيون من الخطإ مع اهلها . وتحدثنا في تحزبهم الظاهر للصهيونيين ، وبشرني في قدمة ثانية ان حكومته قررت ان تغير سياستها في فلسطين ، وقال إنه ألف كتاباً في القضية الفلسطينية ، ومما جاء فيه انه طُلب إلى رئيس حكومته ان يختار محلاً في ارجاء الامبراطورية الانكليزية يؤوي اربعة وعشرين ألف مهاجر اشوري ، فكان الجواب انه لا يوجد مكان في الامبراطورية يتسع لهذا العدد . فعقب على ذلك بقوله : إذا كانت هذه الامبراطورية الكبرى ليس فيها مكان لاستيعاب هذا المددمن المهاجرين ، فهل في قدرة فلسطين الصغيرة

الرقعة ان تؤوي سبعة عشر مليوناً من اليهود ؟ وقال في محاضرة له في فلسطين القاها في بريطانيا وارسلها الي مطبوعة في كراسة : إن الصهيونيين كانوا عرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني ان يبيعهم فلسطين بمبلغ عظيم فأجابهم إن فلسطين وان كنت الخليفة ليست ملكي ، وهي ملك من عجنت تربتها بدمائهم .

اقترح عليّ أناس من العرب والافرنج من المتصلين بالملك ابن سعود صاحب الحجاز ونجد أن أذهب لزيارته في الحجاز ، أو أن أحج في الموسم ، فكنت أعتذر . ودعيت مرات منذ عشر سنين إلى زيارة بعض أمراء العرب فاعتذرت ، لأني لا أريد أن أخدم سياسة احد . وإذا قضي عليّ ذات يوم أن أخوض غمار السياسة فيكون ذلك لما أعتقد فيه مصلحة الجماعة ، لا أخدم شخصاً بعينه ، ولا دولة برأسها . ولو كان لي مثل هذا المأرب لكانت مصر أولى الدول بالتطوع في خدمتها ، والأشياء فيها موفورة لي أكثر من كل قطر .

قصدني في العهد الأخير كثير من علماء المشرقيات من الالمان والروس والدانيمركيين والاسبانيين ، وبعض الهنود المسلمين وغيرهم . وكلهم كتموا المهمات التي جاؤا لأجلها ، وأعتقد أن أكثرهم يخدمون سياسة أممهم أو السياسة التي استخدمتهم . ومزحت مع رجل نمساوي جاء ليؤلف كتاباً في سورية ، فقلت له : كأني بكم يا معشر النمساويين لستيقظون ذات صباح فترون على حدودكم مئتي الف جندي ألماني يريدون ضمكم إلى بلادهم ، فقال : إن الأمر لا يتوقف على مئتي الف جندي لأن خمسة وتسعين في المئة منا يريد الانضمام إلى المانيا . ومزحت مع جرماني سويسري وقلت له : إن الثلاثة ملايين الماني سويسري ، وهم ثلاثة ارباع سكان سويسرا سينضمون إلى المانيا فما هشّ لقولي ، وقال : لا نريد ذلك لا نريد ، وهذا أمر لا يتم .

وجاءني مرة انكليزي موظف في وظيفة عظيمة في العراق يحمل لي سلاماً من صديقي الاستاذ مارجوليوث المستشرق الانكليزي ، وسألني رأيي

في الوهابية فذكرت له مذهبهم ، وقلت له انهم تخلصوا من الخرافات بعض الشيء ، وهم أشبه بالبرلستانت عندكم . قال : هذا لا يهمني بل احب أن تذكر لي رأيك هل في مكنتهم أن يقوموا بدعوة سياسية ؟ فقلت : إذا ودّ البريطانيون ذلك . ثم قال : والحجاز ألا يرجى الخير منه للعرب ؟ فقلت له : إن المسلمين يعتقدون أن كل خير جاءهم كان من رسولهم محمد ابن عبد الله ، ولما كان من عقيدتهم ألا يقوم نبي بعده فالخير لا يتوقع من الحجاز . وتكلمنا في الثورة المصرية وقال إن القائمين بها شباب لايقدرون التبعات فقلت : ان اكثر الثورات في العالم قامت بأيدي الفتيان ، وثوار مصر أخطأوا بالنسبة لمصالحكم وأحسنوا لأمتهم . وتكلمنا في تقسيم الديار الشامية وفي أراضي الانتدابيين الفرنسي والانكليزي . وبعد اشهر زحف ابن سعود على الحجاز واخذ الملك حسين الى قبرص .

وجاءني المستر لاياس مدير مدارس فيكتوريا بالاسكندرية سابقاً ، وكان قضى بضع سنين في دمشق ليُحكِم اللغة العربية ، ونقل إلى لغته ديوان الحماسة لأبي تمام شعراً فيما بلغني ، وكان عالماً فاضلاً ، وسمته سمت العلماء ، واخلاقه في الغاية من التهذيب السكسوني البديع . فقال لي : إن سكان نجد جديرون بأن يكون لهم نصيب من عنايتكم في التعليم ، وان تفتح لهم المدارس ، فالأمية غالبة عليهم ، فقلت له : يا صديقي كيف نتطال الى تعليم غيرنا ونحن من اعوز ما يكون إلى من يعلمنا ؟ إن عدد الأميين في ديارنا اكثر من تسعين بالمائة ، اوَلسنا احرياء بأن نفكر اولاً في ابنائنا ثم نفعل الخير بغيرنا ، فنفكر في تعليم اهل نجد ! فاقتنع .

وكنت اهديت المستر لاياس نسخة من كتابي (غرائب الغرب) فجاءني بعد ثلاثة اشهر يقول انه طالعه بامعان ويشكرني على هديتي ، وسألني عن أحمد فارس — وكنت اقتبست من كلامه فصلاً في الأخلاق الانكليزية — فقلت له هو أحد علماء اللغة ومن أوائل رجال النهضة الأدبية عندنا فقال : هذا لا يعرف الانكليز ، وكذلك الحال في تين Taine الفرنسي فانه لا يقدر

البريطانيين قدرهم بل هو عدوهم ، فقلت له : هذا فيلسوف ، والفيلسوف لا يقول إلا ما يعلم ، ومن الصعب زحزحته عن الحق . فقال لي : أتريد أن تعرف أخلاق الانكليز على حقيقتها وتكتب فيهم كتاباً ؟ قلت له : نعم . قال : تكتب إلى صديقك الاستاذ براون في كمبرديج يكتري لك غرفة في جواره ، وتذهب بنفسك تقضي ستة أشهر هناك تدرس الانكليزية ، وأنت بالنظر لتمكنك من الفرنسية تحكم الانكليزية في هـــذه المدة ، وتدرس خلالها أخلاق الانكليز وعاداتهم ، وتدوّن منها ما يروقك . وقال : أظن ذلك يغضب أصحابك هنا أي الفرنسيين فقلت له : أما اذا اعتزمت أن أقوم بهذه الرحلة العلمية لا يقف أحد في وجهي ، ولكن شبَّ عمرو عن الطوق ، وصعب عليّ في هذه السن أن أدرس لغة أجنبية ، ووقتي لا يسمح بمغادرة بلدي هذه المدة الطويلة . وأظن هذا الكتاب الذي اقترح عليّ وضعه في الأخلاق الانكليزية سيكون له وقع كبير عند حكومة بريطانيا العظمى .

سأل أحد أصحابي صديقي لاياس هذا عن رأيه في محاضراتي في المجمع العلمي العربي، فقال إنهـا جيدة ليس عليها اعتراض ، إلا أني اعطي الاوربيين فيها فوق استحقاقهم ، وابالغ في وصف حضارتهم ، وسأله أو غـيره لا أدري على التحقيق عن محاضرات أحد الاعضاء فقال : ما خرجت عن وعظة في كنيسة انجيلية ، وسأل بعضهم عن آخر فقال : يحاول أن يضحك الحاضرين وأكثر نكاته باردة .

عزت باشا العابد

أربعة أتراب نشأوا في القرن الماضي من حيّ واحد في دمشق ، وتخرجوا بعلم واحد في مدرسة واحدة ، فجاء منهم أربعة مثقفون . طاهر الجزائري ، سليم البخاري ، ابو الخير عابدين ، أحمد عزت العابد . قرأوا على الشيخ عبد الرحمن البوسنوي في المدرسة الجقماقية ، وكان مربياً عظيماً ، فلقنهم مبادئ العلوم ، واصول اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية . وانقطع الثلاثة الأولون إلى دراسة العلوم الاسلامية ، فكانوا علماء فقهاء ، وشذ عنهم تربهم الرابع فانصرف إلى اتقان التركية والفرنسية ، وأجاد الكتابة بالعربية والتركية ، ونظر في القوانين فأتقنها ، ودخل في خدمة الدولة ، فساعدته وجاهـــة والده هولو باشا على قطع المراحل الى المناصب العالية مسرعاً ، حتى صيره السلطان عبـد الحميد الثاني العثماني قريناً له ثم كاتباً ثانياً في المابين وكان خادم السلطان الامين نحو ثلاث عشرة سنة وما سقط إلا بسقوطه .

وحاول أحمد عزت باشا العابد بعد أن صار السلطان عبد الحميد في أسر الاتحاديين في قصر ألاتيني في سلانيك ، وانقضى عهد الحـكم المطلق ، أن ينتخب عن دمشق عضواً في مجلس النواب ، فقاومته في جريدتي (المقتبس) لأنا كنا نريد أن ينوب عنا الشبان المتعلمون ، ممن لم تصبغهم مصبغة الاستبداد بنيلتها الحالكة السواد ، وكنا نعتقد أن أنصار الحكومة الاستبدادية لا خير فيهم في العهد الدستوري ، وهم طالما زينوا للسلطان عبد الحميد أن يمضي في اضطهاد الحرية والأحرار ، والرجل الواحد من الصعب أن يفلح في دورين متناقضين .

وجس عزت باشا النبض ، وسبرنا بمسبار ذكائه ، فعرف ما تمنى تحقيقه

إذا خدمناه فيما يحب ، فوعد إن نحن سعينا في انتخابه أو لم نقاومه على الأقل ، أن ينشيء في حيّ الميدان ، محلة أهله القديمة في دمشق ، مدرستين ومستشفيين الذكور والاناث ، وأن يعلم خمسة أولاد من ابناء سورية العلوم العاليه في جامعات الغرب الى آخر ما وعد به . ولم أرض أنا وجماعتي إلا أن يضمن لنا القيام بمشاريعه فنأمن عليها أولاً ثم نتطوع لمعونته ، وأردنا أن نعتمد على شرفه في انفاذ ماعرض علينا ، فخفنا أن تكون وعوده وعود بعض السياسيين فأبينا ، وما استطاع الدخول في معركة الانتخابات لإيقانه بالفشل .

وكنت وأصحابي نعلق آمالاً كبيرة على ما يجري من الخير على يد هذا المثري العظيم ، اذا استمع لنصائحنا فلما رأينا أنه ليس من نيته أن يمنح أمته شيئاً أعرضنا عنه ، وقلت لشقيقه مصطفى بك : قل لشقيقك إن وطنه ينتظر منه اموراً ليس بالصعب عليه تحقيقها ، ولا تنقص كثيراً من ثروته . ويغير بها ترجمته في الدنيا ان كان يحب الدنيا ، وتشفع له في الدار الآخرة ان كان يعتقد بها . إن بعض ما ناله من الجاه كان لنسبته للعرب ، فما باله يتأخر عن خدمتهم ، وهو قادر على الأخذ بأيديهم إلى طريق السعادة ؟ وإن الفرد من أولاده ليعيش بنصف مليون ليرة كما يعيش بخمسين ألف ليرة ، على أن لكل واحد من ولديه ثروة خاصة لا يحتاج معها إلى ثروة أبيه ليعيش . (وأظن عزت باشا أوصى ببضعة آلاف ليرة عثمانية لتأسيس مدرسة في دمشق أخذتها جمعية الاسعاف الخيري لانشاء مدرسة الأيتام) .

ولما جاء عزت باشا إلى دمشق ، وكان المجمع العلمي العربي حديث النشأة يحتاج الى معاونات كثيرة ، ليقوم بفرضه العظيم ، وموازنته ضيقة لا تتسع لكل ما يحاول تحقيقه ، قرر أعضاؤه أن ينتدبوا منهم أربعة ، فيهم أقرب الناس اليه ، تربه سليم افندي البخاري وصاحباه سليم بك عنحوري وفارس بك الخوري وصاحب هذه المذكرات . وأردت أن أستعفي من هذه المهمة فاضطروني إلى السير معهم بصفتي رئيس المجمع العلمي ، وأرادوا

بهذا الوفد أن يهزوا أريحيته لمعاونة مجمعهم . فبعد مساومات ومهامسات احمرت لها الوجوه ، وعرقت الجباه والرؤوس ، تبرع الباشا بمئة ليرة سورية ، وبالطبعة الجديدة من دائرة المعارف البريطانيـة . وعاد عليٌّ الباشا من الغد في المجمع العلمي ، وهو بثوب المنامة ، يقول إنه لم ينم من الليل أمس لأنه رأى في دار الكتب الظاهرية مصحفاً شريفاً بخـط جميل ، قيل له إنه ابتيع بثلاثة ريالات ، وأنه مسروق من احدى خزائن المدينة المنورة ، وهو مستعد لأن يدفع لنا ثمنه ويأخذه ليعيده الى مكانه الأصلي . فبينت له أن المصحف دخـل خزانة دار الكتب فأصبح في حـكم الوقف ، ولا سبيل إلى اخراجه ، ولا فرق بين أن يجعل هنا أو يكون في المدينة . وقال أحد الخبثاء : ولعل الباشا كان ينوي أن يعوض ما دفعه المجمع العلمي ، فان المصحف يباع من المتاحف الكبيرة ، أو دور الكتب في العواصم الشهيرة ، بما لا يقل عن مئة وخمسين جنيهاً . والله اعلم بالنيات. وقال لي الباشا ، وانا اودعه على الباب ليرضيني بوعد معسول : إن له نحو سبعة عشر الف ليرة في ذمة حكومة سورية من اصل ماله من الديون على الدولة العثمانية فاذا قبضها يعطيني منها اربعـــة آلاف ليرة ، فما قبض ولا قبضت . وكان ما وصل المجمع العلمي هو كل ما سمحت به نفس أعظم غني في الشام .

أول رئيس جمهورية في سورية

خلّف أحمد عزت باشا العابد ولدين علمهما في باريز تعليماً راقياً ، أحدهما عبدالرحمن بك درس هندسة المعادن ، واشتغل بالمسائل المالية والتجارية ، والثاني محمد علي بك وهو الاكبر درس الشرائع وصار مشاوراً للحقوق في الباب العالي مدة ، ثم جعل في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني سفيراً للدولة العثمانية في واشنطون ، واشتغل أيضاً بالمسائل المالية ، وكلاهما اغتنى في حياه أبيه .

وأتى محمد علي بك إلى دمشق يفتح بيت أبيه وجده ، ويحرص على تحسين سمعة أبيه . وصار مرة وزيراً للمالية ثم انتخب أول رئيس للجمهورية السورية . فكان ينفق من ماله الخاص علاوة على راتب الرياسة مبلغاً في كل عام ، ليظهر بلاده أمام القريب والبعيد بالمظهر اللائق بها . وهو أعظم رجل سياسي عرفته الديار الشامية في دورها الأخير ، وأول وآخر سفير عثماني من أبناء العرب ، استوفى شروط الرياسة لمعرفته التامة بالشؤون السياسية .

وكانت اجتماعاتي به قبل الجمهورية وفي خلالها تستغرق الساعات ، وهو يتفضل ويطلب مني موالاة الاجتماع ، وأنا أعتذر باشغالي ، وأتحامى صرف وقت كبير معه ، على ما في مجلسه من متاع للنفس ، ولطالما قال : أريد أن تكون وأنا في الجمهورية ، كما كنا قبلها ، وكنت أسمع منه فوائد في التاريخ الحديث ، وسياسة الدولة العثمانية ، وأحوال عظماء الأرض ، لم أسمعها من غيره . ولا عجب أن يعرف هذا ، فقد كانت بيئته من أرقى البيئات في الاستانة ، أيام صولة والده ، كتب له أن يجتمع الى عظماء الدول ، وعلماء الأمم ، على ما لم يكتب لأحد من رجالنا مثله . فكان حديثه عن الشخصيات والجماعات والدول والماليين والسياسيين والمترفين والمسرفين ممتعاً جداً ، إذا بناه غيره

على مطالعاته ، فقد كان هو يبنيه على مشاهداته ومطالعاته ، وكان ذا معرفة ثاقبة بتاريخ أمته ، يعجب برجالها الماضين ، وذا كرته قوية ، وكان كثيراً ما يتلو علينا قطعاً من الأدب الافرنسي والادب العربي حفظها أيام الصبا ، وكان إلى هذا على جانب من الظرف . وما اصدق ما وصفه به صديقي الاستاذ خليل مردم بك بقوله إنه ما رأى رجلاً اسمه اصغر من حقيقته مثـل محمد علي بك العابد .

وهو لا يخلو من ضعف ارادة . سالم كثيراً مدة رياسته فلم يرض عنه حتى من سالمهم ، وذكر مرة بسوء أمام جمعية الأمم فتأثر مما قيل فيه ، وهم قد ظلموه وما أنصفوه ، وما احتج ولا غير من معاملته . وحنق أصحابه لما وقع عليه ، واعتدوا اهانته موجهة للسوريين في شخص رئيسهم الأول . وفرضوا عليه أيام رياسته أن يتولى الشيخ تاج الدين رياسة الوزارة مرة ثانية ، ومع كرهه الشديد له لم يعترض على هذا التعيين الاعتراض اللازم ، مع ما في هذا من التعدي على حقوقه . واراد الشيخ أن يذهبا معاً إلى حلب ، والنفوس ممتلئة من الشيخ ، فلقيا اهانة شديدة من الشعب ومن طلبة المدارس ، وما كان الرئيس مقصوداً بها ، وشط الرئيس الصغير على الرئيس الكبير وهو يفوقه علماً وسناً وثروة ومقاماً ، فكان في هذه الرحلة يتقدم عليه في كل مكان . ولما عاد الرئيس من رحلته عرض عليه أحد كتابه مجموعة ما كتبته الصحف فيه وفي رئيس حكومته ، وما لقياه من الاهانة فقـال : إن كل ما قالته صحيح : رحلة كان منها اهانة الحكومة واهانتنا ، أغلقنا فيها المدارس وملأنا السجون .

والغالب أن محمد علي بك كان يحسن الظن باوضاع الغرب ، ومن ذلك أنه جعل معظم ثروته أسهماً مالية فخسر نصفها في العهد الأخير فـكان في ذلك قهره ومرضه . وكثيراً ما كنت أزين له ان يبتاع المزارع وينشىء العقارات في بلده فما كان يرى رأيي . ولطالما عرضت عليه ان يبني داراً

فخمة تليق به فكنت اشعر انه يريد أن يسكن في أوربا بعد انتهاء مدة الرياسة ، وهكذا فعل .

كان أعداء السيد العابد يتهمونه بالامساك وما كان في الحق ممسكاً على ما صوّروه ، كان يطعم الفقراء كما يطعم الأغنياء ، ويتصدق ويعطي من يراه أهلاً للعطاء ، ولكن الفوضى كانت منتشرة في بيته ، ينفق على الغالب بلا نظام . وكان من أثر ذلك أن رُمي بالشح ، وأظن حساده وخصومه كانوا يريدونه أن يخرج عن كل ماله ليعدوه في الكرماء ، فيمسي مثلهم صعلوكاً معدماً وهذا أمر لا يعقل ، ولا يطلب من رجل بقدر قدر المال .

وكان مع علمه بالمواضعات المدنية والمصطلحات الجمهورية ، ولتشدده في المحافظه عليها ، لا يتلكأ عن الاستمتاع بحريته في غير الأوقات الرسمية ، يزور أصحابه كما يزورونه ، ويعاشرهم معاشرة الاخوان ، ويكون في بيوتهم ويكونون في بيته ، كواحد منهم ، لا فارق بينهم ولا تمييز ، وكثيراً ما كان يقص عليهم من الفكاهات والنوادر المستظرفة ما يقصد به تسليتهم واضحاكهم ، أو مشاركتهم في مرحهم ، وجلب السرور إلى قلوبهم ، فيعظم في العيون والقلوب ، ويدعو العقلاء إلى الاعجاب بنبله وفضله .

وكان لفرط أدبه يحتمل مني أحياناً قسوتي في خطابه وجوابه ، ويغضي لما يعرفه من حبي له وحبه لي ، عن توسعي في انتقاد أعماله ، وهو موقن أن ما أقوله أقوله بما لي عليه من الدالة ، وما أكنه له من الحرمة ، وغيرة مني على مصلحته ومصلحة البلد . قال لي وقد عدت من مصر بعض السنين : إنه ذكرني وذكر غيري من أصحابه وأصحابي ، لتوسد إلينا مقاعد في الوزارة الجديدة فقلت له : أخطأت خطأ عظيماً ، ألا تذكر أني أقسمت لك يوم كنا نتنزه بين دمر والهامة في السيارة ، وأنت تأسف لعدم مشاركتي لك في الحكم ، أني لا احب الدخول في شيء من أعمال الحكومة مهما كانت درجته ، واني زاهد حتى في رياستك هذه ، وان صداقتنا قامت على التشاكل في الفكر والمحبة المتبادلة ليس إلا ، فلماذا تذكرني

للمفوض السامي وانت تعرف أن الوزارات بعد أن تقلدها العوام ووصل إليها مثل (غ . ل) لم تعد لها تلك الروعة ، ولا ذاك أشرف الموهوم ! وصعب الآن على من كان له مثل أخلاقي أن يقوم فيها بما يرضي وجدانه وأمته . فأرجوك بعد الآن ألا تذكرني للمفوض ولا لغيره . وقد أدرك أنه ما دام ذكر اسمي ولم يُوفق لاتمام رغبته ، فلا معنى لان يمن" علي" فيقول إنه سعى وأخفق ، وأنا لم أطلب منه شيئاً .

كتبت هذا ، وأنا اقول : تُرى هل تجمعنا الأيام بصديقي محمد علي بك العابد فأقرأ عليه هذا الفصل ليلاحظ ما قد يلاحظه عليه ، وطويت ما كتبت ، وصعدت الى غرفتي أقيل ، وإذا بالمذياع ينعي هذا الصديق الأبر من جنوة فأومضني فقده ، وما زال الدهر يفرق بين الحبيب وحبيبه .



سورية والرجال

ذهبت وصديقي عبد الرحمن باشا اليوسف إلى سوق الغرب في لبنان آخر سنة من سني الحرب المشؤمة (١٩١٨) لنقضي أياماً هناك ترويحاً للنفس، وكان لا يخوض في السياسة الحاضرة مع كل أحد، ويخاف مثلي من التبسط مع كل انسان حتى من أخيه وأبناء اخواته، فلما وجد آمن لنا من أفق سوق الغرب نتباثث فيه الاسرار، فقال: إن جمال باشا قال له ولمحمد باشا العظم، وقد بدا عليه اليأس من نتيجة الحرب: إن الانكليز سيستولون على سورية، فهل تظنان أني أترككما هنا، تتمتعان بقصوركما ومزارعكما، سأسوقكما أمامي الى الاناضول، تفتقران كما نفتقر، وتشحذان كما نشحذ. قال ابن اليوسف هذا، وسجد على الأرض قائلاً: يارب اقرض هذه الدولة التي أذلتنا وأهانتنا. وشاءت الاقدار يوم حم القضاء أن يمضي جمال باشا على وجهه لا يلوي على شيء، وظل أهل هذه الارض في ارضهم.

قال الجنرال غورو أول مفوض سام في سورية ولبنان لحبيب باشا السعد الوجيه اللبناني: إذا كنت تعتقد أن دولة من الدول يهمها شخص لذاته، مهما بلغ من مكانته أكثر من اهتمامها بمصلحتها، فأنت على خطأ. إن فرنسا تفادي بمئة رجل مثلك إذا كان لها من وراء ذلك أقل فائدة.

قال المسيو بونسو المفوض السامي في سورية ولبنان للشيخ تاج الدين رئيس دولة سورية: حقيقة إن الرجال تتفاوت، فقد عرضنا على وزارتكم وعلى الوزارة اللبنانية مشروع حصر الدخان، فما اطلع أحد على ما ناقشتم فيه، ولا انتشر خبر عن المشروع الذي عهد اليكم النظر فيه. أما في لبنان فقد

تناقلته الألسن ثاني يوم دفعناه لوزارتها ، وفي اليوم الثالث كان نص المشروع منشوراً برمته في بعض الصحف البيروتية . ولما عوتب صاحبها على نشر هذا المشروع قبل أوانه ، وكان من أعضاء الوزارة ، قال إنه غفل عن ثيابه ، وكان يخبأ نص المشروع في جيبه فسرق منه ، ووصل الى الجريدة فنشرته ، فأين وزارة من وزارة ، ورجل من رجل .

دخل علي مستشار المعارف ، وأنا في مكتبي بالوزارة ، ظاهر الغضب على محرر جريدتنا المقتبس لنشره في الجريدة تعريضاً ببعض رصفائي الوزراء ، خدمة لأغراض من يخدمهم من حزبه ، فسألني المستشار عن غضبي على خلاف عادتي ، فذكرت له السبب فقال : لا أعرف كيف أعلل هذه الاخلاق فيكم ، تسقطون أبداً رجالكم من الاعين ، ورجالكم قليلون مهما بلغ عددهم لا يتجاوزون المئة ، فاذا أسقطتموهم كلهم ، فمن يبقى لكم يخدمكم في السراء والضراء ، وينفعكم باسمه ومكانته .

كان استاذنا الشيخ طاهر الجزائري ، وهو على سرير الموت ، يقول لمن حوله من أصحابه : أذكروا من عندكم من الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد ، ودونوا أسماءهم في جريدة لئلا تنسوهم ، ونوهوا بهم عند كل سانحة ، واحرصوا عليهم حرصكم على أعز عزيز ، وأظنهم على كثرة ما كدوا حافظتهم وذا كرتهم ، لم يعدوا أكثر من خمسين رجلاً . وكان يقول لنا : تجاوزوا عن سيئاتهم ، وانتفعوا بحسناتهم . وشيخنا هـذا قضى عمره في السعي إلى الاصلاح والتجدد .

لم اجتمع بالمفوض السامي المسيو بونسو الذي وقاه أصحاب الأخبار مدة من مقابلتي إلا يوم زرته مع رصفائي الوزراء لنشكره على اختيارنا للوزارة ، وقال لي هو وأمين سره المسيو موغرا ، كل منهما على حدة ، : ان صديقك المسيو ماسينيون (أستاذ كوليج دي فرانس) يحبك كثيراً ويقول فيك الخير ، فقلت للمفوض إنه صديقي من القديم ، وان صداقتنا

قامت على تبادل الافكار وخدمة العلم ، فعطف أحدنا على الآخر عطاف الحبيب على حبيبه ، وهو لا يرى عيوبي ، ويبالغ بحسناتي . وأنا مثل غيري لا أخلو من عيوب ، ولكن (عين الحب رمداء) كما تقول العرب في أمثالها . فعرفت من هذا الكلام أن صديقي ماسينيون هو الذي اقترح على المسيو بونسو أو على وزارة الخارجية أن يضمني الى الوزارة ، وليس لرئيسها يد في هذا الشأن ، فان الرئيس قبل سنتين من وزارته هذه أراد أن يؤلف وزاره ائتلافية ، على عهد المفوض السامي المسيو دي جوفنيل ، وكان هذا صديقي وقد نوّه بي في جريدة الماتين مرة ، وكان من رؤساء تحريرها : فاقترح عليه أن يأخذني وزيراً للمعارف في وزارته فأبى وقال : أنا لا أعمل معه ، ولم تؤلف الوزارة يومئذ ، ودخلت في الوزارة الثانية بدون ارادة الرئيس . وكان يوهمني أنه هو الذي اختارني لمؤازرته ، وأوعز الى صديقه السيد جميل الالشي وزير المالية أن يقنعني بأن الشيخ هو الذي وقع اختياره عليّ وليس لاحد عليّ منة إلا له .

دعوت صديقي السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي لزيارة الشام ، وكانت له صلة ود بالمسيو بونسو المفوض السامي منذ كان في تونس ، فأنزله في قصر الصنوبر ببيروت حيث يسكن . ولما جاء دمشق سألني عن وزارتنا فقلت له : إنها ستنفض بعد حين ، ويجيء رئيس جمهورية ، ووزارة جديدة ومجلس نواب . فسألني عما أصير إليه فقلت : لا أدري ، ولا يعرف ذلك غير صاحبك المسيو بونسو ، فهل ترى مانعاً ، اذا حضرت لك مناسبة عند عودتك ، أن تسأله عما يكون من أمري بعد الوزارة الجديدة . ومضت أيام ولم ألق صديقي التونسي إلا بعد زهاء سنتين في المجمع اللغوي الملكي في القاهرة . فقال لي : لا تظنن يا صاح أنني أنسيت ما عهدت إليّ السؤال عنه ، سألت عن مصيرك المسيو بونسو ، ونحن نتنزه في حديقة القصر صباحاً ، فلم يجبني على سؤالي إلا أنه قال إنه يعرف ما بيننا من

صداقة ، ومن الغد قال ، ونحن في نفس البقعة التي كنا فيها أمس : يا سيد عبد الوهاب ، ثق أن من الصعب جداً حكم هذه البلاد ، ما قصدني رجل من أهلها إلا طعن بغيره ، فاذا استخبرته عما يجب أن يعمل يقول : لو تخيرتني للحكم لأريتك العمل السديد . وصاحبك السيد (كردعلي) ما رأيته يوماً يطعن بأحد ، ولا أتاني في أمر خاص به منذ عرفته ، وهو حقاً رجل جدير بالاحترام (وقال أكثر ذلك من المدح) فأنا لا أرضى له الرياسات لأنها متعبة ، ولا تعود عليه بخير . وصديقي لفرط حزمه لم يكتب إليّ بما جرى مخافة أن يقع كتابه في يد أحد المنافقين .



المجمع العلمي العربي

لما عدت من الاستانة بعد هدنة الحرب العالمية (١٩١٨) جاءني صديقي القديم رضا باشا الركابي الحاكم العسكري في دمشق يسلّم عليّ في داري ويطلب إليّ قبول رياسة مجلس المعارف . فقلت له : إني أنوي العودة إلى إصدار الجريدة والمجلة ، ونشر كتبي الجاهزة ، فوعدني بأن أماني تتحقق كلها مع القيام بالعمل الذي يطلب قيامي به . وقال : إقبل هذه الوظيفة التي ستكون وزارة فيما بعد ، فليس عندي غيرك للقيام بها . فاعتذرت ومما قلت في الاعتذار إليه إني لم أربِّ نفسي لأكون موظفاً ، ولو أحببت التوظف ، كما تعلم ، لكنت اليوم في أرقى المناصب . وأصرّ عليّ كثيراً وقبض بيده على لحيته وقال : اكراماً لهذه . فأخجلني فقبلت ، على شرط أن يعاونني معاونة فعلية مدة وجوده في الحكم ، فاذا تنحى عنه استقلت معه .

وبدأت رئيساً على جماعة من الشيوخ ، منهم من درس العلوم الدينية ، ومنهم من شدا شيئاً من الأدب ، والتجانس فيهم قليل . وبعد مدة كتبت للاستاذ ساطع الحصري الحلبي في الاستانة اريده على الشخوص إلى دمشق ليتولى ادارة داري المعلمين والمعلمات ، فلم يجبني على كتابي ، وقام له تلاميذه بدعاية واسعة النطاق ، فاضطر الركابي باصرار بعض الاحزاب أن يرضى به مديراً عاماً للمعارف . فلزمت عندئذ داري ، وكان ما تم على غير إرادة الركابي وقال لي : أنت الذي جنيت على نفسك بامتداحك الرجل واستدعائك له . وكتم عني ما جرى على عادة السياسيين في التكتم ! وقال في الغيبة : إني لا أعذر . ولو صرح بما جرى على جليته لعذرته من أول ساعة .

بيد أن الركابي أكثر عليّ من الالحاح في البقاء ، وزيّن للأعضاء إقناعي ، فكانوا يتوسلون إليّ أنواع التوسل ، ويصرحون بأني إذا لم

أقبل بالبقاء فالحكومة لصرفهم من الخدمة ، فأكون السبب في قطع ارزاقهم وهم أرباب عيال يجب عليّ أن اراعيهم وأرحمهم . وعند ذلك قلت للركابي : إذا كنت تحرص على بقائي في الحكومة ، فأنا أرضى على أن ينقلب هذا المجلس برئيسه وأعضائه مجمعاً علمياً مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة ، فقبل وصدر المرسوم بذلك .

رأى الركابي باشا دعاية كبيرة لساطع بك الحصري ، فنزل على رغائب الدعاة ، وتركني وشأني . فلما قبلت برئاسة المجمع العلمي ، وكان أعضاؤه معي في مجلس المعارف ، وفيهم أخصاؤه وأقرباؤه سُري عنه ، وظننت انه يعاونني بالفعل كما وعد . بيد أنه عاد إلى التخلي عني ، وصدع بأمر الحكومة لما ارادت أخذ المخصصات الموضوعة في الموازنة للمجمع العلمي الجديد ، وما كان منها أنفق اكثر من ثمانمائة جنيه ثمن كتب وآثار وترميم المدرسة العادلية مقر المجمع ورواتب الموظفين ، وصرف ايضاً الرئيس والأعضاء ، وأبقى عضوين اثنين احدهما صاحب نوادر يسليه في داره ، والثاني ينظم له قصائد يمدحه بها . وقضى هذان العضوان اشهراً لم تحدثهما النفس ان يفتحا البريد اليومي فضلاً عن ان يتم على يدهما شيء من الأعمال اللهم إلا إذا كان يُعد من ذلك قراءة الصحف ، وتبادل النكات والحكايات ، وتناول اكواب الشاي والقهوة . فأصيب المجمع لأول نشأته بهذه الصدمة . اما مؤسس المجمع الذي نشر دعوته بين علماء الشرق والغرب ، فأولوه ثقتهم وصفقوا له ، وهو طفل ، فقد باء بالخجل ، وقال خصوم العرب : إنا قوم لا ثبات عندنا ، والدليل انا افسدنا بيدنا ما اسسنا قبل ان تظهر ثمراته .

قلت للركابي وهو يعذلني على تعجلي في شراء الآثار والمخطوطات وغيرها : إن من الامور ما يجب عمله بسرعة ، ومنها ما يتحتم التريث به ، وشراء الآثار والمخطوطات من الامور التي تستدعي العجلة ، لأن تجارها آخذون بتلقطها من كل مكان ، ولا يبقى الا التافه بعد برهة قصيرة ، ونحن عازمون أن نؤسس متحفاً ودار كتب تليقان باسم دمشق التاريخي . وذكرته الى

دلك أني دخلت خدمة الحكومة بالحاحه ، مشترطاً أن يعاونني ، حتى اذا خرجنا الى بيوتنا كان لنا من عملنا الطيب ما نتعزى به أمام امتنا . وقلت له ، وقد أغضبني عبوسه : إن هذا الكرسي الجالس عليه — في مكتبه بدار الحكومة — لا يبقى لك ، وهززته هزة عنيفة ، فأعني أعمل في هذه الفرصة السانحة ، وأموال الدولة تبدد ، واحسب ما يأخذه المجمع من بعض ذاك الاسراف ، ثم لشهد النتيجة .

وفي الواقع إن المجمع العلمي لم يلق تنشيطاً يذكر من السلطات المحلية منذ أنشأته ، وأصابه من مقاومات أرباب المقامات ما لا يشرف الاسم العربي ، قال لي مرة الأمير فيصل بن الحسين : ألا تخاف الله ، نحن في صدد تأليف جيش وتنظيم حكومة ، وأنت بما لك من النفوذ على أعضاء مجلس الشورى تأخذ الالوف من الجنيهات للمجمع وداري الآثار والكتب ، وتسرف في انفاقها ، حتى لقد كبدت الدولة خمسة آلاف جنيه أنفقتها على بضعة أحجار جلبتها من تدمر . فضحكت ، فقال : بالله ، قل لي كم صرفت في هذا الباب ، فقلت له : ليس مقدار ما صرفت على ذُكر مني الآن ، وعلى كل فما أنفقته أقل من هذا المبلغ الذي ذكرته سموك ، وأرى أن تتفضل وتستأمر رئيس حكومتك . فسأله عند انصرافي من لدنه ، فكان الجواب إنه صرف في هذه السبيل نحو خمسة وعشرين جنيهاً فقط . واستحى الأمير فيصل أن يعود معي الى موضوع المجمع وإسرافي بماله ، عقبى وقوفه على حقيقة ما أنفقت ، وما خفت الله فيه .

وفي غضون تلك المدة تفاوضت وناظر المالية صديقي سعيد باشا شقير في أمور المجمع فعرّض بشراء الآثار ، وقال إنه ليس من الحكمة أن يصرف في جلب حجر مثلاً خمسة آلاف جنيه ، والحكومة تحتاج إلى مسائل أهم بكثير الآن فلم افهم مراده ، لأنه لم يصرح بأني انا الذي انفقت خمسة آلاف جنيه على احجار تدمر ، وكانت المناقشة بعيدة المرمى ، عبارة عن درس مالي صدر عن رجل مقتصد الى رجل قد يوصم بالاسراف في

اموال الدولة . وما عدنا الى المناقشة مع صاحب المال في هذا الموضوع ، والغالب أن وزير المالية كان بلغ مسامعه اسرافي هذا ولم يرجع إلى الكاتب وما كتب في حساب هذه المادة .

نعم لم يلق المجمع العلمي من السلطات الوطنية تنشيطاً بل اتى تثبيطاً ، فالامير الذي له الحق أن يفاخر بأن المجمع انشىء في أيامه خذله بهزل الهازلين وارباب الاحزاب ، والركابي ضربه ضربة تكاد تقضي عليه ، وضرب رئيسه ، وكان قبل أشهر يتوسل اليه ان يبقى في الحكومة بالصفة التي يختارها . ولما توقف المجمع بصنع أرباب الأغراض عرضت وزارة المعارف لائحة على مجلس الوزراء لاطراد أعمال المجمع فطرحها وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن شهبندر بدعوى الاقتصاد . واراد الملك فيصل أن يتلافى ما فرط ، ووعد أن يوعز إلى حكومته باعادة المجمع إلى سالف حاله ولم يبر بوعده .

عاد المجمع إلى سيره في ظل الانتداب الفرنسي وعدت إلى رئاسته ، وجرى التبديل في أعضائه والزيادة عليهم . وكان أكثر أعضاء الشرف يبينون عن اخلاص ، ومعظمهم من الموظفين ، عملوا معي بدون أن يتوقعوا مكافأة على عملهم فخدموا العلم والآداب أجل خدمة .

وآذى المجمع السيد فائز الخوري ، فخطب في مجلس النواب في عدم فائدته (١) ، فألغى القسم الأعظم من مخصصاته ، بموافقة وزير المالية السيد شاكر نعمت الشعباني ، وهذا رجل لا يعرفني ، ولا يعرف ما هو المجمع العلمي ، بحت أصوات أعضاء المجمع وهم يصرخون أن اعمال مجمعهم معطلة ، ولا يصح أن يبقى أعواماً بدون رئيس ، والكتلة لا تستجيب إلى النداء وتحاول أن

---

(١) الغالب ان صديقي السيد فائز ندم على جرأته في المجلس وكأنه اعترف بما وقع منه وعرف انه ليس من المناسب ان يقف السيد فارس الخوري يبني معي المجمع العلمي العربي وشقيقه ينقضه ولكن الغرم عليّ كان في هذه المسألة وذلك اني حرمت راتب المجمع العلمي بضع سنين كان مجموعها ثلاثين الف ليرة سورية تعادل بأسعار اليوم مئة الف ليرة سورية .

ترضيهم بالكلام وأنا أقول ، وكانت تحاول الا تغضبني : لا أود العودة إلى الرياسة ، وإذا وسد العمل إلى الكفوء أعاونه ما ساعدتني صحتي ووقتي دون أن أتحمل تبعة رسمية . وبلغ الأدب بالوزير عبد الرحمن الكيالي مرة أن اخذ يساومني في جلسة المجمع على راتب الرئيس وذلك لأتنازل عن بعض مخصصات الرياسة ليعطى الفضل لعضوين رضي عنهما . فقلت له سواءٌ كنت انا او غيري في الرياسة ، فعلى عاتق رئيس المجمع واجبات لا بد له من القيام بها ، ومخصصاته التي لا ترضون باقرارها مستكثرين لها أقل من راتب سائق سيارة رئيس الجمهورية ، وهكذا كانوا يرفعون أقدار العلماء .

والحَّ عليَّ الامير مصطفى الشهابي لما تولى وزارة المعارف الحاحاً شديداً لقبول الرياسة ، فلما رضيت ورضي بشروطي أشار الي أنه لم يستطع أن يخالف ارادة الكتلة في اقصائي عن الرياسة .

وحمل الوزير الكيالي صديقي خليل مردم بك أن يكتب اليَّ وأنا في مصر بقبول الرياسة ، وأكد لي أن الامر تم من كل وجه ، ولم يبق أدنى عائق ، فلما أجبته بالايجاب قال : إن القوانين لاتبيح الجمع بين راتب التقاعد ومخصصات المجمع ، مع أن من أعضاء الكتلة البارزين من جمع بين رواتب كثيرة . واقترح السيد جميل مردم على ابن عمه الاستاذ خليل مردم أن يقبل برياسة المجمع فأبى وقال : إن الاعضاء الدمشقيين لايقبلون أن تكون الرياسة الا لرئيسه ومؤسسه .

وظهرت بعد ذلك نية الكتلة وقال لي الأمير شكيب أرسلان إنهم عرضوا عليه رياسة المجمع في أوربا فأبى قبولها وقال : إن الأولى بها رئيسه ، فأكدوا له أني تقاعدت وذهبت في سبيلي . وكان السيد جميل مردم في ذلك الاسبوع فاوض ابن أخي بسام في باريز وقال له مرتين : أكتب الى عمك انه لايكون رئيس المجمع غيره ، ونحن نعترف بعلمه وشهرته الخ . هذا ولم يطلب منه أحد هذه الرياسة ولا توسل اليه متوسل لتقلدها .

وعادوا بعد حين يرشحون للرياسة الامير شكيب أرسلان فانتخبته أول المنتخبين ، وأشرت الى رصفائي بانتخابه ، وقلت لهم إن الامير خدم العرب والاسلام أعواماً طويلة أجلّ خدمة فحري بالامة وهو الآن في شيخوخته أن تكافئه هذه المكافئة القليلة على جهده الكبير ، فانتخب وعين وهو في اوربا ، فكان نصبه عندي من حسنات الكتلة الوطنية . ولما هبط مصر ليتابع سفره الى الشام حدث الانقلاب المظيم في الاوضاع السياسية في سورية ، فرجع أدراجه الى سويسرا . وبقي المجمع العلمي معلقاً في الفضاء كما كان منذ بضع سنين خلت ، والعامل الاول في تأخره فائز الخوري شاكر نعمت الشعباني ، جميل مردم ، والسيد جميل هذا كان بدأ وهو وزير المالية فأنقص موازنته ، وحاول أن يبقيه مدة وزارته بلا رئيس .

زارني بأخرة صديقي العلامة فارس الخوري يصحبه صديقاي الشاعران المطبوعان فؤاد الخطيب ، خليل مردم بك ، ففتح قصة رياسة المجمع العلمي وقال إنه اعجب بما صدر مني ، وسمعه باذنه من لساني في داري وداره في اوقات مختلفة ، من حبي الامير شكيب ارسلان . ومعاونته على احراز الرياسة فقلت له : لاالعجب ، وايشتد عجبك اذا صدر مني غير ذلك . اعلم ياصاح أن للحجارة والحوذية رابطة فمن باب أولى أن يكون للعلماء مثلها ، وبئس العلم علم لايؤثر في أخلاق صاحبه : إني صديق الامير منذ سبع وأربعين سنة ، مالقيت منه الا كل خير وود ، فكيف لعمري لاأعاونه ، وقد خدم العرب والاسلام طول حياته ، وما إخال أحداً يعرف قدر الأمير شكيب كما أعرفه ، ولا أحد يعرفني كما يعرفني شكيب . ثم ماهو هذا الراتب الذي خصص له فيحسد عليه ، وعندي أنه تقل الالوف لشكيب ، ولو خيرت لاخترت أن أخصه ببعض راتبي ، وأنا قد عرضت عليه هذه الرياسة منذ توليت وزارة المعارف في المرة الاولى على أن اكون معه كاتم سر ، وتكون له الرياسة دوني .

وقلت أيضاً : وتذكر يا فارس أني قلت لك أمام الأمير شكيب في فندق

« أوريان بالاس » اني زاهد في رياسة المجمع العلمي ، وإني أفضل أن أكتب كراسة واحدة وأطبعها على تولي رياسة المجمع سنة كاملة ، ولكني لا أحب أن أضرب من قفاي ، ولا أن أسقط في شرك الدسائس . إنكم عرضتم هذه الرياسة على الأمير ، فقال لكم إن رئيسه أولى به ، فهو مؤسسه والعارف بخفاياه ، فقلتم إنه تقاعد ، وأشرتم الى أنكم ترغبون في أن تخصوه بهذه الرياسة . وتقصوه عن تولي وزارة من الوزارات أو رياسة من الرياسات . وأنا ليس لي بعد كل هذا إلا أن أعتب على من كان يريد أن يعبث برجل خدم هذه الأمة خدمة علمية لم يخدم مثلها أحد من أقرانه . وأنا اذا كنت بعد اشتغالي بالتاريخ الحاضر والغابر وبحثي في تراجم الناس دهراً طويلاً لا أعرف من هو فلان وعلان فمن يعرف ؟

وقال السيد خليل مردم في هذه الجلسة إن الأمير شكيب كان كتب اليه سراً قبل أن يوافق على قبول رياسة المجمع العلمي أن يطالعه اذا كنت أحرص على الرجوع اليهـا ، وأجابه يومئذ بدون أن يذكر لي ذلك ، أنه جرى هذا البحث في حضوره غير مرة فكنت أقول : شكيب أحق الناس بالرعاية ، وأني ما فهت إلا بما ينبيء بعظيم حبي له وإكباري لعمله ، وإني كنت فرحاً بقرب عودته الى هذه الديار ، فكيف يسألني رأيي في هذا الصدد ؟ وقد سمع ما انطوت عليه جوانحي من الاعظام والاحترام له وقال السيد الخوري : اني بتنازلي عن الرياسة حللت المقدة ، وفرجت الكربة .

وممن قاوم المجمع من الافرنج المسيو اوستاش دي لوري مدير المعهد العلمي في دار اسعد باشا العظم ، فان هـذا الرجل لم يترك باباً للتدخل في شؤوننا إلا ولجه ، حاول أن يأخذ ما جمعناه من الآثار فأخفق ، وكان مصيره الفشل في كل ما حاول ، دام على هـذا سنين حتى منعته ادارة خارجية فرنسا من التدخل في امورنا وقالت له إنه ليس بالمستشرق فليحسن علائقه مع علماء يعملون لانهاض لغتهم وخدمة تاريخهم ، وأوعزوا اليه أن يحسن علائقه مع المجمع ولا سيما مع رئيسه . ومن الغد جاءنا يرجو أن

نضع ايدينا في يده ونأمره بأمرنا . فأغضيت عنه حتى رفعته دولته بخيانته لها ، وذلك أنه اشترى ديناراً قديماً وباعه من بريطانيا العظمى بمبلغ عظيم ، وكان عليه أن يعرضه أولاً على حكومته ، فكفينا شره ، وكفى تجار العاديات ضره ، لأنه كان أبداً يتهددهم ويتوعدهم ، ويبتاع منهم بضاعتهم بأثمان بخسة ، ويتجر بها وهو موظف ، وكنت سألت وكيل المندوب السيد شفلر اذا كان يجوز للموظف عندهم أن يتجر بنفس البضاعة التي وكل اليه أمر ادارتها ، فقال إن للرجل ثروة خاصة وهو يتجر لحسابه .

لقيت الألاقي من الحكومات السورية في سبيل هـذا المجمع العلمي ، كأنه كان بعض ملكي . وكان الأردياء الحسدة يعرفون حرصي عليه فيضربونه ليضربوني ، ويعبثون بمصلحته ايؤذوني ذلك لأنه قام قبل أوانه على ما قال أحـد رصفائي وكان لا يصدق أن في دمشق مجمعاً علمياً يعمل ويفيد ، بالنظر لما يعرف من قلة الاستعداد له في هذه البيئة الضيقة . على أن من قصدنا فائدتهم كانوا راضين كل الرضى ، ولا سيما طلاب المدارس والطبقة المستنيرة من الأمة . وكان لمحاضراته أحسن وقع في نفوس السامعين ، نبه الأفكار الى مجد الامة ، وعلمها تاريخها وأدبها ، وعرّف الناشئة إلى آداب ما كانوا يعرفونها من قبل ، وأسمعهم نغمات فعلت في أفئدتهم ، وهيأتهم للنهوض ، وكانت مجلته على ما أجمع على ذلك علماء الشرق والغرب من أرقى المجلات النافعة ، قل أن صدر مثلها ، وناهيك بمجلة يؤازرها نحو ثلاثين عالماً وأديباً من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات . وقد عني المجمع بوضع الفاظ لكثير من الكلمات الأفرنجية في شؤون الحياة ومصطلحات الدواوين وغيرها ، ودل الكتاب على مغالطهم ، والمؤلفين على تقصيراتهم ، والمحور الذي كان يدور عليه تثقيف الناشئة بالأدب العربي والأدب الغربي .

وشهد الله أني كنت افكر في أنجع الطرق لانجاحه ليل نهار ، مـدة توليتي رياسته ، وما رأيت باباً يوصلني الى النهوض به إلا طرقته ، ولطالما بذلت ماء وجهي لأناس ما كنت اتنازل للسلام عليهم من قبل ، حتى استهديت

له المخطوطات والعاديات ، وكنت اقتصد من موازنته القليلة مالاً أدخره لأمور تنفعه في المستقبل واحاول اعلاء مكانته بين علماء الشرق وعلماء المشرقيات . وكان من أثر حرصي عليه الابتعاد به عن السياسة ، فأصبح المعهد الوحيد في جميع ارض الانتداب يعمل حراً لا رقيب عليه ، ولا مستشار له يملي على من فيه ارادته . وكان الفرنسي في الشام سيداً في كل مكان إلا في المجمع العلمي العربي ، فانه كان يزوره خاشعاً متواضعاً حتى لقد قال المفوض السامي المسيو بونسو وهو يزور المجمع مع المفوض السامي في فلسطين كلاماً في هذا المعنى وان الفرنسيين في سورية يعلّمون وفي المجمع العلمي يتعلمون . وقال بعض المفكرين : إن المجمع لقي كل معاونة من المنتدبين ، فلما تركته فترت هممهم عن معاونته معاونة فعلية ، ولو شاؤا لأعادوه الى سالف عهده والله أعلم بما هنالك .

وبعد فقد صبرت الصبر الجميل في هذه السبيل ، ومن علائم الصبر صبري على أخلاق بعض من عاشرتهم في دار المجمع حتى أمهد كل عقبة تحول دون انبعاثه . دخل أحد أعيان طائفة الروم ذات يوم يزورني في مكتبي بالمجمع ، وكان عندي بعض الأعضاء ، فلما رأوه أخذوا كلهم يتكلمون معاً ، يبغي كل واحد أن يظهر أمام الزائر بمظهر يعجبه ، فاستغرب هذا وخرج ولم يفهم شيئاً من حديثهم ، ولما ودعته إلى الباب سألني ما هذه الثرثرة ؟ فقلت له : الحال كما ترى . فقال : إن كان أحد يدخل الجنة فأنت أول الداخلين إليها لطول صبرك على هؤلاء أعانك الله على هذه الرياسة .

وتجددت همة بعض أعضاء المجمع في اول سنة ١٩٤١ لاعادته إلى سابق عهده ، ونشطوا لتحقيق غرضهم لما رأوا زيادة في وفر الدولة بضعة ملايين ليرة سورية اقتصدت بفضل حكومة مجلس المديرين . وكان بعض الرصفاء كثيراً ما يعرّض في العهد الأخير أني بالقاء الحبل على الغارب قد أهملت المجمع حتى كاد يقضي عليه أبد الدهر ، وان نفرتي من بعض الرصفاء تبعد المجمع من الوصول إلى هدفه الأسمى فنزلت على ارادتهم وأزلت الخلاف ودعوت الأعضاء كلهم ودعوت معهم صديقي المسيو لا فاستر مندوب المفوض

السامي ومعاونه ومدير المعارف العام . وبعد أيام فاوض رئيس مجلس المديرين الاستاذ بهيج الخطيب صديقي الاستاذ عبد اللطيف الشطي مدير المعارف في معنى اعادة المجمع وتقررت مفاوضتي فجاء الاستاذ الشطي يزورني في داري ويعرض عليّ إذا كنت مستعداً إلى الرجوع لرياسة المجمع فأجبته بالايجاب فجرى الانتخاب وانتخبني رصفائي بالاجماع المطلق ، وعدت فاستلمت الزمام يوم ١٦ آذار سنة ١٩٤١ . وقلت للسيد بهيج الخطيب في معرض شكره على هذه العناية بالمجمع إن أصحاب المعالي والسعادة عملوا في هذا الباب ما لم يعمله أصحاب الفخامة والدولة ، أي ان الوزارات القانونية والمجالس النيابية قاومت المجمع أما مجلس المديرين فاهتم بارجاعه لاعتقاده النفع منه . وكنت على ان استقيل من رياسة المجمع في صيف سنة ١٩٤١ لما أصرّ وزير المعارف السيد محسن البرازي على اختيار شخص من الأعضاء لا اريده فأبى رئيس الحكومة إذ ذاك صديقي السيد خالد العظم قبول مقترحي واوعز إلى وزيره باختيار الاستاذ خليل مردم بك لهذا المنصب لأنه موضع ثقتي . وجرت امور في خلال هذه الازمة المجمعية . لا تشعر بتجرد كان ينبغي ان يصدر عن العلماء قبل كل الناس ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفي بعض دورات المجلس النيابي تقدم السيد جوزيف ليان نائب حلب بالطعن بالمجمع العلمي العربي وذكر عدم فائدته وكثرة ما ينفق عليه من مال الأمة فرد عليه اولاً نائب دمشق السيد نجيب الريس رداً محكماً ثم قام رئيس الحكومة السيد سعد الله الجابري فعدد ما قام به المجمع من الفوائد للغة وقال ان المجمع يمثلنا في العلم ودمشق هي الدعامة الاولى في نهضتنا . وفي جلسة اخرى طلب الاستاذ الريس إلى رئيس مجلس النواب الاستاذ فارس الخوري بصفته من أعضاء المجمع العلمي منذ نشأته ان يقول رأيه في المجمع فقام يعدد ما قام به من الأعمال للغة والتاريخ ، وابان ماله من الاثر الحميد في تحسين سمعة البلاد وما له من المكانة في عالم العلم وبين المستعربين من علماء المشرقيات . فكان قوله فصل الخطاب . واثبت رجال الحكم الجديد غيرتهم على العلم والآداب .

أربع شخصيات

الأولى

هو من الافراد الذين يحسنون الضرر والنفع ، ونفعهم أكثر من ضررهم كان حازماً شديداً في ادارته ، يفضل ان يكون معاونوه ممن يعف عن اموال الراعي والرعية ، واذا عنّ له انقاذ الخلق من ظلم ظالم يعرف كيف يلقيه في شرك لا يخرج منه سجيس الليالي . واذا كان الفاسد على شيء من المزايا ويرجي الانتفاع منها ، وكان ممن يخشى سلاطة لسانه لا يتم اصلاحه معه الى النهاية ، ويهدده بأساليب له يظنها نافعة حتى يرعوي ويكف من شره .

كان يعرف السياسة المكافيلية ، ويعمل برباطة جأش ويحسن ضبط نفسه ، يداوي بالسكوت ما لا يحب الجهر به او يبتسم ابتسامة صفراوية عندما لا يحب التصريح ، يعرف ما يعمل وما يعمل له ، ويملي ارادته على الكبير والصغير ، واذا كان صاحب السلطة غراً مستبداً يخفف من غلوائه بالبرهان ، فاذا عجز عن ذلك تحصل المشادة بينهما لأنه لم ينفذ له المعقول وغير المعقول من رغائبه ، وهو ممن ألفوا مراعاة القانون ، وله مشاركة كافية في بعض فروع ادارته ، والظاهر من حاله انه تحت الطلب لخدمة أرباب الدول بلا قيد ولا شرط ، حباً بالمنصب وما يتبعه من ظهور وسطوة .

يؤلمه النقد اذا كان في الخدمة ، ولا يهش كثيراً للمناقشة ، ويفضل أن يأمر فيطاع ، وألا يسأل عن سر امره . ويظن ان كل من يرى هم كالجند في كتيبته ليس عليهم غير الطاعة . تتمثل فيه الغطرسة والغلظة وحب الانتقام ، وأظنه لا يحب غير أولاده ، ويقل جداً المخلصون في حبه .

كان بارعاً بالتجاهل تجاهل العارف ، وبالتغابي تغابي العاقل ، وأتقن

هذا التجاهل وهذا التغابي حتى لتظن انه يعتقد الغباوة بكل من يلقاه . وطريقته هذه اذا سكت عنها من يخافون شره ، فان من لا يبالون مظهره يذكرون له عيوب ادارته في وجهه . أما الوفاء فما عرف لفظه ولا معناه ، واما الصداقة فصعب عليه القيام بعهودها ، والعالم من الأزل لا يحبون إلا من ينفعهم ، أو يعتقدون انه ربما ينفعهم ، وكان قومه يرهبونه اذا كانت له سلطة ، فاذا ساواهم اشاحوا بوجوههم عنه ، لأنه من الشخصيات التي لا تحب اذا جردت من الحكم ، فلا هو حسن العشرة ، ولا ممتع الحديث ، ولا يخرج مع جلسائه عن احاديث العامة . والمناصب تعطي شيئاً من الرونق لبعض الرجال .

كان من سياسته أن يدخل في أحزاب وجمعيات مختلفة المنازع ، ويقسم لها كلها أن يخلص لها ! حتى إذا نجح حزب منها كان في مقدمة المتصدرين في الكراسي الامامية ، وأول المطالبين بالمقام الاعظم ، وهو كمعظم رجال السياسة مولع بالوقوف على الدقيق والجليل من أسرار الشعب ، هو من العمال الذين لا يهشون ولا يبشون إذا كانوا في دست الحكم ، ناعمين بالعز ، ممتعين بالقوة ، فاذا نُحوا راحوا يعيدون ما كان لهم من صلات بقومهم ، ويفزعون إلى الله فلا يسعهم إلا الصف الاول بين المصلين في المسجد الجامع ، وتراهم أبداً والسبحة في ايديهم ، يستغفرون ويدمدمون ثم تشهدهم في زمن العزل يتوسعون في حريتهم ويفرطون ويحاولون أن يبرزوا على الأحرار ممن كانوا بالأمس يمقتونهم ولا يقربونهم . وقد يحملون من اخبارهم لعدوهم ما لا يليق صدوره من كبير ، وتقوى فيهم ملكة النقد وهم عزل من سلاحهم ، وكانوا من قبل مهما علا الصياح من المظالم ساكتين . هو مثال من الشخصيات التي تغير اربابها المناصب ، ويتلونون في اخلاقهم منصوبين ومعزولين ، ويكتسون في كل حال كسوة الممثلين الحاذقين ، ولكن بوقار كثير وفي غير تبذل .

تراه إذا كان في حاجة إليك يلقاك صباح مساء حتى لتخجل انت منه

ولا يخجل هو منك ، وإذا واتته السعادة فأحرز مقاماً لا ينشب ان يرفع وجهه إلى السماء ، ويحوله عن السائرين على الارض . دخلت إلى يده اموال كثيرة في عهدين ، اموال سرية وجهرية ، فبددها مع غيرها في امور لا يحسنها ، فأعوز في شيخوخته ، واكبر الظن انه لم يتناول شيئاً ليس له فيه وجه حل .

الثاني

تخرج في ارقى مدارس الدولة العثمانية ، وخدمها خدمات كان فيها تابعاً لا متبوعاً ، ووصل إلى ارقى الدرجات أيام حكم الغريب ، وعرف بالاخلاص له زمن قوته ، وهو على جانب من الذكاء والجربزة ، يظهر الغيرة على مصالح الرعية ، ويخدم صاحب السلطان ، ولا يرد لهفة الضعاف والمظلومين . هو من طبقة العمال التي ترى السلامة في المسالمة . يحرص على إرضاء اصحاب الحوائج ، ولو بالكذب أو المواعيد أو المعاريض ، ويظن هذا من حسن السياسة والكياسة ، ولا يهتم لدفع المجتمع خطوة إلى الأمام ، ويهمه ابداً الاحتفاظ بهدوئه وطمأنينته ، ولذلك يتحبب الى أرباب الحول والطول ، شأن الضعيف في ذاته يستمد قوته من غيره ، فاذا تخلى عنه صاحب القوة حار وخار .

فيه رقة حاشية ، وجمال عشرة ، وتكلف رزانة ، وحب للتجمل ، وبذل إذا كان في البذل ما قد يحفظ المظهر ، ومع انه عصري في مناحيه ، يتذرع بالانتساب إلى الشرف ، وسحنة وجهه وسحنات آله تنادي بأن دعواه في ذلك غير صحيحة . هزأة يهزأ بالكبير والصغير ، ولا يستثني من سخريته إلا أصحاب القوة ، وهؤلاء يغرق في مجاملتهم ومصانعتهم . ويعبث بمن يدعون إلى الاصلاح ، ويضحك حتى من عقل من جعل دأبه نشر العلم ، ويقول جازماً إن كل جهد لا يعود على صاحبه بفائدة عاجلة باطل وعبث . يخيل اليك من حركته أنه يعتقد البلاهة في كل من يلقاه ، ويتوهم انه بروغانه يخفي عنهم ما أتى في سر . كان من صميم الاتحاديين حزب الدولة ، ووفى فيهم فقلدوه العمالات

وائتمنوه على اسرارهم، فلما دالت دولتهم ، تبرأ منهم وأنكر أنه كان في جملتهم . وكان في مقدمة الانتدابيين أيام انتدابهم على بلاده لا يعتقدون ان أحداً يدانيه في اخلاصه لهم . وكان من اكبر زعماء الماسونية واخباره في محفله شائعة ذائعة ، ومع ذلك كان يحاول أن يبرىء نفسه من الالتحاق بهم .

هو يحب السالم من المغانم ، ويدخل مع كل من يضمن له راحته وهناءه ، ومن طبعه الابتعاد عن القيل والقال ، ومن دهائه إذا شعر أنه سيطرح على مجلسه موضوع يتوهم أنه لا يرضى القوم اقراره ، ويلغطون فيمن كان من الموافقين عليه ، يتغيب عن البلد ، وإذا لم يعرف من قبل ما سيعرض في الجلسة وطرح فيها ما لا يوافقه ، يصاب في الحال بوجع في بطنه ، ويذهب إلى الخلاء ومنه إلى داره ، ولا يعود إلى ديوانه حتى يقرر زملاؤه مايقررون ، كأنه يتقاضى راتبه لينظر في المسائل السهلة التي تروقه ، أما الصعب منها فله أن يلقيه على كواهل غيره . وهذا من جملة عبثه ، يعبث حتى برصفائه ولداته . كان منذ فارق المدرسة إلى أن ذرّف على الثمانين يلهج بالعطف على من كان لأهله شيء من المجد ، يشير من طرف خفي إلى ان من كان أجداده نبلاء يحمل في نفسه شيئاً من النبل يؤهله للتصدر ، ويعتمه بما تمتع به الفئات المختارة ، من جاه عريض ، ونعمة سابغة ، والنبيل الذي يعنيه ان لم يكن على صفات تُنبّله لا يشرّفه جدوده ، وربما كان أسلافه ممن أضاعوا بأيديهم مجدهم ، وهم من أكلة اموال المدارس والجوامع والأوقاف ، او من خدام الدولة البائدة اشتهروا بسرقاتهم وجاسوسيتهم ، او من غير تلك الطبقات الشريرة ، فيوهم انهم كبار في عينه ، وما هم في الواقع إلا صغار ، وإذا حاسبناهم حساباً يسيراً خرجوا وليس لهم من مزايا الرجال قليل ولا كثير .

إن من لم يرزق صفات تؤهله للظهور والتنبل لا يجدي البكاء عليه ، وأولى له ان يذهب من طريق من نشأوا غير نشأته ، ويترك المجال لمن جاروا العصر وما جمدوا ولا اتكلوا ، ولا وقفوا عند حد التفاخر بالعظم الرميم .

وما شرف الانسان إلا بنفسه أكان ذووه سادة أم مواليا

دأب هذا السياسي يثني على كبير كان مقدماً في الدور البائد لتوسطه لبعض طلاب الوظائف وإيصالهم إلى ما يشتهون من المناصب والمراتب ، ولعله كان هو من جملتهم ، ولا يمدح السوق إلا من ربح . ولطالما زعم له أنه نفع العرب ، لأن الوظائف هي كل شيء في نظره . ومع أن الرجل الذي يتغنى بمحامده قد اضر بالدين والدنيا ، وأقل ما يقال فيه أن صنائعه كان اكثرهم سبة على الاسلام ، هذا أمر لا يهمه ، ولا يفكر بانه كان الواجب على صاحبه ان يخفف من مصائب الدولة ، لا أن يزيدها بلاء على بلاء .

والى هذا يعترف بان سيرة أ كثر القضاة كانت سيئة ، ومنهم الجهلاء الذين لايصلحون لشيء ، لان معظهم ماعرفوا القضاء الا آلة للكسب ولقد بدا لمدحت باشا والي سورية المعظم أن يمرن الشاميين على الحكم فطلب أن يختاروا له أربعة من أبناء العائلات ، فلما ولاّهم عسفوا الشعب فخجل المتوسطون لهم أن رأوا أولئك المتصرفين يظنون الوظائف غنيمة يتغنمها من يتولاها . كأنه لاجناح على ابن العائلة أن يخالف القانون ويهزأ بالشرع ، وواجب الكبار أن يسامحوه إذا سرق ، وأن يغضوا الطرف عن مساويه ، ويبرئوه مما الصق به ، ويعيدوا اليه نعمة أهله ، وان كان هو السبب في تمزيقها ، والظاهر أن هذا المعمر الكبير كان لكثرة مارأى من هذه النماذج القبيحة من المستخدمين وطد نفسه على الانس بهم ، وأوحى اليه غرامه بمسالمة الخلق ، والاحسان لارباب البيوتات أن يقرهم كلهم على ماهم فيه .

كانت الامية غالبة الى عهد قريب على العمال ، وكان بعض القضاة والحكام ورجال الجندية اميين ؛ ولطالما قلت حق في الرسميات من الخير اغلاق مدرسة معلمها أمّي ، وسدّ محكمة قاضيها عامّي وأن لايوسد التدريس والقضاء لامثالهم . وقد رأيت من هذه الثلة المخجلة في الاقاليم والحواضر نموذجات كنت إذا شهدت تلاعبها أناجي المولى في سري عن سر خلقه لها وهو تعالى لايصدر عنه العبث .

كانت الامور أبداً على العهد التركي الى الهزل ادنى منها الى الجد قال أحد الظرفاء من أصدقاء بيتنا وكان أمياً عامياً لصديق له من الظرفاء أيضاً . أراك لاتوقرني التوقير الواجب مع إني صاحب سبعة كراسي في دار الحكومة (أي عضو في سبعة مجالس) فأجابه : مالي ولك ان شاء الله تكون صاحب مئة كرسي ، فصرخ فيه صاحب الكراسي : ياخبيث إذا كنت صاحب مئة كرسي فانا إذاً صاحب مقهى لاعضو من أعضاء الحكومة ، ومن الغريب أن يكون من جملة كراسي هذا (العم المحترم) كرسي في مجلس المعارف .

الثالث

هذا كان على جانب من الحزم والروية ومن المداورين أيضاً ، ومن الحرص على حماية أبناء أسرته وأبناء البيوت القديمة ، وسياسته أن يستكثر أبداً من الراضين عنه ، يرضيهم في نطاق القانون أو بالخروج عليه وعلى شدة نفانيه بارضاء الناس عزّ من يحبه منهم ، وتتجلى عبقريته ، وتمثل للأعين عفته إذا جاءه من يطمع في حمايته من أهله ، فانه يصرف عندئذ كل مافيه من حيلة ليبلغه ما يشاء بمخالفة القانون جهرة . وحماية الاهل والاقارب ماثلة في أكثر من اصطلحنا على اطلاق اسم الكبراء عليهم .

وابتلاه الله بقريبين ، ما اظن ان الله خلق أحط من اخلاقهما ، ولا أوغل منهما في الفساد على انواعه ، وكلاهما جمع مالاً عظيماً من التوظف ، وكلاهما فقد ثروته برمتها ، أضاعها الاول في حياته ، والثاني لسنتين من وفاته . وكان لاشأن لنسيبها هذا الا معاونتهما على اجرامهما ، يجهد كل جهده ليبرئهما متى انكشفت سيئاتهما في جريمة جديدة ، وهكذا حال بعض رجال هذا الزمان يتعلمون مايستعينون به على تقلد الحكم ، وتبقى اخلاق بيوتهم راسخة في نفوسهم ، واذا قلت لهم في ذلك اجابوك وما خجلوا .

هي السياسة ومن لا يرضيه ان يسير بسيرتنا فليقعد في داره . فانظر إلى هذا الذكاء كيف يتبخر عندما يعرض الحظ النفساني ، ومن الدليل على تجسم هذا الخلق في هذا المترجم له انه يعين كل جاهل ساقط اذا كانوا ممن يختلفون اليه ويصانعونه ، ويرجو منهم خيراً ساعة الضيق ، يرشح الوظائف أسقط صنائعه وأسقط أقربائه وهو ولا شك عارف بتجردهم من المزايا ، وماذا يهمه اذا كانوا جهلة أو متجسسين أو مرتشين اذا سدّ هو نهمتهم وأوصلهم الى رغائبهم بالحاق الضرر بخزانة الامة وادخال الخلل على مصالحها . وهذا ما رأيته من أكثر السياسيين وأرباب الأحزاب يعمون عن كل عيب في جماعتهم ، ولذلك كان من اللازم عزل السياسة عن الادارة ، فمن يتولى أمراً ادارياً يجب ألا يكون له دخل في السياسة .

ورحم الله طلعت باشا وزير الداخلية في آخر أيام العثمانيين ، وأحد المخلصين الصادقين من الاتحاديين ، فقد عرض عليه أحد معارفه أن يوظف أحد ذينك الشقيين ، بدعوى أنه سبق له أن خدم في الادارة ويحمل شهادة عالية ، فقال له ما زبدته : ما دمت جالساً على هذا الكرسي يستحيل أن يلي هذا خدمة في الحكومة لأن الحكم عرض ، ومن لا عرض له لا يؤتمن على أعراض الامة . وقد ثبت عليه أنه بعث بزوجته إلى أحد كبراء الدولة لتغنيه وترقص له ، وزوجها مغتبط بأنها حظيت بالقبول منه .

أظن بعض ساستنا يحتاجون إلى تغيير تركيب أدمغتهم حتى تكون لهم متانة أخلاق الوزير التركي طلعت .

المدارس تعلم قشوراً من المعارف ، لا تلقن عقلاً ، ولا تنزع خلقاً متأصلاً .

الرابع

وهذا سياسي آخر ساد باستخدام ما لديه من قوة موروثة ، مضافة إلى ما أوتيه من قوة مكسوبة . لم يدرس الدروس العصريه ، ولا تعلم لغة شرقية ولا غربية ، ولا دخل مدرسة مدنية ولا دينية ، ولم يتخرج

بأحد ، ولا عمل تحت اشراف أحد ، وبرز للعالم كبيراً بمظهره وهذا لا يستغرب في الشرق موطن الخوارق والعجائب .

هناك ذكاء وقوة حجة وحركة لا تفتر ، وهناك تجديد وجمود أحياناً ، وأناة وطيش أحياناً ، ومطامع عظيمة يبذل في تحقيقها آخر درهم ، ومغامرة إلى أقصى حدود المغامرة ، وثبات في الشدائد ، واستهانة بكل عزيز اذا كان من وراء ذلك ما يؤدي الى التفوق على منافس . ولو بذل بعض هذه العناية في تحصيل العلم لعدّ من العلماء الممتازين .

يحب من الاعمال ما يكون ذريعة الى التمجد به ، ويحلو له أن يناصر المشاريع النافعة ولو كان القائمون عليها ممن جاهروه بالعداوة . ظاهرة غير باطنه وسريرته غير سيرته ، ودهاؤه يفوق اخلاصه ، واسع الحيلة ، صبور على الأذى ، يحسن استمالة القلوب ، ويحسن تنفيرها . وسياسته اخترعها لنفسه لم يقرأها في كتاب ، ولا رواها عن المعاصرين والغابرين ، يستخدم كل ما يجوز وما لا يجوز في سبيل أغراضه ، وهو بارع في الدس على خصومه ، ومن أكثر الناس وعوداً ، ويعتقد أنه بالاكثار من الوعود يرضي الطالبين ولو موقتاً ، وقد يلبس وعوده حلة يستلطفها لأول وهلة من لم يكن له عهد بطريقته ، واذا انكشف أمره يعود فيهيئ قولاً آخر يقوله ، واذا اشير اليه بالاقلال من هذه الوعود هزأ بالقائل هزأه بأرباب العقول ، وقد يقع له أن يعد عشرة أشخاص بغنم واحد ثم يدفعه لآخر غيرهم ما كان داخلاً في زمرة من أقسم لهم أن يخصهم بالنفع ، ومن قلة عقل الموعودين أن يعودوا بعد حين يصدقون ما يوعدون به .

ربما غالى منافسوه في الطعن عليه ، لانهم يعتبرون أنفسهم أعلم منه ، وهو الذي جاءهم بأساليب في التآمر يكاد لا يظهر لهم سرها إلا بعد وقوعها ، ولو كان عقله على مقدار لجاجته عند حاجته لجاء منه الرجل الذي ينشل الدول من سقطتها .

من سياسته أن يرعى العامة أكثر من الخاصة ، لاعتقاده الخير في العوام وانه لا ينفعه غيرهم في مواطن ليس للخاصة استعداد لمثلها ، ولهذا كان معظم من يصطنعهم من صنف قليل البضاعة من المعرفة ومن الأخلاق ، ويرى أنه لا يضيره سوء اختياره ما داموا يخلصون له ، وفيهم من المزايا ما يعرفه هو فيهم ، وهو الى هذا يماشيهم ويتقرب من ذهنيتهم .

يخلص لكل من يوليه ثقته من الدول ؛ ويفى فيمن يعتقد أنهم وحدهم يقدمون ويؤخرون في حاضره ومستقبله . خدم دولاً ثلاثاً كان في كل واحدة منها الامين المخلص ، يرضي رجالها بكل ماأبدعته قريحته من ضروب الارضاء ، ويهون عليه كل أمر اذا كان من وراء ذلك جلوسه يوماً واحداً في الحكم . وهداياه تترى الى من بأيديهم التأثير فيه وفي منصبه ، يأخذها من أي مال وصلت اليه يده ، وغرامه باكتساب المال يوازي غرامه في الاسراف فيه ، تراه عصرياً مجدداً الى أقصى حد ، وربما تسامح بأمور لها مساس بالدين اذا صلحت له الدنيا كما يحب ويهوى .

واذ كان هواه السياسة يرعاها أبداً لايصعب عليه أن يدوس الحق برجله اذا تعارض مع سياسته ، وكثيراً ما عطف على المفضول وترك الفاضل ، وهو على مضض اذا استخدم بعض الكفاة ، لأنه في باطنه لايحترمهم وهم لايحترمونه ويدلون عليه أيضاً بما امتازوا به من صفات وخصائص . وقال بعضهم فيه إنه يحسن اختيار عماله ولا يحسن الاحتفاظ بهم الى النهاية . وفي الازمات يلجأ الى اشياء يخيل اليك معها انه يرجع بالبلاد القهقرى ثلثمائة سنة ، وهذا ينافي دعواه التجدد والتمدن ،

لو قيست هذه الشخصية بالشخصيات التي تكلمنا عليها قبل هذا لرأينا صاحبها بذّ اولئك الدارسين المجربين الذين صعدوا سلم المعالي درجة درجة ، ونسجوا مجدهم خيطاً خيطاً ، فقد شهدناه خدم نفسه وخدم المصلحه العامة بالممكن على اسلوبه الخاص وأضر نفسه ونفع من احبهم . أما الثلاثة الآخرون

لما أتوا بشيء يذكر في سياستهم وادارتهم اللهم الا أشياء ماطبقوها واموراً موهومة مانفعت من رعوهم ، وهذا لم يحصر ذكاءه في دائرة واحدة بل أرسل به الى ساحات واسعة يجول ويصول ويخطىء ويصيب ويمنع وينفع .

قيدت هذا الكلام لما فيه من عظة وعسى ان يدرك الفطن من مغزاه أن الكبار مادامت هذه منازعهم لايرجي الآن قيام حكومة رشيدة بايدينا . نقول هذا والاسف آخذ منا بعد أن رأينا كيف يسير أرباب الطبقة الاولى من رجالنا تحت الايدي الغريبة . ونتساءل ايكون عملهم أحسن ياترى لو كانوا في حكومة مستقلة تتجلى فيها أخلاقهم وقرائحهم في قيمتها الحقيقية ، بدون أن يكون لها من يرقعها ويجبر نقصها .



في مصر ومن أجل مصر

دخلت الفندق بباريز ، وكنت على أن أقضي فيها بضعة أيام في طريقي الى أكسفورد ، لحضور مؤتمر المستشرقين (١٩٢٨) ، وما كنتُ أعلم أن سموّ خديوي مصر عباس حلمي ينزل هذا الفندق ، وله فيه جناح خاص . وانفق أن كان واقفاً على رأس السلم ، فأهل بي كثيراً ، وكنت تشرفت بمعرفته من قبل ، فتحدثنا ملياً ، ثم تفضل ودعاني الى تناول الطعام معه من الغد في غابة بولونيا من ضواحي باريز ، ولم يكن معنا غير صديقه وصديقي حافظ عوض بك الكاتب السياسي المصري ، ووكيله بباريز وهو مصري اسرائيلي (خليفة بك بوبلي) . فذهب الحديث بنا كل مذهب ، ولحظت أنه كان غاضباً على الأمير شكيب أرسلان ، فحاولت عبثاً أن يحل الرضا محل الغضب . ثم ذكر له حافظ كتابي (خطط الشام) فقال الخديوي انه لم يره ، فقلت : أقدم نسخة منه ، فقدمتها لدنْ عودتي . فكتب إلي جواباً يشكرني ويقول في آخره : (وهنأتك على هذا العمل الصالح الذي كان ضرورياً لرقي سورية التي نحبها ونعزّها ، ولا نبرح مفكرين في خيرها ، اقتفاء لأثر جدنا ساكن الجنان محمد علي) .

وربما كان الخديوي يودّ لو كان ملكاً على الشام ، وكانت سورية في بدء خروجها من حكم الترك تؤمل لو كان لها ملك من آل محمد علي ، خصوصاً بعد أن خرج منها الملك فيصل . وبلغني أن فرنسا فاوضت الأمير يوسف كمال ، خلال الثورة السورية ليتولى ملكها ، فاشترط لذلك أن يكون المفوض السامي الفرنسي في سورية سفيراً كسائر السفراء ، وهو يتعهد أن يقيم من أعمال العمران ما يشغل السوريين عن كل ثورة ، فلم يقبل بالطبع اقتراحه ، ولا يقلّ الطالبون لملك سورية إلى اليوم عن عشرة

أشخاص ، ومن الناس هنا من يفضل الحكم الجمهوري ، ومنهم من يحب الحكم الملكي المقيد .

ندبني المجمع العلمي العربي وحكومة سورية لتمثيلهما في حفلة تكريم أحمد شوقي شاعر مصر . وعرضت خطابي على مراقب الخطب ، فحذف منه جملة ، كان في حذفها على صواب ، لأن الكلام يتم بالاستغناء عنها ، وهي تورثه تطويلاً . وأرادني أحدهم أن أحذف تحية رأس الأسرة المالكة محمد علي الكبير وما يتبعها من تحية الملك ومن تقدمه من آله في حكم مصر ، فأبيت وقلت : لا أحب أن أخرج على حدود الأدب ، وأنا منتدب عن دولة وعن مجمع علمي هو الوحيد في الشرق الأدنى ، ومن كان له ما يقال مع صاحب مصر فهو وشأنه . وعلى هذه الصورة قرأت خطابي في الأوبرا الملكية بالقاهرة ، فكان له وقع عظيم في النفوس ، قوبلت فيه بعاصفة شديدة من التصفيق مرات . وتعرفت بعد ذلك الى بعض رؤساء الأسرة المالكة ، واستحكمت بيننا الصداقة .

ودعاني شوقي ، وأظن باشارة من القصر الى زيارة جلالة الملك فؤاد الأول ، فقابلني جلالته مقابلة عطف عظيم ، وطلب اليَّ أن أعود الى سكنى مصر ليوسد اليَّ عملاً علمياً في قصره العالي ، وزادت رغبته في ذلك لما ذكرت له الصحف والمجلات المصرية التي آزرت فيها ، فقال إنك بمساهمتك بخدمة السياسة والأدب في مصر تعد مصرياً . وذهب الفكر بي مذاهب لما ذكر المليك المحبوب مقترحه ، فتوسطت صديقي شوقي لاعفائي من تقلد المنصب الجديد . فقال شوقي لكبير الأمناء إن صاحبي عزفت نفسه عن سياسة قطره ، فيصعب عليه أن يعالج سياسة غيره ، وأنا أجد لكم شاباً مصرياً كفؤاً للعمل الذي تحبون توسيده اليه ، فأجابه : نحن نعرف شباب مصر ونعرف أن نختار منهم متى أردنا ، وإنما نود أن نستخدم شخصية صاحبك . وهكذا تفضل ملك مصر العظيم فأغضى عني بحسب ما تراءى لي وشكرت تلك العواطف الجميلة . وكنت أخجل كلما تشرفت بلقائه بما كان يفيضه عليَّ من

مكارم أخلاقه ، واستخليته مرة لأقدم شكري لجلالته على ما أولاني من فضله بضمي الى أعضاء مجمع اللغة العربيــة الملكي (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) فتفضل وقال : « إنه كان يخشى ألا أقبل بهـذه العضوية أما وقد قبلت فهو يشكرني » .

وكنت علم الله أود امتثال أمره الكريم في سكنى مصر لولا أن هواءها لايلائمني كما يلائمني هواء دمشق مسقط رأسي ، وفي أرضها دفن أبي وجدي ، ولولا أني لاأحب أن أشرع بأمر جديد قد يخالف من بعض نواحيه مانهجته حتى اليوم ، فيظهر التنــاقض بين يومي وأمسي . ولما عدت الى مصر بعد تغيب سبع سنين عاد الملك فؤاد الأول أحسن الله اليه يكرر اقتراحه الاول في ارادتي على سكنى مصر ، فأجبته في قصر القبة العامر إني رهن أمره في كل مايلوح لخاطره الكريم ، سواء كنت في الشام أو في مصر ، لاأحتــاج إلا الى اشارته العالية لأصدع بأمره . وارسلت من جهة ثانية صديقي السيد محمد الببلاوي الى قصر عابدين ، وقد سمعت أن الامر كاد يتم بتوسيد عمل اليَّ في القصر ، حتى لايبادروا الى تبليغي ارادة ملوكية ، لاأستطيع قبولها واكره ردها . وكان جلالة الملك يحرص على جلب العلماء الى بلده ، ذكر ذلك في حديثي معه اول اتشرفي بمقابلته فقال : (إني أود أن أجلب الى مصر كل اخصائي في فنه وأدبه ، حتى لاتبقى دون غيرها في مضمار التقدم ، ولطالما أردت بعض المشتغلين بالعلم في الغرب أن ينزلوا على الرحب والسعة ديارنا ليفيدوها بعقولهم وقرائحهم ، وقد أزور بعضهم في بيوتهم أحملهم على هذا الغرض ولكن بعض علماء الغرب لايقدرون أن ينفكوا عن أعمالهم ، ويصعب عليهم أن يرحلوا طويلاً الى الشرق) .

وكان هذا المليك العظيم يشارك مشاركة عظيمة في العلوم المختلفة ، حتى اتحس وأنت في حضرته انك في حضرة عالم لافي حضرة ملك . قال

لي في احدى مقابلاته ان السير دنسن رُس مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن قال له إنه ينوي الذهاب الى فارس ليقنع رجال سياستها بالعدول عن الخط الفارسي واستعمال الحروف اللاتينية كما فعل الكماليون ، فتألم المليك لهذا المسعى وقال للمستشرق الانكليزي : اذا فعلت فأنا أنفض يدي من صداقتك ، وأقاومك بكل مافي وسعي ، وذكر له جمال الخط الفارسي وجمال الخط العربي وكان (طيب الله ثراه) فتح مدرسة في القاهرة وحشر اليها أعاظم الخطاطين من الاتراك لما بارت صنعتهم في تركيا ، وكان من أثر ارشاده أن يقول المستشرق المومإ اليه بعد حين : ان اللغة العربية والحروف العربية والقرآن والاسلام كلها قواعد بناء واحد إن هدمت واحدة منها تداعى البناء كله .)

أبيت سكنى مصر مع أني أجد بين ظهراني اخواني فيها من السلوى ما لا يتيسر لي أن أنعم بمثله في بلدي . وتفتنني مغريات الحضارة على ما لا أجد له شبيهاً في الشام ، وعليَّ يصدق بعض الشيء قول أبي تمام :

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاس اخواني

لما عاهدت أنا وصديقي الشيخ أسعد الشقيري ألا نشتغل بشيء اسمه سياسة بعد الحرب العامة لكثرة ما لقينا من آلامها ، فانقطعت بالفعل الى الأعمال العلمية الصرفة . واذا اشتركت في الوزارة مرتين ، فالوزارات في سورية على عهد الانتداب كانت وزارات لعيين من المنتدبين لا دخل لها في السياسة ، وإنما هي وزارات جديرة بأن يطلق عليها اسم وزارات ادارة ، والسياسة بيد الدولة المنتدبة . وبهذا برت بتعهدي وخلصت من غوائل كثيرة ، وما كنت في الوزارتين شهد الله ، أفكر في غير اصلاح المدارس وتعميم التعليم الابتدائي . وكنت لهذا السبب أبتعد ما أمكن عن عظماء السياسة

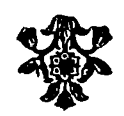
لئلا يمهدوا اليّ بمسائل لا أحب الدخول فيها ، وتتخدش الخطة التي رسمتها لنفسي بعد الحرب ، وصعب عليّ أن أدخل آخر الأمر ما تباعدت عنه في الأول ، والمسائل العلمية لا تترك لمعانيها وقتاً للتفكير في غيرها .

وحاول مفتي القدس ان تكون الحفلة الأولى من أسبوع شوقي برياسته وكانت اللجنة جعلتها برياستي بدون علمي . لأني مندوب عن مجمع علمي وعن دولة سورية ، والمفتي مندوب نفسه فقط . فرفعت اللجنة اسمي في اليوم الاول وجعلتني في اليوم الثاني ، وسرته بهذا التقديم ، واستكتب في الصحف انه رئيس المجمع العلمي في فلسطين ، وما عهدنا لفلسطين مجمعاً علمياً الى اليوم .

ودعينا إلى الجامعة الاميركية في القاهرة لتناول الشاي انا وصديقي الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي ، وكان جاء الى مصر ليكرم شوقي أيضاً ، فالتقينا في محطة اللد على سبيل المصادفة ، ونزلنا معاً في فندق كونتيننتال . فقلت لاسعاف انا لاحب إجابة هذه الدعوى ، والوقت ضيق وعندنا اجتماعات أخرى لابد من حضورها ، وبدأت الحفلة تصاغ فيها الاماديح لمفتي فلسطين ، وكلما رجونا انتهاء الاحتفال زاده شعراء الطلبة وخطباؤهم تقديساً وتمجيداً ، وزدنا من جراء ذلك تبرماً ومضايقة ، ولما رأيت الامر يطول استأذنت وانصرفت على شدة حرص مدير المدرسة على بقائي ، وقلت لاسعاف : إن النفاق رائج عند الغربيين رواجه عند الشرقيين ، وعند المدنيين كما هو عند الدينيين ، وأسفت على مخالفة قاعدتي في الا أحضر حفلة لا أعرف الغرض منها ، ولا اشترك في مائدة لا أتبين الاشخاص المؤلفة منهم . وحدث بعد سنين أن دعتني هذه الجامعة أيضاً إلى حفلة شاي لتكريم الاستاذ فنسنك أحد علماء المشرقيات الهولانديين فاعتذرت لأني لا أعرف من يحضر فيها . وقلت لمن آخذني قبل سنة لامتناعي عن إجابة دعوة الجامعة الاميركية أيضاً : إن معرفة الاشخاص في الدعوات الخاصة

من القواعد الأميركية ، وكان على الجامعة التي تحمل اسم أميركا أن تجري على هذه الخطة ، وإذا عدّ امتناعي عن الحضور شذوذاً ، فأنا أحب هذا الشذوذ إذا كان فيه مايريحني ويريح الناس .

وجريت في الدعوات التي اقمتها في العهد الاخير على كتابة اسماء المدعوين في رقعة مطبوعة ، فكان بعضهم يعتذر لتخلفه عن الحضور لانه سقط في قائمة الاسماء على اسم من لايحب الاجتماع به ، فارتفع بذلك حرج عن أصحابي واستحسنوا ذلك ونسج بعضهم على منواله .



سياسة

قال لي رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسيني إن دارعة افرنسية رست في ثغر بيروت فيحسن أن نذهب لتحية قائدها باسم حكومة سورية ، فقلت له : جرت عادتك أن تبعث في مهماتك غيري ، فأرسل أحد رصفائي نائباً عن الحكومة ، واعفني من هذه الرسالة ، وأنا لا أحب التشريفات ولا أحسنها . فأصر عليّ بالذهاب ، وأرفقني بكاتب مؤتمن عنده ، ليكون شهيداً على ما أقول ، وما علمت ان كان انتدابي لهذه التحية هو من عندياته ، أم كان بايعاز من مقام أسمى .

ولما وصلت الدارعة كان وكيل المفوض السامي المسيو تترو هناك ، وقد اخذت منه الخمرة فقال : إنكم في دمشق تلعبون وتهزلون ، والرئيس لا يحضر الى مكتبه كل يوم ، ، وسياستكم تتجه نحو سياسة الوطنيين المتطرفين . فأجبته أن ما بلغه غير صحيح ، وان الرئيس مواظب على عمله أكثر من اللازم ، حتى انه قضى أمس الجمعة وهو يوم عطلة في دار الحكومة ، من الصباح إلى الغروب ، وجئته في المساء وسألته اذا كان تغدّى ، فقال : لا . فقلت له: اذا أحببت أن تطول خدمتك ، يجب عليك أن تأكل في أوقات معينة وتنام وتستريح ، وان كان لا بد من الاقامة في قصر الحكومة ، حتى أيام التعطيل ، فأت من بيتك بسرير ، وأوصهم على طعام يحمل اليك . وذكرت له أن اتجاهاتنا السياسية ليست مع المتطرفين ولا مع غيرهم ، وليس من دليل حسي على صحة هذا التقول على الحكومة ، وأقنعته بان حكومتنا لا تتساهل بواجبها .

ذكرت للشيخ حديثي مع تترو ، وقلت له ان القوم على مارأيت يتربصون به وبحكومته الدوائر ، فاما أن يكتبوا الى المفوض السامي المتغيب في باريز فيتفق مع وزارة الخارجية على اقالة حكومتك ، وإما ان ينتظروا

بحيثه لانقاذ برنامجهم ، فتدارك امرك والا تداعت وزارتك . فشرع في الحال يتخذ الوسائل فنجح وبقيت وزارته في الحكم بعد ذلك نحو سنتين .

كان المسيو برويير مندوب المفوض السامي يكرهني ويحب مستشار المعارف المسيو راجي ، وكان هذا خصمي منذ توليت الوزارة ، فقد كان يتدخل فيما ليس من شأنه ، وانا اقف في طريقه بالقليل من الوسائل التي كانت لدي . وقد دعيت مرة لنتفاوض في منهاج التعليم الثانوي برياسة كاتم السر العام المسيو تترو في بيروت ، وكان معي مستشاري ، ولحق به المندوب المسيو برويير فحضر الجلسة ، وليس من حقه ان يحضرها ، فلما تكلم مستشار المفوضية وتكلمت انا ، اراد مستشاري ان يتكلم فما فهم الحاضرون ماقال ، وتبسموا مما اورده من العبارات ، وانفضت الجلسة .

وتخلفت عن الجماعة وبقيت مع المسيو تترو وقلت له جاداً : اما بلغك انه كادت تقوم فتنة امس في دمشق ، فقال : لا ، وكيف كان ذلك ؟ فقلت له : انت تعلم ان الفقراء والاغنياء سواء امام الله ، وفي الجامع عندنا لافرق بين السلطان والشحاذ . وقد شاء مندوبكم المسيو برويير ان يحضر صلاة العيد في الجامع الأموي ، فتأخر عن الميعاد ، ولما حضر كان المصلون اقاموا الصلاة ؛ فغضب وشتم خصوصاً لما رأى انهم لم يخصوه في السدة بكرسي عظيم ، احسن من كراسي الجالسين من غير المسلمين ، فالحمد لله على انطفاء هذه الفتنة . فضحك وضحكت معه . وكأن كلامي صادف هوىً في قلبه ، ولعله يريد ان يقول انظر بالله عليك أليس الحق مع المفوض السامي في عدم رضاه عن هذا الرجل ؛ وكان عين في هذا المنصب على غير ارادته .

وكان هذا المندوب برويير يرسل سيارته في ساعة متأخرة من الليل الى ترجمان المستشار ليستشيره في بعض ما يعنّ له من المسائل ، ذلك لأن الترجمان كان موضع ثقة المستشار ، والمستشار موضع ثقة المندوب ، وقد بلغ من دلال الترجمان الأخرق ، أنه كان كل سنة يبيع أسئلة البكلوريا

من الطلاب ، فانكشف تلاعبه بعد عزل المستشار ، وكان نصيبه الطرد من عمله . وكان هذا الترجمان ممن يعتمد عليهم أحد أعضاء الكتلة الوطنية ليكون وسيطه الى المستشار فالمندوب ، فيتمكن من قلب الحكومة التاجية ، واستلام زمام الوزارة . وقيل لي إن التقارير اللازمة في هذا الباب كانت تكتب في قلم مستشار المعارف ، فما نجح يومئذ ذاك في سعيه للوزير ، ولا وفق المندوب ولا مستشاره ولا ترجمانه . وكان هذا الوطني دأب على تقصي أخبار كل وزير بمفرده ، يسأل حتى شرطيه عن حركاته وسكناته ، ويمده بالترقية متى استلم زمام الحكم ، إذا هو أطلعه على أحوال وزيره .

وضايقني هذا المندوب ، وضايق رصبفيّ في الوزارة السيد صبحي النيال وزير العدل ، والسيد عبد القادر حسني الكيلاني وزير الزراعة ، وقد عُرضت على مجلس الوزراء مسألة الدخان ، فكان يريدنا على أن نقول باحتكاره ، ونحن نرى المصلحة في استثمار الحكومة له ، وأن نطلق الحرية للأهلين في زراعته وصنعه ، وكان يترامى إلينا أن الشركة طالبة الاحتكار وضعت مبالغ عظيمة للوزارة اذا أجابتها على طلبها ، ومنحتها الامتياز بالاحتكار . ولما أصررنا على رأينا نحن الوزراء الثلاثة ، شكانا المندوب الى المفوض السامي ، لامتناعنا من إعطاء الدخان للشركة ، مدعياً أن واردات الدولة تنقص إن لم يكن الاحتكار ، وهكذا كان رأي وزير المالية . فسأله المفوض السامي عما إذا كان الوزراء الثلاثة المصرون على إطلاق الحرية للدخان هم ممن يتهم بالرشوة فقال : لم يُسمع عنهم شيء من هذا القبيل ، فعندئذٍ قال له على ما اتصل بي : ليس الوزير موظفاً حتى نرسم له خطة ، ونطلب منه انتهاجها ، الوزير صاحب مهمة ، وصاحب فكر ورأي ، ولا يليق أن نوعز إليه باعطائنا الرأي الذي نؤثره . هؤلاء الوزراء أعرف بمصلحة بلادهم ، فاذا كانوا يفضلون إعطاء الدخان إلى شركة فأقرهم على طلبهم ، وإذا أحبوا جعله حراً فأمض ما يحبون . فرجع المندوب بخفي حنين ، وخاب أمل من يقولون معه بالاحتكار من الوزراء .

وفي وزارة الشيخ تاج الدين الثانية تقرر احتكار الدخان في سورية ولبنان بفضل المفوض السامي المسيو دي مارتيل ، فحدثت من ذلك ضجة كبرى في لبنان ، وتدخل بالأمر بطريرك الموارنة ، وما أمضى المسيو دي مارتيل إلا ما أراد ، وانتفع بذلك فيما قيل بعض العظماء في الجمهوريتين السورية واللبنانية ، ممن وافقوا على الاحتكار لتربح الشركة الفرنسية من مال سورية الفقيرة مئات الألوف من الليرات كل عام .

وكان هذا المفوض السامي يبغضني ، وهو وحده من بين المفوضين الساميين في سورية الذي تجهم لي ، ولم اجتمع اليه سوى مرتين في بضع سنين قضاها في ارضنا ، اولاهما لما دعا عظماء الدولة لأخذ آرائهم في الحالة السياسية ، توسعت معه في نقد السياسة المتبعة توسعاً أحنق صدره عليّ ، والثانية لما دعاني الى الشاي ، وأراد المندوب صديقي المسيو لا فاستر تقديمي له : وتعريفي اليه التعرف الذي يليق ، فقال له : إني اعرفه ، بلهجة قاسية . فكان يدعوني بعدها الى الحفلات فلا أحضر ، والغالب أنه كان يترامى إلى مسامعه اعتراضي على سياسته وكان يأتي أموراً تتنافى مع وقار منصبه العالي ، والحق إن السياسة الاقتصادية التي لهج بها كثيراً وانتهت بري ألوف من الفدادين من أرض حمص كانت عمله الوحيد الذي يفتخر به .

كيف وضعت تآليفي

سألني الاستاذ منير الشريف إذا كنت أشرت في مذكراتي إلى الاسباب التي دعتني إلى وضع تآليفي ، فقلت له : إنك لفت نظري إلى أمر ما جال في بالي ، فقال : أكتبه ففيه فائدة وتعليم . فكتبت هذا :

كان أول ما نشرته ترجمة رواية قبعة اليهودي ليفان سميتها (يتيمة الزمان في قبعة ليفان) (١٣١٢ هـ) وكنت يومئذ آخذ الأدب عن استاذي السيد محمد المبارك ، فترجمت الرواية كما يترجم المترجمون بعبارة سهلة مع المحافظة على الاصل ، وعرضتها على استاذي ينظر فيها فما راقته ، وفضل أن تكون مسجوعة على طريقته ، فنثرت بعضها ونثر هو أكثرها فجاءت قطعة منسوجة كلها بالسجع . هكذا كان الاستاذ يرى الانشاء ، وعلى هذه الطريقة تخرجت به أولا ، وأدرك هو ضعف طريقته بعد أعوام . وقال لي وأنا قد نزعت قيود السجع نزعاً : ما أسعدك تخليت عن السجع ، وعمدت إلى الكتابة المرسلة ، بدون تكلف الاسجاع والازدواج ، وأنا ما زلت محافظاً على الطريقة القديمة ، ما قدرت أن أتخلى عن الملكة العقيمة التي غلبت عليّ ، وإذا أردت اليوم أن اكتب كتاباً خاصاً في غرض من الاغراض يتعاصى عليّ تسطيره ، ذلك لأني اريده مسجوعاً وقريحتي لا تواتيني ، والسجع مستحكم فيّ رضيت أم كرهت ، وهو لا يحسن في كل موضوع وفي كل موضع .

وكتبت بعد ذلك كتباً كانت لي بمثابة تمرين على التأليف ، ولم أطبعها منها ترجمة الاسماء التركية لرضا باشا نقلتها إلى العربية والفرنسية « ١٨٩٣ » ومنها تعريب بعض فصول من ثلاثة كتب في الحرية ، وهي حرية الوجدان والحرية المدنية والحرية السياسية لجول سيمون ، ولما رجعت إلى ما نقلت لم يرقني ، وقلت

إن القراء من باب أولى لا يستسيغونه . ونشرت بعض فصول في جريدة المؤيد من كتاب الحرية السياسية .

وكنت احب أن أضع تأليفاً في حرية العرب فكتبت فيها دفاتر لم أستحسنها بعد سنين ، ورأيتني لم احكم الموضوع ، وكانت معلوماتي التاريخية فيه ضئيلة لم تكف لتصوير البحث ، ولم اعطه كليتي وما درسته على ما يجب كما درست أكثر الموضوعات التي عالجتها بعد . ولما أعدت النظر فيما كتبت لم أرَ أحسن له من طرحه في سلة المهملات وليتني أيضاً نبذت « رواية يتيمة الزمان » في زنبيل سقط المتاع أيضاً ، ولكن الشباب وحب الظهور يومئذ حفزاني إلى طبعها ، على أنها كانت لي بمثابة الخطوة الاولى نحو التأليف ، ما خلت من فائدة وتدريب عليه . وكانت معلمة لي ، على صغر حجمها ، ألا اعاود طريقة الاسجاع التي بطل زيها في هذا العصر .

ولما نشرت مجلة المقتبس حاولت ان اضع بعض التآليف التي كنت ارى فيها نفعاً ، فاستغرقت الجرائد السياسية ومجلة المقتبس العلمية كل وقتي وجهدي ، وصرفت في ذلك بضع سنين (١٩٠٦ — ١٩١٤) منها ثلاث سنين في مصر أخرجت خلالها من المقتبس العلمي ثلاثة مجلدات ، وأخرجت في دمشق خمسة مجلدات وعددين اثنين من السنة التاسعة . وما وفقت خلال هذه المدة إلا لطبع جزء من ترجمة « تاريخ الحضارة » لشارل سنيوبوس ، نشرته في المجلة أولاً كما نشرت « رسائل البلغاء » ، وطبعتها تباعاً في أجزاء المجلة وجعلتها بعد كتاباً برأسه طبعته مرتين . ثم طبع طبعة ثالثة وقد نقحته وزدته زيادات كثيرة ، وأصبحت هذه الرسائل النادرة مرجعاً للمتأدبين والباحثين ، لما حوت من نصوص لا أثر لها في الكتب المطبوعة ، وكانت مما أعان بعض ناشري المخطوطات في الأدب والتاريخ فعارضوا عليها بعض نصوصهم ، وأجمل ما فيها رسائل عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيي الكاتب ، واستفاد منها كثير من الابادء الذين عرفتهم في مصر والشام وتأدبوا بأدب هذين الكاتبين العظيمين ، ومنهم اليوم أساتذة ورؤساء في

الجامعتين المصريتين ودار العلوم والأزهر والمجمع العلمي العربي .

وطبع لي صاحب مجلة مسامرات الشعب روايتين عربتهما عن الفرنسية وهما « الفضيلة والرزيلة » و « المجرم البريء » نقلتهما بسرعة وطبعتهما بسرعة ، ولم أنظر في المسودات ولا في التجارب نظرة ثانية ، فتسللت اليهما هفوات مطبعية وغيرها ، مضافة إلى رداءة الترجمة ، على أن القراء يومئذ قرأوهما وربما استحسنوهما ، وما هما في الواقع غير كتابين لم يدخل موضوعهماقلبي وكتبتهما لغيري ، وكانت الغاية من نشرهما مادية صرفة ، والمادة شيء والادب شيء آخر .

استخرجت (١٣٤٣ هـ) بعض مانشرت من المقالات في مجلة المقتبس ومجلة المقتطف وجريدتي المؤيد والظاهر وغيرها وسميته « القديم والحديث » وطبعته في مصر ، ولم أرض عن طبعته لأنها حملت أغلاطاً فاحشة ، ولم ينظر أحد في تجاربه . وكان صديقي الاستاذ محمد لطفي جمعة كثيراً مايحثني على جمع هذه المقالات مخافة أن تضيع في الصحف اليومية والمجلات العلمية وهذه المقالات أو أكثرها لاترضيني اليوم ، وكانت شيئاً في عهد كتابتها وفي ذلك دليل على ضعف ابن آدم يستهجن اليوم ماكان استحسنه بالأمس ،

وشعرت بالحاجة الى وضع تآليف صورت في نفسي موضوعاتها ، وبحثت قليلاً عن مراجع للاستعانة بها ، فلم يساعدني الوقت على البداءة بها ، وتبرمت بما كان يضيع من وقتي في تحرير المجلة وفي أشغالي الاخرى فعزاني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري بقوله : « إن المجلة تأليف وزيادة » وكان لايرى تكبير حجم مجلة المقتبس ، ويؤثر تجويد المقالات ويوصي بكتابة مختصرة ، وعنده ان بضع ورقات جيدة التأليف أفضل من مئة صفحة مملوءة حشواً وتطويلاً . ولذلك كنت أصرف جهوداً في تأليف المجلة أستقصي أبحاثها وانقل آراء العلماء المحدثين والقدماء . وتأليف مجلد كل سنة من مجلة مختلفة الموضوعات أصعب في الحقيقة من وضع كتاب

ذي موضوع معين ، خصوصاً إذا كان منشئها يكتب أكثر صفحاتها ، وينظر في مقالات مؤازريه نظراً بليغاً ، ويتوخى ان تكون موضوعاتها من الطريف المفيد . ومن أين لصاحب المجلة أن يضع كتابا ويجود فيه يومئذ والأبحاث تعرض له بالعشرات ، وهو مضطر إلى قراءة أكثر من ثلاثة آلاف صفحة بالعربية والفرنسية والتركية كل شهر عدا الجرائد السيارة ويكتب كل يوم بضعة أعمدة في موضوعات شتى ، ويصحح مقالات وأخباراً لايقع عليها العد .

كان صديقي الاستاذ رفيق بك العظم كثيراً مايحثني على وضع التآليف الممتعة ، وقد كتب لي مرة من القاهرة (١٣٢٢ هـ) يقول : « وبودي ألا توزع قواك التي وهبت لك في أجزاء منثورة وفصول مبتورة ، وأن توجه نفسك إلى تأليف كبير يكون لك ذخراً وللأمة نافعاً ، وأفضل مايحتاجه قومك الآن التاريخ . . اقترح عليك هذا حرصاً مني على ملكتك العلمية أن تعفو في مستقبل الايام آثارها بين متفرق الجرائد وفي ثنايا المجلات والله موفقك وهاديك » .

كنت منذ القديم أفكر في موضوع مشتت المادة متنوّع الأبحاث ، وهو وضع تاريخ سياسي ومدني مطول للديار الشامية ، فان ما كتب في هذا الباب لم يحم أصحابه حول الموضوع كثيراً ، وأخذت ابحث عن الكتب وأزور المعالم والمجاهل في هذا القطر ، واستكثر من اقتناء الاسفار النادرة باللغات الثلاث العربية والفرنسية والتركية ولا سيما الاسفار العربية القديمة التي أحياها علماء المشرقيات من الغربيين . وكنت أطالع كل ذلك مطالعة تدبر والتقط جواهرها ولما استوفيت البحث في خزائن مصر والشام وبعض خزائن الاستانة تعلقت همتي أن أرحل إلى أوربا ليتسع مني مجال النظر في خزائن كتبها العربية والافرنجية ، فعرضت فكرتي على السيد مارتين هارتمان من علماء المشرقيات الالمان وكان جاء دمشق وقلت له إني مزمع الرحيل إلى باريز ولندن وأكسفورد وكمبريدج وليدن وبرلين ومونيخ

وليبسيك وغوتا وفينا ورومية والاسكوريال وعرها ، للبحث في خزائنها عن مخطوطات العرب في التاريخ ، فقال : إن الفكرة حسنة ولكنها غير عملية ، وتنفيذها يستغرق من وقتك حولين على الأقل ، تحتاج فيهما إلى نفقات طائلة ، فالأولى أن تذهب إلى رومية ، وفي خزانة الأمير كايتاني صاحب كتاب تاريخ الاسلام صور صورها بالتصوير الشمسي من خزائن العالم ، فيها ما خلفه الثقات من مؤرخي العرب في تاريخ الاسلام ، مما لم يطبع حتى الآن ، فاذا زرت خزانته في التاريخ فكأنك رأيت جميع تواريخ العرب المحفوظة إلى اليوم في خزائن الغرب . فقصدت مصر وزودني صديقي أحمد زكي باشا بوصاة منه إلى صديقه الأمير ليوني كايتاني في رومية فقدمت عليه فرحب بي وسهل علي مهمتي ، فكنت كل يوم ابحث ثلاث ساعات في الصباح في خزانته مدة شهر .

ولما نشبت الحرب العامة كانت بعض فصول الكتاب قد نسجت . وأنا حائر في وضع التاريخ السياسي ، أأجعله على الدول أم على السنين ؟ وحائر أيضاً في الكلام على كل اقليم باقليمه على النحو الذي عرفته العرب ، ويدخل الكلام على جغرافيته وطوبوغرافيته وتاريخه السياسي والمدني ، ثم عدلت عن الطريقة التي اتبعتها في تأليفه بعد أن ألفت جانباً منه على الاقاليم ، واطلع أصدقائي عثمان مردم وخليل مردم وبدر الداغستاني على مسودات « خطط الشام » وما جمعت له من المواد وأعددت له من الفصول والابواب ، فالحوا عليّ بانجازه وطبعه ، وأرجأنا الأمر إلى مابعد الحرب . ولما وضعت أوزارها أخذ السيد الداغستاني يحثني كثيراً على طبع الكتاب ، وكان هو مثلي ومثل رفاقي الذين كاشفتهم بالموضوع يخشون ضياع التعاليق التي علقتها ، والمواد التي جمعتها بطول السهر والدؤوب وكنا كلنا نقول إن شعباً يطالب باستقلاله حري أن يكون له تاريخ يرجع اليه ، ويقول الأمم . هذا ما كنت عليه ، وهذا ماصرت اليه .

استطراد : أراد عزمي بك والي بيروت خلال الحرب الكبرى أن أؤلف له كتابا في سورية الداخلية كما ألف له مجلدان في سورية الساحلية (ألوية اللاذقية وطرابلس ونابلس وعكا) فطلبت للقيام بهذا التأليف ألف ليرة عثمانية ذهبية فاستعظم ماطلبت ، وقال ان تأليف الجزءين الخاصين بولاية بيروت لم يكلف الواحد منها ثلاثمائة ليرة عثمانية ورقية ، وكان من وضعوها وترجموها من الشبان المبتدئين أخذوا من المواد التي وقعت لهم من الكتب المتداولة ، وما عنّ لهم الخوض فيه من المباحث بادىء الرأي . فقلت له إني في صدد تأليف تاريخ مطول في الديار الشامية وقد جمعت له مواد وقعت عليّ غالية جداً ، فقد انفقت على سياحتين لي الى اوربا للبحث في الخزائن ، وعلى ابتياع ماضطررت الى ابتياعه من كتب علماء المشرقيات في التاريخ والجغرافيا والرحلات والادب وغيرها مبلغاً لايقل عن الف وخمسمائة ليرة عثمانية ذهباً ، صرفتها مجزأة على أعوام فاذا نزلت عن هذه المواد ، وكتبت كتاب سورية الرسمي لايبقي للمواد التي جمعتها وانفقت عليها هذا الانفاق طلاوة ولا جدة ، فلم يقع اتفاق بيننا .

واجتمعت بعزمي بك في الاستانة بعد أن تنحى عن ولايته — وكان من أذكياء الاتحاديين يغلب عليه الجدّ ويحرص على انهاض المسلمين — فقال لي إنه آسف لأني لم اجب طلبه إلى تأليف كتاب عن سورية الداخلية ، فأجبته وأنا كذلك آسف لعدم انفاذ أمرك . أنت استكثرت المبلغ الذي طلبته مع أنه دون ما صرفت ، وما كنت أتوقع من ذلك تجارة أتربح بها ، وربما لم تنس كيف وصلت إلى تلك المواد التي جنيتها بالمجهود العظيم ، ثم خاطبته متهكماً : هل ألفت يا سيدي كتاباً قط ؟ قال : لا ، قلت إذاً هذه صناعتي ، وأنت اسمح لي أن أقول لك إنك لا تميز بين المؤلفين وما يؤلفون . قلت لي إنك أنفقت على ما ألف لك لولاية بيروت مبلغاً زهيداً على التأليف والترجمة ، وتقترح أن أجري على ما جرى عليه غيري ، وربما كان بعضهم يكتب

لك هذا بدون أجر ، لأنه لم ينفق قرشاً على موضوعه من قبل ، ولا استعد له وهو منه خالي الذهن ، ويتطال في هذه الحرب الزبون أن يصون نفسه عن الدخول في الجندية ، ويتخذ من انقطاعه إلى التأليف حجة لاعفائه منها ، والأروح لنفسه ان يكتب كتاباً ، وما كتب حياته كتاباً ولا رسالة ، وهو جالس في حجرته يأكل الأكل الجيد ، ويلبس اللباس الجيد ، وينام النوم الهادئ ، على فراش وثير ، بعيداً عن الخطر في ساحات الوغي .

وقلت له إن من طبعي الا اهين العلم ، وما سبق لي ان اسقطت قيمته ، بل رفعت من شأنه ما استطعت ، ولقد انفقت في سبيل التعلم اولاً ثم التعليم ثانياً ثم نشر ما علمت ثالثاً ، نفقات لم ينفقها فيما احسب انسان ممن عرفت من ابناء وطني ، وارجو الا لعد ذلك تبجحاً ، وان توقن ان هذا هو الحق . وبذلك لا أواخذ على رفض طلبك ، وطلبك ما كنت أعده تفضلاً عليّ ، بل سخرة من سخرات الحرب الممقوته ، حمدت الله على أن نجوت منها .

وكان عزمي بك يحاذرني ويعتقد أني من جماعة جمال باشا ! وأذكر أني كتبت مقالات في الحملة على المحتكرين البيروتيين في جريدة الشرق فما وسعه إلا أن شكرني عليها واستزادني منها ، وإن كانت ضمناً موجهة اليه ، ولتشير من طرف خفي إلى أنه ضعيف الادارة ، يتلاعب المحتكرون بالأسواق ، وهو ساكت لا يبدي ولا يعيد .

وإذا صحّ ان يكون لي تأليف زمن الحرب الكبرى فكتابان من كتب الدعاية أحدهما رحلة الوفد الشامي إلى الاستانة وجناق قلعة ، والثاني رحلة أنور باشا الى المدينة ، وهما كتابان كتبتها وطبعتها على نفقة الجيش ، وأنا غير راض عن اكثر ما فيها ، وهما كتابان لغيري لا لي ، وفيهما صورة من سياسة تلك الأيام ، وما كتبه الكاتبون والشعراء في معاونة الدولة العثمانية وهي في أحرج أوقاتها . وبحثت في الحرب في عدة خزائن عن الكتب النادرة ولا سيما خزائن دار السلطنة فالتقطت منها فوائد عظيمة .

وبعد الحرب عاد السيدان خليل مردم وبدر الداغستاني ، وقد فجعنا بحبيبنا عثمان بك يحثان على نشر (خطط الشام) ويسهلان عليّ أمر طبعه ، وأنا أحجم مخافة أن أنكب بطبعه إذا طبعته على نفقتي كما نكبت بتأليفه . فاستقر الرأي على تأليف لجنة من أصدقائي خليل مردم ، بدر الداغستاني فوزي الغزي ، فخري البارودي ، لطفي الحفار ، سامي العظم . جمعت نفقات طبع الكتاب بالاشتراك فورد عليها من اشتراكات الشام ومصر وغيرهما ماطبعت به الاجزاء الستة اي نحو الف ليرة عثمانية ذهبية . وندر طبع كتاب في الشام على هذه الصورة ، ودل طبعه على روح التساند بين أبناء الوطن الواحد ، وكان من النادر أن يثق القوم بانجاز كتب تطبع بالاكتتاب وايقنوا لثقتهم بهذه اللجنة أن الكتاب يطبع لامحالة ، فدفعوا الاشتراكات عن طيب خاطر . طبع من الكتاب ألفان وما بقي من نسخه بعد الاشتراكات وهي نحو ألف نسخة أهديت منها المجامع العلمية والخزائن العامة والمجلات والأصحاب والفقراء نحو ثلاثمائة نسخة ، وبيع الباقي ولم يرد عليّ من ريع الكتاب مائتا ليرة أي نحو ثمن ماأنفقت على تأليفه ، وعلى ثلاث رحلات رحلتها الى أوروبا ، وعلى شراء الكتب النادرة ، واشتغلت خمساً وعشرين سنة مغتبطاً بوضع كتاب كبير في تاريخ بلادي وحضارتها قرأه قومي وعلموا فيه تاريخهم ، وأصبح مرجعاً للباحثين من العرب والافرنج

كان صديقي الاستاذ عارف النكدي يستبعد وضع تاريخ الديار الشامية ويقول إنه ضائع في تضاعيف التواريخ العامة مندمج فيها ، فمن الصعب استخراجه ، ولما انتشر الكتاب ورأى توفيقي في وضعه اعجب مما وفقت اليه فطلبت منه ان يكتب نقده في التأليف الجديد في مجلة المجمع العلمي العربي ، فكان ينتقد كل جزء عند صدوره وانتفعت ببعض نقداته ونشرتها في آخر الكتاب اسوة ماجاءني من نقد الباحثين والعلماء . ولم انشر تقريظاً مع ان التقاريظ التي كتبت في الكتاب غير قليلة . ومن طبعي ان يتدرب الناس على حب النقد للفائدة المتوقعة منه المؤلف وللناس وللعلم . ولذلك

لم انشر في كتبي قط ولا في المجلات والجرائد التي كتبتها تقريظا او شيئاً يشبه المدح في عملي بل كنت انشر النقد فقط . وهذا ما كان صديقي العلامة الأب انستاس ماري الكرملي يستغربه مني ، ولطالما قال لي إنه ماراى مؤلفاً في الشرق يتطلب النقد تطلباً وينشره .

نشرت (خطط الشام) في دمشق وكنت افضل طبعها في مصر لعلمي بأن الكتاب الصادر عن القطر المصري يلقى قبولاً في العالم العربي لايكون مثله لكتاب يطبع في الاقطار العربية الاخرى ، وعاقت عن طبعه في وادي النيل مسألة التصحيح ، ومن الصعب ان اقضي فيه اشهراً للنظر في تجارب الطبع .

وطبعت في القاهرة كتابي (غرائب الغرب) وكانت الطبعة الاولى منه في دمشق ، وزادت هذه الغرائب ضعفين في الطبعة الثانية ، وهو في مجلدين فيهما ما كتبته في المقتبس من مقالات في وصف المدنية الاوربية ومنها مقالات ايطاليا وسويسرا كتبتها في لوزان في أيام قليلة ، وكنت أكتب ثلاثاً أو اربعاً منها في الجلسة الواحدة ، وتدخل كل مقالة في نحو خمسة أعمدة في الجريدة ، وكتبت بنشاط غريب ، وقلما كنت اعاود النظر فيها ثانية . ووقع لي مثل هذه السرعة في الكتابة في مصر وقد قضيت فيها مرة ستة أشهر ، والحكومة تنظر في قضية سياسية على المقتبس بدمشق وصدرت الجريدة خلال تلك المدة ، وكان لزاماً عليَّ أن أكتب على الاقل مقالاتها الافتتاحية ، فكنت أجمع في ذهني الموضوعات التي أريد معالجتها ، وأجلس يوم البريد صباحاً إلى مكتبي فأكتب حتى الظهر ست مقالات افتتاحية دفعة واحدة ، وارسلها لتنشر في جريدتي على اسبوع .

وكثيراً ما كنت أقضي أشهراً لا تنشط نفسي لكتابة شيء ، وقد أكتب في شهر واحد ما لا يخرج من قلمي في سنة . وقلما كتبت غير كتابة الهواة ، وما اضطررت الى الكتابة التجارية إلا في الصحف السياسية على الاغلب . ولهذا النشاط والفتور عوامل نفسية كثيرة يعرفها من يكتب ويؤلف .

وقد لاحظ بعض العارفين أن كتابي « غرائب الغرب » (الطبعة الاولى منه)

كان في أوله رائقاً وفي نصفه الاخير جافاً . والسبب في ذلك أن الجزء الأول من هذا الكتاب كتب في بيئة حافلة بالمسرات ، كتب في باريز في غفلة الدهر، والقسم الثاني كتب في داري القديمة في دمشق ، وكنت إذا أحببت أن أسرح نظري لا أجد أمامي غير جدار من الطين لا جمال فيه ولا شيء مما ينعش الروح والصدر .

دعيت إلى مؤتمر المستشرقين في ليدن من بلاد القاع في صيف سنة ١٩٣١ وسألت رصفائي أعضاء المجمع العلمي العربي عن الموضوع الذي يرون أن أخوض فيه هناك ، وقلت لهم إن كل عضو لا يسمح له الكلام أكثر من عشرين دقيقة ، على ما رأيت في مؤتمر المستشرقين في اكسفورد سنة ١٩٢٨ ، وقد تكلمت فيه على نهضة العربية الاخيرة ، وتعاون العرب والمستعربين على النهوض بها ، وعلى نشر دفائنها المخطوطة . فقال أحد الاعضاء صديقي الدكتور اسعد الحكيم : قل لهم إن الاسلام أصبح معروفاً عند الأمم بما نقل إلى لغاتهم من كتبه ، فليس من اللائق بعد الآن ببعض المؤلفين أن يطلقوا ألسنتهم فيه بما لا يليق ، ولا أن يطعن بالمسلمين والعرب الطعن الذي لم ينشأ إلا عن أحقاد قديمة وتعصبات رديئة . فقال الأعضاء : هذا هو الموضوع . وقلت لهم : ليتني كنت قيدت أشياء عرضت لي ولها صلة بما نريد فقالوا : تكلم بقدر ما عندك من المادة ولا يطلب منك الزيادة . فأخذت بدرس الموضوع درساً خفيفاً لا كتب فيه سبع صفحات . ولما أزمعت الرحيل حددت الحكومة لي مدة الرحلة أربعين يوماً فاستقللتها ، وعدلت من تلقاء نفسي عن السفر ، وفرح رئيس الوزراء لانه كان يود أن يذهب إلى باريز وكذلك وزير المالية ، فأبت المفوضية أن تجيبها إلى رغبتها إذ لا غاية ترجى من سياحتها .

ولما عدلت عن الذهاب الى ليدن انصرفت إلى درس الموضوع الذي اقترح عليَّ أن أعرض له في جلسات المؤتمر ، واتفق أن تركت الوزارة بعد حين فسيطرت على وقتي كما أشتهي ، ومازال الأفق يتسع ويمتد ، وأنا تحدثني نفسي أني سآخذ مما كتبت محاضرات للمجمع العلمي حتى كتبت

أكثر من تسعمائة صفحة ، كان منها « كتاب الاسلام والحضارة العربية » طبع في مجلدين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، على نفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد سلخت في تأليفه ثلاث سنين لم أنقطع فيها يوماً واحداً عن التأليف ، ومدة اشتغالي كل يوم ثماني ساعات فأكثر . وشاهدت تيسيراً في التقاط مادته ما وقع لي في تأليف كتاب غيره . فكنت أذكر ما تلوته من ثلاثين أو أربعين سنة في هذا المبحث أو المباحث فاسقط في الحال على ما أنوخى ، وقرأت ورجعت إلى أكثر من خمسمائة مصنف باللغات الثلاث وقال بعض العارفين إنه أجود كتبي تأليفاً ، وذلك لأن موضوعه عام جذاب يحتاج إلى الرجوع اليه الموافق والمخالف . والكبير والصغير ، والعربي والافرنجي . ومما كتب إليَّ الامير شكيب أرسلان فيه : « أنا معتقد أنك وفقت فيه توفيقاً كبيراً وأنه خير ما كتبت بل من خير ما أخرج من الكتب في هذا العصر ، ولعمري إن هذا الموضوع كان يُعْوِزه كتاب جامع محيط بأطرافه كهذا الكتاب سدَّ هذا العوز ، وكفى الناس مؤونة نشدان الأدلة من هنا ومن هنالك ومن هناك . الى أن قال : ولذلك مست الحاجة إلى وضع كتاب يضيق معه مجال المغالطة في فضل العرب ، ويأخذ على المكابرين أو المتجاهلين أفواه الطرق ، فكان هذا الكتاب الذي أرجو أن ينقل الى لغة مشهورة من اللغات الأوربية فاننا نحن في حاجة إلى أن يعلموا هم عنا أكثر مما نحن في حاجة إلى أن نعلم نحن عن أنفسنا » .

وكتاب « الاسلام والحضارة العربية » صورة من حالة العرب قبل الاسلام وحالتهم بعده ، فيه اشارات إلى تأثيرات الاسلام ولغته في الاقطار المغلوبة ، ومناقشة من نالوا من الاسلام والعرب وكتبوا فيهما بالهوى ، والاستدلال على نقض أقوالهم بكلام علماء منهم تكلموا نازعين ربقة التعصب الديني . وقد رددت فيه أمهات الشبه التي أوردها الشعوبيون أعداء العرب والاسلام ، وعرضت لما أثر الاسلام في اوربا من طريق الاندلس وصقلية ، وما كان من الخير لهاتين الجزيرتين وما والاهما من حضارة

العرب ، وعرضت ما كان من تخريب التتار من الشرق والبربر والصليبيين من الغرب في كيان العرب والاسلام ، وما كان من غارات المستعمرين على ديار الاسلام والشرق عامة ، وما أخذه الافرنج من علوم العرب ، وما اخذه هؤلاء عن الامم الحديثة لما حاولوا النهوض في العصر الماضي ، وذكرت ماأتى به الاسلام من علوم خاصة به ، وما عبث به العابثون في هذا الشأن في العصور التالية مما كان فيه تدلي أهـــله . وأفضت في سياسة الامة العربيــة والامم التي خلفتها كالترك والبربر والشراكسة والاكراد والفرس والهنود . وتوسعت في ادارة الحكومات التي توالت على ارض المسلمين من عهد صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام إلى يوم الناس هذا . فكان من هذين الفصلين الاخيرين موجز من تاريخنا فيه زبدة مايجب حفظه من تاريخ الاسلام والعرب .

وحاضرت ببعض فصول هــذا الكتاب في الادارة الاسلامية في دار الجمعية الجغرافية الملكية بمصر فتصدت السيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية في مصر لطبعها فطبعتها باسم « الادارة الاسلامية في عز العرب » وهــذه المحاضرات دخلت منقحة في الكتاب وهي مقتطعة منــه عندما كان تحت الطبع . كما فعل طابع كتابي « غرائب الغرب » اقتطــــع منه مقالات « غابر الأندلس وحاضرها » ونشرها على حدة بعد نشرها في « غرائب الغرب » وكذلك رســالة « الحكومة المصرية في الشام » فانها محاضرة دخلت في كتابي « خطط الشام » .

وقضيت عاماً وبعض عام في وضع كتاب (امراء البيان) وكنت كتبت بعض فصول منه حاضرت بها في ردهة المجمع العلمي ونشرتها في مجلته ، ثم رجعت اليها وحذفت منها وزدت . وهذا الكتاب من الكتب التي جمعت مادته في نحو عشرين سنة اي منذ تخيلت موضوعــه . وجاء في مجلدين ايضاً وطبعته كصنوه لجنة التأليف في مطبعتها بالقاهرة وكان الداعي الاكبر الى تأليفه بيان فضل المنشئين على البلاغة وعلى الأفكار وذلك على الطريقة

الغربية الحديثة في التحليل والنقد. هذا بعد أن رأيت المؤلفين من القديم يعنون بالشعر والشعراء فقط ، ولم يعنوا العناية المطلوبة بالكتابة والكتاب وهم الذين خلفوا لنا مؤلفاتهم ورسائلهم وعلمونا اكثر من الشعراء . والشعراء على الأغلب ماعرفوا غير المديح والهجاء والرثاء والاستجداء ، وزادوا الناس من بضاعة الكذب ، وعلموهم المبالغات والغلو . وهذا الكتاب تقرر في دراسة السنة الخامسة التوجيهية في المدارس المصرية العالية وكان بذلك اول كتاب عربي لمؤلف غير مصري الجنسية يدرس في وادي النيل على ماأظن وكذلك درس في كلية الآداب كتاب الاسلام والحضارة العربية .

وفي خلال هذه الفترة نظرت نظرة ثانية في ترجمة (تاريخ الحضارة) وكنت نشرته تباعاً في المجلة وأخرجت منه الجزء الأول (١٩٠٨) واتممت ترجمة الجزءين الأخيرين منه ولم يطبعا كما لم يطبع كتاب محاضراتي الاخيرة في مصر والشام وهي تبلغ نحو ثمانين محاضرة . وكتبت جانباً من (كنوز الاجداد) ولم أتمه . واحييت بالطبع كتاب سيرة احمد بن طولون للبلوي من اهل القرن الرابع ، وعلقت عليه شروحاً وتقاييد وطبعته في دمشق. وبهذا الكتاب تجلت لنا نواح كانت غامضة من سيرة هذا الرجل العظيم ، ومن تاريخ مصر والشام في القرن الثالث وما إليها ، ومن علاقة مصر ببغداد والخلافة العباسية يومئذ ، وفيه قصص جميلة يتمثل بها ابن طولون الأعين بادارته وسياسته ، وذكائه ودهائه ، ولينه وشدته . وقال صديقي العلامة كرنكو : « إن هذا الكتاب فتح باباً جديداً لمعرفة ذاك الدور الطولوني العظيم الذي تقلّ الأخبار الأكيدة عنه ، لأن الطبري على جلالة قدره في التاريخ كان على ما يظهر مقلاً من حوادث مصر والشام في عهده » .

ومن التآليف التي وضعتها زمن الحرب الأخيرة ولا تزال في المخطوطة كتاب المذكرات وكتاب سميته أقوالنا وأفعالنا (طبع في مصر) وهو في بعض مشاكلنا الاجتماعية والسياسية . وكتاب المذكرات اشبه بجريدة يومية

وكتاب الأقوال والأفعال يشبه مقالات المجلات العلمية وفيه ما طرأ عليّ منذ وعيت إلى الآن . كان الفضل في تأليفه لصديقي عالم تونس سيدي حسن حسني عبد الوهاب ،ولطالما حثني على تدوين ما كنت أقص عليه مما وقع لي ويقول أن في تدوينها كل فائدة لقراء العربية . وعنيت بتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي علقت عليه وخدمته (طبع) ومن التآليف التي وضعت بعض أقسامها وهيأت لها موادها « معجم القرى الشامية » ثم مللت منه ولم أتمه بعد أن اضعت فيه وقتاً وهو كتاب مفيد لكنني اصبحت أحب أن أكتب مافيه فكر أكثر من الكتب التي لا يتطلب فيها غير تصحيح النقل وقد مزقت الجزازات التي أعددتها منه حتى لا أعود إلى البحث فيه واقترح عليّ في خريف سنة ١٩٤٣ أن أكتب لسلسلة اقرأ مختصراً في وصف مدينة دمشق وتاريخها واقتصادياتها وغوطتها فكتبته في ١٥٠ صفحة صغيرة . ونشرت كتاب المستجاد في فعلات الأجواد للقاضي التنوخي وأنا أعد للطبع كتاب البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي . وطبعت كتاب الأشربة لابن قتيبة وعلقت عليه . وعنيت بوضع تاريخ غوطة دمشق مزجت فيه الزراعة والادارة والأدب وهو يطبع الآن في جملة ما يطبعه المجمع العلمي العربي من مطبوعاته .

هذه تآليفي والدواعي إلى وضعها ، ولو كنت خصصت أوقاتي كلها للتأليف ، ولم أصرف أعواماً في السياسة ، لكانت مجموعة ما كتبت أكثر ولو كنت احسن الدعاية لتآليفي لصادفت رواجاً اكثر مما صادفت ، ومع هذا انتشرت في اقطار بعيدة ما كان يجول في الخاطر انها وصلت إليها . والعزاء الوحيد في الكتب ان لها قراء في الأمصار تتناولها السنة بعد السنة إذا كانت مفيدة وصالحة للبقاء ، وربما كانت شهرتها بعد مؤلفها اكثر من شهرتها في حياته . وبعد ذهاب المؤلف من الارض يقدر بقيمته الحقيقية . ورجائي ان يكون ما كتبت خالصاً لخدمة الأمة العربية ، وألا يكون ما خطته يميني مما يسود الوجه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

فهرس الجزء الأول من المذكرات

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الثاني

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عمـا مضى منهـا وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحـال فتطمع
« المتنبي »

ثمن الجزء الواحد { خمس ليرات سورية في سورية ولبنـــان
ستون قرشاً مصرياً في مصر وسائر البلاد العربية

١٣٦٧ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٨ م

رؤساء الوزارات

اتفق أن وسدت رياسات الوزارات لأناس لا عهد لهم بالحكم والادارة ، فمن حقي بك العظم إلى صبحي بك بركات إلى أحمد نامي بك إلى الشيخ تاج الدين الحسني إلى السيد جميل مردم بك كلهم قفزوا إلى الرياسة قفزاً ، وارتجلوا لها ارتجالاً . وجاؤا بالسادة جميل الالشي وعطا الأيوبي ونصوحي البخاري من المتمرنين على الادارة أشهراً قليلة ، لغرض اقتضى ذلك . وأتوا بوزراء مختلفة درجاتهم ، ومنهم المتعلم ومنهم العامي ، وبعضهم كالموتى لا يفتحون أفواههم بما يتوهمون أنه يؤلم مرجعاً عالياً على الأغلب . وكذلك الحال في لبنان ارتجل الوزراء والرؤساء ، ومنهم من كانوا معروفين بفساد أخلاقهم وسرقاتهم قبل الانتداب وظلوا في عهد الانتداب على فسادهم وسرقاتهم ، ومنهم من كانوا لصوصاً ويجاهرون باللصوصية ، فجمعوا بذلك ثروات طائلة صرفوها في القمار وغيره . ولو حسن الانتخاب لجيء بأقرب من هذه الطبقة إلى الصدق والامانة ، وادراك معنى التعاون .

عملت وزيراً مع حقي بك والشيخ تاج الدين خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان أكثر من معنا من الوزراء مقتدرين وكانوا بانتخاب المفوض السامي . وكان الرئيسان على مثل ما كان عليه أكثر رؤساء الحكومات ، يستوحون المندوب والمفوض في المسائل الكبرى . وغاية ما كان يطمع فيه رئيس الوزارة ألا يعمل وزيره ما يغضب الجماعة ، وأن يكون على اتفاق مع مستشاره ، وهو ينصرف الى التشريفات ، واتقاء خصومه ، والتمويه على أوليائه ، وارضاء مستخدمي الانتداب وكل من له صلة بهم .

وقلما كان الرئيسان اللذان اشتغلت معهما يوقفان لي عملاً ، ويرضيان مني فقط أن يأتيا للخدمة في المعارف بأناس قد لايجوز استخدام أمثالهم

فيها ، فتحصل مشادة قليلة بيني وبينها ، اريد اختيار الكفاة وأصحاب الأخلاق السليمة في الجملة ، ومن كانت لهم شهادات ، وهما يحبان مراعاة سياستها ، وحماية صنائعها .

أبى الشيخ تاج مرة أن يصادق على قائمة المعلمات والمعلمين الذين عينتهم ، وكانوا كلهم يحملون شهادات تؤهلهم للخدمة ، أو أُدمج له معهم اثنين لا يحملان شهادة ، واقترب وقت فتح المدارس ، وأنا أتوسل إليه أن يعفيني من تعيين هذين الشابين المقترح تعيينهما ، حتى لا يقول المنتدبون أني اخالف القوانين المعمول بها ، ولا أفتح المجال لتصديق ما قاله فيّ المستشار السابق ، ولما نفد صبري من الحاحه أشرت إلى المستشار أن يطلب المندوب أوراق التعيينات الجديدة مصادقاً عليها ، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي التجأت فيها إلى المندوب . ذلك أن الرئيس ما كان يسمح لنا أن نزور المندوب إلا في الأوقات الرسمية مدعياً أن ذلك أدعى إلى حفظ كرامتنا مع أنه كان ليل نهار يطلب رضا أقل واحد من جماعة الانتداب والغالب انه كان يخاف على منصبه من بعض وزرائه ومنهم من لو جوز لنفسه بعض ما جوزه هو لتركه جانباً وأستأثر بالرياسة دونه .

حرص رؤساء الوزارات في كل دور على استخدام ذويهم وخواصهم والافضال على أنصارهم وصنائعهم . وأعظم من كان له الغرام العظيم بحماية الأهل والأقارب السيد حقي العظم ، فقد حاول املاء الدواوين بأناس من ذوي قرباه وفيهم الصالح وغيره . وكان الشيخ تاج يكثر من استخدام الضعاف لأعمال الحكومة ولطالما بينت له مضار هذه السياسة ، فكان يورد عليّ حججاً لتفضيل الدمشقيين في التعيين ، وأنا أقول له إن المملكة ليست عبارة عن دمشق فقط ، وإن هذا التخصيص سيدعو الحلبيين الى الانفصال ، إذا ظل المركز يحرمهم الوظائف .

حاول الشيخ وقد فرضت عليه فرضاً ، أن يتخلص مني غير مرة ، وأراد منذ الاشهر الاولى أن يخرجني من الوزارة مع الاستاذ سعيد المحاسني

وزير الداخلية فحدثت أزمة وزارية كان المقصود في ظاهرها اخراج ثلاثة وزراء ، ومنهم السيد جميل الالشي ، ولكن هذا كان معنا نحن الاثنين في الظاهر ، والحقيقة أنه كان من آخاص المخلصين للشيخ ، ثم سمحت المفوضية باخراج المحاسني ولم توافق على اخراجي .

وحاول الشيخ في رأس الوزارة أن يورثوه رواتب والده من الاوقاف وهو عارف أنه لا يحسن التدريس ولا يستطيع المواظبة فاخفق على ما بذل من وعد ووعيد. وممن هددهم الاستاذ الشيخ عبد المحسن الاسطواني قاضي دمشق ورئيس التوجيهات العلمية فرده وفرق هذه الاموال على عشرات من القراء العميان وحاول الشيخ تاج الدين بكل ما لديه من حيلة أن يقنع السيد الاسطواني بتوجيه دروس أبيه اليه وهدده بالعزل ان لم يجبه الى طلبه فقال انك مقتدر على تنحيتي من المنصب ولكنك لا تحكم على قلبي وديني . وتذرع رئيس الحكومة باقالة الاستاذ الاسطواني فلم تجبه السلطة الفرنسية الى طلبه .

كان بعض رؤساء الوزارات والوزراء من الآخذين بمبادئ الماسونية ، يستعينون بقوة هذه الجمعية السرية على الوصول الى المناصب ، وقلَّ أن رأيت موظفاً كبيراً لم يدخل الماسونية ، ومعظم من انضموا إلى حظيرتها عندنا كانوا من الطامعين في حمايتها ، وهم موضع نظر بسيرتهم ، دخلت الماسونية أرضنا منذ العصر الماضي وقلما تم على يدها شيء ينفع ، ذلك لأن المقدمين فيها لم يقوموا بما تدعو إليه قوانينها من الخير ، ورأينا معظم الرؤساء منهم يستحلون أكل أموالها ، وإذا كان الخير في فطرة بعضهم فانهم لا يلبثون أن يبتعدوا عنها كاتمين أسرارها ، آسفين على ما أضاعوه من المال والوقت مدة ارتباطهم بها .

مسألتان مضحكتان حدثت احداهما في أيام رئيس الوزارة حقي بك والثانية في عهد الشيخ تاج الدين ، ونعرضهما هنا فكاهة وتسلية . حرص الأول أن يكسو الوزراء والموظفين ألبسة مزركشة بالقصب أيام التشريفات ، وأن يصنف خدام الدولة أصنافاً ، يجعل لكل صنف منهم بذلة خاصة وقصباً خاصاً . وكانت تساوي البذلة يومئذ نحو ثمانية عشر جنيهاً مصرياً ،

إذا عزم صاحبها على بيعها لاتساوي جنيهين ، وكان السيد حقي العظم للوصول إلى ما يحرص عليه من ذلك وللسرعة في انفاذه ، يأتي الى مجلس الوزراء بالرسام والخياط وصانع القصب ، يعرض على وزرائه النموذجات ، ويشاورهم في الطراز الذي يقع اختيارهم عليه . والمجلس يضيع وقته في هذه الامور وأرباب المصالح ينتظرون منه البتّ في أشغالهم . وقد استعملت كل ماعندي من حجة حتى أقنعه بأن ابتداع هذه الكسوات مجحف بالموظفين وأ كثرهم فقراء فأصرّ على انفاذ مشروعه . ولما صنع لنفسه بذلة قلت له : الآن حصل المقصود فان اكتساء رئيس الحكومة بالقصب يجزيء عن اكتساء الموظفين كلهم ، على نحو ماقلت له لما عرض عليّ وسام جوقة الشرف : لما كنت دولتك تقلدت الوسام فكأن الوزراء كلهم تقلدوه ، ونحن إلى الآن لم نأت مانستحق به هذا التشريف فاقتنع وأعفاني . وانتهت معضلة القصب بعد أن أضعنا بها بضع جلسات من جلسات مجلس الوزراء ، وما انتهت في الحقيقة إلا لما شكاني الرئيس إلى المندوب ، وسألني هذا عن سبب الامتناع ، وعن استنكافي من لبس القصب فقلت : إني لم ألبس هذا القصب أيام الدولة العثمانية ، وسلطنتها الضخمة سلطنتها ، فأنا لا أرى أن ألبس بذلة رسمية في هذه الحكومة الصغيرة ، وإني مستعد للتنحي عن الوزارة أو يلغى المشروع فألغي .

أما المشروع الثاني في وزارة الشيخ تاج فقد كان الخطب فيه أسهل ، لأنه كان محصوراً بالوزراء ، ذلك أنه حرص على الباس وزرائه (الفراك) وسألته لما عرض علينا أن يقتني كل وزير كسوة منها : وما هي الفراك ، أليست البذلة التي يكتسيها غلمان الفنادق ؟ فقال : نعم . هي من هذا النوع فقلت له : وما الفائدة من اقتنائها ، فقال : اذا دُعيتم إلى المفوضية وغيرها لحفلة راقصة تجدونها حاضرة . فقلت له : أنا لا أعرف الرقص ، وما اعتدت أن أرقص للقرد في دولته ، فأرجوك اعفائي من هذه الكسوة ، ومن هذه النفقه الضائعة . واستحسن على ما يظهر بعض رصفائي قولي ، ونجونا

من بذلة الفراك . أما رئيس الوزارة فاستصنع واحدة منها ، كان يلبسها في الحفلات الراقصة والساهرة ؛ وما كانت تلبق له وهو بدين قصير القامة أعرج وعلى رأسه عمامة ، وثوب الفراك مقطع من أمام ومن وراء .

وبلغني عن أحمد نامي بك أحد رؤساء الحكومات في سورية ، أن حب الأناقة بلغ منه أن كان يُبدل بضع حلل في اليوم والليلة ، وله في الأزياء والتأنق غرام ، وهو لا يكاد يفارق المرآة ينظر فيها إلى هندامه ونظامه أبداً ، ويسأل خُلصانه عما يرون في كسوته من نقص يمكن تلافيه . ونامي بك كان من أصهار سلاطين العثمانيين ، ولذلك سمي الداماد أي الصهر ، وكان أبوه فخري بك شركسياً مصرياً عرفته ، وكان رئيس بلدية بيروت زمناً ، وكانت له مشاركة في الآداب ، وعلى جانب من الاخلاق ورأيت نامي بك في داره يوماً وقد تليت أمامه قصيدة في مدحه لأحد متشاعري بيروت جاء فيها ذكر التاج . وكان في المجلس أحد وزرائه السيد يوسف الحكيم ـ وهو الذي رأى أن يحيطه بسور يحول بينه وبين الناس ـ لما ورد ذكر التاج أقسم بالله أنه لا يليق هذا التاج إلا لهذا الرأس ، يعني نامي بك .

وكان يوسف الحكيم في ابعاد صاحبه عن القوم مثل ما كان من السيد احسان الجابري حاجب الملك فيصل بن الحسين لما بويع ملكاً على سورية فكان حرصاً على جلال هذا الملك ، يعين لمن يواتيه الحظ بالمثول بين يدي الملك دقيقتين أو أربعاً ، ويقول للملك أن ينهض لواحد ، ولا ينهض لآخر ، ويقلل من الكلام أو يكثر ، على حسب ما يرى . وكذلك فعلت الحكومة الوطنية فحظرت على رئيس جمهوريتها ابن الأناسي ألا يخرج من قصره ، ولا يظهر لأحد ، ولا يسأل عن أحد ، وأحاطوه ببضعة أفراد من الدرك في حبسه المزوق .

في الفترة التي مضت بين اشتغالي بوزارة حقي بك واشتغالي مع الشيخ تاج ، كان رئيس الحكومة السورية التي سموها حكومة الاتحاد السيد

صبحي بركات ، وهو من أهل انطاكية لا ينطق بجملة واحـدة صحيحة باللغة العربية ، وقد وصل إلى الرياسة بطريقة عجيبة ، كان يقاتل الفرنسيين مع ابراهيم بك هنانو صاحب ثورة الشمال . وتوسط له أحد أقربائه ممن يعتمد عليهم الفرنسيون ، فعدوه من المؤلفة قلوبهم ، وعهدوا اليه برياسة اتحاد سورية ، وكان صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي يعد رفعت آغا والد صبحي بركات من أعظم رجال سورية لأنه كان يقاوم الأتراك في عصره .

قال ابن بركات في دار الحكومة علناً ، إنه لم ير أحداً خدمه مثلي ، ولم يطلب منه جزاءً على عمله بالتلميح ولا بالتصريح . وكان كلما فتح لي موضوع الوزارات ليرضيني ، أقول له تعاون كما يجب مع المنتدبين ، وسير الاشغال بما يفرض عليك ، ولا تذكرني في هذا الموضوع لأني لا أطمع في وزارة ، وأنا راض بمركزي ، وأريد لك النجـاح . وقال مرة في حلب لأحد أصدقائي عمر نبهان ، بعد أن أقيل من منصبه بمدة : إن كل ما فعله في دمشق لم يأسف على صدوره منه إلا ما كان من مشاكستي . ذلك لأنه كان يتخيل أني أطلب منه وزارة ، فكذب ظنه لما رآني في الثورة لعرض عليّ الوزارة أربع مرات وأرفضها . ولما جعل رئيس مجلس النواب ، وطلب من فرنسا مطالب نافعة ، وذهب إلى باريز للمطالبة بها حمدته على مافعل امام أصحابي ، وقلت إنه كفر بذلك عما سبق له عند تولى الامر ، فواجب الكتلة الوطنية الآن ، وقد استلمت الحكم أن تكافئه لانه أضاع بما صرح به منصبه ، فبلغه مافهت به وأحب أن يزورني ليشكر لي ويعود إلى التواصل بعد التقاطع ، فابيت وبقينا متباعدين .

كان صبحي بركات يشارك في بعض الموضوعات ، ومن طبعه أن يطيل لسانه في وزرائه وفي غير وزرائه ، وإذا غضب اختلّ توازنه . غضب علي مرة فلما لم يستطع أن ينتقم مني ، أحب القضاء على المجمع العلمي العربي ، وسبب غضبه أن وزير المعارف في حكومته الدكتور رضا سعيد الأيتوني أقام في رمضان مأدبة لرئيسه وللوزراء ودعاني معهم ،

وكتب بطاقات باسم كل مدعو وضعها على الأطباق ، يعين بها لكل إنسان مكانه الذي يجلس فيه فكان المقعد الذي اختاره لي صاحب الدعوة بعد شقيق رئيس الحكومة . فقلت لأحد أخصاء الداعي وأنا خارج من الدار إن صاحبك بلغ من المصانعة مبلغاً عظيماً . إنكم تعرفون مبلغ احتقاري للتشريفات ، ولكن الرجل تعمد تحقيري، بوضعه لي بعد أخي صبحي بركات ، وسني ومقامي يؤهلاني لأكون فوق شقيق الرئيس على كل حال ، وليس لأخيه من المزايا إلا أنه شقيق رئيس الحكومة ، وما زاد على كونه فلاحاً من فلاحي أنطاكية . فنقل صاحب الدعوة كلامي إلى رئيس الحكومة ، فغضب غضباً عظيماً ، وتجهم لي فقاطعته ، ودام التقاطع أشهراً ، ثم أرسل لي أحد وزرائه السيد جلال زهدي بعد مدة يسترضيني ويدعوني إلى معاودة الاجتماع مع الرئيس فقلت له : أسألك بالله وبكل عزيز أن تقول له : كفاه إدلالاً علينا بمنصبه ، وما مكانته إلا من طريق هذا المنصب فقط ، وليعلم أنه إذا استقال غداً لا يبقى له أحد من كل من يصانعه اليوم . ليلزم داره وألزم أنا داري ، لنرى من يقرع بابه كل يوم . وأظنه يوم مفارقة الحكومة لا يختلف إليه إلا من يأملون عودته إلى الحكم ، وقليل ما هم ، فغاظه هذا الكلام أكثر مما غاظه كلامي الأول في أخيه ، وأقيل ابن بركات وبقي في حلب ودمشق كما تنبأت له لا يقترب منه أحد.

والدكتور الأيتوني وزير المعارف يومئذ من أكبر من خدموا السيد صبحي بركات ، قام له مدة وزارته بمثابة وكيل خرج في داره ، يشتري له حاجاته البيتية ، وإذا مرض أحد عنده بات عنده ممرضاً لمريضه ، ومع كل هذا غضب عليه مرة ، فقال في الملأ يوم الجمعة في قاعة الاستقبال : كنت أظن رضا سعيد شيئاً فاذا هو كرش مملوء ...

وقد أرسل لي ابن بركات في الثورة السيد لطفي الحفار ليأخذ رأيي في وزارة جديدة نؤلفها ، ونترك له حبيبه جلال زهدي فيها ، وإذا لم نقبل

به يتركه ، على أن يكون هو الرئيس ، فقلت له . إني في أشد الضيق ، وتالله لو أعطيت خمسمائة ليرة ذهبية كل شهر على أن اكون وزيراً معه لا أقبل ، وكيف أرضى برياسة من قال منذ أيام علناً انه لم ينم ليله نوماً هادئاً مثل الليلة التي ضربت فيها دمشق وخربت على رؤوس أهلها ، وذكرهم بكل قبيح ، وشتم أعراضهم ، وهو الذي احتفل بعرسه ودمشق تلتهب بالنيران ، وأتى بالراقصات والمغنيات يرقصن ويغنين في داره ، فكان هو يطرب ومن ورائه وأمامه يصعد أنين المظلومين ، وبكاء المنكوبين ، فان كان نسي ما قال فأنا وأهل بلدي لا ننسى . واقام مثل هذا الفرح في دار فؤاد بك المدرس بحلب وأتى بالراقصات ، والبلاد تذوب بالثورة كما يذوب الملح . وقد نصحت له بالكف عن هذا الاستهتار الذي يأتيه في بيروت ، من الجلوس في الحانات ، والراقصات من حوله ، فقال : أنا أتمتع بحريتي ؟ فقلت له : رئيس حكومة اسلامية لا يستطيع أن يكون حراً على هذه الصورة ، فهل شهدت رئيس حكومة لبنان أو رئيس جمهوريتها ، يجلس مثل هذه الجلسة في مكان عام ، إن كان لا بد من الاجتماع إلى هذه الطبقة فاعمد إلى دارك ، وليكن ذلك على الأقل بدون تبذل .

ونشأت لي صداقة مع الجنرال أندريا قائد موقع دمشق أيام الثورة ، وقال لي عند أول اجتماع معه : إنكم كلكم ثوّار ، فقلت له : إن الثائرين منا خرجوا إلى الغوطة يقتتلون مع جماعتكم . فقال : لا ، إن منكم الثائر بالسلاح ، ومنكم الثائر بالفكر . فقلت له : أنا لا أقول بقولك . فقال : إن كان الأمر على ما تقول فلمَ لا تعينوننا على اظهار الثائرين . وأجبته مرتجفاً : يا جنرالي ليست هذه صنعتي . فانتبه وغيَّر مجرى الحديث . وقلت له ذاك اليوم : ألطمعون في استبقاء سورية أم في الاحتفاظ بصبحي بركات ؟ فقال : اللهم سورية فقلت : نحّوا إذاً صبحي بركات عن منصبه فالنفوس حانقة عليه . ومن الغد قصد الجنرال الى المفوضيه في بيروت ، وبعد ثلاثة أيام كان ابن بركات في داره كأحد الأفراد لا سلامات ، ولا شرطي ،

ولا حاجب ، وأنصاره أمثال وزيره الحلبي نصري بخاش الذي ما كان يعرف إلا خدمة المراجع العليا بما يكتب لها ، وكالذي جعله عضو محكمة التمييز وهو رومي هاجر حديثاً من الأناضول ، ولا يتكلم كلمتين بالعربية فضلاً عن أن يقرأها ويكتبها ويتفهم أسرارها ، واسمه نيقولاكي أفندي .

دخلت على الشيخ تاج الدين في مكتبه الرسمي فرأيت عنده صديقي الاستاذ سامي العظم يلتمس منه أن يوافق على تعيين شخص من بني العظم أعرف أنه لا يصلح لشيء . فقلت له : ياسامي ، إلام تستعملون هذه الخرق البالية ؟ وتحشون دواوين الحكومة بمن كان عليكم رحمة بهذه الأمة أن تتركوهم في بيوتهم ، وتأخذوا للخدمة من الشباب حملة الشهادات العالية الذين ملأوا المقاهي ، وهم لا يجدون عملاً لهم بعد الدراسة ، والتفتُّ إلى رئيس الوزراء وقلت له : كما فعلت بفلان ، وأنا أعرف أنه قريبه ، وجعلته مدير ناحية داريا وهو أمي يكتب له كاتب القرية أوراقه الرسمية ، ثم انه غني يملك مزرعتين ، فلماذا لا تتركونه لمزرعتيه ، وإني لأفضل أن أملك مزرعتين على أن أكون وزيراً ، ولو أمكنني المقايضة لقايضته . فسكت ، ثم قلت له : وفلان الذي جعلته مدير ناحية دمر فقال إن بني فلان افتقروا وليس عندهم ما يأكلون ، فقلت له : وهل الحكومة رباط أو زاوية دراويش يقصدها أرباب البطالة والجياع ، فترى من واجبها إطعام كل من جار عليه الدهر ، أو جلب لنفسه الفقر بسوء تصرفه . ثم إنك جعلت مدير ناحية تدمر رجلاً دخل مستشفى المجاذيب مرتين ، وفي عقله شيء إلى اليوم ، فهل يجوز أن يتولى مثل هذا العمل ؟ فقال : وهذا افتقرت أسرته . فقلت : تالله تفتأ تقول لي افتقرت وانك ترحمها بتعيين أحد أفرادها لتعيش فاذا كان الأمر يسير على هذا الشكل فلماذا نفتح المدارس ونربي الشبان ؟ ونحن لا نختار للوظائف إلا من يرقّ قلبنا عليهم ، وعندي أن تقتصدوا من هذه الموازنة الضخمة التي تخصون بها وزارة المعارف كل سنة ، وتأخذوا موظفيكم حيث شئتم ، وليمُت هؤلاء المتعلمون جوعاً حتى يُطعم من يؤثر

بالرحمة . فاضطرب الرئيس لهذه المجاهرة وقال لي : تفضل الى غرفتك !

كان الشيخ تاج الدين منذ الأشهر الأولى لوزارته يحاول أن يبدلني ، ووعد بوزارتي غير واحد ممن يريد إسكاتهم من المستوزرين . وتذرع أن ينحيني عن الوزارة ، فما قبلت المفوضية باقتراحه ، وترامى إليّ أنه قيل له : إذا ترك فلان وزارته تسقط الوزارة ، فخاف عليها وأرجأ صرفي من الخدمة إلى فرصة أخرى . ومما قالوه له في المفوضية إن الرجل لساناً وقلماً ، وهو سيسألنا عن سبب إقالته فماذا يكون جوابنا وهو عارف بعمله محبوب منا ومن الشعب ؟

رجاني وكيل المندوب أن القي كلمة في مدرج الجامعة السورية ، وكان من انصار رئيسها (وكان يبره بالمال) ليجعلها بزعمه كصلح يعقد بيني وبين رئيسها ، وكان بيني وبينه تخالف في الأخلاق والعقلية . وسرت في نهاية الاحتفال مع المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية ، وأنا خارج من التكية السليمانية ، فقال لي : ونحن بمعزل : إني أبلغك سلام المسيو هوبنو (مدير السياسة) وهو يقول إنا ممتنون منك ، ونفتخر بوجود شخصية مثل شخصيتك في الوزارة . فأسرعت إلى الشيخ تاج ، وذكرت له ما بلغته ، فاصفارّ وجهه ، وانكب على مكتبه ، وأطرق دقيقتين ، ثم رفع رأسه فقلت له : أظن أن الذي دعاه إلى هذا الكلام ما كان شاع من صرفي ، فعاد إلى الاطراق أيضاً دقيقتين ، ولما رفع رأسه وهو على هذا الاضطراب ، ولم يفه بكلمة واحدة ، قلت له : السلام عليكم ، وانصرفت . والغالب أن مدير السياسة أبلغني ما أبلغني حتى لا يعرو همتي فتور في العمل إذا عرفت أن التشبث في المفوضية يجري بتنحيتي .

قلت للشيخ تاج الدين إن الوعاظ قد جرى تصنيف درجاتهم ، ونالوا رواتب ما كانوا يحلمون بها ، ودفعت لهم الحكومة المتأخرات من المشاهرات ، فمن الواجب أن يعلموا الاهلين دينهم ، وما ينفعهم في دنياهم ، ومن أخذ الاجرة طولب بالعمل . وزينت له أن يأمرهم بالتدريس لشدة الحاجة

إلى ذلك ، وضربت له مثلاً بسكان الشاغور أحد أحياء دمشق ، وقلت له إن عددهم لايقل عن ستة عشر الفاً ، وقلما تجد بينهم من يعرف الحلال والحرام ، لايحسنون التطهر ولا التعامل ، ولا إقامة الشعائر على الاصول ، فاذا كان من سكان الحاضرة من هم على هذه الشاكلة فما بالك بالقرى البعيدة فقال : سأذكر ذلك للمفتي . وبعد ايام عدت فسألته هل أوعز الى المفتي ليشرع الوعاظ بالتدريس ، فاجاب : إن المفتي يحاذر أن يشغبوا عليه ، فلا يجرؤ أن يدعوهم إلى ماتريد فقلت : إن المفتي إذا أمرته يأتمر حالاً بامرك ، وجماعة الوعاظ مرتبطون بمقامك مباشرة ، فانت تدعوهم الى واجبهم فيطيعونك . فقال : سنرى . وعدت بعد أيام وذكرته بالموضوع فتململ ، وقال : وأنت ماذا تنتظر من هؤلاء المشايخ فقلت : لأنا بتعليم العوام دينهم نقتصد الحكومة من السجون ومن الشرطة والدرك ، وتجود الصحة وتخف الامراض ، ويقل الشغب وترتاح السكان . فقال : دعك من هذا وهل يعلمونهم غير الخرافات ؟ فقلت له : وهل دين الاسلام خرافات ؟

وقصصت ماوقع لي مع الرئيس بعد حين على أكبر علماء البلدة فقال : كان عند الشيخ جواب سؤالك لكنه تعمد ألا يجيبك ، ذلك لان الخمسة والاربعين واعظاً الذين أخذوا كما قلت رواتب جيدة ، ما كان العلماء يقبضون مثلها ، لا يقتدر على التدريس منهم سوى سبعة ، والباقون من العوام ، لايحسنون التدريس ولا الوعظ ، وهم المصفقون له ولابيه ، فقلت له كنت أحب وقد دخلت الدسائس في السياسيات ، أن يكون الدين عنها بمعزل ، وبقي هؤلاء المدرسون الجهلة الى اليوم يقبضون الرواتب فقط .

واقترحت على الشيخ أن تدرس العلوم الاسلامية في المدرسة السميساطية وكانت خراباً فعمرت ، وذلك بأن يختار لها بواسطة وزارة المعارف في مصر عالم مصري ، يديرها ويتولى تدريس بعض الفروع التي يؤثرها وينتخب لمعاونته في التدريس من يشاء من أساتذة السوريين . ومما ذكرت

أن هذه المدرسة إذا خرجت كل سنة عشرة من الطلبة يتولون المناصب الدينية ، لاتمضي أعوام حتى يكثر الكفاة من أهل هذا السلك ، فيصبح علم الطالب بعد ذلك شرطاً أساسياً في تقلد الوظائف الدينية ، وأكدت له أنه إذا تم هذا ، وجعل أحد رجال المعارف عضواً دائماً في مجلس المدرسة ، والمعارف لاتخلو في كل زمان من علماء ، يعود هذا عليه بسمعة طيبة ، خصوصاً وأبوه شيخ وجده شيخ وهو شيخ ، وسلسلتهم في المشيخة كالحلقة المفرغة لا يعلم أين طرفاها .

وذكرت للرئيس أن هذا المشروع لايحتاج أول الامر إلى أكثر من عشرة آلاف ليرة سورية تؤخذ من اموال الاوقاف ، فقال : إن مدير الاوقاف لايرضى باعطاء هذا المبلغ الضخم ، فقلت له : إن مدير الاوقاف قريبك وصنيعتك ، ولا يتأخر عن اعطائك ماتأمر به من مال الوقف الذي لم يقفه المسلمون إلا على إقامة الشعائر وتعليم الدين ، والغالب انه لم ير من مصلحته ان يتعلم احد التعليم الديني ويفضل ان يكونوا من الجهلة ليسوقهم إلى انفاذ اغراضه .

بدا للشيخ تاج الدين او لغيره ان تنشر دولة سورية كتابا في اعمالها خلال ثلاث سنين ، فعهد اليَّ بكتابته ، وقال ، يبغي بعث همتي ، : إنه سيكون لك تأليف جديد ، فأجبته هازئاً : في أيامك السعيدة ألفت وعرفت ، ومن قبل لم أؤلف ولم أعرف ، ولما هيأت مواد الكتاب للطبع عرضتها عليه فاعتذر بكثرة أشغاله عن قراءتها وسمح بطبعها . ولما كتبت مقدمته قرأتها عليه فسمعها متكارهاً . ولما صدر التقرير — ثم نقل الى الفرنسية — قال لي إنه ظالمه ولم يعجبه ، فقلت له : إن التقرير يعزى اليه ويصدر باسمه ، وليس فيه اشارة الى أنه تأليفي ، فالرئيس استعار قلمي فقط ، فليس من اللائق إذاً أن يمدح نفسه في تقريره ، وبالارقام فقط يقنع من يقنع بصلاح حكومته . ولما نشر التقرير في الشام ومصر وفرنسا وردت على الشيخ كتب ثناء واستحسان فاطلعني

على بعض ماورد عليه ، وقال لي : إنه لو كان رئيساً للجمهورية ، وقيل له : هل تؤثر أن ينقص من رياستك عام ويخرج مثل هذا التقرير عن حكومتك ، لفضل انقاص مدة رياسته وصدور مثل هذا التقرير . وعندئذ قلت له : صحيح يا أستاذ أنا لا أعرف ولا أحاول أن أعرف سوق العوام إلى السياسة التي أحبها أو يحبها غيري ، ولا أحسن الكذب على هذا والتمويه على ذاك ، ولكن لي عملاً في الوزارة قلّ ان يستطيع أحد أن يقوم به مثلي . وهذا اشارة إلى ماكان يشتكي منه من أني لا أعمل معه في السياسة .

ولما قال هذا عرض عليّ أن أتناول من صندوق الحكومة الف ليرة سورية مقابل وضعي لهذا التقرير فقلت له : لست موظفاً صغيراً لأسف الى أخذ مكافأة على شيء قمت به ، وما أنا إلا أحد أفراد ستة قاموا بهذا وكنت أنا المدون له ، وابرزته بهذه الحلة ، ومن الغضاضة على وزير ان يأخذ أجراً على ما هو داخل في نطاق واجبه ، وهو يتناول مشاهرة جيدة تزيد عن حد الكفاية . فاستغرب هذا الكلام .

ما كان الشيخ تاج في الواقع يرغب في كتابتي كثيراً ، لأنها لا تعبر عن كل ما يجول في صدره ، رجاني أن اكتب له ترجمة حياته فكتبتها له في صفحة واحدة فلم ترضه . وبعد أيام ضحك وأخرج لي ورقة وقال : أنظر ما كتبوه لي ، وإذا بترجمة حياته كتبت بمبالغات مدهشة ، كان أقل ما فيها ان دمشق لم تخرج من عهد معاوية بن أبي سفيان رجلاً من عيار تاج الدين بن بدر الدين ، بدهائه وحلمه وعقله ، فضحكت وقلت له : من كتب هذا ؟ فتلكأ ولم يجب . فقلت له : أخبرني فقال : فلان ، أحد أرباب الجرائد ، فقلت له : لا عجب ، فالكتابة عند هــذه الطبقة على مقدار المنفعة . إفهم هذا عني ، إن هــذه الترجمة سخيفة جداً وأعداؤك ينالون بها منك . ما معنى قول من تبرع لك بهذا الكذب أنك أحلم وأعقل ممن جاء بعد معاوية بن أبي سفيان ؟ وهل ترضى أن يخدعك مخادع بمثل

هذا الكلام ؟ إن على هذه الأرض مشى خلفاء وملوك وعلماء وعظماء ما أخرج التاريخ أعظم منهم . على هـذا الصعيد «يا شيخي» مشى سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبـد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وعليهـا مشى الرشيد والمأمون ، وعليها مشى نور الدين وصلاح الدين ، وعليها مشى ابن تيمية وابن عساكر . فاذا نشرت هـذا كنت محل نقد العقلاء ، فطواها وأظنه لم ينشرها ، كما نقش اسمه على كل مخفر وحائط ودار حكومة وجامع وجسر ومدرسة بنيت أو رممت في أيامه ، فلما جاءت حكومة الكتلة حطمت كل ما ذكر اسمه عليه من الاحجار .

كدت أخشى أن يقول من يقرأ بعض فصول هذه المذكرات : إني جعلتها كتاباً أنال به من بعض المنظور إليهم . إنها الحقيـــقة التاريخية أدونها ، وإذا ثلجت نفسي بقول الحق ، لا أبالي أن أقول ما قاله أبو ذر الغفاري : « قول الحق لم يدعْ لي صديقاً » ، وإذا كان القوم لم يعتادوا سماع الكلام على الرجال بهذا الأسلوب ، وهذه الحرية ، فأنا لا أستطيع أن أقول فيهم غير الذي عرفته ، ولا أن أبتدع لهم قرائح لم يرزقوها ، وغاية ما أتحراه ألا أتقوّل عليهم . فاسمع هذه القصة تتمة لهذا الباب العجيب الذي طال إلى ما لا أريد .

مرض رئيس الوزارة مرةً ، ولما تماثل للشفاء أراد أن يكون الاحتفال بسلامته احتفالاً يسمع صداه البعيد والقريب ، وما كان له مال يستعين به في ذلك ، وكان صرف النفقات السرية قبل انقضاء السنة ، واستزاد بضعة ألوف من الليرات ، فهداه ذكاؤه إلى طرق باب ما خطر على بال إنسان . خطر له أن يطوف أرباب « السيارات » أي مشايخ الطرق في الشوارع ويقوموا بهذا الزيّاح ، رافعي أعلامهم ، ضاربي طبولهم ، ناشري سبحاتهم ، قابضين على حياتهم وثعابينهم ، متعممين بعمائمهم الخضر ، مكتسين أكسيتهم البلق ، وان يختموا لطوافهم في أنحاء البلدة بدار الحكومة يحيون رئيسها على سلامته . ولما لم يجد الشيخ أمامه مالاً يرضي به هؤلاء المطبلين تناول من ميزانية الصحة مبلغاً من المال كان وضع فيها لمداواة المسلولين .

كنت متغيباً في القرية ، واتصل بي ما حدث في الحاضرة عند عودتي ، وأنه قتل أحد الأهلين أمام دار الحكومة في (الدوسة) داس حصان أحد المشايخ رجلاً في جملة من داس عليه . وأسفت أسفاً كثيراً لما جرى ، وذكرت الأمر لأحد الوزراء الذين يعتمد عليهم الرئيس ، ولمته لتوقفه عن نصحه ، حتى لا يحيي مثل هذه البدعة القبيحة بدعة السيارات ، وكانت بطلت من دمشق ونواحيها منذ سنين فاقسم أنه لم يبلغه شيء قبل طواف المشايخ ، وسماع صياحهم في الطرقات ، وقال : ألا تعرف الى هذا أن الشيخ لا يستمع لنصيحة أحد ، فقلت له : إنه أساء بما فعل ، ونحن ندعي أمام الغريب أنا أصبحنا أمة متمدنة ، وهو باحيائه هذه السنه السيئة يعود بنا الى ما قبل عصرين أو ثلاثة . وكان من أثر أخذ مخصصات المسلولين أن ألغيت من قابل هذه المادة من موازنة الصحة ، لأن المستشار المالي قال إنه لا حاجة اليها ، لأنها أخذت لغير ما وضعت له فوقع الاستغناء عنها .

أما حقي بك فما اظنه على طول مقامه في الرياسات خالف المنتدبين في مسألة واحدة ، وكان يجيب على كل مسألة تعرض عليه بالايجاب والقبول ، حتى لقد قال أحد رجال الانتداب ، وقد أضجره باستكانته ، وسرعة موافقته على المسائل المعروضة : إنا نريد رئيس وزارة يقول لنا تارة نعم ، وتارة لا ، لا أن يقول لنا نعم دائماً فان هذا لا فائدة فيه . ولذلك سماه وأمثاله بعض الظرفاء بالواوية أي الذين يقولون أبداً « وي » oui ويقال في أميركا لهذا الصنف من الناس الذي يجيب الى كل ما يطلب (يس مان) .

وأذكر أنه أملى علي كتاباً بالتركية وأنا معه في الوزارة ، وما علمت أنه يريد أن يرى خطي ، لأنه وضع في البريد الى تركيا على ما يظهر كتاب اشتبه به المشتبهون أنه مني ، ويشعر بالصالي بالأتراك بعد خروجهم من هذه الديار . ولو كان ذكوراً لقال لمن قالوا له أن يفحصني على هذه الصورة ، إني من المستحيل أن أشايع الترك ، أو اسألني على الاقل عن الكتاب المشتبه

به ، وهو الذي يعرفني معرفة أكيدة من مصر قبل توليه هذه الوزارات بنحو عشرين سنة .

وظلّ حقي بك منذ أول الاحتلال الى عهد قريب في منصة الحكم حتى تقاعد . وغضب عليّ مرة لان جريدة المقتبس تناولته بالنقد فأكدت له بالواسطة ان الجريدة تخليت عنها واخي يتصرف بسياستها وحده ، وما أدري إذا كان اقتنع بكلامي ، اما انا فحاولت أن اقنع شقيقي بالكف عنه فما اطاعني . وكان من اثر غضب حقي بك هذه المرة ان اوعز الى قريبه السيد عبد القادر العظم ، يعضده نسيبه الآخر السيد بديع المؤيد العظم ، ألا ينتخبني لرئاسة الجامعة ، وحلّفاه بالطلاق ألا ينتخب غير الدكتور رضا سعيد اخيهم في الماسونية .

ولا انسى لحقي بك معاونتي ، وهو رئيس الوزارة ووكيل رئيس مجلس الشورى، على اخذ تقاعدي في نطاق القانون وكان السيد مصطفى نعمت من الاعضاء يقاومني كثيراً وكذلك جماعة المالية والسيد جميل مردم وزير المالية يومئذ وخلفه السيد شاكر نعمت الشعباني . وهذا لم يبادر الى امضاء تقاعدي الذي ينص عليه القانون إلا لما اوعز اليه محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية بسرعة اتمامه . ومن الغريب أن يظهر هذان الحلبيان مصطفى نعمت وشاكر نعمت وهما من ضباط اركان الحرب عند العثمانيين بهذه المقاومة لي بدون موجب وما ادري كيف يكون تحكمهما إذا كان صاحب العلاقة بهما ضعيفاً .

ومن مزايا حقي بك انه مهذب تهذيباً تاماً واقرب الى الخير منه الى الشر ، وعفيف عن أموال الدولة ، ويعتقد بصحة مذهبه لا يوارب فيه . فقد قال منذ اول يوم اتى الشام من مصر ، وكان ينزلها من سنين طويلة : انا افرنسي ، وكل ما يصدر عن الافرنسيين صواب ، وظل ثابتاً على رأيه لم ينافق كغيره ، ممن يعمل اذا وظفت له وظيفة كأعظم الانتدابيين ، وإذا صرف من الخدمة شاغب وادعى الوطنية وبكى وناح على حقوق سورية الضائعة .

ومن خطيئات حقي بك تذرعه احياناً بتوظيفه اشخاصاً في سيرتهم ما ينفر منهم ، وكنت في القريتين فالصل بي انه عين او كاد قائم مقـام عليها ، رجلا حرص على تعيينه في خدمة الحكومة فكتبت له اذكر ما اعرفه من سيرته فصرف النظر عن تعيينه . وبعد سنين أصر على رئيس الجمهورية لجعل صاحبه مدير شرطة دمشق فقال له الرئيس محمد علي بك العابد : يمكن تعيين هذا الرجـل وزيراً ورئيس وزارة ورئيس جمهورية ولا يمكن أن يكونْ مديراً للشرطة ، فأصر حقي بك على تعيين مرشحه ، فقال له رئيس الجمهورية ، على فرط حلمه وتهذيبه : انا لا اقدر ان اعمل مع من لهم مثل هذه العقلية ، وكان رئيس الجمهورية على حق في هذا الرفض ، لأن الموصى به على غاية الاقتدار في القوانين ، وقليل البضاعة من الأخلاق .



مع المندوب

دعاني مندوب المفوض السامي الكولونيل كاترو إلى تناول طعام المساء مع المسيو فرانكلين بويون . وكان هـذا قادماً من أنقره ، وقد عقد مع الأتراك محالفة ادعى أنه حفظ بها حقوق امته . وكان يشيد كثيراً بمناقب الترك ونهضة الأتراك ، ومما قال إن عندهم وزراء لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين ، ويتكلمون الفرنسية كالفرنسيين ، وأخذ يفيض من هـــذه المبالغات ، والغاية من ذلك التورية بأنه حالف دولة عظيمة ، وبالغ بنهضتهم لأنهم أروه أنها في نفسها نهضة افرنسية .

وكان المدعوون بالطبع ينصتون ، ويشغلهم الطعام الذي بين أيديهم عن غيره ، وأكثرهم لا يعرف اللغـة الفرنسية إلا أن المندوب صاحب الدعوة أراد أن يسمع الحاضرين نغمة اخرى ، فسألني عن رأيي في الأتراك ، فاكتفيت بأن قلت له خلاصة ما قرأته منذ شهرين في المجلة العالمية الباريزية ، نقلاً عن مجلة ايطالية ، من أن العالم الشهير لمبروزو من علماء تشريح الدماغ قال : إن الولد التركي تنمو قواه إلى الثالثة عشرة ، على نحو ما تنمو قوى الأطفال عادة ، فاذا جئت تفحص عقله بعد سنين اي في سن العشرين مثلاً تجده كما عهدته في الثالثة عشرة ، وهكذا حتى آخر سن الشباب والكهولة الخ . قلت هذا ما قرأته ولا أعلم مبلغه من الصواب ، والذي أعرفه أن لمبروزو عالم جليل لا يقول جزافاً . فدهش فرانكلين بويون لهذا الكلام ، وكان لسان حال كاترو « لم آمر بها ولم تسوءني » .

كان كاترو على صفات ممتازة ، ومنها الاستقامة واخافة المرتشين من جماعته وجماعتنا ، والقاء رهبته في قلوب مستشاريه ، إلا أنه كان لا يرى أن يترك لأعظم الشخصيات في الولاية المنتدب عليها استقلالاً فكرياً ،

ويكره من يراجعه في بعض آرائه . وروى لي أحد الوزراء ، ممن كان مذهبه مماشاة الانتداب ، أنه عثر لكاترو على تقرير قال فيه إن المخلصين حقاً لفرنسا في سورية هم أربعة فقط (وذكر اسماءهم) والأخير كان وزير المالية وهو أشدهم اخلاصاً لأنه أعطى فرنسا الخط الحديدي الحجازي بكل ما فيه من أدوات وقاطرات وشاحنات ، وما له من معامل وأماكن بدون أدنى جلبة . والحقيقة أن هؤلاء الأربعة كانوا منذ اليوم الأول ينفذون رغائب المندوبين بدون اعتراض البتة ، ومن هذا الراموز يطلب المندوب ان يكون الناس كلهم بالطاعة والخضوع ، وامثال هؤلاء مئات في سورية لأن الناس عبيد الدنيا ، ودنيانا بيد المنتدبين ، من شاءوا اطعموه واشبعوه ، ومن شاءوا حرموه واجاعوه .

سافرت إلى فرنسا في سنة ١٩٢١ فقال لي المندوب كاترو نجتمع في الوقت الفلاني هناك ، فاسأل عني في محل كذا . وبعد انهاء عملي سألت عنه فقيل إنه في الجزائر يتعهد املاكه ، فرحت إلى لندرا ازور المتحف البريطاني وجامعتي كمبردج واكسفورد ، ولما عدت لم ار ان أسأل عن المندوب ثانية ، وكانت نفسي تحدثني ان من نيته ان يستعملني لغرض له في باريز ما ادري ما هو ، ولكنه على كل حال ينفعه ولا ينفعني . وركبت القطار إلى مدريد فالاندلس فجبل طارق ومنها إلى مرسيليا فليون فسويسرا فألمانيا فايطاليا فمصر فسورية .

ولما جئت مصر قرأت في المقطم تصريحاً منسوباً إليّ قالوا إني قلته لأحد أصحاب المجلات الفرنسية وخلاصته ان سورية اصبحت بفضل فرنسا جنة ارضية ، وان السيد بديع المؤيد احد رصفائي في الوزارة صرح بمثل هذا التصريح وانا وافقته عليه ، فبعثت في الحال تكذيباً لما نشر باسمي ولا علم لي به ، وهو ظاهر البطلان ، إذ يستحيل ان تجعل حكومة الانتداب سورية جنة في عامين ، ولم يكن مضى على احتلالها اكثر من ذلك . وعرض على زميلي ان يكذب فقال : وهل انا مجنون كصاحبي حتى اترك

منصبي من اجل كلمة قيلت على لساني كذباً . والحق معه فانه لايزعجه ان يكذب عليه وربما يجوز الكذب احياناً . ولما بلغت دمشق قيل لي ان السلطة غاضبة عليَّ لتكذيبي خبر المقطم ولأني ذهبت إلى المانيا ، وكان في دمشق ضابط استخبارات يحب ان يكون السوريون كلهم عبيداً للانتداب .

زرت كاترو فآخذني على ما بدر مني ، ولا سيما على عدم الاجتماع به في باريز ، وعدَّ عليَّ من الذنوب اني زرت المانيا ، واجتمعت إلى جمال باشا (قائد الجيش الرابع زمن الحرب) عدوهم اللدود ، إلى غير ذلك من الأمور التي ارتكبتها ، ولا ترضي حكومة الانتداب ، فقلت له : هذا ما جرى ، وانا ذهبت لأزور ابن اختي شفيق حسان في مونيخ ، وعرجت على برلين وليبسيك لابتاع كتباً لي وللمعارف ، خصوصاً وقد سنحت لي فرصة لذلك ، وقيمة الألف مارك ليرة عثمانية واحدة ، فابتعت مقداراً من الأسفار ، وإذا زرت جمال باشا فلأن له عليَّ يداً ، والوفاء يقتضيني ان العهده ، وهو اليوم فرد لا قوة له ولا حول ، وقد حماني زمن الحرب وأنا اذكر له هذا الجميل ، واحب ان افهمه ضمناً انه لو كان عامل اخواني الذين قتلهم بمثل ما عاملني لكانوا له اليوم وهو في محنته مثل ما انا له وزيادة . وقلت : إنكم كنتم الى امس تصفون مصطفى كمال باشا زعيم الترك بأنه رئيس عصابة اشقياء ، فلما قضت سياستكم بملاطفته صرتم تطلقون عليه في جرائدكم لقب مصلح تركيا الأكبر . فاجتماعي بجمال باشا ، وإن كان كما تقول هو من اعدائكم ، لا يضر احداً ، وليس له الآن من السلطان ما كان له في هذه الديار زمن الحرب . فقال لي : فعلى هذا لا نستطيع ان نعمل معاً . فقلت له : الحل الأجدر بي وبكم إذاً ان تقبلوا استقالتي ، وإن شئتم دفعتها اليكم الساعة ، فقال : ادفعها إلى رئيس الحكومة ، وانصرفت ، فعهد إليَّ برياسة المجمع العلمي العربي فقط .

ولما اقتضت مصلحة حكومته ان تستدعيه من سورية تأسفت لنقله ، وقلت لغير واحد من المنتدبين وغيرهم إن فرنسا لا تحسن صنعاً بهذه الطريقة

القائمة على المبادرة إلى نقل موظفيها ، بعد تمكنهم من معرفة البلد الذي نزلوه ، واحاطتهم بدقائق الاعمال التي تقلدوها ، وكان من المصلحة ابقاؤهم زمناً طويلاً كما يفعل الانكليز في مصر . وكاترو هذا إذا كانت له بعض اغلاط لابرتكبها فيما احسب في المستقبل ، وقد زادت تجاربه والسمت معرفته ، وذكرت له الصفات التي عرفتها فيه ، وقلت إني اعذره على ما وقع بيني وبينه من سوء تفاهم ادي إلى التخلي عن منصبي ، فهذا من الحوادث الشخصية .

ومضت الأيام ، ولقيت صديقي الاستاذ نسيب مسلم في باريز ، وكان محبوباً عندهم ثم غضبوا عليه يوم ثورة دمشق ، لاعتراضه على ضربهم قرية مضايا بدون مسوغ ، وكان قائم مقام الزبداني ، فأخرجوه من الخدمة فقال لي : إنه اتي كاترو في الاستانة ، وكان ملحقاً عسكرياً بسفارة دولته فيها ، فقص عليه ما قلته فيه ، عندما جرى نقله من دمشق ، فقال له : عجيب ، وهل قال لك ذلك ؟ إني ليسرني قوله . قال له : نعم ، قال هذا في حضور جماعة ، وكان في قوله جاداً مخلصاً . وبعد أشهر اجتاز كاترو بدمشق وأحب الاجتماع إلى اناس اختارهم ، فكنت في جملتهم ، وأردت أن أتملص من زيارته ، فأصرَّ عليَّ بالاجتماع إليه متصرف البلد صديقي السيد نورس الكيلاني ففعلت . ولما اجتمعنا في دار الحكومة سألني عن حالي فقلت له : إن حالي أحسن حال ، ارتقى المتحف ودار الكتب والمجمع العلمي ، لانصرافي إلى النظر في شؤونها . وشغلت أوقات الفراغ بتآليفي ، فطبعت منها في هذه الفترة في القاهرة ودمشق سبعة مجلدات . وهواء العلم أنعش للقلوب من هواء السياسة الفاسد . وإني لأشكر لمن كان السبب في إحراجي وإخراجي من الوزارة . فانقبض وجهه من الجملة الأخيرة ، ثم قلت له : وأنت قل لي كيف حالك مع الأتراك وما رأيك فيهم بعد أن زدت بهم خبرة ؟ وقلبنا الحديث .

وعاد الكولونيل كاترو إلى سورية بعد حين مديراً لاستخبارات الشرق مع المفوض السامي المسيو پونسو ، واتفق أن كنت متغيباً في الجبال للاستجمام

فلم أستطع أن أزور المندوب ، كما تقضي بذلك العادات المتبعـة ، واغتنمت بعد مدة شخوص المفوض السامي الى دمشق ، وبعثت إليه كتاباً أطلب مقابلته خمس دقائق للسلام عليه ، والاعتذار عن قصوري بالقيام بالواجب في جيئته الأولى ، فجاءني كتاب من مدير الاستخبارات بدمشق يسألني عما كان في نيتي أن أقوله للمفوض السامي،وهل لزيارتي صبغة سياسية ، فأجبته شارحاً للحال ، ذاكراً تقصيري في المرة الأولى بالواجب ، وأن ليس لي ما اعرضه عليه إلا إذا رأى في وقته متسعاً لزيارة المجمع العلمي ليطلع على ما جمعه من الآثار والمخطوطات وغـير ذلك . فبعث لي مدير الاستخبارات بموظف يسألني إن كان ثمة أشياء لا أحب أن أكتبها بتوقيعي ، وطلب أن أذكرها له ليعرف المقصد من زيارتي . وقال إن فلاناً من ضباط الاستخبارات قال : إني اوشك ألا يقبلني المفوض السامي . فقلت له : أبلغـه إذاً أني حاولت أن ألقاه لأقوم بواجبي ، ولا احب تصديعه بزيارتي بعد الآن ، فانتقل ما جرى إلى المفوض السامي ، فما استحسن على ما يظهر فعل دائرة الاستخبارات ، وارسل لي مندوبه في دمشق المسيو بيرآليب بصورة رسمية يعتذر باسم المفوض السامي عن زيارتي ، وأنه في قدمته الثانية تكون أول زيارته للمجمع العلمي ،

كان السبب في حنق الكولونيل كاترو عليّ أنه طلب مني العلم الكبير الذي كان يحمل امام الملك فيصل ، لما بويع ملـكاً في دمشق ، وكنت اخذته في جملة ما أخذت من الأعلام وغيرها ووضعته في المتحف ليحفظ . طلب أخذ هذا العلم ليجعله في المتحف العسكري بباريز ، فأجبته إن العلم أصبح ملك الأمة وأشبه بالمال الموقوف ، والوقف لا يجيز إخراج شيء بعد دخوله في ملكه ، وإذا أعطيت العلم يتعذر عليّ الخروج في شوارع دمشق ، لأن أهلها يصمونني بالخيانة ، وألحّ عليّ مرتين في أخذه فأشحت في المرة الثالثة بوجهي عنه ، وتشاغلت عن حديثه ، فاحمر حنقاً وأبغضني من ذلك اليوم .

قال لي الكولونيل كاترو وهو پراستانتي المذهب : إن الكاثوليك كانوا يأملون بمجيء الفرنسيين إلى هذه الديار أن نطرد المسلمين من الوظائف ونستعيض عنهم بكاثوليك ، وهذا ما لا تأتيه حكومة في الأرض . والغالب أن سياسة الكاثوليك نجحت بعدئذ ، فلم يدخل المفوضية وتوابعها في سورية مستخدم إلا من الكاثوليك والموارنة ثم من الروم الارثوذكس والبرلستانت واعتمد الانكليز في فلسطين على النصارى أيضاً ومزجوهم بجماعة من الدروز ، وكانوا في مصر أيام الاحتلال ، لا يعتمدون على غير النصارى السوريين .

انتخب الأطباء بدمشق الدكتور يوسف عرقتنجي مدير صحة في سورية وهو كاثوليكي النحلة ، فأرسل مرسوم نصبه إلى البعثة ليصادق عليه فوقف مدة ، وعلمت بالأمر فذكرت للكولونيل كاترو أن أوراق الرجل متأخرة ولم يتم تعيينه ، فقال لي : إنه مسيحي ، والمسلمون لا يرضون عن هذا التعيين ، فأجبته إن اطباء المسلمين هم الذين اختاروه لهذا المنصب ، ونحن هنا لا ننظر إلا إلى الكفاءة ، ونغمة الطائفية هذه مما يردد في لبنان ، والرجاء ألا تنقل الى هنا ، فانها مضرة بنا . فعند ذلك رضي أن يوقع تعيين مدير الصحة الجديد .



نكتة

دعاني رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الى تناول الغداء في داره ، واكد علي بالحضور ، وكنت أستنكف من غشيان داره في غير الاعمال الرسمية ، واتصوّن عن شهود مائدته ومائدة غيره ، إلا اذا عرفت المدعوين بأعيانهم ، لئلا يكون منهم من استثقله ويستثقلني ، وقال لي إن مجيئك ضروري في هذه المرة . والدعوة لاكرام صديقك المسيو بينار (كاتم سر البعثة العلمانية في باريز) والمدعوون مديرو المدارس العلمانية في بيروت وحلب ودمشق وعقيلاتهم ، وكلهم ممن لعرف فاجبت الطلب .

ولما جلسنا الى الخوان قال لي الشيخ : قصّ على السيد بينار القصة التي قصصتها عليّ منذ ايام ، فقلت : قصة الجمال ؟ فقال : نعم . قلت : نصرف النظر عنها ونفكر في ايراد قصة اخرى ، فقال : هذه طريفة في بابها . فلم البث ان قلت : كان في الاستانة في آخر أيام دولة بني عثمان شاب اديب من ابناء الاعيان معروف بخفة الروح وسمة الفضل ، وهو صاحب جريدةهزلية سياسية اسمها (قره كوز) اي خيال الظل ، وكانت لكثرة ماتحوي من المغزى تترجم بعض الصحف الالمانية والفرنسية ما ينشر فيها من النكات والقصص . واسم منشئها صلاح الدين بك جججوز كان من اصدقائي رجال الصحافة التركية ، وهو نائب في مجلس النواب عن مدينه استانبول . سأله بعض المكارين ذات يوم رأيه في الحاج عادل افندي رئيس مجلس النواب العثماني وكان من قبل شيخاً معمماً . فأجابه إنه رئيسنا ، وليس من حقي ان اقول فيه الا خيراً ، فقال السائل : قل لنا مادرجته من المعرفة ، وهل يليق لهذا المنصب الكبير ؟ فقال : هذا مالا أعرفه . ولما ألح السائل بطلب جواب سؤاله قال : اذاً اقص عليكم قصة وانتم وشأنكم ، وانشأ يقول : كان في سالف

الزمان جمال رأى لما اشرف على الموت ان يجمع جماله ويطلب منها ، وهو في آخر عهده بأيام الدنيا واول عهده بالآخرة ، الصفح عما بدر منه نحوها مذ كانت في خدمته . فقد يكون ارتكب معها اموراً ما كانت منه عن قصد ، كأن يضربها بعصاه ، ويشح عليها بالعلف او الماء او يسير بها مراحل طويلة أو يحملها احمالاً لا تطيق حملها ، اذا نفق معه بعض الجمال ، فيحمل الجمال الحية حمولة ما نفق معه إلى غير ذلك .

وكان هناك جمل في أخريات الصفوف فتقدم قائلاً لصاحب الجمال : كل ما بدر منك نقيم لك الاعذار فيه ، وليس لنا أن نؤاخذك عليه إلا مسألة واحدة لا نغتفرها لك ، وهي أننا كما ترانا مئة جمل طوال عراض ، وأنت ما برحت طول الوقت الذي قضيناه في اسفارك تقطرنا بذنب حمارك الصغير الذي تركبه ، هذا ما لا يسعنا السكوت عنه . فضحك المدعوون ضحكاً كثيراً حتى كادت احدى السيدات أن تقع عن الكرسي وكأن الحضور طبقوا القصة على الشيخ تاج الدين .

ولما انصرف المدعوون آخذني الشيخ على استئثاري بالكلام في الدعوة ، زاعماً أني لم اترك لغيري مجالاً ليتكلم في نوبته ، فقلت له : لقد حرت في أمري معك ، إذا سكت تطلب مني الكلام ، وإذا تكلمت ترميني بالاكثار . تندبني لانوب عن حكومتك في مواطن تكون معرفة اللغة الفرنسية شرطاً فيمن يمثل سورية ، فأقول لك عندك وزراء غيري يعرفون اللغه ، فتقول : نعم ، ولكنهم يتكلمون خمس دقائق ويصمتون ، وأنت تتكلم طول الليل والسامعون ينصتون لك ، وقلت له : ما هذه الحال معك ؟ وأنا لم أقصر خلال المائدة من ان انقل لك ما يقال : وانقل الى ضيوفك ما تقول وأجمل اقوالك . وانصرفنا وهو لا يظهر غضباً ، وأظنه نوى في سره فقط ألا يدعوني ما حيي .

وقعة في مصر

قامت منذ بضع سنين ضجة على الجامعة الاميركية في القاهرة ، ووصمتها بعض الصحف الوطنية بأنها مدرسة تبشير لا دار علم ، وأن غايتها تنصير المسلمين ، وقد نصّرت أناساً فيما قيل . واتفق أن كنت متعاقداً مع هذه الجامعة لالقاء محاضرات علمية في دارها ، فكتب لي من مصر بعض الغُيُر على الدين أن أمتنع من القاء ما وعدت بالقائه . وحاولت بعض الجمعيات بالقاهرة أن تثني عزمي عن أن أهبط وادي النيل وأرادتني بعض الصحف الاسبوعية التي عرفت بغرامها بالادب المكشوف والفن المكشوف على الامتناع عن القاء محاضراتي ، ولما حاججتهم بأن غيري من المصريين المسلمين يحاضر في الجامعة الاميركية ايضاً ، فيسعني ما يسعهم ، قالوا إن المحاضرين المصريين ليس لهم مثل مكانتي في ديار الاسلام ، فلا يضير المسلمين إلقاؤهم محاضرات في هذه الجامعة التبشيرية !

وحظيت بلقاء جلالة الملك فؤاد الاول فكان مما تفضل وقاله لي : وهذه المحاضرات ألا ترى صرف النظر عن إلقائها في الجامعة الاميركية ؟ فقلت : إنني يا مولاي لعاقدت والجامعة قبل ان تشير الصحف إلى انها مدرسة تبشير بأكثر من شهر ، ولا يليق بالرجل ان يرجع عما امضاه ، فان كانت مصر على ما لها من الوسائط لم تعرف إلى اليوم إذا كانت الجامعة الاميركية مدرسة تبشير ، فأنا في الشام أولى بألا اعرف ، لينتظر القائمون بهذه الضجة فان رأوني أخدم العرب بهذه المحاضرات ، فأنا لا اريد منهم جزاءً ولا شكوراً ، وإن رأوها مضرة تخدم الجامعة فقط ، فليطلقوا فيَّ ألسنتهم . وعندي ان هذه الجامعة لو بدا لها أن تمتنع من إلقاء هذه

المحاضرات لكان الواجب عليّ أن اؤدي إليها مالاً حتى تمكنني من إلقائها في قاعتها لما أتوقع من نفعها . »

وجاءني من إدارة الأمن العام رجل عرفته قديماً في الصحافة ، ودعاني بلطف إلى زيارة المدير ، فبادرت إليه . فقال لي إن عميد كلية الشريعة في الأزهر الشيخ مأمون الشناوي كتب إلى شيخ الأزهر يقول له إني أقرر تشريعاً في الجامعة الأميركية ، وما كان التشريع المزعوم إلا أني قلت نقلاً عن المؤرخين إن امراء المسلمين في الأندلس كانوا أيام عزهم يتزوجون من بنات امراء النصارى ، فلما تراجع أمر المسلمين أصبح امراء النصارى يتزوجون من بنات المسلمين كرهاً .

وحسّن لي مدير الأمن العام أن اقابل الشيخ الظواهري شيخ الأزهر في مكتبه ، ولما اجتمعت إليه عاتبني على عدم زيارتي له — وكان سأل أحد معارفي عما إذا كنت زرت الشيخ المراغي شيخ الأزهر السابق ، فامتعض لما علم أني زرته مرتين — وقال لي : أرأيت كيف أتيت بك لزيارتي بواسطة الأمن العام ؟ وأخذني إلى داره وغدّاني معه ، فأراني غضبه ورضاه . ومما استفدت ذلك اليوم من علمه الواسع أن أباه كان من أولياء الله ، ورجا أن تحفني بركاته ، وأن من كراماته أنه كان يطعم خمسين الف إنسان من طعام رجل واحد ! ذكرت هذا الحديث العلمي الذي أسمعنيه الشيخ الظواهري لأحد شيوخ الأزهر الاستاذ الزنكلوني فقال لي : أما ذكر لك أيضاً أن أباه دخل على الخديوي إسماعيل في بعض الأيام ، وقال له إنه رآه في منامه في حالة حسنة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، رآه راكباً بغلة والرسول يمشي في ركابه ، فصاح الخديوي مستهجناً نفاقه وأمر بطرده من مجلسه ، وقال له كان عليك أن تعكس المسألة وتقول إنك رأيتني على الأقل أسير في ركاب الرسول . ومن أنا حتى يمشي رسول الله في ركابي ؟ أنا أتمنى أن أكون غبرة أقدام محمد (ﷺ) .

واثيت شيخ الأزهر بمحاضراتي في الجامعة الأميركية فحذف بعض جمل قليلة ، ذكرني بما كان من قلم المراقبة على العهد العثماني ، وبمحكمة التفتيش الديني في العصور الوسطى في الغرب . وتأخرت الجامعة عن نشر المحاضرات مدة لأن الاستاذ الظواهري طلب الى ادارة الأمن العام أن تحول دون نشرها ، فلم تنشر في كتاب إلا بعد اعتزال الشيخ الظواهري مشيخة الأزهر ، فنشرناها كما كتبتها اول مرة . وهذا كل ما استطاع الشيخ الظواهري ان يأتيه تأديباً لي على اغفالي زيارته لما هبطت مصر ، وعلى جرأتي على زيارة الشيخ المراغي منافسه في رياسة الأزهر . فانظر إلى اي حد يبلغ حب الدنيا ببعض علمائنا .

دعاني صديقي الاستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني من هيئة كبار العلماء ، ومن شيوخ الأزهر ، ومن تلامذة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، إلى داره مرتين ، فاعتذرت بكثرة أشغالي ووعدت بالتشرف به قريباً ، وفي المرة الثالثة اعد ضيافته ودعاني بلسان صديقي الدكتور منصور فهمي فسألته عمن يكون معنا في الدعوة ، فقال : أصحابك أولاد عبد الرازق الشيخ مصطفى بك وعلي بك ، وربما جاء الاستاذ المراغي شيخ الأزهر ، وما أظنه يحضر لأنه مدعو إلى مأدبة رسمية لا يسعه التخلف عنها . فحضرت ودهشت أن رأيت في الدعوة مفتي مصر الشيخ عبد المجيد سليم وعميد كلية أصول الدين في الأزهر الشيخ عبد المجيد اللبان ، وهما ممن عرفت . فلما رأيتها عتبت في باطني على الداعي ، لأنه لم يذكر من يكون معنا على جليته . وأخذت اعرض لما عاملني به صاحبها بالأمس شيخ الأزهر السابق ، يوم الدعوى عليَّ بأني أضع تشريعاً جديداً في الجامعة الأميركية . فقلت للحاضرين وكلهم مشايخ ، والخطاب موجه للمفتي والعميد ما فحواه : إنكم يا سادتي تسيئون إلى الدين بالهيمنة عليه بهذه الصورة ، وهل تعرفون ما تنطوي عليه القلوب ، والقلوب لا يعرف ما فيها غير علام الغيوب ؟ تنكرون دين هذا فتعدونه من أصحاب النار ، وترضون بإيمان ذاك وتدمجونه في أصحاب

الجنة ، هذا والاسلام يطعن به في مدينة القاهرة ، ويطعن برسول الله في كتب ونشرات ، والعلماء لا يردون على هذه المطاعن ، ويحاولون أن يقفوا في سبيل رجل مثلي صرف حياته في خدمة الاسلام والمسلمين والعرب والعربية ، فيما نشر من كتب ومجلات وجرائد ، وما ألقى من محاضرات ومسامرات ، وما جرأ انسان أن يقول له وهو في جهاده منذ أكثر من أربع وأربعين سنة أنه خالف الشرع في مسألة ، أو أحصيت عليه زلة يستوجب بها التكفير ، وتآليفه اليوم تقرأ في الأقطار الاسلامية من دون نكير . خير لكم يا سادتي وأسباب النشر موفورة لديكم ، وفي مصر أكثر من مئتي مطبعة تطبع لكم ، أن تردوا في كتب ورسائل غارات المغيرين على الدين ، لا أن تنالوا فقط من رجل هو من صميم المسلمين ، تشبعت نفسه بكتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم من أعلام الاسلام . إن العلم أيها السادة لم يقف عند افق الأزهر ، وفضل الله غير محصور في أحد ولا في بلد ، يحوزه كل من اشتغل ودرس ، والمناصب الكبرى لا تنبئ بعظمة أربابها ، وما العظيم إلا من يفيد امته .

فاعتذر الشيخان عن شيخ الأزهر السابق وقالا : أما كفاه ما حل به ، وأنت من ينكر عليك علمك واخلاصك وجهادك ؟ فأجبتهم : المسألة أني احب من السادة العلماء ألا يتسرعوا في تكفير مسلم ، ويستعملوا الحكمة التي كانت ديدن الشيخ محمد عبده ، ولو كان حياً ما خرج بعض أرباب الأقلام عن حظيرة الدين ، ولتمحضوا على ما كان يشتهي لخدمة المسلمين ، ولجلبهم بجميل سياسته كما جلب قاسم أمين في عهده ، وكان من قبل ناشزاً على الاسلام .

لمت نفسي لما انتهى الحديث على هذا التعريض القاسي بالشيخين ومن لفّ لفهما ، وآخذتها على ما بدر مني من الحدة على من ليس لهما يد في الذي وقع ، والمسألة ان الشيخ الظواهري قوّلني ما لم أقل ، وأوصل المسألة إلى المليك المحبوب حتى طلب جلالته مني أن أعدل عن القاء المحاضرات في الجامعة الأميركية .

واحب بعض اصدقائي من أرباب الصحف أن يكتبوا شيئاً في الموضوع أو أن يتلقفوا مني حديثاً فأبيت ، حباً بمصر ، وبرجال مصر ، وبالجالس على عرش مصر . ومن المضحك أن أحد من اعتادوا التجسس عليَّ من المشايخ في دمشق أحب أن يشرك بالشماتة بي كل شامت ، فدفع اشتراك جريدة لاحدي الصحف الدمشقية ، ليكتب في جريدته أني سجنت في القاهرة . ولما عوتب الصحافي على نشره هذا الخبر الكاذب اعترف أن الشيخ أعطاه اشتراكاً فكتب له ما أراد قال : وأنتم ادفعوا لي اشتراكاً فأكتب لكم أن الشيخ المشترك لن يسجن فقط بل اكتب أنه داسه قطار فهلك ، مثال مبكٍ من اخلاق من نسميهم اهل العلم وأرباب الأفكار .

استطراد : كان صديقي الاستاذ احمد تيمور باشا قد علق بعقيدته أول نشأته – كما قال عن نفسه – شيء من آثار التربية في مدارس الأجانب : فكان يعرض ما يظهر له من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التي تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فيجد التناقض والتصادم ، فصار يتردد على كثير من كبار علماء الازهر وغيرهم لعله يجد عندهم فرجاً ، فرآهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات .

وأنا كنت كلما رأيت شيخاً من الشيوخ أعجب لهذا الذكاء كيف يعتقد صاحبه بأشياء لا تناسب الدين ، مثل رواية الظواهري كرامات والده وهي مما لا يقول به ذو مسكة من العقل ، فكيف بشيخ الأزهر في هذا العصر ، ولا تعليل لذلك إلا البيئة التي ينشأ فيها الأبناء على قدم الآباء ، وتتسلل الخرافات فيهم فيغدو الاخذ بها عقيدة مسلمة وحقائق ثابتة وقد كان بالامكان أن يخرج هؤلاء الشيوخ عما علق في عقولهم من هذه الخزعبلات ، لو سمت هممهم لأن يطالعوا كتب العلماء الأعلام من القدماء . والغالب أن منهم من يرى حزب العامة اكثر سواداً من حزب الخاصة ، ويظن ان مصلحته مع الحزب الكبير اكثر من الحزب الصغير فيتابع الجمهور على العمياء ، ولو كان في ذلك العبث بالشرع . وما إخال اكثرهم يؤمنون

عما يقولون بأفواههم . ورحم الله صديقي السيد محمد رشيد رضا فانه اصلى هذه الطبقة الخرفة في مجلته (المنار) ناراً حامية من نقده نحو أربعين سنة ، ومن لنا بمن يخلفه ويكون قوي الشكيمة مثله ، وعلى علم بالدين الصحيح السالم من تخريف المبطلين من المتأخرين .

دعاني السيد سعد اللبان نجل الأستاذ اللبان ، أحد شهود الحال في دعوة الأستاذ الزنكلوني السالفة ، إلى داره في « جاردن ستي » وكان والده حاضراً ، وكذلك الحبيبان السيد الزنكلوني والسيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي وغيرهما من الأصحاب ، فجرَّت محاورات المدعوين إلى ذكر الطرق ، وكان الشيخ اللبان يقدس عملها فوافقه السيد التونسي ، وأورد علينا ما تحققه من حسنات الطرق في الغرب الأقصى والأدنى والأوسط ، فقلت للحاضرين وقد ضاق صدري من هذا الحديث : أنا لا أنكر أن الطريقة السنوسية في صحراء افريقية نفعت وما أضرت ، وذلك لأن أربابها يزرعون الأرض ، ويعيشون بكدهم ، ويقفون في وجوه المبشرين ، ويذكرون الله أما سائر الطرق أو معظمها فما كانت إلا أداة شر على الاسلام ، يستخدمها المستعمر في أغراضه ، واسمحوا لي بالنظر لمعرفتي بالشام والعراق وآسيا الصغرى ومصر أيضاً أن احدثكم بما فعلته الطرق في تأخير العلم والمدنية ، والعبث ببهاء الشرع الاسلامي ، وأفضت في ذلك فسكت الحضور ، وما بدا لأحد أن يرد عليَّ قولي ، وكان انكارهم في قلوبهم فقط على ما ظهر لي . ولما خرجنا من الدعوة قال لي الاستاذ الزنكلوني ما معناه : انت وزير وتكلمت كلام العلماء ، وزميلك السيد حسن حسني عبد الوهاب ليس وزيراً وتكلم كلام الوزراء ، أي أنه جمجم وما أبان ، مراعاة للشيخ اللبان ، ومن يقول بالكرامات من الرجال والنسوان .

المصرى خارج بلاده

رأيت في المنام (١٩ رمضان سنة ١٣٥٨ ، ١ ديسمبر سنة ١٩٢٩) صديقي أحمد شوقي بك أمير الشعراء فقص علي قصة رجل مصري رآه في طرابلس الشام ، أعجب به . قال : « ان الاقدار ساقت هذا الرجل إلى ذلك الثغر فأعجبه جماله فاتخذه موطناً له نحو خمسين سنة واشتغل بالمحاماة فعاش في رفاهية واغتنى وصار له مقام بين أهل وطنه الثاني » .

هذا ما علق بذهني من هذا الحلم — وأنا ما بنيت أعمالي على الأحلام قط ، ولا كفرت بها ولا آمنت — وقد ذكرني هذا الكلام بموضوع كان يتردد على خاطري من مدة طويلة وهو « المصري خارج بلاده » ، فقلت أكتبه هنا فهو لا يخلو من طرافة ونفع فأقول :

ترك جيش ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير في الديار الشامية وما اليها ألوفاً من المصريين ، أصبحوا بعد حين من الدهر كأهل الشام في مناحيهم ، على نحو ما كان من بضعة ألوف من المصريين وردوا على فلسطين قبل الحملة المصرية ، وكانوا السبب الظاهر في إعلان محمد علي باشا الحرب على والي عكا بل على الدولة العثمانية ، لأنه طلب إرجاعهم إلى مصر فأبى الوالي على محمد علي اعادتهم ، محتجاً بأن مصر والشام شيء واحد وكلتاهما تابع للدولة . وهؤلاء المهاجرون الأول تفرقوا في أنحاء فلسطين وأحالتهم بوتقتها شاميين . والغالب أن المهاجرين في الدور الأول والدور الثاني لم يجدوا أيام هجرتهم فرقاً كبيراً بين عيشهم في بلادهم الأصلية ، وعيشهم في موطنهم الجديد ، ان لم تكن الشام يوم هاجروا أرقى من مصر . ولولا أنك تلمح في سحنات أهل غزة ويافا وحيفا وعكا مثلاً تلك السمرة الجميلة ، وتسمع في بعض

أسمائهم لفظ « المصري » لقلت انهم شاميون من عشرات البطون .

قص عليّ صديقي شكري العسلي ، انه رأى في ولاية قونية في آسيا الصغرى كتلة كبيرة من المصريين من بقايا جيش ابراهيم باشا المصري ما زالوا إلى اليوم الذي رآهم فيه يتكلمون بلهجتهم المصرية كأنهم فارقوا مصر بالأمس مع انهم نزلوا في صميم أرض الترك ، وأتت ثلاثة أجيال على هجرتهم .

وهذا ذكرني بما قاله أحد علماء المشرقيات من الاوربيين من أن قوة التمثيل في العربي شديدة جداً ، حتى لو أسكنت قبيلة عربية في وسط أوربا ، وغبت عنها أعواماً طويلة ، وعدت تتعهدها لما ألفيتها انصبغت بصبغة الأرض التي نزلتها ، بل لشهدها قد صبغت هي من كان في جوارها من السكان الأصليين بصبغتها العربية ، ونشرت بينهم لغتها وبعض عاداتها . وقد سأل أحدهم بيرلوتي الأديب الفرنسي قبل وفاته : أي الامم أحب إليك ؟ قال : العرب لأنهم لم يغيروا أخلاقهم منذ أربعة آلاف سنة .

وما أدري إن كان تم على أيدي المهاجرين المصريين في أرجاء قونية شيء مما ارتآه المستشرق في العرب فعربوا من بجوارهم . وعلى كل فانهم يصفق لهم لأنهم قضوا نحو مئة سنة في أرض الترك ، وما نزلوا عن لغتهم وعاداتهم ، هذا مع أن الامية كانت غالبة عليهم . وروايتي عنهم هذه ترد إلى أواخر عهد العثمانيين . ولست أدري إن كان ذاك القبيل من المصريين قد احتفظوا بشيء من لغتهم على عهد الكماليين ، وقد حارب هؤلاء في أرضهم كل ما ليس بتركي .

كان لي غرام منذ القديم بالبحث في خصائص الشعوب ، وبالطبع كان لمبحث الشامي والمصري المقام الأول في نفسي ، أنظر التأثير الذي أحدثه الاقليم في السحنة واللغة والخلق والعادة . وأمثل الآن لذلك بخمسة أشخاص من أهل مصر عرفتهم معرفة جيدة . وكان الاثنان الأولان من أخلص

أصدقائي ، وقد عملا في التجارة مدة حياتهما . والثالث صحبته أيضاً وهو صاحب مشروعات ، وعمل الرابع في الزراعة ، والخامس حوذي صاحب مركبة ما زال حياً يرزق . رأيت المصريين اللذين اشتغلا بالتجارة في دمشق مثالاً نادراً في الرجال . يعرفان الجد كثيراً ويعرفان الهزل كثيراً . وكان كلاهما مولعاً بالمطالعة ، ويقرأ كل ما تصل يده إليه من الكتب والصحف ، ومن المطالعة ألما بأشياء ما كان واحد من عشرة آلاف من سكان البلد يعرف مثلها أو نصفها . فكانت معلومات الواحد منهما لا تقل عن معلومات صحافي راقٍ ، لو كان كل منهما يحسن لغة أجنبية ، وما كان الأول يكتب ما يعنّ له ، بل يقيد في دفاتره ما يستحسنه فقط من كلام غيره ، واسمه عبد الرؤوف المصري (الرفاعي) واسم الثاني محمد المصري ، وهذا اعتاد الكتابة ومرن عليها فكان يكتب كتابة يقل الغلط النحوي والصرفي فيها ، وقد تعلم بالسليقة وسار مع الطبع .

اشتغل عبد الرؤوف بتجارة الطرابيش ، وكان غريباً في أمره وطوره ، وما تزوج إلا بعد أن ذرف على الستين ، وعاش أكثر من أربعين سنة في دمشق ولم يتعلم لفظة واحدة من لهجتها ، وما نزل عن لفظة واحدة من لهجته المصرية ، هذا مع شدة اختلاطه بأهله وأقاربه من أهل هذه الديار ، وهم لا ينطقون بكلمة واحدة باللهجة المصرية اللهم إلا ان كانوا معه ليسروه فقط ، ويظهر عليها التصنع والكلفة .

وجاء محمد المصري دمشق يافعاً وامتزج بأهل الميدان من أحياء دمشق واشتغل بالتجارة ، وعاشر أهل البادية والحوارنة والدروز والغوطيين والجبليين ورأيته بعد نحو خمس وأربعين سنة من هجرته شامياً صرفاً لا يستطيع عشرة منجمين حذاق أن يكشفوا أمره ، ويعرفوا أنه مصري إلا إذا حكموا عليه بمصريته من خفة روحه ونكتته الحاضرة . وقد كان يكتب في أسلوب الهزل في الجد مقالات أنشرها له في جريدة المقتبس يتناول فيها الأحوال

الحاضرة ، ويبنيها على منامات ومشاهدات ، ويقدم لها مقدمات عجيبة ، يعرض فيها بالوالي وبحكومته ورجاله . فتحدث مقالته من التأثير ما لا تحدثه عشر مقالات أفرغت في قالب الجد يكتبها السياسيون والاداريون والحقوقيون . وكان الوالي أشد ما يكون تأثراً من مقالاته ، لأنه لا يقدر أن يجد له فيها مأخذاً يستطيع به مؤاخذته ، ليسوقه إلى القضاء ويحاكمه على ما يلحق به من إهانة بزعمها ، ويعرف الوالي أن تأثير ما يكتبه « الميداني » وهذا الاسم كان توقيعه في الجريدة ، شديد الوقع في نفوس العوام . وما خلت حملاته من تأثير في إسقاط ذلك الدور المنحط ، وكان الخاصة والعامة سواء في الاعجاب بما يكتب الميداني لجمعه في كتابته بين دعابة مصر وهزل الشام .

والرجل الثالث اسمه خورشيد وهبي بك من مهندسي الري بمصر أتى هذه المدينة وهو في الثمانين وعاش فيها أكثر من ثلاثين سنة واقتنى أملاكاً في سفح قاسيون بدمشق ، وكانت لي به صلة أكيدة وصداقة دامت مدة طويلة . وابتاع قرية في وادي العجم اسمها بويضان ، وقدر أنه بالحفر عن الماء يجده لأن القرية كانت بين جبلين ، وفي الجبال مخازن المياه ، وهما جبل الشيخ (حرمون) وجبل الدروز (جبل الريان) . والغالب أنه نظر إلى بعد ما بين الجبلين في الخريطة ، وما قدر البعد الحقيقي بينهما . فأنفق أموالاً طائلة ولم تنبجس المياه . والقرية التي حاول انباض المياه في أرضها من أشح القرى بمياهها ، وأرضها صخرية قاسية .

وقال لي انه كان ينوي انشاء مدرسة زراعية مجانية لتعليم أولاد الفلاحين ، وأنه كان ذات يوم إلى نصفه في التراب يحفر والماء لا يجيبه ، وقد اشتد غضبه ، فخاطب المولى تعالى ، وقال له : « أنت مطلع يارب على سريرتي وتعرف أني أقصد بهذا العمل خدمة الفقراء ، فلماذا تضن عليّ بالماء » وهكذا لم يوفق بعد بذله مبالغ عظيمة وجهد دل على همة شماء . والنجاح غير مقدور لكل أحد .

كان خورشيد وهي على جانب من الذكاء والفضل وحب الخير ، وكان من جهة اخرى يأتي اموراً لا تصدر عن أطفال وتنبيء ببساطـة زائدة ، كان غيوراً على مصلحة البلد الذي نزله الى أبعد حدود الغيرة ، يشارك في مسائله العامة ، فيرأس مثلاً لجنة مقاطعة الترامواي والكهرباء ، ويبين عن مرونة ومعرفة ودؤوب برغم تقدمه في السن ، يقصد بذلك خـدمة المدينة ومحاربة الافرنج الذين يكرههم مع أنه صرف في انكلترا اثنتي عشرة سنة من أيام حياته وتعلم هناك ، وهو على مناح انكليزية . وبلغني أنه حرم ابنه ارثه وأعطاه لسبطه الدمشقي ذلك لأنه كان يكره زوجته المصرية ويحب الشامية . وكثيراً ما عمل الحب في رجل تزوج اثنتين فأنكر أولاد الأولى واستهام بأولاد الثانية . وقد أشرت اليه غير مرة ألا يحرم ابنه فأبى وتجهم لي قائلاً إن أمه آلمته وآذته . استفدت من عشرة خورشيد بك أشياء كثيرة . ومما قاله لي إنه كانت بينه وبين أحمد عرابي باشا صاحب الثورة المصرية المشهور صداقة متينة في بلدة ذكرها لي فأنسيتها . قال : وكان عرابي برتبة ملازم فـكان يختلف اليه رجل انكليزي ويتحدثان في خلوة ساعات ، وبقي الانكليزي على هذه الحالة سنين مع عرابي .

والمصري الرابع الذي عرفته كان فلاحاً في قريتنا ، وكذلك كان أبوه من قبله، عرفته وأنا فتى ، واسمه عبد المجيد المصري استخدمته سنين في مزرعتي مرابعاً ، وكنت آمنه على الانبار والبيدر والعلف والبذار والتبن وعلى السقيا والحرث والكرث ، وأثق به في حساب العملة ومحاسبة الفلاحين وأصحاب المواشي وغيرهم . فكان في غيبتي وحضوري نمطاً واحداً في الاستقامة والتدقيق ، كأن المال ماله ، يعمل كل هذا ولا يمنّ ولا يثرثر ، ولا يقول تعبت وعملت ، كما هي عادة معظم الفلاحين المستخدمين عندنا . وكان صالحاً براً لا يقطع صلاته ، ويتعمد أن يصلي مع الجماعة ، إذا كان في القرية لا في الحقـول والغيطان ، وكان يتنفل ويصوم اياماً من السنة فوق الايام المفروضة عليه ،

ويمتاز عن أهل طبقته في القرية بكثير من الصفات التي تكاد تكون مفقودة فيهم وهي الامانة . وكنت إذا أراد عيالي ركوب الدواب من القرية الى دمشق اختاره من بين زملائه عندي لمرافقتهم ، لما كان عليه من التهذيب وقلة الفضول . وبقي الطابع المصري بادياً في سحنته ولا أثر فيه ولا في ابيه للهجة المصرية ، لأنهما سكنا القرية منذ زمن طويل .

والمصري الخامس محمد حمزة المصري الحوذي وهو اليوم في عشر الثمانين وله اتصال بأسرة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً وببيت الشيخ المهدي العباسي المشهور ويحفظ لهما قصصاً ، وكان الشيخ بخيت يعطف عليه ويعاونه بمبالغ من المال لا يستهان بها . تزوج بشامية ورزق أولاداً كلهم اليوم « شوام » جاء هذه المدينة منذ خمس وأربعين سنة ، ويتكلم باللهجتين المصرية والشامية على السواء ، والمصرية أشد ظهوراً فيه ، وأكثر خصائصه ماثلة فيه ، يفيض بالكلام في الدقيقة التي أركب في عربته ، حتى لأحاذر بعض الاحيان ان يستهويه الكلام ، فيغفل عن ضبط حصانيه ، أو يفلت اللجام من بين يديه ، فنقع في نهر أو جدول ، أو نصير الى هوة أو منعرج ، يورد علي النكات المستملحة ، ويشفعها بلفتات ليسمعني صوته ، وهو على المقعد الأمامي ، ويرى صورتي وأرى صورته . وحدّث عن سروره إذا ذكرت له أشياء عن مصر الحديثة ، وكم كان سروره لما عرف أني من أصحاب الشيخ بخيت ، وأعرف أشياء عن العباسي ، ويسر جداً أني أقدر النكتة قدرها ، في أكثر مايورد على سمعي . وأظنّ أنه أدرك أني انقبضت لما قصّ عليّ مرة رؤيته في الليل ، وهو يسوق عربته ، أولئك الصالحين في مشهد الاربعين بصالحية دمشق ، وجنازة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وأظن هذه الخيالات وليدة الحشيش في نفس تحب أهل التقوى في أصل فطرتها .

ويشبه مشوارنا إلى القرية كل مرة مشوار صاحبين متحابين أحدهما

راكب والثاني سائق . وحالي معه تذكرني بما كان يقوله لنا أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري : « اذا أردتم ان تنتفعوا بالعوام فلا تظهروا أن بينكم وبينهم فروقاً كثيرة ، بل أوهموهم أن الفرق قليل بينكم وبينهم لا يبلغ أكثر من درجه أو درجتين » . وسائقنا هذا أعامله على ذلك ، فيزيد في الدعاء لي ولأولادي، وأعامله ايضاً بما تستحقه قريحته وحافظته ويوازي حديثه واكثاره .

ليس لدينا إحصاء يركن اليه لمعرفة عدد المصريين اليوم في سورية ولبنان ، والمقيد عند قنصل مصر في بيروت نحو اربعة آلاف ، على ما كان حدثني بذلك القنصل صديقي محمد بك حامد فيما اذكر ، وأكثرهم يحترفون حرفاً دنيئة . وكان عدد المصريين قبل الاحتلال الانكليزي في الشام كثيراً جداً ، ادركت بقاياهم فكان منهم القراء والمغنون والآلاتية والسواس والسماسرة والمنجمون والمهرجون والطبالون والطباخون والحوذيون والفراشون . وكان جمهورهم يومئذ يهاجر في طلب الرزق ينشدونه من أقرب طرقه ، ويندر فيهم التجار . وتقل هجرة الطبقة العالية هجرة قطعية : وربما كان انقطاع الطبقة الراقية عن الهجرة من مصر منذ دخول القطرين تحت راية الدولة العثمانية . وكان الشاميون والمصريون على عهد المماليك سواء في الجنسية والتابعية . وكانت الجنسية يومئذ جنسية الاسلام الواسعة ، لا هذه الجنسية الضيقة التي نسجنا بها على منوال الغربيين . كان القاضي المصري يعين في الشام ، والشامي يقضي بين الناس في مصر . والعالم المصري يدرّس في مدارس دمشق وحلب والقدس كما يدرّس العالم الشامي في مدارس القاهرة ومدارس الصعيد والوجه البحري .

ولطالما تمنيت لو زاد امتزاج المصري بالشامي اكثر من الآن ، ليعرف احدهما الآخر معرفة اكيدة ، وفي هذا الامتزاج من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية ما لا ينكر محله ، وستزيد غداً الحاجة الى هذا التمازج بعد أن نمت نفوس مصر فزادت خمسة اضعاف ما كانت عليه قبل ستين سنة ،

وعشرة أضعاف ما كانت قبل مئة سنة ، حتى كادت تضيق بعض أرجائها بسكانها ، وهم يحتاجون إلى مرتزق ، وصناعاتهم تحتاج الى مصرف . وقد تم بعد تحسين الري كل شيء في الأعمال الزراعية او كاد ، وانشأت مصر لها صناعة كصناعات الحرير والصوف والكتان والسجاد والجلود وغيرها . واقرب الاقطار الى تصريفها الديار الشامية (فلسطين وسورية ولبنان) وهي تروج عندنا لعدة اعتبارات حتى ولو فاقتها الصناعات الغربية بمهاودة اسعارها وجمالها احياناً ، والنفاسة غالبة على ماتصنعه المعامل المصرية .

ان الحالة الاقتصادية ستضطر المصري في وقت قريب الى الخروج عن عزلته مهاجراً في طلب الرزق . وها اننا نرى بعض المتعلمين التعليم الابتدائي والوسط والعالي من المصريين متبطلين لا عمل لهم . ومع هذا نرى المصري كالفرنسي لبداً حتى اليوم لا يحب ان يغادر بلده ، لاعتقاده انها اجمل الاصقاع ، لا يهنأ له عيش في غيرها ، ويغلط بزعمه من يهاجر منها ويهجرها . وأعتقد ان اصحاب الصناعات الحرة في مصر اذا جربوا الهجرة الى الديار الشامية هجرة قطعية او مؤقتة سيحمدون غب هجرتهم . وافضل باديء بدء ان يكون المهاجرون من الطبقة الممتازة ، فان لهؤلاء في كل أمة وفي كل بلد سلطاناً على النفوس لا يكون مثله أبداً لأرباب الطبقات الأخرى . فقد رأينا ما كان من منافع القنصليات المصرية في بعض عواصم أوربا وأميركا وآسيا ومدنها المشهورة ، وان مصر لتنفق مئات الألوف من الجنيهات مسانهة على وكلائها وقناصلها فتجني بها من الفوائد المادية والمعنوية ما لا يعرفه الا من يحسن تقدير هذه الامور . وكما أن الامة يمثلها أبناء طبقاتها الراقية فكذلك كل أمة لا تعرف كما يجب إلا في ارضها وديارها

نريد أناساً من الطبقة العالية من اهل مصر يقيمون بيننا على الاقل أكثر ايام السنة ، او يهاجرون الينا مهاجرة قطعية ، يقتنون المزارع ، ويعمرون القصور والدور ، وينشئون المتاجر والمصانع والمخابر ، ويكون لهم من

الصفات التي تألف وتوءلف ، وشخص واحـد من أرباب القدوة الحسنة يوءثر مالا تؤثر الجماعة ان كانوا من اخلاط الزمر .

قلت للسيد عبد الرحمن الكواكبي (صاحب ام القرى وطبائع الاستبداد) هل في حلب من الرجال أمثالك كثير ، قال : عشرون رجلاً ، وقلت له : أني اعرف حلب كما اعرف ما في جيبي ، إنها لم تنبغ لعهدنا غيرك ، وما أظنني مهما فتشت في أعطافها وأطرافها أجد لك عدلاً في الشهباء ، فضحك ! والمصلحة تقضي علينا الآن ان يهاجر الينا العيار العالي من المصريين لينتفع منا وننتفع منه ، يكون من الطبقة الموقرة المحترمة كما كان ذاك المحامي المصري الذي أقام في طرابلس الشام وقص عليّ شوقي قصته .



التفتيش في الريف

كنت أعنى خلال تولي وزارة المعارف بتفتيش المدارس ، فأخرج لزيارة القريب والبعيد منها ، ومن المدارس ما كنت أزوره كل سنة مرتين ، وذلك لعدم الثقة بتقارير بعض المفتشين ، وقد ثبت أن منهم من كانوا لا يصدُقون فيما يكتبون في سير التعليم ، وسيرة المعلمين والمعلمات والمديرين والمديرات ، ومنهم من كان يكتب تقريره وهو لا يعرف المدارس التي في عمله ، ومنهم من يكتب مقترحاته في مدرسة قبل أن يزورها ، ومنهم من يسخر أحد العارفين بأن يكتب له شيئاً عن معارف عمله ، وكشفت ذلك في مفتش حلبي قضى نحو سنتين في عمالة حماة وحمص ، وكان مقيماً في حمص وهو لا يعرف مدارس حاضرتها فضلاً عن مدارس الريف ، فيتوسل الى أحد العارفين صديقي الدكتور صالح قنباز فيكتب له تقاريره .

أهم ما كان يزعجني في رحلات التفتيش مسألة المبيت في الأعمال النائية عن الحواضر ، فان أرباب النفوذ ومشايخ القرى يتنافسون في ضيافة الكبراء وليس من مصلحة الوزير ، ولا من شرف منصبه ، أن يبيت في بيوت الأهلين ، لئلا تكون عليه منة لأحد ، وتفادياً من أن يستغله المستغلون فيزيد على حسابه نفوذهم ، ويرهق الفلاح المسكين ، وليس هناك دور ضيافة أو فنادق مصغرة أو اناس يرضون بأخذ أجرة عن مبيت المرء وطعامه ومن القرى ما اذا أزمع بعض الأهلين أن يفتحوا بيوتهم لذلك يمنعهم صاحب النفوذ في القرية ، مشكلة ظاهرها اكرام القادمين ، وباطنها استغلال هذا الكرم لحساب بعض الشياطين . ولهذا كنت في حرج من المبيت في الأماكن التي لا فنادق فيها ، والفنادق لا توجد إلا في حواضر معينة . فاما أن أسير المئة والمئتين من الكيلومترات في السيارة حتى أبيت في بلدة

فيها فندق ، وإما أن اثقل على الأهالي أو أجلب سريراً أو سرراً وأنام في دار الحكومة مع رفاقي كما فعلت مرة في حسجة . وإما أن أقبل بالنزول على من لا أحب تناول طعامهم ، ولا النوم في فراشهم ولا ربط صلات معهم .

حدث لي مرة في دير الزور على الفرات أن أويت ومن معي إلى فندق متواضع ، فجاء رئيس البلدية يصيح لا يليق بالوزير أن ينزل في هذا المكان وشدد في أخذي وبالغ ، وأقسم الأيمان المغلظة حتى تركت الفندق إلى داره . وهناك دعا على العادة من أحب أن يدعوه ، فسلبت راحتي ، وتبرمت ببعض من لقيت ، وحجزت حريتي حتى اضطررت إلى الاستئذان للسفر قبل أن اتم مهمتي على ما احب . وفي الرحلة الثانية الى الدير نزلت في خان ، وأوقفت شرطياً على بابه ، وآخر على باب غرفتي يمنعان دخول أحد عليَّ ، فجاء رئيس البلدية نفسه ، وأهان الشرطيين حتى قرع عليَّ الباب فكلمته وأنا في الفراش متعب جداً بكلام جارح صرفته به عني ، فشكاني الى قائد الموقع الكولونيل غودز ، فقال لي هذا من الغد في معرض الكلام : كان دفع رئيس البلدية أمس عنك قاسياً ، ولِمَ أبيت قبول دعوته ؟ فقلت له : إنه أحرج صدري ، وحاول أخذي إلى داره بالقوة ، فما هـذا الاكرام البارد ؟ وأحب أن أقول لك الخطة التي سرت عليها طول حياتي وهي أني لا أزيد نفوذ الأعيان ، ولا أعمل على اسقاطهم ، إن نزول الوزير عند هذا الرجل وأمثاله يزيد نفوذه ، وربما حمل المصروف على الوزير عشرة أضعاف ما كلف ، وقيد على الأهالي الفقراء ، فكيف يليق بمن راتبه عظيم ، وحكومته تدفع له نفقات سفره ، أن يعجز الأهالي ويأكل طعاماً ثمنه من مال الفلاح المسكين ، فاستغرب الكولونيل هـذا الكلام ولشاغلنا بحديث آخر .

وهناك مشاكل في النزول على الفلاحين لا يدركها إلا المجرّب . فان الفلاح إذا أكل عنده صاحب مظهر يقوم في ذهنه أن له أن يعجزه بالدقيق

والجليل من مشاكله مدى العمر ، ومشاكل الناس لا تنتهي ، فكيف يلزم الرجل الذي تناول طعام مضيفه مرة ، وبات عنده ليلة ، أن يكون صاحبه ومحاميه على الأيام . أكلة واحدة تقع على من اصابها غالية جداً لا ينجو من متاعبها ، ولو أطعم صاحبه عشر وجبات ، وأهداه ما يوازي عشرة أضعاف ما صرف . والفلاح يظن لقلة معرفته أن ذلك الضيف العزيز صار بحكم هذا الخبز والملح من جماعته ، وفي وسعه أن يعمل له كل شيء ، ومن واجبه أن يعاونه في الحق والباطل .

وعلى هذا فالرحلة لا تطيب في القاصية إلا إذا صار لكل قرية كبيرة فندق ، أو رضي وجيه القرية أن يتناول أجرة ضيافته . ثم إنا رأينا من أفرطوا في إكرام الضيوف في الريف ، وألزموا بالجري على هذه الطريقة أمسوا بعد مدة فقراء . والزام الكريم نفسه اكرام من يعرف ومن لا يعرف يزيد في نفقاته الى ما لا تحمله حالته فيفلس .



سياستي مع المنتدبين

قامت سياستي مع المنتدبين على الصراحة التي لا أستطيع الخروج منها ولو حاولته ، وعلى صدق العمل وصدق القول ، فكانوا أحياناً يعجبون بما يسمعون مني ، ويصدقونني كما اصدقهم على الأغلب ، ويبالغون باحترامي ورفع مقامي .

جرت بيني وبين المسيو روبردي كه أمين السر العام في المفوضية العليا محادثات ومحاورات اقتضاها وجودي في الخدمة . وكان كثيراً ما يذكر مالي من صراحة ، ويصارحني بأشياء ما أظن يصارح بها كثيرين . ويخاطبني اذا خلونا بأنفسنا بدون ألقاب وبصيغة المفرد ، مخاطبة الصديق صديقه . وكان قبل أن يتولى منصبه صحافياً . وقلت له مرة ان الصحافة توصل إلى كل شيء ، فقال : هذه كلمتي وانا ابو عذرها .

وزارني مرة في المجمع العلمي وغبطني على اقامتي ، وقال لي إنه يتمنى أن يكون مثلي في دائرة صغيرة كدائرتي يتوفر على اصلاحها ، ولا تحب نفسه القيام بأمور لم يخلق لها ، وإن عدّت في العرف كبيرة . وكان وقف له على باب المجمع موقف التعظيم ثلاثة من رجال الشرطة ، يحيونه بصفته وكيل المفوض السامي فقال : لا أحب هذه المظاهر ، وما خُلقت لهذه القيود المتعبة ، وسألني مرة لماذا لا ترشح نفسك عضواً للمجلس النيابي ؟ فاني بما أعرف من محبة الأهالي لك ، ينتخبونك للنيابة عنهم ، فقلت له : إني احب تقسيم الأعمال ، وأعتقد النجاح فيه ، فأنا أستطيع أن أدير شؤون المعارف وأرأس المجمع العلمي ، ودخولي في النيابة يخرجني عن خطتي واختصاصي ، وأرى غيري أحق مني بأن يتولى النيابة عن الأمة ، وإذا تعرضت لتوليها تكثر عليّ الأعمال فيبدو ضعفي فيها . فقال : أحسنت

إن من اعتاد مثلك ممارسة القضايا العلمية المقررة يصعب عليه أن يكون بوقاً لغيره ، كأن يرسله حزبه ليدافع عنه في مسألة هو في باطنه يعتقد بطلانها ، فنعما عملت بزهدك في النيابة .

ولما انفصل عن منصبه في سورية ، وأصبح عضواً عن دولته أمام جمعية الأمم الدفاع عن الانتداب في سورية ولبنان ، كان كل سنة يعود إلى ديارنا ليتزود بالمعلومات الجديدة لتقريره السنوي عن الانتداب ، ويقبض الجعل المقرر (مئة ألف فرنك) ، وكان يطلب مني كل مرة أن يتحدث إلي فأذكر له ما كان الأهالي يشكون منه ، ونتكلم بحرية ، كلام اثنين يهمهما نجاح أمر البلاد .

وجاء في بعض السنين يطلب مني الاجتماع به كالعادة فخففت إليه ، وكانت سورية تغلي كالمرجل والاهلون على أحر من الجمر من التسويف في حل قضيتهم ، وقد سئمت تبدل أوضاع الحكم على غير جدوى ، وأشرف الساحل والداخل على الافلاس لما منيا به من بلية التقسيم ، ونكبة النقد المتزلزل الأسعار ، وبما نصب في الحدود من الحواجز الجمركية . وأحببت التوسع في القول مع صاحبي لعلمي بسعة صدره وسعة علمه ، وقلت عسى أن ينقل كلامي إلى من يهمهم الأمر ، فيكون منه بعض النفع لهم ولأمتي خصوصاً وهو يعرف إخلاصي لهم وحبي لمدنيتهم ، وأني لا أغش ولا اخادع وقلت له مرة : مهما أحببتكم فاني أحب هذه الديار أكثر منكم ، وبلادي ومصلحة بلادي أولاً ثم أنتم ومصلحتكم . وقال لي مرة : إن ما أتته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي لا تستطيع أن تأتي مثله في سورية على هــــذا العهد .

ولتسأل عن تلك الجلسة ، وما دار فيها من الابحاث الخطيرة وما بدر على لساني من آراء قد تضر بمصالحي المادية ، كما قال لي أحد الأصدقاء لما أطلعته على طرف مما دار بيني وبين السيد دي كيه ، ومما قلته له : لا ينجيكم من النقمة ، ولا ينجي أرضنا من هذا الخراب السائرة إليه ،

إلا ربط لبنان بسورية ربط اتحاد أو وحدة ، فالساحل يكمل الداخل وكلاهما لا يعيش وحده ، ونحن لسنا متعصبين على ما يصورنا بعض رجال لبنان ، ونحب أن نعيش مع اللبنانيين كما عشنا معهم أجيالاً على قاعدة الحكم الذاتي ، وإذا تعذر عليكم ذلك ، فتنجون من القيل والقال باعادة لبنان إلى ما كان عليه من الحدود في العهد العثماني ، ولعيدون إلى سورية الأصقاع التي ما كانت تعد من لبنان وانتم وسعتم حدوده بضمكم إليه أقضية لا يحب اهلها أن يدخلوا فيه مثل صيدا وصور ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك والحصن وعكار وطرابلس. وطرابلس هذه منفذ سورية الطبيعي الى البحر ، وأهلها من قد رأيتم في المطالبة بالانضمام الى حكومة دمشق . وإذا تم الاتحاد أو الوحدة فتبقى بيروت وشأنها إن لم تحب الدخول معنا . فقال إن طرابلس والحصن وعكار هي أرض لبنانية منذ القديم ، ولا سبيل إلى ضمها إلى سورية . فقلت له : انها ما كانت في دور من أدوار التاريخ معدودة من لبنان ، وما هي إلا قسم من سورية ، وهي سورية جغرافياً وطوبوغرافياً وادارياً . فقال انها ضمت الى لبنان ، منذ اثنتي عشرة سنة فمن ينزعها منه ؟ فقلت له : ينزعها الذي ابتدعها أول مرة وضمها إلى لبنان بجرة قلم ، وما عليه الا أن يجري عليها قلمه مرة أخرى ، فاصفر وجهه لما سمع مني هذا وتأفف وعبس ، وأظهر تململاً ما أولته إلا أنه يود قطع الحديث والاكتفاء بما قلت ، وأن اعجل بالخروج من عنده ، لأن في الباب أناساً يرى أن يستقبلهم ايضاً ، والوقت قصير ، وهو يكتفي مني بما قلت . وغادرت غرفته بعد دقائق وهو أشد ما يكون ضجراً من مجلسي فودعني وداعاً بارداً ما لعودته منه في الأيام الماضية .

وعاد في السنة التالية ، وكأنه ادرك ما بدر منه في العام الماضي ، وأني ربما كنت متأثراً من معاملته لي على ما بيننا من صداقة . فتوسط للاجتماع به صديقي المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا ، وهذا كتب الى المسيو كوله مستشار معارف سورية فأبلغني صديقي هذا رجاء المسيو

بونور بالاجتماع الى المسيو روبر دي كيه ، وقوله إني من اصدقائه ، فقلت له : تفضل وأبلغ المسيو بونور أني ولا شك صديق المسيو دي كيه كما قال، ولكن امتي صديقتي أكثر منه ، رأيته في السنة الفائتة قد استثقل كلامي ، وود لو أقطع سلسلة حديث كنت أراه نافعاً لانقاذ سورية من محنتها ، إنك ياصاح تعرف حق المعرفة أني من أنصار الوحدة السورية ، وقد كتبت هذا في بعض كتبي الأخيرة ، وقلته جهرة ودعوت إليه في الملأ ، وما خفت ولا جبنت من التصريح في كل فرصة وفي كل مجلس بهذا الرأي ، ولما ذكرت له الوحدة في آخر جلسة لي معه امتعض من قولي وتبرم به وتمنى لو وجد سبيلاً ليخرجني من غرفته قبل أن أنجز حديثي الذي طلبه مني ، وتجاهل أن من طبعي ألا أقول إلا ما أعرف لا انافق ، لذلك عزمت ألا ألقاه بعدها . أما تقريره السنوي فيضعه ويعرضه على جمعية الأمم اجتمع بي أم لم يجتمع ، ما دام عنده مثل صاحبه (فلان) يعتمد عليه ويحبه ، وربما كان في نظره أعظم رجل في سورية ، ومن كان عنده مثل هذا الصديق المتفاني في حبكم لا يحتاج كثيراً إلى مثلي . وأبيت ان أجتمع به ، وانقطع هو في السنين التالية عن طلب الاجتماع ، وحرمني قول الحق صداقة عظيم مثله . قبح الله السياسة .

زار دمشق السيد برونه أحد نواب فرنسا وابن عم صديقي المستشرق أرتوركي ، يحمل لي سلاماً من صهره وقد طلب إليه يوم يوافي دمشق أن يجتمع إليّ ويخبره بحالي وصحتي وصحة أولادي ، وكان يعرف بعضهم وهم صغار ، فاجتمعنا ساعة ، وتذاكرنا في امور كثيرة ، ومما قلته له إن (ش) (أحد كبار موظفيهم عندنا) قد ترك المجال لزوجته لتستلم هدايا المهدين ، حتى صار لها من الحلي والجواهر ما لو عزمت أن تضعه على أطرافها دفعة واحدة ما استطاعت أن تنهض به لكثرته ، وعندكم رجال أفضل من هذه الطبقة التي تبعثون بها إلينا ، فهلا رميتم غيرنا بجماعة المستعمرات

وخصصتمونا برجال يأتون من طريق فرنسا لا من طريق مستعمراتكم ، وما هي إلا أيام حتى نقل المشكو منه إلى مقاطعة اخرى وبقي فيها سنين ، وبقيت زوجته بالطبع على طبيعتها ، تستهدي الجوهرات وغيرها ، وباسم الله وما شاء الله .

وأعاضونا عن هذا العامل بعامل مثله أو أحط منه (ف) وكان هذا أسرق من فأر الحبس ، وذا نفس وضيعة ، حتى رضي أن يدفع عنه رئيس الدولة اجور مبيته وثمن طعامه في الفندق أعواماً . هـذا ودولته لتعطيه راتباً جيداً يمكن أن يعيش به عيشة راضية ويقتصد منه لمستقبله . وقلت لأحد أصحابي منهم إن وجود مثل هذا الموظف عار وشنار ، إنه لا يمثل نفسه ، بل يمثل دولة عظيمة ، فكيف يليق أن يسفّ هذا الاسفاف . وما أقيل هذا العامل إلا بعد مدة طويلة ، ومن غريب الاتفاق أن معظم أهل الاستقامة من عمالهم لم يمكثوا في ربوعنا طويلاً ليراعوا المصلحتين مصلحة أمتهم ومصلحتنا ، وكان من كثير من المنحطين بأخلاقهم أن قضوا معظم خدمتهم عندنا ، وحرمنا طبقة مختارة متمرنة على ادارة الشؤون .

زار دمشق نائب باريز المسيو سوليه ، وفي السنة التالية زرت باريز فأتى إلى الفندق يزورني واقترح عليّ أن أزور المسيو بيرار وزير معارف فرنسا ، قائلاً إن من باب اللياقة أن يزور وزير معارف سورية وزير معارف فرنسا ، فأجبت مقترحه ، وضرب لنا الوزير موعداً ، فزرته في مكتبه الرسمي ، وتحدثنا في أحوال سورية ، ومما سألنيه : هل أنتم تتكلمون بالسريانية هناك ؟ فقلت له : كنا نتكلم بها من نحو ألفي سنة واليوم نتكلم بالعربية ، ولم يبق من مواطنينا من يتكلم بسريانية محرفة إلا ثلاث قرى في شمالي دمشق ، فتعجب من ذلك ، وقال : ما هكذا قرأنا في صبانا . فقلت له : الظاهر أن الكتب التي اعتمدتم عليها كانت من طبعات قديمة صححت أغلاطها في الطبعات الحديثة ! وسألني إذا كنا كلنا نصارى ، فأجبته :

فينا النصارى وفينا المسلمون ، والسواد الأعظم من أهل الاسلام ، والمذاهب كثيرة عندنا لا تقل عن عشرين مذهباً ، فقال : وهذا لم أكن أعرفه . فقلت له : ربما كانت معلوماتكم مأخوذة عن مصادر قديمة غير موثوق بها .

وانصرفت من عنده متعجباً — وأظن النائب سوليه كان يعجب أيضاً — من أن يكون وزير المعارف ، في أرض العلم والمعارف ، في هذه الدرجة من المعارف . وقلت في سرّي كم رفعت السياسة اناساً إلى الرتب العليا وهم في حقيقتهم غير أهل لهـا .

عرف القارئ العزيز مبلغ وزير معارف فرنسا من العلم ، ومع انه ليس بالكاتب ولا بالشاعر ولا بالأديب ، ولا ألّف حياته كتاباً ، ولا نمّق خطاباً ، انتخب عضواً في المجمع العلمي الباريزي ، والاسباب الموجبة التي أوردوها لتشريفه هذا أنه كان تذرع أيام وزارته باعادة الثقافة القديمة Les humanités إلى المدارس الثانوية ، أي أن يعود الفرنسيون إلى درس اللاتينية واليونانية يصرفون فيهما أعواماً طويلة ، فما وافق مجلس النواب على هـذا الاقتراح القليل الثمرة ، الكثير العنت والتعب ، وهو مشروع يؤخر فرنسا خمساً وسبعين سنة إلى الوراء كما قالت مجلة (الأخبار الادبية) Les Nouvelles littéraires وقال المجمع الذي ضمه إليه : إن مجرد تشبث السيد بيرار بفكرة الثقافة القديمة كاف لأن يؤهله لعضوية الأكاديميا ، قلت لما قرأت هذا : ولا عجب فالمجمع العلمي في باريز يعيش في العصر العشرين بعقلية ابن العصر السابع عشر يوم أنشأه منشئوه .

قلت لأحد رجال الانتداب : إني يا صاح مصرح لك بما يصعب على المتطرفين هنا أن يصرحوا به من أعمال دولتكم في ربوعنا ، وفي الخلائق من يقلبون أعيان الحقائق إذا غضبوا على شخص أو جماعة ، أو اختلفوا وإياه في مسألة أو مسائل . وأنا جدّ عارف بما كانت ديارنا عليه في العهد التركي ، وما صارت اليه في عهد الانتداب . إنكم وطدتم الأمن ، ونظمتم

الدرك بنظامكم البديع ، حتى صار خيراً كله ، وكان على عهد العثمانيين شراً كله وأنقذتم الفلاح من السخرة التى عاش فيها زماناً ووقيتموه من ظلم المستبدين ما أمكن ، حتى ليقاضي أصغر فلاح أعظم وجيه ، وتحكم المحكمة على هذا إن كان مبطلاً ، ويصل الفلاح الضعيف الى حقه . ولقد خففتم عنه الضرائب ، ونظرتم في صحته فأقمتم له المستشفيات والمستوصفات يطب فيها مجاناً . وكوفحت الملاريا والأمراض الوافدة ، وجففتم بعض المياه الراكدة والمجاري الضارة ، وعبدتم من الطرق مئات من الكيلومترات ، حتى سهل السفر من أقصى حدود مملكتنا الى أقصاها ، وتيسر التنقل في الأودية والسهول والحزون والجبال ، وعمرتم خزان حمص وجسر الفرات وعشرات من المعابر والجسور ، ربطت الأطراف بعضها إلى بعض ، وأنشأتم مدارس كثيرة ، ونشرتم التعليم بقدر ما ساعدت الحال ، وشيدتم بعض دور الحكومة وأنشأتم غير ذلك من المصانع ، وأصلحتم الادارة والقضاء ، إلى آخر ما قمتم به من الأعمال النافعة ، وهي في نظري عظيمة إذا قيست بالخراب الذي كان عليه هذا القطر في العصر العثماني .

ولكن قل لي بأبيك ماذا عملتم للزراعة حياة هذه الأرض ومورد ثروتها الوحيد ؟ فصمت قليلاً وقال : لا شيء ، وملاحظتك في محلها . فقلت له : وهذا أغتفره أيضاً واعتذر عنكم عذراً مقبولاً ، وأظن عذركم قلة المال وامتناع الشركات عن توظيف أموالها في اصقاع لم تستقر حتى الآن حالتها السياسية ، وذلك عملاً أيضاً برأي المسيو آشار مستشار الزراعة ، ومن رأيه أن الزراعة الصغيرة أنفع لسورية والسوريين من الزراعات الكبيرة ، وكان يفضل أن يشتغل الأهالي وحدهم ، ولو على صورة يبدو الضعف عليها بادي بدء ، على أن تكون زراعتهم وصناعاتهم الزراعية في أيدي شركات تستثمر كل شيء لنفسها .

قلت له : إني أغضي عن هذا التقصير أيضاً وما زلت أقول إن كل شيء صدر منكم يمكن الجواب عليه ولو جواباً ضعيفاً ، وأمر واحد لا يجاب

عليه وسياستكم اقتضته ، وقد أضر بنا كثيراً ، وأعني به تقسيم سورية إلى دول ، وانتم ترونها إذا أنصفتم لا يتألف منها مع فلسطين وشرقي الأردن أكثر من دولة صغيرة ، وقد حركتم عرق الطائفية في النفوس فأذكيتم جذوة التعصب الديني بين أبناء الوطن ، فزادوا تباغضاً وهم أحوج ما يكونون إلى أن يتحابوا ، وزدتموهم تباعداً عن السواد الأعظم من السكان ، ومصلحتهم في التقارب والتفاهم واعتمدتم على غير المسلمين في دواوينكم فبرهنتم على تحزب لا ينطبق مع الاصول التي عرفت عنكم .

كنت في دعوة رئيس الوزراء ، وكان الى جانبي الكولونيل ترا كول مدير استخبارات الشرق ، فأردت أن أفتح معه حديثاً ، فسألته عن سير الثورة في فلسطين (الثورة التي نشبت قبل الثورة الاخيرة) فقال لي : لا شيء ، فقلت له : إن جيشاً منظماً يقضي بالطبيعة على ثورة يقوم بها شعب أعزل في أيام قليلة ، فقال : أنتم ماذا تعملون هنا ؟ فقلت له لا بد أنك شاهد ما نصنع قال : أتحب أن اصدقك ؟ لو كنت مكانكم أمس وجاء هؤلاء المتظاهرون الى دار الحكومة يهتفون لاستقلال فلسطين ، لأخذت منهم عشرين رجلاً وصلبتهم . فقلت له : ولماذا تقتلهم وهم طالبوا مطالبة سلمية فقط ؟ فأطل عليهم رئيس الوزراء من الشرفة وحياهم وقال لهم : سأسعى لمعاونتكم على طلبكم . فماذا حدث من ضرر في ذلك ؟ ثم إنا لسنا هنا كجمال باشا في عهد الحرب العامة جئنا لنقتل الخلق فمن يستحق القتل يقتله القانون ، فقال : أقول لك الحق ، المسلمون بهائم . فاضطربت لهذا النعت الذي نعت به المسلمين . وأحببت أن أضعف له تهوره هذا ، فقلت له : أظنك تعني مسلمي فلسطين . قال : لا جميع المسلمين بهائم Tous les musulmans sont bêtes فزاد غضبي وقرأه في وجهي ، فأحب أن يسترضيني ، وكان أمامه كأس من الشمبانيا تناوله وقدمه الي فامتنعت من أخذه وقلت له : أظنك نسيت أني مسلم ومسلم قائم بما فرض الاسلام علي ، وهذا الخمر محظور في ديني ، فسكت وسكت .

ولما انتهى المدعوون من طعامهم وانصرفوا ، ذكرت لرئيس الوزراء ما فاه به مدير الاستخبارات ، وكان الرئيس يحاذر منه ، لأنه يريد به الشر ويبغضه ، وقلت له : هذا ما وقع ، فالرجل اذا لم يحضر غداً الى مكتبي ويعتذر مني ومن الحكومة رسمياً عما جرحني وجرح امتي به بهذا الكلام الجاف ، فأنا مستقيل بعد غدٍ من الوزارة فأصبح من أفراد الامة ، وأنشر هذه القضية في الملاء في نشرتين بالعربية والفرنسية . ومما قلته إن حكم هذا الرجل حكمه الجائر على أمة عظيمة لا أرضى مثله أن يقوله لي ، فالمسلمون فيهم رجال كالاوروبيين بعلمهم واخلاقهم ، وأي سخافة أن يحكم على ثلاثمائة مليون من الشعوب المختلفة حكمه هذا . أنا إذا قلت المسلمين أنتم بهائم قد يقبلون مني اعظم من قولي لصدوره عن حب لهم يراد به حضهم على الأخذ بأسباب الترقي ، أما ان اسمعها من فم تراكول فلا .

فأبلغ رئيس الوزراء ما جرى وما قلت ، وعرف كيف يستغل الحادث فجاء مستشار الداخليـة المسيو فوكنو من الغد إلى غرفة رئيس الوزراء ودعاني فسألني المستشار عن القصة ، فقصصتها عليه كما وقعت فقال المستشار : اما كان تراكول سكران ؟ فقلت له : لا . وبعد انصراف المستشار تقدمت إلى رئيس الوزارة وقلت له : استرحت من تراكول ، فهو سينحى . فاستبعد ذلك وقلت له : سترى ، وما مضى عشرون يوماً حتى عين الكولونيل الذي ازعجني بكلامه السخيف قائداً على فرقة في الجزيرة ، فجاء يودع رجال الحكومة ، وودعني في الجملة ، فلما صار في الباب قال لي وزير المالية السيد توفيق شامية إنه يحبك كثيراً . قلت : هو فانٍ في حبي وانا ايضاً فانٍ في حبه ، وكانت تنحية تراكول بفضل المسيو بونسو المفوض السامي وكان من اعقل من تولوا هذا المنصب في عهد الانتداب .

ضقت ذرعاً بمستشار المعارف المسيو راجي ، وكان يتدخل في كل الأمور ، اعتاد ذلك من أيام سلفي وزير المعارف السابق الذي هان عليه أن يكون بيد المستشار كالميت بيد الغاسل . فكان راجي يفاوض المدارس

مباشرة ، ويراسل ارباب المعامل في فرنسا ليبتـاع منها للوزارة الادوات والآلات والكتب والورق وغير ذلك ، ومن اهم ما افتضح به امره تدخله في اضراب طلبة الجامعة عندما اردت انقاص موازنتها لأخذ الزائد لانشاء مدارس في القرى ، وهو الذي أهاجهم فهاجوا ، ثم دعاهم الى السكون فسكنوا . فكتبت كتاباً خاصاً الى المسيو بونسو المفوض السامي ، أذكر هذه المسائل ، واقول إن مثل هذا الرجل يضر بسمعة دولته ، وأنتم إنما جئتمونا لترشدونا وتعلمونا ، ومصلحتكم تقوم بمستشارين ينفعون ولا يضرون .
وافتتحت الكتاب (٢٨ كانون الاول ١٩٢٩) بما تعريبه : تفضلوا فاسمحوا ان ألفت نظركم العالي الى امر يهم فرنسا ويهم سورية على السواء وان أعرب لكم عن رغبتي الصادقة في ان ارى العلائق منسجمة كل الانسجام بين الدولة المنتدبة وحكومة بلادي ، وتقوم علائق الود بين البلدين بعدة امور لا اذكر الا واحداً منها واعني به نشر الثقافة الفرنسية والسورية ولا تنتج هذه النتيجة الحسنة الا اذا كان من يمثل هذه الثقافة الفرنسية العليا في سورية متحلياً بصفات عالية وعلى سيرة حسنة ذلك لان بيده احياء العلم الفرنسي والعمل على الجمع بين الامتين بجامعة الفكر والثقافة . وليت شعري هل يقوم من عهد اليه القيام بهذه المهمة بامانة واخلاص . اما انا فأشك في امره كثيراً . ان سلوك مستشار المعارف خلال السنين الاخيرة يدعو السوريين الى الشك في حسن نية الدولة المنتدبة فهو لا يضرّ بسورية فقط بل يتناول ضرره الى اسوأ من ذلك هو يسود اسم الفرنسي في سورية واليكم باختصار ما قدمت يداه . وهنا اوردت عشر مسائل اساء فيها المستشار الاستعمال فثبت عليه بالتحقيق سوء عمله ولما ارسلت الكتاب في البريد اخذت مسودته وتلوت ترجمتها على رئيس الوزراء فقال : ولماذا لم تفاتحني بالامر قبل ان قمت بما قمت به ؟ فقلت له : لأني تألمت نفسي لما أهاج رئيس الجامعة بالاتفاق مع المستشار جمهور الطلبة احتجاجاً علي ، فحاولت ان اكتب في الصحف حقيقة المسألة ، او ان ادلي بحديث لاحد محرريها ،

فأبيت علي ذلك ، ورأيت انك عاونت مدير الجامعة اكثر مما عاونتني ، وانت تعرف اني على حق وهو مبطل ، فوقع في نفسي ان اشكو المستشار مباشرة ثم اعرض عليك ما تم ، فقال : اما والامر كذلك فلا يسعني إلا ان امشي معك ، ولعله كان يعرف ان المستشار يعمل مع السيد جميل مردم بك ، بواسطة ترجمانه ، على إقالة الوزارة ليتولى الحكم ، فرأى ذلك خير وسيلة للخلاص منه .

وكان من اثر كتابي للمفوض السامي ان وقع التحقيق عن المستشار فثبتت صحة اقوالي فيه ، واقيل من منصبه بعد نحو عشرة ايام . وكان ذلك بفضل المسيو بونسو . ولم يعهد فيما علمت ان اقيل مستشار في سورية ولبنان في عهد الانتداب من اجل خلاف مع وزير . وربما كان كل من تولوا الوزارات الى عريكة مني فسددوا وقاربوا واتفقوا مع مستشاريهم ، ولو كان الاتفاق على مضض ، وأنا غالبت مستشاري فغلبته ، ولجأت الى الطرق القانونية في شكواي منه ، وذلك بعد ان اغضبني مرات واغضبته ، وهذا أيضاً من فضل المسيو بونسو العاقل الذي لا يفر ممن يكلمه بالمعقول .

جاءني المسيو راجي مستشار المعارف بموازنة الجامعة السورية ، وكان من اعظم المنتدبين عطفاً عليها وعلى رئيسها للصداقة بينهما . وكان هذا يهديه في كل فرصة هدية عظيمة يستديم بها صداقته وحمايته للجامعة — ورجاني أن اصادق عليها بسرعة فألقيتها في القمطر ، وجاء بعد يومين يطلبها ، فقلت له : إني لم انظر فيها ، وبعد تسويف ما طال اكثر من اسبوعين ، وهو يراجعني بالحاح ، مللت منه فنظرت فيها فاذا هي تحمل في مطاويها اسرافاً عظيماً ما توقعت ان ارى غيره ، وفي الامكان أن يقتصد منه خمسة وسبعون الف ليرة ولما عدت واجتمعت بالمستشار قلت هذه الميزانية عمل اخرق والاسراف فيها ظاهر فقال : أنا الذي نظمتها ، فقلت : ولو كنت أنت ، فغضب وأظنني في ذلك اليوم قلت له : أرى أنك لم تطلع على ترجمة حياتي : فقال : وكيف لا . قلت : إني على ثقة أنك لا تعرف دقائقها . اعرف ياصاح أني مازلت منذ

خرجت الى معترك الحياة احارب الظالمين والمرتشين والسارقين من الموظفين ، وقد كتبت ذلك في كتبي وفي الجرائد والمجلات التي حررتها أو آزرت بها ، ودعوت الى اسقاطهم جهرة في المجالس والمجتمعات ، وتحملت في سبيل دعوتي كل اذى وأقيمت علي القضايا ، وابتليت باشد البلايا ، وليس من نيتي الآن أن اناقض نفسي ، فأعمـل في آخر أيامي ما يخالف ما عملته ودعوت اليه في أولها ووسطها . ليس عندي صندوق أدفع منه الهدايا لمن أحاول استمالة قلبه ، أنا صحيفتي بيضاء ، وجبيني ناصع ، وأجري على بصيرة ، ولا أخاف أحداً إلا ضميري . فلما ذكرت لفظة (الهدايا) احمرت اذنه الواحدة ، حتى صار لونها احمر ادكن ، وأخذت تضطرب كرقاص الساعة . فتركني بدون ان يسلم عليّ وخرج مغاضباً ، وراح من ساعته يشكوني الى حاميه المندوب . ومن الغد كلم المندوب رئيس الوزراء ، ونقل له ما قلته للمستشار ، فقال : إنه لم يبلغه ما جرى ، وماذا يقول لي وانا ثقافتي افرنسية وعن الفرنسيين أخذت . فقال له المندوب : صحيح هذا ، وانا اجتمعت معه مرتين ، فرأيته حسن المأتى ، لطيف العشرة ، وما عرفت السر في ان يبْدَه المستشار بمثل هذا الكلام القاسي . فقال الرئيس لا بد ان يكون المستشار فاه باشياء اغضبت الوزير ، فأجابه هذا الجواب ، وانتهى الأمر عند هـــذا الحد ، وما صادقت على الموازنة او ترفع منها الزوائد ، فاضطر رئيس الوزراء لاقرارها حسماً للنزاع وارضاء المندوب ، ولأنه لا يحب ان يغضبه من اجل مبلغ زائد في ميزانية الجامعة .

وكثيراً ما كنت اطرح في القمطر اوراقاً يبغي المستشار ان ابادر للمصادقة عليها ، لعلمي بأن فيها اشياء لا يرتاح لاقرارها قلبي ، وتنطوي على اسرار صعب كشف غامضها . واذكر اني حققت مرة سيرة إحدى معلمات دمشق فثبت لي ان في سلوكها بعض العهدة ، واحببت نقلها إلى مكان قريب ، فراحت إلى وكيل المندوب وترضته فكلم رئيس الوزراء بشأنها ، فرجاني هذا ان اصرف النظر عن ابعادها ، كما التمس مني المستشار ذلك واكثر

عليّ الشفاعة بها ، فضجرت وخرجت عن اعتدالي وقلت له : ابلغ سعادة وكيل المندوب ان وزارتهم لا تساوي في نظري شيئاً ، كيف تحمون معلمة ثبت بتحقيقات الشرطة وغيرها انها سيئة السيرة ، وتردون كلام وزير احب ان يطفيء مسألة قذرة بأبعاد المعلمة عن المركز ، وكان الواجب طردها من سلك التعليم بدون توقف ، واكدت عليه ان ينقل كلامي هذا إلى الوكيل ، وفهم اني فهمت ما جرى ،

ومثل هذه المسائل كانت توافي كل الألم ولطالما هممت بالاستقالة لولا ان كان يحول دون امضاء ما ارغب فيه صديقاي الاستاذان مصطفى تمر وشفيق جبري ، وكانا من اعظم رجال الوزارة ويدي اليمنى فيها ، فأرجع عما قصدت حباً بالمصلحة ، وكان الخير في هذا التصبر والصبر ، لأن المستشار اقيل بعد مدة ، وتفرغت للعمل على ما احب بدون عائق حتى آخر ايام الوزارة .

المشهور عن الفرنسيين انهم كالمصريين اضعف الامم في معرفة الجغرافيا ، وقد لا يحسن المتعلم منهم جغرافية بلاده دع غيرها . وكثيراً ما وقع لي ان تحدثت في فرنسا إلى بعض اهل الطبقة المتوسطة فكانوا يستغربون ما اقصه عليهم من أحوال الديار الشامية ولا يعرفون اين هي من معمورات البلدان ، وكنت اراهم اجهل ناس بأمم الشرق عامة والمسلمين خاصة ، ورأيت بعض المنورين منهم في عهد الانتداب في الشام حاولوا في دائرة اختصاصهم ان يدرسوا ، فأتى بعضهم بنتائج حسنة ، ودونوا كتباً من ذلك في الآثار والاقتصاد والعاديّات ، تألفت منها مجموعة والتعمق في مدوناتهم يقل ، ويفوقهم الانكليز السكسونيون في ذلك

كان بعض من ألقاهم في السفر والحضر إذا سألوني عن أشياء وأخبرتهم بما أعلم ، يظنون أني اتزود فيما أروي ، وأستملي من خيالي معظم أقوالي ورأيت بعض الاوربيين يعتقدون أننا سود البشرة كالزنوج — والاتراك لفرط ادبهم يطلقون على الكلب الاسود اسم (عرب) لأنه أسود كالعربي

بزعمهم — ومن الغربيين من يعتقد أن أهل سورية يأكلون البشر ، ومن يرتحل منهم إلى سورية يعدونه كالذاهب إلى أرض واق الواق ، فاذا عاد إلى أهله سالماً هنأه أصحابه تهنئة من دخل منطقة الخطر وخرج سالماً .

كنت مرة في لوزان نازلاً في منزل كان فيه معي سيدات وسادة من ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، فجرّ الحديث على المائدة إلى الكلام على الاسلام ، وأوردوا عليّ المطاعن التي وجهت إليه ، فكنت افندهـا ولا سيما مسائل الزواج وتعدد الزوجات وابين فيها حقيقة الدين ، واترجم لهم بعض آيات الكتاب العزيز ، وأورد لهم شواهد من التاريخ والاحوال الحاضرة ، فيعجبون من هذا التباين بين ما يسمعونه مني وما يروونه عن غيري . ودام هذا الحوار عدة ليالٍ ، فكان معارفي هؤلاء يستغربون أقوالي ، ويتلطفون فيقولون إنهم لا يشكون في صدقي ، فمن أين جاء هذا التناقض إذاً ؟ فكنت أقول لهم إن ما قرأتموه هو مما كتبه رهبان العصور الوسطى ، وما زلتم تتناقلونه إلى اليوم حقائق مسلمة ، وما هو إلا مما أملاه التعصب الذميم ، ومن مصلحة الرهبان ألا يقولوا غير هـذا ، وألا يشيعوا غير سوء القالة عن الاسلام والمسلمين . وبهـذا علمت علم اليقين أنه رسمت للاسلام وأهله صورة قبيحة جداً في قلب كل غربي ، وأن العرب والمسلمين عامة مقصرون في هذا الباب ، وكان عليهم أن يعمدوا إلى التعريف بأنفسهم وبدينهم وتاريخهم ، كما تفعل أصغر الأمم شأناً . وكثيراً ما اشتهيت لو انشئت مجلة باللغة الفرنسية والانكليزية ، تبين حقائق الاسلام والعرب ، ولتصحح ما جاء ويجيء في الكتب الافرنجية من الأغلاط ، وما يتسرب كل يوم من الهفوات الفاحشة إلى ما ينشر في الصحف والمجلات .

وقد انتبه إلى ذلك حكيم عظيم من حكماء فرنسا هو غستاف لبون فارتأى أن يعاد النظر في كل ما يدرس من مادة التاريخ في مدارس فرنسا ، ولا سيما تاريخ العرب والاسلام ، حتى لا يتعلم أبناؤها تاريخاً محرفاً مكذوباً

وقال مرة : إن مدنية فرنسا مدينة بأمور كثيرة للعرب وأن الفرنسيين لا يشيرون إلى ذلك إذ يعد بعضهم الاعتراف به مما يتنافى مع حب الوطن والوطنية .

كانت الكتلة الوطنية ، في آخر ايام وزارتي الاخيرة ، كثيراً ما تهيج الطلبة وتحملهم على الاضراب والاستخفاف بالمدارس وقوانينها واساتذتها ومديريها ، فكنت انصح سراً لبعض اصحابي منهم ، وارجوهم ان يتركوا الطلبة في دروسهم حتى لا يشتغلوا بما يصدهم عنها ، فيخسرون انفسهم ويخسرهم اهلهم ووطنهم . واضربت مرة مدرسة تجهيز دمشق وتجهيز حلب ، وجرت فيها امور تعبث بالنظام ، فجاءني الى داري ترجمان المستشار ، ومعه كتاب كتب على الآلة الكاتبة ، مفاده صدور امري باغلاق تجهيز دمشق الى اجل غير مسمى ، فاخذت الكتاب واستدعيت المستشار فقال : لا بد من الاغلاق . فقلت له : إن في اغلاق المدرسة تحدياً للطلبة ، وقد تسري دعوتهم الى سائر المدارس ولا سيما الابتدائية ، فنقع في مأزق اصعب . فأصر على تنفيذ الاغلاق ، وقال إن المندوب يرى ذلك ، فاجتمعت بالمندوب وقلت له : إنا بذلك نزيد النار اشتعالاً ، وليسمح لي سعادة المندوب ، وكان المسيو سولومياك ؛ وهو من خير المندوبين في دمشق يشبه الكولونيل كاترو والمسيو لا فاستر بحزمه وحسن ادارته وعفة نفسه — ان اقول له إني اعرف روح البلد واوقن ان العنف في هذه الاحوال لا يجدي شيئاً وانا وإن كانت الامور السياسية من شأن المندوب ، ارى هذه المسألة مسألة ادارية ، وللوزير ان يتكفل بحلها . فقال : هل تتحمل انت تبعة عدم الاغلاق ، فقلت له : نعم أتحمله ، اتركني اعمل وحدي . فاستدعيت من الغد اساتذة مدرسة التجهيز وقلت لهم إن النية اغلاق المدرسة وإذا اغلقت لا يعلم متى تفتح ، وأبنت لهم ما ينتج من الضرر من ذلك للطلبة ولهم ، بقطع رواتبهم مدة التعطيل ، وأوعزت اليهم ان يتطوعوا كلهم لاعادة الطلبة الى الدروس ، ومن الغد كانت الصفوف تامة وشكرني وقال : حقيقة إنكم تعرفون اهل بلدكم .

أما مدرسة حلب فان مستشار معارفها رأى طرد ثمانين طالباً منها ، فاستدعيته الى دمشق واستدعيت معه مستشار المفوضية المسيو بونور وغيرهم وقلت : إني غير مستعد لأن أطرد أحداً ، لأني بطردي ثمانين طالباً أقضي على مستقبلهم ، وأدعو أهل حلب أن يثوروا على الحكومة ، فما أحب أن تنشب ثورة في الشهباء ولا في غير الشهباء ، فسرّ مستشار المفوضية من كلامي ، وكان يعرف مثلي أن مستشار حلب غير أهل لمنصبه وان رأيه هذا من الآراء « الخنفشارية » فلما صدر مني رفض الاغلاق تهلل وجهه كثيراً . وأذكر أني لم أسمح إلا بطرد طالب واحد طرداً موقتاً ، وعادت المدرسة الى الانتظام في سيرها .

ومن الغريب ان هؤلاء الطلبة المساكين الذين كانوا يحملونهم على مخالفة النظام ، ويباعدون بينهم وبين دروسهم ، ويعلمونهم التهجم على أساتذتهم ، عادوا فانقلبوا على الكتلة نفسها لما تولت الحكم ، وكانت لهم يد في زحزحتهم عن كراسيهم ، واهانوا بعض زعمائهم . وهذا ما كنت احاذر منه وطالما قلت لبعض اعيان الكتلة : إنه لا ثقة بصداقة العوام لأنهم لا يستحون من نفض ايديهم من ايديكم يوم تنقطع فائدتهم المادية منكم ، وكذلك الأولاد فان افكارهم غير مستقرة ، فليست مظاهرتهم قوة لكم . وحكومة تستند الى مثل هذه الركائز محكوم عليها بالانهيار ، فحققت الأيام قولي .

الحّ عليّ رئيس الوزراء بتعيين معلمة افرنسية في ميتم الاناث ، وما كان لها راتب في موازنة هذه الدار . ولم تجر عادتنا في المدارس الابتدائية أن نعين معلمات من غير الوطنيات . ورأيت المستشار يتشدد في رفضها ، ويشير الى ان سيرتها غير حسنة ، والرئيس يزيد الحاحاً حتى اضطرني الى ان اقول له إنه لا ينجح في مساعيه ، وان من الخير له أن يصرف النظر عن تعيينها ففعل ، وبعد أن كاد أحدنا يغضب الآخر ، وقلت له ما قاله المستشار : هل يرضيكم ان تكون معلمة يتيماتكم سيئة السيرة ، وعرفت سر

التمبين من كلام المستشار فأغضيت وتغافلت (وأنفك منك ، وإن كان اجدع) .

جاءني المستشار كوله يريد عزل المسيو بورين مدير الدروس الفرنسية في تجهيز حلب . وكنت أعرف أن امرأته كتبت مقالات في جريدة (لا سيري) الصادرة في بيروت غضب منها بعض الفرنسيين في الشهباء ، فأحبوا الانتقام منها بطرد زوجها من وظيفته . وكانت حجتهم لاقالته أنه لا يحسن التعليم ، وان الطلاب يشكون منه ، فقلت للمستشار إن تعيين الموظفين الفرنسيين هو من خصائصكم ، وإن كان الموظف عندنا من ابنائكم يعد سورياً في العرف ، لأن راتبه من خزانتنا ، ولا يعين إلا بتوقيعنا وأنا لا اريد ان اقيل هذا الاستاذ لأسباب منها اني عرفته ينفع الطلاب ، وسمعته مرتين في قاعة التدريس يدرس تدريساً حسناً ، وقد اخذ عنه كثيرون من ابناء حلب لغتكم ، وما سمعت شكوى منه ، فاذا كان على ما يزعمون من ضعف ، فما بالهم سكتوا عنه ثماني سنوات ، وهو في الخدمة ، ولِمَ لم تعرف عيوبه إلى اليوم ، ثم إن الرجل مصاب بمرض القلب ، إذا اقلته يتأثر فيهلك حالاً ، ولست مستعداً لأن اقتل استاذاً إرضاءً لخاطر من غضب عليه . وانا اعرف « يا سيد » ان هذا الانتقام موجه إلى امرأة الرجل في شخصه الضعيف ، فان كان لهم ما يقال معها فليحاسبوها على ما كتبت ، وهذه المحاكم مفتحة الأبواب لهم .

وناقشني المستشار مناقشة طويلة ، فأصررت على رأيي ، وكنت ارد عليه بلطف ، لأنه كان لطيفاً ، وما استطاع ان يزحزح الاستاذ الفرنسي عن مقره ، وعجب من التزامي له . ولما نجوت من جعل وزارة المعارف آلة انتقام من رجل شريف من عمالها ، جاءتني صاحبة المقالات إلى المكتب الرسمي وارادت ان تقبل ركبتي ويدي ، فتجاهلت ما وقع ، فقالت : علمت بكل ما تفضلت وقلته بشأن زوجي ، وبموقفك الشريف في الدفاع عنه . واقسمت انا معشر السوريين اقرب إلى العدل من الفرنسيين . فقلت لها : إنا تعلمنا هذا من اجدادنا ، ومن فلاسفتكم وعلمائكم .

لم يرتق فرع من فروع الادارة على عهد الانتداب مثل ارتقاء الدرك والفضل في ذلك للقواد المحنكين الذين لماوروا اصلاح هذا السلك ، وكانوا من طراز عال علماً واخلاقاً وحنكة . جاءني وانا في مكتبي في قصر الحكومة الكولونيل بريفو قائد الدرك مودعاً . وكان من هذا العيار النفيس الذي ذكرت . ويذكر له اهل دمشق في احدى المظاهرات حادثة دلت على نبل وكرم أخلاق ، ذلك ان احد المتظاهرين رشقه بحجر في جبينه فأدماه ، وجيء بالضارب فانكر انه هو ، وقال إن الضارب طفل رآه ، ولو كان غيره لأمر في الحال باطلاق الرصاص على المتظاهرين . فقلت له : إنك ياحضرة الكولونيل لا تعرف أهل هذه الديار بقدر ما اعرفهم انا ، وإني على ثقة ان مئات منهم يحبونك على البعد ، وهم لا يعرفون شخصك بل يعرفونك باعمالك ، ويعجبون بما قمت به من اصلاح الدرك ، حتى كان هذا الأمن الذي لم نشهد مثله ، نحن ياسيدي العزيز امة لنا مالسائر الأمم من محاسن ومساويء ، ولكن شيئاً واحداً ما عهد فينا وينافي طباعنا وهو نكران الجميل ، فلا ننسى على وجه الدهر من يسدي الينا يداً ، بَعدَ عنا أو اقترب . ولما كنت أنت احسنت لهذا القطر ، فالقوم يعجبون بك ، ويتبعون إعجابهم بك بالثناء عليك والدعاء لك ، وأنا ادعو لك بان تتمتع بالصحة حيث كنت انت وعيالك وان يكون النجاح قرينك في كل عمل تتقلده ، فتأثر من كلامي ودمعت عيناه . وددت لو امكن تقديم هدية صغيرة اليه باسم الاهلين تذكاراً له على عمله المجيد ، ولكنا الشعب اعتاد ان يصرف الالوف في أمور غير منتجة ، ويغفل عن القيام بأمور تعد في نظر العقلاء من الواجبات .

زارني الكولونيل برت قائد موقع دمشق ورئيس اركان حرب الفرقة يقترح عليّ ان ادخل في سلك التعليم فتاة مسلمة كانت امها جارته وقال لي : إن امها فقيرة وعلمتها ، فعينتها في الدرجة التي تليق بها . ونشأت بيننا صداقة واخذنا نتزاور ومما قال لي : إني عرفتك وعرفت اخلاقك وصلابة عودك من التبليغات السرية التي نبلغها في حركة الادارة والسياسة ،

وما يقع من الحوادث الجسام ، واطلعت على ما وقع بينك وبين مستشارك ، وما كان من تغلبك عليه بالحق . ومما قال لي : إني اشبه المسيو كلنصو رئيس وزارة فرنسا زمن الحرب العامة ، بصورة الوجه وصلابة الرأي . واستفدت منه اموراً كثيرة لأنه كان بحر معرفة وتجربة . وتفاوضنا مرة حال رجل كان هو يستغرب ما صدر منه ، فلما قلت له إنه اسرائيلي تونسي اهتز اهتزاز الطروب واجابني : الآن سريت عني ورفعت الاشكال ، لأني كنت استفظع عمله ، واستبعد صدوره من افرنسي الأصل . وحقيقة إن الدخلاء على الفرنسيين كانوا دائماً احط من الفرنسيين العريقين في جنسيتهم . فحسن الخلق والتهذيب تتجليان في الفرنسي غالباً . ولطالما استبان لي الأدب في العريق في افرنسيته ، حتى ولو كان من الطبقات النازلة ، اما الدخيل عليهم فيكون على الاكثر وضيع النفس إلاّ من رحم ربك . ولا عجب ان يكون الاصلاء على هذه الأخلاق الطيبة فهم امة تتعلم وتتهذب منذ اجيال ، والمدنية متسلسلة في اعقابهم .

قال صديقي الامير طاهر الحسني لاحد رجال الانتداب بعد مرور سنين عليه في سورية : لقد خدعتمونا بمن كان يفد علينا من رجالكم ، فكنا نظن ان جميع رجال الحكم والادارة من ابناء فرنسا هم من عيار القناصل الذين كانوا يشخصون الينا ، اخلاقاً وعلماً ونزاهة وسياسة ، فاذا عندكم مثل ما عندنا وعند غيرنا . وقلت للامير ان رجال السلك السياسي هم طبقة مختارة في فرنسا ، وقد يكونون من ابناء الاسر القديمة ، وعلى شيء من السعة ، لا يسفون الى ما يُسِفّ اليه غيرهم من ابناء الطبقات الأخرى ، ممن كان يقع نصبهم بواسطة الاحزاب والمحافل الماسونية وغير ذلك .

ولطالما رأينا بعض رجال الانتداب في الشام ممن تولوا مناصب عالية ، وهم في الاصل من رجال السلك الدبلوماسي على اخلاق حسنة وكفاءة ممتازة يملأون كراسيهم كما نقول ، يحبهم الاهلون وهم يحببون إليهم فرنسا بسيرتهم الطيبة . عرفت كثيرين من هذه الفئة ومنهم صديقي المسيو لافاستر .

فقد قضى سنين طويلة في ادارة المطبوعات ومندوباً للمفوض السامي في حلب ودمشق ، فكان مثالاً صالحاً في الجمع بين مصلحة حكومته ومصلحة وطننا ، ومن أقدر من عرفوا معنى التعاون النزيه .

كان يقصدني في وزارة المعارف لحسم بعض مسائل تتعلق بولاية حلب فنتفاهم حالاً ، وما كان أقل من أعظم الوطنيين غيرة على حلب ومصلحة أهلها ، وكنت اذا رأيت هذا أعجب به وأقوله له وأشكره على هذه العاطفة الشريفة وأبادر بما في طاقتي لاجابة طلباته كلها وربما زدت عليها . وكثيراً ما كنت أقول في سري : حبذا لو كان جميع المنتدبين كصاحبي لافاستر يبذلون من قلوبهم وعقولهم ، لخدمة ما وكل اليهم انجازه في أرضنا .

ليس كل من ينتقدون هم على صواب ، ولا كل من يعترضون على الفرنسيين يحققون ما يقولون . الديمقراطيات تخرج رجالاً ، والملكيات تخرج رجالاً ، ومن كان جوهره جيداً فمهما كان نوع الحكم الذي درج في ظله ينفع أمته ولا يضر غيرها . وفرنسا مهما كان حالها لا ينكر عليها عاقل بيض أياديها على العلم ، وهي ، مهما قال فيها الغاضبون عليها ، مهد النظريات الاجتماعية والسياسية . ونحن السوريين إذا اختلفنا مع بعض الحكومات التي تولت الأمر هناك من أجل قضية استقلالنا فالانصاف يتقاضانا ألا ننسى فضل القوم ، على ما ذكرت ذلك مفصلاً في غير محل من هذه المذكرات .

الفرنسيون يغلطون كما تغلط كل أمة ، ومن أغلاطهم السياسية نحو أنفسهم أنهم دخلوا في هذ الحرب الناشبة على ضعف استعدادهم لخوضها ، لا جرم ان العدل يقضي أن نعترف لفرنسا بحسناتها ، ونذكر إلى جانبها غلطاتها . وأي دولة في النصرانية والاسلام ، وفي الشرق والغرب ، لم تسجل عليها سيئات كما دونت لها الحسنات .

طغى حب المادة على أمم الغرب كافة ، وكان لفرنسا نصيب منه ،

ففسد بعض أولي الأمر فيها ، وفسدت صحافتها ، وضعفت أوضاعها وميزاتها . اعترف عقلاؤهم بذلك موخراً وأقروا أن الواجب معاورة كل ذلك بالاصلاح والنظر ، وتنشئة جيل جديد على غرار الاجداد ، يراعون الفضائل ، ويدركون معاني الوطنية السامية .

كنت على مثل اليقين يوم درست أصول الحكم النيابي أو الحكم الجمهوري والشعبي أن هذا الاسلوب بالنظر لما أقرؤه في صحف الغرب ، وأعرف من أسرار هذه المدنية ، ما لاق من كل وجه لجميع الدول ، وكانت سويسرا وانكلترا في مقدمة من حسن أثره فيها ، لان الحرية تغلغلت في أبناء تينك الأمتين وتأصلت فيهم الشورى والغرام بها ، فكان كل فرد فيهم مشتركاً فعلاً في الحكم ، ويغار على هذا الطراز منه كأنه هو له وبدونه يموت ويفنى .

أما الولايات المتحدة وفرنسا حيث كانت الديمقراطية أيام ومواسم فان الحكم النيابي في جوهره عندهما حكم الفوضى ، وتشتت الكلمة ، والاضطراب الدائم ، والحزازات المستديمة وسوء الاستعمال والعبث . وكل من درس أصول انتخاب أعضاء مجالس النواب والطرق التي يسلكونها للنجاح ، وتسلكها الأحزاب والأنصار ، بدون نظر الى حياة المرشحين وعيارهم الذي يؤهلهم لتحمل هذا العبء الخطير — يدرك أن جودة الاختيار تكاد تكون مفقودة ، وقد لا يصل إلى كرسي النيابة الا الوسط في علمه وتجاربه وذمته ، ولذلك تصير أزمة الحكم الى أيدي بضعة من شياطين الأنس في كل أمة يصرّفون الامور على هواهم ، والباقون تبع لهم . ومجالس تتألف في حقيقتها من أناس متوسطين بقرائحهم ، لا يبالون الشرف الحقيقي ، هيهات أن يحصل منها الأثر النافع من كل وجه ، ولا يرجى منها إلا أن تركب ما يؤذي ، والنفع منها قليل ، ذلك لان الوسط لا شيء في هذا الجهاد العالمي ، وما الشأن إلا للاشراف المتازين من أرباب البصيرة . وكاد العقلاء في فرنسا

يجمعون منذ سنين على ان الديمقراطية افلست وذكروا من مساوئها الشيء الكثير ، وصاحب الدار ادرى بالذي فيه ، فدلوا على أن الفاظ الحرية والاخاء والمساواة كلمات جوفاء ليست إلا طلاء غراراً بلمعانه ، وخضاباً ينصل ولا يثبت على الحوادث .

إن من يصل الى منصبه مهما كانت درجته بقوة المال أو الجمال لابد أن يستحل أخذ ماأعطي ، وقد لايعطى إلا من يحب أن يأخذ ، ولا يتوقع من رجل هذه حاله إلا الانغماس في أمور خسيسة ، لاتهمه كثيراً معالي الامور . ومنذ عرف تاريخ البشر كانت نفسية أهل هذه الطبقة فاسدة منحرفة . ومن ارتشى صنع ما أمر به ، ولا خير للمجتمعات من راص ولا مراش .



خيالاتنا

لما زرت باريز بعد الحرب العالمية ، رأيت أناساً من الطبقة التي تفهم بحسب الظاهر لم يبلغها ما جدّ من العلائق بين سورية وفرنسا بعقب الحرب ، ومنهم من كانوا لا يعرفون أن لدولتهم جيشاً في أرضنا ، وأن فرنسا عهد اليها النظر في حال الديار الشامية مع انكلترا ، بل بلغ الجهل ببعضهم أنهم لا يعرفون مركز سورية من معمور الامم ويعدونها من أرض الترك في آسيا ، كما كان يقال لها على عهد العثمانيين ، .

ولدن عودتي من تلك الرحلة أسررت لبعض المشتغلين بالمسائل العربية أن القوم في باريز لا يعرفون ما يجري في ديارنا ، فالأولى أن توفدوا رجلاً أو اثنين ليقوما بنشر ما يجب أن يعرف عنا ويحتكا بالطبقة التي يرجع اليها الحل والعقد عسى أن يكون من ذلك فائدة ، وقصصت عليهم بعض ما رأيته وسمعته . وبعد ايام زارني أحد أصدقائي وهو زعيم عظيم من زعمائنا ، وكنت قدمت استقالتي من وزارة المعارف ، وعرض عليّ الرحلة الى باريز في المهمة التي ارتأيت ايفاد رجل لاطلاع الفرنسيين على حقيقة مطالبنا ، وذلك مقابل الف ليرة سورية . فسألت صاحبي إذا كان يهزل أم يجد فقال : وهل المجال مجال هزل ؟ فأجبته : أراكم لم تهتدوا الى الطرق الموصلة للغرض ، فالمسألة أعظم مما تخيلون وبودي لو جمعتم مقداراً عظيماً من المال أولاً حتى اذا توفر لكم ، وضمنت النفقة اللازمة مدة طويلة ، يعهد الى رجل أو رجلين من رجالنا بهذه المهمة ، ويعدان بما يلزمهما هناك . وأرى أن من يراد ارساله في هذا الأمر الخطير ، يجب أن تأخذوا عليه العهود الاكيدة بأن يخدم الغرض الذي انتدب اليه فقط ، ومن أهمها ألا يقبل هدية من أي انسان ، وبأي صورة من الصور ، وألا يتقلد

حياته منصباً ما دامت سياسة البلد متقلقلة على أن تتكفل الجمعية بعيشه وتربي اولاده حتى يكبروا ، وإذا مات لا يتركون للأقدار ، واذا خان عهدكم تقتلونه . هذا ما أراه لمصلحة سياستنا ، أما الألف ليرة التي لعرضها عليّ فهي لا تكفي لاستعد للخروج من بلدي ، ، ولو كنت غنياً لتوليت هذا المهم وأنفقت كل ما يقتضي له من النفقــات من مالي حتى لصل امتي الى امنيتها . الجد قليل ويا للاسف في أفعالنا ، نظن المعضلات هينـة الحل على ما يصوره لنا الخيال ، ولذلك كانت الخيبة ملازمة أكثر أعمالنا .

انتدبت خلال الثورة السورية مع زمرة من أهل دمشق لنلتمس من المفوض السامي رفع ضرب المدينة فتعرفت في القطار الى أحـد أذكيـاء الطليان المثقفين فسألني عما كنـا نعمل في بيروت أنا ورفقائي فقلت له : لا شك أنك قرأت في الصحـف الغرض من الوفد قال : عرفت ذلك ، ورأيتكم لم تهتدوا حتى الآن الى الطريقة الموصلة الى مطالبكم في الاستقلال ، إنكم شعب لا يعرفكم أهل أوربا حق المعرفة ، ولا يتصورون ما ترمون اليه من المقـاصد ، ولا ما بلغتم من درجات الرقي ، فعليكم اذا أردتم أن تفلحوا في رسالتكم أن تتخذوا أسباب الدعاية على نحو ما فعل غـيركم من قبل . قال تعلمون أن الطليان قد وفقوا الى تأليف وحدتهم ، وما كان تحقيقها بالأمر السهل لما كانت تلقى من المقاومـة . وقد اشتغل لها ثلاثة أجيال منا حتى حصلنا على النتيجة . وكان أجدادنا يصرفون ثلثي جهودهم خارج ايطاليا والثلث الآخر في أرضنا ، ويرسلون أشخاصاً ممتازين الى العواصم الكبرى في أوربا للاختلاط بالنواب والشيوخ والوزراء ورجال الصحـافة ، يلقون محاضرات ويكتبون ويستكتبون مقالات يتلطفون فيها بعرض قضيتنا ، وبطول الزمن استجاشوا لهم أنصاراً ، وأسمعوا صوتنا الى من لم يكن يسمعه . ولما قمنا بالعمل الحاسم كان من عطفوا على مسألتنا قوة الظهر من ورائنا يدفعون عنا خصومنا . فكان عمل أجدادنا وآبائنا إفهام الشعوب

والحكومات أننا أمة تصبو الى ضم شملها ، وأنا أهل للقيام بهذه الجامعة وهي حقنا الصريح الذي يجب ألا ينازعنا فيه منازع .

قال وهكذا قامت وحدتنا وأنتم لم تأتوا من أساليب الدعاية شيئاً يعتدّ به على الوجه الذي توفرنا عليه اعواماً طويلة وفادينا ضروب المفاداة في سبيله . وأهم ما يجب أن تلجأوا اليه ابلاغ أمانيكم الى من يجب أن يفهموها على جليتها وأن تثبتوا انكم أبناء ذاك الماضي المجيد ، وأصحاب تلك الحضارة المشهورة ، تودون اليوم أن تستعيدوها بأنفسكم ، وتظهروا للملاء أنكم أهل للحياة . درس مفيد ألقاه عليّ وعلى رفاقي ذاك الغربي . وأظننا لو جرينا على التعريف بنا وبمطالبنا أولاً وجمعنا رجالاً من كل مواطن لما احتجنا الى ثورة ولكننا أمة قد تبني أمورها على الأحلام تقول كثيراً وتفعل قليلاً

❧

اصطحاب الأغنياء

سألني السيد سعد الله الجابري ، قبل أن يتولى للكتلة الوطنية وزارتي الداخلية والخارجية بأعوام ، لماذا أصحب عبد الرحمن باشا اليوسف ، والمعروف من نزعتي الابتعاد عن الأعيان ؟ فقلت له : إن صداقتي له متصلة بصداقة أبيه وجده لأبي ، وهو لا يشبه أكثر الأعيان الذين جمعوا ثرواتهم بالطرق المعهودة ، ونعمته إنما انتهت إليه بالارث ، وعهدته أقرب إلى الخير من بعض أمثاله ، ولم يعرف عنه أنه استحل الاعتداء على حقوق الفلاحين ، ولا عمد إلى التزوير في استصفاء مال أحد وايقاع ضرر به ، وكان يفضل على الفقراء ويبرهم ، وقد يهب المساكين وأبناء السبيل من الصدقات كل سنة مالو احصي لكان شيئاً عظيماً .

ثم إني أعتقد أن صحبتي لهذا النبيل قد تسوقه إلى الخير وتنفعه ولاتضره ، فانظر إليه وكان عازماً على تأسيس مدرسة زراعية عملية في تل مسكن إحدى مزارعه في مرج الغوطة ، وأن يقف عليها أراضي واسعة يتعلم الفقراء فيها علم الزراعة على الأصول الحديثة ، وتكون دعامة من دعائم التمدن في هذه الديار . فعاجلته منيته قبيل أن تتم امنيته .

وما خلا عبد الرحمن باشا من اناس كانوا يظهرون أمامه بمظهر الغيرة على مصلحته ، فصارحوه بأنهم يستغربون رضاه عن تصدري في مجلسه ، ولاموه على استماعه لحديثي ، وعلى العمل أحياناً بآرائي . فأجابهم إنه رآني أعفّ عن ماله ، ولا اسف إلى شيء مما يسفّ إليه بعض حواشيه ، وأدعياء صحبته ، وأني ما طلبت شيئاً منه ، وأنه لو كان يعلم أني يهون عليّ أخذ هداياه لأعطاني كثيراً ، وأنه يحق لي أن أتصدر مجلسه لأني من أعلم

من يختلف إليه ، وأنه يرجو ان أكون لأولاده في مقام الناصح المرشد ، ونصيحة واحدة مني لهم لا يعدلها شيء في نظره . قال ولكل هـذه الاعتبارات أحترمه واجله .

وقلت لابن الجابري : وأنا هل أعطيت عهداً على نفسي ألا أصحب حياتي غير الصعاليك ؟ وثق أن اختلاطي بطبقة الأعيان يعدل بعض التعديل في مشاربهم ، على أن من صحبتهم من هذه الطبقة كانوا إلى الخير غالباً . وكان استاذي الجزائري كثيراً ما يوصيني بأولادالأعيان فيقول : إذاأردت دفع البلاد إلى الترقي ، فبادر بادخال النور على أبناء الأعيان ، فعندهم المال والجاه ، وإذا ما تعلموا حملوا إلى أهليهم بذور الارتقاء ، وأصبحوا أعضاء نافعة في خدمة الأمة ، والمتعلم الواحد منهم يحدث ثورة في اسرته .

هكذا كان يرى شيخنا ، وهو رأي سديد فيما أرى ، ولا يتأتى تحقيقه إلا بالاختلاط بأولئك العيون ، والتأليف بين قلوبهم والابتعاد عما ينفرها . وكنت شهد الله كثيراً ما تحاسبني عزة نفسي على عِشرة الكبراء في مصر والشام ، وأراني لا أستغني عنهم ولا هم ممن يزهد في صداقتي ، على حين لا أستطيع مجاراتهم في الظهور بالمظهر الذى تتوق إليـه نفسي ، ولا احب أن تكون لهم منّة عليّ بحال .

نعم سبق لي أن حاربت أشخاصاً من الأعيان ، كانوا آفات على الوطن يستثمرون الفقير والضعيف ويستخدمون نفوذهم في مضرة الراعي والرعية ، وما كان الاعيان كلهم على هـذه الشاكلة ، وكان بعضهم على حالة حسنة ، جمعوا ثرواتهم من التجارة والزراعة ، أو انتقلت إليهم من أجدادهم ، أو من طريق الاقطاعات ، فعمروها وأحسنوا الانتفاع بها . وهؤلاء ليس لك عليهم سلطان ولا يستطيع أحد مؤاخذتهم ، ومثل اولئك الأشراف يظلمون إذا عوملوا معاملة اولئك الظلمة الأجلاف .

في الأمثال : إن الرّقين تغطي أفن الأفين ، أي أن الدراهم تغطي

ضعف ضعيف الرأي . ومن صدق عليهم المثل من لصوص الأعيان ، فأنا لا أصحبهم إذ لا خير منهم يرتجى ، وما تبتغي من فئة مقيمة أبداً على حوك الدسائس ، والاعتداء على من يهون عليها الاعتداء عليه . ومن هذه الفئة طائفة كنت أرى من المستحيل زحزحتهم عن أخلاقهم ، ولما وضح لي سوء حالهم بعد الاختبار قاطعتهم ، وكانوا يدهشون من ابتعادي عنهم ، ولا يعرفون له سبباً ، ويعدونه من الشذوذ الذي ألفوا أن يشهدوه مني بزعمهم ، وأنا لم أرَ من واجبي بعد أن بلوتهم أن أنفعهم بفكر ، ولا أن أكون لهم سياجاً يختفون وراءه ، ومن أعان ظالماً سلطه الله عليه .

الخير قليل في البشر ، والغالب عليه الشر ، والانسان كما قالوا مدني بالطبع ، أي لا يستغني عن مداخلة الخلق فلم يبق إذاً إلا المبالغة في انتقاء الشرفاء ، والزؤان على كثرته في صوبة الحبوب لا يحول دون الانتفاع بالحبات الصالحة منه .

قال أحد رجال الدولة العثمانية في دمشق وقد جرى في حضرته ذكر احد اعيانها : نزلت بلاداً كثيرة ، وخبرت حال ايالات ومقاطعات عدة ، فما وجدت اكثر استرسالاً في الغيبة والنميمة ، ولا أشد إغراقاً في السعاية والوشاية من بعض أعيان هذه البلدة ، أما الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا فهما من اقرب الناس إلى الخير ، ولا يخلو افرادهم من ادب وفضيلة .

والمراد بالأعيان كبار ارباب الاملاك وبعضهم يحرص ابداً على رضا الحكومة عنهم ، وإنك لتجد في هذا الصنف انواع السخف وضروب الشر ، وهم لم تمهد لهم سابقة في المكرمات ، إذا دعوا إلى الحسنى شكوا الفقر ، وإذا اريدوا على الصالحات صعروا خدودهم ، وما اثر لواحد منهم ان انشأ مدرسة ، او انفق على تعليم ولد فقير ، ولا على غير ذلك من الأعمال الصالحة . سألني بعض الاروام في مصر عما إذا كان عندنا (في مصر والشام) اناس ينزلون عن نصف ثروتهم لأمتهم ، فكان الجواب سلباً بالطبع

فقالوا : إن من رجالنا من نزلوا عن جميع ثروتهم لأمتهم ، فقلت إنكم اشد حمية واصح وطنية منا .

سأل شيخنا العلامة الجزائري احد كبار تجار بيروت عن اسم والي بلده ، فقال إنه لا يعرفه فقال له : عجيب هو عندكم منذ نحو سنتين ، وأنت لا تعرف اسمه فضلاً عن شخصه ، فقال : أوقاتي لا تتسع للبحث عنه ، وليس لي علاقة بالحكومة . فقال الشيخ : في بيروت التفريط وفي دمشق الافراط ، فان اعيان هذه المدينة لا يهنأ لهم بال إلا بالاحتكاك بواليهم وحاشيته ، صباح مساء ، حتى ليسأم لقاءهم ، ومنهم من يصدهم عن بابه فيتحيلون الدخول عليه ، بكل ما لديهم من وسائط ، وأنتم معشر البيروتيين لا تتقربون من واليكم بل لا تذكرون اسمه .

وشيخنا هذا كان مرة في زيارة والي سورية ناظم باشا ، وقد ورد عليه الأعيان يحيونه ، فمنهم من كان يقبل يده ، ومنهم من يلثم ذيله وركبته ، وكلهم متماوتون في حضرته ، متهالكون على الغلو في تمجيده ، فانقبض صدر الشيخ من هذا الصغار ، فلما انصرفوا التفت إلى الوالي وقال له : أيروقك أن تحكم اناساً هذه نفوسهم ؟ فسكت الوالي ، فعاد الشيخ وقال : أما أنا فلا أود بحال من الأحوال أن يكون من أحكمهم من هذا الطراز . اي ان استاذنا لا مأرب له أن يكون والياً على عبيد صغار النفوس . هذه الطبقة من الأعيان التي تفنى في صاحب الشأن ما دام صاحب حول وطول وتعرض عنه كل الاعراض في اليوم الذي ينزع منه الحكم وينقطع الأمل من عودته إلى ما كان عليه .

قصّ عليّ احد الشيوخ ان احد رجال الدولة نصب والياً على سورية فدعاه أحد الأعيان إلى النزول في داره ريثما تهيأ له دار خاصة . واغتنم ذاك الوجيه فرصة نزول الوالي في بيته ، وكانت مشاكله كثيرة فأخذ يحل

ما يمكن حله منها بواسطة نزيله العظيم ، ولما اعتزل الوالي بعد مدة منصبه ، دفع إليه ذاك المضيف الكريم قائمة ضمنها ما انفقـه على الوالي خلال نزوله ضيفاً عليه فاعتذر الوالي بأنه نسي أن يسدد هذا المبلغ في حينه ووعد أن يرسله إلى صاحبه من بيروت ، وبعد أيام وردت على ذاك الوجيه ميضأة من الرخام لستعمل للتغوط وكتب الوالي السابق : هـذه مقابل ما انفقه المضيف على ضيفه . وعمل ذاك الوجيه ان صحّ من احط ما يدوّن .

وكثيراً ما كان استاذي الجزائري يقول إن هؤلاء الأعيان لا يعرفون الكرم والشح غالب عليهم وإذا اضطروا يوماً إلى ان يأدبو مأدبة لكبير يرجون خيراً لهم من ورائها ، فان منهم من يبقي عياله في مسغبة وتقتير شهراً كاملاً حتى يعوض ما انفقه ،



اختلاف اجتهاد

يظهر أن الادارة ابنة التجربة ، وربيبة المِران ، رائدها العقل ، وموحيتها البديهة ، وملهمتها البيئة . وربما كانت المسألة الواحدة تنحل في وقت حلاً يخالف ما حلت به في آخر . والحلول تبع للمكان والزمان . والادارة علم صعب قد يتفوق فيه من ليس على علم كبير ، وربما أخفق في معاناته صاحب المعارف الجمة ، ومن كان يظن فيه الكفاءة للتبريز على غيره .

لما توليت وزارة المعارف كان من أكبر همي أن أسرح من الخدمة العاجزين الجاهلين من المعلمات والمعلمين . وأن استعيض عنهم بمن يتخرج في دور المعلمين ، أو من أحرزوا الشهادة الثانوية ، وكان من أشد ما حرصت عليه نشر التعليم الابتدائي في المدن والقرى ؛ ولمـــا أيقنت ان الريف يكاد يكون محروماً نعمة المعارف ، وأهله يدفعون الضرائب أكثر من غيرهم أزمعت أن أوثر القرى بالمدارس الجديدة ما أمكن . وآلمني ما رأيت من ان ليس في كل مئة قرية زيادة على ثلاث او أربع مدارس ضعيفة ، فأنشأت ما استطعت من كتاتيب في بعض أمهات القرى علماً مني بأن أهل المدن يتوصلون إلى تعليم اولادهم بما لا تصل اليه ايدي سـكان القرى ، وأنه لا يتعذر على اهل الحواضر بلوغ غايتهم من تعليم ابنائهم ، بما قام فيها من المدارس على اختلاف درجاتها ونزعاتها وان ابن القرية إذا لم تعلمه الحكومة يستحيل عليه ان يتعلم ، والبناء يقوم على أساسه ، واساس النهضة نشر التعليم الصالح في جمهور الأمة .

وعلى هذا خصصت القرى بأكبر قسط مما انشأت من المدارس الابتدائية ، واقللت من فتح مدارس جديدة في المدن ، وكنت احاول أن أجعل المعلم المتمكن من صناعته في القري ، لأن في مقدوره أن يعمل بنفسه مستقلاً ،

وجعلت الضعيف من المعلمين والمعلمات في الحواضر لتتيسر مراقبتهم وتعليمهم ما تتطلبه منهم مهنتهم . وقد نجحت هذه التجربة . وحاول مرة بعض معلمي الحواضر ان يعصوا أمر المعارف في هذا التدبير ، فكتبت اعلاناً علقته على باب مدير التعليم قلت فيه ان كل من لا يحضر مدرسته في يوم كذا ويأت من الحاكم الاداري في عمله بشهادة تثبت استلامه التدريس يعد مستقيلاً . فلم يبق انسان لم يطع الأمر ، وكانوا نحو مائتين فيما اذكر وقلت اني املأ الشواغر بمعلمين أجلبهم من مصر ويحملون الشهادات المطلوبة ويرضون بالرواتب المقررة .

وحاولت ان أشرّف صناعة التعليم وأعرّف القوم ان المعلم مرشد وممدن ، يجب احترامه واكرامه ، وان اهيء الاسباب لترغيب الشبان في هذه الصناعة ، وكان الاقبال عليها قليلاً ، لان الحكومة ما قدرت لضعف مواردها أن تجعل رواتب المعلمين على مستوى رواتب غيرهم من الموظفين في الدولة ، ولم تر من الحكمة ترك رجال الادارة أحراراً وقد يكون من توسيع سلطانهم ضرر على الرعية ، وأقل ما فيه أن تعود السخرة وأخذ الاعانات من الفقراء ، وكانت الطبقات النازلة تُرْهق بهذه المغارم في الدور الماضي .

ولما انتهت مهمتي في الوزارة الثانية لامني خلفي على عنايتي مدة وزارتي بأهل القرى أكثر من أهل المدن في توزيع التعليم ، فأرسلت أعتذر اليه وأقول له إن هذا اجتهادي ولعلي كنت مخطئاً وارجو ألا يغلط هو كما غلطت انا ، واظنه ما اهتم خلال وزارته لفتح مدارس ابتدائية لا في المدن ولا في القري ومن العمال من لا يقيم وزناً للفلاحين وربما عدهم من المخلوقات المحتقرة غير خليقين بأن يتسرب الى عقولهم قليل من النور والمعرفة . ومن العمال من لا يهمهم الا ارضاء حزبهم الذي اتى بهم اما القيام بواجب المنصب فأمر لا شأن له في نظرهم .

كان قسم عظيم من المعلمين والمعلمات قبل تخريجهم في دور المعلمين عبارة عن جهلة وجاهلات واكثرهم لا يعرف شيئاً من علم التربية الحديثة ،

ويعلم على طريقة الكتاتيب التي كانت شائعة في القرن الماضي ولذلك اخرج من الخدمة سلفي في وزارتي الأولى كلّ من لم يره صالحاً للتعليم . وجاءني ذات يوم أحـد من اخرجهم يشكو ظلامته ، ويقول إنه طرد من عمله بغير حق ، فقلت لمن كان معي : إني لن اعيـد معلماً اخرجه الوزير السابق ، لأن الملحوظ فيه انه يعرف ما ينفع ، ومن تلطف وكنس لي الدار فأتى بالقمامة خارجها ، فسهل بذلك عملي بعض الشيء حريٌّ بالشكر ، وليس من العقل ان اعيد الكناسة الى محلها السابق ، تؤذي السكان ، وتلوث المـكان .

أما خلفي في الوزارة السيد نصوحي البخاري فقد أعاد الى سلك التعليم كلّ من كنت نحيتهم عنه . أراد من ذلك اتباع سياسة الارضاء ، وتجاهل أن الجاهل لايخرج من بين يديه إلا جاهل . وكان صاحبي مولعاً بالاقتصاد من موازنة المعارف على ضآلتها ، فلا ينفق ما كان عليه أن ينفقه في سنته حتى يستحق وبعض من كانوا معه مـكافأة عن الأموال المقتصدة ! وهذا اجتهاد لا أرضاه ، لأن المنطق يأباه . اما اجتهادي فـكان أن أنفق كل ما خصص لي في السنة نفسها ، لعلمي أن لوازم المعارف كثيرة جـداً ، ولو كان مايظن أنه وفرٌ عشرات الألوف ما صعب على الوزير انفاقه انفاقاً مثمراً ، في دولة حديثة العهد بانشاء المدارس وينقصها كل شيء . ومن يحاول ارضاء جميع الناس يغضب المصلحة العامة ، ومن يمزج الادارة بالسياسة كمن يمزج السـكر بالجبس ، او الـكافور بالدبس .

أتت السياسة الى بعض الوزارات بأناس ما تصوروا حياتهم ما هي المعارف أو القضاء او الاشغال العامة او المالية ، وأتت بأناس كانت لهم دراسات خاصة نالوا عليها شهادات تسهل لهم طريق الاستخدام في عمل معين ثم تركوا الدرس إلا ما كان منه داخلاً في نطاق عملهم . وكان من هؤلاء من حسنت سيرتهم ، وحسن السيرة لا يكفي إن لم تكن للوزير قريحة مؤاتية ، وعقل مولد ، ومشاركة قوية في تشعبات دواوينه

ومن اجتهادي في الادارة أن أسارع الى انفاذ ما أريد بعد أن أنظر في الجملة فيما تتجه اليه همتي ابادر لما أحاول تحقيقه وان اعتقدت أنه بقي هناك من أستشيره ، أو أرجع اليه من أضابير ودساتير وذلك لاعتقادي بأن انهاء الأمر بسرعة على ما قد يعرض له من نقص أسلم في العاقبة من التراخي والمطاولة ، وتقدير ما يحدث وما لا يحدث . وقد يكون النفع بالتأني أقل من الضرر الذي يحدث بالاسراع . والاسراع لا يحمد ابداً وكذلك الابطاء ، والحالة هي الحاكمة على الانسان ، ولكل وقت حكمه واجتهاده . ولعلي صادفت بعض الفشل فيما عالجته بالعجلة من أعمال ، ولكن ما أصبته فيها من التوفيق كان أكثر . ربحت بالاقدام ما لم أربح مثله في الاحجام وفي التطويل اضاعة الفرص ، ومن يحسب حساب كل شيء قد لا ينجز أمراً .

آخذني مرة الشيخ طاهر الجزائري على اخبار تنشر في جريدة المقتبس توهم انها مفتعلة على خصومي السياسيين ، فاقسمت له اني ما اختلقت خبراً مازحاً ولا جاداً قط ، وعرضت عليه أن جريدتي اذا اقتصرت فقط على نشر ما ثبت من الانباء تسبقها الصحف الاخرى بالحوادث ، على حين ان معوّل الصحف على الاسراع في نشر ما يترامى اليها ، على شرط ايراد المصدر . فان بدأ محرر الجريدة الخبر بقوله (جاءنا من مصدر ثقة) كانت روايته أدنى الى الحقيقة من قوله (شاع) او (يقولون في بعض الأندية) او (ننشر هذا بتحفظ) او ما شاكل ذلك من الصيغ . وقد شاهدنا صاحب صحيح البخاري على تحريه الشديد ، واقتصاره على اصح الأحاديث قد وقعت له اشياء لم تصح عن الشارع صلوات الله عليه . هذا وقد صنفه جامعه في هدوء وتؤدة ، وبالغ بالتدقيق فيما روى ويروى له دهراً ، فما بالك بالصحف الطيارة في عصرنا هذا ، عصر السرعة والتبدل والمفاجآت . فعذرني ناقدي العظيم على اجتهادي في اذاعة الأخبار على هذا الوجه ، ولعل المتعنتين لا يرضيهم مني ذلك .

كنت اجتهد في شؤوني الخاصة والعامة ، وما ندمت على اجتهاد وقع

مني . كنت اذا بعت بعض حاصلات مزرعتي أو بعض مطبوعاتي بثمن قد يرى فيه المدقق بعض الغبن عليَّ اغتبط لأني أوظف المال الذي آخذه حالاً في شيء مثمر ، او اسد به حاجة تقضي المصلحة بالتعجيل في قضائها . ووقع لي ان بعت شيئاً ثم سقطت اسعاره بعد ايام وعلى العكس ، فكانت الحكمة فيما فعلت ، والشاري يدخل على الربح والخسارة . وحدث لي ان ربح المبتاع كثيراً وان لضاعف المال الذي اخذته وصرفته بعد ايام قليلة . ولو كنت لشددت في النزول عما ملكت لخسرت لا محالة . والأرباح الكثيرة فرص والارباح المعتدلة من الامور العادية .

من خلقي ألا ادخل في مجهول ولا فيما ينافي العقل والشرع ، لذلك لم اجوز لنفسي يوماً ابتياع ورقة يانصيب ، ولا ان اتجر بالورق النقدي ، ولا بالأسهم والسندات ، وما اشتركت ولا كفلت احداً كفالة مالية ولا وضعت توقيعي على سند ليس لي به علاقة ، ولا خزنت غير حاصلاتي توقعاً لارتفاع السعر . وقد لا ينجح من هذا خلقه في التجارة ، والمضمون قليل واقل من القليل . وهذا اجتهاد ايضاً ولا يلام المرء على اجتهاده . وانا بعد أن ثبت لي أن الخاسرين اكثر من الرابحين في هذه التجارات يعز عليَّ ان ادخل في هذه الصفقات ، وكم من فرصة اضعتها وكان يمكن الانتفاع منها والتربح بها ، فأحجمت وجبنت ، ثم رأيت الخير فيما فعلت ، ذلك لأني ابداً كنت احاذر المغامرات .

اضعت سنين طويلة من ريع زراعتي فشاركت واجرت فربح الشركاء والمستأجرون كثيراً ، وكانت حصتي ضئيلة بالقياس الى رأس المال ، اي ثمن الأرض ، فما اسفت لما وقع لأني استفدت ايضاً من توفير وقتي . وقد ضمن لي ربح ثابت على كل حال ، وهذا احسن من مال يتعبني ويشغل فكري وصعب على المرء ان يعمل اعمالاً عقلية ويكد ليملأ جيبه وصندوقه . وهذا اجتهاد مني عاد عليَّ بضرر مادي وربحت منه في معنوياتي ارباحاً لا تقدر بثمن في نظري . وعوض عليَّ من جهة اخرى رواتب قبضتها زادت على ما جناه الشركاء والمستأجرون من ارضي .

كنت اسير على ما يوحيه إليّ عقلي عندما يقترح علي الانضمام الى اناس لا اعرف سيرتهم للمشاركة في مسائل ظاهرها نافع ووطني . وذلك لأني بلوت الاحزاب وعرفت اغراضها ، وأدركت مرامي الجمعيات . ومن فضل الله اني كنت اقل رفاقي تهوساً في الحزبية ، وتهوراً في الاقدام عليها واجتهادي هذا وفر علي اوقاتي ومالي . وهذا لأني كنت في هذه المسائل افكر طويلا ، واقول ليس من العقل ان يطلب مني مشايعة كل انسان ، واتباع كل رأي يفرض ويعرض . والمشاكل كثيرة ، واماني الامة لا تحد ولا بد ان ينصرف كل فرد الى تحقيق ما اخذ من نفسه واعتقد قلباً وقالباً فائدته ومن حسن طالعي اني ما حرصت كثيراً على مسايرة بعضهم على كثرة ما اسمعونيه من المغريات لحملي على الالتحاق بجماعة اجهل اغراضهم ، وليس بيني وبينهم تجانس في الفكر والتربية ، ومتابعة آراءٍ لم ابد فيها ولم أعد . وكيف لعمر الحق اقلد في شيء فيه اضاعة وقتي ومالي وربما حياتي ، وقد ثبت لي انه ما أفلح في هذه الارض حزب ولا جمعية اللهم إلا إذا كان من بعض الشياطين ان اتخذوا من حزب مطية لأغراضهم الخاصة ، يصلون على متنها الى المراتب والمكاسب . والمغفلون من يخدمون معهم في هذه المناحي على العمياء وبدون اعمال الروية ، يرفسهم الكبار بأرجلهم من غير حياء ، في اليوم الذي تتحقق فيه مآربهم . وكل جمعية أراد اصحابها الظهور سقطت وتشتت ، وكل جمعية قصد بها الخير نمت وثبتت . ومن هذه الجمعيات ما أتى عليه ربع قرن ، وهو الى اليوم يقوم بالغرض الذي انشيء له ، ومنها ما لم يعش أكثر من ايام قليلة . اما الاحزاب السياسية فكانت اشبه بالمهازل ، في معظم الادوار ، لان السياسي على الاكثر يستحل كل ما يوصله الى الغرض الذي ينشده . فيعبث ما شاء له العبث ، ورأيت الجمعيات كلما قلّ عدد افرادها تكون الى النجاح ، وإذا كثر المتشاكلون فيها تدوم وتنجح .

كنت في أغلب الاحوال أتابع اجتهادي واتحمل وحدي تبعته . وما ندمت

على ما اتيت قط إذا سبق لي اشتراك في الفكرة ، وكنت أري ابدأ تحديد المطامع ، وارضى بما يحصل ولو بعد جهد . فقد خاف زملائي لقلقة المتعصبين من المشايخ يوم بدأت بانشاء المجمع العلمي العربي ، إذا نحن وضعنا اليد على بعض التماثيل وعرضناها في المدرسة العادلية الكبرى ، فأصررت على جمعها وعرضها وقلت لرصفائي إن صريخ هؤلاء النُذُر لا يصل الى اكثر من سقوف بيوتهم وما ضرني ان انحمل وحدي التبعة وامضي في تأسيس دار الآثار في سبيلي لا ألوي على شيء . ولما لم اطع سلطان الوساوس والهواجس كتب لي التوفيق، ولو اطعت من أرادوني على التسويف وخوفوني العواقب ، لفشل المشروع لا محالة ، ولأعد المشاغبون عدتهم لمشاكستي ، وربما كانوا بلغوا مني مأربهم، فباجتهادي الخاص انتفعت المصلحة العامة . وما اخفقت في امر إلا اذا كان يتوقف اتمامه على احد او على سلطة . ولو كانت آمالي في المجمع العلمي مثلاً تجد لها من يعاضدها من حكومة او صاحب مال عظيم ، لآتت من أكلها في عشرين سنة بما يفوق ما تصورته ، ولكن استعداد الحكومات كان قليلاً لقبول هذه الامور . وما كنت اهتم انا لتحقيقه كان اصحاب الشأن يضحكون منه في سرهم .

درجت على تنشيط الناشئة على الكتابة والخطابة والتأليف والنشر . خلق تأصل فيّ وعرفه قومي مني ، اقصد به تخريج شبان صالحين في الجملة . وكان بعض رصفائي في المجمع يخالفونني في اجتهادي هذا ، وانا أرى أني اقوم بواجب عليّ لأن اساتذتنا أخذوا بأيدينا حتى تعلمنا فلهم في اعناقنا منة لا نوفيها لهم إن لم ندفعها الى من بعدنا نعطي الذي اخذناه . وكان أحدهم يقول يجب ألا يفتح الباب إلا لمن جَزُل حظهم من الآداب ، وأن على الشبان ان يتريثوا في الظهور فلا يتطالون اليه إلا متى ذهب الشيوخ من الوجود . ومعنى ذلك الانتظار ألا يتخرج بنا احد فتذهب تجاربنا معنا ، اما هم فلينتظروا حتى يفنى هذا الجيل ، ثم يستلمون الزمام بعدنا بدون ان تكون صلة بين السلف والخلف . وبهذا الاجتهاد تضيع فيما احسب الفائدة المرجوّة

من التلقي ، وتبطل اعتبارات كثيرة نافعة ، جرى عليها العرف والعادة في كل عصر .

وهناك زميل آخر لا يروقه ان يفتح باب المجمع للمحاضرة فيه ، أو المؤازرة في المجلة إلا لصفوة الصفوة ممن كان استعدادهم من المسلم به ، اي ان يقتصر على طبقة راقية جـــداً ، وإلا فقد المجمع روعته . واضاع مكانته ، ذلك لان زميلي هذا كان يزعم ان الخاصة الكفاة يستنكفون عن القاء محاضراتهم ونشر مقالاتهم ، إذا فتح الباب لـكل احد ، بيد ان المحاضرين والكاتبين ليسوا كلهم على غرار واحد ، وكذلك العقول لا تكون من طراز واحد . ومعنى الاقتصار على النوابغ المحاضرين والمؤازرين ألا نسفي الى لمليم احد ، ومن ينقصه شيء لا سبيل له الى اتمامه ، والواجب طرحه . ولو جرينا على هذه القاعدة لبقيت الآداب وقفاً على بضعة افراد . ولا نعلم إذا كانت هذه الأثرة تفيد أم ان الفائدة بكثرة العارفين ، وكل امرئ يفيد بحسب سليقته وذكائه . نعم إن الاتقان شرط اعظم في كل صناعة ، وإذا كان من المتعذر الحصول عليه فهل يجوز لنا ان يُرْذَل الوسط ، ولا يكمل النقص ؟ وربما كانت هذه القاعدة مما يمكن تطبيقه في جمهورية افلاطون او المدينة الفاضلة للفارابي ، اما في مجتمع كمجتمعنا ، وفي جمهورية كجمهوريتنا ، فمتعذر كل التعذر ، ومن ينشد الكمال المطلق يوشك ألا يسقط على كامل ، ومن يتخيل انه لا يعمل إلا إذا توفرت له جميع الاسبـاب بحسب رأيه ، محكوم عليه بالعقم ، وعدّه ولا تخف من طلاب المحال .

سجلت هذا هنا لانه من تجاربي الخاصة رجاء أن يستفيد منه من يكثرون الاعتراض على كل ما يسمعون وما لا يفهمون ، ويحاولون لادنى نظر ان يهدموا مابني ولا يحسنون وضع لبنة في بناء جديد .

ذكرتني الطعن وكنت ناسياً

لما أجبت طلب راديو الشرق الى القاء مسامرات في اذاعته أتحفني مديرها بنسخة من مقالة كنت كتبتها في جريدة المقتبس (عدد ١٧٨٧) خلال الحرب العامة ، وقال إنها وشاية من رجل مجهول ، وخلاصة المقالة أن صاحب اقدام كتب من سويسرا مقالتين قال في الأولى إن أحد أساتذة السوربون في باريز قال في خطاب له : إن علماء فرنسا لا يعدون علماء الا بالشفاعة والسياسة ، وأن فرنسا في المؤتمرات تبعث لتمثيلها باناس من الجنس الذى ارتقى بالرجاء والشفاعات ، في حين تبعث المانيا أمثال العالم فيرخو لينوب عنها ، وهو المعروف بعلمه وشهرته ، وأن المانيا تنتخب أمثل رجالها لمنابر التدريس ، ولذلك يهرع اليها الطلبة الأجانب من كل جانب ، ويرجحونها على فرنسا . واستنتج من ذلك أن فرنسا ليست بلاد درس ، ونصح للمولعين بتحصيل العلوم والفنون أن يذهبوا الى المانيا ويحذقوا الألمانية . وقال في المقالة الثانية ، وقد استبشر بأن الدولة عزمت على جلب بعض الاخصائيين من أساتذة الألمان الى دار الفنون في الاستانة ، ان الأمر لا يتم بجلب بضعة معلمين ، بل إن المملكة تحتاج من هذا الى سرية ، تعلمنا أفكار المانيا الاقتصادية ، وعلوم المانيا ونظامها وأوضاعها ، قال ونحن نريد من أولاد المسلمين أن نخرج رجالاً ونطلب لهم خبزاً في كل صقع ، ولذلك وجب علينا أن نخرج الشبان على الأصول الألمانية في العلوم والمعارف وهــــذه تجزئنا .

هـذا ما قاله رصبني التركي وقد قلت في التعليق عليه يومئذ : ومثل هذا القول أحق أن يخاطب به أهل سورية الذين حاولت فرنسا منذ عشرات السنين أن تلقنهم في مدارسها المسمومة بسموم النفاق والمكر أن

مدنية فرنسا أرق المدنيات ، مع أن الوقائع منذ نحو مئة سنة أثبتت أن الأولية لغيرها لا محالة ، وأن الفرنسيين أمة انحطت في أخلاقها ومناحيها ، ومن مثل هذه البضاعة الكاسدة تنفق على الشرق الاسلامي ، موهمة سكانه أنها ما برحت في طليعة الدول في كل شيء مع أن أقل الناس تفكراً يعرفون مبلغها بين الامم والدول ، وقد علمتها ألمانيا بالعمل كيف فرطت وأفرطت في الماضي فأصبحت اضحوكة الامم ، وأن فرنسا احتقرت الأديان ، واعتقدت أنها الكل في الكل ، وأبت المولى عجزها ، وأن العبث الذي عبثته بعقول ضعاف العقول وضعاف القوة من امم الشرق ، قد حوسبت عليه حساباً غير يسير ، وستحاسب على أكثر . وما ننس لا ننس ضربها بعصا من حديد على دين الاسلام ولسان العرب في تونس والجزائر ومراكش وكل بلد اسلامي استعمره أدنياء أبنائها .

ومثل هذه الدولة المنحطة في سلم الاجتماع التي اشتهرت بلادها بالفسق والفجور والخفة واللهو في أقطار الأرض ، ومع هؤلاء الأدعياء في العلم الذين أشار اليهم رصيفنا صاحب اقدام ممن يتولون التعليم والتربية في فرنسا دع مدارس الشرق التعس ، لا يسوغ لنا بعد الآن أن نفكر في أن نعلم أولادنا في بلادها ، بل نبعدهم عن مباديها كما نبعد السليم عن الأجرب .

كانت فرنسا تخدع السذج بحسن حالها ، ولكن الحرب الحاضرة (١٩١٤ — ٩١٨) كشفت عن عورتها في العلم والصناعة والسياسة والأخلاق إن فرنسا تفننت في اختراع أزياء النساء في عهدها الأخير ، ولكن ألمانيا اخترعت مدفع ٤٢ .

أعدت ألمانيا عقولاً ، وعلمت فرنسا فضولاً ، فكان من ذلك النتيجة التي رآها كل منصف في العالم . ان دولة اشتهرت بأنها آذت الشرق في استقلاله وأخلاقه ودينه ولسانه هي دولة لا يجوز لأدنى الامم أن يجعلها قدوته ومعلمته ، فطريقنا بعد الآن الى المانيا ، فمن كلياتها نتغذى ، وبأدب أهلها نتعلم ، وعنها نأخذ . اه

هذا ما قلته منذ نحو ربع قرن ، وكنت أود لو طوى المقالة من أحب أن يذكرني بها اليوم ، لأن تعليقي يومئذ على ما فيه من الغلو ، وتأثر بسياسة تلك الأيام ، لا يخلو من حقائق جارحة ، تجلت بعد هزيمة فرنسا الأخيرة عام ١٩٤٠ وقد قال مثل قولي كبار رجالها ، وضربوا امتهم في المحافل الرسمية بعيوبها في وجهها ، على أن تفوق التربية الألمانية والعلوم الألمانية من المسائل المفروغ منها ، ورجال التربية في فرنسا بحّت أصواتهم وهم ينادون بالعدول عن طرائق قديمة عقيمة في التعليم والتربية ، والاخذ بمذاهب الألمان بالعلم ، وفي خزانتي بضعة كتب في هذه الأبحاث ، ومن أهمها ما كتبه غستاف لبون وأدمون ديمولان الفرنسويان أصلاً وتربية ، وما أظن فرنسا اليوم بعد أن رأت العبر تلو العبر إلا آخذة بالطرق الحديثة والنجاة من الأساليب البالية ، أما قولنا في مدارس سورية التبشيرية الاستعمارية فما زلنا فيه على رأينا الأول وإن آلم بعض العمي في حب قوميتهم Les chauvins لأنا نعتقد أنها تخرج اناساً ، لا لخدمة بلادهم بل لخدمة غيرها ، وإنا نعذر أصحابها على خططهم ، فهم يصرفون أموال دولهم لتحقيق مقاصدهم ، ولو كنا أقوياء لرددناهم على أعقابهم عن أرضنا ، ولحلنا بينهم وبين تأسيس هذه المدارس المضرة بوطننا وقوميتنا . أما الاستعمار الفرنسي فانا ما حبذناه قط ، ويوافقنا على رأينا عشرات من المؤلفين الفرنسيين ممن لا يتهمون بحزبية ، ولا يرمون بتعصبات سياسية وجنسية ، ونسأل اولئك الذين لا يرضيهم قولنا هذا بأعز ما لديهم هل يرون الجزائر بعد امتلاك فرنسا لها (١١٥) سنة قد تمتعت برخاء يشبه ، ولو من بعض الوجوه ، ما تمتعت به مصر ؟ وهل أخرجت الجزائر رجالاً يوازون بأقدارهم العلمية والعملية نصف ما نبغ من المصريين في عهد الاحتلال الانكليزي في وادي النيل ؟ (راجع ما كتبناه في غارات المستعمرين من الغربيين على بلاد المسلمين وغيرهم ص ٣١٧ ج ١ من كتابنا الاسلام

والحضارة العربية) أما أن فرنسا معلمة العالم فهذا ما لا ينكره عليها حق أعداؤها ، فان لها في التاريخ من ذلك حسنات يرفع أبناؤها رؤوسهم بها . وشهد الله أنا كنا متألمين لما حل بالأمة الفرنسية من المصائب الاخيرة ، وما كان الشعب مسؤولاً عن كل ما ناله من هزيمة وتفسخ ، فالشعب الفرنسي فطر على ذكاء ومضاء وفضائل وحب خير ، والعقلاء منهم نحبهم ونسترشد بعلم رجالهم وأدب كتابهم (انظر ما كتبناه في غرائب الغرب ص ٣٠٨ ج ١ تحت عنوان نحن في البلاد الفرنسوية) .

والافكار على كل حال عرضة للتبدل ، خصوصاً بطول العهد وكثرة التجارب ، والعقل هو الحاكم والحكم ، لا العواطف والأحاسيس .

حل الماسونية

يوم انهزمت فرنسا أمام الجيوش الألمانية في حزيران ١٩٤٠ واحتل الألمان باريز يوم ١٣ منه انحلت الجمهورية الثالثة ، واستلم زمام الحكم الماريشال بيتان رئيساً الدولة بقرار مجلسي الشيوخ والنواب ، فحلّ جميع الأوضاع الديمقراطية والأحزاب السياسية والجمعيات السرية ، ومنها المحافل الماسونية ، وقد قرأت في جريدة « كانديد » الصادرة يوم ١٧ تشرين الاول ١٩٤٠ أنه افتتح في باريز معرض ماسوني ، عرضت فيه تركة « محفل الشرق الأعظم » « والمحفل الأعظم » الماسونيين في باريز ومنها مسارج وسيوف من القصدير ، ومطارق وصناديق نيطت بها كرات سوداء ، ومآزر عملت من جلد الخنزير ، ومسجات البنائين و « بطارش » مطرزة رسم وسطها مثلث يلمع فيه نجم « صهيون » وما إلى ذلك من متاع كان يستخدمه أبناء الأرملة عند إدخال شخص جديد ، ومنها مفروشات الغرفة السوداء التي يجمل فيها المنضم إليهم حديثاً معصوب العينين مع جمجمة إنسان ، وردهة الزعماء التي يقررون فيها السلم والحرب ، وان النية حمل هذه التركة الغريبة في القطار والسير بها إلى جميع أرجاء فرنسا حتى يراها سكان أقصى الأرياف ، ويتجلى بها ما في الماسونية من امور .

وبحل المحافل الماسونية في فرنسا انحلت جميع محافل الشام ، وذهاب الأصل يوجب زوال الفرع ، وتقاسم الزعماء تركتها ومنها تلك الأشياء التي كانوا يستعملونها . والماسونية حكومة في حكومة ، من شأنها إسقاط الأديان ، والتدخل بسياسة الأوطان ، ولذلك ألغتها ألمانيا وإيطاليا ، وحذت حذوهما تركيا وبلغاريا ورومانيا والمجر ، فان كان في الماسونية بعض ما يستحب من التعاليم ففيها امور مضرة ، وكان إدخال الداخلين في محافلها

سقياً ورعياً من أضر ما فيها ، ولا عـبرة بجودة القوانين والعبرة بالأيدي التي تنفذهـا .

منذ نحو خمس وأربعين سنة ، وأنا يعرض عليّ الدخول في الماسونية في مصر والشام ، وتذكر لي المرغبات فيها ، والغنائم المتوقعـة لي منها ، فكنت أقول إن هذه الجمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الـكاثوليك ، فما شأن المسلمين في الدخول فيها ؟ وأنا من طبعي ألا أدخل في مجهول ، ولا أسير على غير هدى . ورأيت اناساً انضموا إليها مخلصين فـكانت سبب زوال نعمتهم ، وكانوا بعد خدمتها سنين من النادمين ، وما أفادوا إلا إنقاذ لصوص الموظفين وغـيرهم من سلطة القوانين ، وأكثر من رأيت ممن شايعوها كانوا من أصحاب السيرة السيئة من طبقة المأمورين

كل هذا كان يجول في الخاطر ، ويصرح به اللسان ، ويكتبه القلم ، وما كنت أظن ولا أكثر الماسون هنا يظنون ، أن جمعيتهم أيضاً (ألعوبة صهيونية) ، صرفة لا يهودية فقط ، يسعى اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون ومعنى مجـد صهيون نزع فلسطين العربية من أيدي العرب ، وهي ملكهم منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن .



دعابات

دارت بيني وبين الاستاذ فارس الخوري (رئيس مجلس نواب سورية) مراسلات دامت بضع سنين ، قامت على جدّ وعلى هزل . ونفي في بعض السنين الى أميون من قرى لبنان مع بعض إخوانه ، فكتب اليّ يدعوني الى زيارته فأجبته بكتاب مطوّل (٦ أيلول ١٩٢٦) قلت فيه : (كلما ذكرت أميون تذكرت مجالسنا مع صديقنا نجيب الأميوني — وليس اسم نجيب من اسماء الاضداد كأنيس وسليم وصادق ، قد ينقلب الى ثقيل ولديغ وكاذب — وما كان يقع لنا معه من النكات وكيف كان يُسْلينا بأدبه ، ويفيض علينا من واسع علمه ، ما اغتبطنا ولا نزال نغتبط به ، ومع هذا لم نفتأ نبرمه بأسئلتنا ، والنجيب يجيب .

(كنت مرة في حلب مدعواً في دار احد اصدقائي من أتباع السيد المسيح وكان البهو غاصاً بالاوانس والعقائل ، ورجال الظرف والمكارم ، فأخذ النجيب يحدثنا احاديثه ، فلا والله ما شكونا مللاً ، ونحن نتعاطى كؤوس ادبه نهلاً وعلَلا ، ولكن النفس الأمارة بالسوء حدثتني أن اقاطعه ، لأني لَحَظْت من لواحظ سيداتي هناك انهن يحببن ان يستمعن نبرات جَرْس جديد ، والنفس مولعة بالاطلاع على الطريف ، ولو كان كثيفاً غير ظريف . فاستأذنت الحضور راوياً اولاً ما وقع لاحد شعراء دمشق ، وقد زار في استانبول السيد ابا الهدى الصيادي الخاني أو الشيخوني ، وهو في آخر درجات السلم من مجده ، فأخذ شاعرنا ، وكان طلْق اللسان ، ذكيّ الجنان ، يحدث الشيخ الصيادي بالقديم والحديث ساعتين استطالهما الشيخ ، وما كان يزيد على غير كلمات الاستحسان المعروفة . وهز الرأس والمنكبين ، واحياناً الصدر وماتحته الى العجز ، فلما اعياه الحال ، التفت الشيخ الشيخوني

الى محدثه الدمشقي وقال له : يافلان اذكر فقط ان امامك مِكْثار مثلك يُحبّ ان يتحدث اليك في نوبته ، فتوح بلا سدود إقطع لأصل أنا . فضحكا واستلم الشيخ زمام الكلام .

(قلت هذا وقد فتح الفتاح علي باب القول ، وحل عقدةً من لساني ففقه القوم قولي ، وشعرت في تلك الساعة ، والأنظار تحدجني ، بأن طبعي قد لان ، ولم يستعصِ على طبيعتي ما حاولته من التحدث الى ذلك الرّعيل الجميل ، فقلت : إني قرأت في كتاب لأحد علماء الجغرافيا من العرب اسمه المقدسي ان كل بلدة كان في حروفها حرف صاد يغلب الحمق على اهلها ، اما إذا كان فيها صادان كالمصيصة وصرصر فنعوذ بالله واستثنى من هذه القاعدة البصرة ، وانا استثنيت (حاصبيا) مطلعَ شمس الأميوني النجيب ، وقلت لهم إن الرقة تغلب على طباع أهلها ، واوردت ما حضرني من البراهين لمناقضة ما قالوه قديماً من انه إذا رقّ الهواء غلُظَ الطبع ، ومثلت لهم بالسيد الأميوني غير خائف ولا وَجِل . ومما قلت : ها هو اخي وقرّة عيني ، هذا ياسيداتي وسادتي ، أميونيٌ حاصبيا ، اللبناني الغربي واللبناني الشرقي ، حائز مجموعة اللطف ، وجودة العقل ، وجميل النادرة ، وانتم تعرفون مثلي عدْله في الاحكام ، ومقامه بين الخاص والعام ، وغناءه في شرائع الافرنج والاسلام ، وشهد الله انه أكذب القائلين بالطباع الجلية ، ونقض بشخصه رواية ذاك الجغرافي الذي نسب الحماقة الى اهل كل بلد ضم اسمه حرف صاد .

(والحمد لله على ان جاد لي بالحياة ، وحقق ظني في نبوغ النجيب ، فرأيته وزيراً لمعارف دولة لبنان الكبير ولولا انه من نجباء الابناء ، ومن حاملي الشهادات من المدارس العليا ، ولولا أن حكمه وعقله صحيحان غير مريضين ، ما تربع في ذاك الدست ، ولا تصدّر في دولة عجنت طينتها وخبزت بمادة العلم والادب ، ولو لم تكن أميون من قبل أورثت ما أورثت جده وأباه ، وحاصبيا من بعد هيأت مداركه وجملت قواه ، من اين كان له ان يطمع في هذه المقاعد الشريفة ، والمقامات التي تتحلّب لها شفاه الطالبين المُلحفين

الملحين ؟ بعد ان عُلِمَ عِلمُ اليقين ان الكراسي في دُوَيْلاتنا الشامية لا تعطي على الاطلاق إلا بالاستحقاق .

(ربما يتبادر الى ذهنك عند تلاوة هذا أن الكلام يصدق عليك ، بدعوى أن ما قارب الشيء يعطي حكمه ، فادفع عنك الظنون ، وبعض الظن إثم . ولئن كانت « الكفير » جارة « حاصبيا » حاضرتها ، وأنت وإن وليت وزارة المعارف ، فقد كان الفخر العظيم لحاصبيا أن أخرجت للامة وزيرين ، وللمعارف أيضاً ، أحدهما في وزارة الساحل ، والثاني في وزارة الداخل . وما ذاك إلا من تأثير تلك التربة الطيبة وخصوصية لها ، وللبقاع تأثير في الطباع . ولذلك وضعناك بذكائك في غرار الذكاء الأميوني ، لو لم تخدش ملكة ذاك الاقليم التي أورثك إياها الجدُّ الأعظم بسكنى « جلق » أكثر حياتك ، وأنت تنشد مع ابن منير الطرابلسي .

وسكنت جلق واقتديت بهم وإن كانوا بقر

(ابشرك بشرى يثلج لها صدرك وتقر عينك ، ولطيب لها حواسك الخمس ، وهو أن رصيفنا الأنيس نال رخصة لا حد لها بفضل وزيرنا ، خشي على صحته « أثابه الله » وقال : انه وان زاد منذ ثلاث سنين أكثر من ثلاثين كيلو بدمه ولحمه وشحمه ، فهو يحب له هذه الزيادة ، وأنا على ما تعلم أحببت له هذه الفسحة المستديمة حرصاً كل صحته أن تغال ، وحتى لا أترك لمشاقه من أمثالك ما يقال . هذا وإن كان بعده عن المجمع يورث أعماله فتوراً ، وتفقد رأيه السديد الذي طالما أشار اليه ، وزعم اننا أبداً في حاجة الى الاسترشاد به ، وكان ادعى أنه من أهل الرأي لا من اهل القياس . وإلا فمن يمتعنا بتلك المحاضرات البديعة التي تشرف كتاب محاضرات المجمع فنشرها بين دفتيه اثراً خالداً فأورثته واورثتنا به صيتاً مستفيضاً . حقيقة إن النعم يجب ان تقرن بالشكر وإلا فهي معرضة للزوال .

(وهنا عادت معنا مسألة الصاد في اسماء البلاد . تذكر اننا كنا متفقين على انه اجتمع على بعض اصدقائنا الحرف والحمصية ، ونسيت ان اقول لك

يومئذ والقسوسية ، ولبعض القسوس كبعض المشايخ صفات غريبة خاصة بطغمتهم من دون سائر البشر ، ولا يعلل هذا إلا ان افكار هؤلاء الزاهدين المتبتلين ، الساجدين الراكعين ، مصروفة الى الآخرة ، فلا تهمهم الدنيا ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

(اعود الآن وانا في باب جيرون فأذكر اميون ، ومن لي بزيارتها

فيادارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك اهوال

(قالوا للكردي: نريد ان نرسلك الى جهنم ، ونعطيك أجرة قدرها كذا ، فأجاب الاجرة طيبة والطريق خطر ، نعم ان الوصول اليك صعب الآن ، وعلى كثرة اشتياقي اليك والى إخوانك — بالله عليك إلا ما قبلتهم عني واحداً بعد واحد — يتعذر عليّ وأنا على ابواب الشيخوخة ، أن أركب اليك القطار والسيارة والمطايا ساعات طويلة ، وان اطلب إجازات من الوزارات والمفوضيات ، ليثبت لي ما قيل قديماً من ان عشرة الكبراء تتعب الرأس والرجلين ، ومالي وكل هذا وخطبي سهل في هذه الحياة لا اطمع الآن في وزارة ولا في إمارة ولا في ملك . . . والوزارات وماينصرف عليها ياخال ، تحتاج الى علوم لدنية كسبية ، ومعارف حاصبانية كفيرية .

(أحمد إليك الله الذي لا يحمد سواه ، وأشهد أني راضٍ بما قسم لي قابع في كسر الزاوية المهملة التي وضعتني فيها الأقدار . قصة وقعت منذ نحو مئة وخمسين سنة قرأتها في بعض المخطوطات . حكي أن رجلاً نصرانياً شوهد في حالة غير شرعية مع امرأة مسلمة ، فحمل الى الحاكم فاعتقله ليصلبه من الغد . وكان للظنين ذمة على أحد المسلمين فهرع هذا إلى محبس غريمه يقول له : يا فلان إني معلمك كلمة إذا قلتها نجوت من القتل ، على شرط أن تقيلني من المبلغ الذي كنت أسلفتنيه . فقال له السجين : قل وهاك السند في جيبي ، بارك الله لك به . فقال : إذا مثلت غداً بحضرة الحاكم قل له : الاسلام يجُبُّ ما قبله ، اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يطلق سراحك . ومن الغد جيء بالنصراني إلى حضرة الحاكم

فقال له الجملة التي تعلمها من صاحبه بالأمس . فقـال الحاكم : حسنٌ ، عفوت عنك ، ولكنك تتزوج بالمرأة التي فضحتها وتختتن ، فأجاب بالسمع والطاعة . وهكذا نجا المسكين من القتل . وبينا هو عائد إلى داره سمع إطلاق المدافع فسأل عن سبب إطلاقها ، فقالوا له : غداً رمضان والاسلام يتقاضاك الامساك عن الطعام من الفجر إلى الغروب ، والصوم أحد أركانه الخمسة فقال : سمعاً وطاعة . وزاره بعد خروجه من محبسه أحد أصدقائه في بيته وما أدري إن كان سهلياً أو جبلياً ، فأخذ على العادة يسأله عن حاله ، فأجابه على الفور حالي خـير حال : خرجت من ديني ، وفقـدت مالي ، وتزوجت بمومس ، وقطعت جـزءاً من جسمي ، وودعت صيام النصارى خمسين يوماً واستقبلت صيام المسلمين ثلاثين يوماً ، فأي حال أحسن من حالي ؟ فالحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه .

(لم أسألك حاجة حياتي وحاجتي المهمة إليك اليوم ، وأعدّ لك قضاءها في باب الأفضال العظيمة . أن تبحث لي مسألة تهم العلم العربي خاصة ! وذلك بأن تتولى مع إخوانك الستة درس طبيعة أهل « حصرون » جيرانكم لننظر في جلسات المجمع العلمي القادمة إذا كانت نظرية الشيخ المقدسي في البلدان الصادية صحيحة أو غير صحيحة ، وتلطف بالأمر مع الاستاذين الصفديين (بدر الدين الصفدي وأديب الصفدي) وبلدهما يا لهف نفسي مبتلى بهذه الصاد ، بحيث لا يفهمان المقصود من هذا التحقيق إلا بعد أن تؤخذ الآراء وتسطر في محضر بالسلب والايجاب .

(واعلم وفقك الله أنكم إذا وصلتم إلى تحقيق هذه المعضلة تهون عليكم الاقامة القسرية خمس سنين في حسجة ، ويكون معالي الوزراء وأصحابهم غير مغبونين . لا جرم أن اليوم الذي تصح فيه قاعدة المقدسي يكون سعيداً على الأمة كاليوم الذي اخترع فيه الكهرباء أو البخار أو الراديو أو الراديوم في ديار الغرب ، واليوم الذي تسقط فيه قاعدة المقدسي تسقط طوعاً أو كرهاً جميع نظريات العرب في الفلك والطب والكيمياء والفلسفة الخ .)

وأخذت مسألة البلاد الصادية [١] مكانتها من البحث والنظر ، حتى إن السيد فارس الخوري برأ إلى الله وإليّ من البلدة المقصودة في هذا الحديث «حاصبيا» وقال إنه لم ينزلها في حياته سوى مرتين أو ثلاث لا يتجاوز مجموع مدتها الاسبوع ، وهي لا تكفي للتحلي بالنبوغ الذي جادت به على أبنائها البررة . قال : ولا ريب أن الشيخ المقدسي الجغرافي لم يعلن رأيه في البلدان الصادية إلا بعد أن وجد لقوله دليلاً ، ولمذهبه مبرراً ، وما كان مثله ليدوّن قاعدة اجتماعية مثل هذه بدون أن يسجل على اهل البلدان الصادية حماقات وبلاهات تدعم نظريته ، ولا إخاله اكتفى بحمص وحدها وأنت غنمت النهزة وسألتني أن اتعاون مع رفاقي الستة وندرس اخلاق اهل حصرون لتمحيص قاعده الشيخ المقدسي ، وقد ذهب عنك أننا مقامون قسراً ضمن منطقة ضيقة لا نستطيع براحها ، فكيف أصل إلى حصرون ونعاشر اهلها . ولكن اروي لك حادثة وقعت في هذا الصيف هي أن أهل حصرون نقموا احداثاً على رجل منهم اسمه مرشد المقدسي (ولعل اشتراكه بالاسم مع الشيخ المقدسي صاحب القاعدة الصادية فحل هذه النقمة) وعزموا على قتله . وكان من عادته أن يخرج في سيارته إلى طرابلس في بعض الأيام ، فقطع الطريق عليه ١٥ رجلاً منهم ، وحالما اقبلت السيارة رشقوها برصاصهم وابلاً حتى سكنت حركتها ، فتقدموا إليها وإذا بهم قد قتلوا السائق والراكب ، وما كان هذا الراكب المسكين إلا محافظ البترون فيليب ناصيف . وقد قبضت الحكومة على ١٤ منهم وهم اليوم رهن المحاكمة في محكمة الجنايات . افلا تصلح هذه الحادثة لاثبات قاعدة الشيخ الصادية ؟

وقال : (جاءني هذا الاسبوع شاب من «صور» يطلب إليّ أن أكتب

---

(١) قال احد اترابي الأعزة وقد بلغ الحوار اقصى شدته في الصاد ما رأيك في صاد « مصر » وهل عندك ان حكمها حكم سائر الامصار المحكوم عليها باحكام الصاد ام هي بمنجاة من تأثيراتها كالبصرة التي استثناها المقدسي ! فقلت له وانا استثنيت مصر وانفي راغم ، ولستبفضل الله « عبيطاً ياعبيط » حتى أعادي سبعة عشر مليوناً سكان مصر ، واقل ماينالني من عقوبة حرماني أن اهبط وادي النيل ، وتتجهم لي تلك الوجوه الصباح وفي هذا البلاء المبين ا ه .

له كتاب توصية لرئيس محكمة صور الذي لا أعرفه ليعينه كاتباً في محكمته . فقلت له : اخطأت يا بني بطي هـذه المسافة الطويلة لتتخذني وسيطاً لك لدى رجل لا أعرفه ولا يعرفني ، وأنت تعلم أني اليوم لا أملك تصريف أمر نفسي ، فكيف أملك تصريف امور غيري ؟ أفلا تجد في هذا أيضاً دليلاً آخر على عدوٍ صاد صور على هذا الشاب الغافل ؟ قاعدة المقدسي لا تتناول ما قبلها ، فلا تسري على الفينيقيين وإنمـا تجري على أهل زمانه وعلى من جاء بعده حتى اليوم .

(يا ليتك تكتب إلى الصديق العلامة أحمد زكي باشا نزيل صنعاء ليدرس لنا شيئاً عن صادها في عقول سكانها ، فندرس في إحدى جلسات المجمع مع آثار الصادات .

(يوم كنا في حسجة أقامت السلطة علينا خفارة ضيقة ، كان الجنود بها يقفون على بابنا بالحراب المسلولة ، ليمنعوا كل داخل وخارج . وبعثنا في أحد الأيام مع جمّال جاء به الجند ، كيساً من القمح إلى المطحنة ليطحنه لنا ، وكنا قبل وضع هذه الخفارة قد أرسلنا رجلاً بكيس آخر ورافقه بدر الدين أفندي الصفدي إلى الطاحون ، فخطر لهـذا الرفيق أن يرافق الجمال هـذه المرة أيضاً ، جرياً على العادة السابقة ، لأن العادة في عرفه تثبت بالمرة . فذهل عن تبدل الحال وقيام الخفراء ببنادقهم وحرابهم على الباب . وحالما رأى الجمال خارجاً بكيس الحنطة من الدار ، وثب من مكانه وهو بقميص النوم ، وبدون غطاء على رأسه ، وهب يعدو وراءه ليرافقه ، ولو لم يصدمه الجند عند الباب ، ويوجهوا حرابهم الى صدره ، لجرى وراءه بلا حذر ، وكنت افتش عن سبب هذا الذهول الغريب الى أن جئتني بالقاعـدة الصادية فاهتديت اليه (انتهى كلام الصديق الخوري) .

وآخر الحوادث التي تقرن الى أمثالها في الحـكم على الصاديين ما حدثني به أحدهم بسنده الصحيح عن الدكتور داود ابو شعر ، وقد عاد من « حصرون » بعد أن قضى فيها عاماً وبعض عام قال : إن صاحبـة داره

دعت ابنته ذات يوم الى الطابق العلوي من دارها في حصرون ، ولما أخذت مقعدها دخل كلب لطيف المنظر ، فسأل رجل كان هناك صاحبة البيت عن ام الكلب فأجابته : ان الذئب أكلها ولم يبق منها شيئاً . فقال لها : بل أكلها مسلم صائم جوعان . فقاطعته صاحبة الدار الحصرونية وقالت : بل افترسها رومي أرثوذكسي . فتألمت فتاة أبي شعز وهي ارثوذكسية ألماً بدا في سحنتها ، وحدث ما شئت أن تحدث عن انقباض صدرها الصغير ، لسماع هذا التعريض الكبير . مثال جديد من الحماقة ويحمل في مطاويه خبثاً أيضاً .

ونعوذ بالله من غلظة جبلي ، وخفة ساحلي ، واستخذاء سهلي ، ونسأله ألا يكلنا الى انفسنا ، ولا يجعلنا ممن نقاد بزمام كالأنعام ، ولا نستضعف في الأحكام ولو على الحكام ، ولا يستهوينا الحطام لارتكاب الآثام ، وأن يجعل لنا عبرة من الحمار ، يحجم اذا رأى الهوة سحيقة ، ومن الفيل لا يقدم على اجتياز جسر إذا شمه ورأى فيه خللا ، ونسأله أن ينزه قلوبنا من المطامع المردية ، فانها تقطع أعناق الرجال ، وينزه ألسنتنا عن حصائدها المؤذية ، حتى لا نكبت على الرأس في الأوحال ، ولا نخجل في أنفسنا من عمل أتيناه سراً فافتضحنا به جهراً ... فقد حكم السلطان عبد الحميد الثاني أربعاً وثلاثين سنة فما شككنا في رعونته ، ولم يطل حكم عمر بن عبد العزيز أكثر من تسعة وعشرين شهراً فما خفي على الامة عدله وحسن ولايته . اللهم لا تلبسنا ثوباً تبدو من خلاله العورة المغلظة ، وارزقنا عقلاً نميز به بين الدرة والخرزة ، وأنشئنا نشأة صالحة نتمتع بها بحياة الرجل الصالح في الوطن الصالح ، ولا تجعلنا كالجعل يغتذي بالسرقين ، ويؤذيه الريحان والياسمين ، ويموت من الورد والنسرين ، آمين يا رب العالمين .

وهكذا كنا نسلي أصحابنا في محنتهم بهذه الدعابات . وفي بعض المأثور : المؤمن دعب لعب ، والمنافق عبس قطب .

وطنية الأمير شكيب وجهاده

الى الآن لم تثبت وطنية الأمير شكيب أرسلان عند بعضهم ، فتأمل عقول أبناء هذا الشرق وردد معي كلما تأملتها قول البهاء زهير :

يا أيها الباذل مجهوده   في خدمة أفٍ لها خدمة
الى متى في تعب ضائع   بدون هذا تأكل اللقمة
تشقى ومن تشقى له غافل   كأنك الراقص في الظلمة

رأيت بعض من يدهنون للسلطة أوائل حرب المانيا انكلترا فرنسا (١٩٣٩ — ١٩٤٠) يعترضون على الأمير شكيب لذهابه من سويسرا الى برلين . وسألني أحدهم عما إذا كان يليق بمثله أن يذهب في هـــذا الوقت العصيب الى المانيا . فقلت له : ولم لا يذهب ، أليس هو حراً بنفسه ؟ قال : لا : ليس هو حراً ، وذهابه الى أعدائنا ليس من الوطنية في شيء ، فأجبته ، وقد آلمتني خفته : أي منة لكم على شكيب ، حتى لا يتحرك إلا بأمركم ؟ وهل هو مستخدم عندكم تدرون عليه الرواتب والعلاوات ؟ ها هو في أوربا منذ أكثر من عشرين سنة ، يناضل عنكم بلسانه وقلمه ، فما هي المعاونة التي قدمتموها له ؟ لو نبغ شكيب في امة غربية تقدر رجالها قدرهم ما شعر بالضيق حياته قط ، بل لكان موسعاً عليه في الرزق والنفقة . وقلت له إن الذي عرفته أن للأمير شكيب عقاراً في برلين ابتاعه زمن الحرب الكبرى ، أيام سقوط المارك ، ويحاول اليوم بيعه ، أو استيفاء ريعه ، ليرتفق بثمنه ، ولا يتم ذلك الا بحضوره . وما نجوت من اعتراضات هذا الوقح الوتح ، إلا بعد أن قلت له إن الأمير اليوم في نحو السبعين من عمره ، فلعله اصيب بما يصاب به بعض الشيوخ من خرف ، فعند ذلك هش ، وأعجبه اعتذاري البارد الذي يشبه اعتراضه السمج .

ما ادعى شكيب ولا ادعى له المحبون بجهاده العظيم أن جميع ما أتاه كان سديداً من كل وجه ، وأنه معصوم من الخطأ في الخطط السياسية التي انتهجها لخدمة امته . إن من يعاني السياسة في أدوار مختلفة ، ويقضي فيها زمناً طويلاً بالقياس الى أعمار الخلق ، لا يخلو من هنات تؤخذ عليه مهما بلغ من جلال القدر . ومتى كانت السياسة كالقوانين العلمية ثابتة على الايام لا تتغير ؟ لم تطل خدمة رجل من رجالنا كما طالت خدمة الأمير شكيب في السياسة والأدب ، ولم يكن من أحد مثلما كان منه على اطراد لا قصور فيه ولا فتور ، ولم يشتهر واحد منا شهرة عالية كما اشتهر الأمير شكيب . اشتهر بالسياسة كما اشتهر بالأدب ، وعرف عند الشرقيين كما عرف عند الغربيين ، فهو العيار المنقطع النظير لم تنبغ الشام في موضوعه أجلُّ منـــه .

واذا آضت الحال بان يرسم عوام الشام للأمير هـــدفه ، ويلزمونه باتباعه ، فيالضيعة الآمال ، ويالبؤس العلم والعلماء ، وإذا كان الرجل من هذا الطراز البارع ، يحتاج الى شهاداتهم ، بعد صرف العمر كله في التطوع لخدمة الاسلام والعرب ، فيالشقائنا وطول بليتنا بالجهلاء وجهلهم .

بعض الناس يتطلبون من الرجال ألا يغلطوا ، ويتوقعون من النابهين أن يكونوا على الصورة التي يصورها لهم الخيال . يحاول كل واحد من امتنا أن تسن له قانوناً خاصاً يطبقه على نفسه متى أراد ، ويحاول كل صعلوك غبي أن يطبع الرجال بالطابع الذي يختـاره ، ولا يعد الـكمال المطلق الا ما تخيله .

كتبت الى شكيب مرة أن يجمع لنا مقالاته التي تصلح للانتفاع بهـا في المستقبل ، يطبعها في كتاب برأسه وأن يؤازر مجلة المجمع العلمي ، فأجابني من لوزان (يوم ٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتي « أما ما أشرت به من الكتابة في مجلة المجمع فواجب ، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب ؟ لكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خطب وأي خطب . كلـما قرأ

الناس لي مقالات في الجرائد انهالوا عليّ بالاقتراحات ، ولا ابالغ لك إذا قلت إن الجرائد والمجلات التي تبغي أن اكاتبها تزيد على أربعين ، وكلها تقترح وتجد من الواجب أن اجيبها الى رغبتها ، وبعضها إذا كررت الطلب ولم ابادر الى ارضائها بمقالة أو مقالتين لم تجمجم استياءها . ولا أعلم لماذا كرم الأخلاق يؤدي بالانسان الى العبودية ، فأنا على ثقة أني لو لم اكتب في بعض جرائد وبعض مجلات ، وكنت قابعاً في زاوية أقرأ لنفسي وأكتب لنفسي ما كانوا يطمعون هذا الطمع بي ، لكنهم ما داموا يقرأون هنا مقالة وهنا مقالة من آثار سخافتي ، تشتد بهم رغبة المطالبة والالحاف في سؤالي مقالات . ومن الغريب أن هؤلاء السائلين هم يعرفون ما الكتابة ، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحي بها وحياً ، ولا يقال لها كوني فتكون ، وأن مقالة واحدة قد تأخذ نهاراً تاماً من الشروق الى أن تتوارى في الحجاب ، ومنها ما يأخذ يومين وثلاثة ، وأن القصار منها ذات العمودين والثلاثة لا تحرر في أقل من ساعة ، وأن على هذا المسكين الذي يتقاضونه كل هذي المشاق أشغالاً اخرى لنفسه ولعائلته ولوطنه ، وأن عنده كتباً لا بد أن يطالعها الخ . هذا لا يهمهم أصلاً بل يعرفون جملة واحـدة من جميع بضائع الطلب : تكرموا علينا بمقالات من قلمكم السيال .

وفي أوربا يطالبون الكتاب بمثل ذلك لكن لا يضيعون على كاتب دقيقة واحدة سدى ، فالوقت نقد وكل وقت عندهم له ثمن . وأنا مضى عليّ الآن (٤٤) سنة وأنا أحرك قلمي ، وأكتب إلى الجرائد مجاناً لا أبتغي جزاءً ولا شكوراً ، وأدفع اجرة البريد من كيسي ، فلو حسبت لا ثمن وقتي بل اجر البرد من ٤٠ سنة الى اليوم لكانت مبلغاً لا يستخف به ، فأنا أسامح بكل ما تعبت وكل ما أنفقت من ذهني وعيوني ومالي ، وإنما أستمطر دموع شفقتهم أن ينظروا الى رجل وطيء ساحة السنين ، وصار محتاجاً إلى الراحة . . . . ولقد يقال لي إذا كان الامر كذلك فلا تبال بطلب زيد ، ولا باقتراح عمرو ، وامض في شغلك ، وأنت حر لست مقيداً بخاطر أحد .

والجواب : نعم كل هذا ممكن ، ولست مضطراً أن أرضي الناس بكل مايريدونه مني ، ولكن الحصة التي اريد ان استخرجها من هذا ، على رأي الترك ، هي قصور أمتنا في معرفة أصول الاجتماع ، وسيرهم الى الآن على الطريقة البدوية . فكما أن المسافر في الفلاة يدخل أيّ بيت يراه فيها ، ويرى حقاً على صاحب البيت أن يتلقاه ، وأن يَقريه ، كذلك كل انسان منا يرى له الحق أن يستبد بوقت الآخر ، ويستثمر عقله وعلمه وجميع وسائله ، ولا يرى في ذلك عجباً . فهذه لا أجد منها شيئاً عند الأمم الأوربية التي لا تفهم كيف أن الانسان يطالب الآخر بسطر واحد يكتبه مجاناً ، فضلاً عن المقالات الكثيرة والحوائج الثقيلة ، والتي لا تفهم من كرم الأخلاق أن الكريم يجب أن يصير عبداً لمن يكرمه ، بل الحرية عندهم هي فوق كل شيء .

ولشيرون بأن نجمع ما كتبناه أو شيئاً مما كتبناه ، وهو أمر يحك في صدري دائماً ، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك ؟ إني لا أريد أن أجمع كل ما كتبته فانه يملأ أجلاداً وأجلاداً ، ومن يقرأ هذا كله ؟ ومن يؤدي كلف طبع كل هذا ؟ ولكني أفكر في انتقاء الاحسن وجمعه ، واعادة النظر عليه ، وتصحيح شيء ، وحذف شيء ، واضافة شيء يسير إن وجد ضرورياً ، وهذا كله يستلزم وقتاً . فأما طبع كل ما خطته بناني فغير مستطاع ، لأنه مفقود منه الشيء الكثير ، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم ، فاني في أوربا منذ اثنتي عشرة سنة ، وفي الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات ففي السنة ١٢٠ مقالة ففي الاثنتي عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة فاذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب فهذه فوق أربعة آلاف صفحة أي ثمانية مجلدات كبار ، وهذا عن ١٢ سنة ، وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة ، وأنا اكتب ، فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتي عشرة سنة الأخيرة ، فهذه عشرة آلاف صفحة بالاقل . كلا هذا لن أقدر على طبعه . وهذا كله ذهب في الجرائد الطائرة ، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتي ، وكفنته باجرة البوسطة ، من كيسي واجره

على الله . وغاية مكافأتي عليه أنهم بعد موتي سيقولون في ترجمة حالي : كان رحمه الله يكتب كثيراً جداً سبعاً أو ثمانياً من الساعات كل يوم ، ولم يكن يساويه في ذلك إلا المرحوم كرد علي . فلذلك ايضاً كان من الافذاذ في هذا الباب . لا تحزن لقولي المرحوم كرد علي ، عسى لا يكون ذلك قبل مائة سنة ، ولكن ينبغي ان تعلم انك لا تعطى حقك إلا بعد فراق هذه الدنيا ، وما دام المرء حياً فقلوب معاصريه قاسية عليه ، وأنا افضل أن تقسو عليك القلوب وأنت حي ، من أن ترثي لك وتكثر من انصافك وقد مضيت بعد زمن طويل . . . »

وكتب الأمير بعد سنتين انه متخذ بكل ما يكتبه سجلاً يومياً يذكر فيه كل مايكتبه من مكتوب خصوصي او مقالة او غير ذلك . وعندما انتهت سنة ١٩٣٢ جمع منتوج القلم هذا العام فبلغ (١١٥٣) مكتوباً خصوصياً و(١٠٨) مقالات وقصيدة واحدة ونحواً من الف صفحة من علاوات على حاضر العالم الاسلامي وصفحات أخرى لم يحصها بعد من كتب أخرى . قال وكانت المقالات السنوية تبلغ المئتين ، والمكتوبات الخصوصية تبلغ في السنة الالفين ، وقد كان يمكن ان تكون المقالات أكثر من هذا القدر بكثير ، وكذلك ما أزعمه من التآليف ، لولا كثرة المكاتيب أو المكتوبات المتواردة من جميع العالم الاسلامي ، فهذه المراسلات الخاصة تأخذ أكثر وقتي ، ولا مندوحة لي عن الجواب لاني اعد ردّ الجواب كردّ السلام ، وأرى عدم الرد نقصاً في المروة . وإني أتألم من ضياع الوقت في كثير من الرسائل الخصوصية التي خمس او ست منها فقط تأتي على النهار كله ولكن ما العمل ؟ كنت مرة في برلين وكان أخي عادل يرسل لي من لوزان مجموع ما يأتي به البريد باسمي ، فكتب لي مرة على سبيل المداعبة : جاء بريد سورية ، وبريد مصر ، وبريد الحجاز ، وبريد العراق ، وبريدالمغرب ، ولم يبق إلا بريد خراسان وماوراء النهر . الى ان قال والكتاب المعروفون في اوربا عاملون بقاعدة « الوقت نقد » فلا يضيعون أوقاتهم بالجواب على الكتب الخاصة إلا ما ندر لأنهم ينفقون

بصائرهم وأبصارهم على الكتابات التي يبيعون منها ويعيشون بها ، أما نحن الشرقيين فلا نعرف هذا الحد من حب الذات ، والضيافة عندنا مقدسة حتى على العيون ، وقصارى ما يرجوه الواحد منا هو عدم المعاتبة إذا تأخر الجواب لانه متى كثر الشيء لم يكن بد من التدريج في تسريحه اھ .

وكتب الي يصف عمله في كتبه وما يعد للنشر منها وختم قوله بهذا (كتب الله لك ولي السلامة حتى نشفي غليلنا نحن الاثنين مما نريد أن نكتبه ولا نموت الا وكل واحد منا قلمه في يده) . اھ .

كنت اذكر مرة لصديقي مصطفى بك العظم بعض صفات الأمير شكيب فقال لي : إنا معاشر الشبان لا نعرف كل هذا ، فهل لك أن تمن علينا بكتابة فصل في مذكراتك ، تثقفنا بسيرته ، ولنعلم ابناء الجيل القادم فضل الرجال الذين عملوا لنا طول حياتهم ، فكتبت هذا وما هو في الحقيقة ترجمة مستوفاة لحياة شكيب الحافلة بجلائل الأعمال ، بل هو مثال مصغر من جهاده ودؤوبه واخلاصه في خدمة العرب والاسلام توخيت ألا أخرج به عن اسلوب المذكرات ، ولكل مقام مقال .



تمدين بلاد العرب

قلت لمن حرصوا على شخوصي إلى الحجاز في العهد السعودي : ليبدأ جلالة الملك ابن السعود بثلاث مسائل ، وهي تغني الآن عن ذهابي وذهاب أمثالي . ليجعل لكل من الحجاز ونجد موازنة خاصة ، يدخل في كل واحدة منهـا مبلغاً احتياطياً لا ينفق إلا في الطوارىء الشديدة . ويشرع بتدريب الفين أو ثلاثة من الجند ، يعلمهم على النظام الحربي الحديث ، ثم يزداد المجندون مع الأيام ، فقد رأى ما حلّ بالملك حسين لمـا غفل عن هـذا الأمر المهم ، فالبـدو لا يكونون سياجاً لدولة فتية ولا عجوز . وليرسل إلى مصر خمسين طالباً ذكياً من أبناء الحجاز ونجـد ممن درسوا الدروس الابتدائية ، يتعلمون في مدارس مصر الثانوية ما يؤهلهم للدراسات العالية ، كأن يكون منهم مهندس الطرق ، ومهندس الريّ ، ومهندس الكهرباء ، ومنهم يكون رجال الزراعـة والتجارة والطب والادارة والتربية الخ ، على أن يزداد عددهم عشرة في كل سنة وبذلك يدوس جزء من أرض العرب عتبة الحضارة بقدم ثابتة مستديمة . وقد حقق الملك بعض هذه الرغيبة .

من أقصى أماني كل عربي عارف أن يتحضر العرب ، ولا سيما أهل الحجاز وما إليها واليمن ونجد وما والاها ، كما تحضرت بحضارة هذا العهد مصر والشام والعراق ، على اختلاف بينها في درجات المدنية ، فان هـذه الأقطار الثلاثة تمثل الآن الحضارة المصرية . ولا يتم التحضير المنشود إلا باعداد فئة من الخاصة تُختار من أبناء تلك الممالك فتعمل هي على إسعادها في الأمثال « قتل أرضاً عالمها » . هذه الطريقة طويلة لكنها مأمونة قويمة وبغيرها لا يستقيم أمر هناك ، ولا سبيل إلى النهوض إلا بالاكثار من أهل هذه الطبقات ، والقضاء على الأمية قضاء أبدياً .

لا يُعجز صاحبي اليمن والحجاز ونجد شيء إذا عزما عزماً قطعياً على الدخول في التمدين على هذا الوجه ، فعندهما المال ، وأمامهما كل طرق النجاح مفتحة في هذا الباب ، وها قد رأينا الامام ابن سعود لما صحت عزيمته على توطيد الأمن ، وتنظيم شؤون الصحة ، كيف أتم ما نفاخر بعمله . ورجائي أن يشتغل المقربون منه لمصلحة الماهلين العظيمين أكثر مما يعملون لمصالحهم الشخصية . وأن يدركوا أن التحرر السياسي لا يدوم إن لم يشفعه التحرير الاقتصادي ، وأن الاستعباد الاقتصادي أبشع ضروب الاستعباد .

كتب إليَّ الأمير شكيب أرسلان من الطائف يوم ١٥ المحرم ١٣٤٨ كتاباً في حالة الجزيرة ، وما يراه في اصلاحها ، رأيت ان أضمه إلى هذا الباب ، عسى أن يكون منه لأمتنا ما ينفعهم قال : ولا يخلو البلد (الحجاز) من أدباء وأبناء بيوت نبيلة مهذبة إلا أن هذا العدد قليل . ولكن الأمور في الحجاز أيضاً سائرة إلى الأمام ، وهناك نهضة ، وهناك فكرة عربية ، وهناك نزوع إلى ما نزعت إليه سائر الأمم من الرقي العمراني والأدبي . وعسى أن نكون قمنا بجزءٍ ضئيل من التأسيس لهذه المشروعات النافعة لأن جلالة الملك ابن سعود ، والحق يقال ، رجل كبير واسع الادراك ، سريع انتقال الفكر ، منطقي المحاكمة ، يقبل كل ما فيه خير للبلاد من مادي أو معنوي ، ولكنه يسير في الاصلاحات سير من يقبل منها شيئاً بلا تردد ، ومن يتروى في الشيء الآخر ، ومن يرد بعضها لأسباب لا تزال موجودة وبالاجمال هو يضع الهناء مواضع النقب .

قال والحق يقال إن الطائف هي قطعة من الشام أقامها الله في الحجاز ، لا بل لك أن تقول هي قطعة من أعالي جبال الشام كمملولة والنبك وعسال الورد وذلك الصقع الممتاز بحسن الهواء وعذوبة الماء ، فهي رحمة بجزيرة العرب ، وأظن أن مستقبل الطائف والجبال المحيطة بها ، والتي فيها قرى أعلى من الطائف ، سيكون عظيماً لا سيما إذا ارتبطت بسكة حديد مع جدَّة ، فربما تصبح مقصداً للسياح المسلمين وللمصطافين من الأقطار المختلفة .

ومما يسرك أن البلاد من الطائف جنوباً إلى ابها ، وهي مسافة ٨ أيام على الراكب ، ومن أبها إلى صنعاء ، وهي مسافة ١٥ يوماً كلها صقع واحد في الارتفاع عن سطح البحر . وفي حسن الهواء ، وعذوبة الماء ، وتزيد على جبالنا بخصب الأراضي ، وإن كانت جبالنا الشامية أغزر ماء ، وأسيح أنهاراً ، وهذه النجود والسهوب التي في هذه الدرجة من الخصب ، وحسن الاقليم والتربة الخصبة تشرف على تهائم وسواحل ممتدة من شمالي عسير إلى نواحي عدن من أعظم بلاد الله قابلية زراعة ، وإن كان الحر فيها شديداً .

فالذي يراه هذا العاجز هو أن تعبيد الطرق ومدّ الخطوط الحديدية ، سيجعلان من جزيرة العرب الوطن السعيد الذي تتحقق به الأماني ، فالساحل ساحل والجبل جبل ، وكل منهما يكون متصلاً بالآخر بفضل المواصلات والطرق الحديدية ، وللناس في جروم البلاد وصرودها جميع نباتات الاصقاع الحارة والباردة ، دانياً بعضها إلى بعض . هذا فضلاً عما في مد هذه الخطوط الحديدية من تقريب المسافات ، وتقريب الأفكار ، وتوحيد الخواطر ، ، وجمع كلمة الأمة العربية وادناء الأقاصي بعضها إلى بعض ، فان المواصلات هي الأساس في وحدة الثقافة والحضارة كما لا يخفى ولما بدأ كافور بمشروع توحيد الأمة الايطالية كان أول ما وجه إليه نظره مدّ السكك الحديدية بين شمالي إيطاليا إلى جنوبها ، وهكذا قل في سائر الممالك التي توحدت .

وستقول لي الآن : عظيم جداً كل هذا الذي تتخيله يا أخي شكيب ، ولكن هل في نية الملك ابن سعود والامام يحيى أن يمدا هذه الخطوط الحديدية التي تقول عنها ، وأن يربطا أجزاء هذه القاصية بعضها ببعض ، وأن يعملا هذه الأعمال ، وأن يحققا هذه الآمال الخ ؟ فأجيبك : كلا ، هذه المشروعات لا اقول إنها على طرف الثمام ، وذلك ليس لجهل الامامين المشار إليهما بفوائد الطرق والسكك الحديدية والمشروعات العمرانية ، ولكن لصعوبات اخرى لا تكاد تحصى منها ما هو اقتصادي ، ومنها ما هو إداري

ومنها ما هو سياسي . فأما الموانع الاقتصادية ، فان هذه المشروعات تقتضي ملايين وملايين من الجنيهات مما لا يوجد إلا عنـــد الاوربيين . ومما لا مشاحة فيه انه لا يجوز إعطاء شيء من الامتيازات لمشروعات كهذه لرواد المطامع الأجنبية . وسماسرة الاستعمار ، طلائع الابتلاع والالتهام ، على حين ان المسلمين وحدهم لا ينهضون ببذلاء كهذه ولا يدفعون اموالاً ولو وجدت عندهم لاجل المشروعات العمرانية ، لأنهم اقل الناس اعتماداً على طريقة الشركات . واما الموانع الادارية فانك لا تجد لهذه المشروعات النفر اللازم لها من العرب ، وان اهل هذه البلاد تغلب عليهم البداوة كما لا يخفى ، فلا بد من وقت طويل حتى يرتقوا إلى سوي اهل سورية مثلاً .

فأما اهل سورية الذين كان يرجى منهم ان ينتشروا في جزيرة العرب صناعاً وزراعاً وتجاراً وعمالاً فانهم يفضلون الهجرة الى أقاصي الغرب ، ولا يتركون زاوية من أميركا او افريقية الغربية واستراليا حتى يرتادوها بدون ادنى عناء ، وتراهم مع ذلك لا يريد الواحد منهم أن يطأ جزيرة العرب لا نجدها ولا سهلها بقدمه ، وتراهم يشكون الحر الذي فيها ، ويتخوفون اذا جاؤها من مغبة الحر ، وينسون انهم يعانون من حر أميركا الجنوبية ورطوبتها وامراضها ما يزيد او يساوي حرارة جزيرة العرب التي هي في الواقع لا تعد شديدة إلا في التهائم . فأما الجبال الممتدة من الطائف الى صنعاء أي مسافة نحو شهر على الراكب فانها كأحسن ما يكون من جبال لبنان ، وتمتاز بخلو اهويتها من كل رطوبة ، فهي من اصلح الاقاليم للسكنى . ولقد بلوت هواء الطائف بنفسي ، وعرفت من سرعة انعاشه للضعيف ، ما لم اعرفه من بلد آخر في حياتي .

فأما الموانع السياسية فان ملوك جزيرة العرب اصبحوا يستوحشون كثيراً من مد الخطوط الحديدية في الجزيرة ، لما يرون وراءها من تقريب المواصلات مع الاجانب الذين يتمثل لهم شبح استعمارهم في كل ليلة ، ويجدون

ايضاً أن من العرب فئة ليست بقليلة لعمل كل شيء ، ولو اضرت بمجموع الامة وأحبط عليها استقلالها ، وذلك انتقاماً من الاشخاص ، وجرياً مع الأهواء والاحقاد الشخصية ، فيرى هؤلاء الملوك ان اعداءهم يكونون مطايا للاستعمار ، ولتدخل الاجنبي في الجزيرة ، بمجرد ما تلوح لهم الفرصة ، فيعدلون في سياستهم الى الانكماش في داخل اراضيهم ، والاعتصام بفلواتهم ، موصدين في وجوه الاجانب ، ومن يحطب في حبل الاجانب . ابواب البلاد بقدر الامكان.

ولقد تحادثت مع جلالة عبد العزيز بن السعود فلم اجده ينكر شيئاً من فوائد هذه السكك الحديدية ، ومن وصل اقطار الجزيرة شمالها الى جنوبها ولكني وجدته على حذر شديد في هذه النقطة مكتفياً الى هذه الساعة بسير السيارات التي اخذت تشق بلاده شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً قائلاً إنني ارى فيها الكفاية في الوقت الحاضر . نعم إنه مجتهد في اعادة الخط الحجازي وربط المدينة المنورة بسورية عوداً على بدء ، لما يعود على القطرين الشامي والحجازي من فوائد هذا الارتباط ، ولكنه يأبى ان يسلم بمطالب فرنسا وانكلترا في امر القطع التي في سورية وفلسطين وشرق الأردن من الخط الحجازي ، وفي أمر الامتيازات التي يملكها الخط ، وبالجملة لا يرضى أن يفضي على تحيف الدول الاجنبية لوقفية سكة الحجاز العائدة للمسلمين .

فأنت ترى أيها الأخ أن دسائس الغرب في حق العرب هي أيضاً من جملة عوائق المشروعات العمرانية في ديارهم ، ولكنني واثق أن الامة العربية مع الزمن ستتغلب على هذه الموانع ، وأنها ستنمو فيها الفكرة القومية السليمة من الأغراض الشخصية ، بحيث يصبح الكلام الأول لمن أيقنت الأمة بأنه هو الأقدر على صيانة استقلالها ، والأنزع الى استرداد حقوقها . ولا بد أن يأتي زمن تضعف فيه السياسة الشخصية ، بل تذوب في السياسة القومية العامة . وهنالك تنطلق أيدي الأمة وأولياء أمورها في المشروعات العامة المادية والمعنوية بدون نكير ، وبدون حذر من الدسائس المعهودة ، لأن الدسائس الاجنبية إنما هي ميكروب لا يقدر أن يرعى إلا في أجسام الامم الضعيفة الجاهلة ا هـ .

توارد الخواطر

كنت منذ سنين اطيل التفكير في انواع الحكومات في العالم فعلمني الزمن ان اكثرها غير صالح عملياً ، وخصوصاً في ديار كديارنا ، عرفت بتأخرها في بعض اوضاعها ، بالقياس الى الامم العريقة في حكم نفسها بنفسها . كنت انقد الحكومات الملكية المقيدة ويذهب بي النظر الى ان من الملوك من يحمل الضرر الى امته بسوء سيرته وان الصالح فيهم قليل وان بعضهم يرهق امته ليسرف فيما تهفو اليه نفسه اسراف جنون .

وكنت اذا نظرت في صورة الحكم النيابي أو الجمهوري اراه الى الفوضى ومن ابعد اساليب الحكم عن الحرية الحقيقية ، يتغلب فيه الاقوياء وتكون السيطرة للحزب الغالب ، وهذا لا ينظر على الاكثر في غير منفعة انصاره ومريديه وقد يفضلها على مصلحة الامة والدولة ، ولو كان يعتقد مضرتها . اما الحكومات الملكية المطلقة او الاستبدادية الفردية فضررها مشهور محسوس ، وخاصة في امم الشرق حيث القول الفصل للطاغية من الملوك والطواغيت من المتغلبين ، وحيث الشعوب لم تتشبع بروح الشورى واصول الحرية ، تساق بالرهبة وتحكم بالجبروت ، ولا تعرف للنظام والطاعة الذاتية معنى .

وكثيراً ما كنت اخاطب النفس فأقول : ليت شعري الا يصلح الحكم في دولة على ايدي جماعة مختارين من رجالها تكون لكل واحد مزيته واختصاصه يؤلفون مجلساً يرئسون احدهم عليهم فيكون رئيس تلك الدولة الى أجل مسمى ، فاذا خلا مقعد احدهم بعد ذلك يختارون هم من يخلفه لا الاهالي وذلك لان الاتكال على هؤلاء في اختيار نوابهم قد لا يكون الى الصواب كل حين ، ونصب النواب بطريقة معقولة مجردة عن الهوى في الجملة ربما

كان الى السداد أقرب . والنواب الذين ينتخبهم رؤساء الطبقات المختلفة أو يختارون بصورة من صور الانتخاب افضل ممن تختارهم الأحزاب وتدعو لهم . سألني صديقي الاستاذ ماسينيون وهو ممن يعنى بالسياسة الاسلامية في فرنسا اوائل الحرب الأخيرة (١٩٣٨ — ١٩٤١) عن حالة سورية السياسية فذكرت مساوئها والممت الى تخبطنا في كل ما جربناه من اساليب الحكم ، وقلت له ان حكومة الجمهورية كانت غريبة الشكل ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب . وقلت له رأيي في اختيار مجلس على الصورة التي ارتأيتها فاستحسن الفكرة وكتبت له على اسرع وجه مذكرة صورت فيها العمل وعينت الاشخاص الذين يجب التعويل عليهم في الحكم الجديد في هذا القسم العظيم من الديار الشامية .

تعلقت الاقدار بهزيمة فرنسا ، وبعد نحو سنة بدأت حكومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان بتطبيق طريقة جديدة في الحكم تشبه من بعض الوجوه الطريقة التي اختارتها لنفسها في القسم الذي لم يحتله الالمان من بلادها ، وسموا المجلس الجديد المجلس الاستشاري والى الآن لم يعين افراده ، وهذا المجلس اذا تمت له جودة الانتخاب يكون من أحسن المجالس . اما انا فأرى ذلك متعذراً ما دام فريق الوطنيين يريد اطالة مدة حكمه بمسايرة الموحين وهؤلاء لا يرضيهم الا أن يكون كل من يعين ممن ترضى عنهم دواوين الاستخبارات

ولقد الحّ عليّ رئيس مجلس الوزراء صديقي السيد خالد العظم أن اكون عضواً في المجلس الاستشاري الذي عقده في عاصمة الشام فاعتذرت بأن اشغالي العلمية لا تترك لي مجالاً للتفكير في شيء آخر ، وان نفسي الى اليوم ما طابت لتولي النيابات ، واظنها لا تطيب لها فيما بقي لي من أيام في الحياة . وقد جريت على قاعدة العفة عن مطالبة الامة بشيء ، جريت معها على ان اخدمها فيما اعتقد أن فيه الخير والا اطلب منها شيئاً .

وهناك سر آخر كتمته وما بحت به وهو اني اعرف ان المجلس سيرأسه لا محالة احد رجال سياستنا المقربين جداً من المنتدبين ، ومعظمهم ممن بلوت فما حمدت ، فمن العبث ان اساهم مع من اعتقد عدم اخلاصه وكفاءته ، وقد شبّ عمرو عن الطوق . ولو كان تولى المناصب الكبرى بالعلم ما كان يتولى الجهلة رئاسة الوزارات ورياسات المجالس على الغالب ولكان للعلماء نصيب مفروض في الزعامات .

لو كان من طبعي استثمار قوة غيري لما صعب عليّ تأليف حزب والسعي في طرق توصلني الى الرياسة الكبرى ، ومن بلغوها ما كانوا من ارباب الذكاء الذي لا نظير له ، ولا من ارباب العلم والفصاحة بالمكان الاعلى ، ولا من الخبرة والتجارب على جانب ، ولكنني ما احببت أن اوحد مسعاي مع من يتعهد بشيء ثم ينقضه بحسب هواه عند اقل بادرة ، ويترك من يعاونه في الازمات فيحترق كما احترق معظم من تولوا الحكم في ديارنا على العهد الاخير .

ولقد كان أحد من بيدهم النهي والأمر من كبار رجال الانتداب يريدني منذ سنين على أن أدخل في السياسة وأشار إليّ بأنه سيعهد إليّ رياسة الوزراء فأبيت . وقدمني هذا الصاحب إلى أحد كبرائهم مرة فذكر له صفات فيّ غالى في تقديرها ثم قال إلا إنه لا يحب السياسة . نعم هو على حق فيما قال ما أحببت السياسه لأنها جلبت عليّ الويلات وضياع الأوقات . ولو كنت أعلم أني أنجح فيها على طريقتي مع هذه الدول المتقلقلة والحكومات المستضعفة لكنت أول مشتغل بها ولا يقتصر مطمعي فقط في الرياسات الكبرى بل أقنع بأقل الأعمال إذا كان من ورائها فائدة محسوسة للوطن . وبلغني أن بعض الأحزاب في العهد الأخير اقترح على أرباب الشأن توسيد رياسة الوزارة إليّ بدون أن يفاوضني بذلك ، ولو سألني من قبل لحلت بينها وبين ما قالت فيّ .

إن العالم على أبواب حدث جديد لم يسبق له مثيل في التاريخ كما لم يسبق مثيل لهذه الحرب الحاضرة فكل ما يعمل من هذا القبيل موقت إذا ظفرت ألمانيا في هذه الحرب العوان . وهي التي كتبت لها الغلبة في كل مكان وطئته جيوشها في هذه الحرب الناشبة وستأتي العالم بقانون تجري تنفيذه على الأمم والشعوب في الغرب والشرق وإذا . تراجعت واضمحلت وغلبت بريطانيا العظمى في النهاية فان هذه تعمل كل ما ترى فيه مصلحتها مع الشعوب والأمم ومن مصلحتها تكثير الحكومات باسم الديمقراطيات وكل حكومة تسن انفسها القانون الذي ترضاه من أكثر الوجوه .



المعارف والادارة

فيما يلي صورة تقريرين ارسلتهما في أمر المعارف والادارة الى رئيس الدولة يومئذ الأول في طرق الاقتصاد من موازنة الجامعة السورية لفتح مدارس ابتدائية والثاني في الاصلاح اللازم في جزء عظيم من اجزاء الدولة وقد اقتصرت في الأول على ماله علاقة بالتعليم عامة واقتبست الثاني برمته نموذجاً مما كنت اكتب في اصلاح الادارة .

هذا يا مولاي زهاء خمسة وسبعين الف ليرة سورية من الوفر (وفر الجامعة السورية) ينفق قليل منها على تأسيس فرعي الدروس الأدبية العليا ومدرسة الآلهيات تضافان الى الجامعة وهو مبلغ زهيد لا يزيد على ثمانمائة ليرة دينارية وبذلك نكون انفذنا ارادتكم العالية في تأسيس هذين الفرعين المهمين لشدة الحاجة الى الباحثين والمؤلفين والقضاة والمفاتي والخطباء والائمة الدارسين على الاصول الحديثة ثم يصرف بقية المبلغ المقتصد وما يحصل من وفر المدارس والمعاهد الاخرى في الدولة على انشاء مئتي مدرسة ابتدائية هذه السنة تضم بين جدرانها على أقل تعديل عشرة آلاف من البنين والبنات وبهذا العمل نخطو الخطوة الاولى نحو التعليم الاجباري .

يقول الماليون انما يشرع الاتفاق العام في سبيل النفع العام فقط . والنفع العام هو التعليم الابتدائي اي التعليم الذي يدر على مجموع الامة الخير ويتناول نفعه كل الطبقات من ابناء الوطن . وتعلمون حالفكم التوفيق شدة عوزنا الى هذا الضرب من التعليم حتى نخرج هذه الامة من الامية اصل بلائها وشقائها في كل دور ، وتعلمون ان ادارة الصحة العامة طالما انذرت وزارة المعارف باقفال المدارس غير الصحية في مدرسة في صميم دمشق

تضم نحو اربعمائة طالبة وهي لا تسع في الحقيقـة مئة ولم تستطع المعارف أن تستأجر داراً قوراء تؤوي البنات فيها لضيق مخصصاتها وهكذا الحال في غيرها . ونعلمون أيضاً ان عشرات من القرى أعدت الدور وتكفلت بلوازمها على ان ترسل لها المعارف المعلم او المعلمة والى اليوم لم نجب الطلب لضيق موازنة المدارس الابتدائية . وانه لو كان للمعارف اماكن صالحة واسعة لزاد عدد المتعلمين زيادة كبرى ولم يقف عند حـد ٢٦٧٣٦ تلميذاً يدخل في ذلك تلاميذ التجهيزيات ودور المعلمين والمعلمات ومدارس الصنائع والمياتم وطلبة لواء الاسكندرونة ، في دولة لا يقل نفوسها في الحقيقة عن مليونين ونعلمون أيضاً ان لواء دير الزور كان فيه ايام الدولة العثمانية نحو اربعين مدرسة وليس فيه اليوم سوى اثنتي عشرة مدرسة هذا مع انه اضيف الى املاك الدولة السورية من الشمال نحو ثلث الجزيرة العليا ونحن نتاخم العراق من جهة واربع ولايات تركية من اخرى وهي ماردين وسيورك واورفة وعينتاب . وتعني الدولتان المجاورتان كل العناية بالتعليم والتربية ونعلمون الحاجة الماسة الى زيادة مبلغ طفيف لمعلمين يعلمون ابناء القرى مبادئ الزراعـة العملية وان عندنا مدرسة عظيمة في قضاء الميادين على الفرات تصلح لتعليم الزراعة العملية مع الدروس الابتدائية وللمدرسة أرض واسعة جداً سهل ارواؤها وكذلك في شمسكين في حوران فان فيها سرايا مخربة اذا رممت تصبح مدرسة زراعية بسيطة من هـذا القبيل ولها ارض واسعة يشقهـا نهر أيضاً ويعيش الاولاد في المدرستين عيش بلادهم ولكن على طريقة منظمة نظيفة ويتعلمون ما يحبب الارض اليهم وما يمكنهم في الحال زرعـه وغرسه من الحبوب والبقول والاشجار لا ليكونوا أصحاب شهادات فالضين عن الاحتيـاج يطالبون الحكومة كل حين بان يستخدموا في دواوينهـا ولو بأجر زهيد .

ان حالة الفلاح يا مولاي تحتاج الى اصلاح بليغ حتى يتعلم من الصنائع الزراعية والصنائع اليدوية ما يمكنه معه ان يعيش وتستفيد المملكة من عمله

وما برحت الصنائع الزراعية الى اليوم على حالة ابتدائية في جميع الاقضية والفلاح الراقي عندنا هو الذي يعمل الجبن والسمن وينسج بعض الاصواف الغليظة . اما الصنائع الاخرى فتكاد تكون مفقودة من معظم الاقضية فقد احتاجت المعارف في السنة الماضية الى اصلاح مقاعد مدرستها في مركز قضاء الميادين فلم تجد نجاراً في القضاء كله وبعض الأقضية لا نجار فيها ولا حداد ولا بناء ولا حذاء ولا حائك . وقد بدأت في السنة الماضية بعد أن شهدت هذا التأخر بالذات فأدخلت زمرة من أبناء لواءي حوران ودير الزور في مدرستي حلب ودمشق الصناعيتين ولكن الامة تحتاج من هؤلاء الصناع الى المئات بل الى الالوف ولذلك وجب على الحكومة أن تتوسع في تعليم البسائط من هذه الصناعات التي لا يستغني عنها اهل مجتمع مهما بلغ من انحطاطه .

ان عدة اقضية في الدولة السورية تحوي بضع مئات من القرى والمزارع وليس فيها سوى مدرستين او ثلاث . ان من القرى في ارجاء حلب ودمشق مافيه بضعة الوف من السكان وليس له مدرسة وفي غوطة دمشق مثال ظاهر من هذا النقص الذي يحتم على حكومتكم السنية ان تنظر فيه كله نظراً بليغاً خصوصاً بعد ان ثبتت قابلية امتنا بدوها وحضرها للاخذ بأسباب التعلم والتعليم الابتدائي وما بعده ان امكن ، هو الخبز الذي يحتاجه الناس للغذاء . وأمتنا أحوج ما تكون اليه أولاً وفي دولتكم نحو خمسة آلاف قرية ومزرعة ومنها ما هو كبعض المدن ليس فيها الى اليوم سوى ٣٤٠ مدرسة ابتدائية ووسطى وعليا واذا لم نبدأ بتجهيزها بالجهاز المطلوب فمتى نبدأ واذا لم نقتصد من الكماليات كيف تتم لنا الحاجيات .

هذا ما اراه صالحا لخير التعليم المنتج وبهذه الطريقة تصرف الأموال على من جبيت منهم بطرق مشروعة معقولة ورأيكم العالي الموفق مولاي ،

دمشق في ٢٦ شوال ١٣٤٧ و ٦ نيسان ١٩٢٩

لحضرة صاحب الفخامة رئيس دولة سورية المعظم

أوصلني البحث في شؤون البلاد التي فتشتها بأمركم العالي في الوية الاسكندرونة والفرات والجزيرة وحمص وحماه وبعض انحاء ولاية حلب الى أمور رأيت عرضها على فخامتكم لتنظروا فيها « أيدكم الله » وتجروا مايمكن اجراؤه من الاعمال التي تعود بالخير على هذه الدولة .

رأيت رغبة اكيدة في حرص الناس على تعليم أولادهم لا في المدن فقط بل في القرى الصغيرة . ومتى نشر قانون انشاء المدارس الذي تأخر في وزارة الداخلية على مابلغني لأمور اعتبرتها جوهرية الآن يزيد عدد المدارس في الدولة خصوصاً في القرى والبلدان التي لايصعب عليها أن تعاون الحكومة في انشاء الابنية لايواء أولادها . واذا طبق هذا القانون بالتدريج وبحسب الحالة التي يعرفها المديرون وقوام المقام والمتصرفون لاتمضي أعوام قليلة حتى يكون لكل مجتمع من الناس مدرسة . أما اتخاذ المدارس بالايجار فمحال أن تنتج منه النتيجة المطلوبة في التعليم فضلا عن أنه يكلف الخزينة والاهلين مبالغ لايستهان بها كل سنة .

خفت هذه المرة الدعاية التركية في لواء الاسكندرونة على نحو ماتجلت لي في رحلتي الماضية اليها وكان بعض الطلبة الذين درسوا سنين قليلة في مدرسة تجهيز انطاكية يقبلون مجاناً في المدارس العالية في انقرة بدون شهادات . وبالنظر للضيق المالي هناك أخذت الحكومة تمتنع عن اعطاء الكراسي المجانية حتى ان بعض من درسوا سنة او سنتين في المدارس العالية في أنقرة من أهل هذا اللواء عادوا الى انطاكية يطلبون قبولهم في مدرسة التجهيز في الصف الذي يؤهلهم اليه علمهم واستعدادهم . وكثير من اهل القرى التركية في لواء الاسكندرونة زهدوا في الحروف اللاتينية وامتنعوا عن تعليم أولادهم التركية الا بالحروف العربية لانهم رأوا مصلحة اولادهم في ذلك وهم في ارض عربية .

شاهدت بعض مفتشي الوزارات يحتاجون أن يفتشوا ابداً لانهم يكتفون بالظواهر ولا يهمهم الا قبض رواتبهم واخذ العلاوات والتعجيز في الوصول الى ترقيتهم فهم مفتشون ليس لهم من معنى التفتيش شيء يستحقون عليه هذه الرواتب وفي زمرتهم مفتش المعارف في لواءي حمص وحماه فانه يشغل وزارته في التافهات وليس له من أدوات التفتيش ما يركن اليه اذا جد الجد . فاذا كتب للمدرسة الابتدائية ان يكون معلمها أو معلمتها من الكفاءة بمكان تحج الاولاد والا فهو لا يعرف كيف يدرب الناقصين والعاجزين من المعلمين او يكتب لوزارته بالاستعاضة عنهم . فقد زرت مدرسة دير بعليه على مقربة من حمص فرأيتها أشبه باصطبل منها بمدرسة وفيها معلمان يشبه عملها عمل معلمي الكتاتيب الاهلية في القرى قديماً يتغيب أحدهما دائماً في حمص ولا من يعاقبه والآخر يكتب لأهل القرية حجباً وتعاويذ المحبة والقبول وما أظن المفتش زار هذه المدرسة والا لكان اكتفى باكثر المعلمين كفاءة واخذ معلم الرقية والحجب على الاقل الى المدينة ليضمه تحت المراقبة مدة في مدرسة كبرى فاذا لم يصلح نفسه يخرج من الخدمة وكان الاولى اختيار واحد من المعلمين يجعله في قريه زيدل المجاورة التي بنى اهلها مدرسة كلفتهم ثلاثين الف قرش وهم يطلبون الى المعارف ارسال معلم ويكون هذا من أهل المذهب الغالب على تلك القرية .

إن فاقد الشيء لا يعطيه يامولاي ووظائف الحكومة للكفاة لا لتأليف القلوب واكتساب الرضى ولذلك كان على كل وزارة أن تفكر ملياً يوم تريد توسيد أمر لأحدهم أن تنظر قبل شهاداته إلى ماضيه وأخلاقه وهذا ما يدعوني لأن أذكر لفخامتكم أن من صغار النقباء والعرفاء في الدرك اليوم من هم أكثر كفاءة من بعض مديري النواحي ويعملون عملاً نافعاً لا يستطيع المدير القيام به لعجزه وعدم اهتمامه . وقد استطلعت رأي بعض كبار رجال الادارة فقالوا معي بلزوم الغاء هذه المديريات أو أكثرها وذلك أولى من بقائها في أيدي جهلة ينقصهم كثير من الصفات للادارة .

نعم كثير من الموظفين لا يحسنون من النظام وحسن الترتيب مايؤهلهم لهذه المراكز ومنهم من لا يعرف أكثر من البلد الذي هو فيه فاذا سألته عن أمر يتعلق بوظيفته مباشرة لا يحسن الفهم ولا الجواب فتتجلى لك جهالته وعدم عنايته ، وكأنه لا يهتم بغير مصانعة أصحاب الشأن أبداً والسعادة التي يرقبها أن ترقي درجته ويكون في مركز في بلده او بالقرب من بلده وقديذكر لك مايقاسيه وأولاده من شظف العيش قبل أن يطلعك على شكاوى الناس وما يجب عمله لتخفيف ضائقتهم والنظر في أحوالهم . وأحق الموظفين بالرعاية فيما رأيت موظفو لواء الجزيرة يجب ان تعطي لهم علاوات أو يعينون في أرقى درجات وظائفهم لصعوبة العيش المرفه في هذا اللواء وهذا ما أطلبه أيضاً لبعض المتصرفين فان رواتبهم لا تكاد تكفيهم لان يمثلوا الحكومة تمثيلاً كافياً ، ومراكزهم تضطرهم للانفاق بالضرورة . واري بعد هذا أن لا يطول مقام الموظف في الاقاليم النائية عن الحواضر القديمة أكثر من ثلاث سنين .

ان من أنجع الوسائل في توطيد شأن الحكومات أن تطبق مفاصل القانون على المسيء ويكافىء الكفوء المستقيم وهذا ما رأيته يسيرببطء تقضيحالة هذه الدولة الفتية بالسير على خلافه لتزيد شعور الاهلين بان العاصمة تهتم بشؤونهم كل الاهتمام . وما احلى اليوم الذي ينحى فيه الموظف المسيء الجاهل ويعلن للملأ أنه نحي للسبب الفلاني ويكون ذلك باسرع ما يمكن لا كما جرى باحد قوام المقام في لواء الفرات فقيل ما قيل فيه واكتسبت أعماله درجة التواتر بل الثبوت وهو لا يزال في مركزه يأمر وينهي . وأنا لا أعلم السر في بقاء مثل هذه الحلمات الطفيلية في منصات الحكم . وإذا لم يكن للعامل من أخلاقه وغيرته على مصلحة بلاده وازع هيهات أن ينجع فيه قانون سماوي أو ارضي .

نعم ان من اخرجوا من الخدمة أمثال هذا الموظف ومن أبناء سلكه من هم بلا جدال أقل ضرراً منه بمصلحة الدولة والملة . الرشوة يامولاي كالزنا صعب اثباتها ولكن إذا أمن الراشي والرائش طائلة العقاب تتجلي

الحقيقة من أيسر وجه . والرشوة أنواع ومن أبشعها أن يصانع القاضي أهله ولذلك تقضي الحكمة بأخذ بعض الموظفين في الاسكندرونة إلى جهة أخرى وأخذ بعض رجال القضاء في حلب وفي دير الزور الى ناحية لا أهل لهم فيها . ونحن لم نبلغ من الرقي درجة الكمال حتى يكون حكمنا مجرداً عن هوى الاهل والولد . بيد أن العدلية كما سمعت من عارف من رجال الانتداب هناك احسن سلك أحس بالاصلاح لما دخله من العناصر الجديدة الجيدة وأنا أحسست أيضاً أن الدرك الذي كان أداة شر وافساد في العهد التركي أصبح من أرقى الادارات في هذا العهد الحديث .

وإذا ثبت لدينا ان بعض المديرين وقوام المقامات ضعاف عن القيام بوظائفهم فان من صغار المأمورين الذين عينوا شفقة عليهم او لاسباب أخرى في وزارة النافعة مثلاً من هم أضر على اعمال الدولة من غيرهم . فمأمور لم يجد عملاً تجارياً ولا زراعياً ولا صناعياً لمعطيه ثلاثين او اربعين ليرة سورية وهو سالبة كلية من حيث المعلومات وترسله يناظر على طريق أو بناية أو جسر أسرع إلى تناول الرشوة من المتعهد وغيره من الماء الى الحدور . وقد ثبت لبعض الواقفين من رجال الانتداب في لواء الجزيرة ان كل تعهد يقوم به الارمن هناك تكون أكثر مواده مغشوشة لان المراقبين لا يحسنون شيئاً من فنهم ولا يهتمون بغير املاء جيوبهم والمتعهد جاء ليربح على كل حال . والرأي ان نختار الطريقة المتبعة في فرنسا يوم يراد تشييد مبان للحكومة وذلك بان يطرح العمل المنوي اقامة لأرباب الاختصاص يكتب فيه كل من يريد التعهد قائمة نفقاته ويعطي التعهد بعد ذلك لمن يقع اختيار الحكومة عليه وترى شروطه اكثر موافقة اما طريقة المناقصة فلم تأت اكثر الاوقات بغير الضرر ومن المناقصين من تعهدوا فحسنت مراقبتهم فخسروا ، وبعض من خفت المراقبة على أعمالهم التزموا الطريقة المذكورة في ارضاء المراقبين الجهلة حتى يسكتوا عن نواقص مشروعهم

وما ادخلوا من الغش على العمل الذي اخذوا على انفسهم القيام به بشروط محدودة مقيدة . اما الطريقة التي سير عليها في انشاء تدمر الجديدة فأنتم تعرفونها وتوقنون انها غير ملائمة من حيث الاقتصاد والمتانة وربما كان يتأتى اقتصاد ربع المبلغ الذي انفق على تدمر وكان في الامكان ارضاء الاهلين الذين استنكفوا او أكثرهم عن السكنى في دور مهددة بالسقوط كل حين وليس فيها من المرافق اللازمة ما يرغب في اقتنائها . ولعـــل الغلطة التي ارتكبت في اقامة هذه الدور لا ترتكب في المستقبل . اما الجامع الجديد في تدمر فهو يكفي لاهل قرية سكانها ثلثمائة نسمة لا لبلد سكانه اربعة آلاف ولذلك ضاق بالمصلين فأخذوا ينشؤن لانفسهم جامعاً آخر . والمدرسة المنشأة هنـاك حسنة لو عمـل الى جانبها مدرسة للاناث على طرازها . وعلى ذكر المدارس ارى ان يصدر امركم بانشاء مدرسة تجهيزية في حمص أسوة بجارتها حماة .

واني لمغتبط جد الاغتباط بما رأيت من قيام اعمال مهمة في بعض انحاء لواء الجزيرة الذي لم تضع فيه الدولة البائدة حجراً على حجر فان بضعة من الجسور والطرق والمدارس ودور الحكومة مثال من العناية بذاك اللواء الجديد والحكمة تقضي بمضاعفة هذه العناية وان ينشأ فيه في السنة القادمة عشر مدارس ابتدائية لا تكلف اكثر من عشرة آلاف ليرة سورية وينشأ جامع فخم في عين دوار . اما عمل الاهلين في ارض الجزيرة فهو اعظم أثراً ذلك لان الحسجة التي لم تكن قبل ست سنين سوى قرية صغيرة أصبح سكانها اليوم نحو خمسة آلاف وكذلك يقال في القامشلي التي لم تكن تضم قبل ست سنين سوى بيت واحد وطاحون فأصبحت اليوم تحوي اثني عشر ألفاً من السكان مخططة على صورة هندسية جديدة منارة بالكهرباء مغروسة بالاشجار ، وغداً تلحق بها عين دوار وغيرها .

والمعلـوم ايدكم الله ان معظم من هاجروا إلى تلك الارجاء هم من العناصر الكردية والسريانية والارمنية والعربية واليهودية . وجمهرة المهاجرين

في الحقيقة هم من الاكراد نزلوا في الحدود . واني ارى أن يسكنوا بعد الآن في أماكن بعيدة عن حدود كردستان لئلا تحدث من وجودهم في المستقبل القريب أو البعيد مشاكل سياسية تؤدي الى اقتطاع الجزيرة أو معظمها من جسم الدولة السورية لأن الاكراد إذا عجزوا اليوم عن تأليف دولتهم فالايام كفيلة بان تنيلهم مطالبهم إذا ظلوا على التناغي بحقهم والاشادة بقوميتهم ومثل هذا يقال في اتراك لواء الاسكندرونة فان حشد جمهرتهم فيها قد يؤدي إلى مشاكل في الآجل لا يرتاح اليها السوريون فالاولى اعطاء من يريد من الترك والاكراد ارضاً من أملاك الدولة في ارجاء حمص وحلب .

ثم ان من ينزل من المهاجرين على ضفاف دجلة والخابور وجغجغ والبليخ والفرات يقتطعون من شطوط تلك الأنهار ما يروقهم من المساحات فيستقون منها للارواء ما يقتدرون على اروائه ويتركون ما وراءهم من الأرض بوراً لتعذّر السقيا الآن ولا يبعد أن يجيء يوم تمتلك فيه تلك الشواطيء — مع ان اكثرها ملك الدولة لها حق التصرف باعطائها لمن تريد — فاذا أحبت الحكومة أن تحيي موات الأرض البعيدة لعذر على من ينزلها الوصول الى ضفاف الأنهار فتبقى أرضه عذياً . والأرض العذى لا قيمة لها في هذه الجزيرة التي توفرت فيها المياه الجارية وارتفعت في جوها درجة الحرارة في الصيف الى مثلها في مصر والعراق اي انها تبلغ من ٤٤ الى ٤٦ درجة . ولذلك تقضي الحكمة بان توزع الأرض على نصاب عادل فمن يملك في الأماكن القريبة المأخذ يتحتم عليه أن يحيي جانباً من الأرض الصعبة . ومهاجرة الكرد والارمن يجب في كل حال أن يمزجوا بالعرب في القرى الواقعة في أواسط البلاد لا على حدودها اتقاء لكل عادية تطرأ ونحن الآن في أول السلم نستطيع التفكير والتقدير .

بقيت مسألة مالية يظهر أثرها هذه السنة والعقل يقضي بحلها وأعني بها مسألة تعداد الأغنام . ومعلوم ان المواشي هي أهم مورد في لواء الجزيرة

واذا سقطت أسعار الصوف والسمن والماشية في كل مكان كان أكثر الاصقاع تأذياً بذلك من لا مورد لهم غير شياههم وجمالهم فالشاة التي نتقاضى منها خمسة وأربعين قرشاً سورياً يؤخذ عن مثلها في العراق نحو عشرين قرشاً سورياً وفي تركيا أربعون قرشاً تركيا أو نحو خمسة وعشرين قرشاً سورياً فاذا انزلنا هذه الضريبة الى النصف توشك أن تدخل أرضنا قبائل كثيرة من العراق وتركيا على ما جرى من قبل ويتخذون ديارنا موطناً لهم وننجو من التهريب الذي كان على مقياس عظيم في السنين الفائتة .

ولا بد من الملاحظة أيضاً ان الخروف الذي حال عليه الحول يساوي في قضـاء القامشلي نحو ١٥٠ قرشاً سورياً ولا يساوي غـير مئة قرش في قضاء عين دوار وذلك لصعوبة نقل الماشية في ربوع لعد مسافاتها بمئـات الكيلومترات الى منافذ يمكن أن تقام لها سوق رائجة .

ولا أريد أن اختم تقريري هذا قبل ان احيط علمكم الشريف بمسألة لها المقام الاول في عمران دولتنا واقصد بها مسألة التشجير . فان غرس الاشجار اذا كان سائراً سيره الطبيعي في الساحل كلواء الاسكندرونة فانه متأخر جداً في ولاية حلب ولواءي الفرات والجزيرة . فوزارة الزراعة يجب أن تضاعف عنايتها بهذا الامر وتعهد الى اخصائيين من ارباب الهمم العالية ان يتوسلوا بكل وسيلة مع رجال الادارة لحمل الناس على تشجير أرضهم وحمل كل بلدية على ابتياع مايمكنها كل سنة من الغراس وتعهده بالارواء والايعاز لـكل قرية أن تشجر ولو أرياضها كما فعل متصرف حمص وحمل بعض سكان القرى منذ ثلاث سنين على تشجير مساحات واسعة في جوار قراهم فنجح أكثره ومنه المثمر ومنه غير المثمر ولا يبعد ان يكون السليم في لواء حمص الآن من الاشجار الجديدة قد بلغ مليوني شجرة والهمة منصرفة بحمل الأهلين على اتمام مابدأوا به وبذلك يصبح لواء حمص نموذجاً بين الالوية التي عملت بارشاد الحكومة وقامت بواجبها .

هذا مارأيته بحسب ماساعدني الوقت واذا درست كل قضية بذاتها درساً

فنياً لظهر نتائج لاتخطر لنا الآن ببال . ومن الصواب بعد هذا أن يكثر كبار رجال حكومتكم الرحيل الى الالوية البعيدة خصوصاً ما كان متاخماً منها لمجاورينا وان يكون من يتولى فروع الاعمال الحكومية فيها من أرق رجال الامة عقلا وعلماً وعملا يعطون الاختصاص الواسع بحسب كل اقليم وصقع ليعملوا مافيه المصلحة غير مقيدين على الاكثر الا بقيود العقل . والمسؤول لتعالى أن يزيد في توفيقكم لخدمة البلاد مولاي المعظم

دمشق في ٨ رجب ١٣٥٠ و ١٨ تشرين الثاني ١٩٣١

وزير المعارف

محمد كرد علي



الاغتيال السياسي

لأول مرة اغتيل رجل من رجال السياسة في الشام . اغتيل صديقي الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وهو يخدم الانسانية في عيادته بدمشق ، بعيداً عن خليلته وأولاده في القاهرة ، وكان اتخذها دار اقامة في الربع الأخير من حياته . فاتهم بادئ بدء ثلاثة من كبار الكتلة الوطنية قيل انهم دبروا أمر القتل انتقاماً لكتلتهم ممن كان العامل الأكبر في تحطيمها ، فتآمروا على اغتياله على أيدي خمسة من الرعاع . وكان أحد المتهمين السيد جميل مردم هـدد الدكتور في خطبه الرسمية أيام وزارته غير مرة ، ثم حاول أحدهم أن يقتله في طريق دومة فأخطأه ، ولكن تبين للمحكمة أن الدلائل القـانونية كانت غير متوفرة على المتهمين فغيروا ما اعـترفوا به في التحقيق الأول فبرأتهم وادعى المتهمون ان ما حملهم على اغتيال الزعيم غيرة دينية ! وأشياء كانت شائعة عنه من مثل انحلال عقدة الدين وعقدة الوطنية فخدعوا وارتكبوا ما ارتكبوا ثم ندموا على فعلهم . وكان بعض أحباب شهبندر يخافون على حياته في الأيام الأخـيرة ، ويطلبون اليه التوقي ، فـكان يقول : أنا ابن الشعب وخادمه لم أؤذه ولا اؤذى . لكن الاقدار جرت على خلاف ما كان يُرجى .

كان شهبندر يتهم بحب الانكليز والدعوة لهم ، وقيل إنه انتفع في ما دياته من هذه الخدمة ، وهذا اجتهاد منـه ، والمرء حرٌ باجتهاده على ألا يغفل مصلحة امته ، وإذا عد أعداؤه ذلك عليه سبة ، وأنكروا عليه عقيدته ، فان من المتزعمين من كان يعمل لفرنسا ، ومنهم لايطاليا ، ومنهم لروسيا ، وغيرهم للأتراك ، وما كانوا يرعون إلا مصالحهم الخاصة ، وما كانوا مثله الي الاستقامة وحب الخير . وشهبندر كان من القائلين بالوحدة

العربية ، ويعمل على اعـــداد قومه لها ، وكان مثال التسامح ، دام على نغمته السياسية منذ كان في المدرسة ، وفي ذاك الطور من حياته عرفته ، الى أن اتي مصرعه . ومهما اختلف الناس في الحكم عليه ، فهو أرقى علماً وأخلاقاً من أكثر خصومه ، أحباب الأمس أعداء اليوم ، وهم يفوقونه باتحاد كلمتهم .

قلت في تأبينه ان منزعه ما كان يخرج عن الدعوة لاقامة كيان سياسي لملته ، والسعي لشفاء اهلها من أمراضهم الاجتماعية ، والعمل على تهذيب النفوس بعلوم الحضارة الحديثة ، وثبت على هذه الدعوة النافعة ، وما عبأ بالمثبطات واستهان بحظ نفسه وأسباب نعيمه وراحته . وكان افرط غيرته يتوسل الى اصلاحه بكل مالديه من طرق ، فكان يثور على الظلم وعلى الجهل يحاول أن يقضي عليها ، ولو كان السلاح الذي وصلت اليه يده لايسد كل الحاجة . وبقدر ماكنت ترى الدكتور شهبندر متلطفاً في طب الابدان ، كنت تراه صلباً في مداواة مااستعصى من أمراض الأوطان .

ومما قلت إنه كان يرى اصلاح السياسة اولى المطالب بالتقديم ، وأنه عمل للجماعة كما عمل لنفسه ، وصرف من الجهود للنهوض بأمته مالم يصرف بعضه من حاولوا أن يعدوا في قائمة العظماء ، ولو كان كل فرد من أرباب المدارك يفكر في مصلحة قومه بالقدر الذي فكر به شهبندر ، لكانت حالنا على غير مانرى اليوم ، ولكنا شيئاً مذكوراً في العرف الدولي ، وفي مجالس العلم العالمي .

وقلت أيضاً : ان التاريخ لايكذب مهما دلّس المدلسون فيه ، والتاريخ سيذكر الدكتور شهبندر ويذكر غناءه وبلاءه ، موزوناً بميزان العدل والنصفة وسيقول إنه من خير من نبغ عند العرب في هذا القرن ، وإنه أحد أفراد قلائل فادوا بأنفسهم في مرضاة الوطن ، وأثبتوا أنهم كانوا شيئاً في الحياة ، لاكالذين دخلوا العالم وخرجوا منه لم يحس أحد بوجودهم .

ولا يحول حبي لشهبندر ، وتقديري لجهاده ، دون قول ماأعرفه من

اخلاقه ، بعقب السنين الطويلة التي قضيتها في عشرته . كان على مايظهر يحسن ظنه بمن يدهن له ، وهو لايستحق الا الصفع والدع ، لذلك كثر من خرجوا على رأيه ، لما اصادموا وخاب ظنهم او ظنه فيما كان يؤمل كل واحد من صاحبه . وينسى او يتناسى من كان مدحه بالامس فيقدح فيه اليوم ، يحسّن ويهجن في فترة قصيرة من الزمن ، شأن بعض رجال السياسة . وكان في شبابه لايرى لاحد مزية إن لم يكن خريج الجامعة الاميركية في بيروت ، حيث تلقى الدروس الثانوية ودرس الطب ، حتى ولو كان من عيار الامامين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري ، ويلهج بأن من لم يدرس الطبيعيات والرياضيات كما درسها هو لايحق له أن يمسك قلماً ولا ان يؤسس جريدة أومجلة اوينشر كتاباًاو غيرذلك من أعمال العقل . فطابع الاثرة كان متجلياً فيه تجليه في بعض من تخرجوا بالأميركيين الانجيليين .

كان بيانه في لسانه اوفر من بيانه بقلمه ، فهو اول خطيب فينا ، وقد يخطب في اليوم مرات ويجيد وهو في ارتجاله ابرع منه في لصنمه ، ويزيد خطبه امتاعا مادته من العلم ، ومعرفته تاريخ امته معرفة ندره أن يكتب لطبيب مثلها . وما كان بالكاتب الكبير ، وكتابته تعد من الدرجة الرابعة . ونظم بعض مقاطيع وقصائد في صباه ونشرها له الاستاذ كمفاير المستشرق الالماني في مجموعته ، فلما رأيتها منشورة الى جانب شعراء مجودين قلت : مالشهبندر والشعر ، وشعره ليس مما يروى ويتناقل ، وفي نشره دليل ضعف صاحبه في القريض والادب وأولى له أن يترك الشعر لمن كان في فطرتهم ، وتمحضوا له اعواماً أمثال خير الدين الزركلي وبشارة الخوري وفؤاد الخطيب وخليل مردم بك وشفيق جبري وأمثالهم من شعراء الشام .

أما في التأليف فلم يؤاته التوفيق فيه ، وغاية ماأثر له مقالات أكثرها مترجم عن الانكليزية ، نشرتها المجلات ولا سيما المقتطف والهلال . ونقل في الكهولة عن الانكليزية كتاباً في علم الاجتماع ماأظنه فهم ماترجم وكذلك القراء بالطبع ، ولذلك طواه على غره ، وما أحب نشره بعد

أن طبعه . وله مفكرات عن الثورة السورية ، وكان من أكبر دعاتها ، طبع بعضها والمفيد منها مارآه بعينه . وليس له غير ذلك من الكتب لأن السياسة لم تبق له مع طبه وقتاً لوضع تآليف ممتع .

وكما أنه لم يوفق في التأليف ولا في الشعر لم يواته التوفيق في تأليف أحزابه ، لأنه كان متساهلا في تخير معاونيه وأنصاره ، يتخذهم كيف اتفق من الفريق الذي يعرض له بادىء الرأي . وقد يكون بعضهم من الزيوف والذهب الابريز الخالص قليل فيهم . وربما كان له ان يجيب من ينتقد عليه تسرعه في اختيار الأشخاص أنه يختار أعوانه ممن يرام أمامه من الجمهور ، ويتعذر عليه أن يأتي بغير هذا العيار ، ومحال طلب صنف من الطعام غير مذكور في قائمة الألوان . وعلى هذا يمكن أن يقال إن توفيقه في طبه أكثر من توفيقه في سياسته ، وأعني بالتوفيق التوفيق الذي يطمح هو وأحبابه اليه مع أن اشتهاره بالزعامة السياسية أكثر من اشتهاره بصنعته الأصلية وهي الطب.

لعرض للنوابغ واصحاب العبقرية أحوال يستغربها أرباب البصائر . طلب شهبندر وهو في وزارة السيد هاشم الاتاسي — على ما روى لي زميله في الوزارة وصديقه وصديقي رضا بك الصلح ، ان يقرر مجلس الوزراء ابعاد اثنين عن الشام ، وبوجودهما لا تستقر الحالة السياسية ولا تستقيم . وأنا اخجل من القارىء ان أصرح له من هما هذان الرجلان المضران ، وكانا من اعز احبابه ، وليس بينه وبينهما إلا الصداقة ، وهما لا يعملان يومئذ في سياسة توافقه ولا تخالفه ، وكانا فقط إن أراد احد بهما السوء أحسنا الدفاع عن انفسهما ، وكان هذان الرجلان المضران صديقي وصديقه عبد الرحمن باشا اليوسف وأنا (العبد الفقير إليه تعالى) وإلى أين طلب إبعادنا ؟ توسل بنفينا إلى الحجاز ، رهن أمر السلطان حسين بن علي ، وبالطبع إذا ساقتنا حكومة ابنه فيصل على هذه الصورة ، لا يلقانا ملك الحجاز إلا بما يلقى أعداءه السياسيين فيدفعنا إلى سجنه المشهور خشية من سراية دعوتنا إلى رعاياه الآمنين المطمئنين . وسجنه لطيف وظريف ،

عبارة عن بئر تحت الارض عميقة جداً قد لا يخرج منها السجين سالماً ، وإذا كتبت له السلامة يبتلي بمرض أو أمراض لا يبرأ منها .

ولما سقطت هذه الوزارة الأتاسية وهرب شهبندر وأصحابه ، قلت لرئيسها وقد جاء يودعني في داري : ليتكم نفذتم مقترح شهبندر بإبعادي وابعاد عبد الرحمن باشا اذاً لأريتكم مقدار أنفسكم . فأجاب وهل رأيت هذا الاقتراح قد عمل به ؟ ومعنى ذلك أن شهبندر اقترح ذلك وما سمع له زملاؤه وأظنه لما خاب فيما بيته لي عاد في مجلس الوزراء فاقترح الغاء المجمع العلمي العربي ، وكان من قبل بضعة أشهر يود لو يكون عضواً فيه ، ويقول لي إنني خدعت اوروبا بهذا المجمع ، فأقول له : أنا اجتهد لأفهمها اننا أمة ذات مجد قديم تتوفر الآن على احيائه .

ولما أنشأ شهبندر (حزب الشعب) ، قبل نشوب الثورة السورية ، اقترح عليه صديقي أسعد المالكي أن يعرضوا علي الاشتراك معهم فقال الدكتور : دعوه وشأنه هذا رجل يحب ان يعيش . قال أسعد : الحمد لله على ان عشت وكتبت (خطط الشام) ، وبعد نحو خمس عشرة سنة عرض عليّ شهبندر نفسه ان اشترك معه في حزبه الجديد (الهيئة الشعبية) فاعتذرت . وقد وقعت لي معه بعض أمور تدل على إيغاله في النسيان الذي يحمل ضرراً عظيماً له ولغيره « راجع فصل الجاسوس السافل من هذه المذكرات » .

طلب لي شهبندر أن انفى الى الحجاز مقهوراً ، وأن أنزل مكة مأسوراً ، والله أعلم إن كنت أعود من هـــذه الرحلة الشاقة الى وطني وأولادي ، ولما كان سجين قلعة أرواد تألمت لما حل به ، وتوسلت بكل الوسائل الى استصدار العفو عنه ، فكانت البرقيـات والرسائل تكتب ويوقع عليها في داري ، وأنا موظف ومحظور على الموظفين الاشتغال بمثل هذه المسائل . دفعت الى هذا بدافع من حبي لشهبندر ، ولما تتقاضاني المروءة أن أقدم عليه ، ولا منّة لي في ذلك ، ولا نظرت أنه حاول الاضرار بحياتي ، بل أغضيت عما بدر منه ، وقلت إن العاقل لا يزهد في صاحبه بغلطة يغلطها ، أو ببادرة تبدر على لسانه ، وجل من لا عيب فيه .

ولما عرضت عليّ « الهيئة الشعبية » أن أرأس لجنة تأبين شهبندر أجبت الطلب في الحال وفاء له ، وخرجت بذلك عن خطتي في عزلتي ، وأنا حيادي غير حزبي ، ولهذا النظر أتوا بي ولاعتبارات أخرى رأوها بجموعة فيّ ، واشترطت ألا أخلط السياسة ببرامج التأبين فارتضوا بذلك ، وهيأت العمل على مايجب ، وصرفت في ذلك أكثر من أربعين يوماً ، زارني خلالها مرات من لا أحب أن أرى وجهه ، ولا يرى طلعتي ، واحتملت تعجيز من يحاولون الظهور على حساب شهبندر وحفلة تأبينه ، واستغلال اسمه ، واستثمار حزبه له ، واستثمار بعضهم لحزبه ، ولما تم كل شيء وفي آخر دقيقة ، وأنا أتهيأ الذهاب الى الجامعة مع أعضاء لجنة التأبين لأترأس الحفلة ارتأى أحد البارزين من أعضاء الهيئة الشعبية السيد زكي الخطيب أن ننقض ماقررته اللجنة من الاشارة الى بعض القصائد الرديئة والكلمات التافهة ، بدعوى انّ اغفال أقوالهم مما يضر بحزبهم ، قال ومن الكلمات ماإذا صرف النظر عن تلاوته ، أو لم تتل كما كتبها صاحبها ، تخرج بها بلدة برمتها عن رأي الحزب ! فامتنعت من حضور الحفلة ، وما سوغت لنفسي أن أكون آلة للموتورين ، ولا تكأة للمشاغبين ، ولا أن أصير امعة يملي عليّ ابن الخطيب ارادته .

عفا الله عن أخي شهبندر كان حركة دائمة في حياته وبعد مماته ، وكان ثورة كله ماحاد عن خطته ، وأنا كنت مثله طول حياتي ماحدت عن دعوتي الى الاخذ بمذاهب التعليم والتربية ، لاعتقادي بان الامة في حاجة اليها قبل كل شيء .

لما انتهيت من كتب ماتقدم تساءلت كما كنت اتساءل عند كل اختلاف يطرأ بيني وبين من اشتغل معهم ، هل كان الحق ياترى معي في امتناعي من الخنوع لنقض ماتقرر أم أني لا أفهم وهؤلاء المشاكسون يفهمون

أكثر مني ؟ وقد رأيت أن معظم من اختلفت معهم خرجوا عن قانون العقل واحتقروني في باطنهم أن أرادوا استتباعي لتحقيق اغراضهم .

وشهدت في هذه المسألة أن من احتال لارضاء الصعاليك بالعبث بمقررات لجنة التأبين كان بعيداً عن الصواب بالنسبة لما جرى الاتفاق عليه وارتضوه من شروطي ، ذلك لأني ما كنت أعد أقوال من يراد تلاوة أقوالهم مما ينفع في تأبين الفقيد العزيز ، وهل يوافق العقل على أن تلقى كلمات لأفراد ماعرفوا بادب ولا بشعر ولا بسياسة ولا بشيء ، وما كانت غايتهم من الحاحهم في القاء كلماتهم إلا حب الظهور والتبجح أمام الجمهور . وكيف لعمري أطيق اشغال الوقت بالقاء كلمات المغمورين الخاملين وأترك كلمات النابهين العالمين أمثال أصدقائي من أعلام مصر شيخ أطبائها الدكتور علي باشا ابراهيم ورئيس الوزراء محمد محمود باشا وعظيم وزرائها حلمي عيسى باشا ، وشيخ كتابها الاستاذ عباس محمود العقاد وشيخ صحافيها الاستاذ عبد القادر حمزة باشا ورئيس مجلس شيوخها ورئيس نقابة محاميها الاستاذ محمود بك البسيوني ونابغة القانون فيها الاستاذ عبد الرزاق السنهوري وأضرابهم ممن تفضلوا وأجابوا رجائي وكتبوا في الراحل الحبيب ماكتبوا . وأن نغفل أيضاً كلمات علماء العراق أصدقائي البررة الشيخ رضا الشبيبي وطه بك الراوي والشيخ محمد بهجة الاثري وابراهيم بك الواعظ الى غيرهم من رجال لبنان وفلسطين وشرقي الاردن ومنهم من كانوا من أتراب الفقيد وعاشوا معه سنين ، وكلامهم حجة في الترجمة له أمثال العلماء الاجلة اصدقائي منصور جرداق وبولس الخولي وأنيس المقدسي ، هذا منطق لاافهمه وأرجوه تعالى ألا يمنّ علي بفهمه .

هزل ومزاح

كنت يوماً في انكلترا ، فلقيت في القطار انكليزيين يتضاحكان ، فقلت للترجمان قل لهما : إني أعجب من حالكما ، فقد كنت أعتقد في الشرق أن الانكليز بعيدون عن الهزل ، وكل امرهم جد ، وأنهم عابسون لأن أجواء بلادهم أبداً عابسة ، وضحكهم قليل لأن الطبيعة لا تضحك في أرضهم إلا أياماً معدودة . وقد وصفكم الفيلسوف الاميركي أنكم جزائريون Des insulaires منقبضون عن الخلق ، تؤثرون الوحدة والعزوف عن المجتمع ، إذا رآكم انسان في فندق تجهدون ألا تمتعوه بالنظر الى عيونكم ، فلا يستطيع مجالسكم أن يقول شيئاً في سوادها وبياضها ، فضحكا وضحكنا .

وزارني في دمشق مرة أستاذان احدهما روسي من جامعة لينينغراد ، والآخر من عنصر انكلوسكسوني . وتحدث الي الروسي ، وتضاحكنا كما يتضاحك المتآلفون ، والاستاذ الآخر ساكت مقطب لا يبدي ولا يعيد .

فأحببت أن احركه على ثقل شهدته في دمه ، والتفت مخاطباً الروسي : قل لصاحبك هل من خدمة يطلب مني قضاءها ؟ كأخذ معلومات عن بعض المخطوطات ، أو الاجتماع الى بعض الشخصيات أو غير ذلك . فأجاب بعبوس : إني آت مع صديقي أرافقه ، وليس لي ما أسأل عنه . وهنا قلت له كلاماً استنتج منه اني اهزأ به ، وقال : قل للرئيس إن له شكلاً خاصاً . فقلت : نعم أصبح لي هذا الشكل بعد أن رأيت الدنيا مهزلة ، والممثلين في مسرحها هازلين ، ولذلك لا أزال أهزل وأضحك ، والحياة كما قال أحد كتاب الغرب فاجعة على من يشعر ، ومهزلة على من يفكر La vie est tragédie pour ceux qui sentent, comédie pour ceux qui pensent .

باغتني في بيتي زائراً بدون استئذان أحد محرري الفيغارو البارزية ، وكان يحمل سلاماً من بعض أصدقائي في باريز ، ويعرف عني أشياء منهم ،

ويحاول على ما يظهر أن يجعل مني موضوعاً يسلي به قراءه ، فقلت له في جملة ما قلت : إن سلطان المفوض السامي المقيم في سورية ولبنان أوسع من سلطان رئيس جمهورية فرنسا . ذلك لأن رئيس جمهوريتكم ممتع بسلطة محدودة ، أما المفوض السامي عندنا فسلطته واسعة النطاق ، ممتدة الرواق ، ومفوضنا يعين رؤساء جمهوريات ورؤساء وزارات ، وينحيهم عند الاقتضاء . أليس من يعين رؤساء جمهوريات ويقيلهم ، أعظم من رئيس جمهورية ضيق السلطة ؟ فضحكت امرأته ، وضحك هو ضحكاً كالعبوس . وقلت له : إن سورية لتغتبط أن كان فيها سبعون الف في جبل من جبالنا يؤلفون دولة . أليس هذا من الارتقاء الغريب في هذا العهد ؟ وودعني على ان يلقاني من الغد ، وقال إنه سيعيد الي الصور التي دفعتها اليه ، فما بعث لي بما كتب ، وما أعاد لي شيئاً مما أخذ . وسأله احد خلاني عما كان من تأثير اجتماعنا فيه ، فقال إن الرجل هزأة يسخر من هذا الوضع ، سامحه الله على هذا الحكم الجائر ، ومن يسخر من هذا الوضع ؟ .

لا جرم ان الانكليز يصطنعون الوقار كثيراً ، وجرعة الفرنسيس منه أقل من جرعتهم ، وفي طبقة المشايخ ورجال الدين وعمال الدولة كثير ممن يصطنع التزمت والوقار . وقد احببت مرة ان اخرق الحجاب مع صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق (ويرجع عهد صداقتنا الى سنة ١٩٠٩ وهو يطلب العلم في باريز بعد ان نال شهادة العالمية في الازهر) وذلك عندما عهدت اليه وزارة الاوقاف المصرية في وزارة محمد محمود باشا . فكتبت اليه كتاباً اداعبه فيه ، فما اخذت جوابه ، ولما اجتمعنا اعتذر عن الاجابة ، وحفته العناية الآلهية بدخول احد ارباب المصالح عليه في مكتبه الرسمي ، فقطع حديثه وما عاوده ، وهذا كتابي اليه ، وليعذرني السيد مصطفى على نشره ، فأنا هنا من الهازلين ابتعد جهدي عن عمل المتزمتين ، وارجوه ان يعفيني من جده ، ويؤثر به مواطنيه المصريين .

اخي الاستاذ

الله احمد على ان رأيتك تتقلد الوزارة ، وتذهب بالقابها ، وتنوء بالعابها ، وتمتع بما يتمتع به الوزراء من مظاهر . الله احمد على ان تساوينا بالقاب سبقتك الى التلقب بها مرغماً ، فما اخليتني عند كل فرصة ، على نعومة خصصت بها ، من تهكم مهما لان ملمسه في الظاهر ، فهو كالضرب على ام الرأس .

كنت الى امس الدابر تضايقني بلقب المعالي والوزير ، فاذا لبست بذلة قلت إنها لا تليق إلا بالوزراء ، وإذا وضعت على رأسي طربوشاً قلت هذا من كسوة اصحاب المعالي ، فالشكر لمصرف الاقدار على ما ابتلاك بما ابتلاني به من قبلك ، وعسى ان تطول لك مدة هذا البلاء على نحو ما طال بلائي .

احمده واشكره على ان احياني الى زمن ادركت به ثأري ، وشمت بمن طالما شمت منه التنكيت اللاذع ، ولئن اكتفيت اليوم بهذه الاشارة لأحملن ، إن فسح الله في الاجل وهبطت مصر ، كل ما يحدثني المكر ان احمله للوزير صاحب المعالي ، وعندها ارد الصاع صاعين ، وألشفى بما يشفي النفس .

وبعد فلا اكتمك ان الحسد دب هذه المرة الى قلبي دبيباً ما شعرت بمثله من قبـــل . دب لما شهدت اثنين من خلاني يدخلان الوزارة (الثاني الدكتور محمد حسين هيكل باشا [1]) وقلت في نفسي : ولـكم كان اغتباطي شديداً لو من الله علي فولدتني أمي في ارض مصر ، وأنا من المخالفين لحافظ ابراهيم في قوله رحمه الله .

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم   فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

فان قوله هـذا ابن العجز ووليد التشاؤم . أما أنا فلا أعتب على

---

[1] اتفق أن عاد الشيخ مصطفى عبدالرازق بك والدكتور محمد حسين هيكل باشا وزيرين للاوقاف والمعارف ايضاً في وزارة حسن صبري باشا فما رأيت أن أعجز ابن عبد الرازق بتهنئتي كما هنأته لما دخل وزارة محمد محمود باشا ، واكتفيت أن هنأته بقلبي ، ورجوت له التوفيق . ولما عهدت اليهما الوزارتان للمرة الثالثة لم اهنيء اخي الشيخ مصطفى لا بقلبي ولا بلساني .

خالقي إلا لأنه لم يخلقني مصرياً ، حتى أحظى الحظوة التي أريدها من أبناء النيل وبنات النيل .

وإني لأعلم ، ولا خجل من الحق ، ان وزارة كالوزارة المصرية يؤلفها رئيس عاقل ، بإيعاز ملك عاقل ، لا تشبه وزارة شامية ، يؤلفها ويسقطها ضابط صغير من ضباط الاستخبارات . وزارتنا وزارة متواضعة ، ليس لها من الروعة في الحقيقة ما لوظيفة مأمور المركز عندكم ، وإن قيل لكل من صاحبي البانيا وبريطانيا العظمى يا صاحب الجلالة .

كلمة جدّ أقولها لوجه الله : إني اهنيء الوزارة بك ، وأنت في نظر من عرفوا فضلك وخلقك أعظم من الوزارة . ورجائي أن تدوم لك الصحة لتقوى بما عهد فيك من حزم وعزم على اصلاح وزارتك ، فهي أكثر الوزارات احتياجاً الى الاصلاح ، عرفناك يا حبيبي الاستاذ مصلحاً مجدداً ، فهل لك أن تنفذ خططك في التنظيم ، لننجو من اتهام الغريب ايانا بالعجز المطلق ، حتى في تقويم ما اعوج من أوضاعنا الخاصة ، ولو أتيناها بأفضل رجالنا يعالج شؤونها .

أما بعد فان التبعة عليك عظيمة ، فاعرف ، دام توفيقك ، كيف تقدم للعقلاء حسابك يوم مفارقة منصبك . ولا برح طير اليمين والبركة يرفرف عليك وعلى آلك .

ووجهت رتبة الباشاوية على الشيخ مصطفى عبد الرازق بك أولاً وباشا ثانياً فكتبت اليه يوم ١٥ المحرم ١٣٦٠ و ١١ شباط ١٩٤١ ما نصه .

سيدي الاخ الحبيب .

وقع احسان جلالة المليك المحبوب بتوجيه رتبة الباشاوية عليك موقعاً حسناً في قلب الداني والقاصي . وتساءلت عما تكون حالة الاستاذ في مظهره الجديد ، وهو الذي ما كان يرضى عن التلقب بالشيخ بديلاً ، وقلت ها قد اتصل القديم بالحديث ، وجمع أخي العظامي الى العصامي ، فطاب الأصل والفرع .

والمهم في هذا الباب ألا تقيد اخوانك بلقب الباشا كل حين ، لتطلق لهم حرية التلقيب ، ولو الى أجل مسمى ، من شاء أن يطلق عليك لقب شيخ تبسم له كما تبسم لمن يناديك يا باشا . وهذا لا يضرك ما دام لقب شيخ يولي الملقب به صفة رجل دين ، ولقب باشا يومئ الى أن صاحبه رجل دنيا ، والرجل كل الرجل هو الذي اسعده الله في الدارين « ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا » .

إذا تقرر هذا فلا حرج إذاً على من يلقبك في المجالس الخاصة بلقب شيخ ، حتى إذا كنت في الأندية الرسمية خاطبوك بالباشا . وبالنعت الاول يذكرونك بمجدك القديم ، وبالثاني بمجدك العظيم . اعمل ولا تبال الناقدين ، فأنت تذكر ما لقي شقيقك علي بك من مرارة التخلي عن لقب شيخ ، وكيف ندبه ورثى العمامة . وتفضل وأسأله هل يعاقب القانون من يسبقه لسانه الى تلقيب مخاطبه عن غير عمد بما لا ينطبق على ما يرضيه من كل الوجوه . فقد شهدت خصومات شديدة نشبت بين أناس أطلقوا على صاحبهم لقب (افندي) وهو يحرص على أن يخاطبه قومه بلفظ (بك) وعندي أن ليس ما يمنع من اتباع لفظ الباشا بشيخ أو الشيخ بباشا ، وإن قلّ ذلك في مصر ، فالملقب أيضاً قليل أمثاله في المصريين .

هذا على شرط ان تنبه على الحافين بك من أتباعك وخدامك ألا يلوموا من يغلط من أحبابك عندما يقول لك يا شيخ ، فان عادة اعتدتها أنا معك ثنتين وثلاثين سنة مثلاً يصعب عليّ نزعها بين عشية وضحاها ، خصوصاً والشيوخ مثلي هم من المحافظين على الأغلب ، وحافظتهم قد تخونهم ، وليست كذاكرة الشببة والكهول .

هـذه مشكلاتك بالباشا مع نفسك ومع الناس ، بقيت مشكلة أخرى تحتاج أن يبت بها في حدود العقل ، وأنا المستهدف لها أكثر من غيري ، فيما يستقبل من دورات انعقاد مجمع اللغة العربية ، هذا إذا انفسح الأجل وشهدت جلساته ، وإلا فالاجتماع في سدرة المنتهى عند جنة المأوى .

في علمك أيدك الله أنه كان في الأعضاء القدامى (باشاوان) فأصبحوا اليوم بمن ضموا اليهم من اخوانهم الحدث ثمانية ، عدد أبواب الجنة ، وربما لا يطلع فجر العام المقبل حتى يصبحوا عشرة مبشرة باللغة وأدبها ، اللهم زد وبارك ، أي يكون نصف الأعضاء من ساداتنا المصريين في هذا المجلس العلمي من الباشاوات ، فماذا تكون معهم حال أناوي مثلي يا ترى ؟ وهو ما تشرف حياته برتبة ولا تحلى بلقب ، وقصاراه من دنياه ، أن تتكرم عليه أرضه بلقب (سيد) كلمة تطلقها على راعي البقر وراعي البشر سواء .

الله يحب الحق ، إن روعة اقب باشا دونها كل روعة في الألقاب ، على نحو ما كان في الغابرين لقب شهاب الدين ، وكل لقب كان فيه (الدين) ومهما قيل في ثقل ظل بعض من يطلق عليهم لقب شيخ فانه ينطوي على معان جليلة محببة الى القلوب . أما كلمتنا التي استأثرنا بها وهي السيد فما زلت أقلبها على ألمح فيها ما لفقوا لها حتى أخرجوها عن أصل معناها ، وأخذوا منها معنى السيادة ، فلا أهتدي الى وجه في التعليل . ويؤلمني أن اسجل هنا أن السيد ككيس هو المسن من المعز أي التيس والجمع تيوس كما في القاموس .

والغالب أن واضعي اللغة كانوا يوم ايجادهم معنى التشريف للسيد في ظرف كالظرف الذي وضع فيه المجمع اللغوي لفظ (فنان) لارتيست . والفنان في الأصل (حمار الوحش) . وغفر الله لأخي الجارم كم حرص على اقرار هذه اللفظة حتى خشيت يومئذ ، اذا لم يقر المجمع كلمته ، أن ينتهي الأمر بحدوث أزمة مجمعية ، كما تحدث ، وقاك الله ، الازمات الوزارية . ورأيته مغتبطاً لما وافقه اخوانه على اطلاق اسم حمار الوحش على المصورين والمصورات ، والشاعرين والشاعرات ، والمسمعين والمسمعات ، والراقصين والراقصات . وما أدري هل كانت بينه وبين هذه الفئة الجميلة طائلة من الطوائل ، وعهدي به ابن الشعر وربيب الأدب ، غير مطعون عليه في سلامة ذوقه .

التمس عفوك لاشارتي الى معان كان الأولى أن أصون كتابي عن التعرض لها ، ولكن هل نحن ، رعاك الله ، إلا في صدد مجمع لغوي ، ولا حياء في الدين ولا حياء في اللغة . وأسأله تعالى أن يجنبنا مصارع السوء ، دعاء أدعو به في كل ممسى ومصبح ، منذ قرأت ما قاله أحد علماء الأمراض العقلية من أن ثلاثة أشياء تورث الجنون ، العشق ، والتعمق في اللاهوت ، والبحث في اصول اللغة . وسلام عليك وعلى رصفائي المشايخ والباشات .

فأجابني الأستاذ بقدر ما تسمح له رتبته ومرتبته ومما قال : « ثم ابادر الى الاجابة عما تساءلت عنه من حالي في مظهري الجديد ، ولو رأيتني لما رأيت مظهراً جديداً فانني لاأزال شيخاً معمماً يؤكد أسباب مشيخته اشتعال الرأس شيباً ، ولا يهولنك يا صديقي ما تقدر من روعة اللقب ، فما تخفض الألقاب حراً ولا تسمى ، على حد قول الباشا البارودي ... » وانتهى الاشكال ، والحمد لله على كل حال .



هذر

دعاني رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين الحسني لتناول الطعام على مائدته لتكريم الاستاذ محمود عزمي من رجالات مصر ، وكان معنا الآنسة فلك طرزي وثلة من الوزراء والامراء منهم قائد الثورة السورية صديقي سلطان باشا الاطرش وأمير من أمراء العراق ورأيت القوم ساكتين كأن على رؤوسهم الطير مؤثرين الخضم والقضم عن الكلام والمؤانسة فافتتحت الحديث موجهاً الخطاب الى صديقي عزمي بك ، فقلت له ان الآنسة طرزي افتتحت موسم محاضرات السيدات هذه السنة في ردهة المجمع العلمي العربي وتابع زميلاتها محاضراتهن بعدها ، وهذه أول مرة يستقل السيدات بالقاء المحاضرات على بنات جنسهن ، وكان الرجال من قبل يتولون القيام بهذه المهمة . فقال الرئيس لقد نجوت من المشايخ . والتفت الى ضيوفه وقال لهم إن جميع مشايخ دمشق يخافونه ، فاجبته ولكن في دائرة العدل والمنطق ، فاني ورصفائي نعلم الناس ونراقب بانفسنا مانقول وما نكتب ، والمشايخ في حل منا مالم يتحرشوا بالمجمع العلمي فاذا فعلوا أخرجت لهم مساويهم ، وأنا من أعرف أهل البلد بها ، واذا التزموا السكوت لا أتعرض لهم . فقال سلطان باشا كلاماً يمدحني به على خدمتي المعارف وعلى ماألفت من الكتب . فقلت له : ياباشا اسمع مني ، أنا خدمت الامة مقابل أجرى ، واعطتني فوق ما استحق ، وأنت خدمتها خدمة عظيمة فماذا كافأتك ؟ ياباشا لاتؤاخذنا نحن امة لاتقدر الرجال اقدارهم ، ولو كنا نعرف للمحسن احسانه لاقمنا لك تمثالا في كل بلد . والتفت الى ضيفنا العزيز وقلت له بالفرنسية ان هذا الرجل الذي يقرظني هو أشرف رجل فينا ، بل هو مثال الشرف . وبالطبع لم يرق هذا الكلام صاحب

الدعوة ، ولعله كان يريد ان أقول له إنه هو الذي نفع سورية بما لم ينفعها أحد قبله . وشتان بين من يعمل لمحض خير الامة ، ويهون عليه ذهاب ماله وخراب قصوره في سبيل قوميته ووطنيته ، وبين من يكاد لا يفكر حياته في غير مصلحته .

قالت لي ابنتي الكبرى مرة اني أعرف ان فلاناً من أصحابك وانك تحبه وتعرف له قدره ، فقلت لها : حق ماتقولين ولكن الرجل لايحب إلا نفسه على مايظهر ، ولا يشتاق لاحد ، وقد اغيب عنه مدة فلا يسأل عني ، هذا مع الاعتقاد بانه يحبني ويجلني ، وقد كان ابوه على شاكلته مع عشرائه واحبابه ، وعاتبني ذات مرة على انقطاعي عنه ، فصارحته بمعاملته لاخوانه ومعارفه ، وكان يريد أن يزار ولا يزور ، واذا زار فبدافع قوي جداً ولا يسأل عمن غاب ، ويريد أن يشخص الاهلون الى مجلسه أبداً . فاجابتني البنيّة عجيب وهكذا نساء هذه الاسرة ، اذا اجتمعت اليهن أظهرن كل لطف وشوق ، واغيب عنهن مدة طويلة فلا يسألن عني ، وكثيراً ما افاتحهن بهذا الاهمال اذا اجتمعنا بالعرض ، فيعتذرون ويطلبن بالحاح العودة الى تبادل الزيارات . النساء كالرجال والفروع كالاصول .

تألفت وزارة في عهد من العهود دخل فيها أحد أصدقائي فشخصت اليه اهنئه في مكتبه ، وكان في جواره مكتب أحد رصفائه في الوزارة فرأيت من اللياقة أن أزوره أيضاً ، وهو من معارفي ، ومشهور باستقامته ونزاهته ، فتهلل كثيراً لزيارتي له وما كان بيننا تزاور من قبل واتتني منه بعد أيام بطاقة مطبوعة بالمطبعة على مثال النشرات التجارية التي ترسل لكل انسان يشكرني على تهنئته بالوزارة باللسان الرسمي الجاف . فقلت لصاحب لي كان إلى جانبي : ان الرجل لايعرف الواجب ، فان هذا المنشور العام قد يجوز ارساله لاكثر موظفي وزارته وغيرهم من عامة القوم ، ولا يرسل لأصحاب المقامات ، ومهما عظم الرجل في بلد كبير

لايخلو فيه من عشرة أشخاص هم أعظم منه سناً وعلماً ومقاما ، فعليه مع مثل هذه الطبقة أن يسمى بنفسه الى اربابها لا أن يكتفي بالبطاقات عن رد الزيارات ، وعليه أن يعاملهم بالمثل على الاقل إن لم يحب أن يزيد في اكرامهم . ودارت الايام وتقلبت بالرجل الاحوال عزلا ونصباً فما زرته بعدهـــا ولا سلمت عليه إلا السلام البسيط وذلك إذا لقيته عرضاً في شارع أو مجلس .

مسألة اعطاء كل انسان حقه من الخطاب والألقاب مسألة دقيقة ، فما كل من مسك القلم كتب كتابة مقبولة ، تستوفي غرض مرسلها وترضي المكتوب اليه ، فان ما يخاطب به الصغير لا يخاطب به الكبير ، وما يقال لزيد من العبارات لا يقال لبكر .

لما فقدت قرينتي جاءتني من أصحابي تعزيات كثيرة فأجبت كل واحد جواباً غير جواب الآخر ، فاستغرب هذا مني من اطلع على رسائلي ، فقلت له إن الاصدقاء درجات ومن عزوني من طبقات مختلفة ، وتختلف درجة صداقتي لشخص عن شخص ، وكلهم بحسب الظاهر صديق وحبيب ، ولذلك وجب ان يكتب لكل واحد بما يناسب علاقتنا وصداقتنا ، على ما يقضي بذلك الذوق ثم العرف والعادة.

عزيت مرة أحد أصدقائي البغداديين بوفاة أبيه ، وكان ذا منزلة رفيعة في نفسي وفي نفوس العرب ، وابنه في منصب كبير ، فكتبت له كتاباً بخطي ودفعته الى رئيس ديوان الوزارة ليقرأه فاستحسنه ، ولم نرد ان يكتب على الآلة الكاتبة بل ابقيناه بخطي زيادة في التكرمة ، وجاء الجواب بعد مدة في نشرة مطبوعة زاد المعزّى في آخرها بضع كلمات ظنها وفاء حقي في التعظيم ، فدفعت الجواب الى رئيس الديوان فاستغرب صدوره من رجل تناول مثل ذاك الجواب اللطيف ، واجتمعت بصاحبي هذا بعد حين وآخذته على كتابه وقلت له كان عليك ان تكتب بنفسك وبعبارتك وخطك جواب تلك التعزية ، او تعهد الى كاتب تلقنه فكرك فيعبر عن رأيك اصدق تعبير ، ويكتب لك ما تريد انت لا ما يريد هو . اما انا فقد كتبت بقلبي وعاطفتي

وانشائي ، وما كنت موظفاً في ديوان من دواوين وزارتك ولا عاملاً في ناحية من ارجاء دولتك ، وقد تحتاجني انت ولا احتاجك ، وصداقتي لك قد تنفعك وصداقتك لي لا تنفعني ولا تضرني . كانت عبارتي قاسية ، وهكذا جاءت ، ومن ادب صاحبي ان سكت وراعى حقوق الأخوة ، وما رأى ان يوسع شقة الخلاف ، بعد ان تجلى الحق تجلياً لا مجال للمماحكة فيه . وما كنت أؤاخذه هذه المؤاخذة لو لم أكن على مثل اليقين انه ممن يعقل وعظم التبعة على عظم فهم صاحبها ، وصاحبي هذا كان غاية في التهذيب والأمانة والسراوة ، جل من لا يسهو ولا يهفو .

واذكر اني لما زرت الأندلس ، ارسلت الى اصحابي في الاصقاع العربية بطائق بريدية من غرطانة عليها صور العاديات الاندلسية ، وكتبت على كل بطاقة سطراً يخالف بلفظه ومعناه ما كتب على البطاقة الاخرى (واظن كان عدد البطاقات مائتين وكسراً) . ذلك لانه كان من المرسل اليهم الاستاذ المبجل والصدر المحترم والصديق الذي تجمعني به عدة جامعات ، ومنهم القريب والنسيب . وكان لما ارسل وقع عند المرسل خصوصاً لمـــا قابل بعضهم ما بعثت اليهم من العبارات .

عزيت وزيراً مصرياً بعزيز عليه فأتاني الجواب بخط احد كتاب الوزارة على ما يظهر يحمل يبوسة الرسميات ، وما اظن الوزير كتب ذلك ولا أملاه ، وإنما هو من صنع كاتب صغير في الوزارة اعتاد ان يكتب هذه الكتابات الموجزة لصغار الموظفين عندهم ، وغلبتُ حسن الظن وقلت في نفسي لا شك ان الوزير وقع هذا الكتاب بدون ان يقرأه ، وكثيراً ما تجيئني مثل هذه الرسائل الرسمية الجافة فألقيها في سلة سقط المتاع ولا اعود إلى مراسلة صاحبها وكنت اذا اضطررت الى مراسلة بعض العظماء ممن لهم علاقـة بالمجمع العلمي العربي او بوزارة المعارف اترك الرسميات واكتب كتاب الاخوان ، حتى لا أساق الى استعمال اليبوسة الرسمية ، وتقصر مصطلحات الدواوين عن وفاء حق المكتوب اليه . ومما عاهدت النفس عليه الا اكتب

لكبير ، وهو على راس منصبه ولو مات كل اهله ، او قامت الافراح في جميع بيوتهم ، حتى لا يتحفني بالجواب مكتوباً بيد خرقاء ، وله من ضيق وقته إذا اراد الدفاع عن نفسه مايبرر موقفه ، في ، ومع أني ممن لايرغب في تعظيم الناس بعضهم بعضا اكره من يكتب لي بما يكتب لكل انسان ، واذا تعمد الكاتب ذلك ، والغالب انه لا يتعمده ، فاني اعده قد هجاني فاقطع صلتي به ، وهذا ولا جرم ضرب من ضروب الضعف البشري ، بيد انه مظهر من مظاهر عزة النفس وحب الكرامة ايضاً ، وله نظائر عندالمدنيين ، واشياع كثيرون في الاقدمين والمحدثين ، ومن عاملك معاملة لشمر باحتقارك يدعوك الى تحقيره ، ويضطرك الى ان تخرج عن تواضعك لتناقشه في منزلتك ومنزلته وإذا اظهر قحة قد يكلفك غير أخلاقك .

———

فقد الاعزة

هبطت مصر أواخر سنة ١٩٤٤ وكنت آمل أن أهنأ بالاجتماع الى أحبابي ، وأنا أشتاقهم سنين ، فعلمت أن رئيس بمكوكتنا الأستاذ وحيد بك الأيوبي اصيب بفلج منعه من الكلام ، وأنه كلما عاده أحد أحبائه بكى وأبكاه ، فأشار أحد الأحباب اليّ أن الأولى ألا أعوده لئلا أشق عليه . ثم نعي اليّ أستاذان عظيمان من أصدقائي محمد رياض باشا وجعفر ولي باشا ، وما هي إلا أيام حتى نعي صديقي رجل الاسلام ومصر الأمير عمر طوسون . أربع مصائب في أيام قليلة ، وكلهم على صفات ممتازة من العلم والأخلاق والاريحية .

حدثني الوزير المصري حمدي سيف النصر باشا قال قضيت في السودان ضابطاً نحو أربع عشرة سنة وكنت وكيل الامير عمر طوسون في بعض شؤونه هناك ، ولا سيما في تربية بعض النابهين من أبناء السودانيين ، وقد علم منهم على نفقته الخاصة خمسين شاباً التعليم العالي . قلت له : وهذا عدا ما أنفقه من الاموال في خدمة القضية السودانية ، وانشأ المدارس والجوامع والمساجد في السودان ، الى آخر حسناته هناك وهنا ، ولا اراني مبالغاً اذا ادعيت أنه لم يخدم مصري قطراً غير قطره بأجل من خدمة الامير طوسون للسودان كما خدم مصر والاسلام بماله وقلمه وجاهه ، والأمير لا يعرف الا الخير ، وما تعرف الى غيره ، صرف فيه ماله ووقته . وحدث مرة ان مدارس العروة الوثقى ، وكان الامير رئيس مجلس ادارتها ، كادت تقف فى أزمة مالية من أزمات مصر الشديدة ، فقرر مجلس ادارة الجمعية اغلاق ابواب مدارسها ، ريثما تنفرج الأزمة ، فما رضي الأمير عن هذا القرار ، واقترض في الحال مبلغاً من المال أمد به الجمعية ، وكان الأمير يومئذ مضيقاً أيضاً . ولا أذكر أن ثروة عظيمة في الشرق أنفقت على أعمال الخير مثلما أنفقت ثروة الأمير عمر ، ولا عرفت رجلاً دأب على خدمة قومه أكثر من خمسين سنة بمختلف الطرق

أكثر من الأمير عمر . وأظن من سيقرأ هذا سوف يعطيني الحق في حزني على هذا الأمير لأنه فذ العرب بأخلاقه وعلمه .

كنت أسمع بالأمير عمر طوسون وانه عالم الأمراء دؤوب على نشر العلم وفعل الخير ، وكنت أعجب بما كان من بلائه في الحرب الطرابلسية وغيرها ، وما كان لي شرف الاجتماع به ولا شرف مراسلته . ولما فجعت بأخي احمد كرد علي محرر جريدتنا « المقتبس » بعث الأمير يعزيني تعزية لا أرق منها ، ويذكر لي مناقب شقيقي وحسن خدمته للأمة العربية فانظروا الى هذه الاخلاق الشريفة يعزيني ومقامه مقامه ، وأنا لم أتشرف بعد بالاجتماع اليه .

نعي العظيم يقع موقع الألم العظيم من النفس ، فما بالك اذا كان الرجل الى هذا صديقاً براً ، عرفته وعرفك فتمازجت روحك وروحه ، ولا يستغربن اذا كان تأثرك لفقد مثله اكثر من تأثرك احياناً لفقد القريب ، ولطالما أحدث موت العظماء ثلماً في بناء الامم ، وما كل يوم تنبت الارض رجالاً من الصنف العالي كعمر ورياض وجعفر . فقد الصاحب العزيز من أكبر المصائب ، لايسلي شيء عنه من امور العالم .

دخلت على والدي في احدى العشايا قبل نيف وخمسين سنة وهو جالس في ثوبه يستعد لاستقبال سماره ، فرأيته متجللاً منقبض الصدر خلافاً لما اعتدت ان اراه ، فسألته عن سبب كآبته فما احار جواباً . ولما الححت عليه قال لي : إذاً خذ هذه السبحة واحص مي الاسماء التي اوردها عليك . فاخذ يورد عليّ أسماء منها ماسمعت به ومنها مالم اسمع ، حتى اذا قلبت ثلاثمائة حبة من حبات المسبحة وهو يقرن كل اسم بلقب (شيخ او افندي او آغا او سيد او بك او باشا) قال : كفى يابني هؤلاء اصدقاء والدك طوتهم الخرسا (يريد الارض) واصبحت انا بعدهم غريباً في هذه البلدة ، اليس من حقي ان انقبض ؟ اما انا فاكبرت منه هذا العاطفة واعجبت بذاكرته التي أحصت هذا العدد الدثر من الموتى في ساعة وبعض ساعة . سبحان الباقي بعد فناء خلقه .

المصريون والسوريون

بعض العرب يتهم المصريين بقلة العناية بجيرانهم سكان الاقطار العربية ويقولون ان لسان حال المصريين أن واجب غيرهم أن يعرفهم وهم غير ملزمين أن يقابلوا المعرفة بمعرفة لان لهم من ارتقاء ما لا يحتاجون معه الى غيرهم ، ويهمسون بينهم أن من هبطوا مصر في أواخر القرن الماضي ما كانوا سلماً على مصر ، وان كل من ينزلها اليوم ونزلها أمس لا يقصد غير الانتفاع بها وربما انتفع بضررها ، وفي العادة ان يطمع في الغني بما لا يطمع بالفقير ، ولذلك كان ادلال الغني على الفقير . وما يصدق على الفرد الى حد قليل لا يجب أن يطبق على الجماعة . وحال هؤلاء يستلزم روابط محكمة وأن ينظر الى الامور أعلى من نظر الأفراد .

ليس من ينكر على الشعب المصري كرمه وأريحيته ، يتمثل ذلك في الطبقتين الدنيا والوسطى ، وبعض أهل الطبقة العليا أيضاً ، ويدخل فيها أرباب الرأي والثقافة ، وهؤلاء ينظرون الى هذه المسائل غير نظر الكثرة الغامرة ، فان منهم من تشبعوا بروح الاقليمية ، فوهموا أن في مصر كل شيء فلا داعي لأن يعنى أهلها بأمور غيرهم ، ولا أن يأخذوا شيئاً عما سواهم ، لأنهم سبقوهم وبرزوا عليهم ، والاشتغال بما لا يجب الاشتغال به مضيعة للوقت والمال ، والكامل لا يأخذ عن الناقص ، والعالم لا يقتدي بالجاهل ، وهذه القاعدة لا تطرد اذا أنصفنا ، فليس كل من ولد في مصر يكره من لم يولد فيها .

وترجع هذه النفرة في الجملة الى عاملين الأول ما كان من ضرر بعض هذا الغريب على مصر لما استعان به الحاكم في مقاصد تخالف مقاصد الوطنيين ،

فكان عيناً وعوناً لأعدائهم عليهم ، والثاني جهل الأصيل بحال النزيل أو الدخيل ، فالأول لا يعرف عن الثاني شيئاً يصح به اصدار حكمه على مجموعه ، فان أمثال من يشكون منهم توجه اليهم من مواطنيهم مثل هذه الشكوى ، وسيرة المتجرين بالدناءات لا تحمد في أمة من الأمم . ويشكو المصري الى ذلك من تصرف ذلك المرتزق في التجارة وغيرها . وهذه الشكوى تتناول الدخيل من الأجانب ، والدخيل العربي على كل حال أقل شراً من أكثر الدخلاء . ومن جهل بعض المصريين في الدهر الغابر أن كانوا يعتقدون أن سكان الشام غير مسلمين ، والمسلمون منهم عبارة عن أولئك المتشردين والمهربين ، وبالاختلاط عرف المصريون سكان الشام غير المعرفة الأولى ، وأدركوا الطبقات التي تعطف عليهم ، والطبقات التي لا تهم الا لاملاء جيوبها من خيرات مصر ، وتخدم على العمياء كل من يفضل عليها .

وتقدم الدخيل في دواوين الدولة المصرية ، واغتنم المتجرون فرصة انتشار الأمن وعدل القضاء ، فتوسعوا في متاجرهم ، وهم من أكثر العارفين بطرق الكسب ، فأفلحوا وملكوا الأرضين والعقارات ، وعمروا القصور واغتنوا بنشاطهم واقتصادهم ، وبمنافستهم للغريب والقريب . ومصر مبتلاة بالغريب من أزمان طويلة لا تعيش وحدها مهما بلغ من غناها وعلمها ، ومهما دلت به من مركزها ، ومهما وضعت العراقيل في طريق المهاجرين اليها ، فالقوانين الطبيعية لا يتغلب عليها قانون ، ومصر في الواقع تقوى بمن ينزلها وتمصره تربح منه ويربح منها .

والخوف اليوم من أن مصر قد تضطرها أحوال الأقطار المتحدة معها الى الانفاق عليها غير وارد فان الاقطار الاخرى مواردها وهي غنية أيضاً تستطيع أن تقوم بأود جيش وحكومة كما هي الآن وكلما حسنت ادارتها ارتقت اقتصادياتها وقويت معنوياتها .

يزيد اختلاط مصر بالأقطار العربية اليوم بعد اليوم ، وكان هذا التمازج مقصوراً على الشام ومصر فتناول اخيراً العراق وجزيرة العرب

وبعض شمالي افريقية ، ويزيد هذه العلائق احكاماً تلك المؤتمرات الطبية واللغوية والثقافية والهندسية والاثرية والحقوقية والسياسية والاقتصادية والنسائية التي تعقد في مصر والشام والعراق والحجاز في كل سنة فيتعرف بذلك عشرات من أهل الرأي والعلم الى رصفائهم في مصر ، وكلما كثر تعرّف هذه الشعوب قوي الأمل في تحقيق أماني العقلاء في الوحدة العربية الشاملة . ومن أهم العوامل في تمازج العرب ان يشخص أهلها في كل داع الى البلد العربي المجاور يتجرون ويسكنون ويصطافون ، وعليهم أن يتبادلوا الأساتذة فان الرجل الراقي اذا نزل على قبيل كان بالضرورة واسطة تعارف ، وصلة من صلات الوصل الجميل ، بين من أتت عليهم أزمان وبلدهم مفصول جسماً وان لم ينفصل روحاً عن بلد جاره . ومن أهم ما يجب على المدارس تلقينه أن تدرّس بعناية تاريخ كل قطر دراسة واسعة بحيث يكون لتعارف صغار العرب بهذه الدروس مقدمة الى اختلاطهم ببني قومهم متى كبروا . والحكومات في بعض الأدوار كانت السبب في قطع أوصالهم ، وقد زالت هذه الموانع اليوم ، وتحتم على كل عربي أن يشارك بهذه النهضة ما وسعه أن يشارك ، وليس عندنا ما يقال الآن للشعوب العربية الا قولنا : تعارفوا وتعاطفوا ، فالتعارف رأس كل اتحاد والتعاطف روح كل اجتماع .

بعد الفترة

انقطعت نحو سنتين عن متابعة التدوين في مذكراتي لما عراني من دهشة الحرب على نحو ما عرا العالم جمعة . وغريب ان أدون وأنا أشهد موت القرائح وجدب الأدب ، وانقطاع تبادل الافكار بين الغرب والشرق . قُطع بين كل قطر وقطر ، وتعذر السفر في الجو او على اليابسة إلا بقيود ثقيلة ومراقبة شديدة ، وذلك حتى في حدود بلدين متقاربين ، اما السفر في البحر فتعذر إلا من الاجواء البعيدة عن الخطر قليلاً ، وملت الآذان سماع الأخبار لما تحمل من دعايات ، وما يتخللها من مبالغات ، واشتاقت النفوس الى العلم المجرد الذي كان يفيض من الغرب قبل الحرب ، وود الشيوخ لو طالت اعمارهم حتى يروا طلعة السلام في العالم وما تسفر الحرب عنه ، وها قد دخلت الحرب في الربع الاول من سنتها الخامسة وتمضي عليّ أيام لا أمد يدي الى المذياع التقط منه خبراً من الاخبار ، وإذا اتفق ان قرأت صحيفة سياسية فقراءة عنواناتها تجزئني على الاغلب ، إذ كل ما يكتب يراقب ، وكل ما يراقب تكثر الظنون في الحكم على صحته ، وكل قول يحاسب عليه قائله .

وصدق الجنرال كاترو وهو يعرفني إلى اركان حربه بقوله ان صاحبي هذا شهد مثلي الحربين الحرب العالمية وهذه الحرب . وأنتم سعداء لأنكم لم تشهدوا إلا الحرب الحاضرة . ولعله يريد أني كنت مثله من شهود شدتين على البشر ، أما انا فقد شهدت ثلاثاً فكنت من شهود الثورة السورية عامين ، دع حروب الدولة العثمانية كحروب اليمن وحروب جبل حوران وحرب الارمن وحرب طرابلس وبرقة وحرب اليونان والبلقان وغيرها وربما كان مجموع سني الحروب التي أدركتها أكثر من عشرين سنة .

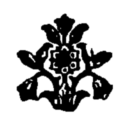
طال تمويهي على نفسي هذه المرة لأجلب اليها السلوى فما أفدت شيئاً ، وكنت يعلم الله شبه سجين مرفه عليه تراقب حركاته وسكناته وترسل العيون عليه لترى ما يقول وما يفكر وما يعمل ، وينظر في كتبه اي تراقب حتى يسمح له بقراءتها أما ان يكتب وينشر ما يريد فهذا مرام دونه حدّد . ولولا ان كنت افزع ثلث ايام الشهر الى القرية ثم سكنتها لابعد عن حركة القصبة واخبارها وآلامها لزدت غماً الى غمي وهماً الى همي ، وكنت اشغل النفس في جملة ما أشغلها به بموضوعات ما كنت استحب ان أطرقها لاعتقادي بأن غيرها أفيد منها كبحثي في غوطة دمشق وتاريخها وطبيعتها وأدبهـا ولهجتها ، وككتابي مختصراً في وصف دمشق وتاريخها وحاضرها ، وكتدويني لمذكراتي السياسية وغير ذلك وان قال بعض النابهين ان هذا من اهم ما تجب معالجته .

إي وربي اصبحت أتألم لسماع تلك الاغنية المحزنة التي لم تتبدل يوماً واحداً منذ أكثر من ألف يوم . قتل وجرح وأسر ونسف وقذف واغراق واحراق ، وقائع يرمضني سماعها ويزيد في ألمي كلما ذكرت من يقتل كالبحارة والطيارين والضباط وأمثالهم ، وأقدر لنفسي عدد من يقضى عليهم باليتم من الاطفال والترمل من النساء ، واقدر في باطني العيون تبكي كل يوم . هذا فقد ابنه ، وهذه مات وحيدها ، وتلك هلك ابو مثواها ، واولاد خسروا من يكدح لهم . وتألم نفسي هذه الايام أن ارى الأخلاق تفسد ، والصدق يقلّ ، والفحش يزيد ، وألا يرى معظم السكان حرجاً في الكذب والسرقة والسفاهة ، وغدا الانسان اشرف المخلوقات لا قيمة له الا بقدر مايستطيع ان يقتل أخاه في الانسانية . وفي الحروب ترتفع أسعار كل شيء وترخص قيمة الانسان .

أنا هنا لا ألظرف ولا أتلطف ، وإنما هي خواطر نفس ابديها ، وحقائق ابثها لا أكاد اخفيها ، ولطالما حاولت ان احسن الظن بمستقبل الانسانية ، فما هي إلا أيام حتى يظهر هذا الناطق المتمرد بمظهره الحق ويكتسي كسوة

الهمجية ، وليس هناك من يفكر في حرام او غبن اذا كان في الحرب لصحيح الحدود بين دولتين واستئثار واحدة بارض كانت لغيرها ، وسر الحرب اليوم استئثار احد الفريقين المتحاربين بالسياسة العالمية ، ومن قبض على قيادها قبض على الغنى والسؤدد .

كنت اعزي النفس بأن ادون عما قريب اخبار السلام وما فيه خير للبشر واذا الامر يطول واذا النغمة في الاولى كالنغمة في الثانية ، واذا عقول البشر كلها اتجهت الى جهة واحدة وهي البحث عمن تكون له الغلبة من هذين الفريقين المتقاتلين ، واختلفت الآراء فمن متشيع للحلفاء ، ومن عاطف على اعدائهم مقدس للبطولة فيهم ، ومن شامت باحدى الدول لاساءتها في استعمارها الى آخر ما يقول فلاسفة الحرب وطلاب الثارات اذا خلت الميادين . ويسألونك متى تضع هذه الحرب اوزارها قل هـذا ليس من علم الخلق ، وكذلك من المجهول كيف تنتهي وعم تنجلي . وفي اعتقادي ان الغالب نفسه لا يعرف ذلك وغاية ما ادرك ان الغالب سيملي ارادته ولصبح الدنيـا أما انكليزية سكسونية روسية او جرمانية يابانية والامر يومئذ لله .



دور جديد

بعد ان سقطت فرنسا في يد المانيا في السنة الأولى من الحرب الحاضرة تطورت السياسة فرأت بريطانيا ان تحتل سورية ولبنان لاسباب حربية فارسلت جيشاً طرد منها جيش الاحتلال الفرنسي او جيش من كانوا انتدبوا عليها بصك من جمعية الأمم ، وبعد قتال دام اربعة وثلاثين يوماً في اطراف القطر الاربعة عقدت الهدنة يوم ١١ تموز ١٩٤١ وعهدت بريطانية الى الفرنسيس الذي سموا أنفسهم فرنسا المحاربة — أي الذين ظلوا على ولاء بريطانيا وتركوا فرنسا الأم — بالنظر في سياسة سورية ولبنان كما كانت على عهد الانتداب . فاوعز المندوبون الجدد الى رئيس دولة سورية وجمهورية لبنان بالتخلي عن الحكم وأتت السلطة الفرنسية للرياستين بشخصين اعتمدت عليهما فنصب المندوبون السيد تاج الدين الحسني رئيس جمهورية سورية بمرسوم من المفوض السامي الافرنسي قال فيه إنه ثبت له بالبحث ان صاحبه خير من يتولى الامر في سورية ، ثم أعلنوا أن سورية ولبنـان مستقلتان فارسلت اليهما بريطانيا العظمى والولايات المتحـدة مفوضين سياسيين وتبودلت عبارات المجاملات الدولية .

ولما هلك الرئيس تاج الدين قام السيد شكري القوتلي أحد البارزين من زعماء الكتلة الوطنية فتبنى الزعامة بالاتفاق مع اصحاب الشأن وضمت الكتلة اليها أناساً ما كانوا من حزبها ، وبدأت الانتخابات في عهد حكومة موقتة ، وكانت الانتخابات في المدن حرة في الجملة وفي الاقضية تحت سلطة ضباط الاستخبارات الفرنسيين وجماعة الدرك السوري وهم يأتمرون بأمر الفرنسيس ومن نصبوه رئيساً للحكومة الموقتة ، فخرج النواب من طبقات مختلفة وائتمر الضعفاء بأمر الاقوياء وانتخبوا السيد القوتلي رئيساً للجمهورية

وألفوا وزارة ضمت من سبق لهم تولي الوزارات من الكتلة وغير الكتلة ومنهم أربعة من رؤساء الوزارات وذلك برياسة السيد سعد الله الجابري وهو كالسيد القوتلي ممن جاهدوا في سبيل الاستقلال واضطهدوا . وكان معظم البارزين في المجلس من رجال الكتلة ، وبعض نواب الاقضية والمدن غير متأهلين التأهل الكافي لحمل هذه الامانة . وبات الرجاء معقوداً لما يتمتع به رئيس الجمهورية الجديد من الثقة ألا ترتكب الكتلة ما ارتكبته من الاخطاء في الدور الماضي . اما الانتداب الفرنسي فأخذ يتقلص شيئاً فشيئاً .

وأخذت بريطانيا العظمى تسعى لربط الممالك العربية برابطة واحدة فعهدت الى نوري باشا السعيد رئيس حكومة العراق بمفاوضة مصطفى باشا النحاس رئيس الحكومة المصرية وبدأت المفاوضات مع حكومة سورية وحكومتي جزيرة العرب ولم يتعرضوا للاقطار العربية في شمالي افريقية برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . والغالب أنهم رأوا أنه لا يسهل اليوم تحقيق هذه الأمنية . وما كانت انكلترا راضية عن الوحدة من قبل ولكن الحرب الحاضرة اثبتت لها فائدتها ، وتبدو الصعوبة فقط في حل مسألة فلسطين بعد أن وعدت انكلترا على لسان وزير خارجيتها بلفور بان تجعل لليهود من ارض الميعاد وطناً قومياً ، وليس ايجاد حل يرضي الفريقين العرب واليهود بالمتعذر على ساسة الانكليز ، خصوصاً بعد ان رأينا اليهود الواغلين على ذاك القطر قد تسلحوا واخذوا يطيلون ايديهم على رجال الحامية من الانكليز ، ونسوا ان البريطانيين كانوا يحمونهم من العرب الى عهد قريب وينزعون من هؤلاء كل اسباب المقاومة .

وهناك صعوبة قليلة مع لبنان لأن من أهله من بلغ بهم التعصب الديني مداه ، ولا سيما بعض تلاميذ مدارس المبشرين ، فهؤلاء لا يحبون أن يدخلوا في جامعة أكثريتها مسلمة ، وقد سبق لرئيس جمهوريتهم أن صرّح بأن لبنان لا يجب أن يدخل مع سورية حتى في محالفات اقتصادية . قال هذا مع علمه

أن اللبنانيين يهلكون بدون أن تغذيهم سورية بحاصلاتها . ولبنان في الحقيقة مضطر إلى الدخول في الجامعة العربية ، والسوريون من أحرص العرب على هذه الوحدة وقد عزموا — كما قلت للمفوض السامي في فلسطين أثناء اجتماعي إليه مؤخراً — إذا أبى اللبنانيون الانضمام إلى الوحدة العربية أن يجعلوا من ميناء حيفا منفذهم البحري بدل بيروت ، وأن يقولوا لهذه عيشي وحدك كما تحبين . والغالب أن هذه الوحدة سيتمتع فيها كل قطر من الأقطار العربية بحكمه الذاتي ثم تلغى الجمارك والجوازات وقيود الحـدود ويتوحد البريد والبرق والهاتف والنقد . وتصبح هذه الولايات مجتمعة الشمل بعد تشتتها ، والنجاح مضمون للشعوب المتألفة المتحالفة . ولن يكون صوت الكبير كصوت الصغير في المعترك الدولي والنضال العالمي .

ورأيت اناساً من المفكرين يسيئون الظن بهذه الوحـدة ويرون فيهـا سبباً جوهرياً لامتداد سلطة الصهيونيين تحت العلم العربي الموحـد ، ذلك لأن فلسطين لا تكفي لتصريف بضائع معامل اليهود ولا حاصلاتهم من أرضها ومن المتعذر تصريفها في أوربا أو في غيرها ، فاذا تمت الوحدة يستطيع الصهيونيون أن يصرفوا بضائعهم وحاصلاتهم في جميع الممالك الداخلة في الوحـدة العربية ، وأن يتوسعوا في ابتياع الأرضين فى العراق والشام وغيرها ، وهذا مغنم غير قليل للصهيونية .

في مذياع القدس

دعيت إلى القدس لالقاء أحاديث في المذياع خلال شهر رمضان سنة ١٣٦٢ – ١٩٤٣ مع ثلاثة من أصدقائي الأساتذة طه الراوي العراقي والمصريان عبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد وكنا نحن الأربعة نحوم في أحاديثنا حول الوحـدة العربية وإن لم نتفق على ذلك من قبـل ، وما أوعز إلينا موعز بهذا الفكر . فكأننا والوحدة اليوم على كل لسان في ديار العرب قد رشحت أفكارنا من بيئتنا فأخذنا على أنفسنا اعداد العقول لقبول هذه الوحدة . وكنا في فلسطين نتمتع بحرية مطلقة في الأحاديث التي ألقيناها ، ومنها ما كان قبل أشهر مما يحذفه المراقب . وتفضل المفوض السامي فقال لنا في جملة حديثه إن جماعته سألوه فيما إذا كانت أحاديثنا مما يجب مراقبتـه فكان جوابه إن أحاديث الضيوف تدور على الأدب والشعر ، ولا يراقب الأدب والشعر ، فاعفونا من النظر فيما خضناه من الموضوعات . وقد احتفى بنا ولاة الأمر هناك وودوا لو نزور فلسطين كلها فاعتـذرنا بضيق أوقاتنا وأرادوني في دار الاذاعـة الفلسطينية أن أقول كلمة في تهنئة المسلمين والمسلمات بعيدهم فقلت الكلمة الآتية :

« يا بني امي ويا بني عمي . سلام عليكم طبتم وسلمتم ، وسعدتم ولا شقيتم .

تهنئات لكم بعيدكم ورجاء أن يعود عليكم وقد أظل السلام العالم ووقف عذاب الانسان للانسان ، وخفتت أصوات الشهوات ، وقلمت أظافر المطامع ، وعاد البشر إلى سكونهم وأمنهم يتراحمون ويتعاطفون .

وعيد الأعياد يوم يحنو غنيكم على فقيركم ، وتمتد يد موسركم إلى معسركم ، وينصف قويكم ضعيفكم ، ويكثر بين أظهركم صدق العهد وصدق الود ، وتقل الفوارق بين طبقاتكم ، وتتوحد الأفكار في باديكم وحاضركم فلا شعور إلا بالوطنية ، ولا دعوة لغير القومية العربية .

ما العيد إلا يوم يزيد عدد المتعلمين والعاملين على الجاهلين والأميين ، ويوم تكون الكلمة العليا للمصلحين ، ويوم تنعمون كما تشاؤون في الحياة الفاضلة ، تغتبطون لا تشكون ولا تألمون .

العيد يوم تستمتعون بحرياتكم ، وتسنون بأنفسكم دساتيركم ، وتنفذون بأيديكم قوانينكم ، تتحابون لا تتباغضون ، وتنهضون لا تحجمون ، وتتحركون لا تجمدون .

وأسأل محيي الأمم ومميتها أن يوفر من السعادة قسطكم ، ويعلي بالعلم كلمتكم على نحو ما كان أجدادكم ، وأن يعمر بالعمل الصالح دياركم ، ويحفكم بالسلامة ، ويشملكم بالأمنة ، ولا يجعل لغير العقل سلطاناً عليكم ، ولا لغير السداد سبيلاً إلى أقوالكم وأفعالكم إنه سميع الدعاء . »

كنت في السنين الأخيرة أهرب من السياسة ، كما كنت طول حياتي أهرب من الظهور ، والسياسة ترصدني وتلحقني آخذة بتلابيبي ، وذلك لما قام في نفسي بعد أن عانيت من السياسة ما عانيت أن الاشتغال بالعلم أوفر عائدة ، وان السياسيين قد لا يفيدون كما هو المتوقع منهم . وكنت إذا صادفت لطفاً من بعض قدماء أصحابي كرئيس جمهوريتنا الحالي السيد القوتلي وقابلته بمثله يفسره المفسرون بأني أطمح في منصب كبير فأضطر إلى الانقطاع عن مجالس أصدقائي حتى أقطع الألسن عني ، وغاية ما أطلب اليوم أن تطول حياتي حتى أعيد طبع كتبي منقحة ، وقد عزفت نفسي عن الخدمة ، وهي تحتاج من ذى الوجدان أن يعمل فيها عملاً نافعاً وإلا فأحجى به أن يتخلى عنها لمن يحسنها .

عود إلى الوحدة العربية . في الحروب تختفي الأحزاب السياسية وتتضاءل الحرية الشخصية ، وتبحث الأمم عن منافذ تخرج منها إلى دور سعيد مرعية الجانب موفورة الكرامة . ولما ظفر الحلفاء بأعدائهم من الالمان والطليان في شمالي افريقية وسقط بعض الأرض الايطالية في أيديهم قويت الفكرة

في تأليف الوحدة العربية فان اجتماع ملايين من العرب إلى غاية واحـدة مع مصر تتألف منهم كتلة عظمى يستحيل انتهاك حرمتها كل حين . واذا جاءت هذه الوحدة ناقصة بعض شروطها في أول الأمر لا يأتي زمن طويل حتى تستجمع صفات القوة والسيادة ، وما برح بعض المفكرين يستبعدون قيـام دولة العرب ، فهم متشائمون لا يولون ثقتهم دولة من الدول لكثرة ما شاهدوا من وعود في المـاضي لم يتحقق بعضها . ولا شك أن العالم سيتبدل تبدلاً كثيراً ويلغى اسم الاستعمار والانتداب والحماية ، ويكتفى بمحالفات ومعاهدات تضمن للقوي شيئاً من الحقوق بدون جمجمة . والمأمول يومئذ أن يرفق القوي بالضعيف ويقل ظلم الظالمين في العالمين .



مفاسد الحرب

زادت الكارثة العالمية في الفساد ، وضعف معدل الأمانة ، وأصبحت السرقة والتزوير اموراً طبيعية تكاد لا تنكر ولو انكاراً صورياً كما كانت أيام السلم . وكان لبعض التجار في هذه الفترة وثبات واحتيالات ، وعلى كثرة ماربحوا ما شبعوا ولا ارتووا . وكان المأثور عن جمهرتهم انهم أقرب إلى الشرف من أكثر أهل الطبقات الأخرى . ولو قد كشف لك الستر عن أعمال صغارهم والدخلاء فيهم لشهدت ما هالك من لصوصية دنيئة وأسفت على تدني الطباع إلى هذا الحد .

ورأينا رؤساء حكومات ما أهمتهم غير مصالحهم الخاصة ، وقد اساءوا استعمال نفوذهم باتجارهم بالحبوب وغيرها من أصناف المأكولات ، ومنهم من زرع الحشيش المخدر واتجر به ، حللوا لأنفسهم ما حظروا على الناس ، وذلك تحت حماية رجال الأمن . وكان هؤلاء يشددون الضغط على الفقراء ، ويا ويل من ينقل رطل خبز أو مدّ قمح من قرية الى أخرى ، وعلى ذلك كان بعض رؤساء الحكومات قبل الجمهورية الرابعة مهربين رسميين وأكثر ما يهربون المأكولات يجيعون بلداً ليطعموا آخر ولا تهمهم من ذلك غير ما يدخل صناديقهم ، ولا يقيمون للمروءة وزناً في هذا الزمان المصيب ، فكيف ينكر على صغار الموظفين استرسالهم في سرقة أموال الحكومة والامة . وادعى بعض هؤلاء الكبار أن غيره يحسن الانتفاع من منصبه أما هو فعفٌّ عن ذلك مع انه ربح عشرات الالوف من الليرات منِ التهريب واستعمان بقوة وظيفته على مقاسمة اناس من المهربين أرباحهم ، كان له منها القسم الأعظم . وكان بعض رجال الأمن يحسنون القيام بأعمالهم ولا يرتشون أيام كان المنتدبون يسيّرونهم فلما استقلوا بأعمالهم ورفعت عنهم المراقبة

ونشبت الحرب نسوا ما لعلموا فأخذوا يجورون على الرعيـة ولا سيما في الأماكن البعيدة عن الانظار . ولا همَّ للمأمون على الأمن إلا مصادرة الحبوب وتهريب المحظورات يشترك بذلك مع قادته .

ما اعجب طباع البشر ! كنت اعتقد النزاهة في بعض الموظفين واذا الحرب تناديـنـا انهم كانوا كاذبين في دعواهم ، يظهرون التورع عن كل ما ليس لهم خوفاً وطمعاً ، وهم في الواقع ما عَدَوْا سيرة رؤسائهم ، يتمرغون معهم في حمأة اللصوصية ، لا يبالون الشرف والنزاهة ، ودعواهم على فعلاتهم ارتفاع اسعار المعيشة حتى لقد فقد التوازن بينها وبين رواتبهم ، نعم ان مستوى العيش زاد خمسة عشر ضعفاً عما كان عليـه قبل الحرب ولم تزد الرواتب اكثر من ضعفين او ثلاثة ، فمن الصعب على من لم يكن له مورد آخر غير راتبه ، ان يعيش بمشاهرة ضئيلة . وهذا ايضاً ليس فيه مبرر لسلب الرعية واضاعة حقوقهم . ولولا ان انشأ الانكليز في هذه الاقطار مشاريع استلزمت شغل عشرات الالوف من الايدي العاملة كفتح طرق وانشاء جسور واقامة حصون ومستشفيات وثكنات ومستودعات ومآوي وملاجئ لعم الفقر الطبقات النازلة وربما كانت تنشب ثورات وتنتشر مجاعات . وكلما لضخم الورق النقدي نقصت قوته على الشراء فزادت الاسعار ارتفاعاً . كان في سورية ولبنـان قبل الحرب نحو ثلاثين مليون ليرة سورية من الورق النقدي متداولة فزادت في الحرب ثلثمائة مليون آخر . وهكذا حال مصر والعراق وبعضهم في الأقطـار الثلاثة لكثرة الجيوش النازلة فيها يعملون ويربحون . أما الثروة العامة فمصابة بداء مجهولة نتيجته ، ولا يتجلى ما تؤول اليه الا بعد الحرب وان رأينا بعض الأملاك والاراضي ترتفع اسعارها الى ضعفي ما كانت عليه ثم لعود الى النزول .

طلعت علينا الحرب العالمية الماضية وهذه الحرب الطويلة الحاضرة بضروب من التبدل في اخلاقنـا ومنازعنا وأهم ما كان محسوس الأثر ذاك الفجور

الساري في الطبقات . الامور المالية تزيد وتنقص ، والثروات تقل وتكثر ، والارض تعمر وتخرب ، والشجر يكتسي ويعرى ، لكن فساد أمة نذير اضمحلالها ولا تنفع معها ثروتها ولا صناعاتها ولا فنونها ولا علومها . لا جرم أن الفحش لايرتفع من الامم في حال ترقيها وتدنيها ، اما بعض العالم اليوم فقد استحلوا كل محرم بلا حياء ، وكادت النخوة تفقد من الرؤوس ، وكان لكثرة الجيوش المنوعة دخل كبير في الاسترسال في البغاء فعم البلاء وأنذر هذا السقوط بسوء العقبى .



الهزل

الهزل ينفع في الاحايين والجد نافع كل حين ، يدخل الهزل النشاط على النفوس وهو عون على الجد ، واذا استكثر منه يسمج ولا ينفع وربما غلب الهزل على من كان تحصيل الرزق هيناً في أرضهم ، ولهم شيء من الفراغ يخلون فيه الى أصحابهم وعشرائهم ، والهزل قد يكثر في الحواضر لأنها لا تخلو من متبطلين ، يسهل عليهم تحصيل رزقهم بدون سعي عظيم .

ومن لم يرزق حظاً من أدب النفس لا يدري كيف يهزل الهزل الجميل ، ولا كيف يتهكم التهكم الذي يسر ولا يسوء . وهزل الناس فرع من أدبهم يسمو بسموه وينحط بانحطاطه . ومن الهزل الفظيع أن بعض المفرطين في هزلهم يختلقون أكاذيب مضرة تجوز لساعتها على سامعها ، كأن ينعون اليه زوجته أو أباه أو أمه أو عزيزاً عليه ، وهم يظهرون الاسى على ما حلّ به . وهذه « المقالب » — واحدها مقلب كما يسميها المصريون او « التراكيب » مفردها تركيبة كما يدعوها الشاميون — خالية من الذوق وفيها غلظة وسماجة ، لا يقدر فيها من يجرؤن عليها عظم الخطر الذي ينشأ من هزلهم هـــذا .

رأيت كثيرين من الهزالين ومنهم رجل في مصر جمع الى نبل المحتد جميل الأدب ، وعرف بابتداع المقالب يقصد بها ادخال المرح على أصحابه وتسليتهم فيما لا تهتز له أعصابهم كثيراً ، كأن يوهم بالواسطة عقيلة صديق له أن سير زوجها هذه الأيام فيه ما يدعو الى الريبة ، فتغضب وتعاتبه أوتصارمه أياماً ، وقد يدعو جماعة من معارفه الى تناول الطعام في دار صديق لهم يوم كذا ، فيخف المدعوون الى دار صاحب الدعوة المزيفة في الوقت المعين ، او يزور هو على لسان صاحبه دعوة الى بيته يدعو اليها من لا يعرفهم

صاحب البيت . ورأيت في دمشق رجلاً صرف عمره وهو يهزل وأصحابه كثار تختلف درجاتهم في المدنية والثقافة ، ولا يفتأ يخلب ألبابهم بما يسمعهم كل يوم ، وما عرفت أنه أغضب انساناً بهزله ، ولا أساء الى قريب ولا بعيد بنقده ، أو ظهر من كلامه بذاءة . اذا اجتمعت اليه لا تحب أن تفارقه لكثرة ما يسمعك من تهكم ، ويورد على مسمعك من قصص ونوادر وبعضها واقعي يطيبها ، بما يمزجها به من أفاويه ، ويبرزها في قالب شفاف من رقيق حسه وصائب نقده . وقد ينسب بعض قصصه الى نفسه مخافة أن يرتكب كبيرة الغيبة ، وفي هزله درس أخلاق ونقد عادات .

هذه الفئة من أرباب الهزل يجب الانتفاع بما تلقيه من دروس تستسيغها العامة أكثر من دروس الخواص . يقول ابن المقفع إن آثرت أن تفاخر احداً ممن تستأنس اليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدُونَّ أن تتكلم فيه بما كان هزلاً فاذا بلغ الجد وقاربه فدعه ولا تخلطن بالجد هزلا ولا بالهزل جداً ، فانك إن خلطت بالجد هزلاً هجنته ، وان خلطت بالهزل جداً كدرته ، غير أني علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأي وظهرت على الاقران وذلك ان يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجـه وثبات من المنطق .

استعمال العقل

كان استاذنا الجزائري يحذرنا من القول الا بعد الاستثبات ويبغض الينا الاستنتاج الا اذا استوثقنا مما لدينا من النصوص ، ولا يحب أن نتوسع باعطاء الآراء اذا لم نكن على بصيرة من صحتها . وكان التزيد في نقل الأخبار من أشد ما يسوءه ، ولا يحب الاكثار من التعليق على الحوادث بما لا يفهم منها . وهو يريدنا أبداً على ان نستعمل عقولنا قبل ان نشرع بالكلام .

حدثني صديقي الأمير أمين ارسلان قال كنت تلميذاً في المدرسة الملكية في الاستانة وكنت اختلف الى منزل السيد جمال الدين الافغاني وكان من عطفه علي ما جرني على غشيان مجلسه كثيراً . قال دخلت عليه صباح احد الجمع فوقع نظري على كتاب في مذهب كونفوشيوس بالفرنسية ملقىً على المنضدة ، فنظرت الى السيد كالمتعجب من تنازله ، على جلالة قدره في الاسلام ، لاقتناء هذا الكتاب ، فقلت له : ومولانا أيضاً يضيع وقته في تلاوة هذه الكتب ؟ فقال : نعم فان فيها حكماً عظيمة . ثم قال : وهل أنت اليوم في سعة من وقتك لنقرأ هذا السفر معاً فاجبته الى دعوته مع الشكر . وعند ذلك أمر خادمه ان يمنع الناس من الدخول عليه طول النهار ، وأخذت أتلو على السيد وهو يفسر لي ما أبهم عليّ ، وكان يدرك مقاصد المؤلف ومصطلحات المذهب أكثر مني مع تمكني من اللغة الفرنسية . قال وما أمسى المساء حتى أتينا على الكتاب برمته ، فقال لي السيد : وكيف رأيت يا أمين كلام كونفوشيوس ؟ فقلت شيء عظيم يستفاد منه يامولاي ، وما كنت أظن الامر هكذا ، فقال لي وهو كذلك ، وعليك بعد الآن ألا تصدر حكماً في شيء قبل الدرس وامعان النظر .

ولو جرى اكثر القوم على هذه الطريقة لا يقولون الا ما يعلمون ، ولا يتفلسفون الا بعد التفكير لما سرت الاغلاط الفظيعة الينا ، ولتوفر علينا عناء كبير وعبث كثير . نعم ان من نرى اقوالهم أكثر من افعالهم ، وخطأهم يزيد على صوابهم ، لو استعملوا عقولهم قليلاً لظهروا بمظهر من قلّ فضوله ورجي صلاحه .

قام مرة نائب حلبي في مجلس النواب السوري يطلب الغاء المجمع العلمي العربي بدعوى انه يكلف الجمهورية مالاً كثيراً ولم يأت بثمرة تذكر ، فتصدى للرد عليه رئيس مجلس النواب (السيد فارس الخوري) ورئيس الحكومة (السيد سعد الله الجابري) ونائب دمشق (السيد نجيب الريس) وغيرهم من النواب ، وبينوا له فساد حكمه على معهد ما زال يخدم الآداب العربية منذ ربع قرن ، تشهد لذلك مجلته ومحاضراته ، وما ينشره من الكتب ولو لم يكن من المجامع النافعة ما انبرى العلماء في الاقطار العربية والمستعربون من الافرنج يذكرونه بالاعجاب والتقدير ، ومما سأل رئيس المجلس ذاك النائب المتهور هل اطلعت على اعمال المجمع او حضرت محاضرة من محاضراته حتى تحكم عليه هذا الحكم ؟ فاجاب نعم حضرت مرة محاضرة لرئيسه وكان موضوعها الكذب ، فقال الرئيس فأنت على ما يظهر لم تستفد شيئاً مما قال الرئيس في هذا المعنى .

وأراد احد المتنطعين ممن تنطق ألسنتهم بما لا يعتقدون كيداً وحسداً ان يغمز المحاضرات التي يلقيها اعضاء المجمع وغيرهم في ردهته . فقال وهذا الرئيس يقتبس محاضراته من كتبه ، فاجابه احد العلماء الحاضرين وهل تستطيع أنت ان تؤلف مثل كتبه ولكتبه موقع في نفوس العرب ، فبهت ذاك المتسرع إلى تزييف ما لا يعلم ولو كان كل من حضرة النائب وجناب المتفلسف الناقد استعمل عقله ما جسرا ان يصدرا مثل هذا الحكم في أمر لا يعرفانه .

ويسرنا وقوع تبدل محسوس في المقول وفي صورة الحكم على الأمور. رأينا احد رؤساء حكومة سورية (السيد حقي العظم) وهو انتدابي يقول أي فائدة أتت من المجمع العلمي العربي ، وهذا مجمع مصر يكفينا المؤونة ، وبالغائه نقتصد مبلغاً نصرفه في أمر آخر من اعمال الحكومة ، وشهدت في العهد الاخير رئيس حكومة وطني (السيد سعد الله الجابري) يدافع في مجلس النواب عن هذا المجمع العلمي دفاع الغيور على العلم العارف بما نجم عن هذا المجمع من الفوائد العظيمة . وما وقع من الاول والثاني من الرؤساء يدخل في باب الارتقاء المحسوس في المقول .



المؤتمر النسائي

عقد في القاهرة في شتاء سنة ١٩٤٤ مؤتمر نسائي اشترك فيه وفود من الشام والعراق ولم يشارك فيه نساء جزيرة العرب ولا غيرهن ، وألقين الخطب وطلبن المطالب في اصلاح حال المرأة ، ومما قررنه مساواتهن بالرجال في الوظائف ، إذا تساوى الذكر والانثى في الشهادات والمؤهلات ، وأن يَنتخبن ويُنتخبن أي يصبحن نائبات في المجالس النيابية ، يتولين أمور الناس في الحكم ، اي يتخلين عن بيوتهن وتربية أولادهن ، ويتصدين لشؤون لم يخلقن لها ، وبعض ما طلبن مما يتعذر تحقيقه لان النساء لم يفلحن في المحاماة ولا في الطب ما عدا الفرع الخاص بامراض النساء ، ونجحن في تمريض المرضى والكيمياء العملية وتربية الاطفال ، ولم يأت منهن في الغرب الى اليوم مهندسة ولا قاضية ولاطباخة ولا خياطة ،وثبت انهن لم يأتين العالم بشاعرة ولا كاتبة من الطراز الاول ولا بعالمة ولا مخترعة من عيار الرجال ، وإذا نجحت حكومات النساء في بعض دول الغرب فالفضل فيه للرجال الذين كانوا يعملون من وراء حجاب ، واذا اخفق الرجال في بعض الادوار فقد كان السبب فيه النساء مذكن حاكمات بالفعل والظاهر أن الرجال هم الحاكمون.

سررت بعقد هذا المؤتمر يتمرن بنات حواء على الخطابة والكتابة والتفكير ، أما هن فمها قررن وشاهدن من بعض الرجال صدوراً رحبة في سماع شكاواهن فمن المستحيل أن ينفذ من مطالبهن إلا ما كان المنطق السليم يؤيده . ونصيحتي الى الفضليات منهن ان يعنين بتعليم بنات جنسهن وأبناء جنسنا اولاً حتى اذا صار المتعلمون والمتعلمات أكثر من الاميين والاميات جاز لهن ان يطلبن بعض ما طلبن من الرجال ، وربما يخجلن يومئذ من تقرير ما يخالف طبائعهن ، ويتعذر عليهن تحقيقه من عدة اعتبارات ، لان الفطرة لم تؤهلهن له ، وما أحب لهن الاشتغال بالعبث والسير مع الهوى ، وهن أعرف بما يعرض لهن من حالة صحية تخرجهن عن اتزانهن مدى الشباب والكهولة .

محاضرات فى المحافظات

كان المجمع العلمي العربي قرر انتداب بعض أعضائه لالقاء محاضرات في أمهات مدن سورية وطلب الي" رئيس الجمهورية مثل هذا الطلب وتعذر انفاذه لما حال دونه من قيود مالية ترجع الى صرف المقتضى من النفقات في هذه الرحلات ، والموازنة لا تسمح الا بالقليل من الواجب انفاقه . وقد دعاني رصيفي الامير مصطفى الشهابي محافظ جبل العلويين ، أو جبال النصيرية كما كانوا يسمونها قديماً ، الى القاء محاضرات في اللاذقية حاضرة محافظتـه فصحبت رصيفي الدكتور جميل صليبا وألقينا ثلاث محـاضرات على جمهور لا يقل عن ألف نسمة منهم مائتـا سيدة وكان الحضور على غاية التهذيب والنظام ، كلهم أسماع تنصت لما يلقى وتقدر ما تسمع .

وقد اغتبطت أنا وزميلي بالبداءة باللاذقية بعد أن فصلت أكثر من عشرين سنة عن سورية وجعلت على عهدالانتداب دولة قائمة برأسها كما جعلوا الاسكندرونة وجبل حوران ! ولا تقل نفوس محافظة العلويين اليوم عن نصف مليون نسمة بين علوي وسني واسماعيلي ومسيحي . وطول سواحلها مائة وخمسون كيلومتراً وعرضها ستون . وسهولها كجبالها خصيبة ومياهها دافقة وهواؤها معتدل وزراعتها منوعة واشجارها المثمرة وغير المثمرة تأتي باحسن الغلات .

ويندر المتعلمون في أكثرية السكان من العلويين ذلك لان الحكومات السابقة لم ترعهم حق الرعاية وكانت تستثمرهم فقط ، وكانوا اذا آنسوا غرة من حاكميهم خرجوا عليهم ، وقد نفرهم بعض جهلة السواد الأعظم وباعدوا بينهم وبين الاسلام ، وما هم الا فرقة من فرقة عشش الجهل في عقول منتحليها ، وان زعم بعض سخفاء العقول أن أصلهم نصارى ومنه جاء اسمهم النصيرية ! ومثل هـــذا دعواهم في أن الدروز ليسوا من المسلمين ، وقد سعى المبشرون في تنصير العلويين والاسماعيليين والدروز فما أفلحوا .

جامعة الدول العربية

كنت في مصر لما انفض مؤتمر جامعة الدول العربية فسألت بعض أعضائه أما حسن لأحدكم أن يأتي في المؤتمر على ذكر مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وينادي بأنها أقطار عربية فيها عشرون مليوناً من العرب وهي جديرة بان تضم الى الوحدة العربية . وهلا خطر ببالكم أن تعرضوا لذكر الامارات العربية الواقعة على المحيط الهندي والخليج الفارسي كعدن ولحج والمحميات التسع والشحر والمكلا وحضرموت ومسقط وعمان والكويت والبحرين . وقلت هذا لجلالة ملك مصر المعظم فابتسم وقال الأسباب معروفة وأشار الى احدى الدول الكبرى . وسألت أحد أعضاء الجامعة العربية عما اذا كانوا يفكرون في الغاء الحواجز الجمركية بين الدول العربية ويبطلون الجوازات لتسهيل السفر بين البلدان الداخلة في هذه الوحدة فقال ولا تبطل جوازات السفر ، والجوازات أقل ما يطلب الفاؤه من هذه الشركة الجديدة . وقد وقع مندوبو الأقطار الداخلة في هذه الجامعة على صك الجامعة الجديدة وكلهم متفائلون خيراً بنتائجه ، وما رأيت أحداً جرأ فانتقد شيئاً منه فعسى أن يكون الباطن كالظاهر وأن تكون نتائج الجامعة العربية خيراً من مقدماتها .

المعارف والاصدقاء

عجيب حال بعضهم يطالبون بحقوقهم ويهملون اداء ما عليهم من حقوق ، ولا يهون عليهم أن يطالبهم انسان بحق له عليهم . لاحظت هـــذه المرة أن بعض معارفي من كبراء المصريين وأهل الأدب والرأي فيهم يعتبون عليّ اذا جئت مصر ولم أسأل عنهم ، لأن العرف الغربي الذي ساروا عليه في التزاور هو أن يبدأ القادم فيزور أصحابه اولاً ثم يزورونه . أما جمهرة أصحابي فكانوا اذا سبقت فزرتهم يكتفون من اكرامي غالباً بدعوتي الى طعامهم أو شرابهم ، ولا يرون من الواجب أن يزوروني ولا أن يسألوا عني بعدها ، سيان عندهم غبت أم حضرت . أنا أعـذر من يتهاونون في هذه الحقوق بعض العذر اذا صح ما يشيرون اليه من طرف خفي أنهم في شغل شاغل عن كل أحد ما دامت شروط مجتمعهم متقلقلة ، وليس في وسعهم تنظيم أمرهم وسط الفوضى . وأعتقد أن معظمهم يهرعون الى أرباب المقامات السياسية أو الى من يتوقعون منهم فائدة محسوسة . وقد جريت في السنة الأخيرة (١٩٤٥) على قاعـدة جديدة استرحت بها اذ رأيت العقل يوجبها ، وهي ألا أسأل إلا عمن يسأل عني وأزور فقط من أعدهم من أخلص خلاني ، واعتذرت عن حضور الدعوات التي دعيت اليها وقد بلغت عشر دعوات ومنها رسميات لاني لا أريد أن يتخذ بعضهم من دعوتي اعلاناً عن كرمه واتساع علاقاته ، وكنت عمدت منذ سنين طويلة ألا أواكل من لا أعرفهم ، ولا أحضر مجلساً اتنغص فيه أو يتنغص غيري من وجودي معه ، فربحت بذلك وقتي وصحتي وبانت لي درجة تلك الصداقات . وتوخيت للتذرع الى ذلك ألا يكتب اسمي في صحيفة اخبارية حتى قلّ من يقصدني ممن أريد أو لا أريد مقابلته ، وزرت في جملة من زرت

في الريف صديقي الكريم قليني فهمي باشا من أعيان مصر دعاني الى داره في مغاغة من الصعيد الأوسط واطلعت على ما أنشأه فيها من مدرسة ريفية ومدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية وكنيسة وجامع ، عدا سرايه في حلوان التي أعدها لتكون بعده مستشفى ووقف عليه ما يلزمه وعلمت ان صديقي يملك في تلك البلدة ستمائة فدان قسمها مناصفة بين اسرته وبين أعماله الخيرية . ولو جرى من رزقهم الله الغنى الطائل على الجود بعشر ما يملكون يصرفونه في البر لما بقي في وادي النيل فقير ولا جاهل ولا مريض .

غرائب

ما أحب أن تذكرني الصحف في أمر لي شخصي مخافة شغل اصحابي بشيء خاص بي ، واضطر الى مجاملتهم كما جاملوني . فجعت بفقد ابنتي العزيزة سعاد فذكرت صحف دمشق الخبر وهرع الأصدقاء ورجال الجمهورية الى تعزيتي في مزرعتي وفي البلدة ، ولم تجئني سوى تعزية واحدة فقط من الديار الشامية (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) مع كثرة أصحابي فيها ، ووردت عليّ تعزيات أكثرها بلسان البرق من اخواني المصريين ومن جملتها برقية من عظيم لم يسبق لي أن تشرفت بمعرفته شخصياً وإن كنا يعرف أحدنا صاحبه غيابياً منذ سنين طويلة وهو صاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الحكومة المصرية . ذكرت هذا هنا ليعذرني بعض المذال على حبي المصريين وتفاني في حب مصر .

أنا والعقيدة

قال لي الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي فكرت في أمرك ملياً وحمدت الله على أن أنشأك نشأة اسلامية ولم يجعلك مطية لأعداء الاسلام يتخذون من قلمك أداة لنشر دعوتهم ، ولو قدر لك ذلك لكنت بما رُزقت من بيان وجلد شراً على أمتك . والسرّ في هذا الذي عجب منه صديقي أني اعتقدت وأنا في العقد الثاني من حياتي أن الدين المعقول أجدى على البشر من الالحاد ، وأن من السهل الهدم والصعوبة في البناء ، ومن حاول أن يدك بناء قائماً على وجه الدهر وهو عاجز عن اقامة غيره كان خليقاً أن يعدّ في الحمق .

وقويت في نفسي هذه العقيدة عندما درست الاسلام دراسة علمية ، وتدبرت القرآن وسيرة الرسول وأصحابه ، وأخذت الشريعة من أصفى مصادرها ، وأحببت جملة من علمائنا ، ودأبت زمناً أنظر فيما كتبوا ، بعيداً في الجملة عن التقليد ، ولما جاءت نوبة العمل كنت أدون ما علمت ، ومع هذا رأيت أن أتباعد عن الأبحاث الدينية لعلمي بأن في الأمة أناساً كثيرين انقطعوا إليها ، وآثرت أن اوجه وجهي شطر علوم المدنية ، لاعتقادي نفعها في انهاض الأمة ، وامة لا تصلح دنياها لا يغني عنها دينها ، والدنيا مزرعة الآخرة . وكان لي من التربية الأولى عون على تفهم ماشغفت به ، وما أوغلت في تقدير ما لعلمت بادىء بدء ، ولا استرسلت في الغرام بما لقفته بعد .

حكّمت العقل فيما عرض لي من القضايا الدينية فلم أستطع حل بعض مسائل الآخرة من طريق العقل وسلّمت بما جاء ، ولم يكن ما استعصى عليّ إدراكه سبباً في خروجي على الدين كله ، قبلت العقيدة بالتسليم

واعتقدت اعتقاداً جازماً بخالق الأكوان ، وقلت انه لا يطلب من كل إنسان أن يعرف كل سر ، وأن يعلل بالمنطق كل أمر . ومن طبعي ألا أتفلسف إلا بعد درس النصوص أما أن اعطي حكمي في كل ما يمر في ذهني وقد شغل به قبلي أرباب العقول قروناً فما أثمر لهم طول تفكيرهم شيئاً ، فهذا ما كنت أتجنبه .

أهمني من الدين قبل كل أمر جوهره وتعاليمه الاجتماعية فعففت عن كل مال محرم في الشرع والعقل ، وما رأيت في استخدام الكذب فائدة ، وصنت قلمي ولساني عنه ، وتفانيت في حب الحرية ، وقاتلت من يحتالون ويستغلون السذج لمآربهم ، وعذرت بعضهم على نقص تربيتهم ، وما عذرتهم على الزور والخداع قط . كرهت التعصب والعصبيات فلم ادافع عن مسألة ما اعتقدت صحتها ، ولا ألقيت قولاً وأنا أوقن بعضرته ، وقلما قبلت لنفسي تقليد أحد في آرائه ، أو سرقة آراء غيري وادعاء انها من عندي ، وقد وقع لي وأنا في العقد الثالث أن قلدت استاذاً لي في رأيه ببعض رجال الاسلام ، ثم رجعت بعد الدرس عما اعتقدت ، واخترت مذهباً جديداً لي هداني إليه التجرد في البحث عن العصبيات الدينية .

اجتهدت في أقوالي وأفعالي وما ندمت على ما قد أتيت من خطأ ، مادام الخطأ غير مأمون السراية إلى أرقى العقول . مقتُّ الظلم وقاتلته وأهله مهما كان دينهم وجنسهم ، وما ونيت ولا تحولت عن دعوتي ، ودعوت إلى العدل وبالغت في تقدير من تشبعوا بروحه ، وأعترف أني كنت أرفعهم فوق أقدارهم لأجعل منهم مهمازاً لغيرهم ، وما كرهت حياتي مخالفاً لي في النحلة ، ولا مبايناً لي في الجنس ، ولا وضيعاً في المرتبة ، وإنما كرهت رديء الخلق والطبع ، ومن يجوز الخروج على نواميس العقل ، ولطالما أكبرت كل عطف يبدو من صاحب القوة على الضعفاء اكباري لكل من يفعل الخير ويكتمه لا ينشره .

أما بعد فلا يطلب ممن كثر اطلاعه على الآراء المختلفة أن يظل على رأي واحد طول عمره في عويص المسائل ، فالاجتهاد فيها تبع أبداً للتجارب التي تستجد للدارس ، وكان الواجب أن يقوم المرء بكل ما وجب عليه ويبتعد عن كل ما عنه الشرع نهى ، ولكن النقص من خصائص البشر . أسأله تعالى أن يجنبنا مزالق المنافقين ممن يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .



عملية أخفقت

قلت في غير هذا المكان أن حكومتي بريطانيا العظمى والولايات المتحدة اعترفتا باستقلال سورية ولبنان وتبادلت هاتان الحكومتان مع الدولتين العظيمتين الرسائل السياسية . ومضت حكومة سورية في جمهوريتها وتبعتها حكومة لبنان ، فانتخبت النواب وانعقد المجلس النيابي وطلبت حكومة لبنان من حكومة الانتداب الافرنسي الاستيلاء على حصتها من أموال المصالح المشتركة وغير ذلك من المطالب ، فشق ذلك على فرنسا المحاربة ، وصدر أمر قائدهم بالقاء القبض على رئيس جمهورية لبنان وعلى رئيس حكومته ، واعتقلوا مع بعض الوزراء في قلعة راشيا وعهدت الى السيد أميل اده رئيس الجمهورية الأسبق أن يتولى كبر هذا الأمر ، وشرع بانتخاب حكومة شرعية لا من رجال الشوارع كما وصموا الحكومة المغضوب عليها . فقامت مصر والعراق وسورية والمملكة العربية السعودية تقبح هذا العمل وعاضدت بريطانيا أهل لبنان معاضدة فعلية حتى رجع الفرنسيون عن قرارهم واستدعوا قائدهم الذي قيل انه لم يعمل إلا بما قضت به لجنة فرنسا ومجلسها العام ، وأعادوا المعتقلين الى كراسيهم .

استغرب كل عاقل عمل فرنسا المحاربة وخرقها الاجماع في استقلال لبنان . وقد وقف جلالة ملك مصر فاروق الأول وحكومته وحكومة العراق أجمل موقف في هذه القضية ، وأنحوا على من جرؤا على سلب ما ليس لهم ، وذكّروهم بأنهم امة يحتل عدوها أرضها لا يحق لها أن تسيطر على بلد غيرها ، وهي لا مملكة لها ولا سلطان ، يصرّف عدوها أمرها ، وهي لا تملك من استقلالها قليلاً ولا كثيراً . وفي الحق ان الفرنسيين المحاربين أو الأحرار قد خسروا في هذه الحركة عطف العرب

وكان عملهم وبالاً عليهم ، كأنهم ظنوا ان فرنسا في سنة ١٩٤٣ هي فرنسا سنة ١٩٣٩ لعتز بجيشها واسطولها ، وتتمتع بعظمتها وسلطانها ، والعد لبنان جزءاً من أمبراطوريتها ، وما هي إلا منتدبة عليه وعلى سوريه فقط . وقد زال الانتداب بزوال جمعية الأمم التي كانت عهدت إليها بادارة سورية وباعتراف الدولتين اللتين لهما الشأن الأول في هذا الباب انكلترا والولايات المتحدة باستقلال سورية ولبنان على صورة لا مجال لدولة مهما علت منزلتها أن تنقض هذا القرار .



مؤتمر المجمع اللغوي

دعيت في آخر سنة ١٩٤٤ لحضور مؤتمر اللغة العربية في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة وكان ضمني الى اعضائه مؤسسه عليه الرحمة ، وكنا نجتمع مرة كل سنة فحالت الحرب الحاضرة دون اجتماعنا أربع سنين . وقد رأيت بعد هذه الفترة تغييراً عظيماً في تركيب هذا المجمع ، وكان ينظر في تعيين أعضائه الى الكفاية العلمية فأصبحوا يجري انتخاب بعضهم بتأثيرات الحزبية ، ولما جاء الدستوريون الى الحكم بدلوا في أوضاعه واختاروا أناساً منهم أو ممن كانوا هم راضين عنهم ، ولما جاء الوفديون اختاروا اناساً منهم أيضاً ، ولا يبعد أن يجيء السعديون أو غيرهم يتولون زمام الحكم غداً فيضمون رجالاً الى أعضاء المجمع يرون من المصلحة ارضاءهم . والحزبية أضرت بمصر ضرراً بالغاً تناول كل عمل له اتصال بالحكم .

عرضت على المؤتمر ثلاث مسائل كبرى اذا أقرها يدخل التبلبل في اللغة العربية . الاولى اختراع خط جديد يراد به الاستغناء عن الشكل فيكون هذا من بنية الكلمة وبذلك يزيد عدد حروف الهجاء كثيراً ويأتي هذا الخط السقيم فيحل محل خطنا الجميل ونستعيض عن هذا السهل الذي تعلمناه بذاك الصعب الذي ما عرفناه . والاقتراح الثاني ان تبسط قواعد اللغة العربية في اللغة والصرف ولا يلتفت الى ما ورد في الجموع والتأنيث والتذكير وغيرها ويحذف المترادف من المعجمات وكل ما كان له أسماء كثيرة من المسميات . والاقتراح الثالث وهو أعظم الاقتراحات ضرراً باللغة اختيار الحروف اللاتينية لكتابة الحروف العربية ، وبذلك يقضى على تراث ألف وخمسمائة سنة ولا يأتي جيل واحد على المسلمين حتى ينسوا القرآن .

هذه ثلاثة اقتراحات عرضت على المؤتمر فجرت المناقشة فيها طوال

دورته هذه ، ورددّت كلها وخطب في تزييف الاقتراح الاخير ثمانية أعضاء ، وما جسر واحد من الفريق الثاني أن يجهر بمعاضدة الحروف اللاتينية إلا أنهم جعلوا لردها مخرجاً وهو أنهم ارجأوا النظر فيها الى السنة القادمة ، عسى أن يقوم من يعالجها معالجة أخرى او يقيض الله مخترعاً آخر يفكر تفكيراً ثانياً في اخراج هذه اللغة من ورطتها ، وما أظن نغمة الحروف اللاتينية تعود الى الانبعاث من مرقدها لان في تحقيق ذلك هدم اللغة لا محالة ، وحدثني عارف ثقة ان وزارة معارف مصر أمرت باغلاق مسألة الحروف اللاتينية وكفى الله المؤمنين القتال .

وأريد ان أسجل هنا ألمي من تسرب العنجهية الحزبية الى مجالس العلم ، وتلويث وجهه الجميل باصباغ السياسة . ورأيت هذه المرة أيضاً كثرة غرام بعض أرباب النباهة من المصريين بمصانعة بعضهم بعضاً على ما لا يدخل في المنطق السليم ، والعلماء اولى الناس ان يصونوا انفسهم عن المصانعة والتزلف . شهدت صديقاً لي منهم قد امسك مع ما فيه من فضل عن القول لما أفضنا في مسألة الحروف اللاتينية لان مقترحها من حزبه ، وكان المفروض فيه ان يكون على خلاف هذا الرأي فحاول بسكوته الا يغضب المقترح ولا ينقل عنه أنه يقول بالحروف اللاتينية ، لان ذلك مما يؤذي سمعته ، ويود ايضاً ان يرضى المجددين الذين دأب بعضهم على التأفف من كل قديم ليقال عنهم انهم دعاة تجدد . وما اقول كما يقول خصومهم إنهم يحاولون نشر الالحاد ، وان كبيرهم المتفلسف يوحي اليهم آراءه فيتابعونه على العمياء ليقال عنهم إنهم مصلحون . والحر من يجاهر ولا يخاف فيقول مثلا إني عملت ما عملت لخدمة الغرض الفلاني ، وقد عدلت عما كنت ادعو اليه امس ، وأنا الآن أعمل لخدمة أغراض اخرى .

هذه الدنيا ام العجائب ، وهؤلاء الناس اغرب ما فيها ، فان أمثلهم يكتم حب الدنيا على ما لم يكن يتوقع صدوره من مثله . إي وربي إن ذنب الكبير كبير ، وانا لا اريد هذه الطبقة ان تتخلى عن مطامعها في الحياة ،

فقد فطرنا على حبها ونحرص على ما يضمن لنا الرفاهة فيها ، بل أريدها أن تصدق في مطالبها ومظاهرها . فلو قال فلان مثلاً أنا سياسي وبودي أن أعمل فقط في السياسة فآتي كل ما يأتيه السياسي لقلنا له : سر في طريقك لا تبال الناقدين أما أن يخالف السمت الذي طالما سار عليه ، فهذا ما لا نرضاه لعدو فضلاً عن صديق . المرء حر في اجتهاده فاذا كان اجتهاده مما يضر فيؤاخذ على تفريطه بقدر ما يؤثر عنه من فقه ومعرفة ، وما فطر عليه من ذكاء ونباهة .

أما أنا فأحب أن يوافقني بضعة من الصفوة المختارة على عمل أعمله ولا أطمع في أن يجمع السواد الاعظم على استحسانه وأفقد عطف العارفين ، وأظن من يسرون ما يسرون ، ويظهرون بما يظهرون ، يذهبون الى أن القوم أغبياء لا يدركون .

كان لي صاحب من أعظم رجال الدين ، وكنت أعجب بأوليته وبما فطر عليه من حب الحق والعدل ، وفي سبيل ذلك أوذي وما التوى ، فلما تقدم به الزمان ، وتربع في دست السلطان ، هان عليه بغية جلب المغانم لمن يحب ، ووضعهم مواضع ليسوا لها بأهل أن يحلل لنفسه سلب الحق من صاحبه ليلقيه الى يد من لا يستحقه مدفوعاً بعامل الشفقة والعطف . وسالب الحق من صاحبه وحامله الى غير أهله سارق . والسرقة انواع كما أن الرشوة انواع . ولطالما اشتهيت أن أرى في رجال الدين من يعملون حقيقة بما علموا . وشهدت بعضهم قد عفوا عن أشياء لقصور فيهم أو عجز او لتوقع مظهر أكبر ومغنم أوفر ، حتى اذا فتحت أمامهم سبل الانتفاع أفتوا لأنفسهم بجواز ما اجترحوا .

وما برحنا منذ الزمن الأطول بين عالم ذكي يدور مع الأيام كيف دارت ، ويدوس كل ما يمنع عنه منافعه ويصده عن شهواته ، وعالم غبي يعتقد الخرافات ويعف عن المحرمات . الأول شيطان متحرك والثاني غبي

اخرس . وفتوى كل منها تكيفها اهواؤه . ذكروا أن احد علماء مصر قال في درسه ذات يوم يحاول الطعن على الشيخ محمد عبده وكان اصطاف في الغرب ، ان كل من زار أوربا كافر فقال له أحد الحاضرين : ما قول سيدنا الشيخ في الجناب العالي الخديوي فهو يسافر كل سنة الى تلك الديار ؟ فكان جوابه على البديهة : ويستثنى من ذلك صاحب الأمر والنهي الذي يذهب الى الغرب لاقتباس نظم الحكم النافعة .

وعلى ذكر الكفاية العلمية يدعوني حبي لمصر أن أصرح هنا لمن يتهالكون على دخول مجالس المديريات والنواب والشيوخ وسلاحهم في اهليتهم لها أموالهم ووجاهتهم ثم حزبيتهم ومصانعتهم وما اليها ، وهم غير أهل للجلوس على تلك المقاعد ، انهم بعملهم هذا يخونون المصلحة ويخونون أنفسهم . أما المصلحة فضررها ظاهر لان فاقد الشيء لا يعطيه ، والمجالس في حاجة الى من يغذيها بعلمه وتجاربه ، ومن يعجز عن هذا يسيء الى نفسه ، والعاقل على كل حال لا يرضى أن يكون عالة على غيره في أمر يحتاج الى روية ودربة ، اما أن يجلس مع الجالسين كالصنم لا يعيد ولا يبدي ، فليس من شأن الشريف . وفي بعض الأمثال الافرنجية . من وسد اليه عمل لا يحسنه وقبله فهو وضيع .

الحروف اللاتينية

وهـذا ما قلته في مؤتمر اللغة العربيـة في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة عندما ناقشت صاحب هـذا الاقتراح : سمعت زميلي عبد العزيز باشا فهمي يتلو علينا موضوعه في الدعوة إلى الاعتماد على الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية ثم قرأت مقترحه مطبوعاً فرأيته مفتناً في ايراد البراهين عارفاً بالاستطراد والاستنباط ، يريد أن يؤثر في عقل السامع والقارئ . وقد وقفت له مقاطع من الـكلام خانه فيها اللفظ فجاءت تحمل هنات غير قليلة ومنها قوله إننا نحن الضعاف أي العرب نطأطيء كواهلنا أمام تمثال اللغة نحمل أوزار الف وخمسمائة سنة مضت وأننا من أتعس خلق الله في الحياة لأننا لم نعالج التيسير الذي فعله أهل اللغات الغربية ، وأن هذا الاستكراه الذي يوجب على الناس لعلم العربية الفصحى هو في ذاته محنة حائقة بأهل العربية وان ذلك طغيان وبغي وأن رسم الكتابة العربية طلاسم مستغلقة مبهمة وُكِلَ أمر الناس في فكها إلى السحر وما ينقـذف في القلوب من الالهامات والاشراقات إلى غير ذلك مما لم يكن غير اسلوب خطابي يحاول أن يخرج منه ليفرض على الناس اختراعه الجديد . وما أظن زميلي معتقداً كل الاعتقاد أن الواحد من أبنائنا اليوم يقضي كل سني الدراسة من أولي وابتدائي وثانوي وعال وجامعي ويخرج بعد هذا الزمن الطويل العريض غير مستطيع بسبب سوء الرسم قراءة أي نص مطبوع — بل المخطوط — من لغته العربية قراءة صحيحة . هذا يا سيدي الأستاذ مبالغة لا يؤيدها المشاهد المحسوس وكذلك قوله ان رسم الكتابة العربية هو الكارثة الحائقة بنا في لغتنا وأنه رسم لا يتيسر معه قراءتها وان هذه المشقة تحمله على الاعتقاد بأن اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين لأن قواعدها عسيرة ورسمها

مضلل وأن الأمة إذا أجابته إلى دعوته وقبلت الحروف الهجائية التي زعم انها لا تخل بشيء من نغمات الحروف العربية تنجو من هذا الحرج ويخلص العرب من ذخائر مؤلفات كلفتهم هم وأسلافهم الهيل والهيلمان (كذا) إلا أنه اعترف في مكان آخر أن الضرر من ذلك هو القضاء على تراث الأجداد وأن هذا التراث يمكن للحكومات أن تتلافاه وذلك بانفاق مبلغ من المال لطبع امهات المعاجم اللغوية وامهات كتب العلم والأدب والفنون بالرسم الجديد وما إخال الاستاذ إلا ويعتقد أن هذا من الأقوال المسولة لأنه يتعذر على أهل الأرض تلافي ما يفوتنا ولو قضوا في هذه المهمة مئة سنة بالنظر لسعة التأليف في لغتنا وكثرة المؤلفات الصالحة التي كلفتنا ولا فخر الهيل والهيلمان .

بلغ بالاستاذ فرط الغيرة على تبسيط اللغة أن رثى لها بما فيها من صعوبات ومنها تبرمه بما في الأفعال من مجرد ومزيد وبالفعل الثلاثي يتبع أوزاناً مختلفة ومن أن للفعل الواحد عدة مصادر ومن أن الأفعال تبنى للمعلوم والمجهول والاعلال والابدال والمعرب والمبني ، ونعى على العربية تعدد جموعها وتشكل الواحد من الأسماء الجامدة جملة أشكال وقال إنه ليس لهذه اللغة في مفرداتها وقواعدها أول يعرف ولا آخر يوصف يريد أن يقول إننا لا يضرنا أن نجعل لغتنا كلغة بعض القبائل البدائية قبل عصر التاريخ ساذجة كل السذاجة بألفاظها وتراكيبها لا شواذ فيها ولا مركبات بل بسائط يتعلمها من يتعلمها في بضع ساعات أو بضعة أيام وما أظن ما اختاره لهذه اللغة اصابته لغة من لغات العلم لعهدنا أو لغة من لغات الشرق في آسيا . وقوله هذا خيال جميل إلا أنه متعذر كل التعذر على التطبيق . وماذا نعمل وهكذا خلقت لغتنا ونحن لا يد لنا في وضع لغة اخرى مكانها حتى نرضي دعاة التبسيط ولي أن أقول إن هذا شعر والشعر لا يدخل في الأبحاث العلمية .

يقول زميلي إنه يوشك أن تغزونا اللغات الأجنبية فنترك لغتنا ونستعيض عنها بلغة من لغاتهم وهذا خوف لا محل له لأن العربية تزداد كل يوم

رسوخاً في نفوس أهلها بفضل النهضة التي نهضناهـا وبفضل توفر أسباب التعليم والنشر . ومما قال ان لغتنا كانت سبب تخلفنا في مضمار الحضارة وما أظن شيخ القضاة إلا ويعرف أن لانحطاط الشعوب الاسلامية في بعض مظاهرها عوامل اخرى لا علاقة لهـا بحروف الكتابة وقواعد الرسم وأن برهانه هـذا ضعيف لا يصح الاستدلال به على ما هو بصدده . انه يعرف كما نعرف جميعاً أننا أنشأنا مدنية شهد لعظمتها كل من قاموا بعدنا وما حال هذا الخط ومن قبله القلم الكوفي دون الانتفاع بما آل الينا من علوم القدماء وما وضعناه نحن بصنعنا وقرائحنا من علوم وآداب كلفتنا الهيل والهيلمان كما يقول زميلي الحصيف .

وتبرم حضرته من لعدد اللهجات العربية وأنا ابشره بأن هذه اللهجات يقل عددها ولا يزيد كما ادعى لأنها تقترب كل يوم من الفصحى بفضل المدرسة والجريدة والكتاب والخطبـة والمذياع . أي أن اللهجات الدارجة تتضاءل أمام اللغة الأدبية ، والفصحى تتغلب على العامية اليوم بعد اليوم . ومن الحجج التي أدلى بها لاثبات قضية التمثيل لنا بالأتراك وهي في الواقع حجة عليه لا له . فالأتراك لما أخذوا بالحروف اللاتينية وقضوا على الأمية فيما زعموا بهذه البدعة الجديدة التي ابتدعوهـا قطعوا كل صلة بينهم وبين ماضيهم ، وعمر هذا الماضي لا يقل عن ستمائة سنة . وهل الشعوب إلا تكملة ما صنع أجدادها وورثوه عنهم ؟ وشأن العربية غير شأن التركية لأن العربية تحمل تراث العالم الاسلامي كله وإذا عملنا عمل الأتراك نقضي على تراث علمي وأدبي وديني دام مطرداً خمسة عشر قرناً مما لم يعهد لأمـة مثله اللهم إلا إذا صحّ ما نقل عن قدم المدنية الصينية . ومعنى الزهد فيما خلفه العرب من آثار القضاء على مشخصاتنا ولا يرضى بذلك عربي ولا مسلم .

سمعت التركية من أرقى الطبقات وسمعتها من الفلاحين والباعة ، سمعتها من ابن استانبول عذبة رقيقة وسمعتها من ابن آسيا الصغرى خشنة جاسية فما ثبت لي أن الحروف اللاتينية وفت بنبراتها ورنة ألفاظها فما بالك بهـذه

الحروف إذا اعتمدت للتعبير عن مفردات لغة فيها الثاء والظاء والطاء والحاء والخاء والذال والضاد والصاد والعين والغين والقاف ، والتجويد أو موسيقى الألفاظ حاكم متحكم في كل لفظة وفي كل نبرة .

خسر الأتراك اي خسارة بما أتوا من العبث بلغتهم فلا نريد أن نتقيل مثالهم ولا نجوّز لأنفسنا الاقتداء بأهل لغة من اللغات فمنحانا غير منحاهم ولغتنا تتسامى عن جميع لغات الشرق . وها نحن نرى اللغة اليابانية وحروفها صور وأشكال قد تصعب على المبتدئ بحسب الظاهر وما منعت اليابانيين من أن يأتوا بمدنية ضاهوا بها مدنية الانكلوسكسونيين أساتذتهم وقد بلغت أشكال اللغة الصينية مائة الف شكل وما حالت أيضاً دون تعلمها وضنانة أهلها بها . إن هذه الصعوبة الموهومة في لغتنا ما وقفت في سورية دون تعليم الرجل البالغ من ابن العشرين إلى الخمسين في المدارس الليلية التي أنشأناها بما أخرجناه به في أربعة أشهر من الأمية يتعلم خلال هذه المدة القصيرة الكتابة والقراءة والحساب (الأعمال الأربعة) ويقرأ في المصحف وفي الجرائد ويكتب ما يريد بعبارته .

إذن فالعربية ليست من الصعوبة بخطها على ما يزعم رصيفي ، والعرب إذا قصروا في التصوير فقد عوضوا عنه هذا الخط الجميل والنقوش كما قال أحد علماء المشرقيات . واللبس إلى حروف الكتابة باللاتينية أقرب من اللبس إلى الحروف العربية وقد يحل الغربي نفسه الكتابة العربية قبل أن يحل حروف الكتابة باحدى اللغات اللاتينية .

العربية تحتاج إلى من يحسن تعليمها على الأصول الحديثة . لغتنا سهلة يوم نتعلمها وكلكم تعرفون أن عدم العناية بتثقيف العامة وفشو الأمية فيهم كان فيه الضرر البالغ ، نحن هنا لاحياء العربية ويخشى أن تدعو هذه الضجة حول هذا الموضوع إلى زعزعة السمعة الادبية التي أحرزتها مصر فان في اعتماد الحروف اللاتينية بدل هذه الحروف العربية الجميلة تناقضا مع الغاية السامية التي انشئ المجمع لأجلها . نحن لا نملك بوجه من الوجوه

ادخال جديد مضر يكون منه القضاء على قديم مقدس . هـذه الحروف هي ملك الشعوب الاسلامية كلها اختارها ثلاثمائة مليون من المسلمين إذا ابطلت تخسر مصر ويخسر العرب ويخسر الاسلام .

وأرجو رصيفي أن لا يحاذر من موت عربيتنا الحسناء بفعل نشر لغات الاجانب بين أظهرنا وألا يدركها هـذا المجمع ولا عشرون مجمعاً من مثله فان هذا لتشاؤم غريب واللغة كل يوم تزيد انتشاراً على الألسن والاقلام. ولغة حرسها القرآن هذه القرون الطويلة لا يخشى عليها البوار وهي تزيد قوة مع الأيام وأتوسل إليكم يا رصفائي ألا نطيل المناقشة في هذا الموضوع لأن ذلك يقلل من قيمة عملنا ويظهرنا في الملأ بمظهر لا نرضاه لأنفسنا . اقول هذا على شدة اعجابي باجتهاد صاحب هذا الاقتراح وسلامة قصده .



قصص مصرية

قص مصري عارف على أحد أصحابي قصة عجيب صدور مثلها من أمي قال : حاول جندي من جنود محمد علي الكبير مرة أن يغتاله بخنجر كان يحمله في كمه ، ولما سدده الى صدره اتقى ضربته بيده وقال له في الحال قد عفوت عنك وأنا اعرف بأنك تستحق الترقية وأن تكون ضابطاً ، وقد رقيتك الى رتبة كذا ، فشكر وتهلل ، وبعد قليل رقى به رتبة أخرى فتزوج الرجل ، وتوسع في عيشه ثم رقاه ترقية ثالثة فرابعة حتى وصل إلى رتبة عسكرية عالية . واتى به ذات يوم الى حضرته ، وقد أعد له سكيناً فقال له الآن اقتلك ، بعد ان تنعمت بنعيم الدنيا ، لتفارقها آسفاً ، ولو قتلتك يوم حاولت اغتيالي لقتلت بك صعلوكا ، وربما هانت عليك يومئذ مفارقة الحياة .

حكي الاستاذ محمد صفوت باشا من وزراء مصر قصة غريبة كانت السبب في تبدل أجناس حكام مصر على عهد الخديوي اسماعيل قال : كان الموظفون في الحكومة المصرية على ذاك العهد من الاتراك أومن أجناس أخرى غير مصرية . ونزل ذات عشية أحد هؤلاء الاتراك ، وكان مأموراً في بعض أعمال مركز السنبلاوين على علي العبد عمدة احدى قراها (إكوة) يصحبه خمسة من الفرسان ، فقال له : نحن ستة رجال نريد منك ست فتيات من ذوات الجمال نلهو بهن الليلة عندك ، فقال له العمدة : على الرحب والسعة ، وهذا يكون بعد العشاء ، وأخذ يظهر أنه يهيء لهم طعاماً ، والمأمور يلح في طلب البنات والعمدة يطاوله ويقول له : لا يتيسر ذلك قبل أن تغيب الشمس ، فان هؤلاء البنات يحاذرن الخروج من بيوتهن إلا مع الدجى . ثم قال له : ان النساء يفزعن من رؤية السلاح فلو تجردتم منه فتجردوا ووضعوا سلاحهم في مخدع مصاقب لمخدعهم ، ثم جاءهم باربعة وعشرين رجلاً

يحملون حبالا فأخذوا يقيدون الفرسان وقائدهم ، ووضعوهم في غرفة اقفلوا بابها اقفالاً محكماً وأوعز الى رجاله ألا يقدموا للواحد منهم أكثر من رغيف ومقداراً من المش في كل وجبة ، وذلك من تحت الباب ، وامتطى حصانه وراح يطلب القاهرة وواصل سراه حتى وصل الى قصر الخديوي وكان هذا خارجاً منه ، فرمى بنفسه تحت عربته ، فسأله عزيز مصر عن حاله وعما يحمل من ثوب أبيض تحت ابطه فقال له : هـذا كفني إذا صدر أمرك بقتلي فهو جاهز ، وقص عليه ما وقع له مع الفرسان وما فعل بهم ، فرأى فيه رجلاً جلداً ذا شيبة جميلة ، وأعجبه ما أتاه ، وقال له : وهل في المصريين من يجرؤ على أن يعمل مثل عملك . قال : نعم يا مولاي عبدك هذا . فصدر أمر الخديوي اسمعيل بطرد أولئك المأمورين من الخدمة ونفيهم الى مكان سحيق ، وأخذ من يومئذ ينحي الغرباء عن خدمة الحكومة ، ويعين للوظائف المريقين في المصرية من أبناء مصر .

حدث أن اعتدى بعض جند الحامية الانكليزية حوالي سنة ١٨٩٢ على بعض نساء قليوب فاوسعهم أهل البلدة ضرباً واهانة فنمى الخبر الى عميد الاحتلال أن لاحد أعيـان تلك المدينة محمد الشواربي دخلاً في الامر ، وان الفتنة دبرت بمعرفته ، فاستدعى المأمور الاداري في تلك الناحية إلى نظارة الداخلية ، وهو مصري الاصل ، وقص عليه المستشار ما بلغ مسامع العميد في هـــذا الشأن ، فنفى المأمور ان يكون للشواربي يد في الفتنة فقال له هل تجرؤ ان تقول هذا امام العميد ؟ قال : نعم أقوله ولا أبالي لانه الحق . فاجتمع المأمور إلى العميد ، وأبان له الاصل في وقوع الحادث ، وان نساء القرية لحق بهن اهانة من بعض الجند وهن يملأن جرارهن من النيل ، فقابلهم رجال البلد بما يليق بمن يدفع عن عرضه وعاقبوهم بما يستحق اعتداؤهم . وانفصل الامر على ذلك وطوي أمر هذا الحادث .

مضى نحو عشر سنين أصبح خلالها شواربي باشا من احباب العميد يوالي زيارته له ويتلاطفان ويتهامسان . وفي ذات يوم احب الشواربي أن يلقى

مأمور بلدته ، وكان هو المأمور نفسه الذي برأه يوم التحقيق الاول في مسألة اعتداء الجند على بعض نساء قليوب ، فأبى المأمور أن يستقبله في داره في آخر ساعة من اوقات الدوام ، وبعث يرجوه ان يأتيه من الغد الى دار الحكومة ، فشق رفض المدير على الباشا ، وابرق من ساعته الى العميد الانكليزي وغيره يطلب نقل هذا المأمور الى مكان آخر ، لأنه طال مقامه في مديريته وذلك ليعم عدله الارجاء الأخرى . فبعث العميد يستدعي الباشا وقال له : إن المأمور الذي تشكو انت منه هو صاحب اليد عليك يوم الاعتداء على الحامية ، ولولا شهادته الحسنة فيك لكنت تحت التراب منذ عشر سنين ، وزاد العميد ان الباشا أذكره بهذا الرجل المستقيم الحازم ، وأنه كان يستحق الترقية منذ مدة طويلة ونسي هو ان يرقيه ، فرقاه في الحال ثم رقاه في ستة اشهر ثلاث درجات . (قص عليَّ هذه القصة أيضاً محمد صفوت باشا رحمه الله)

وعلى ذكر الشواربي باشا لا بأس بأن اذكر هنا ما حدثني به أحد اذكياء المصريين منذ اكثر من ثلاث وثلاثين سنة قال إن شواربي باشا قصد ذات يوم الى عميد الاحتلال الانكليزي لورد كرومر يرجوه ان يقتصر في الري على المهندسين الانكليز لأنه ثبت أن بعض المهندسين من المصريين يضيعون حقوق الفلاحين في الري ، ولا كذلك المهندسون البريطانيون . فضحك اللورد وقال للباشا : إن المملكة الانكليزية واسعة تحتاج الى رجال أكفياء يديرونها ، والمقتدرون عندنا قلائل ، وإن من عندكم من الانكليز قد بلغوا ثمانمائة رجل فلو طلبت عشرة آخرين لا أستطيع أن آتيكم بهم لأن من الصعب ايجاد رجال كالذين عندكم من أبناء البيوتات ومن الطبقة المتعلمة المتمرنة المشهود لها بالعفة والاستقامة . اما إذا اردت أن آتيكم بموظفين من شوارع لندن فالخطب سهل آتيك بألوف ولكنهم لا ينفعونكم . وكان العميد لورد كرومر في حسن ادارته نفع مصر كثيراً مدة مقامه الطويل فيها عميداً .

حدثني من اثق به أن الحكومة المصرية لما كانت تبيع أراضي الدائرة السنية اشار على العميد بعض اصحابه ان يبتاع لنفسه جانباً منها فأبى وقال له إن هذه الارضين هي ملك المصريين فلا يجوز ان يقتنيها الانكليز . قالوا ولو كان للعميد مأرب في المال لخرج من مصر صاحب بضعة ملايين من الجنيهات على الاقل ولكنه على ما كانت لعطيه حكومته من رواتب ونفقات كان ينفق من ماله في هذه السبيل ، حتى غادر مصر وعليه دين عظيم وفته عنه أمته بان ردت عليه رأس ماله . ولطالما قلت لاصحابي إن لورد كرومر بسيرته الذكية كان للبريطانيين خير دعاية في الشرق ، لو انفقت انكلترا مئة مليون جنيه لتتحبب الى قلوب العرب والمسلمين ما استطاعت تحقيق ما حققه لها رجلها العظيم بحسن ادارته وفرط عفته .

حدثني ثقة قال كان الشيخ محمد عبده مسافراً مرة الى اوربا ومعه صديقه فتحي باشا زغلول . وكان هذا يقرأ في بعض ساعات النهار على الشيخ فلسفة ابن رشد . ومن جملة من كان معهما في السفينة رجل من القضاة اسمه عرفان باشا . وحدث أن قال الشيخ لابن زغلول : الغالب أنك تخطيت سطراً فالمعنى لم يتم فأعاد فتحي نظره فقال : حقيقة إن الأمر كما قلت يا مولاي ، ونظر عرفان باشا الى الكتاب فاذا هو مكتوب بالفرنسية ، واذا بفتحي يقرأ العبارة ويعيدها بالعربية بمجرد القاء نظره على الأصل ، فدهش عرفان باشا وقال : رجل يبلغ به ارهاف الحس أن ينتبه لسطر تخطاه القارئ ، والقارئ يتلو الكلام في هذا الموضوع الصعب بالعربية مباشرة ، آخذاً المعاني عن كتاب كتب بلغة أعجمية ، ومعنى ذلك بالفرنسية Livre ouvert – والله إن المرء ليضيع معكما ، ولذلك سابتعد في هذه الرحلة عن مجلسكما ، وتنحى ناحية خوفاً أن يلحقه اثم هذا النبوغ . والغالب أن عرفان باشا كان من الأثرة بحيث شق عليه أن يرى من تتعذر عليه مداناتهما بعلمهما وذكائهما . فكان شأنه في هذا شأن محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب فقد روي أنه كان يأنس باهل البلادة ويستوحش من أهل الذكاء ، وسئل عن ذلك فقال : مؤونة التحفظ شديدة .

حدثني صديقي الاستاذ أحمد فهمي العمروسي ان الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله كان صديقاً للشيخ حسن الطويل الذي ظل طوال حياته مدرساً للغة العربية وعلوم الدين بمدرسة دار العلوم بالقاهرة وهو من اعظم علماء عصره ، وكان الشيخ حسن لاحظ مرة أن الشيخ محمد عبده أعرض عنه ولشاغل بحكم منصبه فأحب أن يداعبه لما دخل محفلاً عظيماً كان يتصدره الاستاذ الامام . وقد دعي للجلوس بجانبه مراعاة لعلمه ولكنه أبى واتخذ له مكاناً قصياً ثم حكى الحكاية الآتية معرضاً بأولي الحل والعقد .

قال : يحكى أن قرية من قرى الريف كان كل سكانها من القردة وكان من عادتها انه اذا مات العمدة لا يتأتى لولده ان يخلفه الا اذا استطاع بدهائه وذكائه ان يعتقل اسداً ، فلما مات العمدة خرج ابنه هائماً على وجهه ينشد اسداً يشد وثاقه فاتفق أن مر به أسد فاستأذنه في الاقتراب منه دون أن يمسه بسوء فأذن له ، وطمأنه على حياته ، فقص عليه القرد الصغير قصته ورجا ملك الحيوانات الا يضن على احد رعاياه المخلصين بخدمة جزئية كهذه فقبل الاسد واشترط عليه ان يعود اليه عقب تعيينه عمدة فوراً ليفك وثاقه فوعده خيراً . ولكن نشوة الفرح بالوظيفة ملكت عليه حواسه وانسته وعده وظل الاسد ملقى في الخلاء غاضباً محنقاً الى ان مرَّ به كلب فما كاد يقع نظره عليه حتى اطلق ساقيه الى الريح وولى هارباً ، فناداه الاسد وامنه على حياته وطلب اليه ان يفك وثاقه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء فأسرع الكلب بفك رباط الاسد وحل وثاقه ثم اراد ان يتظرف مع الاسد فدعاه لينزل عليه ضيفاً في تلك القرية تكريماً له وتشريفاً فقال له الاسد : انني احرص على كرامتي من ان انزل بأرض ، القرد فيها يربط والكلب يحل .

قصَّ عليَّ احد ادباء السوريين أنه بينا كان راجعاً من بلاده الى الازهر في مصر لقيته سيدة في ميناء يافا وكلمته بلهجة مصرية وسألته فيما اذا كان

ذاهباً الى مصر القاهرة فأجابها بالايجاب ، فقالت له بكل سذاجة : اريد ان احملك هذا الجواب لتعطيه الى امي . فقال في نفسه لا بد أن يكون لهذا الكتاب شأن وإلا لكانت السيدة وضعته في البريد والاجرة قرش واحد . فأخذه ووعدها ان يوصله . ولما بلغ القاهرة حدثته نفسه ان يسلم الكتاب الذي يحمله الى البريد تخفيفاً من عناء البحث عن بيت المكتوب اليها ، وعاد فرجح أن يحمله بنفسه ، وبعد بحث ساعة عن دارها في خط السيدة زينب اهتدى اليها ، ولما فتحت له ربة الدار الباب وعرفت ان معه كتاباً من ابنتها اخذت تبكي ، ثم رجته ان يفض الكتاب ويقرأه عليها فقرأه ، وهم بالانصراف فرجته ان يتريث حتى تأتي ابنتها وتسمع هي ايضاً كتاب اختها ، معتذرة انها مثلها لا تقرأ ولا تكتب ، فجاءت ابنتها بعد حين وتلا عليها كتاب نزيلة يافا ، واستأذن بالذهاب فقالت ربة الدار إن ابنها يحب ان يسمع كتاب اخته ايضاً وهو لا يلبث ان يحضر ولا بد من ان تتغدى معنا واعتذر ثم ما وسعه الا القبول ، ولما طعم اراد الانصراف فقالت من يخرج في هذا الحر ؟ ولا بد ان تقيل عندنا فقال ، ولما تم هذا الاكرام واحب مغادرة البيت اخذت عليه ربته العهد ان يزورهن كل اسبوع وان يعهد اليهن بغسل ثيابه . وبعد قليل ثار الازهر فكان صاحبنا من جملة من اعتقلوا من طلابه . وبعد ايام من سجنه سأله مدير السجن اذا كان له زوجة فقال : لا . قال : رأيت منذ ايام سيدتين تقفان على باب السجن في الشمس ساعات تسألان عنك فقال : ان لم يخطئ ظني فالسيدتان هما اللتان حملت اليهما الكتاب من يافا وقص عليه قصتهما . ولما نظر اليهما تأكد ذلك ورجا السجان ان يمنعهما من حمل طعام اليه بدعوى ان ذلك محظور على السجناء وقد لاحظ انهما طالبتان ذلك من غير شك ، فلما أبى صاحب السجن اجابة طلبهما اجابتا : اذا كان جلب الأكل ممنوعاً فهل يمنع جلب الشراب ؟ فكانا مدة سجن هذا الشامي يأتيانه كل يوم بمقدار عظيم من السكر والليمون والثلج ليعمل منه شراباً يكفيه ورفاقه

في السجن جميعاً . وظلت الام وابنتها على الوفاء لحامل الكتاب حتى خرج من القطر المصري للمرة الأخيرة . فلما قص عليّ هذه القصة قلت له هذه حقيقة اخلاق المصري وهذا مثال صريح من وفائه وكرمه ، تأصلت فيه هذه الأخلاق ولعلها كانت في الطبقات النازلة لا تقل عن الطبقات الاخرى ، تناولت سكان المدن وسكان الريف ، وربما كانت في الريف جلية أكثر من الحواضر .

لما شرع الخديوي اسماعيل بان يعهد بادارة مصر للمصريين أبناء الفلاحين كان مدير بني سويف احد أولئك الموظفين الجدد وهو من اهل تلك الناحية فأخذ أهله وجيرانه ومعارفه يدخلون عليه ويقضون ساعات في غرفته حتى اصبحت كأنها مقهى او منتدى ، يتحدثون ويتناقشون ، ويتناولون القهوة ويدخنون ، فضاق صدر المدير الجديد ، وهو الحريص على ان يخلو بنفسه ليفض مصالح أرباب المراجعة ، وفكر في الامر فلم يجد أحسن من أن يعهد إلى الفراش التركي بأن يدخل غرفته ، والمجلس غاص بالانسباء والمحاسيب والمصانعين ، ويبربر بالتركية ويقول لهم ما يفهمون منه طردهم ، ففعل ما أراده المدير على القيام به . ولما كان الفراش يزمجر خاف المدير نفسه صولته ، واختبأ وراء مكتبه مأخوذاً بالعادة التي تأصلت من خوف سطوة الغريب . وليس من السهل نزع عادات تأصلت قروناً إلا بطول تربية حرة ، وتوالي بطون بعد بطون .

عرفت صديقي الاستاذ امين الرافعي صاحب جريدة الاخبار المصرية وطنياً صادقاً يخدم مصر وسياسة مصر ويخدم الاسلام والمسلمين بروحه وقلمه ونبوغه ، وعرفت انه شريف بكل مافي الشرف من معنى . قال لي من كان له به خلطة وكان له مؤازراً في تحرير صحيفته أحياناً إن يحيى باشا ابراهيم رئيس الوزارة المصرية عرف ان حالة أمين الرافعي المالية سيئة وكان يعجب بخطته ، وان كانت الاخبار ، لا تتحرج من نقد حكومته ، فأرسل اليه كتاباً

معه حوالة بعشرة آلاف جنيه معونة لجريدته ، وقال إنه يرسل هذا المبلغ من يحيي ابراهيم القاضي لا من يحيي ابراهيم رئيس الوزراء وانه لا يطلب اليه ان يغير خطته ويكف عن نقد حكومته بل يريده على ان يظل على ما هو عليه لتستفيد الحكومة من آرائه . فما كان من الاستاذ صاحب الأخبار إلا أن رد المبلغ مع الشكر ، وحجته انه ما أخذ شيئاً من أحد حياته بدون عوض ، ولا يريد ان يعود نفسه الآن أخذ شيء من احد . وجاء بعد حين فتح الله بركات باشا من أكبر زعماء السياسة في عصره ، وعرض على أمين الرافعي ان يتكفل له جماعته بوفاء ديونه ويأتونه بمحررين يدفعون هم أجورهم ، ويعطى هو كل شهر مئة جنيه ، ولطبع له الجريدة ، ويأخذ هو جميع وارداتها ، على ان يبقى على ما هو عليه حراً في آرائه ونقده ، فلم يقبل هذا الاقتراح ايضاً وهو في أشد الضيق . وبعد بضعة ايام وقفت جريدة الاخبار اضطراراً ، ولم يرض صاحبها منة أحد ، وفضل ان يوقف عمله على ان يتناول شيئاً من طرق لا يرى معظم الصحافيين بأساً من أن يتناولوا منه . قال من قص علي هذا إن احدى كبريات الصحف الانكليزية لما نعت أمين الرافعي قالت مات رجل يقل جداً في العالم من لهم مثل أخلاقه اما في مصر فلا . نعم امين الرافعي أمين الصحافة العربية ولو سار أرباب الصحف على هذا المثال من العفة لكان اسمها غير اسمها وتأثيرها في الافكار أكثر من هذا التأثير .

قال لي صديق قصدت فلاناً ذات يوم بكرة وكنت أنسيت عنده حافظة أوراقي بالامس فالتقيت في أسفل السلم بانسان لم يتبين لي من ملامحه ان كان مصرياً او سورياً او ارمنياً ولا ان كان تاجراً او زارعاً او مستخدماً في بعض المهن وصعدت معه بالمصعدة الى دار صاحبي فدخلنا عليه سوية فبادرني هذا بقوله نسيت الحافظة امس خذها ، وخف لتوديعي على حالة بشعر بانه مضطرب بعض الاضطراب ، وكأنه يريدني الا اسمع كلام الرجل الذي كان قاصده مثلي ، وما بان لي سر هذه المعاملة الخشنة الا هذه الأيام وقد اتهم

صاحبي ذاك بالاتجار بالمخدرات فظهر ان الشخص الذي ما احب ان اجتمع اليه طويلاً ربما كان شريكه في هـذه التجارة الشائنة . فقلت له ان من الاسرار ما لا يكشف إلا بالعرض وبعد مضي اعوام ، وربما يقتضي لكشف الأمر البسيط عشر سنين وسر صاحبك ما عتم ان كشف بعد اشهر قليلة . وانا وقع لي شيء من هذا القبيل يصح درجه في باب الأقاصيص ذلك اني كنت اصدر جريدة المقتبس فانتخبت محكماً في قسمة اراضي عظيمة مختلف عليها بين اخوين وابناء اخ ، وشق على احد الأخوين ان اكون محكماً لانه شعر انه على جلال رتبته — باشا — لن يحكم المحـكمون الا بالحق الذي يرونه في تقسيم الأراضي بين الورثة ، وهو يريد ان يأخـــذ منها حصة الأسد . ونقل لي انه قال عني لأحد شركائه ومن هذا فلان الذي جئتم به محكماً عنكم وهل هو إلا صباغ ؟

وما أدركت يومئذ قول ذاك الباشا المؤدب وما يقصد من وصمي بالصباغة اللهم إلا انه كان يشير إلي أني صحافي أصبغ الناس بالصبغة التي أتخيلهـا . ومضى على هذا الحادث أكثر من خمس وعشرين سنة وكنت في زيارة صديقي الاستاذ محمد عبد الرسول في دار الكتب المصرية فجاءه شيخ شاب يطلب إليه مخطوطة فسأله صديقي عن اسم بلده فقـال له إنه من أبيوقا . فضحك صديقي وأسرّ إليّ أن بلد هذا الشيخ مشهورة بسرقة الحمير وبتغيير أشكالها ، فاذا كان الحمار أبيض سوّدوه وإذا كان لونه إلى السواد صبغوه أبيض ، فضحك الشيخ وضحكنا ، ورأيت الابيوقي يدرك النكتة وعلى شيء من الأدب فسألته عن اسمه وعمله ورجوته أن يكتب لي في مفكرتي اسمه واسم بلده ، وكان من طلاب التخصص في الأزهر ، ودافع فيما كتب عن قريته ، وأنكر أن تكون الآن كما كانت بالأمس ، وختم الصفحة التي كتبها بالآية الشريفـة (وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وعند ذلك تجلى لي سر قول ذاك الباشا الدمشقي أني صباغ وتمنيت لو حقق الله لي هذه الصفة لاستطيع صبغ الحمير بالصبغة التي اريدها.

ملك بالمجان

دعيت الى مؤتمر المستشرقين الذي عقد بأكسفورد في صيف سنة ١٩٢٨ والتقيت في الفندق بباريز بسمو خديو مصر السابق عباس حلمي الثاني ، رأيتــه واقفاً في رأس السلم فتصافحنا تصافح الاخوان ، وتعانقنا تعانق المماثلين ، ودعاني من الغد الى غابة بولونيا لتناول الغداء معه ، وقد اشار اليّ أنه يرغب في تقلد ملك سورية فقلت له ان سورية تسعد بتولي أمرها رجل من آل محمد علي خصوصاً وسموه عرف ادارة الملك ومرن على الأعمال الاقتصادية والمالية ، وبتوليه زمام الشام يدخل روحاً جديداً اليها . فأشار اليّ ان ابحث في لندن عن رأي الحكومـة البريطانية فيه . فحرت في أمري كيف اصل الى التعرف الى احد من بيدهم شؤون السياسة الانكليزية وهذا يحتاج الى الظهور بمظهر ما كنت مستعداً للظهور به . فلما عدت الى باريز سألني الخديو عن المهمة التي انتدبني اليها فقلت له كلاماً مبهماً خلاصته انه اذا لم يحسن سياسته مع الانكليز وهم غاضبون عليـه لمماشاته السيـاسة العثمانية الالمانية خلال الحرب الكبرى فان من العبث التشبث بهذا الأمر .

ذكرت ما جرى هذه الأيام وقد مضى الخديو الى جوار ربه تاركاً بضعة ملايين من الجنيهات وليس له غير ولد واحد ، فقلت لو ألهم يومئذ بأن يصرف مبلغاً من المال في الدعاية كاستكتاب مقالات في الصحف البريطانية المقروءة واعداد مآدب للتعارف والدعاية واهداء هدايا لمن يلزم ، واهل سورية من وراء ذلك ينادون به ملـكاً عليهم لتولى صاحبي ملك الشام . فالامساك أضاع علينا ملـكاً حصيفاً كان اقل ما يعمله من الخير لنا ضم شملنا تحت لواء واحد ، وربما كانت الشام اندمجت في مصر بعد زمن ليس بطويل .

افلاس عن طمع

من حق كل انسان ان يحتال لمعاشه بالمعقول من الطرق لا بالاختداع والختل . وذهب بعضهم الى انه ما دام حكم من يسرق دجاجة حكم من يسرق جملاً ، وحكم من يسرق مصرفاً حكم من يسرق قرشاً ، فليس هناك ما يقعد ببعض اللصوص عن التوسع في السلب لان العقوبة واحدة . وشهدنا لصوصاً كباراً لم يقنعوا بسلب المئات وتجاوزوها الى سرقة الالوف والوف الالوف فأنشأوا مصارف في مصر والشام اعلنوا أنهم يدفعون فوائد لمن يودعون عندهم اموالهم تربو على ما تدفعه المصارف الاخرى فاستغووا ارباب السذاجة وجمعوا بذلك مبالغ جناها أربابها بالتقتير والحرمان في طويل الأعوام . أخذوا لأول الأمر من ربا ما أودعوا اكثر مما تعطي سائر البيوت المالية فلما تجمع لارباب تلك المصارف ما أيقنوا انه يضمن لهم الغنى نفذوا برنامجهم الذي كانوا أسروه في أنفسهم ، فكانت دعوى الافلاس بحيث لم يسلم عشرة في المئة من رأس المال . وذهب وفر كل اولئك المساكين الذي ادخروه لشيخوختهم أو أعدوه ليستمتع به أعقابهم . والغالب ان ارباب تلك المصارف توصلوا الى اتمام أحابيلهم باساليب عرفوا بها التلاعب بالعقول وبخاصة عقول من تخدعهم الظواهر وتقضي عليهم المطامع فتغالط نفسها في الاخرق والكذاب .

وكان العامل الأول في مصارف ثلاثة من هذه المصارف الاغترار بمذهب صاحب المصرف وعندهم ان من كان مذهبه كمذهبك لا تبلغ به قلة الذمة الى أكل مالك ، وما أدركوا أن شيطان المال لا يحرم ولا يحلل ويلذه استلاب النعمة من صاحبها واقتناصها من جانيها . ومن المغرورين من خدعتهم صداقة صاحب المصرف لهم فوهموا ان الصديق يعف عن مال صديقه .

وكان من المنكوبين العاجز والعاجزة والطفل الذي يحتاج الى من يعوله حتى يكبر ، ومنهم الشيخ الذي قضى عمره حتى جمع ما يتبلغ به يوم الهرم . أما اللصوص فهيأ لهم المجتمع الخارج فبرأتهم المحاكم على نحو ما تخترع ذرائع للقتلة تنجيهم بها من القتل . وكأن قوانين هذا العصر وضعت لحماية الاثرياء لا لحماية الفقراء ، وكأن لسان حال العابثين يخاطب الأولين زيدوا ما شئتم من ثروة بالطرق التي ترونها ، ولتشير على الآخرين بقولها انكم لستم خلقاء أن تملكوا حتى ما قاسيتم في جمعه عرق القربة . وستنقضي القرون قبل ان يتمتع كل الطبقات بحقوقها ، وترتفع سلطة الأغنياء عن الفقراء . الدّين بالربا لا يقول به عاقل الا في الضرورات الملجئة ، والأولى ايداع ما يوفره الصناع والزراع في صنادبق التوفير بفائدة قليلة وبمبلغ معين وذلك تحت اشراف الحكومة . والوسط اذا جمع مقداراً من المال لا يكفيه لتوظيفه في عقارات أو أرض أو شركة واذا تركه في داره للأقدار يسطو عليه اللصوص وكذلك اذا اشترى به سهام المصارف وحصص الشركات يقع أيضاً في أيدي السارقين أصحاب تلك المصارف وتلك الشركات . وباسم المذهب وباسم الصداقة تؤكل أموال الضعفاء فويل للفقير من الغني .



انتقام الردى

كان جماعة يتحدثون فذكر احدهم ما خدمت به المسلمين بكتابي الاسلام والحضارة العربية . وكان في المجلس رجل عرفته قصاباً ، ودكانه قريب من بيتنا القديم ، وكان مشهوراً بين أهل حيه بنجدته وأريحيته ، فأخذ يتهلل لكلامهم ويحمد الله . فسأله بعض الحاضرين في ذلك فقال : منذ مدة طويلة اقترح عليّ أحد بني فلان ان اقتل صاحبكم الذي ذكرتموه هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر وقال انهما كافران ومن اعداء الوطن ، وتعهد لي أن يعطيني خمسين ليرة عثمانية جزاء عملي ، ووعدني أن ينقذني من أيدي القضاء اذا قبض عليّ ، افلا احمد الله على أني لم أكن آلة لمن يحاول الانتقام من رجل ينفع المسلمين كما قلتم .

نقل لي هذا الحديث بعد مرور سنين على التشبث باغتيالي وما استغربت صدور ذلك من بيت عرف أهله باللصوصية والجاسوسية . وما أدري من الذي تذرع منهم بهذا التذرع المشين ، والغالب انه ذاك الذي كان في المحكمة يمج الشرع من باطله وتزويره ، ويضج الأيامى واليتامى من اكله أموالهم ، ومن اخوة هذا اللص من تجسس للترك واهلك من تجسس عليهم من العرب ، امتهن هذه المهنة الدنيئة هو وبعض أهل بيته . وقد اخلصت هذه الاسرة في جميع الادوار في تجسسها للتركي والأفرنجي ، وأنا لم أكن بالطبع يومئذ من الساكتين عن سيئات لص المحكمة وكان له من المساوي ما لو قسم على عشرة لجاءوا اشراراً يخشى بأسهم . أما هو فما رأى للخلاص من الانكار عليه اقرب من اغتيالي ، وجائزة القتل سهلة الاداء يأخذها من تركة من التركات أو سرقة من السرقات أو من دعوى باطلة يتقدم بها الى المحكمة أحد المزورين ، وبذلك ينتقم لنفسه من حيث لا يشعر به ، وربما كان يعتقد

أن بقتلي وقتل صديقي شهبندر يكم السن الناس عن الانطلاق في نقد سيرته . وما أظنه الا كان مسوقاً بأيدي الحزب المستولي على الدولة العثمانية يومئذ ، فصادف ما اقترح عليـه هوى في فؤاده ، والحزب يجازيه على فعلته بابقائه في محـكمته مدة يقطع ويبلع وفي ذلك ربح عظيم له .

ليس من المستغرب ما بيته ذاك الذي ضري بالعبث بالشرع فأصحـاب الجبلة الرديئة لا يلذهم غير الشر ، أما من تطوعوا لتزييف خططهم فيرون ان كف أذى الأشرار أيضاً لذة لا تعادلها لذة . وسكوت العارف عن تلاعب المتلاعبين مدرجة الى تكثير سوادهم .

حقاً اني كنت اغلو في الانكار على المخربين حتى أصبح ذمهم ملكة مستحكمة فيّ لا استطيع الرجوع عنها ولو حاولته ، ولطالما نصح لي بعض أحبابي ممن يؤثرون العافية ان اشفق على نفسي وأخفف من الطعن في الأردياء ، وذلك بالاغضاء عنهم اتقاء مكروههم ، وما كنت استمع للنصح لان من طبيعة الشباب عدم المبالاة بالعواقب كثيراً ، وكنت أعد سكوتي عن الظلمة ضرباً من التقية ، والتقية ليست من مذهبي . وأري ابداً ان لا سبيل الى النجاة من الظلم الا اذا كثر الناقمون على مرتكبيه . والتغاضي زيد عن مساوي عمرو خوفاً ورياء مؤد حتماً الى تفاقم الشر .

سبحان الله ما اشد انتقامه ، فبعد ان جمع ذاك الخاسر الدنيء من الذهب والفضة ما ظن معه انه دفن الفقر على الدهر ، عمّر قصراً عظيماً جمع فيه كل نفيس مما سلب ونهب ، وجاءت الثورة تنسف القصر فأصبح رماداً تسفوه الرياح ، وحرق جميع ما فيه من متاع واعلاق .

كفاءة وعمل

أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢١ وعلى ما صادف من المثبطات انتج ما ساعدت بيئته على انتاجه : أثار الافكار وخدم اللغة العربية بما وصل الى علمه وعلم مؤازريه . وارادت بعض الحواضر العربية ان تحذو حذو دمشق في تأسيس المجامع العلمية فجاءت مصر بعد اعوام فأنشأت مجمعها اللغوي فوضع ألوفاً من المصطلحات العلمية الجديدة وبسط قواعد اللغة العربية . وكانت بغداد وعمان وبيروت تذرعت بمثل هذا الغرض الشريف فاجتمع مجمع بغداد جلسات قليلة ثم انفض عن لا شيء . واتفق ان كان مجمع عمان ناقص التركيب لقلة الرجال فاخفق . أما مجمع بيروت فمع وجود أكفياء من العلماء والادباء في لبنان حالت الطائفية على ما يظهر دون مضيه في طريقه اذ كانت كل طائفة من طوائفه تحاول ان يكون لهـا التفوق على الطوائف الاخرى من حيث عدد الاعضاء والتفرد بالرياسة . وما كان الداعي الى تأليف مجمع لبنان في الحقيقة الا ليقال فقط ان في لبنان مجمعاً كما في سورية . ومن الغريب ألا يتولى تأسيس المجمع اللبناني ارباب الكفايات الحقيقية ، وأن يتصدى للرياسة من ليس عنده شيء من الادوات اللازمة لها ، وقام بعده شخص آخر وكان كصاحبه لم يؤلف كتاباً ولا عرف له رأي ولا اشتهر بادب ولا شعر ولا نثر ولا لغة .

قالوا ان مائدة العلم لا يجلس اليها طفيلي لقد كذبوا فانا مازلنا نشهد في زماننا سلطة الطفيليين قائمة ، وعهدنا دعيّ العلم أقرب الناس الى الافتضاح ان لم يحقق الواقع دعواه ولو ببعض الشيء ، ودعيّ العلم اليوم ينافس العلماء ويحاول ان يسكتهم بسلاطته . ومن تطالّ الى ما ليس له فهو الوقح الوتح ، واي قحة اعظم من ان يتذرع امرؤ برياسة علمية وهو ما اثبت ادنى كفاءة

في عمل من اعمال العقل ، ويظن مع هذا ان مجرد عرض اسمه على العارفين يوجب عليهم ان يطأطئوا رؤوسهم ويسلموا له . وقد توصل هذا المتطفل الاخير أن يطرق باب من يظن انهم يملون ارادتهم على المجمع العلمي العربي ليحمل اعضاءه على انتخابه عضواً مراسلا زاعماً ان هذا المجمع اذا ضمه إلى جملته يحق له أن ينتخب رئيساً في الحال للمجمع العلمي المتيد ! تشبث بارد لا يصدر الا عن مأفون الرأي . ليت من تعلموا في بعض المدارس قشوراً من اللغات والمعارف يعرفون مقدار أنفسهم ويحاسبونها على ما تأتي وتذر وعلى ما تحسن وما لا تحسن . انحطت اللغة العربية في لبنان بعد أن أزهرت فيه زمناً ، ومن جاهر بهذا النقص قام عليه الادعياء وطعنوا فيه يريدون اثبات كفاءتهم بوقاحتهم .

بليت بيروت بعد الشهرة العظيمة التي استحقتها منذ أواخر القرن الماضي بفئة تصرف كل شيء على قاعدة التجارة الشائنة وتظن أن العلم تجارة ، وفي وسع من يتعاطاها برأس مال قليل أن يشق طريقه في الحياة ، وتعتقد أنها والعلماء سواء تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون وتلبس كما يلبسون . اما طائفة المصطفين الاخيار فقد رأت العزلة وما تنازلت أن تنزل الى ميدان تنافس فيه أرباب الدعوة المريضة فخلا لهؤلاء الجو . ولو تولى الاكفياء القياد لابانوا على الاقل لاولئك الطفيليين مبلغهم من العلم والعمل .

عزة النفس

قص عليّ أحد أصدقائي من الوزراء السابقين أن أحد زملائه ذكر له أنه كان يرجع اليه خلال وزارتهم أمر توزيع النفقات السرية التي تصرف في الدعاية وأنه رأى كل من أراد اعطاءه من ارباب الصحف يقبض ما يسمح له به شاكراً الا صحافيين اثنين فانهما أبيا تناول شيء ، مع أن احدهما أقرب الى قبول ما يعطى ، وعف الثاني عن أن يقبل شيئاً مع تصريح الوزير له بان يعطيه مبلغاً أكبر مما يتقاضاه زملاؤه .

وعرفت كاتبين فنانين من أسرتين نبيلتين اشتغلا بالصحافة وما تناولا ما عرض عليهما مراراً من المعاونات المالية ، وأثبتا بتعففهما أن نبل المحتد اذا اقترن الى التربية الفاضلة جاء المربّى جدّ شريف .

كم من فقير غني النفس تعرفه ومن غني فقير النفس مسكين

وللقاريء ان يسمي المال الذي تصرفه الحكومات في الدعاية بالاسم الذي يعن لخاطره . يسميه معونة أو جائزة او رشوة ، وكل ما يطلقه من الاسماء لا يخرج عن معنى أخذ شيء مقابل خدمة لا يقوم بها الآخذ ان لم يقبض الجعالة ، ولا يدفعها المعطي إلا إذا أخلص القابض في اتمام مايتطلبه منه .

ومن تدبر تناول الصحافيين أموال الحكومات حتى يجملوها في الاعين لا يتأتى له مهما تجوّز أن يجد وجه حلّ لما يقبضون . ومن عادة الدول أن تقطع هذه الادرارات يوم تبدو من قابضيها حركة تخالف سياستها . فالمال على هذا لا يدفع الا للحصول على أمر ما كان يتوصل اليه بغير البذل . ولو كان ما يطلب اذاعته حقاً لنشر لهم بالمجان . وربما كانت منة للحكومات على الناشر إذا اختصته بما تحب نشره قبل غيره . لا يتوقف تناول مثل هذه المعونات على الغنى ولا على الفقر فقد يكون الموسع عليه أقرب

إلى التهامها من المعوز المعدم ، وليس حظ الفقراء من عزة النفس أقل من حظ الموسرين ان لم يكن اعظم ، ولو لم يكن الفقراء على جانب من الكرامة لهاجموا الاغنياء في بيوتهم واستلبوا منهم نعمتهم وكسوتهم . ومتى زادت سلاطة الفقراء توقع الاغنياء قرب زوال نعمتهم .

للحكومات اغراض تبذل في تحقيقها من الاموال التي ائتمنت عليها ولعل ما تأتيه مشروعاً ، لانه في سبيل الخير العام . ومهما كانت الوسيلة الى ماتتوقع من نشر الهيبة ، والظهور بمظهر القوة ، وتحويل الافكار الى المجرى الذي ترتئيه ، فتبعة من يتناول هذه المعونات تعظم كلما غلا في البأس الباطل ثوب الحق ، وحاول افساد الضمائر وتضليل العقول . وليس لنا أن نصف الصحافي بما نصف به المحامي فشأن هذا رد الحق الى صاحبه ونزعه من غاصبه ، والصحافي إذا أجاز لنفسه أخذ المعونات يعبث بالمصلحة العامة ، ولك أن تقول بان الحكومة تفسده وهو يفسد القراء . ولو امتنعت الحكومات عن صرف المال في مثل هذه الطرق وتركت الصحافة وشأنها ، لراجت الصحيفة التي اشتهرت بصدقها وحريتها ولسقطت الجريدة التي لا قيمة لها ولا وزن لآرائها ، وفي ذلك فائدتان صون أموال الدولة والابتعاد عن تلويث سمعة الصحافة .

ظهر تلاعب في احدى دوائر المعارف مرة فما كان من مديرها إلا أن أعطى ارباب الصحف مبالغ حتى يسكتوا عما وقع من الاختلاس وسوء الاستعمال . فسكتوا كلهم وفي أقل من هذا كانوا يقومون ويقعدون ، ورشا المدير بعض الطلبة حتى يسبوا الوزير في خطب لقنهم موضوعاتها . وهناك شركات تضيع حقوق الناس وتتعدى حدود قانونها لا تذكرها الصحف بكلمة نقد ولا نصح ولا رجاء لانها تقبض على رأس كل شهر ثمن امتناعها عن الكلام . فهي مضطرة الى التغاضي عن حقوق أرباب الحقوق مخافة أن تنقطع المشاهرة .

حمل الغرب الينا مفاسده فضممناها الى ما كان عندنا من مثلها فزدنا ضلالاً وخبالاً ، وان في تسخير الكاتب قلمه لخدمة حزب أو دولة أو شركة على صورة لا تخرج عن طمس الحقائق والعبث بحق الغير لمن اعظم المضرات على الحاضر والمستقبل .

الثورة السورية

شهدت دورين كانا أشد أدوار حياتي دور الحرب العامة (١٩١٤ — ١٩١٨) دام أكثر من أربع سنين ودور الثورة السورية دام نحو عامين (١٩٢٥ — ١٩٢٦) وقد ساليت نفسي في الحرب الكبرى برحلات قمت بها في بعض أرجاء السلطنة أما في الثورة السورية فلم تتجاوز البقعة التي اضطربت بها أكثر من أربعة كيلو مترات واضطررت إلى أن ألزم داري زهاء سنة ونصف لا أخرج إلا بعد الشمس وأعود قبيل الغروب ، وتخلفت عن زيارة مزرعتي حوالين كاملين ، وحرمت كل نزهة في الضواحي ولو على ميل من المدينة .

هكذا اقتضاني التوقي يومئذ ولعلي كنت اتهم بممالأة الثوار لولا هذا الاحتياط — ومنهم من التحق بالثورة للنهب ومنهم الشريف المخلص الذي ثار في سبيل الحق والحرية — أو يتهمني بعض تجار الوطنية بمماشاة السلطة الفرنسية . وكنت في حرج وتقلقل وما احسست في حياتي بملل كما احسست أيام الثورة ولا حجزت حريتي كما حجزتها طوال أيامها . اني كنت بين عاملين قويين إن نصحت الثوار خوّنوني وإن محضت رجال السلطة النصح ارتابوا في أمري وآذوني . والعاقل على كل حال يمتنع في الازمات من التصريح برأيه وأسلم له أن يتعامى ويتجاهل .

كنت عند قيام الثورة من الفئة التي لا تقول بها لاعتقادي بانها تخرب وتفنى وقلما تنتج بقدر ما تنفق ، فلما اندلع لهيبها عدت احاول تخليص شيء من النار وتخفيف الشر ما أمكن . وهذا المنطق لا يجوز أيام الثورات والنفوس متحمسة ، والثائر مستعد للبطش بكل إنسان ، وصاحب السلطان لا يركن إلا لمن يماشيه ويعاونه على العمياء معاونة فعلية .

نشأت بيني وبين قائد موقع دمشق الجنرال اندريا معرفة خلال الثورة وأقسم لي مرة بشرفه العسكري وبحياة ابنه الوحيد أنه لا يحب أن يقتل أحد منا ولا من جيشه ، مع ان الحرب صناعته وما خلق إلا للضرب والطعن ، وأنه لا يحارب إلا مضطراً ، وطلب مني أن اعلن ذلك في الملأ وصار يلقاني وألقاه منذ بدأ الصالنا بزيارته لي في المجمع العلمي العربي ، ثم عرض عليّ الوزارة أربع مرات ، ولما قلت له إني إذا تقلدت الوزارة يقتلني الثوار في فراشي قال : نحميك . فقلت له : دعنا من هذا يا قائدي احموا أنفسكم أولاً . وقلت له : إني أخشى عادية الثوار . فقال لي ، إني على يقين أنك إذا خرجت إلى الغوطة يُقبل الثوار يديك لما لك من المكانة عندهم . وأنا كنت موقناً أن لا معنى لقبول الوزارة والثورة مشتعلة وخصوصاً وزارة المعارف ، وأي معارف وأي مدارس مع ثورة .

تعرفت إلى السيد لكلير رئيس محكمة الثورة وشكرته على تبرئته صديقي فخري بك البارودي ، وكان برّأ كثيرين ممن جيء بهم إلى محكمته من أبناء هذه الديار . فقلت له إنك بتبرئتك الاستاذ فخري بك والقنابل تلقى على دمشق ، والناس يقتلون في الشوارع والبيوت والحقول والحدائق ، قد أشرت بلسان الحال إلى أن هناك شيئاً أفعل من كل هذا وأرفع مكانة اسمه (العدل الفرنسي) الذي مثلته ، وإن وجود أمثالك في سورية يقيمون العدل على هذا النحو الشريف لأنفع لفرنسا من عشرة طوابير من الجند تنتزل ديارنا .

كانت المسائل في الثورة إذا ردّت إلى الضباط الفرنسيين ورجال القضاء المدنيين منهم تدخل في طور معقول في الجملة ، وإذا رجع الأمر إلى من سموهم الأنصار ، وهم مؤلفون من شركس وأرمن واسماعيلية ، فهناك الطامة الكبرى . جاءوا ببضعة رجال اتهموا بأنهم ثوار فلما مثلوا أمام محكمة المسيو لكلير أتى يشهد عليهم مستشار الشرطة بيجان فسأله الرئيس عنهم فقال : ثوّار . قال : من قبض عليهم ؟ قال : أنا . قال : ولم يكن معك

أحد ؟ قال : كلا . قال كيف قبضت عليهم وهم عشرة ؟ قال بقوتي . فقال له لو كانوا عشر دجاجات اطلقن من قبضتك ما استطعت أنت وحدك أن تمسكهن بيدك فهل تستطيع أن تمسك وحدك عشرة رجال مسلحين ؟ فأطلقهم الرئيس العادل في الحال ، ووبخ المستشار الكذاب على فعله الدنيء أمام المحكمة .

واتصلت الصداقة بيني وبين المسيو لكالير وكان يتفضل ويكثر من زيارتي ويقص عليّ أشياء تدل على صفاء نفسه واتصافه بصفات الأحرار العارفين ، وأكد لي أن عواطفه اسلامية لأنه قضى ثلاثين سنة من حياته في الجزائر بين المسلمين . وباح لي يوماً أن الجنرال غاملين قائد جيوش الشرق زاره وشكره باسم فرنسا لتبرئتـه اسماعيل بك الحريري شيخ مشايخ حوران ، وانه قال له انك بهذه التبرئة حقنت الدماء ، ولولا ذلك لاندلع لهيب الثورة في اقليم حوران من أجل شيخ مشايخها ، ونحن لا أرب لنا أن نضرب أحداً لان فرنسا ليست في حاجة إلى نصر جديد .

أوردت هذا مثالاً من عقلية الطبقة العالية من الفرنسيين وكنت أرى صفات الخير متجلية في بعض ضباطهم وقوادهم ، ذلك ان رجال الحرب عندهم يختارون للخدمة بدون طلب منهم وأكثرهم مهذبون ، وربما كانوا من أبناء الأسر القديمـة الشريفة . أما المدنيون ففيهم من يعرض نفسه للخدمة أو يقدمه لهـا حزبه أو جمعيته وجمهرتهم في الغالب من المتوسطين بخلقهم ومعرفتهم . وشتان بين من يكون العامل الأول في نصبه الشفاعات وبين من يُعينه رؤساؤه لمعرفتهم مزاياه . وفرق بين من يزكي نفسه ومن يزكيه من لا غاية لهم .

ولما أُحيل السيد لكالير على المعاش أردت ورئيس الدولة أن نبقيه في سورية لننتفع بمواهبـه وأن نجعله مستشاراً لبلدية دمشق بدلاً من اولئك الفاسدين الذين أتونا بهم فلم تقبل حكومته وغادر سورية آسفاً ونحن أشد أسفاً .

مما اتهم به

يتهمونني بالتحامل على دولة الترك العثمانيين ، ويقولون ان (خطط الشام) و (الاسلام والحضارة العربية) و (القديم والحديث) من تآليفي ملئت بالطعن على هذه الدولة . وما كان لرجل تلقى ثقافة امة وأدبها ودرس تاريخها بلغتها وغير لغتها وعاش شطراً كبيراً من حياته بين أهلها وفي ظل حكمها وعاشر طبقاتها ودرس نفسيتها إلا ويعرف عنها أكثر مما يعرفه الراضون عنها وهم من طبقـة اغتنت بسرقتها وسرقة رعاياها وارتاشت بأكل أموال الأوقاف واستصفاء المدارس والمساجد أو كانت على الأقل من موظفيها أو كان غرامها بتزيين صدورها برتبها وأوسمتها ، أو ممن استهواهم الدين فشفع لتلك الدولة عندهم كونها مسلمة لا حرج عليها إذا ظلمت واستبدت .

أنا لا انكر أني أنظر في تاريخ العثمانيين نظر العربي لا نظر التركي ، ولما ظهر كتابي خطط الشام قرأه أحد الاتراك في أنقرة وربما كان من أصحاب الأخبار ، فقال : ما كنا نظن أن فلاناً يحكم على حكمنا الديار الشامية هذا الحكم الجائر . ولو أنصف لقال : تُرى هل اختلق وكذب أو قال ما وقع ؟ فالمختلق والكذاب لا يصح أن يمسك قلماً ويكتب تاريخاً . فان كنت بالغت على رأيهم في وصف عهدهم الحديث عندنا فالعهـد القديم من كتبه ؟ أليسوا مؤرخين منا ومنهم شهدوا ظلم التركي وسوء إدارته ؟

لو تجردنا من كل عاطفة ، وهـذا من المتعذر ، لما حكمنا على دولتهم مهما تسامحنا إلا بأنها دولة ظالمة قضت أيامها كلها في الفوضى والاستبداد ، وخرّبت المدنية التي سقطت عليهـا في الأقطار الواسعة التي احتلتها وما أحدثت لها مدنية يُعتد بها . وربما زعم زاعم أن ظلمها عنصرها كان أشد ، ولكن عزاء الترك أن لهم الدولة والسلطـان سلطانهم يهون عليهم

ما لا يهون على غيرهم من العناصر . ولو كانت الدولة صالحة للبقاء لما رأينا أهم أجزاء أرضها في اوربا أحط من عامة الممالك الاوربية بعد مقام الاتراك فيها خمسة قرون ، ولما شاهدنا الممالك التي اقتطعت منها مثل مصر واليونان ورومانيا وصربيا وبلغاريا تقفز إلى الترقي قفزة مدهشة منذ نجت من معوج سياستها .

هذه حقيقة شهد بها أهل تلك الدولة أنفسهم وامثل رجال العلم فيهم ، وكلهم على شبه اجماع مع مؤرخي الغرب بأن دولة الترك العثمانيين ما كانت إلا دولة حرب ، وليس السيف كل شيء في قيام الممالك . وإن معظم الولايات التي استولوا عليها كانت قبل حكمهم أكثر رقياً منها يوم رحلوا عنها ، ونحن نقول لو سلم العرب من استيلاء الترك عليهم اربعة قرون لكانوا اليوم ارقى شعب شرقي ، ولو قُدّر للشام أن يخرج عن حكمهم يوم طرحت مصر نيرهم الثقيل عن عاتقها لكانت الآن كسويسرا علماً ورقياً .



جزاء مادي

اجتاز مرة بطريرك الموارنة بعض قرى الاصطياف في شمالي لبنان ، وكان بعض المصطافين من مسلمي طرابلس جالسين في المقهى ، فلم يلبث بعض رعاع الموارنة أن انهالوا عليهم بالضرب والشتم قائلين مالكم لاتقومون أما رأيتم سيدنا وسيدكم ؟ فسكت المسلمون على هذه الاهانة ، ورجعوا من الغد إلى بلدهم وأخذوا يفكرون في تأسيس مصايف لهم في سير من عمل الضنية . واتفق أن عاد من المهجر أحد أبناء تلك الناحية من المسلمين وقد أثرى كثيراً فأنشأ في سير فندقاً ودوراً للاصطياف وعبد الطرق وأنشأ الحدائق ، وما جاءت السنة الآتية حتى استغنى الطرابلسيون عن أهدن وبشري وحصرون وحدث الجبة وغيرها من المصايف التي ألفوا الاختلاف اليها ، وبارت تلك الدور والقصور بواراً أبدياً . وعبثاً حاول بطريركهم أن يعوض أصحاب المصايف عن بعض ما فقدوه من الارباح وعبثاً توسل بعض أعيان الموارنة في تلك الناحية أن يعود الطرابلسيون إلى اتخاذ قرى لبنان الشمالي مصايف لهم ، وكان عمل الطرابلسيين أحسن جواب لمن أعماهم تعصبهم الديني فضربوا بمادياتهم لما حاولوا أن يضربوا المصطافين بمعنوياتهم ، ونتج من هذا امتداد العمران في صقع لا يسمع فيه المسلمون اهانة ولا قذفاً ، وكان عمل أولئك الاجلاف عبرة لمن يريدون أن يعيشوا في هذا القرن بعقلية أهل القرن الماضي .

لا يبعد أن يتصدى أهل كل ناحية من النواحي القريبة من لبنان لانشاء مصايف لهم في أرضهم . وفي جوار هذا الجبل من الداخل والساحل قرى لو نظمت بنظام الاصطياف قد تفوق لبنان بجودة هوائها وعذوبة مائها

كبعض أرجاء جبال العلويين وعكار والهرمل وجبل عامل وجبل الاربعين وجبل قلمون واقليم البلان واقليم الزبداني وسفوح جبل الشيخ من نواحيه الاربع .

والشيء بالشيء يذكر فقد اذكر في ما صدر عن رعاع الموارنة في معاملة اعيان الطرابلسيين بعقوبة إلهية حلت بأحد أعيان الموارنة ، وكان أيام الاحتلال الفرنسي يجاهر المسلمين العداء ، ان ابنة له عشقت شاباً مسلماً اسمه محمد وعبثاً حاول أبوها واهلها ارجاعها عن عشيقها والزواج من احد ابناء المسيحية فما سمعت الا لصوت غرامها وظلت تسافح هازئة بكل الاعتبارات فاصاب اباها المتعصب من ذلك مصيبة وأي مصيبة وهذا مما نعده جزاء مادياً والناس لعهدنا لا يهتمون لغير الماديات مع الأسف .



المجمعان العربيان

قال لي جلالة ملك مصر ان المجمع العلمي العربي اهداه مطبوعاته فقرأها ورأى طبعها المشرق والتعليقات المفيدة على الكتب القديمة فمجمعكم يعمل خلافاً لمجمعنا فأجبته ان المجمع المصري يعمل أيضاً ولكنه قصر في نشر اعماله في مجلته . وتفضل كما جرى منه في أعوام سلفت وأرسل الي" أحـــد خاصته لنتفاوض فيما يحفز مجمع فؤاد الأول الى العمل .

نجح مجمع دمشق لأن أعضاءه أخلصوا في خـدمته منذ وضع اساسه وكثيراً ما كان بعضهم يقرظني ويجهر بعملي فيه فاقول لهم مخلصاً ان المجمع مدين لأعضائه مثل اخي فارس الخوري انشأه معي وحماه من تمحكات السياسيين الأغبياء . والسيد فارس لا يحتاج الى تعريف بعد ان ثبت في مؤتمرات الدول العالمية انه رجل الدول العربية في السياسة وانه عارف بقضية مصر معرفة لا يدانيه فيها سياسي . وجميع الاعضاء الذين عملوا معي في دمشق منذ أنشأته كطاهر الجزائري ومسعود الكواكبي وسليم البخاري وعبد الله رعد وسليم عنحوري وعبد القادر المبارك من الأموات واسعـد الحكيم وسليم الجندي ومرشد خاطر وجعفر الحسني وخليل مردم بك وجميل صليبا وحسني سبح وشفيق جبري وعارف النكدي ومصطفى الشهابي وعبد القادر المغربي ومحسن الأمين وبهجة البيطار وهم في الغاية علماً وغيرة على خدمته أما في الأصقاع القريبة فكان من عاونوه شكيب ارسلان انستاس الكرملي محمود شكري الالوسي راغب الطباخ فؤاد الخطيب احمد رضا سليمان ضاهر ادوار مرقص عيسى اسكندر المعلوف محمد اسعاف النشاشيبي عبد الله مخلص رضا الشبيبي بهجة الأثري داود الجلبي جرجس منش طه الراوي احمـد الاسكندري

احمد تيمور رفيق العظم أمين المعلوف عبد العزيز البشري احمد عينى ابوعبد الله الزنجاني الى عشرات غيرهم من المستعربين من علماء المشرقيات ومنهم مرجليوث وماسينيون وكرينكو ونللينو وجويدي وبراون الخ .

أما اعضاؤه في مصر فقلّ منهم من عاون هذا المجمع معاونة فعلية كأنهم يظنون ان دخولهم فيه من باب اعتراف المجمع بفضلهم فقط ولم يعهد لاحدهم ان كتب له رسالة أو أفاض عليه رأياً وغاية ما سمعنا منهم تقريظاً لعملنا وموازنة المجمع لا تسمح له باعطاء كل من يؤازرونه مكافآت كما تفعل مجلات مصر وجرائدها فتعطي اعضاءنا هناك ما يرضيهم ولذلك يحق لنا ان نقول ان المادة دعت الى عدم الانتفاع بأدب اخواننا المصريين .

الدستور السوري

عدل مجلس النواب الدستور السوري ليتسنى اعادة السيد شكري القوتلي الى رئاسة الجمهورية مرة ثانيــة واجمع المجلس يوم ١٨ نيسان ١٩٤٨ على انتخابه فكان اجماعه أي اجماع الامة هو بعض ما تكافيء به امة رشيدة رجلاً اخلص في خدمتها حياته . كل هذا واجب وحسن ولكن الذي نريد الا ينساه كل عربي ان نعتدل في مدحنا وقدحنا فقد ورد في الأثر احبب حبيبك هوناً ما عسى ان يكون بغيضك يوماً ما وابغض بغيضك هوناً ما عسى ان يكون حبيبك يوماً ما .

الاخوان المسلمون

قال الاستاذ سعيد التلاوي في جريدة الفيحاء يصف الاخوان المسلمين ولعل آلم ما يقع امام الانسان من حوادث واحداث تحز في نفسه وتدمي فؤاده ان يرى الباطل مرتدياً ثوب الحق والفساد مبهرجاً بدعوى الجهاد وهذا شأن الفئة التي اطلقت على نفسها اسم الاخوان المسلمين كأنما أرادت أن تفرض نفسها على الناس فرضاً وتحتل ميدان الدين والوطنية والقومية احتلالاً لا يكون معه مكان الذين لم ينتموا الى هذه الفئة .

اي اننا نحن الذين نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر في حاجة لنكون مسلمين حقاً أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر وبالاخوان المسلمين واذا لم نؤمن فاننا لاجرم نكون من الاخوان الكافرين!

فالاخوان المسلمون جماعة طغت عليهم الانانية وفتنتهم الدنيا وغرتهم الحياة فطفقوا يعملون على بلوغ الشهرة والجاه والسلطان من أقرب الطرق وهو طريق الدين الحنيف والشريعة السمحاء وراحوا يركبون للوصول الى آمالهم وأمانيهم كل مركب ، ولم ينس الناس تلك الحملات التي شنوها على كرام الوطنيين وعيون القوميين اثناء معركة الانتخابات الماضية ، تلك الحملات التي كشفت حقيقتهم واظهرت نيتهم وبينت طويتهم مضافة الى ما فعلوه من قبل في الموقف المعروف بفتنة « نقطة الحليب » التي قمعها الرجل الصالح الصادق سعد الله الجابري وانقذ البلاد من كارثة كادت تقضي على خيوط الاستقلال والحرية والسيادة في ذلك الحين مضافة الى ما فعلوه من بعد في اليمن ، تلك البلاد العربية التي كان على رأسها ملك عربي مسلم لم يسمح لاجنبي ان يطأ أرض بلاده مدة أربعين سنة ولم يوقع على ورقة أو صك أو عهد بينه وبين دولة أجنبية فكان نصيبه رحمه الله القتل والتمثيل به وسرقة

أمواله ونقلها بالطائرة مع الفضيل الورتلاني وتحويل قسم منها الى الاخوان المسلمين في القاهرة .

وما هذه الشواهد البسيطة الا مقدمة بسيطة كذلك لما يحاول الاخوان المسلمون ان يفعلوه الآن في سورية باسم الدين وباسم المجاهدين كأن الله جملهم وحدهم على كل هذا قيمين واليه داعين . قال حقاً ان فلسطين لتصطلي اليوم ناراً حاميـة سعرها الغدر الدولي واججها الفجور الصهيوني وان رئيس الجمهورية السورية ليصطلي هذه النار بما فيه من محبة للوطن ككل عربي صحيح العروبة وككل مسلم صادق الاسلام ، اما الاخوان المسلمون فانهم لم يفعلوا شيئاً لاجل فلسطين غير جمع نفر من جماعتهم وسوقهم الى دمشق لعرضهم على الناس في الشوارع ارضـاء لشهوات النفوس ثم يقعدون جميعاً في معسكرات التدريب وقد تحل قضية فلسطين ولا ينتهي تدريب الاخوان المسلمين لانهم مشغولون عن الجهاد بدعوة الشعب الى الجداد ولانهم منهمكون بالحياة الدنيا عن خوض غمرات الحرب الضروس في الارض المقدسة .

فلو ان الاخوان المسلمين كانوا صادقين في دعواهم لما قام منهم خطيب يدعو الى نفسه ويطلق على ذاته الالقاب والنعوت التي ينفر منها الله ويبرأ منها الدين ولذهبوا الى فلسطين يطلبون الشهادة والاجر والمغفرة ولما كانوا يغرقون الى الاذقان في حب الدنيا الغرور ويتهالكون على ما فيها من منافع ومصالح يحاولون اقتناصها بقوة الدين وباسم فلسطين .

ان العرب اليوم لينظرون الى مأساة فلسطين فلا يرون فيها شيئاً يختلف عن مأساة الاندلس وان عليهم واجباً قومياً دينياً يتقاضاهم العمل لتفادي تمثيل تلك المأساة ، وحقيق بالاخوان المسلمين ان يعفروا وجوههم بالتراب ويبللوا لحاهم بالدموع ويخلصوا العمل لله ويسيروا الى فلسطين آمنين مطمئنين ويدعوا العالمين اجمعين الى الجهاد .

عيد المعري الالفي

قال لي امين سر المجمع العلمي العربي صديقي الاستاذ خليل مردم بك ان المعري ولد سنة ٣٦٣ فيكون مضى على ولادته الف سنة فخليق بالامة العربية ان تحتفل بعيده الالفي . وكنت في احدى العشايا على مائدة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مع ثلة من رجال الحكومة فذكرت له ما عرفناه عن مولد المعري فسر كثيراً بهذا النبأ وقال سنحتفل بهذا العيد احتفالاً عظيماً ، والمعري مفخرة العرب عامة ومفخرة الشام خاصة ، وسندعو الى مشاركتنا بالعيد اعظم علماء مصر والعراق وجزيرة العرب وشمالي افريقية وهذه فرصة سانحة لنطلعهم على ما في ديارنا من بدائع الكنوز الطبيعية والآثار التاريخية . وذكرت لمن بيدهم الأمر من الوزراء الذين كانوا معنا على المائدة يستمعون الى كلام الرئيس الاول ما يجب من فتح اعتماد مالي للعيد ، ومن الغد كتبت الى وزارة المعارف بالأمر فاحالت مقترحي على مجلس الوزراء فرده بدعوى قلة المال ولم يفتح وزير المعارف فاه بالدفاع عنه مع ان الكلام مع الرئيس كان بمسمع منه يوم تلك الضيافة . وبلغ رئيس الجمهورية ما تم في هذا الامر الذي أهمه وكاد يهم باتهامي بالاهمال فأثبت له أن الذنب ذنب حكومته فوعد بايجاد المال وبلغني انه اقترضه من وزارة الاعاشة ريثما يجتمع مجلس النواب ويقره . ولم يشأ المجمع أن يشرع باعداد المعدات للعيد قبل أخذ كتاب وزارة المعارف بالموافقة على الاعتماد الذي طلبه وهو اربعون الف ليرة سورية وبعد أن وصل المال الى يدنا برمته . وكانت نية الرئيس أن يحتفل بهذا المهرجان في شهر نيسان من هذه السنة ١٣٦٣ ليرى الوافدون ربوعنا في حلتها الخضراء البديعة فضاع وقت غير قليل حتى حصلنا على موافقة الحكومة وتمت المعاملات القرطاسية فتقرر أن يجري

العيد في أواخر ايلول ليتيسر لمن يشاركونا بالاحتفال أن يعدوا خطبهم ومحاضراتهم وأبحاثهم وقصائدهم وينجزوا طبع كتب المعري وما له علاقة بالمعري.

وقبل موعد الاحتفال استدعاني رئيس الجمهورية وكان عنده وزير المعارف السيد نصوحي البخاري فقال لي ان الوزير يقول ان المجمع العلمي العربي يعمل مستقلاً استقلالاً تاماً ولم يشرك وزارة المعارف في شيء من أمر المهرجان فأجبته ان المجمع يفاوض في كل ما يجب أن يفاوض فيه، وأعرف ويعرف امين سره وكان أيضاً وزيراً للمعارف أن المجمع مرتبط بهذه الوزارة وأنه كتب اليه في مسائل العيد وأخذ أجوبة وقلت الغالب ان لدى وزارة المعارف موظفاً كبيراً مستبداً بالامور حاول مرة أن ينضم الى المجمع عضواً فلم يجب الى بغيته لانه لايحسن العربية، فأخذ يقاوم المجمع، فبشرني الرئيس أن هذا الموظف نقل إلى عمل آخر واستراحت المعارف. ثم اجتمعنا في غرفة الوزير فاخرج اضبارة المهرجان ليثبت لنا قصورنا في مفاوضته على نحو ماادعى أمام الرئيس الأول فتبين بالقاء النظر على الاوراق أن الوزير موافق على الامور المهمة وأنه خانته ذاكرته ونسى ما رقمه بقلمه من المعاملات ثم قال لي ولامين السر العام كيف يجوز ألا يقول مثلي وأنا وزير المعارف شيئاً في عيد المعري؟ فقلت له لك ذلك ومن حظر عليك ما تريد، فكان أن ألقى في اليوم الاول من العيد في مدرّج الجامعة السورية بحضور رئيس الجمهورية ورجالها وعلماء العرب وغيرهم من العلية خطاباً ماظننته إلا ابن عدة أشخاص وشبهته بالثوب المرقع رقعة جوخ ورقعة صوف ورقعة جلد ورقعة شفوف حرير ورقعة خيش بالية أي أن كلامه كان دون ما يجب لمن كان في مثل مقامه أمام أعيان البيان في هذا الزمان. واحتفل بالعيد ثلاثة أيام في دمشق وثلاثة أخرى في حلب وحمص وحماة والمعرة واللاذقية فاقيمت فيه المآدب الفاخرة باسم رئيس الجمهورية واسم امهات المدن السورية وباسم وزارة المعارف واسم المجمع العلمي العربي وباسم عين المعرة حكمت بك الحراكي دعا الوفد الى داره وتليت فيه الخطب والابحاث الممتعة والقصائد الرنانة مما

كان نموذج أدب هذا العصر ، ودل على مكانة أبي العلاء المعري في قلوب رجال العربية كافة . وما أحب وزير المعارف الا أن يفيض على الوفد من أدبه فرافقه في رحلته وكنا نود لو لم يتعب نفسه وينصرف الى القيام باعمال وزارتيه الدفاع والمعارف أي وزارتي السيف والقلم لان رئيس الجمهورية قال لنا ونحن نعرض عليه طلب اشتراك الحكومة في الامر أن نراجع رئيس الوزراء فقط فيما يعن لنا في الامور التي لها علاقة في العيد لأن وزير المعارف مشغول كثيراً وهو يتقلد وزارتين وكل معاملة تبقى في دائرته اثنى عشر يوماً . فلما جاء الوزير يشكوني لم يسع الرئيس إلا مشايعة وزيره على شكواه التي لا معنى لها .

والمجمع على كل حال قام أحسن قيام بواجبه في اعداد العيد وذلك بفضل العاملين من أعضائه ولا سيما الاستاذ أمين سره العام ولطالما قلت له (والمتلف الشيء غارمه) أما وأنت الذي اهتديت الى ولادة المعري فالمفروض عليك أن تقوم بالعبء الثقيل من اتمام الرغبة في الاحتفال بذكراه .

ولم ينقص العيد إلا اشتراك حكومات جزيرة العرب به ، ولعلها لا تقول بجامع الازهر بأدب المعري وتخشى ان اشتركت في تكريمه أن تعد شريكته فيما رمي به من الالحاد والتعطيل ! واعتذر الفرنسيون رسمياً بان قلة المواصلات مع شمالي افريقية دعت الى تخلف أعضائنا وغيرهم من رجالات تلك الاقطار عن الحضور . ومن المعروف أن فرنسا في كل زمن حاولت أن تقطع الصلات بين أهل شمالي افريقية وبين سكان هذا الشرق القريب ، وأن توهم أهل الأقطار التي تحتلها أنهم ليسوا عرباً بل هم بربر لا شأن لهم بالعربية ولا بالعرب .

الوضع الحاضر

(الوضع الحاضر) (الوعي القومي) (التربية المثالية) (المجال الحيوي) (المثل العليا) (الشخصيات البارزة) (السوق السوداء) تراكيب جديدة يكثر اليوم ترددادها في الصحف وعلى الألسن . ويعنينا من هذه التعابير الآن تركيب (الوضع الحاضر) فانه أصبح من الكلام الذي يردده من تولى الحكم ومن وراءه من النفعيين والوصوليين ، وكل من انتقد الوضع بكلمة أو عابه ولو بالاشارة مرق من الوطنية مروق السهم من الرمية . ومن لا يوافق على كل ما تواضع عليه الحزب المتغلب يعد خارجاً عن الجماعة ، مريضاً في عقيدته السياسية ، حرياً بالاعتقال والنفي أو بالقتل والتعذيب .

بالأمس كان الناس في مصر يصفقون للوفديين الذين تولوا شؤون الحكم خلال الثلاث سنين الأخيرة واليوم وقد أقال ملك مصر وزارتهم يريد لمصر وزارة ديموقراطية لطبق أحكام الدستور أخذ الناس يصفقون للوزارة الائتلافية الجديدة ويقيمون الأفراح متهللين . وكل من يتولى الحكم في مصر وغيرها لا يلبث أن يستتبع جملة ممن كانوا البارحة مع الفريق الذي تمت أيامه ، والناس مذ قامت الحكومات في الأرض عبيد منافعهم . حمل المخالفون على سياسة الوفد وعابوه بالالتجاء إلى من طالما حاربوهم كي يصلوا إلى الحكم ولاموه على إسرافه بأموال الدولة واستكثاره من خلق الوظائف الجديدة التي لا لزوم لها يرضي بها جماعته ، واتهموه بأنه فشت في أيام حكمه الرشوة والخلل في الادارة ، وأنه عمل على اعتقال مئات الأبرياء خالفوه في مراميه . فهل تقوى الوزارة الحاضرة يا ترى وفيهم الوزراء الأكفياء على تصفية حساب الوزارة السالفة وتطهر أداة الحكم مما عراها من الصدأ والخبَث ، أما أنا فيخامرني الشك بقيام وزارة تفي

بوعودها ، وكل وزارة توفق إلى تحقيق بعض الاصلاحات أعدها حكومة عمر .

زعمت الوزارة المصرية الجديدة أنها ستطلق الحرية للصحافة فهل لتعتدل الصحف غداً في آرائها ولتصدق في حملاتها ، ولا يستحل حزب أن يختلق على حزب ما لا أصل له في غير رأس كاتبه وقائله وينتهون من المهاترات إلى السفاهات . فقد رأينا ما أصاب القطر من الخمول بحجز حرية الكلام في الخمس السنين الأخيرة للحرب الحاضرة وكانت مصر منذ نحو خمسين سنة تنعم بنعمة الحرية على اختلاف مظاهرها ، وامة ألفت الانطلاق يشق عليها الرضا بالتضييق ، وشعور الأمم كشعور الأفراد على قدر فهمها وسعة مداركها .

هذا في مصر أما في الشام فالحرية ضعيفة بالقياس لحرية مصر لأن ولاة الأمر فيها يلجأون حالاً إلى إقفال الجريدة التي لا ترضيهم ولضيق صدورهم عن سماع ما يخالفهم ، ولذلك ترى الصحف متشابهة في معظم ما تقول ولا تقول إلا ما يرضي . وما أشوق النفوس اليوم إلى استماع أقوال الجرائد الحرة . وقد صدرت منذ سنتين مجلة الدعاية الأمركية في مصر وما عرف قراء العربية أنها تنشر بعض مقالات تكتب بحرية حتى اقبلوا عليها إقبالاً لم يكتب لمجلة ولا لجريدة طبعت بالعربية . هذا ما كان من أمر الصحافة والحرية ومثل ذلك يقال في سائر أنواع الحريات التي يعمد إليها الناس لاظهار أفكارهم وعواطفهم . وكان من العبث بالحرية في ديارنا أن انتشرت الرشوة وضاعت الحقوق فسرح الفاسدون ومرحوا في غفلة الزمن وعهد الحجر على الاقلام . هذا وإذا انتقد منتقد ما يجري قالوا له صه إنك تعكر بكلامك الوضع الحاضر ، والوطنية تقضي بالسكوت عن الهفوات كأن الابقاء على سلامة الوضع الحاضر لا تكون بغير الاغضاء عن المساوئ والكف عن نقد الخلل . من أدب الوضع الحاضر أن يقول كل إنسان بالثورة ولو أورثتنا الضرر الظاهر ومن لا يصف السرّاق والقتلة

بالمجاهدين غضب الله عليه وعُدّ العدو الأكبر لوطنه ومن لا يلمن المنتدبين بالحق والباطل فهو انتدابي يحب الاستبداد ويأنف من الحرية ، وكل كبير لا ينزل على إرادة الصغير هو جامد متحجر العقل لأن الفتيان الناشئين أوتوا من الحكمة ما لم يكتب مثله للشيوخ المحنكين . وبالجملة فان أنصار الوضع الحاضر لا يتحرجون عن فرض أعظم العقوبات على كل من لا يتابعهم على أهوائهم ، والطعن بمروءة المخالف وشرفه ودينه ووطنيته أيسر ما يوجهه أدعياء الوطنية إلى العارفين .



تدمير فرنسا بلادنا

مثلت فرنسا في ضربها مؤخراً دمشق وحلب وحماة وحمص واللاذقية وغيرها من القصبات الشامية صورة من صور الوحشية تظهر بها أمة مسلحة إذا حاولت أن تنال من شعب ضعيف غرضاً ترمي إلى الحصول عليه. ضربت فرنسا أمة عزلاء ضرباً قصدت به فرض معاهدة على ديارنا بالارهاب والقوة . وادعت أن العامة في دمشق استفزوها باحراقهم سيارة لها من سيارات النقل أمام البرلمان فما وسعها إلا تدمير دار الندوة على رأس من فيه من النواب والحامية ، وحاولت أن يكون عدوانها ساعة اجتماع المجلس تحت قبته ، ولكن الحكومة كانت اطلعت على ما كان يُبيَّت لها من الشر ، واتفق أنه لم تحصل أكثرية في المجلس يومئذ فتحول الحاضرون من أعضائه إلى دار زميلهم الاستاذ خالد العظم في سوق صاروجة ، فبادرت الحامية إلى قذف قصره العظيم بحممها فلم تصبه وأصابت قذائفها داراً من دور جيرانه فأفنت أهلها .

يراد من دعوى المتندبين استفزاز العامة لهم أن فرنسا كانت على حق في تدميرها المدن وإهلاكها السكان ، وقد أثبتت التحقيقات إثباتاً لا مجال للشك فيه أن فرنسا ضربت ما ضربت ظلماً وعدواناً ، فكان ما ارتكبته سبباً في إخراجها من ديارنا . وكانوا ارتكبوا مثل هذا العمل الأخرق في الجزائر فقتلوا ألوفاً من الآمنين ، ولطالما أتوا هذه الأفاعيل المنكرة في الأقطار التي استعمروها ، ومع هذا ما زالت تحكم تلك الاصقاع . والجزائر في العرف الدولي مستعمرة حكمها حكم الارض الفرنسية ، وللمستعمر أن يهلك من استعمرهم ! كما كان الحق لمن استرق انساناً قبل الاسلام أن يميته أو يستبقيه .

هذا ما أتاه الفرنسيون في القرن العشرين وهم الذين منوا على العالم بأنهم وضعوا حقوق الانسان وحرروا العالم من ظلم الملوك . وما تاريخهم منذ ثلاثمائة سنة أكثر من اعتداء قوي على ضعيف . أما استعمارهم فهو من نوع الاستعمار الذي لا يغبطون عليه . ولقد أتى زمن عليَّ كنت فيه أدعو إلى الأخذ من مدنية فرنسا واجاهر بحب فرنسا الممدّنة واكرّه إلى النفوس فرنسا المستعمرة ، ولكن العمل الأخير كاد يزهدني في مدنية أحببتها ودعوت إليها .

كنت إلى يوم ضرب دمشق أعتقد أن الراهبات والرهبان قوم استهواهم دينهم فتطوعوا في بث دعوته ، وأخذوا على أنفسهم خدمة الانسانية وتخفيف آلامها ، فأثبتت الكارثة الأخيرة أنهم شر أدوات الاستعمار ، وأن دعوى بعضهم خدمة دينهم نفاق وزور وكيف لعمري زينت لهم تعاليم السيد المسيح القائمة على الرحمة والشفقة ازهاق أرواح الأبرياء من مخالفيهم في الدين ؟ ظهرت أديار الرهبان والراهبات هذه المرة أنها ثكنات عسكرية وحصون تدمير ، وأن بعض من أووا إليها لا يختلفون عن القتلة واللصوص . روى لي ثقة أن راهبة فرنسيسكانية أشارت الى جندي سنغالي يوم ضرب دمشق في وضح النهار أن يطلق عياراً نارياً على أحد الشخصيات المعروفة وهو يجتاز الشارع وشوهد أحد رهبان الاخوة المريميين يطلق من مدفع رشاش ناراً حامية على حي قريب من قرية المزة وهو متشح بلباسه الاسود ، ثم دخل بيتاً ينهب لما تراءى له أنه خال من أهله . ولو لم يرو هاتين القصتين ثقات من أصحابي ما صدقت صدور مثل هـذه الفظائع من اناس يدينون بدين المحبة . واخبرت أيضاً أن المستشفى الفرنسي يوم الوقعة الكبرى لم يقبل أحداً ممن جرحوا يوم المدوان . وقد ثبت أن قائد التدمير أمر بضرب المستشفى الوطني فارتاع المرضى وخرجوا هائمين على وجوههم الى الشوارع وأن بعض جنده اعتدوا على بعض الممرضات . وكان بعض المستشارين من الفرنسيين في مقدمة الجيش يطلقون نيرانهم على الأهالي وهم يعدون أرقى

فئة من المدنيين الذين أتونا بهم لتعليمنا اصول الحكم ، ولم يروا من كل حكومة وطنية ومن كل وطني إلا الحرمة والاعتراف بجميلهم .

هذا ما جوز لأنفسهم فعله أبناء ثورة سنة ١٧٨٩ المتشبعون بروح روسو وفولتير في عاصمة من أعظم عواصم الاسلام ، انهزموا أمام عدوهم في ارضهم أقبح هزيمة ، وانقلبوا يعتدون على الآمنين في أرضنا . كانوا امام الألمان كالنعامة يوم دحروهم ، واستأسدوا في عقر دارنا . وما كان أكثرهم في الواقع الا قتلة ومتشردين . حدثني صديقي الاستاذ فخري البارودي وكان وكل اليه أمر رد المنهوبات الى أربابها في عاصمة سورية ، أن أكثر بيوت ضباط الفرنسيين وقوادهم كانت ملأى بالأمتعة التي سرقوها من بيوت السكان وأن دار القائد العام (الجنرال اوليفاروجه) كانت مثالاً مخجلاً في هذا الباب : سرق كل ما طالت يده اليه من دور الأهلين ، ومن دار المجلس النيابي ، وسرق في جملة ما سرق صندوقه الحديدي وحمله الى منزله وحاول فتحه بمطرقة عظيمة فما استطاع نزع قفله ، وكان فيه ستون الف ليرة سورية ، وقد سرق مقداراً كبيراً من الكتب النادرة من خزانة المجلس الى غير ذلك من النفائس التي استحل أخذها ، وما حال عظم رتبته دون أن يحشر نفسه في عداد اللصوص . وقلّ أن نجا ضابط من ضباطهم من تلويث يده بالدم الحرام والمال الحرام ، ولا عجب أن تجري حكومة فرنسا على هذه الخطة العوجاء في ديارنا وكل ديار نزلت فيها من الشرق والغرب ، وأن يستحل أفراد جيشها أموال الضعفاء فان حكوماتها ما زالت تتآمر على أموال رعاياها أنفسهم . وفي اختلاساتهم في شركة باناما وستافسكي مثال مصغر من أخلاق رجال السياسة والمال في فرنسا ، اشترك النواب والوزراء في هذه السرقات العظيمة فأتوا ببرهان آخر على انحلال أمرهم .

كنت أظن وأنا على أميال قليلة من القلاع التي كانت تطلق حممها على السكان خلال هذه الغارة ان القائد الذي يأمر بالضرب على البيوت والمصانع ما كان الا سكراناً او محششاً فأكدوا لي انه كان يعاقر الخمرة منذ شرع

بضرب دمشق ويصدر أمره الى زبانيته وهو فى تلك الحالة المضطربة ، وأنا اؤكد للتاريخ أن قائده الأعظم الجنرال دي غول كان أيضاً مضيعاً عقله عندما أمر بضرب سورية لتصل فرنسا الى مآربها بهذا الضغط الجائر .

مسكينة فرنسا يحاول أبناؤها المخلصون حمل النفع اليها بعقولهم وعلمهم فيأتي الجهلة المجانين من بنيها فيفسدون في ساعة ما قضى العقل في اقامته سنين وفي تاريخها الأخير امور كثيرة ليس فيها ما يرفع الرأس . الخفة وياللاسف ابداً متغلبة على الرزانة ، ولذلك تأخرت عن امم اوربا وكانت في القرن السادس عشر أعظم دولة في الغرب ولكثرة ما أفنت من الناس وما افنوا منها أضحت دولة من دول الدرجات الثالثة أو الرابعة .

كانت فرنسا كما قال هريو في كتابه الايجاد G. Herriot : Créer ذاهبة بالأولية بين الدول في القرن السادس عشر من حيث عدد سكانها فكانت نفوسها نحو نصف سكان اوربا وأصبحت في عهد لويز الرابع عشر نحو ثلث أوربا وفي سنة ١٧٨٩ نزلت الى الربع وبعد حروب الثورة والامبراطورية تدنت الى الخمس وأطرد هبوط ساكنيها في القرن التاسع عشر على حين كان جميع شعوب العالم يزيد زيادة مستمرة .

نعم ان عقلية فرنسا قضت أن تتفوق الامم عليها بكثرة نفوسها ووفرة ثروتها ، وبلغ من ضعف سياستها أن كانت حيث ذهبت لتستعمر تتصدى لها انكلترا فتخرجها من البلد الذي احتلته : أخرجتها من الهند ، واقصتها من اميركا ، وأبعدتها من كندا ، وطردتها من مصر ، وقضت هذه المرة على سلطانها في الشام . فرنسا ترى من حسن السياسة أضطهاد كل امـــة تستعمرها ، وتحاول صبغتها بالصبغة التي ترتئيها ، وتتولى كل شيء برجالها ولا تترك لمن تستعمرهم ثروة تحفظ عليهم كيانهم ، ولا تمثـل للفرق بين استثمار واستعمار بأكثر مما فعلت انكلترا في الهند وأتته فرنسا في تونس . الهند أعظم مستعمرة سكانها خمس العالم وتديرها انكلترا بثلاثة آلاف موظف انكليزي وستين ألف جندي ، وتونس لا يتجاوز سكانها المليونين والنصف

مليون تحكمها فرنسا بثمانية آلاف افرنسي وألفي تونسي ما عدا حاميتها .

ولقد حاولت فرنسا أن تعامل سورية كما عاملت أهل مستعمراتها الافريقية والآسياوية أي السودان الغربي والهند الصينية مثلاً فأخفقت ، وما أدرك رجالها أنهم منتدبون في سورية ، وشتان بين الانتداب والاستعمار أو الحماية ، وكانت منذ حلت أرضنا تعاملها بعقلية مستعمرة ، وعلى هذه الفكرة بنت حصونها وقلاعها على حين تسامحت في أرضها في هذا الشأن حتى استولى عليها الالمان في أيام قليلة . وفي الذي ظهر من فساد رجالها وقلة أمانتهم لامتهم وانحلال مجتمعها وجامعتها صورة تخجل منها كل أمة ، والعلة في تقهقرها رجال جنديتها وأرباب الاموال فيها : عشق الضباط الاوسمة والرتب وتلمظوا بحلواء الغنائم فاستهانوا بارواح من نزلوا عليهم ، واستحل الماليون كل محرم لزيادة رؤوس أموالهم .

اطرد التدني في فرنسا منذ القرن المظلم قرن لويز الرابع عشر إلى يوم الناس هذا ، ويرد تدنيها في الاكثر إلى الغرام باهراق الدماء لصنع بهـا أكاليل الظفر الموهوم . وأي سخف أعظم من أن يدعي معظم رجالهم أن نابليون بحروبه الطائشة التي أفقدت فرنسا مليوني جندي قد أورثها مجداً ، وأي مجد يأتي من حربها (سنة ١٩١٤ – ١٩١٨) وقد فقدت أكثر من مليون ونصف من جندها وثمانمائة الف مشوه وجريح ، وعاونتها نحو ٢٨ دولة حتى ظفرت بالمانيا . وغاية ما ربحت من حربها هذه استرجاع ولايتي الالزاس واللورين والانتداب على سورية ولبنان . وقد كلفها هذا الانتداب مليارات من الفرنكات سرق عمالها القسم الاعظم منها وفقـدت ألوفاً من جندها ومئات من ضباطها في قمع الثورات لتغنم من ذلك محطة حربية لتصل منها إلى أملاكها في الشرق وتنشر ثقافتها وتجارتها . وكيف لعمري يعد اهراق دماء الخلق مجداً ، وبخاصة إذا كان الدم المهراق هو بعض دم الاخ والمواطن ، الفرنسيس يدربون على القتال والصيال ليَقتلوا وليُقتلوا ، والحـكم على الرجال أن يُقتلوا هو ما يجب أن تخجل منه الامبراطوريات والجمهوريات

لانه جريمة الجرائم كما قال أناطول فرانس . قال انهم يوجبون على الفلاح المسكين الخدمة في الجندية ينفونه من بيته ، ويقصونه عن حقله وغابته التي غرسها آباؤه ، ويدربونه على الفتك بالناس في باحة ثكنة كئيبة ويهددونه ويسجنونه ويقولون له هذا شرف . ومن لم يشأ أن يُشرَّف على هذه الصورة يقتلونه رمياً بالرصاص . قال نحن في فرنسا جنود ووطنيون، ومن عدّ وطنياً كان تلقيبه بذلك من دواعي فخره وزهوه . وآية كل ذلك أن ينهض الفقراء بمعاضدة الأغنياء ، ليبقوا عليهم عظمتهم ويمتعوهم بالفراغ ويعملون هم بدلاً عنهم ، وما كانت الثورة إلا من صنع مجانين وسخفاء قصد بها فائدة من وضعوا أيديهم على أموال الامة ، وأسفر ذلك عن اغتناء المحتالين من الفلاحين ، وأهل الطبقة الوسطى من المرابين ، وباسم المساواة قبض رجال المال على عنق فرنسا فأنشأوا منذ مئة سنة يمزقونها شر ممزق وهم فيها السادة والمربوبون ، وتتألف جمهرة الشعب من بائسين تستوجب حالتهم الشفقة ، وهم مفلوكون قذرون يَعملون مصرَّفون في خدمة رجال المال . ومنذ مئة سنة كان كل من أحب الفقراء في هذه الديار (فرنسا) يعد خائناً للمجتمع ، ومن قال إن فينا أهل بؤس وشقاء عدّ من الافراد المضرين ، وسنوا قوانين تقضي على من يغضب للظلم ويعرف بالشفقة .

هذا قول اناطول فرانس ، أما عيوب فرنسا في معاملتها رعاياها ومعاملتها من تنزل عليهم فيعرفها عقلاء أبنائها أكثر منا وقد كتبوا فيها الكتب العظيمة . ونحن نقول على حسابنا ان فرنسا بغطرسة بعض رجالها في الشام وضيق نظرهم وفساد آرائهم أصلوا العداوة والبغضاء حتى في صدور أصحابهم القدماء ، وخسروا بذلك ثقة أمة كانت تعاملهم بأمانة فاضطروها الى نزع يدها منهم ومصادقة دول أخرى .

الحرب الاخيرة

انتهت الحرب الأخيرة بظفر الحلفاء (انكلترا والولايات المتحدة وروسيا والصين) ومن حالفهن ووالاهن من الدول الصغرى ، وانهزمت ايطاليا والمانيا واليابان ومن عاونهن من الدول وذلك بعد اثخان الالمان واليابان في الحلفاء ست سنين واستيلائهن على معظم أوربا وجزء من آسيا وبعض جزر المحيطات العظمى ، وكان الفضل في هذه الغلبة لانكلترا وثباتها في الميدان وحدها بادئ بدء . تلقت ضربات جيوش الاتحاد الثلاثي أو دول المحور في أرضها ومستعمراتها بصبر عجيب حتى تيسر للولايات المتحدة الأميركية اعداد عددها لخوض هذه الحرب الزبون الى جانب بريطانيا العظمى وحليفاتها .

وكان بعض سكان الاقطار العربية في غضون الحرب يعجبون بأعمال المانيا الحربية ويقدرون علمها وبطولة رجالها ويعطفون على الالمان وعلى دولتهم مع علمهم بأن من مصلحة العرب انتصار الحلفاء وانكلترا من بينهن خاصة ، وذلك لأن انكلترا في أشد أدوار استعمارها لم ترهق الاقطار التي استعمرتها كما أرهقت فرنسا والمانيا وهولاندة وبلجيكا وروسيا واليابان وايطاليا الممالك التي افتتحتها باسم التمدين وما هو إلا شر استعمار .

انتهت الحرب وما ربحت منها دولة في الحقيقة ، وقد صرف كل من الغالب والمغلوب جهوداً عظيمة ، وفادوا بأجمعهم بالمال والرجال على ما لم يسبق للبشر مثله ، وكانت خاتمة هذه المأساة العالمية نسف الأميركان لليابان مدينتين بمن فيهما بالقنبلة الذرية التي اخترعتها فعد عملها أفظع عمل تجرد من الانسانية ، استخدمت فيه آخر ما عرف البشر من أدوات التدمير . لم يقتل في هذه الحرب أقل من سبعة عشر مليوناً من الخلائق وهو عدد

ما سجلت مثله أعظم الحروب . وكان ربح انكلترا من هذه الصفقة القضاء على تجارة المانيا وصناعتها واقامة التوازن بين الدول الاوربية ثم نشأ من هذا اضعاف فرنسا وايطاليا وهو ربح قد يدوم عشرين أو ثلاثين سنة ثم تجبر بعدها عثرة العاثر فيجد بجمع شمله في ظل السلام والسكينة .

أما الشرق فقد خادنته العناية وربح بتفكير رجاله وتؤدتهم أرباحاً سياسية واقتصادية لا يستهان بها ومن أرباحه استقلال أندنوسيا (جزائر جاوة وصومطرا وما اليها) ونجت طرابلس وبرقة والاريترة والصومال والحبشة من الاستعمار الايطالي ، وخلصت سورية ولبنان من الانتداب الفرنسي مستقلتين استقلالاً كاملاً في ظل الحكم الجمهوري ، وراجت صناعتها وتجارتها ، وفشت الثروة وامتد العمران في المدن على انقطاع الصلة زمن الحرب بالبلدان التي كانت تتقايض واياها حاصلاتها ومصنوعاتها .

نكتب هذا والمفاوضات لا تزال دائرة بين انكلترا ومصر للبت في المعاهدة بين البلدين ومغادرة الجيش الانكليزي الاراضي المصرية . وعسى أن تحصل مصر على جميع مطاليبها من حليفتها وتستقل بأرضها استقلالاً تاماً مع سودانها .

وما برحت مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين معلقة في سماء الأقدار ، والارهابيون من الصهيونيين يرتكبون أنواع الفظائع لمحاربة انكلترا بكل ما لديهم من قوة ، والاميركان يعاضدون اليهود سراً .

وقد اتخذت انكلترا من شرق الاردن مخفراً في وجه البادية منذ اسست هذه الامارة بعد الحرب العالمية الماضية ، وجعلت منها محطة حربية للاشراف على جزيرة العرب وما تاخمها من البلدان ولا سيما ترعة السويس واقتضت مصلحتها ان ينادى بأمير ذاك الاقليم ملكا .

وخرج العرب من هذه الحرب بهذه الجامعة العربية ويرجى أن تسفر أعمالها عن نتائج سياسية ومدنية مهمة وان يطرد سيرها على أقوم سبيل ويزيد احتكاك الشعوب العربية بعضهم ببعض وأن ينضم غرب شمالي افريقية وامارات جزيرة العرب الى مجموعة الدول العربية التي تتألف منها الجامعة الجديدة.

لانعاش مصر

كان برنامج حكومة اسماعيل صدقي باشا التي تولت هذه السنة الحكم في مصر مكافحة المرض والفقر والجهل وقررت عقد قرض بخمسين مليون جنيه تصرف في الاصلاح النافع وفي الوصول الى تحقيق هذا البرنامج حتى يصح ما روى عن لسانه ان حكومته اشتراكية لانها تقصد مداواة هذه العلل . وما كانت حكومة مصر أكثر من حكومة ارستقراطية ينعم بها واحد من عشرين من سكانها فقط .

ولو كان لي من الأمر شيء لأهبت بالحكومة المصرية أن تقسم في الفلاحين جميع أراضي الدولة الصالحة للاستثمار ، وان تبيع الأرض القابلة للاصلاح من فقراء الفلاحين يصلحونها في مدة تعينها لهم ، ولاستصدرت قانوناً يقضي بألا يملك المالك أقل من فدانين ولا أكثر من مئة فدان ، ولقضيت بحل الأوقاف الاهليـة أوقاف الذرية ، ولأكثرت من تأسيس ملاجيء لابناء الفقراء أعلمهم فيها الصناعات الضرورية ، ولانفقت جزءاً عظيماً من الموازنة على التعليم والصحة ولاخذت خمسة بالمئة من كل مال مجموع في المصارف وعند الشركات أقيم به أعمال الاصلاح على أمتن الدعائم ، وبعد ذلك أحظر التسول والكدية ، والزم أهل كل قرية وحارة ومنزلة باطعام العاجزين عن الكسب . ثم تفتح الحكومة ملاجيء للعجزة والارامل يأكلون فيها وينامون ويتعلمون ما يقدرون على ممارسته من الصناعات .

قد يسارع بعض من يقرأ هذا الى انكار ما ارتأيت ، ويزعم أن هذا من الخيالات ويقول أن هذا الرأي ما خرج عن مبادىء الشيوعية وما هو بها في الواقع ، ويستحيل أن تقضي على الشيوعية الا بالاقتراب منها لنعمل بالنافع من تعاليمها ، نقتبس الجيد ونبتعد عما لا يلائمنا ، والا كان الأثرياء

ورجال المال عرضة لسهام الشيوعية قبل غيرهم من الطبقات . ولو كنت في النواب أو الشيوخ لرفعت صوتي لاقرار قانون تحديد الملكية وبذلك اخفف البؤس ما أمكن ، وأتقي ضربات الشيوعية التي تقع على رؤوس أرباب السعة نتائجها المؤلمة .

يكثر في مصر والشام من يملك بضعة آلاف من الأفدنة أو بضع قرى ومزارع وهو عاجز عن اصلاحها أو اصلاح بعضها ، وكان القليل منها يجزئه ويعيش به سعيداً . واني لأخشى اذا كتب الظهور للشيوعية في الشرق ان تنزع من أرباب الاملاك الواسعة أملاكهم ، فليس من العدل أن يظل مئات الالوف من الخلق لا يملكون أكثر من قوت يومهم وتتضخم ثروات الأفراد على ما نرى .

هذه خواطر عنت لي وقد أكون في بعضها مخطئاً ولكنني أعتقد أني على صواب في أكثرها .



الاشادة بمصر

قال لي شامي قح إنك تكثر من ذكر مصر ، ومعظم أمثلتك التي تستشهد بها أمثلة مصرية كأن الأقطار الأخرى ليس فيها ما يستحق النقل والتمثيل . يريد أن يغمزني من طرف خفي بأن وطنيتي يجب ألا تنسى الشام . والواقع أني لا أتعمد في ذكر مصر وأحبها كما أحب الشام ، واعتقد أنهما قطران يتمم أحدهما الآخر . وما شأني إلا شأن رجل له ولدان إذا دعا للاول وتمنى نجاحه ، فلا يأول دعاؤه بانه يدعو على الثاني ولا يهتم بامره . ولقد كنت منذ القديم لا ألصور عندما أكتب إلا فائدة كل عربي ولا أحصر كلامي في مصر والشام ، ومنهاجي يتناول الاقطار العربية جمعة ، ولكن المعلومات عن مصر كثيرة وإذا سارت حكوماتنا على أثرها ، وجعلتها قدوتها نفلح كلنا فهي أوفر سكاناً ونظاماً وحضارة وكلما زادت صلاحاً سرى الصلاح الى جيرانها .

رأيت الشامي أبرع في الصناعة والتجارة من المصري ورأيت المصري أقعد في السياسة والتفنن في العلوم الحديثة والقديمة .وإذا شاعت المسكرات والمخدرات في مصر أكثر من الشام أنادي بالاقلاع عنها كما أنادي أهل بلدي في الابتعاد عن لعاطيها . والبلدان في نظري سواء في هذا الشأن يهمني مجموع الامة ولا أخص القول حين أقول بقطر دون آخر . وأنا إذا لم يطب لي هواء مصر كما يطيب هواء الشام فلا أدعو الناس إلى الزهد في سكنى وادي النيل ، ولطالما وددت لو هاجر المصري إلى الشام بمعدل ما يهاجر الشامي إلى مصر ، وتمنيت لو يقلل الشاميون من الهجرة القطعية من الاميركتين حتى لاتفقد أرضنا الرجال الأقوياء . نعم أحب أن تأخذ الشام حظها من السكان ويتسع صدرها للتجدد ولا أحب للمصري أن يكون لبداً لا يفارق الارض التي ولد فيها ، وهذا ما أطلبه لكل بلد عربي حتى يكون من مجموع العرب دولة عظمى فيها كل ما كان في الدولة الاموية مثلاً من المقومات والمشخصات . ومن سعى إلى نزع الفوارق من بين الشعوب العربية غير آبه للمذاهب أعواماً طويلة لا يفرق بين قطر وقطر وأهل نحلة ونحلة .

الحكم على الجواسيس

قويت الجاسوسية في أصقاعنا في العشرين السنة الأخيرة وغزتها الدول بالأموال ترسل كل دولة زبانيتها على الارجاء التي تحاول الوقوف على أسرارها ولا تعدم في كل بلد من يهون عليه الانحلال في وطنيته مقابل ما يقبضه من مشاهرات ومعاونات .

كنت مع الجواسيس في بلية منذ عُرفت بأني افكر في الامور العامة وظللت ممتحناً بهم مدة عهد الترك وإلى أواخر ايام الفرنسيين ، وقيض لي بطول الممارسة ان مهرت في معرفتهم حتى كدت أتلمس كشف ما تكنه قلوبهم ، وأتحسس ما يرمون اليه بأسئلتهم . ومن التوفيق أنهم قلما ظفروا مني بخبر يتقربون به الى من انتدبهم ، وربما كان مرسلهم هو الذي أعد لهم السؤال ودلهم على اساليب كشف الاسرار ، وكنت اغالطهم وأضحك منهم واعاملهم في الاكثر بالسخرية وقد اتجهم لبعضهم وأحرجهم بالأسئلة لأصدهم عن سؤالي ، فينقطعون عن غشيان مجاسي . وما كنت أطلب منهم اكثر من ذلك . وكنت في الأيام الحرجة اغلق بابي في وجوه من أشك في اخلاصهم ، ومنهم من أوهمه اني عرفته لأقطع رجله عني ، وأذكر له كراهتي لكل متجسس من باب (اقول لك يا كنة حتى تسمعي ياجارة)

ولطالما أشرت إلى اصدقائي ألا يتوسعوا في الحديث مع غريب لا تعرف تربيته ، وحذرتهم عاقبه التبسط مع المجهولين وبذلك نجوت من أحابيل المتجسسة وكذلك شأن من عملوا بطريقتي . وبلغ من قحة الجواسيس مدة الحرب الأخيرة أن كانوا يسألون أولادي واصحابي عن رأيي في الدولة الفلانية أو الشعب الفلاني او في نتيجة الحرب . وكان التنبيه على خاصتي يسبق محاولة ارباب التجسس كشف اسرارنا . وقد الجأ اتقاء للشر الى التواري

عن الانظار ، والامتناع عن الاجتماع ببعض رجال السياسة اياً كانوا وكانت جنسيتهم . ومع هذا ماكان الحريصون على لسقط الأخبار يعتقدون على ما اظن الا أن ما آتيه تقية وما اقتنعوا أن رجلاً اشتغل منذ الصبا بالسياسة يعود فيتركها وفيه قوة .

وكثيراً ما كانت فراستي تصح في الجواسيس ، وتثبت الأيام أني لم أكن مخطئاً في حكمي على بعضهم ، وأني جدّ مصيب في بغضي لهم واحتقاري لحركاتهم . وقد أخطأ بعض اصحابي في تغليب حسن الظن بهؤلاء المتهمين في شرفهم ، وفيهم من وشوا بخاصة احبابهم حتى اوردوهم حتفهم ، او ساقوهم إلى الاعتقال اشهراً واعواماً . وتجلى ذلك كل التجلي لما وقعت حكومة سورية على سجل دواوين الأخبار وفضح امر الجواسيس الذين اعتمدت عليهم حكومة الانتداب من ابناء هذه الديار ، ومنهم الموظفون في اداراتها ، ومنهم من يدينون بغير المذاهب الاسلامية ، ومنهم المسلمون ومن بيوت معروفة ويا للاسف .

ولطالما قلت ان القوّاد اشرف من الجاسوس واقل شراً منه . والجاسوسية التي امقت اربابها هي التجسس للغريب على القريب بما ينفع الاول ويضر الثاني . وأما اخذ الاخبار لمصلحة الأمة او الدولة فهو عمل إذا التزم فيه تحري الصدق وخلو الغرض ينفع ولا يضر ، وهو ما كانوا يسمون من يعانيه في الحكومات الاسلامية (صاحب الخبر) وعليه يعول في الحكم . ولا بد للجاسوس من ان يكون على صفات فطرية تؤهله لاستراق الاسماع وسرقة الافكار .

تخلف المصرى فى التجارة

من كتاب العمل لمصر للاستاذ محمود كامل : ثبت من تحليل احصاء عام ١٩٢٧ أن نسبة الملمين بالقراءة بالكتابة في مصر لاتتعدى ١٢٦ في الالف بينما هذه النسبة تصل بين الاجانب المقيمين في مصر الى ٧٩٩ في الالف من مجموع هؤلاء الاجانب ، ووصف الاجنبي ينصرف الى كل من ليس مصريا . فنسبة الملمين بالقراءة والكتابة مثلا بين السوريين والفلسطينيين تبلغ ٧٠١ في الالف من مجموع أفراد هذه الجالية الشقيقة أي نحو ستة اضعاف النسبة الخاصة بالمصريين . وبسبب هذا الوضع الذي جرد المصريين من السلاح العلمي الذي يمكنهم من الكفاح في سبيل الحياة الحرة الكريمة ارتضت غالبية الشبان المصريين من حملة الشهادات قبول الحياة داخل مكاتب الوزارات والمصالح الحكومية في مقابل مرتب ثابت تافه . وهي حياة ذليلة راكده تقتل روح الابتكار ، والاغلبية الساحقة من حملة الشهادات تطرق باب الوظائف الحكومية وتغلق بمجرد دخولها عقولها عن كل تفكير في كفاح أشرف ، وحياة أرفع ، ورزق أرغد ، وتجد نسبة المشتغلين بالتجارة بين المصريين لاتعدو ٣٦ في الالف لمجموع المصريين بينما هي بين الاجانب تصل إلى ١٥٥ في الالف لمجموع الاجانب أي أكثر من أربعة أضعاف العرب

هذا حكم مصري عارف على قومه وعلى عجزهم في التجارة وكنت منذ مدة أقرأ شيئاً على صاحب لي من علماء مصر وهو ممن تولى الوزارة بعد حين ، فكان مما تلوته عليه لآخذ رأيه قولي أن الشامي والايطالي واليوناني واليهودي أقدر على معاناة التجارة من المصري. فانكر عليّ رأيي وأظهر الدهشة من صراحتي . ثم اطلعت على احصاء عملته احدي الصحف المصرية الكبرى في سكان شارع واحد من شوارع

القاهرة وهو شارع سليمان باشا عددت فيه حوانيته ودوره ووكالاته ومن يملكها ومن يسكنها ونوع التجارة التي تتعاطى فيها فكان حظ الوطني من كل ذلك ضئيلاً جداً لا يزيد على سبعة في المئة .

ليست الوطنية باخفاء العيوب الماثلة في الوطن ، ومن علائم الوطنية الا تكتم الحقائق التي تحمل عبرة وقد قلت في فصل آخر أن من يحب بلداً يمحض اهله النصح ولا يخفى على أبنائه ماذا اذا غضوا الطرف عنه يؤذيهم ويورثهم ادواء يعسر فيما بعد علاجها .

ولطالما اعترضت على القانون المصري الذي يغض عن التاجر المفلس فيمكنه من فتح محل تجاري باسم مستعار غداة تقرير المحكمة افلاسه . وقدرأيت أشخاصاً من المصريين والجالية الاجنبية اعتدوا بتكرار اعلان افلاسهم الصوري فكانوا كل مرة يأكلون أموال دائنيهم هنيئاً مريئاً تحت رعاية القانون ويعودون بالصفقة الرابحة بهذا الاحتيال .

ولذلك كان معظم التجار الكبار في مصر من غير المصريين ، والاجنبي بما تقلده من سلاح المعرفة يغزو كل سوق ويفوز بالربح الوافر وينازع الوطني في التجارة منازعته له في الصناعات ، وفي باب الزراعة يملك جزءاً عظيماً من أطيان القطر ويديرها أحسن إدارة .

كتب أرباب الافكار من المصريين في هذه الموضوعات كثيراً ، وتفننوا ماشاءت قرائحهم في تحذير مواطنيهم عاقبة الاسترسال فيما لايجدي عليهم ، وأنا ألقي دلوي في الدلاء ، ومن الذوق ألا أنسب إلى الفضول والى التدخل في مسائل لاتعلق لي بها مباشرة . وأرجو على كل حال ألا يشق انتقادي على الوطنيين من المصريين ، فقول الحق لايؤذي والمؤذي تضليل العقول والسكوت عن اصلاح العيوب .

عجز وكسل

قال لي صديق مصري نقاد أنه شاهد في عشية باردة من ليالي كانون حول حديقة الازبكية بالقاهرة سرباً من الأطفال ينامون وليس عليهم ما يقيهم أذى البرد والشرطي يضربهم بحذائه بدون شفقة ، يطاردهم كما تطارد الكواسر والجوارح . ومن الغد قرأت في بعض الصحف الافرنجية التي تصدر في العاصمة أن شرطة مصر قبضت خلال السنة الأخيرة على ٨٦٠٠ متشرد ثم امتنعت من قبول من كان على شاكلتهم لقلة ما لديها من الأماكن لايوائهم . وقد وصفت صحيفة افرنجية اخرى أكواخ الفقراء القذرة العارية من كل ما يحفظ على نازليها صحتهم ، وقالت انها على قيد غلوة من تلك الجادات العظمى والقصور المنيفة والمصانع الفخمة في القاهرة والاسكندرية وبعض مدن الأقاليم ، وتمنت لو أن الحكومة ابتاعت تلك المشش وبنت للفقراء أحياء جديدة في الضواحي . وذكرت هذه الصحيفة بعد يوم ما صادف التذرع باصلاح حال الفلاح من الخيبة وقالت : اختلفت الطرق في معالجة أمره فمن قائل ان الامراض أكبر عامل في تأخره ، ومن مؤكد أن المياه الملوثة والبيوت القذرة والغبار هي من مهلكاته ، ورأى أحدهم أن تبنى له قرى نموذجية يضطر بعد حين إلى بناء مثلها بنفسه ، ومن قائل إن الحشيش هو علة العلل في ضعفه ، وقال قليل من المصلحين إن الواجب أن يبدأ بتعليم الفلاح وأن تشاد له مدارس ريفية وأن يجعل التعليم الابتدائي اجبارياً إلى غير ذلك من الآراء التي أدلى بها أرباب المدارك . وقد ذهب ما كتبوه ونشروه في الهواء كما ذهب مشروع الحفاء والكساء .

ومن يعرف مبلغ مصر من الغنى وما لديها من الرجال والأدوات اللازمة

للتغلب على هـذه النواقص لا يرى ما يبدو من التقصير إلا أثراً من آثار العجز والكسل . وموازنة كادت تبلغ مئة مليون جنيه لا يضيرها اقتصاد بضعة ملايين تؤخذ مما ينفق في البذخ والترف وتصرف في الضروري الحاجي . ويسرني ما ترامى إليَّ من أخبار القاهرة أن وزارة الشؤون الاجتماعية اعتمدت مليون جنيه لانشاء مآوي للأطفال وإذا تعلقت الهمة بتنفيذ هذه الفكرة لا تأتي أعوام قليلة حتى لا يُرى متشرد في القطر ، وينقلب كيانه من فقر ومرض وجهل إلى شيء من السعة والصحة والمعرفة ، ويتم إصلاح الكساء والحفاء من ذاته بدون لعمل كثير ، وإني لأخشى ، والفقير لا يُنظر إليه بعين العناية اللازمة ، أن يأتي يوم يطالب فيه بمستوى من العيش أرقى من مستواه ويهجم على الغنيّ يسلبه ماله وقراره ، ومتى زال الوهم عن البائس يجرأ على خرق القوانين ، وفي ذلك البلاء العظيم . نسمع كل حين في مصر نغمات جديدة تولدها غيرة المفكرين ، ثم لا نلبث أن تخفت نغمتها فجأة ولا يعاود أحد ذكرها . وهذه مسألة الفلاح هل تمّ فيها على يد الحكومة والأهلين حتى الآن ما يوازي بعض تلك الضجة ؟

في مصر نشهد إسرافاً دونه كل إسراف وإمساكاً تقلّ له الأمثال في الأمور النافعة ، أنا لا أفهم المغالاة في إقامة الزينات تصرف فيها عشرات الألوف من الدنانير وألوف من الأطفال يعرَون ويجوعون ويمرضون ويموتون . ولا كيف ينعم مئات ويشقى مئات الألوف . معظم أبواب الصرف في الحكومة المصرية معقول والالزم منها توفير الماء النقي للفلاح والعناية بصحته وتعليمه وتوجيهه .

أعود فأقول إني أخشى على مصر من الدعايات السياسية الهدامة ، ولا أجد الحالة الحاضرة تدوم كثيراً . إن مصر تحارب هذه الدعايات منذ ظهرت في العالم ، واليوم تزيد في كفاحها من غير هوادة ، ولكن من يعصمها من تسرب ما يضر بكيانها إلى مدى بعيد ، ومن يضمن لنا ألا ينفجر المرجل

ذات يوم فيأتي لهيبه على الأخضر واليابس ؟ من الأمور ما يتعذر تلافيه ساعة الخطر ، فحري بأهل البصيرة أن يتداركوا الأمر قبل استفحاله . فقد خرجت حالة مصر في توزيع الثروة بين السكان عن حدود العقل ، ثم هي تبذر المال في امور قد يستغنى عنها ، وتشح في أشياء فيها كل الخير .

في مصر من الرفاهية ما لا يكاد يوجد له مثيل في العالم ، وفيها من الفقر ما يتعذر تصور أكثر منه .



الفضول

ذكّرت رصفائي أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية في خطاب خطبته في المؤتمر الاخير (١٩٤٦) بما كان من أمر تعريب ألفاظ الجيش المصري وكان المجمع شرع في هذا الامر المهم ثم سكت عنه ، وقلت إن مصر قصرت عن العراق والشام في هذا المعنى . وقد عرب هذان القطران أكثر الفاظ الجيش تركيّها وافرنجيها ، فقال رصيفي الدكتور فارس نمر باشا . لقد صرف النظر عن تعريب هذه الالفاظ لأن جهة عالية لاتريده . وسألته من الغد ومن يكون هذا الكبير الذي حال دون انقاذ اللغة العربية من مئات من الكلمات الاعجمية ، بعد أن تم كل شيء للخلاص منها فسمى رجلاً ذا مقام سام فاستغربت صدور ذلك منه ، وسألته عن حجته في العدول عن هذا التعريب فقال إنه يزعم أن هذه الالفاظ التركية المتأصلة في الجيش المصري هي من تراث أسرتهم فلا يحب أن يعبث بارث أهله ولا أن يجيء المتأخر بنقض مابناه المتقدم .

وعندي ان الغيرة على الجيد من أعمال الاجداد تكون باحياء سيرتهم ولا معنى للتعصب للغة ذهب من عشرات السنين سلطان أهلها من القطر وصارت فيه الكلمة الفاصلة لاصحاب البيت ، ولغتهم غير تلك اللغة . وقد رأينـــا جلالة فاروق الاول ملك مصر لما قبض على زمام ملكه يمنع التكلم بالتركية في قصره ، وكانت قبله شائعة ، لان مصر عربية والجالس على عرشها عربي فلا يليق ببيته أن يتكلم لغة طوت الايام من فرضوها على غيرهم يوم كانوا هم أصحاب السلطان ، ونحن الآن لاتربطنا بهم صلة سياسية ولا ثقافية ولا لغوية ، وما نسينا احتقارهم للحروف العربية ولكل ماهو عربي ، وزهدهم في لغتنا وفتحهم الأبواب لدخول كل لفظ اعجمي في لغتهم .

انحطاط المسلمين

أحزنني ماقرأت في جريدة (أخبار اليوم) لمراسلها الانكليزي في لندن من أن بين الاثني عشر مليوناً من سكان ايران عشرة ملايين يحسبون من الجياع الاميين وثمانية مصابون بالزهري وربع الاطفال يموت قبل مرور العام الاول من ولادتهم . ومساحة ايران أكبر من مساحة اسبانيا وفرنسا والمانيا وان الفي عائلة ثرية هي التي تملك الاراضي ومنهم الوزراء والبرلمان وقادة الجيش ومعظم رجال الحزب الشيوعي . كلام فيه مبالغة وفيه حقيقة ، واذا أضفنا إلى ذلك مانعرفه من كثرة تفشى الافيون فيهم ندرك ماصارت اليه هذه الامة من الانحلال . وكانت قبل الاسلام وبعده آية في نظامها وأحكامها وصناعاتها ومدنيتها .

هذا ولا يزال التعصب الديني ينهك قوى فارس وما أتى رجال الدين فيها لعهدنا شيئاً يعتد به في اصلاح الاخلاق ، ولا انتصبوا للحد من ظلم الملوك عندهم . وما نسينا الشاه البهلوي كيف وضع يده على أملاك الناس وسكتوا عنه ، وفي مقدمة الساكتين مشايخهم وزعماؤهم . وفارس في الرسميات أمة دستورية تتضاءل فيها سلطة الفرد المستبد أمام سلطة الجماعة وما نخال هذه الصورة المغرية في ايران الا نموذجاً ساروا فيه على طريقة الكماليين من الترك في التهريج والدعاية . ولو قد ظهرت الحقائق في المملكتين بصورتها الناصعة لكان من ذلك مايدعو إلى خيبة الآمال من اصلاح يتولاه شرقي مسلم . وليس من ينكر أن الاتراك والفرس نهضوا في العهد الحديث وأنهم ارتقوا في سلم المدنية بعض الرقي ولا يسعنا أن ننكر أيضاً أنهم ظلوا متخلفين عن الامم الراقية في أشياء جوهرية .

وقال لي من اثق باخبارهم من العرب والافرنج ممن سكنوا سنين في

ايران ان حكومتها لاتهتم إلا بالظواهر وكثيراً ما تصرف وقتها ومالها في التافهات . تفتح مثلاً شارعاً في قرية بعرض خمسين متراً ولا تفكر في ان تصلح طريقاً يجيء منه السيل كل سنة فيأتي على عشرات من القرى يحطم أشجارها ويفسد زروعها ويغرق من سكانها وحيوانها . ومن ذلك ان حكومتها تنفق كثيراً في الكماليات وتعجز عن اسالة ماء طاهر في انابيب تسقي عاصمتها طهران . وما برحت المياه الملوثة تحمل الامراض لسكانها والطبقة العالية يحمل اليها الماء في صفائح ترسلها شركة أجنبية من مكان سحيق . قالوا ومعظم رجال الحكم والسياسة يقامرون ويشربون ويصرفون أوقاتهم في اللهو والمجون، على نحو ما هي اخلاق بعض حكام اهل الاقطار التي تمدنت في هذا الشرق القريب وإذا كانت أخلاق الأئمة على هذا المثال في التفسخ فماذا تكون أخلاق المؤتمين ؟ ومن بلغ من الضعف الى هذا الحد لا يرجى منه خير لمصلحته ولا لمصلحة قومه .

أكتب هذا وان قلت صلته بحسب الظاهر بالمذكرات وهو بتعليقات الصحف اليومية على الحوادث أشبه . وما زالت منذ الطفولة إذا قرأت كتاباً لرجل نشأ في فارس يذهب بي الفكر حالاً إلى حالة دولة العجم اليوم وما هي عليه من الانحطاط المشهود بعد ذاك الارتقاء المحمود . وهذا يكفي ان يشفع لي في ان اعرض لهذا الموضوع مادام جزء كبيرمن حضارة الاسلام والعرب قام في أرض تلك المملكة العظيمة ، وفارس امس وفارس اليوم عضو متمم لهذا الجسم الكبير .



مشيخة الازهر

لما خلت مشيخة الازهر بوفاة شيخه العلامة المراغي تطلع بعض جماعة كبار العلماء لهذه الرياسة وحدثت مشادة بينهم وبين الحكومة ، هذه تحب توسيد المنصب لرجل رأت فيه الصفات المطلوبة لسياستها والعلماء يدعون أن قانون الازهر يحظر انتخاب مرشح من غير جماعتهم وقانونهم يشترط في الشيخ أن يكون أزهرياً درّس في الازهر خمسة عشر عاماً ، وصرحوا أن مرشح الحكومة وان كان أزهرياً وعلم سنين طويلة فان تدريسه كان في الجامعة المصرية لا في الأزهر الى غير ذلك من الاعتراضات فلم تر الوزارة الا ان تعمد الى تعديل نظام الأزهر حتى لا يبقى للطامعين في رياسته قول يقولونه ، وعينت بذلك مرشحها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للاسلام . وهذا اللقب يطلق على صاحب هذا المنصب الخطير من القديم .
ولما حظى الشيخ الجديد بالمثول بين يدي جلالة ملك مصر التمس منه أن يعفيه من لقب الباشا الذي كان أنعم به عليه حين كان وزيرا للأوقاف واكتفى بلقب شيخ لقبه القديم منذ تخرج من الأزهر . وهو اللقب الذي ما كان قدماء أصحابه يألفون غيره في مناداتهم له وخطابهم اياه . وهكذا أصبح يلقب بصاحب الفضيلة وكان بالامس يلقب بصاحب المعالي ، كل هذا قشور في الحقيقة ، والمهم في الأمر أن يوفق الشيخ الجديد الى اصلاح الازهر اصلاحاً فعلياً والا فيكون كأكثر شيوخه ينعمون زمناً بهذه المظاهر ويتمتعون بالرواتب الضخمة ويتركون مناصبهم بعد ذلك بدون أن تعرف لهم مأثرة تذكر في خدمة الاسلام والمسلمين .

حديث ذو شعب

نشرت الاهرام لمراسلها في باريز (٩ فبراير ١٩٤٦) تصريحات زعمت انه أفضى بها شيخ الجامع الازهر الاستاذ مصطفى عبد الرازق (لمكاتب جريدة (الموند) البارزية قال فيها ان فرنسا اكتسبت لنفسها مكانة ممتازة بما بذلته من الجهود الكريمة في الحقل الثقافي خلال العالم الاسلامي وانه يرجو ألا تتخلى عن تقاليدها لكي تحتفظ بما يكنه لها العالم الاسلامي من حب .

هذا الحديث ذو شقين أحدهما صحيح في الجملة والآخر ليس كذلك في التفصيل . أما أن فرنسا بذلت جهوداً في ثقافة العالم الاسلامي فهـــذا صحيح من بعض الوجوه وان كانت الاغراض التي ترمي اليها من وراء ذلك ظاهرة معروفة وقد أتت في هذه السبيل ماتأتيه كل دولة استعمارية فكان من مدارسها خير وشر . أما الشق الثاني فهو الذي ترد على عدم صحته براهين كثيرة . ونظرة في حال مسلمي شمالي افريقية وأهلها الذين اختلطوا بالفرنسيين كثيراً ندرك بها هل يحب أهل مراكش والجزائر وتونس فرنسا أم يكرهونها كراهة ليس بعدها كراهة . وكيف يحبونها وقد اغتصبت أراضيهم من أيديهم يوم دمرت على ديارهم وأعطتها المستعمرين من ابنائها . وسعت منذ وطئت أرض الجزائر في سنة ١٨٣٠ أن تحل جامعتهم وتقضي على لغتهم ثم حاولت أن تجنسهم بجنسيتها وتلقنهم تربية لاتبقى على مشخصاتهم . وليس في مسلمي تلك الاقطار ولا سيما في الجزائر الطويلة العهد بحكمهم من يعد من عظماء الرجال في العلم والسياسة والفنون على نحو ماترى في مصر والشام مثلا وليس لهم من الثروة مايعد شيئاً بالقياس الى ثروة أبناء هذين القطرين بل أن مستوى المعيشة فيهم أقل من مستوى المعيشة في أحط الاقطار العربية . فالقول بان

العالم الاسلامي يكنّ لفرنسا الحب بعيد كل البعد عن الواقع فان مااجترحته فرنسا في سورية من التدمير والقتل في السنة الماضية مازال ماثلاً للعيان وكلما ذكر ترتجف منه الاعصاب .

ولقد أكد لي أحد العارفين أن مكاتب الجريدة حرف كلام الاستاذ الاكبر وبادرت فرنسا باهدائه وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير وما ادرى ان كان المهدى اليه قبل هذه الهدية . وقد احدثت هذه التصرفات ضجة في الصحف المصرية والشامية وسكت صديقنا الشيخ مكرهاً على مايظهر .

طمس الحق

قال لي صديق عزيز عليّ أنه قرأ كتابي الاخير (دمشق مدينة السحر والشعر) وكان يود لو أغفلت ذكر ماقامت به فرنسا من الاصلاحات في سورية في عهد الانتداب فان تسجيل ماسجلت وان كان حقاً هو مما يضر بنا ، وما كل حقيقة تقال . هذا رأي اشبه بآراء رجال السياسة والناقد الحبيب منهم . أما المؤرخون فقلما يجوزون السكوت عما يعتقدون انه الصواب ، وقول الحق من أهم شروط المؤرخ والتاريخ يسجل الخير والشر ثم إن من غمط حق عدوه كان حرياً أن يتهم بالعصبية لصديقه ومقترف ذلك يزيل بصنعه مسحة الصدق من كلامه ويفقد ثقة الناس ويكسب سبة الدهر .

الفرنسيون في آخر أيامهم في الشام أساءوا اساءة ليس بعدها اساءة قذفوا مدننا بحممهم فقتلوا الابرياء وهدموا البيوت وأتوا على المصانع فانكر العالم وانكر عقلاؤهم هذا العمل المشين ، وأضاف هذه الاساءة على جريدة جنون اهل الغرب في هذه الحرب . وكل هذا لايستلزم أن ننكر ما تم على أيديهم من الاصلاحات في الشام ايام انتدابهم عليه .

وقد ارتكب الفرنسيون سبة أعظم في الاثر من القتل والتدمير ، ارتكبوا العار بافساد الاخلاق بنشر الجاسوسية بمقياس واسع وجعلوا من بعض التلامذة والمعلمين جواسيس نمامين . واغرقت فرنسا في جاسوسيتها فكانت لاتقر لمبين آذن أو فراش الا إذا شهدت دوائر الاستخبارات بحسن حاله ، والويل لمن كان في جزازته الخاصة شيء لايرضيهم من سيرته ، فانه يحارب في رزقه ويبقى من المغضوب عليهم حتى الممات والفرنسيون أجرموا في العهد الاخير مع انفسهم فلا يتوقع منهم إلا أن

يجنوا على غيرهم ، ومع كل ما أتوا ليس هناك مايحول دون قول الحق فيهم فيما احسنوا .

وبهذه المناسبة شهدت بعض من يشتغلون بسياسة سورية لم ترضهم بعض المواضع من كتاب دمشق فانا أقول لهم ان هذا ماعرفته ورأيت النفع في تدوينه ، فاذا كان غيري يعرف غيره فليبادر الى نشره . ولا يلزم المؤلف أن يرضي بتأليفه كل الطبقات فللسياسيين منازع لا أقول بها ولا أحب لنفسي أن أكون لهم بوقاً ولا أجوز ان اخدم أفكارهم واغضب الحق . أؤلف لنفسي مااعتقد نفعه ، فاذا كان في أرباب المناصب السياسية من يعتقدون أنهم أهل لعمل شيء من هذا القبيل فليبرزوا الميدان فيحكم العقلاء لهم أو عليهم . أما تسخير أقلام الاحرار لاغراضهم فامر متعذر عليهم وعلى غيرهم .

الدين النصيحة

دفع إلي صديقي الاستاذ عبد الملك الخطيب باشا صورة مذكراته السياسية وفيها كلام عن صلاته بالبيت الهاشمي ، وما شهده من احداث الحركة العربية خلال الحرب العامة وبعدها ، وما دار بينه وبين الملك حسين بن علي وابنه الملك فيصل من الرسائل . وقد حمله جميل وفائه ، وفرط أدبه على أن يعرض لذكري بالخير ، ويشير إلى ما كان من نصحي له أيامَ كان الشريف حسين ابن علي اميراً على مكة المكرمة أواخر أيام العثمانيين . وكان أعداء الأمير من الاتحاديين الاتراك يتعمدون تسويد صحيفته ويصغرون من شأنه ويلقنون العرب بغضته للترويج لسياستهم ، فسرت اختلاقاتهم إلى بعض أبنائنا من حيث يدرون ولا يدرون . وذكر السيد الخطيب ما كنت أعمد اليه ، وأنا في رياسة تحرير جريدة المقتبس في دمشق وهو في مكة يرسل مقالاته عن الحجاز ، من ادخال بعض التعديل في عباراته حتى لا يكون منها ما يتأذى به إذا نشرت كما كتبت أول مرة . ذلك لأن النقد المعتدل أقرب الى سلامة كاتبه ، وأدعى إلى تأثير كلامه في الافكار .

ولما جاء السيد عبد الملك دمشق ، واطلعته على ما كان يتعذر اطلاعه عليه بالمكاتبة ، ووقف على مرامي الاتحاديين اصحاب الحكومة ، وعلى ما كانوا يقصدونه من حملتهم وتحاملهم على الامير ، وهو الرجل المرجى يومئذ للنهوض بالعرب ، انتبه صاحبي لما يحاك لقومه من الدسائس ، وعاد الى الحجاز مزوداً بوصايا للامير مني ومن بعض أصحابي وأصحابه ، طلبنا فيها رضاه عن ابن الخطيب فتفضل واستجاب لملتمسنا ، وما زال يعطف عليه حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ، ونودي بامير مكة ملكاً على الحجاز أو على العرب كما كانوا قالوا أولاً ، وأرسل ابن الخطيب إلى مصر معتمداً سياسياً له ، فتيسر له

الاختلاط برجال السياسة من البريطانيين والمصريين وغيرهم وأفاد من هذه العشرة . ولو لم يستمع ابن الخطيب للنصح يسديه الصديق مخلصاً لظل في ارض الحجاز مغموراً ولطمس ذكاؤه وعفت مواهبه ، ولما قام بما يندر في الحجازيين إذ ذاك من يحسن الاضطلاع به من العمل لخدمة القضية العربية ، وثمرة التعقل في الحكم على الامور جنية شهية .

رأيت المستنصحين على ثلاثة ضروب ضرب يقبل نصح الناصح بدون مناقشة ويشكره عليه ، وآخر يقبل بعضه ويغفل الآخر ، وثالث لا يقبل من النصح ما يخالف هواه ، وربما هزأ بالناصح وعاداه . وفي الناس من لا يرتاحون الكلام إلا إذا وافق ما في نفوسهم ، ولا يسرهم الا كلام من ينشهم ويرائيهم . وقد وقع لي أن نصحت لبعض من استنصحوني فنجوا من سقطات كان فيها لو لم يعملوا بالنصيحة افلاسهم أو حتفهم ، وعهدي ببعضهم يعضون أصابعهم ندماً على تضييعهم الحزم وعصيانهم على النصح . ومن يزدرون بآراء أرباب التجارب هم في العادة من الخاسرين .



غلط غير مقصود

« وان قارءه ليتبين أنه يعنى بتخير الالفاظ وبجزالة الاسلوب عناية تجاوز المألوف حتى بين الادباء . وكان يسعفه في ذلك سعة علمه باللغة ومفرداتها ، وربما دعاه تبحره فيها الى إيثار الغريب حين يجده أحسن اداء أو اصح وضعاً . وهو يعتبر بحق من أشد المحافظين على تقاليد اللغة وسننها ، وقد يرميه البعض بالتشدد » ، هذا ما قاله رجل من أكبر رجال القانون في مصر الاستاذ عبد الحميد بدوي باشا في رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية الاستاذ محمد توفيق رفعت باشا يوم استقبله المجمع بصورة رسمية عضواً فيه خلفاً للرئيس الراحل . وهي شهادة لا تصدق على ما كان عليه الرئيس الماضي من المعرفة . فقد عرفته منذ انشاء المجمع فما تجلى لي بعض ما قاله العضو الجديد فيه ، وعجبت من رجل اشتهر بنزاهة أحكامه كيف يُجمِّل صاحبه على هذه الصورة ، وما اوقعه في هذا الغلط إلا أن القاضي الكبير خدع على ما يظن بما قرأه لصاحبه معزواً اليه من الخطب الرسمية في أخريات أيامه . وما كانت هذه الخطب في الحقيقة إلا من انشاء الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري كاتب المجمع ، وهذا الوصف في اختيار جزل الالفاظ والتوسع في اللغة يصدق عليه لا على الرئيس . وكان كاتب المجمع أو المراقب الاداري كما يسمونه يكد قريحته ويكتب لرئيسه وهذا يوقع .

إذاً لقد اشتط القاضي في حكمه على سلفه ، وأتت سقطته من اغتراره بما قرأه له مرقوماً باسمه ، والظاهر ان رجال القضاء يعتمدون على النصوص فيما يعرض عليهم فيعملون بموجبها ، والفتوى عندهم على قدر النص . وقال بعضهم ان صدور مثل هذا الحكم من قبيل المجاملة ، وأي مجاملة تصح في العلم ؟ أما المترجمون للرجال فلا يصدرون أحكامهم قبل أن يقدروا

ملابسات أخرى فينظرون في جملة ما ينظرون فيه الى بيئة الرجل وأوليته وحليته وتآليفه ومقالاته . وكل ذلك لم ينظر فيه القانوني الكبير على مايظهر ومرّ مسرعاً فيما وقع عليه من خطب معزوّة الى الرئيس في مجلة مجمع اللغة العربية . ومثل هذه الغلطة التي ساق اليها الاغترار بالظواهر يرتكبها اعظم المتحرين للحق ، والدرهم الزغل يجوز على الصيرفي الحاذق .

وقد وقع من هذا القبيل على الأيام تلفيقات نال بها من الصقت بهم شهرة مزيفة كانوا بها مدينين لمن هيأها لهم ، وكان فيها الكاتبون غير الموقعين والموقعون يجهلون أحياناً حتى ما يصدر باسمهم . وحدثني من أثق بهم من أدباء المصريين أن رجلاً من أبناء اعيانها لا يزال يستكتب مقالات وأقاصيص ينشرها في الصحف والمجلات وهو لايحسن الكتابة ، يكتب له باجرة ، حتى اشتهر عند القراء بأنه كاتب ظريف ، وما هو من الكتابة في العير ولا النفير . قال واصيب هذا الوجيه مرة بعارض جنون وشفي بعد حين ولم يشف من داء الشهرة يصيبها من كتابات يعزوها اليه من يطمع في ماله فيخدمه ويخدع الناس به .



متانة أخلاق

اعجبت بثلاثة من رصفائي أعضـاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة الحاخام حايم ناحوم افندي والدكتور فارس نمر باشا والاستاذ عبد العزيز فهمي باشا . اعجبت بثبـاتهم على الحضور . كف بصر الأول وما كف على شيخوخته وهو في عشر الثمانين عن أن يحمل نفسه على حضور الجلسات . وابتلي الثاني بمرض في المثانة مع الصمم الشديد ولا يزال وهو في عشر المئة يشهد الجلسات ويرأسها إذا تغيب الرئيس بوصفه اكبر الاعضاء سناً أما الثالث فهو أكثرهم عناية بعمل المجمع يدرس المسائل المعروضة درس تدبر قبل ميعاد المناقشة فيها ويبحث فيها بحث البصير وان لم تكن داخلة في اختصاصه يعمل هذا حباً بالعلم وتفانياً في اداء الواجب . وما أضعف مرضه تفكيره ولا حط من قواه . وعلى شيخوخته وهو في عشر الثمانين لا يتخلف عن شهود جلسات المجمع وجلسات المؤتمر السنوية . وهنـالك أعضاء لا يحضرون الا نادراً ومنهم من لا يحضر أبداً ومن الاعضاء من هم في منـاصب كبيرة لا تسمح نفوسهم بالتخلي عن عضوية المجمع ولا تتسع أوقاتهم لاعطائه حقه من دوام وعمل . وفي اعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق مثال من أعضاء مجمع القاهرة ، ومن أعضائه من يطرد دوامه ويعمل بذمة ونشاط ومنهم اعضاء لا يحضرون ولا مرة في السنة ومنهم من لم ينفعوه بادنى نفع لا يؤازرون في مجلته ولا يحاضرون في ردهته ولا يشهدون جلساته واكتفوا باللقب الذي أفادهم في معنوياتهم وماديانهم ومثل ذلك يقال في الأعضاء المراسلين في الشام ومصر . وكان أعضاء العراق من المبرزين فانهم قاموا بواجبهم نحو المجمع العلمي العربي بل بواجبهم نحو لغتهم وامتهم .

عيدنا الوطني

احتفلت دمشق عاصمة جمهورية سورية يوم ١٦ جمادى الاولى ١٣٦٥ (١٧ نيسان ١٩٤٦) بعيد جلاء الجيش الفرنسي عن اصقاعنا واشتركت في هذا المهرجان مصر والعراق والمملكة السعودية (الحجاز ونجد) واليمن ولبنان وشرقي الأردن . شاركتنا في عيد استقلالنا الذي فقدناه في اليوم الذي فيه قتل الملك الظاهر بيبرس البندقداري آخر رجل من سلالة صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقبض على زمام الملك ، وأسس دولة المماليك ، وظللنا في ايام هذه الدولة وفي أيام الترك العثمانيين ثم في عهد الانتداب الفرنسي امة محكومة يتولى أمرنا ولاة من غير جنسنا وأحياناً من غير أهل نحلتنا ، ويسن قوانيننا غيرنا وقد يسنون ما لا يلائمنا ، وضعفت فينا خلال هذه القرون الطويلة ملكة الحكم وملكة العلم ، وانحططنا في أخلاقنا وبياننا وتفكيرنا وصناعاتنا ، وانفرجت مسافة الخلف بين الطبقات ، وابتعدت كل طبقة عن اختها لا تشاركها في غير الهواء والماء ، وكان من الطبيعي في هذا المجتمع المنحط أن يأكل القوي الضعيف ويغدو رجال الدين ورجال الدنيا أشبه بالعامة في أفكارهم وان تغرق البلدان في تيهور الجهل المركب ، وكانت اذا هبت تتلمس سبل النجاة لا تهتدي الى سلوكها . فحق الامة ان تبالغ بالاحتفال لهذا العيد ، عيد الاعياد ومبدأ سعادة الابناء والاحفاد .

ولقد أتى رئيس جمهوريتنا فخامة السيد شكري القوتلي في خطابه ذاك اليوم السعيد على مجمل ما عانته الامة من الآلام حتى بلغت امنيتها وذكر بالخير من شاركوا في هذا الجهاد ، ونسي فئة صالحة كانت من العاملين الممتازين . ونحن لا نومئ هنا الى من لم يكونوا مع الثائرين في وقت من الاوقات ، بل الى من كانوا مع الثائرين من البداية الى النهاية . وكانت

عين الرضا متجلية على كل من حمل السلاح ، أما من شقيت حياتهم في اعداد الأفكار للثورة الحقيقية ، ومهدوا السبل لانارة الافكار ، وجاهدوا سنين حتى لقنوا الامة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية فهؤلاء لا حظ لهم من التنويه لانهم ما حملوا السلاح .

ومما قال الرئيس الأول اننا نطوي اليوم صفحة الجهاد في سبيل استقلالنا لنفتح صفحة الجهاد لصيانته وقد تكون صيانة الاستقلال أشق من الظفر به . وهذا كلام يجب الا ينساه كل وطني فالجهاد الذي ندخل فيه اليوم اصعب من الجهاد الذي كنا فيه ، وإذا قام كل واحد منا بواجبه ننهض في سنين قليلة نهضة لا يصل اليها شعب في أجيال ، ذلك لان أسباب النجاح متوفرة لدينا ، تربتنا خصبة وتربيتنا تحتاج الى لعهد فقط .

ومن أول ما يتحتم على رجال الجمهورية ان يحسنوا اختيار العمال ويتشددوا في مراقبتهم يختارون الأطايب من دون نظر الى حزبيتهم ونحلتهم ، لا يقربون ذوي القربى ، ولا يصانعون في توسيد زمام الحكم الى من يرضون عنهم ، وبذلك ننجو مما كنا نشكو منه وننسبه للدخيل ، وعلينا يقع جزء عظيم من التبعة في الماضي كما تقع علينا كل التبعات اليوم .

نحن لا ينقصنا شيء من أدوات النهوض الا بعض الاخصائيين في الفنون والصناعات نجلبهم من الامم التي سبقتنا الى التمدن ريثما يتخرج في ذلك أبناؤنا . وقد رأينا طلائع هذا في بعض ما نظرنا فيه من المصالح العامة . فواجبنا على اي حال أن نسير بتعقل في اصلاحنا وننبذ الاسراف ونتوخى صرف أموال الدولة الا في طرقها المنتجة .

حس الواجب

لو أحس كل فرد بالواجب عليه لعد بلده سعيداً وأهله من اهنأ الخلق ، ولو انصف الناس انفسهم بانفسهم لقلت حاجتهم إلى الوازع ، ولما احتاجوا كل ساعة إلى من يهيمن عليهم ، ولو انعدمت صفاقة الوجوه ما ادعى كسول بعد الهمة ، ولا مهمل فرط العناية ، ولا جاهل فضل العلم ، ولا طماع مقامات الزهد ، ولا أخرق مواقف السداد . رأيت بعض من يرجى منهم الخير أكثر العالم شكوى من بيئتهم ، وحالهم أيام القوة لا تختلف عن حالهم أيام الضعف . رأيت من كتب عليه التقصير بفطرته لا ينفك عرضة له في جماع حالاته ، ويلقي معاذيره عن أعماله ويصطنع الجد ويتصنع في أقواله وأفعاله .

عمال الدولة اقرب الطبقات الى النظام ، ومن اوسعهم علماً ومعرفة في هذا الشرق القريب ، فهل يحسون ياترى بالواجب الى الحد الذي ينبغي لهم ويتوقع منهم ؟ وهل ينشطون للعمل بالقدر المطلوب منهم ؟ ونحن نرى اكثرهم يتشكون من كونهم في درجة لاتمكنهم من الانتفاع بمواهبهم ، فاذا ماوصلوا إلى ارق ما قدر لهم من الدرجات استبان أنهم لا يمتازون عن غيرهم إلا بكثرة الشعوذة وعظيم الدعوى . والمرء إذا لم يأت في شبابه ببرهان على كفاءته لا خير منه في كهولته وشيخوخته .

إذا بلغ الفتى عشرين عاماً ولم يفخر فليس له افتخار

الفرق كبير بين عامل وعامل ، ويكاد الذكي والغبي أن يكون انتاجهما في مستوى واحد ، والنافع عندهم هو الذي يتولى عملا ولا يغير فيه ولا يبدل ، يرى الخلل ولا يصلحه والعلة فلا يبحث عن اصلها ، يكثر الوعود ويبشر بما ليس له وجود ، وإذا فاز لا يحقق بعض الرجاء فيه . ولطالما ألمت من بعض الموظفين فى أعمال الدولة ممن لا يهمهم من وظائفهم إلا قبض الرواتب والترقي في الدرجات ، ولا تحدثهم ذممهم ان يعطوا من انفسهم بعض ما قبضوا من أجر

على عملهم . ويؤلمني كل الالم من يحاول أن يغتني منهم في أقصر زمن ، ولو عومل بعض المهملين بالصرامة ، وما سكت الرؤساء عن الاهمال الصغير المؤدي الى الاختلال الكبير لما فشت الرشوة في مصر والشام في دواوين كان الواجب أن تكون مثال الاستقامة والشرف ومن الغريب أن يتسامح المسؤولون بالرشوة إذا قام المرتشي بما يعتقد الكبير فيه انه نافع للوطن على أي حال ، أما أنا فما رحت منذ وعيت اغتبط كلما رأيت النكبة تحل بالعامل الساقط ، وعلى نسبة ذلك آسف يوم ارى عاملاً مستوفي التجربة يصرف بانقضاء مدة خدمته او لغرض آخر من اغراض الصرف .

تكون التبعات التي تلحق الكبراء على نسبة عظم مناصبهم ، وانك لترى بعض الوزارات على الحالة التي كانت عليها يوم تأسيسها يجيئها النابهون النابغون والمتوسطون المغمورون ، ويروح الذكي كما راح الغبي ، وحال من قضى أشهراً في عمله كحال من قضى أعواماً لا يفكر في اصلاح ما تمثل لعينيه من عيوب ، ولا يعالج ما يبدو من معوج الطرائق ، همه أن تدوم مهمته طويلاً ، وان ينجز ما يعرض عليه من المسائل اليومية ، ومنصبه العظيم الذي أهله لان يقوم فيه بكل ما يعن له من الاصلاح يتسلمه القادم كما يتسلمه الراحل .

ومن أهم ما تتجه اليه همم هذه الطائفة يوم تولي الحكم حماية الأهل والولد ، ومن اتصل منهم بسبب ، يحلو لهم ايجاد المخارج لنفاذ ما قام في أذهانهم . والويل للمصلحة العامة ممن كثر ذوو قرباه وانصاره ، فانهم يتربحون باسمه ويتغنمون فرصة انبساط جاهه ليملأوا جيوبهم وعيابهم . والملك لا يسعد فيه الكبير والصغير الا اذا نفذت القوانين فيه على العدو والولي وبذلك تتجلى الفروق بين مملكة منحطة واخرى راقية ، مملكة ينخر جسمها سوس الاستبداد وأخرى تعيش آمنة مطمئنة في ظل دستور نافذ الحكم على كل ساكن .

الكتابة الباردة

وأعني بها الكتابة التي تجردت من الحرارة بحيث لاتفعل في نفس قارئها ولا تبقي فيها اقل أثر نافع . فالكلام البارد قليل الفائدة وحرام العاب القارىء يفك حروفه . وهذا النوع من البيان شبيه بمن يأكل في منامه حتى إذا أفاق لايرى أمامه شيئاً ، ثم أي فائدة من كلام فاتر لايهيج له عصب ، ولا يلقى في روع تاليه مايخرج معه بشيء ينفعه ، ولا يعيضه عن فكر سقيم بفكر سليم .

قد تقرأ كتباً ورسائل ومقالات إذا انتهيت من تلاوتها تصدر بلا محصل ، لان واضعيها ظنوا التأليف يقوم بتنميق الجمل والمعاني المطروقة والاستطرادات المبتذلة ، وأمور ليس منها فائدة إلا تكبير جرم الرسالة أو المقالة .

ومن التآليف الباردة مايبدو بادني نظر أن كاتبها يكتم بعض مايعرف من الحق ويخدع قارئه ، وبعضهم لايتطاول إلى أكثر من تزجية وقت المطالع وتسليته ، لايحاول أن يهدم أصلا من الاصول المعوجة مخافة أن ينشأ عن تصريحه ازعاج أحد ، وماكان في شرع المؤلفين ان يسلوا كل الناس ويأتوهم بما يرضيهم كل حين ، وأي صحيفة هذه التي تحاول أن تحرز موافقة عامة المنازع والاهواء . الحياة كلها جدال ، والتآليف لاتخرج عن حدّه ، فقول الحق هو الذي خلدت به كتب الجاحظ ، ومن مشى على أثره من العلماء . ومن نافقوا القراء صدروا وما كتبوا لايساوي قيمة ما كتب عليه من الورق ولا يبقى إلا بمقدار ماتبقى اوراق الشجر

المتساقطة على أديم الارض في الخريف . ومن جسروا وكتبوا ماعن لهم بحرية لقيت كتاباتهم القبول ، والتأليف الطريف هو الذي استهدف للاخذ والرد . وما أكثر من كان العجز مانعاً لهم إلا من سرقة أقوال غيرهم .
وأي نفع يرجى من كلام لايصور حقيقـة صادرة عن نفس ملتهبة مقتنعة بما تقول ، مأخوذة بحب الحق وما الفائدة من تأليف لاينم عن الزمن الذي وضع فيه ولا يصف أهله ولا يعرض لما يسوءهم وما يسرهم ، وأضر الناشرين من يتوخون ابقاء الناس في عمـاية ، ويحاولون اقرارهم على ما هم فيه ، ولو كان ظاهر الضرر ملموس التفاهة . ومن الكتب مايسوغ لك أن تضعه في أي قرن من قرون الانحطاط لانها خلو من صفة من هـــذه الصفات التي تتطلب من التأليف ، كتبها كاتبها بفتور واكتفى بها من الجولان في دائرة يبدي فيها ويعيد على غير هدى وليت شعري ما الفائدة المتوقعة من اغفال الحق في موقف يتحتم فيه الجد ، اللهم ان كان مقصود المؤلف من تأليفه ان يقال فقط انه ألف وربح من تأليفه كذا من النقود كأن المقصد الاول من التأليف كسب المـال . والعجب ان يسألني بعض معارفي عما أجدت عليّ كتبي من فائدة مادية وقلّ أن سألني سائل ماذا كان من اثرها في أفكار من كتبت لهم .

واذ عودت نفسي أن أطرح من ذهني الارتفاق بالتأليف ، والتجـارة بالآداب ، لعزيت بما كتبته لأنه كان أكثره من الكتابات الحارة أي أني لم أكتم شيئاً من الحق الذي عرفته ، وهززت شعور القارئ حتى يتلقى ما قرأ بحرارة أيضاً ، ولو قدر لي أن اصانع في التأليف لفقدت الصفقتين المادية والمعنوية ، ولو انصرفت همتي الى تأليف قصص مؤلفة ومترجمة لجنيت مالاً جماً ، ولكن كان هواي في بث فكرة جديدة أو احياء فكرة قديمة

بهذا الاسلوب الذي اصطنعه علماؤنا الأقدمون والمحدثون ، وما عدا ذلك لا يتعلق عليه كبير أمر عندي .

أنا من أنصار الكتابة الحارة لا الباردة ولا الفاترة لاعتقادي بأنها تأتي بالفوائد ، اريد من الكتابة أن تبقى أثراً في النفوس ، وتنزع قديماً بالياً وتستعيض عنه بجديد مفيد ، ولو كان في ذلك غضب خمسة وتسعين بالمئة من القراء ، ولا قيمة لغضب بعضهم ورضاهم اذا صدروا عن سخف وغرض .



الكتلة الوطنية

بعد مغادرة الملك فيصل هذه الديار اجتمع بعض فلول حزب الاستقلال وحزب الفتاة وتألفوا جماعة الدخول في الانتخابات للمجلس النيابي فكانوا الكتلة الوطنية ، ولما تألف حزب الشعب قبيل الثورة السورية خاف السيد صبحي بركات رئيس الاتحاد السوري على منصبه فأكبر أمره أمام المحتلين، فنفي بعض زعمائهم إلى حسجة من الجزيرة ، ثم الى بعض قرى لبنان مدة . وزعم بعض من لهم صلة بالفرنسيين بأن الكتلة ذات علاقة بالانكليز .

وعطف الناس على هذه الكتلة يناصرونها بكل مافي وسعهم ، يغلقون حوانيتهم في المدن اياماً ، للاحتجاج على بعض اعمال السلطة ، ويضربون عن اعمالهم ويشغبون . ودام آخر اضراب خمسين يوماً ظهرت فيه دمشق وحلب وسائر المدن والقصبات بمظهر من التكاتف لا نظير له ، وأبان الاهالي عن اخلاق حسنة ومعرفة بالواجب الوطني . ولما شلت الحركة الاقتصادية في سورية باجمعها دعت حكومة الانتداب بعض الزعماء من الكتلة وغيرها وجرى الاتفاق على انهاء الاضراب ، وارسال وفد إلى باريز للمفاوضة ، وعهد بهذه المهمة الى بعض المقدمين من رجال الكتلة ، وانقلب المفوض السامي المسيو دي مارتيل من جبار يضطهد الكتله ويحتقر رجالها ، الى رجل عدل وذوق يحترم مقدميهم ويصانعهم . وما أكثر تبدل السياسيين بتبدل سياسات دولهم ، فهم كالممثلين على المسرح كل ساعة في صورة ، وقضى الموفدون في باريز مدة لم يسألهم أحد عن سبب مجيئهم ، ثم فاوضهم بعض رجال حكومتها ووقع الاتفاق على مواد المحالفة الجديدة .

وعاد رجال الوفد ممتعين وكتلتهم بثقة الامة ، لسير معهم راضية لاتخالف

لهم رأياً ، وجرت الانتخابات النيابية ، فكان النواب في المجلس من كل من احبت الكتلة وضع ثقتها بهم ، ومن حرصت الحكومة المنتدبة على انتخابهم ، واختاروا رئيساً للجمهورية احد البارزين من جماعتهم السيد هاشم الأتاسي ولرياسة المجلس السيد فارس الخوري ولرياسة الحكومة السيد جميل مردم بك يعاونه ثلاثة وزراء فقط ، كل واحد منهم يتولى وزارتين . ونزل الرئيس السابق السيد محمد علي العابد عن رياسة الجمهورية قبل اتمام مدته بستة أشهر ،

بدأ أصحاب الكتلة يطبقون منهاجهم فأتوا الى بعض الوظائف بجماعتهم ، وبعض من اعتمدوا عليه لم يعرف بانه من اصحاب الجد ولا اشتهر بمعرفة ، وأخرجوا من الوظائف الكبرى بعض من ليسوا على سيرة حسنة ، او ممن ثبت تلاعبهم في كل دور ، وظن بعض جماعة الكتلة أننا اصبحنا امة حرة مستقلة ، واحبوا ان يتحرروا من القيود القديمة ، وتركوا المستشارين جانباً لا يستشيرونهم ولا يلتفتون اليهم . فكان من اثر هذا أن اشتعلت ثورات خفيفة في بعض الانحاء ، وأهين عمال الجمهورية وروعوا وعيالهم ، وكان على ما قيل السبب في ايقاد جذوتها بعض الموتورين ، وقيل ان حكومة الانتداب رأت من بعض رجال الكتلة عطفاً على بعض الدول الكبرى .

ولقد نصحت لبعض أصدقائي من رجال الكتلة ومنهم صديقي فخري بك البارودي ألا يدخلوا في الحكم ويختاروا للوزارة جماعة من الحياديين ، ينقون الحكومة من ادرانها ، ويجعلون كل شيء في نصابه ، وهم يبقون في المجلس يراقبون عمل الحكومة سنتين أو ثلاثاً ، فاذا تقلدوا الحكم بعدها أخذوه نظيفاً لا شوب فيه ولا شائبة ، وبذلك يتحللون ايضاً من الوعود التي قطعوها لبعض من خدموهم ، وبتحقيقها عبث بمصلحة الوطن ، فكان جوابهم إن كل طائفة تحدث انقلاباً تتولى الحكم لتنفذ برنامجها .

بدت عيوب الكتلة للاعين بعد أشهر من توليها الحكم ، وربما وجد الناقمون عليها معاضدة من بعض السلطات ، فساروا وأوغلوا في نقدها ، وكنت

كثيراً ما أطلب إلى أصحابي ألا يعجلوا بانتقادها او تظهر غلطاتها ، ولم تجر الكتلة على مثال الحكومات التي كانت المفوضية العليا تعينها تعييناً ، فتنشىء الجسور والمعابر وتفتح الطرق وتعبدها ، وتقيم القصور والمدارس ودور الحكومة ، وتعمل ما يخفف الضائقة .

جاهر الحزب الذي تولى الحكم في فرنسا بألا يقر معاهدة وافقت عليها الحكومة الاشتراكية مبدئياً ، وفرنسا في صدد خوض غمرة حرب ، ومن مصلحتها أن يكون حكمها مباشراً في سورية ، فاضطرت حكومة الكتلة الى التنحي ، وعرض رئيس جمهوريتها تأليف وزارة على الاستاذ مصطفى برمدا فأبى تأليفها ، وكان جرب طالعه مع السلطة لما عهدت اليه رئاسة دولة حلب ، فما استطاع العمل معها غير بضعة اشهر . ثم عرضت الرياسة على السيد نصوحي البخاري فاستقال بعد ثلاثة أشهر من تأليف وزارته ولم يعمل عملاً وأضاع الوقت في التريث على غير جدوى . عند ذلك اضطر رئيس الجمهورية الى التنحي .

قال رئيس الجمهورية السيد هاشم الاتاسي لاحد المتصلين به قبل تخليه عن الرياسة بايام ، وكان ضيق الصدر من اضطراره الى الاعتزال : ما كنت أظن أن جماعتي وصوليون الى هذا الحد ، لايهمهم غير مراكز في الحكومة يشغلونها ، يقولون أن جميل بك يبذر الاموال ، وتبذيره قليل إلى جانب اسراف سعد الله بك ، فقد كان هذا يتطلب أن نعطيه كل يوم ألف ليرة فلما أشرنا اليه أن يأخذ بالاقتصاد ، غضب وقاطعنا ولم يدخل قصر الجمهورية ثمانية أشهر . ونحن لم نهديء أعصاب بعض جماعتنا عن تولي الحكم ، ومعظمهم كانوا يحاولون أن يتقلدوا الوزارات ، إلا باعطاء كل فرد منهم مشاهرة تعادل راتب الوزير العامل .

هذا معنى ما روي عن لسانه وقلت لصاحبي لما قص علي كلامه : لو قال هذا القول قبل سنة لكان قوله مقبولاً ، أما وهو لم يرشدهم إلى الصواب في نطاق حقوقه الدستورية فعلى عاتقه تقع تبعة بعض غلطاتهم .

قلت لاحد رجال الانتداب وأنا في الوزارة ، والصراع بين الكتلة والدولة المنتدبة على ساق وقدم : أرى أن تمهدوا بالحكم للكتلة الوطنية على سبيل التجربة مدة ، لعل عند رجالها قرائح لم نرزقها ، ومعارف لم نتعلمها . فان احسنوا فيها ونعمت ، وإلا فنستريح وتستريحون ، فاجابني لولا أن الهزل في مصالح الدولة لايجوز لعملت بهذا الرأي السديد ، وأنا على يقين أن الجماعة لايصلحون للحكم . كذا قال وفيه شيء من التحامل عليهم .

على أن الكتلة ماخلت من أعضاء كانوا غُيراً على المصلحة العامة ، وكان الصالح يذوب في الكثرة الغامرة . تنحى وزير ماليتهم الاستاذ شكري القوتلي عن وزارته لانه لم يرض على ماشاع باقرار الاتفاق مع المصرف السوري لما رأي فيه من الاجحاف بحقوق سورية فاستقال وكتم أسباب استقالته ، ولما سقطوا باتهام بعض أعضاء منهم بانهم يعملون فيما قيل للمبادىء الفاشستية كان من السيد فائز الخوري أن خرج منهم في جملة من الاعضاء ونشروا ذلك في الصحف إلا أن هؤلاء متى رأوا الحظوة أعيدت إلى اخوانهم بالامس يرجعون حالاً اليهم للاشتراك في المغانم لا لشيء آخر . وتولى أحد أعضائهم السيد لطفي الحفار رياسة الوزارة نحو عشرين يوماً في آخر عهدهم ، فسارع إلى إرضاء أقاربه ، ومنهم ابن عمه رقاه بضع درجات وأعطاه فرق رواتبه بضع سنين .

الجزازات

هي في هذا العصر كل شيء في الاعمال العلمية والسياسية والمالية يحتاجها التاجر والحاسب والسياسي والباحث والأديب كما يسير عليها الملك والرئيس . كنت منذ أيام ابحث في الجزازات مع صديقي الدكتور حسني سبح وقلت له اني باغفالي أمر الجزازات بل بعدم انتباهي لها ولصورة عملها اضعت سنين من حياتي في البحث على غير جدوى ، فكنت على طريقة من عاصرتهم من المشتغلين بالعلم والآداب نقيد ما نحب حفظه من المنشورات في دفاتر نمزج فيها النكتة الدينية بالنادرة الأدبية بالقصة التاريخية بالبيت أو القصيدة من شعر بالفائدة العلمية بترجمة أحد المشاهير بمصدر من المصادر نريد أن نرجع اليه ذات يوم . وهذا مما يضيع الوقت ويصعب ايجاد المادة الضائعة بسرعة عند اللزوم .

كان الناس في مصر يدهشون من العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله وبديهته في حل عويصات المسائل فان سؤالاً يطرح عليه في الصحف أو غلطة يراها هو فيها يحمل الجواب عليه من الغد وما كانت الا الجزازات التي اتقن الباشا وضعها هي التي تعينه على ذلك يرجع اليها في الحال فتلبيه وتحل اشكالاته واشكالات الناس .

وكنت ادهش قبل التوسع في معرفة الجزازات وأنا اتلو المقالات الافتتاحية في جريدة الطان ايام كان يكتبها السياسي تارديو وتعجبني الاحاطة بكل موضوع يخوض فيه وما كان السبب في ذلك الا الجزازات التي اتقنت تحضيرها ادارة تلك الجريدة كما احضرت الجرائد عامة مثل هذه الجزازات تستفتيها في كل مصبح وممسى وفي كل شارقة وبارقة .

وعمل الجزازات في الجامعات والكليات في العالم سهل على الطلبة

والاساتذة أعمالهم اذا أرادوا أن يؤلفوا أطروحاتهم ويضعوا تآليف لهم .
وقد سهلوا في المانيا طرق التأليف فاخترع المؤلفون طريقة جديدة فيها كثير من الاقتصاد في الوقت والمال على ما حدثني بذلك صديقي الاستاذ جورج انطونيوس رحمه الله قال ان المؤلف هناك اذا عنّ له أن يكتب في موضوع يدعو ثلة من الشبان المتخرجين في الجامعات ويعرض عليهم موضوعه ويدعوهم الى مطالعة كتب يعينها لهم ، يريدهم أن يقدموا له عن كل واحد منها تقريراً ، ويلاحظوا ما يتطلبه المؤلف لأجل موضوعه فما هي الا أن تنهال عليه المعلومات ويكتب المؤلف كتابه في اسابيع قليلة .

فقلت للراوي ان هذه الطريقة عملية ولكنها لا لذة بها للمؤلف وأظنها تحتاج الى نفقة طائلة مكافأة للعاملين فيها من الشبان ، قال ان السعر الذي وضع للنظر في كل كتاب دينار الماني واحد أما الكتب فهي مسبلة على كل مطالع في الخزائن العامة ويستعيرها الباحثون ولا يدفعون شيئاً مقابل ذلك . هذه هي الجزازات وفوائدها في الجملة ولما تشرفت بلقاء الملك فؤاد الأول ايام ذهابي الى مصر لتكريم أحمد شوقي بك الشاعر قلت لشوقي ان معلومات الملك عظيمة جداً قال نعم هو يتكلم من الجزازات ومن تكلم آخذاً مما لديه منها أمن العثار وعظم في الانظار .



أمانة الوزراء

حُدّثت أن الدكتور عبد الرحمن الكيالي ايام كان يجمع بين وزارتين من أهم الوزارات وزارة العدل ووزارة المعارف حاول أن يجود على أحد الأرمن المتجنسين بالجنسية الاميركية وكان معروفاً بتهريب العاديات بتمثالين لاسدين عظيمين (ارسلان طاش) ما زالا رابطين الى اليوم في أرض الجزيرة من أملاك سورية ، وزنة كل واحد منهما خمسة عشر طناً على الأقل مدعياً ان هذا الاميركي يرجى أن ينفعنا في امور لها مساس باستقلالنا !

وصدر المرسوم بهذه المنحة ونشر في الجريدة الرسمية فأصدرت المفوضية العليا الفرنسية أمرها الى دولة سورية بالرجوع عن قرارها لان أمر الآثار يرجع الى الدول عامة وليس لسورية وحدها أن تبت فيه . وحاول الكيالي أن يقنع القائمين على حفظ الآثار من الوطنيين لاقناع المفوضية بالرجوع عن رأيها واقرار ما قررتهالوزارة فلم يفلح قائلاً انه يتذرع بذلك للاحتفاظ بالكرامة ومراعاة سلطان الحكومة المحلية . وما عرف الذي حداه على هذا الاصرار في أمر يدرك مضرته الطفل الصغير ، ذلك ان التمثالين يساويان يومئذ مليوني ليرة على اقل تقدير أما قيمتها المعنوية فلا تقدر بثمن . والتمثالان كما يقول العارفون بالعاديات من أهم ما نبش عليه من آثار ديارنا .

وجاءنا حلبي آخر اسمه فؤاد العادلي من أرباب الأوقاف العظيمة يشغل وزارة في عهد الشيخ تاج الدين البيباني أنسيت اسمها وربما لم يحفظه أيضاً من وسدت اليه شؤونها فكان منه انه لم يعمل فيها شراً ولا خيراً لانه لم يحضر لادارة شؤونها الا اياماً معدودة من أشهر طويلة وكان شغله الوحيد الدعاوي التي يقيمها وتقام عليه ، وخلص من الوزارة باحراز لقب « صاحب المعالي » .

ومما يسر ان ما آتاه الكيالي والعادلي من الاهمال لم يفعل منه شيئاً

معالي الوزراء الذين أتوا من الشمال امثال السيد ميخائيل ليان (الحلبي) والسيد حكمت الحكيم (الادلبي) والسيد حكمت الحراكي (المعرى) وامثالهم ممن تقلدوا الوزارات بكفاءتهم . ومن أهم ما يتحلى به الوزير قبل كل شيء تجرده عن الهوى وبعده عن المآرب الذاتية وسعة نظره وسداد رأيه والامانة على ما أتمن عليه وابتعاده عن الحزبية والعصبية الجنسية والدينية . والامة من ورائه تراقب حركاته وسكناته ومن اسر سريرة ألبسه الله رداءها .



حب المديح والظهور

احتفل بالقاهرة بعض السنين اصحاب الاستاذ احمد أمين بك بتكريمه وحرص هو على أن اقول كلمة فيه مع أني كنت في حالة لاتسمح لي بالقول مطلقاً ومما قلت ان ماخص به صديقي من عمق في البحث وجمال في الاسلوب جعل منه مؤلفاً من أكبر مؤلفي العصر ثم رأس لجنة التأليف والترجمة والنشر فبرز في الادارة والتجارة تبريزه في فنه واثبت واخوانه اعضاء اللجنة ان المصري اذا ثبت لايصعب عليه أن يأتي باعمال عظيمة كان بالامس يرى بانه عاجز عن تجويد مثلها ، لان الثبات كان مما ينقصه والخضوع للقانون مما لايأبه له كثيراً . وعزوت توفيق هذه اللجنة الى كونها موءلفة من اعضاء متماثلين في التربية وان غرضهم بث العلم والآداب .

وحاول شيخ الازهر الاستاذ المراغي في تلك الحفلة ان يجعل الفضل الازهر في نبوغ أحمد أمين مع أن هذا قال لي انه لم يدرس فيه أكثر من سبعة أشهر ، ولكن أباه كان من شيوخه ، والازهرية على كل حال بقيت غالبة على أحمد امين غذى بها لحمه ودمه وروحه وادبه . واذكر اني كتبت اليه بصفته مدير لجنة التأليف والترجمة والنشر ارجوه ان يتوسط مع من يلزم للمباشرة بطبع الجزء الثاني من كتابي (الاسلام والحضارة العربية) اذ ليس من مصلحة اللجنة أن تكون الفاصلة بين الجزئين اعواماً فكتب اليَّ والغالب انه كان في حالة عصبية نسي فيها كل الاعتبارات يقول انه ليس هو خادمي ولا عبدي حتى أعهد اليه بمثل هذه المهمة الى غير ذلك من العبارات الغريبة التي تدل على رعونة كنت أحب أن يتجرد منها مؤلف فجر الاسلام وضحي اسلام وظهر الاسلام (وغروب الاســـلام وليل الاسلام) .

حاول أحمد أمين أن يؤلف في الفلسفة ويظهر في ثوب فيلسوف وكان رفاقه وزملاؤه يسخرون من دعواه هذه ويجعلون منها موضوع دعابة وحديث ضحك واضحاك . ثم حاول ان ينتسب لفيلسوفهم الاعظم احمد لطفي السيد ولكن المشيخة بقيت متجلية في أقواله وافعاله وكان ظاهره وباطنه مع السنهوري وطه حسين ولطفي السيد ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز فهمي وتلك الطبقة يجمع أكثرهم الغرام وبقاعدة خالف تعرف وهم في الغاية علماً وأدباً شهادة الله .

باشاوان فى مجمع مصر

لا أقول ان عبد الرزاق السنهوري باشا ومحمد حسين هيكل باشا اساءآ الاستعمال بتعيينهما نفسيهما عضوين في مجمع فؤاد الأول للغة العربية فان كلمة اساء الاستعمال حرام أن تطلق على من يضعون القوانين ويشرعون لمصر ، ولكن هـذا التعيين ما خلا من مغمزمهما أحسنا الظن ، وكان عليهما أن ينضما الى المخلدين المصريين في عهد وزارة غير وزارتهم أو أن يصرفا النظر عن هذه النسبة على نحو ما فعل رصفاؤهما وزراء المعارف امثال نجيب الهلالي باشا وحلمي عيسى باشا وبهي الدين بركات باشا ومحمد علي علوبة باشا ومحمد العشماوي باشا وغيرهم . والمصريون مغرمون بالالقاب في العادة ولو كانوا من عيار السنهوري في القوانين وهيكل في السياسة ، وكيف يجوّز لنفسه رجل أن ينضم الى جماعة وهولا يفرغ ساعة واحدة في السنة لان يشاركهم في اعمالهم . ولو هدى الله صاحبي هذين لاستقالا من هـذا المجمع وتركا مكانهما لمن يحسن تعهده وتنتفع به اللغة . جلّ من لا عيب فيه .

خلق غريب

عرفت الشيخ بدر الدين النعساني طالب علم في الازهر وعاد الى حلب بلده في اول عهد الدستور العثماني وكنت كثيراً ما أحثه على القيام بما ينهض بمدينته لعلمي بكفاءته لذلك أكثر من جميع أهل بلده ، ولما وليت وزارة المعارف كان استاذاً في تجهيز حلب فكان مولعاً بمدح الاتراك وذم العرب ، ويتلو في الدرس على تلامذته اشعاره ويخرج عن المنهاج المقرر ، فيبلغ ذلك مستشار المعارف فادافع عنه وادفع ما اتهم به . وبقدر ما كنت أحميه كان يهزأ بي في دروسه ويطعن علي جزاء احساني اليه . وكان خفيف الروح ظريف الحديث يأتي لزيارتي كلما جاء دمشق مستصحباً بعض المعلمين الحلبيين ممن اشتهروا بجاسوسيتهم فكنت انبهه إلى هذا وأذكر له كراهتي لكل من يتجسس .

وما لقيته مرة الا حثثته على وضع تأليف في نطاق اخصائه ينتفع به الاسلام والعرب . وكان تأليفه الذي ختم به حياته سلسلة مقالات كان ينشرها في جريدة الشعباني تنم عن أغراض ظاهرها الغيرة على مصلحة الوطن ، وما كان يقصد بما يكتب إلا مصلحته الخاصة وهكذا انتهت أيام النعساني على ما لا ينطبق مع أماني الوطن وأماني العلم ويتنافى مع ما عرف به من الذكاء والدهاء .

انتخب المجمع العلمي العربي الشيخ النعساني عضواً مراسلاً فلم يتنزل أن يشكره ولا بكلمة مع شدة الحاحي عليه بان يقوم بهذا الواجب وظل على ابائه ، وأرادني المجمع على حذف اسمه فلم أوافقه . ولما أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية في مصر رجاني ألا انساه وأجعله عضواً فيه أيضاً كأنه خدم مجمع بلاده حتى يخدم مجمع مصر ولكن هو حب الظهور بدون اتخاذ الاسباب المشروعة له ومظهر من مظاهر الاثرة الممقوتة ، دل على ان العلم شيء والاخلاق شيء آخر ومن لا تتربى اخلاقه في بيته لا تربى في مضمار الحياة .

وباء الهمم

مما لا يبشر بخير ان يتخرج بعض الشبان في ارقى مدارس الغرب ويعودوا الى بلادهم وقد امتلأوا حماسة علمية وغيرة وطنية فما هو إلا أن توظف لهم وظيفة حتى تبرد هممهم وينسوا ما املوا لا يطمعون أن يزيدوا فيه . رأيت هذه الحال في عشرات من الشبان فساءني ما رأيت وخيبوا ظني فيما كنت فيهم أملت . وما العلم عند هذه النابتة إلا أداة من أدوات الكسب متى بدأ ربح المرء منه فليس من الصواب أن يتعب نفسه باتقانه والاستفادة من نتائجه ! وأكثر من يؤلفون يؤلفون كتباً مدرسية يتربحون منها ، وقل ان يبتدع احدهم موضوعاً طريفاً او يلو على فكرة نافعة ، ولطالما حدثت من يأتوننا بشهادات أطول من ليالي الشتاء على اتمام علمهم على ما هو المرجو منهم ، فيعدون كلامي هذا من الفضول والتدخل في حريتهم الشخصية . واقسم بالله أني رأيت بعض الشبان الذين درسوا ارقى دراسة بعد بضع سنين من مغادرة المدرسة أشبه بالاميين في حديثهم وحركتهم ورأيت منهم طبقة تستجيز السرقة والتجسس للحصول على المال وترتكب كل ما فيه العار للترقي في درجتها . وبعد ذلك صرت أقول في نفسي ترى هل نفعنا العلم أم أضرَّ بنا .

كتاب الى حبيب

صديقي صاحب المعالي الاستاذ محمد حلمي عيسى باشا المحترم

طلبت إليك منذ أيام جريدة باسماء من يرجى أن يشتركوا بكتابي (المذكرات) من المصريين ولعلك استغربت هذه الحركة مني وما عهدتني تاجراً ولا طابعاً ولا ناشراً بل مؤلفاً بسيطاً يعتمد على الطابعين في نشر كتبه . وما حداني على الظهور بهذا المظهر الجديد إلا اني احب ألا أنكسر أمام أي قوة واحارب ما اسعت قوتي للحرب ، وإن كنت في الشيخوخة (ونصف الخبر عندك) فقد طرقت عدة أبواب لطبع ما لديّ من التآليف وتجديد طبع ما نفد مما طبع في مصر والشام ، فكنت أصد من دون سبب معقول .

راجعت لجنة التأليف والترجمة والنشر وهي مؤلفة من خيرة رجال المعارف ، وبعض الكهول منهم من أصدقائي الأعزة ، وقد طبعت لي ثلاثة كتب في مطبعتهم نفدت بعد قليل من طبعها واعيد طبعها ثانية وثالثة ، وراجعت دار احياء الكتب العربية فوعدت ثم أخلفت، واحببت الاعتماد على دار المعارف منذ سنتين فاعتذرت بقلة الورق وفاوضت إسماعيل تيمور باشا ابن صديقي العلامة أحمد تيمور باشا فقال إن كنت تريد معونة للكتاب من الخاصة الملكية فالأمر سهل فقلت له إن خطط الشام هو كتاب أبيك وإليه مهدى فلا معنى لأخذ معاونة سامية . فأجاب أنا لا أفهم هذه المسائل وسأكلم شقيقي محمود فكان من الاستاذ محمود بك أن راجع من رجعت إليهم فأخذ ما أخذت من جواب ، ورجع المؤلف الذي لا يهمه من الدنيا إلا نشر كتبه بخفي حنين .

فلما سدت الطرق في وجهي ورأيت اللجنة التي يعدّونني من أعضائها

قد عاملتني بالاهمال ، ولم تكتب شيئاً في مجلتهم عن تآليفي التي طبعتها على نفقتها ، طلبت إلى صديقي أحمد أمين رئيس تلك العصابة أن يكون الكلام عنها نقداً فقط لأني ما أحببت قط المديح ولا التقريظ ، يشهد لذلك ما نشرته من مصنفات ومجلات ، وجرائد فكان منه أن أوعز إلى أحد شبابهم فكتب في الجزء الأول عن كتاب لي في مجلة الثقافة تقريظاً أوسعني فيه ثناءً خلافاً لما كنت أرجو .

وصديقي أحمد أمين كأكثر المشتغلين بالعلم في مصر وغير مصر أشغل من ذات النحيين ما سمعت منه كلمة طيبة لا باللسان ولا بالقلم منذ عرفته ، وأنا شهد الله ما تركت باباً من أبواب الدعاية له منذ ظهوره في التأليف . سأله في الجامعة أحد تلاميذه من الحلبيين عن رأيه فيّ فقال تسألني رأيي في بلديك إنه أعرف المعاصرين بالمصادر . وهذا رأي الشيخ رشيد رضا في استاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، يعني أني وشيخي في نظر الاستاذين العظيمين من عيار مصطفى محمد الكتبي المصري بمعرفة أسماء الكتب .

هذه هي صداقة أحمد أمين لي وهناك في مجمع فؤاد الأول من هم عجيبة الزملاء هناك رئيسه أحمد لطفي السيد باشا الفيلسوف . وكثيراً ما نوَّهت به وأردت إخواني في المجمع العلمي العربي منذ أول تأسيسه أن يختاروه عضواً مراسلاً فانتخبوه وما تنازل أن يجيبهم بكلمة شكر فيما أذكر ولم يغلط خلال خمسين سنة أن يقابل جميلي بمثله كأنه يعتقد أن ما أقوم به نحوه هو واجبي وانه من عالم غير هذا العالم ، وشتان بين ثقله وخفتي ، وفرق بين جنسيتي وجنسيته هو مصري وأنا شامي ! فلسفة ركيكة لا أفهمها مع أني فهمت فلسفة الشباب أمثال زميلي وحبيبي الدكتور إبراهيم بيومي مدكور .

أين أدب من أدب انتخب المجمع العلمي العربي الامير عمر طوسون والأمير يوسف كمال عضوين مراسلين معه فكتبا يشكران ويفاخران بهذه العضوية وأظن لطفي السيد أمام هذين العظيمين لا يعدو أن يكون أمامهما شخصاً عادياً ولو تقلد الوزارة مرات . اتقن لغة السياسية ومصطلحات التشريفات

وكان رجل رسم وصاحب تقاليد . دعاني مع من دعا من رصفائي الدعوة الرسمية السنوية الى نادي محمد علي فلما لحظ ان بين الأعضاء الأجانب رجلاً له لقب وزير طار عقله ودعاه علناً من دون رصفائه الى الجلوس في مقام التكرمة فكأنه يقول بلسان حاله لسائر الرصفاء ان من كان وزيراً يفضلكم كلكم . فلما شاهدت هذا ضحكت وانتحيت ناحية اخرى وقعدت في آخر المائدة وجاورني زميلي الدكتور علي توفيق شوشة باشا وأقسمت بعدها الا أحضر دعوة طعام الداعي الكريم صاحب الذوق السليم .

أنا لا أطلب من الناس أن يمدحوني ويرفعوا من شأني لحياتي ما كانت في وقت من الأوقات موقوفة على هذا النوع من المصانعات ولكن المجاملات مأمور بها ومعقولة ، والمصريون من أبرع الناس فيها على كل حال . من ذلك أن رصيفي المازني وهيكل ما أضاعا قط كلمة في التعرض لعملي وعمل اخواني في الشام انتخبها بجمعنا عضوين مراسلين فلم يتنزلا أن يكتبا له سطراً . وكيف يرتكبان هذا الاثم والمازني دأب حياته يكتب المقالات للصحف والمجلات ودأب يستوفي المكافآت عليها ، وهيكل أصبح بقلمه وحزبه ممن يدير دفة السياسة المصرية . وأي نفع يأتي من « كرد علي » وصحبه ؟ إذا احتجنا اليهم يوماً فهم تحت الطلب .

وفي المجمع المصري عناصر جديدة انضمت اليه منها ما كان من الطراز الأول أمثال علي عبد الرازق بك ومصطفى نظيف بك والشيخ عبد الوهاب خلاف واضرابهم ومنها ما كان مثل الشيخ محمود شلتوت من جماعة كبار العلماء وهذا كان لي صديقاً قديماً عرفته في دار آل عبد الرازق الاكارم ولما اضطهده الشيخ الظواهري في الازهر كنت من أول الحانقين عليه ، ولما نفس خناقه واعيد الى منصبه فرحت له فرحاً كثيراً . أتدري ماذا كان مقامي عند عضو جماعة كبار العلماء ؟ كان منه أن اهداني كتاباً له وكتب على ظهره (آية الاخلاص لصاحب العزة فلان) فراجعته فيما كتبه

ممازحاً وقلت له : وأين كلمة استاذ يا استاذ ، كأن هذه اللفظة (آية الاخلاص) تقوم مقامها وما حفظه شلتوت قد نسيه « كرد علي » منذ زمان ، والطوائل أو المباينات بين أرباب العمائم وأرباب الطرابيش قديمة لا تحتاج الى بيان .

وماذا اقول في مجلاتكم وصحفكم ، واحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة بعد ان كان يكتب لي انه كان تتي فرفعته تنكر لي بأخرة من دون سبب وأعمته التجارة وجمع الارباح ونسي أصحابه ومن عاونوه على اكتساب الشهرة . انتخبه مجمع دمشق عضواً فبلغ من مكارم أخلاقه انه لا يبادل اليوم مجلته مع الالحاح في طلبها . حقيقة الاخلاق تورّث ، واخلاق المدنيين غير اخلاق الفلاحين ، والعلم والادب صناعة يتعلمها من يسهر على حفظ الدساتير اعواماً قليلة .

هذه المعاملة لقيتها من هذه الطبقات في مصر لا أدري وجهاً لتعليلها ، والحمدلله على اني ما جئت مصر يوماً أكاثر رجالها ولعففت حياتي عن الاخذ من خبز مصر حتى لا أشهد كراهية المصريين وتجهمهم ، ولا أفقد صداقة عشرات من اخواني امثالك، وهم رأس مالي الذي اغتبط به ، فمجلة الثقافة لم تتنازل منذ نشأتها ان تكتب لي كلمة في كتبي اما احمد امين فيزعم ان اشغاله كثيرة وقد رأيته يسارع فيكتب للمصريين ما يشاءون .

هذه يا صاحب المعالي مسائل تافهة ولكنها تمس العاطفة وتؤذي عزة النفس وتعرف أكثر من غيرك أني لا اعبأ بها بيد ان ما حصل دل على مبلغ جماعتك من الوفاء ولو كنت اضع على رأسي قبعة لوقرت في نفوس المصريين وعدوني شيئاً فقد اعتاد المصريون مع الاسف ان يتلقوا الافرنج بضروب التجلة ، وللغربي في وادي النيل روعة وأي روعة وللخواجه ما ليس لغيره من اعظام نتيجة اربعين قرناً في العبودية . لا تغضب لهذا الحكم فهو حقيقة تاريخية لا مجال لانكارها .

تعلم أيدك الله كم جهدت لازالة الفوارق من بين المصريين والشاميين وأني كنت أنحي على قومي إنحاء شديداً لما عرف به بعضهم من مماكسة

مصر في استقلالها ، كتبت في ذلك المقالات الكثيرة منذ كنت محرراً في المؤيد حتى ملّ مني من ولدوا في أرضي وأعرضوا عني وحاربوني في مادياتي . ولتعلم ان ليس في مصر من الشاميين من خدمها مثل ماخدمتها أنا بدون عوض ولا غرض فقد جاءت عليّ أيام فيها ، وأنا أحمل ريع ملكي في الشام وارتفق به في مصر مختاراً ، والانكليز يعرّضون بما عندهم من ذهب برّاق استهوى كثيراً من كبار رجالكم ، أما أنا فما أخذت منكم منذ دخلت مصر سنة ١٩٠١ وساماً ولا رتبة ولا لقباً ولا راتباً ولا عطية ولا هدية ولله الحمد والمنة ، وكنت أبداً مرتاحاً لعملي وأعده واجباً عليّ .

أطلت عليك ولا بد للمصدور أن ينفث ، أطلت لأقول لك أن ما لاقيته من أصحاب المقامات أو العلية أو الطبقة المختارة دعاني أن اهزّ أريحية قومي لطبع كتبي واخرج عن الطور الذي سرت عليه حياتي حتى افيد العرب واخــــدم الاسلام .

جسرين (غوطة دمشق) في ٥ أيار سنة ١٩٤٨ .

حاشية ربما يظن من يقرأ هذا أن المسألة تجارية والشاميون من أعظم التجار لا والذي أخذ العهد على العلماء ألا يكذبوا ولا يصانعوا ليس الأمر كذلك ، وأرجو الا يتطرق الوهم في هذا الى بعض الأغبياء فأنا منذ كنت في ريعان الشباب أطبع كتباً ورسائل ومجلات وجرائد وأنشرها في البلاد العربية وقد أهديت من أعرف ومن لا أعرف ثلاثة أرباعها ولو كان مأربي مادياً لجمعت منها ثروة لابأس بها ولكن الغاية غير مايتخيل ضعاف العقول ، الغاية النهضة بالأمة واصلاح ماعوج من أوضاعها مهما كلفني الأمر لااريد من ذلك مظهراً ولا مالا ومرماي الآن تصفية حساباتنا مع هؤلاء الأفاضل والله أعلم بالسرائر .

(لاحقة) لابأس أن يتلى هذا الكتاب على مسامع اخواني الأعزة جماعة فندق الكونتيننتال ظهر كل يوم وسلامي عليهم جميعاً وعليك الف سلام .

الدين

رأيت في العقد الاخير نهضة دينية تهللت لهـــا قام بها بعض الغُير على الدين بعد أن رأوا ضعف مشخصاته في كل مظهر من مظاهره . ادركوا ان ليس لهم مخرج مما صارت اليه الامة الا بتعليمها أصول دينها فانشأوا مدارس ودروساً في حلب وحماة ودمشق وأرادوا ارجاع الناس الى الجوامع وقد هان عليهم الاختلاف الى الحانات والملاهي ، وممن قام بكبر هذا الامر المهم العلامة الشيخ سعيد النعسان في حماة والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار في دمشق وغيرهما في غيرها فتخرج بهذين العالمين عشرات من الطلبة تلقنوا الشريعة على أصولها وقام في دمشق عالم من طراز آخر علـّم العامة تعليماً لايخلو من جمود وحشو ولكنه ينفع من بعض الوجوه لان طلابه انبثوا في القرى الشامية وكان بعض أهلها على وشك الخروج من الاسلام بفعل الجهل كما حدث منذ سنين وقام العلامة الشيخ عبد القادر القصاب رحمه الله في دير عطية في جبل قلمون وعلم كثيراً من الطلبة انبثوا في انحاء الجبل فاعادوا الضالين الى حجر الاسلام .

وكما فعل صديقنا العلامة عارف النكدي ففتح مدارس وكتاتيب لابناء الدروز في عبية وما جاورها من القرى في لبنان وأخذ يدرس أبناءها القرآن الكريم يريد أن يعيدهم الى السنة كما كان من العلامة جمال الدين التنوخي من أهل القرن الثامن بما وقفه من الاوقاف العظيمة على هذه الغاية . وتعليم ابناء الدروز وبناتهم خطوة مباركة يخطوها ابناء هذه الطائفة نحو الاسلام الصحيح وذلك بفضل بعد نظر الاستاذ النكدي وذكائه النادر .

ثم اسست ادارة الاوقاف في عاصمة الشام مدرسة العلوم الدينية واخذت تخرج طلبة منورين من طوائف اسلامية مختلفة وانصرفت همم افراد من

ابناء فلسطين ولبنان والعلويين وبلاد الشمال والجنوب في سورية فدرسوا في الازهر وفي كليات الاختصاص فيه ومنهم من عاد الى وطنه بشهادات تدل عن دراساتهم النافعة مثل السيد انور سلطان والشيخ علي الطنطاوي ويزيد هذا الى علمه وفقهه انه كاتب من الطراز الاول وهو من الطبقة التي تحسن ادب العربية احساناً يساعدها على فهم الشريعة اكثر من الجاحدين ومن قلت عنايتهم بهذه الفروع .

كل هذا حسن ويشير الى خير عميم لكننا لم نجد من تعلموا قد وسدت اليهم الوظائف الدينية التي استعدوا لها وما زال بعض الجامدين الجاهلين الذين تلوثوا بالرشا واشتهروا باضاعة الحقوق قابضين على ازمة القضاء والافتاء ومن مصلحة الرؤساء منهم ألا يتركوا مجالا لظهور الشباب وهم ينبذونهم من كل وجه حتى تكون المنافع وقفاً عليهم وعلى جماعتهم على ما كانت عليه الحال في القرن الماضي والقرون الثلاثة قبله . فعلى من يفرقون بين الصحيح والبهرج أن يتخلوا عن كل اعتبار ويطرحوا الجهلة الفاسدين جانباً ويستعيضوا عنهم بالنشأة الصالحة من مثل هؤلاء وبذلك فقط تخدم الشريعة ويدرك القوم في الديار الشامية الفرق بين الحكم الاستبدادي والحكم النيابي .



أحكام عادلة

ظهر في جبال العلويين على عهد الانتداب رجل اسمه سليمان المرشد ادعى أنه الرب وأخذ أموال الفلاحين واعتدى على أعراضهم وملك ثروة طائلة وكثر اتباعه . وقد اعتادت هذه الجبال أن يكون لها رب جديد في كل قرن ويكون مصيره القتل . ولما كثر تعديه وامتدت يداه لقتل الانفس ساقته حكومـة الجمهورية الى القضاء فحكمت عليه بالقتل وارجعت جميع ما استصفـاه من قرى الضعاف من الرعية الى أربابه فأحسنت بذلك للعدل والامة .

وقام في خـلال تلك المدة في غوطة دمشق على عهد الانتداب رجل عامي من نمط آخر ادعى انه صاحب طريقـة ، فكثر اتباعه واضل العقول وخرج في معظم حركاته على الاسلام ، فهو ان لم يدع كالأول مقام الربوبية فالظاهر من حاله أن دعواه قريبة منها . وزاد على ذلك أنه تعدى على الابـكار وسلب أربعاً منهن عفافهن فحكمت عليه المحكمة بالسجن خمس عشرة سنـة والتغريب مثلها وبعشرين ألف ليرة دية اعراض تلك الأوانس . فوقع هذا الحـكم كالحـكم السالف أحسن موقع من نفوس الناس . ولا شك ان في هذه الأحـكام عبرة لمن يخرجون على قواعد الشرع والقانون ويشعبذون لاكتساب المال واستعباد الخلق . واظن النور اذا عم الأقطار لا يقوم بعـد الآن سليمان المرشد ولا طه أبو الورد بمثل هذه الدعاوي الـكاذبة ، قبحها الله وقبح في الأكثر من يوافقونهم على مخرقتهم وضلالتهم .

———•••••••••••———

القضاء أيضاً

عرضت في هـذا الكتاب للقضاء والقضاة أكثر من مرة . وسلامـة القضاء هي الدعامة الأولى في ارتقاء الامة . ولقد حرت وأنا ارقب سير القضاء في ارضنا منذ وعيت على نفسي فما اهتديت الى تقرير خطة ناجمة لتقويم هذا الخلل الظاهر فـكاد اليأس يقضي على آمالي في اصلاح القضاء .

وآخر ما بلغني من حوادث القضاء حـكم قاض في احـدى العواصم باقرار عقد بين زوجين ليس في قوانين الأرض والسماء ما يوافق عليـه . ذلك أنه قضى باجراء عقد فتاة في السابعة عشرة على رجل في الثالثة والستين ووالدة الفتاة لا تتجاوز الاربعين أي أن عريس الزوجة يصلح جداً لهـا . وأبوها ذو سعة من المال وابنته جميلة وطلابها غير قليلين فمـا نفع القانون الذي يحظر مثل هذه العقود ولا نفع نصح الناصحين لوالدي الفتاة ولا للزوج . وراح القاضي بالرشوة التي تناولها يقر ما لا يقره العقل ولا الشرع وارتـكب هذا الاثم الذي كان أقل ما ينجم عنه امتهان الفضيلة ونسل فاسد يأتي من هذا الزواج العجيب .

أيها المهيمنون على القضاء ارحموا الخلق واطردوا هؤلاء الفاسدين الذين يحكمون هذه الأحـكام الجائرة باسم الدين فأقل ما يجب عليكم أن تسوقوا اولئك الطغاة من القضاة الى الامتحان وتنظروا نظراً بليغاً في سيرهم وسيرتهم ان سوء حال القضاء لم يعـد سراً من الأسرار فاضربوا رؤوس القائمين به بعصا التأديب الشديد ليكونوا عبرة العبر .

رأي سديد

ليت الامير فيصل بن الحسين (جلالة ملك العراق فيصل) في الاحياء اليوم ليرى تحقيق رأيه الذي ذكره لي في كتاب من باريز يوم ٤ مارس ١٩١٩ وهو ان الامة الاميركية والامة البريطانية معنا وسنصل الى ما نحن نتمناه ان شاء الله تعالى ، حقق الله هذه الامنية بعد مرور نحو ربع قرن واستقلت سورية وكانت صورة استقلالها من أجل صور الاستقلال وامتنها وأحسنها . وفي هذا الكتاب برنامج ما يجب الجري عليه في الشام من دعاية معتدلة لا تمس حكومة من الحكومات وكان كل ما قاله سديداً وأنا أقر هنا بأني كنت أشك في بعض اقواله ولكن الأيام أثبتت أنه كان يعرف ما لا نعرف وكان لا يرى أن يبوح بالحقيقة كلها ونحن كنا على احر من الجمر لنعرف مصيرنا . قيدت هذا هنا لاخلص منه الى القول بان ما يعرفه الملوك قد لا يعرفه السوقة . رحم الله الملك فيصل عداد حسناته وأياديه البيض على العرب .



غش سياسي

قال العلامة محمد علي علوبة باشا : أعلن لورد كرومر ان التعليم في مصر يجب أن يكون وسيلة لتخريج الموظفين فقط وان البلاد ليست في حاجة الى العلم الواسع أو الى الاكثار من التعليم بوجه عام . وقال كرومر يوم افتتاح الجامعة المصرية القديمة ان التعلم الابتدائي أجدى على المصريين من التعليم العالي في الجامعة .

وكل هذا يعد في باب الغش السياسي وقد شهدنا من الدولة التركية اموراً كثيرة من هذا القبيل كانت تجوز على العرب اضعفهم مثل قول وزارة معارفهم الى مديرها ان المعارف عند مسلمي الشام كثرت كثرة زائدة فأسع الى أن تؤخرها لا ان تقدمها وكان الأميون يومئذ في أرضنا ثمانية وتسعين في المئة . لعن الله السياسة كم تبدل الحقائق وتحيد عن المعقول .

ذكر لي أحد رجال السودان أن الحكومة الانكليزية لا تخرج في كلية غوردون من الشبان الا من تجد لهم عملاً من الاطباء والحقوقيين والقضاة وغيرهم ويقولون انهم اذا أكثروا من المتعلمين يقعون فيما وقعوا به في مصر مع الشبان المتعلمين الذي يزيدون عن حاجة الحكومة فهم لا يبغون ان يخرجوا اهل شغب ودعاة ثورة وسخط .



الاسماعيليون وامامهم

أهدى الاسماعيليون في الشام زعيمهم آغا خان (وعددم كما يزعمون يزيد في العالم على عشرة ملايين والذي عليه العقلاء انهم لا يتجاوزون المليونين) في عيده الماسي ماسة عظيمة زنتها توازي زنة جسمه وكان أهدى اليه في عيده الذهبي وزنه ذهباً (٢٥ الف جنيه ذهب) .

يهدي الاسماعيليون في ديارنا هذه الهدايا العظيمة لزعيم يعد من أغنى أغنياء العالم وهم في ذاتهم من أفقر فقراء العالم تفانوا في تمجيده حتى خرجوا على نظام العقل . وأذكر أن والدة هذا الزعيم زارت سلميه مرة وهي قاعدتهم وعشهم فكان الاسماعيليون يقبلون الارض التي وطأتها مركبتها أما من أسعده الحظ فقبل يدها أو رجلها فقد كتبت له سعادة الدارين . ربما انكر ما وقع ويقع بعض خواصهم ممن يخجلون من هذه السخافات والأمر صحيح لا سبيل الى إنكاره ولا يزول تكراره الا بالمدرسة والكتاب وأرجو ألا يمضي جيل واحد حتى يصبح أهل الاسلام بمعزل عن مثل هذه الخرافات .

محسنان مصريان

الاول أحمد تيمور باشا والثاني قليني فهمي باشا كان الاول يعطف كثيراً على من قعد بهم الدهر وأصابتهم الشيخوخة يرسل وكيله رأس كل شهر ومعه كيس من الجنيهات المصرية الذهبية ويدفع لكل واحد ما يكفيه وأسرته وقد حلفهم أن يكتموا ما يصلهم منه فما امكن الا انتشار فضله بعد سنين فساءه ذلك وقطع صلاته وادعى أن أطيانه خسرت وريعها ما عاد يوازي نفقاته . وبعد مدة صارت تأتيهم الحوالات المالية من احدى المصارف ولا يعرف المصرف ولا من صرفت بواسطته من عماله ولا المصروفة له . أما سائر صدقاته السرية فعجيبة من العجائب . وخزانة كتبه التي أعطاها للامة المصرية واشتغل بها طول حياته وحوت من الامهات النادرة والمخطوطات الفاخرة كل ثمين فقد قدرت بمئة الف جنيه .

أما المحسن الثاني قليني فهمي فانه يملك في مفاغة من بلاد الصعيد ستمائة فدان قسمها بين اسرته وبين أمته فاعطى الاولى نصفها ووقف القسم الثاني على مدرسة ثانوية ومدرسة ريفية وجامع وكنيسة وجعل سرايه في حلوان مستشفى . تيمور فيما قيل كان يملك اربعة آلاف فدان أعطى جزءاً منها للخيرات وقليني يعد رجلاً مستوراً فنزل عن نصفها وكلاهما في المكارم فرسا رهان . لو كان أغنياء المصريين يسيرون على هذه السيرة الحسنة ما بقي في مصر فقير ولا جاهل ولا مريض فسبحان الملهم .

التاريخ الهجرى

رأيت منذ خمسين سنة ان التاريخ الهجري كاد ينسى في ديارنا واعتمد العلماء والحكومات والتجار وغيرهم على التاريخ المسيحي فكان يشق عليّ هذه الاهمال واغضب لعدم حرصنا على مقدساتنا وقد وفقت فيما دعوت اليه وعادت الحكومات وغيرها في مصر والشام الى التاريخ الهجري تكتبه مقروناً الى التاريخ المسيحي .

وممن ناقشني في ذلك صديقي واستاذي العلامة الدكتور صروف منشيء المقتطف كتب الي من مصر يوم ١٠ جمادى الاولى ١٣٢٢ ما يأتي : جاريتك في التاريخ الهجري ولكن يا اخا العرب لا يثبت في الارض الا ما ينفع الناس والتاريخ الذي جرى عليه اصحاب الملايين والاساطيل والمدارس والمكاتب والمعامل ارباب العلوم والفنون وأهل الجد والاجتهاد والخمس مئة المليون سكان اوربا والمئة والخمسون مليوناً سكان أميركا ، هذا التاريخ لا فائدة من تركه ولا يحتمل أن يزول وقد جعلت الصين واليابان تستعمله وكان العرب في اول عهدهم يستعملون تاريخ الاسكندر لانه كان شائعاً ولم يروا في ذلك ضعة اه .

ونحن نستعمل التاريخ المسيحي ولا يجب بحال أن نتخلى عن تاريخنا .



ادعاء الشرف

في الحديث الشريف : « ملعون بن ملعون من انتمى الى غير ابيه أو ادعى الى غير مواليه » :وفيه : « خيار الناس في الاسلام خيارهم في الجاهلية اذا فقهوا » « وفيه الناس كالابل ترى المئة لاتجد فيها راحلة . » وبعد فقد كثرت دعوى شرف في دولة العجم ودولة الترك في القرنين الاخيرين حتى بلغت مبلغاً من السخف عجيبة ، وغالى الناس في النسبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام مغالاة خرجوا بها عن المنطق . وانشأ من صحت انسابهم يستنكفون من ادعاء الشرف ويتحامون الظهور به في الملإ

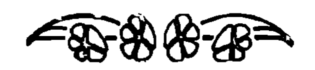
مما حاضرت به في المجمع العلمي العربي في موضوع انحطاطنا ان قلت فيه : ولعله كان من فرض الخليفة الثاني العطاء للمسلمين أول خطوة خطتها الامة نحو الكسل . وبالعطاء خرجت التجارة من ايدي العرب على ما كان تنبأ بذلك أحد كبار الصحابة واغنيائهم حكيم بن حزام . اتكلت الطبقة الذكية على بيت المال يرزق منه كل من كان ذا شرف وسابقة ، ومعنى الرزق من بيت المال الانقطاع عن العمل الشخصي المثمر وانتظار آخر الشهر على الغالب لقبض الراتب . وكان كل من يمتّ بصلة القرابة إلى آل علي أو آل العباس مثلا يجب على الدولة ان تحبوه وذريته كل ما تطمح نفسه اليه . حتى إذا كان العهد العباسي الاول أصبح ابناء الدعوة وهم يستأثرون بجزء من الجباية والخراج يتناولونه عفواً صفواً ، ونما أولاد العباس نمواً هائلاً حتى بلغوا في مطلع القرن الثالث ثلاثة وثلاثين الف انسان يعيشون من بيت المال . ومن ضمن له عيشه على هذه الصورة ، لايحتاج لان يعمل بيده ولا بعقله ، ويجد من وقته فراغاً يصرفه في شهواته ولذاته ، والنساء من أجمل مايلهو به ويعبث .

وكان في مكنة الموسع عليه ان يقتني من الجواري مايطيب له ، وان يجمع بين أربع زوجات مهيرات ، ينسلون أولاداً يدفعون بهم الى الخادمات يربينهم والى مختلفات الدم والجنس يرضعنهم . وبديهي أن يكون من تلك البيوت المركبة تركيباً غير طبيعي بؤرة تحاسد وكيد ، لحرص كل زوجة على أن يكون لاولادها لا لاولاد ضرتها الشأن الاول في البيت . نعم عاشت الطبقة العالية المجمع على مكانتها هذا العيش الخضال ، لم يفتها شيء من مباهج الحياة الا متعت به سواء أحله الدين أم لم يحله ، هذا وهي ترزق من مال لم تتعب في جنيه ، وهو في ذاته مرصد لمصالح المسلمين فقط ، وربما اعتقد بعض أهل هذه الدولة في سره أن المملكة مزرعته واهلها عبيده ، وعلى المولى أن يستحصل ويجد ، وعلى سيده أن يستهلك وينعم . تأصل خلق الاستجداء في هذا الفريق من ورثة الحسب والنسب حتى وهم الواهمون ان هذا العطاء غير معيب وهم لايتعلمون ولا يتفقهون ولمَ يتعلمون وهم ورثوا الشرف في دمائهم وصفت فطرتهم فغدا العلم في متناولهم وطبيعي التنقل في بيوتهم! اه وكان في ردهة المحاضرات شخص من ادعياء النسب ، والناس مصدقون بانسابهم ، فاغتاظ وظن أننا نتحامل على الاشراف ونزيف الانساب وما فهم من كلامنا غير ذلك .

كان القوم على العهد العثماني يتفانون في اثبات شرفهم في سجلات وحجج ويشهدون من يشهدون على انهم من السلالة الطاهرة وزادهم استماتة في هذه السبيل كون هذا النسب ينجيهم من الخدمة العسكرية واذا قيل الخدمة العسكرية يومئذ فمعناها الموت ومن نجا منه فبالمصادفة وطول الاجل . فكثرت لذلك العمائم الخضر ، وكانت شعار الاشراف في بعض القرون والدول ، واصبح الامر على غاية الأخلوقة وكان اكثر من خمسة وتسعين في المئة من ارباب هذه العمائم اميين جهلاء لايعرفون حراماً من حلال ولا يحترفون حرفة يعيشون بها ليس لهم من دعواهم او الدجل والشعوذة .

ولو جئت تسأل احد أصحاب الخضر اي صفة بقيت لكم من صفات الشرف بالله عليكم ، وهل هـذا الذي انتم عليه هو شرع جدكم الذي جاء به للابيض والاسود والاحمر والاصفر ، وابلغه لآل بيته وللامة اجمع ؟

وما اعجبتني قط دعوى عريضة ولو قام في تصديقها الف شاهد



ولاة العثمانيين

جاء من الولاة العثمانيين في العهد الاخير من اخلصوا في خدمة الولاية التي وسدت اليهم وفي مقدمتهم مدحت باشا في سورية فانه كان مجدداً وحرص على ادخال ولايته في التمدن وعمل في اشهر ما لم يعمله غيره في السنين الطويلة ومنها ما كان ينكره بعض المتعصبين ومنها ما كان يصفق له بعض الاذكياء المنورين ولو كانت نية الدولة يومئذ ان تدخل في المدنية حقيقة لتركت امثال هذا الرجل سنين في عمالته يعالج اصلاحها ولكنها كانت تبيت له القتل وقد قتلته بالفعل في سجن الطائف وقيل انه قال ذات ليلة في مجلس شراب : أنا خالع الملكين وأبني لهما ثالثاً » وأظن هذا الكلام مما تقوله عليه المنافقون ولو لم يكن لمدحت باشا في الديار الشامية إلا أنه وضع أساس التعليم الابتدائي فيها لكفاه منقبة . وجاء الصالحون من الولاة وما كانت اعمالهم توازي شهرتهم ومنهم حمدي باشا ورؤوف باشا وغيرهما . ومن اعظم ولاة العثمانيين في العراق داود باشا عمل في العلم والصناعة ماعمله محمد علي الكبير في مصر إلا أن عمل هذا استمر وعمل داود باشا انقطع بعده كما انقطع عمل مدحت باشا في الشام .

غش شعراء

القيت محاضرة في حلب (٢٣ شباط ١٩٢٣) كان موضوعها سيف الدولة قلت فيها انه كان الى جهاده في غزو الروم والدفاع عن بيضة الاسلام ظالماً مسرفاً في المال يستصفي أملاك الرعية ويصادر أموالهم ويبني الدور والقصور ويظهر من الابهة والبذخ ما يعجز عن مجاراته ملوك العباسيين والامويين والفاطميين فانه احتفل بعرس أولاده وأولاد أخيه فانفق فيه سبعمائة الف دينار توازي قيمتها بسكة زماننا سبعة ملايين دينار ، وان قاضيه أبو الحصن كان إذا مات أحد أخذ تركته لسيف الدولة وقال : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك . وكان يصادر التجار بألوف الالوف . ونقلنا ما قاله ابن حوقل من أن بني حمدان أكبوا على نصيبين ، وكانت تضمن بمائة الف دينار ، بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى أن حمل ذلك بني حبيب وهم بنو عم بني حمدان الى ان خرجوا بذراريهم ومواشيهم وثقلهم في اثني عشر الف فارس إلى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وعادوا الى بلاد الاسلام على بصيرة بمضاره وعلم باسباب فساده ، وقلوبهم تضطرم حقداً فلحق بهم كثير من المتخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلاد الاسلام وخربوا الضياع ودكوا أسوار المدن .

افضت في هذا كما افضت بافضال سيف الدولة على الآداب حتى صارت حضرته بمن ضموا اليها من عظماء الشعراء والادباء والعلماء كحضرة بني العباس فاستعظم بعض أدباء الشهباء ما قلته واستبعدوا أن يكون سيف الدولة على ما وصفت من ظلم واسراف ، والسبب في انكارهم انهم تشيعوا بما قاله ابو الطيب المتنبي في سيف الدولة فظنوا كل ما قاله فيه حقاً وصدقاً . وفاتهم اغراق الشعراء على الدهر في المديح والهجاء الى ما لا يقبله العقل . خلع المتنبي من الصفات على سيف الدولة اضعاف أضعاف ما يستحق فجازت

مبالغاته على من يأخذون الامور على ظواهرها بدون نقد الشعر . عاطفة وأدب لا تؤخذ منه حقيقة الرجال ولا تاريخ بلادهم الشعر كذب والتاريخ حقائق وشتان بين المذهبين . وسيف الدولة حوى شخصه النقيضين أيضاً وبحق ما قاله فيه مسكويه لما مات : « بكت الأمة منه وعليه » .

في خمسين عاماً تبدلت أساليب الشعر ومراميه وأخذت النفوس تشمئز من سماع شعر المديح ، وتتأفف من المداح ، حتى كاد هؤلاء أن لايجدوا من يستمع الى نفاقهم ، وبطل ذاك الزي البالي الذي كان قروناً لايعرف من الشعر غيره ولا يهتز الاغبياء والاذكياء من الامراء لسواه . واليوم ترى أكثر الأدباء يستظهرون من الشعر ما فيه وصف الطبيعة او ما ضم نكتة وغزلاً وقل أن يحفظوا شعراً فيه اكاذيب ، كان الشعراء يستجدون بها ويصفون العادل كما يصفون الظالم وينوهون بالجاهل ولا ينوهون بالعالم فالحمد لله على هذا التوفيق في تبدل الافكار ومعرفة الأدب الحق .

الجنرال سبيرس

هو رئيس البعثة البريطانية التي دعيت باسمه وانتدبت على سورية ولبنان بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٤ وهو أول وزير بريطاني في هذه الديار . عطف عطفاً عظيماً على السوريين واللبنانيين وكان أول من عاونهم على نيل استقلالهم فله المنة العظمى عليهم لنزعه ربقة الاستعباد الفرنسي عن أعناقهم ،وامتاعهم بحريتهم السياسية وسيادتهم القومية ، ناضل بشخصه وماله حتى تم مصير بلادنا كما أراد وأرادت دولته .

في رجال السياسة من يعملون سراً ومنهم من يعمل جهراً والجنرال سبيرس المحبوب عمل لتحريرنا في السر والعلن كل ما اقتضى الواجب لانصافنا من خصمنا . فهو من الطبقة المختارة من السياسيين الذين يحسون ألم المتألمين من الشعوب ،ويسخرون أنفسهم أو تسخرهم حكوماتهم لامتاع المستعبدين باستقلالهم .

تفضل هذا الجنرال ودعاني الى قصره بدمشق مع من دعا من رجال سورية فتعرفت اليه والى السيدة قرينته الفاضلة واعجبت بأدبه وتواضعه وصحة احكامه وسلامة مقاصده ثم اقتضت عادتي الابتعاد عن مجلسه العالي حباً بالا أكون شاغلاً وقته الثمين الذي كان يصرفه في خيرنا .

لم يسعدني الحظ ان ادرس سيرة كثيرين من عظماء الانكليز مع شدة اعجابي بهم ، والقليل الذين امعنت النظر في حياتهم أنبأوني بان رجال بريطانيا العظمى نمط آخر من رجال الدول . ولا امثل لذلك الا برجلين كبيرين احدهما في الادارة وهو لورد كرومر عميد انكلترا في مصر ، والثاني في العلم وهو السير ويلكوكس المهندس الذي اسدى لمصر والعراق يداً لا تنسى لاغناء القطرين . لا جرم ان امة تنبغ مثل هذه العظيمين في قرن واحد حرية ان تعد امة عظيمة . وصاحبنا الجنرال العظيم هو أيضاً من افراد الدهر في السياسة الذين يلحقون بلورد كرومر والسير ويلكوكس . متعه الله بالصحة واجرى كل خير للانسانية على يده الكريمة .

الدم الطاهر

فرّ السيد عبد الرحمن الكواكبي من حلب الى القاهرة في العقد الاخير من سلطنة عبد الحميد الثاني العثماني خوفاً مما كان يتوقعه من جور الاتراك، وجاء مصر ونشر في جريدة المؤيد مقالات في الاستبداد كان لها وقع حسن عند أعيان البيان في ذاك الزمان، لما حوت من امتاع وابداع .

ثم رحل الى اليمن يحمل فكرة انشاء دولة عربية ، وقاسى أنواع العذاب ، وقطع صحراء الدهناء الصعب اجتيازها على الطيور فضلاً عن الآدميين ، فبلغ السلطان خبره وبث العيون والارصاد للقبض عليه ، فسلم السيد من أيدي زبانية الملك وعاد الى مصر ، وهنا نشأت لي معه صداقة وأخذت من تجاربه وحكمته .

وجاءني ذات ليلة يسمر معي في داري مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرني في أمر عظيم ، قال إن الخديوي عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاستانة ، وكان الخديوي يصطاف فيها، ليقدمه الى السلطان العثماني ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادّة ، ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب عليّ وعلى رفيق بك ابداء رأي في موضوع جدّ خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا أنه حائر في أمره بين القبول والرفض ، وأنه شعر بالامس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا .

وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي الى داره فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول قم يا كرد علي فان صديقك أبي مات ، فاضطربت اضطراباً قلّ أن

اضطربت مثله ، ودخلت على الرجل فسجيته بيدي ، ومن الغد دفناه بمشهد حافل وأبنته الصحف تأبيناً قدرته فيه قدره . شغل أصحابنا هول الفجيعة ، وذهبوا الى أن الكواكبي مات مسموماً واستبعد بعضهم ذلك . وكان الناس يتهمون عبد الحميد بأنواع من التهم ، وكان بعض من اقتربوا منه يبرؤونه مما يرمى به . والغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبي وأراد القضاء على أفكاره المضرة ، فارسل مدير معارف بيروت عبد القادر القباني يأخذ اوراقه ، ويرضي آسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة ، أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التي بدأ بوضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته ، واسمه (العظمة لله) ، وكان سياسيا كسائر ما خطته يمينه .

فقدت الامة العربية بموت الكواكبي رجلاً قوي الشكيمة ، نادر الشكل في الرجال ، بعمله وبعد نظره ووطنيته . غادر هذه الفانية قبل أن يستمتع بجهاده (كان في الثالثة والخمسين من سنه) وكان يعرف من انحلال المملكة العثمانية ما لم يعرفه إلا أفراد ، ورزق من الشجاعة ما عز وجوده في الخلق ، وكان يعتقد أصدق اعتقاد في دعوته ، ويتجلى النبل في حديثه ، والاخلاص في حركته . ولا عجب فهو سليل بيت شريف أخرج للامة علماء أجلاء على الايام ، ومنهم السيد مسعود الكواكبي شقيق السيد عبد الرحمن ، وكان هذا يقول لي أن شقيقه مسعوداً أعلم منه ، وقد كتب لي الحظ الاوفى أن زاملته سنين في المجمع العلمي العربي ، رأيته فيها ورصفائي مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال تراجمهم العظيمة ، وكانوا ممن اعتز بهم العلم وارتقى الفكر الاسلامي .

حللت روح هذين الحبيبين الشقيقين والحبرين الكاملين فما سقطت فيهما على عيب من عيوب الآدميين ، جل الصانع ! وسجلت أنهما تقدما جيلهما في كل معاني الفضل والنبل ، وما أسفًا إلى أن يعيشا كأكثر أبناء الفقهاء عيش التوكل والخنوع ، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويجمعون من حطام الدنيا ما وصل الى ايديهم . الدم الطاهر ينمّ عن صاحبه كيفما تقلبت به الاحوال ولا يحتاج الى من يدل عليه (ان غاب عنك أصله فدلائله فعله) .

الافراط في الكرم

قال لي الاخ فارس الخوري أنا أعرف أن رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) صديقك ويستمع لنصائحك فهلا نصحت له بالكف عن هذا الاسراف الذي يسرفه عاله ، ولسان حاله انه المجد ، وأي مجد إذا جاع ابناؤه بعده ؟ فقد باع بالامس غيضة حور بألف ذهب عثماني ، واظنه انفق اكثر ثمنها حتى الآن . فقلت له انك لعرف أن رئيسنا عاش في بيت مارأى فيه غير المكارم والصدقات ، فقد كان أبوه كريماً ولكن بمقياس صغير ، أما جده فكان مضرب الامثال بكرمه ، فرجل نشأ هذه النشأة يستحيل ان يستمع لنصحي أو نصح غيري . ثم أني اعلم ويعلم العارفون عن يقين ان الرئيس انفق في سبيل القضية ارثه من أبيه وانه جاءته ايام كان فيها مضيقاً جداً ، وهو لايقطع صدقاته وادراراته عمن اعتادوا التبلغ عاله ، فكان يستدين وينفق على بيوتهم ، فالكلام في الاقتصاد لايجدي فتيلاً مع هذا الرجل ، وكل ميسر لما خلق له .

السيد خالد العظم

جاءني أحد كتاب الصحف الدمشقية يلتمس حديثاً ينشره في جريدته فاجبته الى طلبه ، وان كنت من أكره الناس لمثل هذه الاحاديث ، ولا يضايقني أكثر من الصحافيين والمصورين . وجرنا الحديث الى ذكر رئيس الدولة السابق السيد خالد العظم فسألته ماذا تعرف عنه ؟ فسكت كأنه لا يعرفه إلا بالاسم فقلت له وانت تشتغل بالمصالح العامة ؟ اما بلغك ان السيد العظم عف عن راتب الرئاسة ولم يدنس بالنفقات المستورة ؟ وانه انفق من ماله عشرين الف ليرة سورية على الولائم والدعوات باسم سورية مدة سبعة أشهر ، وكان مثال الحاكم العادل في رياسته دفع غوائل كثيرة عن بلده ، ومنها لما نقل مدير مصرف سورية ولبنان أموال فرع دمشق الى زحلة ، وبالطبع كان موعزاً اليه بعمل ذلك من المحتلين فهدده ابن العظم أن يعيد الاموال في الحال والا يرسله الى السجن فاعيدت ، عمل هذا وقال الذين ادعوا ان الاموال تحفظ هناك ليس بصحيح فهذه اموال سورية إذا نهبت فلينهبها ابناؤها الذين جمعت منهم فهي مالهم لا ينازعهم فيها منازع . والثانية أن الانكليز لما احتلوا سورية وطردوا الفرنسيين الفيشيين منها جاءه أحد رجالهم يحمل دفتراً فيه مئات من أسماء أهل دمشق وغيرها وطلب اليه نفيهم او تسليمهم للبريطانيين بدعوى انهم أعداء بريطانيا العظمى فتبسم السيد العظم وقال لمخاطبه ليس عندكم هنا أعداء بل أحباب ، وما رُمي به هؤلاء المتهمون لا اصل له الا في مخيلة اصحاب الاخبار وكتبة التقارير ، وتناول الدفتر منه وطواه ، ولم يظهر عليه احداً أسدل الستار عن تلك المأساة المنتظرة هذا الى غير ذلك من مآثره في

نهضة البلاد الصناعية والاقتصادية وكان كل مايأتيه في حياته يقصد به النفع العام . ينفق من ماله مغتبطاً ولا يقول ولا يتبجح . وهذه الامور بلغتني بعد حين من بعض الاصحاب وذكرتها له فسكت خجلا افرط ادبه وتهذيبه .

هذا الى صدقاته السرية والرواتب التي يدرها على ذوي الستر من المحاويج والمعوزين فلو كان على رأس ابن المظم قبعة لرفعتم من شأنه ولغنيتم بمآثره ولكنه مسلم وعلى رأسه طربوش وعجيب ان تنسوا أو تتناسوا مثل هذه الشخصية ، ولكن زامر الحيّ لاالطرب مزامره .

اختيار الوزراء

لم تظهر لي الحكمة في نصب وزراء ضعاف من الفريق الذي عرا من كل تجربة في الادارة والسياسة . والأحجى الا يعهد بوزارة الا لمن سبقت له خدمة في أعمال حكومية لا تقل عن عشر سنين ، أو من أسلم الى التمرين مدة طويلة فأثبت خلالها كفاءة عملية مضافة الى ما هو مجهز به من شهادات

بالجهل لا تدار وزارة بل لا يدار ديوان صغير ، وعجبنا أن رأينا في هذا العهد تساهلاً في اختيار الوزراء ، وغاية رجائنا أن يكون هذا الحكم سالماً من الشوائب ، تدير دفته فئة صالحة من المصطفين الأخيار . ونحن أحرار في اختيار الأصلح للخدمة لا تنازعنا هذا الحق دولة ولا جمعية ولا حزب ، وعلينا تبعة من تقرب ونقصي ، ومصلحة الامة فوق كل مصلحة . ومن يتحرى الأنسب يظفر به ، ومن حرص على الحسن يصل اليه .

قد عرفناك باختيارك اذ كا   ن دليلاً على اللبيب اختياره

المؤلف الشاب

الى ابني الروحي صلاح الدين المنجد : عجبت لما نزلت لك عن صورة مخطوطة من كتاب رسل الملوك لابن الفراء وكان عليك ان تعجب ان لم ادفعها اليك . كنت في كل زمن أرى الضنانة بالعلم ابشع انواع الضن ، والكتاب سواء نشرته أنا أو طبعه غيري فالمهم ان يصدر للناس وينتفعوا بموضوعه الطريف . وقد وفقت ونشرته في حلة انيقة ، وعلقت عليه ما زاده امتاعاً ، واتبعته بملحق اماط النقاب عن حقائق جمة جاء أكثر فائدة من الاصل . حليت الغامض وبسطت المجمل فجزاك الله خيراً عن العلم .

اني ما زلت اعجب بمن يعرف واجبه ، ولو كان في مؤلفينا الشباب كثيرون مثلك يقومون بواجبهم لكانت الشام اليوم ارقى من مصر . سر في سبيلك ولا تتاون لحظة عن متابعة ما أنت بصدده ، فقد استعددت لما تخوض عبابه وستستعيد مجد الاجداد وتثبت انك ابن عبد الله شيخ القراء في دمشق عليه الرحمة .



كبار الصحافيين

اقيمت في دار الاوبرا الملكية في القاهرة حفلة لتأبين صديقي الاستاذ داود بركات رئيس تحرير جريدة الاهرام ، وتفنن الخطباء والشعراء في ذكر صفاته وذكروا فجيعة الامة به ، واثبتوا انه ممن وقع الاجماع على حسن بلائه في خدمة مصر نحو اربعين سنة ، اخلص لها في سره وجهره ونفعها بنبوغه وصفاء نفسه وحبه للخير .

وقد اقترحت في تلك الحفلة وضع كتاب يلم فيه بجهاد المؤبن ويذكر طرف من منازعه ونموذج من مقالاته ، وبعض آراء كبار رجال الفكر فيه ، فوعدني صاحب الاهرام يومئذ وكان حاضراً بانفاذ هذا المقترح . ومضت اعوام ومات صاحب الاهرام والكتاب لم يصدر ، ونسي داود بركات فلا يذكره اليوم الا بعض من عرفوه ، وهذه عاقبة التعب في الصحف اليومية يذكر الصحفي ما دام حياً والقوم محتاجون لقلمه ، فاذا مات ينسى في امته التي ينسى فيها كل شيء بعد حين .

قال لي داود بركات عليه الرحمة في سنة ۱۹۰۱ ونحن في المحجر الصحي في بيروت وقد بعدنا عن مصر وانقطعت اخبارها عنا ثلاثة أيام ، والقلق باد على وجهه : بالله عليك لم لا لعنيني انباؤها وكل ما فيها يطربني ، أطرب لعشرة اهلها واعد السعادة في سعادتهم واطرب لنغمتهم ولهجتهم ولسكونهم وحركتهم بل أطرب لحيوانهم وجمادهم .

هذا الرجل الذي يحمل مثل هذه العواطف الشريفة لمصر اصابه ما أصاب الصحافي ، ينوه به في حياته فاذا غاب عنهم يقلون من ذكره اليوم بعد اليوم ولو كان من عيار هـذا العظيم بعلمه وأدبه وأخلاقه وصدقه ، ومن أجل هذا كنت كثيراً ما أقول لمن صرفوا جهودهم في الصحف وكتبوا فيها

المقالات الممتعة وافادوا بما كتبوا أدب العصر وسياسة العصر امثال داود بركات وشكيب ارسلان وخليل مطران وامين الرافعي وامين الجميل وخليل زينيـة وابراهيم سليم النجار وجبران تويني ويوسف العيسى ونجيب الريس ومعروف الارناؤط وامين سعيد واضرابهم من الشاميين والمصريين — ان يدخروا اشيـاء من محصول اقلامهم لتكون لهم ذكرى ولمن بعدهم تعليماً وسلوى .

دهاء الانكليز

يوم ضرب الفرنسيس مدينة دمشق في الثورة السورية كان احتجاج قناصل الدول شديداً جداً على فرنسا ، وكان العامل الأكبر فيهم صديقي المستر سمارت قنصل بريطانيا العظمى ، والى انتهى هذا الاحتجاج باستدعاء القناصل كلهم من عاصمة الشام فقد أورثهم احتجـاجهم مـكانة عظمى لتألمهم للظلم ، وانـكارهم تخريب مدينة عظمى مثل دمشق لأسباب تافهة .

والانكليز لا تدانيهم بدهائهم امة ، وقد اشتهروا عندنا بانهم جد اوفياء لاصحابهم ليس من السهل لديهم تركهم وشأنهم بعد الصداقة ، ولا يسارعون الى وضع ايديهم في ايدي غيرهم ثم ينسونهم كما يفعل الفرنسيون . فهم يتريثون في صداقتهم ويتريثون في عداوتهم . وهذا من بعض ما خصوا به من الصفات .

كلمة حق

سألت الشيخ سليمان الاحمد عالم العلويين في عصره عن تاريخ العلويين فاجابني لايوجد (ويا للاسف) وثائق مبعثرة يصح الاعتماد عليها بمثل هذا الموقف الا مايؤخذ من أفواه الرواة واغلبهم اميون ، والتاريخ يتطلب الحقائق المرة والخاصة الموثوق بهم كانوا لايعبأون بالتاريخ عياً أو زهداً قد لايحمدهم عليه اللاحق ولله في خلقه شؤون . وقد استكتبت لكم منه ماقدرت عليه وعلى فضيلتكم الاستنتاج والتطبيق .

اما الكتب فليس هنا منها مايشير الى شيء من ذلك الا مايكتب في تاريخ الكتاب بان يقال وفي هذه السنة حرق الوالي او المتصرف (بدون ذكر اسمه) المقاطعة الفلانية وقتل المقدم الفلاني دون أن يتعرض لسبب ذلك الا مايتخيله بانه من فساد فلان المقدم او الآغا او نحوه . وهذه الكتب اما قصصية ضعيفة العبارة لايؤبه لها . أو مذهبية يضن اهلها حتى على الشمس برؤيتها ، سواء أكانوا على هدى من امرهم ام على ضلال . والكتب القديمة النفيسة ذهبت طعمة للنار والتراب من الاهوال والويلات التي مرت في القرون الاربعة المتأخرة التي يؤلم ذكرها ولا خير في نشرها .

وفي هذا القرن كان أهل الحاضرة يعدون مايفعله جهلة العلويين بفتيا علماء الدين فيعصبونه بهم لدى الحكام ويغرونهم بهم وبالرؤساء ويحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة . وكان الدين أعظم الوسائط التي توصل الى هذه الوحشية والبربرية (ومن جري ذلك المصاب العظيم الذي وقع على آل سعيد البهلولية من أشرف وأجل بيوت العلويين في حادث سنة ١٢٩٥ فاطلب تفصيله من صديقكم بدوي الجبل) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية بل على وجهاء البلد ورؤسائهم

السنيين وعلمائهم ثم على أهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا لما بين عشائرهم من الضغائن والاحقاد والغارات يسارعون الى الدخول بخاطر الاغوات ثم بخاطر الحكام عن ايديهم . ومن تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم وبعشيرته على عدوه ، ولا تسل عما تفعل الهمجية ومتى دوخت تلك العشيرة وقتل اشرافها وذلت عاملت الحكومة العشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك حسبما تقتضي سياسة التفرقة والاحوال . ولا أدري الى أي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله ان يحسم أسبابها بايدي المصلحين العظام المخلصين امثالكم والتبسط بشرحها لايجدي اولا ينتج الا ان الشرقيين هم السبب الاعظم في بلاء انفسهم وحجة الله فيه على المتسمين بسمات الدين وتلك حزازة في نفوس المصلحين .

والذي أراه أن قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلويين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكلبية وكانت الحكومة اذا احرجت جرّدت العساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت فاذا رجعت العساكر عادت العشائر الى ما كانت عليه يضبط الحاكم الحازم جماحهم . ومتى بدل بحاكم ضعيف الادارة أو مرتشٍ عم البلاء من الرؤساء الفسدة والاشقياء الجهلة .

لما حكم ابراهيم باشا المصري دوخ البلاد وقطع دابر أهل الفساد وضرب الامن اطنابه بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها سلاب ولا قاطع سبيل فرتع الانام في بحبوحة الامن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والانصاف . فلما دالت دولته حصل من اختلال الاحوال مالا يحصره مثال ومنه ماترى ضمن الرقعة المكتتبة فعذراً ايها الاستاذ العلامة فان التاريخ مظنة الإغفال والاخلال من كل الرجال فكيف بالعجزة ضعفاء العبارة مثلي .

مجمع فؤاد الاول

« يامعالي الرئيس ويا اخواني الاعزة

اليوم يودع بعضنا بعضاً ويتفارق الزملاء الى العام المقبل . واني لمغتبط ان كان لي الحظ الأوفى بان رافقت المجمع منذ نشأته ، أيام كنا نجتمع اجتماعات خاصة في احدى قاعات مجلس النواب المفاوضة في قانونه ، وذلك قبل أن يوافي القطر زملائي الاجانب . ومن فضل الله ونحن في آخر دورة الانعقاد الرابع أني لم أتخلف طوال هذه المدة يوماً عن الاشتراك في الجلسات واللجان .

« يا سادتي ان سروري بما وفق المجمع اليه من الاعمال لا يحول دون أن أبوح لكم بما كان يجول في خاطري ، خصوصاً ونحن كأبناء بيت واحد يجب على كل فرد منا أن يعمره بالعمل الصالح . وهذا ما يقيم لي العذر على تصريح ربما كان من الاحجى الامساك عنه . ولكن هو الرأي قد ينفع إذا صدر من صميم القلب . ودخول المجمع في الدورة القادمة في طور جديد يستدعي اعترافنا بقصورنا ، ان كان يصح أن يسمى قصوراً .

« أريد ان اقول اننا في الاعوام الماضية قد أكثرنا على مارأيت من القول في الاحايين ، واشتدت بعض مناقشاتنا الى حد كان يجزىء بعضها ، وربما استغرق الكلام على لفظ واحد ساعة أو بعض ساعة ، نخرج خلالها قليلاً عن الموضوع المطروح للنظر ، ويدخل في صلب المناقشة ما لا يتصل بها بسبب ، فضاع بذلك وقت كان الواجب صرفه في السير الى الهدف الاسمى الذي نرمي اليه ، واذا عرفنا أن مجموع ساعات اجتماعاتنا العامة في السنة لا يتجاوز السبعين ساعة وجب علينا أن نقتصد في كلامنا وحركتنا .

« أنا لا أوجه بهذا القول ملاماً الى احد ما دمنا كلنا نهتم لنجاح ما وسد الينا من عمل ، وما دام بلاء كل عضو معروف في الحاضر والغابر ، بيد أني

والحق رائدي فيما أقول ، كنت أرى الجلسات لا تضبط ضبطاً محكماً ، وان الاحاديث كانت تتعاور فيها في آن واحد فيختلط الكلام ولا يستقصى ما يقال برمته ، مما حال دون اشتراك بعض الاخوان في جميع المناقشات ، وهي تحتاج قبل كل شيء الى هدوء وروية .

« ثم إن من المسائل التي أحب المجمع خوضها ، ورسم بعض الخطوط فيها ولم يصل الى نتيجة منها مسألة تصحيح الاغلاط الجغرافية ، وقد كان لعهد أعضاء لجنة الفنون منذ السنة الاولى أن يصححوا الاغلاط الشائعة ، وفوض اليّ ارجاع الاعلام الاندلسية والصقلية الى مصطلح العرب ففعلت ، ورفعت التقرير الى ادارة المجمع والى الآن لم يصدر أمر الرياسة بالنظر فيه ، مع شدة الحاجة الى مثل هذه الاعلام ، والكلام يجري عليها كل يوم في الصحف .

« أغفلت الرياسة على ما يظهر هذا التقرير اغفالها تقريري الذي قدمته منذ أول الدورة الثانية وقد ضمنته خمسمائة كلمة في الشؤون العامة وشرحتها شرحاً خفيفاً ووضعت لها ما يقابلها باللغة الفرنسية ، وما عرفت لهذا الاغفال علة ودعاني الخوف من أن يأمر الرئيس بطرحها في سلة المهملات الى أن تزودت بنسخة منها . هذا مع ان اقرارها يزيد في محصول المجمع السنوي من الألفاظ ، وأنا لا أقصد بها ظهوراً ولا شهرة .

« ثم ان المعجم الذي هو ضالة المجمع المنشودة لم نسمع عنه سوى ما كتب في المحاضر اياماً وقضينا في الاخذ والرد ساعات لم تسفر عن أثر عملي . وما أدري ان كان بدئ بالعمل به ، أو هو لا يزال في عالم الخيال . واذا لم يبدأ به الآن فمتى يبدأ . واذا استحال اليوم وضع المعجم التاريخي وكان من الصعب تأليف المعاجم السهلة للمبتدئين والمنتهين في اللغة فلا اقل من ان ننشر بضع كراريس على حروف المعجم في الالفاظ التي وضعها المجمع لتتداولها الايدي ويعرف المجمعيون مقدار وقعها من نفوس العارفين في الأقطار المختلفة .

« اشار الى بعض هذه الامور زميلي الاستاذ نالينو في جلسة الامس لان هذه المسائل هي من العمل الرئيسي الذي انشئ المجمع الملكي لاجله، لا احياء الادب العربي الذي يسهل القول به ويتعذر اي تعذر عند التنفيذ. وكل من عانى نشر الكتب القديمة يعرف قدر الجهد الذي يبذله كل من يطمح الى نشر نصّ قديم . ومن أعرف العلماء بهذه الامور اخواننا علماء المشرقيات ، فقد يقضي الواحد منهم السنين ولا يخرج بضع كراسات رأيت احدهم نشر من كتب العرب بمفرده ما لمجز عن نشر مثله المجامع العلمية بمجموعها في السنين الطويلة ، وما ذلك الا لأن الرجل أخصى في هذا النوع من المعارف ، ومرن طويلاً على النظر في كتب الاقدمين .

« ثم ان مجلة المجمع لم تصل منذ انشئت الى كثير ممن يرجى انتفاعهم بها . وقد ملئت ، ولا عار في الحق ، بأشياء كان الاولى ان تتجرد منها ، واستنزفت صفحاتها على سبيل الاستئثار أو الاثرة ، وحرم بعض الرفاق من المؤازرة فيها . والمقالات والتآليف بامتاعها وفائدتها لا بطولها وكثرة حروفها ، والمجلات تسمو بكثرة الايدي العاملة فيها . ولكم كنت اتمنى لو اصدر المجمع مجلته في مئة صفحة منقحة موجزة وكف عن نشرها في أربعمائة صفحة وطبع منها عشرة آلاف ووزعها مجاناً .

« ساقني الى ماقلت الغيرة على سمعة المجمع والمعاونة على ايصال فوائده الى من يجب ايصالها اليهم . وكل منا ولله الحمد غني عن طلب التمجد بما له من اثر وسابقة . ولذلك ارجو ان يحل كلامي محله من الاخلاص وان يثبت في محضر هذه الجلسة الاخيرة ليكون لنا منه بعض الذكرى في السنين المقبلة ، فندخل الكمال على عملنا ونجوده اكثر مما جودناه ، ونقوم حق القيام بما يفرض علينا لخدمة العرب والعربية . »

هذه صورة التقرير الذي اردت تلاوته فمنعني رئيس المجمع توفيق رفعت باشا ، بما عرف فيه من ادب ، من اتمام قولي ، وامر كتاب الجلسة ألا يثبتوا في المحضر شيئاً مما قلت .

ومن الغريب ان ما شكوت منه في تلك السنة لم يقو الرئيس الجديد على ملافاته والى ساعة دفع هذه الاصول للمطبعة لم يصدر المعجم الوسيط ولا غيره ولم تصدر مجلة المجمع منذ تسع سنين . وجلالة ملك مصر كلما تشرفت بالسلام عليه يقول لي ولبعض زملائي الاجانب ان مجمع دمشق يعمل اكثر من مجمع مصر ، وكلما سمع ذلك أحمد لطفي السيد يمتعض ويغتاظ غيظ الاسير على القد » .

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

شهادة ملك بملك

قال الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الاردن في مذكراته : دعت الحكومة العثمانية امراء البيت العثماني لضيافة أقامتها كان الغرض منها الفتك بآل عثمان. وقد نمى الخبر على حقيقته الى السلطان عبد الحميد الثاني قبل جلوسه فاعتذر ولم تظفر الحكومة بمرادها .

وقال في السلطان عبد الحميد هذا : ولقد زعم الناس ان عبد الحميد الثاني كان ظالماً . لقد كذب الناس والله لم يكن بالظالم ولكنه الحذر والاحتياط . ولقد عرف بعد ذهب أنه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم الاعدام في محكوم الا مرة واحدة ، وكان المجرمون يتركون في السجون حتى يدركهم الموت وأما الذين ينفون من بلادهم الى اسطنبول أو من اسطنبول الى الخارج فهم اولئك الذين عرض عليه أنهم أهل خلاف عليه أو على سلطانه ، فيخرجهم الى مكان لا يعرفون فيه ، فيتقي دولته الفتن بهذا التدبير . وقال في الشام : رفعت الرايات العربية بواسطة الأيوبي (شكري باشا) وموافقة أحمد جمال باشا (لعله جمال باشا المرسيني) القائد التركي المعروف ، وبارادة سلطانية اعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية (كذا) .

الخزانة التيمورية

اشتهرت خزانة العلامة أحمد تيمور باشا في الشرق والغرب لانها انتقاء عالم قضى حياته في جمعها والتعليق على امهاتها ووضع الفهارس التي تسهل الأخذ منها ، كانت أولاً في دار صاحبها في عين شمس من ضواحي القاهرة بجوار دار استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده فلما انتقل هذا الى جوار ربه شق على تلميذه تيمور أن يسكن تلك الناحية فنقل خزانته الى قويسنا من عمل المنوفية احدى مزارعه ، وقد دعاني واستاذي الشيخ طاهر الجزائري لنصرف أياماً في قويسنا فقضيناها في البحث في نوادر كتبها يقرأ صاحبها من فهرستها اسماء المخطوطات ، ويرجح الشيخ طاهر النادر والاندر منها ، وأنا أكتب ما يقر عليه القرار حتى تجمع لنا من ذلك مقالة ممتعة في وصف تلك الخزانة العظيمة ، وقد رأيت الخزانة قريبة من عشش الفلاحين في قويسنا وقدرت ان النار ربما تلتهم قصب بيوتهم فتسري الى البيت الذي فيه الخزانة ، فلفت نظر صاحبي الى هذا الخطر فما عتم أن يشرني بانه ابتاع أرضاً في الزمالك من أحياء القاهرة وهو على ان يبني فيها داراً لخزانته ، وما هي الا اشهر حتى تم البناء ونقلت الخزانة الى الدار الجديدة ، ووقف صاحبها أفدنة يصرف ريعها على خزانته . ولما توفي رأى ولداه اسماعيل باشا ومحمود بك ان ينزلا عن الخزانة لدار الكتب المصرية تجعل في زاوية منها فقل الانتفاع بها ، وسمعت هذه السنة ان وكيل دار الكتب المصرية اقترح أن تجعل في قلعة الجبل فنقلت الى هناك وبطلت الاستفادة منها ، وما نفع ذلك الوقف وما وقف الواقف .

───

الاعتراض والدعوى

كنت في شرخ الشباب آخذ العلم عن شيوخ عظام في بلدي على طريقة تخالف الطرق المتعارفة إلى ذلك العهد ، فكان لقائي لهم ، بعد تلقي ما لا بد من آخذه من المباديء ، لقاء اخوان لهم مجلس يجمعهم ، ورابطة تؤلف بينهم ، والندي لايخلو من علم ودرس وتصحيح ، ونقد سياسة ، وايراد نكات وفكاهات ، فكنا تارة نقرأ اعجاز القرآن للباقلاني ونعارضه على نسخ مخطوطة ، وأخرى نتدارس الذريعة الى مكارم الشريعة للراغب الاصفهاني ونصححه على نسخ قديمة غير مطبوعة ، وآونة ندرس مقدمة ابن خلدون درس تدبر عميق وشرح وتعليق .

وكان في البلد عالم جليل يغلب عليه التصوف ، يقرأ في داره لبعض تلاميذه الدروس المعتاد القاؤها عند مشايخ ذاك العصر ، وكان منهاجه واسعاً مغربا ، والكتب التي يدرسها من أطول الاسفار في فنها . فدخل الغرور بعض طلبته وغرّتهم أسماء الكتب التي يحضرونها على شيخهم (المطول والاطول) فراحوا يزعمون أن من لم يقرأ هذه الكتب ليس بشيء ، وترامى الينا أنهم يهزأون بالكتب التي نقرؤها في مجالس شيوخنا ، وتكرر اعتراضهم علينا ، وعلى حسن أخلاقهم وتصوفهم ، كانوا يستخفون بما ندرس وبطريقتنا بالدرس ، فضاقت صدورنا ، وصدور الشباب ضيقة ، فاطلقنا عليهم اسم (جمعية الاعتراض) ولم ننبزهم باكثر من هذا ، لانهم كانوا من اصحابنا وجيراننا ثم اعرضنا عن اعتراضهم ، وشغلنا بدروسنا ومطالعاتنا .

وما فتئ جماعتنا يتابعون النظر والدرس حتى فرق الموت بين الاساتيذ والتلاميذ ، أما أصحاب الاعتراض فانفضوا من حول شيخهم بعد حين ، واشتغل كل واحد منهم بوظيفته وتجارته وزراعته ، ولم يعاودوا الدرس ولا عادوا يُعملون عقولهم بما تعلموا من الدساتير ، ولا حدثتهم انفسهم بان يتبعوها بشيء من العمل ، ولا بالرجوع الى ما صرفوا فيه أجمل أيام شبابهم من تصفح المطولات . ومضى لهم أربعون سنة أو تزيد لم يسمع لواحدهم خلالها صوت في جامع أو ناد أو حفل يخطبون فيه أو يحاضرون ، ولا عهد لهم أن أنشأوا رسالة أو وضعوا تأليفاً أو نظموا قصيدة يضمنونها أدبهم وعواطفهم لا ان يكتبوا مقالة يتطلبون من ورائها اصلاحاً أو يبثون فيها فكراً . وندموا فيما نظن ، وهم الاذكياء ، على اضاعة اوقاتهم في نقد غيرهم ، وخجلوا من انفسهم لاعجابهم بها أيام الطلب ، وما أجدى عليهم اعتراضهم الا أنه أخرهم عن اللحاق بالعاملين .

أما تلاميذ أولئك المشايخ الذين جعلوا العلم مجلس أدب ، ومعملاً فيه العمليات أكثر من النظريات ، فقد برزوا الى ساحة الحياة وألفوا ووعظوا وتخرج بهم طلبة واشتهروا بدون أن ينظروا في المطول والاطول ، وظلوا على دؤوبهم في طلب العلم الى آخر أيام حياتهم ، وبعضهم اليوم في عشر الثمانين وما برحوا متوفرين على الدرس والتأليف ، وربما كتبت لهم شهرة تفوق شهرة مؤلف المطول والاطول . درهم عمل خير من قنطار كلام ، والدعوى ما أفادت صاحبها قط .

المدنية ابنة الغنى

يقولون ان التجار اغتنموا فرصة الحرب الاخيرة فرفعوا الاسعار على هواهم واغتنوا غنى فاحشاً وظهرت عليهم امارات الرفاهية، على مالم يكن آباؤهم ينعمون ببعضه، وتجمعت لهم أموال عظيمة ما كانوا يحلمون بكسبها حتى أصبح بعضهم لايدري كيف يوظف مايملك، وأكثر مايقال صحيح، ولكن اما كان في اغتناء فئة من القوم فائدة عظيمة عادت على المجموع ببعض الخير؟ نعم كان ذلك والدليل عليه مايأتي.

فصد التجار دم المستهلك باغلاء الاسعار، هذه قضية لاشك فيها، والاسعار ترتفع وتنخفض بقانون طبيعي يزيده أرباب التجارة وينقصون منه إلى حد محدود، إذا عرف هذا فالواجب الا ننسى ان من دواعي الغبطة ان هذه الاموال المتجمدة وهي جزء عظيم من الثروة القومية لم تتسرب الى الخارج، وبقيت في ايدي كاسبيها ينفقونها في أرضهم.

قام تجار الحرب بمشاريع عمرانية يستثمرون فيها اموالهم فمنهم من بنى الدور وأقام القصور، حتى كادت بعض مدن هذا الشرق القريب تعد من اعظم المدن الغربية بمظهرها وزينتها، ومنهم من أنشأوا المعامل والمصانع أوجدوا بها خبزاً للعمال، وكفوا طائفة من الفقراء مؤونة التكفف، ومنهم من أنشأ ملاحة جوية أو ملاحة بحرية، ومنهم من تصدق وافضل على الاعمال الخيرية فاقام دور المرضى والعجزة وعاون المتعلمين وبيوت العلم ومنهم من أسسوا الشركات يضمون القوى المبعثرة، ويجمعون من القليل كثيراً، علماً منهم بان الفرد محدود العمل، محدود الربح، عرضة للافلاس والمجاعة أقل منه تأذياً بذلك.

المدنية ابنة الغنى كانت تنبعث في الماضي من قصور الملوك ثم تنتقل

الى الامراء والعظماء فالاغنياء من التجار والزراع ، ولولا الغنى ماقام مابنم عن مدنية الاجداد من معابد ومدارس ومصانع وقصور وقناطر وجداول، ولولا الغنى الذي تجمع في أجيال وقرون ما كان في العالم شيء اسمه راحة ورفاهية أو عظمة ومجد . كانت الثروات في الدهر الغابر وقفاً على الافراد قلائل يحتكرون مايشاءون من صنوف الغذاء والكساء وكان من تقسيم الثروة اليوم وتعدد الايدي في استثمارها ، وتفنن القرائح في اتقان اساليبها ماقامت به مشاريع في العمران على أساس ثابت ، ونظام محكم ، ومن ابن يكون هذا لولم يربح الرابحون في الحرب هذه الارباح وتنشأ ثروات جديدة ، جمعتها أيد جديدة ، وأحسنت التصرف بها عقول جديدة .

كان الناس اذا اغتنوا يخزنون نقودهم في الصناديق او يدفنونها في الارض ، أما اليوم فالغني لايخاف الاعتداء على ماله اذا هو أدى الواجب عليه للدولة والملة . وكان إذا ظهرت عليه آثار النعم واشتهر بأن في خزانته ذهباً وفضة يصادر ويعذب ، فغدا لعهدنا مطلق التصرف بحريته ، يعمل ما أراد كيف أراد ، ويجد له من الحكومات من يظاهره على استكمال أسباب اغتنائه . وأدرك كثير من أرباب الثروة الا بقاء لثرواتهم إلا أن يداووها بشيء من أعمال البر ، ويعطوا المجتمع قسطه الذي يستحقه منها .

كنت أشكر مرة لأحدهم تبرعه لاحدى الجمعيات النسائية بمقدار من المال ، وعلى إعطائه مبلغاً عظيماً يصرف في رفاهية المتعلمين من أهل بلده فقال : هذا ما يجب ، وصرف المال أو بعضه في مثل هذه الوجوه أحسن لنا لأنا لا نعرف كيف يكون مصير هذه الأموال . وهذا الموسر أعطى بعض المشاريع النافعة مئات الالوف واعتقد أنه يعمل واجباً .

وعلى العكس رأينا ثرياً كز اليدين يطلب إليه الخير فيهرب من مطالبه . وكثيراً ما يعد بأن يعطي مالاً عظيماً لبعض الأعمال المتفق على نفعها ، ويبقى على وعده مدة لا ينفذ قوله ، وإذا سئل عن سبب احجامه عن إمضاء ما وعد به تمحل اعذاراً لا تصدر إلا عن ناقص العقل زَمِن المروءة .

ومن لم يعمل الخير بدافع من نفسه لا تؤثر فيه الدعاية وتحميس المحمسين .

اثرى في الحرب من أرباب التجارات القديمة أفراد ، واغتنى آخرون بالمصادفة كانوا فقراء أو مستورين ، وما احرز رضا الخلق إلا من فكروا في معاونة المحتاجين ، وبذلوا في الخيرات جزءاً مما كسبوا ، يجودون بفضلها على مواطنيهم . والأغنياء عمد المجتمع يفيدون منه ويفيدونه .

ولقد رأيت شعور القوم يقوى حتى أصبحوا يزنون كل إنسان في أدق ميزان ، ويعرفون عيار الناس مهما تكتموا ، وأخفوا ما يملكون وما تصل إليه أيديهم من المشاركة في الخير العام .

مات في الأيام الأخيرة ثلاثة أغنياء ممن جمعوا أموالهم بطرق غير شريفة ، وكان الناس يلعنونهم وهم يُحملون إلى قبورهم لأنهم لم ينفعوا قومهم في حياتهم ولا بعد موتهم . وبئست الخاتمة .

ذيل على أقوالنا وأفعالنا

للغربيين طرق عجيبة في ايصال الخير إلى من يعتقدون أنه ينفعهم من الشرقيين في مادياتهم أو معنوياتهم . ذكر صديقي الاستاذ عبد المجيد نافع في كتابه « السلام الاجتماعي » أسماء الوزراء المصريين الذين أدخلتهم الشركات الأجنبية في مصر بصفة مستشارين أو مساهمين لتعطيهم مالاً ، وتنتفع بحسب الظاهر بآرائهم ، وإن كان بعضهم لا يعرف شيئاً من الأمور الاقتصادية والمالية . فحافظ عفيفي باشا يتولى رياسة وادارة (٣٢) شركة عدا رئاسة بنك مصر ، وحسين سري باشا (٢٧) شركة رياسة وادارة ، ومحمد أحمد فرغلي باشا يتولى (٣٢) شركة ، ومحمد محمود خليل بك يتولى (١٤) شركة وهكذا حال محمد شريف صبري باشا وعلي ماهر باشا واسماعيل صدقي باشا

وعبد المقصود أحمد باشا وعلي الشمسي باشا وعلي أمين يحي باشا وأحمد عبود باشا ومحمود شكري باشا وسابا حبشي باشا وتوفيق دوس باشا وحسن مظلوم باشا وأحمد صديق باشا وحسن صادق باشا وحسن نشأت باشا من اصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالي والسعادة والعزة وكلهم يتولون بضع شركات تكون جملة رؤوس أموالها من المليون إلى العشرين مليوناً وأكثر . أنشر هذا وإن كنت لا أشك في أمانة بعض هؤلاء الرجال ، ولكن رضاهم بتقلد ما يتقلدون موضع نظر ، ذلك لأنه من الثابت أن المرء لا يجوّد عملين فكيف يجوّد ثلاثين .

وبعد سنة من كتابة هذا وبعد صدور قانون الشركات في مصر كتبت إحدى مجلاتها الشعبية في معرض الدعابة ما يأتي :

نزولاً على قانون الشركات احتفظ شريف صبري باشا واسماعيل صدقي باشا وحسين سري باشا وحافظ عفيفي باشا ومحمود شكري باشا ومحمد فرغلي باشا وعلي يحي باشا ومحمد محمود خليل بك وعبد المقصود أحمد بك بالعضوية في عشر شركات لا غير ... وكان كل واحد من هؤلاء عضواً في أكثر من عشرين شركة .

سيدة القرى

هي قرية من عمل المنوفية بمصر اسمها كفر المصيلحة أو المسيلحة لم تحرز مكانة كبيرة بكثرة سكانها ولا باتساع رقعة أطيانها ، فأهلها لا يتجاوزون الأربعة آلاف ، ومساحتها لا تتعدى الخمسمائة والسبعين فداناً . حصرها أرباب السلطان في هذه البقعة الضيقة ، وجعلوا مما جاورها من الأرض وقفاً ميتاً لا أثر فيه للتجديد . عظم شأن هذه القرية المباركة لأنها القرية المصرية الوحيدة التي انتفت منها الأمية بفضل رجل من صالحي أهلها اسمه

« حجازي حجازي حسين عمر » أدرك ببعد نظره ما سيحل بأبناء قريته من مرض الجهل فعالجه بفتح كتاب ينفق عليه من ماله ، وأنشأ يمنح كل طفل يداوم على الكتاب دريهمات وحلويات ترغبه بالتعلم . ونشأ ابنه وهو العلامة عبد العزيز فهمي باشا على قدم أبيه ، ينشط أهل القرية على العلم فأنبتت قريته المحامي والقاضي والمهندس والاداري والسياسي والطبيب والاديب وكان من أهلها خمسة وزراء أجلاء منهم أحمد حشمت باشا عم عبد العزيز فهمي باشا وهما من الأفذاذ علماً واستقامة .

لو كتب لكل منزلة وقرية مثل حجازي حجازي لعدّت مصر في رقيها كسويسرا وألمانيا ، ولو أحب كل نابه لقومه ما أحبه حجازي لأهل بلده لما أتى جيلان أو ثلاثة إلا وأهل تلك القرية صنف آخر من أجناس الناس ، ولكن أكثر الخلائق يقولون أبداً « أنا ومن بعدي الطوفان » لا يعنيهم شيء من أمور قومهم ، إذا هم حصلوا على رغائبهم ، وتمت لهم ولأولادهم أدوات التفوق .

ومن خصائص أهل كفر المصيلحة أن أبناءها جدّ أوفياء لقريتهم لا ينزلون لغيرهم عن قيراط يملكونه من أرضها ، او مخدع صغير ورثوه في بيت ، يزورونها كلما سنحت لهم الفرصة لينشقوا تربتها ، ولا يقطعوا صلاتهم بأرض ضمت رفات أجدادهم ، وكان أجدادهم على مايظهر على جانب عظيم من التدين وعلى عرق من الجهل عريق . حدث منذ نحو مئتي سنة أن اغتصب فتى من حي من أحياء القرية فتاة من أهل حي غير حيه ، فما كان من أهل الحي الذي كانت منهم الفتاة المنهوك سترها إلا أن هجموا على جامع أهل الحي الذي كان من أهله المعتدون على العرض وقتلوا منهم في صلاة الجمعة ثلاثة وثمانين رجلاً . عمل فظيع كهذا فيه معنى من معاني الحمية الاسلامية والحمية الجاهلية معاً . ثاروا دفاعاً عن الشرف وهو مما أمر الاسلام بالمحافظة عليه ، وقتلوا الأبرياء وهم في صلاتهم ، وهذا عمل جاهلي عار عن الانسانية والدين . ولكن حجازي حجازي رحمه الله عالج

جهل قريته بدرياق العلم فكان من تعلموا من أبنائها المثل الصالح بين البلدان ، وعدّ عمله وعمل ابنه العظيم مفخرة من مفاخر مصر جديرة بالحمد بكل لسان على وجه الدهر .

العمدة الصالح

ألست من رأيي ان الرأس الصالح يخلف الجسم الصالح ، حدثني أحد كبار قضاة مصر انه قضى في اقليم الشرقية ثماني سنين لم تعرض خلالها على محكمته قضية من بلدة العزيزية المرتبطة بعمله ، اللهم الا ما كان من قضية اقيمت في آخر مدته وجاء عمدة البلدة يقول ان المتخاصمين تصالحا ولم يبق وجه لاقامة الدعوى . وكان هذا العمدة تقياً سرياً وغنياً أريحياً يعرف ما ينفع وما يضر ، ولا يسوق أهل بلده الا الى طريق الخير .

واتفق ان خطر لرجل رومي ان يفتح له حانوتاً ببلدة العزيزية ، وكانت الى ذاك العهد خالية من ابناء جنسه الذين ملأوا ريف مصر بمقاهيهم وحاناتهم ، فابتاع لذلك في ضاحية القرية أرضاً وبنى عليها كوخاً اتخذ منه دكاناً ملأها بما تملأ به في العادة امثال هذه الحوانيت من المشروبات والمأكولات . وما هي الا ايام حتى جاء الرومي في الصباح يفتح حانوته ، وكان يسكن على دقائق قليلة من العزيزية ، فرأى ما هاله رأى دكانه كأنه تبخر أو خسف به ، والارض حرثت وزرعت ورويت في ليلة واحدة فشكا ما حل به الى الحكومة وعجز ان يثبت دعواه أمام القضاء ، وسئل العمدة في جملة من سئل عن دعوى الرومي فقال انه لم يبلغه شيء مما يدعيه ، ورجع الرومي بخسارة ماله وخيبة آماله حزيناً كئيباً .

ولهؤلاء الأروام في مصر قصص تضحك وتبكي وقلّ فيهم من يقيم

فيها مدة إلا ويجمع له مالاً يحمله إلى بلاده ، وهم والحق يقال عنوان التضامن والوطنية والنشاط . سمعت مدير فندق عظيم في القاهرة وهو رومي يأسف جد الاسف لما دفعه إلى صاحب الفندق الوطني من اجور أربت على مئة الف جنيه في نحو ثلاثين سنة . ولما انصرف سألت صاحبه الموظف عنده وكم تبلغ يا ترى ثروة هذا المدير فقال وهو يعرفه معرفة جيدة : انها نصف مليون جنيـه يا سيدي ، وما نسيت وأنا في سن الشباب أسمع في القاهرة مع صديقي حافظ ابراهيم شاعر النيل مطربة مشهورة في مقهى قوله وقـد ظهرت عليه امارات الغضب : ترى يا صاحبي هذه الجوقة وما هناك من خدمة أليسوا كلهم مصريين إلا الجالس إلى الصندوق الذي يقبض المـال فهو رومي .

وفي الرومي موعظـــة لقوم جـــدّ في اللعب

كما قال حافظ في قصيدته التي أحاطت بهذه المعاني وخصها بحث قومه على الاعتبار بأروام مصر .

هامش على سيرة المشايخ

وددت لو طاوعتني النفس فاعفيتك يارفيقي القاريء من التصدي للمشايخ مرة أخرى بعد أن افضيت اليك بامثلة ينقبض لها صدرك من سيرتهم في كتابي اقوالنا وأفعالنا ، وفي هذه المذكرات وصفت لك من كانت الحكومات في كل زمن توقرهم وهم لا يوقرون أنفسهم ، وترفع درجاتهم وبعطاءهم يخفضونها . الحكومات توسع عليهم والامة تجلهم وتستمع اليهم وهم ينظرون الى الدنيا غير نظر سائر المخلوقات لها . واني ان أسفت لشيء فمعظم أسفي لمـا شهدت من قـلة أمانة بعضهم وشدة جهلهم ، تعلموا قشوراً من العلم يستخدمونها في صناعتهم أما أخلاقهم فالى الانحطاط .

كنت أغلب حسن الظن في بعض افراد هذه الطائفة وازعم انهم اذا شبعوا يكفون عن العبث بالشريعة وانهم إذا وسع عليهم وقبضوا رواتب يتبلغون بها لا يُسفون الى ما يسف اليه سائر الموظفين من خبيث الطعمة وفساد الذمة ، ولكن الايام جاءت على خلاف هذا الظن ، أثبتت أن من اعتاد أمراً يتعذر اقلاعه عنه إذ يستحكم فيه فيصبح له في حكم العادة ، وان الفاجرة تنقض توبتها لاقل عارض ، واللص تحدثه نفسه أبداً بسرقة الناس ولو صام وصلى وحج .

عرفت في الطفولة رجلاً دخل في أول شبابه في الوظائف الحكمية وما عتم أن اشتهر باضاعة الحقوق واستحلال ما لا يحل ومضت أيام وارتقى الرجل الى أعظم المناصب في سلكه فقلت لا بد ان يكون أقلع عن خيمه وقبح عاده ، وهو على أن يصرف جهده في خدمة دينه وامته خصوصاً وهو خفيف الحاذ قليل العلائق بالدنيا ، بيد أنه عاد الى ما شب عليه يخترع الحيل لاملاء جيبه وصندوقه ، ووسيلته الى اشباع نهمته غض الطرف عن تلاعب مرؤوسيه على حين له كل الحق في صرفهم اذا ثبت له عجزهم وتلاعبهم ، أما هو فيحميهم ليتناول الجعالات منهم بطريقة استحلها مايعطونه . وذلك ان يبعث له مرؤوسه ما يلزم بيته من الزيت مثلاً فيرسل له منه مقداراً يكفي عشرة بيوت من مثل بيته باسعار أقل من ثلث ثمنها الحاضر . والاطفال يدركون ان السعر الذي يزعم مرؤوسه انه ابتاعه به هو سعر وهمي لا وجه له من الصحة . والمأكولات لا ينقطع جلبها طول السنة وحاملها يقطع ربع او ثلث راتبه كل شهر ليسدد منه فرق الاسعار عن السوق . ولا شك ان هذا المتفقه العجوز سار مع عامة مرؤوسيه على هذا النهج الملتوي ليغض طرفه عن عبثهم بالحقوق ، وكان إذا قيل له ليسوا اهلا لعملهم ويغلطون في كثير مما تخطه أناملهم قال في معرض الدفاع عنهم يقيم الاعذار لجهلهم وقلة ذمتهم : انه إذا صح انهم يرتكبون أغلاطاً فالغلط يسري على الكبير والصغير .

لو كنت في منصب لي به السلطان على هذا المتلاعب الذي وصفت لحاسبته

حساباً غير يسير ولطهرت الدواوين من أمثاله لانه في نظري قذى يشين الدين والوطن ، ومن غر الناس بصلاته واوراده فهو حشرة سامة يجب قتلها ليسلم المجتمع من مضاره ، وليت شعري متى تصح عزيمة الحكومات على انقاذ الامة من هؤلاء العاجزين إلا عن عمل الشر .

النبل العملي

في السنة الماضية (١٩٤٦) تفضل الاستاذ ابراهيم دسوقي اباظة باشا من وزراء مصر ومن البيوت العريقة بالمجد ورئيس جماعة ادباء العروبة ، ودعاني الى طعامه فاعتذرت بقرب السفر ، ووعدت ان عشت أن اتقاضى من قابل الدعوة دعوتين . وهبطت مصر وطالبت الوزير العزيز بحقي ، وشرطت فقط أن يطلعني الداعي الكريم على أسماء المدعوين ، فأشرت بحذف اسم شخصين لا أحب أن القاهما ، وتكرم فوجه دعوته الى ثلة من اصحابي المصريين والسوريين ، وفيهم الادباء والشعراء ، وصاحب الدعوة نفسه أديب وشاعر ، وكانت المأدبة من أمتع المآدب أنشدت عليها أشعار ، وأوردت نكات وفكاهات ، وزادت بهجة هذا الاجتماع بالتجانس بين من لبوا الدعوة (أو « الكرزمة » طعام نصف النهار ، كما سماها الداعي في بطاقه الدعوة) .

من ميزات السيد اباظة أنه يعطف كثيراً على الأدباء ، وإذا سمع بناشيء في الشعر والادب يحرص على ان يوصل اليه ما ينعشه من الرزق ، بدون أن يطلعه على اسم الساعي له بذلك ، فيرقيه ان كان من عمال الحكومة حتى يوسع عليه في معاشه قائلاً ان اطروحته قد قدمها للامة بما نشر من ديوان وألف من رواية ، واصدر من كتاب . والدرجات في القانون يسقط حكمها مع هؤلاء النوابغ ، اذ ليس من المعقول ان يقضي الواحد منهم سنين طويلة حتى يصل الى المرتبة التي تمكنه من تفرغه لأعمال عقله وقد يقنطه الانتظار ،

واضعف همته عن المضي فيما هو بسبيله . وإذا كان النبيه الاديب خارج الحكومة عمل صاحبنا على اسناد عمل اليه يعيش به في حرمة وكرامة . وكثيراً ما يصل احسان الوزير الى المحسن اليه ، وهذا لا يعرف اليد التي قلدته هذه المنة ، وربما انقضى زمن وصديقي نفسه لايعرف الشخص الذي نشله وأنعشه .

ألا يعد هـذا الوزير العاقل حامياً من حماة الادب Mécène ؟ يشبه من بعض الوجوه بعض وزراء الدولة العباسية أيام عزها بافضالهم على العلماء والادباء ، وكانوا يأخذون بايدي أرباب القرائح حتى نبغ بفضلهم أفراد عدوا مفخرة الدولة والملة . وكم في مصر من مخبآت إذا كشفت تبيض الوجوه ، وكم فيها من مخزيات إذا عرفت لعرق منها الجباه .

اتفق يوم كتبت هذا أن قرأت صحيفة افرنسية اسمها كارفور Carrefour جاء فيهـا أنه قل اليوم عنصر حماة الادب ولم يبق امام الادباء الا توقع المعونات غيرالمطردة ، ومن النادر اعطاء مال بدون مقابل ، او توسيد منصب ليس فيه عمل ، واذا حدث شيء من ذلك فباقتصاد شديد خالٍ من العاطفة .

ألا نحمد الله بعد هذا على ان رأينا الشرق اقبل يستعيض بعض مجده بالعقلاء من أبنائه ؟

الى شيخ الشيوخ

نقـل لي أنك قلت يوم نعيتُ على رجال الحـكم تقاعسهم في تنفيذ الاحكام على الغششة من التجار والباعة والفلاحين ، وآخذت المشايخ على تقاعدهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر — ان فلاناً قام اليوم بوظيفتنا ، وكلامك هذا يتأول على معنيين الاول اقرارك ضمناً انك وجماعتك مقصرون في وظيفتكم وانا قمت عنكم بها ، او أنك تقصد اني اعتديت على

وظيفتكم وما كان من حـق ذلك ، وشهد الله انى كنت أحب ان أراك وجماعتك تقومون بواجبكم ولا يفتح مجال لي ولا لغيري للتعرض لـكم أتركم تتمون بوظائفـكم وجميع ما يتبعها من الفوائد بيد ان القصور الذي لمسته ولمسه العارفون في هذا الباب دعاني الى سد هذه الثلمة وأنا مقران ليس لي أن اشرك الوعاظ في مواعظهم لانها مما يتوقف الاضطلاع به على علم لدني وعلم كسبي وكلاهما في نظركم وقف على طغمتكم . وسواء كنت على استعداد للـكلام في هذا الشأن او غير مستعد فحسن نيتي يشفع لي في هذا التعدي على مقامكم . وسواء قمت بواجبي أو تعديته فليس فيما جرى ما ينكر ما دام قد مضى على محاضرتي بضع سنين ما سمع احد منكم خلالها ولا قبلها موعظة ولا خطبة ولا درساً ولا نشرتم كتاباً ولا رسالة ولا بحثاً وكذلك كنتم طوال حياتـكم الشريفة .

العلم كما لا يخفى على ثاقب ذهنكم ينضج في صدر صاحبه كلما علت به السن وأنتم قد عمّرتم ما شاء الله أن تعمروا واتجرتم ما شئتم بما جمعتم من مال فماذا دعا الى توقفـكم عن القاء الدروس النافعة ووضع التآليف الممتعة . على حين ترون البدع عن ايمانـكم وشمائلـكم والمسلمون الذين بهم عزتـكم تقرضهم امراض اجتماعية كثيرة فهل فكرتم يوماً في مداواة بعضها والناس ألحدوا وطغوا وهم يتحللون من كل قيد فهلا دللتموهم على طريق النجاة ، وتحت اشرافـكم كثير من الموظفين هل قاموا بما اسند اليهم ام كان الامر لا يعنيهم يقبضون الرواتب ويدعون للسلطان بالنصر ؟

وظيفتـكم تدور على التعليم والهداية وساعدكم القانون فقضى ألا تخرجوا من الخدمة الا بالموت وطال امد حياتـكم على ما ليس من مصلحة هذه الامة فمن علمتم انتم وجماعتـكم ومن هديتم . انا لا الطال الى ان ابيع منـكم بضاعتي وارغب في ان يطلع الخلق على بضاعتـكم واغتبط ويغتبط كل عاقل إذا افدتم البر والفاجر والصانع والزارع والتاجر ، نفع الله بارشادكم الاسلام والمسلمين انه سميع الدعاء فعال لما يريد .

شرقي الاردن

منذ أكثر من خمس عشرة سنة وملك شرقي الاردن عبد الله بن الحسين يتلطف ويدعوني لزيارته في عمان وأنا اعتذر بكثرة اشغالي . والواقع اني اعرف قرية عمان لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف وهي الآن تربو على الاربعين الفاً حتى تكاد تعد من امهات المدن في الديار الشامية ، وماذا عسيت ان أرى من جديد في عمان وأنا دعيت منذ بضع سنين لزيارة تونس فما اجبت وكنت دعيت الى زيارة مراكش فأبيت ودعيت غير مرة الى زيارة نجد والحجاز فنكصت .واذا كنت لم أزر العراق على قربها وتكرر دعوة اخواني العراقيين لي كيف يجوز لي ان أزور شرقي الاردن وانا أعرفها وأعرف ما يحاك فيها .

ثم أنا لا اعتب على جلالة ملك شرقي الاردن الا لسعيه — ان صح ما بلغني — في ضم سورية الى بلده أو ضم بلده الى سورية وذلك تحت الانتداب الانكليزي . قدر الله لنا معاشر السوريين ونجونا من سلطان الانتداب (باعجوبة) فكيف بنا نعود سيرتنا الاولى بعد ان تمتعنا باستقلالنا واخذنا نعيش احراراً فما شأننا والعبودية .

وكاتب هذه السطور لا ناقة له ولا جمل مع العروش ولا مع الملوك ولا مع رؤساء الجمهوريات ولا مع الزعماء والاحرار والذي يدين الله به ان الحرية احسن من العبودية ولو كان الذي يحكمني من أكبر الصحابة والتابعين .

افراط وتفريط

مما يمتاز به الغربيون غرامهم الشديد بالآثار والعاديات . تشهد كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم عالمهم وجاهلهم مولعاً بالنظر اليها يناغيها ويستوحيها ويدكر فيها . والسعيد فيهم من يتمكن من اقتناء شيء منها ان لم يكن الاصل فصورة عنها تصورها يد صناع .

نظرة الغربي الى ماخلف الاجداد من المصانع والاثاث واللباس والاواني والكتب والايقونات والتماثيل غير نظرة الشرقي لها نظره لها نظر الظمآن إلى الماء والعاشق إلى قرب اللقاء ، تراه يحدق فيها تحديقه في كنز ثمين يملأ القلب والعين ، ويتمثلها بكل مافيها من معان وذكريات ويهون عليه في سبيل الحصول عليها بذل المال والوقت ، وهو يفطم نفسه عن أكثر الشهوات إذا كان من ذلك احراز مجموعة شغلت مكاناً من قلبه ، ويغتبط بما يحرز ويفاخر بما يدخر ويقتني . أما الشرقي فلم يبلغ إلى الآن جزءاً مما بلغه الغربي في باب الكلف بالطرائف والاعلاق يمر بها مروره بأمر عادي لا يدرك محل الجمال منها لان ذوقه لم يهذب كما تهذب ذوق الغربي في هذا الباب ، ولذلك كان الشرقي منذ عصور يخرب بناء أثرياً من قلعة أو قصر ليبني بحجارته رصيفاً أو يرصف بما دمر قناة أو يعمر كوخاً أو قنطرة ويزهد في طنفسة أو آنية أو كتاب ليصيب من ثمنها أكلة أو سكرة .

لو حرص الشرقي على المنقول وغير المنقول من تراث أجداده ما امتلأت متاحف الغرب وبيوت بعض أفراده من آثارنا وعادياتنا . ولولا ان حكوماتنا انتبهت في العهد الاخير لجمع العاديات لافلت من أيدينا حتى الآثار القليلة المحفوظة في دور آثارنا فوصلت باهمالنا إلى أيدي من يقدرها قدرها أكثر من مالكيها الاصليين . وإن ما نشهده من كثرة مخطوطاتنا العربية في خزائن الغرب ليقوم دليلاً على زهدنا في قديمنا وحرص الغربيين على كل مايفيد في كشف أسرار المدنيات على تباين عصورها وشعوبها . وإذا عدنا فنظرنا إلى عناية الغربيين بنشر تلك المخطوطات وانتباههم قبلنا بعشرات السنين إلى احيائها نسقط على دليل مقنع نخلص منه إلى أن الغربيين يقدرون

الاشياء بقيمها أكثر منا ونستنتج أن من مجموع هذه الاذواق المثقفة في الافراد ومن جماع هذه العناية من الحكومات ظهرت هذه المدنية التي بهرتنا .

نقرأ في صحف الغرب أخبار الغلاة في حب العاديات والاعلاق النفيسة ، وغرام الغربيين بكل قديم يصور حادثاً أو يرسم رجلا ولا يبلغنا شيء من هذا القبيل عن الشرقي الذي يحتقر المهم وغير المهم . فهناك الافراط الغريب وهنا التفريط العجيب .

قيد النظر

نقل احمد لطفي السيد باشا عن الفرنسية بعض كتب فلاسفة اليونان فجاءت الترجمة ذات لونين لون مفهوم وهو الذي نظر فيه حافظ ابراهيم عليه الرحمة وألبسه حلة عربية ، واللون الثاني وفيه التعقيد الذي يقل أن يفهمه أحد لاخذه بحظ جزيل من الغثاثة . ولما قيل للمترجم البارع فى ذلك قال : أنا لم اترجم ما ترجمت لافيدكم وانما ترجمت ارسطو وافلاطون لافيد اربعة وهم طه وهيكل والعقاد واحمد امين، وكفاني ان يفهم كلامي هؤلاء الاربعة، اي ان فيلسوف مصر لا يهمه قراء العربية باسرهم ، بعد أن يدرك معنى ترجمته من هم في غير حاجة الى تصفحها ، على حين في وسعهم ان يتلوا الفلسفة بلغتها الاصلية لتمكنهم من بعض اللغات الغربية ، وطه حسين يطالعها في الاصل اليوناني لانه يحذق اليونانية واللاتينية أيضاً .

وهكذا أراد أحمد لطفي السيد أن يفرض نفسه على الامة العربية فيلسوفاً بهذا الغموض بعد ان ظل أعواماً طويلة يدعو الى استعمال اللغة العامية المصرية بدلاً من اللغة العربيـة الفصحى ، ثم أصبح رئيساً لمجمع لغوي عربي ، شأن ذاك اليهودي الذي كان يؤذن في منارة حمص (اتخذوا منه مؤذناً لجمال صوته) فكان يقول في آخر أذانه وأشهد أنّ اهل حمص يقولون ان محمداً رسول الله . وصاحبنا يشهد ان الامة العربية التي لا ترى سلامتها بغير سلامة لغتها واستعمال الفصحى منها ، يرجح العامية عليها ويرأس مجمعها اللغوي الذي وكل اليه سلامتها .

الشهرة الصادقة

قلما يشتهر رجل ليس على صفات بارعة تؤهله للشهرة ، وقد تزيد في شهرته أحوال عارضة من حوادث ذات ضجة وقعت له فيلغط الناس فيه بالخير والشر وتورثه شهرة أو أعظم بهـا شهرته بيد أن استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده وصل إلى المكانة التي وصل إليها بما كان تتحلى به نفسه من مزايا كان معاصروه مجردين منها ، كتب له التفوق عليهم وما أضرّه تحامل خصومه عليه بل زاده رفعة في الأعين ، وليس يرشق إلا مثمر الشجر .

ما أتت شهرة الاستاذ الامام من الكتب التي قرأها وأقرأها بل قامت شهرته بما تمثل من علوم الاسلام وعرضه على ميزان العقل واستخرج منه حكمة عملية تنفع أبناء عصره على اسلوب تقبله النفوس ولا يصعب حفظه واستظهاره على راويه وسامعه .

حضرت دروسه في الرواق العباسي بالأزهر في سنة ١٩٠١ في التفسير وكان مما عالجه من الموضوعات ثلاثة دروس عرض في الدرسين الأولين لآيات الربا وفسرها بما فسرها به المفسرون وأورد ما فتح عليه من معان جديدة فيها ، وكان الدرس الثالث فيما أثره الربا في البيوت المصرية وكان فيه خرابها . واستخرج من روح الكتاب العزيز معاني جديدة فيها ، هي موضع الدهشة من كلامه . عدد في هـذا الدرس أسماء البيوت التي تعاملت بالربا دائنة ومدينة فاضمحلت ثروتها وافتقرت بعد الغنى وذلت بعد العز . ذكر أسر القطر المصري من الاسكندرية إلى اسوان وما كانت تملك من الاطيان العظيمة فخرجت عن ملكها بما جنت أيديها عليها وعلى بنيها .

لم يؤلف الامام كتباً ضخمة في الشريعة ، وكان من المسائل العمليـة التي نظر فيها هداية ألوف وتثقيف عقلية الجماعـة بالدين الخالص ، ودعا

إلى استعمال العقل وأصلح ما استطاع اصلاحه من أوضاعنا بما لم يؤثر بعضه عن مئات من العلماء قبله وبعده . اصلح الكتابة العربية وقضى على السجع جملة ، فأخذنا نكتب لغتنا بذوق يراعى فيه الطبع واسلوب القدماء . وأصلح المحاكم الشرعية حتى كاد يعيد الشرع إلى سالف بهائه ولم يجسر قبله انسان في العالم الاسلامي ان يفتح فاه بضرورة هذا الاصلاح . وأصلح الأزهر وكان قبل أن يرتفع صوته في ذلك اشبه برباط أو زاوية . وهكذا كان في كل ما عاناه من ضروب الاصلاح يراعي فيه المصلحة والزمن . حتى اخرج القطر المصري بل الاسلام من دور جمود مميت إلى عهد نور وعمل .

قام قبله وبعده من تولوا أكبر المناصب الدينية في مصر ، ومصر موطن العلوم الدينية والعربية ، فبماذا نفعوا المسلمين ؟ ولو تصدينا لمحاسبتهم ما كانوا أكثر من طلبة عند هـذا الشيخ ، ضعاف القرائح لا ينتجون ، عقيم تفكيرهم ضئيل انتاجهم نادر ابداعهم وغرامهم أن يبقى القديم على قدمه ، ومن خالفهم كفّروه إن لم يكن جهرة إذا رأوا من مقام عالم امارة رضا عنهم وإلا فتكفيره سراً إذا كان في معظم قوته وعندما يحتاجون إليه في دنياهم ينافقونه ولا يرون في النفاق حرجاً .

جرأ أحـد شيوخ الأزهر على الشيخ مرة وقال له تالله تفتأ تقرعنا وتنقدنا وهل أنت تزيدنا في شيء وما كنت إلا أزهرياً مثلنا درست مادرسنا وتخرجت كما تخرجنا . فأجابه : نعم أنا أزهري ولكنني يا ظـالم بقيت سبع سنين أكنس دماغي عن خرافاتكم .

محمد عبده من الأفراد المصلحين الذين تضن بهم العصور رغم انوف منافسيه وإذا كنت تريد برهاناً محسوساً عن مكانته ومكانتهم عدّ لي اسم خمسة من أكبر كبرائهم وصلوا إلى درجـة تلاميذه ليقع التنظير بينهم .

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق   أراه غبـاري ثم قال له الحق

كلمة لله

ما لمفف بعضهم عن التصريح باتهامي بالغلو في الاشادة باستاذي الشيخ طاهر الجزائري وما خجل حساده أن يدعوا انه لم يكن من العلم على ما وصفته . ومنهم من هزأ في قوله ان من العادة أن يحب التلميذ استاذه ويبالغ في الغنساء فيه . أنا لم اغال بمناقب الشيخ ولا اخترعت له مناقب ليست له وغاية ما عرفت فيه صفات غرّاً لا يهتدي كثير إليها إلا بطول عشرة وكبير تأمل .

أدعو كل من يثقل على أنفسهم قول الحق أن يقارنوا بين عمله وعمل أكبر المقدمين في عصره هل يجدون فيهم ما يجدونه فيه بعلمه وأخلاقه . لنمثل برجلين عاش أحدهما في عاصمة الساحل وعاش الثاني في عاصمة الداخل من أرض الشام الأول كتب كتباً أكثرها تخريفات ومنامات وعددها كبير وفائدتها تافهة لأنها من مضمفات العقول والمسلمون انحطوا لما أخذوا يتلون أمثالها . والثاني ادعى علم الحديث وروى منه كثيراً وكان في درسه العام يطبق بعضه على المناسبات وعمّر طويلاً وفتن به العامة ولم يترك كتاباً ولا رسالة ولم يخلف تلميذاً أخذ العلم عنه ونفع به . اما الطبقة الثانية من العلماء فكانوا متوسطين في علمهم أتقنوا بعض فروعه وما أتوا بجديد ولا عرفوا معنى الاصلاح والتجديد .

نحن نحكم على علم العالم بنتائج عمل صاحبه فالشيخ طاهر الجزائري أسس المدارس الابتدائية في معظم الديار الشامية وألف لها الكتب وعلّم المعلمين اصول التعليم والتربية في زمن لم يكن فيه ما يقال له علم إلا بعض فروع الفقه وبعض الأحاديث الموضوع أكثرها أما ما يطلق عليه اسم الادب فسخيف النظم والنثر ولم يبق للبلاغة في الخطب والدروس شيء يذكر ولا لكلام الوعاظ والقصاص ما ينفع العامة . وآض كل فرع من علوم العقل إلى تفاهة .

ألف الشيخ نحو أربعين رسالة وكتاب في العلوم المختلفة وأحيا من كتب القدماء عشرات وتخرج به كثيرون في مصر والشام وتثقف بثقافات فارسية وتركية وافرنجية وعرف عدة لغات شرقية وغربية فانتم ماذا أبقيتم انا بعد طويل حياتكم . أين تآليفكم أين دروسكم ، أين خطبكم أين أدبكم ، أين ما أثرتم به في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ آتونا ببرهان واحد على انكم خدمتم غير أنفسكم وانكم غير نقلة في الفقه مقلدون في الأحكام أما تدوين شيء من علمكم وتجاربكم فهذا قد تركتموه للشيخ وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه .

بالعناد لا تثبتون كفاءاتكم وبحسد العلماء العاملين لا تنقصون من منزلتهم . سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطتهم ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم ولولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الاصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن .

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ما لم يروا عنده آثار إحسان



العدل نسبي

لما حظيت في الاسكندرية بلقاء الأمير عمر طوسون (رحمه الله) لأول مرة وجه إليّ سؤالين اثنين ، أحدهما كيف قسمت الديار الشامية بعد الحرب العامة الأولى ، الثاني هل صح كل ما نقلته في وصف حكومة ابراهيم باشا في الشام . فمن الأول أجبت أن الانتداب الانكليزي كان على فلسطين وشرقي الاردن والانتداب الفرنسي شمل سورية ولبنان . فاقتطعت فرنسا من جسم سورية الأقضية الأربعة (حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك) وضمتها إلى لبنان كما ضمت اليها الهرمل وعكار وحصن الاكراد وطرابلس وما اليها . وبهذه الأراضي التي ضمت إلى لبنان أمكن هذا الجبل أن ينشيء حكومة فكبرت رقعته وزادت جبايته . ثم جعلت فرنسا من قضاء جبل الدروز امارة ومن جبال العلويين دولة ومن لواء الاسكندرونة إدارة مستقلة أي أنها نزعت أيضاً جبل الدروز والنصيرية والاسكندرونة من جسم سورية فضعفت صلة هذه الأقاليم بأمها سورية وأخذت فرنسا تعلمها وتدربها على كراهة السوريين .

أما السؤال الثاني فاني ذكرت للأمير أني أدركت طائفة من عقلاء المعمرين كانوا رجالاً مدركين أيام ابراهيم باشا في الشام وقرأت جميع ماوصل إلى يدي من كتب بالعربية والفرنسية عن عهده فكان ما كتبته هو الذي تلخص معي ومحصته بعد التفكير الطويل . قلت ولماذا أكذب وأدون ما لا أعتقد ياسمو الأمير ؟ وهل أنا مصري حتى أضطر إلى مصانعتكم ومصانعة بيتكم الكريم . هذه الحقيقة أخذتها من مصادر مختلفة ووزنتها كثيراً قبل أن أثبتها . فحمد الله على ماحصل واغتبط أن يكون جده عادلاً في حكمه الشام .

وغاب عن ذهني يومئذ أن أقول للأمير أن العدل نسبي أي أن ماقامت به حكومة ابراهيم باشا هو عظيم بالنسبة للاتراك قبله وبعده . وهذا ما قاله قنصل انكلترا يومئذ وكتب به الى دولته وذكر ان الجباية كان يتشدد في تحصيلها وتصرف بالعقل وما كانت حكومة تلك الايام تضن على البلاد بما هي في حاجة اليه من اموالها وبذلك امتد العمران وعمرت القرى والمزارع . وعندي انه لم يكن ينتقد على حكومة ابراهيم باشا الا احتكار بعض ضباطها اصنافاً من التجارة لحسابهم يتربحون بها ، وربما كانت للحكومة الابراهيمية مساوٍ اخرى فات المؤرخين ذكرها او دونت ولم تصلنا او كان الخطب فيها سهلاً تمكن الاجابة عنها .

ومن الادلة على عدل حكومة ابراهيم باشا ان اهل سورية ودعوه بدموعهم يوم غادر أرضهم الى مصر باكين عهده السعيد . اما لصوص الاعيان الذين كانوا يرجون عودة العثمانيين الى الشام حتى يشاركوهم في سلب الامة فهم كانوا فرحين مستبشرين . وقال معظم من لقيتهم من ابناء القطر ان حكم ابراهيم باشا كان صارماً ، وهل كان يتأتى ان يخضع سكان الجبال وسكان السهول من الشاميين للحكم الجديد الا بهذه الطريقة . والحكومة العثمانية ومن ورائها الحكومة الانكليزية تدسان الدسائس حتى لم تتركا لابراهيم باشا ليلة واحدة ينام فيها هادئاً مطمئناً .

حكم ابراهيم فرع من حكم والده محمد علي فيه ما فيه من محاسن وغيرها ويعد من نوع الحكم العادل بالقياس الى زمنه والى حكم العثمانيين في جميع الادوار التي مرت على الشام .

العربية عند المسلمين

قال السيد جمال الدين الأفغاني : اهمل الأتراك أمراً عظيماً وكلمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه ، واحب أن يعمل بها السلطان سليم (الأول) ، وهي جعل اللسان العربي لسان الدولة وتعميمه بين من دان بالاسلام من الأمم ، ليتفقهوا في أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله . فالعرب مانجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه . وذلك ما تمّ ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان اه .

شعر المسلمون بعد القرن الرابع بما طرأ من ضعف في تعليم اللغة العربية ، وقد تقسم الملك الاسلامي ملوك من الاعاجم ولا غاية لهم إلا الاحتفاظ بما ملكوا ، واللغة والعلوم في نظرهم اذا انتشرت بطبيعتها فبها ونعمت وإلا فليست مما يتوقف عليه حياة الممالك ! وحياة الممالك سيف مسلول وسياسة نافذة . وكان أكثر من جاءوا من الملوك بعد القرن الخامس إذا اعتمدوا على العربية في معاملاتهم الرسمية فلا يستعملون بثها في الناس ، وربما كانوا يتكلمون بلغتهم الخاصة في قصورهم ومع حرمهم وخدمهم .

من جملة العوامل التي حالت دون انتشار العربية ظهور نغمة القومية وذلك بأن تشدد أهل كل عنصر في نشر لغتهم الوطنية فقط . وكان الاتراك أصحاب الاقتراح الاول في اتخاذ العربية لغة الدولة أول من حاربوا هذه اللغة في جميع مظاهرها على عهد الكماليين ،حاربوها في المساجد والجوامع وفي الكتب والصحف وفي المدارس والشوارع وفي الرسميات والخصوصيات

وكان بعض الاذكياء من العناصر الاسلامية ينتابون الحواضر العربية الكبرى في افريقية وآسيا خلال قرون طويلة للاخذ عن علمائها علوم اللسان والشرع فيعود الجاوي والصيني والهندي إلى بلاده وقد أخذ يكتب العربية ويتكلمها

ويؤلف فيها إلا أن الدارسين قلائل جداً لا يكادون يسدون حاجة شعوبهم وأصبح الصيني والجاوي والفارسي يتلون القرآن في صلاتهم ولا يفهمون معناه ، وكذلك تركي تركستان وكذلك هندي باكستان .

مرَّ في بعض السنين بمصر مفتي المسلمين في بكين عاصمة الصين وهو شيخ جليل كان يتعذر عليه النطق بالعربية فيطلب منا ان نكتب له ما نريد القاءه عليه من الكلام باللغة الفصحى مكتوباً بخط نسخي واضح وكان هو يجيبنا كذلك . على ما نرى لعهدنا بعض علماء المشرقيات يكتبون العربية كتابة جيدة ويعجزون عن التكلم بها .

بقيت العربية في الخواص من اهالي شمالي افريقية وللعوام ولا سيما في الجزائر لغة ليست من العربية في شيء ، وفي عاميتهم الفاظ افرنسية وايطالية واسبانية ومالطية ويونانية . لا جرم ان انتشار العربية اليوم تبع لانتشار المعارف عند الشعوب العربية والشرقية ، وقد اخذت كل لغة من اللغات الاسلامية الوفاً من الكلمات العربية ادمجتها في لغتها فصارت كأنها فيها اصيلة فظهر بذلك ان العربية لا تستغني عنها لغة من لغات المسلمين ومنها لسان الملايو والاردو والفارسي . وكلما حرصت العراق والشام ومصر وتونس — وهي الاقطار التي رسخت فيها العربية على الدهر وكانت من أول الاصقاع التي هبت تسير نحو المدنية الحديثة — على نشر العربية الفصحى في ابنائها يسري قبس من نورها الى الاقطار الاسلامية الأُخرى .

والرجاء بعد ان يستقيم عمود السياسة في البلدان الاسلامية ، والسياسة اليوم فيها متزعزعة غير مستقرة ، يصبح للعربية شأن غير شأنها الآن ، ويسد النقص الذي احدثته الايام بجهل الملوك والحكومات . واذا رأينا اليوم تركيا تقضي على العربية في آسيا الصغرى بين ظهراني بضعة ملايين من رعاياها فان ثلاثمائة مليون مسلم في الارض لا تستطيع ان تملي ارادتها عليهم . حاربت كل ما هو عربي أو يشم منه رائحة العربية ، وكان الخير والشر من عملها مقصوراً على ارضها فقط . والايام كفيلة بتعيين مقدار هذا الخير الذي اتاها بهذه الثورة على العربية والاسلام .

في عشر الثمانين

يانفس هو ذا الحادي يُهيب بك لاجتياز المرحلة الاخيرة دراكِ ، وِخفي في خفّ من أثقالك للحاق بمن تقدموك من الأهل والعشير ، فالوقت ضاق وانت على اوفاز ، والمنزل منزل قُلعة .

يا نفس لا تغضبي ولا تعتبي فقد عُمّرت طويلاً ومتعت كثيراً ، وفتنت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلان والمعارف ، وسعدت إذ كنت أقرب الى التفاؤل من التشاؤم ، والى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من الغم ، وعشت في سلطان الرضا طيبة الطُعْمة لا يد لأحد عندك .

علموك ما كانوا يأملون منه اعدادك للتجارة لتغتنين منها كما اغتنى اجدادك فأخفق تقديرهم ، وهدتك الفطرة لامور أخرى رفعتها فوق كل اعتبار ، وصرفت فيها نقد عمرك اعتقاداً منك أن فيها سعادة لك ولغيرك .

أخذت عن أشياخ أدخلوا الملل عليك بدساتير لهم حفظوها ، وما اهتدوا الى العمل بها ، وانصرفت عنهم بشكوك ومعميات ما انحل لك بعضها حتى اتصلت بمن خرّجوك فيما غلب عليك ، وأصبحت تنظرين في الامور نظر تدبر . واقتديت بارباب العقول قبلك فيما لم ينكشف لك سره ، فسلمت كما سلموا واستسلمت كما استسلموا ، واغتبطت أن أرضيت هواك فيما قرأت وبحثت ، وفيما سجلت ودونت .

وحظك الحظ فما أَلِفْتِ الا أولى الفضل ، وما حرصت إلا على صداقتهم ، ولا اختلفت الا الى مجالسهم ، وما شاقك الا سماع اخبارهم ، وكنت على الاكثر لا تصحبين الا من تستفيدين من علمه وتجربته ، وتفرين من الاحاديث الغثة

فرارك من الطعام الواحد ، والمنظر الواحد . والنغم الواحد ، وما كنت كذلك شهد الله في حبك ووفائك .

هان عليك ما أنفقت في الضئيل من المعرفة التي كتب لك تحصيلها ، وكان استغراقك ساعة واحـدة فيما ولعت به ، يوازي في نظرك أكثر المسرات والشهوات .

درجت على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الافـكار على ثورة السلاح ، ودققت في حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألا مجد إلا من طريق المعرفة ، فأحرزت لك شهرة سعيت وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربى على رجائك رحت تزهدين فيما صرت اليه ، وتندمين على فترات ضاعت سدىً وان أكسبتك مرانة ومرونة ، وأفادتك عبرة وتجربة .

كان ولذلك ما ينهال عليك من الضربات في تأييد حق وتقويم مائل ، حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبـلة ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق الى الشهرة بالحط منك ، وكنت تفرحين بما يتم إذا أسفر عن تحقيق شيء مما تتوهمين غناءه .

علمتك الايام التحلم وما كنت حليمة ، وزينت لك اللين وكنت جامحة ، وأخذت من حوادث الدهر دروساً في الصبر والأناة بقدر ما سمح به مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلفت الأيام ضد طباعها ، وما أحببت ان تستثمري احداً ، ولا أن يستثمرك احد ، وقلما أتيت شيئاً وندمت عليه ، وما حزنت لرزية في مال ولا جاه بقـدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة إذا كان ممن خدموا العقل بعقلهم ، وشادوا للفضل قصور العز من فضلهم ، وكنت تخلين عن أصحابك في افراحهم ولا تتركينهم في أتراحهم كأنك من اخوان الضراء لا اخوان السراء ، إذا اقبلت الدنيـا على الصاحب تبتعـدين عنه ، وان أدبرت تكثرين من مؤاساته .

وأكثر ما آذاك في طويل ايامك ان كنت تشهدين قوى عظيمة ضائعة، وطريق الاصلاح مهيعاً امام اصحاب السلطان وهم لا يسلكونه، فطالبت طغاة الاستبداد بالقيام بواجبهم، فساءتهم جرأتك عليهم، وتربصوا بك الدوائر. وقاتلت الشعوبيين أعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج فشق عليهم سماع صوت الحق، وما استطاعوا ان ينالوا منك على ما حشروا من أبالستهم، وافتروا من إفكهم، وأنت عزلى لا سلاح لك الا الحق الذي أخذ من قلبك، وإلا الغرام باستعادة عظمة الامة والملة.

ومن أشق ما مر بك أن كان أرباب المحك يحملونك على اثبات المثبت والتدليل على البديهي، وان اضطررت الى عشرة قوم كان الجهل فاشياً في سوادهم الأعظم، وقضى عليك بعد ذهاب من أخذت من أدبهم، واستهووك باخلاقهم، أن تسمي هراء ادعياء لو انصفوا لعادوا الى الكتاب، يبتدئون بالعلم من كتاب الهجاء.

عاداك من عاداك عداء المتباينين في العقلية والثقافة، ووجهوا اليك من التهم ما كان في وسعك رده لو جوزت اضاعة الوقت في مهاتراتهم. ومما قرفوك به أنك مستبـدة فيما يبدو لك، مفرطة في حرية رأيك، حلوة الصداقة مرة المداوة، ضنينـة بجاهك، تكثرين من قول لا أكثر من قول نعم، وهم كانوا يريـدونك على ان تشهدي للمحق والمبطل وتدخـلي فيما يعنيك وما لا يعنيك، وقاعدتهم ألا ضرر من العبث بحقوق الجماعة اذا كان منه تنفيس كربة الفرد، ومن مألوفهم أن كل من قصد انساناً في أمر يقضي عليه الظرف ألا يرده خائباً.

وعابوك انك تظهرين بمظهر الشذوذ والخشونة في الأحايين، وتخرجين على بعض مصطلحات القوم فتكسرين قيود الرسميات، وتبالغين برعاية من لا تجب مراعاته، اذا تخيلت فيه ناحية اعجبتك، فتلبسينه ثوباً اطول من قامته، وتجملينه في عيون البعيد والقريب والبغيض والحبيب.

يانفس الحق مر والصادع به معذب ، وصاحبه أبداً هدف اطعن الطاعنين ، ومن يحاول اصلاحاً وتجديداً فهو عرضة المصفقين والمصفرين ، ولا يكرثنك هذا فالمتمنتون ما اعتادوا أن يستجيبوا لاول صارخ يحاول زحزحتهم عن عقائدهم ، ومتى هشّ أرباب الارواح الجامدة لمن يحاول ادخال روح جديد عليهم ؟ والناس ما خلقوا كلهم عقلاء وحكماء .

وكيف لطمعين يانفس في رضا الظالم والجاهل ، وأنت ما حلا لك غير مكافحة المستبدين والسارقين ، ومنابذة المخرقين والمضللين ، وكنت معهم بين عاملين إما اقرارهم على فسادهم فتعدين من المنافقين ، او الانكار عليهم وتحمل أذاهم فتقومين بواجب وتؤدين ديناً .

سخرت من المتجرين بالوطنية ، وانحيت على المتأكلين بالدين ، وعبثت بالواغلين على الادب ، وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك أنك لم تتحامل ولم تجامل ، وأنك انصفت من انتقدت ، وما تعمدت أذى من زيفت كلامه ، وخالفك في آرائه .

ومن يحاول تهجين المعتقدات ، والقضاء على الخرافات والترهات لا يطرب صوته كل سامع . أنت اردت العقل أن يجري طليقاً من القيود الثقيلة ، وأصحاب الاهواء حبيب اليهم الجمود على قديمهم ، والاكتفاء بما ورثوه من آبائهم وجدودهم ، وما خطر ببالهم أن يُعملوا أفكارهم في اقتباس الاصلح ، ولا أن يُتْعِبوا انفسهم في ادراك ما لم يسبق لهم معاناته .

أنت يا نفس لم تحسدي وحُسدت ، ولم تشمتي وشمت بك ، ولم تؤذي وأوذيت ، وكنت تمجدين العاملين ، وتأخذين بأيدي المبتدئين ، ولا تضنين بما تعرفين ، ولا تدّعين علم ما لا تعلمين . والى هذا كنت تهللين بسقوط المنافقين والمتجسسين ، وتهللين يوم يدب التمزيق في اموال جمعت ببيع المروءة وفساد الذمة .

انت ما عاديت إلا مأفون الرأي ، وما شاكست إلا زعانف الحشوية ،

وما تأففت إلا من زبانية السياسة ، واذا غلوت في القضاء على غلوائهم ، فمذرك كونك من الآدميين يجوز عليك ما يجوز عليهم من ضعف وغلط . والتيار قد يقذف بالواقف في جريته الى مخاضات لا يختارها .

كرهت بانفس التعصب والعصبية ، وحاربت الجهل والأمية ، وفضحت مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقتّ الحزبية والجمعيات السرية ، وتفانيت في الدعوة الى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جهرة للعرب والعربية ، وللاسلام والمدنية الغربية . خطة واسعة لو اقتصرت فيها لخف ما حمّلتيه ، ولجاءت الثمرة أكثر جنىً وألذّ طعماً ، ولكن من الامور ما لا تتجلى للبصائر أسراره لاول نظرة ، وللايام والبيئات حكمها ، والغيب عنك مستور.

عاشرت أجيالاً ثلاثة كان في الأول معلموك ومؤدبوك ، وفي الثاني اخوانك ومعارفك وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعملك . وكان جيلك الاول خير اجيالك لما تخلله من آمال واحلام ، وبشارات بما كنت ترتجين في دنياك من استفاضة الصيت وارادة النفع .

جهدت كأن الموت لا يلاقيك وكنت كل يوم تتوقعينه ، فما قصر حسابك له من أجلك ولا زاد فيه ، وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن حيلتك بل بقضاء وقدر .

وأدركت بأخرة أن ليس في العالم امس اليوم وغداً غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة ، فاذا خرجت من هذه الفانية وحسانتك عدلْ سيئاتك ، او شالت الحسنات قليلاً في ميزانك ، فقد فزت فوزاً عظيماً ، وأنت اذا لم يحقق الزمن أغراضك كلها فلست أول من أعوزته القوة وخانه التوفيق ولا اول من رد فدفن في التراب ، فلا تسألي خالقك بعد الذي جرى لك الا العفو والعافية .

ملحق

يقول واضع هذه المذكرات : اثبت نصوص ما كتبته بالصورة التي كتبت لاول مرة لم ادخل عليها شيئاً من التعديل . واذا امتد بي الاجل اتبعت ما دونت بذيل .

وكان الشروع في كتب هذا اول شهر نشبت فيه الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) وكففت عن التدوين في أواخر حزيران سنة ١٩٤٨ والحمد لله أولاً وآخراً .

جسرين (غوطة دمشق)



فهرس الجزء الثاني من المذكرات

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الثالث

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
« المتنبي »

١٣٦٨ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٩ م

الملكية أم الجمهورية

منذ تقلص ظل الدولة العثمانية عن ولاياتها العربية بعد الحرب العامة الأولى ، كان بعض من يهتمون بالمسائل السياسية يسألونني رأيي في الجمهورية والملكية ، وأيتهما أولى ان ينادى بها في أمة تحاول ان تختار لها من نظم الحكم الأنسب ، وتتهيأ الاندماج في زمرة الدول الممدنة ذات السيادة ، فكنت أحار في الجواب ، وكثيراً ما استعفي من الجهر بما لا يكون منه إلا الوقوع في خطأ يُتناقل ، وإذا أُلزمت بالاجابة فيكون جوابي بشيء من التردد لا القطع ، وربما عـدت على نفسي باللائمة لأني لم ارض عما اضطررت الى التصريح به على البديهة ، وقد يتخلل ما قلت امور يناقضها المشاهد ، والمسألة جدّ خطيرة ، وهي ذات شقين متناقضين ، ووجهين غير متشاكلين .

للجمهورية حسنات ولها سيئات ، وللملكية حسنات ولها سيئات ، أما البشر فسائر نحو الأنظمة الحرة ، متى خير لا يختار غيرها ، كما هو سائر نحو الاشتراكية والشيوعية ، متبرم من الرأسمالية . الجمهورية نسخت قانوناً عتيقاً وأتت بقانون كان نتيجة ارتقاء العلم وكثرة التجارب ، ويقوم الحكم الجمهوري على دعائم من الحرية ضرورية لقيام امر الجماعة . والملكية نظام لا بد فيه من إغماض الطرف عن بعض الحريات .

الجمهورية نظام شعبي طريف ، والملكية نظام تغلّب تليد ، الجمهورية بالانتخاب وفيها تجدد ، والملكية بالوراثة متسلسلة من الأب الى الابن او من الملك الى اقرب الولد للجد ، الاولى يطمح اليها كل من يحسن استمالة قلوب الشعب ، والثانية تتم بالاقرار المليك وآله بالصدارة والحق المكتسب ، والملك رمز أمته وعظمتها وتاريخها اكثر من رئيس الجمهورية .

ارتقى البشر في ضروب الحرية حتى ليظهر اليوم كراهته للنظام الملكي ، لأن هذا يتطلب من الشعوب ان يعطوا الطاعة فقط ، والنظام

الجمهوري يمتع القائلين بما يشتهون . الملك يمثل شعبه ابداً بسلطة لا نهاية لها ، ورئيس الجمهورية يمثلها بسلطة موقتة محدودة . الملك يختار رجاله على الأغلب من ارباب البيوتات القديمة ، اكثر مما يعنى الرئيس بذلك . ولا يكون حزب هذا على الأكثر إلا سواد الشعب ، وقد يكون اعتماده على السقاط والأراذل .

تقوم الجمهورية على الأمل والتجدد ، والملكية على الرضا بما جرى الاصطلاح عليه ، الأولى تمثل جديداً متباعداً عن روح الماضي ، والثانية صورة من صور القديم قد تصبغ بصبغة الحديث . والملك في ملكه كالأب في بيته وبخاصة إذا كان ممن اتقنوا صناعته ، وعرف ما ينفع أمته ويضرها ، والرئيس أشبه بوصي اخذ على نفسه ان يكفل يتامى حتى يشبوا ويقووا . والملكية المقيدة نافعة اذا حسن انتخاب مجلسها أكثر من الملكية المطلقة التي لا يخلو القائم بها من لوثة استبداد ، والملك الدستوري اقرب الى قلوب امته من الملك المستبد ، فهذا لا يحب إلا رياء ، وشتان بين من تخضع له مختاراً ، ومن خضوعك له عن رهبة او رغبة . والطاغوت من الملوك يختار لخدمته من يجيد الملق له ، وقد يقصي من رجاله من يصدقه وينصح له . ولو اعتبرت الكفاءة في انتخاب الملوك كما هو مذهب المعتزلة لرجحت الملكية على الجمهورية .

الملكية تورث المملكة شيئاً من الاستقرار ، وهو من أهم العوامل في نهضة الممالك ، وربما رجحت كفة الملكية على الجمهورية إذا كان من يتولى الملك ملكاً استوفى صفات الملك الحازم ، وهذا لا يتأتى كل حين ، والغالب أن يخلف الملك العظيم من ليس من عياره . وإذا زعم بعضهم أن الملكية تبذر الأموال ، فالجمهورية لا تقصر عنها في هذا الباب ولكن على طريقة أخرى ، أي بفتح الاعتمادات والايغال في تضخم الموازنات ، والمآل الى الاسراف واحد ، وإنما الاختلاف في الأسماء . وفي الملكية تسرق أموال الأمة بلا قانون ، وفي الجمهورية يلبسون السرقات صيغة قانونية كمن يحتال على الزنا بصيغة من الحيل الشرعية . وفي الملكية

تكثر الشهوات ، ويستكثر الملك وآله من الاستمتاع بالنساء بما يخرج عن القصد ، فيتناسل الأبناء وأبناء الأبناء ويكثرون كثرة يدخل الخلل على إدارة الملك . وفي الجمهورية يكثر الفحش في أنصارها لسهولة الوصول الى المال وعدم المبالاة في الاسراف فيه ، ولا يقيّدهم شرع ولا تستشعر قلوبهم الخوف . وفي الجمهوريين مَن يحاولون أن يغتنموا في أسرع وجه ، يغنمون فرصة مقامهم القليل في الحكم . اما الملك فيرى ، وآماله في الملك أطول ، أن المملكة مزرعته ، ومن شأن مالك المزرعة أن يحمي جهده إنسانها وحيوانها ، ويدفع عنها ما يعجل خرابها ، ولسان حال الملكي : كان أبي وبهــذا ظهوري ، ولسان حال الجمهوري : أنا واضع أساس مجدي . في الحكم الملكي يكثر الزهو والبذخ ، والحكم الجمهوري أقرب الى الطبيعة الساذجة وقد لا تقل الجمهورية عن بذخ الملكية في بعض البلاد .

إذا ابتليت مملكة بملك يحسن الهدم ولا يحب التعمير ، ويستبد ولا يعرف العدل ، يشتد بلاء أهلها ولا ينقذهم من طغيانه إلا الثورة غالباً ، والثورة لا تحمد مغبتها ، الثورة تنتهي بقتل الملك وإهلاك آله ومن يمتّ إليه بصلة الحكم ، كما حصل في اليمن مؤخراً وما أغنى عن الامام ما جمع من مال وما سدّ من منافذ النور على شعبه . أما رئيس الجمهورية فمهما استبدّ كان من ورائه قانونه لا يمتع بمنصبه أكثر من بضع سنين ، وبمثل هذه البواعث نرى اليوم عدد الجمهوريات في العالم يزيد وعدد الملكيات ينقص . والفرد مظنة الاستبداد أبداً ، والحكومة النيابيـة مهما دخلها الفساد أقرب الى العدل والعقل .

مجالسنا النيابية

لما عهد الى السيد سالازار بوزارة مالية البرتغال اشترط شرطين أحدهما ألا تعتمد الحكومة في موازنتها مالاً لتصرفه في الانتخابات ، والثاني ألا تنفق وزارة من الوزارات شيئاً دون اشرافه على صرفه ، وبذلك استقامت موازنة البرتغال ، وكانت منذ مئة سنة من الموازنات التي لم يتعادل دخلها وخرجها . وشرع الوزير ورصفاؤه بمشاريع شغلوا بها اليد العاملة ، فعمرت مملكتهم وصلحت حال أهلها .

أما حكومات الشرق العربي السارية على النظام النيابي فتعتمد مبالغ عظيمة للانتخابات لتضمن لها الأكثرية في المجلس ، ويدوم حكمها ويخفق منافسوها ، ولا يفوز بالنيابة فيها على الغالب إلا الجاهل الذي يستجدي الأصوات أو يبتاعها وعند نفسه انه يفادي بالمئة ليحصل على الألوف ، وغايته أن يقعد على مقاعد المجلس ويرفع يده بالموافقة على آراء جماعته .

وقد رأيت اصنافاً من النواب كان من اعظم الجرائم توسيد هذه المهمة الشريفة لهم ، فمنهم الامي الذي لايقرأ ولا يكتب ومنهم من دأب طول حياته على التجسس لكل صاحب سلطة ، ومنهم من سعى بشباب قومه وشهد فيهم الشهادات التي ساقتهم الى حتفهم ، عين نائباً مراعاة لخاطر احد ذوي قرباه من ساسة لبنان ، فجلس بضع سنين في كرسي النيابة ولم يؤثر عنه ان قال كلمة في المجلس ، وقصاراه ان يقبض الراتب ، واذا عهد اليه امر افسده ، واذا وصلت الى يده اموال ابتلعها وكان سمساراً لطلاب الوظائف يعين لكل وظيفة ثمناً ، ورأيت نائباً آخر غرق في الجاسوسية للغريب وكان آلة شر في احدى الثورات وقتل كثيراً من الأبرياء بأيدي سادته الذين تطوع في خدمتهم ، ولا شأن له اليوم الا امداد بعض المقامات العالية بالأخبار التي يرتاحون الى سماعها كأنه

بعض رجال الأمن والمباحث . ومن خلا ذهنه من معاني الحرية كيف تطالبه باقامة صرحها والعمل لما يصلحها ، ويكفي ان يقال ان هذا النائب لايعرف الغرض الذي جاء لأجله ، وليس له مزية من مزايا الرجال . ولو قد كتب لك ان تطارحه الحديث في ابسط المسائل لتبينت مبلغه من العقل والمعرفة ولأيقنت انه ممن تملكته العامية وليدة الأمية البغيضة .

حقيقة ان الحكم النيابي الذي أتانا به الغرب ينطوي على سخف كبير ، وحكم يقوم على مثل هؤلاء النواب لا ينشأ عنه غير الخلل في ادارة الدولة وسياستها ، وفي الغالب اذا اجتمع جماعة لامر عام ان يضلوا طريق الصواب ويتبع قويهم ضعيفهم وعالمهم جاهلهم وان كان الحق مع هذا القوي وهذا العالم ، ويكون القول الفصل للثرثار لا لصاحب الأناة والتعقل ومجالس مؤلفة من مثل هذه الاعضاء المؤوفة يملي فيها الشياطين ارادتهم والباقون يؤمنون على كلامهم بلا فهم من أضعف المجالس .

حاول أحد النواب وضع اقتراح في المجلس يفيد العدالة ، وذلك بامتاع القضاة بالحصانة القضائيه ، ووافقه على رأيه خطاً أكثر من أربعين نائباً فلما نظر وزير العدل الى المتآمرين ساعة المناقشة في الموضوع نظرة فهموا منها التهديد امتنعوا عن اعطاء الرأي ونسوا تعهدهم لزميلهم ، ذلك لان لهم قضايا في المحاكم اذا أغضبوا الوزير يخسرونها ، وهم ممن لاتهمهم غير مصالحهم الخاصة ، ولو كان ما يقررونه قميناً بان يعيد العدل العمري الى الارض .

فاي نفع يأتي على مثل هذه الايدي ؟ وهل يطيب لحكومة تحترم نفسها ان تصل الى الحكم بواسطة امثال هؤلاء الجهلاء ومن اختاروهم من العامة في المدن والقرى ؟ واقسم بالله أن جزءاً من النواب لا يدركون مغزى المناقشات التي تدور في المجلس ، ومنهم من ينام او يتناوم ويرفع يده متى طلب منه اعطاء الرأي ـ وأحب التزلف الى رئيس حزبه أو زعيم جماعته ، ومنهم من لا ينتبه عند التصويت ويغلط فيعطي رأيه للحزب المخالف له . ومن الغريب أيضاً ان مثل هذه الطائفة من النواب لا تحضر الجلسات النيابية بصورة مطردة تفر من واجبها كما يفر الاطفال الكسالى من المدرسة .

ولكم رأينا الأخرق يفوز بالنيابة بتعجيز الناخبين او ابتياع اصواتهم او بسلطان الحزب الذي ينتمي اليه والزعيم الذي ادخله في جملته وتبناه وآخاه وهناك الرجل التام الادوات لا ينال سوى أصوات ضئيلة تلعن قوماً ضاع الحق فيهم ، وما دام معدل من يقرأون ويكتبون في مجموع الشعوب العربية لا يزيد على عشرين في المئة لا يجيء النواب الا من هذا الطراز .

والنواب يخرجهم الحزب بمختلف الطرق بالتزلف والمداجاة والتهديد والوعود والرشوة وكسر صناديق الانتخاب والاستعاضة عنها بصناديق فيها كل من يحاول اشباعهم امتاعهم بالنيابة ، وبالقاء أوراق مزورة في الصناديق التي تصل الايدي الى العبث بها ، وشأن المجالس النيابية في مصر والشام والعراق ، شأن كل مجلس على الاغلب ، يتولى اقليته الحركة فيه والغالب ان يكونوا اقل من عشر اعضائه ، يدير الممتازون المناقشات وقصارى الباقين تكثير سواد المجلسيين .

وشيء آخر لاحظته في بعض المجالس النيابية وهو انه قد يكون من اعضائها الاكفياء حقيقة في السياسة والقانون والاقتصاديات وتمضي الشهور ولا يفتحون افواههم بأمر يعود على الامة بالخير ولا يتقدمون اليه باقتراح مفيد . ومثل هذه الحال اذا تجلت في الاميين لا يرضي صدورها من رجال مثقفين مدركين ، وكأن الكفؤ الذي يختار السكوت في مجلس هو مصنع الكلام ، ليس الا صاحب غرض وصل اليه او يحاول الوصول اليه فلا يريد ان يعدل ولا يجرح لئلا يتأذى به احد بيده نفعه وضرره .

اجمع عقلاء الغرب على ان الحكم النيابي افلس وما جنيت منه الثمرات التي كانت تنتظر ، والفوا في ذلك الكتب ونشروا الرسائل والمقالات ، ونحن ماذا نقول في هذا النوع من الحكم الذي نقلناه عن الافرنج مقلدين ، ولا ننظر الى ما يوافقنا منه وما لا يوافقنا نظر تدبر وبصيرة ، قال احد سفراء فرنسا ان جميع شعوب البحر المتوسط وفي مقدمتهم نحن الفرنسيس

ليسوا من اللائقين للحكم النيابي ، ونحن نقول ان العيب لم ينشأ من النظام النيابي فهو صالح للامم الراقية التي خفت فيها الامية ولكن العيب في منفذيه فاذا كانت لهم القوة اساؤا استعمالها واعادوا الاستبداد تحت طـــلاء الحرية يخدمون مصالحهم ويدوسون مصالح وطنهم وابناء وطنهم .

النصح الخالص

كان صديقي الاستاذ جرجي زيدان صاحب الهلال كثيراً ماينصح لي منذ انشأت مجلة المقتبس في القاهرة سنة ١٩٠٦ ان انقطع إلى اصدار المجلة واترك الجرائد السياسية لأن استعدادي للعلم اقوى والتمحض له أولى ، فكنت اعتذر بأن المجلات لا يعيش بها اصحابها لقلة ارباحها فلا بد من المؤازرة في الصحف اليومية ليتوازى الدخل والخرج .

ولما ازمعت العودة من القاهرة إلى دمشق سنه ١٩٠٨ لانشيء جريدة المقتبس السياسية كان اول ماتفضل ونصح لي به العلامة الدكتور يعقوب صروف منشيء المقتطف — وكان يعطف علي عطف استاذ على تلميذه وأب على ابنه — الا ادخل في السياسة واقتصر على انشاء مجلة المقتبس العلمية قال اني كنت امس أُفكر في أمرك وأنت على أهبة السفر لتعود إلى بلادنا فرأيت خدمة العلم أجدر بك وأهنأ لك ، فيا أخي تأمل كيف تضيع غـداً اوقاتك في الجريدة السياسية ، تنام على فكر وتنتبه على فكر ، وعليك كل يوم ان تنشيء مقالة افتتاحية تلذ القارئين مطالعتها فتضيع بذلك مواهبك وتضل في تيه لا تعرف متى وكيف تخرج منه . فقلت له إني كنت أخذت على نفسي عهداً إذا تمتعت الصحافة في الشام بحريتها ان اخدمها وأخدم الأقطار العربية بانشاء جريدة يومية فأنا اقوم الآن بما تعهدت به . وفارقته ولم البث اشهراً قليلة ان عدت إلى القاهرة اعتصم بها ، وقد اغلقت الحكومة التركية جريدتي ، واقامت علي دعوى تضعف بها قوتي ، فالتقيت بالدكتور صروف وشريكه الدكتور فارس

نمر في بعض شوارع القاهرة فآخذني استاذي صروف على عدم استماعي لنصيحته . فقال الدكتور نمر : لا تحمل عليه فهذه السياسة يأخذ تيارها من يعانيها إلى حيث لا يريد ، والمقتبس اليومي لازم لنهضة سورية لزوم المقتبس العلمي لتنوير الأفكار ، والخير غير مضمون في الأعمال كلها .

لم انتبه للنصيحتين الصادرتين عن عالمين كبيرين من علمائنا زيدان وصروف ، ولم أدرك انهما رحمهما الله ، نظرا الى استعدادي فعز عليهما ان ألقي بنفسي في مخاطر السياسة ومتاعبها ، اما انا فجربت طالعي ودخلت المعمعان بنية سليمة واجتهاد كلي ، فخسرت وربحت في آن واحد : خسرت وقتي وراحتي ، وربحت تجارب ما كنت احصل عليها لو اقتصرت على النشرات العلمية ، وليس في الأرض شر محض ولا خير محض ، والحياة تتقاضى المرء ان يذوق شاء ام ابى من خيرها وشرها .

وبعد سنين رجعت إلى العمل برأي الصاحبين الحبيبين في ترجيح الاشتغال بالعلم على السياسة ، وما كنت اشك شهد الله الا ان نصيحتهما ثمينة املاها الاخلاص في الصداقة وحب العلم ، وهما لا يبغيان منها إلا راحتي ومصلحتي اولاً وتكثير سواد خدام المعارف ، وكان عددهم قليلًا يومئذ . رمتني السياسة بكل عظيمة وتلقيت ضرباتها بالصبر ، ولو كتب لي ان اتابع السير فيها لمتعت بأرقى المناصب واوفر المكاسب وارادة المولى فوق كل ارادة .

اللغات الغربية في الشرق

دام الناس في الشام على العهد العثماني يتكلمون التركية لتولي الوظائف فلما جلا الترك عن القطر جلت معهم لغتهم ، وبطل التكلم بها لعدم الحاجة اليها ، وبقيت بقاياها تردد في السن من تزوجوا من تركيات ، ومن يستخدمونها احياناً من طبقة الموظفين ، حنيناً لأربابها وتذكراً لسلطانها ، ولما رحل الفرنسيس عن سورية ولبنان كانت الفرنسية قد رسخت قليلاً في الأولى وكثيراً في الثاني ، ومع هذا رميت في كلا البلدين بالكساد ، وكانت من ادوات الزينة والسياسة والعلم ، فأصبحت كما كانت قبل الاحتلال لغة علم وتجارة ، وعز على من كانوا يعيشون بها ان يروها تنحط عن مرتبتها ، وتفقد تلك السوق الرائجة التي اقامها لها المتغلب ، على عادة كل فاتح يتطال الى نشر لغته بمختلف الطرق ، وللفرنسيس شغف كبير في هذا الباب .

اللغة الفرنسية وان رحل اربابها عن ديارنا قد بقيت لها المكانة التي كانت لها قبل نزول جيش المنتدبين على الساحل والداخل . وستظل الرغبة في تعلمها كما كانت لا تنازعها إلا اللغة الانكليزية ، وهـــذه تتفوق على الفرنسية في اصقاع الغرب والشرق ، وانتشار اللغة تابع للسياسة ، وسياسة الانكليز السكسونيين مقدمة على سياسة غيرهم من الأمم اللاتينية . يتكلم الفرنســية في الأرض نحو خمسين مليوناً والمتكلمون بالانكليزية لا يقلون عن مأتين وخمسين مليوناً اي خمسة اضعاف الناطقين بالفرنسية . ثم ان العلم البريطاني كان إلى عهد قريب يخفق على خمس سكان العالم وهذا مما اعان على انتشار الانكليزية . هزمت الانكليزية الفرنسية في الميدان السياسي والتجاري ، وكانت المعاهدات السياسية تكتب في القرون الماضية بالايطالية ثم نازعتها الفرنسية وبقيت قروناً لغة السياسة المرجحة ولغـة التجارة ، ولما انتشرت الانكليزية قبلت في كتابة العهود واستعملت كالفرنسية

في المؤتمرات الدولية واخذت الفرنسية تفقد من قوة انتشارها اليوم بعد اليوم .

ونقول لمن اغتموا لتراجع الفرنسية في الشام انكم على ما انتم عليه من الانتفاع بهذه اللغة اذا عالجتم امركم باتقان العربية فان منكم من يكتب الفرنسية كاهلها ولا يعرف من العربية إلا لهجة بلده العامية ، وعليكم إذا صحت نيتكم أن تبقوا في الطليعة من حيث الظهور أن تعاوروا لغتكم الأصلية بالدرس ، وما تعلمتموه من الفرنسية في السنين الطويلة تتعلمون مايوازيه من العربية في اشهر قليلة ، والمهم في الأمر أن تشعروا بحاجتكم الجديدة إلى هذه اللغة وتحلوها من انفسكم ، وانتم جد عارفين بمصلحتكم الآن ، كما احللتم اللغة الأجنبية وانتم صغار لا تعقلون ، وبذلك أيضاً تقومون بما توجبه وطنيتكم عليكم .

سيكون مصير اللغة الفرنسية في عهد الاستقلال عندنا كما كان مصيرها في مصر بالاحتلال الانكليزي ، احتفظت بمنزلتها وجاءت الانكليزية بعد حين تطلب مكاناً يليق بها في وادي النيل ، وساوت الانكليزية الفرنسية في ستين سنة وكانت الفرنسية مستأثرة بهذا التفوق نحو مئة سنة ، وللانكليزية اليوم شأن لا تنازعها فيه الفرنسية ولا الالمانية ولا الروسية ولا الاسبانية ولا البرتقالية . وإذا كنت تسمع في بعض موانئ البحر المتوسط اللغة الفرنسية فانك في البحر الهندي وما وراء المحيطات لا تتفاهم بغير الانكليزية وإذا كانت الفرنسية منتشرة قبل ثلاثين سنة في جمهوريات جنوبي اميركا اللاتينية بعض الانتشار فالانكليزية اليوم أصبحت هناك تنازعها تفوقها . تحتاج الامم ضعيفة كانت أو قوية إلى استعمال لغتين على الأقل من اللغات المساعدة ، ونحن لن يضيرنا الجمع بين الفرنسية والانكليزية أو الاكتفاء باحداهما ، والمهم الا نقصر في لغتنا ونسد نقصاً يجب ملافاته . فاللغة اول مظهر من مظاهر القومية ومن ضعفت ملكتها فيه وفي وسعه احكامها كان والهمج الهامج سواء .

ضياع الفرص

عرّفني في إحدى رحلاتي إلى باريز الاستاذ برون استاذ الجغرافيا الانسانية في (كوليج دوفرانس) الى صديقة له اسمها السيدة ريفير صاحبة مجلة أزياء تصدر بالانكليزية في الولايات المتحدة دعاية لفرنسا . وقد تلطفت ورافقتني في باريز الى عدة اماكن ماكنت اعرفها من قبل ومنها غابة فونتنبلو الشهيرة . ولما أزمعت الرحيل الى الاندلس اقترحت علي ان تبرق لأهلها في بوردو لأنزل عليهم ضيفاً اصرف اياماً في دارهم فأشهد فيها كيف تعيش الاسرة الفرنسية ، وهيأت لي انواع التسهيلات للقيام بهذه الرحلة فاعتذرت بضيق الوقت ، وارجأت هذه السياحة الى فرصة اخرى .

وفي طريقي من باريز إلى مدريد تعرفت الى مهندس برتقالي عائد الى بلاده فسر بلقاء رجل عربي واقترح علي ان اعرج على لشبونة لأزور ما فيها من آثار العرب فاعتذرت أيضاً بكثرة الأشغال وضيق الوقت ، ومن الناس من إذا كان قاصداً مكاناً بعينه يعتقد انه يجب عليه الا يقصد مكاناً آخر قبل اتمام مقصده الأول وأنا من أهل هذا الخلق على مايظهر .

وكان السيد بيير لوتي ابن اخي المارشال ليوتي مصلح مراكش العظيم اقترح علي في باريز ان يبرق الى عمه ليرسل لي سيارة الى جبل طارق تحملني الى رباط الفتح فأزور الغرب الأقصى ، وكان يتوقع ان يكرم عمه وفادتي لأنه يعرفني ، وكان اهدى المجمع العلمي العربي بواسطتي جميع ما صدر عن مراكش من المؤلفات بالفرنسية والعربية ، وتفضل واثنى علي كثيراً واغتبط ان كنت السبب في ربط الصلات العلمية بين قطرين اسلاميين سورية ومراكش ، فاعتذرت ايضاً عن القيام بهذه الزيارة (٢٤ تشرين الأول ١٩٢١) .

ولكم اضعت الفرص في امتناعي عن مثل هذه الرحلات المفيدة التي كان يقترحها علي من كنت ألقاهم في اوربا من اصدقاء السفر ثم أندم

على تخلفي عن اجابة طلبهم بما فيه متعة للنفس وفائدة ظاهرة استفيدها وافيد بها من اكتب لهم من ابناء الشرق .

اطالة التفكير في أمر قد يضيع الفرص السانحة ، وما كل يوم يتاح مثلها اذا ذهبت لا تعود أو يعود القارظان . ومن اعظم الفرص التي اضعتها ما وقع لي في زيارة العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي مع والدي رحمهما الله في المدرسة البطريركية في بيروت وكنت في السادسة عشرة . ذلك اني كنت أسمع بشهرة الشيخ في العلم والأدب ويروقني ما يكتبه من الانتقادات ، فحملت والدي على زيارته فلبى طلبي مسروراً فلما مثلت بين يدي الاستاذ العظيم وتكلمت كلمات قليلة مال الشيخ الى والدي وقال له اترك لي ابنك أُخرجه لك في الأدب فاني ألفيته نبيهاً فأجابه أبي : اني أحب ذلك من صميم قلبي لاني اود تعليمه لولا اني لا اقدر على مفارقته . ولو كنت الححت قليلا على والدي وبينت له ما اتوقعه من تخريج الاستاذ لرضي باقتراح الشيخ وكان في ذلك كل الفائدة لي .

هذه فرصة معنوية ثمينة ضاعت وضاعت علي فرصة مادية أيضاً . ذلك اني عرضت عليّ بضعة افدنة في قريتي وكان ثمنها جاهزاً عندي فأبيت ابتياعها ولو اضفتها الى مزرعتي وشجرتها لتضاعف ما أملك . ولكني كنت يومئذ كارهاً سكنى الشام وغايتي ان أهاجر الى مصر وانجو من استبداد العثمانيين وما عاد يطيب لي المقام في وطني بعد ان انذرني الوالي بمغادرة الأرض العثمانية او التزام جانب السكوت والامتناع حتى عن الكتابة العلمية .

تعادي الأسر

من قصيدة في لبنان لصديقي شاعر العراق معروف الرصافي عليه الرحمة وهي تصدق على أهل كل قطر ومصر من أقطارنا وأمصارنا قال :

تلك الربى أما الجمال فواحد ... فيها ، وأما أهلها فاثنان
رجل يسير الى النجاح وآخر ... يسعى وغايته إلى الخسران
متخاذلين بها وهم أعوانها ... ومن البلاء تخاذل الأعوان
ضعفت مباني كل أمر عندهم ... ما بين هادمها وبين الباني
وتفرقوا دنيا كأن لم يكفهم ... في النائبات تفرق الأديان
وسعوا فُرادى للنجاح وفاتهم ... أن التضامن رائد العمران

الخصام في الأديان أقل شدة من الخصام بين أبناء البيوت ، فقد يؤدي التعادي بينهم الى اختلاف يدوم بدوام عمر المتخاصمين . رأيت قضايا حدثت بين ورثة أبناء أب واحد وأم واحدة طالت العشرين والثلاثين سنة . وشهدت أقارب يتباغضون ، فكنت أسألهم عن سبب هذه العداوة ، فكانوا لا يستطيعون أن يوردوا سبباً معقولاً لعداواتهم .

قل أن رأيت أبناء أب واحد يتحابان ، وقلّ ان شهدت ابناء عم وبنات عم يريد الخير بعضهم لبعض ، الحسد يأكل الأكباد وتظهر آثاره على الوجوه ، وليس أشد من كيد أخ وقريب أو نسيب رأى تفوق أخيه عليه في الغنى والسؤدد ، ولو كشف الستار عما تكنّ القلوب من ضروب العداوة والبغضاء ما سلم بضعة في المئة من الناس ، ويندر من يرجو الخير لأهله ولقومه وللبشر ، وندر من صفت نفسه من الكيد لكل من افلح ، وهذه العداوات مشاهدة على اتمها في الأقارب ثم في ابناء الحرفة الواحدة وابناء الحي الواحد المتجاورين والمتشاكلين ولا تزال تضعف حتى لا يكاد يُرى لها اثر فيمن نأت ديارهم وقلت روابطهم .

وأقول لمن تنقبض صدورهم من هذا التعادي الذي لا سبب له اكثر

الاحايين : على كل من شاء ان يعيش بعيداً عما يكدره في الحياة ان يعمل على الدوام بالحكمه التي قالها هانوتو لوصيفه موروا واشار اليه ان يكررها كلما اراد ان يفرج عن نفسه ، وقال إنه استعملها ونفعته وهي : كل عارض يزول ، وكل حديث يُنسى ، وكل خلل ينظم ، وما من انسان يفهم شيئاً بلا شيء ، ولو كان كل العالم يعرفون ما يقوله كل العالم عن كل العالم ما كان إنسان يكلم انساناً . قال وإياك يا اخي ان تجعل للخوف سبيلاً الى قلبك فإن العدو الذي انت خائفه يخافك في الوقت الذي انت تفزع فيه منه .

صراحة العلماء

من دواعي التوفيق ان من اخذت عنهم العلم العربي كانوا من طبقة ما عرفت الغش والخديعة ، وكانوا من الأحرار المجددين وإن كان ظاهرهم لا ينبيء عن ذلك . ومنهم استاذي السيد محمد المبارك ، وكان متصوفاً ، ومريدوه اخلاط الزمر ، وتعرفت بالضرورة الى بعضهم ، فاغتنم احدهم فرصة هذا التعارف وتقدم الى الأستاذ وقال له : ولماذا يا مولاي لا توعز الى تلميذك ان ينضم الى جماعتنا ويدخل في طريقتنا ، وتكرر هذا الطلب منه ، وفي آخر مرة كثر الالحاح فعبس الشيخ وقال بوجه منقبض : هــــذا طالب علم ويكفيه ما هو فيه مَشغلة . ولو لم يقطع الأستاذ على هذا الفضولي سلسلة هذيانه لانقطعت عن درسه ، ولكان من ذلك الضرر العظيم على مستقبلي . ومن الغريب ان هذا الملحاح لادخالي في الطريق على قلة استعدادي له ظهر بعد مدة خلل في عقله وقتل امرأته .

وحدثني ابن شيخي هذا ، الأستاذ عبد القادر المبارك ان بعض جماعة والده اسروا اليه ان ابنك يعاشر (كرد علي) فيخشى ان تسري افكاره إليه وتفسد عقيدته ، فالأوْلى منعه عن مخالطته . فمـا كان من الشيخ

إلا ان قال لنجله : رجائي ألا يؤثر فيك ما يشيعه بعضهم من اني غير راض عن صحبتك (كرد علي) أنا راض عن هذه العشرة، وانت حر يا بني ان تصحب من تحب. وكنا ندرس مع ابن شيخنا بعض كتب الأدب التي ما اعتاد المشايخ قراءتها.

رأى استاذي عدم ميلي للتصوف وما احب إدخالي فيما لا يعنيني ، ذلك لأنه لا يغش ولا يدلس . ولو كتب لي ان « اتصوف » لاختلت الخطة التي خططتها لنفسي في الدرس والبحث . وكان مما زهّدني في تصوفهم أني طالعت بعض كتبهم فمنها ما فهمته واكبرته ، ومنها مـا لم احلّ رموزه كالفتوحات المكية ، فإن في هذا الكتاب الذي لم يفتح الله صدري لفهمه قطعاً تعد من الأدب العالي ونبذاً جميلة في الأخلاق ، والى جانبها قطع لا يمكن حلها إلا بإلهام إلهي وبعض ما جاء فيها من المعاني مناف لما ورد في الشرع ووافق عليه العقل وربما كان منها مـا هو مدسوس على ابن عربي او كتبها في حال غيبوبته او تعمد إبهام عبارتها كما يتعمد بعض الفقهاء إدخال الغموض على كتابتهم حتى لا يتلقف الطالب علم الفقه بطريقة هينة لينة .

الحنبلية

سأل سائل عما اقصده من قولي فلان حكمت عليه حنبليته ألا يفعل كذا وكذا ، وفلان مأخوذ بحنبليته . فأجبته اني اقصد بحنبليته تشدده وتعصبه وتكلفه التزمت والرزانة . والأرجح ان هذه اللفظة كانت تطلق في بعض الأدوار الاسلامية على الحنابلة الذين كانوا ينكرون المنكرات بعنف وكثيراً ماكان انكارهم يؤدي إلى اهراق الدماء وخراب المدن والقرى وتعادي الناس ، حتى أن صاحبهم قال للخليفة العباسي (مَه° ياصبي) فعوقب على هذا الكلام الفج الذي لا يقابل بمثله خليفة المسلمين ، وربما كان للحنابلة يد في تجسيم مسألة خلق القرآن وكان منها اشتعال نار حرب أشبه بحرب دينية في بعض أرجاء المملكة العباسية أوائل القرن الثالث .

مثال من الحنبلية البغيضة : شيخ من كبار شيوخ عصره كانت تحرم في نظره رؤية الصور المعلقة على الحيطان وكان اذا زار بعض المسيحيين أرسل أحد تلاميذه الى صاحب الدار يقول إن الشيخ لا يدخل غرفة فيها صور فيضطر المزور أن يأمر برفعها في الحال ، أو أن يغطيها بستار يحجب ما وراءها لئلا ينقص ايمان الشيخ بالنظر اليها ؛ وهذا الشيخ كان يختص غير المسلمين بزياراته ولا يزور المسلمين وان كانوا من رحمه.

ومن الحنبليات التي يصعب تعليلها انه أراد مستأجر حانوته وكان رومياً ظريفاً ، على أن يرفع الصور من الجدران فقال له المستأجر ولماذا تطلب مني يا سيدى أن يكون ايجار محلك ليرات انكليزية وهذه الليرات نقش عليها صور ملوك انكلترا ، فلم تحل الصور في النقود وتحرم اذا كانت على الحائط .

ومن الحنبليات أن يحظر أحد المشايخ على فلاحيه زرع الاينسون لانه يدخل في العرق والعرق محرم ، فاذا اطلق الشيخ زراعة الاينسون فكأنه أباح نشر المسكرات ، وفاته نفعنا الله بعلمه وتقواه أن الاينسون

يدخل في كثير من العقاقير والادوية ولو استمع الفلاحون لفتواه لفاتهم موسم من المواسم الزراعية الرابحة . وربما تدرج الشيخ بثاقب رأيه الى تحريم العنب والتمر ومنها تستخرج الخمور ايضاً .

ومن أعجب ما تصرفت به الاقدار ان نسل هذين الشيخين التقيين النقيين طلقوا كل حنبلية وخرجوا عن تزمت جديهم العظيمين ، وراحوا يتعاطون كل الخمور والمخدرات ، ويستحلون انواع الأموال يأكلون الاوقاف سراً وعلناً ويقولون ما وقفها الواقفون الا لنا ويستبيحون اختلاس أموال الدولة بمقادير واسعة .

ومن الحنبليات ما روي لي من أن أحد النظار على وقف أهلي كان اذا جاء مزرعة الوقف لا يبيح أن تشرب دابته من بئره أو تقضم شيئاً من القصيل أو التبن لان ذلك ينافي الذمة وهو مال موقوف ، أما أن يقتطع هو من مغل الوقف كل ما طالت يده اليه وخصوصاً اذا أيقن أن سرقته لا تنكشف للمستحقين فهذا من الحلال الزلال ، ومن أصعب ما يثقل على الطبع أن يصدر هذا الرأي السخيف من عامي وأجهل من عامي ولا نخلو من سخفاء يستجيبون اليه في هذا العصر .

وحنبلية ممزوجة بنفاق عمل من يبدل راتبه من الصراف اليهودي كلما قبضه على رأس كل شهر بدعوى أن مال الدولة تدخل فيه مكوس لا يجابها الشرع فهي نجسة أما مال اليهودي فطاهر لا شبهة في طهارته ، ومنها امتناع ذاك النائب الاخرق عن اقرار موازنة الدولة بدعوى ان فيها أموالاً لا يحل فرضها على المكلفين . وكان من جهة اخرى يأخذ راتبه من هذه الأموال المحرمة .

ويطول شرح الحنبليات التي تصدع سمعي بها منذ القديم . اما زهد بعضهم باموال الحكومات والدول فهذا مزاج خاص نشأ من تدين واخلاق حسنة فهو دين واصحاب الحنبليات لايرجون من حنبلياتهم الا الدنيا .

اختلاف الشرقيين

من حكم السيد جمال الدين الافغاني : شر أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف قد اتفقوا على الا يتفقوا . وقال : الاحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها تنقلب غالباً الى شر داء . يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الامة مطالب وغايات شريفة فيناصرونه ويكون له اصدقاء في البداية ثم تظهر الأثرة وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل اعداء في النهاية اهـ .

وبالسير على نظام الغرب تجلى فشلنا في تأليف احزابنا السياسية لاعتقادنا ان الغاية من تأليف الحزب السياسي الوصول الى الحكم وخدمة المصلحة الخاصة . ولما كان افراد الحزب مختلفة تربيتهم تتسرب الاغراض اليه وتتلوث بما قد يخفى على قادته او يعرف هؤلاء اشياء ويكتمونها ويكون للوسط بعقله من رجال الحزب الشأن الاول ويهمل رأي العبقري منهم ويضطر الى ان يسير مع ضعاف النظر الخالين من كل تجربة .

ولا يستغربن ان تنحل كلمة الجماعة بظهور حقيقة تركيب الحزب للملأ ويعين على هذا اخفاق بعضهم في الوصول الى ما أملوا من حزبهم وحسدهم من اقتسموا الغنائم وحدهم مع انهم كانوا بزعمهم اشد بلاء في الخدمة واخلاصاً في القصد . فيتخلل الخلل ذاك العمل وتتداعى أركان الوحدة وتذهب الغاية المرجوة منه لخير الجماعة .

رأى بعض الأبالسة ان الدين من أشد العوامل في استتباع العامة ، فازمعوا ان يبدأوا بعمل ينفعهم فساروا نازعين الصبغة التي طالما فاخروا بالاصطباغ بها فلما شاهد أرباب الشأن ان باطل ادعياء الدين لا يقاتل إلا بسلاح مثله أخذوا يميلون كرهاً كفة جماعة آخرين فظهروا مستظهرين بارباب القوة وان كانت النفوس كارهة للصورة التي اوصلتهم إلى مقاعدهم ، وقد تقاتل السياسة الباطل بالباطل لتحقيق أمنية يخيل انها نافعة . نقول نافعة

ولو ظفر اولئك الذين نفخوا في نفوس العامة ما نفخوا باسم الدين لتبدلت الأوضاع غير الأوضاع ولرجعت الأمة القهقرى لا محالة .

ان من تطالت نفوسهم إلى هذه الثورة لا يعرفون الاضطلاع بما اليه يدعون وهم اذا كانوا لم يفلحوا فيما تمحضوا له فلن يفلحوا في أمر ادعوه وهم منه عارون ، بيتوا ثورة للقبض على زمام الحكم وكان لصديقي السيد سعد الله الجابري رحمه الله شرف القضاء عليهم . صادفته بعد سنة من وقوع هذا الحادث الخطر في فندق فقلت له : دعني أقبل عارضيك فانت والله ابن حلال حقاً ، ولولا اقدامك على ما اقدمت عليه فقضيت على من جعلوا من الدين ستارة يلعبون خلفها لوقعنا في شر اعمالنا .

الدعاية للفضائل

سبقنا الغرب إلى كل نوع من انواع الدعـايات فنجح كثيراً ، وما انتشرت النصرانية في أوربا إلا بفضل ماتم لها من الدعاية المنظمة . وعندهم دعاة للخير ودعاة للشر ، ودعاة لجلب المال ودعاة لانفاق المال ، ولكن ما يخطر وما لا يخطر في البال من الأعمال .

لما أرادت بعض الولايات المتحدة الاميركية منذ سنين ان تبطل الأشربة الروحية وشددت على شاربيها وأنشأت دعاية واسعة النطاق تنفر بها الفريق الآخر القائل باطلاق الحرية في تعاطي المشروبات ، قام فريق عدم الحظر او الاباحة بدعايات عجيبة حتى بطل المشروع وعاد الاميركيون لما كانوا عليه واغتبط المبيحون للخمور واخفق خصومهم .

ولكن دولة صغرى في شمالي اوربا وهي السويد قام بها دعاة منع الأشربة فنجحوا وبعد ان كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ - ٤٠ ليتراً

من المسكرات اصبح لا يصيبه اكثر من ٦ ليترات سنة ١٩٠٥ ونزلت مقطوعية كل فرد إلى سدس ما كانت عليه والمعقول انها نزلت بعد ذلك كثيراً حتى لم تعد تذكر وذلك بالدعاية المحمودة للتنفير منها .

هذا ما كان في بلاد قد يحتاج ساكنها الى شيء من الأشربة يدفئه ويقويه على اتقاء زمهريرها وبردها . اما في مصر والعراق ثم في الشام فان انتشار الغول اي الالكحول سائر بخطى سريعة ولا سيما (الويسكي) تعلم الشاربون الادمان عليه من الانكليز وجيوشهم في الحرب . وأخذنا غيره من اصناف المشروبات حتى اصبحت رسومها في الجمارك تؤلف رقماً عظيماً .

تركت اكثر حكوماتنا العربية الحبل على الغارب في مسائل المشروبات ولسنا علم الله في حاجة اليها للدفء ولا لغيره وشريعتنا تحرم قليلها وكثيرها وما رأينا جمعية رائدها الحد منها قامت بنية حسنة تبعد الناس عن هذا العدو اللدود الذي طالما شكت من غوائله اوربا واميركا على اختلاف اقطارها ومذاهبها اللهم الا جمعية واحدة في مصر ينظر اليها القوم نظر السخرية وهي دائبة على عملها .

وما قلناه في الأشربة الروحية يقال في المخدرات التي خصت بالبلاء بها ارض العرب كالقات في اليمن والحشيش في مصر والأفيون وغيره من المهلكات يستعمل في غفلة ضابطة الأخلاق وحكوماتهم ساكتة لانها تتقاضى الرسوم عنها وتدخل خزانتها بلا نكير وتقول عن نفسها انها حكومات اسلامية .



المعلمة العربية

طلب بعض ارباب الشأن في الحكومة المصرية ان توضع تقارير بشأن مشروع انشاء معلمة أو موسوعات او دائرة معارف (انسيكلوبيذيا) وطلب الي مثل ذلك فكتبت الى السيد عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة المصرية تقريراً ذهبت فيه الى ان هذه المعلمة يجب ان تكون ترجمة وتأليفاً وذهب آخرون الى انه يجب ان يقتصر فيها على الترجمة فقط وهاك التقرير :

نشر معلمة عربية تضم شتات ما انتجه العقل البشري في كتاب واحد اعظم عمل علمي قام حتى الآن لخدمة الجامعة العربية ، واكبر مفخرة لمصر ولرجال مصر في هذا العصر . ولذا كان من الواجب بذل اقصى المجهود لاخراج هذا السفر للناس تام الأدوات ، جميل النظام والرواء ، ينم عن بحث ودرس وتمحيص ، يجمع ما تفرق من علم الاسلاف الى جملة علوم الأخلاف ، ويكون ينبوعاً صافياً يستقى من موارده العذبة القريبة التناول كل عالم ومتعلم ، ويغدو به العلم من يد الطالب على طرف الثمام ، فتدخل الامة العربية في طور الامم المتمدنة العالمة .

يعهد باديء بدء إلى بضعة علماء مدربين يؤلفون لجنة تدعى اللجنة العليا ، وهذه تندب جماعة لوضع اساس مالية هذا العمل وادارته ثم تشرع اللجنة بالنظر في الموضوعات التي يتحتم البحث فيها فتقسم العلوم الى خمس سلاسل على مثال المجامع العلمية الخمسة في باريز ، فيضم كل فرع الى ماءاثله في الجملة ويضع رئيس كل قسم وهو احد اعضاء اللجنة العليا المواد التي يجب ان يكتب فيها من اول المعلمة الى آخرها كما فعل رئيس انشاء معلمة الاسلام Encyclopédie de l'Islam في هولاندة (ومع هذا نسخة من المقالة التي كتبتها فيها في الجزء السادس من مجلة المجمع في سنتها السادسة الصادر في يونيو ١٩٢٦ فان بين عملنا هذا وعمل علماء المشرقيات تشابهاً كثيراً في بعض الاقسام) .

أو تكتفي اللجنة لاول مرة بالشروع بحرفي الألف والباء وتوزع المقالات على زمرة الاخصائيين وهؤلاء يتوزعونها بينهم ويختارون لها من شاؤا من المؤازرين . والاولى ان يختار الاخصائيون ما يريدون ان يختصوا به من أبحاث المعلمة على ان تعتقد اللجنة العليا انهم يجيدون فيما تخيروه لأنفسهم من الموضوعات. ويحدد ميعاد معين لانجاز المقالات لا يتعداه المؤلفون بحال . وكلما انتهى العمل بحرفين او ثلاثة يشرع بالحروف التي تليها . وأهم ما توجه اليه العناية عند الشروع بالمعلمة الموضوعات التي تعالج فيها ومقدار الصفحات او الأسطر التي تخص بها كل مقالة من مقالاتها فان ما يكتفي فيه باسطر لا تكتب فيه صفحة وما يجتزأ منه بصفحة لا يسمح له بصفحات .

لا جرم ان من يوسد اليهم البحث في العلوم المادية سيلقون عنتاً في اعداد الأسماء التي تجب الكتابة فيها ، لقلة المصطلحات العلمية التي وضعت حتى اليوم . ولان ما وضع منها لم يجمع العارفون على استحسانه في مختلف الاقطار ، ولكن اللجنة العليا ومؤازريها يتغلبون على هذه المصاعب باطالة البحث واجادة النظر . ثم يقررون ما لا مناص من ذكره من الاسماء العلمية والاوضاع الفنية بما لا يخرجون فيه عن روح اللغة . ويختار للمؤازرة في هذه العلوم خاصة من درسوها زمناً وعرفوا شيئاً من مصطلحاتها وعانوها بالعمل والنظر . ويرجح من سبقلهم ان ألفوا فيها . وأثبتوا كفاءتهم بخوضهم غمارها طائفة من اعمارهم . واذا عمد بعضهم الى الترجمة عن اللغات الحية فيجب ان يجلوا موضوعاتهم في حلة عربية وبأسلوب لا تظهر عليه آثار النقل والاحتذاء فتكتب كأنها مؤلفة مباشرة بسلاسة تحبب مطالعتها حتى الى من لم يحظه الحظ بتعلمها .

اما ما يتعلق بالبلاد والرجال والتاريخ والشعوب فهذا يقسم الى قسمين . قسم يتوخى فيه الايجاز ما أمكن ، وهو ما كان خاصاً بأمة بعيدة . وقسم خاص ببلاد العرب والاسلام ورجاله ، وهذا يتوسع فيه وان كان بعضه لم يدون ولم يحرر . وتجزأ البلاد العربية والاسلامية الى مناطق يتولى رئيس كل منطقة النظر في عامة ماله علاقة بمنطقته ويعاونه اناس يختارهم . فمصر والسودان والشام والعراق والهند وتونس والجزائر يعهد بالكلام علي

بلدانها ورجالها الى رجالات معروفين من ابنائها . والخطب سهل في الأقطار التي كثر التدوين والتأليف فيها اكثر من غيرها لا يحتاج الا الى نظر سديد ومعرفة ما هو احق بالتدوين لانتفاع القاريء به .

أما سائر الأقطار كالحجاز واليمن ونجد والجزيرة وامارات سواحل شبه جزيرة العرب كعمان ومسقط ولحج وحضرموت والبحرين والكويت بل ومراكش وطرابلس وبرقة واواسط افريقية وزنجبار والحبشة والصومال وجاوى وصومطرا والاندلس وصقلية الخ فهذه ينـدب للبحث في كل قطر او اقطار منها عالم يبحث فيما تشتد الحاجة الى معرفته من احوالها ، كتاريخها وتقويمها وزراعتها وصنائعها وتجارتها وآثارها وسكانها وحيوانها ونباتها وجيولوجيتها ومعادنها واقتصادياتها واخلاقها واديانها وغير ذلك . فان ما كتبه الافرنج والعرب الاقدمون فيها قد لا ينقع غلة ، ولكن يستأنس به بعض الشيء ولا يؤخذ من كل ما دون الا ما وافق ما ترمي اليه المعلمة .

وللكلام على تركيا وفارس ينتخب اناس لهم نوع وقوف عليهما : يستعينون بالباحثين من اهل العلم فيهما ، اما سائر البلاد كأفغانستان وبخارى والقفقاس وبلوجستان والصين والتُبّت فيعتمد على ترجمة ما كتب فيها باللغات المختلفة مع الاستعانة بنبهاء مفكريها ، وكذلك يقال عن جميع الشرق فإن الأخذ عن معلمات الغربيين قد يكفينا المؤونة بقليل من التعديل حسب حاجتنا . وحاجتنا ماسة الى التفصيل عن العرب وبلاد الاسـلام والاختصار ما امكن في وصف بلدان الغرب ورجاله على ما تجري عليه كل امة في معلماتها . تعنى بالنابهين والخاملين من بنيها تترجم لهم وتفيض وتستقصي اكثر من عنايتها بالتوسع في الكلام على اعظم عظماء الشرق ممن اثروا اثراً مذكوراً في العلم والاجتماع . فنحن نطيل اذاً فيما له صلة بالامة العربية ونوجز فيما هو قصي عنها .

لا يباشر بالطبع الا متى الف ونقح كل ما له مساس بالحرفين الأولين من حروف المعجم ، وذلك بعد ان تعرض عامة المقالات والابحاث على اللجنة العليا . تقر ما تقره منها وتنتقد ما فيه وجوه للنقد . ولها الحق ان تحذف

ما شاءت . واذا رأت نقصاً في البحث ترجع في تقويمه الى رئيس ذلك الفرع . وتنشر المقالات بتواقيع كتابها ليمسوا مسؤولين عما حوت . وبديهي انها لا تحوي الا ما يشرف اسماءهم ، ويخلد في الناس ذكرهم . ولا بأس بإصدار مجلة شهرية تدعى (مجلة المعلمة العربية) تنشر نموذجات من مقالات المعلمة قبل صدورها . وبذلك تعرض ابحاث هذا الكتاب على انظـــار العارفين والناقدين . وتكون تلك النشرة بمثابة اعلان عن المعلمة وما يلزمها ويرد عليها من النقد والأخذ والرد . وتغدو اداة صالحة لنشر المعارف والآداب الصادرة من اقلام باحثين ناضجين . وتزين بصور من صور المعلمة على غاية من الاتقان تجلب النظر وترسم اشكالاً قد لا يتأتى للبيان ان يوفيها حقها . حتى اذا انتهت المعلمة بحول الله يطرد اصدار هذه المجلة كما كانت . ولكن تنقلب ابحاثها الى موضوعات حديثة تساير العلم في ترقيه شهراً فشهراً اي تنشر ما حدث في فروع العلم والآداب على مثال مجلة لاروس المصورة الشهرية Larousse Mensuel illustré التي تصدر في باريز وتستدرك ما عساه فات المعلمة في طبعتها الأولى من الابحاث ويتألف من اعداد كل سنتين او ثلاث سنين مجلد ملحق بالمعلمة .

ارجح أن تكون المعلمة في بناية خاصة خالية ، تستوعب ادارتهـــا ومستودعاتها ومكاتبهـــا وخزانة كتبها وهـذه تجهز بأهم كتب المراجعة وأحدث أسفار العلم بالعربية والانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والاسبانية والبرتقالية واليونانية واللاتينية والفارسية والتركية وغيرها والأولى ان يشاد معهد المعلمة بالقرب من دار الكتب المصرية لتكون على مقربة من مخطوطاتها النادرة وامهات أسفارها ومصادرها . ويمكن طبع المجلة والمعلمة في مطبعة دار الكتب المذكورة على أن تخصها ببقعة معينة بحروفها وأدواتها .

أرى ان يكون الموظفون في المعـلمة من أمناء السر والكتاب والمصححين والمحاسبين قليلًا عـددهم ما أمكن ، أما المؤازرون ورؤساء الاقسام ومنهم اعضاء اللجنة العليا فتدفع لهم مكافآت تعينهـا اللجنة او

يوظف بعضهم على مثال موظفي الدولة ، والأولى ان يربط رؤساء الفروع اعضاء اللجنة العليا بعقود رسمية لمدة ثلاث او اربع سنين .

ينظر في الابحاث الى جلالة موضوعها فالتأليف البسيط الذي يكتفى فيه بالرجوع الى المدونات لا يكافأ صاحبه كالتأليف الصعب الذي قد يضطر الباحث فيه الى الرحلة للبحث بنفسه . والترجمة والتعريب اقل اجراً من الوضع والتأليف ولا يعتبر في اختيار المؤازرين الا الأثر الذي اثروه في خدمة الادب وانتجته قرائحهم من الثمرات ، وكانوا ممن عانوا التأليف والوضع زمناً . لا جرم ان المشتغلين بالعلم على اختلاف ضروبه يعرف بعضهم بعضاً حق المعرفة فليس من مصلحة الكفاة الممتازين الا ان يحشروا في زمرتهم اقرانهم لخدمة هذا العمل الشريف .

وما اخال انه يقل حجم هذه المعلمة عن خمسين مجلداً يكسر كل واحد منها على الف صفحة بالقطع الكامل لان تاريخ هذه الامة طويل واعمالها كثيرة وبلادها او الاقطار التي خفق عليها علمها تحسب مساحتها بمئات الالوف من الاميال ويعد رجالها بالألوف ، وما يخيل اليّ ايضاً ان عدد المؤازرين فيها ينقص عن مائتي عالم واديب .

هذا ما يراه خادمكم العاجز يا مولاي وهناك تفصيلات لا تعرف أو لا يتأتى البت فيها الا بعد الدخول في الموضوع والصعوبة تبدو اولا في ترتيب العمل ومتى جرى توزيعه على الاصول يسير سيراً متساوقاً لايدخله الخلل ، واذا فرض تعذر نشر المجلد الاول من المعلمة قبل سنة او سنتين فان مجلداتها بعد ذلك تتابع بحيث ينشر كل سنة مجلدان على الاقل ، واني على مثل اليقين ان مصر لا تتحمل سوى ثلاثة ارباع هذا العبء في نشر هذه المعلمة والربع الباقي تعاون في تأليفه ومادياته سائر الاقطار العربية وربما جاز ان يطبع منها عشرون الف نسخة . هذا والمسؤول تعالى ان يوفقكم الى ما فيه خير مصر والامة العربية سيدي المعظم .

دمشق في ١٤ نوفمبر ١٩٢٧

وقد كتب الاستاذ احمد فريد الرفاعي يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٢٧ امين

سر الوزير عبد الخالق ثروت باشا يشكرني باسم الوزير ويبلغني ان وزارة حكومته تستقبل مع عظيم التقدير اشتراكي في هذا العمل المتطلب جهوداً الخ . وعـــاد الوزير رحمه الله فكتب اليّ مباشرة يوم ١٩٢٨/٢/٤ وقال في جملة ما تفضل به ولا اشك في ان تلك المقترحات القيمة سيكون لها شأن كبير فيما سيتقرر في هذا المشروع . ومضت على ذلك سنين وذهبت وزارة عبد الخالق ثروت باشا وجاء غيرها وغيرها ولم ينفذ شيء في هذا الموضوع المهم . الا ان فريقاً من رجال العلم والأدب والقانون في مصر عادوا سنة ١٩٤٣ (١٣٦٢) وألفوا عدة لجان لهذا الغرض وقالوا انهم يؤلفون دائرة معارف مصرية فقط ولم نفهم سر قولهم مصرية ولفظ العربية اولى واعم . فيرأس لجنة نظم الحكم والاقتصاد عبد الحميد بدوي باشا ولجنة الدين الاسلامي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ولجنة الدين المسيحي الدكتور جورج بك صبحي ولجنة الدين اليهودي الحاخام الاكبر حايم ناحوم افندي ولجنة الهندسة عبد العزيز احمد بك ولجنـة الآداب والفنون اعضاؤها هيكل باشا وطـه حسين بك والاستاذ العقاد والعلوم ويرأسها الدكتور مصطفى مشرفة والقانون الدكتور عبد الرزاق السنهوري وللزراعة الدكتور توفيق الحفناوي وللتاريخ شفيق بك غربال وللجنة الاستشارية العليا لطفي السيد باشا . وقد مضى على البداءة بهذا المشروع خمس سنين ولم يأتنا عنه خـبر واظن تمر خمس وخمس وخمس ولا ينتج شيئاً لأن المقصد من هذا الاعلان الظهور ومن هؤلاء الاعضاء اكفأ علماء العصر ومنهم من لم يعرفوا الا من طريق وظائفهم ليس لهم كتاب ولارسالة ولا اثر علمي يدل على اضطلاعهم بهذا الأمر ، وإذا كان مجمع فؤاد الأول للغة العربية لم ينشر إلى اليوم كراسة واحدة من معجم بسيط (الوسيط) ولا المعجم التاريخي واكثر اعضائه من العلماء الكفاة حقيقة فكيف يرجى ان يقوم اصحاب المعلمة بهذا العمل الخطير . لا يؤخذ على المصري قلة علمه بل يؤخذ عليه فتور همته وقلة عمله .

الأرمن وآدابهم

سألنا السيد ابيا من ادباء الارمن في دمشق ومن العارفين بتاريخ هذا الشعب لماذا لم يتعرب الأرمن على عهد الحكم العربي وتتركوا على عهد الحكم التركي فأجابنا : إن فتح العرب إرمينية لم يشبه فتحهم الشام والعراق فقد كان مقامهم فيها أشبه باحتلال عسكري احترموا فيه دين المغلوبين من الأرمن ومنحوا امراءهم امتيازات تمتعوا بها وما نزل بين الأرمن جمهور كبير من العرب ، وربما كان ذلك فراراً من برودة جو ارمينية ولاختلافهم عن اهلها في عقليتهم . ذلك لأن الأرمن من عنصر آري ولغتهم من فروع اللغات الهندية الاوربية ، والعرب ساميون . وربما كان هذا السبب الذي أهاب بالفرس والأكراد أن يدينوا بالاسلام دون أن يصبحوا عرباً بلسانهم . ثم إن الأرمن في الفتح الاسلامي كانوا في دور ارتقائهم في التهذيب والوطنية وكان في رجال دينهم علماء متشبعون بروح القومية فقاوموا الفاتحين وما اراد هؤلاء أن يُسلموهم بالقوة وكثيراً ما كان الأرمن حلفاء خلفاء بغداد ولطالما عاونوا العباسيين معاونة عسكرية فاستطاع الأرمن بذلك أن يؤسسوا مملكة زاهرة بآدابها ولم يخرج أحد عن مشخصاته خلا من هاجروا من إرمينية الى العراق والشام ومصر ، وتعلموا التركية ايام الحكم العثماني وكان قاسياً عليهم . ومع هذا لم يصل الاتراك الى روح الأرمن لانحطاطهم عنهم من حيث العنصر والرقي الادبي وما امتزج الارمن بالترك كما امتزج الروم إلا بقوة السيف ولكن السواد الأعظم منهم لم تسر التركية إليه . وما نسي الأرمن من لسانهم جملة واحدة فان في ثلاثة ملايين من مجموعهم في العالم ثلاثمائة الف فقط يتكلمون التركية في بيوتهم وهم سكان سهول قيلقية واواسط آسيا الصغرى أَما سكان نجاد إرمينية فلم يتتركوا كما تترك الروم في تلك السهول ونسوا لغتهم . واذا كان جميع الارمن في تركيا يتكلمون التركية فليس معنى

ذلك انهم لا يتكلمون لغتهم بينهم . وليس هـذا شأن الأرمن فقط بل شأن غيرهم من العناصر فان الاتراك والاكراد والآشوريين النازلين في جبـال ارمينية يتكلمون بالارمنية ، واولاد الأرمن الذين يتكلمون بالتركية يمارسون اليوم لسانهم الأصلي ممارسة حسنة بحيث لا يجري الحديث بغير الأرمنية في الاجتماعات العامة اما قول من يقول ان الأرمن اختاروا اللاتينية على عهد الصليبيين فهو من الأغلاط التاريخية ذلك لأن الصليبيين لما وصلوا الى الشرق كان للأرمن حكومة مستقلة في قيليقية اسمها ارمينية الصغرى عاونت الصليبيين على مقـاصدهم حتى إذا رأى الأرمن ان نفوذ اللاتين اخذ ينبسط عليهم قاوموهم فمـا استطاع الصليبيون ان يدخلوا الارمن الكنيسة الكاثوليكية على نحو مافعلوا مع الموارنة فمن ثم كان الارمن حلفاء الصليبيين لا رعاياهم . وعلى كل فاللغة الارمنية لم يحتفظ بها اهلهم إلا في ارضهم اه . ويزاد عليه ان السلجوقيين الاتراك قضوا في النصف من القرن الخامس على ارمينية ونشروا فيها لغتهم قبـل الاتراك العثمانيين ، والعهد التركي والحالة هذه في ارمينية اطول من العهد العربي .

اشرت الى هذا بمناسبة رحيل بعض الأرمن الذين كانوا اعتصموا بالشام بعد الحرب العالمية الاولى واقوا من حكومتها ومن اهلها كل عطف ورعاية وبمناسبة معاملتهم لنا يوم رحيلهم ينادون من قلوبهم منادة المقر بالجميل آسفين على مغادرة ديارنا وان كانوا ذاهبين الى مملكتهم الجديدة « وعاصمتها تفليس » نعم لقي الأرمن من الكثرة الغامرة ماعرف به العربي من كرم النفس ورعاية الغريب فعـدوا الشام وطنهم الثاني ومنهم من اغتنى في ارضنا بكده وجـده فما حسدناهم ولا مننا عليهم ، وشعب ذكي من مثل الشعب الارمني لا يسعه ان ينكر الجميل والأرمني مهما كان من التباين بين حضارتنا وحضارته هو شرقي ويفاخر مثلنا بشرقيته .

مساجلة صديقين

كتبت في مجلة الرسالة نقداً خفيفاً لكتاب قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لصديقنا الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي عليه الرحمة فشق على بعض تلاميذه ومريديه كلامي واكبروا الأمر حتى استكتبوا صديقي العلامة الامير شكيب ارسلان نبذة في الرد على نقدي . وأراد بعض الشبان ان يحمي وطيس المناقشة بين الصديقين المتناظرين ليشهدا صراع شيخين طاعنين في السن ، ولكن الامير كان رحمه الله من اعرف الناس بحقوق الاخاء فكتب جملة على جوابي وانا اكتب جملة على جوابه اوردهما بنصهما هنا نموذجاً من مساجلات كنت ابداً ابتعد عنها لئلا اضيع وقتي ووقت الناس في مناقشات قد تؤدي الى مهاترات تسمج ولا تستملح . وهاك كلامي الذي بنى عليه الأمير عفا الله عنه نقده :

يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهي : إما شيء لم يسبق اليه فيخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، او شيء مغلق يشرحه ، او شيء طويل يختصره ، دون ان يخل بشيء من معانيه ، او شيء متفرق يجمعه ، او شيء مختلط يرتبه ، او شيء اخطأ فيه مصنفه فيصلحه . قال : وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق اليه الا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شيء كان معضلا ، او جمعه إن كان مفرقاً ، او شرحه إن كان غامضاً ، او حسن نظم وتأليف ، او اسقاط حشو وتطويل اه .

وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه في التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط ، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات في علوم الحديث ونسقه وجوّد النقل ، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولا . فقد نقل في اول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب في اربعمائة صفحة) من اقوال القدماء ، ثم اثبت له رأياً واحداً سبق اليه (ص ١٠١) رجح فيه رأي

الجلال الدواني على رأي الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالاحاديث الضعيفة ولو كانت في شيء من الترغيب والفضائل .

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات ، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف ، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ، قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب الى آخره ، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم ، كما اخذ عن بعض المتصوفة ومجدّدهم ، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ، ونقل عن مجلات غاضاً النظر عن ذكر اسمائها ترفعاً على ما يظهر .

وكأن هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً في هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات في صورة مؤلّف .

وكانت طريقة التأليف في عهود الارتقاء العلمي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهده ، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السيوطي أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وقل أن تجد فيها جديداً للمؤلف ، وربما كان الشيخ القاسمي رحمه الله ، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى في اكثر تآليفه ببسط آراء غيره .

أما طريقة التأليف اليوم فالايجاز من دون اخلال بالمعاني ، وادماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل ، واذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار اليها جملة واحدة ، حتى لا يضيع على القارىء وقته وتملأ صفحات بلا داع ، وعلى هذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا في موضوعات أسلامية او عربية ، تمثلوا ما وضعوه من المباحث اولا ثم كتبوه في صحف لتنشر ، مقتصرين على لباب ما قرأوا في موضوعهم ، عازين ما لا بد من عزوه لاصحابه تدعيماً لأقوالهم من كتب القدماء اوالمحدثين باسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية ، لاخلل في تضاعيفها ولا شقوق ؛ وهم اذا اقتبسوا اقتصروا على

محل الشاهد ، واعرضوا عن باقي ما قال المقتبس منه ، لأن الكتاب ليس بكثرة اوراقه ، بل بما حوى بين دفتيه ؛ وكم من كتب السلف وفت ورقاتها المعدودة بأكثر مما تفي المجلدات . وقد رأينا الكتب المنقحة عاشت اكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته .

فكتب الأمير شكيب ارسلان الجواب التالي :

اطلعت في مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الاستاذ العلامة محمد بك كرد علي ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الاستاذ الشيخ جمال القاسمي بأنه كتاب قد جمع جمعاً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأي واحد وهو ترجيح قول الجلال الدواني على قول الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت في مقام الترغيب في الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف في عهد الارتقاء العلمي هي أن يأتي كلام المؤلف اكثر من شواهده ، وانه لما ضعفت ملكة التأليف اصبحت الكتب عبارة عن نسخ اقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمي آخر من جرى على هذه الطريقة وهي بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت في التأليف طريقة جديدة اليوم وهي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ويدعم اقواله بشواهد من كتب القدماء او المحدثين باسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع .

فالاستاذ كرد علي ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة انه ليس على طريقة التآليف العصرية التي هي بزعمه الاكتفاء بالاشارة الى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء في سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكأن الأستاذ كرد علي يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلمي والتي أذكر فيها ما اعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله .

وبعبارة أخرى قد ثقل على اخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كردعلي جعل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن ان أكون أسأت فهم كلامه. فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، وممن سار ذكر فضائلهم في الآفاق ، وليس محمد بك كردعلي بالذي يجهل ذلك أو يقدر ان يماري فيه ، وإني لجد مستغرب منه ضيق صدره بثنائي على رجل لا يتمارى اثنان في دمشق الشام في كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق في كل مقام مباهاة .

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمي إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان اخونا كرد علي يسمي ذلك « تمجيداً » فان التمجيد في محله لا يكون موضع نقد ، فان لم يمجّد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمي في علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذي يستحق النقد . ما كنت أحبّ أن يغمز الأخ كرد علي بي في مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فان الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار اليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال انه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية ، ونظن ان السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إنني أنا والأخ كرد علي لا نقدر أن نتكلم في علم الحديث اذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث .

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمي جمع جمعاً ، وان الجمع في التأليف هو خطة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع في كل من عهدي التقدم والتأخر . وفي اوربا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح

والتجريح لاختلاف اذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قاريء قادراً ان يستقي من هذا الجمع ما يستعذبه .

فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدي النبوي ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً الى كلام الشعراني والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين في هذا الكتاب طلبتهم . وقد نسي أخونا الأستاذ كرد علي محنة الشيخ جمال القاسمي عام ١٣١٣ عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنيابها يتجنب الخوض فيما يؤدي به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهي الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل في كونها على حق إلى يوم القيامة . ففي بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عندما يكون العالم الخبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هي في جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدي النبوي لايتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا في المسائل التي لاخلاف فيها بين العلماء والتي إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان يُؤتى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الاطراء كله وهو في علم الحديث الجبل الذي لايُطاوَل والبحر الذي لا يُساجَل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة كرد علي . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد علي وحده الذي بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الاصحاب اطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع او استكباراً لأتيانه ، وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا

الآن ان ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفي بالقول إن السجع وُجد في الجاهلية وجاءت منه امثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء في القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو ابلغ الكلام العربي وغير العربي ، وجاء في كلام الصحابة والمخضرمين ثم في الطبقة التي تليهم ، ثم في التي تليهم ثم في التي تليهم الى يومنا هذا .

ولم نعلم احداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة الى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب ، أي إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييد بقوافٍ فلم يكن السجع مستحسناً في المواطن التي يجب ان ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعاني على وجهها ، واما في المواطن التي هي اقرب الى الشعر منها الى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذي يُعد سُبّة على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة ، وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من اجل كونه طريقة قديمة ومن اجل انه عبارة عن زينة كلامية فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر ايضاً ، فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هي ايضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج اليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية ، والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد ايضاً بقيود لها مواقع في النفوس ، وهي في محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر احد ان يقول إنني انا مفرط في هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل اكثر مما لي ، ولكني لا ازال ارى السجع حلية الكلام العربي عندما يكون في محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير ، وإن العرب قد اصطلحوا على السجع في اسماء الكتب ولم يخطئوا في ذلك لأن الكلام المسجّع اعلق في الذهن من غيره . وعسى كلامي هذا يكون مقبولاً عند اخي الأستاذ كرد علي ،

ولا تتأثر به آصرة الاخاء القديم الذي بيننا والذي لا يمكن ان يطرأ عليه ما يوهنه مهما كان السبب ثقيلًا . فكيف اذا كان خفيفاً ، وإن ادري فقد يكون اراد ان يداعبني ، ولا تكون هذه اول مداعبة بيننا .

جنيف : **شكيب ارسلان**

فكتبت جواباً عليه ما نصه :

إلى صديقي العلامة الأمير شكيب ارسلان

نعم شق عليَّ يا أخي أن تلقي دلوك في الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذي ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت اطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير ، وجئت تغالي بكتاب ليس فيه من جديد ولا اسلوبه اسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده .

أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق ، لأنك في غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجاً إلى مصانعة الناس ، ولا نضبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ، وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك في غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ماتقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجري إلا فيما يصلح أن ينسب إلى احسانه ، وحملة الأقلام مسؤلون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاوروهم بالنقد الصحيح ، والافراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب ، والنقد المفيد عادةُ نقاد الأفرنج في زماننا ومن الأمانة للعلم والأدب أن يُدَلَّ كل كاتب على مواضع الخطل من

كلامه ، لا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه في العيان ، ولا يشول مهما نفخناه في الميزان .

واكتفي الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمال والقسام في العربي (?) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجـــد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمي » الذي جاء اسماً على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقي هو الجمال المعنوي ، لا الجمال الصوري ، الذي هو جمال زائل ، فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف : « ان الله جميل ويحب الجمال » وعلى هذا يمكنني أن أقول إنه لم يعط أحد شطر الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجـة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي ، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وذكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهيـة ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ، لـكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد ... الخ) .

بأبي أنت وامي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ? أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا احتكم إلا اليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ? وما هذا القلق في المعاني والمباني ? ربما اغتفر صدور مثل هذا الـكلام من فتى يشدو في الأدب ، ولـكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا ! وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أسمي مطاف »

وقلت لك يومئذ إن القاريء مهما بلغ من ثقوب ذهنه لا يدرك لاول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من اجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده .

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه اسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبي أسحاق الصابي الذي افسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع واظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن استاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعد عمله هـــذا اكبر حسنة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ، ونرجو ان تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة واحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما اظنك تنكر عليّ ان رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، ارفع وامتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وابي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . واظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة . ومن أجل انه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » — إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أكرمك الله ان النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف .

لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي

نشرته بأخرةٍ ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « ... الذي لا اجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية اجمل من نشره في الأقطار ، وخير وصف الحسناء جلاؤها ، والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وانواع البديع ، وشققت في تحليته اصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلًا ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلًا ، كما اني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً ، وأمراً عظيماً ، وديواناً تتأرج ارجاؤه ندًّا ولطيما ، لما خفي امره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه احد ممن له عينان .. » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « ... الذي لا اجد لشعره وصفاً اوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلًا ، ولو قدمتـه للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه دراً نظيما ، لما خفي امره .. » أليس هـذا الايجاز أوقع في النفس ، واجمل في اداء المعنى ، وادعى إلى الأفهام من اسجاع تثقل على الطباع ونحن إنما نكتب لنفهم ، لا لنعجم ونبهم . وبعد فمالنا والتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في اقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هـــذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المستكره من انواع البديع .

فلم يجب الأمير شكيب بأكثر من الصفحة التالية وخاف لفرط أدبه أن يدون في هذا الحوار ما يفرح به احباب المطاعن اعداء السلام والوئام

جوابي لأخي محمد سيكون قصيراً كما تراه

إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث خوض من يعلمه ، بل بقيت واقفاً على الشاطيء ، على حين أن أخي

محمد كرد علي دخل في الموضوع وحكم فيــه حكمه ، وهو مع ذلك يقول إنني انا واياه لسنا من هذا العلم في ورد ولا صدر . فاذا كان الأمر كذلك فما كان احراه بأن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف ، وقد اطنب في وصفه مثل الأستاذ الاكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال : القول ما قالت حذام .

انا كان اكثر كلامي في محاسن الاستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي تغمده الله برحمته ؛ فان كنت لست من علماء الحديث فاني لست جاهلاً معرفة الرجال ، ولا مسلوباً مزية التمييز بينهم ، ولولا حسن فراستي ما كان الاستاذ كردعلي عظيماً في عيني ، وقد اخترته لأخائي منذ اثنتين وأربعين سنة .

اما السجع وما أدراك ما السجع ، فالكلام العربي ينقسم الى مرسل ومسجع ، وموزون مقفى ، ولكل نوع من هـذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه اكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به اكثر تفاهم الناطقين بالضاد . والموزون المقفى هو الشعر الذي لا رونق للغات بدونه . والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف ان كتاب الله قد نزل بهذه الطريقة . وان نهج البلاغة وكثيراً من كلام افصح العرب هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والخوارزمي والصاحب والصابي والقاضي الفاضل وامثالهم إنهم لم يحسنوا القول . فان كانت اللغات الأوربيــة ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب .

جنيف ١٠ جمادى الآخرة　　　　　　　　شكيب ارسلان

الزواج بالأجنبيات

ما قلت بزواج العربي من امرأة غربية الجنس قط ، ولطالما نصحت لمن يرحلون إلى اوربا واميركا في طلب العلم أو المال الا يعقدوا على الغربيات ، وأن يختاروا أمهات أولادهم من بنات جنسهم أو من الأجناس الشرقية الأخرى . وفي زواج الغربيات من الشعوب اللاتينية او الانكلوسكسونية اخطار كثيرة لأن الزوجة الغربية تعد ذاتها أرقى من زوجها ، وتضمر في قرارة نفسها أن تحمله أبداً على ان يتبعها فيما تأمر به وينزل لها عن اكثر مشخصاته وقد ينشأ الخلاف ويزيد التجافي عندما تنفثيء سورة الحب التي تكون على أشدها في العروسين اول اقترانهما ، وتظهر المباينات في الأخلاق والعادات كلما عتق الزواج ، فيعود كل من الزوجين إلى أخلاقه الموروثة ، ولا سيما عندما يرتفع التكلف بين الزوجين ، ويتجلى قانون الرجعة وعامل الوراثة ، فيصبح الزواج مريراً ويتعذر استمراره . والمرأة الغربية لا تطلب من زوجها الا ان يخضع لها خضوعاً أعمى ويتجرد من خصائصه ، فاذا ما رزق الزوجان ولداً كانت النوبة نوبة الأم ، لا تطمع الا في ان تطبعه بطابعها ، والولد يأخذ بالطبع من أمه أكثر من أبيه ، لأن مقامه معها أطول من مكثه مع ابيه ، فتنشئه على حبها وحب قومها ، وتزهده من طرف خفي بقومية أبيه ، وتضحك من دينه وعاداته ، فالتفاوت بين الشرقي والغربية كبير ، وبين الجنسين عندنا وعندهم من التباين ما بين الشرق والغرب .

قد تُكبِرُ الغربي اذا نظرت اليه من بعيد حتى اذا اقتربت منه يتجلى لك على الأكثر أقل شأناً مما توهمته ، ويشتد هذا التفاوت إذا كان الزوج او الزوجة من اصل وضيع ، واختلاف الطبقة عامل كبير يؤدي الى التشاكس والتباين ، واغلب من يرضين من الغربيات بالزواج من الشرقيين يكنّ من طبقات متواضعة . ولقد شوهد من النساء الغربيات

من ظلمهن أزواجهن ، وشوهد العكس ، والفريق الأول اكثر عدداً . ويقل التوفيق على كل حال في هذا النوع من الزواج كما يقل في الزواج التجاري والسياسي .

وناقصة التربية من الغربيات يندر ان تروقها حالة اهل زوجها ، تضحك من كل مصطلح لهم ، وتحتقرهم وما اعتادوه من عادات ، وتربأ بنفسها عن مساكنتهم ومعاشرتهم ، وان رضوا ان يكونوا لها شبه خادمات حرصاً منهم على خاطر ابنهم . وقد يكونون في مجتمعهم أرقى طبقة منها في مجتمعها ، ويكونون ممن نعموا بالرفاهة وسعة العيش ، وعلى جانب من التهذيب والرقة . قد يتظاهر من يتزوج هذا الزواج بانهم سعداء في زواجهم ويكتمون أمرهم ويعتصمون بالصبر على ما جنوه على انفسهم وعلى بيتهم حتى لا يشمت بهم اهلهم وجيرانهم .

اما مشكلة الأولاد وهي اعظم مشكلة في هذا الباب فالغالب أن هذا الزواج ينقلهم الى أهل امهم فيزيد عددهم ويكثر سوادهم ، ويفقد اهل الزوج ذريتهم او يفسدونها ، ويكون الشأن في ذلك شأن من يتقن لغة اجنبية وينسى لغته ، فيزيد اهل اللغة التي التحق بهم متكلما آخر بلغتهم . وقد تحن المرأة بعد سنين إلى بلادها فتكره زوجها على اللحاق بها او تطلب اليه ان يطلقها ويأخذ اولاده ، واذا كان تاجراً مولاً تصبح امواله من حظ اهل زوجه . وهناك خسارتان عظيمتان خسارة الأولاد بنقلهم الى أمة أخرى ، وخسارة المال الذي يكون قد جناه الزوج من ارض أمته . هذه مسائل من البديهيات لم آت بها بجديد ، وأريد من اثباتها هنا ان يدرك شباننا فقط أنهم يجنون على أمتهم اذا هم ادخلوا البنات الغربيات الى بيوتهم وخلطوهن بأسرتهم .

قد يستغرب تنفيري من الزواج بالاجنبيات في زمن خف فيه التعصب وتحلل الناس او كادوا من العصبيات ، والشرع قد اباح الزواج بغير المسلمات وتساهل في هذه السبيل بما لم يعهد مثله قبل الاسلام في ملة من الملل .

روي عن رسول الله قوله اغتربوا لا تضووا اي تزوجوا في الأباعد لئلا يأتي اولادكم ضعافاً اذا تزوجتم بالاقارب .

قد يأتي النسل من أبوين مختلفين في الجنس اقوى من نسل من عنصر واحد ، ومع هذا كان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يستنكر الزواج بغير العربيات ودعا الله الا يريه ابناء الفارسيات . وكان يرى ابعاد العرب عن الزواج من الروميات لأن في بنات الروم خلابة . وفي كل هـذا اشارة الى مبلغ حرص العرب على قوميتهم وتوجسهم خيفة من تبلبل بيوتهم بدخول غير العربيات فيها .

كانت العرب في القرون الأولى تجاهر بانها تفضل من كانت أمه عربية ، حتى ان بني العباس لما اخذوا الملك من بني أمية لم يبايعوا للمنصور على جلالة قدره في السياسة والعلم وتقدمه في الميلاد وبايعوا لأخيه السفاح لأنه من أم عربية وأخوه ابن أمة ، هذا والعباسيون في صدد تأسيس ملكهم وهم في اشد الحاجة الى ان يتولى امرهم اعظم رجالهم . وما منع مسلمة بن عبد الملك الأموي من الوصول الى الخلافة الا كونه ابن أمة ، وكان فيه من الصفات الغر ما عز نظيره في الأمويين ، على كثرة النبغاء في رجالهم ، وكان من المجمع عليه انه يمتاز عن اولاد أَبيه كثيراً وهم ما هم بسياستهم وادارتهم وعلمهم .

ان دعونا اليوم الى التزهيد بزواج ابنائنا من الغربيات فذلك لأنا نعيش في عصر القوميات الذي بدا في القرن الماضي وقوي في هذا القرن قوة هان معها على الغربيين ان يقتلوا ابناء دينهم في سبيل قوميتهم . والغربيون اليوم ينظرون بعين الريبة الى كل مواطن لهم اختار امرأته من غير جنسهم ، ويحظر ذلك على عمال الحكومة وخصوصاً رجال السلك السياسي فمن تزوج من غير جنسه تنبذه الدولة . وقد كان بسمارك السياسي المشهور سن قانوناً يحظر فيه على ضباط الألمان الزواج من النساء البولونيات لان البولونية تصبغ اولادهـا بصبغتها وفي ذلك الحيف على دولة جديدة تنشد القوة من كل وجه .

استنصح بعض نبهاء اليابان في القرن الماضي الفيلسوف الانكليزي سبنسر وسألوه ان يضع لهم قواعد يجرون عليها في نهضتهم فمن جملة ما نصح لهم به نصيحة اشترط عليهم الا ينشروها إلا بعد موته . أتدرون ماذا كانت نصيحته ؟ كانت ان يمتنع أبناء اليابان عن الزواج من الاجنبيات لانهم بتسامحهم بادخال دم الغربيات في دمهم يفسدون جنسهم ، وبهذه النصيحة يقلّ في اليابان عدد المتزوجين بالغربيات وعلى طريقتهم يجب ان تسير كل أمة تريد لابنائها المجد والعظمة .

المرأة العربية

في مصر والشام يكثر المتعلمات كل سنة بفضل المدارس الابتدائية والثانوية والعالية حتى كاد ما يصل اليه البنات من ضروب التعليم يوازي ما يعطى منه للبنين ، ولم يبق فرع من فروع العلم لم يشارك فيه النساء الا الفرع الديني لأن الديانيين يتشددون في قبول المرأة الى مجالسهم ومدارسهم وجوامعهم ، ولأن تعلم الدين لا يعود على منتحلته من النساء بفائدة دنيوية . ذلك لأن جميع من يدرسون شباناً كانوا ام شابات لا يتعبون انفسهم بالدرس إلا توقعاً للمغانم والأرباح التي تنتظرهم بعد اتمام الدراسة ، وليس فيهم من يخرج الآن عن فنون ثلاثة الطب والحقوق والأدب على الغالب . وندر في النساء من يُعنين بالفروع التي خلقن لها وبرّزن فيها كأمراض النساء والكيمياء والصناعات الزراعية والطبخ والخياطة وتدبير المنزل وتعليم الأطفال وتمريض المرضى ، فعلى وزارات المعارف أن تنظر في توجيه البنات نظراً جديداً ، فالحالة العقلية تتطور في كل عقد من عقود السنين .

من كان يظن ان النساء يُقبلن على العلم بهذا الشوق وهذه العناية ، بعد ان غفلن عن تلقفه قروناً ، ومنهن من يُبرّزن أكثر من الشبان

لانهن ينصرفن كل الانصراف في بيوتهن الى الدرس والشبان يلعبون ويلهون ويضربون في الأحايين ، ويتظاهرون في الشوارع ، ويشتغلون بالسياسة ، ويندمجون في الأحزاب ، الى أشياء يأتونها في سن مبكرة فيضيعون جانباً من اوقاتهم مدة الدراسة .

ولقد شاهدت البيوت التي تعلم بناتها غير البيوت التي حُرمت نعمة العلم والتهذيب . وهذا ما حدا بعض الشبان على اختيار رفيقات حياتهم من هذا الطراز المصقول بالعلم الحديث والتربية العصرية . حتى ظهرت بصنعهن امارات الحضارة على البيوت ، وشتان بين الجاهلة والعالمة . ومتى خَفّت مراجعات طالبات التوظف في مدارس المعارف ، وتمت صفوف الموظفات منهن في مدارسها ودواوينها ، ينقلب القسم الزائد الى الاخصاء في فنون اخرى كالتجارة العالية والصناعات الدقيقة فيدرك القسم الآخر ان مستقبلهن مناط تجويد الفروع التي لا يستغنين عنها لادخال الكمال والجمال الى بيوتهن ، وتربية أولادهن تربية راقية لا يدخل فيها الكذب ولا الغش ولا السرقة ولا غير ذلك من مفسدات العقول وهادمات الممالك .

وكيف لا نغتبط أن رأينا منهن الى هذا جمهوراً من بنات الثلاثين والأربعين ممن لم يسعدهن الطالع بأخذ العلم الأولي ان يتوفرن على تلافي نقصهن فيتعلمن على الكبر القراءة والكتابة ، حتى يجارين العصر ولا يخجلهن جهلهن أمام بنات جنسهن من المتعلمات . وكل هذا لم يكن له أثر في القرن الماضي ، فالمعارف اليوم تسير على أسرع ما يكون بالقياس الى ما عهدناه سابقاً من جهل البنات والبنين وان كان معدل المتعلمات اقل من معدل المتعلمين بكثير والأيام كفيلة بتعديل هذا المقياس .

أما ما يلغط به بعضهم من منح المرأة حقوقها السياسية فهو من لغو القول ، لا يجدي عليها خيراً ، ويعد سابقاً لأوانه ما دام عدد المتعلمات منهن قليلاً ، اذا قيس بما يجب ان يكون ، ثم أي حقوق للمرأة في الشرق العربي والمرأة الغربية ، على تفوقها المشهور في كل فروع الحياة ، لم تحصل على الثمرة التي كانت تتوقعها من الاستمتاع بحقوقها السياسية .

ومن يتذرعون بمنح المرأة الحقوق التي يخيل اليها انها تنفعها وتخرجها من سلطان الرجل الجائر هم ممن يصانعونها ويعبثون بمصلحتها الحقيقية ، ذلك لأنهم يذهبون مذاهب لا يدركون مغبتها على البيوت ، فالمرأة لم تخلق لهذا ، وقد جرب الغربيون قبلنا ، وهم في ابواب العلم أرقى منا بقرن واحد على الأقل ، فما اسفرت تجاربهم الا عن اضطراب وفوضى ، وكان من أثر هذا العمل الطائش اخراج المرأة عندهم عما خصتها الفطرة به ويتعذر تعدي حدوده مهما طالبت المرأة وشاغبت .

وبعد ان ثبت ان في فطرة النساء نقصاً طبيعياً كيف يرضى لها انصارها أن تغادر البيت لتغدو نائبة في مجلس النواب ووزيرة في مجلس الوزراء او قاضية في المحاكم أو مديرة في الدواوين . تولى بعض النساء هذه الأعمال في شمالي اوربا وفي الولايات المتحدة ومعظم سكان هذه الدول من العنصر الانكليزي السكسوني ارقى عناصر الأرض ، فأي نفـــع تم لمجتمعهم على ايديهن ، اللهم الا اذا كانت الرواتب التي يتقاضينها والألقاب التي يُلقبن بها .

كل قانون غير قانون الطبيعة تنسخه الأيام ولا تبقى على غير المعقول والأنسب . شارك النساء الرجال في الحرب الحاضرة ، فهل سعدن وسعدت اوطانهن بهذه الخدمة ؟ وهل كانت الفضيلة يا ترى اكثر فشواً من الرذيلة في هذا الاختلاط القسري بين الجنسين ؟ لو كنتم تستمعون الى ما يقوله علماء الأخلاق وغيرهم عند الغربيين لنفرتم اي نفرة من كل من يريد الظهور على حساب المرأة المسكينة يغشها فيما يزين لها من مظاهر جديدة ، وهي ما خلقت لها بحال من الأحوال .

الشيوعية في الشرق

لما انتشر المذهب الشيوعي في روسيا حداني حب الاطلاع على قراءة بضعة كتب عنه باللغة الفرنسية فتراءى لي ان بعض المؤلفين كانوا يزيفونه بلباقة ، وبعضهم يزينونه باعتدال ، وفيهم من جمجم ولم يصرح ، ومنهم من نقل ما ظهر من آثار القوة في ارض الشيوعية بعد دولة القياصرة امثال هريو من ساسة فرنسا فانه اكتفى في كتابه (المشرق Orient) بوصف ما قامت به روسيا في عهد الشيوعية من الجهود ، وشرح مواطن القوة ليستخرج من ذلك ما يقفه على تلك النهضة الصناعية والحربية .

وتلخص معي مما كتبه الشيوعيون وأنصارهم بعد ان دخل التعديل في قانون لينين على عهد ستالين ان الشيوعية نظام يتعذر تطبيقه على جميع الشعوب ، فيه ما تشترك عامة الامم في الانتفاع به ، وفيه ما هو ظاهر الخطر قليل الجدوى ، مثل استئثار الحكومة بتربية ابناء الامة واخذ كل مال في الايدي لخزانة الدولة . وهذه تعول الناس تعطيهم غذاءهم بمقدار وتترك لهم حرياتهم في انتحال ما يريدون من دين ومذهب .

وسواء صح حكمي هذا ام لم يصح فان روسيا الشيوعية تحرص كل الحرص على اخفاء أسرار بلادها ، لا تبيح لرعاياها ان يغادروا ديارهم ولا للاجانب ان ينزلوها احراراً مطلقين ، وهذا مما يشعر بأن هنالك اشياء لا يستحسن القائمون بالأمر في روسيا ان يعرفها أحد ، ولا ان يطلع عليها شعبهم ، منها ان في ارضهم اربعة عشر مليوناً من المعتقلين والمعتقلات — كما قال روسي مطلع — تسخرهم في أعمالها افظع سخرة .

تهمني الشيوعية او البلشفية من حيث تأثيرها في وطني خاصة والأقطار الاسلامية عامة ، ويبدو خلل الشيوعية في تطبيقها على من ليس لهم الاستعداد لقبولها ، ولا تلائم مزاجهم واخلاقهم ودينهم وبيئتهم عندما

تعود الأمور إلى طبيعتها ، وتبطل الدعاية الواسعة المنتظمة للمذهب الشيوعي يعرف النافع منه والضار على حقيقته .

أنا لا أخاف على الشام من الشيوعية لأن من ملكوا عدة قرى ليسوا كثيرين فيها ، وإذا جرى توزيع أملاك كبار المزارعين وحددت الملكية وعني بالاستكثار من الملكية الصغيرة ، يعود أبناؤهم وذراريهم إلى حالة متوسطة مقبولة من الغنى . وقد أحس المولون من التجار بالخطر من تضخم الثروات فنزل بعضهم من تلقاء أنفسهم عن جزء من ثرواتهم شاركوا فيه الفقير والبائس،وان ما اخشى الشيوعية عليه مصر والعراق خاصة لأن توزيع الثروة غير عادل فيهما ، ذلك لأن كبار المالكين يزيد ما يملكون عاماً فعاماً ، وحصص الفلاحين من الأرض في تناقص مستمر ، ومصر على ما بلغت من مكانة في الأنظمة والتنظيم إذا دخل فيها القانون الشيوعي بدلها رأساً على عقب . ومتى انحلت مسألة الزراعات الكبرى وجرى امتلاك الأرض على قانون معقول يندفع العامل الأول الذي يرغب بعضهم في المذهب الشيوعي ، فلا يترامى في احضانه الجهلاء نكاية بالاغنياء .

أنا أومن بالقوانين الطبيعية في تدبير هذا الكون وأوقن أنا مهما غيرنا نظماً واخترعنا شرائع لنسعد العالم بأجمعهم لا مناص من أن يكون في الخلق الغنيّ والفقير والمتوسط ، وذلك لتباين القُوى ، واختلاف العقول ، ودرجات السعي ، ومن المتحتم اجراء تعديل عظيم لرفع مستوى المعيشة في الطبقات الفقيرة ، ولا غنية أيضاً عن تحديد ثروات الأغنياء بطريقة من الطرق التي تستخدمها الحكومات ، وأخذ الفضل من أموال من ضخمت ثرواتهم لتصرفه في مرافقها العامة .

قويت الدعوة الى الشيوعية في الشرق والغرب على العهد الاخير وآخر ما قرأته في مجلة لاروس (حزيران ١٩٤٨) انه يمكن الحكومة السوفيتية ان تدعو كل وطني الى أي عمل تراه يناسبه حتى ولو ساقته الى التغريب في أقصى حدود بلاده وبذلك قامت مشاريع كثيرة في تلك الديار مثل ترعة البلطيق والبحر الابيض على أيدي كتائب من المجرمين السياسيين

وقدماء أغنياء الفلاحين ممن صودروا واغتربوا وهم يعدون بمئات الالوف ، أو بملايين ، عملوا مع المجرمين العاديين جنباً لجنب . وقامت أعمال أخرى بايدي فلاحين أو عملة سُخروا في أشغال شاقة على نحو ما كان الفلاح المسكين يُسَخَّرُ في روسيا على عهد بطرس الأكبر ، وتحدثت المجلة عن الظلم الذي يلحق كل روسي .

وفي روسيا يحرم الاضراب والاعتصاب على العمال ويؤكد المستر مالوني الذي كان وزيراً مفوضاً لاوستراليا في موسكو أن لمديري المصانع ورؤساء العمال الحق في أن يقتلوا في بعض الأحوال رمياً بالرصاص العامل الذي يصل متأخراً والعامل الذي يتكرر تغيبه عن العمل بدون عذر مقبول واذا مست الرحمة قلب مدير المصنع أو رئيس العمال فله أن يخفف عقاب العامل بسجنه أو بنفيه الى سبيريا ، وفي جريدة أخبار اليوم بقلم الاستاذ محمد التابعى (عدد ٢٢٧) انه يبلغ عدد أعضاء الحزب البلشفي نحو مليونين من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم نحو مائتي مليون أي أن نسبة واحد بالمئة يحكم ٩٩ من السكان والناخبون ملزمون باعطاء أصواتهم للمرشح الواحد ومن لا ينتخب يسجن أو يحرم بطاقة التموين . ويمنع عن الروسي السفر الى الخارج وقراءة الصحف الاجنبية والاستماع الى محطات الاذاعات الاجنبية .

وبعد فإذا نظرنا الى المذهب الشيوعي وما عاد على روسيا من فوائده نشهد أنه أصبح عقيدة لاهلها كان منها أن وقفوا في الحرب الاخيرة موقفهم المحمود في وجوه أعدائهم فأحسنوا لأمتهم اكثر من آبائهم في الحرب العالمية الأولى وكانوا فيها يستسلمون في ساحات الوغى بعشرات الألوف .

فوضى المجتمع

في اليوم الذي يعرف هذا الشرق قدر الوقت ينتقل خطوة أخرى في معارج التقدم ، وفي اليوم الذي يرغب عن الفوضى ويولع بالنظام يعد ذا قيمة في مجموعة الشعوب ، وما زال الشرق دون المهالك الانكلوسكسونية بنظامه لأن كل اولئك دخل على أهل تلك الممالك وأصبح عادة مستحكمة فيهم ،

حدث ان اراد المجمع العلمي العربي اقامة حفلة تأبين لأمير الشعراء أحمدشوقي تحت رعاية أول رئيس للجمهورية السورية السيد محمد علي العابد صديق الشاعر أيام الطلب ، فلما حانت ساعة افتتاح الحفلة وتأخر الرئيس أوعزت الى القاريء ان يقرأ ، وللخطباء ان يتقدموا ويلقوا خطبهم حسب البرنامج المقرر . وجاء الرئيس بعد ربع ساعة من الوقت المعين وفهمت ان امين السر ادعى للرئيس أن الكبراء في العادة يشخصون الى الدعوات عندما يتكامل الحشد ، فقلت للرئيس أنا أرى أن تكون فخامتك المثل المقتدى به في المحافظة على الاوقات ، وقاعدة تخلف الكبراء عن الوقت المحدود تزيدنا فوضى الى فوضانا ، ونحن نبغي أن نقضي على هذه الفوضى . لشدّما امتعضت من تسامح قومي في المواعيد ، وكنت كثيراً ما أسمعهم أشد التقريع . (راجع الفصل الذي عقدته للكلام على نظامنا في كتاب اقوالنا وأفعالنا)

بلاهة

من البيوت من لا ترى الشرف إلا في خدمة الدولة القائمة لا يهنأ لبنيها العيش إلا إذا تخطوا رقاب ارباب الكفاءات فقبضوا على عمل سيان عندهم أكانوا احرياء بتقلده أم كانوا وسطاً فيه أو دون الوسط . ويزيد في جرأتهم على أخذ ما ليس لهم دعواهم أنهم من اهل بيت جاء منه فلان الفقيه وفلان العامل وفلان الجندي كأن هؤلاء كانوا طرازاً عجيباً من النوابغ والحكماء ، وهم أشبال أولئك الأسود ، وما هم إلا كأجدادهم ولو كان اجدادهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

عاصرت من هذا القبيل جماعات «تخطي إذا جئت في استفهامها بمن» كما قال المتنبي : كانوا من الجهالة بمكان مخجل ، ومن فساد الذمة المثل المضروب ، لا يهتمون بغير مظاهرهم ، وليس لهم مايؤهلهم للحكم إلا دعوى شرف السابقة ، ولا من ادوات الاقدام على ما يقدمون عليه إلا النفاق لصاحب الأمر ، ومن تعلم منهم بعض التافه من العلم خرج نصف جاهل ، وأنت إذا خاطبت أحدهم ، فكأنك تخاطب مخبولاً لايفهم مايقول ولا مايقال له ، ولو كنت ممن يحسنون الظن وذهبت بادىء الرأي إلى أن عقل صاحبك هذا صحيح لا تلبث اذا احدقت النظر في عينيه وتدبرت ما يبدر على لسانه أنه من فئة يجب تسجيل اسمها في سجل مستشفى المجاذيب ، وتستغرب كيف وصل المرتبة التي بلغها وقد تكون كبيرة جداً ، وكان من حقه أن يكون خادماً او اجيراً ، ورب خادم فاق سيده بذكائه وعقله .

ومثل هؤلاء الناقصين يعوضونماينقصهم من عقل بالمظهر الذي كتب لهم أن يقفزوا إليه ، والعمل الذي يقبضون على زمامه . ولكل منصب في الحكم روعة تزيد وتنقص بقدر ما يُدهن أرباب المصالح للقائم عليه .

وما جرت العادة أن يحاسب الناس كل انسان على مايبـدو من حركاته وسكناته ، ولا أن يؤاخذوه عن بلاهته . والأبله مع هـذا حرب على ارباب العقـل ويتأذى بهم ، لأنه يحب أن يملي ارادته العوجاء لا أن تُملى عليه إرادة .

وكم أصدر من تسللوا إلى الوظائف الكبرى أحكامهم على ما لا يعرفون وباهوا بما صدر عنهم ، ولو كانت اقوالهم مما يخالف الحق والعـدل ، وبعض اصحاب هذه الآراء السخيفة لا يعدمون أُناساً من الجهلة يوافقونهم على آرائهم ، ويكثر مثل هؤلاء المبشرين بالتدني ، المنكرين فضل العلم ، في جماعة يتوقعون مما يندفعون إلى التصريح به إرضاء شخص او حزب ولو كانت بمثل هذه السخافات تدار الحكومات ما قام عمل نافع في بلد من البلدان . وياليت ما ينوه به بعض هؤلاء النوكى من الآراء يسجل في آلة كآلة الحاكي إذاً لـكان منها قصص تضحك وتسلي طلاب الدعابة .

عاش الشرق المنكوب الى اليوم وبعض من يقدمون ويؤخرون في مقدراته من هذا الصنف الغريب في العقل ، يتمجد ابناؤه بأجدادهم الجهلاء ومنهم من استثمروا أسماءهم الكبيرة ، وشرفهم المزعوم ، في معاونة بعض الدول على مقاصدها فجعلت منهم الامراء والزعماء يأتمرون بكل ما تأمرهم به ، كأنهم بعض عمالها لا يخجلون من انفسهم ولا من الناس ، وليس لهم من الصفات إلا انهم يرددون ما يُلقى اليهم مما فيه مصلحة سيدهم قبل كل شيء ، وهم يعيشون بمـا يفضل عليهم من أجر يدفع اليهم ثمن ميوعتهم وعبوديتهم .

قال لي رجل اختلط كثيراً بأحد ملوك الشرق انه رآه لما أضـاع ملكه أَصبح كالطفل وضعف تفكـيره ، فقلت له انه كان كذلك يوم كان له السلطان المطلق في أمته ، ولكن عيوبه كانت مستورة بالمنصب العظيم والقوة القاهرة . وقال لي آخر انا اذا أحسنا نقد رجالنا لايبقى لنا من جميع من ملكوا رقاب المسلمين في القرون الكثيرة أكثر من عشرة ملوك خدموا باخلاص ، وخلد

التاريخ ذكرهم بحق . والأخيار اقل عدداً من الأشرار في كل الأمصار والأعصار .

لما نشبت الفتنة العرابية بمصر كان قائم مقام الخديوي في القاهرة محمد سلطان باشا رئيس المجلس فاستأذن عليه بعض رجال الثورة ومنهم عرابي باشا ومحمود سامي باشا البارودي وغيرهما وطلبوا اليه ان يجمع المجلس ويقرر تنحيه الخديوي توفيق فقال لهم أنا معكم ولكن ألا يجب علينا اذا قرر المجلس تنحية الخديوي ان يعين شخصاً آخر مكانه قالوا لك ذلك ، واعتزلوا في ناحية وأخذوا يتفاوضون ساعات فلم يجمعوا على أمر ، ذلك لأن كل واحد منهم كان يحاول أن يوجه هذا المنصب اليه ، وكان جوابهم بعد مناقشات حادة : انا لم نتفق على شخص . فبعض من طمعوا في هذا المنصب الجليل في ذاك اليوم العصيب ماسلموا من بلاهة خصوصاً لما أخذوا يتفاخرون ويدلي كل واحد بحججه التي تكسبه الأرجحية لتولي الأمر .

ومثل هذا حدث في الشام ايام ولايه الصدر الاعظم مدحت باشا عليها : جاءه بعض أعيان دمشق يشكون من رئيس بلديتها ويطعنون عليه ، فسأل الوالي أحد أصحابه رأيه قائلاً إن رؤساء القوم أتوني يتظلمون من أعمال رئيس البلدية فما ترى ان أقول لهم؟ قال قل لهم اذهبوا وتذاكروا بينكم حتى اذا اجمعتم على واحد أمضي المرسوم بتعيينه في الحال ، فعادوا الى الوالي من الغد يقولون انهم لم يتفقوا على أحد فالأحسن بقاء الرئيس في منصبه ، ذلك لان كل واحد كان يحاول ان يستأثر بهذه الوظيفة وما قاموا لمقصد شريف ، وكانت البلاهة متجلية في حركاتهم ، والغرض بادياً في أقوالهم .

الحزب السوري

هذا بعض خطاب لنا يوم الاحتفال بتأسيس هذا الحزب على عهد الامير فيصل يوم ٤ تموز سنة ١٩٢٠ :

كان الناس في القديم محكومين لمن كثر اتباعه وجنده هكذا كانت صورة الاحزاب في الدول العربية السالفة وهكذا كانت في رومية وآثينة وكان الناس في القرون الوسطى في اوربا بين ظالم ومظلوم وهذا ما حدا الى تأليف شبه احزاب تدفع عن نفسها ظلم المعتدي عليها وتتضامن فيما بينها فلم يكن يومئذ ما يسمى اليوم بالوطنية ولا بالحق ولا بالحرية ، بل كان هنالك احلاف واشياع وطبقات اخرى متضاربة .

قالوا وللوصول الى قيام احزاب سياسية يجب ان تطلق للامة الحرية في بلوغ الغرض بدون استعمال الشدة ولا بد في كل اجتماع بشري من قيام حلف من الشعب يذهب الى الاحتفاظ بالحالة الحاضرة وآخر يرى تغييرها رأساً على عقب وغيره يقف موقف من لا يبالي بما يحدث . والحزب الحقيقي هو الذي ينشر دعوته بالطرق العادلة ويعيش في ظل الحرية مدفوعاً بعوامل المصلحة الأدبية اكثر من المصلحة المالية فالحزب لا ينبعث من مبدأ ولا من نظرية بل من مصلحة وكثيراً ما تكون هذه المصلحة معنوية أكثر منها مادية .

قال علماء السياسة لاجل ان يتيسر لجماعة من الناس تجمع بينهم المصلحة الواحدة والرأي المشترك ان يؤلفوا حزباً يكون عاملا حقيقياً يجب أن يكون لهم رئيس او عدة رؤساء ويسود فيه النظام وتكون له صحف تردد افكاره . للحزب غاية ولاجل الوصول اليها يجب له دليل وكثيراً ما يكافح وحتى يقهر خصومه ينبغي ان يكون على شيء من القوة فرئيس الحزب هو دليله وصلة الحزب ، ولا يتولى الرئاسة إلا لانه اثبت مدافع

وافصح مقول فيهم وعلى الرئيس ان لا يسيء استعمال الزعامة فان الخاضعين لقوله لم يخضعوا كالجندي خضوعاً اعمى بل كان رائدهم في خضوعهم ارادتهم المفكرة وعقولهم المقررة المدبرة ، الرئيس الذي يهمل امر مرؤوسيه يتركه هؤلاء كالجند يتخلون عن قائدهم في معمعان الحرب ، وقالوا ان الجرائد ضرورية لقيام الاحزاب ليكون اتصال بين رأس الحزب واعضائه وليبثوا دعوته وافكاره ويجب على الحزب ان يرفع علمه على الرؤوس فاذا اخفاه من تلقاء نفسه كان كالمتنازل عن عرشه فاذا اكره على ذلك يزيد قوة فتثور العواطف وإذا ثارت اثرت وفعلت .

وذكروا ان الاغراض مهما مزقت الاحزاب فان لهم جامعة واحدة وهي « الوطنية » فاذا دعا داعي الوطنية تنسى جميع المخاصمات ، ويالبؤس امة لا يكون هذا الشعور العالي متأصلا في بنيها فانها تكون اذ ذاك مريضة مرضاً شديداً . اما اذا كانت الاحزاب المعتدلة داخل البلاد تصدر عن الرأي العام وتتنافس كل المنافسة حباً بالخير العام فهي أشبه بمد البحر وجزره الذي لا يفيض فلا يخرب شيئاً ولكنه يعطي الاوقيانوس حياة وحركة .

هذا ما قلته وقد تبين لي بالعمل ضعف استعدادنا للقيام بما تضطلع به الاحزاب وايقنت أن معظم من دخلوا في هذا الحزب كان لمقاصد شخصية لهم ، ولذلك اعتزلت ألا ادخل بعد ذلك في حزب مهما كانت الغاية منه .

اصلاح الأخلاق

راينا عقلاء المصريين مستاءين من الحرية المفرطة التي نالها الناس في الدور الأخير من أيامهـا حتى لم يعد يوقر صغير كبيراً ولا يحترم كبير صغيراً وحتى كسر بعض الفتيان والفتيات القيود وأصبحوا بلا وزاع .

ساعد على ذلك اختلال نظام الاسر حتى ان الطفل ليتعلم مايشوه وجه الأدب (قبل ان يبلغ الخامسة من سنه) من والديه واترابه وجيرانه واخوتـه واخواته وساعد ان انحلت الرابطة بين الحاكم والمحكوم عليهم فمايراه الاول موافقاً بحسب ذوقه أو نيته يجربه ولا يتوقف فيه وللبلاد عادات ولكل قطر آداب والمغلوب كما يقول ابن خلدون مولع ابداً بالتشبه بالغالب لاعتقاده الكمال فيمن غلبه في الاغلب

وبديهي ان لكبار القوم اليد الطولى في اصلاح العادات وبالعكس ولكن بعض الكبراء الذين يرجى الخير على ايديهم مترفعون ويالأسف عن مخالطة غير طبقتهم لأشمئزازهم من سخيف العادات وبعض أهل الطبقة العالية ـ وهم الحاكمون المتحكمون في العوائد وقدوة الطبقات السائرة ـ اخذوا القشور من عادات الافرنج وولعوا بها على اختلاف ضروبها . واتوا قومهم يعلمونهم اياها استطاعوا تلقيها أم لم يستطيعوا .

وبهذه الأسبـاب اصبحت عادات المصريين واهل المدن منهم خاصة مزيجـاً من عادات الروم والأرمن والسوريـين والترك والأرناؤط والطليان والنمساويين والانكليز والفرنساويين .وتصور امة يدخل التغيير الى هذا المقدار في عاداتها كيف تصبح لاتعرف ولاتوصف .

وبحق ما قال أحد الـكتاب في تأليف له نشره منذ أشهر ان اختلاطنـا بالأجانب أضر بنا أكثر مما نفع . على ان هذا الفكر لو قيل لرجل في الغرب أضحك منه واستبلد صاحبه ولـكن متى شرحته له وعرفته اننـا لم نلق معاشر

الشرقيين من الغربيين ما كان ينبغي لنا ان نلقاه عذر وصدق

ذلك بان اختلاط امة باخرى يفيدها كثيراً ويوقف كلا منها على ماعند جارتها من أسباب ارتقاء فتتأسى بها وتحاول الجري على مثالها ولكن اختلاط الشرقيين والمصريين منهم خاصة بالغربيين لم يفدهم الا السرف والولوع بالزخرف والبهرج وهناك جيوش من مفاسدهم وردت على ديارنا فصادفت فيها كرم المثوى وتلقاها أهل الخلاعة بصدور رحبة ونشروها مغتبطين بها بين جيلهم وقبيلهم .

ولو كنا بمكان من حسن التربية لم نضع الفرصة باحتكاكنا بالأجانب وكنا نأخذ عنهم الصبر والثبات والجد نأخذ عنهم عنايتهم بالامور المادية والاقتصادية ونتدارس واياهم دروساً عمرانية ليكون بعدها كل فرد منا مستقلًا بنفسه متكلا على جده وجدارته لاعلى أجداده وأملاكه . هذا ما كان ينبغي لنا اخذه عنهم ويمكن اليوم ان نتعلمه منهم ، ونطرح لهم ما وراء ذلك من أخلاقهم فانها لاتوافقنا وخصوصاً أخلاق غالب الجالية فليسوا في بلادهم من الطبقة العالية أخلاقاً وآداباً ولوكان كلهم .كذلك ما فارقوها وأتوا يطلبون المال عندنا بكل وسيلة .

تعال معنا ننظر اين يصرف بعض الشبان لياليهم . يصرفونها في محال القصف والعزف فيما ينهك الصحة ويضر العقل ، فيما يضربالنفس والمال والشرف فيما يغضب الديان والانسان .

يقول من يشاهد معاهد العاصمة ومجالس أنسها غاصة بالشبان وأهل الخلاعة ماأسهل ضياع الوقت والمال على هؤلاء الناس فكأنهم ماخلقوا ليعرفوا له قيمة او كأن اوقاتهم ليست عزيزة لديهم وأموالهم مبذولة من ايديهم يتلقفها من بعث لنا الافرنج بهم نواباً عنهم في استنزاف خزائن بلادنا .

وحقاً ان فريقاً من الشبان لايألفون المكث في أماكن اللهو والطرب ولكنهم لايقضون أوقاتهم الا في السفاسف والهراء والبذاء وهكذا يمضي الليل والنهار بل الاسبوع بل الشهر بل العام بل العمر وشبابنا لانستفيد

منهم الا انصرافهم الى مايبعث اللذة الى حواسهم والطرب في نفوسهم كأن الشرقي ماخلق الا للخفة والطيش وتضييع الوقت والغربي ماخلق الا للثبات والانكماش والاقتصاد في الوقت والمال .

ولعمري لو جئنا نحاسب السواد الاعظم من شبابنا كيف يأتيهم دخلهم وكيف يخرجونه هل ترى فيهم من يقدر ان يحسب ميزانية اسبوعه اوشهره على الوجه المناسب في عرف الاقتصاد .

شبابنا ينقصهم كل شيء ان أردنا ايراد الحقيقة تنقصهم الاخلاق الفاضلة من مثل المروءة والوفاء ولين الجانب والصدق والثبات ومضاء العزيمة ومعرفة قيمة الوقت والمال والصحة والنظر في العواقب وان لايرضوا بحالتهم الحاضرة ويدرسوا ماعند الشعوب الاخرى المتمدنة من الصفات التي تميزها عنهم يعوزهم ان يعلموا ويعملوا وان يكون كل فرد أمة بذاته ويطالب نفسه بنفسه وهناك يحسن حال المجموع .

لو استعاض شبابنا عن مطالعة الروايات الغرامية والقصص والمجون بدراسة الكتب العلمية والاجتماعية ولو استصعبوها بداءة بدء اذن لرأيتهم ملمين بكثير من حقائق العلم ونواميس الارتقاء .

لاننكر أن منهم من تنبه فيه هذا الشعور ولكنهم أفراد قلائل حتى ليصح أن يقال اننا لم نزل في دور الحضانة فمتى نبلغ أشدنا وفي كم قرن نبلغ مبلغ الاغيار والوقت عزيز ومنادي الرحيل يستحثنا على العجل .

نحن لانطلب الكمال ولا أن يكون كل شبابنا في الدرجة التي وصفناها وانما نعني تكثير سواد المتعلمين المتهذبين وتعلم المبادىء التي يعرفها شبان اقل امة مرتقية وهناك تنال مصر استقلالها رغم انف كل مكابر .

هذا ما كتبت في مصر سنة ١٩٠١ فهل تبدلت اخلاق معظم الشباب في هذا القطر بعد هذه الحقبة الطويلة ؟ الجواب انها زادت انحطاطاً مع الأسف ويمكن ان يقال ان الاقطار العربية ايضاً بقدر ما ترقى في العلوم والمعارف تنحط في آدابها واخلاقها . ظواهر لا تبعث على غير القلق لمستقبل الامة ، فعلى المسؤولين ان يجددوا همة في سد هذا النقص الكبير .

جمعية المقاصد الخيرية

لو كل بلد اسلامي قام بواجبه قيام المسلمين في مدينة بيروت ثغر الشام ، لا ضمحلت الأمية علة العلل في هذا المجتمع ، ولزاد في بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع ، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء ، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة ، وبرئوا مما يتهمهم به اعداؤهم من ان دينهم لا يفسح لهم مجالا للنور والثقافة .

أسس المسلمون في بيروت في سنة ١٢٩٦ هـ جمعية دعوها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وعنيت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ ، ثم طرأت عليها طوارىء شلت حركتها ، ومن أهمها ان الحكومة العثمانية ما كانت تحب استرسال المسلمين في سبل التعليم ، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون في مدارسهم الطائفية ومدارس المبشرين ما شاءوا وشاءت دول الاستعمار .

ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة ، كان أول ما فكر فيه المسلمون إعادة جمعية المقاصد الخيرية الملغاة ، خصوصاً وقد رأوا كلمة التبشير تقوى ، فهبوا إلى التذرع لاحياء جمعيتهم في سنة ١٣٣٨ هـ وأخذوا يجمعون أموالاً ، واستوهبوا ارضاً عظيمة من الأوقاف اقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهي ، فكان لهم منها بأخَرَة ريع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً في السنة يدخرون نحو ثلثها مالاً احتياطياً ، ولا يفتأون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم .

وجعل أولئك العاملون هدفهم الأسمى انشاء مدارس لتربية البنين والبنات ، وتثقيفهم بالثقافة الحديثة التي تنطبق على التعاليم الاسلامية ، واعدادهم ليكونوا عاملين منورين اقوياء في عقيدتهم الدينية والقومية ؛ وزادوا في مناهج البنات على مناهج البنين - والعلوم النظرية واحدة في

جميع مدارسهم — دروساً عملية في تدبير المنزل ، تتناول الطبخ والخياطة على اختلاف انواعها ،والاشغال اليدوية والرسم والموسيقى وتربية الاطفال .

اصبح لهذه الجمعية في مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والاناث ، منها مدرستان ثانويتان ، احداهما للصبيان والثانية للفتيات ، اطلق على كل واحد منها اسم « كلية » . وقد نجح تلاميذها في السنة الغابرة نجاحاً باهراً ، وكان فيهم ثلث من نجحوا في الجمهورية اللبنانية في احراز شهادة البكلوريا ؛ هذا وبيروت مدينة المدارس ، ومنها ما يرد عهد تأسيسه الى ستين او سبعين سنة . وبلغ مجموع مافي مدارس البنين والبنات في بيروت في سنة ١٩٣٤ — ٣١٣٠ طالباً وطالبة ، وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض الاطفال (هذا الكلام قبل سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك زاد عدد المدارس وقويت الجمعية قوة يفاخر بها كل مسلم) .

ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم في الثروة في قيام هذه المدارس يمدونها بما تصل اليه ايديهم من المال كل سنة ، وكانت مدارسهم في هذه الازمة الخانقة اقل دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية ، ذلك لان مدارس الجمعية تدار بأيدٍ رشيدة ، لا يسرف في مالها ايام الرخاء ، ويراعى في الانفاق العام الحاضر كما تراعى الاعوام المقبلة .

ولما رأت الجمعية ان التبشير يسري بسرعة في القرى الاسلامية من عمل بيروت هبت لجنة من اعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها ، وكوّنت لها رأس مال وبدأت بانشاء المدارس في القرى في سنة ١٣٤٠ هـ فكان لها منها الآن اثنتان واربعون مدرسة فيها ما يربو على الالفي طالب وطالبة يتلقون التعليم الابتدائي الصحيح على منهاج التعليم في الجمعية .

ولم تكتف جمعية المقاصد بما اتت ، بل عمرت لها في بيروت مستشفى ذا طبقتين وبلغ ما أنفق على بنائه ٢،٣١١،١٥٩ غرشاً سورياً او نحو اربعة آلاف ومائتي جنيه عثماني ذهباً ، ونشطت المدارس الاهلية الاخرى وعاونتها ، وتولت برجالها مراقبتها وإرشادها ، ورممت بعض المساجد في

الحاضرة والضاحية ، ومنحت معاونات لمن يريد التخصص في مـــدارس الشرق أو مدارس الغرب ، وعاونت حفظة القرآن وسهلت سبل اتقان حفظه ، كما بسطت يد معونتها للمولعين بالفنون الجميلة إلى غير ذلك .

هذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والخير جمعها الغُيُر على أبناء دينهم ، فتألف منها رأس مال لا يستهان به ؛ وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية ، ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشك أن ينسلخوا منه ، وكل ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميـد بيروت وعين أعيانها عمر بك الداعوق الذي كانت طريقته وطريقة أعوانه ان يعملوا ولا يقولون ، ويبذلون مالهم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبجحون .

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذي كان سداه الاخلاص ، ولحمته حب الدين والمدنية ، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام ، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضي ، في محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة ، وقـل في الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره في هذه القطعة الصغيرة من الـديار الشامية ، وقل ان كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت . ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابهين من ابناء بيروت لقضي مع الزمن على الأمية في المسلمين . وجوهر كل نهضة في عقول الرجال ، ولا نجاح في الاعمال لغير المخلصين المثابرين .

هذا ما كتبته في هذه الجمعية العظيمة وما زالت ولله الحمد مطرداً سيرها تخرج بها رجال هم اليوم قرة عـــين المسلمين في هذه الديار .

من آراء شيخ المصلحين

كثيراً ماسمعت الشيخ طاهر الجزائري يقول ان افضل الطرق في انهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين وهذه طريق طويلة ولكنها امينة الغائلة لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي أما القول بالثورات وطرق العنف فقد تنجح ونجاحها قليل وليست مضمونة .

كان يقول لخاصته اذا اردتم النجاح فلا تلقوا آذانكم لما يقال فيكم من مدح وقدح وسيروا الى الهدف بقدم ثابتة تُفلحوا . وتوقوا اضاعة الوقت بالقال والقيل وما لا ينتج فائدة من قول وعمل .

كثيراً مانصح لبعض من يحب إياكم أن تخطوا في رسائلكم إلى اخوانكم ما لا تريدون أن تقولوه جهرة فكل مايكتب لا يؤمن نشره ويفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه .

سأله أحد شيوخ الحشوية رأيه في كتبه وكانت كلها كتب خرافات وشعوذات بعيدة عن روح الدين الصحيح فقال له : يا فلان اشتغلوا ونحن نشتغل وسنرى لمن تكون النتيجة .

كان يقول لبعض تلاميذه : تعلّم كل يوم مسألة واخرج للنزهة ولا تتعب نفسك كثيراً فلا خير للمرء باكراهه على معاطاة امر تضيق به نفسه .

وكان يقول لهم تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه ولو لغة مالطة فقد يجيء زمن تحتاجون اليها وإياكم أن تقولوا انها لا تدخل في نطاق اختصاصنا فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ماحسنت به الحياة .

كان يقول لخواصه من سوء بخت المسلمين أن استولت الدولة العثمانية على اجمل اقطارهم وحكمتها قروناً بالجهل والجبرية فأفسدت الدين وما نشرت إلا الجهل .

قال فروا من الموتورين والسوداويين فراركم من الوحش ، فهذا أحسن

علاج لهم ولا تضيعوا اوقاتكم باستصلاح من لم يرزق الاستعداد الكافي لقبوله ، فمن الناس من خلقوا للسكة والفدان ومنهم من تهيأت نفوسهم لمجالس العلم والأدب وللجلوس في مقاعد دور الندوة ودواوين السياسة .

إذا حرصتم على ادخال الاصلاح في البيوت فلا تتوانوا عن تعليم ابناء جميع الطبقات ولتكن معظم عنايتكم مصروفة الى تعليم ابناء الأعيان فان عندهم المال والجاه إذا تحلوا بحلية العلم والمعارف جاء منهم رجال جد نافعين وعم الاصلاح الذي تحاولون .

وكأن هذه الحكمة مأخوذة من قانون الرهبنة اليسوعية التي جعلت من شروطها بذل العناية خاصة باولاد الأغنياء حتى يكونوا في مستقبل ايامهم اعواناً لجمعيتهم .

قال لجماعة كانوا يتألمون لما يقع من ظلم قائممقام البقاع العزيز وكان من ابناء بدرخان الاكراد : هل عندكم مسدسات تستعملونها للخلاص من هذا الجور ! قالوا : لا . قال : إذاً وطدوا انفسكم على احتمال الاستبداد واورد كلمة من حكم سيدي احمد زروق : « المؤذي طبعاً يقتل شرعاً » .

وكان يقول تعلموا العلم لله ولفائدته ولذته ولتكن بكل واحد منكم صناعة او تجارة او زراعة تعيشون منها احراراً حتى لا تحتاجوا إلى قرع ابواب الملوك والحكومات فاذا احتاجوكم نادوكم والا فأنتم بما لكم من اسباب المعاش لا تحتاجونهم .

كثيراً مارأيته يغضب على من يستنبطون من الحوادث ما يخطر لهم بادىء الرأي وكان يشير اليهم أن يذكروا الحادث كما جرى وسمعوه ويتركوا الاستنباط والتعليل لغيرهم .

ماكان الشيخ يجوز الكذب حتى على المخالف ويحث كل من يجتمع اليه على الصدق ولا يتقي الا من كان يخشى بأسهم ويعمل بما قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب .

كان الظاهر من حال الشيخ انه جبان رعديد وهو يقوي قلوب من

حوله وينشط كل من يراه اهلاً للتنشيط وأبغض الأحاديث اليه أن يقال في حضرته مايفت في عضد المسلمين كقائد يسوق الجيش بحكمته ولا يخاطر بنفسه في المعركة لئلا يذهب الجيش بفقد قائده .

كثيراً ما كان يقول لو بلغني أن اهل هذا البلد كلهم راضون عني ليس لي منهم عدو لعددت نفسي ساقطاً لأن من يرضى عنه كل الناس لا يكون إلا خداعاً منافقاً يظهر لكل احد بما يرضيه والمصلح لايخلو من اعداء واصحاب . قال واحب الى قلبي أن ارى عشرة من العقلاء من مئات الالوف يرتاحون الى عملي ويقرونه .

كان يقول لو ارادني اليهود على ان اعلمهم لبادرت الى اجابة طلبهم لأن في تعليمهم تقريبهم منا واتقاء شرهم . وكان غرامه في تأليف القلوب بين ابناء الأمة على اختلاف اديانهم وازالة الفوارق من بين الفرق الاسلامية خاصة ولذلك كان يعرف من اسرار جميع الطوائف ما لايعرفه ابناء الطوائف نفسها أو مايستر عن عامتهم على الأقل . ويقول الحمد لله لقد سالمنا جميع الفرق . اما سخفاء اهل السنة وهم دونه علماً وعقلاً فيبادرون الى تكفيره كأن بأيديهم مفاتيح الجنة .



موضع عجب

(في أكثر القصص التي يقرؤها ابناء هـذه الحضارة وفي أكثر المجلات والصحف ، وفي أكثر ماتشهده في المسارح وعلى الشاشة البيضاء في الشرق والغرب = حب وهيام ، حب ودماء ، حب ودموع ، حب هازل ، وحب جاد ، ولكن أكثره محصور في نداء الغريزة ، وفي ارضائها أو محاولة ارضائها بالف سبيل وسبيل ، ولو اضاف سكان الارض سكان المريخ ، لأخذهم الدهش منا نحن أهل هذا الكوكب ، ولظنوا حين يرون مانرى من الاتجار بغريزة الجنس في أكثر ما نقرأ وما نشهد ـ ان ابناء حواء وآدم لم يرثوا من ابويهما سوى هذا الطراز من الحب البدائي الذي لا فضل فيه لانسان على حيوان . نعم هو جزء حيوي من طبيعتنا ، لكنه ليس كل طبيعتنا وهو نوع من الحب العابر الموقوت لكنه ليس كل الحب ، ولا هو ابقى انواعه واصفاها .

(حب الابوة والأمومة والبنوة ـ اين هو في هذا الخضم المصطخب ، من النزعات البدنية الدنيا ، انه مغرق أو يكاد يكون مغرقاً في بحر لجي من الشهوات ، في القصص وعلى المسارح والشاشة البيضاء او السوداء .)

(حب الانسان للانسان من حيث انسانيته واخاؤه ، لا من حيث ذكورته او انوثته ـ وحب المواطن للمواطن والجار للجار والغني للفقير والقوي للضعيف ـ حب الجمال في النور إذا محا الظلام ، وفي الطبيعة إذا زانها الربيع ، وفي المبدع الأعلى لبدائعه ، وفي البدائع لمبدعها الأعلى . اين الجداول والانهار والحب الشامل ذو القنوات يجري بالعذب الفرات من الرحمة والعطف الى كل قلب يتوجع وروح تظمأ ، طغت غريزة الجنس فكأنما الدنيا كلها ذكور وليس لهم الا خصائص الذكور واناث ليس لهن سوى خصائص الاناث ـ اما صفات الانسان المشتركة بينها ،

المتسامية عن التفريق والتخصيص ، فيكاد الناس يجعلونها فضولاً لا غناء فيه ولا حاجة اليه .)

هذا ماقاله صديقي الاستاذ محمد توفيق دياب في كتابه اللمحات وله الفضل ان سبق الى تدوين هذا المعنى الذي يتناول الشرقيين والغربيين على السواء ، وكان الغربيون هم السابقين الى هذه المعاني وبهم اقتدى الشرقيون . دارت القصة في الغرب على المرأة وعلى الهيام والغرام يختلق القصصيون موضوعاتهم ويدعون انها مما وقع وبلاغتهم تغطي العيوب في كلامهم الذي يحاولون به تسلية الناس واثارة شهواتهم ، ويزيد الاقبال على مايكتبون كلما كان الكلام ظاهر الفجور . لاجرم ان البشر كان في كل زمن يرتكب انواع العبث واللهو وما كان منذ بلغتنا اخباره اقل غراماً بالنساء منه اليوم ولكن كانوا يكتمون ويستترون واليوم يظهرون ويعلنون ، كان من يأتون العهر جهرة فرادى فأصبحوا اليوم جماعات . قلّ الحياء في الناس وما ندري ما تكون الحال عليه بعد بضعة عقود من الأعوام ، والبشر متسارع في كل شيء ، وكل يوم تزيد تأثيرات القصص والسينما أكثر من تأثيرات المدارس والمواعظ .



المدنية الحديثة

خطب برنارد شو أعظم كتاب الانكليز مرة قال : كشفت خرائب في جزيرة كريت يرد عهدها الى كذا الف من السنين فظهر انه كان للقوم مدنية لا تختلف عن مدنيتنا الحاضرة بمرافقها وترتيباتها ، فتساءلت ماذا زدنا نحن أصحاب هذه المدنية الحديثة اذاً على ما كان للاقدمين من حضارة ، فلم أر أحسن في الجواب من ان ما أتينا به كان عبارة عن اختراع اسلحة وقذائف يقتل بها بعضنا بعضاً ، وبذلك فقط امتزنا على اجدادنا . هذه زبدة ما روي لي من كلام هذا العظيم وقوله في الواقع حقيقة لمسناها في الحربين الاخيرتين ، وكانت أمم الغرب من اوربا والاميركيين يخترعون للتدمير والقتل ادوات من افظع ما عرف الانسان. وبهذا الصراع الدامي اثبت البشر ان الشفقة نزعت من القلوب ،والانسانية خرجت على كل قانون كانت ترعاه ولو بعض الرعاية ، وان الاديان وجوهرها العطف على الفقراء والضعفاء أصبحت لا تذكر الا على شفاه من يعيشون بالاتسام بها .

كلما انقضى عقدان او ثلاثة عقود من السنين خطت الحضارة الحديثة في باب القتل خطى هائلة ، ولا يأتي جيل آخر ان دامت هذه الاختراعات سائرة سيرها حتى يقال ان البشر أصبحوا أحط من الحيوانات ، وقد يتراحم الحيوان أكثر من الانسان . ونحن مهما كددنا قرائحنا لنجد لهذه الحرب الاخيرة مبرراً ونددون ما انجلت عنه من فوائد لا نرى الا انها زادت في بؤس الانسان على ما لم يعهد له مثيل ، وكان من ذلك ان العلم وغايته سعادة البشر قد انقلب شر أداة تستعمل في شقائه .

كان يقال كل مشروع تريد القضاء عليه حوّله الى لجنة فينسى ويهمل وقد احتال بعض رجال السياسة في هذا العصر على أممهم لدوام الحرب

بان ألفوا لجاناً ومجالس لاتقاء عادية الحروب في الظاهر فما أفادت الانسانية شيئاً . أنشاؤا عصبة الامم عقبى الحرب العالمية الأولى ، واخترعوا مجلس الأمن في الحرب العالمية الثانية فماذا كان من العصبة وما اسفر عنه هذا المجلس ؟ هل بطلت الحروب من العالم في الزمن الذي انقضي بين الحرب الاولى والحرب الثانية او بين الهدنة الأخيرة حتى الساعة ؟ ام هل استطاعوا تخفيف الويلات والناس يعيشون الى اليوم في خوف الحرب الكبرى ؟ « وتوقع المصيبة أعظم من المصيبة » وهكذا ينشأ من هذه المدنية الشر اثر الشر لايحول دون وقوعه مجلس ولالجنة ولامؤتمر ولاعصبة .

قام مالتوس الاقتصادي الانكليزي في القرن الماضي بفكرة الحيلولة دون نمو البشر وعدم الاستكثار من النسل الى أكثر مما لا تتسع له الأرض فأثبتت الأيام خطل رأيه وظهر ان الكرة الأرضية تتسع لأكثر ممن يمشي على سطحها من الخلق ، فقد كان سكانها في أول القرن التاسع عشر ثمانمائة الف مليون وأصبح في اواسط القرن الحالي عشرين الف مليون اي زاد اثني عشر الف مليون في نحو (١٥٠) سنة على كثرة ما نشب فيها من الحروب العظيمة والثورات والأوبئة ، وظل يأكل ويعيش كما كان في القرن الماضي . ولو بلغ عدده خمسين الف مليون لعاش من خيرات الأرض إذا قدر له ان يتجنب الحروب وكفي مؤونة جلب بؤسه بيده .

فعلى من تقع اللائمة ونحن نرى من يقدمون ويؤخرون في اقدار بني الانسان ظاهرهم الحرص على السلام وهم يضمرون الحرب في قرارة انفسهم ، واساليب اهراق الدماء تزيد شهراً فشهراً ؟ على ساسة الدول الكبرى من الملوك والرؤساء أم على المجالس النيابية التي توافق على اعلان الحروب مرغمة احياناً ويتغلب قليل من نوابها على افكار السواد الأعظم ، وفي الامور العظام قد لا يقررون مايقررون الا اذا صدر إليهم ايعاز من مصدر عال تضطرهم الحال الى مراعاته وإظهار الطاعة له . وخضوع الضعيف للقوي ظاهر لكل من يحلل عمل الحكومات .

طبقات الناس

في درس الطبقات تحليل روح الجماعة . ومن المتعذر الجمع بينها أو القضاء على الفوارق بين اجزائها ، وهي مهما تعددت درجاتها نرجع الى طبقات ثلاث أمهات : عليا ووسطى ودنيا . وقد تقسم كل طبقة إلى طبقات يكون الفاصل بينها على الأكثر الغنى والثقافة ، وليس لك أن تعد الفقير بالمال الغني بالعلم من الطبقة الدنيا ، ولا من الانصاف أن تحسب الغني بماله الفقير بثقافته في الطبقة العليا ، والمال وحده لا يكفي لرفع المرء فوق الرؤوس ، كان هذا رائجاً ايام كانت الأمية متحكمة في الامم جمعاء وعلى الملوك والأمراء والزعماء والحكام بل على القضاة والوعاظ والتجار والصناع .

كان المفكرون في كل عصر يصنفون الخلق بحسب مايتراءى لهم ، والغالب انهم كانوا ينظرون إلى درجات الغنى اولاً ، وما يحترفه المحترفون من الحرف ويحسنون من عمل ثانياً ، ويعتبرون قرب المرء وبعده من الحكم والسلطان قبل كل اعتبار .

قسم المقريزي أصناف الناس لعهده في مصر إلى سبعة اقسام (١) اهل الدولة (٢) اهل اليسار من التجار واولو النعم من ذوي الرفاهية (٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم اصحاب المعايش (٤) اهل الزراعات سكان القرى والريف (٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من اجناد الحلقة (٦) ارباب الصنائع والأجراء واصحاب المهن (٧) ذوو الحاجة والمسكنة . وهذا التقسيم لا يكاد يختلف عن تقسيم العصور الخالفة إلا قليلا .

ولما احتفل احد عمال الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر بدمشق (١١٥٦) بزواج ابنته خص كل يوم بجماعة فكأنه قسمهم الى طبقات فكان اليوم الأول للوالي والثاني للعلماء والمشايخ والثالث للأغوات والرابع للتجار والباعة

والخامس للنصارى واليهود والسادس للفلاحين والسابع للقينات والمومسات . قال احد المؤرخين أن صاحب العرس اكرم هذه الطبقة إكراماً زائداً وفرق فيهن الذهب والفضة . وكان قبل يوم العرس عمل تهليلة لجميع مشايخ الطرق حضرها الخاص والعام .

وبعد فان الطبقات بحكم العادة منعزل بعضها عن بعض لا يمتزج الحكام بالتجار ولا الفقهاء بالأجناد ولا الزراع بأرباب الصنائع الحرة من الاطباء والمحامين والمهندسين . ولذلك كان من العادات الراسخة إلى عهد قريب ألا يتزوج التاجر إلا من ابنة تاجر ، ولا تقترن الفلاحة إلا بفلاح أو ماشابهت طبقته طبقة أهلها . وابنة الموظف لا يبنى بهـا إلا موظف ، والشريفة لا ينكحها إلا شريف . وهكذا حتى يكون الزوجان متقاربين بالثروة والعادات .

ولما كثر المتعلمون والمتعلمات ظهرت الفروق محسوسة بين الطبقات ، ولا تصفو الا في الندر عشرة المتعلم مع غير متعلمة او المتعلمة مع غير المتعلم وهذا ما يستنتج منه أن الطبيعة ميزت بين الطبقات . ويكفي اختلاف حرفة الواحد عن الثاني في مجلس أن يتباعد كل واحد عن صاحبه . واذا خرج الحديث عن الأحاديث العامة وتحدث أحد الحاضرين بما لا يتذوقه الحضور يتأفف بعض السامعين حتى ليظن أن المتكلم من عالم آخر يخاطب عالما آخر غير عالمه ، وهذا من تخالف الطبقات . بل لقد تجد اهل بلد واحد اختلفت طبقتهم يتباينون في لهجاتهم وفي افكارهم ومنازعهم على قربهم في الجوار كأنهم من بلدة اخرى . وكلما تناءت المنازل زاد التخالف في العادات واللهجات ، ولا يجمع شملهم إلا توحيد اللغة والتربية الوطنية المشتركة والتباين يبقى اثره زمناً طويلًا ويضعف ولا يكاد يرى على ماهو حاصل بين ابن القرى وابن المدن في اوربا واميركا لاشتراك سكانهما في المسائل العامة أكثر من سكان المدن والقرى في الشرق . والتعليم الاجباري هناك يضعف تأثير الطبقات في الجملة . ولقد رأينا طبقات الفلاحات هنا اذا وافين الحواضر للخدمة في البيوت يصعب عليهن بادىء بـدء ممارسة

بعض مصطلحات الحضارة التي دخلوا فيها ولا يزال الفرق ظاهراً بين القروية وابنة المدينة وبين الجبلية والسهلية لأن لكل واحدة بيئة خاصة نشأت فيها .

لم يوفق عالم من علماء الملة منذ كان الاسلام كتوفيق الجاحظ في تحليل روح الطبقات ولم يحسن أحد الانتفاع بهم والاطلاع على ماخصوا به من ميزات . اختلط بعامة الطبقات وغربلهم ونخلهم وادرك مواطن الضعف والقوة فيهم . هذا وقد ثبت أن التشابه بين اهل الحرفة الواحدة من امم مختلفة أكثر مما هو بين جماع اهل بلد واحد . وقالوا ايضاً ان اهل كل حرفة وان اختلفت شعوبهم أدنى إلى التقارب في التفكير والعادات مما لا يشهد في تقارب الطبقات في امة بعينها . وكثرة التخالف في الطبقات في الهند ادت الى شطرها شطرين . فسبحان من طبق الطبقات ورفع الدرجـات .

الشيخ طاهر والسياسة

طال تفكيري في حال المشايخ الفقهاء فما رأيت أكثر من عاصرتهم الا شبه العامـــة بحرصهم على شهواتهم وتحيلهم لاقتناص الدرهم والدينار واستحلال كل ما يوصلهم الى رغائبهم وزادوا العامة بان تلفقوا اشياء من العلم يستخدمونها لمنافعهم وللابقاء على مظاهرهم فهم لا يَعدُون العامة في كل ذلك مهما احسن الظن بهم ، ومن لايعمل بعلمه موته وحياته سواء .

وبعـد ان كان من المشايخ الى أواخر القرن الماضي من ينكر المنكر ويدعو الى المعروف قل جداً عدد من كان على هذه السيرة وغدوا لا يهتمون لغير راحتهم ورفاهيتهم وهـــذا لا يتهيأ لهم الا بمصانعة الملوك والحكومات ليفيضوا عليهم من احساناتهم ويرقوهم الى اعلى مراتبهم ودرجاتهم كأن العلم لاثمرة له الا نفع من تعلمه فقط لانفع من تستدعي الحال هدايتهم ورفع اصواتهم عند الاقتضاء بما يدفع بالامة الى الأمام خطوة اوخطوات .

قال لي صديقي الاستاذ سعيد العرفي — وهو من القائين بما اخذ الله على العلماء من العهد الا يكتموا العلم — ما كنت اظن الشيخ طاهر الجزائري أكثر من عالم مصلح واسع العقل بعيد النظر حتى سمعت من اذاعة القدس كتابه الى معاونة حاكم العراق الانكليزية في التوفيق بين مصلحة العرب ومصلحة الانكليز وعندئذ ايقنت ان الشيخ جمع الى علوم الدين علوم الدنيا ومنها السياسة على ما كان عليه بعض كبار علماء السلف . وهذا ما دعاني الى نشر هذا الكتاب النادر في هذه المذكرات وهو عندي محفوظ بخطه دفعه إليّ في أواخر أيام حياته قال :

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة الشهمة المصونة مس « بل » دام اقبالها

احييك بخير التحايا واثني على تلك السجايا وأذكرك بالأيام المسعودة التي جمعتنا في دمشق الشام ثم اذكرلك الداعي الى المكاتبة وهو امران احدهما تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك بهذا المحب المخلص فقد ذكرلي بعض اصدقائي ترجمة ما كتبته في حقي في رحلتك الى سورية بما يدل على حسن الطوية ، والأمر الثاني اقتضاء الوقت لذلك فإن هذا الزمان الذي هو اغرب الأزمنة مطلقاً يجب الانتباه فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص فانها تمر مر السحاب . هذا ولما كنت اعتقد ان احسن من يخلص له العرب الود هو دولة بريطانيا العظمى لما خبرته من الأحوال ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك - والمودّة لما كانت واجبة ان تكون من الطرفين اقتضى الأمر ان يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الأمر فرأيت انه ينبغي لانكلترا العظمى ان تعتني بأمور ، الأمر الأول ان تؤسس في كل بلدة كبيرة ديواناً شبيهاً بالرسمي لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يحب العرب لتساعد عليه بقدر الامكان والذين يعينون ينبغي ان يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب ممن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة .

الامر الثاني ان تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الانكليزية .

الأمر الثالث الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان .

الأمر الرابع مراعـــاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم لاختلاف العادات فإنه قد بلغني انه كان يقع في البصرة والعراق وغيرهما من بعض المأمورين تساهل في ذلك وهـذا مضر جداً لايشعر بمضرته الا بعد ان يشتد الحال ويعسر زوال مافي النفس . نعم ان هذا الأمر دقيق يصعب القيام بـه كما ينبغي الا ان الاعتناء لأسبابه كثير ممكن . والعربي أهم شيء عنـده عدم الهوان .

الأمر الخامس تسهيل أمر تجارتهم وتسهيل أمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك وتدريبهم في ذلك على كل ما ينفعهم ولايضركم .

الأمر السادس الاعتناء بعدم مس الشعائر الدينية على وجه أقوى من الحالة السابقة ، ومما يؤيد ذلك منع أمر المسكرات ونحوها وتوابع ذلك .

الأمر السابع تدريبهم على ما يحتاجون اليه من امور اقتصادية أو غيرها أي شيء كان .

واني أرى ان هذه الامور إذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنة جداً ويشتد التلاؤم بين الفريقين ، فإن العرب أقرب النـاس الى شكر النعمة فان وجد من لايشكر فان في ظهور النعمة ما يقمعه عن ابراز ما ينويـه من مغالطة الناس وما قلت ماقلت إلا بعد تجربة أواختبار تام ولولا شدة انحراف مزاجي لألفت في ذلك كتاباً مفصلاً قياماً بمثل هذا الأمر الجلل الا ان في هذا الامر كفاية والله الموفق

المخلص للامـة العربية والدولة البريطانية العظمى

طاهر الجزائري

حاشية

الناس الذين على فكري من جهة توافق مصلحة الامة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى كثيرون الا انهم لايقدرون على اظهار فكرهم الا

بعد أن يروا باعثاً على اظهاره لئلا ينسب اليهم انهم خائنون للامة ، فإن هذه الجملة راعت الناس كثيراً وهي جملة اتخذها الشرقي لارهاب غيره سواء كان هو مخلصاً في نفسه أو غير مخلص وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام حين كنا بها في المدة الأخيرة وذلك قبل دخول الأنوريين في الحرب بنحو شهرين فإن بعضهم اشاع عني اني حضرت لتمهيد الأمر لدولتكم العظمى وكان مركز الاتحاديين هناك المركز الأول ولو وقع ذلك لغيري لأهلك حالاً ولم يكن له مانع ولكن اوصوهم في حقي بان يغمضوا عينهم في المسألة رعاية لاعتقاد الجمهور باني لا اختار شيئاً فيه خيانة للامة

واذا وقع ماذكرناه يقل الشغب ويضعف أمر المموهين الذين لا يهمهم إلا امر انفسهم ، فبادروا لذلك غير مأمورين فهذا اوانه ونسأل من بيده الامر كله التوفيق لما هو الاولى .

واذا كتبت لنا جواباً فاكتبيه بعنوان الجريدة المشهورة الجزيلة الفائدة ، وهي جريدة الكوكب التي يدير امرها المستشرق المشهور صديقنا كودنبري يصلنا اين كنا .

• • •

حاشية

واني أوصيكم ببعض البلاد التي لا أسميها خيراً ، فان فيها كثيراً من الرجال المهمين الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها ولكنهم غلبوا على أمرهم لانهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة والبحث يجلو كل شيء فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل وقد آن الأوان لمعرفتهم ، وهذا لا يكون الا تدريجاً فليبادر الى ذلك فستحمدون عاقبة هذا الامر والله الموفق .

الصغار والكبار

كثيراً ما حاولت ان أجمع بين من لم يسبق لهم أن تعارفوا وبينهم تشابه في الخلق والتربية لعلمي أنهم إذا تعارفوا كان من اجتماعهم فوائد عظيمة ، أحب الشاب أن يسمع كلام الكهل والشيخ ، وأحب هذين أن يعرفا الشاب ومراميه ، وقد نجحت هذه التجربة بعض الشيء وثبت عندي أن من تعارفوا غيروا آراءهم فيمن تعرفوا اليهم والبعد جفاء . ورب عدو أزرق أصبح بالتعارف الى آخر صديقاً باراً ولا يعرف أحدنا ما عند صاحبه من مزايا إلا إذا وقف عليها بنفسه .

كانت المذاهب والطرق تفرق بين الناس في القرن الماضي . وأصبحت في هذا القرن البلية بلية الاحزاب ، ولذلك كنت أقول لبعض من أدعوهم من الشبان الى الاجتماع في داري مع من لا يعرفون من أرباب المكانة وغيرهم أرجو أن لا تتأثروا إذا صادفتم عندي من يخالفونكم في مذهبكم السياسي فبيتي لكل الأحزاب ولكل المذاهب .

ومما كان يعنيني كثيراً التنويه بارباب النزاهة والاقتدار لعلمي بان اجتماعهم يؤلف كتلة صالحة تعمل للخير بدون ان تقيد بقيود الاحزاب والجمعيات أي تكون صحبتهم صحبة وطنية خالصة ليس وراءها غرض مادي .

قال لي صديقي الاستاذ حسن الحكيم قبل أن يتولى رئاسة الوزارة - وأنا أرجوه أن يحضر احدى الاجتماعات في داري - وهل حضوري ضروري في كل مرة ؟ فأجبته لعمري انه ضروري لان أمثالك قلائل في البلد وأريد أن أُعرض على الناس بضاعتنا الجيدة. وما كان في حاجة الى من يدل على فضله فقد شهرته أعماله المالية واثبت كفاءته في تأسيس مصارف في دمشق وفلسطين . وعلى ما خص به من اقتدار ونزاهة حاول خصومه السياسيون الغض منه ، ولما دخل معركة الانتخابات النيابية الاخيرة

نصره الاهلون وخذلته السياسة ، فانتخبوا في حيه أحد ذوي قرباه وهو دونه علماً وتجربة ، وحجة أهله في رفضهم انتخابه انهم قصدوه وهو في رئاسة الوزارة لقضاء بعض مصالحهم فلم يعاونهم على النحو الذي كانوا يرجونه منه !

ولا أعرف في النواب من يداني الاستاذ الحكيم في اختصاصه المالي والمجلس في حاجة ماسة الى سديد تجاربه وبعد نظره . وكان طلب احالته على التقاعد فوافقته الحكومة على طلبه . وما أكثر اقدام الحكومات على تنحية الاكفياء النزهاء يوم ينهي القانون خدمتهم ، . وفي سن التقاعد تنضج معلومات العامل ، والمناصب الكبرى لا تتطلب ممن يشغلها قوة في العضلات بل قوة في التفكير واحكاماً في التدبير .

فساد الطرق

كان المظنون أن يعمد مشايخ الطرق الى ابطال ما لم يعد للزمن طاقة بتحمله من جهالة بادية ورعونة غير خافية . وذلك بعد أن طرأ على عقول العالم من التبدل ما أصبح معه رأي الجمهور في المتجرين بهذه الاوضاع أسوأ رأي .

استجاز بعضهم العبث بملكات مريديهم ما طاب لهم العبث ، ولما جاء هذا العهد بعلومه وتفكيره حاولوا أن يحتفظوا بمكانتهم على جهل فيهم ، وما أدركوا أن ما كان يطلق عليه اسم « عِلْم » في الماضي اصبح لا يساوي خردلة اليوم .

ورأى بعضهم أن يعلموا أبناءهم ليعدّوهم لضرب آخر من ضروب المعايش ، او ليكون لهم من سلاح العلم ما يبقون به على بيوتهم من الدثور فلم تجنِ الامة من المتعلمين ولا من الأميين إلا الصاب والحنظل . ذلك ان العلم لم يبدل من أرواحهم ، وما سلموا من جرائيم منشأهم

الموبوء ، كما وقع لأحدهم فتلقى العلم في أرقى الجامعات الغربية وسولت له نفسه أن يتطوع في خدمة اغراض الغريب . ومن السخف ان كان بعض ارباب المظاهر يعرفون مافيه من خيانة ثم يمدون اليه ايديهم يصافحونه ويتوددون إليه ، ولما سقط كان في مواطنيه أيضاً من يقيم له الاعذار ، ولا يستحي من مصانعته .

عرضت بأخرة على احدى محاكم عاصمة من عواصمنا قضية اتهم فيها شيخ إحدى الطرق بالعبث بعفاف الأبكار اللائي يختلفن الى زاويته ، وكان اهلهن من مريديه وأشياعه ، وثبت انه كان يقول لهن انه يقصد بعمله الشائن تنويرهن وانهن سيعدن ببركته ابكاراً على نحو ما كن قبل أن يلغ فيهن . هذا الدجّال الأمي نفذ الى ارواح من انضموا الى جملته ، وبالطبع كان من جازت عليهم دعوته مثله أُميين جهلاء .

ومن المفاسد التي تسجل على بعض هؤلاء المشايخ ما لا يصدر مثله عن أدنى الأدنياء ، ولا يجوز ارتكابه الا ارباب المواخير من السفهاء ، وقد سمعنا على الدهر أن بعض الطرق ما كانت تتقيد بالآداب الدينية والمدنية فيبيح الداخلون فيها نساءهم بينهم حتى ليمسين مشتركات بين الاخوان من غير نكير ، وكانت مثل هذه المنكرات يفتضح امرها في بعض الحكومات الاسلامية فتهب الى معاقبة الرؤساء وتفرق شمل من ينتهكون حرمة الشرائع .

سألت احد مشايخ الطرق وكان يمتّ الى الادب بصلة هل أَجدت عليه رحلته في الريف ، وكان طاف بعض أَرجائه ليجمع من اهل طريقته جُعْله السنوي فقال : ريالات ضئيلة العدد ، واكياساً من الحنطة خفيفة الوزن ، فقلت له : وما السرّ في ذلك يا ترى ؟ قال ان القوم قلّ اعتقادهم فينا ، ونحن قادمون على المستقبل المجهول . فقلت في نفسي حقق الله ظنك ، فاذا كان البشر سائراً بخطى واسعة الى الالحاد كيف يرضى عن بِدَعكم وكُديتكم ؟ .

نعم لم يبق من سلطان هذه الطرق على العوام غير اثر ضعيف بالقياس

الى ماكان لها قبل خمسين سنة ، انهزمت ولله الحمد امام قوات الحضارة. ومع هذا ما زال بعض الدول يوقد جذوتها في رؤوس السذج ، تمدهم بالمال وتحميهم من غضب السواد الاعظم وتعطف على من يعمل لها بدافع من نفسه ويكفيها مؤونة تضليل العقول كما كان شأنها في الشام بايهام احد الأغبياء بانه إله معبود بيده القبض والبسط ، وكما زينت لهذا المستهتر بالابكار بانه امام يهتدى به ، واوهمت ذاك المتعلم ان من تمام معرفة الجميل خدمة مآرب تلك الدولة بما تريد لا بما تقتضيه مصلحة وطنه .

وعلى سبيل الفكاهة نسجل هنا ان احد ظرفاء الأميين اخترع مؤخراً طريقة جديدة فانضم اليه حتى بعض من يلاحظ انهم على شيء من المعرفة والذكاء وراحوا يزعمون انه يشرح لهم الفتوحات المكية لابن عربي وما اكثر ما يدعي هؤلاء المتصوفون فك المعمى من كلام متصوفهم . اشتهر منذ نحو خمس واربعين سنة رجل فران كان يعتم بعمامة بيضاء شارة العلماء فسألت عنه احد مشايخي وكانت له مشاركة عظيمة في التصوف هل حقيق ما يقولون من ان هذا الفرّان يفهم الفتوحات المكية فاجابني ضاحكا : نعم هكذا قالوا وهو أميّ ايضاً . والعجيب الا يضطلع بسر الطرق إلا الأميون ولا يفهم كتب القوم إلا الجهلة المشعبذون على نحو ما نرى في الطريقتين اللتين جاءت احداهما وهي « القاديانية » من الشرق وكانت اختراعاً انكليزياً صرفاً ، وجاءت الأخرى وهي « التيجانية » من الغرب وهي بضاعة افرنسية محضة .

ونحن كلما ملنا الى الاعتقاد بانقراض هذه الحلمات الطفيلية ينشأ لنا جيل آخر يحيي الدجل بطريقة له يبتدعها فيستهوي قلوب ضعفاء المدارك ولذا حق لنا ان ننادي ان الشعوذةَ ما انقطعت من الدنيا ولن تنقطع ، وكل رجائنا ان يبقى العلم على جهاده في مكافحة الجهل ، بغزوه في بؤرته ، ويجتثه من اصله ، ويدفنه الى غير رجعة .

فرنسا في شمالي افريقية

من أفظع انواع الاستعمار استعمار فرنسا ، قام في كل قطر احتلته على نزع الثروة من أيدي الوطنيين ، وعلى نشر الجهل والفساد بينهم ، وعلى تربيتهم تربية خنوع وذلة ، ليكون لها منهم الى الابد عبيد وخوَل يؤمرون فيطيعون بدون أخذ ورد . قرأت منذ نشأت كثيراً من كتب الثقات من الفرنسيين في نقد سياسة فرنسا في مستعمراتها الاسلامية وتدبرت تلاعب ساستهم في تلك الأقطار فما شهدت شهد الله إلا الظلم المجسم وإرهاق الخلق باسم المدنية . وآخر ماقرأته في مجلة الثقافة المصرية (العدد ٤٣٨) مقالة للاستاذ عبد الجبار جومرد ذكر فيها تاريخ استعمار فرنسا للجزائر وأتى نقلاً عن المضبطة الرسمية على نتائج فتنة الجزائر (١١ تموز ١٩٤٥) ونقل مادار في المجلس الاستشاري وما قاله أحد أعضائه من الفرنسيين من ان الانتقام كان فظيعاً ، ذلك ان قتل بعض الأوربيين أدى الى اعدام تسعة واربعين مسجوناً ، ولما رأوا أن العدد لا يكفي ويلزم لاتمامه احد عشر شخصاً أيضاً أخذوا من صفوف المسجونين من أتموا به العدد وقتلوهم كلهم رمياً بالرصاص . قال ان الوالي العام على الجزائر أجاب على سؤال وجه اليه فقال إن احدى واربعين قرية دكت بالطائرات والوحدات البحرية فلم ينج منها ديّار ولا حيوان ، وبما ان معدل سكان القرية الواحدة على الاقل الف نسمة إن لم نقل الف وخمسمائة فلا مغالاة إذاً أن نقرر ان عدد من قتلوا من المسلمين يختلف بين اثني عشر الفاً وخمسة عشر الفاً ، هذا اذا فرضنا أن نصف السكان قد فرّ واعتصموا بالجبال .

تلك شهادة افرنسي مسؤول في مجلس رسمي ، وهذه عقلية الفرنسيس في كل بلد نزلوه وطمعوا في استعماره . هكذا كانوا في افريقية وآسيا

وأميركا ، وهكذا كانوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين .

ذكرني هذا بما نقله اليّ احد اصحابي على لسان أحد أحباب فرنسا من اللبنانيين قال ان في الفرنسيس الصالح وغيره وانه رأى برقية بالارقام حلّت بحضرته أرسلها الجنرال ديغول المسيطر على فرنسا يومئذ الى ممثلها في سورية ولبنان عندما توترت العلائق بين حكومة الجمهورية السورية وحكومة فرنسا قال يأمر المفوض الفرنسي أن يدمر ثلثي سورية لتوطيد سلطان فرنسا عليها . وقال ان هذا المفوض الفرنسي اكتفى باهلاك بضع مئات من الأبرياء في مدن سورية فأثبت صاحب فرنسا أن رجالها كانوا بين ظالم وأظلم ، أما المسلمون فكانوا من هذه السياسة الخرقاء في بلاء ليس بعده بلاء ، وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن بلاد الاسلام ستخرج من حكم فرنسا ان لم يكن عاجلًا فآجلًا ، ذلك لان ظلمها بلغ أقصى حد لاتطيقه النفوس البشرية ، ومهما استحلت فرنسا خنق الحرية في الاقطار التي استولت عليها لابد أن ينفض أهلها عنهم غبار الذل يوماً فيتمتعون باستقلالهم الذي يحبه لهم كل انسان فيه روح الانسانية .



أقوال معسولة

تناولت من فرنسا نشرة اسمها ايزوب (Esope) على اسم القصاص اليوناني الذي جاء قبل المسيح بستة قرون وقرأت فيها ماعتدت أن أقرأه في كلام من يخدمون الأغراض السياسية تحت ستار العلم ، وخلاصة مايدعو إليه هذا البيان الذي تدرأ ناشروه وراء أسماء مشهورة عندهم ان نشرتهم هذه لسان حال الاتحاد الدولي للفنون والآداب والعلوم وزعموا أنه انضم اليهم ٤٧ عضواً عن سبع وأربعين دولة . وغايتهم أن يكون الحق لكل إنسان في مراسلة المعاهد العلمية عامة ومفاوضة أبناء كل أمة ، وأن تطلق له الحرية في تناول الكتب والمطبوعات والرواميز وأدوات الصناعة ، وأن يسمح لكل فرد بدخول خزائن الكتب ودور الآثار والأماكن التاريخية ومعامل الابحاث التي تهم الطالب وتُعنى بها أُمته والدول الأخرى دون اداء رسم ، وأن يمنح كل انسان حق الترجمة والنسخ وتحليل النماذج وغيرها مما فيه فائدة للثقافة العامة ، وأن يخول الرحلة الى الممالك بلا تشديد كبير ، ويسمح له بالاقامة في كل مملكة المدة التي يراها ضرورية ، وأن يستمتع بحريته في الارض التي يحلها يكتب ويخطب ويلقي من المحاضرات ماطاب له ، ويقيم كذلك الحفلات الموسيقية والروايات التمثيلية والاعمال الرياضية ، وينشيء المعارض ويأخذ ما يشاء من أفلام السينما ، ويقوم بما يروقه من الحفريات والابحاث . قال كاتب النشرة ان الغاية المقصودة من ذلك بلوغ الكمال وكل أولئك لا دخل للماديات فيه .

وكنت وأنا أترجم هذا أقول في باطني ترى هل يقتصر أحرار فرنسا وغيرها من الامم اذا تحققت لهم هذه الاماني على الامم المستعمَرَة أم يعم خيرها الشعوب المستعمِرة فقط ، وفرنسا الغالية في دعوى الحرية وخدمتها منذ وضعت أقدامها في شمالي افريقية تحرم على اهلها ان يكونوا على

أتصال مع اخوانهم في الاقطار الاخرى ، لم تسمح لابن الجزائر ولا لابن تونس ولا لابن مراكش بان يتراسلوا احراراً ويتكلموا احراراً ويعلموا اولادهم احراراً ويجتمعوا احراراً . ولم تسمح لاحد من ابناء هذه الاقطار الاسلامية الثلاثة ان يكاتب احداً من اهل الاسلام في كل بـــلد نزلوه تحت اي داع كان . واظرف مافي هذه النشرة دعوة مؤسسها الى اصلاح كتب التاريخ في كثير من الممالك لان ذلك هو المرحلة الاولى في كل حملة سلمية . ومعلوم ان فرنسا اول دولة اوربية اخذت عن العرب وغمطتهم حقهم في كتبها واول دولة بدأ تعصبها على المسلمين فكانت أرضها أتون التعصب الديني انبعثت منه الحروب الصليبية المعروفة وعم بلاؤها اوربا وهذا الشرق القريب مائتي سنة فقط ، واول دولة أصلت من دانوا بالبرتستانتية ناراً حامية وقتلت منهم في يوم واحد مئة الف انسان وشردت البـاقي وهم عشرات الالوف في هولندة والمانيا وغيرهما ،



أهل السنة والشيعة

لي في جبل عامل صديقان جمعتنا رابطة العلم والأدب منذ ريعان الشباب ولم يفرق بيننا المذهب واختلاف المنشأ والعادة وكانا ، يصدقانني رأيهما فيما اكتب في الشيعة احياناً في بعض كتبي ويوردان لي اشياء ليس لها ما يؤيدها في دولة ايران الشيعية اليوم ولا في أكثر كتب الشيعة المعتمدة عندهم . يبرئان الشيعة الامامية من وصمات اتسم بها بعض فرقهم . عنيت بهذين الصديقين العالمين الأديبين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر .

وهاكم رأيهما المخالف لرأيي في أمهات المسائل التي يشمئز منها أهل السنة كمسائل الشيخين ومسائل علي ومعاوية وقذف امهات المؤمنين وغيرها مما خالفت فيه الامامية أهل السنة ، قال الشيخ احمد : قد نحوت في كتبك منحى الاشادة بفضائل الأمويين ولم تتعرض لمساوئهم بل نحوت إلى تبرئة معاوية من سن لعن علي على المنابر فقلت « ويقول من امعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنه لعن علي عقبى كل خطبة لم يقم عليها دليل ثابت يركن اليه وما من اثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة » تميل الى تبرئته بهذا الخبر المفرد تاركاً الأخبار التي ملأت كتب التاريخ وبلغت حد التواتر من أنه هو أول من سن اللعن وفرضه فرضاً على أهل مملكته .

« ربما كنت تريد بهذا تأييد مجدٍ لملك عربي من أعظم رجال السياسة في الاسلام لتؤيد به مجد العروبة ضد الشعوبية ولكن ما بالك تكثر من الحط في شيعة علي وهم ومن يستندون اليه في مذهبهم عرب اقحاح ،تبريء معاوية من لعن علي وتلصق بهم لعن الشيخين بل تجعله من أركان مذهبهم استناداً على كتاب وقع في يدك مجهول المؤلف لا يعرفه اكثر ابناء الشيعة بل

هو من غـلاة العجم الذين اغرقوا في تشيعهم كما كانوا قبل في تسننهم لانهم لا يعرفون الاعتدال .

« وإذا كان في غلاة الشيعة من يقول مثل هذا القول فكيف تقذفهم كلهم بهذه التهمة وما بالك تقرفهم بقـذف امهات المؤمنين ولم يقل بذلك قائل منهم حتى من غلاتهم لانهم بتطهيرهم امهات المؤمنين انما يطهرون حرمة رسول الله الذي يقدسونه ويعصمونه عن كل ما يشينه حتى من كل ما ينافي المروءة وعن المعاصي كبيرها وصغيرها قبل النبوة وبعدها بل هم ينزهون زوجات الانبياء كامرأة لوط وامرأة نوح عن مثل هذه الوصمات وان كن مشركات ومع ذلك يتهمون بغياً وافكاً بقذف ام المؤمنين التي طهرها النص الصريح في القرآن الكريم من الافك وها أنت تذكره ياسيدي في كتبك دون ان تشك فيه ثم تنشره على الملأ العربي كحقيقة مسلمة ! !

« وانت تعلم ان في الفرق الاسلامية من يحب الشيخين ويسب الصهرين ولم تتعرض لتشهيرهم كما تعرضت للشيعة فلم ولماذا ؟ لأنك تأثرت باقوال من يرمي الشيعة بكل شنيعة تبعاً لسياسة وقتهم أو لاهوائهم عن حسن ظن بهم ولم تلتفت الى تمحيص ما قالوا بسماعك دفاع المتهم عن نفسه إذا نظرت في كتبه المبعثرة .

« ان التنازع السياسي القديم الذي أدى الى هذا التناحر الطائفي الذي جرته سياسة القرون الوسطى هو الذي اسس في نفوس كثير من علماء الطائفتين كره احداهما الاخرى وكثر الافتئات والافتراء من احداهما على الاخرى ودارت رحى الجدل دوراناً كان ثفالها مجد الأمة وعزهـا فوهنت قوتها واستباح حماها الأعداء من كل جانب وانتقصت بلاد المسلمين من اطرافها وضاع استقلالها » .

وقال الشيخ سليمان معلقاً على قولي : قلت ولشيعية المسعودي مدخل كبير في آرائه لان من جوزوا الكذب على مخـالفيهم وغلوا في حب الطالبيين حتى جعلوهم فوق البشر ، وزعموا لهم الكمال المطلق وان المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم لايؤتمنون على التاريخ ... الخ

« ولا أراك وقد نفذ السهم واندفعت بهذا التعبير بعامل العاطفة وجرى قلمك بما جرى الا وانت راجع الى وازع لبك نادم على مافرط عالم وما طرق العلم عليك ببعيدة بما يعتقده الامامية من الشيعة والشيعة فرق كثيرة ومنهم كثير من الغلاة ، مالا يخالف روح الاسلام .

« حاش الامامية ان يجوزوا الكذب على مخالفيهم والكذب حرام باجماع المسلمين وحاش أن تعتقد فيهم الخروج منه وهم من احرصهم على تمحيص الحديث والاخبار وكتبهم في الرجال وفي علم الدراية وما انطوى عليه من تنويع الاخبار وتخصيص اسماء المطعون فيهم بالذكر في كتب الرجال كل ذلك من متناول الباحث .

« والامامية لايعتقدون الكمال المطلق لائمتهم ولا لأحد من النبيين والمرسلين وهو لله وحده ولا يرونهم فوق البشر وهم معتقدون ان النبي وهو أفضل الخلق ماكان الا بشراً رسولاً ولا كانوا من الغلاة وهم يبرؤن منهم ومثل ذلك براءتهم من أن المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم وهم يعتقدون كاخوانهم اهل السنة والجماعة ان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة وان اعتقاد مثل ذلك خروج عن الاسلام ومعتقده كافر بالاجماع .

« وهل للاستاذ حرسه الله ان يدلنا على مصدر من مصادر الامامية يؤيد دعواه هذه التي نبرأ الى الله منها وهل من يعتقد عصمة الامام عن ارتكاب صغائر الذنوب وكبائرها لتسكن النفوس الى أدائه رسالة الاسلام حق أدائها يعتقد ان له ان يغير ويبدل احكام الله ، فيصير الحرام حلالاً والحلال حراماً .

«ان المسلمين سنيهم وشيعيهم عنوا اكمل عناية بضبط الحديث وتنويعه وبتراجم رجاله وبتعديل العدل وتوثيق الثقة وتجريح المجروح وما الى ذلك مما يتعلق بالاحكام ولكنهم تساهلوا فيما يرجع الى المناقب والمثالب والاخبار وكان من أثر هذا التساهل مالم يسلم من الوضع والوضاعون كثر سواء أكانوا من بعض فرقهم والغلاة منهم خاصة ام من الدساسين من

الاعداء لالقاء بذور الفتنة والفرقة بين صفوف المسلمين وهو ماندعو الى ملافاة خطره محدثي الفريقين لتمحيصه . وفي اعتقادي ان التوفر على اداء هذه المهمة هو من اوصل الطرق الى التقارب بين ابناء المذاهب الاسلامية الذي يعمل له رهط صالح من خيار المسلمين السنة والشيعة الامامية والزيدية في دار الاسلام (مصر العزيزة) .

« واني لاناشدك الله والاسلام وهو على مفترق الطرق وفي زمن احوج فيه من كل زمان الى الالفة والوئام ان تكون في الصف الاول ممن يدعو اليها ويمهد السبيل لازاحة كل مايعترض سيرهما القويم » .

هذه نبذ من كتابين للصديقين العزيزين وانا اقول حبذا لو كان الشيعة كلهم على هـــذا الاعتدال .

وقال صديقنا السيد محسن الأمين من أكبر مجتهديهم في هذا العصر : وعمدة ماينقمه غير الشيعة عليهم دعوى القدح في السلف أو أحـد ممن يطلق عليه اسم الصحابي ، والشيعة يقولون ان احترام اصحاب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من احترام نبينا فنحن نحترمهم جميعنا لاحترامه وذلك لايمنعنا من القول بتفاوت درجاتهم وان علياً عليه السلام احق بالخلافة من جميعهم .

وقال ان ما يخالف فيه الشيعة غيرهم هو من الامور الاجتهادية التي يجوز فيها الخطأ وليست من ضروريات الدين ولا من اركان الاسلام مثل مسألة الامامة ورؤية الباري تعالى يوم القيامة وان العباد مجبورون على افعالهم وانكار الحسن والقبيح العقليين وخلق القرآن وان صفات الله غير ذاته وهذه هي عمدة المسائل المختلف فيها بين الاشاعرة والشيعة والمعتزلة ويجوز ان يكون الحق فيها مع الشيعة أو المعتزلة إذ للنظر والرأي والاجتهاد فيها مجال ولا يجوز فيها التقليد .

وقال مخاطباً الشيعة : وأنتم أيها الاخوان الشيعيون عليكم ان تعملوا بما أمركم به امامكم امام أهل البيت جعفر بن محمد الصادق من التحبب الى اخوانكم أهل السنة من زيارتهم والصلاة في جماعاتهم وتشييع جنائزهم وعيادة مرضاهم وتجنب كل ما يوغر صدورهم .

يقول ابن حزم في الاحكام ان الروافض ضلت بتركها الظاهر والقول بالهوى بغير علم ولا هدى من الله عز وجل ولا سلطان ولا برهان فقالت : ان الله يأمركم ان تذبحوا البقرة ان هذا ليس على ظاهره ولم يرد الله تعالى بقرة قط انما هي عائشة وقالوا الجبت والطاغوت ليسا على ظاهرهما انما هما أبو بكر وعمر . قالوا واوحي ربك إلى النحل ليس هذا على ظاهره انما النحل بنو هاشم والذي يخرج من بطونها هو العلم .

قال العلامة موسى جار الله كبير علماء روسيا وشيخ الاسلام فيها : « وفي الكافي والتهذيب والوافي من كتب الشيعة لعنات على أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وعلى العامة (أهل السنة والجماعة) وهم كل الامة ، وللشيعة ادعية مأثورة في لعن الصحابة . ونقل عن الوافي ان الامام لم يدع احداً ممن يجب ان يلعن الا لعنه وسماه وأول ما بدأ بأبي بكر وعمر وعثمان (؟) ثم مر على الجماعة ولعن الكل وللباقر والصادق دبر كل صلاة مكتوبة اوراد لعنات على أربعة من الرجال منهم أبو بكر وعمر وأربع نساء منهن عائشة وحفصة » .

« وتقول الشيعة ان الناصب حرب لنا وماله غنيمة لنا والناصب عندهم من يعتقد بامامة الصديق والفاروق . يقول الصادق : خذ مال الناصب حيث وجدته وادفع الينا خمسه . والشيعة على ما في كتبهم يكفرون جميع الفرق الاسلامية ويقول الامام في ائمة المذاهب الاربعة : لا تأتهم ولا تسمع منهم لعنهم الله ولعن مللهم المشركة ! وكل آية نزلت في الكفار ارجعتها الشيعة إلى الصديق والفاروق ومن اتبعهما » .

قال جار الله : وأول شيء سمعته وأكره شيء انكرته في بلاد الشيعة هو لعن الصديق والفاروق وأمهات المؤمنين السيدة عائشة والسيدة حفصة ولعن العصر الأول كافة في كل خطبة وفي كل حفلة ومجلس في البدء والنهاية وفي ديابيج الكتب والرسائل وفي أدعية الزيارات كلها حتى في الأسقية ما كان يسقى ساق إلا ويلعن وما كان يشرب شارب إلا ويلعن وأول كل حركة وكل عمل هو الصلاة على محمد وآل محمد ولعن الصديق والفاروق وعثمان الذين غصبوا حق أهل البيت وظلموهم .

قال قلما تقام جمعة أو جماعة في بلاد الشيعة وليس فيها قارىء للقرآن ولا حافظ له وان من الشيعة من يعتقدون ان القرآن سقطت منه اشياء اﻫ

قلنا ومن الأسف ان يصير التشيع الى ما صار اليه عند المتأخرين وقد أتى اكثره من سخافات الدول الفاطمية والبويهية والصفوية ومن دول الهند العادلشاهية والنظامشاهية والقطبشاهينه .

وكان في دمشق على عهد الدولة الفاطمية يطاف على الرجل وهو على الحمار وينادى عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ومنعت الدولة من التكني بابي بكر .

سمع أبو القاسم بن برهان يقول : دخلت على الشريف المرتضى أبي القاسم العلوي في مرضه الذي توفي فيه فاذا هو قد حوّل وجهه الي فسمعته يقول : أبو بكر وعمر وليا فعدلا واسترحما فرحما .

ودخل عليه بعض أكابر الدولة من الديلم فساره الديلمي بشيء ، فقال له متضجراً : نعم وأخذ معه في كلام كأنه مدافعة فنهض الديلمي فقال المرتضى بعد نهوضه أهؤلاء يريدون منا أن نزيل الجبال بالريش ، واقبل على من في مجلسه فقال : أتدرون ما قال هذا الديلمي فقالوا لا ياسيدي فقال : قال بيّن لي هل صحّ اسلام ابي بكر وعمر قلت : رضي الله عنهما.

هذا رأي عظيم من أكبر عظماء الشيعة في أبي بكر وعمر ، وقال العلامة آل كاشف الغطاء من المتأخرين في كتابه أصل الشيعة وأصولها ان علياً رأى الرجل الذي تخلف على المسلمين (اي ابا بكر) قد نصح للاسلام وصار يبذل جهده في قوته واعزازه وبسط رايته على البسيطة وقال ان علياً حين رأى أن المتخلفَين – أعني الخليفة الاول والثاني – بذلا اقصى الجهد في نشر كلمة التوحيد وتجهيز الجنود وتوسيع الفتوح ولم يستأثروا ولم يستبدوا ، بايع وسالم .

وكان المصلح الامام جمال الدين الافغاني ينفر من قول سني وشيعي ويقول : لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك لجهل الامة فقد اخرج الذين ألهوا علي بن ابي طالب من الاسلام لانهم ضلوا ، أما المفضلة والغلاة في محبة أهل البيت فقد دخل الاثنان تحت حكم من قال يهلك فينا أهل البيت اثنان محب غال وعدو قال . وتوسع في ذلك وما آل اليه من الضرر واقنع السنيين والمتشيعين بالبرهان ، وهذا رأينا .

بيني وبين الاستاذ الخوري

كنت منذ أَيام أنبش جعبتي فظفرت بعدة رسائل ارسلتها الى صديقي فارس الخوري منذ خمس واربعين سنة . وكنا اذا اجتمعنا بعض الايام نقضي ست عشرة ساعة معاً نطالع خلالها ونكتب ونتحدث ونتنزه ونأكل . فرأيت أن آخذ هنا بعض صورها لاستدل منها على تصوراتنـــا في تلك الحقبة من العمر .

أراك تعجب كثيراً (١) ببسالة أهل اليابان وشـدة تفانيهم في الذود عن حياض وطنهم وما هم على التحقيق إلا مثال لحال أمة نشأت على العلم النافع وربيت التربية الفـاضلة واني وان اعتقدت اعتقاد مكاتب التيمس أن لمذهب اليوشية دخلًا كبيراً في غلبة سكان المملكة المشرقة فانا لا أفتأ أقول ان كل أمة اذا لم يكن في تعاليمها ما يدعو الى الوناء وضعف النفوس والزهد في العلوم يكون شأنها شأن اليابانيين .

لا جرم أنك توافقني على أن أسلافنا العرب كانوا كسكان اليابان في جلادتهم ونجادتهم فكان الفرد منهم يقـــاوم عشرة على نحو ما ورد في الكتاب العزيز « يا ايها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا ذلك بانهم قوم لايفقهون . » هذه الآية قام العرب بمضمونها بالفعل فقضوا على مملكتي فارس والروم على قلة عَدَدهم وعُددهم .

ولا بدع فالامة الحية لا تشبه الميتة ، وذاكَ البدوي القح - الذي عاش بعيداً عن السفاسف ونما مع الطبع نمو الاجسام الحية القوية متخلياً عن رفاهة العيش وقد علمه دينه أن وراء هذه الحياة حياة ثانيــة طيبة

---

(١) لصديقي فارس الخوري ملحمة كبرى مطبوعة في وصف الحرب اليابانية الروسية كتبها بحرية فسرّ أناساً وأساء آخرين .

فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الأعين إن عاش بعد الزحف عاش سعيداً وإن مات مات شهيداً – ذاك البدوي لا يشبه ذاك الفارسي والرومي الذي أسرف على نفسه وأمات الاستبداد عواطفه واسترسل الى الجهالة . شتان بين جيش يقاتل جنده الجاهل مدفوعاً بعوامل الشهوات مسوقاً بقوة السياط والعصيّ مسخراً لامر زعمائه لا يدري ولا يحق له أن يدري الى أين يسير وجيش يكاد رؤساؤه ومرؤسوه يعرفون ماهية الحياة وضروراتها معرفة محكمة حكيمة يمشون عن رضى ليدافعوا عن بلاد لهم حصة من خيرها ويلحقهم قسط من شرها تالله لا يستوي الاعمى ولا البصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور .

كانت ايام العرب في عداتهم مما تبيض له الوجوه ويحق لهم ان يرفعوا بذكراه رؤوسهم . وكانوا كيابان الآن اذا زحفوا الى العدو يخاطبهم اميرهم خطاب من لا يرجع ويوصيهم ان يسلسلوا القيادة فيهم إلى عشرة او اكثر اذا قتل قائدهم واميرهم . وما اظن طوغو وكوروكي وكاميمورا اعظم بشجاعتهم ودربتهم من خالد بن الوليد وقتيبة بن مسلم وطارق بن زياد . واذا قابلت بين هؤلاء الرجال فلا يغرب عنك إن للبقاع تأثيراً في الطباع ، فمن عاش في ديار العرب بعيداً عن العلوم الحربية يتعذر أن يضاهي من خلق وسط العلم في قرن كهذا ومن اين لابن القرن الاول للهجرة ان يكون كابن القرن العشرين للمسيح .

* * *

كان لحشد الجنود في رومية قوانين مقررة ولما زحف القائدان بروتوس وانيبال على المملكة الرومانية دعت جمهورية رومية للدفاع عن حوزتها جيشاً من رعاع القوم ومن الزعانف واهل الدعارة وكانت تعاقب الأبّاق من الزحف بعقوبات شديدة وكثيراً ما كانت تقتلهم في ميادينها . ومن ملوك أوربا في عهد النصرانية من كانوا يعفون من الجندية وصفاءهم وخدامهم ورجال الدين ، ولما اخترعوا القرعة لتجنيد شعوبهم كان الناس يحتالون للخلاص منها بالدخول في سلك الرهبنات والأخويات فراراً

من لبس صُدر الجندية وسراويلاتها ومعاطفها ، يستعيضون عنها بثوب اسود وقلنسوة وجبة وغيار فكان من يفرون من الجندية يؤثرون حمل الصليب على نقل البندقية فتكون ثياب الاحتيال بمثابة ألبسة لهم رسمية .

حال تشبه حال بني قومنا اليوم الذين يسجلون على انفسهم الكذب ويدعون فراراً من لبس طربوش الجندية انهم ممن انقطعوا للعلم الشريف او ان والداتهم مطلقات وهم قائمون على اعالتهن ويعتذرون اعذاراً بأردة يعرفها من تقال لهم .

خطب وزير الحرب على عهد لويز السادس عشر خطبة القاها بأمر مليكه على رجال الجيش خلال حرب السبع السنين وهي الخطبة التي انتقدها الفيلسوف فولتر قال الخطيب : إن في الديار التي تساقون اليها اليوم ما تشتهي انفسكم من ذهب ولؤلؤ وماس فالطرقات بها مبلطة مرصوصة والاحجار الكريمة مبذولة بحيث لا تحتاجون إلا الى ان تمدوا ايديكم اليها وتتناولوها . دعوا عنكم ما هناك من قهوة وليمون وبرتقال وقشدة وألوف من الفاكهة اللذيذة النضيجة ومنها مالم يغرس كأنها في جنة ارضية . الى ان يقول : فاياكم ان تسمعوا لمن يصدونكم عن سبيل الحرب من آبائكم وأمهاتكم وخصوصاً أمهاتهم فان البرابرة لايأكلون الاوربيين ليجعلوا اجسامهم اداماً لخبزهم القفار فمثل هذه الخشونة كانت تجرى على عهد خريستوف كولمبس مكتشف اميركا وروبنصون كروزي الذي قذفت به الانواء إلى جزيرة مقفرة واحسن استخدام الطرق ليعيش ما امكن وينال حظاً من السعادة في وحدته فان البرابرة اليوم هم غيرهم امس وهم على الجملة اصدق خدمة للاوربيين واخضع العالمين في الارضين .

وانا اعلق وأقول إن الجندي اياً كان جنسه ونحلته لابد له من طعام يقتات منه ولباس يقيه لافح الحر ونافخ القر ونفقة تدفع عنه عوادي الحاجة . وسواء وجد الجندي في القاصية او الدانية في الشرق الاقصى او الادنى في جنوبي اوربا او في جنوبي بلاد العرب في رأس الرجاء الصالح أو في الاسكندرية لا غنية له عما يحتاج اليه البشر . فاللهم اصلح قوماً يأخذون

الضرائب والمكوس باسم جنودهم ولا يفيضون عليهم منها إلا ما يـكاد يحفظ عليهم رمقهم الاخير .

سقام بلا برء ضلال بلا هدى　　اوام بلا ريّ دم لا بقيمة

هـذا والجندي الياباني قليل النفقات بعيد عن الكماليات والجندي الروسي مترف مرفه وشتان بين المتخوشن والمتنعم .

جسرين في ٢١ شعبان ١٣٢٢
و٣٠ تشرين اول ١٩٠٤

ومن كتاب : انتشر وباء البقر في مصر هذه السنة فنفق به نحو مائة وخمسين الف بقرة وثور وتسامح من وكل اليهم الحجر على واردات مصر فانتشر في سورية كما انتشر الوباء البشري منذ سنتين آتياً من مصر ، تنبأت بحلول هذا الضيف الثقيل عندما قرأت اول الاخبار ، كما تنبأت بان الوباء تسري عدواه الى سورية عندما أصيب به ناس في موشا من بلاد الصعيد في صيف سنة ١٣٢١ . وفي كلتا الحالتين صدق ظني وصحت كهانتي .

وعجيب لعمري حال مصر والشام فانهما أبداً مشتركتان في البأساء والنعماء إن لحق بالاولى شر شاطرتها اياه الثانية وان اصابها خير تستفيد منه

وما زلت أفكر في حال الفلاح وما أصابه هـذا العام من نقص في الغلات والثمرات للجفاف وقلة الري ، وأطرق ملياً عندما لا أجد في هذه المزرعة واهلها يتجاوزون ستمائة نسمة (اهل جسرين اليوم ١٣٠٠) من بلغته أخبار الوباء وفتكاته في القرى التي هي من هذه المزرعة على نصف ساعة ، ولا أرى حولي من يحاذر مما احاذره من تهديد الوباء لما وباه من ثيرانه فكانت عنده او كادت اعزّ عليه من ولده ، ولا بدع اذا استراح جسم من كان هذا مبلغ عقله فالعقل عقال لصاحبه .

نعم ان الفلاح وانا منهم ليحب بهائمه حباً جماً ويكاد يؤثر لو قطع عنه طعامه وشرابه ولم ينقطع عن ماشيته العلف والمرعى ، ولطالما رأيت بعض الأكـّارين والحراثين ينامون في المعالف ليكونوا على مقربة من حيواناتهم يتعهدونها في الليل بالسقي والعلوفة تعهد الامهات أولادهن .

شعور تلبست به ولا خجل من الحق منذ شغلت نفسي بالفلاحة فتراني ابداً انقبض اذا شهدت ثيراني جائعة وملوثة قذرة وعلى العكس أطرب وأسر واني لأوثر دخول الزريبة لارى بهائمي على دخول قصر فخم اسمع فيه ما لا يروقني وأرى فيه ما ينغص عيشي ، واختار نشق رائحة السرقين على ما هناك من المشمومات والرياحين ، واوصي اجراء الدواب اكثر ممن عهدت اليهم بتربية اخوتي من المعلمين ، ذوق غريب مضحك لا تجادلني فيه بالله عليك ، ولقد كان نصيبك مثله لو بقيت في مسقط رأسك ولم تخرج من طور السياسة البقرية الى دور السياسة البشرية .

جسرين : ١٤ رمضان ٣٢٢

و ٢١ تشرين الثاني ٩٠٤

من كتاب : ان هذه العوائد أليق بربات الحجال منها بالرجال وبصغار الأطفال امثل من ارباب اللحى والسبال ولقد قضيت مع استاذنا الامام الحكيم الطاهر فرصة من الدهر احاطت بعمر خمسة نهر بلياليها كان عالمنا في إصباحها وإمسائها يتلو على مسامعنا ما يقذف به واسع صدره من علم نافع نصوغه قلائد لاعناقنا شكراً لفضله مدى الزمن وكانت احاديثه عليّ وعلى من تكرم بزيارتي من اخوان الصفاء مغنية عن سلافة النديم مسلية عن نغمة العود والصوت الرخيم وكنت منها في مقام كريم بين روح وريحان وجنة نعيم .

دمشق ٦ شوال ٣٢٢ و ٣ كانون الأول ٩٠٤

من رسالة :

أيها الحبيب

كتابي اليك عن سلامة وشوق عظيم وعتب طويل عريض . والغالب ان رواج سوق « المعايدات » وارتفاع كلمة « التشريفات » والظهور في مظاهر الابهات وتضييع الأوقات في التحيات والدعوات وكل ماتصرف على هذه القاعدة من الترهات قد حالت هذه الأيام بينك وبين كتابة سطور تبعث على الطمأنينة من ناحيتك . وعجيب من حال هذا الدهر في ابنائه

يريد لقاءنا من نكره لقاءه ومن نحلم بطيب لقائه تفتر نفسه اختياراً أو اضطراراً عن لقائنا وما أنت وأنا على كل حال الا كما قال الشريف الرضي لأبي اسحق الصابي .

لقد تمازج قلبانا كأنهما   تراضعا بدم الاحشاء لا اللبن
انت الكرى مؤنساً عيني وبعضهم   مثل القذى مانعاً عيني من الوسن

واني كلما فتشت قلبي فرأيت لك فيه الحب والوئام اضحك من عقول الرؤساء السخفاء ممن همهم تفريق ما بين اجزاء القلوب ومباعدة مدى التحام النفوس كأن بني آدم خلقوا ليتخالفوا لا ليتآلفوا . شنشنة قديمة اشتدت وطأتها بحكم الجهل وما أزال اغباشها غير نور العلم فأخذ الناس والمتعلمون منهم خاصة يرجعون إلى العصور الأولى في الاسلام ويقرأون في تاريخها دروساً نافعة من ائتلاف البشر على اختلاف الأديان والأجناس ، ألا حيّا الله زمناً كان خلفاء بني العباس يعاملون الرومي والسرياني واليهودي معاملة المسلم السني ، وهكذا الأمراء ومن تلاهم من سائر طبقات الناس كانوا يتعاملون معاملة الاكفاء مهما تباينوا في المعتقدات . اثبات المثبت كالكلام المفروغ منه أو كالحديث المعاد

وبعد فاني ما رأيتك وخطر ببالي انك مخالف لي في المذهب ، ومن غذي بماء واحد ونشق هواء واحداً وعلم علماً مشتركاً كان أقرب الى الاتصال ممن تخالفت بيئاتهم وتناءت أقطارهم وافكارهم وان الياباني العالم على وثنيته لأقرب الى قلبي من ذاك الذي لا تجمعني واياه غير كلمة الشهادة ويخالفني في مذهبي ومشربي وعقلي .

وقلت من كتاب له : فإن اقل مافينا من عيب اننا نعمل فيما لم نخلق له ونحاول النفع فيما فيه التلف .

كدود القز ينسج ثم يفنى   بمركز نسجه في الانعكاس

انت وانا نعد من القوالين لا الفعالين ومن المضيعين لا الجامعين ومن الهادمين لا البانين . أنت وانا كمعظم ابناء المشرق نضيع بدراً من اجل دريهمات بل بيدراً من اجل حبات ونحتقر نهراً في سبيل قطرات ولا نحسب

حساب العمر حباً براحة ساعات ويعز علينا التخلي عما نحن فيه من الأمور التافهات ولو ازلفنا من الباقيات الصالحات ، انت وانا في غفلة عما يراد بنا وعما اليه سائرون نحاول النفع من الضر والسعادة من الشقاء والغنى من الفقر والحياة من ميت والنهوض من مقعد والبصر من اعمى والسمع من اصم . انت وانا اليوم في الثلاثين من عمرنا قضينا اربعة اخماسه في الدرس وتربية النفس فأين ما قمنا به من عمل رافع . اضعنا انضر ايام الشباب في الاستعداد واستجماع القوى فاين ذاك الاستعداد وهاتيك القوى . لو كنا نقول بالتناسخ وان لنا عودة الى هذا العالم السفلي لكان لنا تعزية عما ضاع من فقد الاعمار ولا يرد الفائت الحزن . نعم ان ما نحن فيه باطل اذ العلم اس والعمل بناء والاس بلا بناء باطل . قال رجل لرجل يستكثر من العلم ولا يعمل : يا هذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل .

فعلام ان لم أشف نفساً حرة يا صاحبي اجيد حمل سلاحي

انت وانا اعتدنا ان ننقد ما لا ينطبق مع العقل ونؤاخذ على كل عمل لم تتخذ اسباب إجادته فهلا عدلنا عن هذه الخطة واشتغلنا بعيوب انفسنا عن النظر في حال غيرنا . انت وانا ليس من حقنا ان نعتب على الفلك او نسيء الظن بالقدر بعد ان ايقنا بان عزائمنا خارت وارادتنا ضعفت حتى اصبحنا نعد في غلاة القدرية او الجامدين الحشوية الجبرية ، فأين ما يورثنا المحمدة من الأعمال الصالحة ? هل نشرنا بين الملأ كتاباً او رسالة ينتفع به اهل جيلنا وقبيلنا ? هل أعددنا ناشئة تخرجوا بنا وتشربوا دعوتنا? هل خطبنا القوم خطبة قومت عوجاً وفتحت منهجاً . نبغ من مشاهير الساسة والعلماء في العالم من لم يبلغوا السن التي بلغناها فهلا كان لنا من سيرهم مهماز يستحثنا ودافع واعظ يزجرنا . فان كانت غايتنا من الحياة ان نستمتع بما يستمتع به سائر اصناف الحيوان فان معظم سكان الارض يفضلوننا من هذا الوجه وان كانت بغيتنا أن نؤثر اثراً ونحيي معلماً ونشيد مجداً فالطريق التي نحن آخذون فيها لا تؤدي الى المقصد ولا تنتج إلا الندامة والحسرة . كل يوم من ايامنا اليوم يوازى شهراً من ايامنا زمن الشيخوخة ، واعمارنا نهب أيدي

الدهر صائرة الى ذبول لا الى نمو فهنيئاً لنا إذا سعينا مذ اليوم الى أختيار الاحسن لنا في المغبة واغتنمنا الصحة قبل السقم والشباب قبل الهرم . هذا واذا توكأت على ما يتوكأ عليه الجبناء والضعفاء من الحجج الواهية كدعوى فساد البيئة وقلة الاسباب فأقول لك كلمة اجعلها واجعلها انا نصب العين ودرس عبرة كل حين وهي اننا اذا عملنا والظروف كلها خادمة مواتية فاي فضل لنا ، بلى يتجلى عمل العامل اذا احسن التخلص وهو وسط المعمعة والخطر محدق به من كل جانب والاسباب تخونه وتسلمه . وعلى امــل أن القاك اكتفي الآن بهذا القدر من خطابك والسلام عليك .   جسرين في ١٣ ربيع الاول سنة ٣٢٣

و أيار سنة ٩٠٥

مدرسة الجمال

سمعت في مصر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالسه الغاصة بالفوائد سنة احدى وتسعمائة والف ، وقد جرى ذكر رأس المصلحين في الاسلام السيد جمال الدين الافغاني أن الاستاذ الامام لاحظ يوم أن كانا في باريز أن صديقه وأستاذه يتغيب عنه كل يوم ساعتين في وقت معين ، وكانا من قبل يتصاحبان لا يفترقان ، فبحث عن سبب تغيبه فثبت عنده ان السيد يختلف الى بائعة زهور عليها مسحة من الجمال . قال فلم اجرأ لمكان السيد من نفسي أن أسأله عن سر هذه الزيارة المريبة ، فقلت لعل الشيخ أخذ يتصابى ، وهو الذي لم تعهد عليه صبوة وما حفظ عنه الا الجد في كل أموره . قال وما لبث هذا الشك في سيرة الشيخ ان انقشع وأصبح بعد ثلاثة اشهر يتكلم الفرنسية بطلاقة . وتبين ان ذوق

الافغاني العالي هو الذي الهمه ان يتخذ معلمته سيدة بارعة الجمال يحمل عنها لغتها بالعمل امام اصص الزهر وطاقات الورد والجو العطر ، وآثر جمال الدين ان يتصل بجمال الدنيا في اروح مدرسة للنفس .

طريقة جديدة في تلقف اللغات تنسي الدارس صعوبتها وتحفزه الى جمع قواه بامتاع حواسه . فعسى ان يجرب رجال التعليم في مصر والشام والعراق هذه الطريقة المبتكرة في تلقين اللغات فيكون للمصلح الافغاني الفضل على الشرق في حياته وبعد مماته .

اصباغ النساء

أولع النساء منذ أزمان طويلة بصبغ وجوههن بأصباغ يعتقدن أنها تورثهن جمالاً . وكان الرجال في دولة الرومان كثيراً مايحذون حذو النساء ينتفون شعورهم ويحفون لحاهم وشواربهم ويصبغون وجوههم بالأبيض والأحمر والأصفر ويكحلون عيونهم ، يستعملون لذلك المواد المعروفة في تلك العصور ، ويصرف النساء والرجال وقتاً غير قليل في اعدادها وساعات في الطلي والتزيين .

وبالغ الغربيات في العهد الاخير بصبغ وجوههن بالأبيض والأحمر ثم عدن يبالغن بصبغ شفاههن بالحمرة ، وما لبث النساء الشرقيات ان نسجن على منوالهن وافرطن في اقتباس هذه العادة ، لما وَقَرَ في النفوس من أن الغربيات ارقى حضارة من الشرقيات ، والمنحط خليق بالأخذ من الراقي .

وما اكتفى الشرقيات بتحمير خدودهن وشفاههن بل اقتبسن من الغربيات عادة اطلاق اظافر أيديهن وطليها بالحمرة . وترقى فن التجميل عند النساء والرجال على ماهو المشهود في مسارح التمثيل ومشاهد الصور المتحركة . ونسي النساء ان تغيير الألوان الطبيعية قد يورث الجنس

اللطيف بشاعة ، والاصباغ على الجملة تضر البشرة وتغضن الجلد قبل الاوان والجمال في السذاجة لافي التكلف .

وهذه الاصباغ ومـا يتبعها تؤذي الصحة وتؤذي الجيوب ايضاً لما ينفق فيها من اموال قد لاتبالي الدول الكبرى كبريطانيا العظمى والولايات المتحدة بانفاقها ، وهي اكثر الدول اسرافاً في الأزياء والاصباغ ، ذلك لان اكثر مايصرف عندهم يصنع في أرضهم ويعود ربحه على معاملهم أما الأمم الضعيفة فانها تتأذى من مثل هـذه النفقة لانها لاتحسن صنع الاصباغ ، ولا شيئاً من الازياء الحديثة ، وكلها أو اكثرها مما تجلبه من غير أرضها وتخرج اثمانه من ثروتهـا .

كان الناس في الدهر الغابر اذا اراد سادتهم ان يبغضوا اليهم أمراً يسوقون رجال الدين لارشاد العامة الى خيرهم ، أما الآن فمن يتصدى للوعظ ، والفقهاء المشايخ في مقدمة من قبل نساؤهم هذه العادات الضارة لايختلفن عن أكثر الموغلات بالخضاب والتفنن بالأزياء ، يقدمن على ذلك راضيات حتى لايوصمن بأنهن عدوات المدنيـة .

حـدثني أكبر أعيان دمشق في جيله أن نساء احـد الفقهاء زارت أسرته في بعض الأيام التي كانت فيها الدعوة مشتدة في وجوب مقاطعة النساء الائتزار بالحبر والاستعاضة عنه بازر بيضاء ، فرأينهن يلبسن أحدث الازياء وكان صاحب بيتهن هو الداعيـة للبس الازار الابيض ، وجعل الاكتساء به من الدين ، حمله على الجهر بهذه الدعوة أنه كان في حانوته من هذه الازر مقدار عظيم أصيب بالكساد فرأى تزيين لبسه للنساء من طريق الدين ، وحث ازواجهن للعدول عن الحبر الاسود وغـيره ، ولما أباع ماعنده خفت بل ضعفت الدعاية للبس الازار .

قلت لمن استغرب تشدد أهل نجـد في استعمال التدخين ، وحظر مشايخهم عليهم من طريق المذهب استعمال الدخان على اختلاف أصنافه : لاتستغربوا صنيعهم هذا فان القوم هناك يدققون في تقدير دخلهم وخرجهم

ويدركون أنهم اذا سمحوا بدخول الدخان أرضهم وهي فقيرة يخسرون كل سنة مبلغاً عظيماً من دخلهم ويجلبون الى ابنائهم مايفسد صحتهم وتفرغ به جيوبهم .

من المتعذر في الاقطار التي يغلب عليها اقتباس كل ماتراه جديداً (كمصر والشام والعراق) ان يرد النساء قانون مادام القائمون على التنفيذ اسبق الطبقات الى نقضه ، وما بلغ النساء عندنا درجة من العقل تؤهلهن الى ان ينبذن من تلقاء انفسهن مثل هذه البهرجات الضارة .

ومما يسر ماشهدناه في العهد الاخير من اخذ بعض العقائل والاوانس بالرجوع بعض الشيء عن الافراط في الزينة . وعدن بوازع من انفسهن يأخذن بعادة السذاجة في اللبـــاس ومنهن من يبدين أسفهن على قص ضفائرهن تشبهاً بالغربيات في جعل الضفيرة شبراً وكانت من قبل ذراعاً ، ابطلن الشعور المسترسلة على نحو مابطل صبغ باطن الكف والقـدمين بالحناء ، تنقش النقاشة النسـاء والصبيان والبنات كما يقص النساء اليوم شعورهن عند القصاصة ويفعلن ذلك احياناً في حوانيت الحلاقين والمزينين .

سخافة مؤرخ

شارل سنيوبوس من عظماء مؤرخي هذا القرن في فرنسا تعلم التاريخ وعلمه ستين سنة كما قال عن نفسه وما تحرر من لوثات التعصب الديني فقال ان رسول الله كان جباناً سوداوياً تنتابه عوارض من الحمى وتعروه نوبات عصبية ، كلام أَقل مايقال فيه انه ضرب من الهذيان لايقول به من له ادنى مسكة من العقل .

اخذ سنيوبوس عمن تقدمه هذا الحكم السخيف على أَعظم رجل قضية مسلمة ، ولم تحدثه نفسه ان ينظر فيما وصمه به اعداؤه نظر المؤرخ النقاد ، على حين كان في كتبه يميز بين الطيب والخبيث في أقل المسائل التاريخية ، وترجمة النبي الكريم مااستحقت ان ينظر فيها النظر المجرد عن الهوى ساعة . لاجرم ان رأيه في صاحب الرسالة من الآراء التي لقنها في صباه عن رهبان من الصعب ان ينصفوا خصمهم ، ومنهم اليسوعيون وغيرهم ، والناس كلهم ماخلقوا فلاسفة يستميتون في قول الحق .

الشعوب اللاتينية من أشد الشعوب الغربية تحاملاً على الاسلام ، واذا شهدتم من يحكم العقل من أبنائهم في آرائه فأيقنوا أَنه من الشواذ ، وانه درس في غير مدرستهم ، وتثقف بغير ثقافتهم ، وفتح الله عليه باباً من الفهم فصان قلبه عن الكذب ، وبرهانه من الخلط . وقد فطن لحقيقة محمد عليه الصلاة والسلام كبار علماء الانكليز السكسونيين خاصة ، وأَلقموا أَصحاب رومية حجراً وكذبوهم وسفهوهم .

حوليات مصر

لما استقبل صديقي الاستاذ علي عبدالرازق باشا في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة عضواً عاملاً خلفاً للدكتور علي ابراهيم باشا كان المعرف به أحد أعضاء المجمع رصيفي الاستاذ عبد الوهاب خلاف فقام يعدد نواحي ثقافته وذكر ماله من أياد بيضاء على الأدب واللغة واغفل ذكر ما كان آية نبوغه الا وهو تأليفه كتاب (الاسلام واصول الحكم) وهو الكتاب البديع الذي احدث ضجة في مصر وقرر العلماء من اجله اخراج الاستاذ عبد الرازق من سلكهم ، اغفل السيد الخلاف مايفخر به رصيفه وذكر له مايشاركه في معرفته كثيرون في مصر وما أتى المرحب بما أتى الا نزولاً على حكم السياسة ومراعاة لها . وعجيب ماحدث في الأول وما حدث في الآخر . فإذا كان حكم العلماء الرسميين على ابن عبدالرازق صحيحاً يوم صدر كتابه في الخلافة كيف ساغ اليوم أن ينتخب عضواً في أعظم مجمع مصري . تناقض مالنا الا السكوت عنه



تميز الفقير

قلت ذات مرة للاستاذ المازني تعال معي الى وزارة الصحة أعرفك الى صديقي الدكتور علي فؤاد (رحمه الله) فقد يقصدك من ترى من المروءة معالجة اسقامهم فيكون لك من الدكتور النطاسي خير معوان . فلما دخلنا على الطبيب الحبيب أوردت على مسامعه ما قلته للاستاذ المازني فقال : حقاً اني أَحب الفقراء وقد جمعت من أموالهم مالاً قليلاً بارك الله لي به . وكان من عادتي اذا دعاني الأغنياء لأطبّهم أتمهل وأتلكأ حتى يكرروا طلبي مرتين وثلاثاً . وبهذه المناسبة أقص عليكم قصة وقعت لي لتعذروني في عطفي على الفقراء فقال : جاءتني امرأة تصحبها ابنتها وكانت هذه ذات مسحة من الجمال الريفي فقالت لي : ان ابنتها خلفت ولداً ، فاتسع على أثر الولادة مكان خروج الطفل بحيث لم تعد صالحة للرجال[1] وان زوجها عزم ان يتزوج من غيرها . قال فأخذت بمعالجة الجزء المنفهق بالطرق الطبية المعروفة ومنها التخبيط ، حتى تاكدت الفتاة من نفسها ان ذاك الجزء من جسمها رجع الى سالف عهده ، وتقدمت أُمها وقالت لي هاك ثلاثة جنيهات ، وهي كل ماقدرت ان أجمعه لك ، فرددت عليها دراهمها ، وقلت لها اصرفيها على ابنتك . والتفت الى الفتاة ممازحاً لها بقولي : نحن ياست مستعدون كلما انخرق ان نخيطه (وللتخييط معنيان المعنى المعروف والمعنى الآخر يعرفه العوام في مصر) فضحكت الام وأبنتها وانصرفتا شاكرتين مغتبطتين

---

(١) وقعت لنا خلال هذه المذكرات بعض معان أو الفاظ لايقرنا على استعمالها بعض المتزمتين وما زلنا نستغرب انكارهم تدوين مثل هذه الامور ولا ينكرون ما ينشر كل يوم من القصص الغرامية الساقطة والصور المغرية الفاتنة في الصحف والمجلات والكتب كأن هذا الأدب الذي يسمونه الأدب المكشوف يغتفر اذا كان للفن وماهو بفن بل هو الفتنة بعينها

ونشبت الحرب العامة الاولى بعد حين ، وعز وجود الخبز ، لاتصل الايدي اليه الا ببطاقات وفي ذات صباح قيل لي ان بالباب رجلًا يسوق جملًا يريد مقابلتي ، وتقدم وعرفني بنفسه قائلًا انه زوج الفتاة التي اجريت لها العملية المعهودة ، فحاولت أن أظهر اني لا أعرفها فقال الريفي ان معروفك عظيم : وقيت الطفل الذي وضعته امرأتي من التشتت ، وصنت بيتي من الخراب ، ووفرت عليّ مالاً كان لا مَعْدَى من صرفه في زواج ثان ، فارجوك أن تقبل هذه الهدية التي لا تفي ببعض أياديك عليّ . فسألت الدكتور عن نوع الهدية فقال : كيسان من الحنطة وأوزة وخاروف وصفيحة سمن وصفيحة عسل ، واستخبرته عما كانت تساوي يومئذ ، وقدرت ثمنها ظناً بعشرين جنيهاً قال : كانت تساوي أكثر من ثلاثين . وعندها أقسمت له أن هذا المعروف الذي أسداه للريفية لو كان زوجها غنياً ما فكر فيه فضلًا عن أن يقابله عليه بمثله ، قال : لذلك أنا أحب الفقراء وأعطف عليهم ، وأعتقد فيهم الخير ، ثم سألته وهل كان صاحب الهدية موسراً ؟ قال أنا سألت هذا السؤال كان يملك بضعة فدادين فقط .

اليهود في فلسطين

كتب إليّ هذا العام أحد المستعربين من علماء المشرقيات يقول :
والعجب العجاب في كل هذا أن وراء كل هذا التحاسد في الباطن (بين الدول الكبرى) اليد الطولى لليهود الذين انتشروا منذ الفي سنة في العالم الحضري مثل القمل في البدن الصحيح وتعلمون كيف ثاروا في القرون الاولى على الروم في فلسطين في الحرب التي حصلت في الخراب الثاني للقدس وكذا في القرون التالية والآن هم في ايامنا يملكون في اميركا الذهب والاعمال المالية وفي روسية هم رؤساء كثير من الاشغال العمومية وكذلك حالهم عندنا — وانتم تعرفون ما يقع في فلسطين — لا يجسر وزير ولا مدير جريدة أن يلوم يهودياً في أي عمل عمله وكذلك وراء البحر المحيط . ومن المعلوم ان اخلاق اليهود في الأكثر فاسدة وهذا الفساد يحمل عداوة لا رحمة فيها وهم يملكون الجرائد والسينما والمواخير وما يشبهها حتى في الصين والبرازيل يجلبون الآنسات من الاقطار كما كانوا يتجرون بالخصيان والجواري في القرون المتوسطة . ولو نظرنا فيما يكتب هذه الايام في جرائد بلادنا بشأن المساعدات للبلاد التي افتقرت في الحرب ، لرأينا أن وراء كل هذا الحرص على الربح الفاحش اذ ليس في قلوب الذين يقدمون هذه المساعدات حبة من كرم الاخلاق وما غايتهم إلا الربح الزائد ، وكل هذا يملأ قلبي باليأس من مستقبل الامم وأنا أحمد الله على أني رأيت في شبيبتي العصر الذهبي الذي لا رجاء لعوده الى ان أرجع الى حياة أصلح من هذه .

اللحى والشوارب

في سنة ١٨٩٨ زار الشام الامبراطور غليوم الثاني الالماني فأعجب شبابنا بهندامه وتبرجه وهالهم حنه شاربيه بحيث لم يبق من طرفيهما الا قليلاً غمرهما بعد فتلهما بدهن مطيب وما هي الا أيام حتى اقتدوا به في شواربهم وعدلوا عن السبلات المسترسلة وكانوا يمشطونها ويرطلونها كما يمشط اهل اللحى لحاهم ، وبطل زى الشوارب على ماقدر الله وقضاه .

كان الناس يبقون على اللحى في العادة وتعلموا على الأيام حلقها ، اقتبسوه من الأتراك والافرنج والى القرن الماضي كانوا يستفظعون حلقها . ولما جاء السلطان سليم الى مصر ليضمها الى ملكه كما ضم الشام عجب المصريون منه ومن جنده وضباطهم ، لانهم كانوا يحلقون لحاهم ، واللحى عندهم تمثل الحكمة والتعقل وعلى ذلك كان ينظر اليها عند الكلدان والاشوريين والعبرانيين وقدماء فلاسفة الهند ، ومشى على آثارهم فلاسفة اليونان والعرب في الاسلام .

في الحديث أنهكوا الشوارب واعفوا عن اللحى ، وفيه : خالفوا المشركين : وفروا اللحى واحفوا الشوارب . ولما بعث باذان عامل كسرى على اليمن الى النبي عليه السلام رجلين من قبله نظر اليهما وقد حلقا لحاهما وشواربهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا قالوا : ربنا ، يعنيان كسرى فقال لكن ربي امرني ان اعف عن لحيتي وأقص شاربي .

وما فتىء الحال في الشعوب الاسلامية والنصرانية والوثنية يختلف بين حف اللحى واطلاقها حتى عصرنا هذا ، وقد متع فيه كل انسان بحرية التصرف بلحيته يبقيها او يزيلها ، ومنهم من كان يقتصر على قبضة ومنهم من يبلغ الى قبضتين . ورأيت شيخاً من مشايخ الطرق أطلق لحيتـه حتى تجاوزت حد الحالبين وكان موضع استغراب النساء والاولاد يلغطون فيه ويسخرون كلما رأوه . وكنت اذا وقع نظري عليها اذكر

لحية ضياء الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٨٠) وكانت طويلة جداً بحيث تصل الى قدميه وما ينام الا وهي في كيس ، وكان اذا ركب يفرقها فرقتين . وكان عوام مصر اذا رأوه قالوا : سبحان الخالق . فكان يقول : عوام مصر مؤمنون حقاً انهم يستدلون بالصنعة على الصانع .

وبعد فالخطب سهل في لحى الرجال فما قولك اذا كانت للنساء لحى ولحى طويلة . كنت قرأت في صحيفة افرنسية ان النساء في بعض مقاطعات فرنسا ـ أنسيت اسم المقاطعة ـ تنبت لهن لحى كالرجال ، ورسمت صورهن وكانت اقصر قليلاً من لحية شيخ الطريقة ذاك . فتأمل امرأة بلحية تتجاوز القبضتين .

واللحى على الدهر عزيزة على من يطلقونها ، ومن شتم بلحيته فكأنما شتم بأعز عزيز عليه . فقد أراد بطرس الاكبر قيصر روسيا ان يكره شعبه على قص لحاهم فكاد يفقد عرشه ، ولما أمر أمان الله خان ملك الافغان بحلق لحى رعيته فقد عرشه ، وعدوا عمله تعدياً على شرفهم . وفي أدبنا أشياء في اللحي ومن أجمل ماقال ابن الرومي في هجو صاحب لحية

ان تطل لحية عليك وتعرض فالمخالي معروضة للحمير
علق الله في عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها الي لطارت في مهب الرياح كل مطير



الجمع بين الثقافات

قالوا ان كل لسان بانسان أي أن لكل لسان ثقافة تخالف من بعض وجوهها الثقافة الأخرى ، فاذا انضمت الثقافتان كان الكمال الذي يصعب الحصول عليه بلغة واحدة ، وانا اذا أمعنا النظر في تفكير من لم يتعلم غير لغته تجده مهما بلغ من أحكام الثقافة متى جئته بأمر يتوقف على معرفة شيء جديد موسّع النطاق حائراً يشعر هو بنقصه كما يشعر به مخاطبه كأن هناك عالماً ما دخل فيه وأرضاً غير أرضه ذات حواجز يتعذر عليه تخطيها .

جرت عادة أكثر شعوب اليوم أن تدرس من اللغات ما يعوزها وعلى هذا كان العالم منذ أقدم العصور ، وكان في الدراسة الماضية كثير من الفوضى وفي دراسات اليوم نظام وتنسيق ، فالهولاندي يدرس لعهدنا منذ الطفولة مع لغته الالمانية والانكليزية والفرنسية ، والروسي يدرس الالمانية والفرنسية ، والايطالي الالمانية والفرنسية ، والبولوني الروسية والالمانية والانكليزي الالمانية والفرنسية ، والفرنسي الانكليزية والالمانية وهكذا يأخذ كل شعب ما يعينه من اللغات على كسب رزقه وعلى مطالب أخرى ، وانتشار كل لغة على مقدار قوة سياستها واتساع تجارتها ورواج صناعاتها .

والأمة كيف كانت الحال لا تضرها قلة المتكلمين بلغتها بقدر ما يضرها جهلهم وتأخرهم ، فمن يتكلمون البرتقالية والاسبانية اوفر عدداً ممن يتكلمون الفرنسية ، والفرنسيس ارقى ممن يتكلمون لغتي جيرانهم في أوربا وجنوبي أميركا ، والسويديون والنروجيون والبلجيكيون والهولانديون والدانمركيون والسويسريون والفنلانديون أرقى من أمم يعد سكانها بمئات الملايين كالهنود والصينيين والاندونسيين .

وعُني العرب منذ القديم بتلقف بعض لغات جيرانهم فمنهم من كان يتكلم الفارسية والسندية ، ومنهم من أختص بالرومية والتركية والنبطية والبربرية ، ومنهم من تكلم القشتالية واللاتينية وغيرهما من الالسن الرائجة ولما اقتطعت من جسم الهند العظيم في القديم أمارات اسلامية راجت فيها الفارسية والعربية ، ولما توطدت أركان مملكة فارس في العهد الحديث راجت الفارسية بين الشعوب التي خضعت لها من العرب والاكراد ، وكذلك شأن التركية مع العناصر التي اندمجت في الدولة العثمانية ، ولما انفصلت رومانيا واليونان وصربيا وبلغاريا والبانيا ثم بلاد العرب عن دولة آل عثمان نُسيت في تلك الممالك لغة الترك في مدة قصيرة ، لان التركية ليست لغة علم ولا سياسة ولا تجارة ، واكثر من كانوا يتكلمونها من العناصر الاخرى غير التركية كانوا يقصدون من تعلمها الدخول في الوظائف ، والموظفون فئة ضئيلة بالقياس الى مجموع كل عنصر . ولما تحضرت اليابان والهند بالحضارة الانكليزية راج في بلادهما اللسان الانكليزي ولما عهد الانتداب في العراق وفلسطين وشرقي الاردن الى انكلترا راجت فيها اللغة الانكليزية ، ولما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان زادت فيها العناية باللغة الفرنسية حتى اذا انقضت أيامه أخذت الانكليزية تحل محلها لانها أنفع للشاميين في تجارتهم وعلائقهم مع اميركا وانكلترا والشرق الاقصى واوستراليا وكندا وجنوبي افريقية ،وبقيت الفارسيةوالتركية في العراق والشام مقصوراً استعمالها على أفراد وعدد من تعلموهما ينزل سنة عن سنة في القطرين العربيين .

ولا مناص لكل امة صغيرة كانت أو كبيرة من تعلم لغتين على الاقل ، ومن الأمم الصغرى في الغرب من يتكلم بنوها ثلاث لغات فاكثر ويسهل عليهم تلقف لغات غير لغاتهم لما اهتدوا اليه من الاساليب السهلة في التعليم فيخرج الطالب في أشهر قليلة بما يلزمه للتفاهم باللغة التي تعلمها وقد يصرف سنتين أو ثلاثاً فيتقنها بما يقرب من اتقان أهلها ويحكمها كل الاحكام اذا كتب له ان يختلط باهلها زمناً .

ومن المجمع عليه في الغرب ان البولونيين كالشاميين من الشعوب التي تتقن لغات شتى لان لسانهم مجهز بالنبرات اللازمة ، ومخارج الصوت تامة عندهم ومن السهل اتقان لغة اصولها واحدة مع لغة اخرى كالهولاندية مع الالمانية والفرنسية مع الايطالية والاسبانية مع البرتقالية والسويدية مع النروجية والبلغارية مع الصربية . والانكليز والفرنسيس أقل الامم تعلماً للغات ويتعذر عليهم النطق الصحيح بلغة اجنبية خلافاً للالمان والطليان .

يتساهل العرب لعهدنا باتقان لغة الفرس كما تساهل الفرس باتقان لغة العرب منذ القرن الثامن من الهجرة وتاريخ الفرس والعرب متلازمان ، وعسى ان تزيد العناية بتلقين هاتين اللغتين في الجامعات العربية : (الاسكندرية ، القاهرة ، دمشق ، بيروت ، بغداد) كما يعنى بتدريس الاسبانية والبرتقالية حرصاً على الروابط القديمة والحديثة بين الشعوب العربية والفارسية ، والعرب والشعوب البرتقالية والاسبانية .

يقول مهاتما غاندي ، ليست دراسة منظمة للثقافات الآسياوية باقل وجوباً في اكتساب التربية الكاملة من دراسة علوم الغرب ، فينبغي أن نبحث عما في السنسكريتية والعربية والفارسية والبالية والماجادية من كنوز ثمينة لنظفر باسرار السؤدد الوطني ، يجب ان نبني ثقافة جديدة على ثقافات الماضي التي نمت واثرت باختبارات العصور وتكون هذه الثقافة مركباً من مختلف الحضارات التي فعلت بالهند وانفعلت بروح الاقليم ولا يصنع هذا المزيج على النمط الاميركي والثقافة المسيطرة في اميركا استغرقت كل ما عداها وقضت عليه ولكل ثقافة حقها ومكانتها والقصد هو التآلف والوفاق لا اصطناع وحدة عنوة وجبراً اه .

العيار العالي

يحكم على عظمة امة بوفرة من نبغ فيها من العيار العالي في العلوم والآداب والسياسة . وقبل هذه النهضة العربية لم يكن في اقطارنا من هذا العيار إلا افراد قلائل في كل قطر وزاد العدد على قدر امعان العرب في الاخذ من علوم الغرب . فنما أبناء مصر من العيار العالي لسبقها غيرها الى تلقف العلم الحديث ، وقبل النهضة المصرية الأخيرة كان يندر ظهور العيار العالي في المصريين كما يندر في غيرهم .

العيار العالي في القطر المصري يظهر القرن بعد القرن وعيارهم عال بالقياس الى زمنهم لا بالقياس الى هذا الزمن . كان الحال في مصر على ذلك منذ عهد الفراعنة فالرومان فاليونان فالعرب وما عرف منهم الا من خلفوا آثاراً عملية في الهندسة والتشريع .

وعدوا من رجال العيار العالي في الاسلام من اتقنوا علوم الشريعة وما اليها . وما عهد ان زاد عدد رجال الفكر والعلوم المادية في قطر من الاقطار العربية بقدر ما كان يزيد عدد رجال الدين ، وكان من يتعلم علماً غير ديني فبدافع شخصي وبعامل من العوامل التي تخرج الرجال رغم ارادتهم احياناً . وما كل من اشتهروا هم اهل للشهرة وما كل من حملت اسماؤهم لايستحقون من المكانة اكثر مما وصلوا اليه .

قد ينبغ في بعض الأعصار والاقطار رجال احرياء ان تقرن اسماؤهم الى اسماء العظماء وامتاز من سميناهم النبغاء في مصر من كانوا رجال عمل على الأكثر يظهرون بالمظهر الذي يجب ان يظهروا فيه وفي الزمن الذي تحتاج مصر الى ظهورهم وقد اشتهر في وادي النيل زمرة تعد مفخرة في الفلك والطب والجراحة والقضاء والهندسة وكان اشتهار بعضهم باتقانهم معرفة السلوك الى طريق الشهرة ، ومنهم من شهرتهم احوال خاصة ،

ومنهم من دانوا بشهرتهم للسياسة ، ومنهم من انقص اشتغالهم بالسياسة من مكانتهم العلمية .

وكان معظم من ذهبوا بفضل الشهرة في مصر لعهدنا من رجال المحاماة ربحوا من مهنتهم هذه ارباحاً عظيمة واغتنوا ، ومن اغتنى كان على جانب من ثقوب الذهن وسعة الحيلة جاء منه العيار العالي ، ومن اعتاد حل المعضلات قوي عقله ، وفي المران على الخطابة مايساعد صاحبها على التأثير في نفوس العامة ، وكان من هذه الطريق يصل رجال المحاماة الى دكات النيابة ومقاعد الحكم بما لا يكتب مثله لمهندس ولا لطبيب ولا لزراعي وصناعة هؤلاء عملية وتستلزم صمتاً وتلك تقوم بالبلاغة والتحيل لاسقاط حجة الخصم . ومن الاعلام من كانوا على صفات عظيمة تؤهلهم للتأليف والبحث في فنهم فحالت مناصبهم دون نشر ماجمعوه في عملهم من تجارب . ومنهم من اذا اجتمعت اليهم سمعت من احاديثهم مالا تقرأ مثله في اعظم التآليف امتاعاً ، يملون عليك في ساعة ما لا تقع على مثله في المؤلفات المنقحة . وليس اصحاب هذه الطبقة التي يبهرك استحضارهم وبديهتهم اذا تكلموا أقل عدداً من الفئة التي دعتها الحاجة الى التأليف والتصنيف وتمحضت له بحكم عملها

خطر في بالي وأنا أكتب هذا عشرات من الرجال في مصر خاصة لو انهمكوا في ابراز تجاربهم لاغنوا الخزانة العربية ببنات افكارهم واغنونا عن الرجوع الى كتب الغربيين في معظم مايهمنا الجولان فيه . ولا اقول ان المال والجاه شغلا هؤلاء الجماعة عن كل أمر آخر شطراً كبيراً من حياتهم فتلكؤا في وضع ما يجب عليهم اصداره بل أقول ان الاقدار تصرفت بقرائحهم هذا التصرف فجاء منهم ماشاء القدر لا ما شاؤا هم وشاءت أمتهم منهم ، فضاعت بعض الفائدة المرجوة من نبوغهم ، ولو تعلقت القدرة بانفاق جانب من عنايتهم بكتب ماهتدوا اليه من اسرار لكان منهم النفع للعلم وللمجتمع العربي .

لايتسع عمر المرء حتى يأتي منه الكمال المطلق في رعيل الرجال

النابغين مادامت الطبيعة تقوي في الانسان بعض الملكات وتضعف فيه اخرى على ما لا يتعلق به اختياره . وقد تعد في قرن من القرون في مملكة كبرى مئة من النوابغ في الفنون المختلفة لايشتهرون كلهم شهرة يسلم لهم بها معاصروهم ، فهل هم كذلك يا ترى ، ام العناية لاحظت عيونها بعضهم فقدمتهم وغفلت عن بعضهم فأخرتهم ولا يتفوق الاول عن الثاني الا بسبب من اسباب الاشتهار ، ويمتاز المشهور عن المغمور بأمر لاتدركه الأبصار ولا يضبطه حساب ولا يدخل في قياس .

كلما اردنا التنظير بين رجال العيار العالي من العرب وامثالهم من امم الافرنج تتضح لنا صعوبة التشبيه كما يصعب الجمع بين نقيضين فما نعده مزية نادرة في نابغتهم قد لايكون ماثله في نابغتنا . وما ندري هل يعود قسم من هذا التمييز الى ان العلم تسلسل في الافرنج على ما لم يتسلسل في العرب . والعلوم التي عانتها الأمم الحديثة غير التي مارسها العرب . وقد لايتشابه علم وعلم كما لايتشابه أدب وأدب ، وعلى كل منها يطلق اسم العلم واسم الأدب . واذا رجحت كفة علوم الدنيا في الأمم الغربية وكان للعلوم الدينية في العرب الشأن الاول ابداً أخذت الأولى باسباب الرقي وتدنت الثانية بما اكتفت به من اساليب لم ترفع من عقول بنيها ، ثم أصابها التدني ايضاً في الذي ماحرصت على حفظ غيره وكان انحطاطها في الشق الآخر داعياً الى انحطاطها الانحطاط الشامل .

وفي العصور التي تمزق فيها ملكنا وانقسم الى امارات ودويلات لم يبق لنا مركز مهم يفزع اليه أرباب العقل بل ان المراكز التي نفاخر الآن بنهوضها كالقاهرة ودمشق وبغداد كادت تصبح كالقرى ، وفي القرى لايرجى ان يبث العلماء دعوتهم ولا يجدون فيها من يحميهم ولا من يقدر عملهم قدره .

ليت لنا طرف زرقاء اليمامة لنبصر ماستكون عليه ديار العرب بعد جيلين أو ثلاثة ، ايكثر النوابغ منا على مثال مانرى من العيار العالي عند الافرنج يخلدون باعمالهم العظيمة لابالقياس الى ثروة امتهم وكثرة سكانها ، ام ينقلب العلم كله عملياً لاشأن فيه لغيره من المطالب .

رحلة الى المدينة المنورة (١)

البلقاء

على نحو مائتين وأربعين كيلومتراً من جنوبي دمشق بين نهر الاردن غرباً وزملة العليا في طريق الحج شرقاً ونهر الزرقاء شمالاً ووادي الموجب جنوباً اقليم واسع خصيب سهلي جبلي اسمه البلقاء طوله من الشمال إلى الجنوب ١٨ ساعة للفارس المجد وعرضه من الغرب إلى الشرق ١٦ ساعة أو نحو مئة كيلومتر في مئة كيلومتر ، وقد حد القدماء اقليم البلقاء بانه بين الشام ووادي القرى وقالوا أن فيه مدناً عظمى كثيرة وأن قاعدته عَمّان وقيل إن السلط اوالصلت هي راموت جلعاد احدى مدن الملجأ ومدن اللاويين المذكورة في الكتاب المقدس وربما اشتق اسمها الحاضر الصلت من لفظة لاتينية « سالتوس » ومعناها الجبال المشجرة وكانت فيما مضى مدينة أسقفية في العهد المسيحي وقد دك المغول قلعتها ثم أعاد بناءها الظاهر بيبرس البندقداري .

والصلت على منحدر بين جبلين متناوحين أشبه بمدينة زحلة في لبنان وكانت خالية من الحدائق والبساتين فتوفرت همـة أهلها على استثمار الأشجار والبقول فجاد أكثرها بما عندهم من العيون التي تروي زروع الوادي اما ماكان وراء المدينة من التلعات والآكام فقد كان حراجاً إلى عهد قريب وآثار بعض سنديانه وملوله مابرحت ماثلة للعيان ولكن القوم قطعوها واستعاضوا عنها بزراعة الكروم التي يعد عنبها وزبيبها اجمل ماتحمله هذه الشجرة المباركة في سورية وقد يكون العنقود الواحد رطلاً شامياً وأكثره بلا بزر . يصدر من زبيبه ما تقدر قيمته كل سنة بنحو خمسة عشر الف ليرة

---

(١) في هذا الفصل زبدة ما كتبته يوم رحلت الى المدينة قبل نحو أربعين سنة .

وفي جوار الصلت قليل من شجر الزيتون سألنا احد شيوخهم عن السبب الذي دعا الى عدم استكثار القوم من غرسه فقال لاتذكرنا بغباوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين احد متصرفي نابلس ايام كان قضاؤنا تابعاً لنابلس على ان نغرس في هذه الاودية التي تراها مائة الف زيتونة فوقع في انفسنا ان في الامر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل اراضينا على صورة لانعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالامر في الظاهر وغرسنا الوفاً من شجر الزيتون ، ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد ؟ كان احدنا يجيء ليلًا الى غرسة الزيتون فيحركها حتى لاينمو جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون الا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ماهو . قلنا وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالامس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار ويزينون لهم اقتناء الأراضي للزراعة واليوم يطلب الاهلون في هذا القضاء وفي غيره الأراضي الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم وكذلك الحال في كل مكان نزلناه في طريق يثرب فان الاهلين احسوا بفوائد الأرض هكذا رأينا اهل الشراة من أعمال الطفيلة ومعان وهكذا سمعنا شكوى اهل الكرك وتبوك ومدائن صالح ، اجمع على طلب ذلك الحاضر والبادي وفي قانون الأراضي ان كل من يحيي أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والدساكر مقدار مايسمع الصوت فهي له .

قرأنا سطور الهمة والنشاط في وجوه الصلتيين مسلميهم ومسيحييهم وان كانت القاعدة في سورية على الاغلب ان يكون المسيحيون أكثر نشاطاً وتعلماً من اخوانهم في الوطنية . وبلدهم هذا ساعدته الطبيعية فساعدها اهله أيضاً ودخل في طور العمران ويوشك أن يعد في جملة العظيمات من المدائن والبلدان .

وسكان مدينة الصلت اليوم (يوم زرناها) نحو ١٦ الف نسمة يبلغ المسيحيون منهم على اختلاف الطوائف نحو اربعة آلاف ومعظمهم الى

اليوم يلبسون زيا كزي أهل حوران وهو كوفية وعقال وعباءة وجزمة حمراء وعادات القوم هنا أشبه بعادات البادية مع أنهم حضر . وفي الصلت قليل من الصناعة وتجارتها واسعة مع القبائل النازلة في البلقاء والرحالة في تلك الارجاء . وبين عمان على الخط الحجــازي والصلت نحو خمسة وعشرين كيلومـتراً جعل بعضه من جهة الصلت طريقــاً معبداً ومتى أكمل تسافر العربات والسيارات بين الصلت والخط الحديدي في ساعتين وهي الآن أربع ساعات على الدواب واذا تم اتصال الصلت بالقـدس بطريق معبدة تسير عليها المركبات أيضا تعمر الصلت عمراناً مهماً وهي على بعد ٤٠ ميلًا الى الشمال الشرقي من بيت المقـدس و ٤٠ ميلًا الى الجنوب الشرقي من نابلس ونحو ١٨ ميلًا شرقي الاردن

ومن سوء حظ هـذا القضاءان معدن الفوسفات الذي نال امتيازاً بتعدينه من جبل السرو في منتصف الطريق بين عمان والصلت المهندس نظيف الخالدي المقدسي على ان ينشيء فرعاً بالخط الحديدي من الصلت الى عمان يتصل بالسكة الحجازية ومرفأ حيفا — من سوء الحظ ان قد حسبوا نفقاته فوجدوها لاتفي بها وارداته ولعل الحكومة تتساهل بعض الشيء في شروطها لتقوى عزيمة تلك الشركة على استثمار هذا المعدن من قضاء الصلت فيتسنى لها أو لشركة أخرى تعدين سائر المعادن التي حبتها بها الفطرة .

على نحو ساعة من قصبة الصلت منظر من أجمـل مناظر سورية ونعني به جبل يوشع الواقع على علو ١٠٩٦ متراً عن سطح البحر وهو مشرف على جزء عظيم من فلسطين يمتد أمامك وادي الاردن كأنه بساط ذو الوان كثيرة ومن خـلال ذلك نهر الأردن تراه كالحية بتلويه حتى يصل الى البحر الميت أو بحـيرة لوط . ومن النبي يوشع تشاهد جبل الزيتون في الشمال الغربي ويقابلك جبل عيبال وجرزيم ثم جبل الطور وما يناوحه من الجبال المحيطة ببحيرة طبرية ومن بعيد جبل الشيخ وبه تنتهي هذه المنظرة من الشمال

ويقول العارفون من الافرنج ان الاعتقاد بالنبي يوشع الذي يذبح له البدو ويتقربون اليه هو من التقاليد الاسرائيلية القديمة وان بناء قبره يرد الى زهاء ثلثمائة سنة . وليوشع مقام أيضاً في جبل نابلس قرب قرية حارث . وجبل يوشع في البلقاء أشبه « بيوشع تبه‌سى » أي ذروة يوشع في قرية بكوز المطلة على بحر مرمرة وخليج القسطنطينية . هذا منظره بحري وذاك منظره بري . ومن غريب التقاليد ان البدوي يحلف بالله ولكنه لايحلف بشعيب . ومقام شعيب على ساعتين من الصلت أيضاً .

كانت عمان قصبة البلقاء فانحطت في أواخر القرن الماضي بما تواتر عليها من الزلازل وغارات البادية حتى جلا عنها بقايا سكانها الاصليين فانزلت فيها الحكومة ستمائة أسرة من الجركس من عشائر مختلفة هاجروا الى البلاد العثمانية من ولاية كوبان الروسية وأخذوا يردون غارات البادية واعتمدوا في عمرانها على مضائهم وشجاعتهم وبنوا على انقاض مدينة ضخمة قرية لهم وساعدتهم مياه نهر الزرقاء فغرسوا الاشجار وأنشأوا الحدائق وأتوا بطريقتهم المألوفة لهم في الزراعة ببلادهم وقد هلك منهم أناس كثيرون بالفتن والامراض حتى توطدت اقدامهم واغتنوا واصبحت الحكومة بعد أن كانت تأخذ من عمان مئة ريال في السنة تتقاضى نحو ثلاثة آلاف ليرة ولا تلبث أن تزيد بزيادة عمران عمان واتساع تجارتها على أيدي النشيطين من النابلسيين والدمشقيين ومعظم تجارة البلقاء في أيديهم اليوم .

نقول انها كانت مدينة عظيمة والدليل ان انقاض دار تمثيلها كبيرة جداً تكفي لجلوس ثلاثة آلاف نسمة وفي مسرحها ٤٥ صفاً على شكل نصف دائرة وفيها آثار قلعة مهمة ومعظم بيوتها بنيت باحجار المدينة القديمة وكذلك قرية رأس عمان الحديثة الواقعة على قيد غلوة من عمان الحديثة وسكانها جراكسة ايضاً .

لا جرم أن الجركس ادخلوا روحاً جديداً الى هذا القضاء من التوفر على الزراعة والنشاط المستمر وان الاهلين تعلموا منهم بعض الشيء الا أن عمال الحكومة أساءوا الاستعمال فسلبوا ما كان للاهلين من الاراضي

والمزارع العامرة ليعطوها المهاجرين الجركس والششن والتركمان كما فعلوا بعين صويلح وعيون الحمر وكانتا مسجلتين باسم أصحابهما فاعطتهما الحكومة للمهاجرين وأخذ المهاجرون الناعور ووادي السير والزرقاء والرصيفة وغيرها . صبر الناس على هذا الجور زمناً حتى صحت عزيمة بعض عشيرتي الخرشان والجبور على أن يزرعوا الموقر والعليا والنقـيرة وهي على نحو ثلاث ساعات من شرقي معان يسير في اراضيها الراكب عشر ساعات كما ان بعض الصلتيين يزرعون اليوم في سهل الكبد في الغور وهذا السهل جيد التربة جداً لا حجر فيه ولا مدر ولو احبت الحكومة احياء الموات حقيقة لأوعزت للاهلين ان يحيوا اراضي الموقر والعليا كلها فان فيها زهاء الف بئر معطلة تحيا بعناية قليلة .

وأعظم عشائر هذا القضاء بنو صخر وهم يتنقلون بين الغور في الشتاء وأراضي البلقاء العالية في الربيع وفي الصيف يتوفرون على حصـــاد الارضين التي لهم في جهات الزيزاء ومادبا وهما مديريتان تابعتان للصلت ، كما أن عمان مديرية تابعة لها أيضاً ، ونفوس قضاء الصلت المحررة ٤٢ الفاً ولو أحصي بنو حسن وبنو صخر والبادية لبلغ سكانه مئة الف أويزيدون ولو ارتفع فيه علم الامن كما يجب وأعطيت الارض الموات للاهلـين وسجلت عليهم بحيث لا ينازعهم فيها منازع لأن أكثر المنازعات تثور على الاراضي - لبلغ سكان هذا القضاء نصف مليون نسمة بعد عشرسنين .

وأهم العاديات التاريخية في هذا القضاء قصبة مادبا فقد كانت كاحدى الخرب منذ نحو ستين سنة فهاجر اليها جماعة من مسيحيي الكرك أعطتهم الحكومة اياها خربة فعمروها فما هو الا أن وجدوا فيها آثاراً مهمـة مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على الجانبين وبينا كانوا يحفرون في انقاض الكنيسة ليقيموا كنيسة جديدة عثروا سنة ١٨٩٧ على قطعة من الفسيفساء في الصحن فرفعوا عنها المعاول وأزالوا ما كان علق عليها بتوالي

الايام من التراب والاحجار فاذا هو أثر عظيم من آثار القدماء ، هو مصوَّر فلسطين وما فيها من المعاهد المقدسة والكنائس ولو سلمت كلهامن معاول الذين حفروها لبلغ ثمنها المليونين والثلاثة من الليرات ولكن القطعة الصالحة الباقية منها تدل على تلك المدنية القديمة التي تمتعت بها مادبا قديماً منذ عهد الاسرائيليين الى الموآبيين الى العرب النبطيين الى المكابيين وكانت في عهد هؤلاء قلعة مهمة واستولى عليها هيركان ملك اليهود قبل المسيح وأصبحت على عهد الرومانيين جزءاً من بترا أو العربية الصخرية ، وآثار الفسيفساء كثيرة في هذه القرية رأينا بعضها في الدور الخاصة تلمع فتأخذ بالابصار ، أما أنقاض دورها ومعابدها وأحواض مياهها فحدث عنها ولا حرج وقد دخل اهلها في المدنية اليوم وليس بين سكانها أناس من المسلمين الا بعض باعة وحراثين .

قال ابن خرداذبة ان ظاهر البلقاء كان كورة من كور دمشق كما ان جبل الغور وكورة مآب وكورة جبال وكورة الشراة وكورة عمان كانت كل منها اقليماً برأسه قال الشاعر :

سلم على دمن أقوت بعمان واستنطق الربع هل يرجع بتبيان

قال ياقوت ان مدينة جرش هي شرقي جبل السواد من ارض البلقاء وعرّف السواد بانها نواح قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها وفي أرض البلقاء عدة بلاد ورد لها ذكر في التاريخ العربي ، مثل قرية جادية التي ينسب اليها الجادي وهو الزعفران ، وقرية مؤتة من المشارف التي كانت بها تطبع السيوف المشرفية ، والموقر الذي كان ينزله يزيد بن عبد الملك قال كثير :

سقى الله حياً بالموقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات المحارب

والقسطل نزله الوليد بن يزيد وهو قرب البلقاء وخلفه فيه عمه العباس وكان الوليد يستوطن الزيزاء ، وفي البلقاء قصر الأزرق ، والفُدَيْن قريب من حصن الازرق والفدين قيل انه من عمل حوران ومعظم الروايات على أنه من عمل البلقاء .

العمران والسكة الحجازية

ان كان لدور الاستبداد حسنة فاعظم حسناته سكة حديد الحجاز التي مدت في عهد المخاوع وبتزيين قرينه أحمد عزت باشا العابد وانتهى منها حتى الآن القسم الاعظم من دمشق الى المدينة المنورة وطوله ١٣٠٣ كيلو مترات ومن حيفا الى درعا ١٦١ كيلومتراً فانفق عليها فيما بلغنا ثلاثة ملايين ليرة ونصف مليون صرف قسم مهم منها في مدينة دمشق فانتفع منه الملتزمون والتجار والزراع والعملة وبعض أرباب الصناعات والفنون وانفق القسم الأعظم في ثمن أدوات وقاطرات ومركبات وحديد من معامل اوربا

وما كاد ينتهي الخط الى المدينة حتى نهضت البلاد بعض الشيء ولاسيما دمشق والمدينة وحيفا نهضة اقتصادية لايستهان بها وحسن حال التاجر والمزارع وسارت الامور الاقتصادية على نسق مرتب معقول فلم يعد في التجارة ذاك الكساد الذي نعهده في دمشق ولا التقهقر الذي كان في حيفا ولا الغلاء الفاحش في أسعار المدينة وهكذا انتفعت المحطات على طول الخط من دمشق الى المدينة وعددها ٧٥ محطة ومحطات حيفا ودرعا وعددها ١٥ فأخذت كل محطة بقدر حظها من العمران وانتفع منها في الأكثر ما كان له أثر قديم في الارتقاء

نعم ان من المحطات ما لاينبت فيه شيء بحسب الظاهر ولا تمطره السماء الاساعات غير معلومة في السنة ولاسيما بعد أرض البلقاء وهواؤها جاف حار محرق وعمرانها متوقف على عمل كثير طويل ومال غزير فامثال هذه المحطات تترك الآن وينشط كل من يود اعتمار الأرض الموات قرب المحطات وانشاء دور وحوانيت فيها ولو فعلت الحكومة لاستغنت مع الزمن عن حراسة هذا الخط بكتائب من الجنود ترابط على طول السكة واقامة اثنتى عشرة قلعة من الهدية الى المدينة وهي اليوم تجعل في كل قطار يسافر من بعدلواء حوران الى المدينة جملة من الجند النظامي المسلح لحماية الركاب من عيث البادية اذا حدث حادث

نقول عيث البادية ولو أعملت الحكومة الفكر منذ اليوم الذي نوت فيه تمديد هذا الخط الحربي الديني التجاري لأوسعت لهم من تلك السهول الخصيبة في لواء الكرك ما كانوا استغنوا بزراعته عن شن الغارات وايذاء السابلة طمعاً في اقتناص ما يتبلغون به ولتوفروا على تربية مواشيهم وزروعهم كما يتوفر اليوم بنوحسن في قضاء عجلون وبنوصخر في قضاء الصلت والحويطات في معان والمجالي والضمور والطراونة في الكرك وغيرهم في غيرها وكل هؤلاء من العرب الرحل يتأنسون بقدر مايدخل النور على أولادهم ويستمرؤن ارباح الزراعة والماشية ولاشك انهم يعدلون بتة عن الغارة كلما أسكنت الاصقاع التي في جوارهم وخف الاعتداء عليهم .

بعض اعمال الكرك

قال الظاهري واما المملكة الكركية فليست هي من الشأم وهي مملكة بمفردها وتسمى مآب وهي مدينة حصينة معقل من معاقل الاسلام بها قلعة ليس لها نظير في الاسلام ولا في الكفر تسمى حصن الغراب لم تكن فتحت عنوة قط وانما فتحها المرحوم صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد فتح القدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكانت بيد البرنس ارنلط وكان يتعرض الى حجاج بيت الله الحرام . وقال ان الشوبك كانت مدة بيد الافرنج وهي مضافة الى الكرك وحصينة أيضاً ومسيرة معاملة الكرك من العلى الى الزيزاء مقدار عشرين يوماً بسير الابل وهي بلاد عدية بها قرى كثيرة ومعاملات والمسلك اليها صعب في منقطعات قليلة الماء حتى انه اذا وقف أحد على درب من دروبها يمنع مائة فارس اه .

بلدان في لواء الكرك طالما سمعنا بهما وهما قصبة الكرك وقصبة الصلت فالأولى كنا نتوهمها أهم مما رأيناها والثانية رأيناها أهم مما سمعنا به من وصفها . وأذرح خربة لاساكن فيها وكانت من المدن العامرة قبل الاسلام وبعده . وذكر المقدسي انها مدينة متطرفة حجازية شامية وعندهم بردة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعهده وهو مكتوب في أديم وبذلك

يستدل انها كانت عـامرة في القرن الخامس للهجرة بل عامرة الى عهد قريب وكانت هى ومآب مدينتي الشراة

وأرض الشراة من الشوبك الى رأس النقب كما يحددها الاهلون اليوم أي مسيرة يوم طولا وعرضها ساعتان وهي الأرض المفلوحـة مؤلفة من تلعات وأودية وفيها عيون غزيرة لاتقل عن أربعين عيناً لاينتفع باكثرها وقسم منها الآن في عمل قضاء الطفيلة والآخر في قضاء معان وعلى جنوب الشراة بلاد طيء أو جبال طيء وهي الحـد الجنوبي لسورية كما عرفها العرب قال حاتم الطـــائي وقد اغارت طيّ على ابل للحارث بن عمرو وقتلوا ابناً له :

الا انني قد هاجني الليلة الذكر	وما ذاك من حب النساء ولاالاشر
ولكنني مما أصـــاب عشيرتي	وقومي باقران حواليهم الصير
ليـالي نمسي بين جوز ومسطح	نشاوى لنا من كل سائمـة جزر
فياليت خير الناس حياً وميتاً	يقول لنا خيراً ويمضي الذي ائتمر
فان كان شر فالعزاء فاننا	على وقعات الدهر من قبلها صبر
سقى الله رب الناس سحا وديمة	جنوب الشراة من مآب الى زغر
بلاد امريء لايعرف الذم بيته	له المشرب الصافي وليس له الكدر

وفي أذرح عين ماء غزيرة فوق أراض واسعة يمكن تشجيرها كلها ولها قلعة لاتحتاج الا الى ترميم خفيف وهي على أربع ساعات الى الغرب الشمالي من معان وعلى ثلاث ساعات من وادي موسى . وانقاض دورها وعقودها وعمدها موجودة لاتحتاج الا الى بنائين فتكون مدينـه تامة الادوات في بضعة أسابيع وفيها اليوم انقاض ثلاثة طواحين

تنقبض النفس من الكرك على جمال طبيعتها وهي تطل من جهاتها الاربع على مناظر لطيفـة ومنها البحر الميت ووادي الاردن الى أعالي جبال أريحا وذلك لأنها كانت في معظم أدوارها التاريخية ظالمة مظلومة واشتهر أهلها بحب الغارة على عهد الاسرائيليين والموآبيين وحاربها شاول وداود وقاومت قلعتها حوارم وملك اليهودية فرجعا عنها مدحورين واضمحل

المؤآبيون في القرن الثاني قبل المسيح واصبحت الكرك مفتاح تلك البلاد على عهد الصليبيين واستولى عليها رنودي شاتليون الذي يسميه مؤرخو العرب البرنس ارنلط وذلك لانها حاكمة على طرق قوافل مصر وبلاد العرب القادمة الى الشام ولذلك حاربها صلاح الدين يوسف بن أيوب حرباً عواناً وأقام الايوبيون فيها وحصنوها وما زال ملوك مصر والشام يحاصرونها ويقتتلون واهلها عليها وآخر أعمال الكركيين ذبحهم عسكر ابراهيم باشا المصري ثم فتنتهم الاخيره المشؤمة . ويبلغ المسيحيون في الكرك نحو أربعة آلاف نسمة أكثرهم روم وفيهم لاتين وقليل من البرتستانت وفيها مدارس حقيرة لذكورهم وأناثهم ولئن كان المسيحيون اليوم على مستوى جيرانهم المسلمين وكانوا نحو ١٥ الفاً قبل الحوادث الأخيرة أو ارقى بقليل في المدنية فسيكون مستقبل هذه البلاد لهم .

ولم تبق الفتن من العاديات القديمة مايذكر في هذه المدينة اللهم الا انقاض داثرة وجميع هذه الديار كانت عامرة وهي اليوم مأوى الغراب وناهيك بأن اللجون الواقعة على ساعتين من الكرك كانت بحسب مارأينا من انقاض ارتجتها الضخمة من المدن المهمة فاصبحت اليوم والحكومة تسكن فيها طائفة من المهاجرين وتعمر لهم دوراً فلا يلبثون ان يرحلوا عنها اذ رأوا تناقص نفوسهم فيها بسبب الماء والهواء وتركوا منازلهم خـــاوية .

العربة الصغرى

طريق الكرك من القطرانة وطريق وادي موسى من معان يبتدئان بتراب كلسي ممزوج بصلصال لا استعداد فيه للزراعة ولذلك تظنك اذا توسطت تلك السهول وعرضها نحو ثلاث ساعات من الخط الحديدي تظنك في قفر بلقع حتى اذا انتصف الطريق تتراءى لك بعض عيون وزروع والمسافة بين معان ووادي موسى سبع ساعات للراكب كما هي بين القطرانة والكرك . ووادي موسى هو قرية الجي وعلى نحو ساعة منه بترا أو

العربية الصخرية كما يسميها الافرنج وسماها العرب سلعاً ، والسلع الشقوق في الجبال ، والغالب ان سلعاً قسم من العربية الصخرية وهي عبارة عن جبال إذا (رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فاذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها) وحدثنا من زار خرائب الحجر أو مدائن صالح انها دون خرائب بترا بمكانتها .

وكان لبترا هذه أيام عز طويل على عهد الادوميين والنبطيين العرب وقدماء الرومان والمكابيين وامتد حكمها الى دمشق وكان بيدها زمام التجارة مدة قرون في هذا الشرق الاقرب ولم تنحط الا بارتقاء مملكة فارس وانبساط ظل سلطان تدمر ولما جاء الاسلام كانت خرائب كما هي اليوم والغالب أن بقايا مجدها أتت عليها الزلازل فدكتها كما دكت غيرها من المصانع والآثار .

اذا أشرف الراكب على قرية وادي موسى يرى روح النعيم فيها خصوصاً ويكون قد قطع ساعات في صقع أجرد أمرد ليس فيه من الاشجار الا الزعرور ولا من الغلات الا قليل من الحنطة والشعير لكن في وادي موسى حدائق بديعة تسقى من العيون الدافقة عليها من الهضاب المجاورة حتى تخال نفسك لما تراه من بهجة الخضرة انك في صقع عامر زاهر فاذا قصدت الى عاصمة بترا وتجبلت في السيك أي دخلت بين الجبلين المتناوحين العاليين وكل قطعة منها تبلغ ألوفاً من الامتار المربعة علوها من ٣٠ الى ٥٠ متراً وانت تسير في طريق لا يقل عرضه عن خمسة أذرع ولا يزيد عن عشرة ليس فيه الا الأحجار والحصا أو مسايل ماء لا ينبت فيها الا الرتم والطرفاء تشاهد في الاعالي النواويس والقصور والمسلات محفورة في الصخر وينفرج الطريق مسيرة نحو ثلث ساعة وينقسم قسمين قسم ذات اليمين وفيه تتمة المدينة والقسم الآخر جبال طبيعية تمتد الى بعيد وتتصل بجبل هارون من أجمل المناظر المشرفة على تلك الاودية والجبال .

وهنا يتمثل أمامك قصر فخم يسميه الناس خزنة فرعون والغالب انه كان معبداً لايزيس أنشيء على عهد الامبراطور ادريانوس الذي زار هذه المدينة سنة ١٣١ وفي واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة اصغر منها ونقوش وتيجان وربما كان يصعد الى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من اثر الادراج واذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع احجارها وتتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها وفي الصدر القاعة الكبرى او الردهة المدهشة وكل هذه العمدان والسواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر او في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه ما يشاؤون والذي يزيد في الدهشة ان الحجر احمر في هذه الجبال او من نوع الحجر الرملي ولكنه بمتانته كالصخر الاصم ثم ترى عليه ذاك اللمعان فمن موجة حمراء الى اخرى زرقاء الى مثلها بيضاء الى جانبها دكناء فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير ورزق بانيه يداً صناعاً تتفنن في تقطيعه ونقره بما فاق به البناة في سائر عاديات الشام فان كانت قلعة بعلبك تنم عن ذوق سليم وعلم واسع في النقش وجر الاثقال فان هذه العاديات الخالدة الازلية تنادي بلسان حالها هذه عظمة الديان الى جانب عظمة الانسان .

وترى الى جانب الآثار قساطل الفخار في جانب السيك الذي يشبه من بعض جهاته الفج الواقع في شمالي مدخل قرية معلولا في جبل سنير (قلمون) وذلك على علو القامة استحجرت مع الصخر حتى كأنها بعضه وهناك على بضع دقائق من خزنة فرعون كان في الغالب مخزن ماء هذه العاصمة برمتها وعلى مقربة من مخزن الماء وهو منقور في الجبل ايضاً ملعب التمثيل نقر في الصخر وله ٣٣ ممشى لجلوس المتفرجين ويسع ٣٠٠٠ نسمة وفي هذا الجوار اقدم النواويس واهمها وبعد ذلك يجيء

قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارته كما توصف الابنية الضخمة من قلاع وابراج وأسوار ونحوها والغالب انه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل الاسلام وهناك ولا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها على أنها من عمل المسيحيين عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفرجات والاودية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار بترا في المكانة وفي جبل الصبر ملعب او صورة تمثل قتالا بين سفن حربية .

ويقول علماء الآثار ان معظم القبور التي حفرت على مثال قبور الحجر يرد عهدها الى الملك الحارث الرابع أحد ملوك بترا أي ٣٠٩ سنة قبل المسيح وبعده وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها ، وأن ما يشاهد من صور أبي الهول وايزيس ورؤوس الحملان يدل على أن هذه البلاد تأثرت بالمدنية المصرية والمسلتان الموجودتان في النجر تمثلان ربي النبطيين اللات ودوزارس وأنها كانت مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الاقل ، وان المدنية اليونانية دخلت وادي موسى على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصري والشامي وظل القول الفصل فيها للمدنية اليونانية الى عهد الحارث الرابع وفي بترا ٨٥١ مصنعاً من القبور والمعابد والمذابح .

ومن أراد أن يتوسع في درس هذه المدنية الأزلية وجب عليه أن يصرف أياماً في خرائبها كما يفعل بعض سياح الافرنج وعلماء الآثار منهم فيقصدونها يضربون فيها خيامهم ويصرفون في امتاع النظر بها الاسبوع والاسبوعين وعلى من يحب التوسع في البحث أن يستعين بما كتبه علماء الآثار من المصنفات في وصف هذه المصانع .

في جوار هذه العاديات المنبئة بمدنية راقية جداً ينزل نحو الف نسمة من العرب يأتون أياماً قلائل الى الجي او وادي موسى لتعهد زروعهم

السقي ثم يتنقلون في الصيف والشتاء في جبال الشراة على ساعتين أو ثلاث أو اربع من بلدهم في خيام الشعر وهم فرقتان تؤلف الاولى من عرب الشرور وبني عطا والثانية من الهلالات والعبيدية والعلايا ويغلب عليهم الفقر ومنهم من يزرع في أراضي الحويطات والنعيمات على مقربة من بلدهم بالخمس وليس فيهم من يقرأ أو يكتب ويلبس أهل وادي موسى الكوفية والعقال ويسمونه المرير أي المفتول والعباءة وقفطاناً مسدولاً بدون سراويل وفي أرجلهم نعل يعملونه من جلد البعير وينوطون به حبلة يدخل منها باهم الرجل لتعلق وفي ألفاظهم بعض فصح مثل قولهم سرى لسير الليل وقولهم الهدوم للثياب العتيقة وقولهم الريف للاراضي الخصبة . ويعنون كثيراً بتربية البقر والغنم والماعز ، ولا ابل عندهم مثل بني صخر . وهم على فقر ظاهر .

سألنا أحد كبار شيوخ وادي موسى هل زرت باعماه مدينة دمشق في حياتك فأجاب انني لم ازرها أنا ولا أحد من أهل بلدي وأنى لي بزيارتها والطريق عشرة أيام لراكب المطايا وفي السكة الحديدية احتاج الى اجرة لم أملكها حياتي فتأمل .

من اجمل المناظر اذا خرجت من السيك أو من الصدفين أي جانبي الجبلين وفارقت تلك القنن والقلل تقصد الى عين موسى صعداً في هضاب عالية شماء واطلت على تلك المدينة التي يستحيل على أي جيش من جيوش العالم ان يفتحها ويستبيح حمى من فيها اذا أرادت الدفاع . تشرف من ورائها على أراض واسعة جداً تظنها بحراً من أشعة الشمس وهي وادي العربة طوله ثلاثة أيام الى الغرب وعرضه الى الشمال أربعة من العقبة الى الغور وفي تربته حصا وأحجار ورمال واملاح وينابيع قليلة وبالقرب منها بعض الخضرة كما تجد هنا وهناك بعض الاشجار البرية ويقصد البدو هذا الوادي في الشتاء لانه غور يرعون فيه مواشيهم كما يقصد أهالي الطفيلة والكرك والصلت ماجاورهم من الاغوار الى الغرب من ديارهم ويقصدون جهات الشرق في الربيع ويتوسطون في الشتاء والصيف .

في مدينة الرسول

ماذا يرجى لراكب القطار الحديدي ان يراه ليصفه والقطار يسرع في سيره مواصلا الليل بالنهار وكل بقعة من البقاع بين دمشق عاصمة الاسلام الثانية ويثرب عاصمة الاسلام الاولى تحتاج الى عدة علماء يتوفرون على دراسة مافيها من الآثار العـادية والتاريخية والطبقات الارضية والاحداث الجوية والمواليد الثلاثة الطبيعية او المملكة النباتية والحيوانية والجمادية وعابر سبيل يمر كالسهم منطلقاً لايطالب بمثل مايطالب به الباحث محققاً مدققاً فمعذرة الى من يتوقعون ان يروا في رحلتنا هذه فائدة تخرج عن حد ماوقع عليه النظر في أيام معدودة .

ركبنا من محطة القطرانة في الكيلو متر ٣٢٦ الى المدينة فوقف بنا القطار ساعات في المحطات الكبرى وهي معان في الكيلومـتر ٤٨٩ وتبوك في الكيلومتر ٦٩٢ ومدائن صالح في الكيلومتر ٩٥٥ ثم المدينة في الكيلومـتر ١٣٠٣ وكانت المناظر تختلف علينا اختلاف الاهوية وكلما تقدمنا نحو الحجاز نشعر بالحرارة . وكان الوقت شهر آذار والطريق التي سلكها الخط الحجازي غريبة تدل على حـذق في الهندسة وتفنن . وهي لاتبعد كثيراً عن الطريق التي كان يسلكها الركب الشامي مدة ثلاثة عشر قرناً فيما نعلم اللهم الا ما اقتضته الهندسة من التعاريج كما شاهدنا ذلك في المحل المسمى ببطن الغول وغيره

والجبال غريبة التكوين في الطريق من بعد تبوك . فبعضها هرمي الشكل والاخر اسطواني وبعض متساوي الاضلاع ، وآخر زاوية منفرجـة او حادة او قائمة جعلت في بسائط منظمة منفرجة ، تسير ساعات بل اياماً بسير الجمال ، ولا ترى الا رمالاً وصخوراً وليس من الغابات الا الهشيم (الهيش) في بعض الاصقاع أو السلم والسمر وهما أكثر شجر الحجاز . والجبال مصهورة حمراء اوكما قال البكري في وصف الجبال بين مكة

والمدينة انها كلها تضرب الى الحمرة تنبت الغرب والغضور والثمام .

وان المرء لتحدثه نفسه وهو يطوي البيد طي السجل للكتاب من دمشق الى المدينة كيف كان الحجاج قبل السكة الحديدية يقطعون هذه الأودية والتلول والجبال والحرات والبرقات في ثلاثين يوماً على الجمال والبغال والخيل ، ومن يتعب وهو راكب في القطار الحديدي ثلاثة أيام كان حرياً بأن يهلك وهو على ظهور المطايا أو في المحفات والهوادج والمحارات ثلاثين يوماً يضاف اليها عشرة أخرى من المدينة الى مكة ولكن هي العادة تسهل الاشياء والتعب ينال الراكب في الايام الاولى ثم يدمن ويمرن .

أعلى نقطة في هذا الطريق العقبة تعلو ١١٥٣ متراً عن سطح البحر والمطالع تعلو ١١٤٢ متراً وفي بعض هذه الرمال يمكن انباط المياه وفي بعضها مياه يستقي منها العرب الرحالة هناك وابناء السبيل فان عشيرة الفقراء ومنازلها من تبوك الى مدائن صالح لا تقل عن ثمانمائة بيت وقبيلة بني عطية تنزل من المدور الى المعضم وهي تزيد عن الفي بيت فلو صرفت عناية الحكومة الى اسكان هاتين العشيرتين واعطائهما الاراضي مجاناً والصالح منها للزراعة كثير لما آتت بضع سنين إلا ودخلت هذه الموامي والمفازات في دور عمران تغني ساكنيها عن شن الغارات أو مد الأكف لأبناء السبيل في استوكاف الصدقات .

ومن آسف ما رأيناه في الخط الحديدي ولاسيا بعد بلاد الشام ان الاولاد والبنات والرجال والنساء يأتون يلتقطون ما تجود به أكف الراكبين من الخبز والادام يلتهمونه التهاماً وقد كاد يقتلهم الجوع كما صهرت شمس الحجاز ابدانهم ، وانك اذا اعطيتهم نقوداً لا ترضيهم بمثل ما يرضون بكسرات من الخبز القفار ، فكأن القفار لا ينفع فيها إلا الخبز القفار. وعندنا أن أعظم صدقة يتصدق بها قاصدو البقاع الطاهرة في السكة الحجازية أن يحملوا معهم ما تسمح به نفوسهم من الخبز والادام يوزعونه في المحطات على هؤلاء المحاويج المدقعين وذلك ريثما تصح عزيمة ولاة الأمر على تهيئة أسباب المعاش لهم .

ليس من الرأي السديد أن يعلم شعب أو أكثره على الشحاذة بل أن يعود العمل والاعتماد على النفس ولكن أرضاً لم تشفق عليها سماؤها حرية بان يكون لابنائها عناية من حكومتها فان معظم ما نسمع به من الغزوات والغارات منبعث عن جوع مذيب والجوع كافر ، يساق الغازون الى الموت أو ينالون ما يتبلغون به لسد رمقهم ، وكل من قطع الطريق من مكة فالمدينة فدمشق يحدثك من فقر عرب تلك الانحاء ما هو العجب العجاب .

ولا يستهان بعدد السكان فان جهينة وبلي والحويطات لاتقل عن سبعين الف رجل واكبر قبائل المدينة حرب وهي خمسون الفاً ففي الوجه وينبع والعلا والعقبة من اعمال المدينة مائتا الف محارب كما قدر بعض العارفين وفي قضاء السوارقية عرب مطير وهتيم . وهتيم بقدر مطير في المدد والعدد وحدود المدينة تمتد الى الفرع من جهة مكة وسكانها بادية كلهم وفيها قرى واسعة وقرى جوار المدينة اثنتا عشرة قرية . والفرع لاتحكمها مكة ولا المدينة وقد أنشأت الدولة العثمانية من العلا الى المدينة اثنتي عشرة ثكنة انفقت عليها ١٨٤ الف دينار عثماني ليستتب بها الأمن وقوت العرب كلهم الارز الهندي والدقيق والتمر واللبن والاقط وأقل العرب وأشرهم في اطراف هتيم ومطير . ومع كل مافي هذا القطر من الفقر تصدر منه بعض الحاصلات كالجلد والصمغ والتمر والاغنام والجمال والخيل والصوف والسمن . ولو مد الخط الحجازي الى مكة فالبحر الاحمر ومن مكة الى صنعاء اليمن لتضاعفت صادرات الحجاز واليمن والشام ووارداتها وأمن النـاس ولا سيما الحجاج من تعدي البدو بين الحرمين .

يعيش كثير من سكان المدينة ومكة من الصدقات والاوقاف ورواتب الحكومة وربما غالى بعضهم في هذا الاتكال ولكن كيف السبيل وتجارة بلادهم ضعيفة لاتروج الا أياماً مخصوصة من السنة في موسم الحج وتكاد زراعتهم تنحصر في بعض البساتين الضئيل ريعها التي تروى من مياه الآبار بالدلاء ثم ان العلوم التي تبعث الهمم على الأعمال الاقتصادية مفقودة من بلادهم لندرة من يعرفها منهم وبلادهم لا يدخلها إلا المسلمون وربما كان

فيمن يزورونها طبقات راقية ولا سيما الهنود والمصريون ولكنهم لا يطيلون مقامهم إلا بقدر ما يزورون أو يجيء الراقون منهم ولا عمل لهم إلا التجرد عن الدنيا لا يخالطون ولا يعاشرون .

لا جرم أن السكة الحجازية قد نفعت سكان يثرب كما نفعت سكان دمشق لان الزوار كثرعددهم على طول السنة والتجارة دبت فيها روح جديد في الجملة والاختلاط بالامم نبه أفكار سكان طيبة الاصليين الى قصورهم في ميدان العلم والتعلم .
نقول السكان الأصليون وعددهم لا يكاد يبلغ ثمن السكان والباقون شاميون ومصريون ونجديون وعراقيون وتركيون وجاويون ويمانيون وزنجباريون وسودانيون وجزائريون وتونسيون ومراكشيون وسنغاليون وصينيون وهنديون وقفقاسيون وطاغستانيون وجراكسة وأكرادوكرجيون وايرانيون وافغانيون وبخاريون وبلوجستانيون وغيرهم من شعوب الاسلام يأتون هذه البلدة الطيبة ينقطعون فيها للعبادة في مسجد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

للمسلمين معرضان دينيان مهمان احدهما وهو الاكبر في جبل عرفات كل سنة مرة والآخر في مسجدي مكة ويثرب طول السنة ولذلك تسمع فيهما معظم اللغات في آسيا وافريقية وترى فيهما كل السحنات من أبيض وأحمر وأصفر وأسود ممن تفرع من الجنسين الآري والسامي ولذلك تجد المدينة المنورة اقرب الى أن تكون برج بابل لاختلاط اللغات والسحنات والعادات منها الى أن تكون عربية وهي بلد النبي العربي وفي صميم ديار العرب . والمدينة بطبيعتها تشبه احدى مدن الأرياف في مصر لان نحو ربع سكانها مصريون صعايدة ونصف الربع مغاربة والباقون مجنسون على ما يخمن المخمنون لا على ما يحصي العادون . لان البلاد العثمانية كلها ليس فيها احصاء يعتمد عليه بل كثير من اصقاعها ليس له احصاء بالمرة كالحجاز مثلاً .

كنت نازلاً في الفندق الوحيد الكبير الذي بناه أحد الوطنيين خارج السور بالحجر الأسود طبقات وكلف نحو عشرين الف ليرة ، وهو على قيد غلوة من سور البلد ، أسهر عند بعض الأحباب الى أول الهزيع الثاني من الليل ، ومع أن الحكومة الاتحادية كانت أصحبتني بلاطلب مني بشرطيين يراقبان أعمالي ارهاباً لي ،

فان أصحابي كانوا يتكلفون ايصالي الى النزل كل ليلة خوفاً من اللصوص ، أما أنا فكنت أعد الخطب سهلاً مع قطاع السابلة أكثر من الخطب باولئك اللصوص الطغام في صور حكام ومن يكتفي بالمال والمتاع ويعفو عن قطع الأعناق لايسوءك بقدر من يسرق ويقتل ، والقتل أنواع ومنه القتل المعنوي الذي ارتكبته عصابات الهول والارهاب وبلغت القحة في استعماله حتى في البلد الطاهر في حين أن من دخله كان آمناً .

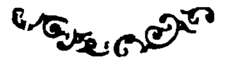
تأملت كثيراً في مسجد الرسول أثناء الصلوات وغيرها فما رأيت الاخشوعاً من جميع من يختلفون الى الحضرة النبوية الشريفة ولا سيما من غير الناطقين بالعربية فقلت في نفسي — وقد سمعت خطبة الجمعة وهي لاتخرج عن حد التزهيد في العمل والاعراض عن الدنيا كسائر خطب الجوامع في بلاد الاسلام خلافاً لما كانت عليه سنة السلف الصالح ولكن « لبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً » كما قال علي كرم الله وجهه فوارحمتاه لغربة الاسلام .

لو أدار هذه القوة المعنوية رجال دين سليم وعقل راجح لكانت فوائد هذا الاجتماع من حيث الدين والمدنية أضعاف أضعاف فوائده اليوم فكما أرسل عليه الصلاة والسلام شعاعاً من نور حكمته قلب به العالم وغير بشريعته الطاهرة الارجاء هكذا يحمل دعاة دينه والمؤتمنون على تراثه وسياسة المهتدين بهديه ما تستنير به العقول في هذا المجمع ويعم ضياءُ سكان الخافقين وهذا من القوى المهمة التي أضعناها وكم أضعنا مواهب وقوى .

وأهم خزائن الكتب في المدينة خزانتان خزانة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها تافهة لا شأن لها وأكثرها من المشهور ونظامها وسط . وأحسنها وربما كانت خير خزانة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت أفندي ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين كأن تجد الكتاب ذا العشرين جلداً مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد أو مجلدين وفي هذه الخزانة من التسهيل من المطالعين والعناية براحتهم ما لا تكاد تجد مثله في دار الكتب بمصر وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقه في سبله واختيار القيمين عليها وادرار المشاهرات الكافية عليهم .

وبعد فان مسجد الرسول على كثرة عناية ملوك الاسلام بأمره في كل دولة وحكومة ليس من السعة وجودة البنيان باكثر من جامع السلطان احمد أو أياصوفية من جوامع الاستانة وان يشبههما في طرز بنائهما فهو أقل سعة من جامع الازهر بالقاهرة والجامع الأموي بدمشق . كان هذا المسجد الشريف والمسلمون قليل عددهم لا يتجاوزون عشرات الالوف ثم كبره بعض الملوك بحسب ما اقتضت الحال ، ولو نظرنا اليوم الى عددالمسلمين وهم لايقلون عن ٣٠٠ مليوناً وعدد من يحج ويزور منهم كل سنة لاقتضى لنا أن نجعل سعة الحرم المدني اربعة أضعاف ما هو الآن على الاقل ونزينه بجميع أسباب المدنية الحديثة التي لا يحرمها الشرع ولا تنم عن اسراف .

قال ابن قتيبة ان مسجد المدينة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنياً بلبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبوبكر شيئاً وزاد فيه عمر ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة وبالفضة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ووسعه المهدي سنة ستين ومائة وزاد فيه المأمون زيادة كثيرة ووسعه .



بطء الادارة

قلت من تقرير قدمته لرئاسة حكومة دمشق (سنة ١٩١٩–١٩٢٠)
أفليس من الغرابة بمكان أن ادارة المعارف منذ انشئت لم يتيسر لها أن تشيد أبنية جديدة لمدارسها اللهم الا بناء مدرسة الحقوق في دمشق وبعض أبنية ضئيلة لا يؤبه لها في بعض المدن والقصبات . والمدارس حتى في العاصمة ماتقيم في أماكن غير صحية في الجملة ومن مدارس القرى ما يشبه سجون القرون السالفة لانوافذ ولا طيقان ولاشمس ولا هواء ولا ساحة للعب ولا شيء من أمور الصحة والمروضات للذهن والعيون والداعيات الى التعلم . ومازالت ادارة المعارف مع هذا تصرف كل سنة مبلغاً لا يستهان به لقاء أجور منازل تقيم فيها مدارسها لو صرفت على اقامة ابنية للمدارس وحمل الاهلون على المعاونة في بنائها بحسب قانون التعليم الابتدائي لاصبحت اليوم معظم مدارسنا تأوي الى دور صحية خاصة بها تزينها وتحسنها وتنقشها وترصفها كما تشاء وتشاء المدنية الحديثة .

ان نقل المدرسة كل سنة من مكان الى آخر يضطر ادارتها الى صرف مبلغ ليس بقليل تنفقه على النقل وتشتغل ادارتها بتعمير ما خرب وترميم ما لديها من أثاث فضلاً عن تشتت الطلبة هذا اذا وجد محل مناسب من بعض الوجوه لاتخاذه مدرسة فان ادارة المعارف تبحث منذ ثلاثة أشهر عن دار تجعل فيها المدرسة النموذجية النازلة في المدرسة الظاهرية بدمشق التي جعلت دار الكتب العربية ولما تجد حتى الساعة في ذاك الحي العامر مكاناً يناسبها مع ما أغلت من الاجور لأن من الناس من لا يرضون أن يكروا دورهم لتجعل مدارس مهما أعطوا من الأجر الفاحش مخافة تخريبها خصوصاً ومعظم البيوت من طين وخشب يسرع اليها البلى أكثر من دور الحجر القديمة .

فالواجب قبل كل شيء ان تفتح الحكومة اعتماداً كبيراً من المال كل سنة تخصه لاقامة أَبنية جديدة صحية للمدارس واصلاح الموجود منها وبذلك تخطو

المعارف خطوة كبرى الى الامام فتجهز هذه الديار بالجهاز الذي يلزمها من المعاهد في بضع سنين .

قلت وبعد مرور نحو تسع وعشرين سنة لم تختلف الحال عما كانت وما بني من المدارس حتى الآن مع ضخامة الموازنة لم يبلغ واحداً من عشرين من المطلوب لبلاد الجمهورية وهكذا كسل الشرقيين .

اسقاط المجمع العلمي

هـذه صورة ما كتبته إلى وزير من وزرائنا في ١٠ شوال ١٣٣٨ - ٢٥ حزيران ١٩٢٠ لما قاوم المجمع العلمي العربي

كأن من امارات الوطنية الكذابة ، ان يموه دعاتها المتجرون بها في كل ما يعرض لهم مما لا ينطبق مع هوى نفوسهم . عرفت من اخلاقك منذ عرفتك ايام كنت تغشى مجلسي مستفيداً انك مفطور على الحسد ، حريص على الشهرة ، تتوخاها من كل طريق ، وتعد من الوسائل إلى ذلك الغض ممن ذهبوا بفضلها . ولقد كنت كلما أُمني النفس باستصلاحك في هذا الشأن بالتجربة والقدوة أَرى تلك الصفات تزيد فيك على الايام تأصلًا . وبعد فما كان يخيل لي انك تقوم في مجلس الوزراء وتناقش في مسألة ارجاع المجمع العلمي العربي تحاول بشقاشقك المعهودة ان تسلبه ما تم على يده من الفوائد المادية والمعنوية وتنكر ما قام به على الأقل من انشاء داري الكتب والآثار مدعياً ان المصلحة مراعاة الاقتصاد في مثل هـذه الأحوال وكان الأولى بهذه العناية لو انصفت وزارتك التي لا تحتاج لكل هذا الاسراف المضحك المبكي .

وكيف لعمري تزعم ان المجمع العلمي غير مفيد وقد كنت قبل بضعة اشهر تتمنى لو تعد عضواً فيه . لو كنت ممن تحب بلادك حقاً وصدقاً لوقفت غير موقفك هذا وراعيت العدل فطلبت بقاء مجمعنا على أن يتولى

رئاسته غيري اذا كنت تراني غير كفوء لها وايجاد رجل له لا يصعب على من استتبع الغاغة وعدم جماع القوى وادعى أن الفضل مقصور عليهم . لست آسفاً للاثر الناتج عن سعيك في اقصائي عن رئاسة المجمع فان لي كل حين في داري وحقلي من صفوة الأصدقاء مجمعاً مستقلاً ينفض عن فوائد جمة دع من أفاوضهم الحين بعد الآخر من علماء المشرقيات في الشرق والغرب ، وما كنت لأجنح الى الاتكال وأقيد النفس بقيود الموظفين الثقيل لقاء عرض قليل .

ولقد أكد حتى خصومي ان المجمع يطلبني أكثر مما أطلبه وهم على مثل اليقين في غنائه للامة ، أما أنت فتقصد الى اقناع من حولك كما قلت لي ذلك مرة انني خدعت اوربا بهذا المجمع وهذا جلّ ما أسعى اليه . أنا لم أخدع أوربا بل جهدت لافهامها اننا أمة ذات مجد قديم تريد أحياءه فخدمت بذلك الحكومة العربية لانني حسنت سمعتها مع اخواني رجال المجمع وخدمنا العلم المجرد عن الغايات البريء من وصمة التعصبات ومؤثرات المعتقدات .

قحة دعت صاحبها الى التمويه في البديهيات ، وأنانية مجسمة شأنها التبجح وانكار المحسوسات ، كان من أثرها ايثار الجهل لهذه البلاد التعسة التي هي في أشد الحاجة لمن يدفعها ولو خطوة ضئيلة الى الأمام حتى يثأر ذو ضغينة لنفسه من أقدم من عرفوه ، وما قط أثرت عنهم اساءة اليه بيد أن الحقد أكل قلبه فراح يعبث بشخصياتهم ويرمي بضاعتهم بالكساد .

بهرك المنصب فأسأت حتى الى أقرب الناس اليك ممن صبروا على سوء العشرة استبقاء للصداقة ، وما أنس لا أنس ما كنت تمثله من الأدوار المحزنة فتحاول اقناعي بمضار أمر ولا تستحي من الغد أن تزينه للابصار وتأتي مثله من دون حرج اذا كان فيه حظ نفسك فتدعوني الى ما كنت عنه بالأمس تنهاني .

نعم اننا ممن لم تخف عليهم قصة ذاك الكرسي الذي أجلسوك عليه الآن فاذهلك عن كل شيء ورأيت من أسباب بقائه لك أن تتظاهر بالفناء في محبة عظيمنا الذي كنت تلعنه أمس علناً حتى أحرجت الصدور وقال لك في النادي العربي منذ أشهر أن الامة لاترقى ، حتى يشتغل من كان مثلك بما يعلم ، يقصد بهذا أن السياسة لم تخلق لها ولا استعددت للخوض في مضمارها . ضعيف المدارك لعمر الحق من

يخدعه بريق المظاهر الموقتة الخلابة ومن يؤخذ بسلطان العواطف ولا يجعل للعقل عليه سلطاناً وستريك الأيام نتائج أعمالك محسوسة ومن يعش يرَ .

لانعاش اللغة العربية

أَخذ تقرير لجنة تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة بحظ وافر من الاجادة ، وإذا جرى العمل به يسهل تَلَقّـُفُ العربية ، ويتم لها بعض الاصلاح الذي طالما تمناه لها عشاقها وخدّامها .

إن حذف بعض ما لا يتعلق على حفظه كبيرُ أَمر من النحو والصرف والبلاغة خطوة كبرى في تبسيط اللغة ، وقد رأينا الكتب المدرسية في العهد الأخير ، على كثرة العناية بتحريرها لا تزال تحمل تعليلات وتطويلات قـد يستغنى عن بعضها جمهرة الطلاب ، بيد أَن كثرة القواعد لم تعق اللغة عن الانبعاث اللازم بقدر ماعاقها عدم العناية بالجزء العملي منها ، وهذا لا يتم إلا بان يسمع الناشيء هذه اللغة منذ أول عهده بالمدارس خالصة من العجمة ريثما يعم التعليم فيسمعها من أَبيه وأمه فصيحة لا شوب فيها ، وأول درجات الوصول الى هذا التطور في تعليم اللغة يجب ألا يتكلم المدرسون والمدرسات جماعات المتعلمين ، من حدائق الأطفال الى آخر مراحل التعليم ، بغـير اللغة الفصحى . وهذا يسود منذ الآن إذا حُظر على أَصحاب التعليم التكلم باللغة الدارجة ، وأُريد الضعيف منهم في العربية على حضور محـاضرات في بعض فصول السنة ليسدّ بما يتعلمه بعض عجزه ، ولا يرقى من المدرسين في درجته إلا من أبان عن كفاءة في اتقان التخاطب والتكاتب بهذه اللغة، ولو كان معلم تصوير ورياضة بدنية . ويكتفى بتعليم اللغة الاجنبية من أول سني الدراسة الثانوية ، ولا يضير الأطفال تأخرهم في تحصيلها وهم في أَشد الحاجة إلى احكام لغتهم أولاً .

ثم إن الواجب على الحكومة أن تُعنى باصلاح لغة دواوينها تُنَقّيها من كل غريب ودخيل ما أمكن ، وتشدد في كل ما ينشر ويعلن الا باللغة الفصحى ، ولا تسمح بصدور صحف وكتب باللغة العامية ، وتمنع دور التمثيل والسينما والراديو من نقل كلام لا تكون الفصحى سُداه ولُحمته ، هذا على أن تتوخى السهولة في التعبير الى الحد الاقصى .

والحق ما قالته اللجنة من أن أدبنا محتاج الى كتب تلائم طور الشباب وما أصابت شاكلة الصواب في قولها أن الواجب ان نترجم هذه الكتب عن اللغات الاجنبية ، والترجمة لا تفيد في هذا الباب كثيراً لانها تنقل لنا أوضاع أُمة تخالف أمتنا بروحها وثقافتها واجتماعها وحياتها وتاريخها وأدبها فالأولى اذاً أَن نأخذ باساليب الأجانب ونطبقها على لغتنا ونستمد من أدبنا ما يهذّب ويعلِّم وما اخال أنه يصعب على أرباب الاقلام منا ، متى أَخذت وزارة المعارف بأيديهم ، أن يضعوا لناشئتنا ما يلائم طباعهم من الكتب والرسائل ، ويجري مع مستواهم العلمي والأدبي ويحبب اليهم أدب قومهم المملوء بكل طريف ممتع .

اذا تحقق هذا الاصلاح لا تنقضي ثلاثون سَنة حتى تكون الفصحى في كل لسان ، وترسخ ملكتها في قلوب العامة والخاصة ، ويسمعها الناس في البيوت تكلم بها السيدة خادمتها ، وفي الشارع يتخاطب بها الرجل المثقف مع معامله . وفي الحقل يتفصح بها المزارع وفلاحه . وما دام امتزاج الشعوب العربية بعضها ببعض يزيد يوماً فيوماً ، وهذا الراديو تصل موجاته الى الوف من الكيلومترات يحمل ضروب النبرات والأصوات وينشر كل المعاني فان هذا الاصلاح يتم على أيسر حال وفي زمن قريب ، كما تم للعربية أن نهضت في الخمسين السنة الاخيرة نهضة ما كان يرجى بعضها فاصبحت على الألسن والأقلام عذبة سائغة ، ولو راعى الخواص اليوم الاعراب في كلامهم بعض المراعاة لرجعوا بها الى قرون المجد العربي ، ولانهزمت العامية أمامها بصنعهم آخر الدهر .

اني ما زلت اسمع من زمن طويل من الغرباء ويتابعهم المقلدون من

ابناء العرب ان اللغة العربية صعبة جداً وأن لغات الأجانب اسهل وأقل كلفة ، ومعظم من يقول بهذا القول هم ممن قضوا سنين طويلة في تلقف احدى اللغات الأجنبية ، وصرفوا وكدهم في أخذها عن أهلها بأساليبهم المستحدثة السهلة، وما أعطوا العربية بعض عنايتهم، وما منحوها كلهم لتمنحهم بعضها ، وهم لو صرفوا بعض ما صرفوه من الوقت في تعلم لغتهم لكانت درجتهم أرقى بكثير من درجتهم في تلك اللغة التي هيأ مدرسوها لها جميع ضروب الرغبات .

اللغة العربية ، ولا نكران للحق ، واسعة بمفرداتها ، لكن الجمهور الذي يحاول ان يكتب ويخطب فيها ، وان يستظهر من الفاظها مقداراً لاغنية عنه لكل من يدرس لغة من اللغات ، وهو لا يزيد على خمسة آلاف لفظة ، هذه اللغة لا تكلف ، من تصح عزيمته على تعلمها من المشقة ، ما تكلفه اللغات الأجنبية لكل راغب في تعلمها ، حتى ولو كان من صميم ابنائها . هذا على شرط الاستغناء بعض الشيء عن القواعد والالتجاء إلى الطرق العملية في تدارسها ، والسير على طريقة اهل العصر الحاضر في تعلم لغات العلم الحديثة ، وحذف ما يقال له علم البيان والبديع ، فإن الناس كانوا يبرّزون في منظوم هذه اللغة ومنثورها وهم خلو من معرفة المعاني والبيان وهذا البديع المريع .

وبعد فقد ثبت بالاختبار في كل الاعصار والأمصار ، ان العمل هو الطريقة المثلى في اتقان اللغات ، ورأينا الجاحظ سيد البلغاء يعلمنا في كتابه البيان والتبيين بالشواهد لا بالقواعد ويقول لطالب النحو في كتابه رياضة الصبي : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشيء إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردّ عليه من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع » وأستدللنا بذلك أن الشكوى من تطويل النحو قديمة يردّ عهدها الى القرن الثاني وان مثل الجاحظ بعلمه وعقله يُرذِلها ويدعو الى الاكتفاء باليسير من هذا العلم اه .

هذا ما كتبته عملا باشارة احد جهابذة وزراء المعارف المصرية بهي الدين باشا بركات ، والى الآن لم ينفذ سوى اشياء قليلة منه لاتوازي بعض رغبات اللجان وأرباب الاختصاص ، وما اكثرها واكثرهم في مصر ، والزبدة أبداً قليلة لا توازي بعض ما ينقق من المال ، وما شغلت به اذهان الرجال ، كأن الشرق كتب عليه ان يقول ولا يفعل .

الطب حبيب الله

قيل ان ربح سورية كل سنة من الحشيش ثمانون مليون ليرة سورية (ثمانية ملايين جنيه مصري) هذا والقانون يحظر زراعته والاتجار به وظهر أن من أعيان الزراع من يزرعونه ويجعلونه تجارتهم يساعدهم على ذلك ما لهم من النفوذ في البر والمدن ، ومنهم من جمعوا منه ثروات وما تعففوا عن تجارة ضارة بالعقول . وكانت مصر وسدت مكافحة الحشيش والمخدرات عامة إلى رسل باشا مدير الأمن العام فحاربها حرباً عواناً وأبان عن غيرة على مصلحة المصريين وهو يعرف أن من رجال امته من يهربون الحشيش الى مصر مغتنمين فرصة وجودهم في الخدمات العسكريه والمدنية . ولقد خطب رسل باشا في مؤتمر الافيون في سويسرا مرة أن وزيراً سورياً يزرع الحشيش ويتجر به وقد كتبنا الى المفوض السامي في سورية ولبنان نلفت نظره الى ما يجني فاعل ذلك على الانسانية فلم نأخذ جواباً ، والغريب أن الجاني مازال في منصبه . وأغرب الغريب أن يجيء رسل باشا الى مقر خصمه ويضطر أن يمد يده اليه يصافحه . وفي السياسة قد يصافح المرء قاتل أبيه ويبسم لمن يبيت له المكايد . والانكليز جدُّ حراص على حرية التجارة وقد عهد أن سلحوا بالسلاح اللازم جماعة هم حلفاؤهم في الظاهر بواسطة تجارهم وما وجدوا في ذلك حرجاً كما حاربوا الصين لأنها حرمت تجارة الأفيون فاستحلوا قتل مئات الألوف من الخلق في سبيل رواج تجارتهم .

السكوت من ذهب

ظللت أؤدي ايجار مزرعتنا كل سنة الى ان ايقنت ان المطالب بالوقف لايحق له اخذ شيء منا مادامت أرضنا اميرية تدفع خراجاً وعشراً . وما دام ماسمي وقفاً هو اقطاع ليس الا . ولما امتنعت عن الاداء امتنع اهل القرية عن تسديد ماكانوا يغرمونه ايجاراً سنوياً اذا قطعوا حطباً من أرضهم . وعلمني أحد اصحابي وكان مارس القضاء الشرعي كثيراً أن أقول كلما دعيت الى المحكمة الجملة الآتية : أرضنا أَميرية ندفع عنها الأموال والعشور ، ابتاعها أبي بماله ، وبأيدينا سندات تمليك ، وما أبيعه من حطبها هو مما غرسه أبي وغرسته أنا . » فكان صاحب الوقف اذا قرؤا له ما كتبت تغيب طلعته عنا عشر سنين ثم يعود فيطالب بوقفه في صورة أخرى ، ونرده بكتابة تلك الجملة الذهبية في سجل المحكمة .

وقدر الله ودخلت في السياسة فطبقت فيها بعض مااستفدته في مدرسة الحياة من التجارب . واتفق ان بدا لرئيس وزارتنا أن ينحيني وينحي رصيفاً لي فلم ير أنجع من أَن يضع علينا من الوزراء من ينبش بمهارته ماتكنه صدورنا نحوه ، فما رأيت احسن من أن أنسج على منوال تلك الجملة التي تعلمتها من المحامي الشرعي وانقذتني على ايجازها من تعجيز المطالب بالوقف ، فكان جوابي كلما سئلت عن الرئيس جملة سهلة لطيفة وهي ان الرئيس تفضل واستدعانا الى معاونته في وزارته فله الشكر على ثقته بنا ، فاذا رأى أن يستعيض عنا باناس اكفأ منا فانا مستعد للاستقالة لافرغ كرسي الوزارة لغيري لأني أريد نجاح الرئيس وبنجاحه نجاح بلادنا ، وارجع الى بيتي وانصرف الى شؤوني الخاصة .

وأَما زميلي فكان يطلق لسانه في الرئيس وأَبيه ويذكر افضاله عليه في معاونته بالمال ليصل الى الحكم ، ويتبع ذلك بسباب وقذف ليس من شأن

من يشتغل بالعموميات ان يعود لسانه التفوه بمثلها، ويذكر أموراً تسقط من قالها قبل ان تسقط من قيلت فيه . كنت ألقي هذا الدرس الوجيز ست مرات في الأسبوع ، والازمة الوزارية دامت مدة ، وما غيرت فيه ولا بدلت ، وكذلك كان من صاحبي ماغير شيئاً ولا بدل . وانتهت الأزمة باخراجه من الوزارة متهماً بأمور ربما كان منها بريئاً ، نسبت اليه ليرضى أهل الحل والعقد بتنحيته ، وأنابقيت في الوزارة ، وكان المظنون اني اقرب الى الاقالة .

وبهذه الألعوبة عرفت حكمة ماحفظته في الكتاب (سلامة الانسان في حفظ اللسان) وكررت درساً في اخلاقنا أحببت نقله الى أبنائنا ، وثبت لي ان من الأمور مايحل بعضه بعضاً لتشابه الاشياء ومنها مايقاس على غيره وان الاعتماد على الايجاز في معظم المواقف ادعى الى السلامة ، والمكثار عرضة للعثار ، وربما كان في الثرثرة خرم يدخل منه الخصم فيربح ، والمرء مأخوذ باقراره .

الالقاب والرتب والاوسمة

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا	من الكُنَى ومن الألقاب أبواباً
ولقّبوا رجلًا لو عاش أولهم	ماكان يرضى به للحش بواباً
قلّ الدراهم في كفي خليفتنا	هذا فأنفق في الأقوام القابا

(أبو بكر الخوارزمي)

الحش (لامؤاخذة) مثلثة ، المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين .
القاموس المحيط

كان مما اخترعه بنو العباس [1] أيام ضعفهم اطلاق القاب على من كان مقبولاً في دولتهم ، وجرت أكثر الدول بعدهم على طريقتهم حتى إذا

(١) راجع ماكتبناه في الالقاب والرتب في الجزء الثاني من كتابنا (الاسلام والحضارة العربية) ص ٢٦١ - ٢٦٣ و ص ٢٩٩

كانت الدولة العثمانية غلت في اعطاء الرتب والاوسمة والألقاب غلواً لم يسبق له نظير ، فدخلت مسألة التشريف في طور من الهزل غريب ، والأمور تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وربما كانت نافعة اذا جرى الاقتصاد فيها ، ولا تلبث أن تتوسع في النهاية وتكون منها مضرة ، وعلى الالقاب والأوسمة تصدق هذه القاعدة . وظل العثمانيون على هذه الطريقة في رفع الناس وخفضهم ، يعدّلون في مصطلحاتهم ويزيدون وينقصون ، حتى إذا كان عهد عبد الحميد الثاني بلغ أمر الرتب والالقاب حد السخف فزادت الاخلاق فساداً وشغل الناس بالعبث وألقيت بينهم المنافسة في أمور لا نفع فيها .

وورثت مصر هذه العادة الضارة من دولة العثمانيين وراجت في أيام الخديوي عباس حلمي الثاني رواجاً مضحكاً حتى كان لها سماسرة يجتعلون جعالات كبيرة ممن يحرص على التشرف بها ، ولا نزال نرى في قلوب المغرمين بهذه الأمور في مصر بقايا يرثى لحال من أصيبوا بها . أما مملكة شرقي الأردن الصغيرة فأوغلت في منح لقب الباشا حتى حازه عشرات من أهل الطبقات الثلاث وعدّ من حسنات العراق والشام (سورية ولبنان وفلسطين) الغاؤها الألقاب وقضاؤها على الرتب وقد اخترع بعض حكوماتها اوسمة تجود بها على الاجانب وعلى من ترضى عنه لخدمة أسداها لوطنه . ويجنح بعض العقلاء في الدولة المصرية اليوم الى الغاء الرتب والالقاب على أن لا يبقى فيها إلا رتب الجندية لتنجو مصر من مصطلح يفسد التربية ويعلم الناس التحيل والزهد في الكرامة بما لا ينطبق مع جلال مدنية هذا القرن وترقي عقول أهله .

ولقد دخل التفاخر بالألقاب والرتب والأوسمة في بعض ممالك الغرب أيضاً في دور سخافة عجيب حتى صرنا نرى الممالك التي لا تعرف الألقاب كسويسرا مثلًا أرقى بأخلافها من فرنسا واسبانيا وقد أوغلتا أي ايغال في هذا الشأن . وهكذا الحال في جميع الدول الجارية على قوانين قديمة

بالية يعبث ولاة أمرها بعقول رعاياهم ويشغلونهم بامور تليق بالاطفال لا بالرجال .

بعد كتابة هذا اطلعت على بلاغ عام نشرته حكومة الجمهورية السورية على دواوينها واليكه بنصه :

جرت العادة ان تضاف الى الأسماء ألقاب أعجمية ولما كان من المستحسن صرف النظر عن هذه العادة نرجو الرجوع الى استعمال كلمة السيد بدلاً من كل مايقابلها من الألفاظ الأخرى ودمتم .

رئيس مجلس الوزراء

سعد الله الجابري

وكان الاكتفاء بلفظ السيد قرره مجلس الشورى السوري بعد خروج الأتراك من ديار الشام بأشهر قليلة فاستراح أهل البصيرة من هذه العادة وبقيت الحجاز ونجد واليمن الى اليوم على عادة العرب في اغفال هذا الضرب من التشريف .

ذكرت وأنا أكتب هذا كتاباً خاصاً اطلعني عليه أحد وزراء العدل في عهد الانتداب جاء من قاض جركسي الجنس في حمص أطلق فيه انواع الألقاب على وزيره فكان يقول له تارة فخامتكم ودولتكم ومعاليكم وسعادتكم وعزتكم ورفعتكم ، وطوراً يحليه بالألقاب المصطلح عليها في تلقيب رجال الدين فيقول له سماحتكم فضيلتكم غبطتكم نيافتكم سيادتكم بحيث لم يبق لقباً من الألقاب الا منحه لمخاطبه . فان كان هذا القاضي لايعرف الفرق بين هذه الألقاب فهو أبله لايصح أن يقضي بين المتخاصمين وان كان يريد الهزء بصاحبه فهي جرأة منه يستحق عليها الترقية في نظري لأن هذا شيء جدير بالهزء ولا اقول انه غير مؤدب بل أصفه بأنه فكه مداعب .

شاعر المهجر

أقامت وزارة معارف سورية برعاية رئيس جمهوريتها حفلة تكريم في الجامعة السورية يوم ٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ودعتني الى الاشتراك فيها فقلت ما يأتي :

الى ضيف سورية العزيز .

الى الشاعر الاجتماعي الكبير ايليا أبو ماضي .

اذا شهدت الحكومة والشعب هنا يحرصان كل الحرص على الاحتفال بك فـذلك لأنك أهل لكل تعظيم وتكريم . وكل من قرأ شيئاً من شعرك العذب أو اطلع على أفكارك العالية منثورة يعجب بك ويعدّ ما يقام لك في كل مكان من بلادك هو بعض ما يجب لك عليها فأهلاً وسهلاً بالعربي المخلص أهلاً بالرجل الذي بيّض الوجوه ورفع الرؤوس .

وانا لنرجو أن تطيل مقامك بين أظهرنا ليتسنى لك الاختلاط بكل الطبقات فتحقق بنفسك مبلغ اعجاب السوريين بك وما أنت في الحق مفخرة السوريين فقط بما بذلت من جهد للنهوض بهم بل أنت مفخرة من مفاخر العرب في عصرنا ولذلك كان من الانصاف أن يكتب الى جانب جوازك الذي تحمله لتجتاز الحدود (جنسيته : عربي) فقط .

أحييك وأحيي بشخصك الكريم مئات الألوف من اخواننا المهاجرين الأعزة ممن تركتهم وراءك وهم يتلهفون شوقاً لوطنهم الاول وقد اثبتوا في مواطن كثيرة حرصهم على قوميتهم وتناغيهم بوطنيتهم وعربيتهم . ولطالما استحليت ممن أسعدني الحظ بالاجتماع اليهم ألمهم من ان من أولادهم من حرموا معرفة اللغة العربية لقلة المدارس ورأيتهم كيف يعنون في شمالي اميركا وفي جنوبها بتأسيس معاهد لتلقين لغتهم ومنهم من كان يرسل ولده

الى الديار الشامية ليحكم فيها لغة ابيه وامه . كل ذلك حتى لا يقطعوا صلاتهم بأهلهم ووطنهم وهم قادرون على ان يبقوها مطردة دائمة .

ايها الأستاذ العظيم .

متى عدت بالسلامة الى اهلك وراء البحار قل لهم ان سورية ولبنان اليوم غيرهما بالأمس وان النظام الجمهوري قائم فيها على مايحب انصار الديمقراطية وان حركة الأعمال الزراعية والصناعية سائرة سيراً لم يعهد لها مثله في الماضي ، قل لهم ان عشرات من المعامل أُنشئت في عهد الحرية على مثال مافي الغرب منها وان الناس يعملون ويكسبون ويغنون وينعمون بما اتت به الحضارة الحديثة ، فأقاموا الدور المنجدة والقصور المشيدة والمصانع الجميلة والمرافق العظيمة مما لايقل بعظمته عما عند الغربيين منها ، قل لهم ان قبس المدنيـة سرى الى البوادي سرايته الى الحواضر ، وان السكان يتمززون ماحملت من مباهج ويتذوقونها لايخافون الا انفسهم ويعيشون بسلام كلهم . قل لهم ان الوطنية اتت على ما كان في بعض الأزمـان من عصبية جاهلية وان كل وطني اخذ يدرك ان اجتماع القوى المتفرقة اجدى من عمل فردي ضعيف ، قل لهم وانت خير رسول ان بلادنا هذه تتسع لايواء عشرة ملايين من الأنفس على الأقل وان الربح من استثمارها واستعمارها لا يقل عما يربحه المجدّ في خير الأقاليم . حدثهم أن عندنا أراضي كأراضي الرحبة شرقي الصفا مثلًا تعطي حبتها مئة حبة من غير ماحرث ولا كرث وان مناخ أرضنا يصلح لمعظم حاصلات الأرض وشجرها وان هناك أنهاراً عظيمة يمكن استخدامها للري على أيسر سبيل . وكل ذلك يحتاج الى رؤوس اموال اذا اجتمع بعض ما لدينا منها هنا ببعض ما لدى اخواننا في المهجر كان منها ما يأتي بالعجائب . ورابطة المال من أقوى روابط البشر .

يا أخي إيليا :

أكثر الناس لايعرفون من بلادهم الا ما نظروه في الخريطة وتأملوه في كتب الجغرافيا ، معلومات لا تشبع من يريد كنه الأشياء وان يتعرف

الى حقيقة الواقع فهل لك أن تقترح تأليف لجنة من مهاجري الشمال والجنوب على أن يكون فيهم الزارع والصانع والتاجر والمهندس والكيميائي والطبيب ليرحلوا الى سورية ولبنان في الربيع القادم ويبحثوا بأنفسهم عما في أرضنا من خيرات مدفونة تعوزها العناية حتى تغني من يستثمرها . وأنا على ثقة أن مثل هذه الرحلة يأتي منها خير كثير ولا يقوّي حب أرض في النفوس أكثر من رؤيتها ودرس خصائصها وميزاتها .

قالت العرب : أرسل حكيماً ولاتوصه . وقالت أيضاً : أرسل حكيماً وأوصه ونحن نقول بالمثل الثاني نرسلك الى العرب في الأميركتين معتمدين على وطنيتك الباهرة ونفسك الحساسة الشاعرة ونوصيك وان كنت في غير حاجة إلى توصية أن تصدق اخوانك الخبر وقل لهم طالت غربتكم ووطنكم في أشد شوق اليكم حياهم الله وبياهم وجعل التوفيق حليفك في حلك ومرتحلك .

شؤون

حدث ان اجتمعت الى احد رجال الدولة العثمانية اتحدث اليه في أمر يهمني فراح يتكلم ويحاول اشغالي بحديث تافه من مثل البحث عن صفاء الجو وجودة الموسم ، فرأيت أن اسأله في موضوع قريب من موضوعي كأن اسأله عن شخص في قصته شبه من القصة التي أحاول الوصول الى معرفتها وذلك على سبيل الهزل ، فتبدر على لسانه كلمات تنفعني في تلمسي ماأبغي الوقوف عليه ، واضفت الى قوله اشياء من عندي وتم الخبر المطلوب ونشرته في الجريدة فقامت قيامة محدثي واستغرب كيف وصلت الى معرفة ما يعده من الأسرار التي لم يطلع عليها انسان . وربما عاد على كاتم أسراره فقرعه على كشف ماستره بزعمه عن الشمس والقمر .

الصحافيون من اقدر الناس على استقصاء الأخبار اذا نووا كشفها ، وأنا لم استعمل هذا الاسلوب مع الوالي الغبيّ الا مرة واحدة غفر الله لي .

بعض الناس لا يحب أن يسمع مديحه ويعد مادحه متزيداً مهما اعتدل في مدحه ، وربما فاته بعض نواح ترفع قدر صاحبه الى اكثر مما قال فيه وانا خلقت من الكارهين للمدح لعلمي بعدم فائدته للممدوح ولا للسامعين والقائلين . وما فتىء بعض من يحسنون الظن بي يريدونني منذ اعوام على الرضا باقامة حفلة لي يذكرون فيها ما كان حظي من المشاركة في خدمة الآداب وأنا أجيبهم ان هذا لا يليق وانا حي ومن بعدي انتم احرار لتقولوا ما يرضيكم .

* * * *

كان لي صديق من الأعيان على جانب من الوفاء والرزانة متوسط الذكاء ، وكان كتوماً جداً يؤمن بقاعدة (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) عقد عقده على ثيب حسناء وهو في سن الشيخوخة دون أن يستشير أحداً من أصحابه وفيهم من لا يخفي عنه ما يعرف من سيرتها اذا استشاره . فرأى صاحبي من المهارة أن يكتم كل ما يحاول اتمامه حتى عن أصدق أصدقائه ، ولسان حاله : اذا أنا لم ابادر الى الاقتران بمن ظفرت بها افلتت مني واستمتع بها غيري . وكان زواجه العامل الأكبر في خراب بيته في مادياته ومعنوياته .

* * * *

قد يغفل المرء أو يتغافل عن شيء إذا حوسب عليه يخرج بعد الحساب خاسراً ويكون من ذلك عبث بالحق البين وقصور بما يوجبه العدل والانصاف. حدث أن ألقى صديقي الأمير شكيب ارسلان محاضرة في دار المجمع العلمي العربي في نهضة الأدب في الشام على العهد الأخير عرض فيها بذكر من قاموا بكبر هذا الأمر من الصغار والكبار وكنت حاضراً فلاحظ بعضهم أن الأمير لم يذكر المجمع وهو من أعضائه ، ولم يقدر ما كان له من يد في نهضة العلم العربي . وقالوا انه كان من باب اللياقة ان يذكر صديقه رئيس المجمع ولو بكلمة .

ولعل سياسة ذاك العهد والكتلة الوطنية مسيطرة ومن اعضائها من يكرهني وهي تبغي ان تأتي بالأمير لرياسة المجمع دعته الى هذا التغابي ، وقلت لمن أبدى تلك الملاحظة : دع هذا ورجح حسن الظن ، وما ضرك لو قلت ان الامير نسي فقط ، وانا لا أعتقد انه ممن يغمطني حقي ، وقد صدقته الود طول عمري . وما أُعجب بأحد من ارباب الاقلام اعجابي به وربما لم يخدمه احد من معاصريه كما خدمته (راجع فصل وطنية الامير شكيب في الجزء الثاني من المذكرات) واذا جنحت الى التوسع في التحليل فقل ان شكيباً بُلي بصحبة بعض الزعانف ، بسائق من سلامة صدره ، يوسع لهم في مجلسه كما كان منه مع رجل لازمه ملازمة الكلب لاصحاب الرقيم مدة مقامه الاخير في دمشق فكبر له أناساً وصغر له آخرين ، وعادت وشاياته على الامير بالضرر اما هو فلم يخسر اكثر من بيع ضميره ولطالما باعه لمن يساومه ومن لا يساومه .

كثيراً ما قلت لشكيب اني أُحبه اكثر مما يحبني فكان يبتسم لقولي ويستحي ان يجيبني .



الدواء الناجع

تلوث ارباب السلطة التنفيذية في الشام ومصر بالرشوة فذهب وقار الحكومات واحتقر المحكوم عليهم من عينوهم واهملوا النظر في أمرهم، ويستحيل ان تكون عقلية شرطي كعقلية قاض مثلاً والقاضي تعلم في الجملة والشرطي او الدركي اقرب الى الأمية والعامية. ومن دهاء بعض الشرطة والدرك انهم جد أمناء لكل حكومة تتسلم زمام الحكم، ولكل حزب يسيطر وتنتشر دعوته. والداهية الباقعة منهم قد يخدم عدة احزاب من باب لا ترسل الساق الا ممسكاً ساقاً. اما في مسائل الرعية فيعملون على الهوى ويسلبونها كأنما يأخذون من مالهم، ويحكمون في أهل بيتهم. ومنهم من يسأل أرباب المصالح جهرة ان يمنوا عليهم بشيء لأن رواتبهم لاتقوم بأودهم واود عيالهم، ومنهم من يرتقون الى اعلى من ذلك فيساومون على الجعالة، يسلبون ماوسعهم السلب. ولطالما ضاعت الجرائم بدريهمات يدفعها المجرم لمن بيده التحقيقات الأولية التي عليها يبني الحكم ولذلك لم ينقطع دابر الأشقياء لأن أرباب الشحنة يغضون الطرف عنهم أحياناً، ومن المتهمين من يحمل للدركي والشرطي حصته من الغنيمة، وبهذه الشركة السرية بين الشقي ومن يقبض راتبه من الدولة لمطاردته ومطاردة امثاله ضاعت الحقوق وزالت الهيبة ومن رجال الامن من اذا قرت الاحوال وكسد عندهم سوق الانتفاع من الناس يخترعون مسائل لاأصل لها او يجسمون مالديهم من الوقائع ليملأوا جيوبهم من جيوب الأبرياء.

ولا دواء فيما نعلم لهذا الداء الا تفتيش كل ديوان وكل شعبة من شعب الادارة وتنفيذ تقارير المفتشين الأمناء من دون اهمال ولا امهال وبذلك ينزل معدل الفساد ويستريح الناس باخراج كل من يسرق من الخدمة على ان لايعين أحد مكانه وبهذا يقتصد مبلغ عظيم يضم الوفر منه على مشاهرات

ارباب الرواتب الصغيرة فلا تتضخم الموازنة ولا تبقى معذرة لمن يسيئون الاستعمال من العمال بدعوى قلة رواتبهم .

ربما يقول بعض من يحبون السلامة ان هذا الرأي خيالي لايتأتى تطبيقه لما يحدث منه للحكومة من الاتعاب وربما كان منه مايخل بالامن ونحن نعتقد ان افراداً فاسدين ويعرفون انفسهم أنهم فاسدون تستغني عنهم كل حكومة تحب الاحتفاظ بكرامتها واذا تم هذا الاصلاح تصفق الرعية وتغتبط لانها متبرمة بالفاسدين وتلعن أبداً من يخرجون عن جادة الحق ولا يمنعها من اهلاكهم الا تكريم مايلبسون من بزة والخوف مما يحملون من سلاح .

ونلخص بعد هذا ـ (وقد سبقت لنا هذه المعاني في هذه المذكرات) دعوتنا في كلمات : صرف المأمورين المستغنى عنهم ، تفتيش دقيق على الخائنين وطردهم من الخدمة بلا هوادة ، التوسعة على ارباب النزاهة من الموظفين واعطاؤهم مشاهرات جيدة .

وهذا الاصلاح يحتاج الى بضع سنين حتى يتم على مايجب وتظهر منافعه من السنة الاولى وهو انجع دواء .



خزانة عظيمة

ارادني صديقي العلامة ابو عبد الله محمد الزنجاني من علماء ايران عليه رحمة الله ان اكتب الى العالم الكبير الميرزة محمد علي خان فروغي رئيس وزارة ايران والى العالم الميرزة علي اصغر خان حكمت وزير معارفها أَطلب اليهما عمل فهرست لمكتبة قصر كلستان في طهران وقال لي ان كتابتي اليهما تؤثر اثراً محموداً لانهما يعرفانك حق المعرفة ويستمعان لاقتراحك. فتجاسرت وكتبت اليهما فجاء جواب العلامة فروغي رحمه الله بالعربية وهذا نصه:

حضرة العلامة الاستاذ الأكبر دامت معاليه

تناولت كتابكم الكريم الحاوي حسن ظنكم بي وعواطفكم الجميلة نحوي ونحو بلادي فأرجوكم أن تقبلوا فائق شكري وامتناني على ذلك ويحسن بي أن أحيط علمكم الشريف أنه قد سبقت أيضاً الى السمع ذكرى فضائلكم وما تبذلونه من الخدمات الصادقة للعلم والاسلام فارجو الله أن يؤيدكم لذلك ويبقيكم ذخراً للعلم وأهله.

أما ما اقترحتموه من وضع فهرس للخزانة الملكية بقصر «كلستان» فقد بوشر بالعمل منذ زمن ونرجو أن يتم أمر التنظيم قريباً والشروع في طبع فهرس يتضمن ما احتوت عليه الخزانة من المؤلفات واذا طبع فانكم ستتشرفون عليه ان شاء الله. هذا ما لزم وتفضلوا في الختام بقبول جزيل سلامي.

والغالب أن حوادث الحرب الماضية وما لقيته ايران المحبوبة من ارهاق الدول المحاربة أخر انفاذ هذا المشروع النافع وعسى أن يكون الأخلاف على ما كان الأسلاف عند حسن الظن بهم،

الوطنية العربية

ما عهدنا طائفة الروم الارثوذكس الا متضامنة مع السواد الاعظم من سكان البلاد الشامية في كل نازلة وها هي تقدم برهاناً آخر على عروبتها ووطنيتها في المسألة الصهيونية بلسان بطريركها العلامة الكسندروس طحان فقد نشر بياناً في قضية فلسطين دل على شعوره وشعور طائفته . ومما قال مخاطباً رجال الدين والدنيا من ابنائه :

لم يفت علمكم ما منّ به المولى سبحانه على جميع البلاد التابعة روحياً لكرسينا البطريركي الانطاكي من نعمة الاستقلال بعد الاستعباد والهناء بعد العناء فأضحت بلادنا تملك امر نفسها يسوسها ابناؤها البررة الاخيار . غير ان هذه الحالة الطيبة التي متع الله بها امتنا العربية وكنا نأمل دوامها قد تنغصت بالقرار الجائر الذي صدر في الآونة الاخيرة بتجزئة فلسطين الارض المقدسة الى منطقتين يهودية وعربية — التجزئة التي يقصد منها خلق دولة يهودية مستقلة في بلاد عربية عريقة في القدم — والذي يحمل في طياته خطراً مبيناً على مقدسات الشعوب العربية المسيحية والاسلامية في فلسطين العزيزة ويكوّن جواً دائم الاضطراب ربما ادى الى تعكير السلام العالمي لما لتلك المقدسات من الاحترام العميق عند اصحاب الاديان مسيحييها ومسلميها وقد كنا نرجو قبل صدور هذا القرار الجائر ان يتورع مصدروه من العبث بحقوق اولئك الشعوب الذين لم يأتوا امراً يستوجب التهجم على بلادهم التي مرّ على سكناهم فيها عدة قرون وهم فيها آمنون متضامنون . ولكن خاب الامل ووقعت الواقعة فداهمتنا ايام عصيبة هي اعظم ما حل بالبلاد العربية من محنة سوداء لم نجد معها مناصاً من ان نهبّ الى الدفاع عن حقوقنا وصيانة حرمة مقدساتنا . واي شعب من شعوب الارض كلها تتوقد في صدره جذوة الدين لا يبذل النفس والنفيس في سبيل الذود عن معابده

ومساكنه وحرماته التي هي اثمن ما يملكه في دنياه ؟ وما كاد القرار الجائر ينتشر خبره المؤلم في الاصقاع العربية حتى قامت التعديات الصهيونية على حياة السكان وعلى معابدهم وبيوتهم ومتاجرهم بصورة فظيعة تنبئ عن مهالك مبيتة للرجال والنساء والاطفال ليخلو الجو لمثيريها فيمعنوا في امتلاك الديار كما يشاؤون .

ولم تتقاعد الشعوب العربية الذين أُخذوا على حين غرة ورأوا الخطر المداهم عن الذود عن نفوسهم وعن كل ما له شأن في حياتهم الدينية والاجتماعية اندفعوا يحمون ذمارهم ويدافعون عن حرماتهم غير ضانين بكل ما لديهم من عزيز في سبيل تحرير فلسطين العزيزة .

واذ كنا أبناء الكرسي البطريركي الانطاكي تؤلف جزءاً من البلاد العربية فمن واجبنا أن لا نتقاعد عن المبادرة الى المساهمة الفعلية في الجهاد القائم أمامنا للدفاع عن فلسطين المقدسة والى التضامن مع اخواننا العرب بكل ما نملك من قوة وعزيمة ماضية لنصرة الحق وخذلان الباطل .

سرقة الآثار

زارني في داري الدكتور عبد الرحمن الكيالي وزير المعارف والعدل في وزارة السيد جميل مردم بك الكتلوية (نسبة للكتلة الوطنية) وقال لي انه اتصل به من مصدر وثيق ان الأمير جعفر الحسني مدير دار الآثار يتجر بالعاديات بصورة غير محللة اي يسرقها فتأثرت لهذا الكذب الصراح وقلت : ان الأمير يقل من يضارعه في نزاهته من عمال الجمهورية ولو كان يستحل أن يسيء استعمال وظيفته لعد اليوم من كبار الاغنياء ، واذا أنا سرقت فيكون جعفر قد سرق . وسراق الآثار والمتجرون بها هم يتهمون الاستاذ الحسني بهذه التهمة الشنعاء لانه سلم بعضهم الى القضاء لمحاولتهم اخراج آثار سورية الى خارج الحدود .

ولعل الكيالي حاول الصاق هذه التهمة بالامير يوم حاول مع رئيس حكومته ان يهديا أيضاً أحد المهربين من الارمن المتأمركين الاسدين الرخامين الرابضين الى اليوم في المحل المنسوب اليها (ارسلان طاش) من الجزيرة ومنع المفوض السامي يومئذ اخراجهما من ارضنا بعد ان نشر خبر هذه الهبة العظيمة في الجريدة الرسمية . فبدا للكيالي ان ينتقم من الامير جعفر باتهامه بهذه التهمة الدنيئة ووقع في نفس الكيالي بعد المنع ان يقنع مدير دار الآثار بالتوسط لدى الحكومة المنتدبة حتى تغض الطرف عن الاسدين وتأذن باخراجهما من سورية فأبى .

ولما لم يستطع الوزير الكيالي ان ينال من الامير جعفر اضمر له الحقد هو ورئيس الوزراء وانضم اليهما مؤخراً رئيس الجمهورية فما شفى صدورهم من الامير جعفر الا اقصاؤه عن دار الآثار فاحيل الى لجنة تأديبية جزاء أهليته واستقامته . ومن طبيعة الكتلويين انهم يشق عليهم مشاهدة أرباب النزاهة في الحكومة لانهم يحاولون أن يكون الناس كلهم كاسنان المشط في الاستواء

هذا مثال من ذمة من طالما زعموا ان الوطنية وقف عليهم وعلى من يرضون عنه احتكروها لانفسهم وباعوا واشتروا باسمها ، وكان أهم موادها التزييف والظلم .



العلم يغني

كان الأدب العربي الى أواخر القرن الماضي لا يدر على صاحبه ما يسد به الرمق لأن الولايات العربية كانت تحت الأحكام التركية غارقة في الجهل ، والأتراك ليسوا من العربية في ورد ولا صدر ، ومصر ما كانت في درجة من الحضارة تعرف قدر لغتها . فكان بعض المتأدبين يجعلون من الأدب حلية يظهرون بها اذا كفوا مؤنة العيش ، ومنهم من اذا بَرَّح بهم العوز ينظمون القصائد في مدح الأكابر والحكام فيجيزونهم اجازات ضئيلة .

وكان في مدرسة اللعازارية بدمشق استاذ للعربية اسمه أمين الحلبي تعرفت اليه عندما كنت أختلف الى ذاك المعهد أَتلقى الآداب الفرنسية فكان لفرط غيرته على أدب العرب كثيراً ما يعذلني على ولوعي بادب الفرنج واهمالي الأدب العربي ويذكر لي مافي هذا من البدائع التى خلت منها آداب الفرنسيين .

ثم انتقل صاحبي الى بيروت وحرر جريدة الأحوال مدة والغالب أنه سئم المراقبة على الصحف يومئذ وما كان صاحب الجريدة عليه من التعصب الذميم وملّ أيضاً العيش من شق القصبة على غرامه بالعرب والعربية وهاجر الى جنوبي افريقية فاشتغل بالتجارة واغتني في سنين قليلة .

ومن حال صديقي الاستاذ أمين الحلبي تستخرج مسألة روحية تمازجها حالة اقتصادية ذلك أنه لو لم تشتد منافسة البرتستانت والكاثوليك في ساحل الشام في القرن الماضي لما ظهر الرعيل الأول من علماء العربية . أنشأوا المدارس لنشر مذهبهم وعنوا بتدريس العربية فظهر الأعلام من خدامها أمثال بني اليازجي وبني البستاني والحوراني والأسير والأحدب وغيرهم .

الصحف والكتب

يقول غستاف لبون ان الصحف والكتب تؤثر في نشوء الآراء وفي سرايتها تأثيراً عظيماً ولكن دون تأثير الخطب . وتأثير الكتب أقل من تأثير الصحف لان الجمهور قلما يقرؤها ومن الكتب ما استهوى العقول فأدى الى اهلاك ألوف من البشر كما وقع من كتب روسو فانها كانت توراة تشبع بها زعماء الارهاب ومثل ذلك كتاب « بيت العم توم » الذي ساعد كثيراً على نشوب حرب الانفصال الدامية في اميركا ، وقد أثرت رواية روبنصن كروزي وقصص جول فرن تأثيراً عظيماً في عقول الشبان وفتحت لكثيرين طرق الكسب . وقوة الكتب كانت شديدة عندما كان الناس يقرؤن قليلاً فان تلاوة التوراة في زمن كرومڤل أنشأت في انكلترا عدداً كبيراً من المتعصبين . وفي العهد الذي كتبت فيه رواية « دون كيشوت » كانت قصص البطولة ذات تأثير سيء في العقول كلها حتى لقد اضطر ملوك اسبانيا أن يحظروا بيعها أما اليوم فان تأثير الصحافة أشد من تأثير الكتب . وقد ظهر في الصحف اليومية في كثير من الحوادث الخطيرة لعهدنا شيء من الاستهواء والاغواء ، وتبين الآن أن حرب الولايات المتحدة مع اسبانيا كان النافخ في ضرامها بعض الصحف ولو فرض وهذا الفرض غير عسير التحقيق ، ان صاحب مصرف متوسط الثروة ابتاع جميع صحف مملكته يصبح سيدها الحقيقي يعلن الحرب ويعقد الصلح على هواه . وقد رأينا الماليين يبتاعون القسم الخاص بالبورصة في جميع الجرائد آملين أن يعلنوا عن مشاريع من شأنها أن تأتي على الثروات التي جمعت من التوفير لترويجها . وما من حكومة تجهل هذه القوة القاهرة للصحف وغاية ما يحلم به السياسي المحترف أن يتخذ لنفسه جريدة منتشرة تنطق بلسانه وقد كان من وزارات الامبراطورية الالمانية أن حببوا للرأي العام معظم اعمالهم

بواسطة صحف غذوها بأموالهم فاستمالت لهم الرأي العام . ان سرعة تصديق القراء لما يقرؤنه في جرائدهم عجيبة من العجائب » .

هذا رأي الحكيم غستاف لبون في الكتب والصحف وهو كلام لا يصدق على الاقطار العربية المتمدنة وقراء الصحف ما برحوا قلائل وقراء الكتب أقل بكثير من قراء الصحف . ثم ان القراء عندنا يسيئون ظنهم بارباب الصحف ويزعمون أن الصحافة تضلل العقول وتكذب وتختلق وتسير مع أغراضها وأحزابها ، ساءت سمعة الصحف فرميت بما رميت به وكانت الحكومات هي التي جنت عليها ، تنفق عليها وتفسدها بالمال لتقوم لها بدعايات ملفقة ، ومن أحسن ما تم في عهد الثورة الاخيرة في سورية الغاء نحو ثمانين صحيفة والاكتفاء بعدد قليل فقط . وبما أبقوا عليه من الصحف المحترمة يرجى أن تتحسن منازع الصحف وأن تصدق ولا تتحامل ولا تختلق وأن تحمل للقراء كل ما يفيدهم .

أما الكتب فهي في بلاء لا يشبهه بلاء لاعراض القوم عن تناولها الا مكرهين ، فالكتب المدرسية تؤلف للدارسين ولجيل خاص من الناس ، ومهما سمت درجتها لا يتناولها الجمهور ، وعلى الجمهور وما يتغذى به من الافكار المعول الأول . والجمهور عندنا يتغذى كثيراً بالقصص والروايات ومنها ما لا يفيد في دين ولا دنيا وكتب الدين مقصورة على طبقة بعينها لا تتعداها الى غيرها وأكثر رجال الدين يستعيرون الكتب اذا حفزتهم الحاجة الى مطالعتها وقل فيهم من يطيل النظر فيها .

بقيت طائفة من الناس تحب كتب الثقافة وهي ضئيلة لا يعول عليها في نشر الكتب لأن عددها الى اليوم لا يتجاوز المئات واذا وصلت بعض الاسفار الى أن يطبع منها ألوف فهذه من الكتب التي ألفها أرباب النفوذ أو من يحسنون عرض بضائعهم على القوم بأساليب لهم تفردوا بها . والمؤلفون في هذا الصنف من الكتب الشريفة لا يستطيعون أن يكونوا مؤلفين وتجاراً . وما برح الوراقون يربحون من الكتب أكثر من المؤلفين .

ومن أجل هذا نقول ان الكتب والصحف لم تبلغ المبلغ الذي كان

يجب لها في الشرق العربي ولعلها تصل الى ما يرجى منها من التأثير بعد جيل أو جيلين لأنا أخذنا نكثر من نشر المعارف ولا سبيل الى رواج الصحف والكتب بغيرها ولا بد من قضاء الوقت اللازم لنضج الأعمال وانارة العقول .

قال أحد سفراء اميركا وهو من هواة الكتب ان لأرباب الملايين في أميركا خزائن كتب جميلة والبلد لا يعد مثقفاً ثقافة حقيقية الا اذا كان فقراؤه يقتنون الكتب .

الصداقة والسياسة

اعجبتني كلمة قالها الدكتور عبد الجبار جومرد من نواب المعارضة في مجلس نواب العراق : اذا كانت السياسة هي الاشتغال للصالح العام فالسياسة شيء والصداقة شيء آخر ، اذا تكلمت بالسياسة لا ارى امامي صديقاً واذا قابلت صديقاً نسيت السياسة . وانا أحس بان هذه القاعة ـ قاعة المجلس العراقي ـ محراب سياسي للامة فالكلام فيها بأدب والمعاملة بالرفق ، ومن احترم هذه الندوة احترم امته فاذا تطرقت الى النقد في السياسة والنقد مرّ ، فارجو الايغضب علي احد واذا غضب فلا أُبالي .

وصاحب هذه المذكرات جرى على هذه الخطة ففرق بين الصداقة والسياسة وقد لايحيد عن قانون الصداقة لخدمة السياسة ولا يتخلى عن واجبه في النقد مراعاة للصداقة . قال لي بالامس احد خلاني الاعزة لقد بالغت في المذكرات في الثناء على صاحبك محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية الاول ، فقلت له هذا ماعرفته فيه بعد طول العشرة ، وما ذكرته شهد الله الا بما فيه واشرت الى ماحمد منه والى ما انتقد عليه . وصاحباك اللذان جاءآ بعده هل قاما بحق هذا المنصب الجليل اكثر من صاحبي هذا ؟ ماذا كان من صاحبك الثاني وهو بالاجماع لم يضر ولم ينفع على ما انطوى عليه من اخلاق حسنة وعفة عن المال . وهل في مقدورك ان تنكر ان الثالث ساقنا بسوء سياسته

وفساد طريقته الى الخراب حتى آل امره الى ذاك المصير المحزن .

هذه هي عينات رجالنا لم تتعلق الأقدار بان يتولى هذا المنصب العظيم ارقى كعباً منهم او ان الحظ حظهم فبلغوا درجة من الظهور كان غيرهم احق بها واهلها . انا ياصاح أصف المترجم لهم بما يتراءى لي منهم في مرآتي وبما يحكم عليهم به عقلي ودرويتي فأخطىء وأصيب ، وقد يكون صوابي عند نفسي اكثر من خطاءي . وليس لي من المقدرة ان اخلع على من اذكرهم حللاً من الثناء فضفاضة براقة ولا ان أعريهم مماثبت لهم من الصفات فأشوهها وأسودها ، والحب لايؤثر في تصويري لهم فالرئيس الثالث احترمه منذ اول نشأته واقيم له بعض العذر فيما كان يأتي على يده فلما تولى زمام الامة واصابه الغرور فارتكب ماارتكب من خرق القوانين والسير بسيرة الظالمين نفضت يدي منه . ومن طبعي ان انفر ممن يباين الحق ويظلم الخلق وكنت ازهد في صداقة من يدوسون المصلحة العامة من اجل مصلحتهم الخاصة ولو كانوا اقرب الناس الي .

كنت اود لو صحت عزيمة صاحبي الناقد ورماني بالتشيع للرئيس الاول أن يكتب سيرة صاحبه الأخير او سيرة الرؤساء الثلاثة وهو من اقرب الناس اليهم يعرفهم كما يعرف نفسه وكان عشيرهم ورصيفهم . نعم انا مبتلى بالصراحة وقد امتدح عدوي واذكر مساويء صاحبي لاتعميني السياسة فأسلب هذا او اعطي ذاك على هواي وقد اجامل بعضهم الى حد محدود وانا موقن انه لو كانت له القوة لغمزني غمزة مسمومة وتعذر عليه ان يذكرني الا بالجمجمة .

حاولت منذ اخذت أؤلف وانشر ان اجعل للتاريخ المكانة التي له عند الغربيين وان أتوخى في كتابته الحق والارشاد لا الارضاء والعبث فغضب عليّ من غضب ورضي عني من رضي فما تضررت بالغضب ولاانتفعت بالرضا ، واغتبطت كل الاغتباط ان ارضيت ضميري وما باليت . وهذا فيما اظن الفرق بين ما اكتبه ويكتبه غيري ممن ينظرون قبل كل شيء لمصلحتهم ويهزأون مما اتوفر عليه ويعدونه نقصاً حماهم الله منه !

الدجل الديني

منذ عهد بعيد جاء قريتنا الشيخ محمد الدندراوي الصعيدي ينشر طريقته « الرشيدية » وسارع بعض سراع التصديق من الفلاحين الى تلقيها عنه . وبعد سنين جاءهم ابنه أبو العباس يتولى من القرية ما كان أبوه يتولاه ، وربما كان على شيء من العلم أكثر من أبيه ، قيل انه دخل الأزهر ، فكثر مريدوه وكان على مايظهر يوصيهم وكلهم أميون بعدم الاختلاط بغير جماعتهم واخترع لهم عمامة جديدة يمتازون بها عن غيرهم وهي عبارة عن طربوش ابيض تُلاث عليه عمامة بيضاء ذات عذبة طويلة واوصاهم ألا يحلقوا لحاهم فطالت حتى ليرتبك بها صاحبها عندما يباشر اعماله الزراعية . ولم يعلمهم ولم يفقههم واكثرهم لايحسنون تلاوة الفاتحة . وفتن مريدوه بكل حركة تصدر منه ، وسحرهم بسكوته أكثر من كلامه ، وكانوا لفرط اعتقادهم فيه يجوزون أخذ ماء وضوئه وغسله يشربونه ويتبركون به ويرون انه شفاء من الامراض وكانوا اذا ارادوا الاقتراب منه ركعوا وسجدوا وقبلوا الارض ورجعوا الى الوراء ومن سعد بتقبيل يده حاز الاجر العظيم . وسمعتهم في ذكرهم وانا في حديقة مجاورة يصرخون ياأبا العباس اغفر لنا ويستغيثون به كما يستغيث المؤمنون بالمولى تعالى .

وما راعنا الا والجرائد المصرية ترمي صاحبنا بانه نبي كذاب ووصفت مقر دعوته في قرية من قرى قنا فكان مايأتيه جماعته هناك عين ما يأتونه هنا من مخالفة الشرع . وأصدر العلامة مفتي مصر فتوى في تكفير كل من يقول بما اشتهر عن أبي العباس وجماعته . وعلى الاثر وافى أبو العباس دمشق واجتمع الى قاضيها ومفتيها فأقراه على طريقته وقالا انها لاتخرج عن سائر الطرق الصوفيه ليس فيها مايكفر به . والواقع ان دعوى النبوة بعيدة عن الشيخ

القناوي ولكن طريقته دنيوية يكلف بها الداخل لنفقات أكله ورفاهيته ما لاتتسع له جيوب الفلاحين الفقراء . وقد بنوا له بيتاً في دمشق سموه الزاوية وآخر في عين الخضرة لاصطيافه وكل ذلك من أموالهم وبأيديهم . ولو فقههم وعلمهم لنجا من الملامة لكنه احب ان يسلمهم كما استلمهم .

لما شطر الشيخ القرية شطرين تعذر عليّ وعلى أصحابي من نبهاء أهلها ان أقوم بما كنت أنويه من تعليم اهلها وتمدينهم وجلب المرافق لهم فغلب الجهل العلم وكثيراً ماكان منه ذلك .

الجامعة العربية

انشئت الجامعة العربية منذ بضع سنين وكان بعض المفكرين يتشاءمون منها لأنها مما أوحت به السياسة الانكليزية ، والانكليز خدام منافعهم لو أمكنهم أن يسخروا البشر كله لمصالحهم ما تلكؤا عن امضاء ذلك ساعة ، وكل محظور مباح في سياستهم .

وكان مما شغل الجامعة عن اتمام ما ألفت له مسألة فلسطين المشؤومة وسعيها مع الحكومات العربية السبع لحفظ حقوق العرب في القطر المنكوب . ومع أن الجامعة وعلى رأسها صديقي الاستاذ عبد الرحمن عزام باشا لا ينقصها شيء من أدوات النجاح لم توفق الى تحقيق ما كانت ترمي اليه من الدفاع عن حقوق الفلسطينيين على ما يجب ، لأن نجاحها ليس مما تملكه الجامعة الجديدة ، فكيف بالنجاح وامام الجامعة دول كبرى اعتادت أن تملي ارادتها في سياسة العالم والعرب منهم وهؤلاء ما وسعهم الى اليوم أن يملوا ارادتهم على أحد .

فاذا لم يكتب للجامعة التوفيق في سياستها على ما كان يرجى فما أحراها أن تجدد همة لاتمام الباقي من برامجها ومنه الغاء الجمارك بين الأقطار العربية الداخلة في الجامعة ومنه توحيد الثقافة والنقد والبريد وغير ذلك

ليشعر العربي أنه واخوانه في القاصية والدانية متحد في بعض ما يجمع الدول من الروابط ويؤلف منها كتلة تمكنها من رفع صوتها وحماية ذمارها .

والرجاء ألا تصاب الجامعة بما ابتليت به أعمال الشرقيين من اظهار النشاط في بدء كل مشروع ثم الضعف فيه رويداً رويداً حتى لا تكاد تجد له أثراً يذكر في الآخر ، خلافاً لاعمال الغربيين تبدأ بنشاط قليل ثم يزيد على مر السنين .

ولا مندوحة من التصريح هنا ان على الجامعة ان تشغل نفسها بما يدخل في الصميم من برنامجها تأخذ اللباب وتطرح القشور وتبدأ بالفروض قبل النوافل . واذ قد انقضت مهمة الجامعة في فلسطين او كادت نرى ان نلفت نظرها الى انفاذ سائر ما دون في جدول اعمالها لتثبت للأمة أنها تخدم جهدها وأن ما وقع من قصور كان غير مقصود وفي وسعها تلافيه .

جرت عادتي اذا رأيت الخلل في عمل ان ابادر الى اصلاحه بكل ما عندي من حيلة اما ان اهدمه على أمل ان اجد من البناء الجديد خيراً اكثر فلا اقول به لأنه من شأن العاجزين والهدامين . ومما اثبتته الأيام ان من الأوضاع ما اذا زهدت نفسك فيه فغضبت عليه والغيته لا يتسنى لك ولا لمن بعدك ارجاعه .



الكتب المقروءة

يظهر ان الامم مولعة بالقصص الغريبة ، ومما ترتاح اليه كثيراً كتب النقد والرحلات ، ولذلك راج هذا النوع من الاسفار في كل العصور ، ونمثل هنا بكتابين كانا ولا يزال لهما شأن عظيم في الغرب . الاول كتاب الاخلاق للابروييير ، وصف فيه اخلاق من كانوا يختلفون الى قصر لويز السادس عشر فأجاد من وراء الغاية ، وصار كلامه دستوراً يسترشد به . والكتاب الثاني كتاب دون كيشوت لسرفانتس صور فيه المجتمع الاسباني في القرن السادس عشر ، صوره بنبلائه وفرسانه وشعرائه وظرفائه وقساوسته وسوقته وباعته وغانياته وعاشقاته وطاهياته بما لم يبق بعـده غاية لمبدع . وسخر في جملة ماسخر بالخاصة من فرسان ذاك العهد كما سخر ربليه من رجال القرون الوسطى وكلا المؤلفين ترجمت رواياتها الى اللغات الاوربية وصادفت من الرواج مالم تصادفه قصة الف ليلة وليلة في الشرق والغرب .

راج كتاب الكاتب الافرنسي وكتاب الكاتب الاسباني لوقوع الجمهور فيهما على وصف من اتصفوا بهذه الاوصاف والقوم متبرمون منهم حانقون على كبرائهم فنطق المؤلفان بلسانه ورددا نغمته وضربا على سندانه . والكتب من البضائع التي يروجها ذوق من يقتنيها والشعوب يتناولونها مقلداً بعضهم بعضاً بالعادة والعدوى .

وانا لنرى اليوم كتب الساسة المشهورين تصيب رواجاً عظيماً يوم ظهورها ويطبع الطابعون من مذكراتهم مئات الالوف فيغتني اصحابها لكثرة رواجها كما نجد رواجاً عظيماً لروايات المشاهير من المعاصرين فتنقل الى اللغات الحية الكبرى ، وتمثل رواياتهم التمثيلية بعدة لغات ، وكلما مثلت كان للمؤلف الأول حظ من أرباحها . وما برحت تآليف بعض ادباء فرنسا وانكلترا واميركا والمانيا وغيرها مثلاً باهراً من هذا الرواج . وان الغربيين ليتنافسون اليوم

في تلاوة قصص برناردشو أكثر مما يتنافسون في تصفح أي كتاب في الموضوعات السامية . ومن الكتب من يشترك الخاصة والعامة في تلاوته ومنها مايكون وقفاً على الخاصة فقط أو على العامة فقط .

قال كليمان ڤوتيل في جريدة جرنجوار مرة : اجمع النقاد والادباء على ان الكتب الصالحة لاتبقى مجهولة أبداً وان لها من عدل الاجيال القادمة من يظهرها ولا يخفيها ، على حين تتراكم الآثار ذات القيمة التي خانها الحظ في ظلام الدياميس الادبية . وقل جداً في الكتب التي احرزت اعجاب القوم وتمجيدهم ماكان نصيبه النسيان والاهمال . لنقل قولاً حراً من يقرأ الى اليوم كتب فولتير (ماعدا قصصه) ومن يتلو جان جاك روسو (ماعدا اعترافاته) ومن يتصفح شاتوبريان (ماعدا مذكراته عما وراء القبر) ومن ينظر في جورج صاند وتيرس وجيزو وميشله وبالزاك وفلوبر . فاذا كان الحال هكذا مع هؤلاء الصدور فما مبلغ كتب غيرهم من المؤلفين في باب الرواج . ألا يصيب كتبهم غبار النسيان حتى تستحيل تلك الكتب غباراً . وعناية الخلف باسفار السلف من الامور الشاذة الموقتة وما ارى مئة كتاب افرنسي من كل ماانتج الماضي تعيش الى اليوم عيشة حقيقية اه .

ولابد ان يتساءل القاريء ويقول ان هذا ماعرفناه عن امة مولعة بالقراءة اشتهرت بتفانيها في الادب وولوعها بالجديد فما هي ياترى الكتب التي خلدت عندنا على مر الدهور؟ . وارى ان ما خلد من كتب الشريعة خالد على رفوف الخزائن اكثر مما خلد في الصدور ، وندر ان يرجع الخاصة منا اليها وهي بكتب الخواص أشبه . اما كتب الجمهور فمنها ماعتق فسئمت النفوس النظر فيه ومنها ما اصبحت حاجة الناس اليه غير حاجتهم في القرن الماضي الى مايشبهه فاقتضى ان تؤلف له كتب تروقه وتنفعه في آن واحد . واظن اكثر من وهبهم الله ملكة التأليف لايفكرون كثيراً في هذا الأمر المهم . ولو وضعوا مايدعو القراء الى الغرام بالمطالعة لاتى الجيل الجديد على غير هذه الخطة من التفكير . قالوا قل لي من تعاشر لأقل لك من انت ، ونحن نقول قل لي ماتطالع لاقل لك من انت .

يقلُّ جداً المؤلفون الذين نبغوا بين اظهرنا حتى اليوم في الموضوعات اللذيذة المفيدة لان نهضتنا في الآداب حديثة العهد ومن اخذوا انفسهم بنشرها قلائل جداً ليس لهم ولا خجل من الحق مكانة المؤلفين الغربيين سواء كان بجودة الانتاج وكثرته وتنوعه او التحيل لاستمالة عقول القراء للاقبال على ما أُخرج لهم . ولندرة القراء ندرت الكتب الصالحة ولا تكاد تجد للقدماء الا تآليف معدودة لها طلاب يتداولونها على توالي الاحقاب والمحدثون من المؤلفين يقلدون الغربيين في تآليفهم وهم لم يصلوا الى أُولى مراتبهم ايام كانوا في مبدء نهضتهم . وقلنا غير مرة ان من رأى مؤلفاتنا في القرن الماضي ورآها الآن ادرك مابلغناه من درجات الرقي الذي نرجو ان يطرد حتى لانتخلف في ميدان الافكار الحرة والعلم الصحيح .

ذكريات الغربيين

اذكرني احتفال مدينة لشبونة في العهد الأخير بمرور ثمانية قرون على خروج العرب من البرتقال بما للغربيين من الذكريات التاريخية الكثيرة عندهم . يذكر البرتقالي مغادرة العرب دياره بعد أن حكموها نحو ثلاثمائة سنة وما جاروا عليها ولا ظلموها وأتوها كما أتوا اسبانيا بحضارة فيها عدل وفيها رحمة لم تشهد جزيرة ايبريا مثلها من قبل . وكان سكت أهل البرتقال عن احتلال العرب أرضهم زمناً طويلاً فلما كتب لأجدادهم التغلب على أعدائهم قام احفاد احفادهم اليوم يرددون صدى تلك الغلبة التي ثلجت لها صدور أجدادهم . وما نسي البرتقاليون وطأة الغريب وعادوا يعيدون ذكرى أتت من تسلسل الفكر فيهم وسعيهم الى كل ما يورثهم المجد والعظمة .

بعد خروج الشام من أيدي العثمانيين كنت أضع ورصفائي في الحكم جريدة بأسماء الأعياد الرسمية التي يجب أن تحتفل بها الأمة كل سنة ولفت نظرهم الى الهجرة النبوية فما وافقني زملائي على وضعها في قائمة الإعياد

حتى نبهت افكارهم الى عظمة ذاك اليوم الذي كان مبدأ كل مجد سجله العرب في الاسلام . فانظر الى الفرق بين الغربيين والشرقيين : البرتقالي يحتفل بدفعه صائل المحتل عن بلاده وهو لايخاف عودة العرب ثانية والمسلم يتناسى ذكر المحطة العظمى في تاريخه وكان الخروج منها سعادة عظمى له .

من عظماء رجالنا من يجب علينا ان نحتفل بذكراهم العظيم لما أسدوا الينا من خير كنور الدين وصلاح الدين ونحن نتناسى جميلهم لاننا بلينا بعدم تقدير رجالنا قدرهم .

تحضير العشائر

رأت الحكومة الجديدة في سورية ان تعزل نواب العشائر في مجلس النواب عن نواب المدن والقصبات لان للعشائر مطالب اذا جرت مناقشاتها بينهم تكون اقرب الى التفاهم . وكان نواب العشائر مغبونين في الماضي مع رصفائهم من اهل الحضر لأن لهجة هؤلاء غير لهجاتهم واكثر ما يعرض في مجلس النواب مما لا يدركون الغاية منه وليس لهم الا رفع ايديهم مع جماعة حزبهم فقط وفي الغالب انهم لا يدرون على ما وافقوا وعلى ما خالفوا .

وقد يصعب تمدين العشائر على قرب منازلهم من الحضر الا بعد ان يتعلم ابناؤهم وتكون نسبة من خرجوا من الأمية فيهم اكثر ممن انغمسوا فيها ، وذلك في مدارس سيارة تتنقل بتنقلهم. وهناك مطالب لهم لو تحققت لاصبحت بادية الشام قرى عامرة وذلك باعطائهم الاراضي الموات يستثمرونها على الطرق الحديثة ، وتحفر لهم آبار ارتوازية يستقون منها وتنشأ مستودعات في الأماكن اللازمة من البوادي يدخر فيها العشب اليابس والعلف لأيام الشتاء وتشاد لهم بيوت من الخشب يأوون اليها في الأيام الباردة الى غير ذلك من ضروب الاصلاحات وعندئذ يقتربون من الحضارة ويتفاهم اهل الوبر مع جيرانهم من اهل المدر .

كثرة الكلام

قال احد ساسة الاجانب في حفلة حضرها في الشام وقد رأى بدوياً يعرض نفسه ليخطب القوم والظاهر من حاله انه من العامة : ان اهل هذه الديار مولعون بالخطابة كأهل كندا فقد رأيتهم اذا اجتمعوا لأمر يحاول كل من في الحفل ان يخطب قومه سواء كانوا في حاجة الى سماع قوله أم لم يكونوا .

خلق الانسان ملولاً ولا علاج لملله الا تنويع الاساليب والابداع فيها والجديد محبوب والقديم مما يزهد فيه على الأكثر . ومن لم يرزق طبيعة مؤاتية للخطابة أو الكتابة او الشعر كيف له ان يدعيها ويطمح الى التأثير في الجماعة والخطابة صعبة المنال لانها ابنة البديهة والعلم الغزير ، ويتعذر على من اعتاد صف الكلام فقط أن يؤثر في العوام فضلاً عن الخواص . ومن ثرثر وماعرف ما يجب أن يقول كان كلامه كهذيان المحموم ومن قال كلاماً لا محصل له كان الخرس أولى به وأجدر .

كان المتشاعرون الى عهد قريب يزجون بأنفسهم في غمار كل نادٍ ومجتمع ويفرضون على الناس التصفيق لشعرهم البارد فلما ظهرت الحاجة الى الخطابة وأصبح لنا مجالس نيابية ومواقف لا بد من التكلم فيها قام من قام في انفسهم انهم خطباء أبيناء وادعوا ما ادعاه المتشاعرون في الماضي من التفرد بجمال الكلام وانهم اذا لم يقوموا هم بهذا الواجب لا يرجى نجاح الامور .

أما رجال الدين فبعد أن خانتهم قرائحهم في خطب الجمهور على البديهة عادوا الى تلاوة من وضعوا لهم الخطب في دواوين بحسب عصورهم واغراضهم يقرؤنها في المناسبات فلا تحدث تأثيراً في النفوس لانها لم تكتب لمن تلقى على مسامعهم .

غلطة كبيرة

لما اصدر الاستاذ محمد علي علوبة باشا كتابه مبادىء في السياسة المصرية انتقدت عليه في مجلة المجمع العلمي العربي قوله لااری الحاجة ماسة الى مايقول به البعض من التفكير في موسوعة عربية تجمع بين دفتيها جميع المعلومات الانسانية مدنية وعلمية وفقهية ورياضية وكيمائية ذلك لان الموسوعة بهذا الوضع تتطلب نفقات طائلة ووقتاً طويلًا والعلوم متجددة متقدمة اه .

فقلت في نقده وعلى مصر من الآن القيام بمثل هذا المشروع المفيد للامة العربية جمعاء فاذا كان النقص يبدو فيه بما يتوالى من تقدم العلم السريع فان الطبعات الثانية ستجيء امتع بالطبيعة . أما النفقات اللازمة فلا تعد شيئاً بالقياس الى ثروة مصر واسرافها في انفاق المال ، ثم ان جميع الدول العربية تساهم في انشاء هـذه الموسوعة ونشرها والامر متوقف على الشروع والشروع ملزم . وكتاب كهذا افيد لمصر من كثير من المطبوعات التافهة والاموال الطائلة التي تصرفها في الدعاية . والاخصائيون الذين سيضعون اساس هذا العمل الخطير غير قلائل في مصر وغير مصر .

هذا ما قلته وأضيف عليه هنا أن صدور هذا الرأي الضعيف يستغرب من عظيم من علماء مصر وساستها وفي تضاعيف هـذا الكلام من ضعف الثقـة بالنفس ما لايلائم همة صديقي الباشا وهو المجلي المعروف بنشاطه الممتاز وكان مثال العالم المصري الحازم الموفق الى أبعد حدود التوفيق .

واذا كان الأمر كما يقول ان العلوم تتجدد وتتقدم كل يوم فمعنى ذلك أننا يجب أن نقف حتى تقف حركة العلم وعندها نأخذ ما نشاء ونطرح ما نشاء من العلوم والآداب وسواء عمدنا الى الترجمة أو الى التأليف وهو الأولى في معلمتنا العربية فان ما سينشر من ذلك للناس يفيدهم جداً واذا أحسسنا بنقص أو عدم اجادة في وضع هذا التأليف فان ذلك يصحح في

الطبعات التالية ، وأي كتاب صدر تاماً من أول نسخة أو طبعة . ويعلم الباشا ان الأمم الصغرى التي أصدرت الانسكلوبيذات كانت أحط من العرب اليوم لما أصدرتها فما زالت تتعاورها بالتصحيح والتنقيح حتى تمت على ما تريد .

ثم قوله ان المعلمة يستلزم وضعها وقتاً طويلاً وهذا لا يهمنا كثيراً فان التجويد في الاعمال كان أبداً يستدعي زمناً لينضج على ما يجب وهذا عمل جماعة لا عمل فرد يخشى أن يموت قبل أن يتمه ، أما القول بان وضع المعلمة يحتاج الى نفقات طائلة فالوزير العظيم ادرى مني بما تحتمله خزانة مصر للانفاق في هذه السبيل وأمة تنفق على البذخ وتسرف في التوافه اسرافاً عجيباً لا يعز عليها أن تبذل في طريق يشرفها كثيراً .

أستأذن حبيبي الباشا ، وأنا المعجب به وبحياته الحافلة بجلائل الاعمال أن يسمح لي ان افاتحه بان ما قاله بشأن تأليف المعلمة العربية لا يستشف منه الا ضعف هممنا عن معاناة الأمور العظيمة ، اننا نطلب المجد رخيصاً ولا نتخذ له أسبابه .

ذكرني هذا الرأي المنتقض من كل جانب بما قاله لي مرة أحد رصفائي في الوزارة وهو يريد أن نعدل عن ارسال شاب موسيقار موهوب الى الكونسرفتوار في باريز ليتقن فنه على الاصول الجديدة ويعود فنوسد اليه النظر في دروس الموسيقى في مدارس الحكومة : أراك تحرص على ارسال هذا الموسيقار ونحن في غنية عنه وعن درسه لان عندنا فلاناً العواد — المحترف الشيخ الهرم — اذا احتجنا الى من يطربنا نستدعيه فيضرب لنا بعوده مقابل ريال واحد ولا نتحمل باهظ النفقات على هذا التلميذ ، وأنا بالطبع سكت لأن هذا الكلام لا يستحق ان يتعنى المخاطب الاجابة عليه .

اما كلام الباشا فله وزنه والمبالغ التي ستصرف على هذا الكتاب العظيم ويعدها هو خسارة ستصرف في مصر على أبناء مصر وفي اعطاء رزق لهم ومن فوائده ايضاً القاء الرغبة في نفوس طلاب العلم بان ما يشتغلون به في شبابهم سيكون لهم منه ربح ان أحبوا الانصراف الى العلم ولا اريد ان ازيد على ذلك فالوزير المصري اعرف مني بما هنالك واعرف مني بما يبذله الغرب من الأموال في خدمة العقل والعلم ونحن نعد ما يبذلونه اسرافاً .

احسان واحتكار

شاهدت صديقي العلامة فيليب طرّازي في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) يطوف طول النهار ازقة بيروت ويقدم بنفسه خبزاً ولبناً وطعاما لمنكوبي المجاعة ، وكانوا بحالة تتفطّر لها الأكباد عراة جياعاً لم يبق على اجسامهم الا الجلد والعظم .

وكان بعضهم يستغرب كيف يحصل صاحبي الكريم على هذا القدر العظيم من الحبوب يطحنه ويخبزه ويوزعه وهو متوسط الثروة لا يعد من كبار الاغنياء ويضيف الى ذلك التبرع سراويلات واقمصة يعطيها من لا ثياب له تستر عورته . وكان يتناولها من ثياب بيته وفرشه حتى لم يبق في داره شيئاً اسمه قماش ويضم اليه ما يمكنه ابتياعه من المخازن .

تلك حسنة من حسنات طرّازي شاهدتها بأم عيني في أثناء الحرب المذكورة . وكثيراً ما كان يبذل المساعي وينفق المال لاجل معالجة المرضى ودفن الموتى المساكين وينقل صغار الفقراء الى المآوى ويعتني بنظافتهم وطعامهم حرصاً على حياتهم . زد عليه ان فريقاً من الادباء تعودوا الاختلاف الى بيته فكان يرحب بهم كأنهم هم اصحاب البيت وهو ضيفهم .

وبعد الحرب عُني الاستاذ الحبيب بانشاء دار الكتب اللبنانية عام ١٩٢١ وصرف عليها من ماله ووقته وصحته . وهو اليوم يصنف التآليف المفيدة وينشرها خدمة للآداب والعلم . ولم يحب ان تخلو شيخوخته المباركة من نفع أمته فأجرى الله الخير على يده في الحرب والسلم وفي شبابه وكهولته وشيخوخته .

وشاهدت شاباً من أكبر أعيان الروم في بيروت اشترك فيما قيل مع احمد جمال باشا قائد الجيش في الحرب العامة بالحبوب يأخذ مقادير عظيمة بالاسعار التي يعينها لنفسه . ولعله اشاع انه شريك جمال باشا ليلقي الرهبة في نفوس

المعترضين على هذه التجارة المحرمة زمن الحرب . وقد عرض عليّ مرة ان يعطيني مايلزمني من الحنطة ، لانه رآني من جماعة الباشاولي جريدة منتشرة فقلت له : ان عندي في الدار من الحبوب مايفيض عن حاجتي وعندي في انبار مزرعتي مقدار لابأس به يزيد عن بذارى ومؤونة عملتي .

وما هي الا اشهر حتى هلك شريك الباشا بالتيفوس بعد أن طعن في مروءته وتمزق ماجمعه وما اسف عليه انسان .

وكانت في بيروت خلال هذه الحرب أسرة مسلمة من قدماء التجار اتفق ان كان في مستودعاتها بضائع عظيمة ارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً ، وأضافت الى مستودعاتها ماتسوقته من مدن الشام من البضائع . ثم بدا لها ان توظف الاموال التي جنتها في احتكار القوت لان الربح منه مضمون ووافر ، فاحتكرت كل مايخطر بالبال من اصنافه حتى الترمس نُقل الفقير وغذاؤه ، وهو من أدنى المأكولات .

ومن جملة ماتذرعت به لاكتساب المال ان ملأت مركباً من الاحجار وضمنته عند احدى شركات الضمان على ان فيه بضائع ، واوعزت الى النوتي أن يغرقه في ظهر البحر فأغرقه ، وعادت على الشركة تطلب منها ثمن المركب المغرق فأرسلت الشركة غواصين اكتشفوا الحيلة التي دبرها المطالبون بضمان السفينة .

وما ان عقدت الهدنة حتى هبطت أسعار البضائع التي جمعها اولئك المحتكرون هبوطاً ربما فاق ذاك الصعود ، وافلست الأسرة عن مليوني جنيه عثماني ذهباً . وبلغت بها الحاجة أن أصبح أفرادها لايصلون الى القوت الضروري الا بالاستخدام في اعمال حقيرة ، واستد الدائنون من هذه الاسرة اجهزة نسائها وحليهن ، ومنهم من مات قهراً لم تبك عليه عين لانه طالما ابكى العيون باجاعة القوم بل باهلاكهم .

وهذا ايضاً اراد ان يرشيني ولكن لابالحبوب كما كان من شريك القائد العام بل بدعوتي الى داره مع احمد جمال باشا والح عليّ بالحضور

بواسطة عزيز عليّ (مختار بك بيهم) فأبيت قبول الدعوة ، وقلت للوسيط اني مازلت اهبط بيروت منذ ثلاثين سنة ، وانا اعرف صاحبك من زمن بعيد فلماذا لم يدعني على الاقل الى تناول أكلة حمص بطحينة في قهوة الحاج داود على البحر (وهي قهوة متواضعة والأسعار فيها متهاودة) والآن يحاول ان أجيب دعوته وهو مادعاني الا ليظهر أمام الباشا اني صديقه ومن حملة عرشه ، وقلت: في جيبي دراهم من فضل الله وطعامي في الفندق ينتظرني .

* * *

قصّ عليّ اصحابي ما كان من هؤلاء الأغنياء من الشراهة في جمع الثروة وما تأذى به الفقير من تحكمهم في قوته فكتبت سلسلة مقالات في جريدة الشرق نعيت فيها على المحتكرين سيئاتهم فوقع ما كتبت الموقع الحسن عند الحكومة وعند الأهلين وشكرني عليها والي بيروت عزمي بك وبعث همتي على متابعة الكتابة في هذا الموضوع لأعاونه على حل رابطة المحتكرين ، وكان يفهم من مقالاتي اني انتقد الوالي واثبت عجزه عن حل الاحتكار ، ولما رآني جاهرت باعلان حملة على المحتكرين لم يسعه الا استحسان ما كتبت واستزادني من الكتابة .

آغا خان ونظام حيدر آباد

الأول زعيم الطائفة الاسماعيلية في الهند ومن أعظم أغنياء الارض لا يتقدم عليه في غناه إلا نظام حيدر آباد الدكن فهذا أغنى رجل في العالم قيل انه يملك اربعمائة مليون جنيه استرليني .

ولا يزال زعيم الاسماعيليين يأخذ الزكاة من طائفته ، أما النظام فقد ضرب منذ زمن طويل ضريبة على كل من يدخل عليه ولو دخل عشرين مرة في اليوم ، والضريبة عبارة عن جنيه ذهبي واحد وريال فضة ملفوفين في منديل . ويعيش الزعيم الشيعي كأنه ملك من ملوك الف ليلة وليلة ليس في الملوك اليوم من يدانيه في بعض بذخه وسرفه . أما الأمير السني فيظهر التنسك والتقشف ويقيم الصلوات ويزور المرضى ويمشي خلف الجنائز كأنه أمير من أمراء الاسلام في الصدر الأول .

مرض آغا خان بأخرة فلما أبلّ لم تحدثه نفسه أن يتصدق على الفقراء كما جرت عادة الكبراء في مثل هذه الحال بل أعد رحلة الى مكان سحيق دعا اليها من واسوه في مرضه من خلان الصفا ، ولم يلبث أن جاء الريفيرا على طائرة مائية وكان من أهم ما شحنته صناديق الويسكي ثم استقل طائرة جوية الى افريقية قاصداً الى الادغال المعروفة بجنة الحيوان من المناطق الجبلية في مستعمرة كينا البريطانية وهناك كانت تنتظره اثقاله في أربع عشرة سيارة ضخمة تنقل الخيام والأسرّة والأغطية والثلاجات والفرش وادوات الاستصباح بالكهرباء والماعون وأدوات المائدة والشاي والشراب ويحمل في جملة ما يحمل صناديق النبيذ المعتق والشمبانيا والويسكي وفي هذه القافلة ٨٠ خادماً منهم ٦٠ من أهل افريقية و٧ طهاة من الأوربيين وبينهم زوجته الفرنسية وماشطتها واحد ابنائه ، وقدر لرحلته العتيدة خمسة وعشرين مليون فرنك قابلة للزيادة لا للنقصان .

زعيم ديني يسرف هذا الاسراف ولا يتحرج من أن يقبض الزكاة بافقار شيعته ويتنعم هذا النعيم على حساب أتعس خلق الله ومنهم نموذجات تؤلم القلوب في سَلَمْيَة وجبال العلويين من الديار الشامية . آغا خان اليوم في الثامنة والسبعين من عمره لم يترك باباً من أبواب المرح الا ولجه ولسان حاله الدنيا زائلة ومن لم يغنم فرص الحياة فاته نصيبه من الدنيا . أما نظام حيدرآباد فما أثر عنه كصاحبه أن ندت يده بشيء المسلمين وهو المسلم الحنيف القانت !

الجهل في القديم والحديث

سبحان الله كيف تتبدل العقليات وتجهل جماعات وتتعلم جماعات ، كان العلم منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين ومحتكراً في أبناء الأشراف عند الغرناطيين والرومانيين وخاصاً باعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونانيين حتى جاء العرب بعد الاسلام وأطلقوا حرية التعليم وأباحوا تناول العلم لكل متعلم فانتقل الى اوربا حراً ، ومع هذا أتت عليها بضعة قرون وهي ترسف في جهالتها ، والعرب ينفحون العالم بعلمهم وعلمائهم ومكتشفاتهم وليالي الجهالة الجهلاء تعم الغرب بظلماتها .

ذكر روبرتسون الانكليزي في مقدمة تاريخ شارلكان أنه وجدت عدة قوانين ووثائق صادرة عن أعيان من أصحاب الدرجات الرفيعة يستبان منها انهم كانوا لا يعرفون كتابة اسمائهم ولا توقيع ما يوقعون ، ولذلك كانوا يصنعون صورة صليب على الوثائق التي يكتبونها تكون بمثابة تواقيع لهم .

وكان الكونت هربو رئيس المحكمة وأعظم القضاة في القرن التاسع لايعرف كتابة اسمه وكذلك دوغسلين رئيس الجيوش الفرنسية واعظم رجال الدولة واكابرها في القرن الرابع عشر أمياً ايضاً . قال روبرتسون ولم يكن هذا الجهل مقصوراً على العوام بل كان اغلب القسيسين ارباب الرتب العالية

لا يستطيعون كتابة اسمائهم على القوانين التي كانوا يقررونها في مجالسهم ، ويسأل كل من يطلب ان يتقلد منصباً او وظيفة هل يعرف ان يقرأ الانجيل والرسائل ويفسر معناها ولو كلمة كلمة من غير نظر الى تفسير الجملة اهـ .

وانقلبت الحال بعد قرون فغرق الشرقي المسلم في الجهل وتقدم الغربي المسيحي الى ساحات العلم ، وعاد المسلم العربي بعد ذاك السبات العميق يذكر ماضيه ويحاول استرجاع بعض ما كان له فيه ويعتمد على الحكومات في تعليم أبنائه وبناته على الأكثر ، وما برح المسلمون مقصرين عن جيرانهم المسيحيين في البلاد الاسلامية في انشاء المدارس الابتدائية الأهلية (راجع تقرير معارف الجمهورية السورية عن سنة ١٩٤٦ لواضعه صديقنا الدكتور جميل صليبا) ، وكان في تلك السنة عدد المدارس الاسلامية (٦٥) وعدد المدارس الكاثوليكية (١٠٠) وعدد الارثوذكسية (١٠٧) وعدد البروتستانتية (٢٢) وعدد الاسرائيلية (٤) فليس توزيع المدارس الأهلية على المذاهب المختلفة موازياً لعدد افرادها ، فعدد الطوائف المسيحية مثلاً اقل من عدد المسلمين بخمس مرات ولكن عدد مدارسهم يزيد على عدد مدارس المسلمين الأهلية بثلاث مرات ونصف من مجموع سكان يبلغون في الاحصاء الرسمي ٢،٩٤٩،٨١٥ ونعتقد انه ينقصه بضع مئات من الألوف خصوصاً والمشهور ان عدد اعراب البادية في هذه الجمهورية لايقل عن مئات الألوف ، وفي هذا التقرير ان نسبة مجموع التلاميذ في سورية كلها الى مجموع السكان ٥ بالمائة اي انه يقابل كل الف من السكان (٥٠) طالباً فقط ، وهذه النسبة معادلة لنصف النسبة الطبيعية لأننا نقدر عدد الطلاب الذين هم في سن التعليم الابتدائي في سورية بـ ٩٠ في المائة من مجموع السكان اي ان عددهم يبلغ ٣٠٠،٠٠٠ تقريباً فاذا كان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية الرسمية والاهلية والاجنبية معاً ١٥٠،٢٥٠ كان عدد الاطفال الذين لايتعلمون في المدارس ١٤٩،٧٥٠ تقريباً ، فنصف الأطفال اذاً يتعلم في المدارس فقط . .

أما تعليم البنات فما زال يحتاج كثيراً من العناية ، فقد جاء في هذا

التقرير أن عدد مدارس البنين في عام ١٩٤٥ — ١٩٤٦ (٦٠٧) وعدد مدارس البنات (١٣٠) وعدد المعلمين (١٨٠٢) وعدد المعلمات (٦٩١) وعدد التلاميذ (٧٣،١٣٧) وعدد التلميذات (٢٦،٤٦٦) .

أما في لبنان فنسبة المتعلمين فيه أرقى من سورية فقد سألنا أيضاً صديقنا الدكتور صليبا عن معارف لبنان فاجابنا بما يأتي :

كان عدد المدارس في لبنان خلال العام الدراسي ١٩٤٦ — ١٩٤٧ كما يلي:

المدارس الرسمية في جميع الدرجات ٦٣١ ، المدارس الأهلية ٨٧١ ، المدارس الأجنبية ٣٠٦ . المجموع ١٨٠٨

وكان عدد تلاميذ هذه المدارس (١٨٠٣٥٨) طالباً وطالبة منهم : ٥٣١٩٠ طالباً وطالبة في المدارس الرسمية و ٧٧٠٥٧ في المدارس الأهلية ، ٥٠١١١ في المدارس الأجنبية .

والمدارس الرسمية تنقسم الى قسمين : ابتدائية تكميلية ومسلكية ، وليس في لبنان مدارس ثانوية رسمية . والبيان الآتي يوضح عدد المدارس وعدد التلاميذ في التعليم الرسمي .

٦٢٣ في المدارس الابتدائية التكميلية تلامذتها ٥٢٤٢٢ ، و ٨ في المدارس المسلكية تلامذتها ٧٦٨ .

والمدارس الأهلية تنقسم كذلك الى قسمين : ابتدائية وثانوية وأعدادها كما يلي:

٨١٥ المدارس الابتدائية الأهلية وتلامذتها ٦٤٧٦٩ ، و ٥٦ المدارس الثانوية الأهلية وتلامذتها ١٢٢٨٨ .

ان تلاميذ المدارس الرسمية موزعون على مختلف الطوائف وفقاً للجدول الآتي :

المسلمون	٣٥٣٨٩	طالباً وطالبة
المسيحيون	٢٣٥٥٣	〃 〃
الدروز	٤٠٧٩	〃 〃
الاسرائيليون	٢٩	〃 〃
طوائف أخرى	١٤٠	〃 〃
المجموع	٥٣١٩٠	

والبيان الآتي يوضح لنا ايضاً توزيع المدارس الأهلية على الطوائف المختلفة :

	عدد المدارس		
	الثانوية	الابتدائية	المجموع
المسلمون	٧	١٢٢	١٢٩
المسيحيون	٤٨	٦٥٩	٧٠٧
الدروز	٠	٢٢	٢٢
طوائف أخرى	١	١٢	١٣
المجموع	٥٦	٨١٥	٨٧١

اما عدد البنات في المدارس الرسمية المختلفة فهو (١٢٦٩٩) وعددهن في المدارس الأجنبية (٢٦٦١٩) .

وليس عندي احصاء لهن في المدارس الاهلية

عدد سكان الجمهورية اللبنانية بلغ في عام ١٩٤٦ (١١٦٥٢٠٨) منهم (٥٩١٦٦٩) رجلاً و (٥٧٣٥٣٩) امرأة ،

ان نسبة عدد الطلاب في جميع المدارس الى مجموع السكان هي ١٥٪ تقريباً وهذا يدل على ان الأمية تكاد تكون غير موجودة في الشبان . ذلك لأن النسبة الطبيعية للتلاميذ في سن التعليم الابتدائي لا يزيد على ١٢٪ وهي توجب ان يكون عددهم بالنسبة الى مجموع السكان (١٤٠٠٠٠) على الاكثر في حين ان عددهم في المدارس الاهلية والرسمية وحدها (١١٧١٩١) . واذا كان في لبنان اميون فهم من الذين تجاوزوا سن التحصيل الابتدائي او من ابناء القرى الفقيرة النائية .

كلام سديد

نشر حزب البعث العربي منشوراً اماط اللثام عن تعليل ثورة الشعب الأخيرة بقوله :

تزوير الانتخابات ، وافساد الحياة النيابية بشراء ضمائر بعض النواب واستعمال الضغط والارهاب مع البعض الآخر لمنعهم من حق المناقشة ، ومناوأة الاحزاب المعارضة وتسخير الدولة لخدمة انصار الحكم واحزابهم المصطنعة والتعطيل المتكرر للصحف المعارضة بقصد الجائها الى التوقف واغداق الاموال على الصحف الاخرى وقتل ضمائرها حتى تصبح ادوات مسخرة للسلطة ، وجعل الاذاعة التي هي ملك الأمة بجميع هيآتها بوقاً محتكراً للسلطة القائمة وأداة لتضليل الشعب ، وجعل وظائف الدولة وقفاً على الأنصار بصرف النظر عن الكفاءة والأخلاق ، وتحويل الميرة من مؤسسة تضمن الخبز للشعب بأيسر ثمن ، الى مؤسسة تضمن لكبار المزارعين أوفر المرابح وللموظفين من انصار الحكم اضخم الرواتب ، والاستهتار بقضية رئيسة كقضية النقد ومعالجتها بالكذب والمغالطة والمماطلة ، .وتحميل الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة اكبر قسم من الضرائب وخاصة الضرائب غير المباشرة التي تسبب الغلاء الفاحش في أسعار المواد الغذائية والضرورية للحياة ، وحصر القطع النادر ورخص التصدير والاستيراد بفئة محدودة من التجار المتحالفين مع رجال الحكم ممن اصبحوا يستأثرون وحدهم بعظم الثروة ، وفتح باب الرشوة والسرقة والخيانة لكبار الموظفين في الادارة والجيش دون مسؤولية او محاسبة ، والاستئثار بالسياسة العربية والخارجية ودفعها في طريق الانفصال والانانية الشخصية والتآمر مع الاستعمار ، وأخيراً سد الطريق سداً تاماً في وجه اي امل في الخروج من دائرة هذا الحكم الفاسد وفي امكان تبديله او اصلاحه ، وذلك بطغيان السلطة العليا على السلطات جميعاً وتعطيل

الحكم الدستوري بالفعل رغم قيامه في الشكل ، تلك هي المفاسد التي ثار الشعب عليها وناضل من اجل القضاء عليها اهـ .

وليت هذا الحزب وهو مؤلف من رجال علم وأدب وقانون يتولى الامر بضع سنين لنرى ما يحقق من منهاجه لخير هذه الجمهورية الفتية .

الاونيسكو

الاونيسكو او منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة . جمعية جرى التفكير في تأسيسها سنة ١٩٤٥ في لندن وسرى الى الولايات المتحدة الاميركية ودخل فيها ثلاث واربعون دولة ، تولت بريطانيا العظمى دعوة المؤتمر التحضيري الاول في لندن ، وفي باريز سنة ١٩٤٦ عقد المؤتمر العام الاول وعقد الثاني في المكسيك سنة ١٩٤٧ والثالث في لبنان سنة ١٩٤٨ وقد اجتمع المؤتمر في بيروت في السنة الماضية واختار الاونيسكو محل اجتماعه كل دورة في بلد من بلاد الدول المشتركة فتارة يجتمع في بلدة شرقية وأخرى في بلدة غربية .

وبرنامج الاونيسكو مطول يتناول معظم مايدخل في موضوع العلم والثقافة ومن اعماله ترميم البلدان التي دمرت في الحرب وتبادل الاساتذة والخبراء والطلبة بين الدول والاتصال بالجماهير عن طريق الصحافة والمذياع والسينما ودور الكتب وتعليم الأميين وترقية الجامعات واصلاح الكتب المدرسية وبسط العلوم الى غير ذلك .

كل هذا يقصد به ان تتفاهم الشعوب وتتعارف من طريق العلم والثقافة حتى ترتفع الحرب بشرورها عن رؤوس العالم . وفي دستور الاونيسكو « ان الحرب تولد في العقول والواجب ان يقوم اساس الدفاع عن السلام في العقول أيضاً » . قال مندوب الولايات المتحدة : « اني على ثقة ان منظمة الأمم لن تنجح اذا فشلت الاونيسكو واعتقد انه ليس في وسع مؤسسة

سياسية او عسكرية مهما بلغ من قوتها ان تفرض السلم الا اذا قام الى جانبها ماينشر المحبة والتفاهم بين شعوب الارض ، وهذه هي مهمة الاونيسكو » وقال مندوب ايطاليا : « والكفاح من أجل السلم من طريق الفن والعلم والثقافة باعتبار ان هذه السبيل هي الاداة الناجعة لتعليل اسباب الاختلاف بين البشر انما يعني اعطاء هذه القيم معناها الحقيقي بنقلها من عالم المجردات الى عالم المحسوسات بغية انشاء عالم نرغب في ان يكون اكثر انسجاماً وتفاهماً وتعاوناً » . وطلب مندوب البرازيل في المؤتمر الى جميع الامم ان تجد العزم في تطبيق مباديء الاونيسكو الذي انشيء على انقاض حروب وآلام متصلة رافقت الانسانية منذ الحروب الصليبية في الشرق الى الحروب العالمية الاخيرة في الغرب . »

فكرة الاونيسكو فكرة كل عاقل في البشر ولكن التنفيذ يصعب على مايظهر .

رجال الوزارات

ماهتم رجال الانتداب على سورية ولبنان بانتقاء الكفاة للمناصب بقدر اهتمامهم بتقريب من كان قلبه مربوطاً بهم وكانوا ممن يحسنون مصانعتهم ، كان فيمن اصطفوهم الأكفياء وكان فيهم دون ذلك . جعلوا من سمسار صعلوك وزيراً للمعارف واتخذوا من مستخدم صغير في الاستخبارات ومن مطرود من شركة ماكنات وزيرين . وأكثرهم لم يتخرجوا في مدرسة وكان منهم رؤساء وزارات لا يحسنون فناً من الفنون ولا يتكلمون لغة من اللغات .

كان هذا أيام الانتداب فما عذرنا اليوم في تولية الجهلة الفاسدين أرقى المناصب ، ونعتذر عن خطإنا بان الحق على الحزب الذي اختار الوزير فولى بلا خجل (الحاج حمدو) وزارتين وهو عاجز عن ادارة ديوان صغير ولا تمرن في أقل وظيفة ادارية أو سياسية خالي الذهن من معرفة القوانين والفنون ويزيد الى ذلك فساد ذمته .

نكتة ذكرتها وأنا أكتب هذا الفصل : كان على عهد الانتداب في دمشق مدير داخلية ماهر في القوانين والادارة أخذ مرة يناقش مستشار البلدية وهو افرنسي في فتح شارع فكانت براهين المستشار براهين الجاهل الذي يتكلم سقياً ورعياً وبراهين المدير براهين العالم العارف بصناعته . ومما قاله المستشار للمدير ان هـذا الرأي الذي تبديه سعادتك لا يمكن تطبيقه فناً ، فأجابه المدير ومتى كنت يا صاحبي تعرف الفن ؟ أما كنت أنا على عهد الترك قائم مقام في يافا وكنت أنت بها صاحب حانة وكنت ارسل خادمي الى حانتك فابتاع منها ما يلزمني من الأشربة ؟ فمثلك وصنعتك هذه ماذا يحق له أن يدعي من معرفة الفن .

ويصدق هذا الشاهد على بعض من تولوا الوزارات في عهد الانتداب وبعده . ومنهم من يضيفون الى غباوتهم قـلة امانتهم وقلة الامانة على مايظهر من مستلزمات الجهول . ومثل ذلك يقال في (ابو كعود) وهو وزير ابتليت به هذه الامة منذ نحو خمس وعشرين سنة وليست له مزية من المزايا الا الاحابيل التي تعلمها ، هذا ان كانت الاحابيل تعد مزية يوم وزن الرجال . ومن أعظم العار أن ينقل هؤلاء الوزراء المنحطون من وزارة الى وزارة كما ينقلون هم أنفسهم من حزب الى حزب كأنهم اعلاق نفيسة لا يستغني عنها قصر ولا ندوة ، يرتكبون التزوير ليوسدوا اليهم أشرف الأعمال وهي النيابة ، وكأنهم من الدعائم في كل بناء اذا نسل حجر من الاساس تداعى وانهار .

كان من جملة النقمة على احدى الوزارات المنحلة أن من أفرادها من كان يتناول رواتب ومخصصات من عدة وزارات ورياسات خلافاً للقانون حتى بلغ راتبه فيما قيل ثلاثة أضعاف راتب أعظم رئيس ، ولسان حال من ابتدع هذه البدعة « من أحببناه أغنيناه ورفعناه ومن أبغضناه حرمناه ونكبناه » وبدون العدل ينقضّ كل بناء وتضمحل أعظم أمة .

لايحسن انتقاء الوزراء الا بالبحث عن ماضيهم وحاضرهم فمن ثبت لنا ولغيرنا ذكاؤه وأمانته وكفاءته نصبناه والا فتشنا في الطبقات الأخرى فهي ما خلت قط من الصالح الذكي ، وملايين من الخلق مهما انحطوا لا تخلو من عشرين

وثلاثين رجلاً يصلحون أن يديروا بالعدل أمور دولتهم ، ولا نعود الى تجربة من جُرِّب ففي أمثال العامة « من جرَّب المجرَّب كان عقله مخرباً » ونحن لا غضاضة علينا اذا بدلنا من لا يصلح بمن يصلح ، نعتبر الصفات التي تتطلب من الوزراء ولا نعتبر كثيراً بحزبية الوزير ، فالحزبية ما كانت يوماً من الأيام عنوان الكفاءة ومقياس الاخلاق ، ولكم شهدنا وزراء لايحسنون حل أقل مسألة من مسائل وزارتهم ، وكان جلّ اعتمادهم على الضعاف من رجال دواوينهم يصرّفون لهم أمورهم لانهم من جماعة (حاج حمدو) و(أبو كعود) ولو فحصتهم ما وجدت مداركهم تعلو عن « أجير شيخ حارة » أو « فراش قديم في ديوان » .

وأقول في الختام لمن بأيديهم البت في الامور : لا تعتمدوا بعد الآن على أجهل الوزراء وأعطلهم ولا تغتروا بكلامهم وهم على الكراسي فانتم الذين كبرتموهم في الانظار ولولا الكراسي لكانوا سالبة كلية ، أما هم فسيان عندهم رضي الناس عنهم أم غضبوا ماداموا آمنين على ما في جيوبهم ورئيسهم راضياً عنهم .

(كتبت في خريف سنة ١٩٤٩)

عشرة المتماثلين

قال لي والدي في معرض تفضيل جيله الأول على جيله الثاني متلهفاً على مافات من سالف ايامه وهكذا اعتاد معظم الشيوخ : كنا خمسين رجلاً جمعت بيننا الصداقة وألفت بين قلوبنا العشرة وتقارب الجوار ، وكان اكثرنا من طبقة التجار فخرجنا من المدينة للاصطياف في قرية الهامة من جبل سنير. نزلناها أول يوم عيد الفطر وغادرناها خامس يوم عيد الاضحى اي صرفنا فيها شهرين ونصفاً . وكان نظامنا تاماً في كل أمر من أمورنا ، لم يلبس أحدنا نعل غيره ولا تخالفنا في شيء وكان أحدنا ينزل الى المدينة مرة في كل اسبوعين ينظر في أمور مخزنه ويجيب على ماورد عليه من رسائل في البريد . فقلت له : وكيف كنتم تصرفون هذا الوقت الطويل ؟ قال : كنا نقضيه في العزف على ماكان لدينا من أدوات الطرب ، وكانت الموسيقى والغناء والانشاد ورقص السماح من أهم ماكنا نلهو به ، ثم نلعب الالعاب الرياضية المألوفة وفيها قفز ونط وحركة ، ونتناقش في ايراد القصص والحكايات وحل الالغاز والمعميات وفي ضروب من الهزل والدعابات . وكنا اذا صلينا نطيل الصلاة واذا جلسنا الى المائده نطيل الاكل ، وهكذا يمر الوقت بدون أن نشعر . فقلت له وهو يفاخر بفرط أدب معاصريه : ان كسلكم وعدم حسابكم للمستقبل وقناعتكم بالقليل كانت مما جلب علينا الويلات ، فغدونا نسرع لنلحق العاملين المتقدمين ، ولا نزال بعيدين عن الغاية . ومما قلت له ولو كتب لي أن أكون شريككم في هذه النزهة لدخل الملل على قلبي من اليوم الاول وتهددتني اقضي العمر الثمين في تافه الملهيات لالذة تتوقع منها ولا فيها للنفس سلوى .

ولو كان يجوز التوسع في الحديث مع والدي لقلت له : ولماذا لم يصحب كل منكم عياله يكتري لهن داراً فيأنس الرجال بالرجال والنساء بالنساء

ساعات معلومة من الليل والنهار ، اذا لم يبح قانون تلك الايام اختلاط الرجال بالنساء ، ولو فعلتم لكانت الأسرة تصطاف كلها وتستفيد بالعشرة ، ومعظم جماعتنا الى اليوم لا يفكرون في بنات حواء ، قتلتهم الأثرة وحب الذات. وفاتني أن أسأل أبي يومئذ وهل كان في جماعتكم واحد يستطيع أن يقرأ لكم في كتاب ويشرح لكم ما غمض عنكم حله وفهمه ، وبذلك كنتم تمضون ساعتين مفيدتين من كل وجه . والغالب أن هذا الطلب كان في غير محله لان كل هذا الجمع هو ممن تغلب عليهم الأمية فكانوا بذلك متماثلين ، ولهذا تمت ألفتهم ولم يشذ عنهم عقل عن عقل ولم تحدث أحدهم نفسه أن يميزها عن اخوانه بشيء على ما جرت عادة المتصاحبين ، وأعتقد الى هذا ان هؤلاء المصطافين لو كانوا ممن يقرأ ويفهم ما يقرأ ما أضاعوا شهرين ونصف شهر من حياتهم في مهازل لا تعود عليهم بغير تقطيع الوقت سدى .

وزنت أحاديث المجالس بميزان النقد ، وقارنت بين أَمس واليوم ، فاستبان لي أن البون شاسع بين الآباء والأبناء وأكثر منه بين الأحفاد والأجداد ، فما كان يرضي الأسلاف من الأحاديث لا يرضي أبناءهم وما كان يُعد من مباهج الحياة يحسبه أهل العصر مضيعة للوقت بل سرفاً وسفهاً . ومن أجل هذا نرى بعض البيوت الى اليوم خالية من الكتب على غنى أصحابها لأن صاحب البيت الأول ما كان يقرأ ولا يكتب فخرج أبنه على غراره الا قليلًا هذا والكتاب مهما كان نوع تأليفه أعظم محدث ومسلي وليس الكتاب بالعزيز المنال بعد انتشار الطبع هذا الانتشار ، وكانت الكتب بالامس مخطوطة يعز وجودها وهي في موضوعات مملة لا تستسيغها كل الاذواق والكتاب اليوم منوع الابحاث جم الفوائد ، يروح عن النفس ولا يدخل الملل عليها مهما طالت عشرة المرء له .

معلمة الاسلام

او دائرة المعارف الاسلامية أو الموسوعات الاسلامية أو الانسيكلوبيذيا الاسلامية من أَجلّ التآليف والاعمال التي قام بوضعها علماء المشرقيات في الغرب وأصدرتها مطبعة بريل في ليدن من بلاد القاع في ثلاث طبعات أَلمانية وانكليزية وافرنسية وانفقت على تأليفها وطبعها ونشرها جمعيات علمية ودول غربية واشترك نحو خمسين عالماً غربياً في هذا التأليف النفيس ولم يشترك فيه غير عربي واحد وتركي واحد وهندي واحد واميركي واحد وما آزر فيه اسباني ولا برتقالي مع كثرة الموضوعات التي كان يفرض أن الاسبان والبرتقاليين يعرفونها عن بلادهم معرفة احاطة ، وقد وقع الكتاب في أَربعة مجلدات ضخمة مع ملحق صغير ضم ما ظفر به الباحثون من المعارف عن ديار الاسلام ورجاله وما الى ذلك .

وتعلقت همة بعض الشبان في مصر بنقل هذه المعلمة الى العربية فاجادوا في ترجمة بعض مقالاتها وكبوا في ترجمة الآخر . وتتوقف الاجادة في النقل على ان يكون المترجم ممن أحاط بالموضوع احاطة تامة. وكان الواجب أن تشرف على الطبعة العربية لجنة من كبار الاساتذة فتعجلوا العمل واستسهلوه فسقطوا ، على مساعدة وزارة معارف مصر لهم . ثم بدا لهم ان يعلقوا على بعض مقالات المعلمة بأقلام فئة من الأدباء والعلماء ماارادوا به اصلاح بعض النقص الذي جاء في الاصل فأحسنوا في اكثرها . وقد وهم بعض المعلقين أن تطلبوا من مؤلفي المعلمة ان يكتبوا معلمتهم من حيث النظر الاسلامي لامن حيث نظرهم هم .

وكنت لاحظت على ادارة هـذه المعلمة اشياء كتبت بها الى صديقي العـلامة هوتسما الهولاندي رئيس تحريرها منها أنه فات المعلمة ذكر كثير من رجال الاسلام المتقدمين والمتأخرين ومن هؤلاء من هم احرياء ان يترجموا لهم بأطول مما ترجموا وان في بعض المقالات نزعة من التعصب لايليق ظهورها في صفحات

مثل هذا الكتاب كمقالات البلجيكي لامنس والروسي غراتشكوفسكي ومقالات هوار الفرنسي الموجزة ايجازاً مخلّا اليق بها ان تكون فهرساً من ان تنشر في معلمة يقصد بها التقصي - فاعتذر عما وقع وارادني على ان اتولى كتابة بعض المقالات في المعلمة فلم أجب طلبه ذلك لان معظم مقالاتها سبقني اليها بعض علماء المشرقيات وقد صدرت في جيل غير جيلي .

فات هـذه المعلمة ترجمة كثير من القدماء والمحدثين من رجال الاسلام ومنهم عبد الحميد الكاتب واحمد بن يوسف الكاتب واحمد بن يوسف المعروف بابن الداية وعمرو بن مسعدة وعبـد القاهر الجرجاني وعلي بن عبـد العزيز وأبو عبيد القاسم بن سلاّم وأبو هلال العسكري وأبو أحمـد العسكري وصالح بن جناح وابن الخناط الكفيف وابن خاتمة الاندلسي وابن عنين وابن الصيرفي والوهراني وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف وعمارة بن حمزة وابن طولون الصالحي وابن عبد الهادي وغيرهم من المتقدمين .

وترجمت المعلمة لمحمد بن عبد الملك الزيات وابن العميد ترجمة مختصرة من قلم كليمان هوار سابق الحلبة في اقتضاب التراجم التي لم يظهر عليها ادنى بحث وتعب ، يكتب مثلها اقل الطلبة بتصفح اي كتاب من كتب التراجم القديمة . وفات المعلمة من المعاصرين ترجمة الشيخ طاهر الجزائري واحمـد تيمور باشا واحمد زكي باشا والسيد محمود شكري الآلوسي واحمـد القباني (أبو خليل) والسيد محمـد عابدين والسيد محمود حمزة والسيد عبـد الرحمن الكواكبي واحمد شوقي بك وحافظ ابراهيم بك ومحمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري وامثالهم من العظماء والمأمول ان تنظر ادارة نشر المعلمة الاسلامية نظر تمحيص اكثر مما نظر فيها ومحص ، وان يعاد طبعها طبعة جديدة مضافاً اليها النقص الذي ظهر في بعض فصولها وان تضم اليها التراجم التي اغفلت . واذا عرضت هـذه المعلمة على كبار العلماء منذ الآن سدوا بعلمهم نقصها وحذفوا ماكان فيها نابياً عن الحق مغموساً بالتعصب والرعونة ، واضافوا الى صفحاتها مااكتشف من آثار العرب ومخطوطاتهم منذ صدر الجزء الاول اي منذ أربعين سنة .

اضل الله على علم

ادركته شاباً مكباً على النسخ والجمع في دار الكتب ، وزهو الشباب وزهو المعرفة ماثلان فيه ، اصابه العجب لتقدمه ابناء طائفته بمعرفة اللغة العربية وكان تخرج بأعظم علماء النهضة . واشتهر منذ بدأ بنشر ابحاث ومقالات في بعض المجلات الادبية حشاها بمغامز في الاسلام والعرب لاتقل بسفاهتها عن مطاعن لامنس اليسوعي . اما مزيته فكانت في انه لم يقصد من الادب التكسب به وجعله حلية له وزينة ، ثم واسطة للتشفي ممن فطر على بغضهم من المسلمين ، كسب عطف المتعصبين من اهل نحلته وفقد عطف السواد الاعظم من قراء العربية .

وحاول في عهد الانتداب الافرنسي ان يظهر التوبة مما اجترح ويتقرب من رؤساء العلماء والادباء في بلده ليجعل منهم سلماً للوصول الى مظهر علمي كان يطمع فيه ، فما اعاروه انتباهاً وكانوا اذا نسي احدهم او تناسى ماضيه الاسود ذكره به اخوانه وذكروا له قلة انصافه فيما خاض عبابه من الابحاث العربية . وما زال وهو اليوم في عتبة التسعين على كثرة اجتهاده بعيداً عن النور الذي يسير بين ايدي العلماء محروماً الذوق الادبي لانه عاشر الكتب واصطحب الرهبان وهؤلاء لايدركون من امور المجتمع والبيوت شيئاً يعتدّ به . قام والقحة سلاحه بحملات غير رشيدة على الاسلام وعبث بتاريخه وآخرة المعتدي الفشل . وأي اعتداء افظع من ان يحمل كاتب على دين يعد اشياعه بمئات الملايين واي سلاطة ان يحاول بعد الهرم تلافي مافات ولكن الصيف ضيعت اللبن .

المؤيد والمقطم

حوالى سنة ١٩٠٧ قصدت في القاهرة صديقي الدكتور يعقوب صروف احد صاحبي المقتطف والمقطم لأزوره في مكتبه فلم اسعد بلقياه ولقيت شريكه الدكتور فارس نمر فسلمت وسلم ثم قال كالمتهكم : انا استغرب ان يحرر مثلك في جريدة المؤيد . وقلت ولِمَ لاأؤازر فيها وهي اوسع الجرائد المصرية انتشاراً واهم الصحف الاسلامية في العالم . والغالب انه بدرت مني كلمة في الثناء على المصريين واشرت الى مطالبتهم بالاستقلال فاغتاظ وقال انهم لايليقون للاستقلال وان أقل جاويش انكليزي ارقى من اعظم رجل مصري . فتألمت لجرحي هذا الجرح وقلت له على البديهة : لايمدح السوق الا من ربح ، تقول ذلك لانك تبيع من الانكليز هذه البضاعة ، وتشتم أبداً ابناء مصر . وكدنا نتماسك ونتضارب لولا ان دخل علينا داخل فقطعنا الحديث وانتهى المجلس على هذا القدر من التشاحن .

واذكر اني دخلت ذات اليوم على الدكتور صروف في وقت الظهيرة فشاهدته يقرأ التجربة الاخيرة من المقطم ويحذف مقاطع منها وكلمات. فلما انتهى من النظر فيها التفت اليَّ بكليته وقال : مادري كيف نجوّز شتم المصريين في جريدتنا ونحن نعيش بين اظهرهم ؟ . وصروف يحرر المقتطف ونمر يحرر المقطم ، وكان صروف رحمه الله الى الاعتدال يغلب عليه جلال العلم وتؤدة المحققين والمفكرين ،

اكرام الغريب

قال لي أحد شركائي في الزراعة انه كان في ضيافة أحد معارفه في قرية من قرى الغوطة وسهر عنده جمهور من اهل القرية كان بينهم رجل من وجوهها . فلما كاد المجلس ينقوض في الهزيع الثاني من الليل قال هذا الصدر : أوصيكم يا اخواني بالغريب ، اكرموه ماستطعتم ، وابذلوا جهدكم لادخال السرور على قلبه ففي ذلك فوائد لكم ولقريتكم . فقلت للراوي :وأنا سألت ذات يوم معلمي عن رجل من ابناء البيوتات في بلدنا وكانت له نسبة الى العلم : اراكم ترفعون من شأن فلان وهو على مابلغني قليل العلم لايستحق هذا الاكرام . فاجاب ان للرجل مزية جميلة يجب لاجلها احترامه . ذلك انه دأب من سنين طويلة على اكرام الغرباء القادمين علينا يكرمهم ويدعو اصحابه لاكرامهم يُزَوِّرهم الجوامع والمدارس والمزارات المقدسة والمصانع الاثرية ويعرفهم الى صفوة الفقهاء والوجهاء فيعود الغريب الى بلده شاكراً مغبوطاً بما رأى ووعى . قال : اليست هذه مزية تستوجب اكرامه ؟ فقلت لو كان لي يد في وضع موازنة الدولة لخصصت لبضعة اشخاص من ارباب المكانة مبلغاً عظيماً ينفقونه بمعرفتهم على اكرام الغريب وتحسين سمعة البلد فيعود ذلك على الحكومة والشعب بمنافع سياسية واقتصادية .

عقول مخربة

سمعت دعياً من ادعياء الفهم يطعن على أحد كبار العلماء لعدم عنايته بثيابه وهندامه ويعد ذلك منقصة فيه ، والمطعون فيه ملأ الدنيا خيراً والطاعن لامزية له الا مصانعة كل صاحب قوة ، هو يتذرع بمسألة لاتقدم ولا تؤخر في عظمة الرجال . وفي الامثال الافرنجية الناس كالمداخن فالمدخنة التي يكثر دخانها ليست ذات هندام حسن في العادة . وكأن القادح يحاول ان يتدرج من حكمه على أعظم عظيم في قومه ليشير من طرف خفي الى ان بزّة اهله هو كانت جميلة وهم جهلة ساقطون ليس لهم الا المظاهر البراقة وابنهم السخيف لايؤثر الا الجميل الثياب ولا يحفل بما تحتها من خزي وخبث . في العالم من يحلو لهم ان يحركوا السنتهم بمعنى وبلا معنى يبدون الكراهة مما لايدركون سره ولا يلتئم مع أذواقهم كأن اذواقهم المعيار الاكبر في الحكم على كل شيء.

وسمعت من يمخرق ويقول أي فائدة لنا من العلم ونحن كنا أسعد حالاً قبل عهد علمكم هذا أيام كان آباؤنا أميين وكانت أشغالنا موفقة وكنا نكسب وننعم من دون أن نتعب في تحصيل العلم ويتبجحون بان من الجهلاء من وصلوا الى مناصب في الدولة وهم أجهل من قاضي جُبّل ويقولون ان أناساً جمعوا ثروات طائلة وهم لا يقرأون ولا يكتبون ويزيدون على قولهم ، أنتعلم حتى نصير كفلان اشتغل بالعلم الذي تدعون اليه طول عمره وما اغتنى كما اغتنى جاره الأمي ، وبماذا تجيب مثل هذا الغبي وعقله بهذا الضيق الذي ترى .

انكم مهما بلغتم في تحاملكم على من لاتساوون قلامة ظفرهم لا تعودون بغير الخزي في محاولتكم اسقاطهم ومن تتطلبون اثبات فضائلهم بالطعن في أفضل الفضلاء هم أجهل الجهلاء .

المسلمون يتعلمون

كان أبناء الاغنياء على عهد ازدهار الاسلام يأخذون العلم في بيوتهم على أيدي المؤدبين ، وكان الفقراء يهرعون الى المساجد يتلقون فيها مانطمح اليه نفوسهم من الآداب عن علماء ما قيدوا انفسهم الا بواجبهم الديني ، وما قصدوا الا نفع قومهم . وكان للمدارس في فارس والعراقين والشام شأن عظيم في نشر العلم الاسلامي وللمدارس الكبرى في نيسابور والري والازهر والزيتونة والقرويين مكانة ليست للمدارس التي أنشأها الافراد . وعادت مدارس العجم عامة بأعظم الخيرات على الاسلام والعربية سواء منها الصغرى أو الكبرى وظل نور المدارس الجامعة التي ثبتت على محن الدهر يسطع العصر بعد العصر ، حتى اذا كان القرن الماضي وبدأت نهضة مصر أخذت العلوم الاسلامية التي كانت تنبثق من الجوامع ينضم اليها ما تنتجه المدارس الحديثة فيتساند القديم والحديث ، ولمصر ميزة خاصة بأزهرها كان العامل الاكبر فيه كونها بقيت دولة أو شبه دولة وساعدها أيضاً غناها وتوسطها بين الاقاليم الاسلامية وكونها ابنة مدنيات عظيمة تسلسلت فيها قروناً .

واثبتت مصر بعد زوال دولة الترك عنها أنها ذات كفاءة للعلم وفيها كان على الدهر بقايا منه في كل زمن وما لبث العراق والشام في العهد الحديث أن طلبا الى مصر انجادهما بمدرسين مصريين يلقنون ابناءهما على الطريقة التي تقدم المصريون فاقتبسوها من الغرب ومزجوها بما كان عندهم من بقايا العلوم القديمة ، وقد بلغ عدد المدرسين المصريين في الاقطار العربية خمسمائة استاذ يدرسون في الثانوي والعالي ، وانتهى عدد الطلاب الوافدين على وادي النيل لدرس الشريعة والعربية والعلوم الحديثة الى ثلاثة آلاف فيهم الصيني والجاوي (الاندونيسي) والهندي والافغاني والقافقاسي والتركستاني والعراقي والشامي والمغربي وغيرهم من العناصر الاسلامية .

ومذ بدء النهضة تتجلى العناية بنشر العلوم على الطريقة الحديثة في

المدارس المدنية أكثر من المدارس الدينية حتى لقد ضعفت في بعض الارجاء العلوم الشرعية ، وعلى نسبة الرغبة في الجديد كان الزهد المحسوس في القديم ، وكان للحكومات يد في هذا التبدل عاون فيه الطلاب وآباء الطلاب لان السواد الاعظم منهم يطلبون علماً يكسبون به معاشهم وعلوم الدين لا يعيش بها طالبها إلا في ضنك خصوصاً بعد أن جعل القول الفصل للقوانين الغربية في معظم الاصقاع الاسلامية ، وما نجت من هذا التجدد الا اليمن والحجاز ونجد والامارات العربية في الجزيرة .

في خمسين سنة تطور العالم الاسلامي تطوراً ملموساً وكان أحباب الاسلام يتوقعون أن يتقدم خطوات أوسع من التي خطاها وتعذر ذلك لتوقف الاضطلاع به على بواعث ، منها ماهو مفقود ومنها مايحتاج الى الزمن فيصقل ما يصقل ويرذل ما يرذل . (وسيتلو القاريء الفصل الذي كتبناه في النهضة الشامية الاخيرة في مكان آخر) ويسرنا ان كانت العراق والشام أسرع الاقطار الى الاخذ بمذاهب الترقي لما كان متأصلاً فيهما من الصفات الصالحة لتلقف العلم. وكان هذان القطران أكثر الأقطار انتفاعاً بنهضة مصر ، وامتازت العراق عن الشام بانها ما ابتليت ببلية التقسيم كما ابتليت الشام فسلخ عنها لبنان ثم شرقي الاردن ثم فلسطين ثم لواء الاسكندرونة ، وكانت وحدة العراق السياسية عوناً لها على الوحدة العلمية .

وعلى شدة العناية بنشر التعليم في مصر ما زال من يقرأون ويكتبون أقل بكثير ممن كوفحت أميتهم وأنشأتهم المدارس وقد أخرجت مصر هذه السنة من الأمية البغيضة اربعمائة الف ، وأعدت العدة لمكافحة خمسمائة وخمسين الفاً من قابل ، ولا بد من قضاء جيلين حتى ترفع غشاوة الجهل المطبق عن عيون البنين والبنات في مصر وغير مصر .

عرش غريب

صاحب هذا العرش « انطوان دي طونين » من پريكو (فرنسا) ذهب سنة ١٨٦٠ الى پاتاغونيا في اميركا الجنوبية وكان فيها قبائل من الزنوج صعب على حكومة الشيلي اخضاعهم لسلطانها فتقدم وداخلهم وجمع شملهم وعاهدهم على ان يدافع عن استقلالهم ونادى بنفسه ملكاً على پاتاغونيا واروكانيا ومنح مملكته دستوراً مأخوذاً من الدستور الفرنسي . وفي السنة التالية قضى الجيش الشيلي على هذه المملكة المستحدثة ولم يرض الملك اوريلي انطوان الاول ان يتنازل عن الملك ولا ان يعترف بهزيمته ، فسجنه الشيليون اشهراً ثم رحلوه الى فرنسا فمات تاركاً وصية ذكر فيها من يخلفه في الملك فكان لوالده ان يتقلده اولاً ثم لاخوته وفى الدرجة الثالثة يجيء ابن عمه واذ أبى الاب واولاده تقلد هذا الملك قبل ابن العم الا أنه لم يرحل للقبض على زمام مملكته واكتفى بتأسيس مفوضية لپاتاغونيا واروكانيا كان يبيع فيها القاب الشرف وطوابع بريد المملكة ونقوداً رسم عليها شعارها فنجحت هذه التجارة ونصب الملك قناصل لمملكته ونال بعضهم براءات بمناصبهم ولا سيما في ايطاليا وغدا قناصله يدعون الى المقابلات الدبلوماسية .

قال راوي هذا الخبر « اندريه موروا » : وهكذا كان الزهو البشري لمن يحسن اللعب به منبعاً لاينضب لـرَيْع يدر على ثاني ملك لپاتاغونيا واروكانيا يعيش منه في باريز وما يعيش الا من غلة مملكة موهومة . وقد انقرضت هذه السلالة الملكية بوفاة هذا الملك ولكن براءات الشرف ونقود المملكة مازال عشاق المجاميع يتطلبونها . قلنا وبعض عروش الشرق الحديث لم تخل من غرابة في تأسيسها وسياستها وهي سخيفة بالقابها وبزّاتها ومصطلحاتها .

باسم الدين

شهد العصر الذي نحن فيه مالم يكد يشهده العصر الذي سبقه من تبدل واختلاف وكان دور الانتقال ذا الوان واشكال يشبه ذنب الطاووس بجماله وسخام القدر في اسوداده . كان أهله متباينين في صفاتهم تباينهم في سحناتهم وغلب الشر الخير فيه واصبح الرياء والكذب من معتاد الازياء . والقانون الطبيعي يجري على رقاب الناس كافة لايفلت منه أحد حتى من باعوا واشتروا باسم الدين .

قال لي صديق عاقل ان المطران فلان جمع حتى الآن مئة وخمسين الف دينار جناها من ابناء طائفته في اميركا وطائفته هنا كما تعلم كثير فقراؤها وهو لايجود عليهم ببعض مايجب عليه لهم فقلت : أيقن ياصاحبي ان ماله سيذهب ويبقى عليه اثمه وعاره . فقد عرفت المطران ... – وكان يتعبد الله ببغض المسلمين في الغيبة ويدهن لهم في الحضرة – جمع باساليب رجال الدين عندكم اربعين الف ليرة عثمانية ذهباً وهاجاً ثم بدا له في آخر أيامه ان يعطيها لاحد ذوي قرباه ليثمرها له في مصرفه فما هي الا اشهر قليلة حتى افلس المصرف وتبخرت ثروة المطران في جملة ماتبخر فيه ، ولم يعش المسكين بعدها إلا قليلاً وراح آسفا على مالقي من نصب في بيع الغفرانات ومنح البركات .

واعرف شيخاً داس على الامة ستين سنة وجاز على العامة وبعض الخاصة تدليسه وجمع مالاً كثيراً من طرق شتى ومن دول رأت استمالته فما ان دلي في حفرته حتى استولى أولاده على ارثهم وبددوا ما ورثوه في الطرق التي يبذر فيها المستهترون اموالهم وفي أقل من أربع سنين اضمحل الارث ونفذ القانون الذي يعاقب على الشر وبه يعاقب الشيخ والمطران لمخالفتهما روح دينهما .

بتمزيق اموال الاشرار تغتبط نفوس الاخيار .

الاخوان المسلمون ثائرون

« تألفت منذ سنوات جماعة اتخذت لنفسها اسم « الاخوان المسلمون » وأعلنت على الملأ أن لها أهدافاً دينية واجتماعية دون ان تحدد لها هدفاً سياسياً معيناً ترمي اليه ، وعلى هذا الأساس نشطت الجماعة وبثت دعايتها ولكن ما كادت تجد لها أنصاراً وتشعر بأنها اكتسبت شيئاً من رضا بعض الناس عنها حتى أسفر القائمون على أمرها عن أغراضهم الحقيقية وهي أغراض سياسية ترمي الى وصولهم الى الحكم وقلب النظم المقررة في البلاد .. وقد اتخذت هذه الجماعة في سبيل الوصول الى أغراضها طرقاً شتى يسودها طابع العنف فدربت أفراداً من الشباب أطلقت عليهم اسم الجوالة ، وأنشأت مراكز رياضية تقوم بتدريبات عسكرية مستترة وراء الرياضة ، كما أخذت تجمع الاسلحة والقنابل والمفرقعات وتخزنها لتستعملها في الوقت الذي تتخيره ، وساعدها على ذلك ما كانت تقوم به بعض الهيئات من جمع الاسلحة والعتاد بمناسبة قضية فلسطين وأنشأت مجلات اسبوعية وجريدة سياسية تنطق باسمها ، وسرعان ما انغمست في تيار النضال السياسي متغافلة عن الاغراض الدينية والاجتماعية التي أعلنت الجماعة انها قامت لتحقيقها ..

« الجمعية ليست جمعية دينية بالمعنى الذي يفهمه الجمهور وانما هي جمعية سياسية دينية اجتماعية تنادي بتغيير القوانين وأساليب الحكم الحالية وان الخطب الدينية لا تفيد في توجيه الجمهور الى تفهم غرضها الحقيقي وأن الوسيلة لبلوغ هذا هو اثارة الجمهور بطريقة طَرْق مشاعره وحساسيته لاعقله وتقديره » .

هذا ما ورد في بيان الحكومة المصرية بعد ان قيل ان هذه الجمعية ارتكبت اجراماً كثيراً من قتل ونسف واحراق وآخر كل ذلك اغتيالها رئيس حكومة مصر محمود فهمي النقراشي باشا الذي أمر بحل جمعيتهم ثم اغتيال أحد الاخوان رئيس جمعيتهم لان اخوانه شعروا بانه سيدل الحكومة

على ما لدى الجمعية من سلاح وعتاد وقذائف فيما قيل وقد ظهرت أوكار للجمعية كثيرة في القاهرة وغيرها من الاقاليم فيها من العتـاد والسلاح ما لا يوجد عند دولة عظيمة . لا جرم ان جمعية الاخوان المسلمين من اعظم ماقام من الجمعيات السرية في مصر وغيرها من بلدان الشرق العربي وحق للناس أن يبالغوا في تقدير مكانتها . هذا وقد سرت دعوة هذه الجمعية الى من يحبون التقليد على العمياء فدخل فيها كثيرون ممن يتحمسون للدين في الشام وغيرها ولما كشف أمر جماعتهم في مصر تواروا وعمدوا الى التقية والبراءة من عمل اخوانهم في وادي النيل .

الاشتراكية في مصر

الاستاذ عبد الرحمن البَيْلي بك من وزراء مصر ومن رجال المحاماة فيها رزقه الله الغنى فأحسن التصرف به ، واخرجت منه التجارب والدرس اشتراكياً معتدلاً ، لامن الصنف الذي يدعو الى الاشتراكية باللسان وهو في ذاته من أقسى ارباب الأموال . هو يشارك فلاحيه في نعمته مشاركة لاتنقص من ماله ، وتزيد في ريع مزرعته . هو من طبقة تنظر الى المستقبل بعين البصيرة وتدرك ان الغني اذا لم يعطف على الفقير فالعاقبة عليه وخيمة .

وآخر ما ذكرت الصحف من اعمال هذا الدراكة ان اتخذ من يوم النصف من شعبان من كل سنة يوم برّ وجعل من برّه تزويج خمسة شبان من ابناء قريته على نفقته الخاصة يقدم لهم هدية العرس من ماله وهي مسكن صحي لطيف مع جهازه وادواته وفرشه وبقرة حلوب . يعمل هذا ويقول نحن في عصر جديد يجب ان تكون فيه محبة الزارع للمالك هي الراية الشرعية التي تنضوي تحتها القلوب .

لاجرم ان الاستاذ البَيْلي هو المالك الحقيقي للارض بما يصنع من خير لمزارعيه ينفعهم وينتفع بهم وسيقطف هو واولاده ثمرة ماتجود يده

على الفقراء يتعهم بما يتمتع هو به وينقلهم بجميل صنعه الى حالة من العيش لو حصل عليها جمهرة ارباب الزرع ما كان الفرق كثيراً بين فقير وغني ولما خشي الاغنياء غدرات النظم الجديدة وويلاتها .

وبعد فقد دعا النائب المشار اليه الى المذهب الاشتراكي وقال ان الدول الكبرى ومنها بريطانيا العظمى أمّ الديمقراطية وحصنها الحصين تدعو الآن اليها وان بريطانيا انتدبت مائة وخمسين عالماً من اكبر علماء الاقتصاد والاجتماع لدرس مايمكن ان تنتهي اليه المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها العالم من سنين فقالوا لا بدّ ان تؤدي يوماً الى انقلاب عنيف لاسبيل الى تفاديه الا اذا عدلت الانظمة الاقتصادية في العالم بحيث تضمن للناس جميعاً مستوى من الحياة يتفق مع القواعد الانسانية وتمحى هذه الفوارق الهائلة بين مستوى المعيشة عند الاقلية الموسرة والاغلبية التي لاتكاد تظفر بعيش الكفاف .

قال ان ثلاثة ارباع المصريين اي اثنا عشر مليون من الفلاحين والعمال وصغار الزراع يعيشون في فقر مدقع يفتك بهم الجوع والمرض اي ان اثني عشر مليوناً من المصريين لايجدون حتى عيش الكفاف بل لايجدون جرعة من الماء الصالح للشرب وان اجور العمال في الزراعة قد بلغت من التفاهة حداً يهبط بهم الى مستوى الحيوان او ما هو دونه بكثير ، وان الثروة الزراعية في مصر موزعة توزيعاً عجيباً فبينا تجد ملاك الأراضي يقرب عددهم من مليونين ونصف مليون تجد أن من هذا العدد نحو مليونين لا يزيد متوسط ما يملكه الواحد منهم على عشرة قراريط في حين أن أصحاب الملكيات الكبيرة لا يزيد عددهم على اثني عشر الفاً يبلغ متوسط ما يملكه كل منهم مائة وسبعين فداناً أو يزيد اه .

وما زلت أقول للمصريين ان في مصر تسعة عشر مليوناً يشقون ابداً لينعم بتعبهم مليون من السكان وانه من السخف أن يصرف مليون جنيه على فتح شارع في القاهرة أو الاسكندرية للتباهي ولا يصلح ماء شرب الفلاح ومسكنه ولا تعنى الحكومة بتعليمه لتخرجه من البهيمية الى الانسانية .

هذا وقد ذكرت الصحف المصرية أن صاحب الدولة ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزارة سيتقدم الى البرلمان ببرنامج اشتراكي ، فاثبتت مصر بذلك أنها سائرة في نظام حكمها مع الزمن وكل ذاك بفضل بعض رجالها الاعاظم ووحيهم أمثال عبد الرحمن البيلي بك .

وآخر ما قرأته للاستاذ البيلي بك في جريدة المصري اثناء كلامه على ضريبة الاطيان الجملة الجميلة الآتية : وفي سبيل هذا الهدف رأيت ان أتناول موضوع الضريبة على الأطيان من وجه آخر يربط بينها وبين ما تقتضيه حياة الغالبية العظمى من أبناء البلاد وهم سكان الريف — من نهضة ترتفع بهم الى المستوى اللائق بكرامة الانسانية والذي يجعل منهم مجتمعاً سليماً وكياناً وطنياً منيعاً واذا قلت سكان الريف فانما أعني مصر باجمعها اذ هم يمثلون ٨٠٪ من مجموع السكان وتقوم على اكتافهم وسواعدهم النهضة الزراعية والصناعية والثقافية والعمرانية ، ومن بينهم ينبت القادة وجنود الوطن وعدته في الدفاع وفي النشاط التنفيذي والمهني وفي كل ميادين العمل ومدارج الكفاية البشرية ، وبناء مصر الحديثة الناهضة يقوم على دعامة أولى هي النهضة بالريف وتهيئة وسائل الحياة الكريمة لساكنيه وفي هذا الميدان ينبغي أن تتجه جهودنا جميعاً وفي كل بقعة من بقاع الريف وكل قرية من قراه يجب أن تتوافر المرافق العامة الانتاجية والاجتماعية والصحية والثقافية والعمرانية الخ .



حديث النعمة

قال لي مدير التمليك : منذ خروج هـذا القطر عن الحكم العثماني لم يسجل احد من الاعيان ملكاً جديداً على اسمه الا ماكان من التناقل في الملك الواحد بين الاسرة ، ومن يسجلون الاملاك على اسمائهم من جديد هم من الباعة والطبقة الوضيعة ممن يلبسون الثياب الزرق ويتبلغون في يومهم بليرة سورية أو ليرتين .

ساءني هذا النبأ لان في اغتناء هذه الطبقة وخروج الامـلاك من ايدي من كانت تنتقل بين طبقتهم اجيالا اي فقر الاغنياء واغتناء الفقراء ، ثورة لاتحمد كثيراً لان فيه قطع ارزاق ألوف من الخلق كانوا يعيشون من الطبقة العالية التي افتقرت وهي على الاكثر من الطبقات التي تنفق دخلها واحياناً اكثر من دخلها لتعيش عيشاً رغيداً وتظهر بمظهر لائق بين أهل حيها ومن تعاصرهم ، أما الأغنياء الجُدُد فانهم اشحاء ، وبالشح جمعوا ماجمعوا على الاغلب لاينفقون الا جزءاً ضئيلاً من ريع املاكهم ، والمدنية لايقيمها الا الاغنياء والطبقة الجديدة منهم تؤخرها بجمودها وبخلها .

والسر في انتقال الثروة هذا الانتقال الفجائي كون الجدد عملوا وما جمدوا وغامروا واقدموا والاغنياء الذين ورثوا غنـاهم تناساوا كثيراً وتفرقت املاكهم ثم اسرفوا وما حملوا الى بيوتهم مالا جديداً وجمـدوا وما تلمسوا الطرق الموصلة الى الغنى مكتفين بالتوظف ، والتوظف قلما أغنى صاحبه ، ومعظم الموظفين يعيشون ويموتون فقراء مهما سرقوا وارتشوا .

من عادة الثروات التنقل وفي هذه الحرب اغتنى بعض التجار واشباههم غنى فاحشاً ومنهم من حدثتهم انفسهم بالتوسع في معايشهم وبادروا الى تعليم اولادهم يحاولون أن يظهروا للاعين على ماكان يظهر اهل السعة سابقاً واخذنا نسمع باسماء اغنياء ماسمعنا بهم من قبل ، وكانت من الطبقة الدنيا قبل عقد واحد من السنين . ومنها من حاز الغنى بطرق غير شريفة وظل بعد غناه يزوّر ويغش لايرد جماحه شيء .

طبقات الوزراء

عمل الوزير عظيم لايضطلع به الا من جمع الى العلم تمريناً والى السياسة خلقاً . ويتخرج الوزراء عندنا في مدرسة الاحزاب والمحافل والاندية وأروقة المجالس النيابية ومن كانت لهم دراسة خاصة وتجربة سابقة هم الصدور المقدمون . والاحزاب قد تختار نوابها وتجيد الاختيار وبالعكس . والنائب قد يصل الى كرسي النيابة بكفاءته وفي الاكثر بجربزته وواسع حيلته ، ومعظمهم يطلب رضا المحافل الماسونية ، وما زال مغروساً في العقول ان الماسونية قوة لايستهان بها يصل منتحلها الى المناصب وبها يحمي نفسه من القوانين وسيطرة الرؤساء .

المستوزرون الا من كان على شيء من عزة النفس يتحسسون المرجع الفعال في تنصيبهم فيتقربون اليه بما يقنعه بحسن بلائهم ويحمله على استدعائهم في حالة شغور المنصب وعندنا ان من تقلد الوزارة مرة حق له ان تكون له الأولوية أبداً ، والعامل الاكبر في تكرر مجيء الوزير الى الحكم أن يرضى عنه من بيده تعيينه والامة تختلف درجة حظوته عندها وفي الاغلب انها لاترضى كل الرضى عن الرجل مادام قابضاً على السلطة فاذا اعتزل أوأقيل برد حقدها عليه ، وربما عادت فاختلقت له المحامد . وما برح الرأي العام في ديارنا يتحرك بحركة الاغراض لايعرف الثبات والاستقرار ، والمرضي عنه اليوم مغضوب عليه غداً ، والناس أبداً اقرب الى الطعن المبرح فيمن كان لهم نصيب من الحكم منهم الى المدح المعقول .

ورأينا بعض من اختارتهم السلطة المنتدبة للوزارات في سورية ولبنان من الاكفياء لمناصبهم وكذلك من جاؤا بعدهم على عهد الجمهورية ، وتولى الوزارات من تنقصهم أشياء كثيرة واهم ما كانت تعوزهم الاخلاق ومنهم العجزة الذين لا يستطيعون ان يحلوا مسألة واحدة بأنفسهم وقد اعتادوا الايسيروا الا تحت يد من سيرهم ، وغرامهم ابداً بقضاء مصالحهم الخاصة وقلما

تهمهم المصلحة التي جاؤا لمعالجتها ومعظمهم يصلون الى هذه المرتبة بقوة الاحزاب وقل فيهم من نالوا الوزارة بقوتهم الشخصية وقل فيهم جداً من كانت لهم ثقافة لابأس بها ومعظمهم اذا عدلوا مع انفسهم لايكون منهم اكثر من موظفين من الدرجة الرابعة او الخامسة .

تختار الحكومات للوزارات من يوافق سياستها من بعض الوجوه وتتحمل الوزير على علاته وهي تعرف مواطن الضعف فيه وتدرك جهله وعدم نزاهته . وليست الأحزاب والمحافل أقل تساهلا ممن يعينهم مكتفية منهم بميزة خاصة تراها فيهم . وعندنا ان من اهم ماتظهر به كفاءة الوزراء دوام مهمتهم ثلاثاً او أربعاً من السنين اما الاشهر القليلة فلا تكفي لاعظم ذكي ان يدرس متشعبات وزارته وتنكشف له حركة الخبيث والطيب ممن سقط عليهم من الثابتين من موظفي دواوينه وعماله . والغالب ان صاحب الشأن لايهمه نقص كبير يشهده في اخلاق الوزير بقدر مايهمه خدمة غرضه وتطبيق سياسته .



حسنات الازهر

مهما قيل في خلل طريقة التعليم في الأزهر وهو خلل دام الى الثلث الأول من القرن الرابع عشر من الهجرة فانه خرج رجالاً خدموا الشريعة ونشروا اللغة العربية . نشأ في اواخر القرن الماضي عالمان جليلان شامي وعراقي درسا في الأزهر واحكما ما درسا ثم صار كل منهما شيخ رواق الشوام وشيخ رواق البغداديين فلما ارتويا من العلم رجعا الى وطنهما يجددان فيه ما عفا من رسوم الشريعة . عنيت العلامة الشيخ عبد القادر القصاب من جبل قلمون في الشام والعلامة الشيخ حسين العزّى من عرب سقي الفرات ، وكلاهما قعد لاقراء الناس في عودته الى بلده ، فخرج الأول وعاظاً وفقهاء وتخرج بالثاني في العلوم الدينية كثيرون في ارجاء الفرات ومن انبغهم اليوم الشيخ سعيد العرفي واتم هذا التلميذ ما بدأ به استاذه من بث روح العلم في أبناء تلك الديار وكانت بلده ديرالزور في جهلها كالبادية او اجهل من بادية قبل ان يقوم فيها ذاك الأزهري العظيم . ولولا عمل هذين العالمين لاضمحل الاسلام في هذه الاصقاع العظيمة ، فانظر الى فضل جامع الأزهر واعجب بما بثه ويبثه من الأنوار في القاصية والدانية .



عذر اقبح من ذنب

لما بدأت الجيوش الالمانية في الحرب الأخيرة تتوغل في الاراضي المصرية أيقن الانكليز بالخطر الداهم اذا استولى الالمان على مصر ، فلم يروا لتلافي الفاجعة احسن من اكراه ملك مصر على القبول بتوسيد الوزارة المصرية الى مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصري أكبر الاحزاب المصرية سواداً . دعا الانكليز الى المطالبة بمثل هـذه الوزارة لانه سمع في بعض المظاهرات من ينادون (الى الامام يارومل) وروميل قائد الجيش الالماني في افريقية ، ويستشم من هذا النداء ان مصر تحب استيلاء الالمان على مصر وربما عاونتها للوصول الى غرضها لتنفض يدها من يد بريطانيا العظمى وتتمتع باستقلالها تاماً .

فجاء القائد الانكليزي الى سراي عابدين بدباباته يفرض النحاس باشا على صاحب التاج فرضاً فآثر جلالته ان يرضى بالوزارة المقترحة لئلا يكون من رفضه سبب لحدوث فتنة تهرق فيها دماء المصريين . وهكذا انفض الأمر بسلام وما عاد يسمع في الشوارع « الى الامام يا رومل »

الانكليز على تهذيبهم قد يسيئون الى من يرون في اساءته فائدة لهم ثم يعودون فيعتذرون ، وكذلك كان حالهم مع صاحب مصر عاملوه هذه المعاملة الخشنة لاكراهه على ما لايحب وتقدموا ليعتذروا .

لون من الوان السياسة لاتقدر دولة مهما بلغ من سلطانها ان تقلد فيه بريطانيا العظمى .

الكل مسؤولون

اعتاد بعض أرباب الزراعات العظيمة في غوطة دمشق ان يأدبوا كل سنة مأدبة كبيرة في مزارعهم يوم ضمان المشمش او القنب أو الكرم او الزيتون وغيرها من الاثمار والغلات فيجتمع لديهم مئات من فلاحى القرى ومن ينضم اليهم من الصعاليك وهم في ظاهرهم من الضمانة وفي الحقيقة انهم يحضرون السوق ليطعموا من طعام صاحب المزرعة ويتسلوا برؤية من حضر وسماع أقوالهم . وجاءت هذه الطائفة هذا العام الى سوق عقد في مزرعة كبير لبيع مشمشه فما ان رأى الحضور الطعام يقدم على السماط في القدور والاواني والصواني حتى أخذوا يلتهمون الطعام بشراهة ومنهم من كانوا يمدون ايديهم اليه قبل نوبتهم ويحملون منه في عباءهم واكمامهم بل في سطول يحملونها ومنهم من يتعمدون أذى من ينتظر نوبته في الأكل او من تقدم فأكل . وافسد بعضهم ماوضع من الطعام بالقاء التراب فيه ثم أخذوا يتضاربون ويتشاتمون ويكسرون الصحاف والاطباق والزبادي والكؤوس فأبانوا بما اجترحوا عن دناءة وهمجية فطردهم المتولون تنظيم الضيافة قبل أن يتم الآكلون أكلهم . وقد انكر أعيان الفلاحين هذه السلاطة وخجلوا من وقوع هذه القحة في بيت يجب على الأمة ان تحترمه . فقلت لهم لاتعجبوا وتصدروا حكمكم بهمجيتهم وابحثوا قليلاً في اصل هذه العلة وما كان الداعي الى تأصلها ، ولم لم يفكر المفكرون في استئصالها ، فان أرباب الاملاك لم تحدثهم أنفسهم يوماً في حمل النور الى الفلاحين يرون مايرون من خرق وسفه ساعة مايقع ثم يغلقون باب التفكير فيه . فلو قد بدأوا بتعليم أهل الزرع والضرع منذ أوائل هذا القرن لجاء منهم جيل مهذب يستحيل ان يرتكب مثل هذه الرعونات ، ولو بحثنا في درجة تهذيب المجتمعين ذاك اليوم لرأينا من ارتكبوا هذه الفظاظة غارقين في الأمية من فرقهم الى قدمهم

ومن ظهروا والأدب باد عليهم كانوا ممن درسوا في الكتّاب شيئاً هذب أخلاقهم . نحن نريد شعباً راقياً يخلقه الله لاجل خاطرنا خلقاً دون أن نسعى أدنى سعي لتهذيبه وتعليمه . ولو كانت أهمتنا مصلحة غيرنا كما أهمتنا مصلحتنا لأتى منا الشعب المهذب الذي نرجوه .

الأعيان مقصرون ، والمشايخ مقصرون ، والمدنيون مقصرون ، والقرويون مقصرون ، وكل مستنير العقل مقصر ، والجرم في الآخر يقع على الجاهل المسكين الذي لا يدرك عقله أكثر مما تدرك دابته ، نحاول ان نتمتع دون أن نتعب وان يعامل الجاهل بالقوانين الدستورية مع اعتقادنا أن مئة سنة لا تكفي لأن تخرج من متوحشي هذه الأمة شعباً يفهم ماله وما عليه .

كثيراً ما كانت قرينتي رحمها الله تقول لي : إلام تهتم بأمر الفلاحين هذا الاهتمام ، تشفق عليهم وتحاول رفع الظلم عنهم ، وتعمل على فتح طرق وكتاتيب لهم ، وما هم الا ممَاردة لو أعفت الدولة ظهورهم من ضرب العصي والسياط لما استطعت أنت على مكانتك أن تذهب الى مزرعتك آمناً على روحك ، فكل ظلم ينالهم يستحقونه ويستحقون أكثر منه ه ولولا الاستبداد بهم ما استقام لكم أمر معهم .

فكنت أجيبها اني أتحمل كل هذا العناء ليستنير عقل الفلاح وينشأ منه جيل أصلح من الجيل الحالي للحياة ، يدرك أن مصلحته مناط تمدينه وان لا سعادة له الا بتعليم الذكور والاناث من أولاده التعليم الأولي ، وانه لا تحسن حاله بدون الصدق في عمله والبعد عن الرذائل .



هلال رمضان والعيدين

كل سنة تحدث بلبلة في بلاد الاسلام من أجل اثبات هلال رمضان وشوال وذي الحجة ، والمحاكم الشرعية حتى بعد ارتقاء علم الفلك واتقان المراصد الفلكية ، لاتزال مصرة على اثبات الهلال بالعين المجردة لا تعتمد على الارصاد لأن الماضين ما عرفوا اثبات الاهلة بهذه الطرق الجديدة فلا بد من شهادة شاهدين ، وقد يكونان من العُمْصَ العُمْش ، يشهدان أنهما رأيا القمر ساعة ولد فيتناولان ما جرت العادة باعطائه من جعل لمن يشهد هذه الشهادة وعندها يصوم المسلمون أو يفطرون .

وتناقش أصحاب الفتيا في هذه المعضلة ففريق يقول برؤية العين في الاثبات وآخر يوافق على رصد القمر في المراصد ويؤكد أنها أقرب الى الثقة ، وألفوا في هذه المعضلة الخطيرة كتباً ورسائل ، وظل كل فريق مصراً على رأيه . وقد قبلت مصر سيدة العالم الاسلامي في الشرع نظرية المراصد وانقذت بلادها من الفوضى ، ولا تزال الشام متعنتة لايعنيها ان جعلت من مسألة الرؤية مهزلة يضحك منها الأجانب .

حقيقة نحن جامدون الى حد السخف لا ننزع القديم البالي بالسرعة الواجبة ، ولا ننزع الى الجديد النافع بدون جدال لا طائل تحته .



دمشق

قال احد ارباب المدارك ان لدمشق طابعاً خاصاً في طبيعتها وروحها ومرافقها لاتشبه المدن الداخلية ولا المدن الساحلية . وهذا الكلام يصدق على هذه العاصمة منذ فتحها العرب المسلمون . وانتقلت دمشق في أيام بني أمية من حاضرة صغيرة الى عاصمة كبيرة يمتد حكمها مسافة تسعة اشهر في اوربا وافريقية وآسيا . عاصمة تهوي اليها افئدة ملايين من الشعوب لابد ان يكون خلفاؤها قد هيأوا فيها اسباب الراحة والنعيم لمن ينزلونها واصبحت في مئة سنة سيدة المدن والعواصم في الارض كلها .

وما اقامه الامويون في دمشق من اعمال العمران تعذر على السفاح والمنصور من خلفاء العباسيين ان يقضوا عليه كله يوم فتح العباسيين . وكان الرشيد والمأمون يختلفان اليها في الاحايين ويعجبان بآثار بني أمية فيها . ذلك لانه كان في فطرة الدمشقيين الاحتفاظ بمصانعهم وعادياتهم على ما تبين من تاريخهم في القرون التالية فان جامعهم أو جامع بني أمية وهو أعظم جامع في الاسلام خرب بالحريق والزلازل مرات وأهل دمشق يعيدونه كل مرة الى سابق حاله وكذلك المدارس التي أنشئت من القرن الخامس الى القرن التاسع وهي لاتقل عن مائة وخمسين مدرسة لتعليم القرآن وفقه الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي عدا الرباطات والخوانق والزوايا والتكايا والمستشفيات ودور الزمنى والمجذمين وكانت كلها تدار ادارة حسنة ويدرس فيها اعاظم العلماء ولها اوقاف دارة ، فلما جاء العثمانيون في القرن العاشر اخذ الخراب يدب فيها ولم يغادروا دمشق الا وفيها ثلاث مدارس خربة لاغير .

وبقدرما احب الدمشقيون اهل الدول الذين رتعوا آمنين في ظلهم كبعض العباسيين والسلجوقيين وفي مقدمتهم الرشيد والمأمون وطغتكين ونورالدين وصلاح الدين ابغضوا الفاطميين الذين اعماهم التعصب الديني وعاملوا الدمشقيين

بالقسوة والجبروت ، وفي ايامهم خربت دمشق وضاحيتها . وكان عهد المماليك خيراً وشراً ، خيراً في ايام عقلاء ملوكهم مثل المنصور قلاوون وشراً في عهد بعض من خلفوه وتقدموه حتى اذا جاء الاتراك العثمانيون اصبحت دمشق من اول عهدهم تئن من سوء ادارتهم حتى اضمحلت اضمحلالاً كادت تشبه به قرية كبيرة فيها جوامع عظيمة وبقايا هندسة نشأت بفضلها قصور ومصانع في الماضي .

وما كانت معاملة الفاتح سليم الأول العثماني دمشق اقل قسوة من معاملة تيمورلنك التتري لها قبل قرن ، والاتراك كتيمور وجنكيز وغازان اميل الى تخريب مايستولون عليه منهم الى عماره . فقد اخذ تيمورلنك من دمشق جميع ارباب الصنائع وحملهم معه الى سمرقند . ولما استولى العجم على دمشق قبل الاسلام كان اول مافكروا فيه ان ساقوا امامهم ارباب الصناعات نقلوهم الى فارس كما حملوا وحمل الفاتحون ومنهم سليم الاول ماكان في هذه المدينة العظيمة من النفائس والعاديات وجميع مايحمل من انواع الثروة المنقولة .

ومن دواعي خراب دمشق تسلط الاعيان على سياستها في معظم القرون ولخوف الدولة من ولاتها تسارع ابداً الى عزلهم حتى لاتحدثهم انفسهم بالاستقلال . هكذا كان شأن المماليك وهكذا شأن العثمانيين بعدهم ، فالوالي الذي لايقيم في ولايته اكثر من سنة واحياناً شهراً او شهرين يستحيل عليه ان يعرف البلد الذي تقلد حكمه اشهراً قليلة مهما بلغ من ذكائه وتجربته فضلاً عن ان يفكر في اصلاح يدفع به الظلم ويقيم العدل . والوالي العاطل يشارك الاعيان ومعاول التخريب تشتغل من كل جانب .

ولولا ان في طبيعة الدمشقيين حيوية عجيبة في الصنائع والتجارة لاصبح اهلها بادية لكثرة مالقوا من الشدائد . ولقد اثبتوا في جميع الادوار انهم في صنائعهم آية وان الاتقان دأبهم ، وصنائعهم منوعة تبدأ من هندسة المباني

وتنتهي بالفرش والآنية ، وتجارتهم كانت منذ القديم تمتد من الشرق الى الغرب واذا ساعدتهم الاحوال السياسية ووقفت الحروب حقبة من الزمن ارتاشوا واغتنوا واذا اختلت الحال ضنوا باموالهم وخزنوها في صناديقهم . وكانوا الى أواخر القرن الماضي اذا أمن التاجر شريكه وقد يكون بدوياً نجدياً يسلمه ألوفاً من الدنانير بدون سند وينتظره اعواماً حتى يتم تجارته على مايحب ، فالثقة كانت على اتمها بين التجار بعضهم مع بعض وبين التجار والمستهلكين . وفي كل بلد نزله الدمشقي للتجارة اغتنى في سنين قليلة هذا اذا كان على استعداد لمعاطاة التجارة ولائم جو الارض التي حلّ فيها صحته وفي الامثال العامية (اعرج الشام وصل الصين)

في قارة افريقية مستعمرة بريطانية غنية اهتدى اليها الدمشقيون ووافوها متجرين وكان سبقهم الى الاتجار فيها جماعة من تجار الانكليز فرأى الدماشقة ان البريطانيين كان من عادتهم اذا خرجت البضائع من البحر ضموا عليها خمسين في المائة ربحاً وخمسة في المئة قيمة ماتقرضه الفيران منها في السفن ، فارتأى الدمشقيون الاكتفاء اولاً بربح خمسة في المئة فما عتم التجار الانكليز ان عادوا الى بلادهم وتركوا الدمشقيين يتجرون في المستعمرة وحدهم . ولهم من ذلك حكايات تدل على صبرهم وحنكتهم وكذلك يقال في نسائهم فان المرأة الدمشقية لاتبالي بالهجرة ، هاجرت في عصرنا الى الهند واليابان والعراق وسائر الدول العربية وهاجرت الى أوربا والى أميركا وحيث حلت تظهر شخصيتها ، وهي مقتصدة تعنى عناية فائقة بزوجها وباولادها وتصرف من وقتها ساعة في عمل الخير وتتصدق على الفقراء ولا تخرج عن قواعدها في الاقتصاد وتتجمل أبداً . واذا ساعدها الحال تتكرم على الضيفان واذا تأخرت حال زوجها ، وهي تشاركه في كل شيء ، قبضت يدها حتى عن شراء ثوب تتزين به امام جاراتها وأهلها . وللدمشقيين والدمشقيات في المهجر روابط متينة ليست لهم اذا كانوا في البلد الذي خرجوا منه ، ولذلك تحترمهم الاجانب ويمتازون على كثير من الشعوب المهاجرة ومن هؤلاء من يعتمدون عليهم في حل مشاكلهم وتعبيد الطرق أمامهم للاتجار والاغتناء .

وفي الحرب الاخيرة ظهر اقتدار تجار دمشق وكانوا استعدوا لدخول ميدان المضاربات منذ أكثر من سنة ولهم أموال أودعوها مصارف الدول الكبرى كالهند وانكلترا والولايات المتحدة وغيرها فسيطروا على التجارة في قسم عظيم من بلاد الشرق القريب واغتنوا اغتناءً ماشاهدوا ولا شاهد أجدادهم بعض بعضه ، فلما وضعت الحرب أوزارها هبوا بدافع من وطنيتهم ودينهم يعطون مما كسبوا حق الوطن وحق الله فأعطوا الدولة أموالاً استعانت بها على الظهور بمظهر دولة عظيمة وأعطوا حق الله بأن أنشأوا مستشفيات ودور احسان وعبادة وتعليم . وأنشأوا الى ذلك معامل على النمط الغربي من كل صنف حتى كادت بعض أراضي غوطة دمشق تشغل بالمعامل والدور التي أنشأوها لنزول العاملين فيها وأنشأوا من أرباحهم القصور الفخمة وأدخلوا مدينتهم في طور عاصمة غربية كبرى ومن زار دمشق اليوم وكان زارها منذ عشرين سنة لايكاد يعرفها .

ولدمشق في باب العلم أيام غرر كانت محجاً لطلابه منذ عهد الصحابة الى يوم الناس هذا ، وعلمهم كان الكتاب والسنة أو علوم القرآن والفقه والأصول والكلام والحديث ثم اللغة والأدب والطب والتاريخ والفلك والرياضيات والهندسة وغيرها ، وكان المشتغلون بعلوم الشرع والأدب أكثر عدداً من المنصرفين الى علوم القدماء أو ما نسميه العلوم العصرية ، ومن كان يظن ان دمشق كان فيها الى أواخر القرن التاسع أربع مدارس طبية ومدرسة هندسة ، واشتهر من أبنائها رجال في جميع الفنون ومنهم من اشتهروا شهرة عالمية كابن تيمية ، وهو في الاسلام كاوثيروس في النصرانية ، وامتازت دمشق بكثرة محدثيها كما امتازت بكبار مؤرخيها ، والعلاقة بين الحديث والتاريخ معروفة ، خرج منها مؤرخون ومحدثون من العيار العالي لم تخرج مثلهم مصر ولا غيرها ، خرج منها ابن عساكر وابن خلكان والذهبي وابن كثير وابن أبي أصيبعة والصفدي وابن فضل الله العمري وابن القلانسي وغيرهم . وهذان الأخيران كانا من رجال السياسة ولهما مكانة عظيمة في دولتي الفاطميين والمماليك . وخرج منها شعراء عظماء

كفتيان الشاغوري وابن حيوس وابن عُنَين واضرابهم ، وما خلا عصر من عصورها من شعراء مجيدين ومؤرخين محققين وأطباء ماهرين ومهندسين بارعين ، وقلّ فيهم الفلاسفة كما قلوا في مصر . وما خلت دمشق في كل عصر من رجال قوالين بالحق من علمائها يجرؤن على الملوك ويردونهم الى صراط الشرع ويضيقون عليهم الخناق في التحديد من الجباية حتى لايرهق الناس باسرافهم ، ومنهم العز بن عبد السلام والنووي ، وكان السلاطين والولاة ترتجف أعصابهم منهما يخشونهما كخشية الله ، ولما مات العز بن عبد السلام قال الملك الظاهر بيبرس : الآن ملكت وفي حياته ماكنت آمن على نفسي لأنه في مكنته ان يخلعني كل ساعة لما له من منزلة في قلوب الناس . وكثير من العلماء من كانوا يقفون موقف المرشد الناصح مع الملوك لا يلتوون في الحق ومنهم من رضوا أن يكونوا تحت جناح أرباب السلطان لتسلم لهم مظاهرهم ودنياهم .

وفي العهد الحديث أنشأت دمشق مجمعاً علمياً وجامعة وأصلحت التعليم بكل فروعه وأخذت روحها تسري الى الديار الشامية كما كانت منذ القديم. وقد أصدر مجمعها وجامعتها ورجال التعليم تآليف عظيمة في الفنون المختلفة ووضعوا الفاظاً لمصطلحات العلوم وادخلوا كتب التدريس في الابتدائي والثانوي في طور جديد لا يقل بمكانته عن كتب مصر . ومن تلاميذ هذه المدارس من تخصص في العلوم اخذوها من فرنسا وسويسرا وبلجيكا والمانيا وانكلترا والولايات المتحدة وغيرها وانبغت دمشق مئات من الاخصائيين ماكان لهم فيها اثر قبل ثلاثين سنة ، و حضانة العلم ثلاثون سنة كما قال نابغتنا عبدالرحمن الكواكبي .

ومن اخلاق الدمشقيين انهم يستسلمون لرؤسائهم على الاكثر ويعطفون على الفقير ويكرمون الغريب ، واحقادهم ضعيفة بالقياس الى غيرهم من الشعوب ، وسرعان مايقلدون في اقتباس مايقربهم من الحضارة ، ويتأدبون مع الكبير وقد يصدرون عن رأيه ، ويحبون الطرب ويفهمون النكتة ولهم في باب الهزل يد طولى ويوم الجد هم ممن يفاخر بهم ، ولهم استعداد

خاص لتلقف اللغات الغريبة وهم شعب اقرب الى الدين منه الى الالحاد ، ويعيش اهل الطبقة الوسطى عيشاً قريباً من عيشة اهل الطبقة العليا . والطبقات عندهم ثلاث لايكاد احد ابناء طبقة تحدثه نفسه بالتسلق الى مساواة واحد من طبقة اكبر منه . والمواطنون على اختلاف اديانهم يتحابون كما يتحاب اهل الدين الواحد ، وفي الوطنية كلهم سواء لاتخرج الاقلية عن رأي الأكثرية.

ويعجبني من دمشق انها تتخيل الى اليوم انها في حكم بني أمية مسؤولة عن كل مايحدث في العالم العربي اذا نزلت كارثة بمسلمي الصين كانت في مقدمة من يؤاسيهم وان حل بلاء بابن مراكش ولم تمد اليه يد المعونة خجلت من قصورها ، وهي في الثورة اول من يرفع علمها وفي السلم الكل في الكل ، فاذا كانت الحال تدعو الى الوحدة السورية ترفع صوتها اول الصارخين وفي الدعوة الى الوحدة العربية تنادي اول المنادين وفي الدعوة الى الاتحاد الاسلامي هي أمها وابوها وفي كل دعوة جديدة تتقدم لاتتأخر وتتحمل من الاعباء مايفوق طاقتها وتقوم بواجبها وباكثر من واجبها كما كان منها في الحرب الفلسطينية فاحتضنت اللاجئين اليها من الفلسطينيين كما تحضن ابناءها وبناتها.

هذه دمشق وانا عندنفسي اني ماوصفت الا ما شاهدت وما حدثت الا بما علمت وقلت فيها ماقلت برئياً من التعصب والعصبية .



اعمال الاداريين

على رجال الادارة تتوقف سعادة كل بلدة ، وهذا في نظر من ينظرون في الأمور الى أبعد من أنوفهم ويعتقدون أن العناية يجب أن تصرف في الريف كما تصرف في المدن ، والريف مادة المدن وبتحسينه كمال النهضة . ومما يكتأب له أن هذه الطائفة من الاداريين لايعرف أكثرها وظيفته ، ولا تحدثه نفسه أن يجود عملاً يعود بالخير على من يديرون شؤونهم ، ويعذر بعضهم على فتورهم ذلك لانهم لا يقيمون طويلاً في منصبهم فاذا بدأ الواحد بعمل لا يتمه ويجيء من بعده يخربه على ما جرت به العادة ، والعلماء من رجال الادارة يتمون أبداً ما بدأوه مثل صديقي مصطفى الشهابي وعارف النكدي فقد بنى الأول دار كتب حلب ودار كتب اللاذقية مدة ولايته عليها وأقام الثاني ميتمين للذكور والاناث في السويداء في جبل حوران ووقف عليهما أملاكا بناها مجدداً هذا الى ما أحياه من وقف الامير السيد في عبيه من عمل لبنان وما بنى من المدارس والحوانيت والمصانع

المال لايعوزنا وانما الذي يعوزنا حسن التصرف به ، وتدبيره التدبير المثمر وانفاقه في المنافع والمصالح .

رأي عادل

جاءني وأنا في الوزارة استاذ من جامعة شيكاغو تصحبه قرينته وترجمان مؤتمن من أصحابنا فاستقبلته في داري ، وعرفت أنه يقصد من زيارته ارشاده الى مصادر يأخذ منها مادة لكتاب موضوعه (الانتداب) فقلت له هل اجتمعت الى الامير شكيب أرسلان ؟ قال : حاولت ذلك فلم أوفق ، وقيل لي انه شخص لا قيمة له ، فقلت له لقد غشك من قال لك ذلك فان في يد الرجل الذي أسقطوه من نظرك توكيلًا موقعاً عليه من سبعة وثلاثين الف رجل من أبناء سورية على ما بلغني ، وأنت اذا لم تجتمع اليه ولم تأخذ من أفكاره يصدر كتابك تافهاً ، فشكيب أقدر منا كلنا على معاناة هـذه المسائل . ثم التفت اليه وقلت له : أذكر لك على سبيل النكتة ، ان عالماً كبيراً من علماء الدين عندنا (البطريرك الكسندروس طحان) جاءه جماعة من الشبان المعنيين بالسياسة – قبل أن توافي اللجنة الاميركية المعروفة بلجنة كراين أرض سورية ولبنان تسأل اهلها عن الدولة التي تودان ان تنتدب عليهما – وطلبوا اليه ان يرشدهم الى الدولة التي يختارها لذلك ففكر قليلًا ثم قال : من الطبيعي ان نقول فرنسا ، ولكن لي رأياً خاصاً أرجو ان لا تنشروه عني وهو انه اذا كان الانتداب لاميركا تعلف هي البقرة ونحن نأكل لبنها ، واذا كان لانكلترا نعلف البقرة ونتقاسم درّها معاً ، واذا وسد الانتداب لفرنسا نحن نعلف وهي تتناول خيرها .

فلما سمعت العقيلة قرينة الاستاذ الاميركي كلامي هللت وصفقت كأنها في دار تمثيل وقد أَعجبتها القطعة التي مثلت ، وزوجها بالطبع اهتز طرباً ، والتفت اليه وقلت له : اكتب هذه النكتة في كتابك الجديد ولو كلفتني خروجي من الوزارة .

بقايا الطرق

في مصر والشام بقايا من عادات الطرق هي مجموعة بدع ممقوتة تراكمت بفعل قرون الجهالة وعدها الجاهلون من الدين ، وكانت الاناضول مهد الطريقة المولوية انتشرت قروناً في أرجائها على العهد العثماني فلما أبطلها الكماليون مع ما أبطلوا من الطرق عدّ العقلاء ذلك من حسناتهم . بيد ان هذه الطريقة مازالت قائمة خارج الجمهورية التركية وطريقتها عبارة عن رقص وتواجد وغناء وناي ونقارات الى أمور ينكرها الشرع يأتونها في مجالسهم بل في مراقصهم .

ومن الظريف اني ما سألت فقيهاً عن حكم هذه البدع الا انكرها وطلب الهداية لمن يمارسونها فاذا قلت له فلماذا لا تجهر بانكارها زاغ مني وولى ، كأن انفاذ أحكام الشرع مما لا يدخل في برنامج المشايخ ، ودأب هؤلاء فقط أن ينافقوا من يخافون ومن لا يخافون .

مسكين شرع محمد بن عبدالله يعبث به علناً في أرقى بلاد المسلمين أمام من وكل اليهم بحسب الظاهر القيام على خدمته لا يتكلمون ولا ينصحون ، والبدع تنخر العقول وتنحر الارواح ولا تجد لها ولياً مرشداً .

الفقهاء وكسوتهم

من اجمل ماقام به الكماليون خلفاء العثمانيين الاتراك من ضروب الاصلاح سوق كل من يدعي العلم من ارباب العمائم الى دخول الامتحان ليتميز الجاهل من العالم . وقد وسدوا للعالمين المناصب الدينية وساقوا الجاهلين الى الأعمال الصناعية والزراعية ، وحظروا عليهم طلب العيش من طريق لم يخلقوا للسير فيها . وقام البهلويون بمثل ذلك في فارس وعزلوا من ارتضوا علمهم في ناحية لا يتعدونها لينقرضوا مع الزمن . وكان لهذه الطغمة في ايران وتركيا مواسم في الدجل والشعوذة تذكر فلا تشكر .

والظاهر أن الشام تعذر عليها سوق دجاجلة الدين الى الفحص فرأت أن تخص العلماء الحقيقيين بزي خاص فصعب عليها أيضاً انفاذ ما ارتأت ، ذلك لأن حكومتنا تحاول ارضاء كل الناس وبهذا الاسلوب يستحيل قيام الاصلاح .

وما برحت فوضى كسوة الرؤوس ماثلة في أرضنا وكلها لا تناسب اجواءنا في صيفها وشتائها ، فمن طربوش الى بيريه الى قالبق الى سدارة الى كوفية بعقال وكوفية لاعقال لها الى قبعة الى عمامة بيضاء أو خضراء أو سوداء الى عمامة مزركشة (أَغباني) الى غير ذلك من الكساوي المضحكة .

اصلاح كسوة الرأس واجبة والواجب قبلها اصلاح الرؤوس ، وذلك يكون بعزل الجهلاء عن العلماء ، والتوسعة على طلاب العلم وتوسيد المناصب الى ارباب الكفاءة والنزاهة ، وحرمان الجهلاء من أوقاف الجوامع والمدارس ، وترفيه أرباب الوظائف الذين يقيمون الشعائر بالفعل ، وحبس أموال الاوقاف عن الجهلة الذين لاصفة لهم الا ان يأكلوا ويشربوا على حساب قدماء المسلمين بلا عمل يقومون به ولا مزية ظاهرة يمتازون بها . ولو فتشت اوقاف المسلمين في كل صقع اسلامي لشوهد الاسراف في امتاع الجهلة بأموالها ولتوفر من ذلك اموال كان الأجدر بها ان تنفق على التعليم لا على من كان وجودهم ضرراً كله على أهل الاسلام .

السواد الاعظم

زرت بعض السنين مع اصدقائي امير الشعراء احمد شوقي والاستاذين احمد فهمي العمروسي وعارف النكدي ضريح أمير الغرب الامير جمال الدين عبد الله التنوخي في عبيه من قرى لبنان فأثرت هـذه الزيارة في نفسي واذكرني هذا القبر والراقد فيه أموراً ذهب الخيال في تأويلها كل مذهب. ذكرت كيف يخرج العصر بعد العصر من كل بيئة ومن كل نحلة نوابغ ما كان يتوقع ظهور أمثالهم في بقعة ضيقة وفي قرن مظلم. وذكرت كيف ينشأ الاتقياء الصالحون في قوم يستغرب قيـام رجل منهم يصفي النفوس من كثافاتها ويحبب الى من يستمعون اليه الخير ويبغض اليهم الشر.

نشأ الامير السيد (٨٨٤) – وهذا لقبه الذي كان يلقب به – في بيت مجد وامارة، وأبت نفسه العظيمة الا ان يجمع الى الامارة علماً، فجاء مرشداً دينياً وأمـيراً سياسياً معاً. كان أجداده قبلوا الدعوة الفاطمية التي حل القائلون بها لما جَلوا عن مصر الى الشام، في لبنان الغربي ولبنان الشرقي، وظل أهل بيته على طول عهد الدعوة الاولى يتطلعون الى الاصل الذي صدروا عنه تطلع صدق ولهفة (ج ٢ ص ٥٩٤ من المذكرات). ولم يقف السيد عند حد الاخذ عمن يسهل التخرج بهم من اهله وجيرانه، ورحل الى دمشق يتخرج بعلمائها في علوم الادب واللغة والتفسير والحديث والاصول، وحفظ القرآن وكتب فيه تفسيراً، ودرس في الجامع الأموي مدة. وكانت له مواقف غضبت عليه دمشق في بعضها فعاد الى مسقط رأسه ولما لم يصل الى بث تعاليمه في بلده على ما تحدثه نفسه عاد الى البلد الذي فقهه وأدبه. وكان الامـير السيد يحرص على ارجاع قومه الى السنة ويحضهم على تلاوة القرآن وحفظه ووقف لذلك وقفاً عظيماً يصرف ريعه في تحقيق هذه الأمنية.

وقال من ترجموا له انه كان محباً لابناء وطنه محسناً اليهم من غير تفريق

بين الاديان والمذاهب وقد اختص لنفسه جماعة من النصارى في بلدته عبيه وأوصى لأحدهم وصية الرجل لذويه بما لا يفعله رجل دين من أي ملة كان في عصرنا فضلاً عن عصر الامير .

كان يقيم العدل بين الاهلين وينصر المظلوم ، ويعمر المساجد وينهى عن تعاطي المسكرات . ودأب على وعظ الناس في المجالس الخاصة وكثيراً ما كان يطوف قرى الجبل ينشيء المدارس والجوامع ويوسد أمور الهداية الى نبهاء تلاميذه ، وكان لا يتناول من طعام ذوي قرباه ولا يستصبح بزيتهم ، مخافة أن يكون دخل في ثمنه شيء من مال السلطان وفي مال السلطان شبهة حرام ، وكان يميل الى السذاجة في طعامه ولباسه وينفخ في قومه روح التجدد ويبعدهم عن التعصب ويحثهم على التمسك بالدين الصحيح ويدعو الى محاربة البدع والخرافات التي نشأت من الجهل وفساد السياسة ، وما كان يتقيد الا بالنص الصريح مما ورد فى كلام الله الى غير ذلك من صفات العلماء العاملين .



الاستعمار البريطاني

منذ صدور وعد بلفور (١٩١٧) بمنح الصهيونيين حق تأسيس الوطن القومي في فلسطين واليهود يبتاعون فيها الأراضي ويقيمون الحصون وينشئون المستعمرات . وانكلترا وهي المشهورة بدقة استخباراتها تتجاهل مايحدثه الصهيونيون . وتخلت انكلترا عن انتدابها عن فلسطين وتركت العرب يتخبطون مع الصهيونيين وكانت تخلت عن الهند في السنة الماضية وخرجت من اكثر مستعمراتها مثل بورما وسيلان وكندا وجنوبي افريقية اي ان بريطانيا تنازلت طوعاً اوكرهاً عن معظم مستعمراتها ، وكان علمها قبل سنة يرفرف على خمس سكان العالم . ولولا تعاهدها مع الولايات المتحدة وعطف هذه عليها للروابط الكثيرة التي بينهما لاضحت دولة بريطانيا العظمى من الدول الصغرى .

أذكرني حال انكلترا اليوم وانحلال امبراطوريتها على اهون سبب بما كنت قرأته لاحد عظماء مؤرخيها من ان بريطانيا كانت تحسن لنفسها لو لم تزج شعبها في الاستعمار ، وكانت تحقن ما أهرقته من دماء ابنائها في هذه الغاية لو انها عمدت الى ابتياع ماتحتاجه من المواد الاولية بمالها ولكانت اكتسبت حب الامم كلها . ولكن هذا الرأي السديد كان يوم صرح به مؤرخهم من الآراء التي يستهزأ بها وكان كل انكليزي يحرص يومئذ على بقاء العلم البريطاني خفاقاً على ارجاء الهند ليغتني منها ابناء الجزر البريطانية وقد حققت انكلترا ماطمحت اليه من ذلك .

ولا يسع المنصف الا ان يقول ان انكلترا في حرصها على استعمار الاقطار كانت عاقلة وكذلك كانت يوم تخلت عنها وربطتها بنظام الدومنيون ، ولكل وقت حكمه ولكل جيل سياسته . وانكلترا التي حازت الشرف الاعظم بابطال الرقيق من العالم وكانت اول من نادى من الدول بتقبيحه

وانفقت باديء بدء عشرات الملايين من الجنيهات لهذا الغرض الشريف لايليق بها استعباد قسم عظيم من البشر الى الأبد . واذا حدقنا النظر في الاقطار التي حكمتها مدة نجدها ولا نكران للحق قد نهضت بها وما أضرتها ووضعت لها أسس حضارتها وعلمتها حتى الدعوة لقوميتها والولوع بلغتها خلافا لسائر الدول ماعدا الولايات المتحدة .

ذكرى العظماء

الامة الاسلامية من اكثر الامم قصوراً في الاشادة بالمجد العظيم الذي خلفه لها عظماء رجالها في السياسة والعلم . وما كان ذلك الا للجهل الطارىء بعد القرن الخامس وتسلسله في آبائنا قروناً لم نسلم من عقابيله الى اليوم .

امة خدمها بروحه وجسمه مثل ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية ومروان وعبد الملك وسليمان والوليد وعمر بن عبد العزيز وهشام ومسلمة وعشرات من رجال بني أمية وقوادهم خليق بها ان تردد ذكراهم في كل ممسى ومصبح .

وامة قام فيها ملكان عقمت الأيام ان تلد مثلهما وهما نورالدين وصلاح الدين ، ولو لاهما لقضى الصليبيون على الاسلام ولحلوا محلنا في الحرمين الشريفين ، من فروض العين على كل مسلم ان يعلم اولاده تقديسهما كما يعلمهم سور الصلاة .

وامة أنشأت من الخلفاء المنصور والرشيد والمأمون وطائفة من الملوك والامراء ما اشتهروا بغير السعي لسعادتها حري بابنائها ان تذكرهم ولا تنساهم على الدهر .

مثلنا بهؤلاء الافراد ويلحق بهم عشرات ليسوا دونهم بغيرتهم على امتهم ، واذا جئنا ننظر فى طبقات علمائنا نظفر بمئات يجب علينا اعظامهم وترديد أفضالهم علينا وعلى العلم في كل شارقة وبارقة ، ولم تخل ارض حل فيها

العرب من عالم واديب ، فتحوا لنا بايديهم الكريمة مغالق الحضارة فاصبح اهل الاسلام سادتها وسدنتها في الارض .

وبعد فان من الواجب قلب تاريخنا رأساً على عقب وان يعهد بكتبه الى عقول ثاقبة نقادة . فالتاريخ القديم دوّنه اصحابه بقدر ما كان لعصورهم من معرفة والتاريخ الحديث كتب جزء منـه وهو المهم مستمداً من آراء الغرباء وقد يكونون من اعدائنا الذين يتعبدون الله ببغضة العرب ونبيهم وشرعه

يسرقون ولا يدرون

كم في الناس وهم في ظاهرهم من أهل الكمال يسرقون ولا يدرون ان مايأتون هو السرقة بعينها . وكم فيهم من يسرقون ويفتون أنفسهم بلا علم بان مايرتكبونه لاينافي الكرامة ولا ينابذ التقوى . كان لي صديق في احدى دور الكتب العامة وكل اليه أمر اقتناء المخطوطات فكان اذا جاءه من يريد بيع مخطوطة يستأذن صاحب الكتاب ليبقيه عنده ليلة ينظر فيه ثم يسارع فيدفعه الى المصور يصوره له بالاسود على الابيض ومن الغد يبدأ الشاري يساوم البائع على الكتاب فيدفع فيه الثمن الذي عينه له فاذا أبى البائع ان ينزل عن المخطوط بالثمن المدفوع ادعى الشاري ان لهذا الكتاب نسخة في احدى الخزائن وانه يعرف أخرى مصورة بالتصوير الشمسي ، وبهذه الحيلة يأخذ المخطوط بالثمن الذي يروقه ، يسرق عامداً معتمداً خدمة للخزانة ، والخزانة ملك الدولة والدولة لاتعطيه مكافأة اذا هو اقتصد من موازنتها على هذا الوجه . ومعنى كل هذا ان صاحبنا يتحيل لاخذ كل كتاب بالقيمة الهينة وليس له في ذلك أقل حق .

ومنهم من يسرق ويفتي نفسه بحل سرقته كأن يأخذ من القوة الكهربائية في بلده مثلاً وذلك بان يضع سلكاً في الجدار الموصل الى منبعث القوة ويحاول الاستصباح منها فاذا قلت له انك ياهذا تسرق الشركة بما لا يجوز لك اجابك اليست الشركة تسرق ماء نهرنا ، فأنا آخذ من حقنا ؟ فاذا قلت

له لايجوز سرقة السارق قال لك : اتركها لله ، وهكذا اكثر السارقون من سرقة شركة الكهرباء بلا نكير ، اما سرقة التجار من الجمارك وتهريب بضائعهم بلا رسم ، مقابل جعل يجتعلونه للعامل الصغير فهي مما عمت به البلوى ويشترك فيه أهل المتاجر الاتقياء الا من حماه الله من طعمة الحرام ، وكلهم متواطئون على استحلال مال الدولة بما يجوزون لانفسهم ، يفتاتون على العقل والشرع ويتجاهلون سوء أثر عملهم الاخرق .

حكمة حكيم

حدثني ثقة عليم قال : كان في بعض بلاد الشام رجل يعد في الطبقة الأولى من الأغنياء ، وكان بخيلًا جداً حتى ليضرب المثل ببخله ، مرض مرة مرضاً أعجز نطس الأطباء شفاؤه ، وكان ذلك أيام الحرب العالمية الأولى ، فوصف له طبيب الماني كان ينزل حلب زعموا أنه يشفي من جميع الأمراض ، فوقع في نفسه أن يرحل اليه يستطبه .

وكان الطبيب عندما استأذنوه في نزول الثري عليه سأل العارفين عن ثروته فعدوها له بأعيانها فوعاها بذاكرته فلما اجتمع الى الغني المريض سأله عن أملاكه وذكرها هو له واحداً واحداً ، قائلًا له ألست تملك القرية الفلانية والسوق الفلانية والحمام الفلاني والحي الفلاني ودخلك عظيم جداً وتعد أغنى غني في بلدك ، ثم قال : أما وأنت تملك كل هذا فما هي صدقاتك على الفقراء فاجابه : انا كل سبت نوزع عليهم من مائتين الى ثلاثمائة قرش ، فقال له الطبيب : وهل هذا كل ما تسمح به نفسك ؟ أَلم تعمر جامعاً أَلم تنشيء مدرسة أَلم تعلم أَطفالاً على نفقتك ؟ فكان جوابه سلباً بالطبع . فقال الألماني ما دمت على هذا الشح لاينتفع أحد من حياتك فالموت أولى بك وأنا لا أُطبك ، فرجع الباشا الثري خجلان الى بلده .

وهذا من أبلغ ما سمعت من حكمة ، لو صارح عقلاء الناس الأغنياء هذه المصارحة لاستلوا منهم أموالاً ينفقونها في اغاثة البائسين ، وتعليم الجاهلين ومداواة المعلولين .

وقعة سوداء

في العادة أن تقدس المجالس النيابية لان في احترامها احترام من تمثلهم من أبناء الأمة ، حدث أن غلبت الحدة على حزبين حزب الأقلية وحزب الأكثرية في مجلس نواب سورية فتلاسن المتخالفون أولاً ولم يشف ما بهم الا الشتائم المقذعة ثم التضارب بالأكف والكراسي . دعا الى الخصام تخالف في مسألة دستورية اجتهد فيها الأكثرية فما أعجب الاقلية اجتهادهم . تجرى في بعض مجالس النواب ببلاد الغرب ملاكمات وقد يتشاتم المتخاصمون ، ولكن لا بهذه البذاءات . نحن مبتدئون بالحياة النيابية واذا أعوزنا العلم بما يرجى منه النهوض بالوطن فيجب ألا تفوتنا معرفة الأصول من الأخلاق .

أخلاق المربين

حمل من أرض العرب الى بلاد الترك طفلاً فنشأ نشأة تركية واقتبس اخلاق من عاش بينهم وسرى على طرائقهم ، ودعا الى قوميتهم ولغتهم ، وعاد الى مسقط رأسه وهو في الكهولة أعجم طمطم لايعرف العربية ولا تثقف بثقافة الاسلام ، وقصاراه ان ينقل عن احدى لغات الافرنج في الموضوع الذي تمحض له نقلاً لا تعرف مبلغه من الصحة .

ولقد حاول أن يتعلم في سن متأخرة ماكان عليه ان يتعلمه في الصبا فما افلح ، وكان لسان حاله انا شخص ولا كالأشخاص ، والعارفون كلهم دوني ، ولما أيس من الظهور من طريق العلم لم ير أحسن من أن ينتقص أهل الفضل ويبعدهم جهده عن الحظيرة التي لايريد ان يشركه احد فيها ، وساعده الحظ لأول أمره ان كان له انصار اكثرهم من الذين ماكان من مطمع لهم في الالتفاف حوله الا معاونته على دنياهم ، فهيأوا له دعاية واسعة النطاق خُدع بها من خُدع ، واقتنع بصحتها من اقتنع ، وبها وصل الى رياسات كان

جماع رأس مالها دعايات ، فظهر بعد حين عُواره واخذ حيث حلّ يعثر ثم تقال عثرته ، ثم يعثر ثم يُقال ، ثم عثر عثرة كان فيها سقوطه على ابشع صور السقوط ، وما كان السبب فيها الا تدخله فيما لايعنيه وادعاؤه معرفة مايجهل ، فخلط فيما لاتؤمن مغبة التجربة فيه ، مزهواً بتصفيق بعض ضعاف العقول له ، وخرج عن منطق الاشياء فضل ، وما كان ممن توهم انهم اعوانه الا ان ثاروا عليه لثورته على النظام .

شهرة تقوم على الدعاية المصطنعة ويغذيها النيل من مكانة اصحاب المكانات ، ودعوى عريضة لايتجاهر بتصديقها الا من اضطرهم الزمن الى ان يكونوا مرؤوسيه لا يصارحونه بما يجب ويغشونه كما غشهم . هذا نموذج من أخلاق بعض المربين وما هي الا أخلاق ضابط أخذ من صفوف الجند لم يدرس في مدرسة مايلزمه في صناعته فجاء أقرب الى الجهل منه الى العلم .

حظ الكتاب العربي

الكتاب العربي اتعس كتاب فى العالم حظاً اذا اعتبرنا ماضي الامة العربية فهو كاسد في بلده وكاسد في ارجاء العالم ينظر اليه بانه شيء عادي كما ينظر الى الادوات التي يستغنى عنها في البيوت .

الكتاب العربي مقصور النفع على فئة قليلة من الامة ما كتب له رواج ذات يوم ، واصابه قليل من الانتشار مؤخراً وظهوره بالقياس الى ظهوره في أمة غربية لايعد شيئاً اي ان ماينفق في كل من سويسرا والبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد والنروج لايوازي ماتنفقه أمة لا يقل سكانها عن ثمانين مليوناً ومعهم أهل الاسلام والفئة المستنيرة منهم يقرؤن العربية ايضاً

والسبب في هذا التأخر ان امر الكتب عندنا متروك للطبيعة لا تروّج له الحكومات ولا الجامعات ولا الشركات على خلاف ما يفعله اهل الغرب

ولا سيما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، ومن جملة ترويجهم للكتب أن يحملوا خزائن من الاسفار تطوف القرى وتعير كل طالب ما يستفيد من أسفارها ، ومن ذولهم من يطبع مقادير عظيمة من الكتب يحفظها في المستودعات ليوزعها على من يطلبها من الأمم الضعيفة ولا سيما على الممالك التي تهدمت بفعل الحربين الماضيتين وبذلك اعادوا لبعض خزائن تلك الاقطار رونقها السالف ، ومن منا ، والمال لايعوزنا ، ابتاع مقداراً كبيراً من الكتب وجعلها في الخزائن الكبرى او اسس لها خزائن جديدة في الامصار التي هي في اشد العطش للقراءة . واي حكومة من حكوماتنا وزعت على الطلاب المدنيين والريفيين كتباً يتثقفون بها .

وما برح الكتاب بضاعة مهملة لا تتناولها الا ايد قليلة جداً ، ولا يصل صوتها الى غير الخاصة او من هم في غنية عنها . كثر المثقفون بثقافة العصر في بعض الاقطار العربية ولكن كم يبلغ عددهم يا ترى بالقياس الى السواد الاعظم وكم عدد من يتناول الكتب منهم ويدفع ثمنها طيبة نفسه (١) ، وكم جمع منهم مجموعة حسنة ينزع اليها آونة الفراغ .

ولذلك كان الكتاب العربي سيء الطالع جداً وعلى نسبة رواجه تشهد حال المؤلفين الذين يتوخون بما يكتبون نشر العلوم والآداب لانشر الروايات والقصص الساقطة والآداب المكشوفة والادب الرخيص في المجلات التي كادت تقضي على الكتاب بما تحمل للعامة من مغريات تهيج بها الشهوات وما يعبث أحياناً بالأدب .

---

(١) لما تولينا طبع كتبنا في العهد الاخير على حسابنا ، أقللنا من الهدايا ورأينا بعضهم وهم من أرباب النعمة والثقافة وقد يدعون صحبتنا يتطلبون أن نهدي اليهم وقال بعضهم لمن قيل له ابتع لك نسخة من المذكرات ، اني لا مال لدي ، أعيروني نسخة وأعيدها اليكم ! ومن الغريب أن وراقاً دنيئاً استلف بضع نسخ دون أن يدفع ثمنها وأطلقها للاعارة بأجر كأن الكتب العلمية بعض قصص الظاهر وعنترة . وطلب بعض من كان مظهرهم علمياً ولهم مال أن يحسم له شيء من نسخة يقتنيها والا فهو يستعيرها من دار الكتب ويستغني عن الشراء . بهذه العقلية المنحطة نريد أن نكون أمة رشيدة .

الغنى في مصر

ذكرت بعض الصحف المصرية ان بدراوي باشا من اعيان الغربية ابتاع مؤخراً (١١٠٠) فدان بنصف مليون جنيه دفع ثمنها دفعة واحدة فأصبح مايملك نحو عشرين الف فدان . وقالوا فيه انه متدين لايحب ان يأكل الربا ويضع امواله في المصارف بالامانة مع انه يجوز في بعض المذاهب أخذ فائدة الاموال لتصرف في الفقراء . ولااعرف مبلغ مايعطي هذا الموسر للفقراء وغاية ماعرفت ان عبود باشا وهو قريعه في الثروة اذا طلب منه ألف أعطى ألفين وذلك لانه من اصله مثقف ، هو مهندس وعقول المهندسين متسعة اكثر من عقول الفلاحين .

يجاد عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحداً

قلت غير مرة ان مسألة تضخم ثروة الاغنياء في مصر ليس لها الا سن قوانين تخفف الشر ، فلو سن مثلا قانون لايجوز لاحد ان يملك اكثر من الف فدان وينزل عن الباقي للدولة توزعه على الفلاحين والا يملك بعد ذلك مالك اكثر من مائة فدان لجرى التعديل في الثروات ودخلت في طور معقول ولا علاج للحالة الاقتصادية الحاضرة الا بابطال الملكيات الكبيرة وتكثير الملكيات الصغيرة

عداوات البيوت

اراد المجمع اللغوي المصري ان ينتخب عضواً في مجلسه عن فلسطين وكانت الانظار متجهة الى اختيار افضل ادبائها الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي وجرى الانتخاب ففاز بالاغلبية خمس مرات ولكن الدسائس التي حاكها اعداء العضو الفائز انتهت باختيـار عضو آخر . فكان من ذلك ان تأثر المرشح الاصلي عاداً مـا وقع ثلماً لشرفه ، وافتئاتاً على مكانته ، فقضى بالسكتة القلبية شهيد من دأبوا على حرب من يسوءهم تفوق احـد بالعلم عليهم وهم لاعلم لهم ، اما العبرة بماجرى فهو الاسف ان تتسرب الاهواء الى العلماء في مجمع فؤاد الأول

الرشوة والتنسيق

قال عمر رضي الله عنه : لا تولوا اليهود
والنصارى فانهم يقبلون الرّشا ولا تحل في دين الله
الرشا ، قال الشهيدي : فاصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم!

رأت الحكومة المصرية ان تنسق موظفيها اي ترقي درجاتهم فألفت في كل وزارة لجنـة تنظر في امرهم وماهي الا ايام حتى ظهر ان بعض اللجان اتفقت مع من يُراد ترقيتهم على مال معين تقتضيه منهم يوم يصلون الى ما يطمعون فيه من الدرجات . وقد قال أناس ممن يدركون مايؤدي اليه هذا العبث من الفساد في جسم الدولة ان لصغار الموظفين بعض العذر في ارتـكاب مايرتكبون لان رواتبهم ضئيلة لاتكفيهم في هذا الغلاء المرهق .

وعندي ان الدواء الناجع في هذه السبيل هو تنفيذ القوانين على الكبير

والصغير واجراء حكم الترغيب والترهيب على ما يجب فان تضخم الموازنة المصرية بالرواتب وانفاق الجانب الاعظم منها على المستخدمين كان يمكن تلافيه لو لم يفتح الباب على مصراعيه في التوظيف والارضاء كما حصل في سورية ولبنان

والعقلاء اليوم على ان نصف هؤلاء الموظفين يكفون لادارة مصر . وقد اشرنا في هذه المذكرات غير مرة الى هذا الاصلاح الواجب والى اتقاء الاسراف فيما لا يفيد وما زات اقول ان عشرة موظفين موسع عليهم اتصفوا بالمؤهلات اللازمة يجزؤن عن خمسين موظفاً لا كفاءة لهم . ومن اعظم الفضائح في مصر وغير مصر ان كل حزب يستلم الحكم يأتي بالقدر الاعظم من جماعته ولو كانوا من عيار رديء لامزية لهم الا انهم صفقوا له وسعوا الى انجاحه سواء كانوا من الكفاءة بحيث يحسنون عملهم ام ضعافاً فيه ، ومن اسباب ذلك ايضاً ان السياسة والادارة شيء واحد في نظر الحكومات وكان الاولى فصلها فيتولى الادارة من ليس للسياسة سلطان عليه وبذلك تسير البلدان نحو الاصلاح . وآية كل ذلك ان تجرى العقوبات والمكافآت في نطاق العقل والقانون ابداً

سخف العادات

لا أعلم ان كانت اوربا كلها تجري على مثال فرنسا في التنويه برجالها في كل فرصة ، وتحتفل باعيادهم وولاداتهم ووفياتهم ومواسمهم ، وتغلو في ايراد مناقبهم بل في اختلاق مناقب ما كانت يوماً لهم . فأهل الأدب يحتفلون بجماعتهم وأهل العلم بعلمائهم وأهل الحرب بقوادهم وأهل الدين بدعاة دينهم وقديسيهم وأرباب السياسة بساستهم . ولا تخلو فرنسا يوماً من تذكر الموتى ، والاشادة بهم ورفع اقدارهم ، وهذا بالضرورة يستلزم الاكتساء بكسوات تناسب المقام وبزات جديدة تلتئم مع الحفل وتستدعي ايضاً صرف وقت في الكتابة والخطابة . ويريدون من ذلك الا ينسوا رجالهم وان يرددوا على الدوام ذكراهم ، وهم ابداً يتنقلون من عيد الى عيد ومن حفلة الى اخرى ، كأن القوم خلقوا للتشريفات واجراء المراسم لايهمهم غيرها يبالغون في ذلك ويحاولون ان يعدوا لكل جلسة عدتها ، ولكل حفل تقاليده ، وما اظن عاقلاً يغبطهم على ما ابتلوا به من هذه العادات الثقيلة الوطأة

وانتقلت هذه المصطلحات الى بعض نصارى الشرق ولاسيما من ربوا في مدارس المبشرين فأخذوا يغالون في كل من امتاز عن اهله وجيرانه بشيء من المعرفة الضئيلة وكل من يموتون عندهم من هذا القبيل هم في الذروة من الفضل والنبل وهم من اعظم المعاصرين وافضل العارفين حتى دخلت المسائل عندهم في طور من الدجل عجيب . وكل من يموت عندهم يجب تأبينه وايراد صفات له ما كان يعرفها او يعرفها له عاقل ، ولطالما رأيتهم يَرثون الامي والجاهل ويصفونها بالعلم والعمل كما شهدتهم يشهدون للصعلوك بالعظمة وللسارق بالنزاهة يكبرون من يرومون تكبيرهم كأنهم يعتقدون ان بالغلو في وصفهم يرضونهم ، وان من السهل الكذب على التاريخ والتمويه في كل شيء والتدجيل في كل موضوع يوجعون الرؤوس بما يكتبون في الصحف والنشرات

وأحياناً بما يضعون من الكتب المطولة فيمن يعتقدون انهم آية في تقدمهم في صناعتهم وكم نشروا من هذا السخف ماهو عار وسبة على قائله وكاتبه وناشره . وقد رأيت بعض مجلاتهم ولاسيما « المشرق » وهو بوق تبشير وصحيفة دعاية دأب على الحط من كل دين غير دين المسيح وقد دأبت هذه الصحيفة على هذه الخطة تدون من هذه البضاعة الرخيصة كل سخيف من اعمال رجالهم حتى ليخيل للمغرور ان رجال طائفتهم كلهم فضلاء ونبلاء ، وليس بعد هذا ضعف عقل .

أما المسلمون على الاكثر فانتهجوا نهجا آخر يصمون رجالهم بكل نقيصة ويخترعون لهم مساوىء ليست فيهم فاذا ماتوا سكتوا بعض السكوت عنهم ولا يتناولون بالنقمة واللعنة الا عظماءهم في حياتهم فما اكبر الفرق بين المغالين واضدادهم . المسلمون يتوخون ان يكون من يجوزون رضاهم بدون عيوب وما عهد ان اجمع قوم على تقريظ رجل خصوصاً من تولوا الامور العامة . ورأينا بعض من قصدوا الى ترجمة الناس من المتأخرين يدهنون لكل واحد ولكن على من جازت أقوالهم الملفقة ؟ وهل سلمت شهاداتهم المزورة امام قضاة العدل ونقاد الرجال ؟ وهل اشتهر من الصقوا بهم صفات ليست فيهم كما اشتهر من عدوا بحسب الظاهر في عصرهم من الخاملين ولم يرزقوا ما يستحقون من شهرة ؟ لا يثبت الا الصحيح والكذب والزور اذا انطليا على ضعاف العقول مرة يَنْصُلان بعد حين فيبدو صاحبها بما فيه من عيوب فاضحة .

المؤلفون السارقون

ويتساءل القارىء اللبيب عما عَنَيْتُ له هنا قائلًا وهل في المؤلفين من يسرق ، والمؤلفون صفوة الخلق ومقام التأليف فوق كل مقام . نعم في المؤلفين سارقون ويسرقون بقحة وسلاطـة كما كان على الدهر العالمون والجاهلون والصالحون والطالحون .

امتحنت بطائفة من ادعياء التأليف يتهجمون على ما لا يعلمون ويسلكون الى ترويج بضاعتهم مسالك لا يستجيزها لنفسه شريف ، لا يقصدون بها الا ان يتربحوا ايما ينشرون ، ويتمجدوا امام الجهلة . ومن هؤلاء المؤلفين من يستحقون العتاب لانهم على شيء من الفضل وذنبهم اعظم من ذنب الجهلاء ممن يغفلون مراعاة المصطلح عليه في النقل والاحتذاء . ومنهم من نشر في الادب كتابين استصفيا بعض ماقلته واستشهدت به في (رسائل البلغاء) و (امراء البيان) فاخذا من النصوص ومن اقوالي اشياء وقال لي احدهما انه اخذ مني اشياء ولم يذكر اسمي فقلت له : عجيب ! وهل اسمي مما يتقزز منه ، والامانة تقضي بعزو القول لقائله . وكأن هذين الاديبين خشيا اذا اشارا الى مصادرهما ان يزيدا في شهرتي وشهرة كتبي او ان مثلها في ادبها لا يجوز ان ينقل كلام معاصر الا اذا مات .

ولما كان معظم المؤلفين عندنا قد خرجوا من صفوف المعلمين ، ومعلمو الصبيان متهمون منذ القديم بضيق العطن ، عفوت عن هذين السارقين وتجوزت فالحقتهما بمن سرقوا بعض الموضوعات التي عالجتها او استشهدت فيها بأمثلة انفقت في جلبها وقتاً ومالاً .

ان تهالك المتهالكين على الشهرة وهم متصفون بهذه الصفات في غمط حق الغير لن يوصلهم الى ما يشتهون ، وما داموا لا يقصدون من تآليفهم الا نفع انفسهم فانا أبشرهم بأنه لا يبقى لهم من مجد الا ما يرجوه من تصفيق تلاميذهم ان كان هذا يعد مجداً .

وهناك فئة حشرت نفسها حشراً في المؤلفين تستطيع ان تقبض عليها في حالة الجرم المشهود كل ساعة على نحو ما كان من مؤلف لبناني عاش زمناً في انتحال صفحات طويلة من كتبي وما اكتفى بذلك حتى سألني ذات يوم عن رأيي في تآليفه بلا حياء فادعيت له اني ماقرأتها . ومنهم من ينقل الشواهد التي آتي بها وهم في الواقع ماطلعوا على الكتب التي نقلت عنها وقد تكون من المخطوطات النادرة لا تصل اليها كل يد . ومنهم من يسرق الفكر ويصوغه في القالب الذي يقدره ويدعي انه من بنات أفكاره كبعض المصريين. وهذا من الصعب مقاضاة صاحبه لانه يزعم ان ذلك كان من باب توارد الخواطر . ومنهم من يذكر ثبت الكتب التي رجع اليها وهو ما رأى الا بعضها . ومنهم من يأخذ عباراتي بلفظها ومعناها يشير الى أنه أخذ عني وعن غيري ، وعرف المؤلفين المذكورين كما عرفتهم الى غير ذلك .

وهذا من اخلاق بعض المربين ايضاً فتأمل كيف تكون أخلاق من يربونهم

عمى الماديات

لأحد الأغنياء مزرعة تتاخم بعض حقولها مقبرة الفلاحين حدثته نفسه ان يستصفيها ليضمها الى أرضه فاوعز الى حراثيه ان يقلبوا القبور فخرجت جماجم الموتى فصار يدحرجها برجله بقسوة قلب ويقول : يا طالما سرقتم لما كنتم في عالم الاحياء . وهم ماسرقوا الا ما يسد جوعهم وغيرهم سرقوا وزوروا وهم في غير حاجة الى ذلك . فاطلع اهل القرية على الامر وجاؤه وشتموه واهانوه فاحب ان ينتقم منهم ويقدم عليهم شكوى الا ان مختار القرية سبق واطلع ارباب الشأن على مااتاه ذلك الملاك فصدر الامر الى الجهات المختصة ان لا تسمع له شكوى فلم يسعه الا ان صالح المختار واهل القرية ونجا .

هذا الرجل على ذكائه تقدم في انتخابات مجلس النواب مرة فاخفق اخفاقاً مزرياً لانه دخلها وهو يدلّ بما عنده من ورق نقدي وما يكنز من

دنانير ذهبية وما يملك من ارض واسعة ، وما ادرك ان من لم ينفع الناس لايتعارفون اليه يوم يهزهم لنجدته ، ومن لا يحب قومه لا يحبونه ، ومن ظن ان المال يوصله الى كل شيء يخطيء كثيراً .

نهضة الشام الاخيرة

في الربع الاخير من القرن الماضي كانت المعارف في الديار الشامية منقسمة الى معسكرين ، يقود الاول دعاة الكثلكة والبرتستانتية ، حملة علوم المدنية الحديثة ، ويقود الثاني دعاة تتريك العناصر اصحاب القومية التركية ومن ورائهم الدولة العثمانية . وكان معظم جماعة المعسكر الاول من المسيحيين في الساحل ، وعامة جماعة المعسكر الثاني من المسلمين في الداخل .

وظهرت شعلة العلوم الجديدة من مدينة بيروت بعد مذابح سنة ١٨٦٠ بفضل الجامعتين الاميركية واليسوعية وما أنشيء قبلهما وبعدهما من المدارس الطائفية والتبشيرية . وغدت اللغة العربية تدرس بعناية في تلك المدارس ، وشاعت اللغتان الانكليزية والفرنسية ، والعلوم تدرس باحداهما ، وكانت درست زمناً باللغة العربية في الجامعة الاميركية ، ثم جعلت اللغة الانكليزية لغة التدريس فيها الى الآن . اما مدارس الترك الرسمية فكانت لغتها التركية في الثانوي والعالي وتدرس العربية في الثانوي والابتدائي تدريساً ضعيفاً ومثل ذلك كان حظ اللغة الفرنسية من العناية .

وبينا كانت اللغة العربية تنهض في الساحل نهضة محمودة ، كانت في مدارس الحكومة وفي المدارس الدينية القديمة ظاهرة الضعف ، سقيمة الاسلوب وبينا كان طلبة المدارس التبشيرية والطائفية يتقنون من العلوم واللغات ما ينفعهم في معاطاة الصناعات الحرة وممارسة التجارة ، كان طلبة المدارس الحكومية يتناغون بتعلم اللغة التركية ، لينشأ منهم في الدولة موظفون في الجندية والادارة ، ولا اثر بين اظهرهم للتعليم الذي يؤهلهم للحياة الحرة .

نعم كانت اللغة العربية في حالة نزع في البلاد الداخلية ، اذا درست قواعدها في المدارس الاميرية (ولا يحسن التركية من لا يعرف العربية والفارسية) فتدرس بالتركية وتشرح بالتركية ، على صورة اشبه بالهزل منها بالجد . وربما كانت وزارة المعارف تتعمد يومئذ نصب الاتراك لتعليم العربية ، كما كانت تعهد الى بعض ابناء العرب بتدريس اللسان التركي . ووقع لها غير مرة ان عينت في المدارس الثانوية أناساً من الأرمن والروم لتدريس العلوم الاسلامية .

وبينا كانت الجامعة الاميركية وغيرها من المدارس الطائفية الكبرى في لبنان تخرج شعراء وكتاباً ومترجمين ومتأدبين مثقفين بثقافة العصر ، كانت علوم الدين واللسان تدرس في مدارس حلب ودمشق على الطريقة القديمة العقيمة ، والقوم لا يعرفون شيئاً يعتدّ به عن الغرب وعلوم الغرب ، وبلغ بهم الجهل ان نسوا ان أمتهم كانت ذات عز علمي عظيم في سالف الاحقاب .

كانوا في العصور الاخيرة يحفظون القرآن ولا يقرأون تفسيره ، ويتعلمون الفقه ولا يبحثون عن اصوله وفروعه ، ويتبركون بتلاوة الحديث ويخلطون صحيحه بسقيمه ، ويتدارسون قواعد النحو ولا تستقيم لهم جملة صحيحة ، ويستظهرون دساتير التصريف ولايصححون الرسم والاملاء ، ويدرسون العروض ومايطلقون عليه علم المعاني والبيان والبديع ولا يحسنون نظم ابيات ذات معنى طريف بلفظ جزل ، ولا انشاء خطبة مؤثرة أو صفحة بليغة . وليس في شيوخهم من يرتجل جملتين او يكتب سطرين .

وكانوا الى هذا يحرمون درس التاريخ ، ويقولون ولا يخجلون انه من لغو الحديث ، على حين كان هذا العلم في العصور الوسطى يدرس درساً عاماً في الجامع الاموي بدمشق كما يدرس الحديث النبوي . وكانوا يعدون علوم الطبيعيات والرياضيات والفلك مدرجة الى الزندقة . أما الفلسفة فان مجرد ذكر العارف بها كان كافياً للحكم عليه بالالحاد ، وأبيح دم المتفلسف وماله في بعض الادوار . بل لقد حرموا قراءة المنطق لما يلاحظ فيه من توسع

العقل ، وهم لايطلبون من العقل الا ان يكون ضيقاً . انقرضت بقية من طالما لغطوا بهذه الآراء السقيمة ، واستعانوا بالقوة الزمنية على اضطهاد من يتدارسون العلوم المادية ، وخلف من بعدهم خلف لاذوا بالتقية فما وسعهم الا السكوت لما رأوا ابناءهم يدرسون ما كانوا هم يحظرون على الناس تعلمه .

ولا عجب ان اصيبت العقول بداء عقام اشبه بداء الفلج ، بحيث لاتقوى على الحركة ولا على الانتاج واصبح الاهلون يرون العافية فيما هم فيه ، راضين بجهلهم اذا سلم لهم دينهم على الصورة التي يتخيلونها ديناً . وما كانت انفسهم تحدثهم بالخروج عما ألفوا عليه آباءهم ، ولا ان يحيدوا قيد انملة عما خطه لهم ساداتهم وكبراؤهم وحكام كان الظاهر من مصلحة حكومتهم ترك العرب ، وهم نصف سكان السلطنة في جاهلية جهلاء ، ويصرحون بان الملك لايسلم للترك الا بنزع سلاح العلم من العرب ، ولذلك كانت وزارة المعارف تحارب سراً انتشار التعليم بين المسلمين العرب ، زاعمة انه تقدم تقدماً كافياً ، فالرأى تأخيره الى الوراء لاالدفع به الى الامام ، ولما آضت الحالة الى هذه الدركة من الجهل خلا الجو للدجالين والمخرفين وعم الفقر والخمول .

وفي الحقبة التي كان فيها العلم العربي في احط مراحله ، والمشايخ يحاولون الاحتفاظ بسلطانهم الذي كان لهم على الملوك والسوقة ولايتحرجون من ان يزينوا الجهل للامة ارضاء لاولى الامر منهم ، قام في الشام استاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، وهو في هذه الديار كالاستاذ الامام محمد عبده في مصر فسعى بانشاء المدارس الابتدائية الاميرية (للذكور والاناث) في ولاية سورية العظيمة ، واخذ يؤلف لها الكتب في الفنون اللازمة ، ويلقن المعلمين اصول التدريس والتربية ، واشترك في تأسيس ثانوية دمشق وفي هذه المدينة انشأ دار الكتب الظاهرية ، ثم دار الكتب الخالدية في القدس . وكان طول حياته الحركة الدائمة في نشر العلم ، لايجد منفذاً لبث الافكار الا نفذ اليه ، ولا طريقاً الى نشر الثقافة الجديدة الا سلكه وعبّده امام السالكين . وكان ينشر كتب الاقدمين كما ينشر كتب المحدثين ، ويحيي

علوم الدنيا كما يحيي علوم الدين ، ويحبب الى النفوس الحضارة العربية كما يحث على اقتباس الحضارة الغربية ، وبارشاده انتفعت طائفة صالحة من الشبان ، وتخرج به من كان على استعداد لقبول دعوته ، ومنهم من تلقى تعاليمه مباشرة ومنهم من اكتفى بالاخذ عنه بالواسطة . وظهور هذا المصلح العظيم دليل على ان البلاد كانت ذات ثقافة محلية لاتحتاج الا الى يد صالحة تتعهدها وتوجهها .

ولما نفس خناق الشاميين بانتشار القانون الاساسي (سنة ١٩٠٨) هبت القوى الكامنة في بعض النفوس الى احياء كل ما كان فيه احياء مجد الامة العربية ، وغدت دمشق عاصمة الامويين مبعث تلك الحركة الرشيدة فصدرت فيها الصحف السياسية والمجلات العلمية ، وبدىء بارسال بعثات علمية الى مدارس فرنسا ، وانشئت في الحواضر الكبرى مدارس ثانوية اميرية تعلم العلوم بالعربية ، الى جانب المدارس الثانوية التي ظلت سائرة على ما كانت عليه تعلم بالتركية .

وما ان وضعت الحرب العامة اوزارها وخرجت البلاد عن الحكم العثماني (١٩١٨) حتى نهض القوم لتلقف العلوم بهمة عظيمة ، فأسس المجمع العلمي العربي في دمشق على عهد الحكومة العربية ، كما انشئت كلية الطب وكلية الحقوق ثم كلية الآداب ودور المعلمين والمعلمات ، واصلح نظام المدارس الثانوية والابتدائية وانتشر التعليم بالاستكثار من المدارس الابتدائية في المدن والقرى . واستعادت اللغة العربية بعض بهائها القديم ، واصبح لها المقام الاول في منهاج الدروس ، وجعلت لغة التعليم في درجاته الثلاث ، واصبحت اللغة الفرنسية تدرس تدريساً جدياً راقياً . بمعنى أن اهل هذه الديار اخذوا يتعلمون على الطريقة التي يختارونها كما نص على ذلك صك جمعية الأمم التي انتدبت فرنسا لتنفيذه .

وماهي الا اعوام قليلة حتى نشأ في الداخل شبان دارسون على النحو الذي كان ينشأ عليه شبان الساحل ، واصبحت دمشق او سورية الداخلية تدرس

من صنوف العلوم ماكان قد انقطع سنده اعصاراً طويلة ، وبقي على حالة جامدة ما تعدى الحد الذي عرف به عند القدماء ، وما بلغ المشتغلين به وهم افراد قلائل جداً انه طرأ على تلك العلوم ماغيرها رأساً على عقب بفضل الغرب وجامعاته .

وبعد حين ظهر الاطباء والحقوقيون والمهندسون والزراعيون ورجال التربية والتعليم ، ونبغ كتاب وشعراء وأدباء وخطباء ، وشارك النساء الرجال في هذه النهضة المباركة ، فأصبح منهن المؤلفة والمربية على مثال الرجال بمقياس صغير . واخذت الحكومة ترسل الى جامعات فرنسا بعثات من نبهاء الطلاب للتخصص في العلم والأدب ليتولوا التدريس في التعليم العالي والثانوي . وتعاطى بعضهم الاعمال الحرة وخدم بعضهم الحكومة ، ومنهم من تعلموا على نفقتهم الخاصة في فرنسا وفي مصر وغيرها ، ولايقل عدد من تعلموا العلم العالي في جامعات الغرب عن بضع مئات ، وهم الذين وضعوا كما وضع بعض اساتذتهم تآليف مدرسية ومصنفات راقية يظهر عليها الاتقان والبحث ، وذلك في الحقوق والطب والتاريخ والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والتربية والزراعة والمالية والاقتصاد والكيمياء والأدب والقصة . ونازعت دمشق بيروت في هذا الشأن ، وكانت هذه مستأثرة بطبع الكتب ونشر الجرائد والمجلات ، فبدأت عاصمة سورية تنافس عاصمة لبنان منافسة ظاهرة وانفسح لها المجال لذلك خصوصاً بعد ان اتجه التعليم في مدارس لبنان وجهة افرنجية في العهد الأخير ، وضعف الغرام بالعربية وآدابها .

وما صدر من التآليف العلمية في سورية الداخلية منذ عشرين سنة ، وما تلي على منبر المجمع العلمي العربي من محاضرات الاخصائيين ، وما حملته مجلة المجمع في ثلاثة وعشرين مجلداً من الابحاث باقلام علماء وأدباء شاميين ، وما نشر في مجلات الطب والحقوق والزراعة والتربية والادب من مقالات وتحقيقات عدا ماتنشره للشاميين الصحف المصرية وغيرها ، برهان جلي على

ما نقول . وكان للجمعيات الخيرية والمدنية اثر مهم في التربية ونشر الثقافة ومنها ماعلم اليتامي واليتيمات ، ومنها ما علم الكبار ، ولا سيما في المدن الاربع (دمشق وحلب وحمص وحماة) وذلك في مدارس ليلية تعلم فيها عشرات الالوف من الشبان ما خرجوا به عن حد الأمية .

وانا اذا نظرنا الى النهضة في سورية والنهضة في لبنان ، نجد أثر الغريب في النهضة الاولى اقل من القريب ونجد العكس في الثانية اي انا اذا حللنا النهضتين ، اذا صحت تسميتها بهذا الاسم ، يثبت لنا ان حظ الوطني من نهضة لبنان كان اقل من حظ الاجنبي ، وحظ الوطني في سورية ظاهر كل الظهور ، ويد الغربي ضئيلة الاثر فيما تم . ومن الظواهر الغريبة ايضاً ان اكثر من تعلموا العلم العالي في فرنسا وغيرها عادوا الى وطنهم يدعون للمدنية العربية ، اي انهم تلقفوا من المدنيـة الغربية ما استعانوا به فقط على بث مدنية أمتهم .

استفادت سورية لاول أمرها من نهضة لبنـان ، كما تستفيد الآن من نهضة مصر ، ونهضة سورية اليوم تشبه النهضة المصرية من وجوه كثيرة ، ولسورية من الاوضاع مثل ما لمصر . والجامعة السورية هي الوحيدة من بين جامعات الشرق التي تدرس العلوم العـالية بالعربية ، وقد وضع لها الاساتذة ألوفاً من الالفاظ العلمية في الكتب التي الفوها مباشرة اونقلوها من احدى اللغات . وسورية تتناول بكثرة كتب مصر ومجلاتها وربما عرف الشامي عن مصر اكثر مما يعرف المصري عن بلده .

ومن الظواهر في اخـلاق المتعلمين على المناحي الغربية انهم يُعنون في سورية بان تكون أرضهم ميدان عملهم ومجالهم الحيوي في حين كان اكثر من تعلموا في مدارس لبنان يؤثرون الهجرة الى الامريكتين أو مصر او السودان ، وبمغادرتهم مساقط رؤوسهم ، وصرف جهودهم في الاصقاع التي ينزلونها ضعفت قواهم بالطبع عن خدمة بلادهم الاصلية ، وقد تطول هجرتهم او تصبح قطعية في ارض غير عربية ، فينشأ ابناؤهم بعيدين عن العروبة .

وفي الحق انه كان من منافسة الطوائف وجمعيات المبشرين نشر التعليم في لبنان ، فقل فيه عدد الاميين ، ولا تصل سورية الى مستوى لبنان في ذلك قبل عقدين أو ثلاثة عقود من الاعوام . والمأمول ان يزيد العلم في الفة المتخالفين في مذاهبهم ، وان تضمحل الفوارق من بين أهل الوطن الواحد ، ويدرك الخاصة والعامة معاني القومية التي لا تعيش الامم بغيرها ، خصوصاً في قطر كهذا تكثر فيه المذاهب والنحل ، وفيه منها عشرون او اكثر ، فهو فسيفساء اديان بعقيدته ومجموعة بدائع في طبيعته .

لاجرم ان اصلاح التعليم على اختلاف درجاته قد سهل اخذ العلم على معظم الطبقات ، ونظام البكالوريا الجديد ادخل الدراسة في طور عملي نافع ، وبالتعليم ارتقت لغة التخاطب والتكاتب ، واصبح ما كان يجهله الدارسون من الشيوخ يتقنه بل يتمثله صغار الطلبة الذين لم يبلغوا الحلم . وفعلت الثقافة في تحسين الملكات والعادات ، واصبح المتعلمون حتى من اقتصروا على التعليم الابتدائي ، يميلون الى التجمل والنظافة وحسن الهندام ، ويألفون النظام والترتيب في معظم مرافق حياتهم . وكانت المدن والقرى الى عهد قريب على حالة ابتدائية من مظاهر المدنية ، وبانتشار العلم في بيئات ما كان يظن انه يسرى اليها ، حسنت حالة البلاد الادبية والاقتصادية . ومما اعان في هذا الشأن كثرة التنقل في طلب الرزق في الممالك الاجنبية ، وسهولة تناول الكتب والصحف والمجلات ، ويسر الاستماع الى اذاعات المذياع ومحاضرات المحاضرين وخطب الخطباء ، والفضل الاول في هذا التبدل للمدرسة . ولواستطاعت الحكومات ان تبذل في نشر المعارف اكثر مما بذلت ، وعاون الاهلون في هذه السبيل معاونة صحيحة ، لعم التعليم القرى كما عم المدن ، ولاصاب من نعمته البدو كما اصاب الحضر ولظهرت الارجاء بالمظهر الذي يليق بعظمتها الطبيعية والتاريخية ، فجمعت الى قديمها حديثاً تغتبط به من كل وجه امام الغريب والقريب .

الثورة المباركة

في الساعة الثانية من صباح الأربعاء (٣٠ آذار سنة ١٩٤٩ وغرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧) قام الجيش السوري بقيادة قائده الزعيم السيد حسني الزعيم بالاستيلاء على زمام الأمر واعتقال رجال الحكم الماضي وبينهم رئيس الجمهورية السوريه ورئيس وزارتها ونشر البلاغ الآتي :

« مدفوعين بغيرتنا الوطنية ومتألمين مما آل اليه وضع البلاد من جراء افتراءات وتعسف من يدعون حكامنا المخلصين لجأنا مضطرين الى استلام زمام الحكم موقتاً في البلاد التي نحرص على المحافظة على استقلالها كل الحرص ، وسنقوم بكل ما يترتب علينا نحو وطننا العزيز غير طامحين باستلام الحكم بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديموقراطي صحيح يحل محل الحكم الحالي المزيف . واننا لنرجو من الشعب الكريم أن يلجأ إلى الهدوء والسكينة مقدماً لنا كل المعونة والمساعدة للسماح لنا باتمام مهمتنا التحريرية وان كل محاولة تخل بالامن والتي قد يمكن ان تظهر عن بعض العناصر الهدامة الاستثمارية تقمع فوراً دون شفقة أو رحمة .

القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة

وقال الزعيم في بلاغ آخر « انه رأى ما آلت اليه حالة البلاد من الفوضى واستثمار وخذلان ووجد العهد الحاضر مليئاً بالمساوي والمخازي من خيانات وسرقات ومن قضاء على الحريات الديمقراطية الى مخالفة الدستور والقوانين . ولقد رأى الجيش كل ذلك وايقن ان الامة تسير بخطى متسارعة نحو الموت والفناء فأبت عليه وطنيته وكرامته ان يقف مكتوف الايدي وابت على ابنائه نفوسهم النبيلة ان يرضوا بالذل والعبودية والفناء مصيراً لأمة عظيمة كتب لها المجد والخلود فصمم على ان يقف هـذا الموقف الشريف ويتدخل ليعيد الامور الى

نصابها . يعيد الى هذه الامة شرفها وكرامتها وحريتها » وقال قائد الجيش ايضاً : « ان السبب في الحركة التي قام الجيش بها هو الهجوم المتكرر على الجيش في المجلس النيابي وخارجه للتشهير به واظهاره بمظهر غير لائق . وقد نبهنا المسؤولين الى الحالة اكثر من مرة ، ولكن دون جدوى قال : « وقد لمسنا استياء الشعب من الوضع السابق وعدم رضاه عن الفوضى وشعرنا بأن سمعة الجيش اصبحت مضغة في الافواه على اثر اعتقال بعض الضباط بتهمة السرقة والاختلاس وعدم اطلاق سراحهم رغم ثبوت براءتهم » قال : « والحركة داخلية بحتة لا علاقة لها بدولة خارجية سواء كانت اجنبية أم عربية ونحن عرب قوميون وكل سلطة خارجية مهما كان نوعها تحاول الاعتداء على سلامة استقلالنا وسيادتنا سنقابلها بالقوة ، ونحن سنتخلى عن السلطات الى الحكومة الشرعية التي سيتم تأليفها في اقرب وقت ممكن فتعود الحالة الى مجراها الطبيعي»

وقال : « ان قيادة الجيش قامت لانقاذ البلاد من الفوضى التي غرقت فيها والتي باتت تهدد استقلالنا تهديداً خطيراً ورغبتها صيانة الدولة من الانهيار وانقاذ الجيش السوري الباسل من محاولة العبث والتهديم التي تعرض لها في المدة الأخيرة فالجيش السوري الباسل الذي ضحى بزهرة شبابه وسفك دماء المخلصين من ابنائه في سبيل حماية حدود البلاد ورد اعدائها عنها واستطاع ان يسجل انتصارات رائعة لايمكن ان يقبل بأي شكل من الاشكال ان يتعرض للمعاملة السيئة التي كان يلقاها »

وفض الزعيم المجلس النيابي وبين في كتاب ارسله الى رئيس المجلس اسباب الحل وقال : « ان المجلس لا يمثل في اكثريته الساحقة رغبة الناخبين وارادتهم وانما جرى في انتخابه تحت ضغط الفئة الحاكمة وبضروب التزوير والعنف والاكراه . وكان قد ثبت بعشرات الادلة الدامغة تزوير انتخاب النواب والطعن في نيابتهم وكان الاساس الاول في اقامة حكم ديمقراطي هو القيام بانتخابات صحيحة حرة وقد يعبر فيها الشعب عن ارادته في جوّ حر تام لا زيف فيه ولا ضغط ولا اكراه . زورت انتخابات اكثر اعضاء المجلس

وكان البعض الآخر اقرب الى التعيين منه الى الانتخابات فماشى طغيان الفئة الحاكمة في اكثر من موقف وكان في اكثريته اداة طيعة في ايدي هـذه الفئة تسيرها كيفما تشاء »

هذا ما صرح به الزعيم العظيم من الدواعي الى هذه الثورة التي عبرت عن اماني الأمة المظلومة اصدق تعبير واغتبطت ان كانت الثورة سلماً كلها لم يقتل فيها انسان ولم تجرح فيها اصبع واستلم الجيش زمام الحكم وشرع بتطهير جهاز الحكومة من ادرانه وبتنحية من ليس للجمهورية حاجـة اليه وطرد المرتشين والمتلاعبين والجاهلين من اعوان الدولة البائدة. وبات الرجاء معقوداً على تخفيف الآلام ورد المظالم وانقاذ الاوضاع الدستورية لتسير الامور على نظام وعدل

عدت الأمة في عهدها الأخير ثلاثة اعياد تتهلل وجوه ابنائها سروراً كلما ذكروها العيد الأول كان بخروج الاتراك من سورية والثاني بجلاء الفرنسيين عنها والثالث هذه الثورة المباركة التي قضي بها على سلطان الطغيان ابد الدهر ان شاء الله



الدواعي الى الثورة

كتبت الى احد اصدقائي في مصر كتاباً في الدواعي الى الثورةالسورية الاخيرة اقتطف منـه مايلي : تدارك الزعيم بحكمته وحنكته الجمهورية السورية من الانحلال ولم تخدش اصبع وطني واحد في العـاصمة والأقاليم وتمت الثورة على احكم مايكون من السرعة والشعب يصفق ويهلل .

وتسألني وهل من داع لهذه الثورة ، نعم ان لها عدة دواع لانحكومة الجمهورية اصبحت بأخرة حكومة تخريب ولصوصية فبما ارتكبته من المساويء تردت الأخلاق وعمت الفوضى فـكان من اتجروا بالوطنية زمناً وبهاباعوا واشتروا وجعلوها وقفـاً مؤبداً عليهم يسرقون الدولة باسلوب مفضوح مخجل ، كانوا من قبل يسرقون الالوف فاصبحوا يسرقون بمئات الألوف ولا يشبعون ولا يكفون ، وكيف لايسرقون ورئيس الجمهورية يستهدي النواب على ما قيل ويهدي هو لمن يريد استتباعهم من مال الامة ، ويفرض بعض الوزراء على كل رئيس حكومة يعهد اليه بتأليف وزارة . ومن الغريب أن من كان يقدسهم ظهرت سيئاتهم في الدور الجديد لما جرى حسابهم فكانوا من أكبر الخونة واللصوص ، وزور في انتخاب النواب من حزبه وزور في انتخابه ثانية للرياسة وبذلك خان الدستور الذي لا يجيز انتخاب الرئيس مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر ، وكان عليه تفادي كل هذا لانه مريض ولا يكاد يمضي شهر واحد الا ويقضي أياماً في السرير منقطعاً عن كل حركة ومن تداعت صحته لا يرجى منه أن يدبر صحة أمة .

ومما يؤخذ عليه اصطناع السفلة والاوغاد يغدق عليهم الاموال والعطايا ويختصهم بالامتيازات والاعفاءات الرابحة ويوزع عليهم قسطاً عظيماً من الحنطة والارز والسكر وغير ذلك من الحاجيات وفقراء الاهلين بل المتوسطون منهم لا يصلون الى حاجتهم منها الا بالبذل الكثير ، وقد جعل الرئيس

من اولئك الرعاع عشراءه وجلاسه وقد شوهد قبل يوم اعتقاله في قريتنا في طريقه الى مزرعته والى جانبه اثنان من هذه الطبقة فما استغرب القرويون ذلك منه لانهم طالما شاهدوا امثالهم معه يرفع مقامهم ويأنس اليهم ويتقزز من مجلس فضلاء القوم ولا يقبل لهم نصحاً .

واستكثر الرئيس من الموظفين الفاسدين ومنهم أهله وأبناءحزبه يجود على بعضهم بعدة رواتب من دون أن يكون لهم عمل ظاهر وفيهم الاميون الذين ما دخلوا كتاباً حياتهم ، فضخمت الموازنة حتى بلغت ضعفي ما كانت والمجلس يقرر له الاعتمادات بالملايين دون أن يعرف وجوه صرفها ، وكان بعض من ولوا الوزارة ممن لم تسبق لهم خدمة في الحكومة من الطبقة المحدودة عقولها ومعارفها فتسلط أهلهم وأنصارهم على الناس وهتكوا الاعراض واستصفوا الارض من مالكيها ، وكان أبداً متمسكاً بهم حتى أن أحد رؤساء وزارته الذي ضجت البلد من سوء ادارته وعلت الاصوات بالشكوى من اضاعته الحقوق لم يتخل عنه رئيس الجمهورية حتى اندلع لسان الثورة واهرقت دماء الابرياء .

ولقد عطل رئيس الجمهورية الحدود عملًا بنصيحة أمه لانها أرادته على أن يتجنب القتل لانها تخاف على ابنها أن يصيبه شر من ذلك فأدخل بهذا النساء في مصالح الدولة . وكان الموظف الذي له امرأة حسناء يملي ارادته على القضاة ورجال الادارة فيفسق ويسرق وهو في حل مما يأتي لانه من حاشية الرئيس معدود في اتباعه والرجل « الموصى عليه من القصر » كان كأهل بدر ، وفني الرئيس في سياسة الارضاء والمصانعة كأن البلاد اقطاع له ولآله ومن والاه . وكان يتدخل حتى في تعيين الفراشين والآذنين لان امرأة أحدهم أو والدته سبقت فشكت ظلامتها لامرأة الرئيس أولأمه فصار لزاماً عليه أن يعينه وان كانت المصلحة تقتضي استخدام منافسه ، وكان بعض الوزراء يتبرمون بهذه السياسة الخرقاء ويعدونها اعتداء على حقوقهم ومنهم من استقال من رئاسة الوزراء بمثل هذه التحكمات فيه على ما بلغني الخ .

حزب الكتلة

لما تألف حزب الكتلة الوطنية في هذه الديار وجد له أنصاراً مخلصين يعاونونه على الوصول الى تحقيق غايته السياسية فاستطاع أن يصمد أمام فرنسا مدة انتدابها على سورية ويثابر على مطالبته بالاستقلال . وقيل ان الكتلة كانت تصدع بامر بريطانيا العظمى وأن الثورة السوريه (١٩٢٥ - ١٩٢٦) كانت بصنع الكتلة ومعاضدة بريطانيا العظمى . وكان البريطانيون يطمعون منذ وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها أن يشمل انتدابهم جميع الولايات العربية المنسلخة عن أملاك السلطنة العثمانية ، وما كان انتداب فرنسا على سورية ولبنان مما يحلو لهم ويطيب .

وضع السوريون ثقتهم بالكتلة فكانت اذا قالت لهم أضربوا أجابوا نداءها دون أن يسألوا عن السبب ، واذا أرادتهم على الثورة ثاروا سامعين مطيعين ، وإذا فرضت عليهم مالاً أعطوها ماسألت . والناس في العادة اذا اعتقدوا شرف دعوة لا يضنون عليها بما يحقق الآمال على شرط أن تكون الرؤوس والأعضاء سليمة . ومن أحق باجابة دعوة من يقول لك اني منقذك من استبداد عشت فيه قروناً لاجعل منك دولة مستقلة نيابية .

وأدركت فرنسا ما يراد بها وبانتدابها وان من مصلحة انكلترا أن يشغب السوريون عليها فما قصر رجال الانتداب في اضطهاد زعماء الكتلة اعتقلوهم وشردوهم وفرضوا عليهم الاقامة القسرية وقسوا عليهم قسوة شديدة غضب لها الشعب السوري ، وبقيت الكتلة مع كل ما لقيت ثابتة على دعوتها وقد كسبت عطف الامة عليها . ومضت أعوام في هذه المشادة ما وسع فرنسا بعدها الا ان ترضى عن تقليد الكتلة زمام الحكم وبدأ الضعف في إدارة الكتلة يتجلى شيئاً فشيئاً لما ظهر بعض أفرادها بمظهر ما كان يتوقع منهم . والناس لم يستغربوا هذا التبدل في رجال الكتلة لان الشرق مُني بالتحول والتلون ،

ولما عاونت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة سورية على نيل استقلالها خاطبت هاتان الدولتان بالطبع من كان في منصة الحكم من حزب الكتلة فرأتها هذه فرصة سانحة لتوهم الاهلين ان الكتلة كانت سبب هذا الاستقلال فانطلقت أيدي رجالها في الحكم ، وراحوا يخالفون بين أقوالهم وأفعالهم كأنهم يحاولون ان يتقاضوا ثمن سعيهم المشكور في الوصول الى الاستقلال . وظهر ان أكثر زعمائهم ما كانوا يهتمون الا لأشخاصهم ثم الهزوء بالأمة وبمطالبها ، وكان من ينصح لهم باتباع خطة رشيدة يرمونه بالخيانة ، ومن أبدى عدم رضاه عن « الوضع الحاضر » عدّ في جملة من يفضلون حكم الغريب على الحكم الوطني . ولقد اتهموا بعض الوطنيين بضروب من التهم كانوا منها أبرأ من الذئب من دم ابن يعقوب .

ما قبلت الكتلة يوماً أن يقوم في سورية حزب معارض ، هذا وهي تعرف ان المعارضة واجبة في المجالس النيابية لذلك اضطهدت كل من جسروا ، على المعارضة بل كل من كانوا على الحياد ، واتخذوا من المعارضين والمحايدين اعداء لانهم لم يدخلوا في زمرتهم ويكثروا سوادهم . واضطهدت الكتلة المعارضين وكان فيهم صفوة ابناء الوطن اضطهاداً ليس فيه شيء من الاعتدال . ولطالما اوعزت الى القضاة بالتشديد عليهم في الاحكام فاعتقلت من اعتقلت واقصت من خدمة الحكومة من اقصت وحرصت كل الحرص على ان تخص اهل حزبها بالمغانم فاسترسل بعض رؤسائها واتباعهم في ارتكاب ما كان يجب ان يتصونوا عنه فسهلت بذلك على اللصوص سرقاتهم . واذا سرق الزعماء فلا ملام على من بعدهم في الدرجات ان يسرقوا ، ويحتجون لتبرير مساوئهم بما يأتيه كبراؤهم

بسوء السياسة تأصلت العداوة الشديدة بين الاحزاب وبين جمهور الأمة وبعد ان كان اسم الكتلة عطراً اضحى وفيه نَتْن مستكره ، والكتلة من وراء ذلك لا تفتأ تعمد الى الدعايات الواسعة لتخفت اصوات الناقمين والناقدين وقد تلجأ الى القوة فتضرب وتشرد وتعتقل وتنتقم وتغلق صحف

المعارضة لتلقي الرهبة في قلوب المخلصين الذين يعدون الانكار على اغلاط الكتلة فرضاً وطنياً

ولا ينكر على الكتلة تماسكها امام اعدائها حتى تسنى لها ان تحكم هذه الحقبة الطويلة وكان منهجها في حكمها اشبه بنهج حزب الاتحاد والترقي في المملكة العثمانية ، وكان على ايدي رجاله انحلال الدولة . قامت الكتلة بالعنف وحكمت بالجبروت شأن حزب الاتحاد ، وكان لسان حالها كل من ليس معنا فهو علينا . وكان الاختلاف أبداً على اشده بينهم ، وخصامهم في الاكثر على الاستئثار بالمنافع ، ورؤساؤهم يداوون هذه الخصومات بالمال يعطون كل ملح في تقلد وزارة راتباً يوازي راتب الوزير العامل

كان المخالفون للكتلة ضعافاً بالقياس اليها والسبب في ذلك ان الكتلة سبقت وحدها الى العمل السياسي واحكمت امرها بالحزم فكان ان مرن رجالها على معاناة السياسة أكثر من غيرهم ومن توفيقها ان ضمت اليها اناساً ، من ارباب البيوتات المتعلمين . اما جمهرة القوم فكانوا اذا رأوها قوية ماشوها لاتمام مقاصدها واذا آنسوا منها ضعفاً أعرضوا عنها . ولوكان للمعارضين قوة يعتد بها توازي نصف قوة الكتلة لطرحوها جانباً واستأثروا دونها بالحكم ، ينقلون الامة من حال فيها بعض الشقاء الى حالة قد يكون فيها شيء من السعادة

وكأني ببعض رجال الكتلة غداً ينزعون ثوبهم القديم الذي اكتسوا به زمناً ويكتسون ثوباً جديداً يرون من مصلحتهم الخاصة الظهور فيه ويقدحون بسلاطة فيمن رفعوهم ونفعوهم ويعودون يمتدحون من خلفوهم يصانعونهم كما صانعوا من تقدمهم لا لشيء غير دوام المغنم وهكذا دواليك .

ان حرص الكتلة الوطنية — وقد دعت نفسها مؤخراً بالحزب الوطني — على تولي زمام الحكم كان من اكبر الاسباب الداعية الى انصراف النفوس عنها ولا سيما عندما نظرت الامة الى ما ارتكبت في الانتخابات النيابية الأخيرة بمخالفتها احكام الدستور وهي تدعي انها حاميته والمدافعة عنه

بطل دمشق

هو الزعيم السيد حسني الزعيم قائد الجيش السوري الذي ثار على الظلم وغضب للحق ، وقضى على من أفسدوا عمود الحكم وما استعان بالاجنبي على تحقيق غرضه الشريف فعدّ المنقذ الأعظم حقاً وصدقاً .

أزال الزعيم حكومة كانت تحاول أن تعيش الجمهورية بجيش مضيّق على ضباطه وجنده ، مُدَنّق عليه في النفقة والسلاح ، وما عهد لأمة تحرص على كرامتها أن تعيش بلا قوة تحميها ، والجيش من أول مظاهر الدولة .

كان شأن الحكومة البائدة اغناء أفراد وافقار الجماعة توهم الشعب أنها تخدمه وهي تضحك منه ، فجاء الزعيم يقطع عليها طريق العسف والاسراف ويفادي بحياته ليحييها ، ويستهين براحته لتنعم وتسلم .

عقمت الايام أن تلد مثل ثورته الحكيمة ولا عجب أن سجل اسمه الكريم في ثبت بناة الممالك وقادة الشعوب .

كانت دمشق مهد المصلحين والمجددين اذا نبغ فيها نابغة في الجندية والادارة انضم الى لواء الدولة القائمة يعاونها على حفظ سلطانها أما الزعيم ابن دمشق الذي أدهش العالم بثورته فقد وثب وثبة جبارة للنهوض بسورية فحق لوالده صديقي الشهيد السعيد العلامة الشيخ رضا الزعيم أن يغتبط في قبره بان أنجب للعرب مثل هذا النجيب .

سياسة رئيس

بقي أمر رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مكتوماً إلا عن بعض الخواص مدة رئاسته الأولى ، ولما بدا له أن يجدد رئاسته ليستمتع بالحكم خمس سنين أخرى ، مع ان الدستور حدد الرئاسة بخمس سنين فقط لا يجوز لرئيس ان يتولاها مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر – لما تذرع بذلك كان منه ان حنث بيمينه الذي أقسمه يوم رئاسته الأولى وهو المحافظة على الدستور .

وراح الرئيس يعمد الى انتخاب بعض النواب من حزبه بالضغط والتزوير واذ تعذر عليه أن ينال أكثرية الأصوات ابتاع فيما قيل اصوات بعض النواب ومع هذا لم يتهيأ له الاجماع لاستنكاف حزب المعارضة من انتخابه .

وعاد الى ما كان جرى عليه من العطف على زعانف الأحياء ، ومزيتهم عنده انهم يتسلطون على الأهلين يوم الانتخابات ويخدمونه بما يشاء ، ولذلك فتح لهم الأبواب الرسمية يدخلونها بلا استئذان وهو يبالغ في اغداق العطايا عليهم ويخصهم بالامتيازات والاعفاءات ، ويجعل منهم عشراءه وأولياءه ، ووقع له أن سعى لانتخاب أحد أصحابه نائباً مشهوراً بطول اللسان ، وقال انا ما اخترناه لهذه المهمة الا ليسب غداً من يخالفون رأينا في المجلس ! وافرط في توظيف أهله وأنصاره ومنهم الأمي العامي ومنهم من كان يقبض عدة رواتب من بضعة دواوين وليس له عمل ، أفرط في ذلك حتى خيل للأهلين ان سورية اقطاع له ولمن يحب .

واذ اعتاد الرئيس التدخل في الصغير والكبير من شؤون الحكومة بما لاتتطلبه رئاسته كان من لهم شيء من عزة النفس من وزرائه يتأففون من تحكمه ومقترحاته ، أما المنافقون منهم وهو يفرضهم على كل وزارة فكان يسكت عن مساويهم كأنه شريكهم ، حتى عمت الرشوة وسادت الفوضى .

كان الرئيس يعبث بالقضاء فمن يحكم له من القضاة بما يروقه يرقيه ويرفع مقامه ومن يجري مع القانون يوبخه وقد ينحيه او يحول دون ترقيته . فقد حكم على احد ارباب الصحف باهانة الرئيس ولما لم يحكم القاضي النزيه بالقانون العثماني اي لم يقس القذف في الرئيس على القذف بالملك ، ولم يعتبر رئيس الجمهورية ملكاً اقصاه ونبذه ، اما الذي تفوه بما يسقط من قدر الرئيس وحكم القاضي عليه حكماً جائراً فأعلى الرئيس مرتبته وارضاه . وله أشياء من هذا القبيل لا يليق صدورها من المهيمن الأول على القانون فقد اختلف مع بعض جيرانه على حدود ارض فاضطر الموظف المختص ان يرضيه بالباطل ومستندات خصومه شاهدة ان لهم الحق دونه ، واكره وزارة الاشغال ان تفتح طريقاً ليتصل من مزرعته بأرض له بعيدة وهي سبخة ونزة لا تصلح للزرع فاستلزم قطع اشجار مثمرة من جانبي الطريق ، وكذلك الزمها بفتح طريق بيت امه فأنفقت في ذلك نفقات باهظة كانت طرق اخرى أحق بهذه العناية . ومنها انه كان يستعمل بضع سيارات على حساب الحكومة يخص بعضها بركوبه وأخرى بحرمه وبعضها لأولاده وبعضها لبناته وسيارتين لصهريه . ومنها اعطاؤه لأحد شعراء المهجر خمسة عشر الف ليرة سورية وانفق عليه مايقرب منها مدة اقامته في عاصمة الجمهورية ، وأعطى عشرات الألوف من الليرات لمن مدحوه او كتبوا رسالة او كتاباً باسمه ومن تغنوا بمحامده فيما كتبوا من كتب اغناهم . وكان يعطي بعض الصحافيين بلا حساب لأنهم رضوا ان يكونوا ابواقاً لتمجيد سياسته ، ومن غلط غلطة واحدة من ارباب الصحافة اوعز الى المحاكم ان تشدد عقوبته وتغرمه الغرامات الثقيلة . وكان يصرف جانباً من اوقاته في مثل هذه المسائل .

ولما كان من طبعه حماية اهل الطبقات النازلة لم يجوز ازعاج من كان يشملهم بلطفه وعطفه ولو كانوا من الجناة الأشقياء ومنهم احد المفاتي في قضاء ثبت انه لص كبير وجان تعددت جناياته بتحقيق قاضيين نزيهين فلم يرض ان ينحيه لأنه كان ينادي يوم الجمعة من أعلى المنبر : اللهم انصر

أمير المؤمنين شكري القوتلي وكان هذا الخطيب يدعو بمثل هـذا الدعاء البارد على عهد الانتداب الافرنسي فيقول : اللهم انصر فرنسا وجيوشها . ولعل هذا المفتي السخيف كان ممن يمهد للسيد القوتلي دعوى امارة المؤمنين .

ويتلخص ما اتاه الرئيس من الاعمال النابية عن القوانين في المواد التالية :

(١) العبث بالدستور وقداقسم ان يحافظ عليه

(٢) انتخاب نواب حزبه بالتزييف والضغط

(٣) افساد بعض النواب ليتم الاجماع على انتخابه

(٤) اعتماده على ارباب الدعارة واعطاؤهم الأموال والسكر والارز والحنطة والبترول والمازوت من مال الدولة بمقـــادير عظيمة جداً حتى اغتنى أكثرهم

(٥) افساد طلبة المدارس باعطائهم رواتب من الدواوين وهم لم يتموا دروسهم ولم يوظفوا على الاصول

(٦) استهزاؤه بنصح العقلاء من الوطنيين وثقته العمياء بالجهلاء

(٧) اسرافه البالغ باموال الجمهورية وحمله البرلمان على اعتماد أموال عظيمة لم يعلم محل صرفها

(٨) ادخاله في خدمة الحكومة الافاقين والاميين من أسرته وانصاره ومنهم من كان يعطيهم عـدة رواتب وكذلك يعطي بعض الوزراء الراضي عنهم تعويضات باهظة

(٩) اخذه بيد شاب من النواب حتى ألف حزباً خطراً من برنامجه القيام بثورة وقد اعد لها عدتها بالفعل

(١٠) لم يحقق مدة حكمه شيئاً يعتد به من اعمال الاصلاح على كثرة مادخل خزانة الامة من الاموال الجسيمة

وكان على الرئيس وهو يعرف انـه مصاب بمرض عضال ، ان يتنحى عن الرئاسة من تلقاء نفسه فالمريض يحتاج الى من يدبره ولايرجى منـه ان يدبر مملكة .

كان الرئيس قبل رياسة الجمهورية يتكرم من ماله فيحمد اويذم فلما

تولى الرئاسة غرف في الجود من مال الامة فتبرمت باسراقه

كان الرئيس ثورياً يحب الثورات ويمتدح الثائرين ويبالغ في اكرامهم وشاء القدر ان يصرف بثورة ، وماظلمه احد بل هو الذي ظلم نفسه باهماله ماعهد الى امانته

كان خروجه على القوانين بادياً لكل ذي بصيرة حتى خيل لنا انا عدنا الى العصر التركي ايام كان الوالي يحكم بلا محاسب ولا مراقب . وأصبح الحكم الجمهوري الذي يراد به رفع تسلط الافراد حكم الهوى لاحكم القانون . الشكل دستوري مدني والفعل استبدادي عامي

ولطالما نصح له العقلاء ومنهم من كتب له التقارير في بيان طرق الاصلاح وجاءته عدة وفود تصارحه في سوء مغبة السياسة المتبعة في الادارة فكان يؤلمه ان يسمع مايخالف اغراضه ويقلب الحديث من جد الى هزل ، وقد يبتسم ويسكت ويتأفف من مخاطبه ويتجهم له ويود لو عجل الانصراف من حضرته .

كان رئيس الجمهورية الثالث ضعيفاً في ارادته ، قوياً في حزبيته ، مسرفاً بماله ومال غيره ، حريصاً على تحقيق رغائبه الخاصة ، اخطأ طريق المجد وما عرف اختيار الأسباب التي تعين عليه . ومن الانصاف ان يقال ان له فضلًا على القضية الوطنية ، وقد ثبت انه في الامور السلبية اقدر منه في الامور الانشائية الايجابية



فاجعة فلسطين

من نحو جيلين واليهود المنثورون في اوربا واميركا يحلمون بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين (راجع الفصل الذي كتبه في الصهيونية الاستاذ عمر الصالح البرغوثي في الجزء السادس من كتابنا خطط الشام)، وقد اتخذوا لذلك عامة الذرائع، وهان على كل يهودي في الأرض أن يبذل النفس والنفيس في تحقيق هذه الأمنية، وتوفر اليهود على احياء اللغة العبرية وكانت نسيت الا من كتب صلواتهم ومن ألسن رجال الدين عندهم ومالبثوا أن أَصبحوا يتكلمون بها في بيوتهم وكانوا من قبل يتكلمون معظم لغات العالم الا لغة دينهم هذه، أَحيوا لغتهم بعد موتها وكانت كالسريانية والقبطية تعد من اللغات الميتة. والى هذا جدّوا في تلقين الآداب على ما يضمن تكوين دولتهم الجديدة.

وفي الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨)خدم اليهود دولة بريطانيا العظمى خدماً عظيمة فوعدتهم ان هي خرجت ظافرة من حربها ان تعاونهم على تحقيق آمالهم في تأسيس دولة لهم في فلسطين وبعد ذلك أقبلوا يهاجرون اليها من انحاء العالم وزادت هجرتهم منذ تم الانتداب لانكلترا على فلسطين وكانوا شرعوا قبل الحرب الأولى بابتياع الارض بالثمن الفاحش من ابنائها العرب يستعمرونها احسن استعمار وأَغدقت جمعياتهم واغنياؤهم في الغرب الاموال العظيمة على فلسطين حتى عمر اليهود كل ما وضعوا أَيديهم عليه من مزارع وأَنشأوا المعامل والمدارس وأَقاموا المصانع وشادوا القصور والحصون. وكانت حماية انكلترا للصهيونيين ظاهرة ومع هذا ما رضيت عنها بعض أَحزابهم ومنهم من كانوا يتربصون بحامية الانكليز الدوائر، وما ذلت بريطانيا في الشرق كما ذلت في فلسطين، فكان رجالها يقتلون وتضطر الى مصانعة اليهود والتغاضي طوعاً أو كرهاً عن جناياتهم حتى

لا يفسدوا عليها يهود الولايات المتحدة وهي في الحرب والسلم محتاجة الى صداقة اميركا ، وما ان اعلنت انكلترا انتهاء انتدابها على فلسطين حتى زادت الحال شدة على العرب ، وكانت انكلترا تجور عليهم في جميع الثورات التي قامت وتراعي اليهود مراعاة لا تقبل الانكار . ولما تمت معدات الصهيونيين الحربية وحان وقت رفع العلم الصهيوني على أرض الميعاد بصورة رسمية أبدى اليهود للعرب نواجذ الشر اكثر من ذي قبل فكانت حرب العصابات ثم الحرب النظامية كالتي تنشب بين دولة ودولة ، وكان العرب الى العهد الأخير يعرفون ما هم قادمون عليه ولا يستطيعون ان يتذرعوا بما ينقذهم خوفاً من الانكليز ، وهم كانوا في كل فتنة اشتعلت بين العرب واليهود الى جانب هؤلاء كأن بريطانيا العظمى دولة يهودية لحماً ودماً وديناً ومدنية .

وبعد الحرب العالمية الاخيرة اوعزت انكلترا الى بعض رجال السياسة من العرب في العراق ومصر ان يتقدموا الى الحكومات العربية السبع (مصر والعراق والمملكة السعودية واليمن وشرقي الاردن وسورية ولبنان) بتأليف جامعة عربية ففرح العرب وظنوا ان باطن ساسة القوم كظاهرهم . وكان العرب لسلامة صدورهم او لأنهم مبتدئون بالسياسة يظنون ان الحرب الأخيرة علمت البريطانيين ان يعدلوا سياستهم في الشرق وقد عزموا ان ينظروا في خير العرب ، وما غايتهم في الواقع الا ان يجعلوا منهم في غربي آسيا قوة تعضدهم امام قوى اعدائهم ويستندون اليها في حال وقوع حرب مع روسيا أو غيرها . ولما نشبت الحرب الفلسطينية واشتركت فيها بالفعل خمس دول عربية مصر وسورية والعراق ولبنان وشرقي الاردن ، بقيت المملكة العربية السعودية والمملكة اليمانية بمعزل ، وكانت مصر وسورية من أهم الحكومات تأذياً بالحرب وخصوصاً سورية فانها هبت لجهاد الصهيونيين اول الدول العربية وقبل ان تتم استعداداتها تحدوها حماسة المتحمسين من اهلها . اما سائر الدول فمنها من اخذ يساوم ليضيف جزءاً من فلسطين العربية الى مملكته كالملك عبد الله ابن الحسين صاحب شرقي الاردن وشغلت اليمن بنفسها وثورتها وابن سعود

صرح بانه لايسير على مايريد ملوك العرب لانه اعرف بما يصلح مملكته ، والحقيقة انه خاف غضب الولايات المتحدة وهي صاحبة شركة البترول في مملكته التي تدر عليه ملايين من الليرات الذهبية كل سنة . وكان العراقيون جد أوفياء للوطن العربي الاكبر وما ابدوه من معاونة القضية العربية منذ كان لهم جيش وسلطان مما ترتفع به الرؤوس

وقدر الله ونزلت الكوارث بالجيش المصري والسوري وثبت انه كان في صفوف الصهيونيين قواد من الروس وكانت تشيكوسلوفاكيا الشيوعية تمد الصهيونيين بالسلاح مدفوعة بأيدٍ روسية وعاونت الولايات المتحدة الصهيونيين جهرة وكان الانكليز على عادتهم يراوغون وضلعهم مع الاميركان وما كان لهذه الحفنــة من الجيوش العربية ان تغلب جيشاً مستميتاً في سبيل دعوته تعاضده دول كبرى ، فمصر والشام والعراق لم يحاربها الجيش الصهيوني فقط بل حاربتها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وروسيا اكبر دول الأرض الحربية اليوم ، ولكل من هذه الدول مآرب تحاول تحقيقها على حساب فلسطين ، فالانكليز السكسونيون يدعون انهم يحرصون على حماية بلادهم من الشيوعية عدوة الديمقراطيات ، وروسيا اذا كتب لها التدخل في فلسطين كما تشتهي تخرج الى البحر المتوسط بأساطيلها وهذه أمنيتها منذ القديم ، وجعلت الدول الكبرى من العرب آلة لقضاء غاياتها لما خصت به بلادهم من مركز ممتاز بين آسيا وافريقية واوربا .

وصل الصهيونيون لما سعوا اليه سنين وهو تقسيم فلسطين استأثروا بالساحل العامر وقذفوا بالعرب الى الداخل واكثره غامر وذلك على صورة مضحكة لم تعهد في أرض متوحدة الأجزاء متشابكة السكان ان قسمت على هذا الوجه المخزي ، هكذا اراد احباب اليهود ان ينيلوهم رغباتهم وضحكوا من العرب ودول العرب ، وختمت هذه المأساة التي بكى لها كل عربي وكل مسلم في الارض بما اورث الحضارة الحديثة العار الأبدي ، نزعوا من المالك ملكه واعطوه ظلماً لمن أَحبوا استمالته ، ومن اشق ما صدع

قلوب العرب ان أصبحت الدولة الجديدة فاصلة بين الأقطار العربية في افريقية واقطارهم في آسيا .

قلنا ان بريطانيا العظمى ذلت امام الصهيونيين لأن سياستها اقتضتها مصانعتهم حتى تبقى الولايات المتحدة حليفتها ولا يدس اليهود دسائس تحل رابطة الدولتين البريطانية والاميركية ، واي ذل لبريطانيا افظع من ان يقتل رجالها ولا تستطيع ان تضرب على ايدي الارهابيين من اليهود ، وكانت الدول حامية الصهيونية خلال الحرب الفلسطينية الأخيرة اذا ايقنت ان بعض دول العرب في ساحات الوغى كادت تظفر يشيرون الى جيوشها بالارتداد الى الوراء مهددين ، وما ذكر التاريخ حرباً مضحكة كهذه الحرب . وزاد في هذه المهزلة تفاشل العرب في الآخر لأن صاحب شرقي الاردن يحلم بتوسيع ملكه من ارض فلسطين وسورية ، ورئيس جمهورية سورية يحاذر ان تنحل جمهوريته وتتألف سورية الكبرى ، وصاحب الحجاز ونجد يخاف على توتر العلائق بينه وبين انكلترا واميركا ، ويخشى اذا صمد مع الحكومات العربية ان تفوته فوائد مالية كبيرة .

نكتب هذا وفلسطين البائسة لاتزال بين خفض ورفع وحرب وهدنة وسكان فلسطين من العرب الذين سموهم باللاجئين وهم يزيدون على ثمانمائة الف يهيمون على وجوههم في فلسطين وسورية وشرقي الاردن والعراق ومصر غادروا ديارهم بعيالهم لما نالهم من ظلم اليهود

فرح بعض ضعاف العقول من أهل فلسطين لما اخذ الصهيونيون يبتاعون من الوطنيين الأرض بالأثمان الفاحشة وظنوا ذلك مغنماً لهم لم يفز بمثله آباؤهم ولا اجدادهم وقال بعض المتشدقين ان الحالة الاقتصادية تحسنت جداً في فلسطين بما دخلها من اموال الصهيونيين وقدروها بمئة مليون جنيه بيد ان كثيرين ممن باعوا تراث اجدادهم وموهوا على انفسهم بأنهم غنموا مغنماً لم يكتب لهم مثله وكان من نساء اليهود أن استعدن منهم ما كانوا قبضوه قيمة اراضيهم بطرق دنيئة

كتبت كثيراً عن خطر الصهيونية في جريدة المقتبس ثم في كتابي خطط

الشام منذ نحو أربعين سنة وعاونني أربعة اصدقاء من أرباب التفكير السليم نلفت الأنظار الى مايتوقع من خطرها . اثنان من فلسطين وهما الاستاذان عبدالله مخلص وعمر الصالح البرغوثي وواحد من لبنان وهو الاستاذ نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل في حيفا والرابع دمشقي وهو الاستاذ شكري العسلي وكان قائم مقام الناصرة ثم نائب دمشق في مجلس النواب العثماني وكلهم لم يدخروا جهداً في بيان ماسينال فلسطين من الغبن العظيم اذا امتدت الدعوة الصهيونية

اما اليهود فقد تحققت احلامهم القديمة بذكائهم ومالهم ومفاداتهم ثم بمعاونة دول الغرب لهم « سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء »

عدم التوفيق

ثبت أن الرئيس السيد شكري القوتلي لم ينفع مدة رئاسته الا نفسه ومن اصطفاهم ، وكان السواد الاعظم من الشعب غاضباً على طريقته في الحكم ، وعلى صم أذنه عن سماع الحق ، وعلى سخريته ممن أجلسوه في مقام كان عليه أن يقوم حق القيام بما يجب عليه له .

كان هذا الرئيس كثيراً ما يعتب عليّ لقلة اختلافي الى مجلسه وعدم المبادرة لاجابة دعواته الى مآدبه الرسمية فكنت أعتذر بصحتي وضيق وقتي وان اجتماعي بمن لا أحبه ولايحبني قد يضر بصفائي وينغص المدعوين ، وقلبي يحدثني ، لكثرة ما تواتر عنه من الهزوء بما لا يوافق اغراضه من النصائح ، ان كل من لم يمدحه هو في نظره عدو حكمه ، وكل من ينصحه يكرهه ويحقد عليه .

وغالطت نفسي مرتين وعرضت عليه اقتراحين نافعين أحدهما خرق الطريق الضيق الموصل بين باب البريد الى المدرسة العادلية مقر المجمع العلمي العربي والى المدرسة الظاهرية وفيها دار الكتب الكبرى ، والى

ضريح صلاح الدين وأخيه العادل والملك الظاهر . والاقتراح الثاني تفريغ ما حول العادلية والظاهرية من الاكواخ والمساكن لأن الخطر محدق بهما ولا سيما بدار الكتب لمجاورة الحمام والقمين والفرن فاعتذر عن الاول بالحرب وضيق البيوت على السكان . وكان الاعتماد اللازم لفتح هذا الطريق مثبتاً في موازنة البلدية لذاك العام — ووعد بانفاذ المشروع بعد الحرب وما عاود الكلام فيه ، وكان الوعد بالاقتراح الثاني أن يباشر به في أقرب فرصة فما صدق بوعده ولا بر . وظلت هذه المصانع العظيمة وسط أزقة ضيقة حقيرة قذرة لا تنفذ اليها الشمس ولا الهواء ولا تتسع للمارة فضلًا عن السيارات والمركبات . وقديماً كانت تلك المحلة أشرف حي في دمشق لجوارها الجامع الأموي وكانت في القرون الأولى للاسلام منازل الصحابة والتابعين ورجال بني أمية ومن جاء بعدهم من العظماء والعلماء .

ما اهتم الرئيس لكل هذا والحريق يهدد مدرستين هما من أجمل ما شاد الفاتحون من ملوكنا ، وأهمه فتح شارع باسمه في غربي المدينة ونسي أن المنافقين من اتباع السلاطين كثيراً ما فتحوا لملوكهم شوارع وبنوا باسمهم المصانع فما ان مات اولئك الملوك او تنازلوا عن الحكم حتى كان الاعفاء نصيب ما بنوا . وكان على الرئيس ان يعتبر بسلفه المتأخر السيد تاج الدين الحسني وما كان من حرصه على تخليد اسمه . حفره على ما شيد ايام ولايته من جوامع ومدارس ومخافر ودور حكومة فلما جاءت الكتلة الوطنية وعلى رأسها عميدها السيد القوتلي نفسه ازالت كل ما زبر على الحجر وكتب في الجدران فذهب تعب الحسني عبثاً

كان يتعذر عليك ان تزين لهذا الرئيس عملًا لا يكون له منه منفعة ولو كانت عنايته بالعموميات اكثر من الخصوصيات لخلد اسمه بما تم على يده للخير العام اكثر من شارع يزال اسمه عنه بقرار من المجلس البلدي . ولكان من هذين المقترحين فوائد عامة منها دخول ذاك الحي ، وهو سرة المدنية ، في طور العمران الحديث . ولاتصل هذا الحي من الشمال بجادة الترام التي تربط شرق دمشق بغربها ولاستعادت تلك المصانع

الفريدة بهجتها الأولى ولربحت مدينة دمشق وبلديتها ربحاً عظيماً ولاستفادت اليد العاملة فائدة تخفف وطأة الأزمة . ولكن من حرم التوفيق لاسبيل لك ان تحمله على سلوك سبل الخير ولو أوتيت بلاغة سحبان

اديبة دؤوبة

ولدت السيدة ودادالسكاكيني في بيروت وتثقفت فيها الثقافة الاولى ثم انتقلت الى دمشق بحكم اقترانها بالدكتور زكي المحاسني الشاعر الأديب وانصرفت الى التأليف والكتابة فاشتهرت في مصر والشام بما انتجت من كتب ادبية وقصص ومقالات واحاديث فيها روح الجديد يمازجه شيء من القديم ، وكان اعتمادها في ثقافتها على نفسها في الأكثر فجاء منها ما قلما يجيء من كثير من حاملات الشهادات العالية وذلك بفضل دؤوبها وبما انتجت اثبتت ان الشهادات شيء ولكنها ليست كل شيء وان المرأة الشامية اذا تساوت وسائطها والمرأة المصرية ، فاقت الاولى بثباتها وصبرها وهذا سر اشتهار « مي » من السوريات المتمصرات . ولولا غضب المصريات عليّ لصرحت باكثر من هذا . وقد قلت غير مرة ان ما صرف في مصر على التعليم كانت ثمراته اقل من نفقاته بكثير ولو وحّد التعليم في الديار الشامية لكان فيها للعلم اروج سوق ولأخصبت العقول أكثر ما اخصبت في مصر .



ملوك العرب

دخل التجدد في دول العالم وتبدلت على الزمن أوضاعها وادارتها وانظمتها يأخذ التالي عن الأول . اما دول العرب وفي الجزيرة خاصة فلم تتأثر بشيء مما سمعت عن الغرب وظنت المحافظة على القديم هو القوة وفي جهل رعاياها كل السلامة لها ، ولاينجيها وينجي ملوكها الا الضغط على الرعية واستعبادهم وقد يفيدها بؤسهم أكثر من سعادتهم ، وباطالة أمد جهالتهم يضلون طريق نجاة يخرجون منها الى اكراه الملوك على التخفيف من استبدادهم

وانا لنشهد ان قد آن لملوك الجزيرة — وكل عربي يحب لهم ولبلادهم السعادة — ان يدركوا حاجة شعوبهم الى التجدد ويبدلوا اساليب الحكم القديم بالنظم الجديدة المستمدة من روح القوانين الاوربية ابنة الدرس العميق والتجارب الحكيمة ، والدواعي والبواعث تدعو الى الأخذ منها .

نحن على يقين ان ملوك العرب منذ مئات من السنين لم يدخلوا على شعوبهم ما يصلح ان يطلق عليه اسم التجدد وكل ما عندهم من العتيق البالي ، هم لم يجددوا في لباسهم ولا فرشهم ولا مساكنهم ولا لهجاتهم ولا عاداتهم وهم الى الآن صورة مما كان عليه اجدادهم واجداد اجدادهم الى ابعد حدود التاريخ ، العالم يتحرك ويتحرر والعرب وقوف مستعبدون . وقصارى ملوكهم ان تجبى الجبايات من الرعايا فينفق اكثرها في البذخ والابهة ولا يحسب للمستقبل حسابه ، ولا ينال مُلكهم غير قسط ضئيل من هذه الأموال ولا يصرف شيء على انشاء مدارس ومستشفيات ولا على تعبيد طرق واصلاح ري ولا على غير ذلك من اوليات المسائل في قيام الممالك ، فالبلاد ينقصها كل شيء ، حتى لقد قال احد الاميركان انه ليس في كل ارض نجد على طولها وعرضها سوى صيدلية واحدة وليس فيها كل العقاقير .

انِ الحسنات التي تحققنا وجودها في نجد والحجاز بفضل مليكها ، ولطالما

ذكرناها لارباب الرحلات من الغربيين مفاخرين — لا تكفي وحدها في انهاض تلك الديار من كبوتها . ان تطبيق مفاصل الشريعة الاسلامية ولا سيما في العقوبات انتج انتشار الأمن والسلام في المملكة العربية السعودية بما لم تطمع باكثر منه ممالك الحضارة الحديثة . ان انشاء الهجرات وانقطاع سكان البوادي الى زراعتهم وابطال الغزو والغارات وانشاء ادارة صحية منظمة في البلدين الطاهرين ، كل ذلك حسن ونافع وهناك امور تنقص وفيها سعادة الشعب وفتح باب لارتزاقه واخراجه من انتظار الصدقات او آخر الشهر لقبض رواتب الدولة

ويبلغنا اليوم من حالة الحجاز مايرمض النفوس يترامى الينا ان الشعب جائع عريان ولا من يفكر في فتح ابواب الكسب له وهذه الحالة مطردة منذ سنين . نعم ان الدولة لاتستطيع على الدوام ان ترزق رعاياها كما ان الملك لايهدأ له بال اذا كان من وكل اليه أمر دنياهم في شقاء وهو وحده ينعم بخيرات البلاد ، ويوم تصح النية على البداءَة بمشاريع جديدة ويرزق منها العملة والمرتزقة وغيرهم تتحسن حالة السكان كما حسنت حال الحكومة باستثمار الذهب والبترول ، ان انتظام الحالة الاقتصادية بتساوي الراعي والرعية في المنافع ، فالاسراف ما حمد يوماً من الأيام ومن يعمد اليه ملكاً كان أو سوقة فمصيره الخراب . المال اليوم موجود في ارض ملك العرب والضرورة حافزة والبدء بالأعمال المثمرة متحتم وصاحب هذا الملك يعرف وجوه الصرف والاقتصاد . وقد رأى في مصر يوم ان وافاها زائراً من ضروب الرقي الذي خلت منه مملكته ما يدعو الى العجب . ولا يفوت الملك العاقل ان في اليوم الذي قام محمد علي الكبير باصلاحاته في مصر كانت الحجاز ونجد على ما يقرب من نسبتها في الارتقاء ، وفعل الزمان فعله وانتقلت مصر من حسن الى أحسن حتى بلغت ما بلغت من العظمة ، والفضل للبادىء بالخير ابداً .

لو كنت ملكاً لا قدر الله لعددت من الخونة لي ولأمتي كل من لا يصدقوني عما يجب القيام به من الاصلاح ، ولطردت من خدمتي كل من

يحسن لي القبيح ويقبح لي الحسن ، ولأبعدت عن بلدي كل مداهن يعيش بأكل مالي ومال رعيتي ويجمع ثروة عظيمة في غفلة الدهر ، ولرددت كل ما في وسعي ان ارده من المال على اعمال ترفع مستوى العيش في رعيتي . فقد قال احد كتاب فرنسا ان صناعة الملوك فقدت كل لذة وسلبت من الملك الحديث جميع امتيازاته الملكية القديمة فليس له ان يأخذ من مال الخزينة ما يشاء ولا ان يفضل على وصيفاته على حساب الدولة ولا ان يسرف في اهوائه وشهواته ويبني القصور وعليه ان يظهر في مظهر وطني مقتصد وان يكون اباً صالحاً وزوجاً صالحاً وان يتحلى بالفضائل الطيبة كأنه احد افراد الطبقة الوسطي والا عرض نفسه للهلاك اه .

نحن لا نختط هنا خطة لصاحب نجد والحجاز يصل بها الى سبل الاصلاح ولا نقول بالوثبة المعجلة بل نعرض ما نراه في نظرنا صالحاً لملوك العرب وجزيرة العرب .

العلامة كرينكو

كرينكو عالم مستعرب اصله من شمالي جرمانيا اسمى نفسه في الشرق « سالم الكرينكوي » هاجر الى انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية واتقن من اللغات الاوربيه أزيد من اربع عشرة لغة يتكلم بها ، وتعلم العربية والفارسية والاردية بنفسه من دون معلم وهذه اللغات الثلاث يكتبها ولا يتكلمها ، ويكتب بالعربية كتابة المؤلفين من العرب وهو شاعر بالالمانية لغته الأصلية . وقد نشر بالعربية عشرات من كتب علماء العرب وعلق عليها وخدمها بما يخدم اعاظم علماء المشرقيات كتب اسلافنا .

أعجبت بدؤوبه منذ عرفته ونوهت به بالمناسبات وكان آخرها في محاضرة القيتها في جامعة فاروق الأول بالاسكندرية في فضل المستعربين من الغربيين على لغتنا وتوسعت فيها بذكر ما نشر العلامة كرينكو من

الكتب وعرضت لآرائه ومذهبه فبعث يقول انه لا يستحق هـذا التنويه وأنا اعتقد انه اهل لاكثر منه وما قلت الا أقل ما يقال شهد الله . قال اشكرك من صميم قلبي على حسن ظنك بي وان كنت غير مستحق لكل ما قلت فيَّ . اني من نحو ثلاثين سنة اعمل خادماً للعلوم الاسلامية والشكر اولاً لاصدقائي في حيدر آباد الدكن لمعاونتي على القيام بهذا العمل فطبعوا لي في مطبعة « دائرة المعارف » الكتب التي كنت اعتقدها مهمة للنشر الخ .

ان عناية السيد كرينكو بتآليف اجدادنا قد زاد في خزانتنا العربية عدد الامهات المطبوعة من تراثهم الثمين ، فبفضله حيي بعض ما كان ينسى أو يضيع من ثروتنا العلمية . وكان على علماء العرب ومنهم شيوخ الازهر ان يتولوا من علومنا ما تولاه السيد الاعجمي منها ، وهم لو ساروا على طريقته ما بقي كتاب مهم للقدماء مطروحاً في زوايا الخزائن معرضاً للحريق والتمزيق ، كانوا هم اولى ان يتقدموا فيحبوا تفسير ابن خالويه لثلاثين سورة من الكتاب العزيز ، ولكن شيوخ المسلمين في مصر والشام والعراق وتونس ومراكش يتدافعون على المظاهر والمناصب والحياة عندهم مشاهرات ورتب وأوسمة الا من رحم ربك .

الاستاذ كرينكو بحسب العرف غريب عنا ولكنه في الواقع قريب من قلوبنا لعطفه على ادبنا وتاريخنا وديننا بلا غرض الا خـدمة العلم المجرد ، والعجيب في امره انه لم يتقيد بأحد فلا ينتمي الى جامعة ولا الى جمعية ولا الى جماعة وما عرف الا الاعتماد على نفسه والولوع بخدمة غرضه الشريف . ومن أراد برهاناً آخر على غـيرته على مدنيتنا فليرجع الى ما حلى به جيد مجلة المجمع العلمي العربي من المقالات والابحاث والانتقادات خدمة للاسلام والعرب .

فرجل هـذا شأنه اما هو حري بأن نشكره على بعض اياديه علينا وعلى ادبنا ومدنيتنا وخصوصاً اذا نظرنا يميناً وشمالاً ولم نجد من يعشره من المعاصرين اصحاب هذا اللسان وهذا الدين ونحن لم نر من اكثرهم غـير

الدعوى العريضة ، واذا وقع التنظير بين علماء الغرب وعلماء الشرق تظهر الفروق بين العقول .

ذكرت بعض صحف الغرب ان اندريه موروا من أعظم كتاب فرنسا وعلمائها القى بأخرة في اميركا اربعاً وثلاثين محاضرة خلال اربعين يوماً . ومحاضرة يلقيها مثل هذا النابغة لا بد ان يكون فيها شيء جديد وكثير من التحقيق الذي لا يصل اليه المحاضر العادي ، اليس من العار ان يموت العالم عندنا ولم تؤثر له محاضرة واحدة خلال عمره الطويل ؟ وهذا هو الفرق الطفيف بيننا وبين أهل الغرب !

غلو الشرقيين

يفحش الشرقي في الغلو بالدقيق والجليل من شؤونه الدنيوية والأخروية فقد بالغ في تصوير الامور الروحية حتى صار كثير من الغوغاء يؤلهون المخلوقات ويسجدون للجمادات ويثبتون لمن يحترمون من الآدميين من ضروب الصفات ما تضل في تكييفه العقول .

الشرقي يبالغ اذا وصف أحداً بالعفة والسخاء والشجاعة والمروءة وفي دواوين الشعر وكتب المحاضرات أمثلة كثيرة من ذلك . وأمة تقول « أعذب شعر أكذبه وأشعر الناس من استجيد كذبه » لا تتحرج من الغلو والمبالغة ، هي اذا عدت وقاست نسيت الحساب والمساحة واذا قدرت أوغلت في الخيال وخرجت عن طور المحسوسات وتناست التدقيق فكالتك أو وزنتك بالألوف وربما كانت الحقيقة في العشرات .

يبالغون في قوة الدول وأموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وثروة الاغنياء الموسرين يتوغلون في العدد ويتجاوزون حدود العوائد ويطاوعون وساوس الاغراب كما قال ابن خلدون فاذا استكشفت أصحاب

الدواوين عن عساكرهم ،واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم ، واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم ، لم تجد معشار ما يعدونه ، وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد ، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ، ولا يرجعها الى بحث وتفتيش ، فيرسل عنانه ، ويسيم في مراتع الكذب لسانه ، ويتخذ آيات الله هزواً ، ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة .

ترى كثيرين حتى من خاصتنا اذا سألتهم عن الثروة لا يسعك الا أن تقف شاخصاً تستعيذ بالله من غلو المشارقة وتجويزهم الكذب وضعف استقرائهم واستنتاجهم وغفلتهم عن القياس والمقارنة . قف واسأل الله السلامة وهم يصورون لك صاحب المئة من أصحاب الألوف وصاحب الألف من أصحاب مئات الألوف .

وقد كان بعض الظرفاء يقول اذا ذكرت أموال صاحب الثروة في الشرق وقدر ما تملك يمينه فاحذف صفرين من يمين الأرقام ، فاذا قالوا لك ان فلاناً يملك عشرة آلاف فاعرف أنه يملك مئة واذا قيل لك يملك مئة الف فاعرف أنه يملك عشرة آلاف وهكذا افرض أقل تعديل لعلك تسقط على الحقيقة . وكان يقول اذا لم تصدق فاسأل العادين ممن يقدرون ثروات الافراد الى آخر درهم مما عندهم ، على حين أنك لو سألت أصحابها عما يملكون ما عرفوا أن يقدروا لك الا بالتخمين والتقريب .

هذه زبدة ما كتبت في مجلة المقتبس (جمادى الأولى ١٣٢٥) ومثلت يومئذبحادثين جرى أحدهما في مصر والآخر في دمشق وفي الأول قدرت احدى الصحف المصرية ما حشدته الدولة العثمانية يوم اختلافها مع بريطانيا العظمى على الحدود المصرية الشامية بثمانمائة الف جندي ولما قيل لها من الغد ان هذا العدد مبالغ فيه جداً قالت انه زاد صفر في العدد بالغلط فكان العدد الحقيقي ثمانين الفاً . وبعد التحقيق تبين أن ما كان جمع هناك من الجند

لم يتجاوز الألفين . والحادث الثاني مات أحد المعمرين فقال الناعي انه مات عن خمس وثلاثين سنة بعد المئة وأنه خلف خمسمائة نفس ذكوراً واناثاً وبعد التحقيق تبين أن عمره لم يتجاوز المئة وأن أبناءه وأبناء أبنائه هم دون الخمسين .

وفي هذه الأيام غلا الناس في تقدير الثروات على العادة لأن التجار ربحوا في الحرب الأخيرة أرباحاً عظيمة فاتسعت ثرواتهم وكثرت معاملاتهم ومنهم من بنوا القصور والمصانع ، ومما سمعته واستغربته أن أحد خونة وزراء سورية سرق من مال الجمهورية مئة مليون ليرة سورية (نحو عشرة ملايين جنيه مصري) والتحقيقات في حساباته لم تتم ، فذكرت ذلك لأحد أصحابي المعتدلين في السرد والتقدير فقال هذا مبالغة وانما الصحيح ان هذا الوزير كان قبل بضع سنين يعيش في بيت والده لا يملك نقيراً ولا قطميراً فقال والده منذ مدة لاحد خاصته : ان ابني صار يملك ثمانية ملايين ليرة فقلت له هذا صحيح أو أقرب الى الصحة .

هذه المبالغة متأصلة بحكم العادة والبيئة كالكذوب يرى أهله ومن يعاشرهم يكذبون فيكذب مثلهم ، ولا أحسن من الرجوع الى الاعتدال عند ذكر الارقام من أن يفكر المتكلم قليلاً ويقدر عظمة المليون الواحد حتى لا يضحك الناس من تقديره أو يروي المبالغة ويتبعها حالاً بما يسقط من الرواية ويقلل من الغلو فيها .



جمود العرب

كثيراً ما كان احد اساتذتي يقول : لا تطيب السكنى في بلد لاتنزله طائفة من ارباب القبعات فاذا كثروا كانوا مصيبة عليه . يقصد بقوله هذا – بقدر ما استنبط منه الفكر يومئذ – ان الدولة العثمانية لا تراعي اهل بلد الا بقدر مافيه من الأجانب يراقبون اعمالها فاذا خلت بلدة من هؤلاء الرقباء عملت الدولة فيها على هواها وكثرتهم ضارة . ويمكن تأويل هذا على معنى آخر وهو ان البلد لايتحضر الا بالاحتكاك بالغريب الراقي ولو قدر لسكان الجزيرة ان يختلطوا بالأجانب لما انحطوا هذا الانحطاط

لاجدال ان جزيرة العرب اليوم اكثر الاقطار العربية تأخراً في مضمار الحضارة وكانت حضارتها في اكثر عصور الاسلام والجاهلية ارقى من حضارة الغرب وما علة هذا التأخر الاقليم والهواء بل هجرة اهل الجزيرة في القرون الاولى للاسلام الى ما فتحوه من البلاد النائية وبقي الاعراب اي سكان البوادي وحدهم وتخلف في القرى اي المدن من العرب العاجز والشيخ والمتوسط الذكاء . ثم اتت عصور رأى امراؤها ضرب الحواجز بين ارضهم وسائر اقطار العالم فنشأت اجيال كلها جهل واتكال وعاد السكان يعيشون من صدقات الامراء وأهل الحجاز ينتظرون موسم الحج يسدون مما يربحون منهم بعض حاجتهم . وقل ان فكرت الامارات التي توالى حكمها على تلك الاقطار العظيمة ان تعمر بلادها وظل اهلها على حالة ابتدائية . واذا صح ما يرمينا به الغربيون من الجمود فيصح اولاً على سكان الجزيرة وجمود سائر الشعوب العربية نسبي . وكانت فرنسا وايطاليا واسبانيا في شمالي افريقية السبب في جمود المراكشيين والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين

ولا ينكر انه كان للفقهاء يد طولى في هذا الجمود الذي دام قروناً ، وبعض الاقطار التي نجت من استبداد الطغاة وتعصب الفقهاء وظهرت في

سنين قليلة بظهر لا بأس به من الارتقاء قد اكذبت بنهضتها ما كان يصمها به المتعصبون من اعدائها . وبعد ان امتعنا العقل بحريته يسير بما يتراءى له وابحنا تعلم العلم على اختلاف ضروبه تبدل الحال وبات يرجى الا تقل حضارة مصر والشام والعراق عن حضارات ارقى الدول الغربية .

انشأ العرب في الجاهلية مدنيات عظيمة في جزيرتهم وانشأوا في الاسلام مدنية كانت الوحيدة في العالم خلال اربعة قرون ثم اصيب العرب بالضعف حتى اتهمنا بالجمود وبدأنا نشعر بنقصنا منذ القرن الماضي . وسيبدع كل قطر من اقطارنا الناهضة مدنية خاصة به ولا عار في اخذنا عن الغرب فقد سبق له ان اخذ عنا كثيراً (راجع في كتابنا الاسلام والحضارة العربية ما أخذه الغرب عن العرب)

روى احد علماء الانكليز (هارولد نيكلسون) قول المؤرخين من انه منذ وجدت في الأرض جماعات منظمة رأت الانسانية ثلاثاً وعشرين حضارة مختلفة سارت كل واحدة منها في ادوار معينة حتى انتشرت فنمت في اول نشأتها ثم استقرت وتوطدت ثم ثارت ثورة الفقراء فكان من ثورتهم الانحلال . ومن هذه الحضارات من تركت عاديات ابانت عن قوتها وثقافتها ومنها ما لم يبق منها غير ذكراها

قال ولدت مدنية اوربا في اليونان قبل القرن الخامس من الميلاد فوضعت قواعد انسانية جوهرية وعرّفنا اليونان فضل الذكاء الحر ومبلغ تأثير العقل ، واخذنا من الرومان حرمة المذاهب وعظمة الشرائع . وعدلت النصرانية من قسوة المعتقدات الرومانية وقالت باغناء الفرد ورفعت مقام الفضائل واتت بالرحمة والرفق ، ونادت فرنسا في القرن الثامن عشر بتغلب العقل والعلم الصحيح . وجئنا نحن الانكليز بمثال من النظام لم نأخذه عن مقام سام بل ولد من ذاته وتألف من عادات انبعثت من الشعب كان رائدها التسامح والاعتدال والتنظيم اهـ .

يجدّ العرب اليوم لاسترجاع حضارتهم القديمة يمزجونها بما يقتبسونه من

الحضارات الحديثة فيرتفع عنهم لذلك عار الجمود وخلق الاتكال ويستعدون لحياة طيبة فيها جماع القوى المادية والمعنوية ، وستكون حضارتهم على اختلاف اقطارهم منوعة الاشكال كالفسيفساء لاتشبه حضارة العرب ايام عزهم ولاحضارة الغرب لعهدنا بل تكون شيئاً جديداً فيه عبقريتهم وروحهم.

المطالبة المعقولة

وفقت الحكومة الجديدة في سورية خلال الشهرين الاولين من حكمها الى تحقيق اصلاحات لم توفق الى مثلها الحكومة البائدة في أعوام . منذ القديم كنت انزع الى الامتناع عن نقد كل حكومة جديدة وأترك لها وقتاً تجمع فيه شملها وتوجه دفة سفينتها حيث تريد على ماترى فاذا وفقت الى الخير فبها ونعمت والا فان اعمالها تسقطها على نحو ما حدث لرئيس الجمهورية الثالث ومن ورائه رجال الغيب أصحاب الكتلة الوطنية فان سيئاتهم في الحكم قضت عليهم ، ولو لم يبادر الجيش الى اسقاط حكومتهم لسقطت بنفسها بما جنته أيديها .

ليست الجرأة على نقد كل شيء بانفع من التأني فيه والاقتصاد منه ، ولا يعد التوقف في النقد قصوراً ولا اسقاط كل شيء معقولاً . وأي عمل وهو في مبدء تأسيسه خلا من هنات تؤخذ عليه . ولو أنصفوا ماكان مجموع ما عدوه من المنتقد يوازى مسألة واحدة ارتكبتها الحكومة السالفة وما وجدت من يحاسبها حتى الحساب اليسير . ولاحظ بعض العارفين بالادارة أن حكومة الزعيم أنجزت في أسابيع قليلة عشر مسائل كبرى لا تستطيع الحكومة القوالة الصخابة أن تنجز مثلها في سنين ، ولذلك وجب الثناء عليها . والعاقل اذا أصابته نعمة حمد عليها وشكر وأغمض الطرف عما عدا ذلك ، ويخطيء من يتطلبون الكمال وايجاده من أصعب الصعوبات .

منذ قرن وضع كردينال اسبانيا القواعد التى تستطيع بلاده — وكانت

يومئذ تمزقها الاختلافات الداخلية — أن تنشيء حكومة ثابتة مستقرة فيها ، قال هوفار من ساسة الانكليز : ولو كنت اسبانياً من أحزاب اليمين أو من أحزاب الشمال لكنت أردد كلماته الحكيمة وهي : يجب تأسيس حكومة لا تحتقر الماضي ولا تهمل الحاضر ولا تغفل عن المستقبل . يجب أن تكون حكومة لا تنكر ضرورات الساعة ولا تنسى الارث الثمين في الدين والاجتماع والسياسة من مخلفات الأجيال السالفة ، حكومة قوية لا تعرف العناد ، عادلة بلا قسوة ، شريفة بلا عظمة ، حكومة تكون مفتاح قبة بناء ضخم تحسن تلقي كل رأي معقول ، وتنجز كل مصلحة مشروعة .

وهذا ما نرجو أن يتم على أيدي رجال الحكم الحاضر في سورية العزيزة لتكون قدوة الحكومات العربية . والواجب أن لا نتطلب المحال وأن ننصف غيرنا من أنفسنا ، فالادوات التي تستخدمها الحكومات هي هي ، والمهارة في اختيار الاصلح فالاصلح ، وعلينا أن نبتسم المستقبل نتفاءل ولا نتشاءم ، وألا نجسم الضئيل ولا نصغر الكبير ، وأن نتجرد عن الهوى ونتعاضد على الحق .

الحكم ملح الارض

عجب كل وطني شاهد عمال الحكومة بعد الثورة الجديدة وقد بدأوا دوامهم اليومي على صورة من التدقيق لم يعهد مثلها في الحكومات السالفة . يدققون في ضبط المواعيد في الذهاب والانصراف ويبتون في امور ارباب المراجعة بالسرعة الممكنة ، ذلك ان صاحب الشأن الأول قضى عليهم بهذا النظام رعاية لمصلحة من يدفعون اجور اولئك الموظفين فالامة تطالب هؤلاء بحقها عليهم ومن لا يروقه التقيد بارادتها فما عليه الا ان يعزل نفسه قبل ان يعزله غيره .

نعم ان العامل يتناول اجرته ممن انتدبه لخدمته وهذا يطالبه بالانقطاع الى خدمته ساعات معلومة في اليوم وعليه ان يخلص فيما تولى وان يبادر الى انجازه من دون ان يُدفع اليه . وكل من اعتاد أن يأخذ الحق ويعطي الحق تحصل له نشأة يستريح اليها وجدانه في الآخر . والواجب ونحن نسير في أصول الحكم على مثال الغرب أن نتقيّل أساليبه النافعة في مختلف المظاهر .

عمال الحكومة من أرقى الطبقات في الأمة لاستعدادهم الاستعداد الكافي قبل دخولهم في الخدمة وهم يتعلمون بالعمل في الدواوين أموراً مفيدة هذا اذا أرادوا تنمية عقولهم ومعلوماتهم . وواجب المستخدم أن يتعود التدقيق في محاسبة نفسه باحسان عمله قبل أن يحاسبه غيره والبطال الذي يحاول قتل الوقت يحس بوحشة اذا انقطع عما ألف . البطالة داءٌ ما كان يوماً مما يرغب فيه عاقل ومن أجل ذلك نرى الشيوخ يخترعون لأنفسهم عملاً يسليهم وقد يكون أكثرهم ممن لا يطلب اليهم أن يجدوا فما بالك بواجب الشبان والكهول . ونحن كثيراً ما شهدنا من شوهوا سيرتهم بما كان يجب تنزيهها عنه ان عاشوا يوم تنحيتهم عيشة ضيق ووحشة وما قدروا بترك ما تهيأوا له أن يأتوا في انتقالهم مما ألفوه الى مالم يألفوه الا الفشل وخيبة الأمل .

نحن والامم

تغلب على الامم عادات وأخلاق لا سبيل الى نزعها بالهين لأنها ابنة قرون طويلة . فأمة تغلب عليها الرعونة والثرثرة وأخرى تتملكها الرزانة والتزمت وغيرها تغرق في التبجبح والتبجح ، ومنها ماخلق للنظام أو الفوضى ، وقد يشابه شعب شعباً في كثير من الخصائص خصوصاً اذا كانا متجاورين فالانكليزي يشبه الألماني من بعض الوجوه ، والصيني لا يشبه الفرنسي ، والطلياني ليس كالهندي ، وقد تشبه الشعوب اللاتينية في بعض المظاهر الشعوب العربية . وسكان جمهوريات جنوبي أميركا وأهل فرنسا وايطاليا وأسبانيا والبرتقال ورومانيا ينزعون الى التوسع في كلامهم وتآليفهم وخطبهم ومناقشاتهم بخلاف الأمم الانكلوسكسونية فانها تحب الايجاز في أحاديثها وابحاثها وخطبها ومحاكمها ومجالسها وتتوخى الابتعاد عن القلقة والتزيد في الجملة .

ثبت ان أبناء فرنسا أكثر طلاقة في السنتهم من أبناء انكلترا ، والانكليزي اقرب الى الصمت واطالة التفكير من الفرنسي وغرام هذا ببلاغته وبلاغته تقتضيه تقليب تراكيب الكلام وتلوين الجمل بالوان مغرية . والزبدة في كلام الانكليزي وكتابته أكثر حجماً وأثقل وزناً . الفرنسي خفيف الوزن مأخوذ لعواطفه والانكليزي رصين يسير مع عقله على الاغلب . والفرنسي يتكلم كثيراً ويفعل قليلاً ، والانكليزي يتكلم قليلاً ويفعل كثيراً وهذه الأحكام تكاد تكون من المجمع عليه بلغت حدّ التواتر ويعرفها من خبر أخلاق الأمتين .

يقول هايزارت البلجيكي في كتابه (باكورة في علم الاجتماع) الأخلاق امر نفسي طبيعي تولد مع الانسان . ويمكن تقسيم البشر الى طبقتين عظيمتين ظاهرة وقابعة فسكان الشمال يميلون الى الحياة البيتية يقبعون في

بيوتهم وسكان الجنوب يرتاحون الى الخروج والظهور . وفي الفرنسيس جفاء ولا ثبات عندهم وهم على جانب من الذكاء وطباعهم جافة وصدورهم ضيقة وفيهم فصاحة وزهو ويؤكدون ان قلوبهم عن شمائلهم وحافظة نقودهم على أيمانهم . والالمان اقوياء واصحاب امانة مولعون بالعمل ويجرون على قواعد لهم ، يحبون النظام وفيهم غطرسة تتجلى في معاملتهم الضعاف وفي مبالغتهم بمراعاة الأقوياء ، ويعرف افراطهم باكرامهم صاحب القوة ، يحبون الاحتكار وهم مفننون يميلون الى الخصام ويروغون اذا لم تكن لهم قوة ، ويبدون للأعين كأنهم قساة ونفوسهم عارية من الرحمة وهم يدققون في هندستهم وفيهم عاطفة وعندهم شعور وحساسية . وامزجة الانكليز بلغمية ويقل الذكاء فيهم وهم رجال عمل يحسنون الارتجال والابتداء وهم حذرون وبعيدو النظر وهم يميلون الى المذهب الانكليكاني وهواهم بالفردية . والروسي كسول محتال خبيث وفيه ما تقرؤه في سحنات الصقالبة من الرقة .

قال واذا تلطفنا في الوصف ننعت الفرنسي بالبراعة في فن الطبخ والانكليزي بحذق الميكانيكيات والايطالي الغناء والضرب على الماندولين . وقد ذهب شعوب بالزعامة وآخرون بالحرية ومال بعضهم الى العبودية . ومن هذه الاحكام ما يؤخذ منه ويطرح ، وما يطرح منه كثير لأنه بني على تأثيرات غير ثابتة صدرت عن سياح ما كانوا يتريثون كثيراً في احكامهم يحكون ما يحكون مأخوذين بأوهامهم .

وقال تشرشل اعظم ساسة الانكليز في كتابه الأخير (جريدة سياسية) : « كثير من الامم ومنهم امتنا (الانكليز) تميل الى اعتبار فرنسا أمة متعاظمة متحمسة خفيفة تابعة لهواها ، وما الفرنسيس في الواقع الا امة صلبة معتدلة لا تأخذها العاطفة تجمع الى النباهة شدة من بين امم العالم » وبين قول العالم البلجيكي والعالم السياسي في وصف الفرنسيس وبين ما تعارفه الناس عنهما تباين ظاهر مستغرب . ونظر السياسي على كل حال غير نظر العالم .

وانا اذا حكمنا بما حكم به العالم البلجيكي على من ذكرهم من الشعوب

نظامهم ولو قال ان بعض افرادهم على هذه الاخلاق لـكان قولاً عدلاً ، اما من يزعم انها اخلاق الامة كلها او الاخلاق الغالبة على سوادها الاعظم فتعنت وتعسف . واي غمط لحقهم اعظم من ان يدعي المؤلف ان الفرنسيس يحسنون الطبخ متناسياً ما لهم من الايادي البيضاء في الآداب والفنون ، واي ظلم اعظم من ان يدعي ان الايطالي لا يعرف الا الغناء والموسيقى ونبي النهضة التى قامت في القرون الوسطى في بلاده وكانت الداعي الا كبر في ادخال الحضارة على الشعوب الاوربية كافة ، اضف الى هذا ان الطليان هم الذين نشروا النصرانية في اوربا وانقذوها من الوثنية وهذا من مزاياهم . وهكذا يقال في حكمه على الانكليز والروس ولكل قوم ميزاته وخصائصه . ولكل شعب عيوبه ونقائصه .

وضع السيد جمال الدين الافغاني الانكليز والعرب موضع التنظير فقال : الانكليزي قليل الذكاء عظيم الثبات كثير الطمع والجشع ، صبور متكبر ، والعربي او الشرقي كثير الذكاء عديم الثبات قنوع جزوع قليل الصبر متواضع . يثبت الانكليزي حتى على الخطأ اذا تسرع وقاله او باشره ، والشرقي لا يثبت على الصواب ولا على طلب حقه فيصل الاول الى خير النتائج بفضيلة الثبات ويخسر الثاني كل حق برذيلة التلون وعدم الصبر . »

وهذا القول حق في مجموعه ولعله ما خلا من شيء من الغلو في الحكم على الامتين العظيمتين .

ونرى ان الحكم على العرب في القرن الماضي والحكم عليهم في هذا القرن يختلف كثيراً لأن العرب تبدلت عقليتهم باقبالهم على التعلم والأخذ من المدنية الحديثة .

تمويه الحقائق

قرأت في مجلة لاروس فصلًا عنّن له كاتبه (العالم العربي) جاء فيه حقائق تخللتها تمويهات . تخيل الكاتب أن العالم العربي عبارة عن مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد ، مساحته السطحية ثلاثة ملايين كيلومتر مربع وسكانه أربعون مليوناً . وبذلك أخرج من المجموعة العربية سكان الامارات العربية المنبثة على شواطيء المحيط الهندي والخليج الفارسي ، ويسكنها بضعة ملايين من الأنفس كما أخرج خمسة أقطار عربية في شمالي افريقية (برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ولا ينقص سكانها عن خمسة وعشرين مليوناً . دع بضعة ملايين من السودانيين في افريقية ثبت أن أصولهم عربية ويتكلمون العربية أي أن السياسة أوحت الى كاتب المقالة ألا يعترف بعربية أكثر من أربعين مليوناً ، فانظر كيف يكتبون أهم كتبهم ، واندب حظ العربي فيها اذا دعت مناسبة الى الكلام عنه وعن ماضيه وحاضره .

ومن تمويه هذا الكاتب أن نصارى لبنان وسورية هم الذين بعثوا النهضة العربية من مرقدها ثم تولت مصر كبرها ، وهي نغمة طالما رددها بعض جهلة اللبنانيين منذ زعموا أن لبنان سبق الى التمدن وأنه هو الذي مدن مصر وعلمها مع ان مصر تقدمت لبنان الى العلم بنحو جيلين . والدليل ان مدارس الطب واللغات والترجمة والادارة والصنائع والهندسة في مصر أنشئت قبل تأسيس الجامعتين الاميركية واليسوعية في بيروت باكثر من خمسين سنة . وما كان في لبنان ولا في سورية وفلسطين قبل ان تنهض مصر من يقيم للعلوم المادية وزناً . وبينما كانت كتب الطب والزراعة والحيوان والنبات والكيمياء والفنون الحربية والتاريخ والجغرافيا تتناقلها ايدي العالم العربي وهي من تعريب المصريين الذين تعلموا في اوربا على عهد حكومة

محمد علي الكبير كان ابن لبنان لم يصل الى اكثر من السواعية كتاب صلواته .

ومن ابشع السخافات دعوى احد اساتذة السوربون مؤخراً في جريدة (لنوفيل ليتربر) الفرنسية ان البربر هم اصحاب المدنية في شمالي افريقية والاندلس ، وما العرب الفاتحون الا شراذم من السلبة والمتشردين تعلموا في طريقهم الى فتح المغرب بعض ماعند اهله كما تعلم ابناء جنسهم في فتح فارس اشياء من الفرس اعانتهم على تأسيس مملكتهم الجديدة . فقامت المدنية الاندلسية والافريقية بفضل البربر فقط . ومن العجيب ان من يزعمون لهم هذا الفضل في التمدن لم تعهد لهم مدنية قبل الاسلام في شمالي افريقية ولا شيء من بقايا حضارة بعد سقوط دولة العرب في الاندلس وسقوط دول المغرب الاقصى والادنى .

كذب مفضوح لا يليق صدور مثله ممن يحمل اسم استاذ من اعظم جامعات العالم . ولذلك نرى من واجبنا ان ندعو كل عربي الى الشك في اكثر مايصدر عن كتاب فرنسا من الاحكام على الاسلام ذلك لانه تحقق ان اكثر الفرنسيين لاينظرون الى الاسلام والمسلمين الا بمنظار الاستعمار .

الدرر الكريمة

ولا اعنى بها الدرر المتعارفة التي تتخذ للزينة وهي من قنيات اهل السعة خاصة ، بل اقصد الدرر الثمينة التي لايظهر امثالها من الرجال في الحقب الطويلة . وممن عرفت في دولة الترك من هذا الطراز البارع رجلان عظيمان (وقد اشرت في مكان آخر الى بعض عظمائهم) احدهما فاق اقرانه في الأدب والسياسة والثاني في المالية والاقتصاد ، عنيت العالمين الكاتبين الخطيبين المبدعين علي كمال بك وجاويد بك .

كان الاول صديقاً لي تعاشرنا في القاهرة وباريز والاستانة اشهراً وتعرفت الى الثاني في استانبول على عهد الاتحاديين وكان يعدّ من كبارهم ، ولكل منهما مزايا عظيمة ليس لاحد مطمع في مثلها الا اذا كان ممن خلق للعظمة وخص بالعبقرية .

قرأت كثيراً مما كتبه علي كمال في جريدة پيام بيام وغيرها من الجرائد والمجلات ، وكان يحسن العربية اخذها عن احد أئمة اللغة في حلب (راجع ما كتبناه من اخباره في ص ١٤٦ من الجزء الاول من المذكرات) . وحدثني بعض تلاميذه في جامعة الاستانة انه كان في درسه التاريخ العثماني يورد على مسامعهم من اخبار ادوار الانحطاط مايبكي منه ويبكيهم ، ومرماه تربية ملكاتهم وتقوية روح الوطنية فيهم .

اما الثاني فقد قرأت اكثر كتبه في المالية وبعض ما كان ينشره من ابحاثه وتحقيقاته الاقتصادية في المجلات التركية وسمعته في مجلس النواب ، وكان وزير المالية العثمانية ، يخطب في الموازنة فما سمعت بالتركية نغمة ارق من نغمته ولا بياناً امتع من بيانه - اللهم الا صديقي الاستاذ لطفي فكري بك شيخ المعارضين في المجلس يومئذ - ماتلعثم ولا توقف وكان امامه وثائق وكتب ربما كان ينوي الرجوع اليها اثناء كلامه ، فلا والله ماالقي عليها

نظرة وانكفأ يخطب من عفو القريحة اكثر من ساعتين خلتهما دقائق لكثرة ماأخذ من قلبي ببلاغته وسعة علمه ، وكان خلال الكلام يلعب بسلسلة في يده على نحو مايقلب لسانه بالعذب السائغ من الكلام .

هاتان الدوتان النادرتان قضى عليهما الكماليون بلا رحمة مزقوا الاول تمزيقاً يوم دخلوا الاستانة فاتحين ، وصلبوا الثاني صلباً ففجعت بهما الامة التركية واسفت الامم المتمدنة عليهما حتى ان احد كبار الانكليز قال لبعض ولاة الامر من الترك عند الحكم على جاويد بالقتل نحن مستعدون لان نستعير منكم هذا العظيم او نبتاعه ونؤدي فيه الثمن الغالي لما نتوقع من الاستفادة من علمه وتجاربه . وفي رواية أخرى انه قال ان صفقتنا ستكون رابحة اذا اخذناه منكم وليس في رجالنا من يدانيه .

ذهب علي كمال وجاويد رحمهما الله فدية السياسة وكم قتل مثلهما في كل امة بغياً وعدواناً دون فرق في نظر الطاغي المستبد ان يكون القتيل مجرماً او بريئاً ، والمهم القضاء على النوابغ ليذهبوا من طريق المتوسطين فلا يجدون اذا فقدوهم معارضاً فيما يبرمون وينقضون . وكان الكماليون كالاتحاديين في معاملة نبغائهم . وفي كل ثورة وعقبى كل حرب يقتل الغالب ماشاء الله ان يقتل ممن كانوا يعارضونه وينقدونه . رأينا من ذلك مايشيب له الولدان في عصر الحضارة هذه وفي كل امة سلفت وخلفت .



نبوءة عاقل

قال لي صديقي البطريرك العلامة الكسندروس طحان قبيل الحرب الاخيرة اني لاخشى اذا نشبت الحرب ان يكون الظفر للجنس الانكلوسكسوني وهو ما أرجحه وتساءل ماذا يكون حال العالم مع اليهود وسلطانهم في الولايات المتحدة سلطانهم ، اذا تم هذا فتكون عقوبة الهية يرسلها الله على البشر تأديباً لهم .

وها قد تمت هذه النبوءة بعد عشر سنين واليهود الصهيونيون لايتحامون ايذاء العرب المسلمين منهم والمسيحيين ، وكان المشهور ان اميركا اقرب الدول الى العدل والاعتدال كما ظهر ذلك من استعمارها وسياستها العالمية فتبين انها عند تعارض مصلحتها مع مصلحة الغير تدوس كل حق حتى تصل الى مأربها .

آكل الحرام

حاز ارقى الدرجات في الماسونية واحرز القدح المعلى في الرشوة واللصوصية ، يكتب ويخطب خادماً لافكار غيره وتابعاً لمن يعطيه ، وهو قليل التدبير في كل ماتولاه من الاعمال الخاصة والعامة ، وكان كل ماجناه كالماء يجري الى قنطرة يدخل من جهة ويخرج من أخرى . رأى مرة ان المصريين لايحسنون المقامرة وادعى انهم وان كانوا اغنياء فهم اغبياء ، فشد الرحال الى مصر يلاعب ابناء حرفته فغلبوه شر غلبة وما خلص منهم الا بان دفع لهم المدّخر والمنتظر على أصول المقامرين . وبدا له ان يشتغل بالزراعة ، وقد انهكه المرض وذرف على الثمانين ، وماسبق له ان تعاطاها . فابتاع

ارضاً واسعة قليلة الماء خبيثة التربة واراد ان يعمرها بمعرفته لابمعرفة العارفين فماهي الا سنة او سنتان حتى غدا ماابتاعه بمئة قرش يساوي خمسة قروش .

يعلل ارباب الاعمال ان السبب في اخفاق هذا العجوز جهله صناعة لايحسنها والزراعة يستلزم تعلمها زمناً فكيف له وهو في أخريات ايامه غير صحيح الحواس . ويقول ارباب الدين لما كان جميع ماله حراماً قضى الله عليه الا يخرج من الدنيا حتى يخرج عن جميع ماجناه ، شأن كل من جوزوا لانفسهم كل مال وما فرقوا بين الحرام والحلال .

طلاب المدارس

دخل في العهد الاخير طلاب المدارس الثانوية والعالية في مصر والشام والعراق في طور ما كان لهم ان يدخلوه لو انتظمت السياسة وعقلت الحكومات فسارت على بصيرة كل حين . اخذوا يتدخلون في الامور السياسية ومنهم من كان يخدم سياسة بعض الاحزاب وينتقدون الحكام بحسب ما توحيه اليهم عقولهم النضرة ، وهم على صواب اكثر الاحيان في انكارهم ما ينكرون ، ومنهم من تهيجهم دواعي الوطنية فيتقدمون لقتل من يعتقدون فيهم العبث بمصلحة امتهم او التساهل بوضع أيديهم في يد عدو وطنهم ، ينظمون لذلك جمعيات سرية وجهرية ، ومنها ما ظهر الخير على يده ومنها ما كان المقصد منه الظهور او غايات شخصية أُلبست قالب العموميات .

وكأن هؤلاء الأبناء البررة اقاموا أنفسهم رقباء على الحكومات يردونها الى السداد بما يرون فيه الخير لوطنهم ، ويفادون ضروب المفاداة فلا يتأخرون عن اهراق دمائهم عند الاقتضاء في سبيل مصلحة الجماعة ، وهو مما لم يعهد قبل ان ينبعث نور العلم الحديث من المدارس ولا يزال في ازدياد كلما كثر عدد هؤلاء الطلاب .

وكأن التلاميذ قسموا اوقاتهم شطرين خصوا الشطر الاول بتحصيل

ما تيسر لهم من العلم والآخر وقفوه على عمليات قرؤا نظرياتها في الكتب . ظاهرة جديدة اهم ما نشأ منها ان الحكومات غدت تحسب للناشئة حساباً في المسائل السياسية ، والنابتة اخذت تغذي المجالس النيابية وتسوقها الى القيام بواجبها كلما شاهدوها الى جانب القصور وتحمسوا لدعوتهم وعدوا عقيدتهم السياسية هي المعول عليها دون غيرها .

وما كان للحكومات ان تصم آذانها عن نقد من ليسوا من عيار الطلبة في الغيرة والادراك ، ولا عار على حكومة ان تماشي ابناءها فيما يحفظ عليها سلطانها ولا يخل بانسجام النظام اذا نزلت على رغائبهم في الامور المعقولة وعلى ما يُرمون به احياناً من قلة التجربة ، فهم ابناؤها من اصلابها ، وزينة ارضها ومعقد رجائها وخلفاؤها من بعدها ، وقد يستفيد الاب من ابنه احياناً اذا تعلم وتهذب اكثر منه .

قيض الله بعض نجباء الابناء يدعون للخير ويمهدون الطريق لمن عانوا سياسة الأمة ، ولو قد ترك النواب وشأنهم مع الحكومات التي تتألف من احزاب ، الله اعلم كيف اجتمعت ، لضعف امر الامة . كل هذا من البديهيات ولكنه من الخطورة على جانب . فدخول التلاميذ في مسائل سياسية كبيرة وصرف شطر من اوقاتهم الثمينة وهم في سن الدراسة يضيع به قسط عظيم من ثروة الامة وثروة الامة قائمة بالاكثار من تخريج اكبر عدد ممكن من ابنائها في العلوم .

وكنت اتمنى ان يكون جميع النواب ، وبأيديهم اقدار الشعوب ، على كفاءة تامة لا يحتاجون معها الى من يدلهم على طرق الخير وما توجبه عليهم وظائفهم لينقطع الطلاب الى ما يجب عليهم العناية به قبل كل شيء لا ينظرون في غير دروسهم حتى الزمن الذي يغادرون فيه مقاعد مدارسهم ، فاقتطاع وقت خص بعمل واشراك عمل آخر معه يورث الضعف في العملين ، والمرء لم يخلق بقريحتين ولا بقلبين . فمن الصعب الانصراف الى الدرس والدخول قبل الأوان في ميدان السياسة ، ولا يتأتى التذرع بأمرين مهمين دون ادخال الضيم على احدهما .

وقت الدراسة لا يشبه غيره من ادوار الحياة فهو لا يتكرر واذا فات لا يعود ، بل هو كنز مرصود اذا لم يكشف في سن مخصوصة يضيع ، وشيء يلزم به المرء لا يقوم به له غيره ، فاذا استهان الشاب بهذه الشروط خسره وطنه وخسره اهله وخسر هو نفسه وكان حرياً ان يعد في جماعة انصاف المتعلمين وهؤلاء لا يصلحون للمواطن التي أعدوا لها .

الحسد على المنصب

يقول المؤرخ البرتقالي هركولانوم ان في عقلية الشرقي نوعاً من الغرابة يصعب تحليلها ، أنه مع ما أوتيه من الذكاء والاقدام والمقدرة ينقصه شيء من التعاون والالفة وعدم التحاسد على الوظيفة والمنصب اهـ.

ولعل التحاسد على الوظيفة والمنصب من أقوى انواع الحسد ، لأن المنصب مدرجة الى كل شيء ، فيه ماتبتغيه الانفس من منافع ومظاهر ، وقديماً كان الامر والنهي من الذ الاعمال البشرية .

قامت ضجة في جوارنا ذات صباح بين اخوات وشقيق لهم فمما سمع من احداهن قولها لاخيها ان اباك صلبه الاتراك وانت باق بلا وظيفة و (كرد علي) جارنا وصل الى الوزارة . هذا مانقلته اليّ من سمعته ، وهو كلام السيدة لأخيها بمعناه ، ومن روته ليست ممن يحسن تصنيع هذا الكلام .

السيدة عيرت اخاها بان اباها صلب (في الحرب العالمية الاولى) . ألمقصد شريف كان يرمي اليه ياترى ، ام اتى ماعده الترك خيانة وطنية فاوردوه حتفه ؟ وعند السيدة ان والدها لما صلب وجب على الحكومة الخالفة ان تكافيء أولاده بتوظيفهم ، ولا عليه اذا استدعى الاجنبي ليخلف التركي في حكم بلاده ، والعقل يقول ان الخيانة واحدة سواء كانت للغريب او للقريب ، فالمصلوب خان الترك ولم يدعُ للعرب .

هذه اعمال اب يريد اولاده ان يستثمروا اسمه بعد هلاكه ، ولولا ان

اعتاد الناس السكوت عن مساويء موتاهم للأوا بتعداد هذه المقابح الصحف والاندية . وكان المصلوب نال ممن خانهم مالم يكد يناله أحد من مواطنيه . كفر بكل هذا وحاول ان يحول وجهه وجهة أخرى ليعوض ما خسر من مال وجاه فكانت العاقبة مارأيتم .

نعم يتحاسد الشرقيون على الوظيفة والمنصب تحاسداً يخرجون به على كل قانون . وقد يحاول أحدهم قتل اخيه آمـلا ان يخلفه في مقعده ويضع يده على ثروته . اما الكـذب على المحسود والتجسس عليـه فهو من ايسر، مايرتكبه الحاسد الموتور ولا يبالي ، لان فيه تحقيق امانيه واشتفاء صدره بقتل اعاديه .

ضيّق العقل يرتكب افظع ضروب الخيانة ويظن ان مايجنيه اذا كان في سر لن يفتضح ويعد من علائم سعادته انه احتال وتمت حيلته على من احتال عليه ولله في خلقه شؤون .

التعايشية

التعايشي من امراء السودان اطلق احد ارباب الدعابة من الفقهاء اسمه على كل شيخ غايته من دنياه ان يأكل ويعيش ، وهو في سبيل الوصول الى مبتغاه يسجد لـكل صاحب قوة يضمن له معاشه ، لايخجل من ان يكون عبد من دامت سعادته ولايعبأ بما يتطلبه منه قومه ووطنه من خير .

فالتعايشي اذاً هو طالب العيش لايعنيه من العـالم غيره ، ونقيض التعايشي قلائل في كل زمن وفي كل امـة وفي كل نحلة ، وكلما كثر عددهم في قوم عزّ وبزّ ، ولنا ان نسمي نقيض التعايشي «الفريق المختار» من كان مناهم من دنياهم ان يؤثروا أثراً نافعاً وقد تلذهم المغـامرات واقتحام المصاعب ان كان فيها مايعود بفائدة على المصلحة العامة .

يود كل العالم ان يعيشوا بهناء وتضمن لهم اسباب العيش السعيد ، وليس في حياة السواد الاعظم مايفتخر به والفخر كل الفخر للاقلية النافعة . الاولى لاتذكر بامر ذى بال وعيشها الى البهيمية اقرب والثانية تذكر بحسب غنائها ودرجتها في المحامد .

ومن الفريق الثاني كل من يتوخى نفع غيره ولو قليلاً . فمن يرفع صوته بانكار المظالم والانحاء على المضرين فهو نافع . ومن يبشر بفكرة خير مهما بلغ من ضؤولته فهو نافع . ومن يدعو الى تهذيب الاخلاق وتعليم البنين والبنات فهو نافع ، ومن يحبب الى قومه تزيين كل فضيلة و تقبيح كل رذيلة فهو نافع . ومن يكرّه البطالة للمتبطلين ، ويصفق للعاملين والمجتهدين ، وينوه بالمحسنين والمتصدقين فهو نافع . ومن يعلم مواطنيه حب النظام والبعد عن الفوضى ويحملهم على احترام القوانين فهو نافع . ومن يدل على كل ما في الحضارة من حسنات ويحذر مما حملت من سيئات فهو نافع الخ .

وارقى من هذه الطوائف في باب النفع من يحققون مايعم الوطن أثره ، فمن يعمر طريقاً ويبني جسراً ويقيم مستشفى وينشىء مدرسة ويؤلف كتاباً ويعلم جاهلاً ويرشد ضالاً ويأتي بجديد يستفيد منه المستفيدون فهو نافع . واعلى كعباً من اخترع آلة لتذرية الحبوب ، وآلة كاتبة سهلة الاستعمال ، ومن ابدع آلة حياكة وآلة نسج وآلة خياطة وآلة طباعة وكل مايفيد في الصحة واللباس والمسكن والصناعات المختلفة ويقتصد من الوقت ويجلب الثروة .

اذا جد الجد

قامت مرة مظاهرات في عاصمة الجمهورية السورية وحواضرها حلب وحماة وحمص ودير الزور وغيرها اختلفت الآراء في الاسباب الداعية اليها . فمن قائل ان منشأها تطاحن الاحزاب ومن مدع ان لليد الغربية اصبعاً فيها والارجح ان الفوضى التي عمت اعمال الادارة لضعف تركيب الوزارة وعدم الالتفات الى شكاوى الجمهور والاسراف باموالها كانا العامل الاول في ذلك . فان معظم الوزراء لم يسبق لهم تولي مثل هـذه المناصب ولا اقل منها ، وجاءت بهم الى الوزارات احزابهم وتساهل من ضمهم الى مالايحسنون القيام به

كانت المظاهرات تدار بأيدي طلاب المدارس العـالية والثانوية فوقع قتلى وجرحى من الاهلين ومن الشرطة وما استقر الامن في نصابه الا باعلان الاحكام العرفيـة ، وقد اشترط الطلاب الا يعود للحكم احد ممن كانوا في الوزارة السابقة لانهم اثبتوا جهلهم وضعفهم وقلة أمانتهم وأنه ماكان لهم مأرب في غير الحرص على مصالحهم الشخصية .

ولما جاءوا يؤلفون الوزارة الجديدة قيل ان رجالنا قلائل وما هم في الواقع الا بنسبة من تعلموا منا فخطر بالبال وضع قائمة يرجع اليها في تأليف الوزارات وبعض من انتقيناهم يصلحون للرياسات وبعضهم للوزارات وهاهم الاساتذة والدكاترة .

ادمون حمصي . اسعد هـارون . اسعد الكوراني . اكرم الحوراني . امين رويحة . حسن الحكيم . حسني سبح . حكمة الحراكي . حيدر مردم بك . خالد العظم . خليل مردم بك . رشدي الكيخية . سامي العظم . سعيد الزعيم . شفيق جبري . عادل ارسلان . عارف النكدي . عبـد الرحمن العظم . فائز الغصين . فتح الله اسيون . عزة الصقـال . مصطفى برمـدا . مصطفى الشهـابي . مصطفى الكيـلاني . ميخـائيل ليـان . ناظم القدسي . نعيم انطاكي . وغيرهم ممن ليسوا الآن على خاطري ومعظمهم في الكهولة.

العداوات الموروثة

تتأصل في الشعوب عداوات يتوارثونها كما تتأصل في الأفراد ، وقد تتعادى الشعوب لأسباب جوهرية أو لأسباب يحكم العقل بتفاهتها ، فعداوة الاسبان للعرب من العداوات الجوهرية بالنسبة للاسبان ، وذلك لاستيلاء العرب عليهم نحو ثمانمائة سنة ، عادى المغلوبون الغالبين ، وان حمل هؤلاء اليهم المدنية ، وأدخلوهم في حجر الحضارة ، وأذاقوهم طعم العدل والرحمة ، ولكن من طبع المغلوب انكار حسنات غالبه .

وعداوة ذوي القربى من النوع الذي لا تزيله السنون مثل العداوة التي حدثت بين الاسبانيين في حربهم المدنية الأخيرة من أجل نظام جمهوري أو نظام ملكي ، فهلك فيها من الفريقين مليون انسان واعتقل مائتا الف مجرم سياسي ، وخرب جزء عظيم من اسبانيا ، واختلت كل الاختلال صناعتها وزراعتها ، وحرم أهلها ضروريات الحياة . وأبان الاسبان عن وحشية عرفت عنهم مع أعدائهم ، واستغرب العارفون صدورها مع أهلهم وابنائهم ، وحشية قلما ظهر مثلها حتى في حروب البرتستانت في فرنسا ، وكان الكاثوليكي ينقض على البرتستانتي كالوحش الضاري يقتله فيقتل فيه شخصاً يخالفه في دينه ، أما الاسبان في حربهم الاهلية الأخيرة فاقتتلوا بلا تمييز فقد يكون اخوان احدهما يقاتل في صف والآخر يقاتل في الصف الذي يقابله من صفوف يعدها من اعدائه ، وافظع من هذا ، وهو مما دل على رقة قلوب الاسبانيات ، ان النساء كن اذا انتهت المعركة يتقدمن للرقص على جثث القتلى وقد يكون تحت ارجلهن اخوتهن او ابناء عمهن (راجع ما كتبناه في حروب العرب والاسبان في كتابنا الاسلام والحضارة العربية .)

وكل من نظر نظرة خفيفة في معاملة الاسبان للعرب يوم أخرجوهم من ديارهم يدرك أن ما بدا من عداوة الاسبان للعرب في تلك الكارثة

العظمى لا ينساه العرب على الأيام . وحاول أحفاد اولئك السفاكين الظالمين من الاسبانيين أن يمحوا من تاريخهم لطخة هذه الوحشية فلم يفلحوا ، ومهما تلطفوا حتى ينسى جيرانهم في المغرب ما لقوه من القسوة والجبروت يستحيل أن يوفقوا الى ذلك . وكانت حرب مراكش في الريف بين الاسبانيين والريفيين من أعظم الخطوب التي حلت بالشعب الاسباني ، تلك الحروب التى أبانت عن ضعف اسبانيا في كل مقوماتها ، ولم ينقذها مما صارت اليه من الصغار الا فرنسا ، أنجدتها باسطولها وجيشها وطياراتها فأنهت لها الحرب وأعطتها جزءاً من الغرب الاقصى أي القسم المشهور بالريف ونصبت لها سلطاناً وعادت تبدل فيما قيل سياسة العنف بسياسة فيها قليل من اللين ، ولكن ما غرس في قلوب المراكشيين من البغض لا تزيله الابتسامات المصنعة ولا الرقة المخادعة ، وما برحت حكومة اسبانيا تتقرب من العرب للتخفيف من تلك العداوة الموروثة وأقل ما يخدع به السياسيون الاسبانيون العرب أن يزعم بعض افرادهم أن جدهم كان مسلماً تنصر كرهاً وان عواطفه مع المسلمين الى آخر ما يتفوهون به من هذيان .

وبعد فاذا قلنا ان عداوة الاسبان الكاثوليك العرب المسلمين طبيعة الحدوث فما القول في تعادي الكاثوليك والبرتستانت في كل مكان وعداوة الروم مع الكاثوليك وعداوة الهندوس مع المسلمين ، وكلها عداوات قديمة موروثة يبرأ الدين منها ولا تتعارف اليها الانسانية ، وما هي الا تعادٍ على امور الدنيا ، فما اسخف البشر حتى في عهد تحضره .

قلنا في غير موطن ان المسلمين لقوا الالاقي في كل زمن من الشعوب اللاتينية سواء في ذلك البرتقاليون والاسبانيون والطليان والفرنسيس . واذا اتفق ان نفّس خناق المسلمين مع الشعوب الغربية بعض الشيء فذلك على عهد الانكليز السكسونيين ومنهم النورميون الذين خلفوا العرب في حكم جزيرة صقلية وكانت حكومتهم مثال الرفق بالمسلمين والتسامح مع اجيالهم .

غرس الغرب في قلوب الشرقيين عداوات يرمض النفوس ذكرها ،

ويدعو المسلمين الى عدم الاغترار بالابتسامات والمجاملات . والغربي اذا كان لايتراحم وابن جنسه وابن دينه فهو اولى الا يتراحم وواحداً من بني الانسان . والشاعر العربي يقول :

لاأتقي حسك الضغائن بالرّقى فعل الذليل ولو بقيت وحيداً
لـكن اعدّ لهـا ضغائن مثلها حتى أداوي بالحقود حقـودا
كالخمر خير دوائها منها بهـا تشفي السقيم وتبرىء المنجودا

داهية السياسة

لعل القارىء لاحظ من بعض فصول المذكرات ان عـلاقتي بالصديق السيد فارس الخوري دامت منذ اواخر العقد الثاني من العمر والى الآن صافية يغتبط كل منا بها ، وتمت تربيتنا على الايام ، يسير كل واحد منا في طريقه ، ويعمل على شاكلته . والذي كان يعجبني فيه انه كان يفسح المجال في صدره لكل مايصل اليه من صنوف المعارف يأخذ منها ماوسعه أخذه ويتركه جانباً الى ان يبدو له استعماله وعندئذ ينصرف اليه مدة فيتبرز فيه فهو لم يتلق الفقه الاسلامي والقوانين المدنية عن اساتذة معتمدين واشتغل فيهما لنفسه مدة فعدّ بعد زمن قليل عمدة في هـذا الباب . واحكم اللغة الانكليزية في صباه ثم شغل عنها بعض الشيء ولما ناب عن سورية في المؤتمرات الدولية تجسمت فيه ملكة الخطابة بالانكليزية كما كانت تجلت فيه ملكة الخطابة بالعربية قبل ان يتم دراسته الاولى .

ويعجبني في هذا الاخ انه كان عملياً في حياته هكذا كان في التدريس والنيابة والرياسات وفي الوزارات والمؤتمرات حتى عدّ بحق رجل السياسة السورية ، وكانت حياته كحياة النوابغ لاتخلو من مرارة وحـلاوة ، ولا اعرف سورياً خدم السياسة زمناً اطول من الزمن الذي خدمها به صاحبنا ماخلا الامير شكيب ارسلان ولا رجلًا اجمع اولياؤه واعداؤه على الاعتراف بفضله ، واشترك في ذلك كل عربي .

درّس الاستاذ لأول أمره في بعض المدارس الطائفية ثم عين ترجماناً في قنصلية انكلترا بدمشق وبدأ شوطه السياسي يوم انتخب مبعوثاً عن دمشق سنة ١٩١٤ وكان له في مجلس النواب العثماني مواقف محمودة الى ان اتهموه بالاشتراك في تنظيم ثورة المغفور له الملك حسين وأودع سجناً منفرداً سبعة اشهر وخرج منه بريئاً ، واشترك في اعلان استقلال العرب وتنظيم المملكة الفيصلية السورية وكان فيها وزيراً للمالية مدة وجودها . وبعد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٠ تنحى العمل الحكومي وعاد الى مهنته في المحاماة والتدريس في معهد الحقوق بالجامعة السورية ووضع لدروسه مؤلفات قيمة .

وناب عن دمشق في مجلس الاتحاد الذي أنشأه الفرنسيون سنة ٩٢٢ ودخل وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٦ واتهم بممالأة الثورة السورية فاعتقل مع رفاقه الوطنيين وأرسل الى حسكة وأميون حيث بقي نحو سنتين في المعتقل بالاقامة الجبرية . وكان عميد الكتلة الوطنية منذ نشأتها سنة ١٩٢٨ (١) واختير عضواً في الوفد السوري للمفاوضة لعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٩٣٦ وانتخب نائباً عن دمشق ورئيساً لمجلس النواب طول مدة قيام هذا المجلس الى سنة ١٩٣٩ ومن سنة ١٩٤٣ الى هذا اليوم ما عدا سنة كان فيها رئيساً للوزارة السورية سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٥ . وكان رئيساً للوفد السوري في مؤتمر القاهرة لاقرار تأسيس جامعة الدول العربيه وفي مؤتمر سان فرنسيسكو ومؤتمر لندن وسائر دورات منظمة الامم المتحدة منذ نشأتها وعضواً في مجلس الأمن في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ورئيساً لهذا المجلس مرتين ورئيساً في احدى لجان الهيئة العامة في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وانتخب عضواً في ندوة وضع الشرع الدولي .

---

(١) كان الاستاذ مع الكتلة حتى سقوط بقاياها سنة ١٩٤٩ ولطالما أكد أن بعض المتطرفين من رجال الكتلة ما كانوا يستمعون له وقال ان تعديل الدستور ما كان عن رأيه وان كان في الدستور الاول بعض النقص لانه وضع على عهد الانتداب والعقلاء على كل حال يلومونه لماشاة جماعته سنين طويلة وكان يمكنه بما خص به من علم وبيان أن يدلهم على طريق الخير ويصحح لهم أغلاطهم الفاحشة وربما ادعى أن الأكثرية كانت تتغلب عليه والله أعلم .

هو عضو في المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه وعضو في أكادمية العلوم السياسية في جامعة كولومبيا ودكتور في السياسة الخارجية من جامعة كاليفورنيا الجنوبية . وتخرج على يده عدد كبير في الحقوق وهم اليوم يشغلون أهم المناصب من محامين وقضاة وقوام مقام ومحافظين ووزراء ونواب .

وله في العمل الاقتصادي مشروعان عظيمان هما مشروع ماء الفيجة الذي أنقذه من المستثمرين الاجانب ووضع له نظامه الحالي بأسلوب مبتكر اقتبس عنه كثيرون في أقطار الشرق . ومشروع الاسمنت الذي هو أول نجاح أحرزه الاسلوب التعاوني وأصبح النظام الذي وضعه مرجعاً للشركات التي نشأت بعد ذلك .

وفي الميدان السياسي أحرز نجاحاً عظيماً في سان فرنسيسكو بنيل صك استقلال سورية ثم نفذ الى لندن امام مجلس الامن سنة ١٩٤٦ باحراز قرار جلاء القوى الاجنبية عن البلاد ، وله في منظمة الامم المتحدة وفي مجلس الامن مواقف في الاشتراك بالمناقشات في الموضوعات المعروضة على هذه المنظمة العظيمة خصوصاً قضايا البلاد العربية والاسلامية ومنها قضية مصر وقضية فلسطين وقد أبلى في ذلك بلاء حسناً .

القوى الضائعة

كنت منذ وعيت اذا نظرت الى انسان اوحيوان او جماد لاينتفع به حق الانتفاع أعده قوة ضائعة فاذا رأيت شاباً ذكياً او فتاة نبيهة لم يعلمها اهلها أعدهما قوة ضائعة . واذا أحسست بوجود عشرة رجال متماثلين في التربية والمنزلة لايفكرون بمايعود على الناس بخير من مثل تأليف جمعية لتعليم اليتامى والفقراء وايواء العاجزين والعاجزات وتأسيس شركة صناعية او تجارية او زراعية يجمعون بها القوى المشتتة أعدهم قوة ضائعة .

واتحسر اذا نظرت عيني ارضاً بوراً في وسع صاحبها او اصحابها تجويد حرثها وكرثها وزرعها وغرسها . واعضب اذا وقعت على بضعة افدنة بذل صاحبها جهده في تعهدها فأتته بأطيب الثمرات والى جوارها مئة فدان معطلة لاتغل ماتغله العشرة الافدنة العامرة . واغتاظ اذا نظرت الى نهر يجري في طريق غير صالحة فيؤلف في مجراه مستنقعات تضر بصحة النازلين حفافيه ، ويحرمهم الانتفاع بمياهه في سقياحقولهم ، وأتألم عندما ارى بناءً متداعياً لونقض وجدد لأتى بخمسة اضعاف رَيْعه . واقهر اذا مررت بغابة جارت عليها اسنان الماعز وفؤوس الحطابين وماحرست حراسة دقيقة ولاخدمت خدمة فنية لتصبح مورداً للسكان وزينة الآكام والقيعان .

والحال كذلك اذا رأيت عالماً او أديباً لايفيد قومه بعلمه وادبه ، لايدرّس ولا يؤلف ولايخطب ولا يحاضر ، واذا عهدت صاحب صنعة لايستثمر مزاهبه اقول قوة مهملة وجودها وعدمها سواء . واذا عرفت موظفاً اميناً أحيل على التقاعد (المعاش) لبلوغه السن القانونية وفي مقدوره الدوام على الخدمة ، والدولة تظهر الاستغناء عنه آسف لهذه القوة الضائعة . وهكذا كلما نظرت العين قوة من قوى الأرض ومن عليها لاتستثمر الاستثمار الواجب اندب حظ العالم وأقول في نفسي لو استغلت كل القوى حق

الاستغلال لعمّ الاتقان كل شُعَب الحياة ولماجاع احد من بني الانسان

يبيح القانون الانكليزي تأجير الأرض تسعاً وتسعين سنة ولا يورث قانونها الا بكر الأولاد . وذلك لتعمر الأرض ولا تبدد الثروة . فماضرنا لو أخذنا من هذين القانونين ما وسعنا أخذه وضربنا عن بعض قوانيننا صفحاً كقانون الوقف الذي لايبيح ايجار الأرض الا ثلاث سنين ، أو يعمل المؤجر والمستأجر حيلة شرعية حتى يزيدا مدة الايجار شيئاً قليلاً وهناك مذهب من مذاهب اهل السنة يبيح ايجار الملك تسعين سنة ولكنهم لايعملون به .

علينا ان نعمل على الرجاء وطول الأمل لا على اليأس واهمال العمل .

المسألة الاجتماعية

يقول صاحب سر تقدم الانكليز السكسونيين : (ليست المسألة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما ان الحياة لا تقوم بكثرة تناول العقاقير والادوية ، اذ ليس الاسعاف او العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية ، والحكمة فيما يؤدي الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث لايستغني كل فرد منهم عن ان يقوم بأمر نفسه وان يرتقي بجده وعمله ، لان سلامة الاجتماع كالسلامة الاخروية تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل فرد ان يسعى اليها ، وقولي هذا لا يروق الذين اتخذوا السياسة حرفة وهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الأمة وضعف مدارك الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم في بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها القاصرين حتى يتيسر لهم ان يكونوا عليهم أوصياء) .

نعم يتيسر حل المسألة الاجتماعية بتنشئة ابناء الامة على حب الاستقلال في الحياة لا على الاتكال على الحكومات وجمعيات البر او اسخياء القوم . دب داء الكسل في نفوس العرب الا قليلاً فكان قصارى كل متعلم ومتعلمة ان يطرق ابواب الحكومات للاستخدام . ولو قد هيء لهم ان ينزعوا الى

الاستقلال في تحصيل عيشهم لكان ربحهم أضمن وحياتهم أرغد ولمتعوا بحريتهم ، والحرية لا توازيها لذة من اللذائذ ولا نعمة من النعم . في اليوم الذي يتعلم فيه ابن الزارع وابن التاجر وابن الصانع ما ترقى به صناعة أبيه ويظل الزارع على زراعته والتاجر مشغولاً بتجارته والصانع مأخوذاً بصناعته لا يتعدونها الى غيرها نعد من الراقين في مجموعة الشعوب . ومن أخرجته على الاغلب من صناعة أهله فكأنك نقلته من القطب الجنوبي الى القطب الشمالي فجأة .

رأيت كثيرين في مصر والشام عزفت انفسهم عن الاستخدام وراحوا يعتمدون في عيشهم على قطعة من الأرض تفننوا في تعهدها ، فأتتهم بما عاشوا به في هناء ، وخلصوا من عبودية الاستخدام ، وضيق الرزق المحدود الجامد . وتحدثت الى عشرات منهم فشهدتهم جددوا طرق استثمار ما يملكون فكثر ريعه كثرة فاقت المأمول . سقياً ورعياً ليوم تضطر فيه الحكومات العربية الى عرض الوظائف ولا تجد راغباً فيها كما وقع في فرنسا في بعض الادوار ، انصرف الاذكياء الى الاعمال الحرة في الشركات وغيرها وابتعدوا عما فيه رائحة الرق في دواوين الدولة فاغتنى المستقلون وافتقر الاتكاليون . قد يعذر الاتكالي في بلد ضيق الرقعة ممحل التربة اذا زج بنفسه في الخدم المقيدة اما اذا كانت الثروة ماثلة للعيان امامه لا تحتاج الا ان يتعب نفسه قليلًا ليعيش ويخصب فلا عذر له .

قال لي احد اعيان المصريين من رجال المال والاعمال ان والدي خلف لي في قريتنا افدنة قليلة فما زلت اعمل مدة اربعين سنة في زراعتها حتى اتى علي زمن أصبحت أملك ألوفاً من الافدنة . وتعجبون اذا قلت لكم اني ما طلعت علي الشمس خلال تلك الأيام الا وانا في (الغيط) على رأس عملي وفيه افطر واتغدى وقد انعشى . وكان ابي يمنحني كل سنة اجازة شهر ويدفع الي قائمة بما يجب ان نبتاعه من البنادر والحواضر فكنت اصرف اجازتي فى تسوق ما يلزمنا من متاع وادوات واعود الى عزبتي لم استفد من اجازتي الا اقتناء ما كان لازماً لزراعتنا وبيتنا .

وباطل ان اقول ان هذا الصدر العظيم لو نشأ مستخدماً حكومياً وغفل عن تعهد زراعته بنفسه لـكان اليوم افلس من المزلق .

رأيت في القطرين اناساً من أرباب المدارك يتخلون عن ادارة مزارعهم بأنفسهم ليـأتوا الحواضر للاستمتاع والاستجمام ، ينفقون ضعف دخلهم ويضيعون جانباً من غلاتهم يتركونها للوكيل والخولي ، وغاية امانيهم ان تسجل اسماؤهم في سجلات الحـكومـة ، وفي مصر في جريدة الرتب والنياشين والتشريفات ، وأكثر المصريين جنوناً في الظهور من ينفقون العشرة والعشرين الف جنيه ليصلوا الى النواب او الشيوخ اويحرزوا لقب باشا اوبك .

أقل نظرة من صاحب الرزق يلقيها على أرضه وشغـله تأتيه باضعاف ما يأتيه العمل الحكومي . لي صديق من أعيان الشرقية غادرته وهو لايملك أكثر من خمسين فداناً وهي مرهونة في المصارف ورجعت عليه بعد سبع وثلاثين سنة وهو يملك خمسمائة فدان قطعة واحدة من أجود الأطيـان ، فسألته عن سر غناه فقال مسألتان الاولى اني كنت اذا استدنت من بعض المصارف مالاً لابتياع أرض اوتحسين زراعة أدفـع التقاسيط المستحقة في مواعيدها ، الثـانية اني كنت كل يوم اطوف على زراعتي ثلاث مرات ولا أتـكل على عامل ولاأجير ، وهذا سر نجاحي .

ليست جميع الثروات الضخمة التي نشاهدها في مصر والشام وتعجبنا كثرتها هي كلها ابنة المصادفات بل هي وليدة الجدوالكد على الأغلب ترا كمت في السنين الطويلة ونسج فيها الابن على منوال ابيه بتسلسل واطراد وكان صاحبها على جانب من الدماثة والثقافة ، تعرفت الى عشرات من الاغنيـاء الاستقلاليين فلم أستغرب ما وصلوا اليه ورأيت من فريق الاتكاليين عشرات جعلوا اجلّ اعتمادهم على غيرهم فأصيبوا بالفقر والحرمان وخلفوا لأولادهم الفاقة والبؤس . وان قليلًا من التفكير يصرفه الرجل في تنمية حقله ومعمله يعود عليه بارباح قـد لا يقدر مقدارها الا بعد ظهور نتائجها ، وكل حركة في طلب العيش لا بد أن تعقب بركـة .

سويسرا المحبوبة

ليس في الممالك الكبرى والصغرى في الغرب بلد محبب الى القلوب كسويسرا (هلفسيا) اتفقت كلمة من زاروها من الشرقيين والغربيين على انها من خير بقاع الارض ، مانزلها غريب الا ودّ لو صرف فيها بقية حياته او رجا ان تطول مدة مقامه فيها وكثيراً ماوصى بعضهم ان يدفن فيها .

ماهو سر هذه المحبة وفي الارض اصقاع جميلة فيها مالسويسرا من ذلك ؟ فيها مصايف ومشات ، وفيها رفاهية ونعيم ، وفيها هدوء وسكون ، وفيها غابات وبحيرات ، فيها كل هذا واكثر من هذا ولكن ليس لها طيب اخلاق السويسريين . ومن اجل ذلك تعشق أرضهم أجيال الناس (راجع فصولاً لنا في سويسرا نشرت في كتابنا غرائب الغرب)

هناك جمهورية ولا كالجمهوريات جمهورية كالفسيفساء في الرقعة البديعة ، وهناك ديمقراطية ولا كالديمقراطيات ، نشأ ابناؤها منذ قرون على حبها وفدائها بأرواحهم وما حادوا عن قوانينها قيد شعرة . هناك شعب شريف ايسر مايوصف به انه زبدة صفات ممتازة ، لايعرف الغش ، ولا يدخل في الفضول ، ولا يرتكب جريمة الكذب ، وهناك مجموع بيوت نبيلة تمقت الحرب لاتجيز قتل احد ، ولا ترى المجد والعظمة الا في اجراء العدل والاعتراف بالحق ، والظهور بمظهر المروءة والكرامة .

السويسري سعيد في بلده يشعر بهذه السعادة ، ويحمد المولى عليها ويطلب اليه دوامها ، سعيد لانه يعمل ولايكسل ، وماحدثته نفسه ان يعتدي حتى لايعتدى عليه ولا ان يستعمر ارضاً ليست له ، ولا أن يطيل يده بالاعتداء على ملك غيره ، يسير على الفطرة ويألف السذاجة وحضارته سهلة لاتعقيد فيها ، اذا حاولت ايجاد مثلها أعيتك الحيل لانها من جنس الحضارات التي رقيت مع الزمن لم ترتجل ارتجالاً ولم تنقل عن الغير نقلا . والعلم فيها موفور مبذول تفيض منه

على جيرانها وعلى كل طالب يقصدها ليأخذ عنها ، وفيها سبع جامعات لاربعة ملايين من الانفس ينزلون في ارض مساحتها (٤١٣٤٦) كيلو متراً ومعظمها جبال وبحيرات ، وهذا لم يعهد في ارض غير ارضها . ولما كانت تربية السويسرى المثل الاعلى اعتمدت بعض الشعوب في تنشئة ابنائها على مدارس سويسرا كما اتخذت بعض ملوك اوربا منذ اقدم العصور من هؤلاء السويسريين حراساً لهم وجنداً مأجوراً لان السويسري صادق العهد لايخون .

تحيط بسويسرا أربع دول كبرى (النمسا والمانيا وفرنسا وايطاليا) وكلها دول حربية لاتكاد تنطفيء جذوة حروبها ، ومع هذا تحسن سويسرا جوارهن احسانها لقاصديها ونازليها ذلك لأنها تنظر الى الخلق نظراً واحداً فيه حرمة وفيه عطف ولا زهو فيه ولا عتو .

ألسنا على حق اذا ادعينا أن ما وزع من الفضائل على أهل دولة كبرى كفرنسا او المانيا او انكلترا او الولايات المتحدة قد استأثرت سويسرا وحدها بما يوازيه او يزيد عليه مع مراعاة النسبة هذا على ضيق رقعتها وقلة اهلها .

فسويسرا مثال أمة تحب الحق وتدعو اليه وفيها من مظاهر الرحمة قسط كبير على ما يتجلى ذلك في تاريخها المجيد . مثالان من رحمة أهلها . حدث في القرون الوسطى ان هجم قائد نمساوي على الأرض السويسرية في جيش ضخم ، وكان هناك جسر على احدى البحيرات لا مناص من اجتياز الجند النمساوي عليه واتفق أن وقع ضغط شديد على الجسر فسقط بمن عليه من عسكر فما كان من السويسريين الا أن تركوا القتال وأخذوا ينقذون أعداءهم من الغرق والسهام تصوب الى صدورهم فدهش القائد النمساوي لهذه الشفقة التي بدت من عدوه ورجع عنهم وقد اعطاهم كل ما سألوه . ووقعة اخرى جرت في الحرب العالمية الأولى وقد اصبحت سويسرا معتصماً لأمم كثيرة حتى غدا عدد اللاجئين اليها والنازلين فيها مليون غريب وانقطعت المواصلات مع كل بلد فعز جلب المال وجلب الذخيرة ، وكان السويسريون في الحرب يستجدون الحنطة من الممالك المجاورة استجداء وهي تطعم منه هذه

المليون من الأنفس وتعطيهم رواتب تكفيهم ، وتؤويهم كأنهم في بيوتهم وبين أهلهم ، وأرجأت حناناً منها تسديد هذه المبالغ الضخمة التي تنفقها على الأجانب الى ما بعد الحرب .

حرية سويسرا مستفيضة على كل من يعتصم بها لا عبث فيها ولا لغو لذلك وجدت البرتستانتية الأولى معتصماً فيهـا وكانت للمذاهب السياسية المختلفة حمى منيعاً . يكثر الضجيج في ايتخاب مجلس كل أمة ويسفر عن انتشار روح العـداوة بين الأهل والعشير ، وسويسرا المتزنة في اقوالها وافعالها لا عهد لها بهذا ، لا تعرف الا السلام حتى صح ان تدعى جمهوريتها جمهورية السلام .

صناعة الفنادق

أويت الى فنادق وأنزال في الشرق والغرب منها ما كان من الدرجة الأولى ومنها ما يعد من الدرجة الثانية او الثالثة فرأيتها كلها تسير على نظام بديع فيها من اسباب الراحة كل ما فيه متاع للجسم والروح .

ومن كان يظن ان أرقى ما عندنا من الفنادق اذا قيس بما عند الاميركيين منها يعد عادياً . تعرفت في دمشق الى مدير شركة كوك للسياحة فسألته عما اذا كان يصحب سياحاً فقال : نعم سبعمائة اميركي . فقلت له : وأين هم الآن ؟ فقال خرجوا الى البر من باخرتهم وزاروا بيروت فلم تعجبهم فنادقها وعادوا الى سفينتهم ليبيتوا بها ، وسكت وا كملت حديثه في نفسي وقلت : اذا لم تعجبهم فنادق بيروت فمن باب أولى ألا تعجبهم فنادق دمشق وغيرها من فنادق الديار الشامية . ثم فكرت وقلت : ترى كم خسر بلدنا بامتناع هؤلاء السائحين من نزول فنادقه .

يظن بعضهم أن القيام بادارة فندق على ما يجب من الأمور السهلة وما ادارته الاادارة حكومة مصغرة أو شركة كبيرة متشعبة بل أن الفنادق اصعب

ادارة لان فيها من صنوف الحاجيات والكماليات ما لا يكاد ينحصر ، ومن الصناعات ما يتناول معظم المخترعات الحديثة .

ومدير الفندق يتعهد كل مافيه من دقيق وجليل وهو وحده المسؤول أمام نزلائه وأمام حكومة بلده ولذلك اقتضى ان يكون على علم بفروع مايتطلبه السائح من ضروب الرفاهية وما يحتاجه من الاستعلامات ويتطلب صاحب الفندق الادلاء به على البديهة وهذا مايستلزم ذاكرة وحافظة ومعارف كثيرة عن الشعوب والدول والقوانين والاقتصاد والمالية واللغات والجغرافيا والطوبوغرافيا والتاريخ والاجتماع والسياسة وطرق المواصلات البرية والبحرية والجوية .

برّزت سويسرا في هذه الصناعة على سائر الشعوب الغربية حتى ان بعض الفنادق الكبرى في انكلترا والمانيا وايطاليا وغيرها توسد ادارتها للسويسريين كما تدار في حوض البحر المتوسط معظم المقاهي بأيدي اليونان لاشتهارهم بالنظافة ورقة الجانب واستجلاب رضا الزبُن .

فصناعة الفنادق صناعة جليلة في ذاتها يُعنى بها من وراء الغاية في ديار الغرب لما تدره من الارباح الطائلة على القائمين بأمرها ، ولايضمن ذلك للشركات والأفراد ان لم تتخذ لها عامة أسباب النجاح ويجري التجدد في طرائقها كل مدة يراعى فيها الذوق والطرافة والهناء . وهذا لايتأتى الحصول عليه الا بعناية فائقة ومعارف متنوعة ونظام دقيق اذا اختل طرف منه يكاد يسري الخلل الى سائر الأطراف ويكون الافلاس مصير الفندق المختل .

يدير الشاميون فنادقهم بأنفسهم ، والأجانب يديرون الفنادق الكبرى بمصر لعجز الوطنيين عن ادارتها . وما كان الشاميون عريقين في صناعة الفنادق وأتقنوها بعض الشيء في العهد الأخير . اما المصريون فلم تتنزل الطبقة الراقية منهم لادارة الفنادق تأخذها عن الغرب باتقانه المعروف حتى يديروا بأيديهم فنادقهم وتدر على الوطن الارباح العظيمة التي يجنيها الغريب .

اذا تعلم العرب هذه الصناعة وبرعوا في فتح الانزال والفنادق تقرب روابط

الشعوب ويتعارف النزلاء وتتوطد العلائق التجارية وتوفر لأرباب الرحلات راحتهم وتحدثهم أنفسهم بالعودة الى ذلك الفندق كلما عنّ لهم، وتنقل من حسنات المدنية مافيه منافع كثيرة للناس .

الاسخياء والاشحاء

ضاق عيش بحرية طرابلس الشام زمن الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) لانقطاع الصلات مع البحر فقام تاجر خشب من صالحي أهل تلك الفرضة اسمه الحاج مصطفى حوّلا وأخذ على نفسه اطعام مائتي شخص كل يوم من سكان بلده خلال أربع سنين . نوهت بهذه المكرمة في جريدة الشرق ثم نقلت ماقلته فيه في كتابي القديم والحديث .

ذكرت هذا الاحسان لأديبين من المشايخ فكان مما انتقده الاوّل من سيرة هذا المحسن انه كان قبل ان يتجر بالاخشاب يصنع القباقيب وانه كان في شبابه يتعاطى المسكرات . وكان من الثاني الا ان قال ان عدد من يطعمهم مبالغ فيه ولعلهم لا يتجاوزن العشرة انفس . اراد الطاعن الاول الحط من صاحب هذه الحسنة فمدحه وما كان من وصلت به حرفته مهما كان نوعها الى الغنى ومن كان مستهتراً بالشراب في صباه ثم تاب واناب الا أهلاً لكل ثناء واعجاب . اما الذي ألقى الشك في عدد الآكلين ليقلل من شأن هذا الاحسان فانه على مايظهر قاس هذا الكرم على نفسه فاستعظمه وحسد فاعله وهو الذي ما أُثر عنه ان تصدق بقرش على محتاج ، وربما كان ممن يعتقد ان من يخرج من مثل هذا القدر من المال برضاه يجب ان يعد في المجانين لا في العقلاء . والظاهر انه شق على الرجلين ان يفهم العامي من تعاليم دينه أكثر مما فهما وهما من طبقة اعتادت ان تأخذ ولا تعطي شأن معظم الموظفين يعتقدون أن الامة ملزمة باكرامهم واهدائهم وهم غير مضطرين ان يحسنوا الى فقرائهم حتى في أشد الازمات (لكل امرىءٍ من دهره ماتعودا)

عمل نافع

قلت لمستشار الزراعة السيد آشار (وكان يؤكد لي انه يغار على مصلحة الفلاح) ان الهمة التي بذلها السيد جميل الدهان متصرف حمص في تشجير اللواء من أعظم ما عهد لرجل من رجال ادارتنا فاجاب لاتصدق مايروى هذا : عمل مسطور على الورق فقط . فقلت له اني رأيت بعيني الشجر نامياً ونضرا ودخلت الغابات الجديدة وفحصتها فحصاً دقيقاً . ولعل حكم المستشار نشأ من ان المتصرف احسن التصرف باتكاله على نفسه اكثر من اتكاله على الحكومة المنتدبة ، انتفع منها ما استطاع ان ينتفع وراح يحث قومه على ابتياع الغراس يجلبها لهم من الاصقاع التي تجود فيها ، وما استعان بحكومته الوطنية الا في بعض الاحوال التي لابد من مراعاتها .

كانت عمالة حمص قبل ان يقوم هذا العامل بمشروعه تعمى عيون اهلها من الغبار طوال ايام الربيع والصيف والخريف ولا يجدون حطباً يحتطبونه لطبخهم وخبزهم ودفئهم فيعمدون الى روث البهائم يجمعونه بأيديهم ويجففونه ويسمونه « الجلة » وبه يوقدون وبه يستدفئون فلما جاءت هذه الغابات الغيباء كان لهم منها وقاية لصحتهم وغذاء لاجسامهم وانتفعوا بثمرها وحطبها ثم انهم اقتصدوا من روث الحيوانات فجعلوا منه سماداً زاد في خصب اراضيهم وقد بلغ عدد الاشجار المغروسة في مأتين وخمسين قرية ملايين . خصت الاراضي البعلية بالزيتون والفستق واللوز والتين والرمان والكرم واقتصرت اراضي السقي على الجوز والمشمش والتفاح والخوخ والسفرجل والدراق .

هذا ماتم على ايدي المتصرف المجتهد في ثلاث عشرة سنة وكنت اذا اثنيت عليه امام بعض رجال الادارة يمتعضون من تصريحي ويحاولون تقليل قيمة عمله ، شأن الخامل عند ذكر العامل والجاهل اذا نوى كيد العالم . وما كنت اقصد - وكلامي يومئذ مسموع لان عليه مسحة رسمية — الا ان

أبعث هممهم على حث الاهلين على التشجير حتى نبني ثروتنا على اساس متين وندخل الى الغنى من ابوابه . وكنت اجهر بقولي ان وظيفة صاحب الادارة تنحصر في عدة مواد اهمها تمهيد الطرق وبناء الجسور والمعابر وانشاء المدارس ودور الحكومة والمخافر واسالة المياه وتجفيف المستنقعات والتشجير ، لاصَرْف الوقت في حوالة الاوراق وكتابة التقارير الملفقة وارضاء المرجع بالحق والباطل .

وأخبرني احد الاخصائيين بالزراعة ان هذه الاشجار الكثيرة في لواء حمص لم تسلم كلها سطت عليها الاهوية فقلعت بعضها وكان الاهلون يقلعون البعض الآخر للانتفاع بارضها . ومن العادة الا تسلم كل شجرة تغرس ولو كانت في مأمن من اعتداء البشر والطبيعة عليها

دار الكتب المصرية

عُنِيَت هذه الدار بطبع أمهات من المخطوطات العربية على طريقة علمية عُورض منها الذي يراد نشره على النسخ المختلفة التي أمكن الحصول عليها ، وشرح المبهم من عباراتها ، ووضعت الفهارس المنوعة لكل كتاب حتى يسهل الرجوع الى مواده . وأصبحت المجموعة التى نشرت من أهم مصادر المؤلفين والباحثين في الأدب والتاريخ والشعر والرجال ، وكانت بعض الكتب تقع تحت نظر بضعة من العلماء بعد تصحيح المصححين في المطبعة فيظهر فيها قليل من الاغلاط ولا سيما في اسماء البلدان .

أما البطء في العمل فقد تعذر على الادارة تلافيه ، وجاوز الحد فارتفعت شكوى عشاق الكتب منه وهم يشتاقون لتناول مابقي من الكتب التي بديء بها منذ سنين . والسبب في ذلك أن المسؤليات تضيع في الأماكن الرسمية وقلّ أن يكون فيها الاتقان تاماً ، والتسامح ان صح في ذلك فلا يجوز أن يكون في اسفار يراد من طبعها الاتقان الذي لا يقدر الافراد علي

تحقيق مثله ، ولو كانت مثل هذه التسهيلات التي تتمتع بها دائرة حكومية لجماعة او شركة لأنتجوا اكثر مما انتجت دار الكتب ،وباتقان قد يكون أيضاً اعظم من اتقانها .

وبعد فلو كانت وظيفة مدير دار الكتب المصرية تطول عشرين سنة مثلاً لسدّ النقص المشاهد في معظم فروع ادارة هذه الدار ، ولكن وزارة المعارف المصرية لا توسد ادارتها الا لرجل كادت تنتهي خدمته الرسمية ، ومنصب المدير هنا يقتضي له تجارب كثيرة وعلم بهذه الصناعة الصعبة ولا تكفي فيها المشاركة الطفيفة ، والنتفة غير المحقق .

من أغنى العربية

أغنى اللغة العربية افراد وضعوا لمفردات العلوم الفاظاً عربية ما كان المدرسون يعرفونها واحيوها بوضع ما يقابلها من اللغات الغربية امثال رفاعة الطهطاوي ومحمود الفلكي وسالم سالم وشفيق مقصور ومحمد مختار وعلي رياض ودرّي وقدري واحمد فارس وسليمان الحريري وفانديك وبوست ويعقوب صروف وابراهيم اليازجي وابراهيم المصوّر واحمد عيسى وامين المعلوف ومحمد شرف وانستاس الكرملي وداود چلبي وشكيب ارسلان ومصطفى الشهابي ومصطفى نظيف ومرشد خاطر واحمد حمدي الخياط وحسني سبح ونجيب شاهين وجميل صليبا وصلاح الدين الكواكبي وجميل الخاني وعبدالوهاب القنواتي الى ضربائهم اصحاب الفضل العظيم على العربية والنهضة العلمية . ولا ينكر فضل المجامع العلمية في توسيع دائرة العلوم واذا نشر ما وضع بمختلف طرق النشر سرى ما وضعوه في التأليف والصحف وعلى الالسن فتزيد اللغة اتساعاً وتغنى بالعلميات كما هي غنية بالادبيات .

كثرة الأصحاب

نصح لي استاذي العلامة محمد المبارك يوم وفاة والدي الا أستكثر من الأصحاب وأن اجتهد ان كان لي خمسة ان اقتصر على اربعة لا ان اجعلهم ستة لان للاصحاب حقوقاً لابد للصاحب من مراعاتها اذا اخل بشروطها كان من الحائفين على الصداقة ، وان حرص على القيام بما تستلزمه أضاع وقته وعمره .

نصيحة صعب على كل الخلق العمل بها تنفع بالأكثر من اراد العزلة والاشتغال بخويصة نفسه ، وهي نصيحة صوفي لصوفي والمجتمع يتطلب غير هذا ، ولو عملت بها لظللت العمر أجول في دائرة ضيقة ولفاتتني امورلاأصل الى معرفتها الا بالاختلاط وصرف زمن في ممارسة ما ينفع الوقوف عليه . حقاً ان الاسترسال في الاكثار من الاصحاب مضيعة للوقت ، وفي العزوف عنهم بعض الراحة . والاختلاط او العزلة تبع للصناعة التي يعانيها المرء . فقد نشأت صحافياً والصحافي اكثر الناس حاجة الى التعارف .

وكنت الى اواخر العقد الرابع من عمري أفرح اذا زاد عدد أصحابي ، وبعدهذه السن أصبحت نفسي تعزف عن الاستزادة من الخلان والمعارف ، وتشمئز من كل من يرى في مصادقتي فائدة له خاصة . ومعظم من تصحب يحرص على صداقتك مادام من ورائها مغنم له فاذا انقطع كانوا أزهد ناس في مجلسك .

المرء في حاجة الى اصحاب في فرحه وترحه وفي حِله ومُرتحَله . يحتاج أبداً الى من يأنس اليهم ويأنسون اليه ، ويبادلهم الأفكار ويجيل معهم الرأي ، ولا تضره كثرتهم بقدر مايضره سوء اختيارهم ، وليس أشق على المتصادقين من عدم المشاكلة في التربية والعقل ، والصداقة تقوم على تسامح الصديقين حتى قال بعضهم ما رأيت صديقين دامت صداقتهما الا كان احدهما متنازلاً عن بعض مايجب له على صاحبه .

الباب المفتوح

لي صديق قديم عجم عود الناس وأصبح على الزمن ممن يرجع الى آرائهم في معرفة نفسية الطبقـات ، عَنَيْتُ ابا درويش السيد مصطفى سويد رجل الخير والظرف ، أخَذ منذ مدة يلومني ، والاخلاص رائده على ابتعادي عن المدينة واتخاذ القرية سكناً ، ويقول انه لايرى معنى لاعتزالي هذا بعد أن تمت بعض ادواتي من التجارب والمعرفة ، وصار لي شهرة في الاقطار ، ورأي مسموع بين جمهرة من الشبان والكهول ، فمن واجبي أن أجلس في بيتي في الحاضرة وافتح بابه لاستقبال الضيوف ولقاء الواردين . فكان جوابي كل مرة ان لبدنك عليك حقاً ، وانا عند نفسي قد قمت بما فرض عليّ في هذا الشأن ، وواجبي بعد الآن ان استريح والا أدخل في مسائل لاأحب أن أدخل فيها ، والا أرى وجوهاً لاتميل نفسي لمواجهتها ، وغرامي ان أصرف الأيام الباقية من عمري فيما يلذني ، وليس اجمل مشغلة من الانقطاع الى النظر فيتآليفي والعنايه بطبعها .

ووقع لي مؤخراً مايصح ان يكون منه حجة اخرى او تتمة لجوابي على كلام صديقي هذا . ذلك أنه زارني في القرية وقت الظهيرة في الصيف شابان من طلبة العلم الديني في عشر الثلاثين من العمر على غير معرفة سابقة ولا توسط متوسط للوقوف على ماإذا كنت ارتاح لهذا التعارف او لاأرتاح ، وأخذا يوردان عليّ أَسئلة ليس من السهل الاجابة عليها في الحال ، ولا من الحكمة أن يبوح بها المرء لمن لايعرف ،ويطلبان رأيي الصريح فيها يحاولون مثلًا الاطـلاع على تراجم من عنّ لهما الوقوف على تراجمهم من الرجال البارزين في السياسة والدين ومن طبقات المحدثين والاقدمين . ولما ضاق صدري من اصطياد ما يبغيان اصطياده قلت لهما : ان هذه الاسئلة يقتضي لها عشرون جلسة على الاقل وما يدريني اذا أنا صرحت بما تريدان أن

تنشرا اقوالي في الصحف فأخرج عن التوقي الذي يتطلب من الشيوخ . ساقني الى هذا القول أن رأيتهما يطعنان في بعض كبار الرجال المعاصرين ولا يدركان من ماضيهم وحاضرهم شيئاً صحيحاً مما يدل على خبرة قليلة بالرجال ، وظهر الانقباض عليّ وذكرت لهما اني في دور النقاهة والواجب أن أقيل واستريح فصرفتهما عني صرفاً ليس فيه شيء من النعومة التي اعتاد الدمشقيون الظهور بها حتى مع اعدائهم .

أهكذا يريد صديقي البار ان أهدر وقتي في رد مسائل كهذه ، وكلام فارغ كهذا ، وأنقطع في داري لأستقبل امثال هذين الشابين اللذين اثبتا انهما لم يتعلما أبسط قواعد الاجتماع . ولو قدر الله أن اسير على هذا المنهج لما اتيت بعمل نافع ، وبعد فأنا اذا اعتقدت ان ماجريت عليه مما ينطبق على العقل لاأحيد عنه لأقوم بما لااری من نفسي استعداداً للقيام به .

وعلى ذكر الباب المفتوح ارى ان أشير الى من اعتادوا الاجتماع الى أصحابهم في أَندية مفتوحة او في حديقة عامة او ثوي" او نديّ اجتماعاً علنياً ، أن مثل هذه المجالس لابد ان يدخلها طفيليون ينغصون صفاء المجتمعين وينقلون أخبارهم ويتجسسون عليهم . وأمثال هذه المجالس كثيراً ما كنت أعمل على تقليل شرورها ولاسيا في الاوقات التي ماكنت استغني فيها عن الاستئناس الى أصحابي . وجرت عادتي في الأزمات السياسية ان اتجنب الناس ، وحدث في احدى الثورات الاخيرة ان جاءني من قدماء جيراني شخص اعرف درجته ودرجة اسرته من الأخلاق وكان من عادته ان ينقطع عني اعواماً ثم يوافيني مستعلماً عن صحتي متشوفاً الى طلعتي ، ويسأل عما يهمه من الاخبار وهو ممن لايعنون باكثر من طعامهم وشرابهم ولذائذهم ، وسألني علناً : ونحن ماذا يكون مصيرنا ؟ وكان ذلك ايام خروج الفيشيين من سورية واستلام البريطانيين زمام الحكم فقلنا له جميعنا : الله اعلم ، وغمزت بعضهم ان يمسكوا ولا يفيضوا مع الداغر علينا . ومن الغد عاد يزورنا ووضع سؤاله بالأمس - ونحن ماذا يكون مصيرنا ؟ - وأجبناه بما كنا اجبناه في ثاني يوم وفي الثالث جاءنا بالنغمة ذاتها فتجهم له بعض جلسائي وفي اليوم

الرابع اقفلت البـاب وحرمت اخواني ثلاثة اشهر كوامل . وكان أصحابي يستغربون بعدي عن الاصحاب وانا اعـدهم بأن أبوح لهم بالسر متى حان الوقت وعدنا بعد ذلك الى ما كنا عليه من الاجتماع نخوض في احاديثنا ولا نقطعها الا اذا دخل علينا انسان لانعرف ترجمة حياته ومن هذه الطبقة من توقيناه واستعملنا لسان التمويه في خطابه فظهر بعد حين انه من الجواسيس كما تفرسنا فيه من اول الأمر ، وربما كانت أحاديثنا وهي مغموسة بشيء من الحرية تضر بعض الحضور في اعمالهم وعلاقاتهم مع الحكومة اذا نقلت الى من يبني عليها احكامه وحكومته .

في عالم الأحلام

في ليلة من ليالي كانون الثاني حلمت حلماً لذيذاً وددت لو طال أكثر مما طال . رأيت كأن الجمهورية تبدلت سياستها ، وصلحت تراتيبها وادارتها ، بأسباب تعد من الخوارق وما هي بها . قام الاصلاح من دون مظاهرات ولا مشاغبات ودون ان تمس الأوضاع وتبدل الأنظمة ، فدهشت لما رأيت وتجاسرت وسألت اول من وقعت عيني عليه ، وكان رجلًا ذا سمت حسن ووقار ورزانة ، توسمت فيـه العقل والحكمة فقلت له : اني لأعجب بما ارى من هذا التبدل الفجائي فكيف تم يا اخي هـذا من دون ما ثورة ولا تغيير وزارة ، ولا حل مجلس وانتخاب آخر ، فقال لك الحق ان تعجب مما ترى ، كل ذلك لم يحدث شيء منه ، ولا ازعج وطني ، ولا خرب شيء ولا تلف مال ، ولا صرف وقت ، وتحقق ما كان العقلاء يرجونه ويستبعدون الوصول اليه حتى كادوا ان يقنطوا .

قلت : والله يا اخي لقد دخل الملل على قلبي لكثرة ما طالبت الحكومات باجراء الاصلاح ، ولم تحقق لي الأيام بعض ما كنت ارجو ، مع اننا وصلنا

الى آخر المراحل بالنظام الجمهوري الذي قام بيننا ونحن ما طلبنا غيره لعلمنا بانه اصلح انواع الحكم .

قال : وانا مثلك يا صاحبي جدّ متعجب مما جرى ، وفرحت بتوفيقنا فرحاً لا مزيد عليه ، فرحت لما تقدمنا به من خطوات خطوناها وما ظننت انها تتم على ايدى هذه الطبقة من الرجال لأنهم الا القليل جداً لا يفكرون إلا في اشخاصهم فقط ، وقل ان ترى فرداً فيهم يفكر في الأمة ومستقبلها ، ورجال هذا شأنهم لا نرجو منهم ان يقوموا بما ينفع ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

قلت : عجبت من نزاهة محسوسة شاهدتها في القضاء على اختلاف درجاته ، وكان بعض القضاة بالأمس ملوثين بالرّشا ، يقضون على هواهم بلا مراقب من ذمتهم ولا من وزارتهم ، وكان القضاة او سوادهم الأعظم يسارعون الى التهام الرشوة قبل غيرهم ، واليوم يقضي القاضي وهو يحسب لقضائه الف حساب ، يقضي وهو يخاف ربه ، ويخاف ان يجمح به هواه فيخالف العدل ، يقضي بدافع من نفسه لا يخشى المفتش ولا امين الوزارة ولا الوزير ولا الرئيس . قال : وهل عندك علم بما وقع فقد انحلت بعض الحل تلك الشركة التي تعاهد الشركاء فيها على الحق والباطل ، وكان من اثر ذلك ان وصل القضاء الى هذه الدرجة من النظام ، وشاهدنا العدل عياناً على ما شهدناه في محاكم مصر فانقلبت هيئته في العهد الانكليزي وكان من قبل مهزلة من المهازل ، فما هي الطرق التي اتبعها رجال الجمهورية حتى انقذوا القضاء من ذلك الخلل المبكي ؟ قلت : لا يعلم الغيب الا الله . اما ما جرى فليس من علم الغيب في شيء وما هو الا من المحسوسات الملموسات ، ما فيه ما يعد من المعجزات ، بل هو طبيعي الحدوث ليس فيه ما يستغرب هو اشبه بالقضايا المنطقية تخرج النتيجة اذا صحت المقدمة قوية صحيحة . ان القوم على ما تبين لي عرفوا الخطر من هذا الاهمال فتخلوا قليلاً عن حظوظ انفسهم ونظروا الى المصلحة العامة بجد فأخرجوا من الخدمة بعض الخائنين فارعوى الآخرون ممن كانت ذنوبهم خفيفة يمكن اصلاحها وأتوا بمن ينفعون لتولي المناصب الكبرى وهؤلاء ساقوا من تحت

ايديهم الى السداد ونصبوا اطيب طبقة من العمال ، وكان الصغار من قبل يفسدون الكبار والكبار يسكتون عنهم اذا رأوهم حادوا عن الطريق المستقيم ، يملون لهم ما شاؤا أن يملوا ، يتركونهم يسرقون ويضيعون الحقوق ويشاركونهم في سرقاتهم وهم يؤدون اليهم قسطهم من الغنيمة ويعاونونهم على مآربهم من باب أضيء لي أقدح لك ، وتنحصر فلسفة كل هذا في جملة مختصرة وهو أن ولاة الأمر عزموا على ترك المصانعات وأخذوا باطراف الحزم فنفذوا العقوبات على كل صغير وكبير ، فسلمت ادارة الحكم من لوثاتها بعد قليل ، وكان بعض الوزراء من رجال القانون في سبيل النفع الشخصي يلتمسون المخارج لاستصدار العفو عن القتلة كما كانوا يغضون الطرف عن لصوص العمال ، أطلقوا لهم العنان حتى كسروا عظم الرعية وعرقوا لحمها ، ولما رجعوا الى العقل وحذفوا من موازنة سنة واحدة ثلثها ولم يعتور الاحوال تبدل وقضوا على الحكومة السابقة وعلى غلوها في فرض الضرائب ينعم بها القائمون بالدولة جرت الامور في نصابها . وكان شكا بعض أرباب معامل السلاح في الغرب أن بعض رؤساء حكومات العرب ، وطعنوا في أمانتهم ، طلبوا اضافة مبالغ على قوائم ما يبتاعونه من معاملهم فردوهم لأن ذلك يضر بسمعتها ويؤذي تجارتها .

العالم من دون عقوبة يعمهم الفساد وتنتشر الفوضى بينهم ، ويختل عمود العدل ، وتضطرب أحوال الملك ، ومتى انقطعت آمال الامة من احقاق الحق وازهاق الباطل لا تدري ما هي فاعلة . قال : اني الى الاعتقاد بأنك تبالغ في وصفك هذا واني أحب أن أصارحك وقد رأيتك على شيء من التجربة فأقول : وماذا يترتب على انتفاع العامل بشيء من المال ينفقه على عياله وانت تعلم ان راتبه قليل وكذلك المدير والوزير اذا عقد أحدهما صفقة وتناول منها مبلغاً من المال يغنيه أو يستعين به يوم الانتخابات لابتياع الاصوات أو يجعل منه مجوهرات يهديها لمن يتوقع الخير على يده أو يجمع مقادير عظيمة من الحبوب أو الارز أو السمن يهديها لاصحاب المطابخ الكبيرة يعاونهم على

الظهور بمظهر يطمعون فيه وهذا يقابله على هديته بكلام فيعود القرش عشرة على الهادي وهكذا الناس ينفع بعضهم بعضاً .

قلت : ان ظاهر كلامك لا بأس به الا انه لا يقنع عاقلاً ، وهذه الاعمال كلها محرمة في الشرائع والمتدينون والمدنيون يحذّرون من ارتكابها . ومن يهدى اليه اليوم ويقبل الهدية لا ينجيه من تبعتها الا هَدْي سيد المرسلين في قوله لمن رآه يتناول مالاً من الرعية لنفسه وقال انه أهدي له : هلا قعدت في بيت أبيك وأمك وقلت انه اهدى اليّ ، وتقول ان الرسول قبل الهدية لكن كان يقابل عليها وهؤلاء المستهدون هل قابلوا مهدياً على هديته الا أن يقابلوه بكلام كأن يشهدوا بحسن حال من أهدى اليهم ويؤيدونه بالباطل في المآزق ليبقى في الحكم اكثر مدة ممكنة .

وقاطعني فقال : انت تريد ان تعيدنا الى عصر الصحابة في الحكم هذا عصر لايعود ولا يتكرر والناس كلهم اليوم فسدوا الا من رحم ربك ، ومراد الله من الخلق ما هم عليه ، العالم ياحبيبي لا يعرفون الا المادة ومن اختار لنفسه الذلة والقلة وعفّ وترفع عن الدنايا فهو وشأنه ، ومن اراد ان يتمتع بمباهج هذه الدنيا فليس له غير هذه الطرق التي يسلكها الكافة ، ولا حرج عليه ولا اثم ، وازيد على ذلك ان معظم الخلق لا يعتقدون بغير الدنيا ، والآخرة عندهم شيء مجهول بعيد الوقوع فلا يتركون المعلوم للمجهول ولا الخيالي للمحسوس .

قلت : دعنا من امور الآخرة وتعال نبحث في الدنيا ، هل تستقيم بحياتك الامور ان لم تقم على نظام وعدل ، هل يكون ذلك بغير تطبيق الأنظمة كما يفعل الغربيون لعهدنا في تنفيذها ، ولا ينظرون الا الى الحياة الأولى ، ولذا افلحوا اكثر منا في كل امر ، فهم اكثر غنى ، واكثر صدقاً ، واقرب الى العدل ، ونحن اذا ضاع الغش والكذب والنميمة وكل ما نهى عنه شرعنا تجده في بلادنا على حصة موفورة ، ونأتيه كل ساعة غير خائفين ، وبفتوى من مفاتينا ، وباقرار من اهل الحل والعقد فينا ، قوانيننا كلها جيدة لو نفذت ، لكنها مدفونة في القماطر ننفذ منها ما يروقنا فقط . قال : الا تعلم

ان الكبراء اذا اعطوا فهم يعطون من مال تقرره لهم الحكومة وكل مايقام من المآدب والسياحات المرفهة ونفقات الأبهة والبذخ واستمالة القلوب والاقلام داخل الوطن وخارجه ، قد اخذ من بيت المال بقرار فالآثم هو المقرر ، ومن انفق ماقرر له بريء من التبعة ، والمسؤول عن المال المبدد هو القانون الدستوري ، والامة في الواقع انحلت اخلاقها فوجدت لها من هذا القانون اعظم معوان . وبلغني ان احد رؤساء الوزارات لايقيم مأدبة خاصة او عامة ولاينفق شيئاً في سبيل مصلحة الدولة حتى في شراء السلاح والقذائف والطيارات والسيارات الا ويضيف الى قائمة ماصرف مبلغاً من المال يأخذه لنفسه وبذلك اغتنى كثيراً واقتنى املاكاً وكذلك اغتنى اقاربه واشياعه في المفوضيات والمحافظات من صعاليكهم من بنوا القصور وبجدوا المقاصير والدور يسرفون في الانفاق على رفاهيتهم ما لاينفقه رئيس كبير في ديار الغرب . ومن غريب ما أتى هذا السياسي ان احال الى مزارعه ما وقع في ايدي الدولة من المغانم كالمواشي والآلة كأن مغانم الحكومة مغانم له ولامن يحاسبه .

وأتبعت ذلك بقولي الناس ياحبيبي مع القائم وكيف يحاسبون او يعرّضون قليلاً بما تجنيه يد الجاني وهم يوقنون انه اذا غضب الله على احدهم وانتقد هذه الخطة عاقبه الوزير عقاباً مادياً وآذاه في ماله واحياناً ببدنه فان كان تاجراً عمل على خسارته ، وان كان مزارعاً سلط عليه ادنياء الفلاحين ، وان كان موظفاً اوقعوه في مشاكل يحاولون بها اقصاءه وخراب بيته ، والوزراء كلهم متضامنون وهم ابداً طوع امر رئيسهم والحكام كلهم عبيده مادام في منصبه الا من رزق نفساً قوية وما اهمته خدمة الاغراض . ومن الناس من يتحاشون ذكر المظالم بكلمة مخافة ان يعود الى الحكم مرة اخرى وينتقم منهم ومن أبنائهم وذوي قرباهم واصحابهم ، وهكذا يبقى الجرح نغاراً والفساد مستحكماً متسلسلاً . ويذكر العارفون ان احد الوزراء في الانتخابات حرص على احراز اصوات تسهل عليه الوصول الى النيابة ، مع علمه بان النفوس مائلة عنه ، فلم يرَ أحسن من ان يعهد الى جميع موظفيه بمعاونته فالبسهم كسوة غير كسوتهم ، وأصحب كل واحد مسدساً خبأه في جيبه ،

وكان بهم يهدد الناخبين حتى احرز بعض النصاب واتمه له حزب الحكومة بما وضعته في الصناديق من اوراق مزورة ففاز بالنيابة بهذه الطرق المزيفة وفاز بعض زملائه وانتشر سر هذه المكيدة، والسياسيون قد يزعمون ان افعالهم السرية تخفى على القوم وليس كل السياسيين فلاسفة حتى تردهم ضمائرهم الى الصراط السويّ . وهكذا يقال في بعض الرؤساء وبعض الوزراء اخترع كل واحد احبولة يلقيها فيصطاد فمنهم من يجوز ابتياع الضمائر بالمال ويدعي ان المجد لايبنى الا بهذه الاحابيل . ومنهم من لواعطيته عُشر خزانة الامة لمد يده الى التسعة الاعشار الاخرى ، ذلك لان اكثرهم لم يربوا تربية دينية ولا مدنية صحيحة وجاءوا الى ممارسة السياسة من طرق فيها الخديعة والكذب والنفاق وغير ذلك .

مساو لو قسمن على الغواني　　　لما أمهرن الا بالطلاق

ساءتني النماذج التي ادركتها من أولئك الكبراء ، رأيتهم يتنزلون لأقل الصعاليك ويخاطبونهم بما لايخاطبون به عظماء الامة ورأيت بعض عامة سكان الاحياء تنهال عليهم مقادير كبيرة من الحنطة والارز والسكر وغير ذلك من انواع المأكول ، وكان هذا في وقت عزّ وجودها وكان يكفي ما يهدونهم من انواعها لان يكون منه رأس مال كبير او ليطعم الف انسان ، بينما كان الفقراء لاتصل أيديهم الى القوت الضروري الا بشق الانفس ويطعمونهم الخبزالمغشوش اماالارزوالسكر فهذا ما كانوايسمعون به ولا يرونه .

قال صاحبي : ان اكثر مارويته اوافق عليه ، وهذا كله جرى على مارسمت ، ولكن حنبليتك قوية وتشددك عظيم في اقتضاء الناس مالا يملكون فأرح نفسك من هذا العناء فأنت لاتقوّم المعوج ولو كان معك اليوم فريق يعاضدونك ، ولن تنجح مادام الفاسدون اكثر سواداً من الصالحين ، والفاسدون اعرف بالدسائس وبما يبقي عليهم نعمتهم وهم عند حاجتهم احط الخلق لايستنكفون عن ارتكاب كل كبيرة .

ولما بلغ الحديث الى هذا الحد ومنه ماأنسيته تقلبت في سريري متألماً من أواخره ، فانتبهت على صوت المؤذن يقول : ياارحم الراحمين ارحمنا .

ابراهيم باشا في الشام

من غرائب التاريخ في العصر الماضي قيام محمد علي الكبير بانشاء دولة عظيمة في مصر واسترجاع عبد العزيز آل سعود في هذا العصر ملك آبائه في نجد وما اليها وليس معه من الرجال أكثر من بضعة أشخاص ، وكلاهما أمي . ولولا مقاومة الدول لمحمد علي لاستولى على معظم العامر من ممالك افريقية وعلى أرض العرب في آسيا وعلى آسيا الصغرى من أرض الترك وعلى الروم ايلي وما وراءه من البلقان ولكان له الكلمة المسموعة على شواطيء البحر المتوسط وغيرها من الاوقيانوسات .

كان محمد علي بما خص به من نظر بعيد يعرف ان فتح الولايات العثمانية في آسيا ، ليس من الصعوبة على ما يتصور المأخوذون بالظواهر لأنه كان يقدر مبلغ قوتها الحقيقية اذا تصادمت القوى ، وقد حققت الايام حسابه فانه لما صحت نيته على فتح الشام أرسل اليها قوة من البحر وأخرى من البر بقيادة ابنه ابراهيم باشا ففتحت على أهون سبب ولو لم تقف دول اوربا في وجهه وتصده عن التقدم لفتح القسطنطينية وجعل دولة آل عثمان أثراً بعد عين . وتجلى في هذا الفتوح التي وصل فيها ابراهيم باشا الى كوتاهية أن الجيش القليل المجهز بالجهاز اللازم خير من الجيش الكبير العدد وفيه نقص في المعدات وفوضى في القيادة ، ولذلك كان الجيش المصري المنظم يومئذ أفضل من العثماني المختل .

والمزية الباهرة في هذا الفتح أن ابراهيم باشا ما اكتفى بالغلبة بالسلاح بل طمع فيما وراء ذلك بالنهوض بالديار الشامية المائلة الى الانقراض وسارع وأدخل فيها في بضع سنين جميع ما ينهض بها من أسباب المدنية الحديثة على أجمل ما تنظم دولة كبرى تأصلت فيها المدنية في دولة بكر ماشهدت الاصلاح منذ قرون .

ما كان من مصلحة البريطانيين يومئذ توسع محمد علي في الملك ولذلك لم تغمد السيوف في الشام مدة حكم ابراهيم باشا تحاول اجلاء جيشه وارجاعها الى الدولة الضعيفة صاحبتها القديمة فدأبت على تحريك من كانوا بالامس من انصاره مثل الدروز والنصيرية والموارنة . فقتل الدروز في اللجاه ووادي التيم مئات من جيشه . وكان ابراهيم لايهدأ له بال يراقب العثمانيين في الشمال ويضطر الى مراقبة العدو الداخلي من الجنوب ، والانكليز والاتراك يبتاعون بالمال من يرون ابتياعه واستتباعه من الاكراد والتركمان والهوارة والنصيرية والدروز والموارنة .

وما حالت هذه الهموم السياسية دون ابراهيم باشا وما يرمي اليه من انشاء القلاع والجسور والمستشفيات والثكنات والخانات والفنادق وتجفيف المستنقعات وانشاء القنى لتصريف المياه القذرة في المدن وغيرها وترتيب المجالس الملكية والعسكرية وتأليف مجلس الشورى والمساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات يمتع كل طائفة بحريتها وينظم الجباية والخراج ويبطل المصادرات ويقرر حق التملك ويوطد الامن وينشط الزراعة والصناعة ويعلم تربية دود الحرير ، فاستعادت اكثر القرى التي كانت على سيف البادية واقليم حوران وعجلون وحمص وحماة وغيرها عمرانها القديم . وما كان ابراهيم باشا ضنيناً بالمال ينفقه في الاصلاح ويدخر مافاض منه في الخزائن للطوارىء اي ينفق مال الشام في الشام .

قام ابراهيم باشا بكل هذا وحالة القطر السياسية غير مستقرة ، وامتد نشاطه الى جميع فروع الادارة يبني ويكثر البناء كأنه في ملكه الثابت الذي لاينازعه فيه منازع . وكان العثمانيون من قبل قضوا في القطر ثلاثمائة سنة لم يأتوا خلالها بعمل يذكر في باب التمدين ، وفي ايامهم لم يعمر طريق ولا ثكنة ولا مدرسة مهمة ، والمدارس والجوامع التي تنسب الى بعض ولاتهم في الحواضر عمرت باخراب المدارس والجوامع الاثرية القديمة وكان معظم مابنوه من الحصون من انقاض مصانع القدماء ، وسياستهم لم تبدل منذ احتلوا هذا القطر . تتقاضى الدولة الجبايات الكثيرة الانواع بطرق غير مشروعة

وتأخذ الشبان للجندية لتقتلهم في حروبها الكثيرة ، والامن ابداً الى الاختلال والارواح تباع ببيع السماح والشرع لاتنفذ احكامه الا على الضعفاء لان الاقوياء ومنهم الاقطاعيون لايطبقون من مواده الا مايروقهم ، والاقطاعيون اعوان الظلمة من الحكام الرسميين وكلهم على المظالم متفقون ولذلك شق عليهم حكم ابراهيم باشا لانه ساوى بين السكان وقطع على الاعيان طرق سرقاتهم ، فهم عضد للدولة العثمانية حتى تعود الى حكم القطر يحكمونه مع عمال العثمانيين الفاسدين ويتعاونون يداً واحدة على سرقة اموال الدولة واموال الرعية .

وكيف السبيل الى عودة العثمانيين الى هذه الديار وجيش ابراهيم باشا مانقص عن اربعين الف جندي منظم بنظام اوربا وبقيادة قائد حازم يعرف من اين تؤكل الكتف يسترشد برأي والده العظيم في المسائل المهمة . فكان كالمستقل في ادارته على ماتبين من الرسائل التي صدرت من محمد علي لابنه ابراهيم وبالعكس وفيها مثال من تلك الادارة الرشيدة . فاستخدمت انكلترا للوصول الى غرضها من اجلاء المصريين عن الشام جميع مالديها من قوة على يد القائم بكبر ذلك المستر وود السياسي المحنك الذي جاء سورية باسم مستشرق يرغب في درس اللغة العربية وارسلوه الى بطريرك الموارنة فاسلمه الى احد رهبانه يعلمه ، فما هي الا ايام حتى رجع الراهب الى بطريركه يقول له ان الذي فوضت اليّ تعليمه ليس طالب علم ، بل هو يرمي الى مقصد سياسي على مايظهر فقال له البطريرك : قم بالواجب الذي عهدت اليك ولا تدخل في الفضول .

ورب قائل يقول وهل كانت اعمال ابراهيم باشا في الشام كلها سديدة فالجواب انها بالقياس الى اعمال العثمانيين عظيمة جداً وقد يغلط ابراهيم كما يغلط اعظم الرجال والغلط غير مأمون على من كان في مثل حاله . فمن اخطائه انه رخص لضباطه ان يتجروا وما ادري ان كانوا هم الذين جعلوه امام امر واقع فاضطر لاغماض الطرف عنهم وكان في ذلك الضرر على الرعية . ومن خطيئاته السياسية تنفيذ ارادة والده بتجنيد الشبان وكان عليه ان يقول له ان القوم غير مستعدين للتجنيد وانه تشق الجنديه عليهم والواجب اخذ البدل

النقدي ممن لايحب الدخول فيها . وقد اتخذ اعداء ابراهيم باشا من قضية الخدمة العسكريه مادة لحمل بعض العناصر على العصيان عليه والاشمئزاز من حكمه وكان في مقدمة من رفضوا الخضوع لارادته الموارنة والنصيرية والدروز وعربان جبل نابلس اما سائر الاقاليم فقد خضعت للنظام الجديد مرغمة .

كان حكم ابراهيم باشا في الديار الشامية سعيداً في الجملة ادركت الرعية الفرق بين حكم المصريين وحكم العثمانيين خصوصاً والمصريون اقرب الى الشاميين بطبائعهم ولغتهم . نعم كان حكم المصريين شديداً وبغير الشدة لايحكم شعب فسد كيانه وانحل في معظم مشخصاته واضعفت قرون استبداد مضت عليه قواه العقلية وحيويته الاقتصادية والعلمية . وكيف لقطران يسعد سعادة كاملة وقد اندمج في سكانه عشائر وقبائل ليس بينهم وبين الحضارة ادنى صلة وفيه اديان كثيرة وطرق صوفية غريبة . ولذلك رأينا من قاتلوا مع المصريين لاول الامر مغتبطين عادوا فانقلبوا عليهم بتأثير الدرهم والدينار . والوطنية لم تكن تعهد يومئذ في الشام ولا في مصر ، وكانت الوطنية مايريده صاحب القوة او الفاتح المتغلب .

وأكثر من ارتاحوا الى حكم ابراهيم السواد الاعظم من الشاميين سكان المدن والقرى وجمهرتهم من المسلمين (اهل السُنّة والشيعة الامامية) والمسيحيين ماعدا الموارنة . ولما صدر امر محمد علي الى ابنه ابراهيم بالجلاء عن الشام ودعه اهل دمشق بدموعهم آسفين على الأيام التي اراهم فيها من عدله ما هللوا له وكبروا . وذكروا ان المظالم بعد جلاء الجيش المصري ستعود الى سابق حالتها ، وان العثمانيين وان شاركهم الانكليز في حكم القطر بالمستر وود ومن استصفوهم على صورة غير ظاهرة لغير العارفين ليس في وسعهم ان يسيروا في ادارتهم على غير طريقتهم في الاهمال والاستخفاف بمطالب الشاميين وفاقد الشيء لايعطيه .

وننتقل الآن الى صفحة اخرى ذات معنى يفهم منـه طرز ادارة ابراهيم باشا وهي حكايات تدل ايضاً على بعد نظره .

(١) ترامى اليه أن السيد أسعد البكري اتفق مع شريف باشا والي دمشق على بيعه مزرعته في قرية جرمانا فاستدعاه وسأله عن قصده من بيع ارضه فقال انه مضيق فاذا باعها تفضفض بثمنها وتبحبح في معاشه . فقـال الباشا : تعرف أن شريف باشا صهري فانتقال ملكك اليه انتقاله الى اختي فأنصحك أن تعدل عن هذا البيع حتى لا تنكشف حالك بعد مدة عندما تسرف في الصرف ، واذا عصيت أمري وبعت ملكك أنفيك الى السودان .

(٢) شكت اليه امرأة فلاحة أن أحد جنوده اختطف من يدها علبة لبن وشربها ، فسألها هل تعرفينه قالت نعم ، فأمر بجمع الكتيبة كلها فحدجت المرأة عسكره ببصرها ، وقالت ها هو فقال لها : (ياولية) أنا الآن سأبقر بطن الجندي فاذا تبين انه هو شارب لبنك كان قد نال جزاءه والا فاني قاتلك به . فتناول الباشا النمشة - من سلاح تلك الايام - وقطع الجندي نصفين فسال اللبن .

(٣) اراد ابراهيم باشا أن يستصدر فتوى من علماء دمشق تخدم سياسة والده في نزع القطر من العثمانيين فاعترض كبير علمائها الشيخ سعيد الحلبي على صيغة الفتوى ونقضها من عدة جهات فاخفق القائد في الوصول الى غرضه وغضب وزاد في غضبه انه ما سبق للشيخ أن زار الباشا كسائر المشايخ كما هي العادة . فسأل أين يجلس الشيخ فقالوا له في الجامع الأُموي وله غرفة فيه يقريء فيها تلاميذه فتحين الباشا وقت وجود الشيخ في حجرته ودخل عليه وجلس فما التفت الشيخ اليه ولا قام اجلالاً له حتى أتم الدرس وهو يمد رجله ثم حول وجهه الى الباشا وسلم عليه سلاماً عادياً ولم يغير جلسته فاستاء الباشا من هذا الاستقبال البارد ، ومن الغد ارسل الى الشيخ صرة جنيهات فردها وقال للرسول : اني أشكر الباشا على عنايته وأرجو ان تقول له اني غنيٌّ ومن يمد رجله لا يمد يده . قال الباشا لخواصه لو قبل الشيخ صرة الدراهم لقتلته لاني اعرف عندئذ انه منافق ظاهره غير باطنه .

(٤) وشى واش بالسيد نسيب حمزة من الاعيان فنفاه الى عكا مطلق السراح على أمل ان يأتيه من يشفع به فيعيده الى بلده خصوصاً والوشاية ضعيفة فما تعرض انسان لهذه الشفاعة فاراد الباشا ان يجبر خطأه فاغتنم زيارته ثغر عكا وسأل عن السيد الشريف وعنده انه لا بد ان يخف للسلام عليه فيبلغه العفو عنه ولما لم يجيء الشريف للزيارة سأل اين يجلس السيد نسيب فقيل له في جامع الجزار وله فيه غرفة فقصد الى الجامع فلم يخرج الشريف للسلام عليه فسأل الباشا اين حجرته فقيل له هذه فقرع عليه الباب وخرج ابن حمزة فسلم عليه القائد سلام حب وعطف وقال له : أما اشتقت الى دمشق انا احب ان اراك هناك ، واصلح غلطه الناشيء عن التسرع باصدار امر النفي .

وله من ذلك قصص كثيرة لايزال اهل المدن والقرى يتناقلونها .

سألني الامير عمر طوسون (رحمه الله) اذا كان ما كتبته في (خطط الشام) من تأليفي في دور ابراهيم باشا بالشام هو صحيح كله فقلت له كله صحيح ما خرجت فيه عن تدوين التاريخ الحق فقد ادركت رجالاً ادركوا عهد ابراهيم وكانوا من المدركين فقصّوا عليّ ما سمعوه ورأوه ، ثم اني قرأت كل ما وصل الى يدي مما كتب عنه المعاصرون بالعربية والافرنسية ومحصت الروايات ، وهل أنا مصري حتى أجامل بما كتبت رجلا من رجال بيتكم الملكي الكريم وأكتم الحق مراعاة للمصلحة ، فقال الأمير الحمد لله الحمد لله .

بقي ان يقال هل كان من الخير ضم الشام الى مصر أم كانت الشام بعد استقرارها بيد المصريين تعود سيرتها الاولى من الاستبداد ، فأنا أرى أنها كانت تسعد بحكم محمد علي الكبير وحكم ابراهيم فقد شهدنا هذا بدأ باصلاح الديار الشامية من أول يوم رفع كابوس العثمانين عنها ، ولو اطرد الاصلاح لأصبحت الشام أرقى من مصر لاستعدادها الطبيعي لكل ضروب المدنية ، وربما كانت تكفى غائلة سلخ لبنان وشرقي الاردن من جسمها وتنجو من غائلة الغوائل واعني تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية تفصل بين جزيرة العرب والعراق والشام وبين مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

همسة في اذن الكيالي

ألححت حتى انتخبك المجمع العلمي العربي عضواً مراسلًا له في حلب واشترطت عليك بصفتي رئيسه ان تجمع اعضاء الشهباء وتشغلهم بما ينفع العلم وينشر الثقافة ، فاعتذرت بان المال يعوزك فنزلت لك من موازنة المجمع العلمي عن عشرة آلاف ليرة سورية تنفقها في الوجوه التي يراها اعضاء حلب واجبة الصرف من طبع ونشر واقتناء كتب ، فماذا كان منك حتى الآن ؟ لم اسمع انك ألقيت أو أحد مواطنيك محاضرة ، ولا ان نشرتم كتاباً ولا أن عاونتم دار الكتب بما ينميها ، ويحبب الى شباب الحلبيين الاختلاف الى قاعاتها . اخذت لقب عضو المجمع واكتفيت به ، وقانونه يقصيك من عضويته اذا لم تقم بما اوجب عليك اما قانون الوجدان فأفعل من ذلك لمن ينصف . فان كنت مزمعاً ان تظل على حالتك التي درجت عليها منذ بضع سنين فما احراك ان تستقيل من هذه العضوية حتى لا يخجل من كانوا وسطاءك وزعموا انك خدمت الوطن فكنت جديراً بهذا التشريف .

ثم اني أرجوك ان تنظر ملياً فيما تبعث به الى مجلة المجمع العلمي من مقالاتك وأن تقرأها على ارباب هذه الصناعة حتى اذا أقروك على ما كتبته تبعث به للنشر ومقالاتك في الحقيقة من النوع الذي لايمكن ان ينشر في مجلة كمجلة المجمع العلمي العربي لغموض في تراكيبها فهي أشبه بمقالات الزهراوي الحمصي والشربتلي المصري ، وأرجو ان تعرف بعد هذا ان العلم غير السياسة

آراء وأنباء

من أشد ماكان يؤلمني منذ أدركت مبلغ جهد الامم الغربية في القضاء على الأمية أن اشهد في اقليم من أقاليمنا جهلًا مطبقاً لا تصعب مداواته اذا قامت الحكومات والمحكوم عليهم يداً واحدة لتعليم الناشئة . ورأيت بعض النابهين أسسوا في حواضرهم جمعيات قصدوا منها تعليم من تجاوزت اعمارهم سن التعليم يدرسونهم في اوقات فراغهم من الليل ما يخرجهم من الأمية فيتعلمون القراءة والكتابة والحساب وبهذا الجهد الحسن انقذت عشرات الألوف من الجهل المطبق ، فلو قد كثر عدد هذه الجمعيات في كل بلد وأُنشئت مدارس ليلية ونهارية في الأحياء والقرى لخففوا عن الحكومات بعض ما يقع عليها من عبء وتعاونوا كلهم على ما ينجي السكان من التواكل وذلك بان تأخذ الجمعيات على نفسها مراقبة مدارس الحكومة على نحو ماتراقب مدارسها نفسها فتكون الجمعيات الأهلية والحكومات النظامية كالشيء الواحد . والدول مهما بذلت من مال لنشر المعارف تبقى الى جانب القصور ان لم تشاركها الرعية وتدفع قسطها من هذه الخدمة الوطنية . واذا تم تعاون الحكومات والبلديات والجمعيات وساهمت كل منها بما يخصها من هذا الواجب لا تمضي سنون قليلة حتى يصبح الاهلون على جانب من التمدن الصحيح يفهم رجالهم ونساؤهم بعض ما لهم وعليهم .

والواجب حق الواجب أن تحبب المطالعة الى كل من يفك الحروف وذلك بوضع رسائل صغيرة توزع مجاناً على من يقرؤون ، وتكون موضوعاتها الاخلاق والزراعة والصنائع الزراعية واليدوية والصحة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع ، وحكايات تربي الملكات وتلقن الشجاعة والمروءة والوطنية . وتكون كتب الاطفال غير كتب البالغين تناسب مداركهم وتوفي بما تتطلبه الحياة منهم من المعارف وتكتب بعبارات سهلة معربة لا تعقيد فيها ولا ابهام

وفيها من الصور والرسوم ما يحبب النظر في صفحاتها لكل انسان ، تقدمها الجمعيات لكل من يستفيد منها بالمجان أو بمقابل قليل .

وقد رأينا من تعلموا التعليم الأولى والابتدائي ينسون ما تعلموه بعد سنين ويعودون أميين لاغفالهم تعهد ما تعلموا بالمذاكرة والمطالعة . وأهم ما تدعو اليه الجمعيات أن تعلم الفلاحين صناعات بسيطة يمكنهم معاناتها في بعض أيام العطلة ولا سيما في موسم الشتاء وفيه يزيد التبطل أكثر من المواسم الأخرى في جميع البلدان الزراعية فتصبح الصناعات بهذا مادة ربح في أيدي الفلاح ، وأداة جميلة لقضاء الوقت فيما ينتج لهم فائدة ، ويدفع عنهم بعض العوز ، ويحفظ لمجموع الأمة جانباً من ثروتها .

الأمية علة العلل في مجتمعنا رأيناً تأثيراتها السيئة في مصر لما انتشر الوباء الأخير فيها ، ولو كان القوم أكثر تعلما لما انفقت الدولة ما أنفقت من الأموال، ولاأضاعت الأمة ما أضاعت بالجهل من النساء والرجال والأطفال

المؤلفون والملوك

حدثني صديقي الاستاذ حسن توفيق العدل رحمه الله قال : يوم كنت في برلين موفداً من وزارة معارف مصر لدرس علم التربية والتعليم سمعت أنه ظهر في ألمانيا مؤلف جديد ما كان من المشهورين قبل أن يؤلف تاريخ حرب الثلاثين سنة ، وما علم أحد بما شُغِل به سنين الا لما أنجز كتابه وطبعه . وأجمع الألمان على أنه كتاب ما ألف في بابه مثله . قال وبعد أيام رأينا الامبراطور غليوم الثاني في مركبته والى جانبه ذلك المؤلف الذي بهر المانيا بتأليفه ، وهكذا أكرم العاهل العظيم المؤلف العظيم .

ومما يؤثر عن تيمورلنك من ملوك القرون الوسطى أن السعد التفتازاني

لما ألف كتاب المطول في علم البيان وعرضه عليه اعجب به وأمر أن تصنع منه نسخة نفيسة مذهبة وتعلق على باب شيراز ، دليلاً على أن تيمورلنك ومملكته يفاخران بعالم كالسعد . قام تيمور بهذا وهو على الأغلب لا يحسن العربية ولا البيان العربي ، وعلى الرغم مما كان عليه من ظلم وقسوة أكرم السعد هذا الاكرام ليقال انه يحمي العلماء ويقدر اعمالهم قدرها .

وجرت عادة الخلفاء والأمراء والوزراء في الاسلام أن يكرموا المؤلفين بالعطايا يُدرونها عليهم ليستدروا فيض قرائحهم فتنبعث الى خدمة العلم والأدب . ومن أرباب التواليف من جعل من هبات العظماء علة معاشه ، ومن عظماء الوزراء من كان لهم طبقات من المؤلفين يجرون عليهم الرواتب والجرايات . وكان أصحاب السلطان يعدون هذه المكرمات من واجبهم ، ويتنافسون في الاستئثار بكبار المؤلفين ، وبايواء أكبر عدد منهم في قصورهم . والملك الذي يكثر ببابه العلماء والشعراء يعد نفسه ويعده قومه من السعداء .

يقول جبون المؤرخ الانكليزي عند كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من ذلك أن انتشر ذوق العلم ووجد ان اللذة في تحصيله في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فارس وقرطبة

ومن عادة ملوك العرب في عصرنا أن يبادروا الى شكر المؤلف باللسان ان كان ممن يرخص له بمقابلة الملك ، واذا كان المؤلف بعيداً من الملك يشكره كاتبه بالنيابة ان كان المؤلف صاحب مكانة . والمؤلف الذي يفوز بشكر الملك يعد ذلك من دواعي الفخر له ولابنائه وأحفاده . أما رؤساء الجمهوريات فلا يعبأون بهذه الاعتبارات ولا يشكرون المؤلفين باللسان ولا بالقلم كأن الجمهوريات تقوم بغير الشعر والأدب كما قال أحد طواغيت السياسة .

أمية المشايخ

قوي الجهل في الولايات العربية على العهد العثماني والدولة ترغب في امتداد ايامه وتقوية أواصره لأنها تعتقد أنها تبقى حاكمة على العرب ما داموا جهلاء ، واذا تعلموا واستنارت عقولهم خرجوا عن حكمها ، وساعد على نشر سياسة الجهالة من لا يخافون الله من ارباب المناصب الدينية الكبرى ، وما كان هؤلاء الا أرباب الوجوه الصفيقة من ورثة المناصب أو من ابتاعوها بالدراهم .

وتولى رئاسة العلماء في مدينة دمشق استاذنا العلامة سليم البخاري فشق عليه ان يشهد شرع الاسلام بأيدي الأميين الجهلة فبدأ باخراج السقيم من بينهم والابقاء على السليم منهم . وبدا للشيخ أسعد الصاحب وكان نشر كتباً ورسائل استكتبها بالأجرة ان يقنع شيخ العلماء بانه عالم ومؤلف فتأبط نسخاً من تآليفه وشخص الى مقام الرياسة ، فصادفه أحد اقرانه وهو على مستواه من العلم فسأله عن وجهته وعن الكتب التي يحملها فأجاب أنه ذاهب الى رئيس العلماء ليطلعه على بعض مصنفاته . فقال له : أنا انصح لك ان ترجع من حيث اتيت انت وما تحمله من كتبك . فاني اخشى ان يفتح لك الرئيس ، وهو يعرفك معرفة جيدة ، صفحة من تآليفك هذه ويطلب اليك ان تقرأ له ، وانت لا تستطيع ان تتلو مقطعاً واحداً دون ان ترتكب عدة غلطات . فقبل المؤلف نصيحة زميله وعاد ادراجه .

ذكرت هذه القصة لما استعرضت تآليف بعض المحدثين من المؤلفين وكيف يحاول بعضهم ان ينفقوا على الامة ببضاعة مزجاة ، وينشروا سخافات وترهات ، ويساعدهم رخص الطبع والورق واعفاء الكتب من المراقبة . وما بلغ من فطنة الكثرة الكاثرة أن تفرق بين الجيد وغير الجيد مما تخرجه المطابع . وكان بعض شيوخ الأزهر في القرن الماضي لايحسنون من التآليف

شيئا ويَستَجْدُون زملاءَهم تقاريظ لكتبهم قبل أن يشرعوا في تأليفها . فتنهال عليهم أماديح أقل ما يقال فيها انها شهادات مزورة (راجع فصل القول في تآليفنا من كتابنا اقوالنا وأفعالنا) .

ومما يسر ان التآليف التي صدرت منذ اول الحرب الأخيرة الى الآن أجود في الجملة من التي صدرت في العشر السنين التي تقدمت هذه الحرب . ومازالت تآليف الأذكياء تزيد على الأيام اجادة . اما التآليف السخيفة فهي كما جرت العادة أن تكون ولا يصدر عن السخيف الا السخيف والأسخف . والتافه مع هذا رائج والجيد كاسد ، ومن يميز بين الصنفين من التآليف مادام ذوق الجمهور منحطاً غير سليم ومما يغتبط به ايضاً ان بعض مانشر بعد الحرب من الكتب كان يقصد به الوصول الى غرض علمي أو ادبي أو اقتصادي أو سياسي وخفت الموضوعات الدينية ، وفيما ورثناه عن السلف الصالح غنىً عن كتابة كتب جديده في الشرع ، وأين اليوم من يكتب بمثل تحقيقها وتدقيقها .

ورأينا صدور بعض المؤلفين أخذت تتسع اليوم لسماع النقد على كتبهم ، وكانوا قبل ثلاثين أو أربعين سنة يتألمون من النقد والناقدين ، ويعدون قبولهم تصحيح أخطائهم اقراراً بجهلهم ، فكانوا يطعنون بالنقاد ويزيفون علمهم . ولك بذلك ان تحكم ان الذوق اخذ يرتقي بظهور هذه الطبقة المجّودة من المؤلفين وعددها يزيد سنة عن سنة والسواد الأعظم منهم يؤثر اخراج مؤلفات قليلة مجّودة ولا يسفُّ الى معالجة الأبحاث التي سبق للاقلام ان تعاورتها ، والفرق ظاهر بين الكتب المؤلفة اليوم والمؤلفة قبل خمسين سنة

علم الحال

يقول علماء النفس ثلاثة تحدو المرء على العمل : الخبز والحب والطمع . فليدعُ بعضهم الرغبة في المال طمعاً ، وليسمه آخرون الطموح الى المجد فهذا مما لا يؤبه له . فليس من السعداء الحكيم ولا التقي ولا البطل ولا العالم ولا الشريف ، وما السعيد الا من له مال وله امرأة يحبها ويتمتع بصحة جيدة .

وعندنا ان السعيد من يحدد مطامعه ، ويرضى بما وصل اليه من المظاهر ، وما حصل عليه من مال ، وأن يكون آمناً في سربه مغتبطاً بقرينته قرير العين بأولاده .

لا تفرح لوقوع الشر حتى في بيت عدوك فانك لاتأمن سرايته الى بيتك .

تجنب التقية في بعض المواطن ، وعليك تضليل عقل من يحاول كشف خبيئتك ، واستدراجك الى الخوض فيما ينفعه ويضرك .

اتق مجالسة الأشرار واعمل على الا تسمعهم الا مبهمات لايُبنى عليها حكم ، وتمويهات تضلل بها عقولهم .

قد تنحل المعضلات بتطاول الزمن ، وتسكن الحزازات والثارات ، وتضعف حدة الاحقاد والسخائم .

كلما تقدم الزمن يكثر الجنس الذي لايبالي بمايحدث للولي والعدو ، فتنحل روابط البيوت ، وتتراخى علائق حسن الجوار ، وينضب معين الرحمة من القلوب . ويوم كان الجار يهتم بجاره ، والصديق بصديقه ، والرجل بذوي قرباه كان الناس بخير أكثر من عهدنا هذا ، ما في ذلك شك . ولما كثر قول أنا ومن بعدي الطوفان دب التخاذل وشمل الضعف . ويقل ذلك ويزيد على قدر الاعتقاد بجوهر الأديان ، واسترسال الخلق في الكفر والالحاد .

تحجرت قلوب الناس اليوم وان دخلهم التمدن وكانوا بالامس مفطورين على الرحمة على قلة حضارتهم .

اذا رأيت فرداً يصاب بمصيبة وليس حواليه من يواسيه فأيقن انه مامرّ في خياله يوماً ان يؤاسي انساناً . ومن لايهمه احد لايهتم له احد . واذا شهدت رجلا لايعطف عليه أحد فاعرف انه هو لم يعطف على انسان . واذا تجلى لك أن الاجماع كاد ينعقد على حب شخص فأيقن أنه هو تقدم ودفع ثمن هذه المحبة ، وعاد قومه يقابلونه عليها .

للمال زكاة وللجاه زكاةً وللذكاء زكاة فاذا لم يؤد صاحب هذه الصفات زكاة مارزق من تلقاء نفسه يدب المحق فيما أنعم به عليه .

مادام جارك لايجد كفايته من القوت لاتعدنَّ ماأنت فيه سعادة .

لاتأمل الخير ممن قدمت اليهم الشر ولا تغرنك ابتسامتهم فالبغضاء لاتنمحي من قلوبهم .

الابتعاد عن الاشرار خير دواء لينسوك .

اذا وقرت الكبير والصغير وقرك طوائف الناس .

لاتستمع الى حديث لايفيدك واقلل من نقد الخلق الا اذا كانوا ممن يهمنون على المصالح العامة .

اذا طلبت رضا أبيك وأمك وأستاذك فقد حزت الكمال .

من قبيح العادات عادة استعارة الآنية والفرش والثوب ، ومن أقبحها استعارة الكتب المطبوعة فانها تؤخر نشر العلم وتضر بطابعيها ومؤلفيها .

لو كشفنا أخلاق طواغيت الملوك لكان لعنهم أقل مايجازون به .

كيف لا يخجل ابن اليمن ونجد والحجاز اذا شاهد اقطاراً عربية كالعراق والشام ومصر أرقى من بلاده في معظم شؤون العلم والمدنية .

ناصح الملك الغشوم يجلب لنفسه الكراهة والمقت .

قلّ في طبقة العمال من ينصح لسلطانه لانه وطن نفسه على العبودية امامه ، وليس في طبقة العبيد من يجرؤ على سيده .

من يكثر من تبديل الحرف ينتهي بالافلاس ، ومن يصاحب كل يوم

صاحباً جديداً لايبقى له صاحب حتى يفزع اليه عند الشدائد .

من الاثرة العجيبة ان يطالبك بعضهم بان تكون له بوق دعاية ابداً واذا قصرت يوماً اكثر من لومك وعتب عليك كأنما يتقاضاك ديناً اسلفك اياه وهو لو حاسب نفسه حساباً يسيراً لتبين له ان ليس له عليك اقل منة .

اضحك من شح من يطالبونك ابداً بان تهدي اليهم وهم ماخطر لهم مرة واحدة في العمر ان يهدوك شيئاً ، يريدون ان تجود عليهم وهم ممسكون الامساك القتال .

روى بعضهم على لسان رئيس نزلت به محنة : أين من اطعمناهم لو كانوا كلاباً لعووا ولو كانوا قططاً لموا لم نسمع لاحدهم صوتاً ارتفع في الاحتجاج على ما حلّ بنا . وفاته انه لا يرجى منهم ان يأتوا غير ذلك لانهم سفلة ومن يصطنع السافل ويعده خليلاً مخلصاً يرثى لضعف عقله ووضعه المعروف في غير اهله .

شهدت جيلين متناقضين من الناس احدهما يعتقد كل شيء والثاني ينكر كل شيء . الواحد الى الافراط والآخر الى التفريط . الأول مؤمن بكل الفروض والواجبات والنوافل يثبت ماصح وما لم يصح والثاني ملحد الالحاد كله ، وكفة الدين راجحة عند الاول ابداً وكفة الدنيا شائلة عند الثاني ، لايهنأ بال الاول والثاني الا اذا اقبل الناس على القول بقولهما دون بحث ولا نظر

بالامس كان الدجالون في الدين اوفر عـدداً من الدجالين في السياسة واليوم زاد عدد الدجالين في السياسة على عدد الدجالين في الدين لان السياسة مما يهون الخوض فيـه لا تحتاج الى رأس مال من درس وتعب وليس كذلك الدين .

إذا رأيت لفيفاً من العامة مجتمعين على أمر لا تدري ما هو أسرع خطاك لا تدخل في غمارهم ، فقد تدعى الى الشهادة في المحكمة فتضيع وقتك بين اهمال القاضي وتخلف الشهود والمدعيين .

لاتحرك عش الزنابير فانها توشك أن تقرصك وتؤلمك جزاء تهورك وفضولك .

لا تقدم على أمر تعتقد اعتقاداً جازماً أن الخطر فيه أكثر من السلامة فقد قالوا : « ليس المخاطر محموداً وان سلما » .

عجب بعضهم من أن من كانوا من أنصار الدولة الماضية عادوا فتقمصوا انصاراً للدولة الخالفة وما دروا ان السابقين ما كانوا مع الدولة القائمة إلا أدوات تديرها على ما تشاء وسيكونون كذلك في الدولة اللاحقة فهم طلاب عيش يتعبدون من يضمن لهم عيشهم لا يحفلون الأخلاق ولا الوفاء ولا معرفة الجميل هم عبيد من أطعمهم والممتنعون عن الدخول في أمر لم يسبق لهم أن دخلوا فيه هم من الشواذ والشواذ قلة .

قالوا ان الدولة الجديدة رضيت عن بعض رجال العهد البائد وكان الأجدر بها ان تعول على غيرهم من الفريق الذي لم ينصبغ بتلك الصبغة القبيحة فالجواب : كل دولة جديدة مضطرة الى استخدام بعض انقاض الدولة المنقرضة لأن الماضين على مافيهم من عوج وأمت يصلحون ان أخلصوا للأعمال أكثر ممن سيؤتى بهم وهم لاخبرة لهم ، والمجتمع يحتاج الى خبرة وتجربة وبيد صاحب الشأن أن ينحي كل ساعة من لم يسر على طريقته وينفذ رغائبه .

من تطال الى ارضاء النـــاس بحق وبلا حق يحتقره حتى من نالوا منه خيراً أكثر مما طمعت فيـه نفوسهم ، والشديد في الحق يكبر عمله حتى خصومه .

لا تألف من اشتهر بالكذب ولا تقبل حديثه ولو متفكهاً به ، وخير لك ألف مرة أن تخلو من أصحاب على أن تمازج الكذابين ، فالكذاب نار موقدة اذا تركت وشأنها تحرق المسكن والساكن .

اياك ان تغتر بتوبة من درج على أكل ما لا يحل له في شرع ولا عقـل هو كالمرأة السوء يزيد فسادها كلما تقدمت في العمر .

في سير العظماء من أهل الشرق والغرب فوائد تتحلى بها النفوس ، أدم قراءتها تستفد علماً وخلقاً وتجارب وعبرة .

كثيراً ما أَلمتُ ممن يقصد دور الامراض العقلية ليتفكه باحاديث المجانين كما اتألم من عشرة من تلذه عشرة المهوسين وارباب السذاجة والبلاهة .

لا تكثر من اصطحاب الخواص ولا تنقطع عن سماع احاديث العوام ، فعند الفريقين ما تتعلم منه وتستريح الى سماعه كالجد لا تحتمله النفوس ابداً فلا بد معه في الاحايين من دعابة وهزل .

بنيت المعتقدات الأخروية على التسليم فاياك ان تسلم بالمجهولات في هذه الدنيا كما عليك التسليم بمجهولات الآخرة فاذا كان في الاولى نجاتك فالتسليم بالثانية هلاكك . والسلامة ابداً في الاعتدال والتوسط .

رأينا من يكثرون من الصلاة اقرب الى الغش والخديعة ممن اقتصدوا في صلواتهم وليس الاسلام بالصلاة والصيام بل بالتحلي بالاخلاق الطاهرة والترفع عن الدنايا .

أقبح بكذبة يختلقها كذاب على من عرف بين الناس بالصدق .

من يعد الغضب للكرامة من التوافه هو أتفه التوافه ووضيع النفس يرضى بالذل .

من يختلق من الأكاذيب على خصمه ما ليس له أصل في غير مخيلته هو من السخفاء وإن تولى المناصب العلمية ودرّس وألف .

من ظن انه يسقط خصمه بالتقول عليه يسقط من الأنظار من حيث لا يدري .

من لا يفرق بين موقف الجد والهزل عدّه في المغفلين .

ما أسفت لشيء أسفي على عالم احرز مئة في العلم وكانت درجته في الأخلاق خمسة .

العلم صناعة يتقنها من جدّ والأخلاق فطرة لا تكتب الا لمن حسنت أصوله وفروعه .

قد تورثك الصراحة غضب بعض الخلق والصراحة خير من التمويه على أي حال .

ما أخطأت فراستي في المتعلمين من أبناء الطبقات الدنيا أخرجوا من الجهل وما عروا من خشونتهم وخستهم .

في كتب المناقب من التخريف ما لا يصدقه صبيان اليوم فقاطعها كما

تقاطع كتب الكيمياء القديمة وكتب السحر والنجوم والطلاسم والجفر والتصوف.

ما لا يصدقه عقلك فانبذه وانبذ أهله لا تشغل قلبك بالترهات ولا بما وضعه ارباب الأهواء وما اختلقه أبالسة السياسة لاستتباع ارباب الغفلة والبلاهة.

ما كل ما كتب في الكتب ودوّن في الصحف مما وضع لنفع الناس، فكثير منه كانت الغاية من تدوينه تضليل العقول.

اطرح من خزانة كتبك كل ما تعتقد فيه الضرر على عقلك وعقل أولادك فالحشرة السامة تؤذي البدن السليم.

ما اكثر الكتب التي كتبها دعاة المذاهب الدينية والسياسية ولو صح ما قالوه لبدلت الأرض غير الأرض.

لولا ما في بعض ما روي عن لسان بعض المتصوفة من بحث الأخلاق لقلنا ان التصوف ما كان منه الا الاشتغال بالفضول.

لا تتصفح ما لا ينفعك من الكلام ولا تحفظ الا الجيد البليغ واختر من أسفار القدماء والمحدثين ما أجمع أرباب المدارك على استحسانه.

عجباً لمن بسط الله لهم في الرزق كيف يقترون على أنفسهم ولا يدركون أن الموت ملاقيهم وانهم لا يأتون الى العالم الا مرة.

ان أمكنك ألا تعامل صاحبك بمال فافعل فالاشتراك معه قد يفقدك صحبته والصحبة يجب أن تترفع عما يفسدها.

لو أعطى الغنيّ حق الله وحق السلطان وحق عياله وحق نفسه ما رأيت من يشكو الفاقة وما وجدت الشيوعية لها مستجيباً.

مما تطول له الحسرة ان الخاصة يعجزون عن ابلاغ دعوتهم الى العامة، والعامة يسمعون اصواتهم للخاصة كل ساعة.

مما امتازت به هذه المدنية الحديثة ان كل فرد يحاول أن يستثمر صاحبه انواع الاستثمار: يستثمر عقله ويستثمر ماله ويستثمر جاهه فاذا ما وصل الى بغيته ينسى أو يتناسى ما أُسدي اليه.

لولا الخوف من القضاء على المروءات والعمل على احياء غريزة اللؤم لدعوت جهرة الى الامتناع عن اسداء المعروف.

من احسنت اليهم واساءوا اليك اكثر ممن اساءوا اليك وانت لم تسوءهم.

لو ظفر الفقير بالغنيّ ما ابقى له قوت ليلة ، ولو كتب للمتخالفين في الاديان ان ينال فريق من فريق ما ابقى القوي على ضعيف .

من كان الخير في دمه زاده الدين كمالاً والفاسد في فطرته قلما يفيد من تعاليم الدين ولا مما كتبه علماء الاخلاق في كتبهم .

كان احد ساسة الغرب يقول ليست الصعوبة في حكم الطبقة الاولى ولا في حكم الطبقة الدنيا ، الصعوبة في حكم الطبقة الوسطى . وتعليل ذلك ان اهل الطبقة الوسطى يعرفون كيف يطالبون ويشاغبون وكيف يدخلون ويخرجون

لو فكر علماء الغرب في طرق ابطال الحرب كما فكروا في اسباب دوامها ما وصلت الانسانية الى هذا الحال المزعج .

اذا حللت السبب في فقر الفقراء تبين لك ان اكثرهم هم علة فقرهم .

لا يقف عمل الا من ضعف صاحبه واهماله اتخاذ الاسباب .

اذا اصاب الغرور انساناً كبر عليه فقد مات ، واذا اصاب دولة فقل انها دالت .

متى اكثرت من التواضع ظنك ارباب الرقاعة وضيعاً فكن مع من تلقى في حالة بين بين لاتتعاظم ولا تتصاغر .

قد يغتفر جنون العظمة فيمن كان اجداده على شيء منها ولا يغتفر في الوضيع الاصل الحديث النعمة .

ربات الشرف اكثر سواداً من الفاجرات والشريفة مهما حدثتها نفسها بالخنا تدرك ان شرفها مثلوم من أول خطيئة ترتكبها .

لاخير في مجتمع لايكافح فيه الكذب كما تكافح الامراض السارية .

بأي وجه يقابل الكذاب من كذب عليه ؟

من العادة ان يمسك الناس عن نقد صاحب الشأن وهو في معظم سلطانه فاذا ماسقط اخرجوا له من مساويه الخمير والفطير . كأنهم كانوا يجمعونها

ايام عزته ليحملوها اليه صبره واحدة في محنته .

لو كان للخونة ضمير لانتحروا يوم ينكشف امرهم للملأ .

رجل الدولة الذي يسرق الالوف والوف الألوف موهماً انه في حل مما يأخذ هو اخس من قطاع الطريق .

لو كان من دأبوا على الاضرار بالنـاس على شيء من العقل لأقسموا ألا يضمروا شراً لاحد ولو في قلوبهم .

النظام صحة وهناء والفوضى مرض وتهلكة .

اذا أردت اختبار صداقة من تصادق اقصده في اقراضك مالاً ينجيك من ضائقة .

من خان سيده الاول كان حرياً أن يخون سيده الثاني .

السبب في أن العاطل في الوزراء وكبار رجال الدولة اكثر من الصالح ذاك الغرض الأعمى في اختيارهم .

من قضوا أيام شبابهم وشطراً من كهولتهم وهم يتجرون ويسمسرون ويبيعون ويدلسون لا يصلحون لشيء من ادارة الشؤون العامة فكيف بهم اذا تقلدوا الوزارة .

من أبشع العادات أن يتقدم أحد الاصحاب في المطعم أو المقهى أو المركبة أو الترام ليستأثر باداء ثمن ما أكلوا وشربوا واجرة ما ركبوا فتراهم يتسابقون ويتدافعون ويحلفون الايمان المغلظة ، كل منهم يريد أن يكون صاحب هذه المكرمة دون رفاقه ، تشاهد ذلك في المدن والقرى كل يوم . ولو كان المبلغ الواجب اداؤه كبيراً لأحجم أكثرهم عن الدفع .

لو كان لسان الصاحب في غيبة صاحبه مثل لسانه في حضرته لتداعت دولة الرياء .

لو تفاهمت الشعوب حق التفاهم ما تيسر لقادة سياسة العالم أن يعلنوا الحرب ويعقدوا الصلح على هواهم .

لا تغتر بصحبة الاغنياء فالغني لا صاحب له الا ماله ، ينساك أو يتناساك ، ساعة مفارقتك اياه .

ثبت أن دني الاصل يبقى وأولاده أدنياء الى اجيال طويلة .

الفقراء اذا اغتنوا وحاولوا تقليد النبلاء في لباسهم وفرشهم ومسكنهم وحديثهم كالزنجي يكتسي ازياء الموصوفات بالاناقة من النساء .

لو اخذ الانتخاب الطبيعي حكمه في قومي فهلك ثلاثة ارباعهم وبقي الصالح للبقاء لما شكونا من جهل ولا أُتينا من قلة تدبير ، وكان مجموعنا اذ ذاك افضل من مجموعنا الآن .

الكذب في العلماء اقبح اثراً منه في كل الطبقات فليتدبر العالم عاقبة كذبة يكذبها .

اقرارك بالحسن من صفات عدوك دليل على انصافك فاياك اذا غضبت عليه ان تعريه من كل ما خص به .

اذا اثنيت على أهل الفضل بما فيهم كنت قميناً الا يغمطوك حقك من ثنائهم .

لا يخلو المرء من صفة تستجاد فيه فاعرف كيف تستخرج فوائده وتفيد من صفاته .

دامت دولة بني العباس بضعة قرون مع ظهور الضعف في كيانها منذ القرن الاول وذهبت دولة بني أمية بسرعة عجيبة على ما كان لها من اسباب القوة .

من بدأ حياته باعتقاد الخرافات لا يبلغ الشيخوخة حتى يكون مجموعة خرافات فاسأل الله السلامة من مداناة صاحبها .

لو أنكر كل عالم خرافة أو خرافتين ما بقي في العامة شيء يصح ان يطلق عليه اسم تخريف .

لو عريت معظم كتبنا القديمة من بعض ما شحنت به لظننتها مما كتبه أرقى علماء الغرب في هذا العصر .

ليس من شيمة الشريف أن يشمت بمصائب من لا يحبهم فالشماتة خلق الادنياء .

لو قام كل بواجبه في هذه الجمهورية الصغرى لعدت في ستين سنة في عداد الدول الكبرى .

مما جلب الويلات على الشرقي احتقاره كل شيء .

لو كان عمل العربي اكثر من ذكائه لما اضاع ملكه وانحطت حضارته .

من لم يتعارف اليك يوم عزه فان من حقك ان تبتعد عنه ايام ذله .

من خفة العقل ان يتكبر من صار له مال او جاه فالعاقل في هذه الحالات يزيد تواضعاً لاحتياجه الى الاستكثار من الانصار .

من اراد ان يعد في الحمير فليتكبر ما شاء .

مما اخرنا عن اللحاق باهل الحضارة الحديثة ان كل انسان يعفي نفسه من الواجب عليه ويلقي على غيره كل التبعات .

لو امكن البشر حذف وجبة واحدة من طعام كل يوم لسقط معدل عمله الى نحو الثلث .

الشدة في الاصلاح

من يعد نقد الاخلاق بما لا يروق المنتقدين غيبة وتغييباً هو ولاشك من الجاهلين بما تصلح عليه المجتمعات وتفسد . ومن حكمت عليه حنبليته بالسكوت عن النقائص لايجوّز ان يقدح بمن يجب القدح فيه فهو ارتجاعي معطل يسره ان يرى قومه في عماية وغواية . وضالّ مضلّ لايدرك حكمة الأديان والشرائع من يحبب الفوضى الى الخلق ويحاول ارجاعهم الى الجاهلية الاولى ، وترك كل واحد ومايختار يكذب ويسرق ويعتدي ويرتكب الموبقات عامة . وبعد فماذا كانت حال الانسانية ياترى لولاخوف الضعيف من القوي ، وخشية الشقي من سلطانه ، وحذر المتلاعبين من كشف مساويهم . لاجرم أن من يذهب الى اقرار كل أحد على هواه يعد مشعبذاً مخرقاً .

دونا في هذه المذكرات بعض آراء في الاصلاح استدعاها المقام ، معتقدين انا لانصل الى تزيين الحسنات الا اذا حللنا السيئات بكل ما فيها من قبح وشناعة ، وانحينا على من يعبث بحقوق الجماعة اعتقاداً منا بان ذلك اللص الذي دللنا عليه لو كان عمله لايتعدى الا نفسه لطويناه على غره ،

اما وسيئاته تتناول الامة فنحن لانبالي بمن يجادلنا فيما لاسبيل الى الجدال فيه ، وشأننا معه شأن الجراح يقبض بيده على المبضع يشق الجرح النغّار لا تأخذه شفقة بصاحبه أو يخرج من جسمه المادة القتالة .

واي سخف اعظم من سخف من يريدنا على ان نعد الحق والباطل سواء ، ونلزّ الصالح والفاسد في قَرن واحد ، ونحن نعتقد انه لن يستوي الاصلاح على ساقيه ان لم يضرب المخربون على رؤوسهم بالمعاول الثقيلة .

تأذى بعض من وجهنا اليهم كلامنا بتلاوة ما كتبنا ، وما استطاعوا ان يردوا على ما غاظهم من فضح سيئاتهم ، وتململوا وتهامسوا بينهم لهذه الحرية التي كشفت بها اسرار من كانوا يطمعون في ان يسكت عنهم . وحاول بعضهم ان يرد علينا فيما كتبناه في بعض الصحف الرصينة فقال له صاحبها ان مؤلف المذكرات نشر كتابه باسمه فهل انت مستعد ان تزيل باسمك النقد عليه ؟ فقال : لا

ولم يرض بعض السياسيين خاصة عن بعض ما كتب لانهم في العادة يؤثرون التمويه ويتعلقون بالكتمان ولا سيما فيما فيه تجريحهم ، وقد عري بعضهم من صفات الخير . ولقد ودّ بعض الاذكياء لو صرحنا باسماء من عرضنا لهم ، وهذه الطريقة غير مفيدة لانا نقصد بما كتبنا العبرة والتعليم لاالتشفي والتشهير. وفي طي الاسماء شيء من الحكمة رحمنا به من سددنا الى عيوبهم سهامنا ، وحملنا اليهم ما يرجى منه لهم بعض الصلاح .

وترامى الينا وهذا ما كنا نرجوه أن أبناء التربية الحديثة من الشبان المتعلمين هللوا لما وقفوا عليه هنا من أفكار قلما عهدوا احداً يجسر على تدوين مثلها ، وترنموا ان رأوا حملتنا صادقة على الظالمين والمخربين . والمقصود على كل حال فائدة الناشئة ، اما من دب الهرم في أجسامهم وعقولهم فاكثرهم لا يرتاحون الا الى من يزين لهم ما أتوه ، وان كان من القبح بمكان لا ينكره عاقل .

ربما وقعت لنا هنات كان الأجدر ان يسلم منها كتابنا ، وما السبب فيها الا بعض من ادلوا الينا بمعلومات وَهِموا فيها ، ومن ذا الذي عصم

من الخطأ ، والاجتهاد يختلف في الحكم على من اشتركوا في معاناة المصالح العامة اختلافه في انصافهم على ما يوجب الحق ، ويكفي المؤلف وهو يفيض ، في مسائل متشعبة ، ان يحمل الى قرائه ما خبره بنفسه .

مضت اجيال ما كان ارباب المدارك يجسرون فيها ان يقولوا شيئاً في انكار الظلم ولا ان يذكروا الفاسدين باللسان ولا بالقلم لابالتصريح ولا بالتلميح ولو قيضت للامة طائفة تحسن السلوك الى طريق الاصلاح ما ظهر اليوم من يستحل الاغضاء عن السيئات ، ومن اجل هذا لا نكاد نجد مؤلفاً اجرى قلمه بهذه القسوة ، ومنهم من فضل التقية على مضض مخافة الا يظفر بناصر يحميه ، والقانون قد لا يرد عنه اعداء الحرية .

ربما قال من دأبهم الاعتراض على كل شيء ، والاستهانة بكل وهل يستحق انكار ماتنكرون كل هذه الولولة ، والعارفون في كل قرن ماقصروا في تقويم المعوج وما انجلت حملاتهم الا عن نتائج ضئيلة . الامر كما قلتم ايها السادة ومن ادعى ان كل حق يظهر اثره حين الدعوة اليه ، وقد لاتجنى النتائج بقدر ماقدر لها ، واذا نفذ بعض هذا الكلام عدّت الدعوة ناجحة . اما نحن فواجبنا ان نجهر بما نوقن نفعه وليس علينا ضمان النجاح ، كالطبيب لاينقطع عن مداواة مريضه ولوكان الأمل في شفائه واحداً في المئة .



فهرس الجزء الثالث

من المذكرات



محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الرابع

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
« المتنبي »

١٣٧٠ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٥١ م

السياسة في مصر

قال لي أحد أصدقائي من أعيان المصريين وعلمائهم يوم نالت مصر استقلالها ببعض القيود : ليت من منحونا هذا الاستقلال تريثوا عشر سنين أخرى ريثما تنضج تربيتنا السياسية ونستمد الاستعداد المطلوب .

رأي قد يستشم منه بعضهم رائحة الغرام بحكم الأجنبي ، وليس قائله ممن يرمى بانحلال الوطنية وقلة العلم والمعرفة ، وغاية مايوجه اليه أنه لم يمارس السياسة العملية ، وان علمه كان أقرب الى الكتب والدفاتر منه الى درس التقارير والأضابير ، ولعل حكمه هذا منبعث من معرفة النقص في اخلاق بعض مواطنيه وضعف تركيبهم السياسي يوم اعلان الاستقلال .

كان صاحبي يعرف أن الاستقلال يتقاضى مصر جهداً حتى تعتاد الحياة النيابية ، وتتذوق طعم الحكم الدستوري ، ذلك لأن الأمية كانت غالبة على القطر ، ويبعد اليوم الذي تزول منه ، ومع الأمية يتعذر تطبيق الأساليب الحرة في الحكم . وكان يعرف الى هذا أن بعض من كانوا يتولون الأمور من المصريين قد أفسدهم حب الانتفاع من الغريب ومصانعته حتى أصبحوا فئة لاتؤمن على شيء . أما الفريق المتفائل فيدرك أن النقص لا تسلم منه حتى الأمم العريقة في الحكم النيابي ، ولا بدّ من مرور زمن حتى تنشأ طبقة راقية تعرف ما لها وما عليها .

بعد أربعين سنة قضتها مصر في نزاع شديد مع المحتل لم يسعه الا أن يحلّ وثاق المصريين ، فأصدرت بريطانيا العظمى التصريح المعروف بتصريح ٢٨ فبراير (١٩٢٣) واشترطت فيه أن تبقى مسيطرة على طرق مواصلاتها ، وهي تدفع عن مصر كل اعتداء أو تدخل أجنبي ، وتحمي مصالح الاجانب وتحتفظ لنفسها بالسودان ، وبذلك رفعت الحماية عن مصر فأصبحت دولة مستقلة ذات سيادة .

وظهرت مصر في عهدها الجديد بمظهر من التعقل ، وسنت لها دستوراً اقتبسته من أحدث الدساتير ، وأخذت ترتب أمورها وتلمّ شعثها ، وبدأ صوتها يسمع في الاندية السياسية ، وأثبتت في مواطن كثيرة استعدادها لممارسة الحكم بدون مراقبة أجنبية ، ونبغ فيها رجال يدركون كساسة الغرب ، كيف يطالبون بحقوق أمتهم ، وأتقنوا في حقبة قصيرة ما تعلمه رجال الغرب في الزمن الطويل .

وما كان هذا الاستقلال محض منحة تفضلت بها انكلترا على مصر ، بل كان فيه شيء من معنى الرجوع الى الحق ، واعطاء وادي النيل بعض مطالبه . وما فتىء المصريون منذ سنة ١٨٨٢ ، وهي سنة الاحتلال ، يطالبون بحرية ديارهم ويغلون الثمن في الوصول اليها ، يلحف أعاظم رجالهم في تلمسها بالطرق القانونية فيسجنون ويشرّدون ويغرّبون ويعاملون معاملة اللصوص والقتلة لا معاملة وطنيين شرفاء يطالبون بفك أسر بلادهم من يد المعتدي عليها . وعلى كثرة ما لقي رجال مصر من عذاب السلطة المحتلة ما يئسوا ولا أحجموا واستسهلوا كل صعب في سبيل تحقيق امانيهم . وكان الشباب يؤلفون الجمعيات السرية وينوعون أساليب الدعاية لانقاذ وطنهم ، وكثير منهم تركوا مدارسهم وما عادوا اليها فساء مستقبلهم ومستقبل بيوتهم في سبيل مصلحة بلدهم . وقام معظم الطبقات بدعاية واسعة في الصحف والمجتمعات والأندية في مصر وخارج مصر ليقنعوا العالم بعدالة مطالبهم . ومن لم يخدم مصر بقلمه وجرأته وخطبه خدمها بماله . فأنفقت في هذه السبيل ملايين من الجنيهات ، والقوم يعتقدون أن كل مابذلوه هو بعض مايجب عليهم . واشتركت في هذا الجهاد الأكبر جميع طبقات المصريين ومنها النساء المثقفات وبنات السراة .

وكانت مصر تثور من حين الى آخر ، وتجهر بالذي تثور من أجله ، وتقدم أعزّ الضحايا من زهرة أبنائها ، ويظهر الشباب المثقف ، وبعضهم من أبناء النعيم أهل الرفاهية والغنى ، بمظهر من الوطنية يفاخر به . وكان من أبناء تلك التربية الناعمة من يغتالون كل مصري وقع في

نفوسهم أنه يخون قضية مصر ، كما يغتالون بعض رجال الاحتلال ممن يعتقدون أن في اهلاكهم عبرة لغيرهم ، حتى ترجع دولتهم عن تشددها في اعطاء مصر حقها .

واستعمل الانكليز أقصى الشدة لصد المصريين عن المضي في مطالبهم ، وبينما كان الوطنيون عزلاً من السلاح كانت الحامية تطلق النار على الشعب فيتلقاها بصدره صابراً محتسباً . وما حدث في ثورة سنة ١٩١٩ وفي غيرها من الثورات كان برهاناً جلياً على أن الانكليز يقمعون ثورة من يناصبهم العداء بشدة بالغة لا هوادة فيها . وقد استعمل الثائرون المصريون العنف في أكثر مظاهراتهم . وتحملت الحكومة المصرية الغرامات الباهظة لمن قتلوا من الانكليز ، فخسرت مصر من مادياتها وربحت بمعنوياتها ربحاً أظهرها أمام الأمم الراقية في مظهر أمة متمدنة لا تنام عن حقها ، وتفادي بكل عزيز للابقاء على وطنيتها وقوميتها .

لا تنجح الثورات على الاكثر ، فثورة عرابي أخفقت لأنها أسفرت عن احتلال الانكليز مصر ، وثورة سنة ١٩١٩ نجحت لأنها أدت الى تصريح ٢٨ فبراير . وكان في مطالبة مصر باستقلالها اعتدال وكياسة ، يراوح المفاوضة مع المحتلين أناس ان اختلفوا في أحزابهم فما اختلفوا في تحقيق غرضهم الشريف وهو خلاص وطنهم من يد الغاصب . دأبوا على المطالبة وما فترت لهم همة ، وكانوا أحياناً يعلقون على الزمن تحقيق رجائهم في حل مشكلتهم المعقدة . وكان منهم من يتلطف في الطلب ، ومنهم المتشدد في شروطه ، ومنهم من كان في حالة بين بين . وكلهم يطالب بالجلاء ، وهو مدرك أن خصمه ضخم لا سبيل الى استخلاص شيء منه بالقوة ، وكان المفاوض المصري اذا لم يصل الى ما يريد من المفاوض البريطاني يحوقل ويسترجع ولا يقطع أمله من بلوغ بغيته بمعاودة المفاوضة .

كانت حجة البريطانيين في مشروعية الاحتلال اعادة الأمن الى نصابه ، وتوطيد عرش الخديوي ، والاشراف على ديون الدول ، وكانت بلغت سبعة وتسعين مليون جنيه ، منها ماهو لانكلترا . وكان الانكليز من أول

يوم يدعون أن احتلالهم موقت ؛ ولكن طال أمد هـذا الموقت حتى صدق فيه المثل الافرنجي « لاشيء يدوم كما يدوم الموقت » .

وفي الحق أن هذا الاستقلال الناقص أسفر عن فوائد عظيمـة لمصر ولغيرها فأصبحت تقدم وتؤخر في سياسة الشرق الأدنى ، وكان لهـا الشأن الاول في جامعة الدول العربية السبع (مصر وسورية ولبنان وشرقي الاردن والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن) .

ومن الطبيعي ان تكون الصدارة لمصر بين الدول في هذه الجامعة ، لألفها النظام منذ عهد محمد علي الكبير ، ولأن لها من أرضها ما يضمن لها القوة ويمتعها بالحياة على ما تتمتع بها الممالك الكبرى ، ولأن أهلها كانوا من أسبق الأمم العربية الى معاناة السياسة والأخذ بالمدنية الحديثة ، ولان لها مركزاً ممتازاً بين الممالك العربية ، وتعد لاعتبارات كثيرة برزخاً بين المشرق والمغرب ، وهي بمجموعها أرقى الممالك العربية وأكثرها سكاناً

واذا لم توفق مصر حتى الآن الى تحقيق رغائبها في الاستقلال الكامل فما ذاك لقصور منها في اتخاذ الاسباب ، ولا لضعف في سياستها ، وما السبب فيه الا أن الانكليز يخافون ان رفعوا القوة العسكرية من الترعة وردوا السوادن للسودانيين والمصريين ، أن يكون من ذلك اختلال مواصلاتهم . وأصحاب السلطان في مصر يؤكدون أن جيش مصر قادر على حماية الترعة من كل اعتداء أجنبي .

ان ما خافه صاحبي الحصيف على مصر في طورها الجديد لئلا تسقط فيما لا تحمد عقباه هو اجتهاد منه ساقه اليه اعتقاده بأن ما سيجري قد يحمل خيراً وشراً . وهو يتفادى الشر ولا يحب مناجزة دولة لا يصطلي بنارها . أما مصر فما أغمضت عينها عن هدفها الأسمى منذ ثماني وستين سنة الى يوم الناس هذا ، وتتحين الفرص لمطالبة انكلترا بوعدهـا الذي قطعته على نفسها بالجلاء التام ، وامتاع مصر باستقلالها الحالي من كل قيد .

عتاب أحباب

عتب علي الاستاذ ماسنيون لطعني في المذكرات باستعمار فرنسا ، ونعيي على ظلمها المسلمين في شمالي افريقية ، وعجب أن ختمت صداقتي مع دولته بهذه الحملة المنكرة التي ما كانت تتوقع مني . وأنا أيضاً آسف أن يضطرني ظلم الظلمة الى استعمال هذا اللسان مع فرنسا ، خصوصاً وأنا أحبها ، وأحب شعبها ولغتها وأدبها وعلماءها ، ولي منهم أصدقاء أباهي بمحبتهم ، ولا أنسى لطفهم ووفاءهم ، وفي مقدمتهم العلامة ماسنيون .

وأنى لي أن أختار السكوت عن أعمال الفرنسيين في بلاد الاسلام ، والعالم المتمدن ، ومنهم بعض أهل فرنسا ، تألموا يوم ضرب جندهم دمشق ، وخربوا دار ندوتها ، وكانوا تحينوا وقت انعقاد مجلس النواب فقذفوه بحممهم ليقضوا على المجلس ومن فيه ، دع ما أتوه من الفظائع في سائر مدن هذه الديار ، وكل ذلك ليكرهوا سورية على قبول معاهدة تنافي مصلحتها . ولا أعرض هنا لما ارتكبه جيشهم في الثورة السورية ، فقتلوا الابرياء في بيوتهم وحقولهم وفي الشوارع والساحات ، وخربوا بقنابلهم وقذائفهم جزءاً مهماً من مدينة دمشق ، ودكوا كثيراً من معالمها التاريخية ودمروا قراها وأريافها ، فكانت الخسارة عظيمة لا تعوض .

سار الفرنسيس في حكمهم المسلمين على خطة واحدة في الظلم ، لم يغيروها منذ هبوا يعتدون على الشعوب الضعيفة ، يزهقون أرواح السكان بلا رحمة ، ويستصفون أرضهم بغير الحق ، ويمنعون التعليم عنهم ليبقوهم بهائم في صور آدمية . ومن هنا أتت كراهية المسلمين للاستعمار الفرنسي ، ولعنهم زبانيته في السر والجهر . ومتى أحب المظلوم ظالمه ؟ ومتى صفا قلب المستعبَد لمستعبده ؟

خالفت فرنسا في الجزائر أبسط قواعد الانسانية ، منذ وضعت قدمها فيها ، وكانت سياستها من أول الفتح الى أن خضع لها القطر خضوعاً كاملًا تدور على نزع الأملاك من أصحابها ، واعطائها من لا يحسن استثمارها من الفرنسيين ، ارتكبوا لتحقيق هذا الغرض من انواع الظلم ما ترتجف الأقلام من كتبه .

وما أتاه الجنرال بلييسيه من اهلاك قبيلة بنسائها وأطفالها حرقاً بالنار داخل الغار الذي التجأوا اليه ، يشبه ما أتاه الجنرال اوليفاروجه في دمشق يوم ارتحالهم عنها في العهد الاخير . حقائق لا يجهلها السيد ماسنيون فيما أحسب ، وليس هو بحمد الله من المكابرين .

وما قول صديقي أيضاً في آخر وقعة لمستعمري أمته في الجزائر وهي الفتنة التي دكوا فيها احدى وأربعين قرية (تموز ١٩٤٥) لاتهام أهلها بقتل بعض الأوربيين ، فأهلكت السلطة في الحال ستين رجلا من سكانها رمياً بالرصاص ، انتخبتهم على ما اتفق بلا تحقيق ولا محاكمة ، ودمرت قراهم بالطائرات من الجو والوحدات البحرية من البحر ، وقدر عدد من قضوا بهذا الطيش الاستعماري من ١٢ الى ١٥ الف (وفي رواية ٢٥ ألفاً) هذا اذا فرض أن نصف السكان اعتصموا بالجبال (ص ٧٣٧ ج ٣ من المذكرات) .

رأى المستعمرون في هذه العقوبة الجائرة فرصة لابادة جانب من الجزائريين ، ولو كان مقصدهم التأديب واحقاق الحق لسلموا المتهمين الى القضاء وأخرجوا الفاعلين من بين هؤلاء الألوف من الأبرياء ، ولكن الاستعمار الفرنسي قام في كل عصوره على الظلم ، وليس مستعمرة القرن العشرين في بغيهم أقل من مستعمرة القرون قبله .

وآخر ما نقله الينا البرق من أخبار استعمارهم الممقوت ما كان يوم ٣٠ حزيران ١٩٥٠ في تونس وقد أدى سمو بايها صلاة الجمعة في المسجد الكبير فاجتمع المسلمون يحيونه ويطالبون باستقلالهم ، فما كان من السلطة

الا أن أمرت الحامية بمهاجمة المسلمين داخل المسجد وخارجه ، وأخذوا يقذفونهم بالقنابل المسيلة للدموع ، ثم انقضوا عليهم بمدافعهم الرشاشة فسقط مئة وعشرون قتيلا ، عدا الجرحى ، في باحة المسجد وأمام بابه وفي الساحة الواقعة أمامه ، وصرع عدد من النساء والاطفال برصاص مسدسات الجند .

ومن غريب ما أتته حكومة تونس المستعمرة في تطاويس ابلاغها مؤخراً قبيلتي الطرائفة والمخالبة وجوب قلع اشجارهم واخلاء أراضيهم المجاورة لليبيا ، واعتقلت أئمة المساجد واكتظ معتقل تطاويس بالوطنيين الابرياء ويجري الآن تعذيبهم والتنكيل بهم ، واجبارهم على الاعمال الشاقة وحمل القذارات ويتركونهم بدون طعام .

أدون هذا والجيش الفرنسي المحتل في مراكش يضرب بمدافعه وقنابله أبرياء المراكشيين ، وسلطانهم شبه معتقل ، وقد سلب حريته وحيل بينه وبين رعيته ، لان امته طالبت باستقلالها . ويكفي ان يجري اسم الاستقلال في الألسن حتى تزهق أرواح المئات والالوف من الوطنيين . والى ساعة نشر هذا الفصل لم تعلم حقيقة ماارتكبه المستعمرون من ضروب الهمجية والقتل الذريع . وقد سبق لهم في شهر نيسان من سنة ١٩٤٧ أثناء زيارة السلطان محمد الخامس مدينة طنجة أن أطلقوا مدافعهم الرشاشة فحصدت ٥٦٣٠ من أهالي البلاد . نعم ٥٦٢٠ قتيلًا . ولو أحصي من قتلوا في هذه الاقطار الثلاثة المنكوبة بالاستعمار الافرنسي لبلغوا ألوف الالوف .

فما قول السيد ماسنيون بهذه الفضائح التي لا تزال تتكرر في مستعمرات جمهوريته . وكثيراً ما شاهدت عقلاء فرنسا أنفسهم ينتقدون هذه السياسة فكيف بي ان امتنع عن الحملة على رجال الاستعمار وقتلهم أبناء جنسي .

واني لأعتقد أن ما كتبته في هذه « المذكرات » ، وفي « الاسلام والحضارة العربية » ، وفي « القديم والحديث » ، في موضوع استعمار القوم ، يوافقني عليه ثلاثة أرباع سكان فرنسا ، ولا يتحرج المنصف منهم من القول ان معاملة المستعمرين جماعة المسلمين هو العدوان المستديم والظلم الذي قلما

شهدت البشرية أفظع منه . وان استبداد فرنسا في الجزائر ثم في تونس ثم في مراكش كان من أشد ما عهد من ضروب الاستبداد ، وما كان لأمة أفحش جيش اعدائها القتل فيها أن تتناسى سيئاته ، لأن فيه بعض قواد فطرت قلوبهم على الرحمة ، وما وقع على المغلوبين من حيف لم يصدر عن رأي الرحماء منهم .

أحسن علماء فرنسا للانسانية ، ورجال الاستعمار من أبنائها أساءوا لأهل الاسلام خاصة ، ولكل بلد شرقي دخلوه عامة . حقيقة لا ينازع فيها منصف . وأنا اذا لم أغضّ الطرف عما ارتكبه أهل ديننا الأتراك من ظلم العرب مدة استثمارهم أرضنا وكتبت في « خطط الشام » وغيره من تأليفي ما يجب على المؤرخ تدوينه ، فمن باب أولى أن أنكر ظلم دولة لاتربطني بها رابطة جنس ولا دين ولا لغة . على أني لم أتلكأ في هذه المذكرات أيضاً عن الاقرار بجميل الدولة المنتدبة في انهاض سورية ، ذكرت حسناتها يوم أحسنت ، وعدت عليها باللائمة عندما أساءت ، وما باليت بحنق أرباب المدارك من السوريين ، نوهت بالجيد من أعمال فرنسا أيام انتدابها على ديارنا ، وفي سبيل القيام بالواجب لم أعبأ بغضب من غضب ، وجادلت من جادلني فيما أعتقدت صحته ، لعلمي بأن في السكوت عن حسنات المحسنين غمط حق وانكار جميل ومدرجة الى امتناع المحسنين عن العمل الصالح .

وما أخال عزيزي ماسنيون وسائر أحبابي من بني قومه الا عاذرين لي على النهج الذي انتهجته في تقرير الحقائق التي لا يروق أحباب الاستعمار التصريح بها . ولو كان أحدهم في مكاني لجرى على طريقتي ، ولو أغضب عشرات الألوف من الناس . وعلى الناقمين علي في مجاهرة المستعمرين بما جنت أيديهم ألا ينسوا أني عربي وتهمني مصلحة العرب قبل كل شيء .

قرد هياء

ذكرت جريدة « اخبار اليوم » أن وزارة الخارجية المصرية طلبت الى وزارة خارجية فرنسا السماح لها بانشاء قنصليات في طنجة والدار البيضاء وغيرهما من بلاد المغرب الأقصى وتأسيس مدارس مصرية هناك ، وأن الحكومة الفرنسية لم ترد على هذا الطلب ، وأنه عرضت على المؤتمر الديبلومامي بالقاهرة مذكرة تضمنت اقتراحاً يرمي الى التهديد باغلاق المدارس والقنصليات الفرنسية بمصر في حالة عدم تحقيق طلب الحكومة المصرية في مراكش . وذكرت هذه الجريدة أن القسم المغربي لمجلس شورى الحكومة ، وهو أحد مجالس البرلمان المراكشي ، دعي للاجتماع لاستماع بيان الحكومة عن التعليم ، فوجه أحد الاعضاء الوطنيين سؤالاً الى الجنرال جوان المندوب السامي الفرنسي في مراكش عن سياسة الحكومة في التعليم وموقفها من العون الثقافي الذي تستعد مصر لتقديمه الى المغاربة لانشاء مدارس مصرية ومراكز للثقافة العربية ، فرد المندوب السامي الفرنسي على ذلك بقوله : يسوءني أن تظل فئة من المغاربة تنظر الى مصر والدول العربية مثل هذه النظرة ، ويسوءني أيضاً أن تنتظر مراكش عوناً ثقافياً من هذه الدول في حين أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون . فالمغاربة اذ يلتمسون العون من الشرق يتجاهلون أن المغرب أكثر رقياً وثقافة من مصر ، وان الاتجاه الى الشرق هو أكبر خطأ ترتكبه المغرب ، ويجب أن تتجه الى أوربا بدلاً من أن تتجه الى افريقية والقاهرة .

وقد ردّ العضو المراكشي على ذلك بقوله : ليست هذه أول مرة تحاول فيها فرنسا المقارنة بين مراكش ومصر والتعريض بالعرب ، فقد سمعنا شبيهاً لهذا الكلام من مندوب فرنسا في مجلس الوصاية . ومضى

يقول ومصر التي يحاول المندوب السامي الفرنسي أن يوهمنا بأنها دوننا ثقافة قد أنشأت خلال عشرين عاماً أتت عليها في الحرية أربع جامعات وأعلنت مجانية التعليم الثانوي والابتدائي بينما لا تزال أمنيتنا الغالية ان نستطيع اقناع الحكومة بانشاء لا أقول جامعة او كلية ، بل مدرسة ثانوية نوفد اليها أبناءنا . وختم العضو كلمته بقوله : أما الى اين نتجه الى الشرق أو الى الغرب فأمر قد درسناه واذعناه . لقد قلنا اننا من الشرق والى الشرق سنتجه ، ونحن عرب والى العروبة ننتسب . وهدفنا الذي يعلمه المندوب السامي هو الاستقلال والانضمام الى الجامعة العربية .

هذا منطق ممثل فرنسا الاكبر في المغرب الأقصى وجواب احد ابنائه عليه . وهذه السياسة في تعليم المراكشيين هي عين السياسة التى اتبعتها فرنسا في كل بلد اسلامي احتلته . وكلام مندوب فرنسا في جلسة مجلس الشورى المراكشي كلام من يحاول انكار الحقائق الظاهرة ، ومن لايخجل من التصريح بالكذب على رؤوس الاشهاد ، والف برهان يكذبه . مراكش ارقى من مصر ؟ هذه دعوى من اسخف ما سمع ، لا يقول بها عاقل. وكيف تدعي بلاد ليس فيها ، بعد احتلالها اكثر من اربعين سنة ، مدرسة ثانوية واحدة ، انها ارقى من مصر ؟ وبعد فانا كلما اردنا تجنب الكلام عن سياسة فرنسا مع المسلمين في هذه المذكرات ترانا مدفوعين بعامل انساني وقومي الى تزييف خططها ونقد مناهج سياستها ، ونعتقد اعتقاداً جازماً ان الكذب الذي يجري على السنة رجال الاستعمار وفي صحفهم كل يوم لايأول بغير احتقار العالم والعبث بالحق جهاراً . ان مصر على ما رأينا مصرة على فتح مدارس لها وقنصليات في أرض مراكش فاذا لم تجب الدولة المحتلة على هذا الطلب المعقول تغلق مصر المدارس الفرنسية في وادي النيل . وما دامت فرنسا تحتفظ بطريقتها السقيمة في استعمارها على حين تخلت أكبر دولة استعمارية وهي بريطانيا العظمى عن الاستعمار ، ما دامت على ذلك وهي عاجزة عن المحافظة على السلام في مملكتها الأصلية أني لها أن تدبر ممالك عظيمة كالجزائر وتونس ومراكش تخالفها في جنسها

ودينها ومدنيتها ، وهي لم تر من ساستها منذ احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠
سوى الشر والضر .

هذا وقد وافقت حكومة اسبانيا على انشاء معهد الدراسات الاسلامية في مدريد عاصمتها كما وافقت فرنسا على انشاء معهد اسلامي في طنجة وهي منطقة دولية حرة من أرض مراكش وليست منها في العرف الدولي وبقي طلب مصر عند هذا الحد .

لا تأليف ولا نشر

تحدثت الى صديق صرفت معظم حياتي معه في نفاد المطبوع من أكثر كتبي ووجوب اعادة طبعها ، وضعف الوسائل الآن الى تحقيق هذه الأمنية . فكان رأيه أن من كتبي ماحفظت نسخ منه في الخزائن العامة والخاصة ومتى مست الحاجة الى تكثير أعدادها في الأيدي يتقدم من يطبعها . والأولى فيما أؤلفه من جديد ألا أتكلف طبعه ، وأبقيه في مسوداته ليطبع بعدي . هذا ما ارتآه الصديق العالم ، وهو يقصد بما يقول راحتي من عناء النشر ، بعد أن تعبت في التأليف . قال : اني قمت بما يجب عليّ من هذا القبيل ، فالأجدر بي الاكتفاء بما ألفت وطبعت وهو كثير .

وقال لي صديق قديم عرف الأيام والناس أني وفقت بما وضعته من الكتب واستحسنها من وقعت اليهم وقرأوها وانها انتشرت ماقدر لها الانتشار ، فمن الخير الآن ألا أفكر في غير صحتي ، والاحجى أن أمتنع عن التأليف بعد يومي هذا .

رأيان لحبيبين عاقلين يعلمان أني لا أقصد من وضع الكتب الا ما أعتقد النفع المعنوي منه . وأنا أرى أن واجبي لا يكمل الا يوم تكمل انفاسي . وثمت عامل طبيعي يحفزني الى المضي في التأليف ،

مادمت أتمكن من مسك القلم ، وأصبر على التحديق في الخطوط التي أخطها ، لأكتب ما أرى فيه بعض الفائدة من تجاربي في الحياة رجاء أن يكون بما أنشر القيام ببعض الواجب ، ولا أكتب لأتسلى أو أنال شهرة أو مظهراً ، وربما كنت امتنع من التأليف ، ويسقط عني التكليف فيه ، لو سمعت أن في المؤلفين اليوم من يعانون ذا الضرب من الكلام الحر .

ولا أمثل لما يدعوني الى معاناة ما أعاني الا بمسألتين صرفت فيهما جانباً من اهتمامي منذ وعيت على نفسي ، وهما الاستثمار التركي ببلاد العرب والاستعمار الافرنسي في بلاد الاسلام ، فقد عرضت لتزييف الاول فاستاء بعض رجال العهد البائد من العثمانيين لطعني بما أتوه هم واجدادهم خلال اربعة قرون في الولايات العربية ، ثم انتهت أيامهم فأصبح ما ارتكبوه في ديارنا من حق التاريخ أن يحكم فيه ، والتاريخ يقضي بالعدل بين الترك والعرب وبين العرب وغيرهم من الأمم . والمسألة الثانية غضب رجال الاستعمار الفرنسي بما أردّده في الأحايين من عسفهم ، ومن مصلحة المستعمرين أن يكتموا عن العالم مايبيتون المسلمين ولغير المسلمين .

أنا الآن لا كلام لي مع الترك فهم اليوم وراء حدودهم ، والعرب يرجون لهم كل خير على ألا يقاوموهم في تأليف وحدتهم السياسية . ولكن الفرنسيين ما برحت أحكامهم نافذة في شمالي افريقية وأوسطها في نحو خمسة وعشرين مليوناً من أهل الاسلام ، فمن الواجب أن أثبت أخبارهم بقدر الامكان . ويدعوني الى ذلك في الاكثر أن العالم العربي في غفلة ، وأهل كل قطر منصرفون الى ما يهمهم فقط . ولم يبلغنا أن أحداً من المفكرين المعاصرين اهتم لما يقع من العظائم في الجزائر وتونس ومراكش ، اللهم الا ما يكتب الحين بعد الآخر في بعض الصحف السيارة من أخبارها المؤلمة ، ويلقى من الغد في سلة المهملات . فأصبح من المتعين علي والحالة هذه أن أُعني بمسائل أحفيتها درساً ، وألا أتوانى في ذكر مصائب اخواني الافريقيين .

قد يكون الخوف من بطش الطغام دافعاً يدفع من يرجى منهم انكار ظلم فرنسا في مستعمراتها الى اهمال هذا الأمر الانساني والقومي . وفي الناس من يدهن الدولة ما دامت قائمة ولا يجسرون على نقد سياستها الا يوم تصبح من الدول المنقطعة او تكاد .

فمؤلف هذه المذكرات اذ يقيم النكير على الفرنسيس في قسوتهم على المسلمين يقوم بواجب ، ويعد نفسه جد سعيد اذا وفق الى اسماع صوته بعض عقلاء الجمهورية الفرنسية ، وهو يقوم بهذه الخدمة حتى الممات لا يبالي بما يعترض سبيلها من العقبات .

رثى لي بعضهم لاتعاب نفسي في معالجة مسائل شائكة كان علي أن أختار السلامة ولا أخوض فيها ، حتى لا استهدف لغضب الدول والافراد ، وأنا ما جوزت لنفسي هذه الخطة الا بعد أن رأيت ما رأيت من تخاذل الامة العربية ، ويعد في تخاذلها سكوت القادرين على الكلام من أهلها في انكار ظلم المسلمين في شمالي افريقية ، ومن آثار تفاشل العرب ضعفهم البادية اعراضه مما كان منه سقوطهم من أنظار أعدائهم ، والسكوت موت أو ما يشبه الموت ، وأعداء العرب لا يطلبون منهم أكثر من هذا .

التمويه البارد

اتضح للسوريين أن رجال الكتلة الوطنية او الحزب الوطني ، وفي خواتيم امرهم خاصة ، ما اتوا الا ما فيه نفعهم على الاكثر ، وانهم تمادوا في الانتقام من خصومهم بما لا تكاد ترتكب مثله حكومة مع معارضيها . ولا ادري بعد ان ظهرت سيئاتهم للعيان كيف يقنعون الامة بأنهم نفعوا الوطن ثم يحاولون الرجوع الى الحكم بالمؤامرات والثورات والمظاهرات ، على حين ظهر للعدو والصديق انهم قلما شرعوا بأمر نافع وأتموه ، وانهم ما أهمهم تخفيف كربة الرعية وتحسين حالتها الاقتصادية والاجتماعية ، وكانوا الى الغبطة ما غرقت بيوتهم في النعيم ، ويعدون من القوة أنهم يهيجون الشعب كلما بدا لهم ، ويغلقون الحوانيت ، ويعطلون المتاجر ، ويلقون المملكة في هرج ومرج فتسوء سمعتها في الخارج وتتأثر اقتصادياتها

أتت الكتلة الى الحكم وفي خزانة الدولة نحو مئة مليون ليرة سورية من الوفر فانفقتها باسراف في أعمال غير مثمرة ، وكانت واردات الدولة عظيمة في ايامهم فصرفوا قسماً جسيماً منها فيما لا يجدي على الرعية ، وتركوا على الجمهورية مائة وخمسة ملايين ليرة ديناً . وكانوا مدة حكمهم يتلمسون طرق التبذير ، وذلك بأن يتعمدوا المبالغة في تقدير الايرادات عند تنظيم الموازنة ليسوغ لهم التوسع في الصرف من اول السنة ، والموازنة في الحقيقة الى عجز ظاهر .

سخيف لعمر الحق من يذهب الى أن معنى سكوت الرعية عن مساوىء حكومة انها راضية عن حكمها . وسخيف من لا يدرك ان من عادة الدهر التحول والتبدل وان كل ما خالف العقل ونابذ الشرع والعدل مقضي عليه بالانهيار في النهاية .

انحلت الكتلة الوطنية لاعتمادها على السفهاء ، واغفال نصائح ارباب التجارب ، وظنت ان كل ما تخالف فيه المنطق ينطلي على الامة ، وان

قوتها تبقى لها لاينازعها أحد ، مادامت السلطة بيدها ، وهي في كل أولئك تظن نفسها مخلدة في الحكم . وكان من رجالها من لا ترضى حكومة بتوسيد المناصب العالية . اليوم لقلة أمانتهم وضعف ثقافتهم .

ولو حللنا حياة البارزين من رجال الكتلة تحليلاً دقيقاً لتجلت للأعين قيمة حزبهم . ويُحكم على الأفراد والجماعات بما تمّ على أيديهم من خير وشر . بلغ أكثر رجالهم سن الشيخوخة ، ومن لم يأت الخير على يده وهو شاب وكهل يستحيل أن يُنتفع به وهو شيخ ، ولذلك رأيناهم لما خرج الحكم من أيديهم طاش سهمهم وراحوا يحاولون أن يعودوا اليه ، وليس معهم من الحق ما يوصلهم الى مايشتهون ، ولا قوة لهم يتأتى الركون اليها الاّ قوة من كانوا يتناولون منهم المشاهرات والانعامات والاعفاءات ، وهؤلاء تخلوا عنهم يوم الشدة وتناسوهم تناسياً ما كان يؤمل منهم غيره .

البدع الضارة .

تعاون الحكومة المصرية شعبها جهرة على الاحتفاظ بخرافاته . ومن ذلك اطلاق الحرية لعاصمتها حتى تحتفل كل سنة بمولد السيد البدوي وغيره من أوليائهم . ويجري في هذا المولد من ضروب الفسق والفجور ومعاطاة المخدرات والخمور ما لا يكاد يقع أكثر منه في المواخير والحانات .

وانه ليسوء أرباب العقول من المصريين وغيرهم أن تظل مصر الى اليوم على ما كانت عليه منذ قرون محافظة على هذه البدع . ومصر من عادتها أن تجمع كل غريب وفيها الاضداد ماثلة ، فهي في آن واحد كهف الشريعة وبيت الدين وموطن البدع والخرافات .

لو كان لي رأي يسمع هناك لاقترحت على الحكومة المصرية ابطال هذه الاجتماعات لما فيها من العار على القطر المصري وعلى المسلمين كافة . وقد يخطر في الذهن أن الحكومة مقيدة بخاطر بعض رجال الدين ممن ربوا في الخرافات ونشأوا وسط البدع فلا تجرؤ على مخالفتهم ، وهم لايفتونها اذا استفتتهم الا بما يعتقدون وان اعتقدوا في باطنهم أنهم يخالفون بذلك روح الشرع مخالفة ظاهرة ، يضاف الى ذلك أن من بأيديهم البت في مثل هذه الامور لم يدرسوا من الدين مايعرفون به مايصح وما لايصح ، ومعظمهم من الصنف الذي لايهتم لغير راتبه ومرتبته .

اخلاق وزير

كان رئيس مجلس الوزراء السيد جميل مردم بك يود لو اهتدى الى حيلة توصله الى اقصائي عن رئاسة المجمع العلمي العربي مدى العمر كما وفق بمعاضدة حزبه ، فأبعدوني مرة عن هذه الرئاسة بضع سنين ، ومابالوا بتعطيل أعمال معهد يخدم العلم والادب ويدعو للعربية والعرب . ولا شأن عند السيد جميل للاضرار بالجماعة اذا كان فيه شفاء النفس من رجل يبغضه من غير ماسبب ، وهو يرى كل نفعه في معاضدة الرعاع لتأثيرهم في أهل الاحياء يوم الانتخابات ولا يأبه لما يقال له علم أو أدب .

والاصل في هذه العداوة فيما أحسب أني لم أقبل اقتراح أصحابه في عدم الاشتراك في وزارة السيد تاج الدين الحسني ، وكانوا وعدوني ان أنا صدعت بأمرهم أن يوسدوا الي يوم يستلمون الحكم رئاسة المجمع براتب ضخم . نعم كان السيد جميل مردم يريدني أن لا أشترك بوزارة السيد تاج الدين ، أما هو فجوز لنفسه وجوز له حزبه الاشتراك في وزارة السيد حقي العظم ، وهذا مثل الحسني انتدابي ومن صميم الانتدابيين . أي أن هذا السياسي المحنك اجاز لنفسه وهو غارق في حزبيته ما حرمه على غيره وهو حيادي مستقل لا حزب له.

وأخذ ابن مردم يتسقط لي العثرات مدة ولايته من غير ان يتظاهر انه مناوىء لي ، على عادته في عدم مجاهرة أرباب المكانة الاقوياء بالعداء ، والاكتفاء بالدس عليهم من ورائهم.

ومن ذلك أنه بعث كتاباً رسمياً الى وزير المعارف يقول فيه أن أعضاء المجمع العلمي العربي يتخلفون عن حضور الحفلات الرسمية وأنهم ماشهدوا الحفلة الاخيرة التي شرفها الرئيس الاول بحضوره ، وأنه يؤخذ على المجمع أنه لم يبادر الى اقامة حفلة تأبين للامير شكيب ارسلان

فكان جوابي أن ليس في قانون المجمع العلمي مادة تكره الاعضاء على حضور كل حفلة تقام في المدينة ، أما تأبين الامير شكيب فقد تقرر أن يستعاض عنه بكتاب يؤلفه احد الاعضاء في سيرته السياسية والادبية ، وهذا الجواب لم يرض بالطبع رئيس الوزارة .

ما كان هذا الوزير يهتم في الحقيقة لغير مصلحته الخاصة لذلك كانت الفوضى سائدة على عهده في معظم الدواوين . وهو في الظاهر على اتفاق مع الرئيس الاول ، وقيل ان هذا كان يرمي الوزير بالانتفاع من منصبه انتفاعاً فيه ما يقال ، الا أنه لايجرؤ أن يفاتحه بشيء ، وكل واحد منهما مضطر الى الاغضاء عن صاحبه في مسائل حتى يغضي هو له عن أخرى . ودام رئيس الجمهورية محتفظاً برئيس وزارته والناس غاضبون حتى ثار الشعب وطالب علناً باقالته ، فقتل أناس في المظاهرات وتعطلت أعمال العاصمة أياماً .

ويقول العارفون ان السيد جميل مردم بك بعد أن كان أضاق قبل الوزارة ، وصدرت عليه عدة أحكام بالحبس أو أداء ماعليه لارباب الديون استفاد من منصبه ووفى ماعليه في برهة قصيرة ، وعاد يقول في مجلس النواب وقد عرضوا له بما يرتكب في حكومته من التلاعب : « ماذا أعمل وقد خلقني الله غنياً » وفي الحق انه اثبت غناه بما اقتناه في مصر بعد خروجه من الوزارة من اطيان وأسهم شركات وعقارات .

علو همة

قرأت في مجلة « المعلم العربي » ما بذله صديقي الاستاذ عوض العامري من الهمة في انشاء مدارس جديدة في سورية وما لجأ اليه من الطرق حتى بلغ غرضه من دون ان يزعج الاهلين في جمع الاعانات لبناء المدارس، وبهذه الطريقة الحازمة أنشأ مئتين وخمساً وثلاثين مدرسة في محافظات حوران ودمشق والفرات.

ولقد كنت تفرست فيه هذه الهمة واكبرتها منذ عينته مديراً لمعارف حوران، ولعهدي به كلما قامت العقبات امامه يذللها ببعد نظره وحسن ادارته، ولو وفق العمال الى ماوفق اليه الاستاذ العامري لدخلنا فيما دخل فيه المتمدنون .

ولو كان جميع الموظفين يفكرون في التبعة الملقاة على عواتقهم لما جوزوا لأنفسهم أكل خبز الامة ثم هم لا يقابلونها على احسانها اليهم، ولكن من المأمورين من يرون النجاح في أن يأكلوا ويشربوا وينعموا ويجمعوا، ولا أرب لهم في غير ذلك .



صاحب غريب

جرى تعارف بالمراسلة بيني وبين المسيو لشاتليه مدير مجلة العالم الاسلامى الفرنسية في باريز . وكنت آزرت في صحيفته قليلاً فغدا يعدّني من أحبابه في الشرق .

ولما وافيت بلاده زائراً أكرم مثواي وتفضل وأصحبني بأديب من أصحابه يطوف بي المعالم التي يصعب عليَّ وحدي الوصول اليها في عاصمة الفرنسيين . وجئت أودعه في العودة الى وطني فذكرت له أن من نيتي أن أزور ألمانيا ان تيسر لي ذلك ، فغضب غضباً شديداً لما سمع اسم ألمانيا . فطمنته أني لن أشخص اليها وانما هي فكرة عرضت لي ثم عدلت عنها . فرضي بعد ذلك عني ، وبقي على لطفه معي .

وشأن هذا الرجل غريب ، ووصوله الى مقامات العلماء أشد غرابة . فقد أكد لي بعض المحيطين به من المؤازرين في مجلته أن علمه قليل ، وهو يستكتب العارفين مايقوم في ذهنه أن يؤلف فيه من الموضوعات . وكان في أوليته ضابطاً في الجزائر ، ولم ينشأ نشأة علمية ، ثم تزوج من امرأة غنيـــة ، كان يستعين بمالها على الظهور ، وما زالت به حتى نصب أستاذاً في « كوليج دي فرانس » يحاضر في علم الاجتماع الاسلامي الى جانب محاضرين من أعلام العلماء بالعلوم البشرية .

وأذكر أني أخذت منه كتاباً في القاهرة لم أهتد الى حل طلاسمه ، ولا قدر صاحب لي افرنسي وأديب كاتب أن يحلّ أكثر مما حللت . وبقي الكتاب بلا جواب . ولقد حضرت باصراره عدة دروس له في « كوليج دي فرانس » فما كان لي الا أن أهز رأسي أمام بضعة مستمعين مثلي ، ما اخالهم كانوا يفهمون من درسه أكثر مما أفهم ، وكان صاحبي يحتفل بدروسه ويدعو من يتصلون به الى حضورها ، واستبان لي وهو يتلو علينا درسه من فوق المنبر ان الابهام كان في قلمه ولسانه ، وأن الرجل صنيعة النساء وربيب أموالهن ، وأعظم بذلك قوة في فرنسا وفي غير فرنسا .

الرئيس المهوس

لم أستغرب ماقصه عليّ صديق صادق من أخبار وزير اعتصم بمصر بعد انحلال رئاسته ، وظهوره بمظهر عظيم من البذخ والاسراف ليقيم الدليل على مافشا له من نعمة ، وبصدق فيه المثل «أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها» .

لم أستغرب أن يأدب المآدب الانيقة لمن يعتقد أنهم يعاونونه على الرجوع الى الحكم لعلمي بوفرة ماجناه من مال ، يوم كان السلطان سلطانه . وكان بعض الرؤساء يحتالون على الانتفاع من كل مالا يحل لهم . وكان أحد الرئيسين يشكو الفقر أبداً والثاني يتبجح بدعوى الغنى وكلاهما غير صادق في دعواه .

حقيقة ان المناصب الكبرى تستر بعض عيوب أصحابها ما داموا في الدست ، فاذا ماز ُحزحوا عنه يبدو عوارهم جلياً بلا طلاء ولا غشاء . وتحركت في الرئيسين شهوة الحكم فأصابها مايصيب المحموم من هذيان ، وهيهات أن تعود الثقة لمن كبر في غفلة الدهر ، وأدرك قومه أنه لايصلح الا للتهريج .

ليس الحكم تجارة تقوم على العرض والطلب ، وما الحكم الا ثقة وحظوة من فقدهما كان من العبث تذرعه برجوعه اليه .

موجزات

من اقتصد ساعة من وقته كل يوم ، يصرفها فيما يعود عليه بفائدة ، يتم له في بضع سنين ما يسمو به على الأقران . وقتك حياتك فلا تصرفه الا فيما يفيدك .

مدنية مع فساد قليل أفضل من مدنية ضعيفة فسادها يقل ويكثر .

ليس من الحكمة القضاء على الأوضاع القـــديمة ، والمعقول ادخال الاصلاح عليها فلا جديد بلا قديم يسبقه .

لو عادت عادة مصادرة العمال الى ما كانت في معظم الدول الاسلامية لصلحت حال الحكومات العربية بعض الصلاح .

لا يرجى من الحكم الملكي المقيد ولا من الحكم الجمهوري خير لمن تجري عليهم أحكامها ان لم تكن فيهم شروط الحياة موفورة .

الملوك يشكون رعاياهم ، والرعايا يشكون ملوكهم ، فعلى من يقع القسط الأكبر من الملامة ياترى ؟

متى أصبحت كلمة الفقهاء نافذة في سياسة أمة يخشى عليها الانحلال .

من كان الاستبداد في فطرتهم لايفعل فيهم نصح ناصح ، فقد انتقم المستبدون ممن نصحوا لهم بتغريبهم ومصادرة أموالهم وأحياناً بقتلهم .

عجبت لعامل يظلم عملاءه أيام توليته ، ولا يذكر كيف يدفع اليهم حسابهم يوم تنحيته .

ماذا تكون حالة العالم اذا استولت اليابان على الصين والهند وطبعتهما بطابعها ولقنتهما مدنيتها ؟

رئيس يدعو مرؤوسيه الى الفوضى وخرق النظام أشبه برجل يشترك في نقض أساس بيته .

في قضايا الزوجية التي تعرض بالعشرات على المحاكم الشرعية في مصر والشام صور صادقة من ظلم الرجال النساء ، ومن ظلم النساء الرجال ، ومن تدني الأخلاق في الجنسين .

اشتغل المسلمون بالحديث بما لم يشتغلوا بعلم مثله من علوم الدين والدنيا ، فلما انصرفت الهمم عنه ، وانصرفوا الى علوم القرآن ، اقتصدوا من أوقاتهم واقتصروا الطريق الى الهداية .

انصرفت النفوس عن دراسة علوم الدين ، وكانت تدرس قديماً بعناية فائقة ، وكان الفقه أمس كالحقوق اليوم يرفع صاحبه ويوصله الى السلاطين .

كنت أذهب الى أن العرب لم يبق لهم من المفاخر الا الوفاء والكرم ، وأيقنت بأخَرَة بأن كلا الخلقين صار الى قلة حتى أصبح كهلال الشك لا يكاد يُرى .

لو بذلت العرب في ممالكها الشرقية ما كانت بذلته في عمار الاندلس من الهمة لكان عمران الاقطار الاسلامية اليوم أضعاف ماهو عليه .

تعوّذ الغزالى من نصف فقيه ونصف متكلم ونصف طبيب ، فعلينا أن نتعوذ من نصف سياسي ، ذلك لأنه يفسد أكثر مما يصلح ، وقد تهلك على يديه أمته وهو يحسب أنه يخدمها .

يوم كان الجهل غالباً على الناس كان العَمَلة يتبلغون بما يفضل به

عليهم صاحب المعمل ، فلا يرون لهم حقاً يطالبون به ، ولا مطمع لهم في زيادة أجور تنزع اليها نفوسهم .

قلّ أن عُهد عبقريٌ جدّ أعداء فضله ليحولوا دون ظهوره ، الا أعانوه على انتشار صيته ، وباؤوا بالخزي والخيبة .

بقي الاسلام على بعض نضرته ما كان النزاع شديداً بين الفرق الاسلامية ، فلما ضعفت المناظرات بردت حرارة الايمان .

قد تبدو الكآبة على وجوه بعض الشيوخ لكثرة ماشاهدوا في دنياهم من اقبال وادبار ، وما عانوا من محن وشدائد ، وما قاسوا من علل وأوجاع .

ليت شعري هل استحق المشاهير شهرتهم ، أم كان للزمن والبواعث دخل في استفاضتها ، وما زلت أعتقد أن في الخاملين المغمورين من يوازون المشهورين النابهين ان لم يفوقوهم .

اجتمعت الى علماء وأدباء كانوا بعلمهم وأدبهم دون شهرتهم ، واجتمعت الى جماعة منهم كانوا أعظم مما يقدرهم الناس . تتوقف الشهرة على أمور لا على العلم والأدب فقط .

يطرأ الفساد على البيوت المالكة بعد انقضاء دور الترقي ، وهذا يكون عادة في أيام ملوكها الأول . حُكم محمد علي الكبير في مصر مما يباهى به أكثر من حكم عباس وسعيد .

من توفيق الانكليز أن بعض رجالهم في الشرق اذا غمزوا بعض ملوكه وأمرائه غمزة ، لاتلبث أن ترى من الغد وزارات تسقط وسياسات تتبدل ، وزعماء تنحى أو تقتل ، وحرباً تشهر وصلحاً يعقد .

تحرير ايرلندا من حكم الانكليز مثال من نزع ربقة الضعيف من

أيدي القوي . يأس الشعوب من أخذ حقها من غاصبها خَوَر في العزائم ، ولا يعيش شعب الا اذا اشتد أبداً في المطالبة بحقه ، وبسم لمستقبله وتوقع الخير فيه .

لو توالى ظهور الصالحين في الملوك ماقضت معظم الأمم على ملوكها ، ولما اعتاضت الحكم الجمهوري عن الحكم الملكي ، على مافي الأول من تلتلة وبلبلة .

غلب الانكليز في الحربين العالميتين الأخيرتين بثباتهم أكثر مما غلبوا بسلاحهم .

اذا اعتقدنا كما يعتقد الانكليزي أن كل مافي أرضه ملكه الخاص ، وأن أقل ضرر يصيب أقصى مملكته يعد اصابة له في بيته وملكه ، كنا كالانكليز بوطنيتنا وتربيتنا .

مهما بلغ من حرص حكومة على اصلاح ما تشعث من أحوال من تحكم عليهم ، لا تعدم أردياء يثلمونها ويحملون عليها . ويتألف جمهرة الناقمين ممن حرموا المغانم وطردوا من الخدمة .

اذا رأيت ديواناً يعج بغير المسلمين في هذه الديار ، فأيقن أن رئيسه لا يراعي قواعد الاكثرية والأقلية .

يخطر ببالنا عندما نقوم بشيء من الاصلاح عظم الجهود التي بذلها الغرب حتى بلغ ما بلغ من مقومات الحياة .

اضراب العملة عن عملهم للتهديد ، زيٌّ جديد حدث بتقدم الصناعات ووسعته نهمة أرباب المعامل ، وما نشأت الاشتراكية الا من تجمع العملة في صعيد واحد يعدي بعضهم بعضاً بأفكارهم .

لو كان في بطانة بعض الملوك رجال ينظرون الى مايصلح عليه

ملك سيدهم أكثر من نظرهم في منافعهم الخاصة ، ما كانت حال بمالكرم من التدني على ماتدمع له العيون .

عجبت لمن رفعته المصادفات الى مقام ما كان يحلم به ، فظن الأيام تسالمه أبداً ولا تسير الا على ارادته . ما أشد غرور الزعماء والمتزعمين .

يوم كان للدولة العثمانية أعظم جيش في العالم بمشاته وفرسانه ومدفعيته كانت الامهات في أوربا تخوف أولادها بسليمان القانوني مليك بني عثمان العظيم .

كانت القرون الأخيرة عند مؤلفي العرب قرون الجامعين والمقتبسين ، وان شئت قل السارقين والمنتحلين ، وعصرنا هذا عصر المترجمين والناقلين ، وما كنا في الأول والآخر الا عالة على غيرنا .

ربما لم يصدر في مئة سنة أزيد من مئة تأليف عربي للمحدثين يحمل جدة وطرافة ، ولا يدخل في هذا العدد ماطبع من كتب الأسلاف .

كلما تقدمت أمة في طريق المدنية زادت تطلعاً الى الكمال ، وآية ترقيها عدّها نفسها أبداً مقصرة .

عاشرت ثلاثة أجيال من الأصحاب ، ونظرت ملياً في حياتهم ، فما عهدت أحداً شذّ عن صاحبه في شيء ، جاءوا الى الدنيا فكدوا وكدحوا ، وحزنوا وفرحوا ، وجمعوا وضيعوا ، ثم انصرفوا على غير ارادتهم ، فحزن أهلهم وأصحابهم عليهم أياماً ثم نسوهم .

في الزمن الذي يكتب فيه لتاريخنا أن يدرس تدريساً صحيحاً في المدارس الاولى والوسطى والعليا تقوى الوطنية العربية أضعاف ماهي اليوم .

قال بعضهم هنيئاً لأمة ليس لها تاريخ ، والأولى أن يقال هنيئاً لأمة كان تاريخها مطولاً ومشرفاً كتاريخ العرب .

مادخلت العرب بلداً وخرجت منه الا الأندلس وصقلية ، ذلك لأن الاستيلاء عليها كان غير معقول لبعدهما عن دار الملك .

لو نزع التعصب من القلوب ما عبس وجه في وجه .

لا تشفق على من كان هو السبب الأول في زوال نعمته .

استسهال المضاربات والمغامرات يؤدي على الأغلب الى ضياع رأس المال .

احرص على أن يكون جلّ عشرائك أكبر منك سناً وأوسع علماً واختباراً ، فالمرء يتعلم من الكبير ما لا يتعلمه من الصغير .

قلائل ممن يصدعون بالحق ولايبالون ، فاذا ظفرت بطائفة منهم اجعل منهم عشراءك ونصحاءك ، فعشرتهم تطيب ، ونصحهم ينفع .

تخف وطأة الأحزان بمرور الزمان ، ولولا ذلك لقضى الانسان عمره في سلسلة من الكآبة لايدري أين طرفاها .

من حاول استصلاح كل فاسد كان كمن يحاول ارجاع الثمرة العفنة الى حالتها أول نضجها .

العمى أشكال وضروب ، ومنه عمى المال وعمى الظفر وعمى المنصب ، وأضرّها عمى المنصب لشمول ضرره المصالح العامة .

لا تحتقر القرش الذي تقتصده ، قد تجمع من القروش مبلغاً يعينك على ضعفك في شيخوختك .

لايحتاج الناس الى حكام ولا الى محاكم اذا قام كل عالم بما يجب عليه لتهذيب العامة .

لا تحاول التوفيق بين شيخ وفتاة ، الاختلاف بينهما طبيعي .

من ينشط ولا يثبط يعدُّ من المفضلين على الجماعة .

اذا سئل كل انسان عن ماله من أين اكتسبه يجري توزيع الثروات على نسبة عادلة .

يوم تظهر أسرار الرجال والنساء على جليتها يسوء ظن العقلاء بالصالحين والصالحات .

لولا حب البنين لكفَّ نصف العالم عن التكالب على الدنيا .

يهنأ الخلق عندما تتحقق بعض أمانيهم ويخف ما يقال له التشاؤم .

اذا أتى رزق الانسان بلا تعب يعروه الملل ويصبح في شره أفظع .
همُّ العيش عامل قوي من العوامل التي تسوق الخلق الى الحضارة .

لو لم يكن للعقول هذا التفاوت المحسوس ما كان للحضارة هذه الروعة الآخذة بمجامع القلوب .

لولا أخذ التالي عن الخالي لاستمرت المدنية على حالة ابتدائية .

متى تساوت المدارك في معرفة الحقائق بطل معظم المعتقدات .

الجامدون عن عمل الخير والمستحلون ارتكاب الشر أشبه بالأصنام ، من يحطمها يحسن لقومه احساناً ليس بعده احسان .

قابل الجميل بمثله ، فالمِنّة صعب على الحر تحملها .

لا تحسد امرءاً الا على علمه وعمله ، واجتهد أن تسير على الطريقة التي سار عليها العالم والعامل .

مالك لايتسع للتصدق على فريق عظيم من الفقراء ، فاسع لتهيء لهم أسباب الرزق الدائم ، وبهذا تبطل الكدية ويخف البؤس .

عود نفسك العناية بالبائسين ، أخذك بأيديهم من أفضل القربات .

لا تجعل لليأس سبيلًا الى نفسك ، فاليأس أخو الموت ، والعاقل لا يتعجل الموت .

قلّ أن اقتصد رجل فندم ، وقلما أسرف انسان بماله وصحته الا حزن وأسف .

سماجة السمج تخرج الحليم عن طوره .

ما أكثر من لايعرف معنى الكلام الذي ينطق به ومن لا يفهم كلام غيره اذا ألقي اليه .

قالوا خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، واليوم يجب أن يخاطبوا على قدر علمهم وعقلهم .

ما أعظم المدى بين قرية أهلها جهلاء وأخرى أهلها متعلمون .

اذا خرج المرء من الدنيا ولم يعمل صالحاً كان حكمه حكم البهيمة .

تدارك بعض الأسر القديمة بيوتهم من الانقراض بالمسارعة الى تعليم أولادهم ، كأنهم أدركوا أن حكم الجاهل حكم الميت ، والأسرة لاتدوم بميت لا يُنسل .

قد يظن خادمك اذا عاملته بما تقتضي به مكارم الأخلاق أنه أصبح شريكك ، فيملي ارادته عليك ، ويعترض على ما تعطي وتذر .

من الناس من يستخفهم التبسط معهم ، فعليك بالتوسط في محادثة أمثالهم .

الرحمة في غير مواطن الرحمة خُرق في الرأي .

أعجب بمن يذكر الشرف كل حين وهو عار منه .

لا تخط خطوة واحدة مع من عرف بقبح السيرة ، فأنت لا تفيد منه الا الضرر .

باتقان كل صانع صناعته تقلُّ العيوب في الاشياء حتى لا تكاد ترى . وفي الأثر ان الله يحب من العبد اذا عمل عملاً أن يتقنه .

مادمت حياً فأنت في حاجة الى معاملة الناس ، فأحسن جهدك معاملتهم ، وعاملهم بأقصى ماتتطلبه الأخلاق الطاهرة وان كانوا منحطين في أخلاقهم .

رغيف الفقير أمرأ من رغيف الغني ، ونوم المعدم أهنأ من نوم الثري .

المتوسطون في علمهم وقرائحهم أكثر من تخرج المدارس في أيامنا ، المتوسط يسد بعض الحاجة ، والمتفوق يسد كل حاجة .

مما تثلج له النفوس ويتجلى فيه عدل المجتمع ، تبرئة البريء وتجريم المجرم .

رزق بعض المحامين حرام لاستحلالهم استعمال كل حيلة حتى تحكم لهم المحاكم بما يوافق مصلحة موكليهم .

اقتصد في كل شيء الاقتصاد المعقول ، وليكن اقتصادك من وقتك بالغاً حد التقتير .

كم في أكواخ الفقراء من النساء والرجال من هم أليق بسكنى قصور الأغنياء ، لو أنصف الدهر .

اجتهد ألا تقع عينك الا على جميل ومنسّق فان القبيح أو المشوش يفسد الذوق ويقبض الصدر .

اذا صحت عزيمتك على أن تتعلم كل يوم مسألة واحـدة وتهضمها ، تعذّر بعد حين على أعدى أعدائك أن يعدك في الجاهلين .

انفع قومك ما استطعت الى نفعهم سبيلاً ، فمن لاينفع الناس لايعد منهم ، ومن لا يرجى خيره موته وحياته سواء .

لا تنفق زيادة على ماتحتمل انفاقه ، متى جاوزت في الصرف طاقتك أشرفت على الافلاس وأنت لا تدري .

من المتعذر أن يعد في أهـل الاسلام من أغرقوا في اهراق دمـاء المسلمين ، ولو أفتى بصحة اسلامهم ألف مفت منافق .

يزيد اليوم بعد اليوم عدد الحانات في مصر والشام والعراق . اغلاق حانة أفضل من بناء جامع وكنيسة .

اطعام يتيم خير لك من أن تهب ديناراً لشخص يستجـدي الأكف في الشوارع .

من جميل الذوق ألا تطلب من صاحبك أن يسدي اليك من المعروف ما أنت غير مستعد لأن تقدم له بعضه .

قلّ في صحف العالم من لا يجوز أخذ معونة من دولة أو حزب أو شركة ، لأنه ندر في الجماعات والافراد من لايستحل كل مال يُعطاه .

الرجل غير المرأة ، والفتاة غير العجوز ، والدينـار غير الدرهم ، والذهب غير الفضة .

اذا أردت أن تعرف دين الوزير العامل عندنا التي نظرة على من ببابه تعرف هل هو بابوي أو أرثوذكسي أم شيعي أم سني .

من طبع الغربي أن يهتم لكل صغير وكبير ، ومن طبع الشرقي اهمال الأمر الصغير ، مع أن الصغير أصل في الكبير .

لما كانت الفردية من طبع الشرقي سبقه الغربي في باب الاجتماع والتعاون .

اذا أخذت الصين بمدنية الغرب دخل العالم في طور جديد .

اذا ضعفت الدعوة الشيوعية وتضاءلت الدعوة الديموقراطية استراح البشر من الحروب مئة سنة .

ليس في شعوب الأرض من يبغض لذاته ، وفي حكوماتهم مايكره لاصرارها على الاستبداد ، والمستبد ماحمد يوماً من الأيام .

من أفضل حسنات المدنية الحديثة جعلها من علماء الارض على اختلاف الجنس واللغة والدين والوطن أبناء أسرة واحدة .

اذا فرضنا أن الفساد في شعوب الغرب عشرون بالمئة فليس هو أقل من ذلك في الشرق .

استبداد فرنسا في الاقطار الاسلامية سيؤدي بها الى الانحلال كما يؤدي بالشعوب اللاتينية الاخرى .

بشر المستبد بزوال سلطانه كما قالوا بشر القاتل بالقتل .

تفاخر فرنسا باعلانها قانون حقوق الانسان ، وقد استثنت من الانتفاع منه على مايظهر جماع سكان مستعمراتها الاسلامية .

بقدر مايبهرك مافي المدنية الحديثة من لطف وذوق تقع فيها على

ما لا يطاق من عسف وعنف ، والمظلومون فيها أوفر من المرحومين ، والمنعمون أقل من المحرومين .

لو كان للعنصر الشأن الاول في الاسلام ما استولى الديلمي والفارسي والتتري والتركي والكردي والشركسي والبربري على أقطار كان معظم سكانها من العرب . غاية ما يتطلبه المغلوب من الغالب ألا يظلمه ولا يذله ، وألا يظهر الاسلام وهو من ألد أعدائه .

لكثرة ما شاهدت من تلون بعض ساستنا كدت أعتقد أن هذه الطائفة أقل الطوائف مراعاة لقواعد الأخلاق وأكثرها نفاقاً ونسياناً للمعروف .

اذا أدارت أيد طاهرة ما يجبى من الصدقات كان منها ما يسد عوز العجزة والعميان وأرباب العاهات .

يقول الانكليز اننا لا نخلق الفرص ولا نضيعها اذا سنحت ، وتاريخهم السياسي العجيب ناطق بحرصهم على الأخذ بهذه القاعدة .

كان الانكليز خلال الحرب الماضية يصرفون كل يوم سبعة عشر مليوناً من الجنيهات ، فآل أمرهم على سعة حيلتهم ودقة نظامهم المالي الى حالة أشبه بالافلاس بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

يالبؤس أمة يقودها جهلاء . الأمية حكمت العالم منذ الدهر الأطول ، وكان العلم بمعزل ، واغتبطت الانسانية أن أصبح الحكم في العهد الأخير للعلم وحده والأمية متراجعة .

رأيت وزراء يجوزون لأنفسهم قتل بضعة أطفال حتى تسلم لهم وزارتهم مدة ، هؤلاء يدعون وزراء آخر الزمان .

تغنى الطليان بما تم على يد مليكهم موسوليني من ضروب الاصلاح ،

ولما خرجت القوة من قبضته نسوا كل ما قدم اليهم من خير فقتلوه شر قتلة . وتغنى الطليان بمدح هتلر حليف موسوليني أيام انتصاراته ولعنوه في هزائمه .

الشعوب التي تعمل أفضل من الشعوب التي تقول ، والعلم العملي أنفع من العلم النظري .

قلَّ في الملوك من لا يسيء استعمال القوة ، واذا قام في ذهن أحدهم أمر اعتقد به خدمة نفسه ، استحل في تحقيقه كل ما حظرته الشرائع والقوانين .

يندر تجرد دولة من فظيع الاستبداد ، وللنجاة من عاره تعمد الى أساليب تصبغها بصبغة قانونية ليشتهر عنها أنها على حق فيما تمضي وترسم .

لا تفلح أمة في عامة شؤونها الا اذا أفلحت سياستها أولاً .

كلما قال قائل ان الأمم يستغني بعضها عن بعض زادت صلاتها بفعل الحضارة ، ولا يسوغ لأمة اليوم أن تدعي انها مستقلة بسياستها بل ولا بأسباب معيشتها .

من لا يحسن تدبير ماله لا يحسن تدبير مال غيره ، وقديماً قال الحكماء من عجز عن سياسة نفسه فهو عن سياسة غيره أعجز .

عادت الماسونية على بعض من انضموا اليها بنفع طفيف ولم تستفد منها المصلحة العامة شيئاً .

قضى فن التمثيل ألفي سنة حتى وصل الى ما وصل اليه من الاتقان وارتقت السينما في نحو خمسين سنة بسرعة تضاهي سرعة هـذا العصر في كل شيء .

كان الناس قبل سهولة المواصلات ينقطعون وراء حدودهم ، ويكتفون بما تعطيه أرضهم من رزق قليل ، وما تنتجه أيديهم من الصناعات الاولية ، والآن يركبون في طلب العيش أميالاً وفراسخ ، وبهذا يكثر سكان العواصم والحواضر ويقل أهل القرى والمزارع .

لو كان من خانوا قومهم من الملوك على شيء من الحياء ما ارتكبوا جناياتهم الظاهرة لكل ذي عينين .

من نعم هذه المدنية على العالم أن تذاع أعمال الملوك في زماننا شاءوا أم أبوا ، وكانوا قديماً يرتكبون كل كبيرة ولا ينكشف أمرهم الا لفئة صغيرة من المقربين منهم ، وهؤلاء من مصلحتهم الستر عليهم .

من لم تنفذ روح الوطنية الى قلبه يستحيل عليه أن يخدم وطنه خدمة صادقة .

شهرة تقوم على الدعايات الكاذبة محكوم عليها بالزوال ، وتجارة رأس مالها ديون وسلف تؤدي الى الافلاس حتماً .

لا تشكو الانسانية ضيماً يوم يكون ولع الانسان بأعمال الخير على قدر ولعه باستماع الغرائب .

من الجهل دعوانا أننا نبغنا في العلوم ، ونحن لم ننبغ في فرع واحد منها حتى الآن .

تسودّ الدنيا في عيني كلما رأيت الامانة تخف اليوم بعد اليوم ، كأن ارتقاء فن السرقة من لوازم هذا العصر الراقي في كل فن .

من يكتب التاريخ يخاف تأثيراته ، كالطبيب يدرك ما لا يدركه غيره من الخطر في مرض يداويه .

تفاءل لا تتشاءم ، فليس في التشاؤم الا ازعاج صاحبه على غير فائدة .

لا تسيء ظنك بكل الناس فالخير مانضب معينه في العالم ، اذا استحكمت فيك ملكة سوء الظن تبلبلت أعمالك فلا تدري من تترك ومن تعامل من الخلق .

مهما انتفخ المرء لا يشغل أكبر من حجمه ، ولا يقدر بغير قيمته .

عندما يستعدي الصاحب صاحبه يقلب محاسنه مساوىء ، ويتناسى كل يدٍ له عليه ، ليقنع من حوله أنه على حق في هذه العداوة .

قلما رأيت رجلاً تولى الحكم ولم يبدل المنصب من معاملته أصحابه ، ذلك لان الحكم يورث المشارك فيه بأواً وزهواً .

قالوا فلان لا يعجبه أحد فقلت لهم : وهو على التحقيق لا يعجب أحداً .

ان قلت لا أدري واحتقرك بعض الناس ، أفضل من أن تقول جزافاً فتحتقر نفسك ويحتقرك جميع الناس .

لا أعتقد فيمن اعتاد أكل الحقوق أن يعف عنها يوماً ، ويستحيل على الملوث بالرشوة أن يطهر منها الا طهارة موقتة ، ثم يغلبه طبعه فيعود الى ما ألف .

قال أحدهم ان فلاناً أفلس فأجبته : كان يتوقع له الهلاك لا الافلاس لانه قطع كل صلة له بالشرف والذمة .

متى أشاحت الامة بوجهها عن كل من خانها لا يجد الخائن من يرد عليه السلام.نعومة الوجوه فتحت السبل للمدلسين فتاهوا في تدليسهم بلا وازع

متى خرج المرء عن الرضا بالحالة التي هو فيها أنشأ يفكر في المستقبل، والتفكر فيه دليل على أنه خرج من الهمجية الى المدنية .

لا تعترض على أحد في طعام تميل اليه نفسه دون غيره ، ولا على من ينظر في علم أنت تنكره ولا تؤثره ، فالجدال قديم في الاذواق والالوان .

من لا يشبعه ما كسب من المال الدثر لا تشبعه الدنيا وما فيها .

لو تحاسب المتعاديان حساباً دقيقاً ما تحقق لهم في أسباب عداوتهم ما تتألف منه مادة للتباعد والقطيعة .

من رضي عنه أصحاب الشأن عاش في هناءة، ومن غضبوا عليه بات في هم وغم .

بشر المنافقين بافتضاح أمرهم ولو في آخر عمرهم .

قالوا ان بشرة الانسان تتغير في كل سبع سنين ، أما هو خليق اذاً أن يغير في مثل هذه الحقبة رأيه واجتهاده .

لا تقاطع صاحبك اذا بدا منه ما ينافي شروط المحبة ، واعرض عنه اعراضاً موقتاً عسى أن يرعوي من نفسه ، ويعترف بخطائه فلا يعود الى مساءتك .

من العقوبات الطبيعية اضمحلال ثروة جمعها صاحبها من رزق العباد .
عاش من تجردت نفسه من المطامع الخسيسة .

يأبى الخائن الا أن يظهر بثوبه الحقيقي حتى يعتبر الخونة .

عيوبك مستورة عن عينك لا يراها الا اخوان الصدق .

بعد سقوط الاخلاق هذا السقوط المريع لا تتوقع خيراً من أكثر الناس ، فأنت أنت مصدر خيرك وشرك .

ما أبهج مشهد ظالم يكف شره ، ومجرم يجـازى على جريمته ، وكذاب يفتضح بكذبه ، وآكل حرام يهلك وما جمع .

فضائل الامهات تسري في أرواح أولادهن سريان الرائحة الطيبة في الثوب النظيف .

محبة من يحبك بلا عوض ولا غرض أصفى من محبة الاهل والاقارب .

لا شيء أثقل على القلوب ممن كان سلاحه الوقاحة ، وسبيله الخبث والاحتيال .

ان لم يظن الاشرار فيك قوة ، داسوك بأقدامهم وما حسبوا لك حساباً .

يكثر الجفاء في سكان الجبال ، وتكثر الميوعة في سكان السهول ، ولا يعدل هذين الخلقين الا التربية والتهذيب .

المناصب في العادة تولي صاحبهـا نصف روعته ، والنصف الآخر ينبعث من شخصه .

عندما يؤثر المرء السلامة ويعتزل الاشتراك في أمور المجتمع يكون كمن ينادي الموت ليروج فيستل روحه .

اذا أنت لم تفرح لفرح قومك وتحزن لحزنهم عدّ نفسك دخيلاً فيهم .

تأتي على المرء أيام لايسليه فيها الا تربه الذي نشأ معه ، اخوان الصبا هم اخوان الصفا .

المكثرون من الثرثرة لايأتون بعمل ، وقديماً كان القوالون أكثر من الفعالين .

يكثر المتبطلون في العواصم والحواضر ، ويكثر فيها الناقدون والناقمون ،

رأي سكان الريف في سكان المدن أسوأ رأي ، ولا يقل عنه سوءاً رأي أهل المدينة في الفلاحين .

ما أجمع الناس على استحسان شيء قط ، اذا وافقك فريق من العقلاء على بعض رأيك في الاصلاح فأنت جد موفق ، واذا حصلت على جانب من آمالك فأنت الرابح كل الربح .

غبطت من ساروا على وتيرة واحدة في معاناة ما اختاروا من صنعة لهم أول أمرهم ، واستمروا على تحسينها مدة حياتهم حتى كتب لهم النجاح فيها .

السير البطيء الدائم خير من السير السريع الموقت ، والساقية الجارية أعود على الحقل والحديقة من النهر المقطوع .

عود نفسك الاتقان فيما كان لك وما كان لغيرك . الاتقان تنبسط له النفس ، وهو أصل النجاح في الامور .

لاتهمل اصلاح خلل مهما تراءى لك أنه صغير . ثقب صغير في بارجة يغرقها في ثوان معدودة .

من دواعي تقهقرنا ادعاؤنا معرفة ما لا نحسن ، الدعوى العريضة يخفق صاحبها آجلاً أو عاجلاً .

لاتتطلب المستحيل ، ولا تتذرع بغير المعقول ، طلاب المحال كعشاق الخيال عاشوا تساورهم أنواع الآلام .

قد ترثي لحال امريء وهو في ذاته محبور مغتبط ، والرضا أم أجزاء السعادة .

أنفق المنافقين من يُظهر لك الحب ويبطن العداوة .

من يمسك بيد الضعيف حتى يقوى ، ويلقن الجاهل حتى يتعلم هو من أعظم خدام الانسانية ، ومن يعاون على ذكاء الذكي حتى يظهر ، وعلى علم العالم حتى ينتشر ، كان فضله على العالم لاينكر .

اذا ضعف استعداد المرء لقبول الافكار الجديدة كان من الصعب أن يفعل فيه الوعظ والارشاد .

العامة كالعجائز دينهم دين امامهم ، فليعرف هذا كيف يلقنهم دينهم .

من طبع الانسان الملل من عمله ، انك لن تدفع الملل الا اذا عمدت الى المسليات المباحة .

متى عزت عزة النفس في رئيس شعب زاد الطغام في دياره .

أعظم ماكانت تثلج له النفس شهود مصرع أرباب القوة ممن لم يتقنوا الا حوك الدسائس .

مهما صفت نفوس الرجال والنساء وعرفوا بالتقوى والتدين تبقى فيهم فرجة من البهيمية لايفعل فيها الدين والتربية ، والخوف من الفضيحة يجنب بعض الجنسين ركوب مراكب الفحش .

عجبت من وصول بعض الرؤساء الى مقامات لايليق بهم عشرها ، ولما خبرتهم ثبت لي أن العلة في تأخرنا رفع الوضيع الى درجات الرفيع .

من عمال الحكومات من يجوز لنفسه ارتكاب كل عار لتبقى له

مشاهرته وقد يصرح بذلك ، والأشراف منهم يتشوقون ليوم خروجهم من الخدمة ليتحرروا من رقها ويفرغوا لأنفسهم .

طالبت بلادي باستقلالها حيناً من الدهر فنزعت يدها من غاصبيها الاشداء ، والمثابر على نشدان حقه واصل اليه لامحالة .

اذا انفق ملوك المسلمين على تعليم رعاياهم عشرة بالمئة مما يسرفون فيه من أموال دولهم يصبح المسلمون في مستوى الغربيين من الرقي بعد أعوام .

ما أسخف من يتوسل اليك لتشهد له بحسن حاله حتى يصل الى كرسي النيابة عن الأمة . لو كان هناك ما يسمونه بالوعي القومي لكانت الامة هي التي تكره الصالحين من أبنائها على قبول هذه المهمة الشريفة من دون أن يلحوا هم في طلبها ، فطالب الولاية لا يولى .

اذا أمكن ان تبيض بشرة الزنجي اعتقد أن طبع اللئيم يتبدل .

يكثر في النابتة من يصطنعون الغيرة على العلم ويجاهدون في سبيل الاشتهار به ومنهم من لا يجدون أقرب الى الظهور من الطعن فيمن تقدموهم مراحل .

قلما اجتمعت بلاغة القلم وبلاغة اللسان ، اذا قويت ملكتها في رجل كان النابغة الذي يردد ذكره في حياته وبعد مماته .

أضحكني رجل خامل حاول أن يبني شهرته على النيل ممن يتعذر عليه أن يلحق بهم . من يتناسى أن شهرته لا ينسجها له غيره فهو غر أحمق .

في الرجال من لهم عقول أطفال وأجسامهم أجسام رجال ، ومن الاطفال على ضآلة أجسامهم من أوتوا عقول الرجال .

بعض اللبنانيين كبعض المصريين مولعون بالالقاب . طلب أحدهم الى أمير من امراء لبنان المعوزين أن يكدنه الى ثوره ليحرث له أرضه ، فرضي بشرطه على أن يخاطب بلقبه أثناء الحرث ، فلا ينادي الا بلقب الامير ، كأن يقال له : ثلمك يا أمير ، بلـّغ يا أمير ، يمينك يا أمير ، شمالك يا أمير .

سقوط الهجائين

اشتهر محمود زكي باشا بانه من أقدر كتاب الهجو في مصر يحفظ من معاجم اللغة جميع ألفاظ الشتم والقذف . وقد دأب زمناً على الطعن في الأغنياء ليأخذ من أموالهم مايطمع فيه ، شأن معظم أرباب الصحف الاسبوعية في ذاك العهد ، وكانت المحاكم تحكم عليه كلما اجرم حتى اضطر آخر الامر لكثرة ماصدر عليه من الاحكام الى مغادرة القطر ونزل الاستانة . وبعد حين عطف عليه الحزب المتغلب على الدولة حزب الاتحاد والترقي فأتى به الى الشام وعهد اليه بتحرير جريدة « المشكاة » وزين له الطعن عليّ وعلى اصحابي ، فأشرت عليهم ألا يطالعوا مايكتبه فينا ولا يردوا عليه ، فانطلق لايقف امامه شيء ، ولا من يجيبه او يتعرض له ، ثم ضاق ذرعه من عدم الالتفات اليه ، فتوسط لنا حتى نرد عليه في جريدتنا او في جريدته او في جريدة حيادية فما أعرناه التفاتاً . وانتهت مهمة الهجاء في دمشق ، ورحل منها مع من استخدموه في أغراضهم ، فلقيته في بعض شوارع الاستانـــة وكانت سورية خرجت من حكم العثمانيين — فاقترب مني يهش ويبش ويعتذر متذللاً عما فرط منه معي ، فقلت له : او كتبت في ماتعتذر عنه الآن، ولكن على ثقة اني لم اقرأ ماكتبته ، فكاد يصعق لقولي كأنه عدّ كلامي احتقاراً له وكانت نظرتي اليه في تلك الساعة نظرة احتقار من دون تعمد .

الاتحاديون مدة ولايتهم على الدولة العثمانية في آخر ايامها يعدون الشتم قوة لحزبهم ، وسلاحاً ماضياً يقاتلون به من ليس على رأيهم ، كأكثر ارباب الاحزاب في الشرق يعمدون الى المهاترات والسفاهات في مناقشة خصومهم السياسيين .

قصصت مؤخراً ما جرى لي مع هذا الهجاء على بعض اصحابي الالباء فقال : هذا مما يستغرب ، ومن يحاول الجري على طريقتك في الاعراض عن السفهاء يجب ان يكون ذا اعصاب قوية جداً . فقلت له : هـــذه الطريقة في معاملة الشتامين من افضل ما يعاملون به حتى لايبلغوا مأربهم من اضاعة اوقات من سخروا للطعن فيهم . والطعن على الاغلب لاينتج الا سقوط الطاعن ، وقد يعلو قدر المطعون عليه اذا وقف الناس على مرامي الطاعنين من طعنهم .



المغتربون الشاميون

جاء لبنان وسورية في صيف سنة ١٩٥٠ مئة وخمسون رجلا وامرأة من المغتربين السوريين واللبنانيين في الاميركتين الشمالية والجنوبية، ومنهم المولود هناك والمثقف بثقافة المملكة التي نشأ فيها ولا يتكلم بالعربية، ومنهم من هاجر في صباه ولا يزال يتكلم بلغة بلده الاول، وبينهم أناس من رجال المال والاعمال وهم قلة. وليس جميع أبناء يعرب في أميركا أغنياء كما يتوهم المتوهمون، فالاغنياء كما قال العارفون، خمسة بالمئة والمتوسطون ٢٠ والمكفيون ٥٠ والفقراء ٢٥.

واحتفلت الجمهورية السورية بقدم أبنائها الأعزة، وطافت بهم أرجاء القطر تطلعهم على مافيه من عاديات ومصانع ومعامل ومناظر وخيرات طبيعية، وأقامت لهم من المآدب أفخرها ومن الملاهي ألطفها وأطربها. ورحبت بهم الأمة على اختلاف طبقاتها ومذاهبها. وعادوا الى موطنهم الثاني شاكرين معجبين. وقيل انهم على عزم أن يشاركوا مواطنيهم في المشاريع التي تعدها حكومتهم للنهضة بسورية.

كانوا يقولون ان ثلث المهاجرين من الشاميين يهلك في مهاجره، وثلثهم يعود إلى بلاده بعد أن يرتاش، والثلث الآخر تستهويه الأرض التي نزلها فيتأمرك. وتبدلت هذه القاعدة فيما أحسب وما اخال الآن أنه يبلغ عدد العائدين من النازحين عشرة بالمئة، فان الأقطار التي نزلوها صبغتهم بصبغتها وصعب عليهم أن يعودوا ويتركوا ما هم فيه من سعة والمثل العامي يقول (مطرح ما ترزق الزق) وهكذا كان حال المتمدنين وغير المتمدنين في هجرتهم على توالي الأحقاب. ويقدرون اليوم عدد المغتربين من لبنان وسورية وفلسطين وشرقي الاردن الى أميركا وغيرها من بلاد المهجر بأكثر من مليون مغترب جلهم من جبال لبنان.

داء الاتكال

كان المسلمون يجودون من أنفسهم على الخيرات ، يبنون بدافع ديني الجوامع والمدارس والرباطات والقناطر والحصون والسبلان وغير ذلك من المصانع والمرافق وروح الاستقلال يتجلى فيها أكثر من الاتكال . ولما بدأ الانحطاط أصبحت الاعمال النافعة لا تقوم الا بضغط الحكومات وتدبيرها على الاغلب .

قد تقوم الاعمال عندنا بأيدي أفراد ، فاذا أصبحوا جماعة تضاءلت قوتهم واختلفت كلمتهم ، والمشاريع في ديارنا تبدأ بقوة ولا تلبث أن يبدو عليها الضعف ، تدرك ذلك اذا اعتبرت همة الجماعة في البداءة بأمر وهمهم في آخره ، وهي هنا همة شخص أو بضعة أشخاص يعروها الفتور ، وفي الغرب همة جماعة تجمعهم غاية متحدة يتحمسون للوصول اليها . ومشاريع الغربيين تطرد في رقيها ومشاريع العرب تدوم مدة قليلة ثم تميل الى التلاشي . فالجامعات في بلاد السكسونيين مثلاً هي من عمل الرعية قامت بأيدي أفراد أذكياء ، أخذتهم الغيرة على دينهم وآدابهم ولغتهم فتوفروا على نشرها ، ولا تزال العصر بعد العصر تنمو النمو الذي قدر لها ، ومصر على توفر أسباب النجاح فيها ، لم تستطع الى النهاية أن تقوم بالجامعة التي أنشأتها أوائل هذا القرن ، فتنازلت عنها الى الحكومة بكل مالها من أملاك لتثبت أننا قوم اتكاليون في كل شيء .

كتب الخيالات

في العهـد الاخير انصرفت همم بعض من يشتغلون بالفلسفة والالهيات من رجال الجامعات العربية الى نشر بعض كتب قدماء الفلاسفة والمتصوفة ، وكانت بعض النفوس تتشوف للوقوف عليها يتخيلون أن فيها أسراراً لو ظهرت لكشفت من نواميس الطبيعة ماتتقدم به الانسانية وتصفي الأرواح من كثافاتها وينجو البشر من القتل والتزوير والسرقة والكذب والظلم . ولما ظهرت أسفار المتصوفة في حلتها الجديدة من العناية تجلى للأنظار أنها تافهة الا من العبث الذي أحب بشـــه عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات على الأيام ، فضاعت فيها أعمارهم واضاعوا اعمار من اشتغلوا بها .

نحن والقومية

اذاع السيد (آصف علي اصغر فيضي) وزير الهند في الشرق الأدنى (٨ حزيران ١٩٥٠) رسالة باللغة العربية وجهها الى الشعب اللبناني قال فيها : ان الهند قاومت تقسيم فلسطين لاعتقادها انه ضار بمصالح العرب كما قاومت مشروع سفورزا ـ السياسي الايطالي ـ في تقسيم ليبيا حرصاً على بقاء وحدتها ، ولما في ذلك من مصلحة لوحدة العرب . وقارن بين لبنان والهند مشيراً الى الفارق الكبير بينهما من حيث الضيق والاتساع . ثم ذكر اختلاف الطوائف وتعددها في الهند كما هي عليه الحال في لبنان .

وقال ان المهاتما غاندي دعا الى الأخذ بالقومية وجعلها في المرتبة الأولى ونبذ الطائفية وجعلها في المرتبة الثانية .. ونصح للبنانيين ان ينهجوا هذه السبيل للمحافظة على وحدتهم القومية .

نصيحة ثمينة تقدم بها سياسي شرقي الى لبنان وقد شاهد فيه مضرة الطائفية وسوء مغبتها عليه . ولطالما اقترح صاحب هذه المذكرات على اخوانه اللبنانيين تعديل دعوتهم الطائفية لتعذر قيامها في هذا العصر على ما يرجو لها أنصارها . وكثيراً ما توسل اليهم أن يؤلفوا من لبنان وسورية دولة واحدة فما أظهروا ارتياحاً لمقترحه قط ، لأن بعض الأدمغة في الجبل مصابة بحمى التعصب الديني على صورة مضحكة ومبكية . ولعل الليالي تهدي الى هذا الأمر الحيوي فقد شاهد أهل لبنان ما أصابهم من نقص ثروتهم يوم تمت القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان ، وتبين لمن يعرف ولمن لا يعرف أن حياة لبنان بالوحدة ويستحيل أن تعيش حفنة صغيرة من السكان بانعزالها عن جاراتها وهي مثلها في كل شيء وكل مواطن في حاجة الى مواطنه ، لا يحيان الا اذا نزعا من بينهما الاختلاف واتحدا قلباً وقالباً .

القصة

كاد فن القصة او الروايات بمظهره الحديث يعد اختراعاً غريباً . اقتبس الأوائل من كتاب الغرب عن اليونان والرومان والعرب ما هيأ لهم الأسباب الى ظهور عبقرياتهم في هذا النوع من الأدب ، فغدت القصة من الأدوات التي جمعت بين التسلية والتعليم عند الافرنج ، وازداد مع الزمن مطالعوها من جميع الطبقات زيادة عظيمة جداً .

أردت غير مرة على أن أشارك في القصة أكتب فيها او أنتقد بعض ما يظهر من أصنافها بأقلام كتاب العرب المحدثين في الشام ومصر ، فما طابت نفسي للدخول في موضوع لم يأخذ منها ، وليس لي يد في القصص التي نشرتها أول أمري لانها مترجمة . وأكبر داعٍ الى عدم عنايتي بالقصة اعتقادي أنها مختلقة ، والاختلاق مما تأباه طباع من اعتاد التدقيق في النصوص وتشرب روحه بالنقد الأدبي والاجتماعي . فمن العبث أن يُعنى من ألف هذا بغير ما ألف وما يكون الاختلاق هو المحور الاعظم الذي يدور عليه الكلام .

ثم كانت الروايات آخر ما استساغه ذوقي من فروع الأدب الحديث ، وقلما طالعت رواية بشوق الا روايات الاستاذ محمود تيمور لانهـا عربية فيها طابع الشرق ثم روايات موليير الشاعر الفرنسي ورواية دون كيشوت لسيرفانتس الكاتب الاسباني لما حوت من هزل ونقد .

وقرأت مرتين جميع روايات اناتول فرانس كاتب فرنسا في القرن العشرين وأخذت بسحر بيانه وسعة علمه .

الاخلاص للدين

سمعت الشيخ محمد بخيت من كبار علماء مصر يقرأ بعد صلاة العصر في شهر رمضان بمسجد سيدنا الحسين بالقاهرة درساً دينياً لم أفهم ان كان موضوعه وعظاً ورقائق أو فقهاً أو تفسيراً أو حديثاً . وكان الشيخ تجاوز التسعين فيما أحسب وصوته ضعيف وهو يحرص على تعليم قومه ، وقد بلغت منه الشيخوخة أن يحمل من سيارته حتى يجلس على مقعده في الجامع ، وقومه لا يتلكأون عن الحضور عليه والتبرك بما يقول . وكأن سيرة الاستاذ كانت تنعي على معظم العلماء من بني وطنه انهم جد مقصرين في تثقيف العامة ومن عادتهم انهم متى أُحيلوا على المعاش وتقاعدوا عن خدمة الحكومة يقبعون في بيوتهم ذاهبين الى انهم قاموا بواجبهم وانتهت مهمتهم في خدمة العلم والدين . اما الشيخ بخيت عليه الرحمة فظل يكتب ويؤلف ويدرس الى آخر أيامه .

قلت ذات يوم لصديقي الاستاذ الشيخ عبد الله المنجد شيخ القراء بدمشق : أراك ملتاث المزاج فلماذا لا تصطاف وتريح نفسك من عناء الدرس أياماً ؟ فكان جوابه : ان ما تقوله سديد ، والامور ميسورة ، لكنني أرى أن أتريث الآن لأن تلميذي الشيخ عبد القادر قويدر العربيلي بقي له من القرآن اشياء يسيرة يجب أن أُلقنه اياها وأخاف اذا تغيبت مدة عن المدينة ان تفوت الفرصة وأموت قبل ان يختم ما أري تختيمه اياه . ومات شيخ القراء خلال الأشهر القليلة التي مضت على هذا الحديث بعد ان اتم لتلميذه كل ما يجب ان يلقنه اياه .

فهل بعد هـــذا اخلاص أعظم من اخلاص هذين الشيخين العظمين للدين والعلم ؟

الحجاب والسفور

بحثت وأحد أحبابي من أعيان الموارنة في حجاب المسلمات ، فشهدته يعجب من تأخر النساء المسلمات في كشف حجابهن الى اليوم على حين سفر معظم نساء الامم . فقلت له : نحن نحاذر اذا عمدنا الى القوة في ازالة الحجاب قيام فتنة يستغلها الرجعيون ، وأرى أن مسألة الحجاب آخذة بالانحلال من نفسها فهو ضئيل في الريف ، وفي المدن أخذ يتقلص سنة عن سنة ، وجميع الأوانس اللائي يدرسن في المدارس يخرجن اليوم سافرات ، ولا يرغبن في العودة الى الحجاب بعد التخلص منه ، هذا اذا لم يحملن أمهاتهن وأهلهن على الاقتداء بهن في كشف وجوههن .

نعم يسير هذا التجدد من نفسه ، ومن دون تعمل ولا أمر حاكم ولا تشريع مشرع ، ويزيد السافرات شئنا أم أبينا . وانا نشهد التبرج أيضاً ينقص قليلاً ويرجع المخدرات فيه الى السذاجة وعدم التكلف ، وكل ذلك بدافع طبيعي لا دخل فيه للحكومات ولا للجمعيات . ويقل الآن عدد المنكرين على السافرات كما كانوا ينكرون عليهن منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، بل لقد رأينا نساء من كانوا الى أمس يتمسكون بالحجاب من أول من تقدمن لكشفه وتظاهرن بأنهن سفرن في غفلة أزواجهن وما سفرن الا برضاهم .

لم يشترط الاسلام الحجاب على النساء على ما كانت حالهن الى عهد قريب وما نزلت آية الحجاب الا في نساء الرسول وفي حالة خاصة . والاسلام يحظر الخلوة والتبذل ويتطلب الحشمة ، حرمة للمرأة ومبالغة في تكريمها . هذه مسألة معقده بدأ بحل عقدتها في مصر محرر المرأة قاسم امين المصلح الاجتماعي عليه الرحمة ، ثم زاد التوسع في حلها انتشار التعليم وشيوع المدنية والاختلاط بنساء الغرب ، وكانت مصر وتركيا من أول الدول التي

بادرت الى تمزيق الحجاب ، ولا ينكر ان السفور باديء بدء أسفر عن قليل من المفاسد وقد أسفر أيضاً عن كثير من المحاسن . وكان النفع منه أوفر من الضرر على أي حال . ولا بدّ في نهضة كهذه من وقوع ضحايا في أول الأمر ثم تصفو المشارب وتألف النفوس هذا الضرب من التجدد ويصبح كأنه من الأمور المعتادة .

الماضي والحاضر

ما دخل حب الربح في أمر من أمور العقل الا أفسده . ولَعَ قدماء الوراقين بالمكاسب أفسد الكتب ، منذ وهموا ، ومنهم الأميون ، أنهم لا يربحون من النساخة الا اذا قتروا في الانفاق عليها ، فصار أمر الاستنساخ الى العامة ومن في حكمهم من الجهلاء ، وبذلك انتشر الغلط والسقط حتى كان عامة الناسخين المتأخرين لا يدركون معنى لما ينقلون ، وبذلك كانت جناية الوراقين على العلم أعظم جناية .

في التقارير التي كان لورد كرومر عميد الاحتلال الانكليزي في مصر يصدرها كل سنة عن حالة الادارة والسياسة في القطر المصري مثال من العقل الانكليزي ومن مهارة المستعمرين الانكليز . وفي تاريخ مصر الحديث لصديقي العلامة عبد الرحمن الرافعي صور من صفاء العقل العربي وكشف حيل المستعمرين .

لما جرد العثمانيون مع حلفائهم الألمان في الحرب العالمية الأولى حملة على الترعة عازمين على فتح مصر ، سألني أحد أغنياء التجار ، وكان عامياً كمعظم أبناء حرفته في ذاك العهد ، أن أذكر له رأيي في مصير هذه الحملة . فقلت له : أقول لك ان كنت تكتم . فقال : لك ذلك وأعاهدك على الكتمان . فقلت : انهم لا يرون جدران مصر ، ولا يستولي العثمانيون

على الترعة حتى يموت عليها آخر انكليزي ، أي ملك انكلترا . فاستغرب التاجر بعد حين كيف صح تقديري ، فردّ المهاجمون عن مصر خاسرين .

اجتاز غلادستون من عظماء الساسة الانكليز في القرن الماضي بأولاد يلعبون في زقاق من أزقة لندن ، فوقف منهم موقف الاحترام ورفع قبعته مسلماً ، فقال له صاحبه : ولِمَ تسلم عليهم وهم أطفال لا يستحقون هذه العناية منك ؟ فأجابه اني أقوم بهذا الواجب رجاء رعايتهم لنا غداً متى استلموا زمام الحكم .

الانكليز من أكثر البشر حساباً للمستقبل .

التعقيد لا تستسيغه جميع الأذواق ، تبدلت أساليب الكتابة العربية مرات في الاسلام ، وما بقي من أساليبها في الآخر الا الاسلوب الذي لا تكلف فيه وهو حري أن يقبله ذوق كل قارىء .

الى القرون الأخيرة ما كان لطلاب العلم رغبة في غير الفقه ، ذلك لأن معرفته كانت توصلهم الى الملوك ، ويكون منه لصاحبه مجد وثراء . واليوم تشتد الرغبة في درس الحقوق لان صاحبها يصل الى النيابة ، والنيابة مفتاح باب الوزارة ، وفي الوزارة كل الخيرات .

يقل الراغبون في درس الطب والعلوم الزراعية والميكانيك على ما فيها من المكاسب لمن يتقنها . ومن الطلبة من يحاول مع درس الحقوق درس الادب لاعتقادهم أن في الجمع بينهما تُفتح لهم مغالق الغنى .

من الصواب ألا يزهد في القديم وأن يُتعاهد أبداً بالتحسين فالجديد تتمة القديم . وقد قال غستاف لبون : « ان الاحتفاظ بأوضاع الماضي مع تبديلها بما لا يشعر به قوة كبرى للشعوب . عرف الرومان في الدهر الغابر ، والانكليز لعهدنا كيف يحققون هذا المطلب » .

أخرج هذا العصر ثلة من النقاد أصلحوا ما عثروا عليه من الاغلاط الشائنة في بعض ما طبع من أسفارنا القديمة ، فغدونا بفضلهم نقرأ الجيد والمعتمد ، وكنا الى أمس نقرأ السليم مخلوطاً بالسقيم . انتقل العلم من جهلة النساخ والطابعين الى أيدي العلماء المحققين فأدخلوه في نظام من التدقيق يفاخر به ، وأعظم بها من مرحلة قطعناها .

كان معظم من اشتهروا من العمال على عهد الانتداب الفرنسي والانكليزي في الديار الشامية والعراقية من صنائع الدولتين يسيرهم المستشارون على ما يبدو لهم . فعلينا اذا أحببنا أن نأتي برجال يخدموننا باخلاص أن نختار من غير هذه الطبقة التي نشأت على العبودية لصاحب القوة .

« تغير الاحكام بتغير الازمان » من القواعد التي سارت عليها انكلترا في سياستها خلال القرون الثلاثة الاخيرة . كانت تحارب من تتوهم أنهم عثرة في طريق سياستها حتى تضعفهم ولا يبقى أمامها من تخشاه . فعل الانكليز ذلك بالهولانديين والاسبانيين والفرنسيين والالمان ولما توترت حالة السياسة العالمية في العهد الاخير ، وبدا شبح الحرب في الافق بدلت انكلترا سياستها ، وقد رأت الدعوة الشيوعية تسري في الارض سريان النار في الهشيم ، واذ لم يكن لها مأرب في قتال أحد الآن اعترفت بالصين الشيوعية ، ولو شاع هذا المذهب في بلاد الرأسماليين « بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا » لجعل ثروتهم وتقاليدهم ومفاخرهم أثراً بعد عين .

تجود الصحة وتنشط النفس بتغير المناظر وبالتنقل من أرض الى أرض ، وبترك العمل اليومي الرتيب الى آخر يخالفه . من عظماء ساسة الغرب في أيامنا من يترك السياسة وينصرف ساعات الى التصوير كل يوم ، ومن الاطباء من يصرف بعض وقته في الموسيقى ومنهم من يعاني الادب . وكم من ملوك وعظماء خصصوا جانباً من أوقات فراغهم بالصناعات اليدوية

أو بتربية الازهار والورد والدواجن والجوارح وركوب الخيل وسوق السيارات والقوارب ومعاناة الصيد والقنص والرياضات البدنية العنيفة ، والتسلق على الجبال والتزحلق على الثلج . وكان العظماء في الدهر السالف يكثرون من لعب الشطرنج والصوالجة .

الطب من أصعب العلوم ، وصاحبه قد يصل الى المجد من غير طريقه . كان كليمانسو من أعظم الساسة المعاصرين طبيباً ومثله الحكيم غستاف لبون . وفي الاقدمين كان ابن سينا والرازي طبيبين قبل أن يكونا فيلسوفين ، ومثلهم كثير في الافرنج اليوم وفي العرب أمس .

معظم ما في الولايات المتحده الاميركية من مرافق ومصانع وخيرات بالغ حد الغرابة ، فهي غريبة بتكوينها الطبيعي يحدها بحران عظيمان ، وغريبة في تكوين شعبها ونموه ، كان سكانها سنه ١٧٩٠ ، ٣٩٢٠٠٠٠ فأصبح في سنة ١٩٥٠ نحو ١٦٠ مليوناً . أما نمو ثروتها واقتصادياتها ومناجمها وزراعتها ومتاجرها وعلمها واختراعاتها فأمر يفوق الوصف . زادت نفوس العالم زيادة عظيمة في القرنين الاخيرين أما نمو أميركا فلا يشبه غيره ، تألف سكانها من عناصر أوربية راقية « وأمركتهم » أي جعلتهم أميركاناً بلغتهم ومنازعهم ، ولم يكتب للغة من لغات الارض أن تقدمت تقدم الانكليزية فيما نعلم . كان تقدمها غريباً في بابه ، ثم على وجه لا يشبه انتشار الاسبانية والبرتقالية والالمانية والروسية الا قليلا . كان نمو الانكليز يجمع الى اللغة ثقافة والمتكلمون بها اليوم لا يقلون عن ٢٣٠ مليوناً وما كانوا يزيدون منذ قرنين على عشرين مليوناً فيما نظن . ولهذا كان تاريخ الشعوب الانكلوسكسونية من أدهش تواريخ البشر .

يقول مؤرخ معاصر من الافرنج : لم تستطيع الامارات التركية (من السلجوقيين) في ايران والشام أن تترك سكانها من الفرس والعرب ،

وعلى العكس رأينا الفرس « فرّسوا » من نزلوا عليهم من الاتراك ، وعرّب العرب الشاميون من احتلوا أرضهم من الترك . وهذا دليل القوة العظيمة الكامنة في العنصرين الفارسي والعربي ، وبرهان على أن العنصر العريق في الحضارة لا سبيل لعنصر آخر أن يتمثله . القوي يهضم الضعيف والضعيف لا يهضم القوي ، ولا عبرة بكثرة جيوش أمة بل العبرة بما انطوت عليه نفوس من تتألف منهم من حيوية وأخلاق .

ذكرت بعض الصحف التركية أن الدستور السوري الجديد من أرقى دساتير العالم وأن السوريين أثبتوا أنهم من الشعوب الخليقة بالاستقلال ، وهم يعرفون الى ذلك طريق المحافظة عليه . هذا ما قالته وليس في ذلك غرابة فان السوريين لما ارتفع عنهم الضغط انبعثت عبقريتهم ، وكانت جراثيم الرقي كامنة في نفوسهم فلما أزيل عنها ما يعوقها قامت بأحسن ما تقوم به أمة راقية .

كانوا يعيبون على العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي - أشهر كتاب عصره وخادم اللغة العربية العظيم عليه الرحمة - تبييضه كتاباته مرة أو مرتين مبالغة في التنقيح ، وبفضل هذا التدقيق كتب البقاء لما كتبه الشيخ وانتفع قراء العربية به . أما الذين نشروا ما جادت به قرائحهم باديء الرأي وقدموا للطبع المسودة الاولى فما قدر لكلامهم أن يغني الغناء المطلوب ، وذهب ما كتبوا من الوجود كما تذهب صحف الاخبار غداة نشرها .

كثيراً ما كنت أسأل أترابي من الشاميين تلاميذ المدرسة الملكية في الاستانة أرقى مدارس السلطنة في عهدها عن صورة التدريس في صفوفها ، وعن أساليب أساتذتها عند الخوض في الموضوعات التي لا بد فيها من استعمال الحرية كدرس التاريخ ، وكان السلطان يحاذر انتشار الأفكار الحرة في المدارس ويراقب أساتذتها أشد مراقبة . فما رواه لي أحدهم ان أستاذ التاريخ عبد الرحمن شرف كان يلقي درسه بانطلاق تام ، وقد

قال في بعض دروسه : هذا هو الكلام الرسمي الذي يجب أن يلقى عليكم ، واذ كنتم من الرجال الذين سيتقلدون زمام الحكم والسياسة أرى أن أزيدكم في هذا الموضوع مالا يستحب كتمانه عنكم ، وأفاض في هذا الباب افاضة حسنة وباح بأسرار لم تتعرض لها الكتب المتداولة ، ولا يكاد يعرفها الا بعض الخاصة ممن يرجعون في بحثهم الى الوثائق المدفونة في مستودعات الدولة ، أو تنقل من صدر الى صدر ولا تقيد في الورق . وكان أساتذة هذه المدرسة من أعلم رجال الدولة في ذلك الزمن فيهم أمثال حقي (الصدر الأعظم) وعلي شهباز وعلي حيدر واسماعيل حقي وأوخانس وعاطف وعبد الرحمن شرف وغيرهم من العلماء رحمهم الله .

فتح العثمانيون الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ومصر والشام والجزيرة والعراق وجزيرة العرب ، وطال حكمهم فيها ، ولو قيض الله لهذه الاقطار أن تتمتع بحكومات عربية تعدل وتعقل ، وتجمع الشمل ولا تفرق الكلمة، ما أصيبت بداء الانحاط الذي برح بها هذا التبريح .

تطلب شعوب الشرق كل شيء من حكوماتها ، وما شأن الحكومات الا حفظ الامن واقامة العدل والتمهيد للعاملين . اما التوفر على الزراعة والصناعة ، وتعليم البنين والبنات ، ونشر العلم والدين ، وانشاء القصور والمصانع ، وما ينشأ عن الحضارة من نعيم وسعادة فهو من عمل الرعية تبرز فيه ما انبعثت همتها الى أقصى حدودها ، وما أحس النبهاء من بنيها بعظم ما عليهم من تبعة .

يوم تجمع حكومة كل السلطات يصبح الرعايا كالعبيد تسيرهم أيدي مواليهم ، ويعدون بالطبيعة من الامم الاتكالية المنحطة ، واذا كانت الامة مصدر كل سلطة حقاً وصدقاً تعد حكومتها أرقى حكومة وشعبها أسعد شعب .

من أسخف ما صدر عن سياسي مسؤول حمله بعض صنائعه على شتم مخالفيه شتماً قبيحاً ، وما أدرك ان من يوالونه اليوم يعادرنه عندما يحول الدهر وجهه عنه وتنقطع صلاته بهم فيقوّلونه ما لم يقل ويوسعونه شتماً واهانة.

رأيت بعض من تولوا أعمالاً سياسية كانت فوق اقتدارهم يطعنون اليوم علناً فيما كانوا أمس يُغلون في مدحه جهرة ، كأنهم يظنون أن من سمعوهم بالامس كانوا من الصم البكم .

كنت أستبعد نشوب حرب أوربية عامة لما وقر في النفوس من بعد نظر الغربيين في السياسة ، فخاب ظني لما شهدت الحرب العالمية الاولى وقد جرّت على الغالب والمغلوب من الويلات ما جرّت . ثم زعمت أن حرباً ثانية لن توقد نارها قبل جيلين فكذب ظني أيضاً ، واشهرت الحرب الثانية في آخر العقدين الأولين من الحرب الأولى .

اذا فرض ان دب الضعف في الدول الحربية العظمى ، أفتأمن الانسانية يا ترى من غوائل الحروب ، أم تتقدم الدول الصغرى لتمثل في مجال السياسة ما كانت تمثله الدول الكبرى ؟

كانت الأولية في سياسة الغرب لاسبانيا والبرتقال فانتقلت الى فرنسا وبريطانيا العظمى والنمسا وروسيا واميركا ، والظاهر ان السياسة العامة لا تقام لها سوق في الدول الصغرى لقلة سكانها وضيق نطاق بلدانها . فالسويد والنروج او الدانيمرك وسويسرا لا يتأتى ان تكون كفرنسا وروسيا واميركا.

قال لي احد اصفيائي من كبار رجال القضاء ان الحكومة الحالية ترى أن تختار الرعية نوابها في المجلس النيابي العتيد من الشباب فقط ، وكان الاولى أن تقول ان الواجب انتخـــاب من يصلح لهذه المهمة بعلمه وتجاربه ، ولا فرق في أن يكون النائب شاباً أو كهلاً أو شيخاً .

كان بعض من حظيت بلقياهم في حياتي من ملوك الشرق وأمرائه وزعمائه من الفئة التي تغلب عليها السذاجة القريبة من البلاهة ، ومعظمهم مملوكون لرعونتهم وشهواتهم . فعجبت كيف تدار ممالك كبيرة بهذه العقول الصغيرة .

كلما رجونا ان يصفو الزمن وننعم بالاستقرار لنعوض ما فاتنا أيام الخمول يعرض لنا ما يؤخرنا الى الوراء ، كأن الفطرة لا تختار لنا الهدوء ، ولا تحب أن تُعدنا للسعادة .

لو لم أكره تدخل الأجانب في شؤوننا الداخلية لطلبت لكل وزارة مستشاراً غربياً أمتعه بالسلطة المطلقة حتى لا تكون فوق يده يد ، فيدربنا على العمل الصالح ويعلمنا القيام بواجبنا .

قال لي أحد رؤساء الوزارات في عهد الانتداب : اني لأعجب من حال عمالنا وحال المستشارين ، اذا استدعيت عاملاً لمفاوضته في مسألة يهمني الوقوف على ما تعاقب عليها يأتيني لا يحمل شيئاً من المعلومات ، واذا طلبت المستشار يجيء حاملاً جميع ما تعاور على القضية من أول يوم الى آخر يوم . فقلت له : هذا سر من أسرار تقهقرنا ، ولو كنا مثلهم في العناية بأشغالنا ما احتجنا الى مستشارين يقودوننا كما يقاد الأعمى في طريقه الى داره .

حدثني أحد ابناء السودان من خريجي كلية غوردون أن الانكليز هناك كانوا يقولون انا لا نحب أن نقع في الخطإ الذي ارتكبناه في مصر باطلاقنا حرية التعليم المصريين ، فحصلوا العلوم العالية وجاءوا بعد يطالبوننا بالتوظف ، وليس للحكومة وظائف تكفيهم ، فكادوا لنا بأن انضموا الى جماعة المتبطلين ، وساروا على طريق المشاغبين . وانتبهنا بعد ذلك فكنا اذا احتجنا الى عشرة أطباء مثلاً نقترح على كلية غوردون ان تخرجهم لنا

ليكونوا على استعداد للخدمة في سنة كذا ، واذا مست حاجتنا الى غيرهم من دارسي العلوم الجامعية نطلب كذلك من الكلية تخريجهم ، ونضرب لتعيينهم موعداً يرون بعده مقاعدهم مستعدة لقبولهم من أول يوم يحرزون فيه شهاداتهم . وهكذا أقللنا من المشاغبين بأخذنا من أرباب التعليم العالي كفايتنا فقط .

سألت سائحاً حضرمياً من ساكني جاوة عن سياسة حكومة هولاندة مع الجاويين يوم كانت تستبد بحكمهم أبشع استبداد فقال : ان هولاندة كانت الى قبيل الحرب العالمية الاخيرة اذا تعلم بعض شبان اندونوسيا العلوم العالية في هولاندة او في غيرها تفرض عليهم الاقامة القسرية في احدى جزائر اندونوسيا ولا تترك لهم مجالاً للاختلاط بأبناء وطنهم حتى لا ينشأ من اجتماعهم أمور لا ترغب فيها الحكومة المستعمرة . قال وقد أصبح عدد المحكوم عليهم بهذا التغريب العجيب ألوفاً (وأظنه قال عشرون ألفاً) من الشبان المثقفين . وهذا من أفظع ما عرف من تحكم الانسان بحرية الانسان ، ومن ظلم الانسان للانسان .

بقي رجل انكليزي اسمه لنجهان يتعبد في مسجد من مساجد دير الزور زهاء سبع عشرة سنة ويعتاش من العاب يعملها من الورق ويبيعها من الصبيان بقطع من الخبز وعندما احتل الجيش الانكليزي دير الزور عين حاكماً سياسياً على المدينة برتبة كولونيل . ما أصبر الانكليز في خدمة امبراطوريتهم .

من أول واجبات الحكومة توحيد كلمة شعبها . الطرق الصوفية من فروض العين اعلان حرب عليها لادخالها الخلل على بنيان الجماعة . وما كان من المذاهب الحديثة الا اختراق الصفوف وكانت من قبل متراصة .

يوم فصلت الامم النصرانية الدين عن الدنيا سارت أمورها على سداد .

وما وسع الدول الاسلامية في القرون الاولى الا سلوك طريق الدنيا كما سلكت الى الدين طريقه . وكانت تبتعد عن الخلط بين الطريقتين ما ساعدتها الحال .

قالوا ان فلاناً وفلاناً اغتنيا غنى فاحشاً بخدمة مليكهما فقلت : ليس في ذلك عجب فقد اغتنى في مملكته كل من هان عليه أن يبيع ذمته بعرض قليل . وما دام القول الفصل الأفاقين في مثل هذه الدول فلا سبيل الى اقتراب أهل الخير من ملوكها ، ولا رجاء الآن أن تخطو ديارهم خطوة تذكر في سبيل الحضارة .

يكفي في عقوبة من صرف من خدمة عامة ظهرت فيها خيانته أن تنزع السلطة من يده الاثيمة ، وهو على التأكيد لن يهنأ بما جمع من الدناءآت .

مهما أحسنت الظن لا أذهب الى ما يذهب اليه بعضهم من أن رئيساً كان بيده القبض والبسط ، يغني من يرضى عنهم من مال السلطان ، وينسى نفسه فيحرمها حقها من الغنائم ، ليخلف الفقر لأولاده ويعيش حياته في قلة وضنك .

رثى بعضهم لاحد الرؤساء لما وقع في محنة وادعى أنه أباع دكاناً له وأشجاراً عليها ثمرها ولما ينضج ، ليسد بعض عوزه ، فقلت : لا تصدقوه انه اعتاد الكذب وبرع فيه ، وهذا احتيال منه لاقناع الرأي العام بنزاهته .

أكد أحد العارفين أن المدافعين عن الديمقراطيات بدأوا ينفقون في الشرق الادنى أموالاً عظيمة على الدعاية . فقلت له : كن على ثقة أن الحرب العالمية الثالثة سيندلع لهيبها عندما تبدأ الدول العظمى بالبذل الكثير . فقد علمتنا الحوادث أن الغربيين لا يجودون الا اذا أحدق الخطر بأممهم ، يصرفون قرشاً ليكسبوا ألوفاً . أجارنا الله .

من مذهب المعتزلة أن يتولى الخلافة صاحب الكفاية ايًّا كان أصله وجنسه وشرفه ، وهذا مما جلب عليهم نقمة بعض الخلفاء . ولما ضعف أمر بني العباس وأصبح يتقلد الخلافة الجاهل والبليد تعاون علماء السوء وجهلة الملوك على المعتزلة وحاربوهم حتى قرضوهم ، فلم يبق أمام خلفاء العباسيين بعدها عائق يحول دون تمتعهم بخلافتهم التي أصبح راعيها أشبه بشيخ طريقة او ناظر على وقف .

من التجارات التي كانت تدر أرباحاً على أحد الرؤساء أنه كان اذا أرسل سفيراً عنه في مهمة الى بعض الملوك يحمله هدية ثمينة يدفع قيمتها من خزانة الامة ، فاذا قابله الملك على هديته بهدية مثلها أو أعظم منها أخذ الهدية لنفسه . ومعظم الهدايا معمول بالذهب الابريز والاحجار الكريمة .

لما عظمت جيوش الترك العثمانيين وصلوا الى مدينة فينا وسط أوربا ، ولما ضعفوا طردتهم دول الغرب الى موطنهم الأصلي في آسيا الصغرى . كتب النصر لاعلام الترك فاستولوا على زهاء عشرين مملكة مختلفة العناصر ومنها بلاد العرب ، ولما تراجع أمرهم كان ساسة الغرب في القرن الماضي يتآمرون على تقسيم تركة الرجل المريض ، يعنون به الدولة العثمانية ، ولو تم اتفاقهم يومئذ لكانت تركيا اليوم في عداد الدول المنقطعة .

لفت نظري من لا اتهمه بالاختلاق الى أن المسيحيين في فلسطين وسورية في الفتنة الصهيونية الاخيرة ، لم يدنسوا شرفهم بالتجسس لليهود ولا بتموينهم من البلاد المجاورة كما فعل بعض الساقطين من الوطنيين ، أغواهم الصهيونيون بالمال فأقدموا على ارتكاب ما ينفع الاعداء . المسلمون والمسيحيون شركاء في هذه النكبة نكبة فلسطين ، ومن عاون العدو أبان عن جهل وانحلال وطنية .

صبأ أحد أجداد طاغور شاعر الهند عن الاسلام دين آبائه وانتحل

الوثنية ليسوغ له تولي الحكم . وعزم نابليون على انتحال الاسلام لما تخيل أنه بدينه الجديد تفتح له أبواب الهند . وانتقل الشاه الصفوي من مذهب أهل السنة الى مذهب التشيع لينشيء دولة العجم .

قال احد رجال الانكليز في الهند : المسلمون يحرمون أكل الخنزير والهنود يحرمون البقر ، ونحن الانكليز نحل الخنزير والبقر فكان من الطبيعي أن نحكم الهند ، ولما آذنت ساعة رحيل الانكليز عنها لم يفدهم جمعهم بين لحم الخنزير ولحم البقر .

لقيت في مصر زمان الشباب مفتي المسلمين في بكين عاصمة الصين في طريقه الى الحج فرأيت فيه عالماً جليلًا سالماً من التخريف فيما يظهر . وكان يتعذر عليه التكلم بالعربية فيكتب في ورقة ما يريد أن يقوله بلغة عربية فصيحة وبخط نسخي مقروء ، ويأخذ الجواب على هذه الصورة ، فكنا نتفاهم في أصعب الاحاديث ، واستفدت منه فوائد عظيمة عن المسلمين هناك . وتمنيت لو يرحل الى الصين بعض أرباب النباهة من المصريين والشاميين لدرس أحوالها درساً علمياً لما في ذلك من الفائدة العامة .

لم يثبت للمسلمين في الهند ملك عظيم تطول أيامه مع أنه كان في جملة فاتحيها محمود بن سبكتكين وأكبر خان من أعظم الملوك . وذلك لان المسلمين فيها قلة ، والكثرة الكاثرة وثنية .

ما رضيت هولاندة أن تمكن الجاويين من اطلاق اسم اندونسيا على جزائرهم أيام احتلالها لها مخافة ان يكون من احيائهم اسمها تذكيرهم بذكريات وطنية من مصلحتها أن تنسيهم اياها .

قل في الشرق من وسد اليه شيء من أمور السلطان الا واغتنم الفرصة المتاحة فأتى الى الوظائف بطائفة من أصحابه وجيرانه وحزبه وذوي قرباه

وأهل دينه ، ولو كان في استخدامهم الضرر على خزانة الأمة وعلى سير نظام الحكم ، لأن من يؤتى بهم في مثل هذه الحال هم على الأغلب من البضائع الرديئة الكاسدة . أما ذاك المتفضل على صنائعه من مال الأمة فهو مثال السارق المنافق .

ليس من الوطنية التفريق بين أهل الوطن الواحد . فمن قال هذا مصري وهذا شامي وهذا عراقي وهذا حجازي ، وهم أبناء نبعة واحدة كان عدو وطنه الأكبر يسعى الى تمزيق شمله ولا يدري ما هو صانع .

يختلف أهل بلدين على مسائل قد تعد تافهة وهم يعدونها جوهرية . من ذلك ان مدينتين من مدن الشام تكاد تكون العداوة بينهما ظاهرة لأن الأولى فقدت فريقاً من شبانها تزوجوا من بنات جارتها ، ورحل تجار من الثانية وتوطنوا في الأولى ، واستولوا على جانب من تجارتها ، فتكونت من ذلك عداوة سببها المال والجمال .

بعض رجال السياسة من أقدر الخلق على تضليل قومهم والحط من كرامة خصومهم ، وهؤلاء يكيلونهم الصاع صاعين يوم يتصدرون ويحكمون .

يزعم بعض المفكرين أن الحكومات الاسلامية اذا أباحت الزواج بين المتخالفين في المذهب تنقذ نفسها من وصمة التعصب ويقوى أمرها عند دول العالم . ومن عاداك لتخالف في الدين والجنس لا يرضيه منك شيء ولو تمذهبت بمذهبه وتجنست بجنسيته .

أول ما يفكر فيه بعض الوزراء اذا صاروا الى الحكم أن يغتنوا بطرق لهم يأباها العقل والشرف ، والمتوسط الذكاء منهم يدخل ويخرج من الحكم لا يعمل عملاً يذكر لنفسه ولا لوطنه .

عرفت خمسة وزراء في سورية ولبنان على عهد الانتداب كانوا على جانب من الذكاء ، وعلى حصة موفورة من قبح السيرة ، لو قسمت مساويهم على ثلاثين وزيراً لاستحق كل منهم أن يحكم عليه بالسجن المؤبد مع التشغيل . وكانت الحكومة المنتدبة على معرفتها بهم تدعوهم الى الاشتراك بالوزارات . قد يجد الموبوءون أيضاً من لا يبالون الاقتراب منهم .

عملت الولايات المتحدة الاميركية سنين طويلة بمبدإ مونرو القاضي بان تكون أميركا للاميركيين ، لا يتدخل الاميركيون في شؤون دولة ولا يرضون أن تتدخل في أمورهم دولة . وفي الحرب العالمية الأولى أقنعت بريطانيا العظمى جمهورية أميركا بالخروج عن عزلتها ، وأشركتها في الحرب حتى ظفرت بريطانيا وحلفاؤها ، وسقط قانون مونرو . دليل آخر على ان مصير كل شيء الى الزوال في هذا العالم .

كلما تأملت حال بعض الممالك العربية التي أنشئت لأغراض استعمارية وما خلقوا لها ، على ضيق مساحتها وقلة رجالها ، من ملوك ووزارات ومجالس وألقاب وتمثيل خارجي ، أضحك وأنشد قول الشاعر الأندلسي : ألقاب مملكة في غير موضعها .

ينحصر رأس مال بعض رجال السياسة في الأناقة المتكلفة والبزة الجديدة والتعاظم والتفاصح وتكلف الرزانة وايهام من يجتمعون اليهم أن في صدورهم اسراراً لو أفشوها لبدلت الأرض غير الأرض .

لا بد لكل سياسي من أذناب ينوهون به في الصحف والمجتمعات ، ومن هؤلاء المطبلين من لا يأخذ درهماً على هذه الدعايات المصنعة ما دام من يقرظونه متبطلا ، وهو يكافئهم يوم يجيء الى الحكم على تبرعهم بالدعوة له ، ولكن من مال الدولة لا من ماله .

ما خجل رجل من رجال السياسة من الدخول في بضعة أحزاب يناقض بعضها بعضاً ، رجاء أن يكون له الظهور أبداً . وحاول مرة أن يخدم دولتين متنافستين فنبذته الأولى وتغافلت عنه الثانية .

رفعت الدولة العثمانية رجلاً من ابناء العرب الى أرقى المناصب فلما تراءى له أنها ستنجلي عن دياره انضم الى عدوتها وأخلص في خدمتها . وكان هو في حجر الدولة التي ربته وعاش بخيرها حتى بلغ الشيخوخة يشتغل سراً بقلبها ، ويتقرب من الدولة الخالفة بما يخالف شروط الأمانة ، يزعم بعض الأغبياء أن هذا التذبذب في الأخلاق يجوز في السياسة ، أقبح بهذا الخلق وهذه السياسة .

ما زاد عدد من درسوا العلوم العالية في مصر والشام عن حاجة البلدين الى الآن ، وانما فضل الدارسون عن حاجة حكوماتها ، ذلك لأن غاية معظم الدارسين من دروسهم الدخول في خدمة الدولة وهذه لا تستوعب دواوينها كل طالب يعشق التوظف فيها ، ولا تتسع موازنة هاتين الدولتين لاعطاء كل واحد منها .

لو بذل ما صرف على التعليم العالي منذ نصف قرن في القضاء على الأمية في مصر والشام لزال منهما أثرها ولكن كان يعوز القطرين رجال الاعمال التي لا يحسن القيام بها الا أرباب الدراسات العالية .

كان مجلس صديقي سليمان نظيف بك من علماء الترك أمتع مجلس أختلفت اليه في الاستانة أيام مقامي فيها في آخر سنة من سني الحرب العامة الأولى . كان يتألف من صفوة رجال القضاء والادارة والسياسة ، اهتديت بأحاديثهم الى أمور كنت أجهل وجودها عند الاتراك وأنا أعاشرهم في الولايات معاشرة رسمية . وكان أهل هذا المجلس يتوجسون خيفة من عاقبة الحرب على العثمانيين ويذكرون أمراض دولتهم بتفصيل ويصرحون

عما لا يجوز التصريح به أمام الناس . وكان رب المجلس رحمه الله يعرفني الى من لم يعرفني من قبل تعريفاً جميلاً حتى لا يكتموا شيئاً من الافكار المدخورة في صدورهم أمام غريب عنهم .

كانت القرون الوسطى عند المسلمين من حيث الرقي كالقرن التاسع عشر عند الغربيين ، ومن كان يظن أن من الرجال عندنا يومئـذ من كانوا يتلقون الحـديث ويأخذون الفقه عن النساء ، وان بعض مدارس دمشق أسسه النساء ووقفن عليه ورتبنه ترتيباً جميلاً لخدمة الدين والعلم .

فتشت مدارس احدى العمالات وجئت الى القصبة وسألت قائم مقامها عن مدرستها — وكان تولى ادارة تلك العمالة منذ أشهر — فبدا الخجل على وجهه وقال : الحق اني لم أتفرغ لزيارة المدرسة حتى اليوم . ونظرت الى جانب دار الحكومة واذا بالمدرسة على بضع خطوات منها . وبعد أشهر جاءني هـذا العامل وشكا اليّ أنهم نحوه من عمله وأنه ظلم وانه مستقيم ويحمل شهادة أرقى مدارس السلطنة فقلت له : احمد الله على أن اكتفى وزيرك بتنحيتك ولو كنت وزيراً للداخليـة لاحلتك الى القضاء وعزلتك على ألا تستخدم بعدها ، وذكرته باهماله وعدم عنايته بالنظر فيما وسد اليه . وطلبت منه أن يعفيني من التدخل في ارجاعه . وكان هذا العامل على نزاهته ممن غطى اهماله على كل حسنة فيه . قد يبدع في الادارة الرجل الامي اذا كان ذا نشاط وغيرة وذكاء بما لا يصدر من حامل الشهادات العليا فان هذا لا تنفعه شهاداته اذا كان مهملاً كسولاً .

باغتّ أحد قوام المقام ذات صباح في مركز عمله فجاءني في الساعة التاسعة صباحاً والخمار بادٍ عليه ، والنوم آخذ بعينيه ، فانقبضت نفسي من مشهده ، وظهر ذلك في سحنتي . وسألته عن الأوساخ المتراكمـة في سوق البلد فقال : نعم انهم كنسوا أمس فقلت له : ان السوق لم يكنس منذ أيام والواجب أن ترفع قماماتها كل يوم مرتين على الأقل .

ومن لا يرجى منه أن يأمر الكناس بكنس ساحة داره كيف يتوقع منه - وهو كسول ومدمن ويسهر الى ما بعد نصف الليل بساعتين أو ثلاث ساعات يتعاطى الكأس - أن يفتش المدارس ويراقب الدواوين وسير الحكم وينظر في شكاوى الأهلين وما يصلحهم نظرة سديدة . مسائل صغيرة في ذاتها تتولد منها مسائل خطيرة .

كتب اليّ صاحب من نبهاء المسيحيين يقول ان الاسلام دخل في قلبه ويريد أن يعلنه لولا ما يحول دون ذلك من العوائق . فأجبته ان الايمان في القلب فان كنت مؤمناً حقاً فلا يتوقف اسلامك على المراسيم المعتادة والوقوف أمام المحكمة وتلقينك كلمة الشهادة والاشارة في السجلات الى انك مسلم . وربما كان من بقائك بين قومك وأنت على الاسلام أنفع لك وللمسلمين من خروجك من دينك ، خصوصاً واشهار اسلامك قد يضرك بماديانك الآن فيحرمك أبوك ارثك منه ، وأبوك شيخ كبير قد يسوءه ما تأتي فيعجل عليه . ومتى تمهدت الصعوبات فالاعلان ميسور لك كل ساعة . فقبل نصحي وعدل عن اعلان اسلامه . وقال لي بعد سنين انه كتب بمثل كتابي الى صديق لي فكان جوابه يشبه جوابي على غير تواطوء بيني وبينه . وما عرفت ان كان صاحبي بقي بعد ذلك على دينه الأول أو انتحل الدين الذي أحبه .

بقليل من المعارف بثتها المدارس في عقول الناشئة أصبح الصبي يدرك أن المهندس غير النحات والمزين غير طبيب الاسنان والنجار غير الحداد وكان الشخص الواحد في الأيام الخالية يتعاطى عدة صنائع .

فرحت أربع فرحات في حياتي ، الأولى يوم ضبط الأتراك في ولايات الشام أوراق القناصل أوائل الحرب العالمية الاولى ، وقد ظهر فيها أني

بريء مما كانوا يتهمونني به من خيانة الدولة العثمانية . والثانية يوم قبل ملك مصر فؤاد الأول عذري في عدم اجابة طلبه بالانضمام الى عمال قصره . والثالثة عندما نجوت من تقلد رئاسة الوزارة السورية على عهد الانتداب ، وكانت عرضت عليّ مرتين . والرابعة لما ظهرت أخلاق رئيس جمهورية سورية للغريب والقريب على حقيقتها .

يوم كان أهل دمشق على شيء من الرقي الديني مات خطيب الجامع عندهم ولما لم يظفروا في بلدهم بمن يماثله أتوا بخطيب عظيم من قرية داريا يخلفه .

شهدت الفلاحين وعامة المدن أمس يفرون من مراجعة المتطببين ويكتفون بوصفات العجائز وعقاقير الدجالين ، وشهدتهم اليوم يُهرعون في حالة مرضهم الى الطبيب الاخصائي يقصدونه من أول الأمر . ظاهرة غريبة تدل على ارتقاء الافكار .

شاهد بعضهم معظم ركاب السيارات العظيمة التي تروح وتغدو بين دمشق ومرج غوطتها عند عودتهم مساء الى قراهم وفي يد كل واحد منهم جريدة أو مجلة يقرؤها بشوق . وقص عليّ أحدهم أنه شاهد في السيارة العامة التي تختلف الى بعض قرى الغوطة الوسطى امرأتين تبتاع كل منهما جريدة . فسأل الواحدة عن سبب شرائها جريدة فقالت له والغبطة بادية عليها ، ان ابنها يقرأ وهو يقرأها لها ويشرح لأمه مايغمض من معناها . وهاتان الفلاحتان من قرية اشتهر أهلها بالجهل والبخل . وهذا أيضاً مما يعد في باب الارتقاء الحديث .

قالوا ان أحد الوزراء السالفين لا يستنكف عن بيع الفاكهة التي غرس أشجارها بيده في مزرعته على طريقة بعض صغار الفلاحين والباعة .

فقلت لهم : ما في ذلك غضاضة ، ولا عار الا على من أساء لأمته يوم كان في الحكم ولم تؤثر له مأثرة .

لو لم يفتح العرب مملكة الاندلس وينشروا فيها مدنيتهم لظل الغربيون يتهمون العرب بالتوحش ، وكان عمل العرب في الاندلس يومئذ عمل دولة عاقلة عادلة . ومع هذا بقي البغض الجنسي والديني كامنين في نفوس الاسبان قروناً حتى تيسر لهم اخراج أعدائهم من جزيرتهم .

لما فتح الترك القسطنطينية انتشر الاسلام في الروم ايلي وما وراءها من الممالك ، وكان الاتراك يومئذ مخلصين الاخلاص كله لدينهم .

قال رئيس البعثة العسكرية الأميركية بعد أن شهد مناورات الجيش التركي الأخيرة ان روسيا ستستغرق يوماً واحداً في القضاء على هذا الجيش وسبعة أيام في احتلال تركيا بأسرها ، هذا وما كانت الدولة منذ خلقت الا عبارة عن جيش لا تملك من مقومات الدول غيره . فان كان الجيش الروسي يغلب الجيش التركي في يوم واحد فياطول حسرة تركيا ، على ما بذلت في بث روح الجندية في أمتها . كنت أعتقد أن الروح العسكري تأصل في الترك تأصل الروح الاستعماري في الفرنسيس ، فظهر أني كنت على خطأ ، غرتني الدعايات وكان أكثر ما زعموا انه تم من الاصلاح في ديار الترك بعد القضاء على آل عثمان هو من الدعايات التي افتضحت وتجلى الحال في ثوبه الحقيقي .

لما وافى دعاة البروتستانتية الى الديار الشامية في القرن الماضي لنشر مذهبهم بين الطوائف شاعت في لبنان وما اليه من الأقاليم قصص وحكايات عن الرهبان والراهبات لا يكاد العقل يصدقها وتناقلها الناس وتفكهوا بها على ما كانت تحمل من صدق وكذب .

قلَّ أن شهدت حكومة طلبت اعانة من الاهلين فأدوها عن رضا مثل الأعانة التي فرضت عليهم في الثورة الاولى . كان كل سوري يدفع ما يدفع عن طيب خاطر وما ذاك الا لأن القوم اعتقدوا في قرارة أنفسهم أن ما يؤدونه يصرف فيما يرفع من شأن الجمهورية .

سرني ما روى لي أحد أصدقائي قال : كنت حاضراً في مجلس عربي كبير من رجال السلطان عبد الحميد في الاستانة فالتمس منه أحد ذوي قرباه أن يتوسط له بتقليده وظيفة ادارية فقال له : انني أعرف سيرتك العاطلة فيما توليته من العمالات وأنا لن اعينك على الوصول الى ما تطمح اليه بعد الذي بلوت من أخلاقك . وحرامٌ عليّ أن أزيد بك هذه الامة نكبة فوق نكبتها . وكان هذا العامل يعلق صورة قريبه العظيم هذا فوق رأسه بدار الحكم في كل قضاء تولاه . فاذا أُتي بمن يريد التضييق عليه حتى يأخذ ماله يقسم برأس صاحب هذا الرسم قريبه الا بدَّ لخلاصه من دفع مئة ريال وكلما كان يتوسل اليه المظلوم لتخفيفها يعود فيغلظ الأَيمان على زيادة المبلغ مئة أخرى ، وهكذا حتى يدفع التعس ما غرِّم ظلماً .

عرفت الدولة العثمانية كيف تحرك العرق الديني الحساس في رعاياها العرب حتى حكمتهم أربعة قرون .

أخذ المسلمون لأول أمرهم من العلوم المادية ما كان لهم منه عون على القيام بدعوتهم حتى اذا تم لهم ما طمحوا اليه من التوسع في الملك فترت الهمة في العلوم ، ودامت العناية بالدين سائرة سيرها العادي ، ثم قوي السواد الاعظم وهم أصحاب الدين على الاقلية وهم رجال العلم فكان من ذلك رجوع الامة القهقرى .

اذا وضعت جامعة الدول العربية منذ اليوم أساس التعليم بما يلائم كل قطر ثم سيرته في طريق الوحدة تتشاكل الاقطار العربية بعد جيلين في تفكيرها وحضارتها .

بدأ الخليفة الثاني في مصادرة العمال وما زالت المصادرات تزيد مع الزمن ، وكانت قليلة في عهد الامويين كثيرة جداً في أيام العباسيين وزادت في عهد الفاطميين والمماليك والعثمانيين ، ثم بطلت في أواخر أيام الاتراك ، وقد أصبح الكبير والصغير في دولتهم يسرق من غير نكير . قرأت في الصحف ان لجنة تألفت في مصر للنظر في محاسبة الوزراء والعمال الذين اغتنوا فجأة من أموال الامة لتسترد الحكومة منهم ما سلبوه ومثل ذلك فعلت حكومة سورية وأعلنت عن لجنة ألفتها . فكر جميل ، وما أكثر الافكار الجميلة ، ما أظنه يتحقق في أرض هذا الشرق لأنه لاعهد له بمثل هذا التأديب . وأكبر دليل على أن اللجنة المصرية والشامية لم تنتجا شيئاً بعد مرور أكثر من سنتين على تأليفها .



قسط[1] العرب من حضارة أوربا

وقسط أوربا من حضارتهم القديمة

منذ مقتل مسلم بن قريش آخر أمراء العرب في الشام بأيدي الاتراك السلجوقيين لم ينبغ أمير من أصل عربي صرف ، من عيار الامير فخر الدين المعني الثاني الذي استولى على لبنان والساحل الشامي الى أنطاكية في الشمال وارجاء فلسطين في الجنوب . فان هذا الرجل أدرك في القرن السادس عشر ببعد نظره أن الغربيين أخذوا يتفوقون على العرب في مدنيتهم ، وان عندهم أشياء نافعة في قيام الامم من علوم وصناعات ليس للعرب مثلها . ففتح موالي بلاده للافرنج ، يغشون الديار الشامية ويستزيدون من متاجرهم مع أهل الساحل ، ورخص لهم بانشاء قنصليات وأنشأ خاناً كبيراً لتجار الافرنج في صيدا ، وعمر مدينة بيروت وأقام فيها حديقة حيوانات . وأجاز المبشرين والبعثات الدينية أن يدخلوا الديار أحراراً ، يحيي بذلك سنة أهل دينه وجنسه من العرب الذين كانوا في عهد عزتهم ومجدهم مثالاً غريباً من التسامح مع المخالفين .

غضبت الدولة العثمانية على الامير فخر الدين فسافر الى ايطاليا فاستقبله كوسموس الثاني كبير دوقات طسقانة في ليفورنا باحتفال عظيم ، وأقام في تلك الديار زهاء خمس سنين متمسكاً بعاداته ومعتقداته . وقد أنشأ في البلدة التي أقام فيها جامعاً صغيراً ومأذنة ، فكان يقيم الصلوات ويأتم بإمامه . وقد عرض عليه ملك اسبانيا أن يدين بالنصرانية ويملكه على مملكة أعظم من مملكته فاعتذر بلطف . وعقد الامير مع فرديناند الاول كبير دوقات طسقانه محالفة دفاعية هجومية في سنة ١٦٠٨ . واطلع على مدنية آل ميديسيس وأراد تقليدهم فيها . ووصف مؤرخه الصفدي ، وكان رفيقه

---

(١) ألقيت هذه المسامرة باللغة الفرنسية في المدرسة العلمانية بدمشق .

على الغالب في هذه الرحلة الطويلة ، عادات الطليان وعمران بلادهم وتراتيب حكوماتهم ، مُعْجباً بها اعجاب أميره . وكان هذا استعان ببعض المهندسين والبنائين من الايطاليين في بلاده ، وانصرفت همته الى تنظيمها بالنظام الغربي ، وأن يقتبس ما ينفعها من أسباب النهوض .

ولا يفوتنا النظر أن الايطاليين كانوا بعد أن استولى النورميون على جزيرة صقلية وأزالوا سلطان العرب منها هم الحاكمون على البحر المتوسط ، فاستأثر الطسقانيون والجنويون والبيزيون والبندقيون من الشعوب الايطالية زمناً طويلاً بالتجارة . وهم من أكثر الامم الغربية اختلاطاً بالشرق العربي لقرب بلادهم منه . حتى ان سفن الايطاليين في الحروب الصليبية كانت المعول عليها في نقل جيوش حملة الصليب الى الشام ومصر . ولا نعد مجازفين اذا قلنا ان الامم الاوربية التي اشتركت في الحملات الصليبية قد افتقرت وأفقرت بلادها من الرجال وكان من أثر تلك الحروب المشؤومة اغتناء بجارة الطليان وتجار الطليان . وعاون البنادقة المماليك في مصر على انشاء سفن تمخر عباب البحر الاحمر لتصل الى المحيط الهندي للاشتراك في حرب البرتقاليين الذين هبوا يومئذ لاستعمار الشرق والاستئثار بتجارة الهند دون أهل الشرق والغرب .

وبقضاء الدولة العثمانية على الامير فخر الدين المعني قضت على برامج أعماله في التمدين وترك الاخذ عن الغربيين نحو قرنين آخرين كانت النهضة في خلالها قد اتسع مداها في الديار الغربية . وكانت الشام ومصر والعراق وغيرها من الولايات العربية بأيدي الترك العثمانيين لا يهمهم الا أن يتقاضوا من أهلها الضرائب بعيدين عن كل ما يثقف العقل ، والعرب بعيدون عن النور الذي فقدوه منذ قضى البربر في الغرب والتتر في الشرق على مدنيتهم . وكان العرب خلال اربعة قرون في تاريخ البشر هم الامة الوحيدة بين الامم التي كانت تحمل مشعل العلوم والآداب والصناعات ، وظل الغرب تحت احتكارهم وسلطانهم في هذا الباب ،

يملون عليه ولا يملي عليهم ويعلمونه ولا يتعلمون منه ، على ما كان من اليونان قبلهم حكموا العالم حكماً علمياً ، أي حكموه بعلمهم وأدبهم ألف سنة ثم ذهبوا بقيام دولة العرب .

وتداولت الايام وفعلت الليالي فعلها في العرب فسلبتهم عزتهم بخروج الحكم من أيديهم الى عناصر أخرى ، فأصبحوا في القرنين السابقين على قرن النهضة العربية الاخيرة ، وليس عندهم رجل يذكر في الهندسة والتصوير والنقش والشعر والانشاء والخطابة والفلك والكيمياء والطب . وأصبح التأليف عبارة عن نقل المتأخر عن المتقدم ، والعلوم المادية والفلسفية محرمة أو مهملة ، بعد أن كان أعظم خلفاء الاسلام في قرونه الاولى يغالي في نقلها عن الاقدمين ليحملها الى أمته ويضيفوا ما فيها من الفوائد الى صدر المدنية العربيـة . وعرا الضعف لغتهم أيضاً ففسدت بالسجع في منثورها وخطبها وبالمعاني المكررة والصيغ الضعيفة في شعرها وفقدان الخيال اللطيف والابداع المعنوي الفاتن .

وبينا كانت البلاد متدهورة في أعماق هذا الانحطاط المحزن جاء نابليون بونابرت في سنة ١٧٩٨ يفتح مصر ويحمل في جملة ما يحمله من العَدَد والعُدد طائفة من العلماء والنوابغ في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والادب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن وطبقات الارض والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الري والقناطر والجسور والميكانيكا وكان معه زمرة صالحة من المصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثّالين وعددهم مائة وستة واربعون عالماً وفناناً . وأنشأ في مدينة القاهرة مجمعاً علمياً يبحث في الفنون والعلوم ويدرس الابحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية . وأنشأ خزانة ضمت أنفس الكتب الفرنسية والعربية ومعملاً للطبيعة والكيمياء وأخـــذ يشتغل كل واحد بما اختص به ، فمنهم من يجوب الديار ويرسم مصوراتها ، ومنهم من يبحث في النيل وما يتعلق به ليحسن الانتفاع به ، ومنهم من يبحث في طبائع الحيوان والنباتات والمعادن . وكتبوا كتاباً

ضخماً في مصر وما يتعلق بمصر ما زال الى اليوم مثالاً جميلاً من همم أولئك العلماء وواسع علمهم . وحل شامبوليون حجر رشيد فحل الخط الهيروغليفي فأولى العلم يداً لا تنسى له على الدهر كما كان لنابليون الفضل الاول في جلب الحروف العربية الى مصر وبها طبع أول جريدة عربية وكان الناس يطبعون على الحجر في الشام ومصر .

ومن غريب ما دون في هذا الباب أنه كان في طليعة من اختلطوا بعلماء حملة نابليون جماعة من علماء المسلمين في مصر اذ ذاك كانوا يعلمونهم العربية والشريعة الاسلامية ويأخذون عنهم العلوم المادية . ومن أجلهم في هذا الشأن مؤرخ مصر الشهير عبد الرحمن الجبرتي واحد علماء الازهر الشيخ حسن العطار الذي تولى مشيخة الازهر بعد حين وألف في الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكتبه ورسائله مطبوعة مشهورة في هذه الفنون . واختلط رجال الادارة والسياسة من أهل مصر برجال الحملة وضباطها فنشأ بين الفريقين تعارف كان انقطع منذ عهد سان لوي احد ملوك فرنسا في القرون الوسطى الذي جاء مصر فأخذ اسيراً في دمياط وافتدى نفسه من الايوبيين بثمانمائة الف دينار .

وهكذا عرفت المدنية الفرنسية في هذا الشرق القريب وظلت وارفة الظلال على بلاد الفراعنة . حتى لقد مضى على الاحتلال الانجليزي ثنتان وخمسون سنة والاولية فيها للغة الفرنسية . وفي حواضر مصر تصدر الى اليوم بضع جرائد يومية باللغة الفرنسية ، وليس فيها غير نصف جريدة انجليزية والنصف الآخر عهدي به وهو يطبع بالفرنسية . ولقد قال احد الوطنيين العارفين من المصريين : « لئن فشلت حملة نابليون فان العمل العلمي الذي قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير ابقى الى اليوم اثراً علمياً فاخراً باهراً تطأطىء امامه الرؤوس اجلالاً واكباراً » .

كتبت الاقدار لمحمد علي الكبير ان يستولي على مصر في سنة ١٨٠٥ فأوحي اليه ذكاؤه النادر ان يتعرب وينشىء مملكة عربية وان يقتبس

النظم الادارية الحديثة ومدن مصر العربية تمديناً عربياً فاعتمد على علماء فرنسا في الاكثر وعلى مدارسها لتعليم أبناء مصر فيها . والى رجاله وصنائعه من المصريين يعزى الفضل في ايجاد مصر الحديثة .

اعتمد محمد علي وأبناؤه على علماء افرنسيين في تنظيم الحرب وتنظيم الجيش والادارة ، وفتح معامل لصنع السلاح والجوخ والطرابيش ودور صناعة لعمل السفن وأنشأ مدرسة للطب واخرى للهندسة وأنشأ دار الآثار وأسس المستشفيات والى اليوم لا يزال يرن في وادي النيل اسم سيف وماريت وشامبوليون وكلوت ودى ليسبس وبيسون وهوسار الخ وان ما كتبه الاعلام من علماء فرنسا في الفنون المختلفة في مصر ليتألف منه خزانة كتب كبرى ما برحت الى اليوم والى ما بعد اليوم مرجع الباحثين والدارسين وتذكر بالاعجاب من الخصوم والاحباب .

فلوالي مصر محمد علي ولاسرته الكريمة من بعده الاثر الطيب في تمدين مصر ونقل ثمرات الحضارة الغربية اليها طيبة جنية . فانهم ما قصروا في السير حسب مساعدة الاحوال لهم بسيرة جدهم الاكبر الذي يحق لنا أن ندعوه محيي العرب والعربية وواضع أساس النهضة الجديدة في مصر وفي غير مصر .

وما فتئت مصر منذ قيام الدولة العلوية وقبلها تبيع من العالم العربي بضائع علمها وترسل على بلاد العرب أشعه من نبوغ أفرادها . ولولا مصر وما جدّ فيها من التجدد لقضي حتى على اللغة العربية . ولئن لم تستطع مصر أن تضم اليها ما كانت تطمح اليه من الاقطار المجاورة فإنها غزتها ولا تزال تغزوها بعلمها ، ومصر منذ القديم وارثة مجد الامويين والعباسيين كتب لها بما حفت به من الصحارى المحرقة أن تكون بمأمن من غزوات الفاتحين ولا سيما التتر الذين لقي منهم المسلمون في القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر من الهجرة ما دك معالم عمرانهم في الشام والعراق والجزيرة وفارس وأواسط آسيا ، فساغ ان نقول ان العرب الذين أوجدوا مدنيتهم الباهرة في أربعة عصور صرف أعداؤهم التتر أربعة قرون أخرى في دك معالمها .

نعود الى اشباع الكلام قليلاً على مصر فقد قلت في كتابي الحديث « الاسلام والحضارة العربية » انه كان من محمد علي وطريقته المبتكرة في التمدين الذي اقتبسه نبهاء أولاد مصر كل ما قرب الامة المصرية من المدنية الغربية . وكان وادي النيل بجميل صنعه المثال الحي الذي دل به العربي بصورة محسوسة على أنه ليس في دينه ما يحول بينه وبين الحضاره وأنه حفيد أولئك الفاتحين ان نامت فيه زمناً جراثيم النهوض فانها تدب فيها الحياة عند أقل محرك لها . وفي مصر أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات سنة ١٨٧٣ على عهد اسماعيل الذي أخذ من مدنية الغرب بالكبير والصغير وفاخر بأن بلاده أصبحت قطعة من أوربا بتمدنها كما كان ابنه الملك فؤاد الاول واضع أساس الجامعة المصرية واليه يعزى الفضل في احرازها مقاماً عالياً بين جامعات العالم . وكان الخديو اسماعيل يشبه محمد علي كثيراً ويعنى بالتعليم عناية خاصة وقد أنشأ في أيامه مدارس ثانوية وغيرها . ومنها دار العلوم التي خدمت اللغة العربية اجل خدمة .

كانت الحركة الادبية المصرية مبدأ كل نور في الشرق العربي استفادت منه البلاد المجاورة بحكم الطبيعة ولا سيما أبناء الشام ، فان منهم من درسوا في مدارس مصر وتمصروا فخدموا البلاد التي هذبتهم ومنهم من نقلوا قليلاً من النور الى مواطنهم . ولما استولى محمد علي على الشام ودام حكمه فيها تسع سنين أثر بابنه ابراهيم ورجاله في ادارتها وتمدينها . فمصر اذن هي التي بدأت تقتبس من نور العلم الصحيح ، ومصر ادخلها من تخرجوا بعلم الغرب في دور ارتقاء لم يسبق له مثيل في الديار العربية ، ومصر هي التي ظهرت فيها آثار المعارف قبل أمها الدولة العثمانية . ومصر أثبتت استعدادها للأخذ بأساليب الارتقاء ، وانها كل ساعة مستعدة لقبول الخير لا تسأل عن مَصْدَره ومُصْدِره

وكان للغرب في هذه الديار منذ أمد بعيد رهبان ومبشرون ولا سيما في الارض المقدسة من فلسطين وفي جبل لبنان من الساحل يعلمون مبادىء العلوم واللغة العربية واحدى اللغتين الفرنسية او الانجليزية وكثر توافدهم منذ جاء البرتستانت سنة ١٨٣٨ يدعون لمذهبهم ، وأسسوا مطبعة كانت منذ سنين في مالطة تطبع الاسفار المقدسة بلغات مختلفة لنشرها في الشرق، ثم تبعهم اليسوعيون

من الطوائف الكاثوليكية فأنشأوا لهم مطبعة طبعوا فيها كثيراً من الكتب العربية القديمة وكثرت بعد ذلك مدارس التبشير تغذيها أمم مختلفة من أمم الغرب وأصبحت بيروت مدينة علم بعد حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤمة وأنشئت فيها جامعتان احداهما تعلم بالانجليزية والاخرى بالفرنسية . ورقيت تجارة بيروت بارتقاء المواصلات البحرية وكانت أصبحت قرية سكانها بضعة آلاف منذ خربتها الزلازل وكانت فيها مدرسة الفقه في عهد الرومان تخرج قضاة المملكة ولها شأن لا يقل عن شأن مدرسة البطالسة في الاسكندرية .

وتأخرت دمشق عاصمة الامويين القديمة ومبعث النهضة العربية الاولى في باب التمدين ، لان الترك العثمانيين لم يكونوا أمة علم وفن كما كانوا أمة حرب وسياسة فأغضوا عمداً أو عن غير عمد عن المدارس القديمة التي أنشئت في اربعة قرون ، وكان في هذه المدينة لما افتتحوها أكثر من مائة وخمسين مدرسة للقرآن والحديث والفقه على المذاهب الاربعة واربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة وما كان جامع ولا مدرسة ولا رباط تخلو من مدرسة قائمة امامها ، يتعلم فيها الفقراء واليتامى الدروس الاولية ، بحسب عرف تلك العصور ، دع ما كان من عشرات مثلها في حلب والقدس وحماة وحمص وطرابلس وغيرها من المدن الشامية . وكانت كلها تخرج الناس من الامية بحيث كان عدد المتعلمين من اهل البلاد في ظلمة القرون الوسطى اكثر منهم في القرن العشرين لما غادرها الاتراك وهكذا القول في مدارس العراق والحجاز واليمن ومصر وما اليها من شمالي افريقية .

وكان في معظم هـــذه المدارس خزائن كتب وتكثر فيها عامة المرافق واسباب الراحة والتشويق للطلبة . كل ذلك اتى عليه الخراب ، واكل من فسدت ضمائرهم اوقافها واحباسها ، ود كوا معالمها فجعلوها دوراً او حوانيت او اصطبلات او خرائب محزنة ينعق البوم في ربوعها ، وتشاهدون منها امثلة كثيرة في جميع احياء دمشق وصالحيتها وسائر المدن الواقعة بين صحراء التيه والفرات .

ولكن دمشق ، والذكاء مغروس في فطرة أهلها وهم من عناصر راقية تمثلتهم البوتقة العربية ، تداركت امرها بعد الحرب العالمية فانشأت لها المجمع العلمي العربي والجامعة السورية ودور المعلمين والمعلمات والمدارس التجهيزية ـ حكومية وخصوصية ـ واستكثرت من المدارس الابتدائية في المدن والقرى فلحقت في سنين قليلة ماتقدم غيرها للاستعداد له أعواماً طويلة .

بدأ سكان جبال الشام بالهجرة الى الاميركتين منذ سنة ١٨٧٦ يطلبون الرزق ، فاختلطوا بالغربيين في ذهابهم وإيابهم وفي حلهم وترحالهم ، فكان من لا يعود منهم الى وطنه بمال يذكر يرجع الى أهله بما اقتبس من بسائط المدنية . وكثر بعد ذلك في تونس والجزائر ومصر والشام وغيرها من الامصار التي يتكلم أهلها بالعربية عدد السائحين والمتجرين والباحثين في الآثار وطبائع الامصار من أمم الغرب يزورون ما أبقته المدنيات القديمة من العاديات الدينية والمدنية ، ومنها ما تقدسه أمم الغرب لأنها موطن المسيح ومظهر عجائبه ومنها مايدهش له الغربيون كآثار الفراعنة في مصر وكمصانع تدمر وبعلبك وجرش ووادي موسى في الشام وآثار قرطاجنة وغيرها في افريقية .

وكان من أثر اختلاط الجزائريين والتونسيين والمصريين والشاميين بالغرب ومن أثر أخذ بعض أبناء هذه الأقطار بأساليب المدنية الجديدة أن دخل الاصلاح أيضاً على المدارس الدينية القديمة . فالأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس ليسا اليوم على حالة من الجمود الذي كانا عليه من قبل ، لأن التنظيم الجديد دخل اليهما ما أمكن ، فتحسنت حال المتخرجين فيها أكثر من المدرستين العظيمتين اللتين تماثلها في انشاء رجال الدين ، عَنيت بهما مدرسة النجف الأشرف في العراق ، وجامع القرويين في فاس فانهما مابرحتا على قديم حالها الذي لاتغبطان عليه كثيراً .

وعلى أثر هذا التمازج بين المدنيتين تم استبطان أدباء العرب أسرار ماتم للغرب من النهوض بآدابه . ومعظم السبب فيه تعلم النابهين بعض

اللغات الغربية ولا سيما الفرنسية والانجليزية ، فخلعت الآداب العربية ثوبها القديم البالي في عصور الانحطاط وتحلت بثوب جديد ، فنبغ فيها بعض شعراء أعادوا الى اللغة رونقها الذي كان في العصور الخمسة الأولى للاسلام . واتخذوا للكتابة والخطابة نمطاً جمع بين متانة القديم ورشاقة الحديث ، ودخل التأليف بالعربية اليوم في طور يأخذ بمجامع الألباب ، فصح أن نقول : ان العربية في الخمسين سنة الأخيرة ارتقت ارتقاء عظيماً لم تبلغه في عصر من عصورها ولا نظن أنه كتب للغة من لغات الارض مثله في هذه المدة القصيرة . فكأن العرب أعادوا بذلك تقاليدهم القديمة أيام فتحوا في مائة سنة لأول أمرهم معظم العالم القديم ، ونشروا في ربوعها لسانهم ودينهم وأوضاعهم على مالم يسبق له مثيل في التاريخ .

وبقدر ما كان العرب سراعاً الى الخير في أيام قوتهم أصبحوا الى تباطؤ في أيام ضعفهم . مثال ذلك أن الغربيين بدأوا بطبع الكتب العربية في أول مطبعة أنشئت في مدينة فانو على بحر الادرياتيك سنة ١٥١٤ ومنذ ذاك العهد هم يحيون من أمهات كتبنا كل مفيد . ونحن مع هذا لانبالي بما يصنع الغريب لنا ولا نصنعه لأنفسنا . ومضى أكثر من قرنين والغربيون يطبعون من كتبنا في ايطاليا ثم في هولاندة وغيرها حتى انتبهنا في القرن الماضي لصنع الحروف والطبع بها ، هذا بعد أن أنشأت معظم الدول الأوربية مطابع لها عربية وكانت بدأت منذ القرن الرابع عشر تنشيء مدارس في بلادها لتعليم اللغة العربية وتحرص على جمع مخطوطاتنا حرصها على أهم ذخر تقتنيه ، ولذلك كانت خزائن العواصم في الديار الاوربية لا تخلو الواحدة منها من ألوف من المخطوطات العربية التي أخذوا أكثرها بالشراء الشرعي من خزائن الشرق بعد أن زهدت فيها وما عرفت لها قيمة أدبية ولا مادية . أما الغربيون وعلماء المشرقيات منهم خاصة ، فما فتئوا الى الآن يطبعون النفائس النادرة من كتبنا بأمانة وتدقيق يخدمون بذلك العلم عامة والعرب والعربية خاصة .

لو لم يكن من نتائج هذا الاحتكاك بين المدنيتين الغربية والعربية الا أن الناس أدركوا بعد زمن أن لاحياة لهم بغير العلم والصناعات على مثال الغربيين لكفى في عظيم شرفه وجزيل فائدته . فقد كان الناس قبل سبعين أو ثمانين سنة يساق أولادهم الى الكتاتيب في البلاد الشامية بقوة الجند والدرك ، وكان التعليم على عهد محمد علي في الديار المصرية مكروهاً عند المصريين كرهاً شديداً حتى اضطرت الحكومة المصرية في بعض أدوارها الاولى أن تتخطف تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى كما يتخطفون عساكر الجيش ، فزاد اليوم اقبال المتعلمين على المدارس زيادة مستغربة وغدا أهل كل قرية بل أهل كل قبيـــل في البوادي يحتالون الى تعليم أبنائهم بكل حيلة . دع سكان المدن فانهم من ذلك على حصة موفورة .

هذا ما كان من أمر التعليم أما سائر مرافق الحياة فكانت أحط من ذلك أيضاً . فالطب وأمور الصحة وتنظيم المدن واختيار المياه الصالحة للشرب كان مما لايؤبه له كثيراً ، ولذلك كانت الطواعين والاوبئة والأمراض الوافدة تحصد الناس حصداً كلما انتشرت ، والناس لا يعرفون دواءها ولا من يفكر في تخفيف ويلاتها . ومنهم من يعزو ذلك الى أسباب سماوية ، بغضب الديان على الانسان فيرسل عليه هذه المهلكات ، أو يقوى سلطان الجن على الانس فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، او يحل بهم نَكَد الطالع فتساورهم النقم وتتخطاهم النعم . ولذلك كان من الناس من يفزعون في مداواة أَمراضهم وجنونهم وآلامهم العصبية الى المشايخ والرهبان ، وكان لمزارات الأولياء وأَديار القديسين نصيب وافر من الاقبال ، لا يجد بعض الناس ملجأً غيرها لمداواة عللهم وأسقامهم ورقية شياطينهم وأبالستهم التي تلبستهم ولابستهم ، فان كان في فرنسا « لورد » ففي بلاد العرب منها عشرات . أما اليوم فأهل المدن الا قليلاً عرفوا مسائل الصحة والوقاية وأصبحوا يتطهرون على الأصول ويتبعهم من أهل القرى الاقرب فالاقرب

من المدن ، وصار البدوي والحضري على السواء يعرفان قدر التطبب في الجملة .

ويطول بنا مجال القول اذا أردنا تفصيل ما أخذه العرب عن الافرنج فقد تعلموا من أهل الغرب معنى الوطن والوطنية وحب الجنس والقومية ونقلوا أوضاعه الاجتماعية والمدنية والسياسية كالمجالس النيابية والحكومات الدستورية وأخذوا منهم أصول الصحافة فأنشأوا صحفاً ومجلات تعنى بالأمور السياسية والمالية والأدبية ، ومنها الهزلي والجدي ، ومنها ما يكون في موضوعات اختصاصية ، ومنها ما يصدر لتسلية الشعب وتعليمه البسائط على مثال ما عند الغربيين منها ، فأثرت مطالعة الصحف في عقول من أكثروا تلاوتها ، ودخلت الأفكار الجديدة أوساطاً ما كان يظن أنها تهتم بها وتستفيد منها ، وبدلت من طرق التفكير وأصول المعايش ونظام المجتمعات ، وعلمت الناس شيئاً من التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والزراعة وحالة الأمم ومماحكات رجال السياسة وغيرهم في العالم وأصبحت الصحافة حاجة من حاجات المجتمع لا يستغنى عنها بحال .

وبفضل الصحف السيارة والدورية والكتب المؤلفة على الطراز الغربي ودروس بيوت العلم ومواعظ المعابد ودور الغناء والتمثيل واسطوانات الحاكي واذاعات الراديو أصبحت الفُصَح من الألفاظ العربية في ألسن الناس وعلى أسلات أقلامهم ومكتوباتهم كأنها من المتعارف . وظهر في العرب رجال نابهون في القانون والادارة والجندية والطب والهندسة والزراعة والكيمياء والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والشعر والكتابة والادب والتصوير والموسيقى والنحت والنقش والطيران ، ومنهم من لا يقل عن أرقى الطبقات أمثالهم في الغرب . وعرف العرب أن أعظم سبب لارتقاء العلوم والصناعات في الغرب هو الاختصاص فأخذوا يخصون في العلوم ويتقنونها اتقاناً محكماً على مثال من سبقوهم فيها .

ولا نبالغ اليوم اذا ادعينا أن جمهرة كبرى من شبابنا بما اختصر لهم من مراحل التعليم وبما حدث من طرق التدريس العملية الجميلة قد

تعلموا أشياء كثيرة من ضروب العلم أصبحوا بها مفخرة بمعارفهم ، وما كنا نسمع بمثلها يجتمع لفتى في الخامسة عشرة من عمره ، ولا بالاطفال من البنين والبنات يربون في رياض الأطفال هذه التربية العملية الصحيحة ولا بربات الحجال ينافسن في التعليم العالي الرجال .

كل هذا أتانا من حسنات المدنية الغربية وتقبلناه بقبول حسن ، والغرب في معاناته ليس قديماً كثيراً على ما يظهر ، ذلك لأن العلم كما قال شارل ريشه في كتاب العالم (من مجموعة أخلاق هذا الزمان) يسير الى الامام بسرعه تحير العقول ، ومع هذا لم يبرح فتياً غض الاهاب وعلى ما كتب لطاليس وأرخميدس من النبوغ لم يعرفا شيئاً مما يعلم اليوم في المدرسة الابتدائية ، وأجهل شاب حاز الشهادة الثانوية يحسن اموراً كثيرة كان جاليله يجهلها بالمرة ، ولم يمض من عهد فرنكلين الى آنشتين مائة وخمسون سنة كاملة ، ولم يكن يعرف علم مطمورات الارض من النبات وغيره ولا علم الجراثيم ولا الحاكي ولا الطيران ولا السكك الحديدية ولا الحل الطيفي . فعمر الانسانية العلمي لا يقدر له أكثر من مائة وخمسين سنة ، وهي أربعة أجيال نرى وأنت ترى أن هذا العمر غير طويل اهـ .

أخذنا من الغرب طب الحيوان والدواجن ومكافحة الحشرات ، وكان الجراد وحده اذا انتشر في قطر يفقره ويقفره ، واستعملنا الأسمدة الكيماوية والطرق الحديثة في الري وحرث الأرض وزرعها وحصد الغلات من الحقول وحملها ودرسها وتذريتها بأدوات ما كنا نعرفها . وهكذا استعملنا المكابس والمعاصر والمحالج والمغازل والمناسج وتعلمنا تمديد الخطوط الحديدية وفتح الانفاق وبناء الجسور والطرق والمرافيء والخزانات والمنائر وحفر الآبار الارتوازية واقامة الدور ذات الطبقات الكثيرة وتوليد الكهرباء ومد أسلاكها وانارة المدن والقرى بها وتسيير عجلاتها في الحواضر والضواحي واتخذنا أصول البريد الجديدة والبرق والهاتف واللاسلكي والسلك البحري والراديو . واقتبسنا منهم تنظيم المدن والبلديات وفتح الشوارع

والساحات ورصف الطرق وجر المياه في قساطل ومناهل وتجفيف المستنقعات . واقتبسنا أصول الجندية والبحرية وتدوين الدواوين وأسلوب الجباية وادارة المصارف والجمارك وأصول الشركات وتأليف الجمعيات والمؤتمرات ووضع الاحصاءات والمفكرات والجزازات والاعلانات وجميع الأصول الحديثة ، وتمثلنا أكثر صناعات الغرب القريبة المأخذ فأنشأنا معامل الأنسجة والأصواف والأجواخ والجلود والاسمنت وحفظ الثمار والبقول وغير ذلك . كما أنشأنا مدارس على مثال مدارسهم ومستشفيات على صورة مستشفياتهم وقلدناهم في الحسن والقبيح . وأثروا فينا بمدارسهم وجامعاتهم وأنديتهم ومعاملهم ومخابرهم ، وشاركناهم في الانتفاع بأكثر ما اخترعوه وكشفوه الا أننا ويا للأسف حتى اليوم لم نر اسماً لعربي واحد معاصر اخترع اختراعاً مفيداً وكشف كشفاً جديداً ، يضاف الى مئات من المخترعات والمكشوفات التي كشفها علماء الغرب وبقينا عن عملهم بمعزل وكان أجدادنا على مثالهم اليوم يفكرون ويبحثون .

وجاء فيهم أمثال الكندي وابن سينا وابن رشد والفارابي وابن زهر والرازي وابن جابر والبيروني وابن الهيثم وابن باجة وابن خلدون وابن الرومية والبتاني وبنو موسى بن شاكر وأبناء بختيشوع وأبناء ماسويه وابن جزلة وابن يونس والفرغاني وابن البيطار والخوارزمي والهمداني الى أمثالهم ممن نبغوا في العلوم المادية . ولا نذكر الا بعض من اشتهروا عند الغربيين منهم . أما علماء الشرع والآداب فأكثر من أن يحصوا أو أن يشار اليهم وفيهم من هو كأفضل الممتازين من علماء الغرب منذ انبعثت نهضته الاخيرة . وعلماء العرب هم الذين نقلوا علوم اليونان والفرس والهند وزادوا عليها وبرزوا في أكثر مظاهرها وهم الذين عرفوا أوربا اللاتينية والانكلوسكسونية بالآداب اليونانية والفلسفة اليونانية ، ونشروا أنوار معارفهم في الغرب من أرض الاندلس وصقلية ، فشبه جزيرة الاندلس تولت نقل الحضارة الى غربي أوربا ، وجزيرة صقلية تولت نقلها الى أواسط أوربا . وفي بلرم عاصمة صقلية أنشأ العرب أول

مدرسة طبية في العالم ، ولم ينشأ مثلها في الامم الاخرى الا بعد سنين وكانت كتب العرب في الطب وفيرة تقرأ في جامعات الغرب بل عليها المعول مدة ستمائة سنة .

نعم كان أجدادنا العرب كذلك في العلم والعمل على ما بسط ذلك جملة من العلماء أمثال دوزي ودروي وسيديليو ولبون وغوتيه وسنيوبوس ورنان وهوار وريبون ودي كاستري وميجون ولافيس ورامبو . قالوا ان العرب برزوا في علم الفلك لانهم امتازوا بالرياضيات واخترعوا أساس حساب المثلثات . وقد كتبوا أول كتاب في الجبر وكشفوا الاقطار فدونوا كل مايفيد علم الجغرافيا وقالوا بكروية الارض ، واخترعوا البارود وعمل ابرة السفينة ، وعلموا أوربا صنع الكتاب والورق ، وعرفوا طريقة عمل الجليد الصناعي ، ولم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من الآلات . وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الاثقال ودعاهم الى استعمال الربع والاصطرلاب في علم الهيئه ، واستخدام الموازنة في الكيمياء وصنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة . ورسموا خرائط النجوم المنظورة في فلكهم وعرفوا حجم الارض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين واستعملوا أول الناس الساعات المتنوعة ولا سيما الساعة الرقاصة وكشفوا أجزاء مهمة في الكيمياء كالحامض الكبريتيك وحامض النتريك والكحول فاستخدموا الكيمياء في المعالجات الطبية ، وكانوا أول من نشر تركيب الادوية والمستحضرات المعدنية ، وقرروا نواميس سقوط الاجسام وكان لهم رأي جلي في طبيعة الجاذبية ورأي سديد في القوات الميكانيكية واصطنعوا في نقل الموائع وموازنتها الجداول الاولى للجاذبية النوعية ، وأصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويحس المرئي فيظهره ، فقالوا

ان الشعاع يمر من المرئي للعين ، وأخذوا ارتفاع القطب ودور كرة الارض المحيطة بالبر والبحر وحققوا طول البحر المتوسط الذي قدره بطليموس باثنتي عشرة درجة فأرجعوه الى أربع وخمسين أولاً ، ثم الى اثنتين وأربعين درجة أي الى الصحيح من مقداره تقريباً .

وعرفوا النشوء والارتقاء فكانوا يدرسونه في مدارسهم ، واكتشفوا مرض النوام وكادوا يهتدون في الاندلس الى معرفة الجراثيم على ما يفهم ذلك من كتاب ابن خاتمة الاندلسي في الوباء ، واكتشفوا منابع النيل قبل أن يتصدى لها الافرنج ، ووصلوا الى أماكن من مجاهل افريقية ونشروا فيها دينهم ، قبل أن يبلغها الغربيون بقرون . وأدركوا أن في الارض أقطاراً لم تكتشف قبل أن كشف كولمبس وفاسكودي جاما ماكشفاه من الارض بمعاونة بحارة من العرب . وبالاستفادة بما كتبه علماؤهم في الجغرافيا والفلك والرياضيات .

وسبق العرب الى اختراع طريقة الكتابة بالحروف البارزة وبدأوا في الاندلس بالطيران ، حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى ووضع الآلة المعروفة بالمثقال لمعرفة الاوقات ، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يخيل للناظر أنه حقيقة .

وعرف العرب الطبع بغير الحروف قبيل مخترعه جوتنبرج بأربعمائة سنة ، وهم الذين عرفوا صنع الشمع والجوخ وعلموهما أهل أوربا ، ومما علموه في الزراعة والري واستخراج المعادن المختلفة وكل ما ينفع التجارة من دور صناعة ومرافيء بحرية في كل أرض حلوها مثال من مدنيتهم الباهرة . واذا أردنا أن نحكم عليهم بآثارهم تكفي نظرة قليلة على ماتركته الايام منها في الاندلس ومراكش وتونس ومصر والشام وغيرها وبها نتبين جمال ذوقهم في الفنون الجميلة وانهم أمة شعر وخيال كما أنهم أمة علم وعمل .

كان يقرأ الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية في أوربا في كتب

العرب ، وظل قانون ابن سينا في الطب يقرأ في جامعات الغرب حتى القرن الثامن عشر ، ولذلك نرى مئات من الالفاظ الطبية والفلكية والبحرية وغيرها دخلت في لغات أوربا ولا تزال برهاناً على مدنية أعطى فيها القوي الضعيف بعض مايملك . وأفضال العرب على جامعة مونبليه وجامعة بادو لاتنكر ، وكثير من كنائس فرنسا هندسها مهندسون من العرب ولاسيما كنيسة نوتردام دي باري في باريز ، فانه ثبت انه عمل فيها مهندسون من العرب . وربما كان ربع اللغة الاسبانية من اصل عربي وكذلك دخل مئات من الالفاظ العربية في البرتقالية والفرنسية والايطالية حتى ان لغات شمالي اوربا نفسها قد دخلها كثير من الالفاظ العربية ، وأهم ما نشره العرب بين الامم وما كان لهم به عهد على ما يقول غوستاف لبون هو « التسامح » و « حسن الاخلاق » فدلوا بذلك على ان المحافظة على الدين في الانسان لاتمنعه من ان يتقبل كل فكر جديد نافع .

أرانا نكاد نخرج عن موضوعنا الذي رسمناه في أول المحاضرة ، وهو حظ العرب اليوم من اقتباس مدنية الغرب ، وما كان تعرضنا لما أخذه الغرب عن العرب الا للتذكير ، والتفصيل في ذلك قد كتبت فيه كتب مطولة في لغات العلم الحديث وكل من درسوا الحضارة العربية من الغربيين مجمعون على الاعجاب بما أتته العرب بتجاربهم في الصناعات والطب والكيمياء والاقرباذين وفي تبليد الاشجار والازهار وغير ذلك .

كان من أهم الدواعي في تراجع الحضارة العربية أن أعظم عظيم في العرب كان يرى من الطبيعي أن يعمل بيده في صناعة من الصناعات وأن يعنى بزراعته ويعمل فيها بنفسه ، فلما ضعفت الاخلاق وانغرس روح الاتكال في أهل الاجيال التالية وأخذوا يعتقدون أن الصناعات اليدوية ومذاهب المعاش الطبيعية لا تورث صاحبها شرفاً كما يورثه التمجد الذي يناله المرء في أعمال الحكم والقضاء والجندية سقطت حضارتهم وزاد فقر أهلها وأصابهم في هذا المعنى ما أصاب الاسبان لما قضوا على العرب في بلادهم ، ثم فتحت أمامهم أميركا ، فكان المال يأتيهم بدون تعب ،

واستنكفوا بما أصابهم من الغرور عن تعاطي الصناعات فأمسوا أفقر أمة في الغرب ، وربما عدهم بعض الباحثين كالفيلسوفين الفريد فوليه وغوستاف لبون من أحط الامم الغربية ، وأنا أجسر وأقول ان مصر العربيـة اليوم أرقى من اسبانيا في كثير من مظاهرها .

اشتدت سيطرة رجال الدين المتعصبين في الاسلام بعد القرن الخامس من الهجرة بما كان لهم من النفوذ في قصور الملوك المستبدين الجـاهلين فضيقت منافذ العقل على الباحثين ، فبدأ الانحطاط يتسرب الى أوضاع الشعوب العربية . والامة التي لا ترتقي تتراجع . وكأن نسبة الترقي في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر عند أمم الغرب كانت على مقدار التدلي في كل شأن في البلاد العربيه . ومن أهم ما قذف بالأمة العربيه من حالق كون من استولوا عليها كانوا من عناصر غير عربية ، اهتموا بدوام سلطانهم أكثر من اهتمامهم بالمحافظة على تراث العرب العظيم ، فأكلوا من ثمراته وانتفعوا ببقاياه ، فلما نضبت هلكوا واهلكوا من حكموهم .

علل بعض الباحثين في ان العلة في انحطاط العرب كانت دينية ، والحقيقة أن الدين في سذاجته الأولى لم يحل دون العرب والاخذ بكل جديد في الفلسفة والفكر ، وما تسرب هذا الضعف الا بما دخل على الدين من الاوهام فأخذ بعضهم يعـده ديناً وما هو به . مثل الطرق الصوفية التي اخملت النفوس وأضلت العقول . وهذه الاوضاع هجمت عليهم من الاعاجم والآريين من الهنود ، فصاروا في بعض الاصقاع يفكرون في الآخرة على الصورة التي صورتها لهم طرقهم اكثر من تفكيرهم في أمور الدنيا التي لا تستقيم الا للعامل والباحث والمفكر ، وبالانغماس في هذه المعتقدات — التي يقضي عليها العلم والتربيه الحديثة اليوم — زهدوا فيما عندهم وعند غيرهم من طرق النجاح وأحالوا مسائلهم على الاقدار وكان الاعتقاد بالقضاء والقدر على وجهه المعقول ، من موجبات ارتقائهم لاول عهدهم ، وأصبح أيام ضعفهم من دواعي تخاذلهم وفشلهم .

مهما قيل في سيطرة الكنيسة في الغرب قروناً طويلة حتى تحررت الشعوب من سلطانها فانه كان منها أمر واحد لا مجال للشك في فائدته وأعني النظام المشدد على رجالها حتى لقد حرمت الكنيسة عليهم الزواج وما كان في اصل الدين محرماً على رجال الدين حتى لا يدخل خلل في تطبيق الانظمة المرعية ، وبهذا وجهت الهمم الى مقصد واحد معين مهما كان في سبيل تحقيقه من المتاعب فهو من حيث النتائج نافع لانه يعلم التسلسل في الاعمال والدؤوب عليها ويلقن الناس حب النظام والتدقيق ، وهذا ماحرمه العرب لان لا رهبانية في دينهم وليس لاحد على احـــد سلطان الا ماقضى به الشرع العام .

اما ما قيل من ان المدنية هي ابنة الارض الباردة ، فلا يصدق الا الى حـد معين ، ولو كان الامر كذلك ما قامت مدنية العرب قيـامها البـاهر ، وهي من صنع عرب الجزيرة اولاً ، ثم من صنـع من انضم الى لوائهم من الفرس وغيرهم من العناصر التي انضوت اليهم ، واقتبلت بالرضى معتقداتهم وأوضاعهم . بل لو صح ذلك لما قامت مدنية الفراعنة ام المدنيات القديمة كلها في قطر نصف سنته حرارة ورياح سموم . لاجرم اننا نشاهد اليوم في الغرب اهل الشمال من كل امة أرقى وأنشط من أهل الجنوب في عدة اعتبارات ماخلا الجزائر البريطانية التي لايكاد يختلف شماليهـا عن جنوبيها بهوائه وسمائه . ولكن هذا النظر أيضاً يختلف ، ويتخلف اذا درسنا حالة رقي اليابان وعارضناها بالانحطاط الطاريء على الصـين ، ولو صحت نظرية البرودة والحرارة في ارتقـاء الامم لكانت سيبريا أرقى من فرنسا وألمانيا وانكلترا ، ولو جاز أن يقـال ان للمعتقدات اثراً ظاهراً في تدلي الشعوب لناقضنا ما في اديان البراهمـــة والبوذيين من اشياء ، وقد رأينا في تاريخ من يدينون بها أدواراً مهمة من الارتقاء لا يسع منصفاً انكارها .

المدنية العربية في مجموعها وليدة البحث والدرس والنظام وحسن الادارة وهذا ما تطمح اليه الشعوب العربية واخذت تقتبسه وتتمثله ، ونأتي على ذلك

ببرهان قريب اذا نظرنا الى الشعوب العربية التي خملت ولم تتمثل الحضارة كأهل اليمن والحجاز ونجد اذا قيسوا بأهل مصر والشام وتونس الذين عملوا وتعلموا . وفي اليوم الذي يدخل العلم حراً طليقاً على عامة الشعوب العربية والمستعربة ترقى كلها الى الدرجة التي تتطاول اليها من الاخذ بقسط وافر من المدنية ، ولا يكون حظها على الاقل في هذه السبيل اقل من حظ الشعوب البلقانية ان لم نقل اكثر من حيث الاخلاق والتربية وصحة التفكير والتقدير .

في خدمة العربية (١)

هل وفت العربية بغرضها

اذا تدبرنا ألفاظ الكتاب والسنة وألفاظ الشعراء والخطباء ، وأمعنا النظر في بنية الكلام العربي منظومه ومنثوره ، منذ كانت اللغة العربية لغة شعر وخطب الى أن غدت لغة شريعة وأدب الى أن درجت لسان علم وسياسة ، ثم نظرنا فيما أبانت عنه هذه الالفاظ ، وما تركب منها من أغراض ساذجة أو مركبة — اذا تدبرنا كل هذا يعرض لنا سؤال يستلزم جواباً ، وهو هل وفت العربية بما تفي به لغة عظيمة خلال هذه القرون الطويلة ، أم عصت على القيام بالغرض المطلوب لما تم لها عهد الجاهلية ، ويقدر بمئة وخمسين سنة وقد خرجت من جزيرة العرب الى الاقطار التي رحبت بالاسلام .

وعرفنا من سير هذه اللغة وسيرتها أنها كانت في جاهليتها وعالميتها سواء ، تؤدي المقاصد وتوفي على الغاية ، كانت كذلك وهي بمعزل عن العالم ، وكذلك صارت لما عرفت لها معان اقتضتها وضع ألفاظ ومدلولات

(١) فيما يلي نموذج من الخطب التي القيناها في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة

واصطدمت يوم امتزجت بالاجانب ، وسرت اليها لوثات أغلاطهم وأساليبهم ولهجاتهم ، كما سرت اليها طرق تفكيرهم واللهج بأساليبهم بالجدل والمناقشة

العربية ما خارت قواها يوم أُريدت على نقل علوم اليونان والفرس وغيرهم ، بل زادت قوة عندما ضمت الى متنها كلمات وكلاماً ماعرفها أبداً ابن الجاهلية ولا ابن الصدر الاول ، تبنت كل ما دخل عليها وما أنكرته فعاد كأنه أصيل فيها غير دخيل عليها . وطريقتها أن تشتق من أصلها ما استطاعت اشتقاقه فتضع له لفظاً يقارب ما تقصد اليه من معنى ، وما لم تجد له في بحرها الطامي مقابلاً من الالفاظ تنحته أو تشذبه حتى تقرّبه من ذوقها فاذا أعجزها كل أولئك اقتبست اللفظ كله وان خالفت بعض حروفه حروفها ، وبعد بأسلوبه قليلاً من أسلوبها . وهذا من بعض الادلة على أنها مستعدة للتجدد غير جامدة ولا راكدة .

مضت اللغة على هذا النحو تقوى بانتشار العلم وتضعف بضعف أهلها والضعف ينالها من زهد أبنائها في العلوم والتجانف عن دراسة الآداب دراسة تبحر . ولقد كاد يذهب من يشخص أعراض أمراضها زمان التراجع الى أنها من اللغات الميتة المحكوم عليها بالانقراض ، فلا تلبث ان تكذب ظنون اعدائها وتعود فتهب هبة جديدة ملؤها صحة ونشاط . ويرجع الفضل في ابلالها من اعتلالها ابداً لاحتفاظها بكتابها الكريم ثم لاستمساكها بآثار المجودين من بلغاء السلف .

قضت هذه اللغة في الاسلام نحو نصف حياتها في استعمال الاسجاع والجناسات فأوشكت ان تضيع رشاقتها بهذه البدعة في نسج كلامها ، وما زالت تهوي فتفسد ملكتها وتخرج عن طبيعتها حتى قيض لها آخر القرن الماضي من نشلها من سقطتها وعاد بها سيرتها الأولى من ترك التكلف والرجوع الى الطبع . ورحنا نشهد كتابتها أشبه بكتابة القرن الرابع ، ونرى شعراءها ينحون مناحي شعراء الحضارة في العصر العباسي الأول والثاني ، ومن قرأ مقالة مما تنشره الصحف والمجلات أو فصلا من تأليف حديث صدر من قلم رجل درس العربية دراسة نظامية او قصيدة من

قصائد المعاصرين ، يدرك بأدنى تأمل كيف أخذ الكتاب والشعراء يحسنون رصف الكلام البليغ ويقدّرون الالفاظ بقدر المعاني ، وكانوا الى عهد قريب يَصفُّون الالفاظ صفاً لا ينم عن ذوق ، ويكثرون من المترادفات ليتألف معهم السجع والازدواج وتستقيم القافية والوزن . أي أن اللغة آضت في النصف الثاني من القرن الاخير ورأس مالها الفاظ لا يعرف مالكوها كيف يتصرفون فيها . والالفاظ مهما تنوّق في اختيارها لا تبرز في قالب مقبول الا بجودة التركيب ، فالبلاغة في التركيب والفصاحة في تخير الالفاظ . ومهما حاول الكاتب احسان القوالب لا يكون الا الى التفاهة اذا كان المعنى في ذاته مبتذلاً مطروقاً . والمعاني كما قال العارفون صوغ العقل واللفظ صوغ اللسان .

وحاول في هذا العصر بعض المتحذلقين الذين لم يُعنوا بدرس أدب هذه اللغة أن (يفرنجوا) ألفاظها وتراكيبها ، فعمدوا الى استعمال كل ساقط من اللفظ والتراكيب يعبرون عن أفكار لا تستسيغها أذواقنا ، يريدون بهذه البدعة أن يستروا نقصهم بدعواهم أن كتابتهم عصرية ، وشعرهم عصري ، وأنهم يحببون اللغة الى أهلها بهذا الاسلوب الذي ادعوا له الرشاقة وما هو الا السماجة بعينها ، وكيف لعمري تصح دعواهم وهم مادرسوا الأدب العربي ولا الادب الافرنجي يملون مالا محصل له ، ويضعون جملًا لو سألتهم تفسيرها لعجزوا وجمجموا .

حاولت غير مرة أن أنفذ الى روح هذا الادب العصري الذي حمله الينا المفسدون فلا وربك ماتفهمته ولا تذوقته ، ورجعت بعد العناء وبيدي شعر غث بارد تجرد عن الشاعرية وخرج أحياناً عن الاوزان العربية لا موضوع له ولا مغزى ، وانقلبت بنثر لا ماء له ولا رواء ، خال من كل جزالة ، معقد غامض لا يصدر مثله الا عمن يهذي . هذا ادب هؤلاء القوم الذي صدّعوا به الرؤوس ، وعتبوا على دهرهم ان كان المقبلون عليه اقل من القليل . ولقد قرأنا ادب الافرنج فأعجبنا به واستفدنا منه ، وقرأنا طائفة من ادب الامم الاخرى منقولاً الى لغة

الافرنج فهدينا به الى اشياء كثيرة ، اما هذا الادب العصري فعصرناه عصراً متيناً فما رأينـا له بلة ولا طلاوة ، وحرنا وقد أزعجتنا دعوى أدعيائه وصلفهم في أي رف ندحسه وفي أي كوة ندسه .

انهم يحاولون ان يأتونا بلغـة يبتدعونها على هواهم ، ويرغموننا على ان نشايعهم بأنها لغة عربية ، والفصحى تخالف روحها ذلك ويأباه ، العربية تزدل من يعقها ويزعم أنه بار بها ، العربية خلقت كما قال العلامة رنان كاملة من اول نشأتها خلافاً لاكثر اللغات التي كان الأيام يد في تكملها ، تكيفها حاجة الناطقين بها ويعمل الزمن في تنميتها . وقد جرت لغتنا منذ عرفت على نظام واحد وجاءت تامة بصيغها ومبانيهـا تتجدد بالمعاني التي تدخل عليها والالفاظ التي تستدعيها تلك المعاني .

واقد رأينا أدب العرب في الاندلس والغرب كأدبهم في فارس والشرق لاتفاوت بينها في القواعـد والروابط والالفاظ والتراكيب اللهم الا ان كانت هناك مسحة أتت من بعض صور المعاني المنبعثة من علم المؤلف أو الكاتب او الشاعر ومصطلحات اقليمية وعادات أهله . وهذا لان المصادر التي يستقي منها أهل الخافقين واحدة وما حدثت نفس احد ابناء اللغة ان يخرج عنها قيد أنملة ، وأن يخرق اجماع العارفين الذي تسلسل اكثر من خمسة عشر قرناً . ولو لم تصب العربية بعصيبة التكلف والاسجاع لكانت صور الاداء في القرون التي سبقت الاسلام كصورها في القرون التالية الى يوم الناس هذا . كانت الالفاظ اذا لوحظ فيها الابتذال في بعض العصور بضعف ملكة الادب يقوم أناس يرجعونها الى محجتها المرسومة ، ويحيون من معالمها ما تعود به اشد رصـــانة ، ويبعثون من شواردها وفصحها ما اماته الجهل وقلة العناية .

نعم كانت اللغة اذا مرضت حيناً من الزمن لاتلبث ان تبرأ بظهور أساة من البلغاء يكشفون اسرار فقهها ، ويقومون مناد الالسن والاقلام ويتوفرون على « التوسع في علم اللغة خاصة » لتكثر الالفاظ عند « من يطاب الترسل وقرض الشعر وعمل الخطب » ، « وليعرف العلوي من الكلام فيستعمله والعامي فيتقيه ويجتنبه » .

وجاء عصر منع الفقهاء في بعض الاقطار العربية قراءة التفسير زاعمين ان بقراءة تفسير القرآن يموت السلطان وما يموت في الواقع الا الجهل ، وما حاول العابثون بذلك الا ابقاء الناس في عماية والتزلف من السلاطين ويستحيل على من لم يحفظ القرآن ويتدبر معانيه وينظر في احكامه ان يحرز منزلة في البلاغة وعلوم الشرع ، وهذه العلوم لايتقنها من ليس له حظ من الكلام العربي ، وهل القرآن الا كتاب ادب العرب كما هو كتاب شريعتهم ؟ وفرق بين فقه يدونه فقيه يكون على شيء من تذوق البيان وفقه يكتبه فقيه ليس من البلاغة على عرق ، وهكذا الحال في سائر العلوم . ولو كتبت جميع علوم الاسلام بلغة بليغة ما استلزم تحصيلها الاعوام الطويلة .

وما خلد ماكتبه نصارى العرب وغيرهم من ارباب النحل الذين ظهروا في عصر الاسلام الذهبي اي في القرآن الثالث والرابع من الهجرة الا لانهم كانوا يدرسون القرآن على انه المصدر الاول في احكام اللغة العربية ، ولا نمثل الا بأبي اسحق الصابي وحنين بن اسحق ويحيى بن عدي ممن كتبوا تآليفهم مؤمنين ببلاغة القرآن وان لم يؤمنوا به ايمان المؤمنين من اهله .

وبعد أن دخل الفساد على اللغة أواخر القرن الأول للاختلاط بالأعاجم غدا أهل اللسان يتعلمون لسانهم في الكتب ، ويتخرجون بجهابذة اساتذته تخرجاً لمنابذة العامية والابقاء على الفصحى . ومن قعدت به الهمة عن اختيار الجيد من المفردات والجيد من المركبات فهو العيّ كل العيّ ، وإن قضى أعواماً في درس الصرف والنحو والبيان والبديع .

ما اللغة الا مفردات وقوالب لا دساتير وتعليلات ، وكم من حافظ للقواعد عاجز عن البيان المعجز كله ، وما نخال الجاحظ وابن المقفع حفظا من مطولات النحو ما حفظه بعض علماء النحو وما كان الأحمدان أحمد ابن يوسف الكاتب وأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية كابن المعتز والعسكري في معرفة الجناس وزخارف البديع ، وثقوا أن ابا تمام

والبحتري والمتنبي ما عرفوا علم العروض كما عرفه اقل العروضيين ، وأن القاضي علي بن عبد العزيز وتلميذه عبد القاهر الجرجاني ابدعا ببيانهما ما لم يبدع بعضه من وضعوا قواعد هذا الفن . ولو حصر اهل البلاغة قرائحهم في الحدود الضيقة التي حددها البيانيون لما ارضوا انفسهم ولا ارضوا الادب ، ولرجع هذا اللسان القهقرى فأجدب بعد الخصب ، وشحب بعد النضرة . لا جرم ان اللغة كانت تضعف اذا ظن الأمناء عليها ان حفظ القواعد وحدها مما يقيها عوارض الانحلال .

كانت اللغة وافية بحاجة اهلها اذا كان المنتدبون لتغذية عقول بنيها على جانب من المحافظة على الرسم الذي وضعه البلغاء يجهدون جهدهم في تنمية ثروتها من الألفاظ والمعاني ، مراعين حالة جسمها وروحها ، وجسمها ألفاظها وروحها معانيهـا . واذا كان معظم اللغات الأوربية يشتق من اللاتينية واليونانية ما يعوزه من الالفاظ الجديدة فان العربية تستقي من مادتها الثرة التي لايكاد ينضب معينها على الدهر .

والى هذا ما كانت العربية لغة بداوة حتى يوم كانت لاتعرف غير الجزيرة موطناً ، بل خصت على اختلاف الأزمان بدقة التصوير ووجازة التعبير فبرزت لغة حضارة تقبل أصناف المعاني ، بقـدر ما يتسع له صدرهـا وتشتد اليه حاجتها . ولو كانت العربية لغة بادية جافية جاسية ما وقفنا في المعلقات السبع وغيرها من الشعر الجاهلي على أخيلة عجيبة ، وحكم بارعة ، ومعان لا تصدر الا عن مجتمع يتسامى ببلاغته ، ويزْهى بأدبه ، وفي معلقة زهير بن أبي سُلمى مثال ظاهر يؤيد هذه الدعوى . وهل يتأتى أن يقول مثل هذا الشعر الا رجل شاهد ما شاهد فوصف ماوقعت عينه عليه

وهذا ما يحدونا على أن نؤكد أنه لا عيب في اللغة بل العيب في الدارسين لتخلفهم عن اعطائهـا استحقاقها من التعهد ، كما يبـذل طلاب اللغات الأجنبية جهداً فائقاً لاتقانها . ورأينا في القديم أهل فارس وخوارزم يبرّزون في تمثل آداب العرب حتى كادوا يبذون أصحاب هذا اللسان

أنفسهم ، وجاء منهم بلغاء عزّ نظيرهم في العرب الاقحاح . وأتى الترك بعد الفرس فكانوا عنهم جدّ مقصرين ، يعرف مشايخهم أعمارهم في دراسة العربية ولا يفصحون بها . وما عرفنا منهم على طول أيامهم وهي ستمائة سنة كاتباً جزلاً ولا شاعراً فحلاً بلغة العرب ، على حين يعد بلغاء الأعاجم بالمئات ، والسبب في هذا النقص فساد طريقة التعلم عندهم على ما نظن .

وأكثر ما خلفه الترك من آثارهم بالعربية يدور على التفسير والفقه والكلام والتاريخ والنحو والصرف والبيان وبعضه لا يخلو من العجمة ، ويوشك ألا يتفهمه الناظر فيه الا بعناء وجهد . وكل من طالت عشرته لكتبهم يدخل الضيم على بيانه العربي ولو كان عربياً بحتاً . نعم كان معظم من تعلموا العربية من قدماء الاتراك لا يحسنون النطق بها ، ولايقوون على سبك جملة مقبولة خلافاً للأعاجم من علماء المشرقيات اليوم ، فان في وسع المتوسط من المستعربين منهم أن يكتب جملة مفهومة وينطق بها على وجه الصحة ، وربما كان في فهم النصوص بمكان لا يقل عن أبناء عدنان وقحطان .

ولقد رأينا الهنود والافغانيين يتقنون العربية ويكتبونها برشاقة تكاد توازي رشاقة البلغاء من أبنائها الخلص ويعترفون ضمناً أن اللغة الاوردية والافغانية ولغة الملايو لا تتسع لما يتسع له صدر العربية ، ولذلك كانوا يعتمدون على اللسان العربي في التأليف ، وندر في الفرس من كتبوا تآليفهم بالفارسية وكانوا يفاخرون بوضع تآليفهم بالعربية ، ولولا أن رنّت في العالم نغمة القوميات في القرن الماضي فحاول أهل كل جنس أن ينشروا لسان بلدهم عادين ذلك من الوطنية ، لرأيت الفرس والهنود والافغان والاتراك والجاويين والصينيين وغيرهم يكتبون الى اليوم تآليفهم بالعربية خصوصاً وبعض لغات الاعاجم ليست من الالسن المكتوبة كالطاغستانية والجركسية والسودانية والكردية والبربرية . ويحاول دعاة

قوميتها مع هذا أن يضعوا لها الآن معاجم وقواعد لتصبح لغة مكتوبة كما هي لغة محكية (٢) .

ومنذ القرن الرابع قال أبو هلال العسكري : ولا نعرف اليوم علماً جاهلياً ولا اسلامياً الا وأهله عربيون ومتعربون يكتبون باللفظ العربي والخط العربي . وقال ابو الريحان البيروني : والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به اذ لا تصلح هذه اللغة (أي الفارسية) الا للأخبار الكسروية والاسمار الليلية . وقال في مناسبة اخرى : والى لسان العرب نقلت العلوم من اقطار العالم فازدادت وحلت في الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة .

روى حمزة الاصفهاني عن علماء الآزادمردية اي الاحرار انهم الفوا جميع لغات الامم في الكمية على ما كانوا ناطقين بها ، وعلى الجبلة في بدء التكوين لاتتولد فيها الزيادات ، وانهم وجدوا العربية على الضد من سائر لغات الامم لما يتولد فيها مرة بعد اخرى ، وان المولد لها قرائح الشعراء الذين هم امراء الكلام بالضرورات التي تمر بهم في المضايق التي يدفعون اليها عند حصر المعاني الكبيرة في بيوت ضيقة المساحة . فان كان هؤلاء الاحرار يقصدون بقولهم هذا غمز اللغة العربية من طرف خفي ويعدون من ضعفها ان يضع لها الشعراء الفاظاً جديدة فهو عند العارفين كمال لها ، ذلك لأن التوليد والاشتقاق والتعريب في اللغة دليل حياتها لا موتها وقوتها لا ضعفها .

والغالب أن أحرار فارس نسوا يوم رموا العربية بهذه السبة أن لغتهم في القرون الأولى للاسلام كانت جافة لخلوها من الالفاظ العربية فاضطرهم نقصها الى أن فتحوا بابها على مصراعيه لقبول الالفاظ العربية

---

(١) راجع في كتابي « الاسلام والحضارة العربية » الفصل الذي عقدته لذكر مواطن العربية واثرها في اللغات الشرقية والغربية .

فأصبح القدر الذي دخل الفارسية من العربية أكثر من الألفاظ الفارسية الأصيلة فيها . وهكذا الحال في لغة الترك ولغة الاوردو والملايو وغيرها من لغات الشرق . فلا قبول هذه اللغات ألوفاً من الألفاظ العربية مما يعد نقصاً فيها ولا سراية الدخيل والمولد الى لغتنا مما يحسب عليها . وقد قال أبو حيان التوحيدي ان اللغة جارية على التوسع كما هي جارية على التضيق ومن ناحية التضيق فزع الى التحديد والتشديد ومن ناحية التوسع جري على الاقتدار والاختيار .

لا جرم أن العربية من أوسع اللغات وفيها من الخصائص التي يقل أن تشاركها فيها لغة شرقية ، وفي تعلمها تنافس المسلمون على تباين عناصرهم وعصورهم مأخوذين بسحر القرآن على ما أخذ به بلغاء العرب العرباء .

الاستعمال محكم

لو حلفنا للعامة بكل محرجة من الايمان أن كلمة سيارة ودراجة وقاطرة وشاحنة وسفينة أرق وألطف وأدخل في موازين اللغــــة من أوتومبيل وبيسكليت ولوكوموتيف وفاغون وابور ما استجابوا ولا صدقوا . ولو قلنا لهم أن لفظ برق وبريد وهـاتف أرشق من بوسطة وتلغراف وتلفون ، وجسر خير من كوبري ، ومستشفى من اسبتاليه أو خستخانه ومعمل ألطف من فاوريقة أو فابريكة ، والثّوي أحسن من السلاملك والمثوى أنفع من بانسيون ، والحساء من شوربة ، والشطيرة من سندويتش والذّرور من بودرة ، والجعة من بيرا ، وعقود من كنتراتات ، ويانصيب من لوتريا ، ووقـاد أحسن من عطشجي ، ومصرف من بنك ، ودار الندوة ودار الآثار ودار الكتب أحسن من بارلمان وانتكخانة وكتبخانه ما سمعوا ولا أرعوا .

وحيثما انقلبتم في مصر وأنصتم الى المتكلمين في مدنها وأريافها يترامى الى أسماعكم نموذجات غير جميـلة من الأسماء التركية ، حتى لتسمع في بعض البيوت القديمة الى اليوم لفظة ابله ، انشته ، داده ، تيزه ، نانا ،

بابا ، فرشه ، طقم ، طربه ، بقجه ، شنطه ، شلته ، يشمق ، طلمبه ، ساده ، بويا ، يغما ، ماشه ، قولتق ، كليم ، تخته ، خوبه ، جزمه ، شادر ، شاكوش ، أرمان ، بشاورة ، بشكير ، خرده الى عشرات غيرها .

وفي الشارع تسمع كلمات طليانية ورومية وافرنسية وتركية فتراهم يقولون في المطاعم مستاردا ، كومبوستو ، روستو ، فينو ، فلتو ، كوتليت ، اومليت ، سبكيتي ، ترشي ، بلاو ، ضولمة ، يخنى ، كفته ، اوزي ، صلاطة ، صلصة ، جاتو ، فروتو وعشرات مثلها مما له مقابل في لغتنا وهو أسهل وأسلس على النطق من اللفظ الأعجمي .

نسمع من أفواه المتمدنين والمتمدنات في الصباح والمساء كلمة فاتورة ، مانيفاتورة ، فورمة ، مزورا ، موضة ، بروتستو ، اسقنطو ، كارو ، مناورة ، بلاج ، كابين ، كابينه ، كاباريه ، بوفيه ، اوبرج ، كورنيش ، فرنيش ، مايو ، كلسون ، كومبينيزون ، شورت ، سبور ، لوكاندة ، اوتيل ، اوسته ، فانتيزي ، ياقة ، باترون ، مارمتون ، جارسون ، ميتردوتيل ، روب ، روب دي شمبر ، بيجاما ، جاكيتة ، بالطو ، بنطلون ، ساتين ، موسلين ، اشارب ، ماتينه ، سواريه ، كريم ، بودرا ، روج ، مانوكور ، تواليت ، فيترين ، بانيو ، صالة ، صالون . ولهذه الألفاظ كلها ما يقابلها من العربية وقد يعرفها العامة دع الخاصة ، ولا تحدثهم أنفسهم باستعمالها نكاية بهذه اللغة وكيداً لأهلها ، أو حتى يقال عنهم على الأقل أنهم متمدنون ، والألفاظ الافرنجية أقرب الى أذواقهم من الألفاظ العربية وما شاء الله كان .

وليت شعري متى يبطل في مصر ما تأصل فيها من الالفاظ التركية في الجيش والحياة العامة ورسخت في الالسن والاقلام وليس هناك من ينكرها مثل صول ، قول ، صاغ ، بيكباشي ، يوزباشي ، باشكاتب ، باشمهندس ، سواري ، بيادة ، طوبجي ، الى كثير غيرها ، وقد قيل أن ألفاظ الجيش وحدها تبلغ ألفي كلمة ، وكان مجمعنا عهد الى رصيفنا

العلامة الشيخ احمد الاسكندري رحمه الله النظر مع خبير عسكري في وضع أسماء عربية تقابل تلك الاسماء التركية فوضعا ما وضعا لها من الالفاظ ، ولما هلكا لم نعد نسمع خبراً عما تعبا في وضعه من المفردات . ولا تزال مصر الى الآن مقصرة عن العراق والشام في تعريب ألفاظ الجيش وكان المأمول ان تتوحد هذه المصطلحات في هذه الاقطار الثلاثة .

مساكين علماء اللغة يكدون أذهانهم ويتعبون عيونهم في البحث لايجاد كلمات لا يقبلها الجمهور الا اذا وافقت هواه واستسهل النطق بها وعرضت له عوارض تذكر بها في كل شارقة وبارقة . والعامة على ما يظهر تختار من الالفاظ ما يطرق سمعها بادىء الرأي وتحفظه لا تحفظ غيره . وصعب اكراهها على استعمال ألفاظ بعينها اذا رأت في مألوفها ما يجزيء عنه ويعبر عن حاجات النفس . وثقوا أن كلمتي الجريدة والمجلة اللتين وضعهما العلامة احمد فارس اثابه الله لو لم يكن أرباب الصحف انفسهم هم الذين دللوا عليها لظللنا الى اليوم نطلق اسم بولتين اورفو او مكازين على المجلة وجورنال او غازيته على الصحيفة او الجريدة ، ومع هذا لا نزال نسمع كثيراً من خاصتنا الى اليوم يقولون الجورنال ومن العامة من يقول جورنان بالنون .

وضع هذا المجمع ومجمع الشام ألفاظاً لمسميات أفرنجية ولم تنتشر كلها الانتشار المطلوب لقلة العناية بطرق نشرها ، ولا أكتمكم أني يائس من شيوع بعض ما وضعناه لناطحات السحاب مذ قلنا (الصرح) ومذ اطلقنا (الطزر) على البيت الصيفي و (المثعب) على السيفون و (الاردبة) على البالوعة الواسعة و (المشن) على الدوش و (الوشيعة) على حظيرة الشجر حول الكرم والبستان ، و (الوفيعة) على تلك الخرقة التي يمسح بها الكاتب قلمه من المداد و (الدريئة) على بارفان و (المشوش) على السرفيت و (الدُّل) على خدم القهوة أو الكارسونات و (الابريج) على الممخضة و (العنابيات) على المكشطة .

وليت شعري كم يقتضي من الزمن حتى تنتشر كلمة (المجسدة) التي وضعناها لنوت على نحو ما انتشرت الجزازة والاضبارة للاعراب عن فيش ودوسيه ومثل ذلك قولوا في (الاراض) التي وضعت للبساط العظيم الذي يفرش في الأبهاء والردهات و (التحذيف) لتصفيف شعر المرآة وقص أطرافه و (المنوار) (لفربير) أي المصباح الكبير الذي يعلق في الشوارع والحدائق العامة و (المرصدة) التى وضعت لتلسكوب (والمصوات) لميكرفون و (الاجمية) وحمي الاجمية للملاريا .

ومهما يكن فلا ينبغي لنا أن نيأس من نشر ما يعنينا من الألفاظ ، فقد حاولت أن أنشر بعض الفصيح المنسي منذ بدأت أكتب في الصحف فكنت أستعمل لفظة أو لفظتين في المقالة الواحدة أو الفصل الواحد فأصبح ما استعملته مألوفاً بعض الشيء في البيئة التي عملت فيها ، وحصلت بها أنسة للقراء فلم تنفر منها الأسماع . فلو كانت وسائط النشر أوسع لدي لصادفت تلك الألفاظ من الرواج بالضرورة أكثر مما صادفت ، وبخاصة اذا تبناها بعض رجال الصحافة فان منهم من عاونوا على اشاعة بعض الألفاظ حتى كدنا نعافها لكثرة ما رددوها في كل موطن مثل لفظ (أجل) و (فحسب) و (الهيل والهيلمان) .

ثم يجب أن يكون أحدنا كالطبيب المداوي لا ينقطع عن معالجة مريضه ولو كان الأمل في شفائه واحداً في الألف ، قص عليّ أحد زملائي في المجمع العلمي العربي أنه كان في بعض العشايا ماراً في زقاق وكانت تلك الليلة من ليالي المرافع (الكارنافال) فسمع ولدين في نحو العاشرة من عمرهما يسأل أحدهما صاحبه أين كنت الآن قال كنت في المقنع Bal masqué فدهش صاحبي من مريان هذه اللفظة الفصيحة الى لسان الفتيين .

ومن الحزم أن يعوّل على الفتيان والفتيات في تقبل الفصيح يلقنهم اياه أساتذتهم منذ عهد الكتاتيب الى آخر مراحل التعليم في الجامعات

حتى اذا تمكنت من ألسنتهم انتشرت بحكم الطبيعة في العامة ومن قرب من طبقاتهم وعندئذ يتعذر على العامية أن تقتل الفصحى .

ولا بد أن يأتي يوم يكثر فيه استعمال ما نضعه أو يضعه غيرنا من الفصيح، ويقضي على الاسماء الأعجمية ، ويجب على كل حال أن نذكر الخطوات الناجحة التي خطوناها منذ خمسين سنة لاحلال الفصحى محل العامية المتلونة كل عهد بلون .

لا جرم أننا مقصرون في الدعاية لما نضع من الألفاظ ، ومن هذا التقاعس ما يمكن تلافيه ، ومنه ما دعت اليه أسباب قاهرة . فقد حالت الحرب دون نشر مجلتنا وهي أداتنا الوحيدة في الاعلان عن بضاعتنا ، فما طُبقت قاعدتنا في نشر الالفاظ التي نحاول احياءها أو اشتقاقها من أصولها ، وقاعدتنا هذه ألا تصبح اللفظة الجديدة معمولاً بها إلا اذا أتى على نشرها في المجلة حول كامل ولم يرد اعتراض عليها . ولذلك يكون يوم عودة مجلة المجمع الى الصدور من الأعياد السعيدة ، وعساه يطرد ارسالها هذه المرة الى القاصية والدانية تتناولها ايدي عشاق العربية في الآفاق . نحن في حاجة لدعاية واسعة النطاق لما نحييه من المفردات ونقرره من القواعد لتسهيل اللغة . نحتاج الى نشر مانضع في الصحف والمجلات وفي نشرات ورسائل نوزعها على من ينتفع بها بالمجان في أوقات معينة لا نخل بها واذا استطعنا ان نقنع الحكومات بمعاونتنا في هذا الشأن يزيد ما نريد نشره في الناس انتشاراً كثيراً ، وبقليل من العناية يمكن الاستغناء عن مئات من الاسماء الاعجمية وذلك بأن تصح عزيمة الحكومات على حمل الفنادق والمقاهي والحانات مثلاً على استعمال الفاظ عربية فتحظر على أربابها استعمال الالفاظ الافرنجية بتاتاً . وما أظن ما نسمعه في كل يوم في المقاهي مثل (اوناسكيتو) و (اونافاريليكي) و (اونامتربو) الى غير ذلك من الاسماء يرضى الناطقون به ان ينادي به مناد بالعربية في مقاهي بلادهم وحاناتها وفنادقها . هذا ونحن نرى القهاوي

البلدية تنادي على هذه المشروبات بألفاظ عربية منتقاة جميلة تسمع نموذجات منها في مقاهي سيدنا الحسين وغيرها من مقاصف الاحياء .

ولو ان حكومة مصر عاونت هذا المجمع على بث الصحيح لما انقضت سنة الا واكثر الالفاظ الاعجمية تنجلي من الميدان ويطويها النسيان فلا يعثر عليها الا في معاجم لغاتها وتحل محلها الالفاظ العربية في قطر هو عربي خالص منذ ثلاثة عشر قرناً .

أما أن نترك ما تعنيّنا في وضعه للطبيعة تنشره أو تغمره فنطبع من مجلتنا بضعة ألوف ونوزع منها مئات ونخزن الباقي في المستودعات يأكلها الفأر ويسودها الغبار فهذا تقصير أخشى أن يكون داخلاً في نقص القادرين على التمام .

أما ولم يبق أمامنا الآن عائق يعوقنا عن اتمام عملنا فواجبنا أن ننشط وندخل بعض التعديل في أساليبنا والزمن يدعونا الى ذلك ، فقد كان ابن القرن الماضي يكتفي بحفظ الفين أو ثلاثة آلاف كلمة يقلبها في وجوه استعمالاته ، وابن هذا العصر يحتاج الى استظهار الوف من الالفاظ ما كانت تخطر ببال أبناء الاجيال السالفة ، فالمصلحة اذاً في نشر أكبر عدد ممكن من ألفاظنا المعربة والموضوعة واخراجها في معجم صغير يكبر مع الزمن ثم يجمل منه ما يفي بحاجة المبتدي والمتوسط والمنتهي .

يشتد عوز الامة العربية الى نشر معجم صغير قبل كل شيء . وهنا أبريء نفسي من تهمة أدبية همس بعضهم بها وهي أني كنت من جملة الرافضين نشر معجم رصيفنا العلامة فيشر . أنا لم أرتكب هذا الجرم وانما قلت يومئذ انه كتاب ينفع خاصة المشتغلين باللغة فهو (اللوكس) ونحن نتطال أولاً الى البسيط العادي واني أفضل الاهم على المهم ، والاهم نشر معجم المجمع الذي طال الوعد باصداره ، واني لا قصد لي الا قصدكم ولن أحيد عن خطتكم ، والمصلحة في الاسراع بعرض أعمالنا على العالم ، والزمن لا يحتمل التسويف وعصرنا عصر السرعة والمفاجآت ، وعملنا لا يكلله النجاح الا بالدعاية بكل أساليبها على ما تجري عليه كل دعاية سياسية ودينية ، والله الهادي الى ما فيه خير اللغة العربية .

من عمل المجمعيين

رأيت ألا ينفرط عقد هذا الحفل الكريم قبل أن أحدثكم حديثاً يهم له من يحرص على سلامة العربية ويسر لانتشارها ووفائها بأغراض أمة متحضرة .

آتيكم بمثال مما يعمل أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية لا أقصد به الذود عن قصور قد ارتكبناه ، ولا أن أباهي بما تم على أيدينا . وما أشار اليه الاستاذ الرئيس والاستاذ أمين السر يجزىء في هذا الباب . وأريد أن أقرر فقط أن عمل المجمع لا ينتهي في عقود قليلة من السنين لانه عمل شاق طويل . وكما يحتاج تحصيل العلم الى أعوام يقتضي للانتاج فيه أعواماً وأعواماً . وتجويد كل عمل موقوف على أمور كثيرة وقد يعرف صاحب العمل نواقصه أكثر من غيره .

المجالس في العادة تتناقش في المعاني ونحن معاشر المجمعيين أو اللغويين قضت علينا صناعتنا أن نقصر مناقشاتنا في الالفاظ ، والسعيد منا من يأتي بكلمات تستسيغها الأذواق جميعاً ، وتدخل في الكتب المدرسية من أيسر سبيل تصل الى عقول الناشئة ، وكل لفظ تسارع الصحف الى تبنيه يكتب له الرواج ، وعمل المجمع محدود المهمة في نحت الألفاظ ، وعليه ترك البناء للمهندسين والبنائين ، ولسان حال كل واحد منا (عليّ نحت القوافي في معادنها) فنحن اذاً نحاتون لا بناؤون نستخرج من الأنقاض أو المقالع ما يحسن استخدامه في البنية الجديدة ، أعاننا الله على ما نلقى من عنت وتعب .

لا ترون رصيفاً من رصفائي يداخله اليأس من الظفر بطلبته مهما شقت الشقة لبلوغ المقصود ، بل تشهدونه مغتبطاً مسروراً بما يرجو أن يقع عليه في مناجم اللغة وركازها . ونحن بعد ذلك اذا وفقنا الى تحقيق جزء صغير من أمانينا في بث الفصيح ونبذ العامي والأعجمي عددنا أنفسنا مخترعين ولكن لا من عيار مخترع الراديو والراديوم مثلاً .

فالواحد منا اذا تعلقت همته بايجاد كلمة تقابل الكلمة الافرنجية الشائعة في لغات العلم على عهدنا ولم يوفق الى ايجادها يندب سوء حظه ويقف حيران (وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه) واذا عثر على لفظ ظنه موافقاً لغرضه في أداء المعنى الذي يريد أن يقابله بمثله يفرح ولا فرحة المحب بلقاء حبيبه وقد طال افتراقهما . وأجمل ساعات المجمع ساعة يتناقش فيها أعضاؤه في وضع كلمة ، ويعج بأصوات الموالين والمعارضين وكل واحد يتصدى للادلاء برأيه بما يستخرج من محفوظه من الألفاظ . ومع ما يلاقي المجمعيون من العناء في تحقيق غرضهم الشريف يعترض عليهم من يعرف ومن لا يعرف ويهزأ بعملهم كل من يبدو له ان يتسلى ، والكل يطالبونه بالكمال المطلق ، كأن أعمال المجامع كلها كملت ولم يبق منها ناقص الجهاز الا هذا المجمع الحديث .

ويحَ المجمع كم لقي من سخرية بعض الصحف التي ماتعففت عن أن تغمزه الفينة بعد الفينة لتضحك قراءها ، وقديماً كانت المجامع العلمية موضوع دعابة لايعذرها على بطئها في اخراج أعمالها الا الراسخون في العلم ممن صفت نفوسهم عن الأغراض وحبب الأنصاف اليهم .

وغفر الله لي بقدر مادافعت عن المجمع في مصر والشام لتبرئته من التهمة التي الصقوها به ظلماً ونسبوا اليه وضع لفظ (الشاطر والمشطور والكامخ بينهما) لكلمة سندويتش . وأعترف أني ماتمكنت من اقناع متعنت لان هذه الكلمة الملصقة بالمجمع هي عندهم من الادلة على عدم معرفته او على الأقل على قلة ذوقه . وما زالت التهمة بحالها حتى شهدتها تتسلل من الصحف الى الكتب ، لتثبيت دعواهم على عدم اضطلاع المجمع بما وسد اليه . وكل من أحب أن يتندر الينا يغمزنا غمزة خفيفة ليذكرنا حفظه الله بما ارتكبناه من اثم بوضع هذه اللفظة (الوحشة) والله يتوب على العاصي اذا تاب ، أما بعض الآدميين فقل أن يتسامحوا بهفوة يهفوها انسان وهم يتغاضون عن جماع حسناته .

وغير نكير أن بعض اللغويين قد لايراعون المقام في استعمال الفاظ

استظهروها يفرضونها على الناس فرضاً لايراعون اعتبارات العصر . وأذكر أن أحد علماء اللغة في لبنان (رحمه الله) أصدر في القرن الماضي جريدة زراعية أسبوعية حشاها بكل ما في معاجم اللغة من عويص الألفاظ . وكنت يومئذ آخذ الأدب عن المشايخ فدفعت العدد الأول منها لأستاذي وكان اماماً في اللغة فقال لي : هذه الجريدة لاتفهم بغير شرح فاشرحها لنا فصدعت بالأمر . واتفق أن كانت هوامش الجريدة متسعة فاستعنت بها على شرح الكلمات اللغوية حتى أصبحت صفحات تلك الصحيفة بمتنها وشرحها مثالاً من كتب الأزهريين الصفراء اختلط رأسها بذنبها وامتزجت حواشيها الأربع بنصها وفصها . حقيقة أن محرر الجريدة الزراعية أثبت براعة فائقة في اللغة ولكن كم كان ياترى عدد من فهموا من أهل اقليمه ماخطته يمينه وأملته قريحته .

وأذكر أن أحد المشتغلين باللغة نقل عن الافرنجية كتاباً من كتب الأطفال أتى فيه بألفاظ الزمخشري وابن منظور والفيروزبادي . ولفت نظره الى عقم طريقته في وضع ألفاظ أمام أطفال لا يفهمها أكثر أساتذتهم فغضب . والغالب أن معظم اللغويين يحاولون لاول أمرهم أن يسيروا على طريقة العلامة الشنقيطي أجزل الله ثوابه في رصف شعره بما وعى من المفردات ، ثقيلة كانت أم خفيفة ، ساغت في ذوق سامعها وقارئها أم لم تسغ .

وأغرب من كل أولئك أن يرمى علماء اللغة بضعف العقل حتى لقد قال رنان : كان البحث في أصول اللغة ولا يزال عندنا سبباً من أسباب ضعف العقل حقيقة ، وأرى أن من الحق بمكان عظيم ما قاله أحد مشاهير علماء الامراض العقلية لعهدنا ، ان الأسباب الثلاثة التي دعت الى جنون كثير من الناس وكانوا من قبل من أرباب المدارك ، البحث في أصول اللغة والعشق والتعمق في اللاهوت (التيولوجيا) أجارنا الله وإياكم من كل ضعف ولا سيما ضعف العقل .

والآن ننتقل بكم الى الحديث اللغوي . في علمكم أيدكم الله أن الفساد عرض لألسنة العرب بعد الفتح بقليل لمجاورة العجم ومداخلتهم . وكان هذا الفساد يزيد وينقص بقدر بعد العرب وقربهم من الجزيرة ، وقد سلمت اللغة الفصحى في بعض الأرجاء الى ما بعد القرن السادس من الهجرة كما كان من شأن بعض قبائل اليمن لأنها كانت تعيش في أوديتها وجبالها بعيدة عن الأعاجم . واحتفظ أهل الشام بكثير من الفصيح لانعزال بعض سكانها في أقاليم يكاد يكون الاتصال بينها معدوماً . وما كان الناس في القديم يرحلون كما نرحل ويسيحون كما نسيح بهذه الكثرة ، ولا يتمازجون بجيرانهم وغير جيرانهم هذا التمازج ، ورأينا الشام تكثر فيها الالفاظ السريانية كما تكثر الالفاظ النبطية والفارسية في العراق والقبطية في مصر . وبقيت في الشام ومصر والعراق والحجاز ألفاظ ليست بقليلة أصلهـــا رومي وتركي . وكانت الفاظ الزراعة والفلاحة في الشام سريانية والفاظ المدنية فارسية صقلتها الألسن فعاد أكثرها كأنه عربي الاصل ودخلت في معاجمنا وأصبحنا لا نعرف غيرها .

فمن الالفاظ النبطية أو السريانية أي الآرامية الباقية في لهجة غوطة دمشق (شتل الغراس) أي غرسها ومنها (المشتلة) أي المغرسة او المستنبت و (دلل الغراس) غرسها بعيداً بعضها عن بعض و (الدّليل) من الزروع ما كان بعضه بعيداً عن بعض ومنه (الشرش) الجذر ويقولون شرش أزال الشرش من الارض (قلم الشجرة وقلّمها) قطعها و (شفاها) قطع شفاها أي أطرافها (جم الكرم) قطع بعض أغصانه (شور) الشجرة ركم التراب حولها وفي الفصيح شور لوح بشيء وهي مستعملة عندهم أيضاً (عرّم التراب) كومه وكدسه (الطربون) رأس الغصن او القضيب المورق (كوّش الزرع) او الحنطة جمعها (شكارة القمح) مقدار ما يزرع في قطعة ارض (تخ الخشب) او الحطب او تخنخ يبس وجف وتهرأ (الساروط) الاخدود الذي تحدثه المياه في

الارض لشدة جريانها ولهم منه فعل فيقولون (سورطت) الارض اي حدث فيها أخاديد (جهجه الضوء) لاح (الشوب) الحر و (طرش الثوب) وسخه .

وأخذوا من الفارسية الجادة والدهليز والدولاب والزنبيل او الزبيل والسختيان والابريق والدورق والكاس والكشكول والقمقم والجام والفنجان والزنبرك والهاوون والبركار والصنج والدف والناي والكمنجة والبرواز والخرج والكمر (منطقة من الشعر) والهميان . والتخت في الاصل وعاء تصان فيه الثياب وفي الاصطلاح مقعد كبير من الخشب . والبشتخناية من بشتخته خزانة تجعل امام القاعد لحفظ الاوراق والخاتون والخاقان والدرويش والاستاذ والبلور والياسمين والنسرين والنرجس والآذريون والشوندر والجلنار والخضراوات والريباس واللوبياء والكعك والطاجن والتارنج يقولون تازة بحسب اصلها و (الجلاب) ماء الورد ومنه كل آب لصنف من المشمش حرفوه فقالوا الكلابي والسميذ والخشكار الطحين الخشن ، والجوسق والميزاب والخنجر والصابون والاشنان والخلخال والخار والزركش والسرداب والسراي = السرايا ، والداية القابلة والديدبان الحرس والغوغاء الجلبة وكثرة الاصوات والسنجاب والهزاز والسنديان والهذار والغار والهليون والفهرست والدستور والفرمان والخان معناها الدكان والحانوت والايوان والميدان والانبار والاخور والكوخ والسطاح والخردة والدستة .

وأخذوا من الرومية السمت والصراط والقرطاس والبطاقة والخارطة والاطلس والترمس والطرخون والابرشية والابريز والاريكة وأساطير والاسطرلاب والاسطول والاسقف والماس والانبيق والاقيانوس والايقونة والبرج والفانوس والبطريرك والبلغم والترياق والجغرافية والدرهم والازميل والسفسطة والطقس والفندق والاقليم والكورة والقصدير والقيراط .

وفي اللغة الدارجة في مصر والشام كثير من الالفاظ اللاتينية والايطالية مثل اسكلة وانفلونزا وبابور وبارجة وبالة وبالو وبقية وبترول

وبرذون وبرطاش وبرميل وبرنيطة وبسبور وبطارية وبنادورة وبيرا وتياترو وليموناده وجرنال وجندرمة ومالاريا وجنرال ودوطة ودينار ولوكندة ورصيد وسطل وصابون وطاولة وطلمبة وفانورة ومسطرة وفاصوليا وورنيش وفسقية وقنطار وقرصان وقومانداں وكولونيل وكبسول وكربون وكرتون وكرنتينا وكروسة وكمبيالة وكمبيو ومن التركية اسماء البقول والمآكل مثل البقدونس ودره اوتي (حشيشة الوادي) واسباناخ حرفوها بسبانخ ، والقاورمة اللحم المجفف والشاورمة اللحم المشوى بالنار والباصدرمه اللحم المجفف بالشمس والدندرمة او الجلاس ويابراق الورق وبورك ويخني وترلي واكمك قطايفي وامام بايلدى ولحنة وجركس طاوغى (الديك الرومي) وشوال كيس وبازار السوق والقشلاق من قشلق اي المشتى وكل اسم انتهى بخانه او جي مثل جبخانه اركخانة وخستة ودوه جي ويازجي وخانجي الخ .

هذا مثال من الالفاظ الدخيلة اما الفصيح الباقي في الالسن على ما كان العرب يستعملونه فهو كثير وقد عرض لبعضه قليل من التحريف . فمن فصيحهم قولهم في زجر الغنم وغيرها من البهائم اذا أبعدت وطردت حايّ حايّ وحاى حاى وحاين حاين ويقال هذا اذا دعيت وأريد قربها ودنوها . وهكذا ينادون على غنمهم ومعيزهم وابقارهم وحميرهم ويقولون ايضاً هس لزجر الغنم وهقط زجر للفرس وتخ تخ زجر للدجاج وسق سق زجر للثور وعاى لزجر الخروف والغنم والنخ قولك للبعير اخ اخ ليبرك تخنخه فتنحنخ . والقرمشة صوت الخبز المقمر وفى الاصل صوت الجوز وقرقرت الدجاجة صوتت ودن الذباب صوت وطن ونقت الضفدع والدندنة ان يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا تفهمه يقولون سمعته يدندن أي ينغم بحيث لا يفهم معناه . فلان ينود ويرفع صوته بالشكوى من ناد ينود تحرك ومنه نودان اليهود في مدراسهم أي تحريك رؤوسهم وأكتافهم في بيت عبادتهم . وعندهم الزياط واللغط والحشحشة والحمحمة (صوت الفرس دون الصهيل) والنشنشة صوت المقلى والزقزقة والوقوقة

والقرقرة (الضحك العالي حرفوها فقالوا كركرة) والبقبقة والغرغرة والولولة والرجرجة والخرخرة والوشوشة والثرثرة والفأفأة والتأتأة .

ومن فصيحهم (البحيرات) جمع بحيرة وهي ما انخفض من الارض وعندهم أرض تسمى البحرات (الحسي) سهل من الارض يستنقع به الماء وعندهم مستنقع يسمى الحسى (بالتصغير) ومنهم من يلفظه بالصاد . (الحير) البستان أو مجتمع الماء والمكان المطمئن وكلها تصدق على أرض في الغوطة تجمع هذه الصفات (الزور) الارض البعيدة من الارض الزراعية والاجمة ذات الحلفاء والقصب والماء وهم يطلقونها على حرم نهر بردى ويضمون زايها كما يطلقها الحمويون على حرم نهر العاصي .

ومن فصيحهم (الضيعة) (القرية) (الغيضة) (الروضة) (المرج) (الجنينة) (الحاكورة) (الحرجة) بالتحريك مجتمع الشجر الملتف ج حرج وحراج يقولون حرش وأحراش . ومنه حرث الارض وعمرها وخربشها وخرمشها وقلبها وكربها وحفرها وسحاها وعزقها ونبشها ومهدها .

ويقولون انا محادّه اى ارضي او داري في حدود ارضه وداره . وفلان (زليقي ولزقي وبلزقي اي بجنبي) ومنه (القلاع) المدر يقتلع من الارض يرمي بها (الكدَرة) القلاعة الضخمة (الكذان) (البلاط) (الرخام) ومنه (العدان) بالكسر والتشديد وهم يفتحون عينه ومعناه الزمان يطلقونه على اعطاء كل صاحب حق قسطه من الماء وعدنه تعديناً .

(أطعم الغصن) وصل به غصناً من غير شجره كطعّمه (هاف الزرع) ذبل وذوى (أسبل الزرع) (أفرك الحب) (أقمح السنبل) (الباحور) شدة الحر في الصيف (الشمالة) الحزمة من الحنطة وهي طرية (أطعمت الشجرة) أدرك ثمرها (أصمغت) صار لها صمغ . (نطف الحور) طلع من مكان آخر (النصبة) بفتح النون ماينصب في الحقل من الغراس (السطمة) ما يغرس من عيدان الحور والصفصاف والخلاف . وفي المراجع السطم (بضم السين والطاء) الاصول . (المروشة) غرسة شجر الزيتون ولعلها من الامتراش أي الانتزاع والاختلاس لانها تنزع من الشجرة الكبرى .

ومن أمثالهم الفصيحة (نأنأ في الأكل) أكل أكلاً ضعيفاً (دهبل) كبر اللقمة ليسابق في الاكل يحرفون هذا الفعل فيقولون دعبل ، البرطمة غضب مع عبوس فلان مبرطم مغيظ (لطيء بالارض) لزق (خب في الارض) خاض (لزه على العمل) حثه عليه (دحس الثوب) في الوعاء أدخله يلفظونه بالشين كما يقولون الفرشخة وهو أن يقعد الانسان ويفتح مابين رجليه يلفظونها بالشين وفصيحها بالسين . ويقولون (قلّعنا) يافلان من هنا من قلعه حوله من موضعه أي هيا بنا ننزل مكاناً آخر (شاشت النفس) اضطربت كما يقال شاش البلد اضطرب (قب الجرح) اذا يبس وذهب ماؤه (قيّح الجرح) صار فيه القَيح وهو الصديد . (بط القرحة) شقها (خنخن في كلامه) اذا تكلم من خياشيمه فهو أخن ويقولون له خن (زنأ البول) احتقن (أح الرجل) سعل (قرقف) رعد من البرد (قف الشعر) قام من الفزع (قفقف من البرد) اذا انضم وارتعد (أصن) سكت فهو مصن (ودّر) الرجل أوقعه في تهلكة يقولون ودّر هذه القطة أي ألقها في محل لا تعود منه (حبق) متاعه جمعه وحبق المال أيضاً جمعه (هبش) لعياله اكتسب (دغر عليه) هجم (طمس على مال فلان) استحله من اطمس على أموالهم أهلكها ، وفلان مطموس القلب ميته ، وعندهم يطلق على الجاهـــل الذي لا يتعلم ، (الفضفضة) سعة الثوب والعيش ويقولون خذ هذه الدراهم تتفضفض بها أي تتسع بها وتقضي حوائجك ، (رحرحة) الثوب اتساعه وثوب مرحرح . (خشت فيه) دخلت فقولهم خش يافلان عربية الاصل . (غلغل في الحقول) دخل وفي الفصيح تغلغل أيضاً (فلان يهت على فلان) يعيره أو يزرق عرضه (فلان متعنفص) متصلف مزهو . (الصقلب) شرك ينصبه ناصبه ليصرع من يريد صرعه من صقلبه صرعه . ويقولون أعطني قماشاً من (بابة) كذا أي من سعر كذا وهذا بابته أي يصلح له أو شرطه (قرط عليه الدراهم) اذا أعطاه منها قليلاً قليلاً أو حرمه (التجليط) الكذب من جلط . (نوس) المصباح قلل اضاءته . (امرأة هطلى) كسلانة

أخذوها من ناقة هطلى تمشي رويداً . يقولون وقف الماء في (زراديه) والزردمة الغلصمة أو موضع الابتلاع . (ثوب بايخ) متغير وحديث بايخ لا محصّل له (الرتوت) الرؤساء واحدها رت (مافي البيت تومري) أي أحد يقولون دومري . (السرب) الجماعة من النساء والحيوان . الفوج ، الجوقة ، الجف ، الغوغاء ، الزمرة ، اللمة ، الاوباش ، الشرذمة : كل هذه أسماء معناها واحد وهو الجمع من الناس وهي دارجة في اللغة الدارجة (العزوة) (العصبة العصابة) واعتصبوا صاروا عصابة . هو (شرواك) مثلك . هو يمشي مع (سبره) أي اقرانه والسبر الشبه والهيئة (العكرة) الفتنة والهوشة . أعطني (شوية) أي قليلًا وفي الفصيح مابقي من الشاة الا شواية بقية يسيرة ، والشواية بالضم الشيء الصغير من الكبير . يقولون سقاني (نتفة) من اللبن أي شيئاً وهي ندفة في الفصيح . يقولون اللبن والحب طيس أي كثير من طاس يطيس كثر . (الصوبة) ما تجمع من الحنطة والتمر يقولون له الصبة (الشلية) بقية الماشية وعندهم الشلعة قطعة من الماشية (العزيب) الذي لايروح الى أهله من الماشية . يقولون هذه الارض عدية أي خالية من الوخم والوبالة وأصلها عذية من عذا البلد طاب هواؤه (الطابونة) من طين النار دفنها لئلا تطفأ وذلك الموضع طابون والطابون فرن في الارض وكانوا يستعملون الطوابنية للخبازة وقد أهملت اليوم كما أهملت (الشرائحية) باعة شرائح اللحم واستعاضوا عنها بالشوائين أو الشواية وأهملوا (المقاصف) واستعملوا بدلها القهاوي والمقاهي . وأهملوا (النحيرة) واستعاضوا عنها بالمسلخ وأهملوا (البلس) واستعملوا بدلاً عنها القلي ، ثم استعملوا البوتاس وكانت لفظة (النقانقيين) شائعة يطلقونها على باعة النقانق أو المقانق وهي المصير المحشو باللحم وكذلك (الحلاويون) باعة الحلواء يقولون اليوم الحلوانيون واحدها حلواني ومن أمثالهم ماكل من صف الصواني قال أنا حلواني .

ورأينا بعض ألفاظ المآكل وباعتها قد أهملت مثل الهرائسي بائع الهريسة ، والرآس بائع الرؤوس ويقال له الرواس وهو لحن ، الفقاعي

بائع شراب من الحبوب والاثمار وغيرها سمي به لما يرتفع في رأسه من الزبد وكان يطلق في الشام على باعة نقيع الزبيب . الاقسماويون من الاقسما وهو شراب قد يجعل من الدبس ويثلج كالسويق قال الشهابي المنصوري

أيا سيداً قد أشهد الله أنه   أناب فلم يحْسُ الشراب المحرما
هلم فاني لا أخالك مقسما   وان كنت لم تشرب مداماً فأقسما

وأهملوا لفظة الشرابيين باعة الأشربة ، ولفظ المثلث عصير العنب يطبخ قبل أن يغلي ويشتد حتى يذهب ثلثاه وكانت مستعملة في مصر في القرن الثالث واعتاضوا عن الطاهي بالطباخ أو العشي . وأهملت ألفاظ كانت تطلق على أمور بطلت مثل سوق العطارين وكان أصحابها يبيعون فيها العطور فأطلقت على باعة البزور والسكر والارز والأفاوية ، ومثل الأبارين والمسلاتيين صناع الابر والمسلات والمرادنيين صناع المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب السامم أو السنط الاحمر ، والفاخرانيين صناع الزبادي والسلطانيات من الحصى المطحون ، والغضاريين باعة الكيزان والقزازين صناع القزاز وباعته ، والبزازين صناع البز أو القماش ، والبزوريين باعة البزور ،والسكريين باعة السكر ، والامشاطيين باعة الامشاط والسدارين والبواردييں يطلقونها على من يصنعون الامشاط ويطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون والدلوك والاشنان والبوارد طعام البقول المطبوخة ، وكان فيها سوق الدباغين والصباغين والدقاقين والقماحين والناطفانيين (الناطف نوع من الحلواء) وسوق الخريزاتية الذين يخرزون الاواني وتناسوا لفظ الاقباعيين صناع الاقباع جمع قبع وهي الطاقية أو العرقية وكان في دمشق لكل من هذه الصناعات سوق خاص ومنها سوق الحرير وسوق القطن وسوق القشر (قشر القنب) وسوق القوافين من كاف الاديم يكوفه كوفاً كف جانبه وهو اعداد الجلد لعمل النعال ، قلبت كافها قافاً . ومنه سوق المناخليين باعة المناخل وصناعها ، وسوق الزرابليين صناع الزرابيل جمع زربول ، وسوق السروجيين صناع السروج ، وسوق

النحاسين ، وسوق الحدادين ، وسوق القصاعين باعة القصاع ، ومنها سوق الزنوطيين وفي معجم دوزي أن زنوط لفة مصرية معناها الطاقية وان كانت من زنط جمع زنط فمعناها السيور والسياط ، وسوق القلباقجية والقالباق من أكسية الرأس التركية ، والدماجية صناعة الديما وهي أثواب تعمل من الغزل . ولا يزال سوق الخيل وسوق الجمال وسوق الغنم وسوق البقر وسوق الحمير بالطبع ويقال لمخزن الحطب الشونة وهي مصرية ويضمون شينها . وكانت لهم أسواق بحسب أيام الاسبوع فسوق الجمعة وسوق الاحد وسوق الثلاثاء تباع فيها أصناف المأكول والملبوس ، فمن هذه الالفاظ ما بطل استعماله بابطال ما كان يطلق عليه وباختراع ما أغنى عنه وعن اسمه ولكل عصر ألفاظه كما أن لكل عصر أدبه . فبعض الالفاظ التي راجت في القرن الثالث والرابع نسيت في القرن السابع والثامن وما راج في هذين القرنين نسي في العاشر وما بعده . فألفاظ عهد المماليك في مصر غير الفاظ الترك بعدهم فقد كانوا مثلا يستعملون كلمة التقليد والتصرف فأبدلوهما بالتولية ثم بالتعيين والنصب والاستخدام وكانوا يستعملون لفظ القماحين والدقاقين ويقولون اليوم تجار الحبوب والطحانة . وألفاظ مصر زمن المماليك وحدها تحتاج الى مبحث خاص برأسه . ومن نظر نظراً خفيفاً في كل قطر عربي لا يلبث أن يرى أن ما كان شائعاً في العراق لم يشع في الشام ومصر وما كان في مصر لا يعرفه المغرب الأقصى ولا الأندلس من قبل .

وفي كتب الحسبة وبعضها الى الآن لم يطبع ، كثير من الألفاظ دونت المعاجم بعضها ولا نستعملها اليوم نسقط على نموذج منها في كتاب نشوار المحاضرة للمحسن التنوخي وفي كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوي . منها (البزيون) ضرب من نسيج البز ومن رقيق الديباج (المطبق) كمحسن السجن تحت الارض (الفامي) بائع الفوم أي الحنطة والحمص وسائر أنواع الحبوب التي تخبز . (الزيرباج) أكلة بلحم وحمص

وخل وسكر ولوز (البزماورد) طعام من اللحم والبيض (العصيدة) دقيق يلت بالسمن ويطبخ . ومنها (المطالب) الكنوز (البذرقة) الخفارة (الفيج) رسول السلطان . . الخ وهذه الالفاظ تتطلب درساً خاصاً كما تتطلب مآكل العرب في الجاهلية ومأكلهم في الاسلام دراسات أخرى . وأطعمة العرب ما تعدت الالبان والتمور واللحوم وتقل فيها الخضراوات والبقول وكلها بين مطبوخ وملتوت وملبون ومتمور ومسمون ومعسول .

سادتي :

أوردت مثالاً ضئيلا من أشغال هذا المجمع الفتي وذلك بقدر مايتسع له الوقت وأرجو ألا أكون أدخلت الملل على نفوسكم . أعاننا المولى على القيام بواجبنا في خدمة لغتنا المحبوبة وحياكم وأحياكم .

عجائب اللهجات

كان اختلاط العرب في الجاهلية بالامم المجاورة لجزيرتهم قليلا اذا قيس باختلاطهم بهم في الاسلام وفيه فتحت عليهم الاقطار ، وشاهدوا فيها مالم يعرفوه من أسباب الغنى والترف ، وهذا يستلزم للتعبير عنه ألفاظاً جديدة ماكان لهم ولا لأجدادهم عهد بمثلها . واذ كانوا في هذا الدور مأخوذين بدهشة الفتوح لم ينظروا ان كانت تلك الألفاظ عربية صرفاً أو جاءت من احدى اللغات السريانية والنبطية والقبطية والحبشية والسندية والبربرية والفارسية . وربما ظنها بعضهم من لهجة عربية غير لغة قريش وليس لهم مانع من قبولها مادام الاسلام وحد اللهجات العربية ، وبلغة قريش أفصح اللهجات نزل القرآن .

وما لبث الداخلون في الاسلام أن أدخلوا ما كان متأصلا في ألسنتهم من الكلمات فأصبح لكل صقع لهجة اتسعت مع الزمن أي كان لكل قطر بل لكل اقليم لهجة على حيالها ، ومعظم المولّد لا يمت الى الفصحى بسبب ، والغالب أن الالفاظ الاعجمية التي صاغوها على أسلوبهم تكاد تزيد عن الالفاظ التي أبقوها بحالها . وبديهي أن يكون لكل صقع نغمته واصطلاحه وألفاظه ، واللهجات ابنة السموت والميول على الأغلب ، وما تحسه من النغمة العذبة في اللهجة المصرية اليوم لا تذوقه في لهجات جبال الشام . نعم ماتشدد العرب أو خاصتهم في قبول بعض الألفاظ الاعجمية باديء بدء تشددهم في اللحن والزراية على من يرتكبه ، لأن الجمهور لاينتظر في شؤونه اليومية الحافزة صدور ارادة الخاصة في اختيار اللفظ الفلاني دون غيره ، بل يسارع الى تلقن ما يعرض له باديءَ الرأي مؤثراً الطريقة العملية السهلة ، ويتشرب الالفاظ التي تكاد تكون مرتجلة ترسخ فيه بكثرة التكرار ، ويغدو من المتعذر نزعها والاستعاضة عنها بمصطلح آخر أتى على أصول الوضع الصحيح .

تساهل أرباب اللغة بادخال بعض المفردات طوعاً أو كرهاً كأنهم رأوا أن لا مندوحة لهم عنها وان خرجت أحياناً عن صيغة لغتهم ، ثم تطورت اللهجات بتطور الزمن ، والزمان سلطانه يثبت وينفي على مايشاء والتحول يجري على مقياس واسع في الشارع ، وعلى مقياس ضيق في أندية الخاصة وقصور الملوك والأمراء ومعسكرات الجيوش .

أخذت العرب من الأعاجم مئات الألفاظ مما له علاقة بالحياة اليومية أو المصطلحات العلمية وكان لكل دولة تولت أمر هذه الامة أن أورثتها ألفاظاً منها ما دخل في المعاجم ، ومنها ما مات بموت الدولة التي وضع في عصرها ، وسعت الى بثه في الناس ، أو سقط من الاستعمال لعدم الحاجة اليه .

فكانت الألفاظ الاعجمية من عهد الامويين أقلّ مما جاء مع العباسيين

لقرب عهد بني أمية بالعربية الفصحى ، وأخذ بنو العباس من الدخيل بالكبير والصغير ، أعداهم الفرس للجوار والاختلاط بالشعوب غير العربية حتى خيف على اللغة أن يصبح جزء عظيم منها من غير الاصول العربية . ثم قامت دول الطوائف فكانت الالفاظ الحديثة في مصطلحات الدولة على الاكثر تركية وفارسية ومغولية ، وهكذا كان شأن دولتي نور الدين وصلاح الدين ودولتي المماليك البرجيـــة والبحرية ثم دولة العثمانيين . وما يقال في هذه الدول ، والالفاظ الطارئة عليها ، يقال في دول صقلية والاندلس والغرب الاقصى والاوسط والادنى . ولعل الدخيل كان نادراً في أرض الاندلس ، وقد توخى الامويون واضعو أساس دولتها التوحيد في كل شيء حتى أن الرحالة ابن جبير لما رأى كثرة الفِرَق والمذاهب في هذا الشرق القريب في القرن السادس قال لا اسلام الا ببلاد الغرب ، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشِيَع الا من عصم الله من أهلها .

وكان في تفنن الاندلسيين بتعريب أسماء بلاد الاندلس مثال ظاهر من العناية بصيانة اللغة مما يعبث بها ، وكانت اللهجة الاندلسية من أجل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء الى البلاد التي نزلوها : مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام ، ولعلها كانت لقربها من الفصحى أشبه بلهجات اليمن والحجاز . والاندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام فكان الاندلسيون مثلاً يقولون القابض لمن نطلق عليه الجابي او المحصل ويطلقون المتقبل لما نقول له الملتزم او الضامن ويقولون اهل الاموال لأرباب الاملاك او الملاك ويطلقون الطومار على البطاقة .

وهكذا أبقى كل قرن في تضاعيف هذا اللسان قدراً من الألفاظ الدخيلة ، ولوّن كل لهجة بلون بعض اللهجات المجاورة وغيرها . ولكل جيل ولكل اقليم لهجة تختلف واحدتها عن الاخرى ، وكان العارفون باللغة في كل عصر يردون مادخل على الفصحى من المولد ، واذا غلبتهم

قوة الدخيل يتساهلون بقبوله ومن جهة أخرى يكتبون الرسائل والكتب في تزييفه ، حاول الغُيُر على اللغة في كل قرن من قرون الاسلام ان يحيوا الفصحى ويبقوا عليها في الخطاب كما حفظت في الكتاب فكان الجهلة يهزأون بهم ويتغامزون منكرين صنيعهم ، وأقل مايقولون في المتكلم بالفصيح أن ينبزوه بأنه يتكلم بالنحوي .

وبعد أن كان مثل الحجاج بن يوسف يحتال على بعض من خرج عليه فيفسد لغته أصبح الخاصة والعامة في القرون التالية يتفاهمون بلغة العوام ولهجتهم بدون نكير ، وسواد العامة أكثر من سواد الخاصة في كل عصر ومصر . وبعد أن كان ينظر إلى من فسدت لغته كما ينظر الى من أصيب بمروءته وشرفه أصبح هذا مما لايؤبه له كثيراً ، وبعد أن كان الحجاج نفسه ينفي من بلده أحد الفصحاء لأنه صارحه بأنه ألحن ونفاه لئلا يسري في الملأ رأيه فيه .

ولما سمع رسول الله رجلا يلحن في كلامه قال « أرشدوا أخاكم فانه ضل » ولما كتب أحد عمال عمر كتاباً لحن فيه كتب اليه « قنّع كاتبك سوطاً » . وكان عبد الملك يقول : اللحن في الكلام أقبح من الجدري .

عربوا أسماء العلوم في القرن الماضي فكانوا على الاغلب يحرصون على التعبير عن المعنى بأي لفظ عرض لهم ، يهمهم التعبير عن المسمى لا الفصاحة ، ولعل أجدادهم كانوا في مثل هذه الحال يوم نقلوا عن الفرس أسماء الاطعمة فلم يكن لهم متسع من الوقت ليضعوا لها أسماء عربية واغتبطوا أن اهتدوا الى تحضير تلك المآكل اللذيذة فقالوا الفالوذج واللوزينج والجوزنيق واللوزنيق وما بالوا بثقلها وعجمتها . وكان في مكنتهم أن يقولوا اللوزية والجوزية الخ . ولكن كان همهم أن يصيبوا أولاً من هذه الحلواء الشهية . ولو كان واضعو الالفاظ العلمية في بدء النهضة العربية الاخيرة على جانب من معرفة اللغة الفصحى لأطلقوا باديء

بده ألفاظاً فصيحة على المسميات ، وحالوا دون عناء المجامع اللغوية الحديثة بعض الشيء .

ولعل من اضطروا الى وضع ألفاظ غريبة مولدة عمدوا الى استعمالها في الاحايين يؤثرون الكلام في العربي القح والعربي الدخيل على السواء مادام المقصود من الكلام افهام الخواص والعوام ، ولا نقول ان اللغة كانت تخون الفصحاء فلم يوفقوا الى ايجاد ألفاظ عربية خالصة تقوم مقام الالفاظ الاعجمية بل نقول انهم غلبهم حب السرعة على جميع الاعتبارات ، وأتوا بما حضرهم واكتفوا بما كان في متناولهم ، وهم الى ذلك كانوا يعلمون أن مئات من الالفاظ المولدة لاتضر بلغة تحوي مئات الالوف من المفردات الفصيحة ، ويزيد التسامح في قبول الغريب المولد اذا صيغت اللفظة ، صياغة عربية لاينبو عنها ذوق أبناء هذه اللغة .

كتب معاوية رضي الله عنه أيام فتنة صفين الى قيصر الروم لما بلغه أنه ينوي غزو الشام : « لئن أقدمت على ما بلغني من عزمك لأصالحن صاحبي ولأكونن مقدمته اليك ، ولأجعلن القسطنطينية البخراء حممة سوداء ولأنتزعنك من الملك انتزاع الاصطفلينة ولأردنّك أريساً من الارارسة ترعى الدوبل » . وفي هذا الكتاب الموجز على ما نفهم نحن اليوم ثلاثة ألفاظ لا نسمعها وهي الدوبل ومعناه الخنزير ، والأريس وهو الفلاح والاكار من أرس فلح ، والاصطفلينة وهي لغة شامية قديمة لا تستعمل اليوم ومعناها الجزرة التي تؤكل ، آثر الخليفة استعمالها على الخروج عن مألوف الارض التى صدر منها الكتاب .

وكذلك كان من الحجاج بن يوسف لما استحث احد عماله على المسارعة بإداء الخراج فقال له من كتاب : فأيم الله لتبعثن اليّ بخراج اصفهان كلها او لأجعلنك طوابيق على باب مدينتها والطابق بكسر الباء وفتحها الآجر الكبير فارسي معرب وكذلك الآجر . خاطبه بما شاع ولو قال له لأجعلنك لبنة لما كان لها تلك الرنة ، ولو كان الكاتب في مصر لاستعاض عن آجر وطابق بلبنة وطوبة .

ومن الجهات ماراج في قرن وكسد في آخر . كانوا يقولون في القديم فندق خان ، فأنشأوا يقولون في الزمن الحديث لوكندة هوتيل او اوتيل . وقالوا بيمارستان او مارستان او دار المرضى فشاعت على الالسن اليوم هوسبتاليا او اسبتاليا . وقالوا صيدنائي وصيدلاني وصيدلي وفرمشاني واجزاجي لبائع هذه العقاقير والمركبات والمعاجن كما اصطلحوا في كل قطر على اطلاق اسم يفسر ما اصطلح عليه للقطر الآخر فللابانة عن لفظة المشاهرة قالوا الجامكية والمعاش والمعلوم والمقرر والراتب والمرتب وقديماً كانوا يقولون الادرارات والاعطيات . ويقولون في مصر اليوم الجوارب للجوربين وفي لبنان الكاسات وفي مصر كوانتي وفي الشام كفوف اما من يقولون قفاز ويجمعونه على قفافيز فهؤلاء من الذين انعم الله عليهم وحفظوا من متن الفصحى عشرة آلاف كلمة على الاقل حتى وصلوا الى قفاز . وفي الشام يقولون شلح اواعيه ، وفي لبنان خلع ثيابه ، وفي مصر قلع هدومه وتقول الام لابنتها روحي اتبدلي اي غيري ثيابك .

وقد يعمدون لاستعمال ما كان له أصل في اللغة كالخناشير والطراطير والخنشور الذي لا يعجبك يقابله بالشامية الشرشوح والطرطور الضعيف الذي لا عمل له ، وهكذا في المصرية متعنطز متحنشص متنرفز الى كلمات غيرها ، ومنها ما له أصل عربي مثل اطلاقهم لفظ نغنوغه على السيدة ذات الدل والخفر وهي السيدة السمينة جاءت من نغنغ الطعام والفطير زاد في سمنه . وفي مصر يقولون بص أي انظر وفي لبنان اقشع وفي الشام شوف .

وقد يختلف كل قطر عن جاره في مدلول اللفظ الواحد وفي صيغة الجموع وغيرها ففي مصر يقولون طقطوقة لذاك الوعاء الصغير الذي يطرحون فيه رماد اللفائف وأعقابها ، ويطلقون الطقطوقة على الأغنية البلدية ، والقرينة هي التي تفرق بينهما ، كما هو الحال في كثير من الألفاظ ولو قلت الطقطوقة لذاك الاناء اضحك الشامي ونظر باهتاً فلا يعرفها تطلق

إلا على الاغنية ، وفي الشام يجمعون سيكارة على سيكارات وفي لبنان على سواكير وفي مصر على سكاير ويقولون في الشام طنش بالشين غض الطرف وما بالى وفي مصر طنس بالسين لهذا المعنى ، وفي مصر لبش تحير وارتبك وفي الشام لبش جمع متاعه وارتحل ، وفي مصر محنتف متزين لطيف ، ومعناها في الشام بخيل مقتصد .

وكما اختلف مدلول بعض الالفاظ في الاقطار المجاورة تنوسي كثير من الفصيح جملة ، فكانوا يطلقون على الارض الكثيرة الخضرة (اليخضور) وعلى الرجل الكثير الكلام (اليهمور) وعلى الرجل الاحمق (اليانوف) وعلى المثقل بالدين (المفرح) وعلى كثير الطرب (المطرابة) وعلى من يتكلف الالحان من غير صواب (العاعة) ، وعلى الخبيث الشرير (العارم) وكانوا يقولون أخذ ماله كملًا واليوم يقولون كاملا وفلان لا يؤاكل رغيباً ولا زهيداً ، والرغيب الكثير الاكل والزهيد القليل الاكل ، الى مئات غيرها مما لو عادت اليه الحياة وجرت به الالسن لحيي جانب عظيم من الفصح ومات جانب من المولد مع الزمن ، وضعفت اللهجات وقويت الفصحى ، او جانب عظيم منها .

من الصعب تعيين زمان دخول كل لفظة بعينها لان اللهجات لا ضابط لها ولا هي مدونة بأسرها فمن الواجب وضع معجمات لها كما نراهم في الغرب وضعوا معاجم للالفاظ العامية وأخرى للالفاظ المحرفة ومعاجم للغة أرباب الدعارة واللصوص يعبرون عنها بالفرنسية بكلمات :

Argot, Jargon, Baragouin, Patois

وفي كتب الجاحظ ألفاظ كثيرة من هذا القبيل لاتعترف بها الفصحى وكان تدوين أبي عثمان لها من مزايا لغتنا واتساع صدرها لكل جديد ما سبقت لها معرفته ، والحمد لله على أن المجمعيين لم يعترضوا على بعض ماوضع ، مثل ثلاثة ألفاظ أفرنجية وهي فيلم وترام وسينما فأقروها راضين ومثل مخيم ومصح ومعزل وهي مشتقة من أصل عربي وربما تفننوا وأطلقوا

أكثر من اسم على مسمى واحد كما وقع للمقدسي البشاري صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم من أمتع كتب الجغرافية عند العرب فقد أسماه الناس خلال رحلته بستة وثلاثين اسماً دعي بهـــا المسكين وخوطب ، فأطلقوا عليه المقدسي والفلسطيني والبصري والمغربي والخراساني والسلمي والمقريء والفقيه والصوفي والمولى والعابد والزاهد والسياح والوراق والمجلد والتاجر والمذكر والامـام والمؤذن والخطيب والغريب والعراقي والبغدادي والشامي والحنفي والمؤدب والبكري والمتفقه والمعلم والفرائضي والاستاذ والدانشمند والشيخ والنشاستة والراكب والرسول .

لما ورد مصر ابن جرير الطبري صاحب التاريخ في سنة ٢٥٦ قادماً من العراق نزل على الربيع بن سليمان فأمر من يأخذ له داراً قريبة منه قال : وجاءني أصحابه فقالوا : تحتاج الى قصرية وزير وحمـارين وسدة فقلت أما القصرية فأنا لا ولد لي وما حللت سراويلي على حرام ولا على حلال قط (ياخسارة) ، وأما الزير فمن الملاهي وليس هذا من شأني ، وأما الحماران فان أبي وهب لي بضاعة أنا أستعين بها في طلب العلم فان صرفتها في ثمن حمارين فبأي شيء أطلب . قال : فتبسموا . فقلت : الى كم يحتاج هذا ؟ فقالوا : يحتاج الى درهمين وثلثين . فأخذوا ذلك مني وعلمت أنها أشياء متفقة . وجاؤوني باجانة وجب الماء وأربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط وقالوا الزير الماء والقصرية للخبز والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث فنفعني ذلك وكثرت البراغيث فكنت اذا جئت نزعت ثيابي وعلقتها على حبل قد شددته واتزرت وصعدت الى السدة اهـ . يقول أناطول فرانس الالفاظ هي الافكار وأعتقد أن الشعب الاول في العالم هو الذي كان كتاب قواعده أجود من كتـــاب غيره وقد يهلك الناس بعضهم بعضاً بألفاظ لا يفهمونها فاذا تفاهموا يتعانقون ويتعاطفون .

تطور الالفاظ والتراكيب

ألقى علينا الثعالبي من أهل القرن الخامس في المضاف والمنسوب درساً مستوفى من التراكيب والاضافات التي كان بعضها شائعاً في الجاهلية، والآخر حدث في الاسلام، وقد خرجها في احدى وستين باباً فمنها ما أضيف الى اسم الله تعالى: أهل الله، بيت الله، رسول الله، كتاب الله، أرض الله، ستر الله، ناقة الله، رحمة الله، أمر الله، لعنة الله، صبغة الله الخ. وكل شيء كما قال الجاحظ أضافه الله تعالى الى نفسه، فقد عظم شأنه وشدد أمره، وقد فعل ذلك بالنار فقال نار الله الموقدة، ومنها ما يضاف الى الانبياء مثل سفينة نوح، عمر نوح، مقام ابراهيم، نار ابراهيم، صحف ابراهيم، ناقة صالح، قميص يوسف، عصا موسى، صبر أيوب، مزامير داود، خاتم سليمان، ومنها ما ينسب الى الملائكة والجن والشياطين مثل سحر هاروت، ديك الجن، جند ابليس، قبح الشيطان، حبائل الشيطان، رؤوس الشياطين. ومنها ما يضاف الى القرون الاولى: ريح عاد، صرح هامان، كنوز قارون، سد الاسكندر، نوم أصحاب الكهف، ومنها ما يضاف الى الصحابة والتابعين مثل سيرة العمرين، درة عمر، دهاء معاوية، فقه العبادلة، حلم الاحنف. ومنها ما يضاف الى رجالات العرب في الجاهلية والاسلام: حاتم طي، زيد الخيل، سحبان وائل، عروة الصعاليك، سعد العشيرة، وضاح اليمن، مجنون بني عامر، أشجّ بني أمية، جبار بني العباس، ومنها ما ينسب الى القبائل ايلاف قريش، تيه بني مخزوم، جود طي، أو الى رجال مختلفين: حكمة لقمان، بلاغة قس، عي بأقل، حديث خرافة، مواعيد عرقوب، وفاء السموأل، كذب مسيلمة، طمع أشعب، ومنها ما ينسب الى العرب: تيجان العرب، نخوة العرب، كسرى العرب، ومنها

ما أضيف الى الاسلام . قبة الاسلام ، بيضة الاسلام . ومنها الى القراء والعلماء . فقه أبي حنيفة ، حاجة أبي الهذيل ، أو الى ملوك الجاهلية والاسلام . سيرة ازدشير ، عدل انوشروان ، ايوان كسرى ، شقائق النعمان ، خلافة ابن المعتز . أو الى الكتاب والوزراء في الدولة الاموية والعباسية : بلاغة عبد الحميد ، بلاغة جعفر ، يتيمة ابن المقفع ، تيه عمارة أو الى البلدان عزيز مصر ، أو الى أهل الصناعات ، كلب القصاب ، تيه المغنى ، رغفان المعلم ، كذب الدلال . ومنها الى الآباء والامهات والبنين والبنات مثل ابو قلمون ، أبو مثوى ، أم الكتاب ، أم القرى ، أم المؤمنين ، أم حبين ، أم قشعم ، ابن الليالي ، ابن جلا ، ابن آوى ، ابن السبيل ، بنو الايام ، بنو الدنيا ، بنت الفكر ، بنات الصدور . أو الى الاذواء والذوات : كاذواء اليمن ، وذو الاوتاد ، وذو القرنين ، وذو النورين ، وذو الرياستين ، وذو الكفايتين ، وذات النطاقين ، وحمالة الحطب ، خضراء الدمن ، ضرائر الحسناء . ومنها ما ينسب الى النساء مثل كيد النساء ، مرآة الغريبة ، بكاء الثكلى ، ومنها الى الاعضاء . سويداء القلب ، حبل الوريد . ومنها الى الابل حمر النعم ، صولة الجمل ، ناقة صالح ، خبط عشواء . ومنها الى الخيل والبغال . نواصي الخيل ، فرسا رهان . ومنها الى الحمار : حمار العزير ، صبر الحمار . ومنها الى البقر والغنم : بقرة بني اسرائيل ، أذناب البقر ، لحية التيس . ومنها ما يضـاف الى الاسد : ليث عفرين ، ليث الغاب ، جرأة الاسد ، وثبة الاسد . ومنها الى الذئب والسباع والوحوش والسنور والفأر والضب والظربان والقنفذ والسرطان والحية والعقرب والحشرات والهوام والطير والغراب والذباب والبعوض ، ومنها الى الارض والدور والامكنة والابنية والبلدن والاماكن ومنها الى الجبال والحجارة والمياه والنيران والشجر والنبات واللباس والثياب والطعام والشراب وما يتصل بها والى السلاح والحلي والازمان والاوقات والآثار العلوية وغير ذلك .

هذا ماعنى الثعالبي بتدوينه وفيه صورة من صور المجتمع الجاهلي والاسلامي ومنه ماجاء كالمثل ومنه ما كان فيه اشارة الى وقعة تاريخية وتصوير لحالة نفسية مثل عرق القربة وعرق الموت ومعنى الأولى الشدة والمشقة ويضرب الثاني مثلا لأشد الشدة وكان الحسين الخادم خادم المعتضد والمكتفي يتولى البريد بمصر ويلقب بعرق الموت قبل أن المكتفي لقبه بذلك .

وكل مانسب وأضيف وأتانا به الثعالبي ماخرج عن تركيب عربي ولفظ عربي . ولقد حدثت بعد تراكيب واضافات وألفاظ كان الواجب تدوينها ولعله كان ينتظم منها مجلد آخر ، أما في العصور الحديثة عصر الطباعة والصحف والمجلات وانتشار الكتب وعهد ابتداع العلوم المادية فقد يسقط الباحث على اضافات ونسب منها مانقل عن اللغات الغربيه وتحس فيه أثر الترجمة وهجنة العجمة .

وتطورت الالفاظ والتراكيب في عصر العلوم هذا ، وقضت الحال على النقلة أن يختاروا ألفاظاً لتراكيب جديدة فمنها ما جودوا فيه ومنها ماقصروا ، وكله دخل على اللغة وحفظه الناس وتناقلوه . وتكثر هذه التراكيب والألفاظ في مصطلحات العلوم والسياسة والاجتماع والفلسفة والاقتصاد والمالية والتربية ، كثرت لأن سند هذه العلوم انقطع عند العرب أو كانت علوماً جديدة لايعرفها أجدادنا ، وكانت المادة من التعابير قليلة ، وكان المترجمون لأول النهضة ضعافاً في اللغة ، ولعل بعضهم لم يدرك ماتحويه الالفاظ الفرنجية من معان ، فترجموا كيفما اتفق لا كما يجب أن يكون ، وأكثر التراكيب التي جاءنا بها العصر الجديد اذا ألقيته على مسامع العربي الاصيل اضطر الى أن يفكر ساعة ، وربما ما خرج بعدها بشيء يصور له المعنى تصويراً حقيقياً لأنه لايعرف جهة العلم الذي كانت هذه الالفاظ والتراكيب من ألفاظه وتراكيبه . وقد شاهد هذا المجمع من تلك الالفاظ مئات .

ولا أكتمكم ياسادتي أن سمعي لم يتألم قط أكثر من تألمه من لفظ أو

اضافة جاءنا بها المشتغلون بعلم التربية فنسبوا الى التربيـة (التربيوية)
وأتونا بعد ذلك بألفاظ وتراكيب لو حلفنا لأهل عصور زهو العربية بالطلاق
والعناق أنها عربية ماصدقوا ولا آمنوا ، وجاءنا المتفاصحون من المترجمين
بتركيب النزعة الواقعية ، القوة الوجدانية ، الذاتي ، الموضوعي ، الاقليمي ،
الفكرة الاساسية ، الفكرة الرئيسية ، الطريقة الاعتباطية ، السبب المباشر
وهكذا سرت الى الأقلام عشرات من التراكيب على اعتبار أنها وردت
في كلام بعض العارفين فاحتذاها من قضت عليهم صناعتهم بالعجلة وعدم
التريث ككتاب الصحف ، وقد يعبرون عن المعاني التي يحتاجون
الى أدائها من حاضر الوقت لايطيلون التفكير فيها والمراجعـة ، نعم
جاؤونا بطائفة من التراكيب ما أنزل الله بها من سلطان ، ومنها قولهم
تغلبت العناصر التقدمية الرجعية . وطن معنوي مثالي ، الوطن المرقوب
المرغوب ، من حيث الاساس . تعرض نفسها على اتجاهـات السياسـة
القبتاريخية أي قبل التاريخ ، الاحلام الطوبائية ولو قال أبو عذرة هذا
التركيب السياسة قبل عصر التاريخ بدل القبتاريخية والخيالات والأوهام بدل
الاحلام الطوبائية لأدى المراد ونجا من هـذه السماجة . جاؤونا بضرب
الرقم القياسي في الشيء الفلاني ، النزعات السياسيـة السائدة ، عمله على
ضوء كذا ، رفع رأس أمته عالياً ، يحيطونها بهالة من الرهبة ، استغل
الموقف ، جرى على خطته التقليـــدية ، خلقت جواً من الشبهات ،
المفاوضات تجري في جو يسوده الود ، الوضع الحاضر الوعي القومي سر
المهنة فقيد الواجب . التربية المثالية ، المجال الحيوي ، المُثُل العليا ، الشخصيات
البارزة ، السوق السوداء ، الجهود الجبارة ، الحل الحاسم ، حقل الادب والعلم
الروح الوثابة ، موضوع أخاذ أتون الحرب ، الرغبة الملحة جملة داوية صارخة
صخابة . وأخيراً تم الشيء الفلاني ، بحسب الخطة المرسومة ، رجل الساعة
الاهداف القومية ، حركة خاطفة ، الروح المعنوية المتوثبة ، في ظل النظام ، ظهر
على مسرح السيـاسة ، يضحي على مذبح أغراضه ، طلب يدهـا ، ذر
الرماد في العيون ، يشق طريقه الى الحياة ، فشلت المناورة ، انفرجت شفتاه

عن عدة ابتسامات كان لها أثر طيب في تلطيف جو الاحتفال . ومنها مايكررونه في اليوم والليلة مرات حتى مجته الأذواق وبرمت به الآذان وهي ليست في شيء مما قاله علماء البيان في التكرار أو عمد اليه الجاحظ في ترديده بعض ألفاظه الحلوة كفمل كان أو تركيب أما بعد . وتكرار الجاحظ على كل حال لا يشبه ما أحصيته لأحد البلغاء في حديث له في المذياع كرر فيه لفظ (اللهم) مراراً وأذكر أني عددت له منها عشر مكررات ثم مللت ووجهت وجهي عن الاستماع ، والغالب أن صاحبي - وكان شيخاً والمشيخة فيه أعلق به من شعرات قصه - انقطع عن الصلاة أياماً وأحب أن يعوض عن لفظ اللهم التي فاتته فجمعها كلها في محاضرة واحدة ، ولعله ظن أن المحاضرة صلاة ودعاء فتوسل الى الباريء تعالى ماوسعه التوسل في حديثه مع أنه كان من سعة المادة اللغوية على جانب عظيم ولا يحتاج بيانه الى مثل هذه التكآت .

ومن التراكيب والاضافات الجديدة ماتغثى منه النفس وهذا تجده في كثير من الكتب المترجمة ممن يكون مترجمها وسطاً في اللغة التي نقل منها واللغة التي نقل اليها . ترجمنا وبذلنا الجهد فكان في ترجماتنا الرديء والجيد ولم يكن لنا بد من الدخول في هذا الدور ، أما الآن وقد كثر عدد الفريق الذي تخرج بآداب لغته واللغات الغربية ، فالواجب ألا ننشر الا ماسلم كل السلامة من العوج ولم يسبق للسان العربي أن جرى به . فبالله ألا تصابون بالبرداء ، وقاكم الله شرها ، اذا سمعتم مترجماً يقول هذا الشعور ليس سلبياً بل ايجابياً ، تربية فلان الايجابية العملية ، المركز الاستثنائي ، المبدأ الانقلابي ، دلل بها على جوهر قومي مركز ، التركيز في التقسيمات ، حركة تحريرية تجديدية ، نصوص متفنية شريفة ، الوطنية تستمد وحيها من نواميس كذا .

ومن التراكيب أو الألفاظ ما استلزمته طبيعة العصر لأنه ينم عن معان لاسبيل الى التفصي منها لأنها تدل على أمور ذات أثر في سياسة الدنيا اليوم ومنها الارهابيون الوصوليون النفعيون الانتهازيون المداورون

العدميون الفوضويون الاشتراكيون الشيوعيون النازيون الفاشتيون الجمهوريون الملكيون الديموقراطيون الارستقراطيون الديكتاتوريون الرأسماليون المحافظون الحياديون الحزبيون . ولا أطيل عليكم في ايراد الاضافات والصفات والأسماء الجديدة ، وعلى من يحب التوسع في تلقفها أن يتتبعها في الصحف والكتب الحديثة ولا سيا في المعربات . وتكثر التراكيب والألفاظ النابية عن مناحي البلغاء في كلام أهل القرن الماضي ولا ترى الوسط في نقله وتصنيفه الا معتذراً عن جهله بأنه يكتب الكتابة التي تروق جمهور الناس ويهزأ في باطنه ، وأحياناً يبدو هزؤه على سحنته ممن يكتب كتابة عربية في الجملة ويسمها بأنها كتابة جامعية أو مشائخية نسبة للجامعة أو لدار العلوم .

قلت في بيان ألقيته في السنة الماضية في مثل هذا الحفل الكريم أن من الألفاظ مايُعمر قليلاً ثم يموت ويحيا غيره فينسي الآخر الأول ، وان لكل عصر ألفاظه كما أن لكل عصر بيانه ، وقد أتيح لي أن نشرت خمسة كتب للقدماء حوت من هذه المعاني أشياء كثيرة ، فكان في الأول طائفة كبيرة من ألفاظ القرنين الأولين للاسلام ، وفي الثاني ألفاظ لم يعرفها هذان القرنان ونسيت في الرابع والخامس وفي الكتاب الثالث ألفاظ وتراكيب عرفت كثيراً في الرابع والخامس وفي الكتاب الرابع ألفاظ علمية اشتهرت في الخامس والسادس، وكان ابن القرون السابقة بمعزل عنها، وفي الكتاب الخامس ألفاظ وتراكيب عرفت في فارس وخراسان .

وأعني بالكتاب الاول رسائل البلغاء وفيه نصوص نادرة لعبد الله ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وغيرهما من أئمة البيان وبالكتاب الثاني سيرة أحمد بن طولون للبلوي من أهل القرن الثالث ، وبالكتاب الثالث المستجاد من فعلات الأجواد للمحسن التنوخي من أهل القرن الرابع ، وبالكتاب الرابع كتاب البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي من أهل القرن الخامس ، وبالكتاب الخامس تاريخ حكماء الاسلام للبيهقي وفيه من ألفاظ الفلسفة والحكمة التي كانت معروفة عند أهل القرن السادس .

كان الكتاب الأول من محصول العراق وفارس في الجملة ، وكان

الكتاب الثاني مما أخرجته مصر ، والكتاب الثالث مما صدر عن الدور العباسي الأول والثاني ، والكتاب الرابع مما ألف في مصر أيضاً وفيه ألفاظ مصر ، والكتاب الخامس مما صنف في فارس وفيه ذرو من مصطلحها .

والألفاظ التي حملها الكتاب الاول من أسهل الألفاظ استعملت قروناً ثم بدأ الناس ينسونها فهجرت وصار ابن هذا العصر اذا سمع بعضها فكأنه يسمع الفاظاً أعجمية واذا حاول الكشف عنها في المظان ملّ وكلّ ولا عجب فقد بلغ بنا الضعف في لغتنا أحياناً أن صرنا الى حالة اذا حاولنا قراءة شعر جاهلي فكأننا نقرأ لغة غير لغتنا ، ونقع فيه على ألفاظ نجد في بعض الالفاظ الفرنجية أنسة أكثر مما نجد في هذه الالفاظ العربية ، ولا أحيلكم للتدليل على دعواي الا أن تلقوا نظرة على بعض ماطبع من دواوين الجاهليين وبعض الاسلاميين أمثال زهير بن أبي سلمى وجرير والفرزدق ، وعوض الله شراح هذه الدواوين المعقدة خيراً عما بذلوه من أوقاتهم في سبيل حلها ، فمن ألفاظ هذا الكتاب الاعتال الاضطراب في العمل والحركة وفيه زمين كسيح ، زميت وقور قذعه منعه وكفه آنق أحسن وأعجب ، استعتب طلب الاعتاب واستقال من الذنب ، مدخول في أموره غش وعيب وفساد ، أرض تهمة مصوبة الى البحر ومنه تهامة ، أرض جلس غليظة ، الواهن الضعيف في العمل التارك له ، الفالج الفائز ، المناقلة المحادثة ، الاستطراد نوع من المكيدة ، الجبار ما لان من الأرض واسترخى والجدد الارض المستوية الغليظة وما استرق من الرمل وفي المثل من تجنب الجبار أمن العثار ، ومن سلك الجدد أمن العثار ، العقدة العقار ونحوه يقال اعتقد فلان عقدة اذا اشترى ضيعة أو اتخذ مالاً من عقار وغيره وهي مستعملة عند عوام الشام ، الكفاة الخدم الذين يقومون بالخدمة ، الخانة جمع خائن والغدرة جمع غادر ولا نستعمل هذين الجمعين اليوم وكثير من الجموع أغفلناها مع الزمن كالجورة والحزمة والخونة والكذبة . الاعتاب مصدر قولك أعتبني فلان اذا عاد الى مسرتك راجعاً عن الاساءة ، الاستئثار المشاورة أعذر الرجل بالغ في اظهار عذره ، الطرق ضعف العقل وفلان به طرقة

أي هوج ، أجم الطعام كرهه ومله ، استجمام القلوب اراحتها ، السوقة خلاف الملك نطلقه على أهل الاسواق وليس بصحيح ، الاحتلاط (بالحاء) المبالغة في الحلف واليمين ، البأو الفخر بالنفس ورفعها ، اتلاد المال تنميته ، فاش الرجل اذا افتخر ومنه التفيش وهو الكبر والادلال ، اتزر ركب الوزر أي الاثم ، حقرية الذلة ، خبال الامر اضطرابه واختلاطه ، الشرج المثل والنوع ، ينبيغ يهيج ، الاستجراح الفساد والعيب ، استحسر أعيا وتعب ، القعدة الكرسي أو الطنفسة ، الظهري مايجعله المرء عدة له عند مسيس الحاجة اليه ، الشكيمة قوة القلب وشكمه أثبته ، أغمز في فلان اذا عابه واستضعفه وصغر من شأنه ، استأكل الضعفاء اذا أخذ أموالهم ، أوتغ دينه بالاثم أفسده ، الحجه بعرض فلان أمتكه منه بشتمه ، الانفهاق في الشيء التوسع فيه ، اكتهف وتكهف لزم الكهف والكهف المغارة والملجأ ، أخطر جعله في خطر ، رضخ له من ماله اذا أعطاه ، ضن الشيء يضنه فهو موضون ووضين ثنى بعضه على بعض ونضده ، العقوة ماحول الدار والمحلة ، الكسى (بالضم) مؤخر العجز في كل شيء والجمع اكساء وركب اكساءه ، سقط على قفاه ، اجتالهم بالشد حولهم عن طريق قصدهم الخ ...

ومن ألفاظ الكتاب الثاني (١) العقابان خشبتان يشبح الرجل بينهما ليجلد (٢) الفيج الحارس أو رسول السلطان أوحامل البريد (٣) ، العطعطة حكاية صوت المجان اذا قالوا عيط عيط وذلك اذا غلبوا قوماً (٤) ، الابليزوطين الابليز طين مصر وهو مايعقبه النيل بعد ذهابه عن وجه الارض لغة مصرية (٥)، تقبل العامل العمل تقبيلاً التزمه بعقد ومنه المتقبلون أي الملتزمون باصطلاحنا اليوم (٦) ، هذا عول الدولة أي المستعان به أو أحدخدامها (٧) ، يعرّب عليه يرد عليه بالانكار (٨) المُجْمَل المستعمل على جملة أشياء كثيرة غير ملخصة جاءت هكذا : عرض الغلام عليه مجملاً بما يجري يوماً يوماً وليلة ليلة (٩) المطرح المفرش وزناً ومعنى (١٠) المسورة بكسر الميم مخدة مدورة (١١) الخردادي ابريق من البلور الحجري ذو عنق ضيق

وجسم يزداد اتساعا من أعلى الى أسفل . والخردادي الخمر ، والغالب أن هذا الاناء كان خاصاً بوضع الخمر كالباطية . وقال العلامة كرنكو إنها خرداذية بالذال في الثانيـة وهي كلمة فارسية لنوع من أنواع الشراب كانوا يشربون فيه أيام الأعياد (١٢) القصرية كالاجانة اناء لوضع الزهور أو الطيب (١٣) الرقاص اجير البناء وهاتان اللفظتان مصريتان (١٤) بعّض الشيء جزأه وتبعض له أي ناوله بعض ما على المـائدة من الطعام تحبباً (١٥) يزل معه مايقدر على حمله من زل الطعام أخذه وتناوله والزلة اسم لما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك . (١٦) البذرقة الخفارة . (١٧) في الكلام على هنـدسة جامع ابن طولون (فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت) فسرته بأنهم كانوا يرسمون مخطط البناء على الجلد ، ثم اطلعت على كلام للجاحظ يقول فيه : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكاك والعهود وفي الشروط وصور العقارات وفيهـا تكون نموذجات النقوش ومنها تكون خرائط البرد وهن أصلح للجراب ولعفاص الجرة وسداد القارورة (١٨) ورد فيه فتخرج الينا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً أو تطاريف ، وفي كتب اللغة اختضبت المرأة تطاريف أي أطراف أصابعها وطرّفت المرأة بنانهـا اذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء (١٩) الزيرباج : قطع لحم صغيرة تجعل في القدر عليه غمرة ماء وقطع دارصيني وحمص مقشور ويسير ملح فاذا أغلي تؤخذ رغوته ثم يطرح عليه رطل خل خمر وربع رطل سكر واوقية لوز حلو مقشراً أو مدقوقاً ناعماً يداف بماء الورد وخل ثم يطرح على اللحم (٢٠) البوارد البقول المطبوخة الموضوعة في الخل وماء الحصرم والسماق وماء التفـاح والريباس (٢١) السفتجة كقرطقة أن تعطي مالاً لآخر ، وللآخر مال في بلد المعطي فيوفيه اياه ثم فتستفيد أمن الطريق وفعله السفتجة بالفتح والمال المـفتج المرسل الى بلد آخر سفاتج (٢٢) الذَّرَبُ : فساد المعدة .

ومن ألفاظ الكتاب الثالث : أبرد القوم دخلوا في آخر النهار ، حبا الرجل مشي على يديه وبطنه فنظر اليه عن عرض وعرض من جانب

أربد وجهه وتربد احمر حمرة فيها سواد عند الغضب ، يقال هو حدث ملوك بالكسر صاحب حديثهم ، وكثير الحديث حين السياقة له ، المتلدد الحائر المتلفت يميناً وشمالاً ، تذمم استنكف يقال لو لم أترك الكذب تأثماً لتركته تذمماً ، أتانا بعد هدء من الليل وهدأة وهدي وهدوء ، أي بعد هزيع من الليل أي حين سكن الناس ، يقال ما يريم يفعل ذلك أي ما يبرح وما رمت أفعله وما رمت المكان وما رمت منه وريم بالمكان أقام فيه ، احتشم منه وعنه وحشمه واحتشمه أخجله ، فلان موطأ العقب صاحب سلطان يتبع ، رجل أثير مكين مكرم ، أرجره الرمح طعنه به في فيه ، نكد زيد حاجة عمرو منعه اياها ، غمزه بيده نخسه ، الطائف العسس العُسُّ القدح العظيم ج عساس ، القصب القدح الضخم ، تطفيل الشمس غروبها ووجبت الشمس غربت ، شق الدار والخيمة ناحية منها ، فلان ما يليق درهماً من جوده ما يمسك ، الصرم البيوت المجتمعة ، يوم صائف حار ، تغز نفسه تنقبض ، الخريطة وعاء من ادم (جلد) وغيره يشرج على ما فيه أي يشد ، عاقمه خاصمه ، فلان ملزوم لازمه غرماؤه ، البهلول كصرصور السيد الجامع لكل خير ، حادرت السنة اذا قل ماؤها ومطرها ، الاشراف بالشين الحرص ومنه الحديث من أخذ الدنيا باشراف لم يبارك له فيها ، غُبّر الشيء بقيته ، زهر السراج تلألأ ، العوراء الكلمة أو الفعلة القبيحة ، الشاكري الاجير أو المستخدم ، أبن نفي كغني نفاه أبوه ، رجل ألحن وأمة لحناء لم يختتنا ، يقال افعل ذلك وكرامة لك وكرمي وكرمة لك وكرماً لك وكرمة عين ونعيم عين ونعمة عين ونعامى عين ، ويقال نعم وحباً وكرامة ، انقطع به ان كان ابن سبيل فانقطع به السفر دون طيته وهو منقطع به ، يقال للرجل عند التوديع معاناً مصاحباً ومن قال معان مصاحب فمعناه أنت معان مصاحب ، صهرته الشمس أي صحرته آلمت دماغه ، أقاد القاتل بالقتيل قتله به ، لببه جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره ، استشرف الشيء رفع رأسه لينظر اليه ، تطول

عليهم امتن ، كطال عليهم ، وتطول تفضل ، الباطية اناء عظيم والرطلية وعاء يجعل فيه الخمر وغيره ، رب الأمر أصلحه ، الرافعة الجماعة تذيع الى الناس مايقال ، تقول أوطأنني عشوة أي جعلتني أطأ ما لا أراه أي أوقعتني في أمر متلبس وغررتني حتى اغتررت ، احتسب عليه أنكر ومنه المحتسب ، تواعدوا اتعدوا أو الاولى في الخير والثانية في الشر ، وثب به هجم عليه وتوثب في ضيعتي استولى عليها ظلماً ، الربع الدار بعينها حيث كانت ج رباع وربوع وأربع وأرباع . الفحل الرجل الكامل الرجولة ، القرم السيد .

ومن ألفاظ الكتاب الرابع (١) الطيهوج ذكر السلكان واحدها سلك كصرد والسلك فرخ القطا أو الحجل (٢) السهك قبح رائحة اللحم ، الخنز (المنتن) وريح السمك (٣) غضف الاذنين استرخاؤهما (٤) البشتمازك هو الذي يكون في آخر الاضلاع من داخل الحمل ويسمى الكمازك ، وهذا تعريف المؤلف له ولم نجد له ذكراً في كتب اللغة (٥) أسطارم الغالب أنه من أمراض الجوارح ولم نجده في المعاجم : ومعلوم أن المعاجم لم تستوف جميع ألفاظ اللغة وقد وجد دوزي الهولندي مئات من هذه الالفاظ ملأ بها كتاباً له في مجلدين أسماه ملحق المعاجم العربية (٦) الحوجلة القارورة (٧) القدير اللحم المطبوخ في القدر (٨) قمر فلان الرجل غلبه في القمار (٩) الكندرة مجثم البازي يهيأ له من خشب أو مدر (١٠) الحق وعاء الطيب (١١) تقرش الشيء أخذه أولاً فأولاً (١٢) خربع المشارع جعل فيها الخربع والخربع نبت كالسم يغشى على آكله ولا يقتله والمشارع جمع مشرع معناها طريق الحوض (١٣) التبان كرمان سراويل صغير يستر العورة المغلظة (١٤) قرنص فلان البازي اقتناه للصيد (١٥) اركب الطائر تهيأ للطيران أو ضرب بجناحيه (١٦) عبّر الطير زجرها (١٧) ذرق الطائر ألقى ذرقه (زبله) (١٨) سبق الطائر ألقى السباقين في رجليه والسباق القيد (١٩) الشهدانج ويقال له شهدانج حب القنب وفي اللغة الشامية القنبس (٢٠) قبض الطائر وغيره اسرع في الطيران وهو قابض

وقبيض بين القباضة والقبض منكمش سريع ومنه والطير صافات ويقبضن (٢١) الفانيذ نوع من الحلواء يصنع من السكر ودقيق الشعير والزنجبين .

ومن ألفاظ الكتاب الخامس : الاسطقسات أو العناصر والاكسير دواء اذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهباً او فضة أو غيّره الى البياض أو الى الصفرة ، الطين ويعرف بالطين الارمني وفي الشام يسمونه الترابة وهو الطين الذي يؤكل ، وسئل عما كان يأكل ويشرب كل يوم فقال المدققة والمرققة والملبقة والمروقة (الملبق الملين بالسمن) . البربط العود وأصلها بالفارسية بربت أي صدر البط لأن صورته تشبه صدر البط وعنقه وأهل هـذا الفن وغيرهم اعتمدوا على لفظة العود ، السكبينج نوع من العقاقير ، الاحبلتجين عقار من ورد وعسل ، متريديطوس ويقال مترا اختصاراً ومعناه المنقذ من ضرر السم (والاصل في هـذا الاسم اسم الطبيب مخترعه ومركبه) ، التفسرة بول يستدل به على حال المريض وعلته ، القيفال بالكسر عرق في اليد يفصد ، الدستور الوزير الكبير الذي يرجع في أحوال الناس الى مايرسمه ، القولنج مرض معدي يعسر معه خروج الثفل والريح . وقد وقعت له عدة تعابير وتراكيب نسيناها او تناسيناها ومنها تشور خجل ، اجعلني من أُدمة اهلك وارض عني ويقال جعلت فلاناً أدمة اهلي اي اسرتهم وأدمه بأهله خالطه بهم وجعله كواحد منهم ومنها الحافد اي المعوان ورجل محفود يخدمه اصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته .

هذا ما امكن اقتباسه من ألفاظ الأسفار الخمسة التي نشرتها ، فكم في الكتب المطبوعة والمخطوطة من امثالها ما أنسيناه ونحن له محتاجون كما انسينا من الحلويات العصيدة والخبيصة لما جاءنا من الفرس الفالوذج واللوزينج ثم انسيناها لما جاء الترك برواني وكلاج ثم انسيناها جمعاً لما اتانا الافرنج ببربوش وبردنج والله اعلم مايدخر الغيب لنا من الالفاظ في المستقبل ، وفي هذا دليل آخر على حيوية هذه اللغة وقابليتها للتطور بحسب الزمن مع الاحتفاظ بأصولها وقواعدها وبالفصيح من مفرداتها وشواردها .

الثورة الثانية

في يوم ١٢ آب ١٩٤٩ قام الجيش السوري بثورة ثانية بقيادة الزعيم سامي الحناوي والعقيد بهيج الكلاس وزمرة من الضباط ، فطوقت مدينة دمشق في الساعة الثالثة صباحاً وقبض على المشير حسني الزعيم صاحب الثورة الاولى ورئيس الجمهورية الرابع ، وعلى رئيس حكومته السيد محسن البرازي ، وانعقد مجلس حربي فحكم عليهما بالاعدام بالرصاص . وفي ثكنة المزة تولت فئتان من الجنود تتألف كل منهما من اثني عشر جندياً بقيادة نائب لتنفيذ حكم الاعدام على كل من حسني الزعيم ومحسن البرازي بعد أن عصبت أعينهما وشد كل منهما الى عمود ثبت في الارض ، فخر الاثنان مضرجين بدمائهما ، وتقدم منهما رئيسا الفئتين وأطلقا عليهما طلقتين من مسدسيهما للاجهاز عليهما .

والى القاريء الاسباب الداعية الى هذا القتل في بلاغين رسميين صدرا عن قائد الجيش والقوى المسلحة الزعيم سامي الحناوي .

بلاغ رقم (١)

أيها السوريون :

لقد قام جيشكم الباسل بانقلاب يوم الثلاثين من شهر آذار الماضي لينقذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت اليها من قبل ، وقد استقبلتم ذلك العمل بالفرح والتقدير لما وعد به زعيم ذلك الانقلاب من انقاذ البلاد من فوضاها ، واعادتها الى عزتها وكرامتها في بياناته الاولى ، ولكنه مالبث حين استتبت له الامور ان اخذ يتطاول هو وحاشيته الى أموال الامة ، فيبذرونها بالاثم والباطل ، والى كرامة البلاد ومقدساتها فيدوسونها ويلوثونها ، ويعبثون بقوانين الامة وحريات الافراد .

هـــذا عدا ما صحب ذلك من سوء الادارة والفوضى والتدهور ،

بحيث أخذ الناس يسخرون من الجيش ورجاله لما صارت اليه البلاد من حالة أفظع بكثير مما كانت عليه من قبل ، واذا أضفنا الى هذه الفوضى الداخلية تلك الفوضى التي صارت اليها سياستنا الخارجية رأينا أي مصير سيء قد بلغته البلاد .

لهذا ، وبعد الاعتماد على الله القوي العزيز ، عزم جيشكم الباسل الذي لايريد الا الخير للبلاد أن يخلصها من الطاغية الذي استبد وعتا هو ورجال حكومته المسخرة ، وقد أتم الله للجيش ماأراد فأنقذ شرف البلاد من ظلمهم وعتوهم ، وقد آلى على نفسه أن يسلم زمام الامر الى الاحرار المخلصين .

هذا وان الجيش وقواده ليعاهدوكم أمام الله والتاريخ أنهم لايبغون من حركتهم الاخيرة للبلاد الا أن تعيش عزيزة الجانب حرة مستقلة ، وسيترك الجيش لزعماء البلاد أنفسهم قيادة البلاد .

فعلى كل سوري أن ينصرف الى عمله هادئاً مطمئناً ، واثقا من أن قادة الجيش سيعودون الى ثكناتهم لتنظيم الجيش وترك أمور السياسة الى رجالاتها والسلام .

دمشق في ١٩٤٩/٨/١٤ القائد العام للجيش والقوى المسلحة
الزعيم سامي الحناوي

بلاغ رقم (٥)

أيها السوريون الأحرار :

بحمد الله العلي العظيم تم الانقلاب الحقيقي ونجت البلاد من طاغيتها المجرم الباغي ، الذي حاد عن الجادة المستقيمة وعتا عتواً كبيراً بعد أن وعد المواعيد الخلابة ، وخدع الخاصة والعامة ، وتظاهر بحب الخير والغيرة على الوطن الى أن استتبت له الامور فكشف عن حقيقة نفسه وأخذ يسير البلاد حسب أهوائه ، وقد زاد الطين بلة اعتماده على رئيس وزراء عرفه الناس جميعاً بسوء الاخلاق والخيانة والاساءة الى كل وطني شريف والقضاء على الروح الوطنية والنزعة القومية والمباديء العربية ، وقد كان أحرار البلاد من مدنيين وعسكريين يرون كل أولئك فيحاولون

تقويم الاعوجاج ولكن هيهات للعاتي ان يصحو ، وللمجرم ان يفيق .

لقد قال الطاغية لتبرير انقلابه أنه قام بحركته انقاذاً للبلاد من حالة البؤس والفوضى اللذين صارت اليهما في العهد الماضي ، ولكنه سار بالبلاد سيرة جعلت الناس تذكر بالخير العهد الماضي ، وتتمنى لو عاد على مافيه من عيوب ومساوىء .

واتهم الطاغية رجال العهد الماضي بتزوير الانتخابات ، فاذا هو يزور استفتاء شعبياً كاملاً ويسخر من الناس أجمعين ، ويجعل سورية مضغة في أفواه العالمين ليتسنم أريكة الجمهورية التي حلف الايمان يوم حركته أنه لايبغي من وراء حركته منصباً ولا زعامة فاذا هو كاذب خداع .

اتهم الطاغية الحكومة الماضية بمناوأة الاحزاب المعارضة والقضاء عليهم وتسليط زبانية الحكومة عليهم فاذا هو يفعل شراً من تلك الحكومة ، فيقضي على كل حركة انتقاد ويسخر الدولة لخدمة أنصار الحكم وجماعته .

زعم الطاغية انه قام بانقلابه خدمة للأمة وانقاذاً لصحافتها من التضييق على حريتها ولأحزابها من العمل والنشاط ولشبابها من التحرر فاذا هو وحكومته يفتكون بالأحرار ويضيقون على الحريات ويعيدون أنصار الانتداب الى منصة الحكم ، حتى اخذنا نرى وجه الانتداب من خلف ستار صفيق .

لقد حمل ذلك الطاغية على رجال العهد الماضي بكثرة الحفلات والولائم وانفاق مال الامة بالباطل وجعل وظائفها وقفاً على الانصار بصرف النظر عن الكفايات والأخلاق ، والاستهتار بقضية رئيسة كقضية النقد والمصالح المشتركة ومعالجتها بالكذب والمماطلة ، فاذا هو يفعل شراً منهم ويجعل الناس يترحمون على النباش الاول .

لقد زعم حسني الزعيم وأبواقه المأجورة أن رجال العهد الماضي أفسدوا ضمائر الشعب واستعملوا الضغط والارهاب ، وملؤوا السجون بالأحرار والوطنيين فما قولكم فيمن أخذ يفعل فعلاً شراً من فعلهم معتمداً على كل خائن وحثيل مجهول الأصل ، يفتك بأصحاب البيوتات ويضغط

على أهل الكرامات مالئاً سجون المزة وحلب وحمص وحماه واللاذقية بالأحرار من الوطنيين والشباب المخلصين .

لقد ادعى ذلك الطاغية أنه انما ثار على العهد الماضي لأنه حمل الطبقتين المتوسطة والفقيرة أكبر قسم من الضرائب وخاصة الضرائب غير المباشرة التي تسبب الغلاء في المواد الضرورية ، وحصر القطع النادر ورخص التصدير بفئة محدودة من التجار ، ولكنه كان في عمله أقسى وامر ، فقد استمر ظلم الطبقتين الفقيرة والمتوسطة وأخذ رجال الطبقة الغنية يقتربون منه بما يهدونه من هدايا وما يغدقونه على أقربائه وأنصاره من رشوة وسحت ، فسكت عنهم وقربهم من مجلسه واخذ يستمع الى اقوالهم حتى صاروا هم الساسة الحقيقيين للبلاد .

قال حسني الزعيم انه جاء ليغلق باب الرشوة والسرقة وخيانة كبار الموظفين وتقليل النفقات وتطهير الدوائر من العناصر الضارة وتنسيق كافة الجهلة والخونة فاذا هو يفعل العكس فيقرب الجهلة والخونة وينسق صغار الموظفين الشرفاء الفقراء ولا يعتمد في كل دائرة او ادارة الا على انصار الاجنبي والمرتشين والسارقين واعداء البلاد ويقضي على كل حر شريف مخلص لبلاده ، معروف باصالته وشرف نفسه .

قال الزعيم ورجال حكومته السابقة انهم يريدون توجيه السياسة الداخلية والخارجية توجيهاً صحيحاً فاذا هم يدفعونها في طريق ملتوية ، ويستأثرون بالسياسة العربية والخارجية ويدفعونها في طريق الانفصال والانانية والتآمر مع الاستعمار ، ويعملون كل الاسباب لقطع اوصال الأمة العربية وتاييد الحزبيات .

زعم الزعيم انه جاء ليصون دستور البلاد وكرامتها ولينتقم ممن عطلوا دستورها وحكمها الشوري ، فاذا هو يخرق الدستور ويعطل القوانين ، وكلما قيل له ان البلاد لابد لها من دستور خدر الناس والصحافة بتأليف اللجان وعقد الاجتماعات حتى اذا اتمت اللجنة صياغة بعض مواد الدستور على غير هواه وعقله الملتوي الاخرق ثار على اللجنة وأفحمها ، وشرد رجالها بعد ان كانوا بالامس من اقرب المقربين .

وبعد فهذا طرف مما نقم الناس على حسني الزعيم في اعماله العامة وادارة دفة الحكم . أما اعماله الخاصة واخلاقه الشخصية هو وحاشيته فحدث عنها بما تشاء من السوء والانحطاط وكأنه نسي ان ديار الشام بلاد محافظة لها تقاليدها واخلاقها وانها تكره الميوعة والتخنث كما تكره الطفرة والاعمال المبتسرة ، ولكنه كان يظن انه قد اصبح الدكتاتور المطلق يفعل مايشاء وما على الشعب الا ان يقلده ويتتبع خطواته فان اعماله دستور مقدس ، وحركاته نماذج صالحة .

ايها السوريون

لقد قام جيشكم من جديد بانقلاب وان قائده الاعلى ليحلف لكم انه ما قام بحركته الا انقاذاً لسمعة البلاد وكرامتها مما صارت اليه ، وانه سيدعو في اليوم التالي احرار البلاد على اختلاف النزعات والاحزاب لتسلم دفة الحكم على الشكل الذي يريدونه وانه هو ورجال الجيش سينزوون في مراكزهم لحماية الحدود وحفظ عزة البلاد بعيدين عن التدخل في السياسة فان لها ارباباً غيرهم ، وان قائد الجيش العام يرجو من كافة المواطنين ان ينصرفوا الى اعمالهم كالمعتاد بكل سكينة وهدوء تاركين لارباب السياسة تسيير دفتها معتمدين على اخلاص رجالاتها المعروفين بشرف النفس وطهارة اليد ونقاوة الماضي والفكرة القومية والاخلاص .

دمشق في ١٩٤٩/٨/١٤ القائد العام للجيش والقوى المسلحة

الزعيم سامي الحناوي

هذا ما نشره اللواء الحناوي على الناس ، ومعظم ماقاله في المشير حسني الزعيم غير صحيح .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع في دار الحكومة بدمشق بعض النواب والوزراء من رجالات سورية وعهدوا الى فخامة السيد هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية الثاني تأليف وزارة من الاحزاب المعارضه وباشرت من الغد أعمالها برئاسته ، وقد منح سلطة رئيس جمهورية وسلطة رئيس وزارة ريثما تجري الانتخابات للمجلس التأسيسي وينتخب رئيس جديد للجمهورية .

المجلس التأسيسي

جئت صديقي الرئيس الجليل السيد هاشم الأتاسي شاكراً له قبوله رياسة الدولة ، عقبى مقتل صاحب الثورة الاولى السيد حسني الزعيم ، وقلت له : ان رضاه باستلام زمام الامر على علو سنه ، رفع من قدر سورية في أنظار العالم ووقاها شر فتنة لايُعلم عما تنجلي ، لأن الشبان والكهول قد لا يتفقون على من يوسد اليه الحكم ، فتحدث مشادات لا تحمد ، وهو بالنظر لما خص به من مكانة سامية يرتضي رئاسته كل عاقل . فقال : (وصدق في قوله) ان غاية ما أرجو أن يكون لسورية مجلس مؤلف من نواب يعرفون قدر مهمتهم . وقد تحقق قوله فكان النواب على الجملة من الفئات الصالحة بعلمها وأخلاقها ، ذلك لأنه ماجرى انتخاب حر في هذه البلاد مثل هذه الانتخابات (١٩٥٠) .

قضى النظام الجديد على الامية والاقطاعية ، وكان مجلس النواب السابق غاصاً بالأميين والاقطاعيين ، وأعطى الحق للنساء المتعلمات التعليم الابتدائي أن ينتخبن نوابهن ، وهذه ظاهرة تقدمت بها مدينة دمشق سائر بلاد الاسلام بفضل حكومة المشير الزعيم . فأصبح للنساء في سورية كيان سياسي معترف به ، ودل هذا الانتخاب ان الأمة اذا تركت لها حريتها تحسن القيام بواجبها ، وتعرف مايصلح لها وما لايصلح .

وبهذا ذهب من طريق النيابة جمهور غير قليل من ادعياء الوطنية ، والأميين والاقطاعيين ، والملوثين بالرشا وسماسرة منافعهم والذين امتهنوا الجاسوسية لحساب الاجنبي .

وأحيا هذا الانتخاب في الامة ما كانت ضعفت فيها مظاهره كالاعتزاز بالقومية ، وأشعر قلوب أبنائها معاني الوطنية ، وتحررت الأعناق من الاستعباد لأرباب القوة ، وكانوا يملون على الشعب ارادتهم ، وليس عليه

الا الخضوع والطاعة ، وأدرك حتى العوام معنى الحكم النيابي ، وأنشأوا يستشفون ما انطوى عليه من الخيرات ، اذا تولته أيد طاهرة وعقول مفكرة ، معتقدة في سرها وجهرها أن حياة كل وطني مناط حياة أخيه وأن شركتها لايضر بها الا الاختلاف الذي يحل الروابط ويمزق القوة .

ومما أثبت حياد الحكومة في هذه الانتخابات أنها حرصت على دخول الكتلة الوطنية ـ حزب الحكومة السالفة ـ ليتولى المعارضة في المجلس ، وبذلك فائدة للحكم النيابي ، فأبى رجالها أن يشتركوا مع معارضيهم بالأمس ، لتخوفهم على ما يظهر من ألا تصدق الحكومة في حيادها ، وأن تستعمل معهم الطريقة التي كانوا يلجأون اليها من التزوير والضغط ، وهم الذين اعتادوا أن تكون الحكومة عوناً لهم في فوزهم وتمكينهم من النيابة .

تمثلت في هذا المجلس معظم الأحزاب ولا سيما حزب الشعب الذي أصبح حزب الأكثرية فصدق على المجلس الجديد الى حد بعيد ماقاله غستاف لبون من أنه مضمون أعظم رقي من مجالس البلاد الديموقراطية عندما ينتخب الناخبون أناساً يعرفون حقائق الحياة ، من أرباب الصناعات والتجارة والزراعة ، بدلاً من انتخابهم من صفوف رجال المحاماة ، ومن صرفوا أوقاتهم في دفاترهم وكتبهم .

وبعد أن وضع المجلس التأسيسي القانون الاساسي انقلب الى مجلس نيابي وانتخب رئيساً للجمهورية فخامة السيد هاشم الأتاسي .



سياسة سياسيين

لقي الغربيون العظائم من استبداد الملوك ، فهدتهم تجاربهم الى ان الحكم الجمهوري أقرب الى السلامة من الحكم الملكي ، ورأوا أن يضعوا لرئيس الجمهورية قيوداً حتى لا تحدثه نفسه بتعدي السلطة التي خوله اياها مجلس الأمة ، ومنها ألا يجوز له أن يتولى الرئاسة الا دورة واحدة ، وبعد أن يخلفه رئيس آخر لا مانع من توليته ثانية . اشترطوا هذا وهم العارفون بما في الطباع البشرية من الأثرة والطمع ، وما نسوا أنهم ما كان ينجيهم من ظلم الطغاة من الملوك غير موتهم ، أو اعلان ثورة عليهم ، او تنازلهم عن عروشهم اذا ضعفوا عن مقاومة خصومهم .

واغتبطت سورية ان أصبح حكمها جمهورياً في عهدها الاخير بعد قرون مظلمة أتت عليها في الاستبداد ، وكان ان وقعت في الغلطة التي حاول الغربيون تفاديها بتحديد مدة معينة لرئاسة الجمهورية ، فأنهى حزب الحكومة القائمة مدة الرئاسة قبل حلول أجلها مع الرئيسين الأولين السيد محمد علي العابد والسيد هاشم الأتاسي ، ولما خلفهما الرئيس الثالث وهو من المسيطرين على ذاك الحزب لذه الحكم فلم يكتف بقضاء مدته القانونية في الرئاسة ، وحاول أن يتولى الرئاسة دورة ثانية ، والدستور يحظر ذلك ، فهون عليه أعوانه الوصول الى غايته بنقض ما كان أقسم اليمين على المحافظة عليه ، وشايعه أكثر النواب وبعضهم من صنائعه « ومن سعى في نقض ماتم من جهته فسعيه مردود عليه » « والحكومة التي لاتطبق المباديء التي انبعثت منها ليست حكومة شرعية » وما كان قصد من زينوا للرئيس خرق القانون في الحقيقة الا خدمة أنفسهم ، لما وقر في نفوسهم من سهولة العمل معه لضعف ارادته ، أما اذا كان الرئيس قانونياً وحازماً فتفوتهم المغانم وتنقطع أرزاقهم .

وسلك الرئيس الثالث للاستمتاع بالرئاسة ثانية طريقته الشاذة التي وافقه عليها بعض النفعيين والوصوليين ، وما استمع لنصح العقلاء ممن كانوا يدركون عاقبة ما يحمل عمله الثاني من البلاء على البلاد . وقد نصح له أكبر شخصية سياسية في الدولة رئيس الجمهورية الثانية السيد هاشم الأتاسي وهو المشهود له بمواقفه المشرفة ، وماضيه النقي ، ومعرفته الواسعة بسياسة الامة ، ويعرف الى ذلك أخلاق الملتفين حول الرئيس الذي لم يبال بنقض نظام مقدس في سبيل جر المنفعة الى نفسه ، نصح له ألا ينقض القانون الأساسي . لأنه خاف اذا عبث السيد القوتلي بالدستور أن يسنّ سنّة سيئة فيطمع بعدها في نقضه كل أفاق تحدثه نفسه بالرئاسة . وما كان الرئيس الأتاسي ممن يتهم في نصحه لصديقه الرئيس القوتلي ، وكان المعروف أنه يعطف عليه ويرعى صداقته ، ويؤثره على أكثر أصحابه ، ولكن القوتلي عصى على النصح اذ لم يكن يجول في فكره الا تجديد الرئاسة له ، بأي صورة من عور الاعتداء على القانون ، ويعدُّ كلام من ينصحون له بما لا ينطبق على هواه كلام خياليين لا عمليين .

ولم يكد يتم للسيد القوتلي ما أراد من تجديد رئاسته حتى بدت للأنظار صحة آراء من نصحوا له وفساد رأيه فيما ارتآه ، فأخذ ، وفي ظنه أنه نجح في مسعاه ، يسترسل في استبداده ، ولا يرعى غير مصلحته الخاصة وبدت عيوب ادارته تنجلي عياناً وأغلاطه السياسية توالى ، ومنها اقدامه على الحرب في فلسطين ، وليس للجمهورية الاستعداد اللازم لخوض معركتها. وكان من نتائج عبثه الثورة عليه وعلى حكومته ، حمله على ترك الحكم على الرغم منه ، ولما تمض أشهر على رئاسته الثانية ، في حالة من الذل والاهانه لاتحمد . وكان الى آخر ساعة وهو في معتقله حريصاً على الاحتفاظ بالكرسي ، وما وقع كتاب استقالته الا بعد الالحاح الشديد عليه ، وممن ألحوا عليه بعض أصحابه . ولو قد اكتفى السيد القوتلي بقضاء مدته الأولى في الرئاسة على نحو ماقضى به نظام الجمهورية لذهب من ميدان السياسة بما كان في أيامه الأولى من خير وشر ، وباصراره على انتخابه ثانية

م (١٠)

بدت للناس عيوب ادارته ، واعوجاج سياسته (على مافصلنا ذلك في الجزء الثالث من المذكرات) أما الرئيس الثاني الذي خلفه في الحكم يوم الثورة الاولى فان الرئاسة أتت اليه تجرر أذيالها ، وما قبلها الا برجاء الساسة والنواب وأهل الرأي وكلهم مجمعون على أنه خير من توسد اليه الزعامة في هذا الزمن العصيب .

وفي كل ما جرى ظهرت حكمة المشرع الغربي في تحديد مدة رئاسة الجمهورية ، وتقييد من يتولاها بقيود حتى لا يظن أنه أصبح ذا سلطان قاهر ، لا يمنعه مانع من مخالفة ماتواطأت عليه الأمة . أين رئيس من رئيس وعقل من عقل . سبحانه أرضى الناس بعقولهم ولم يرضهم بأرزاقهم .

نجح الرئيس الأتاسي فتولى رئاسة الجمهورية مرتين ممدوح السيرة موفق المساعي ولم ينجح الرئيس القوتلي في رئاسته الاولى ولا في الثانية على مايجب . والسبب أن الرئيس الاتاسي مارس الادارة والسياسة بالعمل منذ نال شهادة المدرسة الملكية الى أن تولى رئاسة الوزارة ثم رئاسة الجمهورية في المرة الاولى وما زال طول حياته متوفراً على زيادة معلوماته ، فزادت مع الزمن زيادة كبيرة ، وطبق النظريات على العمليات . أما الرئيس القوتلي فلم يعمل فكره منذ خرج من المدرسة في غير اثارة الثورات على ما فيها من المضار في أغلب الحالات ، ولم يدخل في شيء اسمه ادارة أو سياسة من أعمال السلطان ، ولا تقلد عملاً يتمرن فيه ولم يعرف الاصول والانظمة ، ولم يدرس أخلاق الرعية وما يصلحها ، وكانت أول وظيفة تولاها وزارة المالية ، لم يصرف فيها أكثر من بضعة أشهر ، ومنها انتقل الى رئاسة الجمهورية . والادارة والسياسة تمرين وتوجيه ودؤوب ، ومن الصعب على من اعتاد التخريب بسياسة سلبية لا يحسن غيرها ، أن يضطلع بسياسة ايجابية لم يتعودها .

الرئيس القوتلي

ما جوزت أن أخط حرفاً قط في نقد من يعملون لأنفسهم بعزل عن المصالح العامة . الا اذا كان من سيرتهم عبرة يراد منها رفع مستوى الاخلاق . أما من كان لهم مدخل في العموميات يرفعون ويخفضون ، ويغنون ويفقرون ، ويسعدون ويشقون ، بكلمة تخرج من أفواههم ، فهؤلاء من حق كل وطني أن ينتقدهم لتناول ما تكسبه أيديهم بمجموع الامة . وأنا على هذا مع رئيس جمهورية سورية الثالث .

سألت صديقاً لي أن يذكر ملاحظاته على الجزء الثالث من المذكرات فقال لي : في المحاسن أم في غيرها ، فقلت له في غير المحاسن . قال : أليس ما كتبته عن الرئيس المنحّى شديد اللهجة ؟ فقلت أما هو ضعيف الارادة قوي الحزبية ، أما بدد أموال الامة في غير فائدة ، واصطنع السفلة وأغناهم من مال الجمهورية ؟ أما حنث بيمينه وخان الدستور ؟ أما باشر انتخاب المجلس النيابي بالحراب والتزوير ، واشترى ضمائر بعض النواب حتى ينتخبوه ثانية ؟ قال : هذا صحيح ولكن ما كتبت فيه سيكون تاريخاً ولا يترجم الا بما وصفته به . فكان جوابي : ولماذا ما حسب هو هذا الحساب ؟ كان عليه ياصاحبي أن يدرك أن بيده تحسين تاريخه فشوهه بنفسه ، ولو أنصفها لعلم أن أقل ما ارتكب يكفي في الحكم عليه .

استكتب السيد شكري القوتلي أيام رئاسته رسائل وقصائد في مدحه دفع ثمنها من بيت المال . فاخترع له بعض الافاقين صورة لا تشبهه في أقواله وأفعاله ، وألبسوه الحلة التي تهفو اليها نفسه . ومن أحب الوقوف على مبلغ حبه المديح فليلق نظرة على الجرائد التي اصطنعها وعلى مبالغاتها الفاحشة في مدحه . وعنده نفسه انه بذلك يخدع الامة ويتم له كل ما يريد .

قلت لأحد أصحاب الرئيس وأصحابي : أنا أعرف ما بينكما من صداقة

وقرابة ، وأنكما ممن جمعتهم المحبة وألفت بينهم الحزبية ، فماذا حدث حتى تنافرت القلوب وانحلت تلك الرابطة التي جمعت بينكما حقبة من الدهر ؟ فأجاب : ياسيدي انه لايرضيه الا من يصانعه ، ولا يحب أن يفاتحه انسان بما يكره ، ومما يكره أن تصدقه حال الموظفين . وأنا أربأ بنفسي عن أن أدهن له ، وأرى من الخيانة أن أكتمه مايجب اطلاعه عليه من حالة الدائرة العظيمة التي وُكِل الي أمرها ، ومن طبع صاحبي أن يرى لزاماً على كل انسان في الدولة أن يطأطىء رأسه أمامه ، ومن لم يفعل عده من المستهزئين به شأن المستبد المسلط .

يقولون انه كان طاهر اليد ، وأنه لم يظهر في صندوقه يوم فتش بعد سقوطه الا أربعون ليرة ذهب فقط . وسواء صح هذا أو لم يصح فالرئيس استحل على ما يظهر أخذ هدايا بعض التجار والنواب والوزراء وهذا الصنف من الناس لا يهديه شيئاً لو لم يكن في الرئاسة . وقال بعض المدافعين عنه في معنى قبول هذه الهدايا ، إنه كان يطلب مالاً من التجار وغيرهم لينفقه في مسائل وطنية مستعجلة تعجز موازنته الخاصة عن الوفاء بها . وكان يجوز لنفسه اتيان كل ماحظره القانون والعقل لاعتقاده أنه فوق القانون لايهمه الا رضا جماعته ، ومن يعتقد أنه بتألفه لهم فائدة لشخصه ، فيجود عليهم بما يشتهون ويصانعهم الى أقصى ما تقتضيه سياسة المصانعة ، ولا يهمه الا بقاؤه مدة حياته رئيساً للجمهورية بالاسم ، وملكا مستبداً غير متوج بالفعل .

ولا نحب هنا أن نورد له عشرات من المسائل خالف فيها القوانين وتعدى اختصاصه ، وليس أغرب من غضه الطرف عن المختلسين ، وفي أيامه شاعت الاختلاسات شيوعاً كبيراً ، وكان المختلس يهتدي الى من يعطف عليه فيبرأ ويعاد الى عمله ، وكان بعض المفتشين اذا طالبوا باحالة السراق الى القضاء يعدون من أعداء « الوضع الحاضر » ، ومعنى الوضع الحاضر الرضا بالحكومة الحالية على عُجَرها وبُجَرها ، وعلى رأسهم من يرتضيهم الرئيس . مثال صغير من عقليته في الحكم وتساهله بأموال الجمهورية . اختلس مدير المؤسسة التعاونية نحو ثلاثة وعشرين ألف ليرة وثبتت سرقته

بمعرفة مفتش نزيه فلم يرض الرئيس بمعاقبته على سرقته وقال : انه ليس في حكومته عشرة شبان من عياره ، وأمر أن يتركوه له ليوليه منصباً في السلك السياسي أي أنه أزمع أن يرسل الى الخارج لصاً يمثل سورية .

ومنها أنه وهب أحد الرعاع فضلات الطرق في بعض أطراف العاصمة ومعها أحجار أثرية عظيمة ، فكان من مجموعها مزرعة حسنة بلغت مساحتها نحو خمسين فداناً . وكان هذا يتولى اعطاء أهل حيه حصتهم من السكر والأرز . وقد يأخذها لنفسه في بعض الشهور ويقبض ثمنها لجيبه ، ويحرم ألوفاً من الخلق مادة مهمة في طعامهم . والرئيس يعرف ذلك فيما قيل ويسكت عنه . وله من هذا القبيل أشياء ما كانت تجري لولا تناهيه في الحلم ، ومنها أن أحد موظفيه استهدى باسمه أشياء ثمينة من بعض الاعيان وعرف الرئيس بالأمر بعد مدة وسكت عن المحتال ، ولم يؤاخذه على فعلته القبيحة ، ورقاه وأحسن اليه .

كان الرئيس مغرماً بالدخول في كل أمر من أمور الحكومة والرعية حتى ولو كان مما لا يدخل في خصائصه ، ولا يليق أن يتذرع به . وكان بعض معتمديه يتلاعبون ما طاب لهم التلاعب ، ويشاركون في أمور لم تجر عن رأي سيدهم ، أو كانت في نظرهم من المسائل التي لاينكرها اذا اطلع عليها ، بما فطر عليه من سعة الصدر مع بطانته . حدث أن أرسل أحد صنائعه الى اوربا في مهمة سياسية ، فسرقت منه مومس مفتاح المفاوضة بالارقام وغير ذلك من الأسرار فعفا عنه وأعاده الى الخدمة بعد هذه الخيانة المخزية .

ومما خالف به الروح الدستوري جهاراً طلبه اعتماد أربعة ملايين ليرة سورية فقررها النواب وهم لا يعرفون وجه صرفها ثم تبين أنه كان ينوي السفر الى العراق ولما لم يذهب بقي المبلغ معلقاً في الفضاء ولم يعرف أين صرف بعد ذلك .

وكانت توصيات الرئيس الى الوزارات والدواوين لاتنقطع ، وقلّ أن يكون للمحق نصيب من عنايته كما كان للمبطل ، ذلك أن صاحب

الحق موقن على الاغلب أنه يصل الى حقه بمراجعة الطرق القانونيـة .
وكلمة واحدة يرسلها أحد مستخدمي قصر الرئاسة في الهاتف أو في بطاقة
تقدم وتؤخر في مستقبل شخص ، أو تقضي على حق ظاهر وتقر غبناً
وتستر عسفا ، والسابق الى الشكوى هو الفائز أبداً . والويل لمن لا يرق
له قلب الرئيس أو أحد حاشيته أو بعض أفراد أسرته وأتباعه .

أراد الرئيس مرة أن يُدخل فتاة جميلة من بنات الأعيان الى القصر
الجمهوري يعهد اليها أمر التشريفات مع الاجانب ، بحجة أنها تحسن لغة
أجنبية ، على أن تتناول راتبها من وزارة المعارف . ولما كان القانون
يمنع من انتداب السيدة على هذا الشكل غضب الرئيس على مدير المعارف
وما وقاه الله شر غضبته الا سقوط الرئيس . وأتاني مرة كتـاب من
أحد المستخدمين في القصر الجمهوري يقترح انتخاب أحـد المتشردين من
لبنان عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي ، قائلاً انا اذا انتخبناه عضواً
يكون رئيس المجمع اللبناني العتيد — والمجمع اللبناني لم يؤسس ولم يجتمع
الى اليوم — وكان الرئيس يكتفي لو أنصف بما يعرض عليه من جواب
أن يعرف أن صاحب الادارة أعرف بما يصلح ادارته وما لا يصلحها ،
ولو كان في ديوانه من يعرف قانون المجمع في اختيار الاعضاء ما كتب
على لسان سيده هذه الوصاة المخجلة .

قلنا ان الرئيس كان يعطف على أناس يرى في اصطناعهم قوة له ،
ومن الأسف انهم خـذلوه يوم عزله ، وتناسوا أياديه عليهم ، وراحوا
يعرضون خدمتهم على خلفه متخاضعين متذللين ، ولطالما انخدع هو بظواهرهم
وجاز عليـه هذيان من كانوا يختلفون الى مجلسه ويغرونه بعسلطاتهم ،
ومنها أن الامة كلها لا تتخذ عنه بديلاً . فنام مغتبطاً بأكاذيب الكذابين .
وما كان يرضيه من عماله الا من ينافقه على النحو الذي يبتغيه ، ومن
يجرؤ عليه فيصدقه الحقيقة ينبذه ويقصيه ، لذا كان من سياسة جماعته أن
يدهنوا له الى أقصى ما يسعهم من ضروب الدهان ، وأن يكتموا الحق عنه
لأن نفسه لا تحتمل وقعه فيها . واذا فاتحوه بما لا تهوى نفسه نصب لهم

عـداوة تنمو أبداً ولا تنقص . ومن البلية أنه كان محاطاً بموظفين يخلصون فقط في قبض الرواتب وما وراءها من هدايا وعطايا ، ولذلك يتفانون في الابقاء على حسن العلائق معه ، ليبقوا في مناصبهم أكبر مدة ، ومنهم السيد محسن البرازي من وزرائه . سمعته في حفلة أقيمت في مدرج الجامعة السورية برئاسة الرئيس يخطب فيمتدحه مدحاً لم يبق بينه وبين الالوهية الا خطوة واحدة ، حتى خجل الحضور من سماع هذا النفاق البايخ ، وكاد بعضهم يصفر استهجاناً وما خجل الوزير من قوله لان الرئيس لايرضيه منه غير هذا . والله أعلم بما كان يقول له في الخلوة حتى يستديم عطفه . ويقال انه خانه بعد أن متعه بثقته زمناً وأعطاه من مال الدولة كثيراً ، وكان يفرضه على كل وزارة تؤلف وينتدبه في المهمات ، ويرى فيه له الاخلاص الكامل . وقيل ان الرئيس كان يقترح كلما تألفت وزارة أن يدخل فيها السيد أحمد الرفاعي ، لكثرة ما كان يقدم له من الهدايا على ما شاع وذاع ، مع أن هـذا الرفاعي ليس ممن اخترع البارود ، ولا عنده من المؤهلات لمنصبه ما يمكنه من حسن القيام به .

كان عقلاء الأمة والرئيس في منصبه يصونونه عن النقد بعض الشيء مخافة أن يؤدي ذلك الى التشهير به ، والرئيس رمز الأمة . وكان الى ذلك في مقام يسهل عليه الانتقام ممن يغضب عليه ، أما وقد ذهبت الخشية من بطشه ، فالعقل يقضي أن يصارح بما أتى ، ويذكر شذوذه في الحكم من دون تزيد ولا غلو . وليس بدعاً أن يسأل الآن عما اقترف فقد جرت العادة أن يحاسب صاحب المهمة عند انتهاء مهمته ، ومهمة الرجل تمت يوم اعتقل في قلعة المزّة .

فكرت ملياً في عمل السيد تاج الدين الحسني وهو انتدابي عريق في انتدابيته ، وعمل السيد شكري القوتلي وهو وطني ، وقد طال عهد كليهما في الحكم ، فرأيت حكومة الأول على ضعف مواردها قامت بكثير من الاصلاحات النافعة ، فقد شادت مدارس وجوامع ودور كتب

ومستوصفات ومستشفيات ومتاحف وقصور حكومة في العاصمة والأقاليم وجسوراً ومعابر ومخافر وفنادق وشوارع ، وعبدّت ألوف الكيلومترات من الطرق العامة . وحكومة الثاني اقتصر عملها على انشاء بعض مدارس تجهيزية في الشمال ، بنيت بالحاح نواب تلك الأصقاع وكانت تصميمات بعضها موضوعة قبل تأليف حكومة الكتلة . وأنشأ بعض المستشفيات أيضاً بعوامل تشبه هذه العوامل وبالحاح المحافظات ونوابها . أما الهاتف الآلي الذي أنشأه في العاصمة وصرف فيه نحو ثلاثين مليون ليرة سورية ، ارضاء لرجل له سلطان نافذ على الانتخابات في الشمال ، ليكون منه رزق دارٌ لشقيقه ، فقد كان غيره من المشاريع أحق بالتقديم باجماع العقلاء ؛ ومشروع الهاتف كان يمكن ارجاؤه بضع سنين ليصرف هذا المال الكبير في احياء مليون دونم من أرض الجزيرة يعيش بها عشرات الألوف من الخلق .

ويقول بعض المعتدلين في حكمهم على ماتم في حكومة الحسني وحكومة القوتلي ان ماجرى في حكومة الأول كان بمعرفة رجال الدولة المنتدبة وتوجيههم ، فلما جاء الوطنيون وتركوا لأنفسهم ، عسر عليهم أن يسيروا بسيرة الحكومة الناجية . وعندنا أن هذا دليل آخر على عجز حكومة القوتلي ، ولا يقوم من هذا القول اعتذار عن تقصيره .

اعود فأكرر ماقلته في هذه المذاكرات اني لا أخترع لمن أعرض لذكرهم مزايا ليست لهم ، ولا اسلبهم ماخصوا به من المزايا (١) . واني

---

(١) كتب اليّ صديقي الأمير مصطفى الشهابي في معرض الاعتذار عن الرئيس القوتلي فيما اتاه في رئاسته يقول : ان الاعمال العمرانية التي تمت ايام رئاسته ليست قليلة « وذكر عدداً منها » وأما غلطاته في الحكم فقد بالغ خصومه فيها ولعل مردّ معظمها الى كون رجال السياسة عندنا قد قضوا شطراً كبيراً من حياتهم يكافحون الانتداب ، فليس بعجيب أن تبدو مقاتل بعضهم في الحكم ، والحكم بعدُ يحتاج الى مران طويل ورجل الكفاح لا يستطيع أن ينسلخ رجل دولة بين عشية وضحاها . ثم من المعروف ان بعض الذين احسن فخامة الرئيس القوتلي اليهم ، وخصهم بالمناصب الرفيعة كانوا مصدراً مهماً لمتاعبه في الحكومة بسبب حرصهم على الوزارات والمناصب السائرة . قال ومن المعلوم أن الاستقلال التام اقتضى استلام الجيش الوطني ، وتأسيس التمثيل الخارجي ، ودوائر المكوس ، ودوائر الأمن العام ، ومراقبة الشركات والمدارس الأجنبية ، وكلها أمور صعبة في بلاد حديثة العهد بالاستقلال وبشؤون الحكم . ولهذا يغتفر لرجال الدولة عندنا مالا يغتفر لاشباههم في البلاد العريقة في استقلالها ا هـ .

أعمد الى تصوير الحوادث والاشخاص بحسب ماتعطيني الأدوات التي لدي والمعلومات التي حصلت عليها . وقد يعثر القلم وسلامة القصد شافعة لما يقع من الخطأ . واني الى ذلك أتحدى من يتهمني بالتحامل على هذا الرئيس أن ينقض كلامي بحادثة واحدة اختلقتها ، او خالفت شروط الأمانة في الحكم عليه ، او بالغت في النقل والرواية . ولا أقصد شهد الله الا توفية واجب المؤرخ وأن أصون قومي بعد الآن عن الوقوع في حبائل المتلاعبين حتى يرعوي كل من يتولى شيئاً من أمر الامة ويعرف أن ميزان التاريخ دقيق يحاسب على الخير والشر .

الثورة الثالثة

لا ينطبق اسم الثورة على هـذه الحركة العسكرية لانها كانت عبارة عن تجريد فصائل من الجيش قطعت بعض الطرق في دمشق مصحوبة بالدبابات بقيادة العقيد أديب الشيشكلي وذلك يوم ١٨ كانون الاول ١٩٤٩ ونشر بلاغاً على الشعب السوري جاء فيه أنه ثبت لدى الجيش ان رئيس الاركان العامة اللواء سامي الحناوي (وهو صاحب الثورة الثانية التي قضى فيها على المشير حسني الزعيم والبرازي رئيس حكومته) كان وبعض محترفي السياسة يتآمرون على سلامة الجيش وكيان البلاد ونظام الجمهورية مع بعض الجهات الاجنبية ، وان ضباط الجيش كانوا يعلمون هذا الامر من بدايته ، وحاولوا بشتى الطرق بالاقناع تارة والتهديد الضمني تارة اخرى أن يحولوا دون قيام المؤامرة وأن يقنعوا المتآمرين بالرجوع عن غيهم فلم يفلحوا فاضطر رجال الجيش حرصاً على سلامته وسلامة البلاد وللمحافظة على النظام الجمهوري أن يقبضوا على المتآمرين وعلى رأسهم اللواء سامي الحناوي وبعض الضباط . وبعد اعتقالهم بضعة أشهر اطلق سراحهم فخرجوا من أرض الجمهورية واعتصموا بلبنان ثم اغتيل اللواء سامي الحناوي في مدينة بيروت بيد ابن عم محسن البرازي الذي كان قتله مع رئيس الجمهورية حسني الزعيم .

حكومة شرقي الاردن

وفت بريطانيا العظمى الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الاردن فعاونته على ضم قسم من الجزء العربي من فلسطين الى مملكته بعد أن استولى الصهيونيون على ما أهمهم الاستيلاء عليه من أرض فلسطين لقيام دولة اسرائيل . وقد ساء جامعة الدول العربية أمر هذا الضم واحتجت على الملك الهاشمي فلم يعبأ باعتراضها . ولو لم يضم هذا الاقليم الى مملكته لضمته اسرائيل اليها ، ومن المتعذر انشاء مملكة على حيالها من جبال نابلس والخليل وما اليهما لضعف مواردها ، وقد عرف ان الحكومة البريطانية تعاون حكومة شرقي الاردن كل سنة بنحو أربعة ملايين جنيه لتنفق على جيش صغير وعلى حكومة نظامية .

ولقد نشرت بعض الصحف المصرية صوراً من المفاوضات التي دارت بين الملك عبد الله وحكومة اسرائيل خلال الحرب الفلسطينية الاخيرة وألقت عليه تبعة الكوارث التي أصابت فلسطين واستنكرت عمله في الوقت الذي كانت مصر تحارب اسرائيل وتعتقل الصهيونيين وتحجز أموالهم وتنفق الملايين من الجنيهات في حربهم ويموت المصريون برصاص اليهود . قالت وبينا كانت مصر تعمل كل مافي طاقتها لدفع العداء الصهيوني عن فلسطين كان الملك الهاشمي يحرص على تحسين علائقه مع اسرائيل . أما الاقليم الذي ضم الى دولة شرقي الاردن فقد اخرج في الانتخابات النيابية عشرين نائباً كما اخرج الاردن نفسه عشرين مثلهم . وما أظن سكان ضفتي الاردن يصلون الى ثمانمائة الف ساكن الآن .

حكم الانكليز

قال غروسه في كتابه ميزان التاريخ Grosset : Bilan de l'histoire حكم الانكليز العالم في القرن التاسع عشر فكانت انكلترا كألمانيا أو أكثر كتلة من الفحم الحجري والحديد مهيأة للثورة الصناعية . الانكليز أمة بحرية واخوان الهولانديين والسكنديناويين بالدم ويفوقونهم في باب الاستقلال وبما يتمتع به سكان جزائرهم من الخصائص .

تقدم الانكليز خلال القرن الثامن عشر فرنسا وهولاندة في الاستيلاء على البحار ، ولم ينشئوا المستعمرات البريطانية على سطح الارض فقط بل أقاموا من المستعمرات ما يوافق سكناه صحة الاوربيين ، وكانوا يجهزونها بمثل ما جهزت به انكلترا من أسباب الرقي فيؤسسون انكلترا جديده في كل مستعمرة . وتمنح الارض الهولاندية في افريقية ما تمنحه اوستراليا قانوناً يمتعها بحريتها ـ وهي من جملة أملاكها ـ ولما أخضعت لسلطانها ما استعمره المستعمرون من الاوربيين قبلها كالفرنسيين في كندا والهولانديين في الترنسفال . واستطاعت بما خصت به من سياسة حرة أن ترد على المغلوبين استقلالهم الداخلي المطلق وتمتعهم بلسانهم وثقافتهم وادارتهم ، وكانت سياستها رشيدة توازي في نبلها نبل الغرض الصادرة عنه . ومعنى هذا انها تزرع في نفوس أعداء الامس جراثيم الاخلاص التى تتجلى في ساعة الخطر . واذا تيسر التوسع في الملك على مثل هذه الصورة يسامح المغلوب غالبه ، وتفتح له القلوب بعد فتح الأرض . وهنا فوارق عظيمة بين الأساليب الألمانية والأساليب الانكليزية ، وقد ذهبت انكلترا بالفضل في ذلك فتلطفت ومنحت الهند وهي ملكها الحكم الذاتي مراعية قواعده كل المراعاة .

ما قام منذ عهد تراجان في رومية تسامح أكثر من هذا التسامح ، ولا شهدت حرمة جماع العناصر والأديان والثقافات أكثر من هذه الحرمة وما تمت عظمة قط بأكبر من هذه العظمة . وما كانت الامبراطورية البريطانية كقرطاجنة ضيقة الرقعة ، بل كانت واسعة الأطراف ممتدة الآفاق على نحو ما اتسعت امبراطورية الرومان أيام الصالحين من امبراطرتها . وقامت انكلترا وهي مؤلفة من ٤٥٥ مليوناً بأول تجربة جربها البشر بأسرهم الجمع بين دول متخالفة بأصول شعوبها ، فحاولت ان تجعل منهم وحدة حرة أو في طريق التحرير على أن تنقلب هذه الوحدة الى عصبة أمم بلا حدود ترسم لها ، عصبة ترعاها وتشرف عليها ، ثم يقودها خير القواد .

هذا رأي غروسه في استعمار الانكليز وقوله صادر عن حرية ممزوجة بالغرام بقول الحق شأن المؤرخين في العادة . وليته أدلى الينا برأيه في استعمار أمته دون أن يعرض بألمانيا خصيمة فرنسا . ولو فعل لكان رأيه سديداً من كل وجه ، وهذا الاستعمار الانكليزي على عظم شأنه ماخلا من عيوب يعرفها من عاش زمناً في مستعمرة انكليزية أو بلد يحتله الجيش الانكليزي . فقد نصب الانكليز مثلاً مستشاراً للمعارف في مصر اسمه دنلوب كان مثال التعصب الذميم فأغضب المصريين لأنه ما أحب انتشار المعارف على الطريقة التي تنفعهم بل على المثال الذي رسمه له سادته الموحون اليه ليبقي المصريون تحت سلطة دولته عبيداً خانعين . فحدث ما لم يدخل في تقدير البريطانيين ، وتعلم المصريون التعليم العالي بأموالهم وارشاد أرباب البصيرة منهم ، وأنشأوا الجامعة المصرية الاولى وطمعوا في أن يعلموا أولادهم تعليماً حراً وما استمعوا لنصح عميد الانكليز لورد كرومر يوم صرح في حفلة افتتاح الجامعة المصرية الاولى بأن التعليم الابتدائي أجدى على المصريين من التعليم العالي . والتعليم الابتدائي يصوغ من المصريين فلاحين متمدنين بعض الشيء ولا يعدهم للمطالبة باستقلالهم وانشاء حكومة راقية ، وبالتعليم العالي ينشأ افراد يحسنون المجاهرة بحقوق بلادهم وهذا ما حصل .

هذه الغلطة في سياسة التعليم في مصر على عهد الاحتلال الانكليزي وهي غلطة متعمدة لم تجيء عرضاً ، وهناك اغلاط تنتقد واي عمل خلا مما ينتقد عليه مهما بالغ صانعه باتقانه ، ولكن اذا أربى الجميل على القبيح فهناك الاستعمار المقبول في الجملة . والظاهر ان الانكليز وهم عمليون في ادارتهم وسياستهم يكتفون من المستعمرات بالاحتفاظ بمصالح امبراطوريتهم العليا ولا يتدخلون في الكبير والصغير بأحوال المستعمرة .

عزة نفس

قلت ان الموظفين طبقة مهذبة ومنهم العف النفس ومنهم من لا يرى بأساً من املاء جيبه من ايدي من يراجعونه في قضاء مصالحهم . وليس لدي احصاء اعرف به السليم من السقيم ، لأن سليمهم أو ماعرف انه كذلك ، اعتاد الستر على سقيمهم فيختلط في جمهورهم المرعيّ بالهمل . لكنني اقدر بالعقل ان ارباب الاستقامة قلائل يضيعون في غمار الفاسدين . ولقد لاحظت طبقاتهم في عهود مختلفة فما كان الا طرازاً واحداً في الاحتيال على الرعية يسلبونهم مايقدرون على سلبه منهم بسيف الارهاب احيانا وبسيف الحياء تارة ، وتقل هذه الاخلاق وتكثر حتى فيمن يتعففون بحسب الظاهر عن الرشوة ، والعادة فيمن لا يرتشي ان يقبل دعوة صاحب العلاقة ، ومن انواع الرشوة هدية الثياب والطرائف والحلي وتقديم القينات ، ورب رشوة حملت نفعاً مادياً غير ظاهر كأن تهدي شركة صناعيـــة رئيس جمهورية جانباً من اسهمها عادةً له من المؤسسين ، وما كانت تجود عليه بنصف سهم لو كان بعيداً عن منصة الحكم .

اعتاد بعض الموظفين هذه العادات القبيحة فأصبحت فيهم غير مستنكرة ولا مستكرهة ، وتكون على أشد حالاتها فيهم اذا كان في أهلهم من

عرف باضاعة الحقوق . هذا وقد ألف الآخذ والمعطي فعلته بالتكرار وعدم الانكار . وأحسن أصناف الموظفين من ورثوا من أهلهم أو من عملهم السابق ثروة قليلة تكفيهم للظهور بالمظهر الذي يجب أن يظهروا فيه من دون أن يسفوا الى أخذ البراطيل ، فهؤلاء في الغالب مثال محترم من المحسنين بين المنصوبين وخدمتهم خالصة على الاكثر .

قلة ثبات

كتب صديقي الاستاذ سليم النجار جملة في مجلة الورود اللبنانية ترجم فيها لصديقه وصديقي الشيخ يوسف الخازن رحمه الله فقال انه من أسرة لبنانية كبيرة لم يألف رجالها العمل الجدي المتتابع كمعظم رجال الجبل في عهده . فقد عاش مثلهم كبيراً في مطالبه كبيراً في تفكيره ، يفكر في العمل فيثب عليه بنشاط ثم لا يلبث أن ينصرف عنه بمثل السرعة التى أقدم عليه بها كائناً ما تكون النتيجة التي تعود عليه ، ولذلك لم تعد عليه جهوده الجمة بالفائدة التي كان ينتظرها منها ، فتعددت الجهود وتشابهت النتائج اه .

وكأن الاستاذ النجار في وصفه مكان الضعف من أخلاق صاحبه وصف نفسه في هذه الكلمة . فهو كالاستاذ الخازن صحافي قليل النظير في افتنانه . صرفت معهما في مصر زمناً فكنت أسر بما يكتبان وينشران ولا أعتم أن أراهما يسكتان فجأة وينصرفان الى وجهة أخرى . وقد آزرا عشرات من الصحف العربية والافرنجية وأصدرا جرائد ومجلات وما ثبتا في تحرير واحدة منها . ولطالما صارحتهما بذلك لما كان بيننا من صداقة فكانا يناقشانني أحياناً ويسكتان تارة ، معترفين آسفين للأحوال التي قضت عليهما بالتقلقل وقلة الثبات .

لو رزق صاحباي من الثبات ما رُزقه العالمان يعقوب صروف وفارس نمر والاديبان سليمان البستاني وجرجي زيدان لجاء منهما في السياسة والأدب أكثر مما جاء منهما . فالعمل المتقطع لا تأتي منه مجموعة نافعة ، والمرء غالباً لا يثمر إلا ما تمنُّ به الفطرة عليه .

واذ كنت جد حريص على استفادة الجيل الحاضر والقادم مما خطته أنامل الخازن والنجار وأمثالهما من اخواني اللبنانيين تمنيت لو جمعوا أو جمع لهم بعض ما أبدعته أفكارهم في رسائل وكتب حرصاً على تخليد آرائهم فيكون ما يدون كتاب تفننهم وسجل نبوغهم .

وكان هذا الرعيل في أهل الجيل الماضي غير قليل ومعظمهم من أصدقائي أمثال شكيب أرسلان ، خليل مطران ، رشيد رضا ، داود بركات ، اسماعيل حافظ ، حسن بيهم ، عبد الباسط فتح الله ، نجيب شاهين ، خليل سعادة ، خليل زينية ، ابراهيم مصوّر ، أنطون جميل ، أمين تقي الدين ، عمر الفاخوري الخ . ومنهم من هاجر الى مصر وظهر فيها نبوغه بفضل الحرية التي تمتعت بها منذ كان الاحتلال الانكليزي فيها .

السينما

مما أعانَ على انتشار الغرام بالسينما أن أكثر الناس مولعون بسماع الغرائب والاكاذيب . وكان من الولوع بالقصص والروايات أعظم عون في هذه السبيل . واذ كانت سدى القصة ولحمتها الاختلاق وهي الملهاة الوحيدة في الاكثر جاءت السينما تشاطرها هذا اللهو وهذا العبث .

والسينما تفوق التمثيل بأشياء ، وتجمع بين الطيب والخبيث . ومن طيبها استعمالها في المدارس والثكنات لالقاء الدروس وتربية الملكات تشرح غوامض العلوم وتقرب منالها للمستفيدين .

يقول العارفون في وصف هوليود مدينة السينما في الولايات المتحدة (وهذه أعظم الممالك اصداراً للأفلام في العالم) ان مدينة هوليود تضع سلاسل من الظرف والشهوات والهزل والسرور واللصوصية والقتل والفضائل البشرية عامة وتمثلها على الشاشة البيضاء . وكل ما ينبعث من هوليود يقتبسه الرجال والنساء والاطفال والبنات ، ويشهده في العالم ٢٥٠ مليوناً من الخلق كل اسبوع . والسينما من أعظم الصناعات الحديثة يقال انه بلغ ما يستثمر فيها من الاموال في العالم نحو خمسمائة مليون جنيه .

اصلاح الصحف

ورد في الدستور السوري الجديد (سنة ١٩٥٠) أن القانون ينظم أسلوب مراقبة موارد الصحف ولا يجوز تقديم معونه مادية لها من خزانة الدولة أو الادارات العامة أو البلديات مهما كان شكلها . وقد بدلت هذه المادة في النص الاخير من الدستور الذي نشر على الامة . وما وضع أعضاء المجلس التأسيسي هذه المادة الا بعد أن نظروا النظر البليغ في أمر الصحف وثبت لهم ما جر التساهل مع بعضها في الماضي من اضاعة حقوق وتضليل عقول . وكان للشركات وما بذلته صناديق استخبارات الدول من معاونات وما تعطيه الحكومات القائمة من المشاهرات مدخل كبير للعبث بالامانة على حساب الرعية . وأتت أيام ، على عهد الترك والفرنسيس والعرب ، عز فيها الصدق في الصحف . ولو قدر الله وطبق القانون الجديد على الصحافة لبطل في الجملة تمويه الحقائق وجرت الامور في نصابها ، ولقل الكذب والتغرير ، ولكانت تظهر حسنات هـذا القانون كلما تشددت الحكومات في انفاذه . وبقطع المخصصات عن الصحف لا يثبت منها الا السليم ذو الموارد القانونية ، ولا يتلو القاريء فيما بعد

ذلك الا ما صح من الأخبار والأفكار . وبذلك تسلم الصحافة ويفتن أربابها في اتقانها فتحوز رضا الجمهور ورضا الحق ويزيد انتشارها وتتوفر اعلاناتها ، وتخلو من الغش الا ما لا سبيل الى توقيه .

نعم كانت بعض الصحف فيما مضى تصدع بأمر من يعاونها وتنزل على ارادته تذيع عنه ما يشاء وتكتم عن الناس ما يشاء . ولولا المراقبة وخوف الصحف من الاغلاق ومن الحكم على مديريها ومحرريها لرأى الناس عجباً من تلاعب يحمل خراب أمة ، مثال ذلك أن بعض الصحف كانت تعرف من أخلاق أحد الرؤساء ما يعرفه كل وطني فلم تكتب فيه يوم سقوطه كلمة واحدة تخدم بها التاريخ والحق لأنه كان أشبعها بل أتخمها من مال الأمة فرأت من باب الاعتراف بالجميل أن تكافئه على بيض أياديه عليها بالسكوت عن سوء ادارته ، وبعض الصحف تأمل رجوعه الى منصبه واستعادة حظوته فيسلفونه مدحهم وثناءهم ، ويوهمون القراء ان الرجل يعود الى الحكم لا محالة ببرقيات يضعونها تنشر بتواقيع ما عرف أحد ممن وشحت بأسمائهم المجهولة .

قال لي صاحب أديب : أعترف لك وللحقيقة والتاريخ أني لما اشتدت الأزمة بين وزارة المعارف في عهدك وبين رئيس الجامعة السورية استدعاني هذا وأنا تلميذ في الحقوق وطلب مني أن أخطب فيك لأنك تنوي اغلاق الجامعة ودفع اليّ مكافأة على مهمتي خمسمائة ليرة فتلقفتها مسروراً لأني كنت محتاجاً الى مال ، وكان والدي يقتر علي في النفقة حتى لا أسرف على نفسي . وذكر لي أسماء بعض من أعطاهم الرئيس من تلاميذ الحقوق وغيرهم لهذا الغرض . أما الصحف التي أكرمها حتى سكتت عما ظهر من تفتيش الجامعة من السرقات وسوء الاستعمال فانها بفضل ما قبضت التزمت السكوت المطلق وأغمضت الطرف عما كانت الوزارة ترمي اليه من اصلاح الجامعة لا اغلاقها كما أشاع رئيسها وأنصاره .

مؤامرة دنيئة

نشرت جريدة المساء الدمشقية مايلي :

اكتشفت في حلب مؤامرة خطيرة حاكها موظفو شركة « الآي . بي . سي » البترولية الانكليزية بايعاز من رؤسائهم ، وكانت غاية هؤلاء اثارة الفتنة الطائفية في حلب ، الا أن مؤامرتهم هذه احبطت بفضل العقلاء من المسلمين والأرمن معاً ، وتتلخص هذه المؤامرة فيما يلي :

استيقظ سكان حي الميدان وهو من أحياء حلب النائية التي يشكل الأرمن أغلبية سكانه ، استيقظ السكان في صبيحة أحد الأيام ليشاهدوا باب مسجد الحي قد لوث بالأقذار . وانتشر هذا الخبر في كافة أحياء المدينة انتشار البرق وما لبث الاستياء الشديد أن شمل المدينة بأجمعها وأخذ الغليان ينتشر بين صفوف الناس لاهانة مسجد اسلامي على هذا الشكل الاجرامي . وكاد الحادث يتمخض عن أشياء لا تحمد عقباها لولا أن سارع العقلاء من المسلمين والأرمن الى عقد اجتماع فيما بينهم للبحث في أمر هذه الجريمة ، وخلال هذا الاجتماع أعلن زعماء حي الميدان من أرمن ومسيحيين لاخوانهم المسلمين أنهم على تمام الثقة واليقين بأن أحداً من رجال الطائفتين لا يمكن أن يقدم على مثل هذا العمل القبيح المنكر وتم الاتفاق بين المجتمعين على مراقبة مسجد الحي مراقبة دقيقة وكذلك مراقبة الاشخاص الغرباء الذين يدخلون هذا الحي ، وبالفعل فقد رتب أمر المراقبة من قبل مندوبين عن العناصر الثلاثة بشكل محكم .

وبعد يومين من وقوع هذا الحادث شاهد المراقبون سيارة جيب تدخل الحي في الظلام وتقف أمام باب المسجد ليترجل منها اثنان من ركابها ويقوما باعادة العمل المنكر « تلويث باب المسجد » وخلال قيامهما بهذا العمل وجدا نفسيهما قد طوقا مع سيارة الجيب من قبل عدد من سكان الحي ، وهكذا تم القبض على المجرمين متلبسين بالجريمة . وبعد التحقيق الدقيق تبين أن هؤلاء الشباب يعملون كموظفين في شركة « الاي بي سي » الانكليزية في حلب ، وأنهم قاموا بهذا العمل مرتين بناء على توجيه رؤسائهم .

خلل في الادارة

كثيراً ما يعهد الى بعض العمال ، أو هم يعهدون لأنفسهم ، بتولي بضع وظائف يتقاضون عليها ماينص عليه القانون من اجر اذا أديرت بالوكالة . وقد يزيد مجموع رواتب العامل من هذا الصنف على ضعفي راتب الوزير .

ان جمع رواتب كثيرة في يد واحدة لا يضر أكثر من ضم عدة أعمال لعامل واحد . ذلك أن الرجل مهما بلغ من الذكاء والمقدرة في صناعته لا يجود الا عملاً واحداً ، ومن المستبعد أن يحسن الفرد عدة أمور فيترتب على هذا ضعف في معاناة ما وكل اليه من خدمة ولو كان لا يصرف في العمل الاضافي الا ساعات قليلة . فالضرر يشمل الوظيفة اذاً ، وكان الأولى أن يتولاها من استعد لها ويتناول راتب الوظيفة كاملاً .

ان الحكومة التي تتساهل في مثل هذا الشأن لترضي من ترضيهم ، أو ترجو تحقيق أغراض لها ، قد يقضيها الوكيل على ما تشاء ، ولا يقضيها الأصيل ، هي حكومة تشهد على نفسها بالضعف . ومما يزيد في تفاقم هذا الخلل كون معظم حكوماتنا الدستورية لا يدوم حكمها مدة طويلة . فاذا كان الوزير على شيء من الحزم يبت في مثل هذه المسائل حالاً ويخلص دواوينه من التقلقل ، واذا كان يعتقد أنه يعمل لأجل مسمى ، لا يهمه الا ارضاء حزبه ، ولا يحب أن يتأذى بعمله أحد ، ولا يتعمد اصلاح ما يجلب له ضجة . واذا قيل ان الوزارة لم تجد الكفوء لهذه المناصب فرأت من الصواب أن توكل بها شخصاً نعتقد أنه يديرها ، فليس هذا من حسن الادارة في شيء . وكل حكومة صحت عزيمتها على توظيف الأليق للعمل لا تعدم حيلة للظفر به . واذا كانت على ريبة من اقتداره فما أحراها أن تعينه بالوكالة حتى تثبت لها كفايته .

تقوم مصلحة الدولة بتوزيع خدماتها على أرباب الكفايات وتكثير سواد الاخصائيين في دوائرها . وهي اذا رزقت مئة عامل ترجو منهم تجويد عملهم ، أفضل من أن تغني ثمانين عاملاً ، ذكاؤهم محدود ، ومعرفتهم قليلة ، وشغلهم بادي الخلل .

وكما لا يتوقع غير الضعف في أمور الحكومة اذا أدارت بعض فروعها بالوكالة ، وجمعت بضع وكالات في يد شخص واحد ، يشاهد الخلل أيضاً في تنقل العمال بين مختلف الوزارات . ومن ربي في الهندسة لا تصوغ منه ادارياً ، ومن كان في الجندية لا ينشأ أستاذاً في المعارف . وندر نجاح من يتنقل في فروع كثيرة من الوزارات ، كما ندر نجاح من يغير عدة حرف وصناعات ، يقفز من واحدة الى أخرى ، والنجاح متوقف أبداً على الثبات والمران وحصر الوكد في عمل واحد .

الدعايات الحديثة

سلطان الدعاية في أيامنا فوق كل سلطان . بها تستطيع الدول أن تقلب الباطل حقاً والحق باطلاً ، فهي تقوم على الأكثر بالاختلاق المعيب ، اذا كان فيه تعظيم أمتها ، وقد تنسب لرجالها من المجد ماليست لهم فيه الا مشاركة خفيفة . واذا قرأت في بعض كتبهم مثلاً أسماء المخترعين صوروا لك دولتهم على رأس الدول كلها في باب الاختراعات ، وأوهموا أنه ماتم اختراع على يد مخترع من أبناء أمة أخرى الا كان رجالهم سابقين الى التفكير فيه قبل أن يخترعه مخترعه . هكذا الانكليز والامريكان وهكذا الفرنسيس والالمان وهكذا الروس والطليان .

والتاريخ أكثر مايحدث فيه التخليط فان كل أمة تكتب التاريخ بما تقتضيه سياستها ومصلحة وطنها . تجسم الصغير اذا كان لأمتها حظ منه ، وتصغر الكبير اذا جرى على يد دولة أخرى . وقد لانعرض للخطيئات

التي ارتكبها قادتها الا بشيء من التلميح أو التمويه . فاسبانيا مثلاً لا يذكر مؤرخوها ماأتته دولتهم من السيئات في استعمارها أميركا الجنوبية وغيرها من الجزائر كما وقع ، ولا ما اجترحته من الفظائع في اجلاء العرب عن الأندلس ، ولاتشير انكلترا الى هول المجزرة التي تولت كِبْرَها في الهند يوم ثورتها في نحو منتصف القرن التاسع عشر . وفرنسا تغمض الطرف عما ارتكبت ولا تفتأ ترتكب من الفظائع في الأقطار الاسلامية والشرقية . وروسيا تتناسى ماعاملت به شعوب قافقاسيا وتركستان من الاستبداد المريع .

انغمست معظم الأمم في غمرة هذا ، لافرق بين الشعوب الكبيرة والشعوب الصغيرة في استعمال الكذب على التاريخ ، يزعمون أنهم يحاولون بذلك تربية الوطنية في أبنائهم ، ولا يهمهم ان كان يحدث من ذلك عداوة بين الشعوب . ولكثرة تكرار الباطل بدعاياتهم ظنت كل أمة أن الحق ماهي فيه وما عداه باطل . ولو قد سألت بعض النبهاء عن أمر أبرمته حكومتهم وهو ينافي العدل والعقل لوافقوا على نقدك ولأشاروا اليك أنهم لايسعهم الا أن يصدقوا رجالهم .

فالحقائق على الجملة أصبحت في العصور الحديثة في بلاء لايعدله بلاء ، ومن أنحس البلايا عبث من وكل اليهم أمر الدعاية والنشر ، وهم يتعلمون الكذب تعلماً حتى كدنا نظن أن الكذب أكثر مانسمع ونرى .

وضعت العرب قواعد لكشف الكذب بوضعها علم الجرح والتعديل وكانت لهم طرق غريبة في الوصول الى الحقائق ، وغدا للكذب في هذا العصر وسائط شيطانية تؤثر في البعيد والقريب ، ومنها الصحافة والمذياع ، فانهما زادا في مادة الكذب وسهل بهما سريانه في الأفكار فاستشرى بذلك فساد العالم . وكانت الكذبة الواحدة في الزمن السالف تحتاج الى وقت حتى تنتشر في الألف والألفين من الناس ، واليوم تنتشر في ساعات قليلة من طريق الصحافة والمذياع في ملايين من الخلق في الغرب والشرق .

ذكرني بكل هذا ماطالعته في صحيفة غربية مؤخراً من غلو الصحافة

ومحطات الاذاعات في روسيا بما كان لهذه الدولة من أثر عظيم في باب المخترعات والمكتشفات ، حتى بلغت المدنية الحديثة هذا الحد ، ولا أحسن في رد هذه الدعوى بما قاله القصصي الروسي توركانيف سنة ١٨٦٦ في احدى قصصه قال : زرت قصر البلور في لندن فرأيت فيه نماذج من جميع الاختراعات حتى ليصح ان يقال انها دائرة معارف الانسانية ، فقلت في سري لو كتب لأمة أن تنقرض من سطح الأرض ويفنى من هذا القصر كل مااخترعته هذه الأمة أما كانت أمنا روسيا الأرثوذكسية تغرق في النترية من دون أن تحلحل مسماراً ، أو تزعزع دبوساً من مكانه ، فالسماوِر (آلة طبخ الشاي) وسياط الكنوت Knout وهي ماتنتجه مملكتنا لسنا نحن مخترعيها أيضاً .

كتائب الفداء العربي

هو اسم جمعية ارهابية أسست في دمشق ، ولو تيسر لهم تطبيق خطتهم لخرب جانب عظيم من هذه العاصمة وهلك مئات من أهلها لكثرة ما ادخرت في مستودعاتها من القذائف والمدمرات والسلاح الجديد مما لا تجمع مثله الا الحكومات المنظمة ، وهو عمل تجرد من الانسانية وليس من الوطنية في شيء . وثبت أن بعض الحكومات المجاورة كانت تغذي هذه الجمعية بالمال لتستفيد من ذلك فوائد سياسية تتوقعها .

القسوة على العلماء

حدثني الاستاذ محمد علي الطاهر أنه أرسل من القاهرة الى السيد شكري القوتلي يوم كان رئيساً للجمهورية يخبره بما آل اليه حال الامير شكيب أرسلان أيام الحرب الأخيرة من الضيق وطلب اليه اسعافه فما أجابه الرئيس بشيء مع تكرر الطلب ثم توفي الأمير وساءت حال زوجه في سويسرا حتى أن السلطات هناك حجزت أثاث دارها فأرسل الاستاذ الطاهر يخبر الرئيس القوتلي بما صارت اليه حالها ويرجوه أن يمدها بالمال فما اجابه أيضاً . ان الرئيس القوتلي ضن على الامير شكيب الذي خدم العرب والاسلام ، خدمة لم يخدمها الا أفراد قلائل جداً في حين كان ينفق الأموال جزافاً على من كان يسميهم « زعماء الأحياء » لاكتساب تأييدهم في الانتخابات ، ولو كان الأمير شكيب نظم قصيدة أو كتب مقالة في مدح الرئيس لخف الى نجدته أيام عسرته ولكن الرئيس اعتاد ألا يعاون الا من يعاونونه في سياسته ، وبهذا العمل أثبت ما للعلماء من قيمة في نفسه .

مصر والنهضة العلمية [1]

عقدتم مؤتمركم الثامن في هذه المدينة ففتحت لكم أحياءها الثمانية أو جميع أثمانها ، وللجنة فيما زعموا ثمانية أبواب فكان اليمن حليف هذا العدد ،

حقاً لقد اغتبطت عاصمة الشام الطبيعية الغنية بتاريخها أن رأت مؤتمركم يتفيأ — ظلال غوطتها وأن تشهد هذه الشخصيات العلمية تأتمر في صعيدها لخدمة الانسانية والمدنية وتخفيف آلام اشرف مخاوق درج على هذه الارض والعناية بصحته لتطول حياته .

طب الابدان من أشرف علوم الانسان وصناعة الطبيب أشق الصناعات واشدها خطراً على صاحبها ، والاطباء أبداً عرضة للعدوى بالامراض التي يعالجونها في هذه البنية البشرية أفليسوا وهم الأمناء على الأرواح والأشباح أحرياء بكل رعاية وكرامة .

سعدت جمهورية سورية الفتية أن شهدتكم ياسادتي تصرفون أياماً في أرضها تنصرفون الى أعمالكم العظيمة تقصدون فيها خدمة العلم عامة وأرض العرب خاصة ، واغتبط أبناء الجمهورية أن شاهدوكم تنزلون بلادهم على الرحب والسعة في سبيل أشرف المقاصد العامية .

في الاسلام فتحت العرب الشام والعراق قبل فتح مصر . وغدت دمشق ثم بغداد عاصمتي العلم ، ولكن مصر مع بعدها عن دار الملك ماعتمت أن أخذت بحظها من نعمة البحث والنظر تحت ذاك اللواء وأخذت تسير السير الطبيعي في خدمة العلوم والآداب حتى اذا دالت دول العرب ورثت مصر بطبيعة الحال ذاك التراث العظيم وكانت المأمونة عليه غذته وتعهدته وحنت عليه حنو المرضعات على الفطيم .

وبعد انحلال دولة بني العباس لم يجد العلم المادي والديني ملجأ

---

(١) خطاب لنا في المؤتمر الطبي الثامن في دمشق .

يعتصم به غير مصر ، وبعد استيلاء المغول على الأرض العربية فزع العلم العربي الى حمى مصر ، وظلت مصر في معظم أدوار تاريخ هذه الأمة مبعث العلم ومثابته . ولما كتب لها أن تنهض نهضتها الأخيرة كانت أول من هبت لتتلقف الحضارة الغربية من أهل الأقطار العربية ثم أخذت هذه تنسج على منوالها ، بيد أن مصر وهي السابقة في هذه الحلبة غدت كالأم الرؤوم ترضع بنيها وبني جيرانها راضية مرضية .

ابتدعت مصر لها في عهد الفراعنة مدنية رائعة كانت أجمل المدنيات القديمة وعنها أخذت الأمم أصولها وفروعها وفي جملتها علم الطب ، وكان كهنـة مصر أول من وضع أساسه على ما حقق ذلك شيخ أطباء مصر الدكتور علي باشا ابراهيم وأصبحت لمصر في الاسلام شخصية معروفة في العلم . وما شحت في زمن من الأزمان باشراك الأقطار الأخرى فيما ثقفته وتلقفته . ولولا مصر مابقي أثر يذكر في هذه الأقطار لشيء يقال له علم عربي وعلم عقلي . ذلك لأن الغفوة أيام الانحطاط كانت وياللأسف طويلة في عامة بلاد العرب أكثر مما كانت في وادي النيل المبارك .

وكأن أهل مصر خُصوا بالانتفاع من كل قوة تأتيهم من الداخل والخارج ، وطبعوا بطابع خاص في واحتهم البديعة منعزلين عن الشعوب الأخرى وقريبـين منهم ، يتناغون أبداً بالحرص على حريتهم ، ولذلك كانت أيام مصر المعدودة في الاستقلال أطول عدداً وأجمل أثراً من أيام غيرهـــا . واذا عددنا أفراداً طالبوا بحرياتهم في غير مصر ففي مصر من تفانوا في هذه الأمنية ، شهدنا جماعات يتولى الخلف منهم ما بدأ به السلف ، وهكذا في مسائل العلم والمدنية .

يوم قامت مصر تؤسس مدرستها الطبية منذ زهاء قرن كانت الاقطار الأخرى قد نسيت معظم ماكان لها في سالف الزمن من مجـد علمي وصناعي ، فتقدمت مصر غيرهـا جيلين وثلاثة من أجيال الناس حتى اهتـدى العالم العربي الى الاقتباس من نورها والجري في الطريق التي نهجتها ، وفي مقدمة الأمصار التي باكرت أخذ مناهج العلم والحضارة عن مصر هذه الديار الشامية ، ولذلك ترى الشام أن كل اكرام يقل للمصريين

في ربوعها . واذا حاولت أن تقوم بواجب اكرامكم فهي تحاول أن تكرم في أشخاصكم مصر المحبوبة صاحبة النهضة العربية ، تكرم فيكم الذكاء الذي أحسن محمد علي الكبير استثماره فأحيا دولة العرب بعد دثورها ولولا هذا الذكاء ما تم لمصلح مصر ما أراد . ولولا ذكاء المصري ما اجتمع هذا المؤتمر في هذا البلد الطيب ولا خطر ببال مصري أن يؤسس جمعية طبية ثم يعقد المؤتمرات ثم يشرك أطباء البلاد العربية بأعماله .

والواقع يا سيداتي وسادتي أن الأسرة العلوية لم تقتصر في كل زمن في اتخاذ أسباب النهوض بمصر لترفعها من طور ولاية مقطورة الى غيرها الى مستوى دولة عظمى مستقلة بأمرها . وقد ازهرت النهضة المصرية في عهد وارث ذاك المجد المؤثل جلالة الملك فؤاد الأول ملك مصر المعظم وهو الذي أسس الجامعة المصرية وأحيا الأزهر بتأسيس كليات التخصص فيه وعطف على كل مشروع علمي وجغرافي وصحي واقتصادي وصناعي ولم ترض نفسه الأبية أن يكون هذا الخير وقفاً على مصر فقط ، بل تعلقت همته السامية أن يشارك المسلمون في هذه النعمة التي أصابتها مصر فأمر أدام الله دولته بفتح أبواب مدارس بلاده العالية والثانوية لكل من يحب أن يتعلم من أبناء الشعوب الاسلامية . وهو عمل جليل لم يعهد له مثيل في غير الدول الاسلامية الكبرى في الدهر الغابر .

ورجاؤنا وأنتم اليوم على أوفاز أن تحملوا من شاطيء بردى الصغير الى اخواننا سكان النيل الكبير سلام أهل هذه الديار ، وأن تتفضلوا وتسبلوا ذيول المعذرة اذا لحظتم قصوراً بواجبات الضيافة على ما تستوجبه مكانتكم ، فان قصرنا في الواجب فما قصرت قلوبنا في أن تخفق لطلعتكم حباً واحتراماً . واذا كان لي ما أقوله باسم مجمع اللغة العربية الملكي فليس الا شكركم على ما أوليتم موضوع المصطلحات الطبية من العناية في مؤتمركم فسهلتم بذلك على مجمع مصر اللغوي عمله وأثبتم بتضامنكم معه أن العلم سلسلة واحدة كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها وان العلماء في الارض أسرة واحدة رغم الحواجز والتخوم واللغات والاديان ورغم الاعتبارات السياسية والعنصرية ، وهذه قد تزول ولا يزول من الافئدة عطف العربي على العربي والمصري على الشامي ، والله يسدد خطاكم ويجعل التوفيق رائدكم وقائدكم وينفع بكم أمتكم سادتي الاعزة .

نظرات

لو كان من حرموا التاريخ يتدبرون القرآن لأدركوا أن ماجاء فيه من أخبار الماضين هو التاريخ بعينه مقروناً الى فلسفته والتعليق عليه .

اذا درس العربي القرآن حق دراسته لا يحتاج الا الى قليل من كلام العرب ليعدّ في البلغاء الفصحاء .

من ادعوا أن القرآن يحمل في دفتيه جميع العلوم لايدركون أنهم جعلوا منه بهذا الوصف مختصراً في دروس الأشياء ، وما القرآن الا كتاب حكمة لخلق أمة تصلح للمعاش والمعاد وكفى بذلك اعظاماً لشأنه .

اذا لم يحفظ الفقيه القرآن من أين له أن يعرف الاسلام ، وبأي أداة يقضي ويفتي .

كتبت فصلاً في أصل الوهابية سنة ١٩٠٠ في مجلة المقتطف أثبت فيه أن الوهابية حنابلة ، ولما كان من عادة القوم أن يسبوا من يخالفهم في مذهبهم ، ويعدون من لا يشتم كما يشتمون أنه من أهل المذهب الذي بحث فيه ، كان نصيبي منهم التضليل والتكفير ، وهو من أيسر ما تلوكه ألسن الغيراء على الدين .

يزيد عدد من فقدتهم من العلماء والأدباء في نحو ستين سنة من الشاميين (ويدخل فيهم اللبنانيون والفلسطينيون) والمصريين والعراقيين على مئتي رجل ، ويدخل فيهم اخواني من علماء الترك والمستعربون من علماء المشرقيات وأترابي في مجلس الشيخ محمد عبده وحلقة الشيخ طاهر الجزائري وغيرهم ممن عاصرتهم وعاشرتهم وأخذت من علمهم وأدبهم ،

واسترشدت بآرائهم ، وأعجبت بصفاء أذهانهم وجميل مذهبهم ، ناديت وقد تمثلت لي أشباحهم : يارب كيف تطيب لي الحياة بعد رحيل ذاك الرعيل الجميل .

كان أحد الوزراء يصرف جانباً من وقته في سماع مراجعات أهـل دينه من القسيسين والمطارنة ، وكان الظاهر من حركته أنه لايهتم لغير مصالح أبناء طائفته ، هكذا علمته مدارس الافرنج التي تخرج بمعلميها ، ولكم كان أهله يحسنون اليه والى بلده لو ادخلوه في الرهبنة كما ترهب أخواته الثلاث ، وكان مخاطبه لايتبين من وجهه الا أنه راهب في ثوب مدني ، خرف الدهر فأجلسه على كرسي الوزارة ، وهو لا يليق لأكثر من وكيل نيابة أو معاون لرئيس دير .

بذل أعداء بني العبـاس كل ما لهم من حيلة حتى يسقطوا كبار خلفائهم فوضعوا فيهم الحكايات ، ورموهم من المخازي بما هم منه أبرياء يقصدون من الغض منهم نقض بناء الدولة ، والحط من أبناء الدعوة ، وما كان بعض خلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون بمن تكثر لهم الامثال في الدول ، ولذلك وجب على محب التحقيق أن يحـذف بعض ما حملته كتب المحاضرات من أخبار الخلفاء ، ويأخذ كل ما قاله اهـل الأهواء في خلفاء الأمويين والعباسيين بتحفظ واحتراز .

السرُّ في ان الشرقي يبالغ بحضارة الغربي ، والغربي يغالي بانحطاط الشرقي ، كون كل فريق لا يعرف ماعند الفريق الآخر على حقيقته ، ولو استبطن الاول ماعند الثاني لأنصف كل منهما صاحبه في حكمه عليه .

قال احد حكماء الغرب لو لم يقف شارل مارتيـل امام العرب في بواتيه لسبق الغرب الى التمدن ثمانية قرون . ونحن نقول لو لم يشغل معاوية بحرب علي لانتشر الاسلام في اوربا منذ القرن الاول من الهجرة .

عَجّل اختراع الطباعة بالحروف انتشار الحضارة ، فهي أفيد اختراع نشرت فوائده بين البشر .

كان من انحطاط جزيرة العرب حجة لمن يزعمون أن في تعاليم الاسلام مايحول دون نهوض اهله ، لقد أخطأوا فالامر على غير ماتوهموا . السبب سياسي اجتماعي ، والدين بريء من هذه التهمة .

حاول المسيطرون على سياسة مصر بعد أن حلّوا جيشها القديم ان يصدوها عن التقدم وينسوها الاستقلال ، فما رأوا افعل من جعل مدة دراسة الضباط قليلة جـداً ، يأخذونهم على الأغلب من الساقطين في الشهادة الابتدائية ، فكان جماع ما يتعلم حماة مصر لبس بزة جديدة ، وحمل عصي في ايديهم فقط .

لاينجي المسلمين مما يُرمون به من الانحطاط الا ان يرجعوا في دراسة دينهم الى اصوله على ماكان يُعلّم في القرون الأولى ، وان يتعلموا علوم الحضارة كما تعلم في جامعات الغرب لعهدنا .

ليس من الغلو أن يقال ان بعض المستعربين من علماء المشرقيات عرفوا الاسلام وأكبروه أكثر مما عرفه بعض أدعياء العلم المشار اليهم بالبنان بين أظهرنا . ذلك لأن معرفة الاسلام متوقفة على الدرس والبحث والمستعربون يدرسون ويبحثون على الأصول أكثر ممن تمحضوا للعلم عندنا .

صعب على طبع الفرنسيس الاعتراف بما أخذوه عن العرب من أسباب تمدنهم كأنهم باعترافهم بالأمر الواقع يصغرون من شأن مدنيتهم . دعوى الوطنية لاتكتسب بانكار الحقوق الثابتة .

يظهر أن الشرقي يعترف بفضل الغربي عليه بما فتح له من أبواب التوسع في العلوم أكثر مما يعترف الغربي بما أخذه أجداده من الشرق وما انتفعوا به من علوم العرب وحضارتهم .

اضحك من رجل يحاول أن يسير الزمان على هواه ، ولا يسير هو بما يتطلب الزمان منه .

قد ينبغ في أمة رجل عظيم وهي غير مستعدة لقبول ما يدعوها اليه من أسباب النهوض فتعصي على اصلاحه ، وتحتقر حكمته . ومتى كان في أمة استعداد للنهوض يخلق الرجل الذي يضطلع بهذا الأمر ، وهذا من النوادر وقوعه .

أبشع ما أتت به النظم الغربية ما يدعى بالطريقة القرطاسية ، أي تطويل المعاملات ونقلها من ديوان الى آخر حتى يستوثق صاحب الشأن أن القضية المعروضة لم يدخلها زغل . بالطريقة القرطاسية لا تنحل مسألة في أقل من بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ، وبالطريقة العادية يبت بها في ساعة . والحكومة المبتلاة بطريقة القرطاسية تضطر الى الاستكثار من العمال . حتى قال أحد كبار ساسة الانكليز لعهدنا لصاحب له ايطالي : لقد أصبحنا معاشر البريطانيين واثنين منا من الموظفين والثالث فقط يشتغل . والى أمس كان الانكليز من أشد الأمم زهداً في الطريقة القرطاسية .

من الصعب على المسلم أن يحب فرنسا ، وقد رأى ظلمها أبناء دينه في كل أرض استعمرتها من الاقطار الاسلامية . وصعب على المسلم أيضاً أن يميل الى اسبانيا والبرتغال وايطاليا وهي ما كانت أقل ظلماً لأهل الاسلام من الفرنسيس .

لو فرض استيلاء دولة اسلامية على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وكان أهلها ينتحلون النصرانية ، لقامت أوربا وأميركا قومة واحدة حتى تحذف اسم الدولة المتغلبة على هذه الأقطار من قائمة الدول

كان يكتب لنا التوفيق لو اقتبسنا من حسنات المدنية الغربية ما يربو على ما أخذنا من سيئاتها . والسبب في تأخرنا عن الغربيين اهمالنا التفكير

زمناً في كل ما يدفعنا الى الامام . أبطأنا في الاقتداء بمن كان الواجب الاقتداء بهم وما حدثتنا أنفسنا من أول جيل بالأخذ من المدنية التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد عصر النهضة .

شهدنا بعض الغربيين يربأون بأولادهم عن الاجتماع الى من يوافون ديارهم من المشارقة مخافة أن تسرق طباعهم من طباعهم .

جرى تبادل السكان بين دولة الترك ودولة اليونان فأخذت تركيا من اليونان من عندها من المسلمين الاتراك وأعطت تركيا لليونان رعاياها من الروم . وكان عدد المقايض عليهم من الطرفين عظيماً ، فدب الفناء في المغتربين تركيهم وروميهم ، لاختلاف الهواء وصعوبة النقلة ، فاستدللنا بذلك على أن الهجرة لا تنجح الا اذا كانت بمقياس مصغر ، وكانت للمهاجرين رغبة شخصية في تركهم مساقط رؤوسهم ، فاذا أكرهوا على النزوح منها ، يصبح شر الهجرة أكثر من خيرها .

لو تأصل الغرام بالتمثيل عند العرب تأصله عند الغربيين لقربت مدنيتنا من المدنية الغربية ولكان مجتمعنا أرقى مما هو الآن .

طبق العرب قواعدهم في الحكم على الشعوب التي أخضعوها لسلطانهم فعدها هؤلاء نعمة بالقياس الى ما كانوا فيه من الظلم ، وبخاصة لأنهم رأوا روحها لا ينافي روح أديانهم الأصيلة في باب الرحمة . ولما ضعف أمر الدين وضعف العرب في انفاذ مقاصده السامية كانت نفرة المحكوم عليهم من الحاكمين وبهذا بدأ الانحلال .

عُدّ من الخياليين المخدوعين بالظواهر من يذهبون الى أن سكان تركيا بتقليدهم الغربي في بعض أوضاعه قد أصبحوا أوربيين . الاتراك يظلون أتراكاً مهما تجردوا من مشخصاتهم القديمة . ان كنت تستبعد أن يتمثل العربي في الجزيرة هذه الحضارة الحديثة فأنا مثلك استبعد أن

يصبح ابن الأناضول بعد أجيال غريباً بمدنيته . وأرجو أن يغلب رأي المتفائلين ظن المتشائمين في هذا الحكم .

اشتبك أهل الولايات المتحدة الاميركية في القرن الماضي بحرب أهليه طاحنة دامت اربع سنين وكان السبب في نشوبها دعوة رئيس جمهوريتها ابراهام لنكولن الى تحرير العبيد لأن الخلق كلهم متساوون ، فانتصر حزب التحرير ولم ير انصار الاستعباد تشفياً لنفوسهم الا قتل الرئيس الحر وكان عمله اعظم عمل انساني ، وعمل قاتليه أعظم عمل وحشي .

سألت هولاندياً في هولاندة أصحيح أن أبناء وطنك في جاوة يكرهون الجاويين في الطرق ليمدوا ظهورهم فيركبوهم كما تركب البهائم ؟ قال صحيح واذا نحن امتنعنا من هذا لا يستقيم أمرنا هناك ، لأننا قلة تضيع في الكثرة . ووجهت مثل هذا السؤال لقاض هولاندي من قضاة جاوة فسكت وما جسر أن يكذب والسكوت اقرار . ظلم الهولانديون الجاويين ثلاثمائة وخمسين سنة ثم ساعد هؤلاء الزمن فتحرروا من سلطة الهولانديين الغاشمة .

ما برح المستعمرون يقللون من عدد المسلمين في الصين ينزلونهم الى الخمس أو الى العشر من حقيقتهم ، وظلوا زمناً على هذا الرأي يدونونه في أسفارهم ويتناقلونه في مجلاتهم وصحفهم ، وقد ألف أستاذ من جامعة باريز كتاباً في الصين عني فيه بحفنة من الكاثوليك هناك ، ذكرهم وذكر أوضاعهم بكل خير ، وربما بالغ بعددهم ، وأغفل الكلام عن خمسين مليوناً من المسلمين الصينيين كانت لهم مدنية جميلة وربما كانوا ارقى من جيرانهم في الجملة .

سخف بمن ينسى من رفعوه حتى عزّ وساد ، وكان الى يوم صرف

من الخدمة ليستميت في حب من عاد يحبهم ، ويغار عليهم كما يغار الكريم على الحرم .

شاهدت رجلاً من عظماء رجال الدولة عندنا يذل ذلاً لم أكد أشهد صدور مثله من كبير ، وذلك ليدخل مع جماعة يؤلفون حزباً يتوقع له الاستيلاء على الحكم . دعاه الى هذا الاستخذاء الخوفُ من أن يحرم المناصب ان لم يكن عضواً في الحزب الجديد . ما أصغر نفوس بعض من يصفونهم بأنهم من الكبراء ، وما كبروا الا بكبر المناصب التي تولوها فقط .

عهدي برجل صُرف من الحكم يلزمني في جريدة المقتبس بضع ساعات من النهار . دام على ذلك مدة . وكان نُحي من منصبه ويحاول الرجوع الى خدمة الدولة . ولقد كنت علم الله أخجل من تكرر مجيئه الى مكتبي ومكثه أمامي طويلا وهو لا يخجل ولا يخطر بباله أن ادارة تحرير الجريدة دار أسرار تقضي المصلحة كتمها عن كل انسان . ولما تولى هذا المعجّز منصباً كبيراً في الدولة الخالفة صعر خدّه وكاد ينكر معرفتي . بهذا وأمثاله ممن عرفت نفسيته كنت أقول دائماً ان حاجتنا الى الأخلاق أشد من حاجتنا الى العلم ، وأن الدنيء الأصل لا تسوّده المناصب .

يظن بعض قصار النظر أن الشعوب التي أعماها جهلها تسهل مغالطتها وأن سكوتها عن ماضي من استهان بحقوقها هو من جملة غباوتها . أما الشعب فيدرك سرّ كل مؤامرة دنيئة على حياته ، ويحاسب متى أراد الجاني على جناياته السابقة واللاحقة .

قال لي أحد أعيان داريا : سألني أحدهم في موسم الحج بمكة عن بلدي فقلت له : اني من قرية من قرى دمشق . فقال : ما اسمها فقلت له داريا . قال : هي القرية التي لحق أهلها الدبور الى سهل كوكب .

اشارة الى أنهم بخلاء جداً . قال له : نعم ياسيدي ، لاحول ولا قوة الا بالله . وتضاحك الحاجان . ما أكثر شيوع الأخبار في الأرض العربية لولا ما يناقض ذلك النبأ الذي رواه لي صديق مدرك من أن احدى الامارات العربية على شاطيء المحيط الهندي ما زالت الى اليوم تدعو على المنابر في كل جمعة للخليفة الأموي بدمشق . وخلافة بني أمية زالت من الشرق منذ أكثر من اثني عشر قرناً !

جربت زراعة القطن في بعض أرجاء سورية فأتت من الغلات بما فاق المأمول ، فعزمت الحكومة على تنشيط هذه الزراعة حتى قيل ان ماسيزرع من الأرض البور وغيرها هنا تزيد مساحته على مساحة الأرض المزروعة قطناً في مصر . ومن التدابير الحكيمة التي عمدوا اليها استدعاء الشاميين المهاجرين الى القارات الأخرى للعودة الى بلادهم ، لأنه أصبح فيها مرتزق لكل من يوطن نفسه على أن يعمل بعد الآن ، ولا يبعد أن يصبح السوريون بعد عشر سنين نحو عشرة ملايين من الأنفس . زيادة السكان تابعة لوفرة الخبز في الأرض التي يدرجون عليها .

مضمون النجاح في كل عمل يمارسه صاحبه ، ويأخذ من نفسه ، والتأليف من أظهر المظاهر في هذا الباب . ولا أمثل الا بما وقع لي . فاني لم أصرف من عمري نحو خمس وعشرين سنة في تأليف « خطط الشام » الا لأني ولعت بماضي بلادي وحاضرها ومستقبلها . ولم أكتب كتابي « الاسلام والحضارة العربية » الا لأن الموضوع أخذ من قلبي . ولم أكتب « غرائب الغرب » الا بعد أن تذوقت مدنيته بعض الشيء وشاهدتها في أرضها . ولم أعن بجمع « رسائل البلغاء » الا لندرتها وتعذر الوصول اليها . ولم أؤلف « أمراء البيان » و« كنوز الأجداد » الا لأطالع قراء العربية بأخبار العلماء والأدباء الذين انتفعت بكلامهم وعلمهم ، ولم أضع كتاب « أقوالنا وأفعالنا » و « المذكرات » الا لأجمع ماوقع لي من تجارب ونحن حرية بالاعتبار .

مهما بلغ من صلاح حكومة لا تخلو من ناقمين عليها طامعين في تبديلها . هذا والرعية تدرك أنه لا يتوقع أن يجيء الخالف على غرار السالف في المقدرة وسعة التجربة . الا أن النفوس مولعة بالتجديد ولعها بتبدل المناظر وسماع الغرائب .

حكومة ثابتة ترتكب بعض الاغلاط أفضل من حكومة متقلقلة تنقض وتبرم من دون روية ولا تجربة ، الأولى أقرب الى اصلاح هفواتها والثانية تخبط وتخلط .

ليس من الحزم أن يدعى الى الحكم رجل جُرّب في المصالح العامة أعواماً فما أفلح . النقص من خلق الانسان ويستحيل تقويم أخلاق من جاوز الستين من عمره ، ومن ضعف استعداده لشيء من العبث أن تطلب منه اتمامه على ما ينبغي .

آخذ بعضهم رجلا سياسياً لغضه الطرف عن جماعة أكرموا مثواه يوم كانت الحكومة تطارده ، وأقدموا على حمايته وما بالوا بالخطر الذي يحيق بهم من اخفائه في بيوتهم ، حتى اذا فوضت اليه الوزارة تجهم لمن أكرموا مثواه كأنه ماعرفهم وما أكل طعامهم . فقلت لهم : لا تعجبوا هو دنيء الطبع ماوفى حياته لغير مصلحته ، وما توفر الا على توفير ماله بسرقة الدولة وسرقة معامليه وسرقة أسرته ، وذلك بأسلوب فيه كل النذالة والقحة ، وهو في البخل وأكل الحقوق المثل السائر .

مهما صفا الجو السياسي في دولة وانقطعت بما تملك من موارد الى عمارة أرضها ، تظل تشكو نقصاً في بعض مصانعها ، ذلك لأن الجماعات كالأفراد يُعنون بأمور ويُغفلون أخرى على غير قصد .

قلت لرجل يُظهر الغيرة على بعض ملوك العرب ويحرص على ستر عيوبهم لئلا يكون في اشهارها فضيحتهم : ياهذا ان كنت تمت الى هؤلاء

الملوك بصلة من الصلات فلا كلام لنا معك وان كنت ممن يقصدون الى الاصلاح فثق أن بعض رجال الغرب يعرفون من عيوب ملوكنا وزعمائنا مالم يطلع عليه ألصق الناس بهم ، وعلى هذا فلا معنى للتمويه في أمرهم .

أكد لي صاحب أقام في احدى المستعمرات الانكليزية زمن الحرب الاخيرة أن الانكليز كانوا يضيقون على كل من يشكّون في اخلاصه لهم من نزلاء المستعمرة ، ويوهمونه أن القتل مصيره اذا عصى لهم أمراً ، وسواء كان هذا القول مبالغاً فيه أو هو الحقيقة لا غُبار عليها ، فان كل انكليزي يرى من واجبه الوطني ان يتسقط الاخبار التي يقدر أنهـا تنفع دولته .

أسر الانكليز في الحرب العالمية الأولى ضابطاً عربياً فألحقوه بأحد ضباطهم فعهد اليه تعليم ابنه . قال : فكنا نطوف بعض أحياء مدينة لندن للرياضة ساعات كل يوم ، وفي جملة ما زرنا دار احدى الوزارات وكانت ذات ساحة عظيمة ، فرأيتهـا ملأى بصناديق صغيرة لم أعرف أكانت قنابل أم خراطيش فقال تلميذي : لاهذا ولا ذاك ، هي صناديق ذهب برسم اميركا الشمالية . وبعد انقضاء اسابيع قليلة على وصول الصناديق الى الولايات المتحدة – وتوزيعها على الشيوخ والنواب والعمال والقواد ورجال الصحافة ودور التمثيل والسينما واللهو وعلى كل من له تأثير في عقول العامة والخاصة – شهرت اميركا الحرب على دول المحور . ما أعجب الانكليز باستمالة قلوب الشعوب يوم يحتاجون الى استمالتها .

تمنع بعض الحكومات العربية المطبوعات الحرة من دخول بلادهـا وتَعد مافيها من الافكار والاخبار مما يشوش عقول رعاياهـا ويفسدهم عليها . أما كان الأجدر بها ان تنتفع بما تقرؤه وتطبق منـه ما تقدر

على تطبيقه ، فاخفاء الحقائق لاينتج خيراً للراعي والرعية كما يتوهم بعض رجال السياسة .

عرفت رجلا كان من العمال المقدمين في عمال اليمن على العهد العثماني نهب وسلب هناك ماشاءت قلة ذمتـه وسقوط مروءته فلما كشف أمره وحاول الفرار بما سرق من الاموال انقذه من ايدي العدالة احد مواطنيه من كبار رجال السلطنة العثمانية يومئذ ، واصطفاه لنفسه ، وأدخله في خواصه وجعله سميره وعشيره ، فما عتم ذاك اللص أن كافأ من أحسن اليه بأن قدم فيه تقريراً الى السلطان يسقطه من نظره ويرميه بالخيانة ، ولما قصّ عليّ صديق ما اجترحه المحسن اليه مع البار به قلت : صدق من قالوا : من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه .

العاقل يلزم السكوت عند تبدل الدول وكذلك يوم تشن الحرب في دياره ، والا جعل منه صاحب القوة ذريعة لالقاء الرهبة في القلوب .

بذلت انكلترا جهدها لاشراك مصر في الحرب العالمية الثانية فلم تجبها الى رغبتها وصانت مصر نفسها من الخراب الذي كان ينتظرها ، ذاكرة ان الدولة البريطانية كانت وعدتها وعوداً خلابة في الحرب الاولى اذا هي حاربت معها . ولم تحقق شيئاً مما وعدت به ، وكان من ذلك عبرة لمصر .

انتشرت الشيوعية انتشاراً سريعاً في العالم فخاف الانكليز تسربها الى اوربا الغربية من طريق الهند ، وكانت هذه حانقة على البريطانيين ويخشى ان تنتحل الشيوعية اذا أحرجت ولم تنل استقلالها ، فما كان من الانكليز الا ان تخلوا عن الهند وتركوها لأهلها طوعاً او كرهاً ، وأخذوا يقتربون بأنظمتهم من الانظمة الشعوبية يأخذون من ثروات

الاغنياء حتى لايبقوا لهم الا ما يرفعهم قليلا من درجات المتوسطين في عيشهم . وهذا مما يشهد للانكليز ببعد النظر في ادارة الملك .

اطلعت على ما كتبه أديب ذو مكانة كبرى في العالم العربي الى أحد أدعياء الشعر ممن كان الغموض والركاكة من خصائص شعره ، يقرظه ويطلق عليه من الألقاب ما كان يجب أن يكون خاصاً بأهل الطبقة العليا من أرباب هذه الصناعة . فقلت في نفسي : لو لم يجد دجاجلة الأدب من يصانعهم ما أظهروا من القحة ما أظهروا في طلب الشهرة بشعرهم الركيك وبيانهم السقيم . وهؤلاء المداح يصانعون الكبراء أيضاً وهم في باطنهم يلعنونهم . والظاهر ان عند هؤلاء المداحين الفاظاً يطلقونها في مخاطبة العالم والجاهل سواء ، وماذا عليهم اذا وصفوا بالنبوغ وجمال الأدب كل من يلقونه ، ووصفوا بالعدل والاحسان كل من يخشون بأسهم ويرجون نوالهم ، لا يفرقون بين الفاضل والمفضول والمشهور والمغمور . اذا عرفت هذا فلا تستغربن اذا رأيت هاتيك الشهادات المكذوبة ساقطة من ذاتها فان اصحابها ما أحسنوا تطبيقها على مستحقيها يرضون بها من يخاطبهم ويكاتبهم ومن يعرفون ومن لا يعرفون ، على طريقة مشايخ الأزهر في القرن الماضي لا يتوقفون في تقريظ كل زميل لهم ألف كتاباً ولو كان مما لم يعهد عالم التأليف أسخف منه ولا أردأ .

عرفت اثنين من كبار أدبائنا اشتهر الأول بالسياسة والخطب واشتهر الثاني بالشعر والأدب عاشا ما عاشا بملاطفة الصغار والكبار ومجاملة الموافقين والمخالفين . ولو قد حللت ما صدر عنهما لارضاء كل واحد بما يجب لما حكمت الا أنها أماديح مستهجنة تذهب في الهواء وهيهات أن تخلد ولو طبعت في كتب ورسائل وجلدت وذهبت .

أشرت الى سعي بريطانيا العظمى بتأليف الجامعة العربية وقلت ان بعض المفكرين كانوا يشكون في نجاحها وقد حققت الاعوام التي مضت

على تأسيسها رأي المتشائمين بعض الشيء ، وثبت أن دولاً مختلفة النزعات والحضارات يتعذر أن يتألف منها كيان واحد ، فكيف اذا كان وراءها دولة أو دول في مقدورها كل ساعة أن تنقض الالفة وتقوض البناء . واهاً للشعوب الضعيفة ، هي أبداً ألعوبة بأيدي الاقوياء .

لما رضي بعض رجال الانكليز عن سورية ولبنان كانوا يصفونها بأنها مهد المدنيات وأنها يتمتعان بمدنية راقية ، فلما اقتضت الحال أن يقلب لها ظهر المجن كتبت احدى الصحف الانكليزية تقول أن هاتين الجمهوريتين بلاد رسم على علمها المثلث الألوان : الحشيش ، البخشيش ، ما عليهش . أي أن البلدين حرما عزة النفس تتجران بالمحظورات وتستحلان الحرام وتستجديان وتشحذان ولا تباليان بما تفعلان . وتتأول هذه الكلمات الثلاث في هذا الكلام بتأويلات أخرى ، فيا سبحان الله .

بضعة أشخاص متماثلين في التربية والعقل يجتمعون على تحقيق غاية معقولة يفلحون غالباً .

في المدنية الحديثة ظاهرة عجيبة ما كان أجدادنا يعمدون الى استعمالها على ما انتهى الينا من أخبارهم . وذلك أن كل انسان يحاول أن يستهدي جاره ومواطنه وصديقه كل ما يقدر على أخذه منه وألا يقابله بشيء على ما أعطيه . وبمعنى آخر ان مدنية الماديات تبيح للناس أن يسلب بعضهم بعضاً علناً .

تتجلى الرعونة في بعض الشعوب اللاتينية حتى لتكون حكوماتها مهددة بالثورات على الدوام ، خلافاً للشعوب الانكلوسكسونية فان هذه اعتادت أن تفكر قبل الاقدام . الثورات في الجمهوريات اللاتينية

من الأمور المألوفة (١) والثورات في أميركا الشمالية تحدث مرة في كل قرن وفي بريطانيا العظمى لا تحدث الا مرة في الزمن الطويل .

كانت الدسائس الاجنبية العامل الأكبر في اخفاق الجامعة العربية ، وأعان على ذلك أن كان تركيب الدول الداخلة فيها تركيباً غير مزجي. ابن صنعاء وصعدة والقصيم والرياض ومكة والمدينة وعمان لا يرجى أن يشابه ابن القاهرة والاسكندرية ودمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد والبصرة .

في الأمثال العامية « الولد الذي ليس من ظهرك كلما جن افرح له » وقد مضى ساسة الغرب مع ساسة العرب على ذلك . فانهم قلما يعيرون اهتماماً لما يضر بالشرق ويؤذيه . وقد يفرحون لملوكنا ورؤسائنا كلما أسرفوا وأجحفوا لاعتقادهم بأن ما يأتونه يعجل الخراب الى دولهم وفي ذلك مصلحتهم . كانوا يقولون : « اذا كان جارك بخير فأنت بخير » وانقلبت هذه الحكمة العامية اليوم فصارت « انك لن تكون بخير الا اذا كان الشر عند جارك » .

مئات الالوف من الليرات يصرفها رئيس على الاوباش ، ومنهم من يعطيه الف ليرة في الشهر ، أي ما يوازي أكبر راتب في الدولة بعد الوزراء ، هي طريقة له ابتدعها وما سلكتها حكومة تحترم نفسها وتقدر دخلها وخرجها .

جار الحلفاء على ألمانيا بعد انهزامها أمامهم في الحرب العالمية الثانية

---

(١) ذكرت احدى المجلات الغربية ان رئيس جمهورية غواتيمالا تنتهي مدة رئاسته في شهر آذار بعد ان قضى فيها ست سنين شهد خلالها تسعاً وعشرين ثورة وربما لا تنتهي مدته حتى يتمها الى الثلاثين ثورة . قالت أن صبره على هذه الثورات خلال رياسته دليل ظاهر على انه فيلسوف محنك وبالفعل هو يحمل شهادة دكتور في الفلسفة !

ففضوا جيشها ، وقضوا على صناعاتها ، وقسموها قسمين قسم أخذ الروس بخناقه فأدخلوا فيه النظام الشيوعي ، وقسم للانكليز السكسونيين ومن تبعهم بثوا فيه الأنظمة الديمقراطية ، وكل ذلك رجاء ألا تقوم الألمان قائمة . وكأني بهم بعد حقبة غير طويلة من الزمن وقد عادت اليهم وحدتهم وعظمتهم ، ذلك لأن من المتعذر جداً القضاء على مئة مليون انسان بلغوا من المدنية غاياتها .

لما نظمت أمور مصر ونجحت حكومتها من أن تعيش بالقروض اغتنى المصريون ، وانقلب القطر في أعوام قليلة من مملكة غامرة الى مملكة عامرة ، وجمعت بريطانيا بنهوضها بمصر عدة مطالب كان من أهمها انشاء أرقى مملكة في الشرق الادنى تنادي على الدوام أن بريطانيا العظمى أرحم دولة في استعمارها .

الفرق بين استعمار فرنسا في الجزائر وتونس ومراكش وعمل انكلترا في مصر أن فرنسا ما توخت من احتلال هذه الاقطار الثلاثة الا منفعتها الخاصة ، وما عبأت بمصلحة السكان ، وجمعت انكلترا بين منفعتها ومنفعة المصريين فأبدعت في مصر مثالاً منقطع النظير في احياء الممالك قامت به طائفة صالحة من نبهاء ساستها ونبغاء مهندسيها . ولا يسع المتشدد في أحكامه اذا تأمل صنع البريطانيين في وادي النيل الا أن يقرّ لهم باحسانهم .

طال أمد الاستعمار الانكليزي والاستعمار الهولندي في الهند وأندونسيا وختمت أيامه لما عزم سكان تينك المستعمرتين العظيمتين على طرد المستعمر طرداً أبدياً . استعمر الرومان واليونان معظم العالم القديم قروناً ، وما خرجوا من أرض احتلوها الا بانحلال دولتيهما ، وتنازلت انكلترا وهولندة عن استعمارهما وهما في معظم قوتها .

أعظم العيوب عيوب يتعدى أذاها الى المصالح العامـة ، وصاحبها فاسد في نفسه ومفسد للجماعة . وما أعجب الا ممن يحاول الستر عليـه ويخترع له المخارج .

قال أحد رجالنا في معرض وصف أحد المشتغلين بالسياسة : « ما هو إلا خولي ببنطلون » أي قيّم مزرعة يلبس سراويل المدنيين وعقله محدود ، فحققت الايام هذا الحـكم عليه لما تولى منصباً جليلا اضطر فيه أن يصدر عن قريحته .

لا قوة تحول دون انتشار الفساد في معظم الاشياء يوم يصير الحـكم الى العامة . العوام على الاكثر لا يحسنون الا التخريب ، وقد ينفق الخواص أعواماً في تنظيم أمر فاذا آل النظر فيه الى العامـة دمروه في ساعـــة .

لما شكوت مستشار المعارف الى المفوض السامي على عهد الانتداب في سورية ولبنان حقق معه ، فثبت لديه صحـــة ما عزوت اليه فأنهى خدمته . ولما نقمت على مدير الاستخبارات كلاماً أهان به المسلمين تجاه المفوض السامي لما تبين له صدقي . ولو كان من شكوت اليهم من جماعتنا لـكان غاية ما يأتونه أن يصالحونا ، ويكرهونا على أن يقبل أحدنا شارب صاحبه ، وتذهب المصلحة العامة في الريح .

الحق أولى أن يقال أن الفرنسيس في انتدابهم على الشام خمساً وعشرين سنة أصلحوا أشياء كثيرة في أدوات الحكم ومنها توطيد الأمن واصلاح القضاء والمعارف والأشغال ، لكنهم بثوا روح التعصب بـين المواطنين ، وأحدثوا التفرقة بين الطوائف ، وعاونوا الجمعيات والطرق التي تفت في عضد الاسلام ، فتمت لهم قسمة الأمة أقساماً متعادية ، وما وازى النفع الضرر .

كان من طبع أحد الرؤساء اذا حقد على انسان أن يبالغ في مساءته ويطعنه طعنة لايبرأ منها . واذا بدا له استرضاء أحد يرتكب كل وضاعة في سبيل استمالته . فطر على مخاشنة فريق مخاشنة جائرة ، وعلى الخروج عن المألوف في محاسنة آخر . وما من عاقل يقول ان هـذه الأخلاق من أخلاق الرؤساء .

حكمت احدى المحاكم لرجل على أولاده الأطباء الثلاثة بالانفاق على أبيهم العاجز عن الكسب . عقوق هؤلاء الابناء والدهم بعد أن رباهم بماله حتى أصبحوا أطباء يدل على بلوغهم في القسوة غايتها . ومن قسا قلبه على أبيه لا يرجى منه أن يشفق على أحد . ليت ولي الأمر يسترجع من هؤلاء العاقين شهادة الطب ويتركهم يتسكعون كالحيوانات التي لا تنفع للنقل ولا للنسل .

ما أوقح من لم يدرس الطب أن يشارك الأطباء في طبهم ، فعلى من لم يدرس السياسة أيضاً ألا يشارك فيها الا مشاركة يقف بها على الحقائق ليطمئن على مستقبل وطنه وأمته . السياسة أصعب العلوم وأدعياؤها ما زالوا متوافرين .

في سيرة من سقط وما أسف عليه الا من أتخمهم بأموال الدولة عبرة لمن يتظاهرون بالدين وهم منه أعرى من مغزل ، ويتناغون بالوطنية ووطنيتهم تقوم باملاء جيوبهم وجيوب أنصارهم من المال المشبوه ، وتقوم حياتهم على الكذب في كل أمر .

كان الناس في أمر أحد الرؤساء بين مصدق ومكذب ولما صرف من منصبه وكفّ المطبلون والمزمرون تبين أنه ما كان الا لعبة ألبسها الأبالسة ثياب السم والقصب .

مهما عظمت يدٌ يسديها انسان لصاحب قوة ، فان هذا يوشك أنّ ينسى بلاءه لخاطر يعرض له ، ووهم يتوهمه . الخليفة العباسي كافأ بالقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس دولته .

انهزمت فرنسا أمام ألمانيا في الحرب الأخيرة ولم تحارب الا أياماً قليلة ، وبفضل حليفتها بريطانيا - التي جعلتها منذ القرن الماضي وقاية لها من صدمات اعدائها - عاملوها معاملة الظافر .

يتناغى تشرشل أعظم ساسة الانكليز المعاصرين بحب فرنسا ويعشق كل ماخص به أهلها من طباع وما تفردت به حكومتها من حكمة . يكتب هذا في كتبه ويردده في خطبه . ولو كشفت عن قلبه لتبينت أنه لا يهمه أن يسجل في عداد العابثين بالحقائق اذا كان في ذلك خدمة دولته .

قد يهمل بعض السياسيين أمراً عاماً يطلب منهم ويشتغلون بمسائل فيها حظ أنفسهم فقط ، وفي ذلك البلاء العظيم .

أنارت الصحف عقول من أطالوا مطالعتها وأتتهم بمعلومات كان يعزّ الظفر بها على الخاصة في الدهر السالف . عرفت أناساً أصبحوا من الساسة المحترفين بما تلقفوه بقراءة الصحف . وعرفت أناساً شاركوا في بعض العلوم الحديثة مشاركة لا بأس بهـــا لتوفرهم على تصفح المجلات العلمية ودرسها بامعان .

ربما كانت صناعة السينما أعظم اختراع احتاج الى عدة علوم وأدخل على سكان القارات الخمس متعة ما ماثلتها متعة .

لو قيل لأجدادنا ان الانسان اليوم يقطع في طيارة الألف من الكيلومترات في ساعة وأن الطيارة تحمل الأثقال العظيمة مع أكثر

مَن ثلاثمائة راكب لقالوا لنا أن من يهذي هذا الهذيان مجنون وجنونه مطبق .

هزأت سرعة الطيارات والسيارات في العهد الأخير بما كان يقال له بالأمس بعد ومسافة . في ساعتين تقطع المسافة في الطيارة من دمشق الى بغداد ، وفي أقل من ساعتين تصل من دمشق الى القاهرة ، وتجتاز المسافة من دمشق الى الأرجنتين في ثلاثة أيام تتخللها محطات تقف فيها والمسافة بين سورية والأرجنتين لاتقل عن نحو ثمانية عشر الف كيلومتر . وكان من اختصار المسافات أن هان على الرجال والنساء التغرب عن اوطانهم ، وسكنى بلد يجدون فيه رزقهم وهناءتهم . وهذا من العوامل في اختلاط الشعوب العربية ، سهل به على ابنة الشام أن تتزوج في مصر ، وعلى ابنة العراق أن تؤسس أسرة في الشام ، وعلى المصرية أن تنزل الحجاز ، الشعوب العربية سائرة في طريق الوحدة الشاملة الا أن سيرها من جنس السير الذي يختلف بين السريع والبطيء .

ضجة الطيارات في الجو ، وضجة السيارات والمحركات فوق سطح الأرض ، وضجة السفن في البحار ، وضجة المناجم في بطون الأرض فهل بقي مكان على سطح الأرض وفي بطنها لم يلجه الانسان بضجيجه وعجيجه .

قال أحد حكماء الافرنج « السياسة علم الربح من دون رأس مال » ويذهب بعضهم الى أن الفرق بين السياسي الموهوب والسياسي المحترف أن الموهوب تفزع اليه أمته في الشدة والرخاء ، والمحترف لا أرب له في غير نفعه . ولم تستقر الأمور في هذا الشرق حتى يصح الحكم على المشتغلين بالسياسة حكما عادلاً لأن معظم من يحترفون السياسة عندنا دون الوسط في ذكائهم وعلمهم وأخلاقهم ، ومن كان كذلك لايستحق أن يترجم له

استعرض أسماء من كانوا يعدونهم من أكابر الرجال ، وانظر النظر النقاد في سيرتهم ، وأنا الضمين أنك لا تراهم يصلحون لغير المكث في بيوتهم حتى توافيهم آجالهم .

قطع صاحب الحجاز ونجد بضعة أيدٍ على السرقة ، فسقط في أيدي اللصوص وانتشر الأمن في بلاده ، وتساهل رئيس في الشام بالحدود الشرعية فضاعت الحقوق وسادت الفوضى .

قالوا ان فلاناً حسن الأخلاق طيب القلب ، أوعز الحزب المتغلب الى عامل بلده أن يعاونه على الوصول الى النيابة فناب سنين عن مقاطعته وما سمع له صوت في المجلس لأنه لا يحسن شيئاً مما يتطلب من النائب فقلت لهم : نعم ان خصمه أيضاً من حزب الحكومة وذنبه أنه متحل بالصفات التي يجب أن يتحلى بها من ينوب عن أمته : أدب ، وجرأة ، وعناية بالمصالح العامة . وعدت فراجعت نفسي وقلت الغالب أن من الاحزاب ولا سيما في الشرق من لا ترى أن ترفع من شأن النابهين المنورين ، وتحاول ان أمكنها تناسيهم ، ولا تتطلب ممن يخدمها الا أن يتابعها على رغائبها على العمياء ، ولذلك يسرها ان تنصب في المجلس نائباً أشبه بلوح من الخشب ، ولا تضع فيه رجلاً تتمثل فيه الحياة والغيرة على النهضة بالأمة .

من أكبر العوامل في الانحطاط الظاهر بين القرية والمدينة في الديار الشامية ، ان الفلاحين وهم نحو ثلثي السكان تركوا للطبيعة ، فلم تتعهدهم الحكومات ولا الجمعيات بتربية دينية ولا مدنية ، حتى ليشبهوا العجماوات في بعض الأصقاع الخالية من المدارس ، الا أنهم ينطقون كالانسان .

في تاريخ ايرلندا السياسي مفاخر للايرلنديين يُعجب بها ، وفيه درس نافع لكل شعب يحرص على نزع يده من غاصبه ليتمتع باستقلاله . في ماضي هذه الأمة النبيلة مايتعلمه كل من يحب وطنه .

قلْ في رئيس رأى من السياسة اقصاء الفضلاء وادناء السفهاء أنه لايحسن من كتاب السياسة حروف الف باء .

الفرق عظيم بين من أقصى أمرته مدة رئاسته عن الوظائف وهي عريقة في خدمة الحكومات ، خشية أن يستطيلوا على الخلق ويظلموهم ، وبين رئيس حمل أقرباءه على رقاب الامة ، وكان بعضهم من المتشردين ، ومن باعة الفجل والطرخون والبصل .

غلطة واحدة يرتكبها زعيم تقلب شعباً كبيراً رأسا على عقب .

رجال السياسة كالممثلين على المسرح ، اذا أحسوا بالتعب فالواجب عليهم أن ينصرفوا الى بيوتهم ، ابقاءً على صحتهم ، ورعاية لأذواق النظارة . وهؤلاء يتوقعون ممن يخلفونهم موضوعات طريفة تخترعها قرائحهم ونغمات عذبة ترددها افواههم .

لا يعقل أن يشترك الانسان في كل امر نافع من امور وطنه . فالعمر قصير لا يتسع للمؤازرة في الامور كلها ، واذا اتقن المرء مايدخل في خصائصه قام بما يفرض عليه . رأيت في الغرب علماء لا تسمح لهم اوقاتهم بتلاوة الصحف ، فلا يدرون بما يجرى في القرب والبعد ، ذلك لانهم منصرفون الى اتقان ما يشغلهم فقط ، وهذا لايقدح فيهم بل يرفع مقامهم « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » .

ما عهد نظام حكم ارقى من نظام بريطانيا العظمى تتعاور الحكم فيها ثلاثة احزاب « المحافظون ، والاحرار ، والعمال » وفي بعض الدول كفرنسا نحو عشرين حزباً وفي اليونان مثلها وحدث ما شئت ان تحدث عن الفوضى في هاتين الدولتين . ويندر فيهما قيام حكومة سنة كاملة وفي بريطانيا تثبت سنين .

قتل في الحروب الدامية بين فرق الاسلام في فارس والعراق عشرات الألوف من المسلمين ، وخربت مدن برمتها ، ولم يحدث من ذلك شيء في مصر والشام في وقت من الاوقات ، وهذا مما يمتاز به هذان القطران .

من بعض منافع الجرائد انها لم تبق سراً مكتوماً ، وكانت تبقى اسرار الدول طي الخفاء أعواماً لاتذاع ، وقلما يطلع احد على مايجرى داخل قصور الملوك ، الا اذا احب اربابها اطلاع الناس عليها ، وذلك بعد افراغه في قالب مموه . من طبيعة هذا العصر على مايظهر اذاعة كل شيء ، ومن طبيعة العصور الغابرة كتمان كل شيء .

لكبار ناشري الكتب في الغرب يد طولى على التاريخ الحديث ، لاغرائهم بالمال اعظم رجال السياسة المعاصرين ليتولوا لهم نشر مذكراتهم ، تحمل صوراً غريبة من طباع هؤلاء الكبراء ، وما خصوا به من حسن حيلة لبلوغ غرضهم في الجمع بين خدمة انفسهم وخدمة امتهم .

ارى همة اهل ليبية اليوم مصروفة الى وضع نظام حكومتهم ، بعد أن فازوا باستقلالهم ، ويقال ان السواد الأعظم من أهل طرابلس وبرقة يميلون الى الحكم الملكي ، وأن يبايع السيد ادريس السنوسي ملكاً عليهم . انا لا اعرف الملك الجديد وربما كان من اصلح الملوك ، ولكنني افضل الحكم الجمهوري لأهل ليبية فقد علمتنا الوقائع انه ندر تسلسل الملوك الصالحين في مملكة شرقية او غربية . وعندي انه كان يسع اهل ليبية ماوسع اهل اندونسيا والباكستان والهندستان التي استقلت في العهد الأخير ، ونادت بالحكم الجمهوري كما نادت به المانيا بعد الحرب العالمية الاولى ، واعلنته ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية ونادت به من قبل روسيا والبرتقال واسبانيا ، وارتضته تركيا ورومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا

والبانيا وبورما وسيام واوستراليا وكندا الخ . اي ان الشرقيين والغربيين على اختلاف في درجات تقدمهم لايتخذون لعهدنا عن الحكم الجمهوري بديلا .

لو كان الحكم جمهورياً في ايران والأفغان ماكانتا من الانحطاط على مايقص علينا من رحلوا الى تينك المملكتين . الشعوب تشمئز من حكم الفرد وترتاح الى الحكم النيابي وليست الدول بعد الآن مزارع خاصة للملوك يتصرفون فيها تصرف المالك بمزرعته وزراعه .

كانت الولايات المتحدة بمأمن من فظائع الحروب الى يوم دخلت في الحرب العالمية الاولى ، وجابت بيدها الغوائل على رعاياها . كأنها ما أحبت بعد أن تمت جميع أدوات الحياة فيها الا الجري على خطط الدول الاخرى تربح وتخسر وتقوى وتضعف ، وقتل مئات الألوف من بنيها ، وضياع ألوف المليارات من الدولارات لا شأن له في جانب قول العالم : ان أعلام أميركا تكللت بأكاليل النصر .

قضت انكلترا على الاسطول الاسباني فأصبحت سيدة البحار وتحكمت في مقدرات العالم ثلاثة قرون ، وقضت انكلترا في العهد الحديث على الاسطول الالماني فما ربحت من ذلك الا تأخر اقتصادياتها ، ثم اضطرارها الى الخروج من معظم مستعمراتها .

اعتادت صحف الأحزاب في الشرق والغرب أن تتراشق بالنقد والمطاعن ، وأن تقلب حسنات القابضين على الحكم سيئات . وما كل مايقوله حزب في منافسه أو معارضيه يصح في الواقع . وكذلك كلام المخالف قد لا يخلو من حقيقة ، والحكومة القائمة في العادة تؤثر أبناء حزبها في التعيين والترقية والمكافأة على غيرهم ، ولا تخرج عن نطاق القانون ولو بالصورة الظاهرة . وما كنا نظن أن حكومة الوفد المصري وهي حكومة تتمتع بالأكثرية المطلقة ، ورؤساؤها وأعضاء الوزارة فيها

ومن يتبعهم ويعمل لهم من خير رجال مصر ، ما كنا نظن أنها تغلو في خرق القوانين خرقاً ظاهراً ، وتبالغ في سياسة الارضاء ، تكافيء فتجزل المكافأة ، وتعطي عطاء من لا يدرك قدر المال ، وتسرف على صورة قد تغتفر من حكومة بدوية ، لا من حكومة فيها صناديد السياسة وأرباب الثقافات العالية ، وهم ولا شك يدركون قبل غيرهم عاقبة المسرف بمال الدولة والمسرف بماله الخاص .

روت جريدة « الجمهور المصري » أن محاكم القاهرة نظرت خلال سنة ١٩٥٠ ثلاثة آلاف قضية من قضايا الغش : غش الدقيق والمواد الدهنية والجبن والحلوى واللبن والالكحول الخ .. قالت ان سوس الانحلال والانهيار ينخر في جسد الدولة ، وعللت السبب في أن الوزراء هم من ذوي الاطيان ، ومعظم أعضاء البرلمان من أصحاب العقارات ومن الممولين والمستوردين والمصدرين ومن أصحاب النفوذ ، وأصحاب رؤوس الاموال يسيطرون على الحكومة . وكبار الموظفين هم ذوو نفوذ في مختلف الدوائر الرسمية ، ومن هؤلاء جميعاً تتألف القوة الحاكمة التي تسيطر على مفاتيح الدولة اه . ومن العادة أن أمثال هؤلاء المتغلبين من أرباب السلطان لا يهتمون لغير مصالحهم الخاصة وبقدر ما في مصر شقاء من حيث المجموع تجد فيها سعادة عند الافراد ، فمصيبة مصر مصيبة كل بلد عربي .

يقال لمن يحملون أخطاء الحكومات السالفة على حكومة لاحقة ان اصلاح الأخطاء يحتاج الى وقت . وليس في وسع حكومة مهما بلغ من اقتدار القائمين بها أن تصلح في أشهر قليلة . وما زال الانتقاد أسهل من العمل . ثم ان حكومات قام أساسها على فساد من المتعذر اصلاحها دفعة واحدة ، ولا بد من تجزئة الاصلاح المنشود الى أجزاء حتى لا ينهار الاساس اذا أريد تغييره .

ظهرت في الأيام الاخيرة خيانة عظمى في الجيش المصري اتهم بها عشرات من القواد والضباط واتهم بالاشتراك فيها أحد النبلاء وذلك بأنهم ابتاعوا أسلحة عاطلة استخدمت في حرب فلسطين فكان منها انهزام الجيش المصري أمام جيش اسرائيل . فاكتفت حكومة مصر بأن جردت الجناة من رتبهم وأنهت خدمتهم ولم تقض بالقتل على من كان السبب الاكبر في هذه الخيانة التي سودت صحيفة مصر خاصة وصحيفة العرب والمسلمين عامة .

ربحت سورية أرباحاً عظيمة بالانفصال الجمركي بين سورية ولبنان ، وكان لبنان يستأثر بها فانتعشت الزراعة والصناعة ونمت بذلك الثروة العامة . ويخيّل الينا أنه لا تمضي بضع سنين حتى تصبح سورية بلداً غنياً لا يقاس غناها الماضي على غناها المستقبل . لاجرم أن الامم تغنى كما قال أحد علماء الاقتصاد اذا زادت ربحها ولا تغنى اذا اختلس بعض طبقاتها ربح طبقة أخرى . تغتني اذا باعت كمية أكبر من حاصلاتها بسعر واحد لأنها تكون عندئذ قد أنتجت انتاجاً أكبر وينمو وارد الفقير كما ينمو وارد الغني ولا يربح الغني مايضيعه الفقير .

أحصيت وأحد أصحابي من تخرجوا في الادارة والسياسة من أبناء سورية في المدرسة الملكية في استانبول أواخر العهد العثماني ، فكان عدد من سلم من نوابغهم من وصمة الرشوة نحو عشرة في المئة وهم مدينون باستقامتهم لأهلهم . وتلوث بعض مقتدريهم ومتوسطيهم بالرشا تلوثاً شائناً . ونظرت نظرة اجمالية فيمن درسوا في المدرسة الحربية العالية في الاستانة ايضاً فرأيتهم لم يفلحوا في الاعمال المدنية وهم معذورون لأنهم لم يألفوها ولم يتعلموها ، وما أدري ان كانوا أفلحوا في الجندية لأني شاهدت الدولة في أيامهم تخرج من هزيمة الى هزيمة وما شهدت لهم نصراً الا على الرعايا اذا ثاروا وهم عزل من السلاح .

يقول العارفون ان كل ثورة تبدأ بها طائفة من الخياليين ثم تتولاها طائفة من المخربين ثم تنتهي بحكم طاغية . والظاهر أن بعضهم رأوا نجاح الثورة السورية الاولى على الطغيان فحاولوا القيام بثورة ثانية وما أدركوا أن مثل هذه الثورات اذا لم تكن الامة في حاجة اليها محكوم عليها بالفشل ، والنفوس في العادة تميل الى الاستقرار ولا تميل دائماً الى الضرب والقتل .

ملكة الانشاء

كان من دأب أحد الوزراء المتأدبين كلما جمعتني به المصادفة أن يسألني عن الطريقة التي سلكتها حتى كان لي هذا الأسلوب في الانشاء ولا يتمالك من التصريح بالاعجاب به ، على ما عرف عنه من الهزوء بالعلماء والأدباء والزراية بما يؤلفون وينشرون . فكنت أقول له : ربما كان للدوام على المطالعة ومعالجة الموضوعات المختلفة بالكتابة مدخل في تكوين الأسلوب يضاف اليها ثلاث ثقافات عربية وافرنسية وتركية ، والتمرين الطويل من أهم العوامل في هذا الباب . فكان سائلي لا يرضيه جوابي ويعتقد أن هناك سراً لا يوافقني أن أبوح به ، فكنت أضحك وأقول : لو كانت لي طريقة خاصة ما اهتدى اليها أحد لبادرت الى نشرها على الناس حتى يعم استعمالها ويأخذ بها من يود أن يأخذ . أما هو فكان يمتعض امتعاض من يحاول استخراج سر فيمتنع عليه ، ولطالما ورّى بأني ضنين لا أحب أن أشرك أحداً بأسلوبي . وكأن هذا الوزير الحريص على تقوية ملكته كان يعتقد أن الآداب كالسياسة منها ما يكتم ومنها لا بأس به أن يعلم .

كنت في محاولة الوزير انتزاع ما يزعم أني أخفيه عنه أفيض تارة واقتضب أخرى ، والجواب واحد لا يتغير وهذا ما كان يسوءه ويزيد

في سوء ظنه . وذكرت له مرة كيف تعلمت ، وما كانت المجملات مما ترضيه بل كان هواه في التفصيل وأخذ الفائدة في دقيقة . فقلت له اني أتلو القرآن بتدبر ، قرأته على أساليب مختلفة لتفهمه وتمثل بلاغته واني طالعت طرفاً صالحاً من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة وحفظت المعلقات السبع وطرفاً صالحاً من دواوين العرب وحفظت نحو نصف ديوان المتنبي ، وعدة قصائد لعمر بن أبي ربيعة والبحتري وأبي تمام والرضي وابن الرومي والطغرائي والأرجاني والمعري وعلي بن عبد العزيز وغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين . وتدارست الكامل للمبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والتاريخ اليميني للعتبي والمثل السائر لابن الأثير . واستظهرت أشياء كادت تفسد عليّ ملكتي مثل بعض مقامات الحريري ورسائل الهمذاني ومقاماته ورسائل الخوارزمي وبديعية النابلسي . وما أخرجني من تكلف النسج على منوال المتأخرين ، كالقاضي الفاضل والصابي وابن الأثير الا الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي . اما ما وصل اليّ مما كتبوه وكتبه أمثالهم من السهل الممتنع فقد قرأته مرات ولا أزال أقرؤه . ولا يتيسر هنا سرد أسماء ما طالعت من الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة ، وما نظرت فيه من أسفار العلماء الذين كانت لهم يد باسطة في الكتابة الرشيقة أمثال ابن حزم والغزالي وابن قتيبة والطبري والمسعودي والدينوري والباقلاني والماوردي والزمخشري والراغب الاصفهاني والميداني وأبي الفرج الأصفهاني وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن خلدون .

هذا اجمال ما يقال في المادة التي تخرجت بها لتقوية ملكة البيان . ولطالما سمعت بعض أساتذتي يقول ان أسلوب المرء يخترعه صاحبه لايقتبسه عن غيره ولا ينقله من كتاب فهو ابن مزاجه وتربيته وبيئته وذوقه وفنه . وهذه المادة التي درستها يصل اليها كل مجتهد ويتمثلها الذكيّ الأديب بيد أنها لا تعدو الألفاظ غالباً ، والعبرة بالتراكيب ، والتراكيب ابنة من يصوغها ويزيدها جمالاً علم الكاتب ووفرة اطلاعه . ولا تجود

الكتابة بما تحمل من الألفاظ بل بما تنطوي عليه من المعاني والتلطف في أدائها واطراح التكلف ، وأهم ما تتوقف عليه الاجادة في الانشاء عدم الخوض في موضوع لم يدرسه الكاتب ولم يأخذ من نفسه . والمعاني اذا تجمعت في الذهن لا تعدم قالبا مقبولاً تظهر به ، وهذا من السهل على من كان له نصيب وافر من اللغة .

ويجاب من يحاول سرقة الأفكار بأهون سبب ان من المستحيل على من درس العربية سنين محدودة في المدارس الرسمية ولم يمض له الوقت الكافي حتى يتخرج في الانشاء بأستاذ من كبار أساتذة هذا الفن أن يلحق بمن صرف عمراً طويلاً وهو يطالع ويكتب ويتمرن .

الرجوع الى الصواب

بقدر ما أحسن أتاتورك (مصطفى كمال) الى تركيا بجمع شملها والنهوض بها أساء اليها عندما حاول القضاء على لسانها وخطها ومدنيتها القديمة ، وتتريك كل شيء فيها حتى الاذان والخطبة والصلاة والقرآن . وكان يرجى من خلفه عصمت اينونو أن يعيد النظر فيما ابتدعه الرئيس السابق من الأوضاع المعوجة ، ويرجع الأتراك الى ما كانوا عليه من الاعتماد على اللغة العربية في شؤونهم الدينية ، ولكنه ماشى الكماليين فأبقى كل شيء كما كان وضعه الرئيس الأول .

ولقد أشرنا في هذه المذكرات الى ما ارتكبه الكماليون من محاربة العربية والعطف على كل لغة من لغات العالم ما عداها ، وقلنا ان الزمن سيفصل في هذه القضية ، وها قد حققت الأيام ظننا بعض الشيء وعاد الأتراك الى اقامة صلواتهم وأذانهم باللغة العربية .

ومما يؤثر أن المجلس الوطني في أنقرة عاصمة تركيا الجديدة ، وبعض أعضائه على دين رئيسهم أتاتورك ، لما عرضت عليه مسألة الرجوع الى

العربية في العبادات وخاف أنصار القديم أن يغلبهم المحدثون قام أحد أعضاء المجلس يؤذن بالعربية فأسكتوه وتبعه ثان فتابع ما بدأ به الأول فأسكتوه ، ثم نهض ثالث فأتم الأذان الى آخره . . فتكهرب المجلس وقرر في الحال اعادة اللغة العربية الى تركيا على النحو الذي كانت عليه منذ ستمائة سنة وعلى الطريقة التي جرى عليها المسلمون بأسرهم منذ قام الاسلام. وأصبحت جرائد تركيا تجاهر بتعلم العربية قائلة انها أحق بالعناية من اللغة اللاتينية وهي الأصل المهم من أصول اللغة التركية وبها كتب الكتاب العزيز . سبحان محول الأحوال لا يبقى الا الأصلح والأنسب ، ويتوقع كل ساعة القضاء على ما يخالف العقل مهما أتى عليه من الزمن .

حرية الكلام

كتب الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الزيات الوزير يقول سمعت بأن شعراً قد رفع اليك فيه عيب لك ، ونقد لبعض عمالك ، فغضبت له وضقت به ، وأمرت بالبحث عن قائله ، لتذيقه غضبك ، وتصب عليه عذابك ، وتعلمه عاقبة طيشه ، ومغبة استخفافه بالسلطان ، واجترائه على الحكام . ثم لم يكفك ذلك ولم يقنعك ، فأمرت أعوانك من الكتاب والعمال أن يتقدموا الى أصحاب الشعر المنظوم والكلام المنثور ، والى ذوي الأقلام المشرعة ، والألسنة المنطلقة ، ألا يذكروك فيما ينظمون من شعر أو يكتبون من نثر ، أو يديرون من حديث ، الا بالخير ، وان جنح منهم عن ذلك جانح ، وانحرف منهم منحرف ، فان السجن له مهيأ ، والعقاب له مرصد ، والعذاب عليهم محتوم . قال : وأنت بعد ذلك لا تستطيع أن تعقل الألسنة المنطلقة ، ولا أن تحطم الأقلام المشرعة ، ولا أن تمنع القلوب من الشعور ، والعقول من التفكير ، فدع الناس وما يشاءون أن يقولوا فيك من الخير والشر ، ومن الحمد

والذم ، وانتفع من ذلك كله في اصلاح نفسك ، وفي تجنب ما يشينك الى ما يزينك اهـ .

وبهذا ألقى الجاحظ على أعظم وزراء عصره واعلمهم درساً في اطلاق الحرية للناس يقولون ما يشاءون ، وليس له هو الا الانتفاع من ذلك في اصلاح نفسه . ودعاه الى امتاع الناس بحرية الكلام مبيناً له مغبة منعهم منها وأنه ليس له أن يكم ألسنتهم لحظ نفسه ومجاراة هواه .

وتنطوي هذه النصيحة الثمينة على معنى جليل وهو أن ابن الزيات على جلالة قدره وسمو منزلته في الدولة ليس في وسعه أن يحول دون الناس وألسنتهم ، وواجبه اذا كان ما يقال فيه حقاً أن ينزله منزلته من الاستفادة ، وان كان غير صواب أن يرمى به عرض الحائط . والسفيه الذي يتقول على عظيم اذا رأى منه اعراضاً وأنه لا يهتم للأقوال الصادرة عن هوى يضطر بعامل الملل الى أن يكف عن هجائه وأذاه .

ولقد رأينا من غرام الملوك والكبراء بالمديح ما أدى الى أن جلب لهم القدح والذم أيضاً ، ولو لم يحرصوا كثيراً على المدح لما كان شأن لما هجوا به ، واذا لاحظ الهجاؤون أن هجاءهم مما تنخلع له قلوب المهجوين زادوا وأفرطوا ، واذا أيقنوا أن صاحب النفس العظيمة لا يأبه كثيراً لما يقال فيه يحاذرون صرف أوقاتهم فيما لا يجدي عليهم . وقد رأينا العلي المنزلة النزيه في ذاته لا يعبأ بثرثرة الثرثارين مدحاً كان أم قدحاً . ورأينا هذا الضرب من الاقوال خفّ الاهتمام به في عهدنا ، لأن الناس تعلموا والمتعلم يخجل أن يصفق للباطل وأن يهرب من الحق .

الحكومة التاجية

أرادت حكومة السيد تاج الدين الحسني أن تنشر كتاباً في المشاريع التي تمت في أيامها وعهدت الي بتأليفه ، فتوخيت أن أدعم الأقوال بالأرقام الصحيحة وأبتعد عن الخيـــال والدعوى التي لا تثبت . وصدر الكتاب باسم « الحكومة السورية في ثلاث سنين » : (من ١٥ شباط ١٩٢٨ الى ١٥ شباط ١٩٣١) فتألم رجال الكتلة الوطنية وحاولوا بكل قوتهم أن يضعفوا من عمل الحكومة .

وقد قدمت للكتاب تمهيداً هذا نصه : لما استلمت الحكومة السورية الحاضرة زمام الأمر قدرت عظم التبعة الملقاة عليها ، فرأت من واجبها معالجة مشاكلها بالتؤدة والحزم لاعـداد أسباب الراحة للسوريين وانقـاذ البلاد من وطأة الأزمة الاقتصادية التي كانت الدولة تتقاذف في غمرتها ، فبدأت بتوطيد الأمن وعمدت الى الضرائب والتكاليف فخفضتها ونظمت طرق الجباية وضاعفت الهمة في ذلك خصوصاً عندما شاهدت رداءة الموسمين الاخيرين ، وكان المحصول في الاول قليلاً والأسعار في الثاني متدنية . وكافحت الحشرات الزراعية التي كانت تعبث بالغلات منذ سنين . ثم كان انتشار الجراد في ربيع سنة ١٩٣٠ فكافحته مكافحة عز نظـيرها وأتت عليه بكل ما لديها من قوة حتى أنقذت المواسم وحفظت الاشجار من التلف . ولما تحقق لها بؤس حال الفلاح أعطته مبالغ كبيرة يستعين بها على تقـويم شأنه وأمهلته في أداء الديون والضرائب المستحقة ، ومنها ما أسقطت عن المكلفين بعضه ، ومنها ما سامحت به كله ، واحتفظت بحقوق الدولة بالنسبة لسائر البلاد المشمولة بالانتداب ليحصل التوازن المعقول بين الغنم والغرم في باب المصالح المشتركة ، ولئلا تضطر الى الاقتراض لتعد موازنة يتلاءم خرجها مع دخلها .

ونشطت الحكومة الصناعات الوطنية ورخصت بتأسيس مصرف صناعي واعفت المواد الاولية من الضرائب والرسوم . حتى نشأت في المدن صناعات قلات من الواردات الاجنبية ما امكن . وساعدت على بعث الصناعات الوطنية من مرقدها . وكان المعرض الذي اقامته بدمشق في صيف ١٩٢٩ نموذجاً ناطقاً بتقدم البلاد من هذه الناحية . وبذلك هيأت أسباب الرزق للسكان بحيث لا تكاد تجد عاطلا عن العمل ، في هذه الازمة العالمية الشديدة التي اضطربت بتأثيراتها أرقى بلاد المدنية ، ونال من في جوارنا من الاقطار والاصقاع نصيب وافر منها أمست معه بلادنا بالقياس الى جيرانها في رخاء ودعة . ويرجع معظم السبب أيضاً في تخفيف ويلات الضائقة المالية الى ما صرفته دولة سورية من الاموال الطائلة على أعمال العمران . كانشاء الطرق المعبدة لتكثير أسباب المواصلات بين البلاد ، وهي تنفق على هذا الفرع مبالغ لا يستهان بها تصرفها من موازنتها السنوية راضية مختارة ، لأنها بعملها هذا تعمر البلاد وتحدث مرتزقاً للطبقات التي تتوقف حياتها على عملها اليومي . وبهذا اتصلت المدن بشبكات من السكك المعبدة . ولا تزال الهمة مصروفة الى انجاز طرق القرى لربط امهاتها بالحواضر ومراكز الأقضية والنواحي ليستطيع المزارع أن يحمل حاصلاته الى الاسواق الكبيرة على أيسر وجه .

وسعت في انعاش البلديات وأقرضتها اموالاً لجلب المياه النقية ، وتنظيم المدن والدساكر على أحدث طراز يضمن راحة السكان والمختلفين اليها فلبست أكثر المدن بل القرى الكبيرة حللاً جديدة . ولا تمضي سنون قليلة حتى تنزع عنها ثيابها البالية الرثة ، ويصيب من هذا المعنى قسط من العناية امهات القرى التي أخذت تنشيء مجالس بلدية .

وعنيت الحكومة عناية خاصة بالصحة العامة فأنشأت عدة مستشفيات ومستوصفات وأقامت الأطباء في الأصقاع التي كان الناس فيها محرومين عناية من يطببهم ويرعى صحتهم . وأخذت تنشر بين الطبقات النازلة فائدة الاستشفاء

على أيدي الطبيب بعد أن مضى عليها قرون وهي لا تلجأ في تقويم أبدانها الى غير الدجاجلة ، واهتمت بمياه الشرب فأسالت الى بعض المدن والقرى الصالح من الماء للاستعمال فزادت المواليد وقلت الوفيات ، ولا تقدر الزيادة في عدد السكان كل سنة عن ستين الف نسمة . وجففت بعض المستنقعات المضرة وغرست عليها الأشجار لتحسين الهواء والزينة، وأنشأت دوراً للحكومة ومخافر لرجال الأمن ومدارس لتلقين العلم ، وجسوراً للتيسير على أبناء السبيل ، واستكثرت من الاسلاك البرقية والهاتفية لتربط أجزاء البلاد بعضها ببعض .

ولقد نشطت الزراعة الى الحد الذي ساعدتها عليه أسبابها المادية والفنية فأدخلت أصنافاً جـــديدة من الزروع والاشجار . واهتمت بالصناعات الزراعية ونشر الادوات الحديثة والاسمدة الكيماوية . وعملت على زيادة رأس مال المصرف الزراعي وتسهيل اقتراض الفلاح منه بفائدة معتدلة مما ستجني البلاد فائدته عاجلًا أو آجلًا ، ومن جملة الدواعي التي حملتها على الغاء نظام حصر الدخان ووضع نظام الاطلاق أي حرية زراعته وصنعه والاتجار به ، انشاء زراعة رابحة في أرض الدولة كانت في حكم العدم من قبل ، ونعني بها زراعة الدخان على أنواعه ، وايجاد موارد جديدة من الارتزاق تأتي من صنع اللفائف ، وما تفتح هذه التجارة للناس من أبواب الربح ، فألفت لذلك الشركات وبدأت المنافسة بينها بما يُنتج تحسين هذا الصنف لما فيه فائدة المستهلك والمستحصل . وقد زادت واردات الدولة بهذا النظام الجديد الى أكثر من ضعفين ، استطاعت الحكومة معه تخفيف العشور والخراج وغيرها وهي تفكر في الغاء الاعشار والاستعاضة عنها بخراج مقبول ، يقلل مشاكل الفلاح ويضمن له عيشاً فيه بعض الرخاء . وكانت الحكومة أبداً في سياستها الاقتصادية ترمي الى تنويع الانتاج والاكثار منه الى أقصى حد ممكن ، والى القصد في طرح الضرائب وانفاقها في وجوه تأتي بفائدة مثمرة في الجملة .

ولهذا الغرض انشأت لاول عهدها ادارة الري وآمدتها بالمال اللازم لها وقد ظهرت تباشير أعمالها في بعض الاصقاع . والمأمول أن تحيا بالري مئات الالوف من الافدنة تروى من الانهر العظيمة التي تجري بقربها كالفرات ودجلة والخابور والبليخ وجغجغ وعفرين والعاصي والاعوج وبردى أو من الاقنية المخزونة مياهها في جوف الارض ، وكانت مهملة لا ينتفع بها ، أو بواسطة السدود القريبة المأخذ أو من رد المياه الطاغيـة على أرض للاستفادة منها في أخرى محرومة ، كما هو الحال في بحيرتي العتيبة والهيجانة . وسيزيد في المستقبل القريب ربح الاهلين من ذلك فلا يضطر بعضهم الى الهجرة ، والذهب مكفول للعامل على سطح أرضه . وبعض هذه الاعمال في السقيا مما يساعد على تحضير البدو ، لا سيا بعد ان شرع بانشاء آبار لهم في الفلوات البعيدة وظهرت آثار الارتفاق بها واضحة جلية ، وهذه الآبار تساعد ولا شك على تعهد المواشي والاستكثار من انواعها الصالحة في سهول تنبت اجود الاعشاب ومناخها في الغاية من الملائمة لتربية الماشية ولا ينقصها الا ماء طاهر لشرب القائمين على استدرار خيراتها .

ومما تذرعت به الدولة النزول عن املاكها بالتدريج فباعت في المدن ما لا حاجة لها به وتبيع كل سنة عشرات من القرى من النازلين فيها أهل الزرع والضرع بأسعار متهاودة . تتقاضى اثمانها على نجوم وتقاسيط وذلك لتنشيء الزراعات الصغيرة وتوفر موارد العيش لمن كانوا فيما سلف أشبه بالمتشردين وستعطي جانباً من الارض القريبة من البوادي مما تراه صالحاً لنزول العشائر الرحالة وانصاف الرحالة .

ولقد أيقنت الحكومة أن نشر التعليم الابتدائي في المدن والقرى وبين القبائل هو العامل الأكبر في النهوض بالدولة فوجهته وجهة عملية على اسلوب يختلف بعض الاختلاف في القرى عن المدن وفي تعليم الذكور عن الاناث ، ولم تغفل التعليم الثانوي والعالي والصناعي والتجاري والزراعي

وعنيت كثيراً بدار المعلمين والمعلمات وخرجت عشرات في مدارس فرنسا العليا ليجيء منهم أخصائيون في العلوم والفنون . فجبرت بذلك بعض النقص الذي كان محسوساً في صفوف الاطباء والصيادلة والحقوقيين والمهندسين والماليين والزراعيين والأساتذة على اختلاف فروعهم ، ولا تزال عاملة على املاء الفراغ الماضي برجال يأخذون العلم على أحدث الطرق العصرية ، ولم تضن في هذه السبيل بالمال فضاعفت في عهدها موازنة وزارة المعارف فكانت سياستها في التعليم محاربة الجهل والامية وتثقيف فئة صالحة من أرباب الكفاية لممارسة الأعمال الحرة وتولي الادارة والحكم والتعليم والتنظيم .

وكان من عمل الحكومة في تصنيف الموظفين أن أخرجت من الخدمة عدداً غير قليل واستعاضت عنه بعناصر صالحة من أبناء البلاد المتعلمين . فانتقلت الأعمال الحكومية أو أكثرها الى أيد تحسن العمل بنشاط ومعرفة ونزاهة ، مع ما هناك من مراقبة وتفتيش . فأمن الصالحون من العاملين على حاضرهم ومستقبلهم ، وأصبحوا ونظامهم الخاص يحميهم لا يخافون الا من أنفسهم أو يوم يخالفون القوانين المرعية ، ويعبثون بمصلحة الأمة . فقد حظرت عليهم مثلا الاشتغال بالسياسة ليصرفوا أوقاتهم في تجويد عملهم الخاص ، وتركت الاحزاب يستمتع القائمون بها بحرياتهم كاملة . على أن لا تخرج عن مضامين القوانين ولا تخل بشيء من أسباب السلام العـــام .

وقد وسعت الحكومة سلطة رجال الادارة في الألوية والأقضية وسنت نظام التقاعد فحفظت به حقوق المتقاعدين وضمنت لهم مستقبلهم ومستقبل عيالهم . وساعدت ادارات الأوقاف على استبدال الوقوف لتغدو ملكا صرفاً لأربابها لا ينازعها فيها منازع . فالتفتت الاوقاف الى توفير ريعها من أملاكها ، وبذلك قامت في دمشق وحلب مبان عظيمة للأوقاف كانت مثالاً جميلاً في باب الهندسة والاستغلال . ونظرة عجلى

على المحاكم والدرك والشرطة ودور الحكومة والقضاء في العاصمة وأعمالها يدرك بها الفرق الواقع بين الامس واليوم في التنظيم والتقنين وفصل القضايا وطرق التعليم والتمدين .

وقصارى القول ان البلاد دخلت في طور تجدد محسوس واخذت بالاساليب الحديثة في نشوئها وارتقائها ، وانشأ الاهلون يحسون بان السكينة مستقرة وان الحكومة عاملة على احقاق الحق بينهم وانها توفر لهم ماوسعتها قوتها اسباب الاعمال والاتجار . ومن ذلك ما اتخذته من الاسباب الكثيرة لراحة السائحين والمصطافين للاستمتاع بهواء البلاد ومشاهدة مصانعها وعادياتها ، ومنها درس مشاريع الكهرباء في بعض المدن الصغرى بعد ان جعلت الحظ الاوفر من ذلك للمدن الكبرى ، ومنها مشروع الترامواي والكهرباء في حلب وحماة وحمص وانطاكية ومعاونة الحكومة شركة الجر والتنوير في دمشق لتمدد خطوطها من غرب المدينة الى شمالها الشرقي وتتوسع به نحو ثلاثة عشر كيلومتراً حتى يبلغ قصبة دوما فيعد بعد ذلك قسم من الغوطة الشمالية في جملة احياء مدينة دمشق .

والحكومة تدرس الآن شروط شركات اخرى لانشاء خطوط حديدية تصل بين الساحل واقصى حدود الدولة من الشمال الشرقي الى غير ذلك من المشاريع التي قد لايظهر اثرها الآن والقصد منها استخراج خيرات الارض وتقريب الابعاد وتيسير المواصلات وفتح منافذ العيش لمن يحبون ان يعتاشوا بكدهم ، وتعليم الناس اصول التآلف والاجتماع ومن ذلك انها هيأت طرق العمل لنقابات الحرف وغرف التجارة والزراعة في المدن ، وكثيراً مانزلت على رغائب القائمين بها حتى احسّ القوم بما ضمن لهم من حرية العمل ان كل صوت يرتفع بالحق للحصول على ماينفع يسمع لصاحبه ، وان كل انسان في صعيد هذا الوطن هو شريك متضامن مع جاره ، ونهوضه مناط النهوض ببلاده وسعادته تنبعث من سعادتها . ومن اجل هذا لم تدخر الحكومة وسعاً في معاونة الجمعيات الخيرية على

اختلاف مقاصدها ومدت يد المعونة للمدارس الوطنية والطائفية والاجنبية ناظرة الى مصلحة البلاد قبل كل مصلحة .

وفي الصفحات التالية صورة اكبر من هـذه الصورة المصغرة تمثل ماقامت به الحكومة من الاعمال التي تعد نفسها سعيدة بتحقيقها . وترى من واجب الانصاف ان تذكر بالخير عمل حضرات المستشارين الفنيين الذين آزروا الحكومة الوطنية احسن مؤازرة بفضل مايستمدونه من روح صاحب الفخامة المسيو بونسو المفوض السامي في سورية ولبنان وما يصدرون عن آرائه الصائبة في المسائل الجوهرية . والله المسؤول ان يوفقنا الى خدمة الوطن العزيز لتقوم دعائم مجده الحاضر كما كانت دعائم مجده الغابر على الاوضاع الرشيدة التي يرضى عنها كل صادق الوطنية اه .



عزة العلماء

كان العلامة سعيد الاسطواني قاضي دمشق من كبار علماء عصره مشهوراً بالتقوى والصدع بالحق ، وهو صاحب الخزانة العظيمة التي أحرقت في حريق سوق الحميدية وكان فيها من الامهات المعتبرة الشيء الكثير . وشغر في بعض أيامه منصب افتاء دمشق وكان السيد الاسطواني في رحلة له الى حمام آبي رباح في جبل قلمون يصحبه قريبه الاستاذ عبد المحسن الاسطواني فقال له هذا : اني مستغرب تركك دمشق في هذه الآونة ووظيفة الافتاء شاغرة وأنت بها أحق المطالبين بتقلدها . فأجابه ان فلاناً وفلاناً من المقدمين في الحكومة كانا يقفان على الاقدام أمام الوالي ساعة وأنا أوقع الاوراق الرسمية كبعض المستخدمين العاديين وأصبحا الآن يقدمان ويؤخران في أمور الولاية ورجالها فأنا غير مستعد لأن أرفعها على كتفي حتى يرضيا عني ويساعداني على أخذ الافتاء . وكان لمنصب افتاء دمشق مكانة معنوية يجيء المفتي بعد الوالي في المرتبة . وهذا مثال من عزة نفوس العلماء .

لباس الرأس والبدن

من أضحك ما في الشرق العربي تخالف أهله في لباس الرؤوس وكسوة الأبدان ، لا يكاد يشبه قطر قطراً ولا مدينة مدينة ولا قرية قرية . وعلى كثرة المتفلسفين في الدول العربية لم يفز العرب الى الآن بتوحيد لباسهم اللهم الا في جزيرة العرب وما اليها من الأقاليم ، فان معظمها اعتمد من القديم على الكوفية والعقال والعباءة كما اعتمد عليها سكان الريف في الشام والعراق ومصر . احتفظت هذه الأقطار بهذه الكسوة مئات من الأعوام وما أدخلت عليها تعديلا لملاءمتها هواء أرضها في صيفها وشتائها . أما لباس الرأس في المدن فانواع وأشكال . واتجهت النفوس في الأيام الأخيرة الى استعمال القبعة الافرنجية فحاذر ولاة الأمر في مصر اثارة ثائرة المتعصبين اذا أجازوا لبسها فاضطروا الى العدول عن هذا الرأي . مع أن اللباس من العادات ، وما كان له يوماً اتصال بالدين ، والعرب حتى في عصر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام كانوا يكتسون الكسوة التي يجدونها وتكون مما يقيهم الحر والقر . وثبت أن الرسول نفسه لبس ألبسة كانت مما يلبسه الروم .

أما أكسية البدن في المدن العربية فأشكال وألوان أيضاً ، منها ما يقرب من لباس الغربيين كالسراويل والمعاطف ومنها مايشبه ألبسة المنامة وثياب التبذل وكلها مما يمكن توحيده ، وفي توحيده الراحة للّابسين واقتصاد محسوس .

الشعر الرمزي

تهوس أحد المتمصرين منذ سنين ، وهو دكتور في الآداب على ما يدعي ، فنظم شعراً مجرداً من الأوزان والقوافي ومن المعاني والخيال سماه الشعر الرمزي . وما عتبي عليه للمناداة على شعره في سوق الكساد فالمرء مفتون بشعره ، ولكن العتب على بعض رجال الصحافة الذين يتولون نشر هذا الهذيان المؤذي الأذن المفسد الذوق . قرأ له الناس عدة قصائد فخرجوا منها بلا محصل وأظنه هو لا يستطيع أن يفسر ما كتب . ما أغرب حال طلاب الشهرة وبخاصة اذا حرمهم الفاطر معظم الأسباب للوصول اليها .

جريمة لا تغتفر

ارتكبت جريمة لا تغتفر في نظر صاحب الجمهورية فقلت في كتابي « دمشق مدينة السحر والشعر » ما فحواه ان الثورة السورية أضرت بنا فتوقفت الأعمال وخربت البيوت وهلك الناس وأن الثورات تضر أكثر مما تنفع ، فغاظ الرئيس قولي لأني ما لاحظت أنه ثائر ومن أنصار الثورة ، فآخذني على ما صرحت به بواسطة رئيس ديوانه . فقلت له : أمامكم أمران تعمدون الى أحدهما فاما أن تردوا على ما كتبت في الصحف ، تنقضون رأيي في الثورة والثورات ، واما أن تعرضوا الأمر على القضاء فيحكم عليّ بما جنيت . ثم ان ما صرحت به من هذا الرأي في مضار الثورات قال به بعض علماء الغرب ومنهم الحكيم غستاف لبون .

وما كان من الرئيس على عادته مع من يغضب عليه الا أن سلط

عليّ بعض الصحف الدمشقية الناطقة بلسانه والمتغذية بمعوناته وانعاماته ، تتهكم بي وبآرائي . واسترسل أتباعه في هذيانهم أياماً ، وما ذكرتني من قبل جريدة عربية بمثل هذه السلاطة . وهكذا كان الرئيس يتشفى ممن لا تروقه أفكاره ، يؤدب بلسان أتباعه كل من لا يقول بقوله ليحملهم على مشاركته رأيه بالقوة . يسلط السفهاء على الشرفاء وهذا من باهر سياسته .

عاطل ومعطل

في العادة أن من لا يحب العمل يثبط العاملين حوله . نبغ في القرن الماضي في دمشق رجل من أولاد التجار ، طلب العلم وظهر نبوغه فيه ومالت نفسه الى التأليف ، أواخر العقد الثاني من عمره ، فبلغ شيخه ما يحاوله فقرّعه على جرأته فلم يعبأ بتقريعه ، ودام على ما أخذ من نفسه ، فجاء منه فقيه عدّ من أعظم فقهاء الملة وهو لم يبلغ سن الكهولة ، عنيت العلامة السيد محمد عابدين صاحب الحاشية ، وعليها المعوّل في الفتيا في بعض بلاد الاسلام اليوم .

ونشأ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وفي دمشق أيضاً رجل درس العلوم الاسلامية وزاد عليها شيئاً من العلوم العصرية ، وبدا له أن يؤلف فألف رسالة وهو في الثامنة عشرة وعرض ما ألف على شيخه فغضب وقال هازئاً به : لم يبق الا أنت حتى تؤلف . فانقطع الطالب وقطّع ما ألفه ، وبقي ممتنعاً عن التأليف الى آخر حياته ، لم يكتب فيه الا ما لا بال له . وهذا هو الاستاذ سليم البخاري . وكان رفيقه الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري يقول : ان انقطاع الاستاذ البخاري عن التأليف خسارة ولو اطرد عمله لكان مؤلفاً ينتفع به .

وكان الشيخ طاهر ينشط المؤلفين الناشئين على التأليف والنشر واطالما أخذ بأيديهم في مصر والشام . وهذا هو الفرق بين عقليته وعقلية معاصريه ومن سبقوهم من المشايخ . وهؤلاء كان همهم مصروفاً الى معرفة القواعد وحل عبارات الكتب التي يتدارسونها ، وما كتب لهم أن فكروا في العمل بها على مايجب . ويزيدون الى ذلك سيئة أخرى وهي قطع الناس عن الخروج على مألوفهم .

الطيب والخبيث

كثيراً ما رجوت بعض المتسرعين في أحكامهم ألا يجروا نقدهم بصورة عامة ، وأن يخصوا بانتقادهم الفرد لا يؤاخذون المجموع بما ارتكبه واحد أو آحاد ، وأقول ليس المعيار في الرجل مذهبه ولا بلده ولا جنسيته وما المعيار الا أخلاقه ، والأخلاق تختلف في رجل رجل كما تختلف صور الآدميين . وأضرب مثلا لذلك بشاعرين معاصرين أحدهما نجفي عراقي والثاني عاملي شامي . هاجر الأول الى الشام فأكبر الشاميون أدبه وأخلاقه وكثر أصحابه ومريدوه في كل بلد نزله ، وكان اذا وافى مجلساً ودّ جلاسه لو أطال جلوسه ليمتعهم بحديثه ويطربهم بنفثات شعره

وكان الثاني اذا دخل مجلساً تنقبض النفوس منه لأنه جاسوس لدولة أجنبية والجاسوس مكروه بالفطرة فكيف اذا كان يجادل فيما لا يعلم ويطعن برجال الاسلام ، ولا يخجل من التدخل فيما لا يعنيه ، وكان ثقيل الظل اذا اختلف الى مجلس يضيع أوقات أهله بمماحكاته ، ومن عادته أن يسأل كل من تقع عينه عليه عن الأخبار ، ويحاول كشف خبيئات النفوس . الأول أجمع على حبه كل الطوائف والثاني تكرهه حتى طائفته .

اجتماعيات

من يطلب اماناً من الدهر كان كالذي يطلب ان تطلع الشمس ويغيب القمر بأمره .

لاتخطب فتاة الا بعد تقصيك أخبار أمها وجدتها ، حياة الفتاة تكملة حياة أهلها .

عدّ من يكذب عليك أنه يحتقرك ، والأمثل بك مع من كانت هذه حاله ألا تسمعه كلامك ولا تريه وجهك .

ماأضيق عقل من يكذب عليك كذباً ظاهراً ، وهو عند نفسه أنه يخدعك .

الخلوة بغير المحارم فتنة ، ان دعت الدواعي الى الاجتماع بالنساء في معزل ، فليكن ذلك بحضور أهلهن وأزواجهن .

خلاصة ما توصف به التربية الانكليزية والتربية الفرنسية أن الشاب الانكليزي يتعلم مسائل قليلة ويتمثلها فتعده للحياة خير اعداد من أول يوم يدخل في معتركها ، والفرنسي يتعلم أشياء كثيرة ويحفظ ما لا يلزمه ، ولكثرة ما يحشو رأسه من المعلومات تضعف فيه ملكة الابداع . ومتى جنح الفرنسي للعمل بعد الدراسة الطويلة لا يدري من أي يبدأ ، وما يبدأ الا من حيث ينتهي الانكليزي . وهذا سر تفوق التربية الانكلوسكسونية على التربية اللاتينية .

خلو مجالس الرجال من النساء نقص في شروط الاجتماع ، والمجلس المؤلف من احد الجنسين فقط مصاب بالجمود .

من بعض انحطاط المسلمين خروجهم في الحجاب عن هدي الشرع وسنة قدماء العرب ، وأخذهم بمصطلح الأعاجم المشارقة .

راقتني كلمة لشيخ شيوخ الأزهر عند كلامه على الصيام في رمضان . قال : ان من يفطر ويقول فطرت لعذر مشروع يقدره هو نفسه أفضل عند الله ممن يكذب ويدعي انه صائم .

لا تحرم نفسك اللذات المحللة . اذا ابتليت بما يحرمه الشرع وينكره العقل فأقلل منه جهدك .

متى عودنا أولادنا كراهة الكلام البذيء بخف ما نسمعه من بذاءات ، ومتى دربناهم على النفرة من الكذب لا يجد الباحث بعد جيلين أو ثلاثة كذاباً ولا بذيء اللسان .

ما قيمة الحكومات الدستورية اذا عهد بتطبيق قوانينها الى أناس لا ترتقي عقولهم عن عقول العوام : الاوضاع أوضاع الخاصة، والعامية هي الحاكمة المتحكمة .

مأتم الى عرس ، بكاء الى ضحك ، بؤس الى نعيم ، فقر الى غنى . هذا تعريف الحياة الدنيا .

كانوا يقولون لا تخف الا من صاحب الكتاب الواحد ، لاحكامه غالباً كل ما فيه . ولا يكتفي طالب العلم في عصرنا من الكتب بعشرات المجلدات على حين لا يستحضر في ذهنه جزءاً صغيراً مما حوته ، ولهذا عمد الغربيون الى الاستكثار من الجزازات والفهارس المرجوع اليها عند البحث ، حتى كاد العلم ينقلب الى جزازات وفهارس .

اتفق أن رأس أحد المجالس النيابية أعلم الأعضاء ، فلما غاب ناب عنه أجهلهم ، وفي قانونهم أن يرأس في غياب الرئيس الأصيل أكبر الأعضاء سناً ولو كان أجهل من قاضي جُبّل . ما أغربه من قانون .

السياسة غير الادارة ، والطب غير الصيدلة ، والخطابة غير الكتابة ، وقلّ أن تفوق من يحاول الجمع بين فرعين .

يؤكد بعضهم أن ممن يعانون المحاماة والطب اليوم من لا يكسبون من مهنتهم ما يسد الرمق ، وكان الأليق بمن لا استعداد لهم للدرس والبحث أن ينصرفوا الى الاشغال اليدوية والتجارات العادية . تتوقف المحاماة والطب على ثقوب ذهن ، والشهادة وحدها لاتنفع للنبوغ في هاتين الصناعتين .

كان بعض من سمعتهم يخطبون في الملأ أقرب الى الركاكة والفهاهة ، ولطالما اشمأزت نفسي من سماع كلام المرتجلين منهم ، وعتبت على أرباب المدارك لتقصيرهم في ارشاد من يندسون في جماعة هم في الواقع غرباء عنهم . الخطابة كالشعر والموسيقى والتصوير لا تفعل في النفوس ان لم يرزق صاحبها استعداداً فطرياً يكمله الدرس والاشتغال .

اذا خافك صاحب لك بدّد خوفه ، واذا استضعفك انسان أبرز قوتك ، وحاذر ان استطعت ألا يعرف من يحيط بك كل ما لك من أسباب القوة والضعف .

أنكر أَحد أرباب المجلات المصرية وجود المجمع العلمي العربي لما غضب على رئيسه فكان شأنه في ذلك شأن من حنق على شخص من بلدة فأنكر المدينة ومن فيها .

تظهر الثورات حثالات من الناس كانت قبلها خاملة مغمورة ، كالغدير متى عكر ماؤه يظهر فيه الوحل والطين .

ما برحت الدولة اليونانية منذ نزعت يدها من حكم الأتراك في القرن الماضي تضم اليها كل من تيسر لها ضمهم من أبناء جنسها ، الوطنية اليونانية قوية في معظم مظاهرها على قلة عدد أبنائها وصغر مساحة أرضها .

كانت الدولة العثمانية كلما انسلخ عنها قطر أو أقطار تحمل ما كانت تأخذه منه من المغارم على ما بقي لها من ولاياتها . فلما خرج عن تركيا في الحرب العالمية الأولى نصف أملاكها جزأت مابقي منها وصاغت منه ولايات متعددة ليقال انها مملكة كبرى على نحو ما كانت أيام الامبراطورية العثمانية .

قال الحجاج لابن الكلبي : أخبرني عن خمسة أشياء أضيعت في الدنيا . قال نعم أصلح الله الأمير : سراج يوقد في شمس ، ومطر جود في أرض سبخة ، وامرأة حسناء زُفت الى عنين . وطعام اجتهد صاحبه في صنعه فقدمه الى سكران أو شبعان ، ومعروف تصنعه الى رجل لا يشكرك عليه . وأزيد على قوله : وعلم يبثه صاحبه في جهلاء لااستعداد لهم لتلقيه .

الكسل عامل قوي في خراب البيوت القديمة ، يتكل كل فرد من أبنائها على أخيه وعمه حتى ليصبحوا كلهم كسالى اتكاليين ، وما كان آباؤهم كذلك على ما يظهر .

أثقل ما كان يثقل على نفسي علم الرسوم (البروتوكول والاتيكيت) . من الناس من خلقوا لها ولذتهم في معاناتها ، ومنهم من يستثقلون القيام بما تفرضه عليهم . يُضيع الملوك وكبار الدولة بعض أوقاتهم في الرسوم والرسميات ، وقد يجدون فيها غبطة وبهجة ، ولو جنحت الحكومات الى السذاجة في رسومها لتوفر لها وقت ما كان أجدره أن يصرف بما يفيدها ويفيد رعاياها .

عهدت رجالاً برعوا في علوم ينافي بعضها بعضاً . شاهدت كبارياً يبرز في الأدب ، وطبيباً شاعراً ، ورياضياً ناثراً .

رأيت بعضهم يدهشون بجمال احدى العقائل وشاهدت غيرهم يستقبحون ما فيها من القسمات . وهذا من العوامل التي تيسر زواج بعض القبيحات ، فان عين المستحسن ترى ما لا تراه باصرة المستقبح .

اذا اجتمع بضعة أشخاص ترأسهم واحد بالطبيعة ، ومتى حادوا عن هذا النظام يسري اليهم الاختلاف وسوء التدبير .

لو أزمع المغتربون من الديار الشامية العودة الى أوطانهم يحملون ما اكتسبوه في مهاجرهم من ثروات لأصبحت الشام من أغنى أقطار العالم .

قالوا ان حب فلان على مقدار منفعته من حبيبه ، أصلحهم الله وهل الحياة الا منافع ونحن أبناؤها ؟

ليت المجتمع يستبقي ما لا سبيل الى البقاء بغيره من أسباب المدنية وذلك بصقل مدنيته الحاضرة صقلاً خفيفاً وبرفع معظم ما فيها من قيود وتعقيد .

عجبوا من رجل كان معدوداً في أغنياء التجار فلما مات لم يخلف الا ما لا بال له من عروض وتحف . فقلت لاتعجبوا ان من عادة الخلق التجوز في تقدير الثروات ليثبتوا قلة تقديرهم ومن شأن التجار أن يكتموا حقيقة ماتملكه أيديهم .

كثيراً ما كنت أتمنى لو تيسر جمع من أحب من أصحابي في صعيد واحد ، وأن يبعد عن عيني من يبغضهم قلبي لردائتهم ونذالتهم .

لو جوّز المسلمون لانفسهم أن يعاملوا غير من يدينون دينهم كما

اعتـاد بعض هؤلاء أن يعاملوا من يخالفونهم أي لايتعاملون الا وابنـاء مذهبهم — مامضت مدة الا اضطر المقاطعون انفسهم الى الهجرة .

اعتاد معظم من تقلدوا كبريات الاعمال من غير المسلمين أن يحشروا في خدمة الحكومة أكبر عدد ممكن من أبناء نحلتهم ، والا يعاونوا غيرهم من أرباب المذاهب الاخرى ان امكن . عادة دنيئة تدل على ضعف وطنية وقلة عقل .

الصحف المعتدلة اللهجـة أقرب الى الانتفاع بما تكتب من صحف الاحزاب والمهوسين بالوطنية ، وضرر الصحف التي لا تعرف غير الهدم ولا تحسن البناء أشد من نفعها .

كلما ضعف عدد الاميين زاد قراء الصحف وعقد الرجاء على صدورها آخذة بنواصي الـكمال من حيث مظهرها وصدق لهجتها وسرعة أخبارها وتنوع مقالاتها ، حتى لتغدو اشبه بمدرسة يتعلم بها القاريء كل يوم ما ينير أمامه سبيل الحياة . مطالعة جريدة راقية مدة من الزمن تقرب العوام من مرتبة الخواص في التفكير الصحيح فتتعـذر بعدها مغالطتهم في الحقائق الراهنة .

قال لي والدي : كنت مشتركاً بجريدة « الجوائب » التي كان يصدرها احمد فارس الشدياق في الاستانة ، وكان كاتبي يقرأها عليّ ويشرح لي المبهم من عباراتها . فقرأت مرة بين السطور كما يقولون : ان مصير السلطان عبد العزيز الخلع ، وذلك قبل خلعه بالفعل بأربعة أشهر ، فلما خلع لم استغرب خلعه . من يفكر ويطيل التفكير فيما يتلو أو يتلى عليه خير ممن يكثر من القراءة ويغفل التفكير .

يفلح على الاغلب من يستمع لما يقوله فيه أعداؤه ولا يغتر بما يقول

فيه أصفياؤه . نقد العدو أجدى من تقريظ الولي .

لما بلغ رئيس انقضت أيام حكمه انتخاب رئيس جديد خلفاً له أغمي عليه فأشار عليه الاطباء أن يبتعد عن المزعجات ابقاء على صحته . ولو أدرك أن ماحدث لم يخرج عن الامور الطبيعية لاكتفى بأن يقول كل منصوب معزول .

النقد حياة المجتمعات ، به ارتقى الشعر والنثر ، وبه ارتقت الخطب والتأليف ، ولا يخاف النقد الا رب العلم الضعيف .

لايكتب التوفيق لكل من يتحدث الى الناس الا على الندرة . المحدث كالخطيب لايصفق له تصفيق استحسان الا اذا ابقى في نفوس السامعين أثراً تهز نغمته أوتار قلوبهم .

كلما خطت المجتمعات خطوة تألفت النقابات واشتد العملة في المطالبة بحقوقهم وعمدوا الى اضراباتهم لاقل شيء ، والاضراب أول مايعالجون به مسائلهم مع الحكومات وأصحاب المعامل .

قال لي أحد الأذكياء ممن برعوا باللغة الفرنسية من الشاميين وصرفوا جانباً من وقتهم بعد الدراسة الجامعية في كتابه اطروحات الكسالى من الطلبة الشرقيين مقابل أجر يرتفق به : كان هذا شأن معظم طلابنا في أطروحاتهم ، فقلت له : لذلك نراهم أحجموا عن نقلها الى العربية لأنهم لا يحسنون فهم ما ظهر بأسمائهم باللغة الافرنجية ، وما أهمهم مما نشروه الا احراز لقب « دكتور » وقد لاحظت أن بعض الأطروحات حملت أفكاراً تخالف معتقدات أصحابها ، لأن من كتبها ما كان يعرف مذهب من ظهرت الأطروحة باسمه .

تحرص المدارس على تكثير سواد الطلبة في صفوفها ، وعلى تخريج أكبر عدد من حملة شهاداتها ، ولو عقل بعض التلاميذ الذين أدوا فحوصهم بشقة كبيرة حتى انتقلوا من فرقة الى فرقة الى أن انتهوا بمدرسة الحياة ، لانصرفوا لاتخاذ أسباب المعايش أقرب الى نجاحهم من خدمة تحتاج الى علم غزير ، وقريحة وقادة ، ودؤوب مطرد .

شهدت في ستين سنة من تبدل في هذا العالم مالم تشهد الانسانية مثله في قرون . وقد مرّ بي أكثر ما عاينت كما تمر الصور المتحركة على الشاشة البيضاء . رأيت كل مدهش وغريب وما غيرت رأيي في ذكاء البشر وبلاهته ، وفي صلاحه وخبثه ، وكان الخبيث أوفر من الصالح والمتوحش لا يزال الكثرة الكاثرة .

قلبت سرعة المواصلات نظام الكائنات ، فتحتم علينا ان نحفظ أشياء منوعة حفظاً سريعاً بدون تدبر ، وألا نتمتع كما كان يتمتع أجدادنا بالسكون والهدوء ، ولا نعتصم بالصبر لنهضم ما نتعلم ونتذوق اللذائذ الروحية

كان يرجى لبعضهم أن يكون منهم رجال يستحقون اسم الرجولية لما بدا عليهم من علائم النجابة لأول نشأتهم . فدارت الأيام وعلت بهم السن فشوهدوا على غير ما كانوا عليه في أول المحطة ، وما أثر عنهم الا خدمة أنفسهم بالحق والباطل ، وما أقدموا على أمر يكون منه نفع جيرانهم .

اعتاد بعض شعوب الغرب أن يرتحلوا كل مدة الى ديار بعيدة وان كانت أردأ هواء من بلدهم . ذلك لأن في التنقل صحة الأبدان وترويضاً للأذهان . لا تتوقف عن الاستجمام أياماً معدودة من السنة فالملل يدخل من اتصال العمل ، والمستجم يصبح بعد العطلة أوفر نشاطاً وأشد شوقاً لما ينصرف اليه ، والوقت الذي يقضى في النزهة والتنقل معوض باضعافه .

قل أن رأيت صوفياً أفلح في علم من العلوم الدنيوية والأخروية وكنت اذا تأملت ملامح بعض أصحاب الطرق أتصفح فيها المكر الى جانب الذكاء .

دعاني بعض ملوك العرب الى النزول عليه واتخاذ بلده موطناً ، ومنهم من عين لي نوع الخدمة التي يتطلبها مني فاعتذرت وشكرت ، ومنهم من قبل عذري وتفضل ورفع الطلب عني ، ومنهم من لم يقم لي عذراً ، وأصرّ أعواماً على تنفيذ رغبته . ولو كنت أجد من نفسي استعداداً لخدمة الملوك ماترددت في انفاذ أمرهم ، وأنا الى هذا ماأحببت الانتفاع منهم من دون أن أنفعهم .

غالب الزعماء اذا ابتسموا لاحد توقعوا جزاء ابتسامتهم ، وجزاؤها عندهم أن تفنى شخصية المبتسم له في شخصيتهم .

رأينا أحرار العلماء على الدهر يفرون من الملوك احتفاظاً باستقلالهم الشخصي ولامور نفسية لايسعهم التحلل منها . والملوك امس واليوم يحرصون على استتباع أصحاب المكانة على النحو الذي يروقهم هم .

من عجيب الظواهر الاجتماعية حوالة الاسواق وتحديد اسعار الاشياء بعامل خفي . ومن أغربها قسمة الارزاق بين الخلق كأن الفطرة ترى نفسها ملزمة بتقديمه لهم .

الى القرن الخامس من الميلاد كان رجال الدين في النصرانية يتزوجون وينسلون كرؤساء الاديان الاخرى . فلما فرضت الرهبانية على طوائف منهم حتى لايشتغل رجل الدين بعياله عما يفرض عليه القيام به من الواجبات أصبحت العزوبة غير مستنكرة عندهم يقبلها من ينذر التبتل ولا يرى شيئاً من الجور فيما قضت .

رأيت راهبة كانت على جمال فتان فعجبت كيف رضيت أن تفطم نفسها برضاها عن لذائذ الدنيا ابتغاء ثواب الآخرة . سلطان الدين على بعض النفوس أعظم من كل سلطان .

كان في فلسطين دير للراهبات مسوّر أحكم تسوير ، لا ترى الراهبة فيه رجلا ولا تخرج من قلايتها حتى تموت . شأنها شأن بعض نساء نابلس فانهن ما كن فيما مضى يغادرن بيوت أزواجهن الا يوم يحملن الى مقرهن الاخير .

قال لي أحد أصدقائي الأعزة ، وهو ممن يحسن التصرف بدخله وخرجه وقد اشتهر بجميل الحيلة في تدبير ما يقتصد من رواتبه وأعماله المالية ، وهو لا يقامر ولا يغامر ، اني نظرت فيما جمعت طول عمري من مال فلم تبلغ ثروتي عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً ، هذا مع تجوزي في تقدير قيمة ما أملك . وسمعت بعضهم يقدرون ثروته بمئة ألف ليرة عثمانية ذهبية . وماذا تقول بعد هذا في غلونا بتخمين الثروات والتوسع في غموض أرقامها .

لو عقل المقامرون يوم يخسرون الخسارات العظيمة لأقدموا على الانتحار من تلقاء أنفسهم . وبذلك كان ينزل عدد اللاعبين والمتلاعبين .

راقبت ثروة ثلاثة من بيت يدعي أهله الشرف ، جمعوا ثرواتهم من الربا والرشا وأخذ الصدقات باسم ولاية جدهم . وقد أضاع أبناؤهم ما ورثوه في وقت قصير . كنت أذهب الى أن المال الحلال يبقى لأصحابه مدة أطول من المال الحرام فظهر أن كل ثروة مهما كان أصلها اذا انتقلت الى سفهاء تضمحل في وقت قليل .

اعتاد القوم اذا أضاع ابن أحد الاغنياء ثروته بقلة ادارته وكثرة سفاهته أن يسعى بعض من تأخذهم الشفقة عليه الى توظيفه في الحكومة

كأن دواوين الدولة تكايا للمنكوبين والمفلوكين ، أو رباطات لا بدّ فيها من اطعام المساكين والجائعين .

تخرج المدارس الى جانب النبهاء من طلابها طائفة كبيرة من الاغبياء ربما كان حظهم من الظهور حظ الفئة الذكية وزيادة ، ولو حسن انتقاء الطلبة لجاء المتخرجون كلهم من الطراز الجيد في الجملة ، وعندئذ تضطر بعض المدارس العالية الى اغلاق أبوابها لقلة من تنطبق عليهم شروط القبول أولاً وشروط الحصول على الشهادات ثانياً .

قال لي موظف مقدم في احدى المفوضيات العربية : كنا اذا عزمنا في مصر ان نأدب مأدبة رسمية نرسل الى الحكومة المحلية رجلا نبيهاً من جماعتنا ليحقق لنا تواريخ رتب بعض المدعوين من المصريين . فان تقديم واحد على آخر في المائدة أو تأخير من حقه التقدم على جاره مما يشتد فيه الاعتراض على صاحب الدعوة . ما أسخف الحكومات التي تشغل وقتها ووقت الناس بالفضول .

من الاسباب التي تزيد عيوب المجتمع أن الناس لا يصدق بعضهم بعضاً فيما يرون في أنفسهم من نقص وتقصير . ولو أن كل امرئ يرسل نقده على ما يرى في صاحبه من شذوذ لكان يرجى أن تسير المجتمعات نحو الكمال .

لا تغرنك ابتسامة امرأة ليست لك معها علاقة شرعية ، انها تحاول أن تنزع منك ثوباً طريفاً أو حلياً جميلا أو مبلغاً من المال .

من يزعم ان النساء لا يختلفن عن الرجال بعقولهن واستعدادهن لكل ما استعد له الرجل لا يرمي بقوله الا الى خداعهن خداعاً ظاهراً ومجاملتهن مجاملة باردة . ومن الغريب ان مداجاة المداجين تجوز على اللائي يفرض فيهن الذكاء من بنات حواء .

النساء اقرب الى العفة من الرجال ، والنساء اشد مكراً من الرجال .

المال الذي يدرّ من النفط على صاحب نجد والحجاز عامل قويّ لاخراج بلده من البداوة . قالوا انه انشأ له في الرياض قصراً عظيماً ذا عدة طبقات يصعد الى الطابق العلوي منه بالسيارة ، وما كان يجري في خيال ابن نجد أن تبلغ دياره من البذخ هذا المبلغ لولا وفرة المال في خزانة دولته .

لا تطرح أفكارك على من لا يرجى انتفاعهم منها ويحتقرونها في باطنهم ، الأفكار كالجواهر صُنها عن القائها في معالف الخنازير .

ليست السعادة بكثرة المال يجمعه جامعه في صندوق أو يوظفه في شركة أو في مصرف أو يبتاع به أرضاً أو عقاراً . قد يكون عامل يعيش بالمياومة أسعد من غني يملك عشرات الألوف من الدنانير أو مئات من الأفدنة وعشرات من العمارات ، وما الأغنياء — الذين حرصوا الحرص كله على تنمية ثرواتهم وما انتفعوا منها في حياتهم بأكثر من انتفاع المقل المعدم — سوى وكلاء أمناء لورثتهم . واني لأفضل والداً يخلف بضعة أولاد متعلمين على والد يورث كل ولد من اولاده ثروة تكفيه ليعيش مرفهاً ، ويتركهم جهلاء لا يحسنون شيئاً من امور الدنيا .

علم لا ينفع

ذكرت احدى المجلات الغربية خلال كلامها على تنقل ملايين من السكان في ديار الغرب مدة الحرب الأخيرة أن ثقافة المثقفين كانت مصيبة عظيمة عليهم فان معظم الممالك التي أهلّت بالقادمين عليها كانت تقدر أن عندها حاجتها من الاطباء والاساتذة ورجال القانون والمفننين والمهندسين ، فاضطر بعض رجال المحاماة والطب من أبناء بولونيا وغيرها يوم قصدوا للهجرة الى كندا أن ينزعوا ثوب ثقافتهم العلمية يكتسوا ثياب حطابين حتى يدخلوا كندا لأن حكومتها تؤثر شخوص الحطابين الى بلادها لاستثمار ما عندها من غابات على أن يقصدها العلماء . الشرق الأدنى يشكو قلة هذا الصنف من النابهين وكندا شبعت من هذه الطبقة وترغب في مساكنة الحطابين !

واجب المؤرخ

سألت كاتبة افرنسية السيد كونزاك دي رينولد أستاذ التاريخ في جامعة فريبورغ السويسرية رأيه في الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ فأجابها أرى أنه يصعب تحديد هذه الصفات واني لموقن أن التعليم الجامعي وحده لا يكفي فالتاريخ مثل كثير من العلوم يدخل عليه بالوثائق والاخصائيين ، بالأمس كانت الأشجار تحول دون رؤية الغابة واليوم يحول دونها العوسج والبلان . وكان المؤرخون من عهد شيشرون الى ميشله وسان توما داكين يعتقدون أن للتاريخ غاية وهي تعليم الناس ليعيشوا في المجتمع . وقال سان توما داكين : تتألف الحكمة السياسية من تجارب الماضي

ومعرفة الحاضر حتى يهيأ المستقبل أحسن تهيئة . وأرانا اليوم ونحن نهتم بهدم وبناء وسط الخرائب والأنقاض التي نطمح الى الوصول الى أن نجدّد بها البناء وكل دور تعمير يجب أن يسايره دور تركيب . ومن ينكرون التاريخ هم في حاجة اليه . واني لآسف أن يرجع يوم وضع المعاهدات وتصحيح الحدود الى الاخصائيين في الاقتصاد والى علماء القانون وننسى استشارة المؤرخين . يعظم عدد من يجهلون الماضي من السياسيين المحترفين ، وفي وسعنا الآن أن ننظم قائمة جميلة بالأغلاط التي ارتكبت بين الحربين الاخيرتين ، فالسياسيون لا يحبون التاريخ ويضيقون به ذرعاً وهو يؤلمهم . قالت الكاتبة فقلت له : ولعل هذا الجهل آت من أن معرفة التاريخ تتطلب جهداً كثيراً . قال : نعم وقد لاحظت في رحلة لي الى أميركا الجنوبية أن ممالك فتية فيها تشكو من أنها لا تعرف الى أين تسير وذلك لأنها تجهل من أين أتت .

هذا رأي كبير من المؤرخين في أرقى أمة غربية ، وما نخال أن من يدعون خدمة التاريخ في أرضنا قد أعدوا العدد اللازمة لتبريزهم في صناعتهم . ونقل كلام من سبق المؤلف دون العناية بتسلسل الحوادث وربطها برباط محكم واستخراج الدرس النافع منها ليس من التاريخ الصحيح في شيء .

المصطلحات الجديدة

اصطلحوا في الغرب منذ أمد غير بعيد أن يكتفوا في بعض الأسماء المطولة بأوائل الحروف حباً بالاختصار . وكانت هذه الأسماء قليلة بادىء بدء يمكن القارىء العادي حفظها فزادت زيادة عظيمة حتى مست الحاجة الى وضع معجم مطول لها يرجع اليه القارىء فيما يشكل عليه . ومن المبهمات التي تعوق سير المطالع في اللغات الافرنجية أنك تجد في بعض العبارات ألفاظاً وأحياناً مقاطع وسطوراً من لغة غير اللغة التي يكتب فيها الكاتب وذلك من دون أن يضع الى جانبها ترجمتها كأن الكاتب يذهب الى أن كل مطالع يفرض فيه أنه يفهم هذه المفردات كما يفهم مفردات لغته . وأن مطالع صحيفة افرنسية لا بد أن يعرف اللاتينية واليونانية بل الانكليزية والالمانية وغيرها من لغات الغرب .

وسرت هذه البدعة الى اللغة العربية فان التراجمة المحدثين في الصحف اليومية وغيرها اذا لم يهتدوا الى لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الافرنجي يقتصرون على وضع اللفظة الافرنجية برمتها اعتقاداً منهم أن القارىء لا تفوته وهو اذا لم يفهمها حق فهمها تهديه القرينة الى فهمها .

تقاييم

قال لي صديق : كان في بلدتنا معمر صمّت أذنه في صباه فلا يتكلم الا باللهجة التي سمعها في أيامه الأولى ، فكنا اذا أردنا استماع لهجتنا القديمة قبل سبعين أو ثمانين سنة نزوره ونتحدث اليه فنسمع غرائب . وتصدق حال هذا الاطروش على من يحكمون اليوم بعقلية القرون الماضية ولا يخرجون عما اعتقدوه وهم اطفال ويصمون آذانهم عن سماع الجديد .

ومن الامثلة الظاهرة في هذا الباب رؤساء بعض الفرق الاسلامية الذين خالفوا أهل السنة والجماعة .

كان من عادة بعض من يُعنون بالآداب في الدهر السالف أن يدعوا قول الشعر وهم لا يحسنون إلا أوزانه وقوافيه ، ليقال عنهم انهم شعراء ، وكان لبعض الفقهاء والمحدثين ولع في وضع تفاسير للكتاب العزيز ليقال عنهم انهم من المفسرين أيضاً . وبعض السخفاء في مصر اليوم يدعون الفلسفة وهم ليسوا منها في العير ولا في النفير .

امتنع جهدي عن مقابلة مراسلي الصحف فى كل بلدٍ أنزله ، وابتعد عن فتح أحاديث معهم مهما كان لونها ، وذلك لأن منهم من اعتاد أن يسمع شيئاً ويضيف اليه أشياء . وما عمدت الى هذه السياسة التي قد تكلفني غضبهم الا بعد أن تكرر رجائي اليهم أن يطلعوني على ماينقلون عني قبل طبعه ، وقلما أجابوا لي طلباً . وآخر ما حدث أن أرادني أحدهم على أن أصرح له برأيي في كتاب المعاصرين ، فقلت له ماعرفت عن بعضهم من حاضر البديهة ، وكان الحديث من أحاديث المباسطة لايقصد منه النشر ، فما راعني الا والحديث يصدر في الجريدة مضافاً اليه ما لم أقله ، وعزا الي كاتب الحديث كلاماً عن كتاب آخرين ،

لم أعرفهم ولم أقرأ لهم شيئاً ، ووضع من شخصيات عرفتهم فأكبرتهم وكانوا من أصدقائي المخلصين ، وكنت وما زلت من أول المعجبين بما ألفوا ونشروا .

تغلب المعارضون في الانتخابات الأخيرة في تركيا وتناولوا زمام الحكم بعد أن تمتع به الكماليون أزيد من عشرين عاماً . وكان حكمهم حكماً نيابياً بالاسم واستبدادياً طاغياً بالفعل . قالوا وكان السبب في سقوط الحكومة الماضية تفشي الرشوة تفشياً عظيماً ، واتجار رجال الحكم بما لا يحل لهم الاتجار به من أصناف المأكولات والملبوسات وغيرها . أما الرشوه في تركيا فلم تبطل منذ أقدم عصورها ، وزادت في عهد الجمهورية بسبب الاقتصاد من رواتب المستخدمين وصرف معظم الموازنة في التسليح .

أخذت المحاكم الشرعية تشدد في زواج الشيوخ والكهول من الفتيات ، كما تحظر الجمع بين زوجتين الا لضرورة ماسة ، وبهذا التضييق بات يرجى دخول النظام في البيوت الاسلامية .

كان المسلمون في معظم الحروب بين دول الشرق الاسلامي ودول الغرب النصراني يبدأون أعداءهم بالحرب ، وفي الحروب الصليبية كانت الدول النصرانية هي البادئة وكذلك في حروب الاستعمار .

نشأت الدعوة الى الاسلام دينية محضة ثم ظهر مع الأيام ان من الصعب انتشاره ان لم تدعم الدعوة الدينية بالدعوة السياسية ، والدين أبداً يحتاج الى الدنيا .

قد يكون لموقع البلد مدخل كبير في سعادة أهله وشقائه . تجاذبت روسيا وألمانيا كلاً من رومانيا وايران للاستئثار بآبار النفط فشقيت

رومانيا وايران . آبار النفط أغنت دولتي العراق والمملكة السعودية وآبار النفط حملت الشقاء لرومانيا وايران فصاحب النفط في هذا العصر يسعد ويشقى .

نصح أحد كبار الأميركان لصاحب الحجاز ونجد أن لا يمنح امتيازاً لأجنبي في مملكته ، حتى لا يكون ذلك سبباً في دخول الاستعمار اليها . وأنا أذيل على هـذه النصيحة : اذا كنا لا نحسن استثمار خيرات أرضنا بأيدينا ونمتنع من اعطاء الأجانب الحق في اعانتنا على استخراج ما لدينا من ثروة طبيعية ، فمتى يقدر لنا أن ننهض وأكثر ملوك العرب يصمون آذانهم عن سماع دعوة الاصلاح ويحولون دون وصول النور الى العقول حتى لايطالب رعاياهم بحقوقهم اذا تعلموا واستنارت عقولهم .

دخل فقيه تقي على أحد الرؤساء فاستخف به وتجهم له ، وبعد دقائق وافاه أحد الرعاع فوقف الرئيس له وقفة اجلال وتقـدم خطوات الى الامام لتلقيه ، وبش في وجهه وصافحه وسأله عن حاله وحال عياله ، فما وسع ذاك العالم المسكين الا أن تسلل من المجلس مكسور القلب . دليل ناصع على حسن سياسة الرئيس ومتانة دينه !

كان من عادة أحد كبار الرؤساء ان يعامل أرقى طبقة من الأمة معاملة كبرياء وترفع ، كأن يقوم لهم بتكلف ، ويعبس في وجوههم عند دخولهم وخروجهم ، ولا يتزحزح خطوة عن مقعده ، أو يستقبلهم واقفاً على قدميه حتى لايجلسوا بحضرته ، حاسباً نفسه هامان على عرشه ، أو ملكاً جباراً من ملوك الأزمان الماضية ، وهو الى ذلك لايدخر وسعاً في رفع شأن الطبقات الوضيعة ، يحسن لقاءها ولو أتته مرات في الليل والنهار حتى لاتشعر في حضرته بشيء من الوحشة ، ويقع في نفوسها أن شأنها عظيم اذ كان صاحب الأمر يعاملها هـذه المعاملة .

واحد ممن يظهر هذا الأخرق احتقاره أنفع للدولة من ألف سافل يصطنعه .

ابتهج المسلمون في السنين الأخيرة بنزع اندونوسيا يدها من حكم هولاندة وامتاع سبعين مليون مسلم من أهلها بحريتهم . وباستقلال الباكستان والهندستان وفيهما مئة وأربعون مليون مسلم ، واحراز طرابلس وبرقة استقلالهما وفيهما مليون وربع مليون مسلم .

اعترفت بريطانيا العظمى بحكومة الصين الشيوعية مع كراهتها هذا المذهب كراهة عظيمة ، والسياسة تتبـــدل تبعاً للقوة والضعف ، والغربيون عامة لا يعترفون بغير القوي .

تنتشر الدعوة الشيوعية في العالم اليوم بعد اليوم وتتسرب الى الشعوب الشرقية والغربية حتى هددت كيان الديمقراطيات ، وقد قبلت الدعوة الشيوعية حتى كتابة هذا ثمانمائة وثلاثون مليوناً ، أي نحو ثلث سكان الارض ولا يمضي زمن طويل حتى ينتهي هذا الصراع بين الدعوتين الشيوعية والديمقراطية . ومن المتعذر التنبوء لمن تكون الغلبة والقطع بما تصير اليه حالة الممالك يومئذ .

العلم الحر أعدى أعداء المستعمرين ، يحظرون وورود مناهله على من يستعمرونهم بكل حيلة ، واذا رضي هؤلاء أن يتعلموا على الطريقة التي يعينها لهم صاحب المستعمرة وبلغته وأسلوبه يجدون منه كل تسهيل ومعاونه .

من يماشون كل صاحب سلطة على هواه هم أضر على أمتهم من كل مستبد طاغ ولك أن تصمهم بأعداء الداخل والعدو الداخلي أشد ضرراً من أكثر الاعداد .

رئيس يحمي الرعاع ويسرف بالمال حتى يدخل العجز العظيم على موازنة الدولة أضر على أمته من بعض أعدائها الذين يستعدون للهجوم عليها في عقر دارها .

من كان على جانب من الذكاء ممتعاً بصحته وقوته لا بد له من الدخول في الجهاد الوطني والاشتراك في أمور هو في غنى عنها بحسب الظاهر .

معظم من سمعتهم يخطبون في الملأ كانوا أقرب الى الركاكة والفهاهة ولطالما اشمأزت نفسي من كلام المرتجلين منهم وعتبت على أرباب المدارك لتقصيرهم في ارشاد من يندسون في جماعة هم غرباء عنهم . الخطابة كالشعر والموسيقى والتصوير لا تفعل في النفوس ان لم يرزق صاحبها استعداداً فطرياً يكمله الدرس والاشتغال .

يفلح على الأغلب من يستمع لما يقوله فيه أعداؤه أكثر ممن يغتر بما يقوله له أصدقاؤه . نقد المخالفين أنفع من ثناء الموافقين .

كان نصارى الغرب منذ الحروب الصليبية أمهر في أخذ أخبار المسلمين من المسلمين أنفسهم في أرضهم . ثبت ذلك في مواطن ألمع اليها ثقات مؤرخينا ، وتسلسلت هذه الميزة في الغربيين الى يومنا ، وهم أحذق الأمم بالتقاط الأخبار على وجه سريع محكم .

مجالس الثلاثاء

سأل ضابط كبير من ضباط الاستخبارات الانكليزية خلال الحرب الاخيرة صاحباً لي عما يدور في مجلسي كل ثلاثاء من الأحاديث وممن يتكوّن الجماعة ، فأجابه : يختلف الى هذا المجلس أناس من معظم طبقات أهل دمشق والطارئين عليها . فترى فيه العلماء المدنيين والدينيين والأدباء والمفننين ورجال السياسة والادارة وفيه شبان وكهول وشيوخ وتجار وزراع وأرباب صناعات ومن جميع الأحزاب والمذاهب ، وقد يلتقي فيه أهل المدن بأهل الريف ، وسكان البر بأمراء البادية . وأحاديث المجلس منوعة تنوع منازع المختلفين اليه . وفي المجلس جد كثير وهزل ليس بقليل . وقد يناقش الشاب الناشيء وزيراً أو عالماً ، وذلك بأدب ولباقة ، وفائدة كل واحد في هذا الاجتماع بقدر قريحته وعلمه ، واذا جرّ الحديث الى السياسة الحاضرة قد يحوّل صاحب البيت الحديث الى المباسطة والتندر ويبعده عن الخوض فيما لا يجب أن ينقل عن مجلسه .

وسأله هل يحب صاحبك فارس الخوري قال نعم هو صديقه القديم وعضو معه في المجمع العلمي العربي . قال : فلماذا لا يجتمعان كثيراً ؟ قال : لأن لكل منهما جماعة لا يفارقهم . قال ولماذا لا يعود الاستاذ الى الاشتغال بالسياسة ؟ فقال : انه سئل هذا السؤال عدة مرات فكان يقول اني عند نفسي قد قمت بواجبي ووفيت ما عليّ من دين فأحب أن يعمل غيري واجبه ويوفي دينه . ثم قال له انه يشتغل بالتأليف ووقته يصرفه في هذا . فقال له الضابط : أعرف ذلك . ثم ختم السائل هذه الأسئلة بقوله : وهل يحبنا الأستاذ ؟ أي يحب الانكليز فأجابه : سمعته مرة يقول الاستعمار بلاء فان كان لا بد من الوقوع فيه فالأفضل أن تكون انكلترا لأن استعمارها أقل ضرراً من استعمار غيرها .

هذا ما رواه لي الصاحب الأديب ، وكانت أجوبته مسددة كأني أنا أمليتها عليه وليست ابنة البديهة . وفي الحق ان مجالس الثلاثاء في داري كانت تجمع أرباب المنازع المتباينة ، وما كان المجتمعون يتبرمون منها ولو طالت الجلسة ، وكانت تبتديء في الساعة الثالثة بعد الظهر وتنتهي في الثامنة وقد تمتد الى التاسعة . ومن أدب الحضور أنه ما كان واحد منهم يستأثر وحده بالحديث ، بل كان لكل جليس حصته من الكلام وحصته من الاستماع لأصحابه ، يتمتع كل واحد بحريته ولا يعتدي على حرية صاحبه ، وربما ذهب بعض من لا عهد لهم بالاجتماع في هذا المجلس الى أن الأمر مدبر على هذا النظام ، وما كان هناك الا القانون الطبيعي في المجالس ، والأدب الذي يعرف في العادة عن المثقفين .

وكنت أصون الندي عن حضور الجواسيس فيه فاذا جرأ أحدهم وجاء يكثر سواد الجماعة أفهمه بلطف أن أصحابي يشمئزون من الاجتماع الى من لم يسبق لهم أن يعرفوه ، وأنا كما قلت مرة أعرف الجواسيس من أسئلتهم وكلامهم والنظر اليهم . وأشم رائحة الجاسوس الكريهة من بعيد فألقيه في حبالة تقطعه عن غشيان مجلسي ، واذا عاد الى ما نهي عنه وهذا مما يندر وحضر جلسة من الجلسات وهذا في الأزمات السياسية خاصة ، أبادر لاقفال الباب أياماً وأحياناً أسابيع خوفاً على بعض أصحابي ممن لا يوقفهم شيء عن ابداء آرائهم بصراحة حتى لا تجلب عليهم صراحتهم ضرراً ، ومتى انجلت الغمرة نعود الى ما كنا فيه . والسياسة أحلى حديث الى القوم وخصوصاً أيام تبدل الدول والحكومات ، وما أكثر ما شهدناه منها . وكنا اذا أفضنا في السياسة نمزجها بأفاويه من الطرائف الادبية والأقاصيص المسلية القيها أنا أو أرجو أحد شباننا وكهولنا أن يتحفونا بما عندهم يروّحون بها عن نفوس الاخوان المجتمعين .

وبعد سنين عزمت على سكنى القرية فنقطعت مواعيد الاجتماع بالاخوان وتشتت عمار النادي الا اذا اجتمعنا على ميعاد وهذا ما أفضله ، لأن الوقت لا يتسع لكل اجتماع ، وحرام على العمر أن يضيع فيما لا طائل وراءه وأنا أرى الاقتصاد فيه .

وزارة تسلية

ألفت في قريتي وزارة رباعية للتسلية ، دامت توالي جلساتها الليلية نحو خمس عشرة مرة في كل شهر على الأغلب ومدة تقرب من عشر سنين . وقلت مرة لبعض أحبابي من رؤساء الوزارات في دمشق ان وزارتي في جسرين ثابتة بما لا يرجى لوزارتكم وها هي لم يطرأ عليها طاريء منذ تألفت ، ووزارتكم لا تعمر طويلا ، وقد لا تدوم زيادة على بضعة أشهر ، فكانوا يضحكون ويقولون الغالب أن ليس عندكم مجلس نواب حتى يسقطها كلما بدا له ، فأجيب : اللهم نعم .

وزارة جسرين متواضعة ليس فيها مرتبات للوزراء ولا سيارات لركوبهم يجتمعون من بعد العشاء في سكون الليل يبحثون فيما يهمهم ويسليهم وينفعهم وقد يقرأون في كتاب أو صحيفة هنيهة ويعلقون على الاخبار التي يقرأونها . ثم عرض لهؤلاء المتآلفين ما فض جمعهم . فأقيل اثنان واستقال ثالث فانحلت الوزارة بطبيعتها ، ولم أر أن أعيد تأليفها لقلة من يصلح للوزارة التي أريدها .

زارني في القرية الرئيس الجليل السيد هاشم الاتاسي ومعه نجله الاستاذ عدنان الاتاسي وكان وزيراً للأشغال العامة والعدل فقال ابني طريف لأحد الفلاحين : أين وزير المالية (الاستاذ طاهر زكريا) فالتفت السيد عدنان ليرى زميله ، ولما علم أن الوزارة وزارة القرية ضحك وضحك كل من كان هناك من المدنيين والقرويين .

سخافة دولة

ارتكبت الدولة العثمانية على عهـد السلطان عبد الحميد الثاني ضروباً من السخافات لاتصدر الا عن مجنون او أبله فمنها أنه كان يحظر على الصحف والكتب والمنشورات وكل مايكتب ويقال ان تذكر الفاظاً بعينها ، ومن جرأ وحدثته نفسه أن يستعملها كان جزاؤه عظيماً . ذلك لأن هـذه الالفاظ تشوش أذهان الرعية وتذكرهم أموراً مضرة لاينبغي سماعها ! مثل كلة « الدستور » « الثورة » « القانون الاساسي » « الاستبداد » « مجلس النواب » « مجلس الشيوخ » « الاستقلال » « اللامركزية او الحكم الذاتي » « الخلع » « التخلي عن العرش » « الحرية » الخ .

وما كان الرعايا في ذاك العهد احراراً حتى في تسمية أولادهم ، فيحظر عليهم اطلاق اسم « عبد الحميد » و « مراد » و « سلطان » على أبنائهم ومن سماه أهله حتى قبل ذاك العهد باسم من هذه الأسماء تحتم عليهم قلبه الى « حميد او حمدي او حامد والى مرآة . ذلك لأن السلطان عبد الحميد واحد ليس له شريك بملكه ولا باسمه . ومراد اخو السلطان عبـد الحميد هذا لا يجب أن يسمع اسمه لأنه اتهم بالجنون وخلع ، والسلطان هو السلطان العثماني فقط . وليس بعد ذلك قلة عقل .

العلامة جار الله

تشرفت في القاهرة منذ سنين بالتعارف الى العالم القازاني العظيم شيخ اسلام روسيا موسى جار الله . وكنت أعجب بالقليل الذي طالعته من تآليفه ورسائله ومقالاته ، ولما أخرج كتابه الوشيعة في الشيعة رأيت فيه الامام الذي انعقد الاجماع على جلالة علمه وشدة غيرته على النهوض بالمسلمين في المشارق والمغارب . طوف الامام جار الله في الأقطار وجاء اليابان والهند وروسيا الاسلامية وافغان وايران وتركيا ومصر والحجاز والشام وغيرها ، وأخذ العلم عن الشيوخ الذين تفردوا بعلوم كان يشتهي التعمق فيها والتلقي عن ائمتها . وقد اضطهدته روسيا وانكلترا واعتقلتاه زمان الحرب العالمية الثانية ، سجنته روسيا لأنه لم يقل فيما قيل بالتعاليم الشيوعية ، ولم يقر حكومتها على اغلاق مساجد المسلمين ومدارسهم وتشتيت علمائهم . ولم نعرف وجهاً لاعتقال انكلترا له في الهند . صورة من أجمل صور العلماء العاملين الذين خلقوا ليصرفوا حياتهم في خدمة الدين والأخلاق وهو من الأفراد الذين لايجسن بهم الدهر على العالم الا في العصر بعد العصر وحياتهم من اولها الى آخرها حافلة بالخير والنفع .

وافاه اجله في مصر في ملجأ ام المحسنين وفي رعاية الأميرة خديجة عباس حليم فاشتد نعيه على المسلمين . اجزل الله ثوابه وهدى بعض علمائنا الى اقتفاء خطاه .

الغالب والمغلوب

قال كيزو وما زال سكان فرنسا منذ زهاء ثلاثة عشر قرناً بين غالب ومغلوب وما فتيء الشعب المغلوب يجاهد ليخلع طاعة الشعب الغالب وما تاريخنا الا تاريخ هذا الجهاد . وقول هذا المؤرخ يصدق علينا معشر العرب الى حد عظيم ، فانا مابرحنا كذلك بين غالب ومغلوب ، والمغلوب يحاول نزع ربقة غالبه . وما ظلم الغالب ان أنصفنا بأفظع من ظلم المغلوب وان كان كلاهما حقيقاً بالملامة يتقاسمانها مناصفة . ذلك أن الغالب لايقول للمغلوب : أقتل أخاك في أصغر الاشياء ، ولا يأمره أن يكذب ويسرق ويفجر . ولو كان المغلوب صالحاً في الجملة مانشبت فيه مخالب الغالب حتى لتوجعه وتدميه . ثم ان ظلم الغالب ظاهر للعيان لأنه يعمل جهرة ، وأعمال المغلوب يخفيها الاسرار . الاول اذا اشتد استبداده ينادى عليه بالويل والثبور والثاني قلما ينعي عليه ظلمه الشنيع ويرثي له وترق القلوب عليه وقد تقام له الأعذار اذا خالف القوانين والانظمة والمغلوب في معظم الاحوال اعظم جناية وهو اكثر سواداً وأوفر مالاً ولن ينحل الخلاف بين الغالب والمغلوب الا بنزول كلا الفريقين عن بعض سلطانه ، ولو حسنت أخلاق المغلوب ما وجد غالبه سبيلا الى ظلمه ، ولسارت الامور على نظام من العدل أحسن مما هي الآن .

ومعنى هذا ان الغالب هو الحاكم والمغلوب هو المحكوم عليه وان الحاكم يستمد قوته من المحكوم عليه وهو سيده وعبده في آن واحد ، لا غنية للأول عن الاستمداد من الثاني ولا للثاني عن الاعتصام بالاول . وكل أمة تعادلت فيها قوى الغالب والمغلوب تغزر سعادتها ويقل شقاؤها واذا اتسعت شقة التباين بينهما يبغض الثاني الاول بسبب وبلا سبب ولايستفيد كل من صاحبه الفائدة المطلوبة .

أعظم اللغات انتشاراً

في نشرة الأنباء الاسبانية أن اللغة الصينية أعظم اللغات انتشاراً ويتكلم بها ٤٥٠ مليوناً ويتكلم بالانكليزية ٢٢٥ مليوناً وبالاسبانية ١٣٣ مليوناً وبالروسية ١٠٠ مليون وبالالمانية ١٠٠ مليون وبالبنغالية ٩٠ مليوناً وباليابانية ٨٠ مليوناً وبالفرنسية ٦٥ وبالبرتقالية ٦٠ .

ولم يذكر في هذا الاحصاء عدد من يتكلمون بالعربية وهم لا يقلون عن ٧٠ مليوناً عدا من يعرفها من أهل الاسلام في آسيا وافريقية وهم لا يقلون عن مئتين وخمسين مليوناً ، يعرف خاصتها العربية وبها يتفاهمون مع اهل اللغات المختلفة ، وبها يلقنون قومهم علوم الاسلام ، وبها يقيمون شعائره . وبالعربية نزل القرآن وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي يقرأ بلغته الأصلية ولم يكتب ذلك للغة من لغات الارض وهي الف وخمسمائة لغة

سكان الأرض

ألقى السير جون رسل رئيس اتحاد تقدم العلم البريطاني محاضرة قال فيها : انه يدخل العالم في كل ثلاث ثوان مولودان جديدان وهذه النسبة ستزداد حتماً كلما تقدم العلم الذي ساعد في المئة السنة الاخيرة على زيادة أعمار الناس . فأخذ عدد سكان العالم يزداد عشرين مليوناً كل عام ، وهذه نسبة لم تعرف من قبل . ثم ذكر صلة السكان بتنظيم مواد الغذاء على نطاق دولي ، فأشار الى أن المساحة التي تمكن زراعتها في العالم لانتاج مواد الغذاء تقدر بـ ١١ الف مليون فدان وأن الارض المستعملة منها تختلف بين ثلاثة وأربعة آلاف الف مليون فدان ، ينال

كل انسان في العالم حوالي الفدان ونصف . ولو وزعت كل المساحة الصالحة من الارض للزراعة لنال كل فرد خمسة افدنه . ولذلك رأى المحاضر الاستكثار من مواد الغذاء عن طريق زيادة العمل . ثم تساءل عما اذا كان في الامكان الاستفادة من الارضين التي لم تزرع بعد فقال : يتوقف هذا على تقدم العلم في وسائل تسميد الارض ويتأتى الحصول على الاسمدة بمقادير غير محدودة ، وان ادخال الآلة على الزراعة يزداد زيادة عظيمة وفي وسع المزارع الحديث بالاساليب العلمية تموين حوالي ٢٠ شخصاً على حين لم يكن يموّن بالطرق القديمة أكثر من أربعة أو خمسة أشخاص ، فان احتجنا الى مواد للغذاء أكثر مما ننتج فالواجب أن نتوسع في العمل . وعلى هذا نقض هذا العالم المعاصر ما ادعاه في القرن الماضي وطنيه العالم مالتوس يوم قال ان العالم بعد مدة لا ينتج ما يعيش به سكان الارض فالاولى تخفيف النسل . وقد زيفنا رأيه فيما تقدم من هذه المذكرات (ص ٧٢٥ الجزء الثالث) .

صناع المدنية

رب رجل أفاد المدنية وأخلص في خدمتها وما اشتهر الشهرة التي تليق بما تم على يديه ومنهم صديقان لي من أرباب المطابع في دمشق الاستاذان السيد سعدي العمري والسيد صالح الحيلاني فقد طبعا منذ نحو خمسين سنة مئات من الكتب والمجلات والجرائد وتوليا طبع جريدتي ومجلتي وكتبي ثم مطبوعات المجمع العلمي العربي ومجلته . وشهدتهما خلال هذه السنين الطويلة ولم يأخذ من قلبهما الا حب الطباعة والتفنن في اخراج مطبوعات متقنة ملتزمين السكوت لا يعلنان عن بضاعتهما ولا يتبجحان بما يجوّدان .

عرف هذان العاملان بالنباهة في خدمة الآداب واتقان ما اختصا به من الامانة والصدق والاتقان ، وما هدتهما اليه الفطرة من التفنن وما خصتهما به من ذوق غير قليل .

تقسيم سورية

أشرت الى مبلغ ألمي من تقسيم الديار الشامية الى سبع دول بعد الحرب العالمية الأولى وكان في تقسيمها خسارة وأي خسارة ، واغتبطت لما عادت دولة العلويين ودولة جبل الدروز الى سورية الأم ، وأسفت أن ظل لواء الاسكندرونة منفصلاً عنها مضموماً الى تركيا أهدتها اياه انكلترا وفرنسا دون أن تسألنا رأينا في ذلك . وأي رأي كان لنا يومئذ ونحن تحت كابوس الانتداب . ثم أصبح العامر من فلسطين دولة اسرائيل اليهودية وضم قسم ضئيل من الداخل أي من داخل فلسطين الى شرقي الأردن .

وما زلنا نشهد الاختلاف بين المتجاورين حتى لنظنّ احداهن أن أرض جارتها هي أرض عدوتها ، ويكون الاختلاف في الاكثر على أمور يمكن تسويتها بالاقناع ، واذا وقع خلاف بين بعض الدول العربية فتكون احدى الدول الغربية هي النافخة في ضرامه على الاكثر . ويؤلمني مايحدث الحين بعد الآخر وأنعي على تلك الدول اقدامها على تقسيمنا تقسيماً لا يدخل في منطق سديد ثم تجويزها القاء الشغب بين حكومات هي في جوهرها من أصل واحد .

وبقيت سورية مع هذا التقسيم الجائر أوسع الاجزاء المقسمة رقعة ، فيها الساحل والداخل وفيها مرافق ومناجم ، وفيها موارد عظيمة من زراعتها وصناعتها وهي ما برحت تشكو نزع بعض أعضائها منها كأقضية حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك وغيرها ، ولا يبعد أن يأتي زمن تتحد فيه سورية بأجمعها وتصبح كتلة واحدة مع جاراتها وهذا يتحقق يوم يدرك الساسة في لبنان مصلحتهم الحقيقية . إذ من المضحك أن تعيش الدول الصغرى برأسها بعد الآن .

أما الكتلة اليهودية الجديدة ونفوسها تزيد سنة عن سنة زيادة مطردة ممن هاجر إليها من متشردي اليهود ومن ينزح اليها من الشرق والغرب فانها الجرح النغار الذي لا يندمل ، والله نسأل أن يقي شرها سورية خاصة وأرض العرب عامة .

الدعوة الصهيونية

روى الثقات أن مملكة اسرائيل وضعت في موازنتها عن السنة الجديدة مئتين مليون جنيه استرليني تنفقها في الدعاية وانها كلما صدر كتاب يعطف على العرب ويقول الحق في مسألة فلسطين ويظهر حقائق الصهيونيين يبتاعون نسخه ويحرقونها على نحو ما فعلوا بكتاب « فلسطين اليوم » لأحد علماء المشرقيات البريطانيين ، وكما كان منهم بكتاب أصدرته الجمعية المسيحية الانكليزية فاشتروا المطبوع منه كله بستة ملايين دولار وجعلوه طعاماً للنار . ولا بد أن يسأل من يقرأ هذا كم تنفق دول الجامعة العربية على مثل هذا الشأن يا ترى وسياسة العصر تقوم على الدعاية ؟ . ولعل دول العرب تعتقد أن مجرد كتابة مقالة في الصهيونية تنشر في صحيفة عربية كافٍ في اتقاء غارات الدعايات وصد تيار الصهيونية الجارف .

يعمل الصهيونيون بعقلية غربية ودول الجامعة العربية لم تبرح تعمل بعقلية شرقية قديمة .

دعايتنا ودعاية غيرنا

كانت النصرانية منذ ظهورها ابنة الدعاية المنظمة ، وانتشر الاسلام بالمصادفة وعمت كلمته في أواسط افريقية وجزائر اندونوسيا والصين وذلك على أيدي جماعات من التجار اتخذوا لهداية المشركين والوثنيين طرقاً لا تعقيد فيها ، وساروا في دعايتهم لدينهم على ما يقبله العقل فانتحله عشرات الملايين من هذه الشعوب الشرقية .

وكان من تساهل المسلمين مع دعاة النصرانية أن تسلل هؤلاء الى صميم بلاد الاسلام ، والاسلام في معظم قوته يناقشون المسلمين ويدعونهم الى دينهم . وكانت تصل دعايتهم الى أرقى الطبقات المسلمة والدعاة في حلّ من بث دعايتهم بينهم على ما كان منهم في الاندلس وفي بغداد عاصمة اعظم خلافة اسلامية . ولقد ألقى المسلمون الحبل على الغارب في معظم عصورهم لايقانهم ان دينهم لا يحتاج الى من يروج له ، وليس لهم ان يتعبوا انفسهم بدفع قوة المخالفين عنه .

تقوم دعاية الغربي في العادة على المفاداة والبذل والتعليم ، وطريقة المسلم استسلام وتسليم وتوكل وتواكل . بنى الغربي دعايته الدينية والدنيوية على قواعد فيها صبر وحنكة ، وبذلك انتشرت النصرانية في زنوج افريقية وفي الصين واليابان والهند . وبقوة الدعاية وصل الغرب الى ما لم يصل اليه المسلم الشرقي . ومعظم الامور في الغرب من اثر الدعاية يدعمها العلم والمعرفة لا تقف قوة في وجهها ، توفروا قروناً على اتخاذ اسباب نجاحها بتسلسل في الفكر واطراد في العمل . وتاريخ الرهبنات اللاتينية وتاريخ الكنيسة البروتستانتية مثال عجيب من هذا الاقدام وهذا الاخلاص .

لو أحسنا الدعاية وواظبنا عليها كما واظبت أمم الغرب ورجال دينه لكان أهل الاسلام اليوم ثلاثة أضعاف ماهم عليه ولكان صوتهم في سياسة العالم مسموعاً وبأسهم في صراع الحياة مخشياً .

المعذبون في الارض

قال الاستاذ مصطفى مرعي بك وقد سئل في جملة من سئل رأيه في خطبة العرش (١٩٥٠) : كان الظن أن يُعنى بالمزارعين غير الملاك أو الذين لا يملكون الا القليل من الارض وهؤلاء هم كثرة سكان مصر وهم المعذبون في الارض على حد قول من قال .

كان الظن أن تعنى خطبة العرش بهؤلاء فتتضمن ما يفيد ان الحكومة معنية بهم ، عاملة على تخفيف أعباء الحياة عنهم ، لكن الخطبة خلت حتى من مجرد الاشارة اليهم . وهذا نقص كنت أود ألا يشوب الخطبة لا سيما وان من الحكومات السالفة حكومات عُنيت بهذا الشأن وجعلته مدار بحثها وخلصت من ذلك الى تشريعات عدة منها تشريع توزيع اراضي الدولة على المعدمين من المزارعين ، وتشريع تثبيت الاجارات الزراعية ، وتشريع الحد من الملكية الريفية ، وتشريع منع الاجانب من تملك أرض الزراعة ، وما الى ذلك من التشريعات التي لا مَعْدى عنها لرفع مستوى الحياة في الريف وتخفيف الضائقة التي تحيط بسكانه وهم عصب الدولة ودعامتها ومصدر الخير فيها اه .

هذا ما قاله العظيم المصري واثبت ان حكومته سارت هذه المرة أيضاً على ما ألفته من الغفلة عن مصلحة الفلاح كأنهم يحاولون الرجوع به الى ما قبل حكم سعيد باشا والي مصر وكان الفلاح قبل عهده يعمل في الارض ولا يملكها .

وفي سبيل نشل الفلاح المصري من بؤسه وانقاء عادية الشيوعية كنت عرضت على المراجع العليا في مصر رأيي في توزيع اراضي الدولة على الفلاحين حتى لا يفتح المجال للشيوعية ، فسمعت وعوداً ولم أشهد تحقيقها كلها . وما برحت أعتقد أن توزيع كل ما يصلح للزرع من الارض

في وادي النيل وتطبيق هذه التشريعات المفيدة التي سنتها الحكومات المتعاقبة في الزمن الأخير من أهم ما يدرأ الخطر عنها أو يقلل من شرته وأرى الى ذلك وجوب سن قانون يحظر على الفرد أن يملك أكثر من مئة فدان وأقل من خمسة أفدنة مثلا . وكل ذلك يجب على مصر أن تبادر الى تنفيذه قبل فوات الوقت ، فقد أصبح أتباع الشيوعية ثلث سكان الأرض وثبت أن دعوتها تنتشر في مصر انتشاراً مطرداً أكثر من البلاد العربية الأخرى . وفي كل حين يكشف رجال الأمن في مصر خلية من خلايا الشيوعية . واذا تم تقسيم الأرض فواجب ولاة الأمر منذ الآن ايجاد موارد أخرى للمصريين لتخفيف البؤس والفقر عن السواد الأعظم

عناية المستعربين

ألقيت في دار المعلمين العليا بالقاهرة (يوم ٥ مايو سنة ١٩٢٧) محاضرة في « أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية » عددت فيها ما نشره المستعربون من علماء المشرقيات من الكتب العربية القديمة وأثنيت على هممهم في احيائها واتقان تصحيحها والتعليق عليها ووضع فهارس لها ، وتمنيت لو ساهم علماؤنا وأدباؤنا في هذه الخدمة الجليلة لأن الكتب كتبنا ، والمدنية مدنيتنا ، وصاحب البيت أحق بالعطف عليه وعلى من فيه .

فنهض صديقي العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله عند اتمام كلامي يقول ان علماء المشرقيات لا يتوخون من خدمة علومنا الا خدمة أممهم في سياستها ودينها ، ويطعنون في الاسلام والعرب بلا حق ، والتعصب الديني يعميهم . فتبرم بعض الأساتذة الحاضرين بكلام الاستاذ جاويش وعدوه خروجاً على الموضوع ، لأني أثنيت على المستعربين من الغربيين

من حيث أفادوا حضارتنا ، ونحن استفدنا منهم بالعرض . وكان ممن شهد المحاضرة الأستاذ علي الشمسي باشا وزير المعارف يومئذ فقال لصديقي الأستاذ سيد كامل : سامح الله الشيخ جاويش على ملاحظاته على هـذه المحاضرة التي تجلى فيها البحث ومبلغ تمكن صاحبها من موضوعه ، وهو لم يتعرض لمدح المستشرقين في السياسة والدين وانما ذكر أفضالهم على لغتنا وحضارتنا بنشر كتب أسلافنا ، أو ما هذا فحواه .

أعجبت وما برحت أعجب بما تم على أيدي علماء المشرقيات في خدمة أدبنا ، مع علمي أن جلّهم يعمل لسياسة لا تنفعنا ، وأن منهم قسيسين ودعاة دين ، وجواسيس يتخذون من الاستشراق آلة للوصول الى مآرب أخرى لهم . وأحب مع هذا ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نطلب ممن لم يتأدبوا أدبنا ، ولم تفعل فيهم أحاسيسنا ، ولا دانوا ديننا ، أن يعتقدوا ما نعتقد ويكتبوا فينا ما نحب . فلكل جنس تفكيره ، ولكل قبيل نزعته ، ولكل جيل غرضه . على ان ذلك لا يمنعنا من الحذر من هؤلاء المستشرقين وخاصة ممن كان لبلادهم غايات سياسية في بلادنا .

الباكستان والهندستان

زارني أوائل الحرب الأخيرة مع صديقي خليل مردم بك مسلم هندي عجوز يحمل وصاة من بعض معارفي في مصر ، وهو يتكلم العربيـة ويظهر الصلاح والتقوى ، وبعد محاورة قليلة ظهر لي أنه صاحب أفكار متضاربة غير متناسقة ، وشككت فيه وفي مهمته ، خصوصاً لما سألته عن عمله فقال مرة انه يشتغل بالفلسفة ، وأخرى أنه صحافي ، وما ظننته إلا أنه يشتغل لحساب الانكليز . ثم وضع لي ولصاحبي سؤالاً وهو قوله ألا يسركما أن يستقل المسلمون في الهند ؟ فأجبناه بلسان واحد نحب أن تستقل الهند كلها وألا تتجزأ حتى لا يكون المسلمون مطية للمستعمرين ،

فما راقه رأينا وقال انه من المتعذر اجتماع الوثنيين مع المسلمين . ولما قلنا له انه ليست للمسلمين في الهند بقعة خاصة حتى يؤسسوا بمملكة على حيالها قال ان استقلالهم غير متعذر ، وستكون المملكة الاسلامية شطرين تفصل بينهما بلاد الهندوكيين . (المسافة بينهما الف ميل فقط)

استقلت الهند منذ أربع سنين وكنت أرجو لو خفف الهنود من تعصبهم حتى يتأتى الجمع بينهم وبين مواطنيهم المسلمين في أرض واحدة وتحت علم واحد . ولو تيسر استقلال الهند من غير تقسيمها لاغتبط كل عاقل ينظر في العواقب بنور البصيرة . وأنا ما جوزت حياتي قسمة أرض ذات مساحة محدودة الى شطرين أو ثلاثة مخافة أن يقل الانتفاع بها كما لو كانت قطعة واحدة ، فكيف أوافق على تقسيم الهند الى حصتين يستحيل أن ترتفع الفتن من بينهما على الدهر ، وما حدث من اختلاف في السنين الأخيرة بين الشعبين العظيمين سبب اهراق دماء كثيرة . ثم ان الهندستان بقي في حكمها أربعون مليوناً من المسلمين فكان يسع مسلمي الباكستان ما وسع اخوانهم في دولة الهند .

الجمهورية عندنا

زرت رئيس الجمهورية الثالث لدى عودتي الى دمشق في بعض السنين أحمل اليه سلام ملك مصر ، وكان قبل سفري عهد اليَّ بتقديم تحياته الى جلالته . فقال لي رئيس ديوانه انني في مصر لا أتعارف الى الجمهورية فقلت له : أوَكتب اليكم مفوضكم بذلك ؟ فأنكر أن يكون كتب . وقلت للرئيس : نعم اني لا أتعارف الى الجمهورية في شخص مفوضكم السيد جميل مردم بك ، فقد دعاني مرتين في سنتين الى بعض حفلاته في المفوضية فلم أجبه الى دعوته ، ولم أعتذر اليه ، لعلمي بأنه يدس

عليّ ويتعمد ايذائي ، ويُظهر لي الود ويبطن خلافه ، فرأيت من الصواب ألا أكثر سواد أصحابه بحضور حفلاته ولا ألاطف من يضمر لي السوء .

وفي السنة التالية هبطت مصر فلقيت صديقي الاستاذ عثمان محرم باشا من عظماء وزراء القطر وأكبر مهندسيه الاعلام ، فقال لي : انه بلغه أن أكثر من نصف أهل سورية لا يقولون بالحكم الجمهوري ، وان هواهم في الحكم الملكي . فقلت له ما معناه : أنت تعرف يا باشا منزلة السوريين من العلم والصنائع والتجارة واننا بلغنا درجة عالية في الحضارة والثقافة حتى كدنا نسامي الراقين من الغربيين ، وتعرف أيضاً أننا ناهضنا أكبر دولة حربية من أجل حريتنا ، فكيف نرضى لأنفسنا - وقد نلنا استقلالنا تاماً غير منقوص - أن نعود فنطلب الانتداب علينا مرة أخرى ونستبدل الانتداب الفرنسي بالانتداب الانكليزي بزعامة ملك قد لا يرضينا حكمه . واني اذا قلت لك أن واحداً في المئة منا يفضل الملكية أكون الى المبالغة ، ويدخل في هذا الواحد من طردوا من خدمة الدولة لسوء أخلاقهم ، أو لأسباب سياسية وحزبية . واذا كان هناك نقص في أدوات الحكم الآن ، فالنقص يكمل بطول الزمن وما مردّ ذلك الا أمور اقتصادية وفنية ، والمال يعوزنا ، والفنيون فينا ليسوا من الكثرة بحيث يسدون الحاجة ، ونحن مع هذا آخذون بالترقي السريع وسنبلغ ما نتمنى . ثم ان بعض الرؤساء هم من أبناء الاعيان ربوا في عهد العثمانيين في مدارس تركية عالية ، وطالبوا بالحرية واضطهدوا وغرّبوا وسجنوا ، وأتي زمن استولوا فيه على أزمة الحكم . الى آخر ماقلت . وعدت الى دمشق وزرت رئيس الجمهورية وقصصت عليه مادار بيني وبين العظيم المصري من حديث ، وما تنازل أن يشكرني على تعارفي هذه المرة الى الجمهورية .

الأحكام العرفية

ودّ كثير ممن يقدرون المسائل بقيمتها ، لا بأسمائها وظواهرها ، لو دام الحكم العرفي في سورية بضع سنين (أيام البلبلة السياسية) لوضع الامور في نصابها ، ولئلا يفتح مجال لمن يعكرون صفـــاء الخلق باسم الحرية ، ويخلون بالأنظمة ثم يدّعون المحافظة عليها .

لايعرف معنى الحرية من لم يثقف ثقافة حرة ، ومن كان هو وآباؤه وأجداده عبيداً لكل دولة تقوم ولكل قوة تظهر ، لا يرجى أن يفيد قلامة ظفر في انشاء أوضـاع حرة . ولن يصبح الامر على غير هذا مادمنا نتمتع بحسنات الحرية دون أن ندفع ثمنها الغالي كما دفعه أهل الغرب ، وجدّوا أجيـالاً حتى رسخت في عقولهم وقلوبهم ، ونحن ماذا علينا من الحرية على حين لم نفهم روحها ولا ما نتوقع من نعمتها أن نسمي الفوضى حرية ونستريح الى حكم الافاقين .

الحرية عندنا هي استئثار الكبراء بالمغانم ، وطرح المغارم على عاتق الطبقات النازلة من السواد الاعظم ، وارضاء بعض الأسر بتفضيلهم على غيرهم في الاستخدام ، وترك جمهرة القوم لايعطونهم حقوقاً تعترف لهم بها العادة والعرف . وهيهات أن تنظم حال مملكة لا ينظر لهذه الفئة أنهم أهم جزء فيها .

كانت القوانين في الادوار السالفـة تنقسم الى قسمين ، قسم يطبق على الفقراء وعلى من يتيسر تطبيقـه عليهم من جمهور الشعب ، وقسم يعفى منه أقرباء الحكام وحواشيهم وحواشي حواشيهم ، ومن يقوم في أذهان القائمين بالامر رعايته ، ويرون من الواجب اعفاءه من أحكامه ، ونقص القانون تابع لذمة المشرف على تنفيذه ، والذمة قليلة ويا للأسف في هذه الطبقة من رجال الدولة .

أما في عهد الحكم العرفي ، فالقوانين نافذة على الرعية كافة ، ولذلك يذهب بعضهم الى أن نشر الاحكام العرفية نافع بعد الثورات ليأمن القوم غائلة من يتخذون القوانين سلاحاً يقاتلون به الاحرار .

القانون الصالح هو النافذ على الكبير والصغير ، ولو كان فيه بعض النقص في الظاهر ، وما دام لاينجو أحد من سلطانه ففيه مقنع لجميع طبقات الشعب ، ولا يحق لأحد أن يفتح فاه بالشكوى وأن يدعي أن هذا عدل وهذا ظلم . علينا أبداً أن نعود أنفسنا طاعة القوانين ، نطيعها برضانا واختيارنا لا نتبرم منها ولا نتململ .

(كتب هذا الفصل عقيب الثورة السورية الاولى)

مؤلمات

ماكانت الحروب الصليبية الا لطخة عار سودت تاريخ أوربا . ولا تقلُّ عنها عاراً جميع حروب الاستعمار في القرون الحديثة .

على نسبة انغماس الناس في الماديات يبعدون عن تعاليم الدين ويتناسون فروضه وواجباته ، ولا يكاد يعهد متدين استجمع مقومات الحياة ، ولا صاحب ماديات قام حق القيام بما يأمره به الدين .

كان البشر في الأزمان الغابرة يتقاتلون في ساحات الوغى ، ورعايا المتقاتلين بأمن من الغارات في مدنهم ودورهم وحقولهم ، وفي هذا العصر أصبح يباح لكل محارب أن يقتل ويدمر ما هان عليه القتل والتدمير في أرض عدوه لا فرق بين المسالم والمحارب .

كيف لا يغتبط العاقل اذا رأى حوله عدد من لا يكذبون ولا

يسرقون أكثر من عدد من يخالفونهم . يوم كان الناس أقرب الى الاعتقاد بالآخرة كان الخير موفوراً في عامة الطبقات .

على كل وطني أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن من المسائل الوطنية ما لا ينحل ان لم يشترك كل وطني بحصته من العناية بها ، ويجود من ماله ووقته ما وسعه الجود ، والا بقي النقص ملازماً كل ناحية من النواحي التي يعوزها الجهد . الثرثرة بدعوى الوطنية من دون القيام بما تفرضه لا يصلح بها حال ولا تقوم مدنية .

ما تفرد رجل عن قومه بفضيلة الا حسده لئامهم وأبغضوه ، ولن يسالموه الا اذا جاراهم في انحطاطهم وخمولهم ، ولا يزالون يقولون فيه كل ماينم عن رداءة أو يخلع الثوب الجديد الذي يحاول ارتداءه ويساويهم في مساويهم .

جارت الشعوب اللاتينية على العرب وعاملوهم في كل قرن بأقصى ضروب الشدة ، وكان الباباوات السبب الأول في هذا الجور الفظيع فانهم ما غفلوا يوماً عن ايغار صدور أبناء كنيستهم على العرب ليضعفوهم ويردوهم على أعقابهم . لولا رومية ما نشبت الحروب الصليبية ، ولولا رومية ما طرد العرب من الأندلس وصقلية .

يشبه فتح العرب الأندلس صاحب رسالة في الاحسان أبلغها لمن يجب على أكمل وجه ، ولما انتهت مهمته جازاه عبيد احسانه على ماقدم لهم من خير بأفظع ما يعامل به انسان .

حروب الكاثوليك والبرتستانت في اوربا مثال من قسوة قلوب الغربيين وتعصب رجال الدين .

أعجب أهل الشرق والغرب بدعاية المهاتما غاندي الحكيم الهندي ليخرج أمته من رق العبودية الى ساحة الحرية ، وكان يحترمه حتى أعداؤه الذين ناصبهم العداء ليجلوهم عن وطنه ، فكافأته أمته على جهاده العظيم بأن قتلته بيد أحد أبنائها .

عندما يجري تنصيب صغار العمال وكبارهم بالنظر الى كفايتهم لا بالشفاعة ولا الحماية ينتظم جانب عظيم من الخلل المشاهد في أدوات الادارة في الشرق العربي .

لما جرى تصنيف درجات المعلمين والمعلمات في احدى وزارات المعارف بعث أحد الرؤساء الموكول اليهم أمر التصنيف ـ وكان سفيهاً مستهتراً ـ الى ثلاث معلمات يقول : انه لا يصنفهن الا اذا خـلا بهن الخلوة التي يريدها ، فأجبنه : صنفنا ولك ما سألت . بهذه الاخلاق الساقطة لا يربى نشء صالح .

أظهر ما أقبلنا عليه من مظاهر المدنية شهود قاعات السينما ومطالعة الروايات الغرامية والبوليسية ، ولما كان هزل هذا النوع من المسليات يزيد على جده بات يخشى على الاخلاق أن تتردى اكثر مما هي متردية .

من سوء بخت أمتي استيلاء دولتين عليها تخالفانهـــا في مدنيتها . خرجت الاولى من أرضها بعد أن قضت على المدنية القديمة ، وغادرتهـا الثانية تاركة وراءها شيئاً من المدنية الحديثة .

عنيت زمناً بالنظر في حال الجزائريين والتونسيين والمراكشيين مع الاستعمار الفرنسي ، وأنفقت قسماً كبيراً من وقتي أتدبر ادارة الترك العثمانيين في ديار العرب ، فثبت لي ان الدولة الراقية كالدولة المنحطة سواء في الظلم والجبروت .

نسمع جميع شعوب الارض تكره الحرب ، ثم هي تدخل فيها لتنال بالحق والباطل من أعدائها ، أو ممن صورتهم أنهم أعداؤها ، وليت شعري ألا يوجد في عقلاء الدنيا من يصف دواء ناجعاً لمداواة هذا الداء الوبيل ، داء الحرب وقتل الأنفس وتدمير المدن والقرى على نحو ما اخترعوا القنبلة الذرية لاهلاك الحرث والنسل .

مات غني كبير ولم يوص بدرهم للفقراء حاذياً بذلك حذو معظم جماعته من الاغنياء في هذه الديار ، وقال من عرفوه وعرفوا ما جمع من ثروة انه لو كان في حياته يخرج زكاة أمواله لاستحق عليه للفقراء كل سنة مبلغ عظيم يعول مئات منهم . نعم لو أخرج أغنياء المسلمين زكوات أموالهم بدقة ما بقي من يمد يده الى الصدقة .

جرت العادة ألا تقاتل الدول الكبرى أعداءها الا باشراك الدول الصغرى معها ، وهذه الدويلات مقطورة على الدوام في ذنب الدول العظمى ، ومتى بذل المال عن سعة يصبح ساسة الدول الصغرى من بعض عمال من استتبعوهم ، وتغدو الشعوب الصغيرة كأنها بعض رعايا الشعوب الكبيرة .

من أعظم البلاء أن يملي جاهل على عالم ارادته ، ويطمع في متابعته على هواه دون اعتراض .

ليس ما يجري من دموع الفقراء أقل مما يشربه الاغنياء من الخمور ، الفريق الاول يشقى ويعذّب ، والثاني يَنعم ويطرب .

في أواخر عهد العثمانيين كان بعض العمال في الولايات العربية لايرون مانعاً من سلب من يبدو لهم سلبهم من الرعايا ، وما كانت الرشوة مما ينكر ، وقد يخجل الراشي ولا يخجل الرائش والمرتشي . وعادت

هذه الحال فتجددت في العصر الحديث ، فكان الحكم الديموقراطي كالحكم الاستبدادي حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل .

قال أحد رؤساء الجمهورية لصاحب شرطته ذات يوم : اكفني شرَّ فلان يعني أحد أرباب الجرائد وهو لم يفه الى أخذ رشوته ، وكان يكلمه بحرية . فاذا كان صاحب الامر يدعو الى قتل من لم يمالئه على أهوائه ، فمن يلجأ اليه في حماية الارواح والاعراض .

ظن بعض الرؤساء أنهم يبتزون أموال الرعية بطرقهم السافلة ويعمي أمرهم على أرباب المدارك ، لقد كذب ظنهم ان من الامور ما يحمل شواهده معه . ان لم تكن هدايا الحلي النادرة ، والحلل الفاخرة ، وعشرات الاكياس من الارز والحنطة وصفائح السمن والعسل وغيرها ضرباً من الرشوة ، فما هي الرشوة يا ترى في عرف هؤلاء المتنطعين ؟ ان رئيساً يدعي النزاهة ويقبل الهدايا على أنواعها ، ويسكت عن سرقات من يرأسهم هو شريكهم وان قال بعفته شركاؤه .

اختلفت الآراء في مصدر ثروة عظيمة جمعها عاملان من عمال احدى الدول العربية ، فمن قائل انها جنياها من رواتب سيدهما وانعاماته ، ومما في أرضه من طرق الانتفاع . ومن مدع أن الاجانب من أرباب المصالح في تلك المملكة هم الذين غذوهما بهذا المال . وسواء صح الرأي الاول أو الثاني فمما لا نزاع فيه ، أن هـــذا المال غير شريف كمعظم ثروات العمال في هذا الشرق .

الدول الغربية تغدق المال اغداقاً على من تصطنعهم لنقل أخبـــار ملوكنا ورؤسائنا ، وربما فرضتهم عليهم فرضاً اذا وقع في نفسها أنهم ينفعونها في سياستها .

يدعي بعض العمال النزاهة ويقبلون دعوات أرباب المصالح يشاركونهم في قصفهم ولهوهم ويشربون من شرابهم ، ويأكلون طعامهم ، ويخلعون معهم ثوب الوقار . مسكينة هذه النزاهة يتوقف تحقيقها على شروط كثيرة ، ونصف العمال أبعد الناس عن مراعاة ذلك .

جاء تيمورلنك التتري أوائل القرن التاسع الى الشام في ثمانمائة الف مقاتل فيما ذكر أرباب الأخبار فلم يقبل الدمشقيون أن ينزلوا على حكمه مغرورين بخمسة آلاف جندي كانوا يرابطون في القلعة ، فضرب تيمورلنك دمشق وحلب ضربة هلك فيها عشرات الألوف من الخلق وذهبت الثروة وعم الخراب . مثال من التقاء أعظم مهاجم بأضعف مدافع ، وقد جمع هذا الى قلة تدبيره عناداً وغروراً .

لو لم يشتغل العرب لأول أمرهم بمسألة الخلافة لفتحوا دولة الروم وانتشر الاسلام في أوربا وعمت العالم دعوته .

ما أشد اغترار الناس بالجمعيات الحديثة وبخاصة اذا توهم الداخلون فيها مغنماً ، فقد ظن من دخلوا في الماسونية أنها جمعية تفيد الانسانية وتفيدهم في دنياهم ، ولو عرفوا أنها جمعية صهيونية لا يقصد منها الا مصالح اليهود ما انخرط فيها هذا العدد الدثر من المسلمين والمسيحيين .

لاستيلاء النصرانية على فلسطين في القرون الوسطى حارب أهل الغرب المسلمين قرنين ورجعوا بالفشل ، ولاستيلاء اليهود على فلسطين في العهد الحديث حارب الصهيونيون المسلمين أشهراً فبلغوا ماطمحوا اليه بمعاونة بعض دول النصرانية لهم .

ألقت أميركا القنبلة الذرية أواخر الحرب العالمية الأخيرة على مدينتين من مدن اليابان فهلك مائتا الف انسان وانتهت الحرب ، وما زالت هذه القنبلة مثار البحث بين الدول الحاكمة على أقدار الانسانية لعهدنا

وهي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى حامية الديمقراطيات ، وروسيا رافعة علم الشيوعية . وقد أجمع العلماء أن بضع قنابل تكفي لخراب الأرض وابادة المدنية ، وليس بعد ذلك همجية .

لما انقرض مذهب المعتزلة تراجع أمر المسلمين عامة ، ذلك لأن قوة أهل الاسلام كانت معلقة على الخلافة ، والخلافة مسخ جمالها يومئذ بما عراها من ضعف في جسمها وروحها .

تذرعت فرنسا بكل ما لديها من قوة حتى تبقي لها مستعمراتها الاسلامية ملكاً أبدياً فسدت منافذ الحرية عن رعاياها وعبثت بمقدساتهم وضمتهم الى جنسيتها بالقوة ، وأبقتهم في جهالة وفقر ، فغرست بذلك في نفوسهم من بغضها مالا تزيله الايام .

أتت الاحزاب السياسية الى الوزارات في هذا الشرق القريب بأناس لا يعرفون من أمرها الا مايعرف الحداد من صنعة الساعاتي .

مما يتحسر له قلب كل عربي أن ملوك جزيرة العرب وأمراءها لم يبدأوا حتى الآن بالسير على آثار الشعوب العربية الناهضة ، ولا تذرعوا بذرائع النهضة على ما يجب ، وما ندري حتام يسوفون والزمان حافز ومن لا يجاريه يهلك .

مما يبكي أن ما أبدعه الغرب من الاختراعات العظيمة لخدمة الانسانية اتخذه أرباب السياسة منهم ذريعة لقتل الانسان حتى يستولي القوي على ملك الضعيف ، ويستأثر بموارده ورزقه .

نشأت مع الانتداب في سورية ولبنان طبقة من الوزراء لا يمتازون عن اللصوص الا بتأنقهم بلباسهم ، وركوبهم أفخم السيارات ، فعجبت لمن كان بأيديهم نصبهم وتنحيتهم كيف كانوا يسكتون عنهم ، على معرفتهم

بما تكسبه أيديهم ، وكانوا يأتون بهم الى الحكم على حين لا يجهلون ما يجلبون بسوء سيرتهم من الضرر العظيم على سمعة الانتداب نفسه . وكان هؤلاء اللصوص يرضون بعض المنتدبين بموالاة الهدايا العظيمة اليهم ويشاطرونهم المغانم ، وهم الى ذلك يتظاهرون بشتم أمتهم ويتبرأون من همجيتها ويستميتون في الاخلاص لدولة الانتداب .

غاظني لص يعيش بأكل أموال الخلق وهو يظهر بمظهر الصلاح فكان شأنه شأن أهل قرية كان أهلها يعتمون بعمائم خضر ويقال لهم السادة في النهار فاذا جن الليل ينزعون عمائمهم ويلبسون لباس اللصوص ليسرقوا كل ما طالت اليه أيديهم .

كلما ضعفت في الرؤساء الغيرة على الحرم فسدت الانساب وتداعت البيوت

ما ينقضي عجبي من انسان يرتكب كل ما يعبث بالمروءة وهو عند نفسه أنه يخدع من حوله بظهوره بلباس التقوى .

من غرائب مصر أن رجلا من أعظم البارزين من رجال سياستها رفع الى أرقى منصب ديني رجلا من أصحابه بحجة انه كانت له عليه يد أيام الدراسة . وسد اليه المنصب العظيم وهو مريض مرضاً يمنعه من القيام بأعبائه . ليت ولاة الامر يكافئون بالمال من يريدون العطف عليهم وهذا أفضل من أن ينصبوهم في مقامات يتناولون فيها المشاهرات العظيمة ولا يوفون ببعض ما يجب عليهم من الواجبات .

قلت لأحد العارفين ان فلاناً من عظماء رؤسائنا قد أثبت نزاهته في عدة مواطن فقال : لقد قلت الحق الا انه يتسامح مع المرتشين في حكومته كأنه لا يريد أن يثير عليه مسائل هو في غنية عنها أو انه يرتقب الزمن حتى يتمكن من صرف الفاسدين والاستعاضة عنهم بمن

يخرجهم ليخلفوهم . وهذا لا يقوم عذراً له على سكوته عن المرتكبين على أي حال ، وما أظن أحداً من رجالنا خلا من هذا العيب ، ومن أجل هذا كان الفساد أبداً متسلسلا في هذه الدول .

كم أتمنى أن يلهم المولى من وسدت اليهم مقاليد الحكم في ديار العرب أن يفكروا في المصلحة العامة زيادة على تفكيرهم في مصلحتهم الخاصة . عشرات من الوزارات تعاورت الحكم في العراق والشام ومصر في العهد الاخير وما كان اهتمامها بواجبها على الاكثر عشر اهتمامها بدفع صائل الاحزاب المعادية لها . ومما يخجل ان كل وزارة تتألف لا تستنكف من بذل الوعود المغرية للأمة واعلانها عما تنوي وزارتها القيام به من الاصلاح فيتحقق بعد تخليها عن الحكم أن كل ما وعدت به كذب في كذب .

جارت الطبيعة على بعض الفتيات فبقين عوانس في بيوت أهلهن العمر كله ، وهن ما خلقن الا ليكن أمهات .

كلما زاد عدد رجال المحاماة طال حل القضايا وزادت النفقات على الدعاوي . أتعاب المحاماة سبب هذا التطويل والتضليل .

بعض عمال الدولة يستهدون الناس ، والهدية رشوة مقنعة بقناع جميل .

ما أظن أمم الارض أنشأت أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان ولا أعظم بلاء منهم في خدمة الحق والعدل ومع هذا يكثر بعض فرق الشيعة

من لعنهم على ما لم يقل به الدين ولا العقل . ويختلقون لهم من المساوىء ما لا أثر له الا في قلوبهم النغلة (١) .

لو جمع كل ما أتاه الشيعة في دولهم من الاحسان ما وازى عشر ما تم على أيدي السلاجقة في فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى من الحسنات . والسلاجقة أتراك جماعيون .

سألت بعض من يركن الى أقوالهم من الداخلين في الماسونية عما أفادوه منها ، فكانوا يأسفون لوقت أضاعوه في أمور ما أنتجت الا أن كانوا مطية لأغراض الرؤساء والمقدمين في الدرجات .

غلة النفط في العراق تنفق بتقدير ، وغلته في نجد تصرف بتبذير ، وفي ذلك اشارة الى عقلية الحكومتين .

أخذ رجال الدولة السعودية يستغلون ثرواتهم في مصر ، يبتاعون المزارع ، ويقتنون العقارات ، ويبنون القصور في القاهرة وضواحيها ، عدا ما لهم في البلاد الاخرى من الاموال والاملاك ، هذا وقد عمّ الفقر سكان الحجاز ونجد ، ولا من يسأل هؤلاء الرتوت من أين لكم هذا ؟ .

---

(١) في كتاب الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية صورة المناظرة التي جرت سنة ١١٥٦ هـ بين عبدالله السويدي البغدادي من علماء السنة وبين الشيعة وقد جاء ملك العجم طهماسب قلى الى العراق واراد ان يعترف بصحة مذهب الشيعة وانه مذهب جعفر الصادق قال طهماسب انه شرط حين المبايعة في صحراء مغان عام ١١٤٨ رفع سب الشيخين والآن رفعت السب فمن سب قتلته وامرت اولاده وعياله واخذت امواله . وحدث السب ايام الشاه اسماعيل الصفوي ولم تزل اولاده بعده تقفو اثره حتى كثر السب وذلك عام ٨٥٧ ودام السب ثلاثمائة سنة واجمع علماء السنة والشيعة في تلك المناظرة على ذكر الصحابة بخير فصار ذكرهم ومناقبهم ومفاخرهم في كل خيمة وعلى لسان الأعاجم كلهم يذكرون لأبي بكر وعمر وعثمان مناقب وفضائل يستنبطونها من الآيات والأحاديث ما يعجز عنه فحول اهل السنة ويسفهون رأي العجم والشاه اسماعيل في سبهم .

سمعت بعضهم يقول ان الصفات الشخصية لا تأثير لها في حالة الموظف أي انه لا يضر المقامر قماره ولا الفاسق فسقه ما دام يقوم بعمله اليومي المفروض عليه . ومن الاسف أن من يجب عليهم تحري حقائق المستخدمين هم أوغل في الفساد ممن هم تحت أيديهم ، لذلك نراهم يرحمون من لا يستحق الرحمة .

سألت في الحرب العالمية الاولى أحد المستعربين من علماء الالمان ، وكان قضى في الهند دهراً يدرس العربية في جامعة اليغرة في شمالي الهند ، هل صح أن الشيعة يبلغون ثلاثين مليوناً في الهند ؟ فانتفض وقال : هذا الاحصاء مبالغ فيه جداً اذ الشيعة هناك ما زادوا على نصف مليون ، أي أن جماعتهم وهم المتهمون بالمبالغة في تقدير كل ما يرفع من شأنهم أوصلوا الشيعة يومئذ في الهند الى ستين ضعفاً مما هم في الحقيقة . ولقد رأيت جميع الشيع التي انشقت من الاسلام تبالغ بعددها مبالغة مضحكة . سأل أحدهم أمامي رجلا دخل في مذهب القاديانية كم بلغ عدد جماعتكم فقال : أربعة ملايين . والقاديانية ما تجاوزوا الى اليوم ثلاثمائة شخص على ما حققه الثقات من القاديانيين أنفسهم .

زعم بعض المنشقين عن جمهرة المسلمين أن التاريخ لا يؤخذ من كتب أهل السنة لانهم يكذبون ، والواجب أخذه عن مؤرخي الشيعة لانهم صادقون . ما أضيق عقول هؤلاء الدعاة أضافوا الى تعصبهم الذميم مكابرة في المحسوس وقلة أدب .

يحاذر بعض المصريين الانتقاد وهم من أشد المشارقة حباً للمديح والتقريظ . واذا انتقد منتقد بعض الظاهرين منهم يفقد اتزانه ، واذا قرظهم مقرظ يغتبطون ويعدون ذلك منة له عليهم .

كان من أعظم أماني الشيعة في الاسلام أن يؤسسوا لهم دولة تجمع شملهم وتبث في العالمين دعوتهم ، فوفقوا الى تأسيس الدولة البويهية في الشرق ، والدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الصفوية في العجم ، وكانت كلها أحط بادارتها وسياستها من جميع الدول الاسلامية ، وفيها من العيوب ما يزيد على ما في الدول الجماعية .

يحاول بعض الامامية انكار ما صدر من جماعتهم ، ويتمحلون لهم الاعذار ، ويبرؤونهم مما نابذوا فيه الحق ، واذا حاججتهم بكتبهم أنكروها وقالوا ان الشيعة فرق كثيرة ، والامامية براء من هذه التقولات ، ويدعون أنهم يفضلون علياً فقط ولا يشتمون الصحابة .
والتفضيل بأدب لايؤلم بقدر مايؤلم الطعن في عشرات الالوف من الصحابة قام الاسلام على أيديهم .



ساسة الشرق

من أبلغ ماقرأت في الصحف المصرية كتاب استقالة الاستاذ مصطفى مرعي بك من وزارة الاستاذ حسين سري باشا . أنشره هنا نموذجاً يفهم منه روح كبار الساسة ، قال :

« حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .

تحية وبعد فانك تعلم كما يعلم غيرك أني انما اشتركت في حكومتك على أمل في أن لك غاية هي جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، وان لك هدفاً ، هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطير من مشاكلنا الداخلية والخارجية .

وقد تبين أنك لا تتغيا (?) هذه الغاية ولا تتوسل بوسائلها ، بل انك تبدو كما لو كنت مسلطاً لتجعل من كل حزب حزبين ومن كل فرقة فرقتين .

وقد رأيتك بنفسي ترى الرأي للحق وتنقضه للباطل ، وتقول الكلمة وتنكرها . ولم يقع ذلك مرة واحدة ، بل وقع مراراً في الخطير من شؤون الدولة .

امـا افظك واما عبـاراتك ، واما أسلوبك في ادارة منـاقشات مجلس الوزراء ، فقد أصبح هذا كله مضرب الامثـال وموضع التندر في كل مكان .

لهذا ، أحيطك علماً باعتزالي العمل في الوزارة ، والله المسؤول أن يدفع عن بلادنا السوء ، وأن يقيها غوائل الفساد » .

١٦ أكتوبر ١٩٤٩ مصطفى مرعي

الحنبليات الضارة

قال لي أحد أبناء وطني من مهاجري الشاميين في الارجنتين انه يحمل من مواطنيه فيها الى بلدته دير عطية في جبل قلمون مئتي ألف ليرة سورية لبناء جامع ومدرسة اناث ومدرسة ذكور ، وان بعض الثرثارين قال له : ان في هذا المال الذى تأتوننا به نظراً ، لأن منكم من يملك كروماً واسعة يعصر عنبها ليبيعه خمراً وهذا محرم فأجبت رسول المحسنين ، وقد عجزت عن الرد على ذاك القول من طريق الدين : بارك الله بمالكم ومال المتبرعين ، انكم تتوخون النهوض بمن خلفتم وراءكم من الاهل والعشير وليس بعد ذلك احسان ووطنية .

وسألت صديقي العلامة عبد المحسن الاسطواني أكبر علماء الحنفية في الديار الشامية عن حكم هذه الاموال فأتاني بالنص من كتب الفقه ، وقرأ عليّ مايلي : « وجاز بيع عصير العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً لان المعصية لاتقوم بعينه » وأبلغت هذه الفتوى مواطني الكريم فاغتبط بها وجماعته المغتربين أي اغتباط .

ومن هذا النوع من رمي الشريعة بالجمود ما يأتيه بعض أغنياء القطر المصري من ايداع أموالهم في المصارف وأكثرها للاجانب دون أن يتقاضوا عنها شيئاً من الفائدة تديناً . وتقدر هـــذه الودائع بعشرات الملايين من الجنيهات يتعفف أصحابها من أخذ أرباحها وهي مما له وجه حلّ اذا صرف في اطعام الفقراء وكسوتهم وتعليمهم . والعمل على ذلك جارٍ أكثر من جيلين . فكم ربحت مصارف الحربيين من أموال المصريين بهذا التحريم الموهوم ، وكم حرم أرباب البؤس من الانتفاع بفائدة هذه الاموال . ألا يعد ذلك من باب الحنبليات الضارة ومن الجمود الغريب ؟

أغراض السياسيين

قص عليّ صديقي خليل مطران الشاعر عليه الرحمة ما وقع له مع أحد أصدقائه من الأمراء قال : طلب اليّ ذات يوم أن أنظر فيما يصدر عن مكتبه من الرسائل أقوم عبارتها وأنقح أسلوبها ، فأخذت أختلف الى قصره مرتين في الاسبوع . وأرادني بعد مدة أن أتوسط له مع صاحب الأمر الأكبر في فض مشكلة تهمه . فقلت له : يامولاي أنا لا أصلح لهذه السفارة لعدة اعتبارات ذكرها ، والأولى أن يكون الوسيط بينكما من عيار أكبر من عياري كأن يكون أميراً أو سفيراً . فكان جوابه وعلى هذا فأنت تنتفع من صاحبك فلا تحب التوسط بيننا في مشكل يهمني قضاؤه على يدك . فأخذ الغضب من الأخ الخليل وقال : اني أختلف الى القصر منذ سنة كذا لأنظر في الرسائل الصادرة عن ديوانك فالتمس منك أن تتفضل وتسأل دائرتك هل قبضت درهماً مقابل عملي أو اجرة العربة التي تنتظرني حتى أعود فان كنت لم تعطني شيئاً حتى الآن وأنت أكرم من السحاب كيف ينفعني خصمك بشيء وهو من أبخل الخلق ؟ قال وتفارقنا والانقباض ظاهر على وجهي ، وحاول بعدها استرضائي فأبيت .

قال : ومضت برهة من الزمن وارتقى صاحبي الى منصب يستطيع فيه أن يضر وينفع ، فما هي الا أيام حتى داهم داري جماعة من رجال الامن العام يفتشون أوراقي ويطلبون مني القصيدة التي مدحت بها خصم الامير . فلم يعثروا على غير ما طبعته في الديوان . وكان المقصد منه خدمة مصر فقط . ثم ترامى اليّ أن ذاك الصدر العظيم تذرع بنفيي من مصر بدعوى أني شخص غير مرغوب فيه الا أن الانكليز لم يقبلوا بذلك . وكان السبب في وقايتي من التغريب رجل منهم ألف كتاباً بالفرنسية في العنصر

الصقلي (السلافي) أهدانيه فقرأته وكتبت فيه مقالة نشرتها في احدى الصحف الكبرى ، وذلك على غير معرفة بالمؤلف . ثم اجتمعنا وشكرني وهنأته على ابداعه في تأليفه ، ورجوته أن يكتب كتاباً على غراره في العنصر العربي ، وأنا أقدم له ما عندي من المواد عله يجد فيها بغيته . هذا الرجل هو الذي قال فيّ خيراً ونجوت بفضله من التغريب والتشريد

قصة لا يندر وقوع مثلها من أمراء الشرق ولذلك كان أكثر النابهين يبتعدون ما أمكن عنهم وينشدون مع ابن الوردي :

جانب السلطان واحذر بطشه   لا تعـاند من اذا قال فعل

مجمع مصر

لما اقترب موعد افتتاح مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية لاحظ أحد أصدقائي في المفوضية المصرية في دمشق أني غـير مستعد للسفر الى مصر حتى أحضر جلساته كالعادة في كل عام لأني لم أطلب جوازاً والحكومة المصرية طلبتني . فألح عليّ صاحبي بالذهاب . وزاد هذه السنة (١٩٥٠) الحاح بعض اخواني وتفضلوا وأوردوا لي حججهم لاجابة الطلب فاعتذرت بقلة نشاطي للسفر الى المؤتمر كما اعتذرت في العام الماضي بصحتي . وكان الحق في جانب من حاولوا اقناعي بالرحيل في السنتين الماضيـين ، لو كانت النقلة من قطر الى قطر سهلة عليّ ، وها قد اعتذرت هـذه السنة الثالثة عن الاشتراك في المؤتمر اللغوي .

اني أفضل أن يشغل هـذا المقعد في مجمع مصر من هو أصبر مني على معاناة مسائل اشتغلت بها زمناً طويلا ، وعندي الآن مايشغلني عنها . ولا تطيب نفسي بعد اليوم للتقيد بارادة غيري ، واجتهاد المرء يتغير ، وفي هذه الحقبة من العمر يحتـاج الانسان الى الهدوء ، وألا تقع عينه على ما يكره ويزعج .

الصحافة العربية

كلما زاد عدد من تخرجهم المدارس من الطلاب والطالبات يزيد قراء الصحف زيادة محمودة ، وتنتشر الثقافة بين الشعوب العربية على تباين الطبقات واللهجات ، وعلى نسبة ذلك يكثر ما تطبعه الصحف من الاعداد ويمتاز كتابها ببراعتهم ، ويرزقون على قدر شهرتهم .

عهدت أعظم جرائد مصر انتشاراً تطبع في اليوم من ألفين الى ثلاثة آلاف . ومن الصحف اليومية والاسبوعية اليوم مايطبع مئة وخمسة وعشرين ألفاً .

وعهدي بكتاب مصر بالامس يعيشون في ضنك وضيق ، ومنهم في أيامنا من اغتنى . وقد غدوا بما تدر عليهم أقلامهم من الربح كبعض كتاب الممالك الغربية . ومنهم الاستاذ عباس محمود العقاد وفكري أباظة ومحمد التابعي ومصطفى أمين ومحمود أبو الفتح في الاحياء . مثلنا بهؤلاء وهناك كثيرون لا يقلون عنهم تفنناً ودخلا .

وأهم مادخل من التعديل على الصحافة العربية الراقية أن كان كاتب الجريدة أواخر القرن الماضي يضطر الى أن يتناول بقلمه موضوعات جمة وقد تعينت في أيامنا أبواب التخصص فلا يخوض السياسي الذي يعاني الخارجيات في الابحاث الداخلية ، ومن كتب في الهزل لايقرب الجد ، ومن نظر في الاقتصاديات لا يخط قلماً في الادبيات . وهكذا تفرد كل منشيء بما غاب عليه وتمحض له . وأمسى الملوك والرؤساء يخطبون ود أرباب الجرائد لعلمهم بتأثيرهـــا في الافكار ، وانتظمت أمور الصحف انتظاماً يشبه انتظام وزارة في دولة عظمى ، لا تجد في ادارتها خللا ، ولا في تحريرها ما ينتقد . واذا كان في صحفنا اليوم ما يطبع لعهدنا المئة ألف وأكثر ، لا يبعد أن تطبع غداً بضع مئات الالوف .

دخلت صحافة مصر في دور الاتقان ، وقلدت الغرب في معظم مظاهرها ، فكان من ذلك انتشارها في الشام والعراق ، وأصبح لها في هذين القطرين مكانة أربت على مكانة صحفها المحلية ، ذلك لان هذه ما زالت صحف أفراد أو أحزاب ضعيفة . وصحف مصر صحف شركات وأحزاب غنية . وفي أرض العرب تقرأ حتى جرائد الاحزاب المصرية كما تقرأ الصحف الاخبارية ، وتتلى مجلات الهزل كما تتصفح مجلات الجد ويشترك الرجال والنساء والاطفال في تناول الصحف .

وربما عرف ابن بغداد والموصل والبصرة ودمشق وبيروت وحلب رجال القطر المصري كما يعرفهم ابن مصر الكثرة ما يطالعونه في صحفها من اخبارهم وأدركوا سر السياسة المصرية كنبهاء المصريين وزيادة .

أرباب الاستبداد

يوم أعلن القانون الاساسي في الدولة العثمانية (١٩٠٨) وأطلقت حرية الصحافة كانت جريدة المقتبس أول جريدة في الشام طلعت على الولايات العربية بأفكار حرة لا عهد لها بمثلها . وحاول ولاة تلك الايام من العثمانيين أن يسكتوها ناسين أن روح حكومتهم تبدل ، وأن دولة الاستبداد دالت ، وكانت المحاكم والحق يقال أعدل من أن تتأثر بأهواء الحاكمين ، ولطالما أنقذتنا من ظلمهم حتى في معظم قوة الاستبداد العثماني .

أما في عهد الحكم العربي فكانت الحرية في بعض السنين تلهث وتحتضر ، وودّ بعض الرؤساء لو يعاقب كاتب هذه الفصول على مادوّن في تآليفه الأخيرة التي حملت آراء لا توافقه ويرى من مصلحته اغلاق الباب دون انتشارها ، ولو كانت المحاكم تفصل في مثل تلك القضايا على مايشتهي الرؤساء ما ادخر هؤلاء وسعاً للقضاء على رجال الحرية بما الطوت

عليه جوانحهم من حب الانتقام وشدة الحقد وفرط الاستبداد ، فلم يبق اذاً أمام الرؤساء للتشفي الا حمل زعانفهم على التهكم بالمؤلفين وتزييف أفكارهم ، وكان اولئك الرؤساء يعاملون بعض الصحافيين الناشزين اذا غضبوا عليهم بارسال زبانيتهم يضربونهم حتى يدموهم وحدث أن مات بعضهم من شدة الضرب . هذه هي حرية الجمهورية في بعض أيامها لم تدرك عقول من يمثلونها غير الاعتداء على حرية الخلق ان لم يستطيعوا أن يثأروا لأنفسهم على ما يحبون من معارضيهم لامتناع المحاكم عن الحكم لهم بما يريدون ، ذلك لأن للمحكمة قانونها ولها قاض يدرك مغبة العبث به . أما رجال السياسة والادارة فقانونهم على الاغلب من اختراع قرائحهم ولا يطبقون من الانظمة المعمول بها الا مالاءم أهواءهم .

الفلاح أخو

كان احد وزراء مصر من جملة المدعوين في قصر الملك ذات ليلة ، ولما جيء بطبق اللحم اخذ قطعة منه ووضعها في صحنه وحاول تقطيعها بشوكته وسكينه ، فطاحت بعيداً . فضحك المدعوون وما ادري ان كان حاول ارجاعها الى طبقه ليأكلها حباً بالاقتصاد . فقلت لمن روى لي هذا ان أصل هذا الرجل من الريف وما مرن على مصطلحات المدنية في بيت ابيه . ولما وصل الى المقامات العالية بقي على عاداته الراسخة وما قدر ان يتمثل العادات الجديدة على كثرة مخالطته الكبراء بحكم منصبه .

ورأيت وزيراً منهم لما مدّ يده يصافحني كانت أظافره الطويلة مملوءة وسخاً أسود تأنف النفس منها ، فاستدللت بهذا المنظر ان الوزير لايعرف النظافة وما اهتدى الى ان يسير على طرق المتمدنين ، ولا على طراز المتدينين في هذا المعنى .

ولقد ظلت عادات الفلاحين واخلاقهم ماثلة في كثير من الوزراء الذين يرجعون في اصولهم الى الفلاحين ، والمنحط يبقى على انحطاطه محتفظاً باخلاق اهله ولو كانت ظواهره انه متمدن ، والمال لا يورثه ما فقده ولا المظهر الحديث ينقله من قبيح الى احسن في برهة وجيزة .

نحن حراص على تقليد الغربيين في عادات لهم حسنة وفاتنا ان هذه العادات رسخت فيهم في الاحقاب الطويلة وهي تلقين من الآباء والامهات ونتيجة اختلاط وتمرين وتدريب . والغالب ان العادات الهمجية يبقى اثر بعضها في المتعلمين من ابناء الطبقات النازلة مستحكماً الى جيل أو جيلين . رأيت طوائف من الناس في المآدب والمجتمعات ومنهم الغني قد احتفظوا بأخلاق بيوتهم وعاداتها في مظهرهم الجديد ، يتجلى ذلك في سكان جبال الشام الذين هاجروا الى أميركا وغيرها ، فانهم لا يحسنون على الاكثر الجلوس ولا الخطاب ولا الطعام ولا السير على طرائق أهل العصر ، ترى ذلك ماثلا في النساء والرجال ، ومتى رأيت من رأيت من الجنسين تعرف أنهما بقيا بعد الغنى والغربة الطويلة فلاحين وأبناء فلاحين .

ليت المدارس تدرب بالعمل تلامذتها على سلوك سبل المتمدنين وتلقنهم فن الحياة ومصطلحات العصر ، كما يعلمونهم منذ الصغر الصلاة وما يتبعها من أمور الدين . تعلم الصبيان ولا تغفل عن الفتيات .



تآليف الممالك

يقول غروسّه المؤرخ : قد يتجاوز عمل مؤسسي الممالك الحد الذي ما كانوا يتوقعونه . أخضعت حكومة الاشراف الرومانية لسلطانها في القرن الثاني قبل المسيح الامارات الهيلنية ، وما كان يدور في خلدها انه سيكون من ذلك توحيد جامعة الهيلنيين ، ونشر كلمتهم في العالم ، وأن هذه الحفنة الضئيلة من اليونان سيقوم منها رجال بزنطية الذين اشتهروا بعجرفتهم في القرون الوسطى . وفي العهد الحديث ادخلت الثورة الفرنسية ونابليون النظام على الشعوب الالمانية واخرجتها من بلبلتها ، وما كان يشك لئهم يعملون على مايخالف مصلحة بلادهم ، فنشأت الوطنية الالمانية والوحدة الالمانية . وهكذا كان من الانكليز لما شرعوا بضم اجزاء الهند في وحدة شاملة وما رأوا انهم بما اتوا يوحدون اجزاء مملكة متحدة جغرافياً وذهبوا الى ان لهم فائدة من ضمها في سلك واحد ، بيد ان نتائج سياستهم تعدت الحدود المنتظرة فجمعوا بتأليفهم هذه الوحدة الادارية التي خلقتها الطبيعة من جبال هملايا الى رأس كامرون بين سكان الهند وما حسبوا حساباً للعاقبة ، وبايجادهم مملكة الهند خلقوا امة هندية . اه

واصلح الغرب الخطأ الذي ارتكبه في اليونان قديماً والمانيا والهند حديثاً على رأي المؤرخ ، وقام يفرق كلة الشعوب ولا يجمعها ، وسار على ما يتفق مع اطماعه من التقسيم ، فجعل من مراكش مملكتين لكل واحدة منهما ملك . وسبق للدول المتحدة أن قسمت الديار الشامية بعد الحرب العالميـة الاولى الى سبع دول ثم أرجعتها الى أربع ، وفصلت بريطانيا العظمى السودان عن مصر ، وجعلت الهند شطرين ، شطر مسلم وشطر وثني ، واقتطعوا من جسم اليمن عدة امارات على المحيط الهندي ، وجعلوا من سواحل الخليج الفارسي امارات مستقلة ، وأنشأوا من كل امارة دولة على حيالها وألفوا من ولاية مملكة ، وصاغوا من عمالة امارة .

وهكذا قسموا بحسب أغراضهم مالا تجوز قسمته ، وما راعوا مصلحة السكان ولا طبيعة البلدان . ولا قصد الدول الكبرى من هذا الشرق المسكين الا منافعهن الخاصة . ورأينا انكلترا تنشيء بعد الحرب العالمية الاولى من الارض التي كانت معروفة بلواء الكرك على العهد العثماني مملكة دعتها بمملكة شرقي الاردن ونصبت عليها اميراً ثم جعلته ملكاً . وانكلترا تسعى اليوم الى تأسيس مملكة عربية ثانية على الخليج الفارسي سكانها مليون نسمة ، وبالطبع تقيم لها ملكاً ومجلس نواب ووزارة مسؤولة وغير ذلك من التوابع والملاحق .

وهكذا شأن الدول في التقسيمات الجغرافية ، وحرصهن على تفريق أجزاء القلوب في الشرق أشبه بحرصهن على تجزئة أرضه ، يفسحن المجال المذاهب الجديدة ويرحبن بكل صاحب بدعة وطريقة ، ويغتبطن يوم يرين البيت الواحد منقسماً على نفسه ، ويهيئن لكل ملك من ينازعه على الدوام ، حتى لايصدع بغير أمرهن ولا يسبح الا بحمدهن . وبسياسة فرّق تسد نشر الغربيون كلمتهم على اقطار العرب من اقصى شمالي افريقية الى آخر حدود اليمن ونجد والفرات .

قال لافيس المؤرخ : كل قوة تنضب ، ولا يتأتى أبداً أن تكون قدرة التصرف بالتاريخ ملكاً أبدياً لدولة . ورثت اوربا من آسيا منذ ثلاثة آلاف سنة أصول الحكم ولن تحتفظ بما ورثته أبد الدهر . ونحن نقول حقق الله ذلك .

أمالي

صرفت عمراً في مطالعة ما أبقاه العرب من تآليف ، فبقدر ما كنت أرتاح الى أسفار الأقدمين كنت أنقبض من بعض كتب المحدثين ، ومن أكثر ما عددت النظر فيه مضيعة للوقت كتب المناقب والمثالب ، فانها حيكت في كل عصر بضروب من الهذيان والبهتان . ومن أبشع ما سجل في النثر مناقب الاولياء والصالحين وفي الشعر أماديح الأمراء والكبراء .

قد لا تظهر عيوب الادارة في الدول الكبرى ظهورها في الدول الصغرى .
خسارة الغني الألوف لا تورثه عجزاً بقدر خسارة الفقير المئات .

لو كانت القصور التي يشيدها آل سعود في مملكتهم تبنى بأيدي أبناء الحجاز ونجد لهان الأمر لأنه يكون منها رزق لسكان تلك الديار ولكن معظم موادها وبناتها وفرشها وفرّاشيها من اميركا شريكة المملكة العربية السعودية في النفط الذي تستثمره اميركا ، فكأن هذه تعطي باليمين وتأخذ بالشمال .

ما فتح الانكليز مدارس خاصة بأبناء الاعيان الا ليصوغوا منهم طبقة مختارة . معوّل الانكليز في الحكم على الاشراف المثقفين .

يوم يقدر العلماء مقدار التبعات التي تقع على عواتقهم يصبح الناس بألف خير .

من كان اكبر همه العطف على ابناء الشوارع فهو منهم او شبيه بهم .

حاولت منذ بدء حياتي ان آلف الموسيقي الغربية وان افهم مافيها من ميزات فلم تقبلها نفسي وعند ذلك ادركت ان الموسيقي تربية ، والتربية ابداً تختلف في أمة عن اخرى .

استحسنت من عامي كان له بعض الظهور في قومه عندما سألني اين تقع اليمن من بلادنا ؟ فأجبته بسذاجة تشبه سذاجته في سؤاله : وجّه وجهك الى القبلة ، وبعد ارض الشام تبدأ ارض الحجاز وبعدها تقع اليمن . ليت كل جاهل يتنزل للسؤال عما لا يعرف ، فقد ادركت اناساً تعلموا الجغرافيا بمطالعة الجرائد وبالقاء مثل هـذا السؤال على العارفين والانتفاع بالأجوبة عليها .

عرفت ثلاثة قضاة وشيخ مدرسة وتاجراً متصولحاً جمع كل واحد من الثلاثة الأول من مال اليتامى والارامل بضعة ألوف من الدنانير مرقت منهم فمات منهم اثنان على الأتروجُن" الثالث جنونا مطبقاً ثم هلك . وجمع شيخ المدرسة بضعة الوف من مَغَلّ الوقف فسطا اللصوص عليها ومات بعد قليل ، وكذلك هلك التاجر المتصولح الذي اتجر بالورق النقدي فخسر ثروته كلها وما استطاع مثل الاربعة الذين تقدموا أن يبوح لأحد بما حلّ به من النكبة لأن هذه التجارة محرمة وهو مشهور بتدينه .

شاهدت بعض الدارسين يتوقون الى الشهرة على حساب من سبقوهم الى خدمة العلم ، ويحاولون اسقاطهم والهزوء بأعمالهم ، وهم مانجحوا ولن ينجحوا ، وماتوا بغيظهم وما استفادوا الا أن أثبتوا قلة أدبهم وعظيم سلاطتهم . أما الذين سلكوا الطريق المستقيم ، وجودوا أعمالهم وأحسوا بنقصهم بعد الدراسة ، وداووه بالاستزادة من العلم فقد وصلوا من الشهرة الى درجة تجاوزت ماكانوا يرجون .

سألني تاجر انكليزي يقطن الاسكندرية عن مجرى امور الانتداب في الشام وذلك قبيل انتهاء أيامه ، فقلت له انه يتخبط على غير هدى . فقال : هل ترى الفرنسيس انتظمت أحوالهم في بلادهم ؟ فقلت : اللهم لا . قال : اذا كان الامر كذلك فكيف تريد ممن لايحسن تنظيم بيته ان ينظم بيت غيره .

ماتبدلت أخلاق العمال في أدوار ثلاثة ، دور الترك ودور الفرنسيس ودور العرب . كان الموظف في هذه العهود مهما علت منزلته يصانع رئيسه ولا يراجعه في أمر مخافة أن يعد صاحبه ذلك تطاولاً عليه فيغضب ، وكنت اذا قلت لأحدهم : هذا أمر تقرر على ما يظهر بلا بحث ولا نظر قال : الحق معك وأنا على رأيك ثم يهمس في أذني : هكذا أمر الرئيس وهو لايوافق على غير ذلك . وهذا الخلق ماثل في الوزراء وضرره منهم أشد . أنعم وأكرم بهؤلاء الاوفياء لمصلحتهم الخاصة فقط .

من صغار الموظفين من دأبوا على مصانعة الرؤساء أيا كانت أحزابهم ومشاربهم ، يودعون الراحل بالأسف والاكتئاب ويستقبلون خلفه بالفرح والسرور ، ذلك لانهم يعتقدون انهم لا تسلم لهم مراكزهم الا بهذا النوع من النفاق .

مما تشمئز النفس منه مصانعة الوزراء من نزلوا علينا من الافرنج حاكمين ومعلمين ، كانوا اذا خرجوا من حضرتهم اطلقوا السنتهم بالقدح فيهم ، زاعمين ان الوطنية تقتضي منهم التظاهر بهذا الخلق السافل . لو كانوا على شيء من حب وطنهم ويتأففون من احتلال الغرباء ارضهم لنصحوا لهم وارشدوهم الى طرق الخير .

كنت اذهب الى ان خيار الفرنج اذا ساووا خيارنا في صفاتهم الحسنة فهم من حيث الكثرة والقلة اكثر عدداً من جماعتنا ، ورأيت من

خيارهم من يمتازون عن خيارنا بتجويدهم صناعتهم ، ونظيرهم فينا اندر من الكبريت الاحمر ، اما الاشرار منا ومنهم أولئك عليهم لعنة الله والناس اجمعين .

قال لي مدير شرطة افرنسي : من اعجب ماشاهدته في بلادكم أنا كنا اذا قبضنا على احدهم في بيروت يأتينا من يقول لنا احسنتم باعتقالكم هذا الخبيث ، وكان المتوقع منكم ان تعتقلوه قبل الآن ، وما نرى الا انه يستحق القتل بما نُسب اليه . وكنا اذا اعتقلنا شخصاً في دمشق يجيئنا الوفد بعد الوفد يرققون قلوبنا عليه ويصغرون من شأنه ، وقد يدعي بعضهم انه معتوه لايؤبه لما صدر عنه . تناقض في الاخلاق : نقمة شديدة ورحمة مفرطة .

قيل لاحد العقلاء أترضى ان تكون رئيسا كبيراً وانصارك من الرعاع والسفلة فقال : ملك بلادي ملكاً ابدياً لا يفي بما يلحقني من الصغار باستتباع هؤلاء الانصار .

قالوا ان فلاناً كان جده وابوه على صفات طيبة فكيف نشأ ابنهم نشأة تخالف نشأة اهل بيته ؟ فكان الجواب : ان فلاناً عشق الظهور فارتكب في سبيله كل مايربأ الشريف بنفسه عن ارتكابه ، ثم رأى معاشرة الاوباش لمنفعة له توهم الحصول عليها منهم ، فسرق طبعه من طباعهم

ربما كان في النساء من يفضلن الحجاب على السفور حتى تستر صورهن القبيحة عمن يسارقوهن النظر متخيلين ان هناك جمالاً ماوقعت على مثله عين

ان لم تظهر أخلاق المنظور اليهم على جليتها يظل الغش سارياً في الحكم وفي سائر أعمال الحياة .

متى عرف أهل المدن مقدار تعب الفلاح حتى تخصب أرضه وتنمو أشجاره يكفون عن حسده عما يجنيه من غلتها وثمرتها .

تتمثل أخلاق الظلم في أبناء الظلمة منذ الصغر ، كبعض الامراض السارية قلما ينجو منها المصاب بها مهما عالجها بالحقن والعقاقير والطعام المغذي .

قيل ان فلاناً قرّبه صاحب الشأن على سوء سيرته المتعارفة ، فقلت لهم : لا تتعجلوا سيأتي اليوم الذي يلفظه فيه كما تلفظ النواة من التمرة .

تمنيت لو كانت علامات العالم في الأخلاق أوفر من علاماته في الثقافة ، ان أخلاقه سبب أول في نجاحه ونجاح من يبيع منهم بضاعته .

أكدوا أن فلاناً كان يستعين بالطلبة لما كان يدرس لهم في الجامعة المصرية حتى يأتوه بالنصوص اللازمة لتآليفه ، فيكلفهم في ذلك شططاً ، فقلت لهم : وكان في نشره كتب غيره لا يعاون أصحابها على طبعها الا اذا جعلوا له حصة من الأرباح ترضيه ، ودس اسمه الى جانب اسم المؤلف ، وتفرد بكتابة مقدمة الكتاب . وليس وراء ذلك أثرة . ما أقبح الطمع فيمن يجب أن تتجرد منه نفوسهم قبل كل أحد .

قال لي أحد لِداتي : الفرق طفيف بيننا وبين من تقدمناهم ، يوم كنا نجدّ في الدرس تركونا وانصرفوا للهو يعبثون ، فكانت النتيجة ما ترى فيهم وفينا .

أعرضت عن رجل وقع منه ما ساءني فأقسم وهو كاذب أنه ما أتى ما يكدرني ، وأنه لا يستغني عن صداقتي ، فقلت : انه يحاول أن يستخلصني لحظ نفسه فيكسب من اتصاله بي ما يجعل مني دريئة له فيما يهمه من هذه الصداقة .

ثق أن من دأب على سلب الأمة ، وحدثه عقله المأفون أنها لا تطلع على ما يأتيه في سر ، هو من البلادة بمكان عظيم ، الأمة لا تعرف لها سالباً غيره ، والمسلوب أول ما يقع نظره على سالبه .

من عدوا التمويه على قومهم مهارة يفتضحون بها متى رفعت الستارة التي كانوا وراءها يلعبون ، فيسقطون سقوطاً لا يرتفعون بعده .

غاية ما يرضي العامي منك أن تبادر للسلام عليه ، وتطيب خاطره ، وتوهمه أنك مشاركه في عواطفه . واذا اتسعت حالك ورضخت له بدريهمات أو دعوته الى طعامك استعبدته . ووطّن نفسك اذا أبطلت عادتك معه أن ينقلب عليك ويغتابك ويعيبك .

من طالت عشرته لطائفة تشبه بها من حيث لا يشعر ، فمن المعلمين من اقتبسوا من أخلاق الأطفال لطول اختلاطهم بهم ، وبعض من يعتبرون في العرف من الكبراء تدنت أخلاقهم لكثرة ما تنزلوا بعقولهم الى مستوى العقول المنحطة .

كانت الأمية من علائم الضعة في العرف فأصبحت في الحرب الأخيرة علامة اليسر وسعة العيش بما ربح التجار ، ومنهم نشأت طبقة الأغنياء المحدثين ، فأصبحت الأمية بذلك شارة الاثراء والنعماء .

ليس من الفضول تحفيك في السؤال عن صحة صاحبك وصحة عياله وسير أشغاله ، عنايتك بكل أولئك دليل اهتمامك بأمره ، وهذا من أسباب دوام الصداقة .

أفرط أحد الرؤساء في قبول الهدايا ممن يطمع في الاستفادة من نفوذه حتى أصبح لباسه ولباس عياله ومعظم طعامه ونفقات رفاهيته تأتيه بالمجان وبعد هذا ما أخال مكابراً يدعي أنه يبقى له شيء يقال له نزاهة واستقامة .

تطول آجال بعض العلماء في الغرب الى أبعد مما قدر لها في العادة . ليت الفاطر يمن على كل من يستعملون عقولهم بطول الأجل .

قالوا ان فلاناً أساء لأمته فاستحق ما حل به من البلاء أراحنا الله منه ، فقلت الأولى أن تدعوا له بطول البقاء حتى يرى كل يوم نتيجة عمله الأخرق ، ويصبح عبرة لمن تحدثه نفسه أن يسير على طريقته في الخيانة .

من عاشر الأولاد نزل الى مستواهم في العقل بحكم العدوى والقدوة ، ومن صاحب أصحاب الموبقات هونوا عليه ارتكابها .

ذكروا أن أحد الوزراء الانتدابيين على ايغاله في اقتناص الربح من أي طريق كان ، وعلى افتراضه مبالغ جسيمة ما نوى يوماً ردها لأصحابها — لا يزال يغرق في الديون وليس بينه وبين الفقر المدقع الا خطوة يسيرة ، فقلت : ما في ذلك موضع للعجب ، فان الرجل الذي يجلس الى منضدة القمار كل ليلة ويخسر الالف والالفين لا تأملوا أن يكون مصيره غير هذا ، والعجب أن يجد في مواطنيه من يسلم عليه ، وما يجيبه في الواقع الا من كان على شاكلته في فساد الطويّة وخراب الذمة وقلة الشرف .

لا تقبل قول من يصانعك بقبول حسن فهو يصانع غيرك كما يصانعك ، ومصانعك أضر عليك ممن يذكر لك عيوبك في وجهك .

قيل لرجل أساء الى صاحبه بلا سبب : اصفح عنه ، بذا تقضي مكارم الاخلاق ، فما هو أول من أساء . فقال : أود أن أخرج على قواعدكم وأذكره بالسوء واذكر كذبه وفساده ، لأحول دون ظهور أمثاله من الساقطين .

من سمح لنفسه بالتزوير كان اعظم مزور ، ومن استحل الكذب على كل من يراه كان أعظم كذاب ، وليس بعد التزوير والكذب عيب . ليت لي من القوة ما أقطع به لسان كل كذاب فالكذب رأس المآثم .

العَمَلة من أشرف الناس ، يفيدون بما تصنعه ايديهم ، ويأكلون رزقهم حلالاً ، وهم أقل الخلق فضولاً .

قيل ان فلانا تولى ولاية عظيمة فكان أول ما أتاه خيانة امته ، فقلت لهم لا تعجبوا وهل كان الا صورة من والده ، وهل هذا الا نسخة صحيحة من أهله وكلهم سَلبة ظلمة .

كانت الفلاحة اشرف صناعة لو لم يَعْتَدْ بعض الفلاحين استحلال السرقة من حاصلات جيرانهم .

لا تتوسع في أمانيك والزم التوسط فيها ، فان حصل ما جاوز رجاءك اغتبطت ، وان لم يحصل لم تكن لتشغل نفسك بالخيال .

متى أدرك السوقة — والسوقة هم كل الناس ماعدا الملوك — انه ما سبق لغشاش ان نجح استقام امرُ الامة حتى تشبه بأخلاقها أخلاق المسلمين في عصر الصحابة .

قاومني بعض العمال مقاومة عنيفة حتى أحرم راتب التقاعد كأنني اتقاضاه من ماله الخاص . ولو بحثت عن السبب ما رأيت الحامل له على ما أتى الا اللؤم الغريزي المغروس في الطباع .

بعض الناس يعادونك وانت لاتعرف انك أسأت اليهم ، هكذا كان حالي مع بعض كبار العمال وما ادري أكان ذلك عن منافسة او عن حسد .

صغار المأمورين اقدر من كبارهم على تصعيب اشغال ارباب المصالح ، عندهم مخارج للتسهيل ومخارج للتعقيد ، يعمدون الى استعمال الاولى اذا ارضيت خاطرهم بالمال او خافوك لمكانتك ، ويعمدون الى الاخرى اذا انت لم ترضهم .

اولاد الفقراء احرص على اكتساب العلم من ابناء الاغنياء وابن الفقير احسن خلقاً من ابن الغني ، والبنات اكثر من الصبيان رغبة في الدرس

لذوي اليسار اخلاق خاصة على ما هو الظاهر من حالهم ، هم قلما يخلصون الود لأحد ، ولا يقومون بما يترتب عليهم من الواجبات ، وكيف يصدقون مع من يعتقدون انهم لا يملكون كما يملكون .

في الاصدقاء من يرعون صداقتك ماداموا ينتفعون بها ، فاذا حدث ان كان لهم من هذه الصداقة ما يتوهمون انه يؤذيهم مشوا مع من يتخيلون النفع منه وتخلوا عنك ، فاذا ايقنوا انه انكشف لك ماخالفوا فيه القواعد المرعية بين الاصدقاء اقبلوا يعتذرون اليك ، فاياك بعد هذا ان تدعوهم اصدقاء فهم معارف عرفتهم ، ولفظة الصديق كبيرة عليهم .

من يتساهل في بعض حقوقك عليه ويذهب الى انه يجوز عليك ما ارتكبه في سر مما يغضبك ولا يرضيك احذف اسمه من جريدة اصدقائك ومعارفك ، لا تكثر به سواد من تعرفهم ، اما هو فسيعود اليك متى احتاجك ويتناسى اذاه لك .

راجع سجل من عددتهم أصدقاءك كل مدة فربما تسقط على من بدلهم الزمان ، وعندها تكون أنت بالخيار اما أن تركن اليهم ، أو تنفض يدك من صحبتهم ، فالصداقة كسائر الامور تحول وتتحول .

قامت في الأعوام الاخيرة نهضة مباركة لتجديد مظاهر المدن وتزيينها وتنظيم شوارعها وساحاتها وقصورها ومصانعها ، ومن لنا بحركة مثلها للقضاء على ما بلي من مصطلحاتنا العائقة عن تزيين النفوس بالفضائل .

في معاشرة الخلق أمور دقيقة قد لا يهتدي الى النفوذ اليها كل انسان . جرت العادة أن يتعاطف أبناء الحرفة الواحدة اذا ما التقوا ، فيرى بعضهم من الوفاء أن يكرم في بلده بعض من ينزلون عليه على ما اعتاد الناس منذ القديم . واذا نزل المضيف على من سبق له أن أكرمه في بلده قد ينكره أو يعامله معاملة جافة . ولم أجد لمثل هذا الضرب من الضيفان اسماً أطلقه عليهم ، وأمثالهم اليوم غير قلائل في كل بلد . ومتى شهدت بعضهم يستنكفون عن قبول دعوتك لهم في بلدك أيقن أنهم على غير استعداد لان يعاملوك بالمثل على اكرامك في موطنهم ، هم لا يرغبون في أكل طعام غيرهم حتى لا يأكل أحد طعامهم .

بحت بحبي لبعضهم فما قابلني عليه بحب مثله ، فأدركت أن من القلوب ما لا يعرف الحب ، واذا قدر لها أن أحبت كان حبها مزعزعاً يزول لأول عارض .

من يحاول أن يرأس قومه بالمكر يفقد متى ظهر أمره حتى ما كان له من صفات حسنة .

لي صديقان من الاعيان المثقفين ما قصرت في رعايتهما منذ أول نشأتهما وكانت لي يد في تحسين سمعتهما ، احتجت اليهما مرة في أمر يهمني فحولا وجهها عني ، واعتذرا بعد حين عن اجابة ملتمسي بأعذار لا تقنع طفلاً . أقبح بصداقة لا تتعدى المباسطة والمفاكهة .

قد يعيش المرء ستين سنة ولا يجتمع له أكثر من عشرة أصحاب

فاذا تمخض الزمان عما يدعو الى خيبة الرجاء في وفائهم ، ودّ لو عاش حياته بلا صاحب ولا عشير .

ما ارتاحت نفسي الى صحبة المتكبر ولو كان ملكاً ، وكنت أفر من عشرة المتكبرين فرار السليم من الاجرب ، وكثيراً ما أتكبر عليهم بأكثر مما تكبروا عليّ .

يتجلى التواضع في الملوك بما لا يتجلى في الصعاليك ، والملوك لا يترفعون عن الناس الا بقدر ما يرفعهم خدامهم وعمالهم .

لا يروق اللؤماء أن يسمعوا ثناء على أحد ، كأن في الثناء على من يستحقه نقصاً في تكرمتهم ، وحطاً من أقدارهم .

كنت أذهب الى أن من المبالغات المألوفة ما قيل من أن الحسد يكثر في أبناء الحرفة الواحدة وفي العلماء خاصة ، ويخف كلما تباعدت الاجسام وتراخت الصلات بينهم ، فعلمني الزمن أن ما قالوه صحيح وأن تحاسد العلماء أشنع تحاسد .

يصغر الحاسد من عمل المحسود أبداً ، وأنت لا تقطع لسان الحاسد الا اذا سألته أن يعدد لك محامده ، وسؤالك هذا صفعة في وجهه ، وضربة على أم رأسه .

من دخل في المسائل العامة استهدف للنقد ، تصامم عما يقولونه فيك ان كنت تعتقد الصواب فيما تأتي وتذر ، والليالي كفيلة بادخال الملل على ناقديك ، فيكفون ألسنتهم عن تزييف ما لا تدركه عقولهم ، وأنت أبداً وطن نفسك على تجويد عملك ففي تجويده قهر كل منافس .

العاقل يحسب حساباً لكل شيء ، والجاهل لا يبالي الا بما فيه نفعه الملموس الموقت . ولا يزال المتمدن يعد للمستقبل عدته ، والمتوحش لا يهتم لغير الساعة التي هو فيها .

صاحب صاحبي صاحبي كما يقولون ، بيد أني غير مضطر الى أن أوالي من والاه وأعادي من عاداه . أنت قد تحب رجلاً وتكره أخاه ، وللحب والكراهية أسباب منها طبيعي ومنها اتفاقي . قد تستلطف شخصاً وغيرك يستثقله ، فلا تطلب الى كل أحد أن يحب ما تحب ويكره ما تكره . مقاييس الحكم على الحب والبغض تختلف وقاعدتها لا تطرد .

قد يتفق أن يعرف أحدهم بين أهل حيه بالاستقامة وحسن الخلق ، فاذا دخل في الامور العامة أو اشترك وغيره في مسائل اقتصادية تجلت حقيقته مجردة لا تمويه فيها أمام من طالما خدعهم بظواهره .

مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب لا يخلو من نقص ، ولو خلا كل الناس من العيوب لعدوا في مصاف الانبياء .

ذكروا أنه كان ينظر الى فلان في الحكومات السالفة بأنه من رجال الدولة ، فلما نُحي عن عمله قبع في بيته وما عاد يظهر في المجتمعات والمحافل ، ولا يسمع له صوت ولا رأي ، فقلت : انه عاقل اذ من الصعب أن ينال المرء الحظوة في دورين ، واذا أردتم معنى آخر فقولوا ان قيمته كانت بالكرسي ، وبمظاهرة من أجلسه على الكرسي فلما زحزح عنه لم يبق له الموقع الذي كان له في النفوس ، والتجلي لا يعاد .

اذا بالغت بمؤاساة صاحبك زدت صداقتك معه احكاماً ، وهو في حزنه أكثر أيام العمر احتياجاً اليك .

من غريب ما شهدته من صاحب لي يحب الدعابة كثيراً أن يصوغ

أمور الجد في قالب من الهزل أيضاً ، فاذا ما تخلى عن الهزل حتى في جده ظهرت البرودة على حديثه لخروجه عن مألوفه .

عالمان مصريان مسلمان يمت كل منهما لأخيه بصلة القرابة ، دعا أحدهما الى اتخاذ الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ، وتحمس الآخر للاستعاضة عن اللغـة العربية الفصحى بالعامية المصرية ، ولو نجحت دعوتهما لنسلا الحجر الاول من بنية العربية والاسلام .

الحرص على الشهرة يورث طالبها سخرية أحياناً ، واذا غالى المرء في طلبها قد يكون فيها حتفه ، ومن وصل الى الشهرة في العادة ينهزم أمامها وهي تمعن في طلبه . الشهرة كالحسناء لا ينال وصالها كل من ركض وراءها .

الحقد يكمن في الحقود كمون النار في العود ، والحقود لايرضيه ممن حقد عليه الا قطع رزقه واسقاطه وأحياناً هلاكه .

رأيت بعض البيوت في الشام ومصر منقسمة الى حزبين سياسيين متخالفين ، على ماترى في البانيا نصف سكان البيت من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين .

لاتعتمد الا على من عرفت ما انطوت عليه جوانحهم ، اعتمادك على من لا تعرف منشأه وتربيته يوقعك في مشاكل كان يتأتى لك تفاديها من الأول .

المثابرة أس كل نجاح ، رأيت بيوتاً تجارية على شفير الافلاس ، وكان من مثابرة القائمين عليها ان استعادت بالصدق قوتها ومكانتها ورجعت الى خير ماكانت ترجو .

عجبت لمن يعتبون على أنا لم نوفهم حقهم عند الكلام عليهم بالقدر

الذي تتطلبه الحقيقة . ان من تمحضوا للبحث في سيرتكم كشفوا منها مالا تتوهمونه في أنفسكم .

من بنى مجده بيده أفضل ممن هيأه له أهله . ومن عمل لنفسه بنفسه كان أقرب الى بقاء ما جنى ممن عمل له غيره ، ذلك لأن من تعب في جمع ماله كان أحرص عليه بالفطرة .

يخرج أرباب العبقريات من صفوف الطبقة الوسطى والدنيا ، أكثر مما يخرجون من صفوف الطبقة العليا ذلك لأن هؤلاء مشاغيل بمباهج الحياة عن كل ما يجلب الخير ويدفع الشر .

ماذا تقول في خُلق من لا يستحي من التصريح بأنه لا يهنأ له عيش أو يرى الفتن مشتعلة الاوار في كل بيت من بيوت أهله وعشيرته .

أسقط الحرف حرفة الجاسوسية وأفظع أنواعها ما ينقله الجاسوس من أسرار أمته الى أمة غريبة ، وما يكون فيه ضرر لمن ينقل عنهم وفائدة لمن ينقـــل اليهم .

لقلة ما يمر بالقروي من الحوادث يذكرك أبداً اذا أطعمته رغيفاً ، وساكن المدينة ينساك ولو أطعمته خروفاً .

قلّ أن شهدت أهل قرية لا يتعادون ، وما عهدت سكان ضيعة يثنون على جيرانهم من أهل الضياع الاخرى ، وليس تعادي سكان المدن بأقل من تعادي القرويين ، وبقدر ما يحب هؤلاء البعيد عنهم يبغضون القريب اليهم .

حريّ بمن جاوز السبعين وصحته متهدمة أن يتخلى عن الاعمال العامة برضاه لمن كانوا في سن تساعدهم على السعي أكثر منه . رأيت الطمع

يقوى في مثل من كانوا في هذه السن من الشيوخ فظهر لي أن ما قالوه قديماً من ان المرء يشيب وتشيب معه خصلتان الحرص وطول الامل ، ما كان صادراً الا عن تجارب طويلة .

المغني كالشاعر قد لا يمتنع من تعاطي ما تهيج به أعصابه وتكثر بتأثيراته خيالاته ، وهو بالافراط ينهك قواه فيعد في المستهترين .

يطيب الغناء والموسيقى في أوقات مخصوصة والاكثار من السماع أشبه بالاكثار من الهزل ، بعضه ولا كله .

اذا قابلت رجال الجد بالهزل ظنوا بك السخرية بهم ، مازحت مرة من ليس بيني وبينهم غير الرسميات فتألموا وأدركت حالا ما فرط مني وعزمت بعدها ألا أبدأ محدثي بشيء من الدعابة ان لم آنس منه استعداداً لقبوله .

كثيراً ما كانت الحال تحكم عليّ بتصفح بعض كتب الفلسفة التي كانت تصدر باللغة العربيه منذ أوائل هذا القرن فكنت أخرج منها بعد عناء العينين بلا زبدة وانقلب آسفاً على ضياع وقتي في تلاوتها — كما أسفت لتصفح بعض كتب التصوف — واذ كنت لاأرى أن أخدع الناس أصرح بأني ما فهمت شيئاً مما تلوت ، مخالفاً بذلك بعض أدعياء الفلسفة في مصر لعهدنا ، فانهم يبشرون بالفلسفة كأنهم من كبار العالمين بها ، ولا يخجلون من وضع أسمائهم الى جانب مترجمين ترجموا كتباً وهم لم يترجموا ولا يحسنون الترجمة من لغة من اللغات ، وأنا على ثقة انهم لا يدرون ما في الكتاب المنشور . يأتون ذلك ليقال عنهم انهم فلاسفة . ومنهم من يترجمون عن اللغات وهم لايدرون ما ينقلون . الفاظ عربية ومعان الله أعلم بحلها . ومنهم من يلفقون من عندهم تلفيقات يسمونها مصنفات وهم عند التحقيق لايدركون معنى لما ينشرون في الملاء ، ويبشرون به بين طلبتهم ومريديهم ، ومما يسجل أني كنت أفهم مانشره في الفلسفة من درسوها حق دراستها

من شباب العلماء وكهولهم وما اكتفوا بدعوى معرفتها وكنت أقرأ مايقع في يدي من كتب الفلاسفة باللغة الفرنسية وأتفهمها ، ولكني ما جوزت لنفسي أن أدعيها قط أو أكتب فيها رسالة أو مقالة لانها لم تتشربها نفسي كما هو الواجب .

يكثر بعض العظماء الى اليوم الزواج من عدة نساء عدا من يتمتعون بهن من السراري ، ويفضي بهم هذا الغرام الى تداعي صحتهم ، فاذا زيد على ذلك معاطاة الخمور أو المخدرات اجتمع عليهم داءآن ، وما اجتمع الداءآن الا ليقتلا . رأيت أميراً من هذا الصنف في أواخر العقد الثاني من عمره كان يجمع على عصمته أربع زوجات ، وعرفت كبيراً تزوج من النساء مئة وثلاثين امرأة ويعد أولاده بالعشرات .

الفرق بين الجاهل والعاقل أن الجاهل يستسهل كل شيء من غير استعمال عقله ، والعاقل يفكر ابداً في الامور قبل الاقدام عليها يعطيها حقها من النظر والروية .

لاتنظر الى اخوانك نظر الزاهد في محبتهم ، اذا اشتهر ذلك عنك لايبقى لك من يعطف عليك .

الموضوعات أكثر من الكاتبين ، والمشاركون أوفر من الاخصائيين ، والعالمون أقل من العاملين .

من القرى ما سلم أهله من داء التعصب الذميم بعض السلامة فباكروا تعليم أبنائهم ونجحوا نجاح أبناء المدن وزيادة . ومن أهل القرى من قتلهم تعصبهم فرضوا بالجهل لأولادهم مخافة أن يكون من التعليم بزعمهم ما يفسد عليهم دينهم ، فظلوا على جهالة بادية تناول ضررها دنياهم ودينهم معاً .

ما كنت أظن أن من أهل القرى في هذا العصر من يضنون بأولادهم على الدرس في مدارس مجانية منظمة ، ويرسلون بهم الى قرية مجاورة ليتعلموا في كتاب فاسد الطريقة ، بدعوى أن مدارس الحكومة تخرجهم تخريجاً يبعدهم عن دينهم ، وهؤلاء التلاميذ هم أبناء فلاحين ضعفت عقول آبائهم بما لقنهم أدعياء التصوف من خيالات وأوهام .

من أعجب الظواهر الاجتماعية أن تجد الطرق الصوفية من يدين بها في زماننا زمان النور والمعارف . ليت الحكام يشتدون في عقوبة من يخالف القوانين النافذة في الدولة فيقفلون مثلا كل كتاب يؤخر ترقي الابناء والبنات ، ويفضون كل اجتماع لاينجلي الا عن سخف وهراء .

اقترحت غير مرة على صديق لي يشتغل بالسياسة وقد جمع بين ثقافتين أن ينصرف الى التأليف مدة فيكتب ما يثبت به كفايته باللغة العربية ليفتح له باب المجمع العلمي العربي ويشارك أعضاءه في جهادهم فيفيد ويستفيد فكان يعدني وعداً ضعيفاً . ومن اخذت السياسة من قلبه وعقله لا شأن للعلوم والآداب في نظره .

قال العلامة كرينكو المستعرب المشهور : مافرحت حياتي كفرحتي يوم تفضل المجمع العلمي العربي وضمني الى أعضائه . وأنا قلّ أن عهدت شرقياً انتخب عضواً في هذا المجمع وظهرت منه العاطفة التي ظهرت من صاحبنا الغربي . الغربيون اجمالا أكثر من الشرقيين تقديراً للاشياء .

كان لي صديق من أعيان رجال المعارف وعلى جانب من العلم ، زينت له أن يكتب كتاباً في تاريخ التربية عند العرب ، ووعدته أن أدفع اليه ماعندي من المواد في هذا الموضوع ، وعندها أسعى لانتخابه عضواً في المجمع العلمي فكان يسكت ولا يجيب . والغالب أنه ملّ من الحاحي فأرسل اليّ مع صاحب لي وله يقول ان ما يهمه في العالم وظيفته

وبما كفايته ، أما مسألة دخوله في المجمع فيرجو ألا أذكرها له بعد الآن فكففت عن الحاحي .

انتخب المجمع العلمي العربي بعض السنين عضواً مراسلاً فاعتذر . فسألته عن سبب رفضه ، فقال انه داخل في جمعية الصعاليك ولا يليق بالصعلوك أن يكون عضواً في مجمع علمي . ولما اختاره مجمع آخر عضواً فيه خرج عن صعلكته فقبل العضوية ، لأن في المجمع الثاني فائدة مادية ، وفي المجمع الأول معنويات فقط ، والمعنويات لاتهم على الغالب كل انسان .

من بدأ منذ فجر حياته باشادة مجده على دعائم راسخة ، وما ونَت له همة حتى سن الشيخوخة ، كان كمن شاد قصراً منيفاً في شبابه وظل يتعاوره بالتحسين والتزيين بما يعجب به كل من دخله من أرباب الذوق السليم .

يظن بعض ضعاف العقول أن التزوير يخدع به من يرتكبه ماشاء الله أن يخدع ، ومتى افتضح المزور في مسألة واحدة ينتثر عقد تزويراته بأجمعه ، ويتجلى ما كان مستوراً عن الأعين .

ارحم الظالم والمظلوم : الظالم لِما سيلقى على ظلمه في الآجلة والمظلوم لِما يناله في العاجلة من ظالمه ، وكلاهما جدير بالرحمة .

مجلس يضم عدة عناصر يحاول كل واحد فيه أن يستولي على عقول المجتمعين ويتكلم بلغته فقط ، كمجلس يتألف من أحزاب جمة كل فرد فيه يصحح مشربه وهواه .

دعوت أيام الوزارة الى الاجتماع اليّ في الديوان ثلاثة عشر دكتوراً في الحقوق والآداب وقلت لهم : ان الأمة علمتكم في جامعات الغرب وهي فقيرة ، على أن تعلموا أولادها ، فرجائي اليكم أن يعد كل واحد منكم لهذا العام محاضرة أو محاضرتين يلقيها في المجمع العلمي العربي زكاة

عليه ووفاء لحق وطنه ، واعلموا أن هذا المجمع ليس اليوم بحاجة الى محاضراتكم لأن له من علم اعضائه الذين ستخلفونهم بعلمكم فقط مافيه الكفاية الآن . واذا صح عزمكم على اجابة طلبي تجملون من هذه المحاضرات كتباً ينتفع بها القاصي والداني وتخلدون بها أسماءكم ، فوعدوني خيراً ، والى الآن لم يفوا بوعدهم ، وأظن أكثرهم نسوا ماتعلموه في المدارس ولا يذكرون اليوم الا ما لا بد منه للتوظف .

اجتمعت في سويسرا الى طالب من أهلها وهو في سن المراهقة ، ومن تلاميذ المدارس الثانوية ، فشاهدته يفكر في الموضوعات التي تطمح نفسه الى الخوض فيها في مقتبل أيامه ، ويعد لها العدة في مفكرات وجزازات ، وما رأيت من تخرجوا من أبنائنا من الجامعات من ساروا على هذا النهج السديد ، لاعتقادهم أن ما يلزمهم التفكير فيه هو تحت أيديهم متى أحبوا الكلام فيه ، ولذلك لايرون أن لا يشغلوا أوقاتهم بأشياء قد تلزمهم وقد لا تلزمهم . وهذا من جملة الفوارق بين شبابنا وشبابهم .

شاهدت في بعض الرؤساء من الكذب والتزوير والدس ما لو قسم على أهل حي كانت من المدن الفاجرة ، ومع هذا يعد الاغبياء ذلك منه دهاء وسياسة .

استغرب بعض المفكرين اهداء أحد أمراء العرب ثلاث سيارات فخمة لمغنٍّ وراقصتين في مصر وانفاقه أربعمائة ألف دولار على مآدب أقيمت في أميركا ، فقلت : هذا مال لم يتعب منفقه في جنيه .

لما زار الامبراطور غليوم الثاني الألماني السلطان عبد الحميد الثاني العثماني في عاصمة مملكته أهدى السلطان للامبراطورة تاجاً مرصعاً بالجواهر الكريمة قيل انه صرف فيه خمسمائة ألف ليرة عثمانية ذهباً ، فقال الامبراطور ان السلطان لا ينظر في العواقب ، وفي رواية انه مجنون . كان يكفي أن يهدي

صورته وعليها توقيعه ، وينفق هذا المبلغ العظيم في تعزيز أسطوله حتى ينافس بقوته أسطول اليونان جيرانه على الاقل .

باقتصاد بعض الممالك العربية ماتنفقه على السيارات فقط توفر أموالاً عظيمة تكفي لتأسيس مدرسة في كل حي ومنزلة وقرية ومدينة من أرضها .

في أي طبقة من طبقات الملوك تضع ياترى من يبذر الاموال تبذير جنون ، وأهل بلاده يمرضون ولا من يطببهم ، ويجوعون ولا من يطعمهم ، ويعرون ولا من يلبسهم ، ويجهلون ولا من يعلمهم .

أولع الغربيون بالرجوع الى الاحصاءات يبنون أحكامهم عليها في كل ما يحزبهم من المطالب . ليت من انتفخت أوداجهم بما أورثتهم مناصبهم من الزهو يرجعون يوماً الى طريقة الاحصاء ليحصوا لنا ماتم على أيديهم لخير أمتهم .

اذا لم يكن العالم على مستوى متقارب بين علمه وأخلاقه فأي مجلد من مجلدات العلم أنفع منه ومن علمه ، أي أن الجماد الصامت في هذه الحال أفضل من ذاك الانسان الناطق .

عرفت فناناً قضى شبابه وكهولته وهو يشرب ويطرب الى الهزيع الثاني من الليل ثم تاب وأخذ يصلي ويصوم ويتعبد ، ثم دخل في طريقة أجمع أهل الاسلام على أن تعاليمها الكفر بعينه ، ثم تخلى عنها وبقي على حالة لا تستطيع أن تحكم عليه مع من بقي . في الناس من يؤمنون بلا عقل ، ويكفرون بلا عقل . والنفع المادي هو المحرك الاول لشعورهم على الاغلب .

ماضنّ المهاجرون من السوريين بما يرفع من مكانة وطنهم الاول ، يجودون لانهاضه بألوف الالوف راضين مغتبطين . وطنية الشامي تزيد

كما شاهد المغتربين من الأمم الاخرى يبذلون كل نفيس لانعاش مساقط رؤوسهم .

باسم الطريقة عبث شيخ في الغوطة بعفاف بعض الابكار من بنات مريديه ، وباسم الطريقة ادعى مصري النبوة فيما قيل واعتصم بالغوطة يرتزق فيها ويرفه عن نفسه . طريقة الاول شبكة لاستراق الجمال وطريقة الثاني أحبولة لسلب المال .

روى أحد السياح ماذكروه له من المبالغة بمدح رئيس سابق فقلت له كذب من قال هذا ، ولا شك أنه كان عبداً من عبيده يلتقط فتات مائدته ، فلم ير عزاء لنفسه وقد رأى سيده هوى ، الا هذا الاختلاق البايخ يعزي به نفسه .

اصطحب رجلان سهلي وجبلي ، وكان السهلي صاحب دعابة ، فقال الثاني للأول : الآن يجيء ابني فترى جمال طلعته وتشهد ظرفه ولطفه ، اني أحبه وأعجب بصفاته . وجاء الصبي وهو في نحو العاشرة فلما رآه السهلي قال لصاحبه : قل آمين ، وأكد عليه ثلاث مرات أن يقول آمين من أعماق قلبه فقال : الله يقصف لك عمره ، ما نظرت عيني صورة أبشع من صورته فهو كالمسخ ، ولا قذارة كقذارته ، تستقذره كل عين تراه ، ولا هنداماً أبشع من هندامه . لو كان الامهات لايعنين بغير تربية الجميل من أولادهن لهلك قسم عظيم ممن يلدن ، ولكن القرد في عين صاحبه غزال .

طبعت على تقدير أعمال الرجال والتنويه بالعاملين من النابتة ، وربما زدتهم من الثناء لأبعث هممهم ، كنت اراني مسوقاً الى هذا الخلق لأني كنت في مقام يقتضي الاخذ بأيدي المقصرين حتى ينشطوا ، وكان بعضهم ينكر عليّ صنيعي هذا وآخر يعده مما ينافي الاعتدال ، والاعتدال يوجب

عندهم أن توزن أفعال الناشئة بالمثاقيل والا عدّ المشجع غالياً وربما حسبوه مصانعاً . ولا أدري أي الخلقين أجدى على المجتمع التنشيط أم التثبيط .
أنا وفريق كبير من اخواني درجنا على أن الخير في مدح العاملين ليزيدوا نشطة ، وغيرنا آثر الاعتدال فقطع بعضهم في منتصف الطريق بما أوهن من عزائمهم حتى لم يكد يظهر منهم رجل يعد شيئاً . وبهذه الطريقة دفعت الشباب الى التعلم ، وأشعت الغيرة في نفوسهم ، وقويت المنافسة بينهم . أما صنف المعتدلين فقد أخفقوا هم ومن تطوعوا لاضعاف هممهم .
ما أشبه من يحتقر عمل العاملين الا برجل قليل البضاعة يخشى عليها البوار اذا ترك المجال لمن يشاركونه في الاتجار بمثلها . وأقبح بذلك من خلق فيه ضيق عين وضيق عطن .

أخطأت بأن فتحت قلبي لمن توهمت فيهم الصداقة فغششت نفسي بهم ، ونسيت أنهم ما بنوا صداقتهم الاعلى أغراض . فكان منهم من يتقلب تقلب الحرباء تراه في الصباح غيره في المساء ، وهو في الآخر غيره في الاول ولعله ما كان يشعر بما يأتي ويذر . وسواء كان النسيان أو التناسي أو غير ذلك من حالات النفس هو الذي حملهم على ماحملهم فان هذا الخلق قبيح وجدّ قبيح . بعض من توهمتهم من المصريين أصدقاء ثبت بعد التجربة أنهم معارف فقط أظهروا الميل الي لمأرب من المآرب ، فكان ضررهم عليّ لايعتد به ، أما الشاميون فكانت العلائق بهم اوشج ، ولذلك كان أذاهم أشد .

رأيت تجاراً لايلذهم الا أن يظهروا بمظهر التقوى والصلاح ، يستحلون اهداء بعض كبار رجال الدولة ابتغاء فائدة مادية يتوقعونها منهم ولولا ذلك ما أهدوا ولا تقربوا . من خلق التجار الشح لا يخرجون عنه الا اذا وقع في نفوسهم أن ماينفقونه على غير العادة هو لزيادة ثروتهم .
أنا لا ألوم التاجر على خلقه هذا ، فمن أخلاق التجار الاحتيال على الكسب

وانما ألوم ذاك الذي قبل هديته حتى يدوس القانون ويربحه الألوف من دم الفقير .

لو رضيت أن أسكن مصر عاملا من عمال قصر الملك فؤاد لأبغضني ثلاثة أرباع من تعرفت اليهم من اخواني المصريين ذلك انهم يفسرون رضاي بالخدمة عندهم أني جئت أشاركهم في خبزهم واعتدي على حقوقهم .

من المشاهير من تزيد عظمة دولتهم في مكانتهم وتوليهم صيتاً بعيداً ، ولا يرزق شهرة عالمية الا من اشتغل بالسياسة العامة ورددت صحف العالم اسمه شهوراً وأعواماً بالخير أو بالشر ، وشهرة العالم أقل من شهرة السياسي على كل حال .

متى أحب شعب القضاء على أحد رجاله جمع له من المساويء ما صح وما لم يصح . لما عزم الطامعون في الخلافة على دفع بعض خلفاء الأمويين عنها اتهموهم بتهم كاذبة لايقع فيها المجانين .

اذا أراد امرؤ قتل كلبه ادعى انه مصاب بالكلب ينهش ويؤذي ، واذا مالت نفس رجل الى طلاق امرأته نسب اليها من العيوب مالا يجتمع مثله في عشر نساء قبيحات .

قلت لصاحب طلب اليّ أن انشر له في الجريدة مؤاخذات لعامل بلده ، وكان صديقي أيضاً ، ونشرت له ما اراد وانا موقن صدقه ، فلما عزل العامل بما كتب فيه عزمت على صاحبي أن يصدقني ، وقد تم له ما سعى اليه من عزل العامل فسألته هل صح كل ما اتهمته به فقال : لا والله مارأينا أعف منه يداً ولساناً وفرجاً الا أننا لا نحتمل هذا العيار من الرجال ونحب من حاكمنا أن يأخذ منا ويعطينا ، وهذا كان كالخشبة قطعة واحدة لا يلين .

لا يظهر الرجل المثقف بمظهره الحقيقي من الاخلاق الا يوم يتولى عملاً تكون له فيه سلطة ، قد يكون الرجل ممن لا بأس بثقافته واذا كانت أخلاقه التي ورثها من أهله ناقصة نقصاً فاحشاً تفقد ثقافته بعض نفعها .

كنت أذهب الى أن الكسل خاص بأهل مصر لمكان الحرارة في قطرهم ، واذا به منتشر في سكان الشام وخصوصاً بين المتعلمين ، ما أغنى عنهم جودة الهواء واعتدال الاقليم .

اناك تشتغل بالعبث اذا حاولت أن تجعل من البخيل كريماً ، ومن الطائش حليماً ، ومن الجهول عليماً ، ومن المعجب بنفسه حكيماً .

ادعياء الوطنية

لقيت سورية من أدعياء الوطنية منذ قام الحكم العربي على عهد الامير فيصل ما أزعجها وأقض مضجعها ، فدخل الخلل على مصالحها من أول تأسيسها ، وسارت سيراً نكراً تزعزعت له حالتها الاقتصادية ، والاقتصاديات أول مايحكم بها على أمة فهي معيار سير الدول والامم .

قرأت في مذكرات صديقي الاستاذ فائز الغصين قوله : « دخلت البلاد في السنتين اللتين دام فيهما الحكم الفيصلي في عهد جديد ، الا أنه لم يدم طويلاً ، فقام بعض من يعتبرون أنفسهم وطنيين وعالمين بالسياسة أكثر من كل أحد ويعدون سواهم من المارقين ، يوجهون الشعب نحو عداء الافرنسيين والانكليز على السواء . هذا وسورية ليس لها جيش يومئذ يصد عنها عادية العدو اذا أراد بها سوءاً ، فكنت ترى الشعب على اختلاف طبقاته متحمساً . يدلك على هذا التحمس ما أجابني به أحد المتطرفين من أن له قلباً يحارب به سبع دول . فسألته ولماذا

تحاربون فرنسا وانكلترا في آن واحد ؟ حاربوا احداهما حتى اذا ماتغلبتم عليها تحاربون الاخرى ! وادرك الانكليز ألا فائدة في انحيازهم الى السوريين ، فتركوا سورية واتفقوا مع الفرنسيين ، فكان ما كان من احتلال الفرنسيين لسورية الداخلية وعجز الجيش العربي ، واستلامه السريع . وبان خطأ رأي هؤلاء المتبجحين وكانوا ولا يزالون شراً على البلاد بآرائهم وتوجيهاتهم الخاطئة . هذا ما كتبه القاضي العادل في مذكراته ، وهكذا رأي العقلاء من هذه الفئة الجاهلة التي ولت نفسها الزعامة واستأثرت بحق الكلام عن السوريين من دون توكيل منهم ، وذلك في أحرج الأوقات التي صارت اليها حالة ديارنا بعد الحرب العامة الاولى . وما ننسى اليوم ما كان من تزعم « شيخ كتاب » يملي ارادته على الأهلين وعلى الأمير فيصل ، ويبث في النفوس روح الثورة والعداء للأجانب ، وكان بعمله الأخرق سبباً في إزهاق أرواح مئات من الناس ، وما كانت غايته إلا الظهور والاستئثار بالمغانم ، وكان يزيد في رعونته كلما رأى آراءه مسموعة ودعوته في تضليل العقول ناجحة . وهو بما أتاه لم يخسر شيئاً ، وكان الخاسرون من ساروا في ركبه مغرورين مخدوعين ، أما هو فجمع ثروة عاش بها مرفهاً . ومن الغريب أن يظل مرجعاً يعتد برأيه الى عهد قريب ، بعد أن رأى الشعب خطأ جميع مناهجه في السياسة .

وكان هؤلاء الدعاة الذين تولوا الكلام في سياسة الأمة زمناً يوقنون أنهم لا ينجحون فيما يحاولون بلوغه الا اذا نالوا من المؤتمنين العارفين . وكان أيسر شيء عليهم الطعن في وطنية من لا يشايعهم في أفكارهم . ولا يتعففون عن حمل الأذى اليهم ، وتراهم تحت الطلب لكل من يدعوهم الى القيام بهيجه سياسية أو حزبية وهم من الصنف الذي يخدم بضعة أحزاب ويبدل عدة مشارب ومذاهب في مدة قصيرة .

والى اليوم وبعد مضي زهاء احدى وثلاثين سنة قضتها سورية في محنة السياسة الخرقاء لا يزال من ساروا على طريق الضلالة يتحفزون للوثبة كل ساعة وهم على قدم الاستعداد لالقاء الامة في تهلكة لقاء مغنم ينالونه ، لولا أن قلّمت القوانين من أظفارهم وعرفتهم الأيام أقدارهم .

الوزراء المرتجلون

قسم عظيم ممن تولوا الوزارات منذ أول عهد الانتداب في سورية ولبنان لم تسبق لهم خدمة الحكومات من قبل وكانوا وسطاً ، وأقل من الوسط في سياستهم ، وما تولوه من فروع الادارة . وكان جهلهم بعض الامور سبباً أكبر في اخفاقهم ، يخرجون على القوانين لأنهم لا يعرفونها ويرتكبون أغلاطاً فاحشة لا يدرون . وأدنى نظرة في حركاتهم تقفك على سيرتهم حتى وصلوا الى كرسي الوزارة ، وماذا كانت الوسائط التي تذرعوا بها ومنهم من حرم الذكاء والتعليم الابتدائي ، وتولوا رئاسات الوزارات أيضاً ، وأتى عليهم زمن وهم يديرون عدة وزارات في آن واحد وجماع مالهم من رأس مال ، معرفة الطرق الى توجيه الوزارة إليهم واتقان الدسائس التي يستخدمونها يوم تخونهم قوتهم . ومما ساعدهم أن أرباب المقدرة لما شاهدوا الحكم يصل الى مثل هذه الأيدي عزفت نفوسهم عن تولي المناصب ، فكانت المصيبة مزدوجة ، لم ينتفع بالصالح للخدمة ، وتقلدها محدود الفكر ، قليل الخبرة .

من عيوب المجتمع

أليس من عيوب الحضارة أن تتوسل بعض الممالك الراقية الى الاحتفاظ بأسعار حاصلاتها من طريق اتلاف الزائد عن حاجة الأسواق . فقد أتلفت هولاندة مئات الألوف من البقر والخنزير ، وجعلت كندا من حنطتها وقوداً للقاطرات ، وأحرقت أوستراليا حبوبها ، وقطعت البرازيل مئات الألوف من أشجار البن لتخف غلاتها ، وفاضت حاصلات الولايات المتحدة من الحبوب والبطاطا فنصح بعضهم للحكومة أن تبيد الجزء الزائد منها لتصل الى السعر الذي يرضيها .

كل هذا وملايين من البشر في الصين والهند يموتون في المجاعات من قلة الغذاء وليس في الغربيين من ينجدهم بما هم مستغنون عنه .

خواطر

عهدي ببعض المتأخرين من شيوخ الأزهر وقد تمثلوا الشريعة صافية نقية كالشيخ المراغي ، ومنهم من مزجها بالطريقة والحقيقة كالشيخ الظواهري . مذهب الأول مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الثاني مذهب ابن عربي الباطني المتصوف ، الأول هو الاسلام ما شابته شائبة والثاني خطوط من الشريعة اختلطت بأوهام وأحلام . وشتان بين الطريقتين والشيخين .

كان انسلاخ الولايات العربية من جسم السلطنة العثمانية شراً على الترك وخيراً للعرب ، استقلت أربع دول عربية : العراق واليمن والحجاز ونجد ، وأربع دول في الشام : سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن .

ودبت في جميعها الحياة السياسية والاقتصادية ، وكانت أيام الترك أشبه بمدن الموتى لا حركة ولا سكون .

أسلوب الانكليز في القضاء أدخل في الأسلوب العملي منه في النظري ، والتطويل في فصل الدعاوي طريقة الفرنسيس ، وكان العرب في الجاهلية والاسلام يرغبون في الحكم الحاسم السريع وهم على ذلك الى اليوم .

من العظمة ان يفعل المرء الخير لا يمنّ ولا يستكثر ، وأن يدفع حتى عن عدوه غائلة تصيبه ، ولا يصرح بما تـحـمّـل لانفاذه ، وان يقوم بما يفرض عليه من الاحسان لقومه من غير أن يتوقع الاشادة بذكره والتنويه بفضله ، وأن يحسن لمن هو في حاجة الى الاحسان ويتناسى ما اسدى اليه ، وأن يتواضع للصغير قبل الكبير ، فالمتواضع يكتسب القلوب من دون ثمن ولا عناء . ولا يكفي المرء أن يكون عظيماً كما قال أحد عظماء الغرب ، والواجب أن تبدو عظمته في الوقت المناسب .

لك أن تُعَرِّف التجربة بأنها زبدة النافع في الحياة من جهود الانسان ، ومن التجارب نشأت بعض العلوم كالطب والسياسة ، ومعظم ما فيه سعادة البشر على هذه الأرض هو ابن التجربة . وُجِد مكتوباً على احدى المذكرات : التجربة شعار أسلحة مؤلفة من كل سلاح جُرِحنا به .

لا يُنتفع بنصح الناصح ان لم يكن من نصح له حسن الظن بناصحه .

تكثر مشاريع أرباب الذكاء النادر فتتوزع قواهم ويكون نجاحهم وسطاً . يقول كيتي شاعر الالمان : التفكير سهل والصعوبة في العمل ، والعمل بحسب الفكر أصعب شيء في العالم .

كنت أتمنى ألا أعرف تراجم بعض الرجال على حقيقتها حتى لا يسوء ظني بالبشر ولا ينقطع أملي من اصلاحه . واليوم أتمنى ألا أقف الوقوف كله على أخبار دول الشرق الادنى ، وفي ديار العروبة خاصة ، حتى لا أصاب باليأس من نهضة شعوبه المؤلفة من أعضاء صالحة وأعضاء فاسدة .

تعيش الممالك بقوة التسلسل ، ولولا الخوف من القوانين ما قام في القرى والمدن حجر على حجر لأن الانسان في ذاته متوحش مخرب حسود طماع .

في احصاء دولي حديث أن سكان انكلترا يتقدمون الامم كلها في قراءة الكتب ، فقد تبين ان ٥٥ في المئة من الانكليز يقرأ الفرد منهم كتاباً واحداً في الشهر على أقل تقدير . ويجيء بعدهم النروجيون يقرأ منهم ٥١ في المئة والفرنسيس ٤٩ والكنديون ٤٢ والالمان ٤١ والطليان ٣٤ والسويديون ٣٣ والاميركان ٢٠ . ومن حقنا هنا أن نسأل كم واحد في الالف يقرأ الكتب يا ترى في مصر والشام ، أعظم بلاد العرب مدنية . واذا كان لا يقرأ الكتب عندنا واحد أو اثنان في الالف فيالشقاء الآداب في هذه الامة ويا للعار يوم يجري التنظير بيننا وبين اقل أمم الغرب قراءة .

كنت في الطفولة مولعاً بتسلق شجرتين الميس والزعرور أقطف من ثمرهما وأتخطى أشجار الفواكه اللذيذة في مزرعتنا . دليل على أن الطفل أيضاً يحب الشيء النادر ويؤثره ولا يميل الى المبذول .

قلت لاحد كبار أعضاء الجامعة العربية ان معنى القرار الذي اتخذتموه في التزام الحياد في حرب كوريا أن الدول العربية ستلزم الحيدة في النزاع القائم بين الدول الديموقراطية والدول الشيوعية . فقال : اذا ضغطوا علينا فلا فائدة من قرارنا .

أشرت في هذه المذكرات الى أن النظام الشيوعي لا ترضيه كل الامم ، والمسلمون في مقدمة من ينبذونه ، لان تعاليم الاسلام تخالف مبادئ الشيوعية في بعض المسائل . وليست الاقطار العربية بحاجة الى هذا النظام الجديد لتوزيع الثروات توزيعاً عادلاً في الجملة ، والثروات عندنا لا تشبه بضخامتها ثروات الغرب اللهم الا العراق ومصر ، وهذه تنظر الآن في غنى الأغنياء لما فيه مصلحة الفقراء ، ولذا يجب أن يكون هوانا مع الدول الديموقراطية لانا ما عهدناها ـ ما عدا فرنسا ـ تدخلت في شؤوننا الدينية وما منعتنا من الاستمتاع بحرياتنا . ولو قد تيسر لنا ان نكون على الحياد حقيقة في هذا الفزع الاكبر لكان من ذلك الخير لنا أمّا وهو متعذر فالحياد قد يضرّ بنا . لا تبني الدول الحازمة مستقبلها الا على العقل والتفكير الصحيح . حرب بشروط مقبولة أفضل من حياد عاقبته مجهولة .

كتب اليّ من نيويورك صديقي الاستاذ فارس الخوري عضو جمعية الامم يقول : نحن هنا نعالج أضخم القضايا المهددة للعمران البشري كله باحتمال اشتباك ألفي مليون من البشر في حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر . والظاهر أن العقائد الاجتماعية أشد تحكماً في النفوس من العقائد الدينية ، فالصراع الراهن هو بين نظامين اجتماعيين النظام الذي يسميه أصحابه الغربيون ديموقراطياً ، والنظام الشيوعي الذي يسميه آله الآخرون ديموقراطياً أيضاً . وهذا الثاني يطلب التوسع ويأخذ خطة الهجوم ، والأول منهما يطلب العافية ويشتد في الدفاع عن نفسه ليحصر الشيوعية في دوائرها حذراً من أن تجتاح المعمور كله ويجرف تيارها ديار الغرب كما جرف الشرق ، والظاهر أيضاً أن الوقت أي الزمن يجري مع الشيوعية ويكسبها أنصاراً ومعتنقين سنة بعد سنة فمن مصلحة الغربيين أن يسرعوا بالقضاء عليها في مهدها ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وهم يعرفون ذلك

يهمون بالعمل ولكنهم يحسبون لهذه المخاطرة ألف حساب . وها نحن في الامم المتحدة نصارع المفاجآت ونحاول خضد شوكتها وقد أقمنا انفسنا نحن الدول الآسيوية الأُخرى مقام الوسيط المحايد لعلنا ننجح في كشف هذه الغمة مع العلم أننا لا نعقد آمالاً راجحة على النجاح . اه .

هذا ما كتبه الأستاذ يوم ٧ كانون الثاني ١٩٥١ ومعظم الامم في الشرق والغرب تستعد هذه الأيام للحرب والعالم كله من خشيته في بلاء لم يشهدوا مثله .

يتشابه المصريون والشاميون من وجوه ويتباينون في أخرى . تكثر الغباوة في مصر ممزوجة بذكاء وخفة روح واهمال . ويكثر الدهاء في الشام يخالطه ذكاء على غلظة وجهل مع جد . واضر الغباء والوناء مايتراءى في بعض الطبقات التي درست الدروس العالية وتولت امراً من امور السلطان .

انتدبت وزارة معارف احدى الدول العربية رجلاً من حملة الشهادات العالية ليتصل برجال المعاهد العلمية في بلد مجاور ، فأتى عليه أشهر لم يواجه خلالها أحداً ممن أمر بالاجتماع اليهم . وانتدبت بريطانيا العظمى رجلاً من أبنائها لمثل هذا الغرض في حكومة عربية ، فاتصل ثاني يوم وصوله بأرباب هذا الشأن ودام على اجتماعه اليهم مرتين في الاسبوع ، حتى استوفى ماندبته حكومته للوقوف عليه . تأمل همة العربي وهمة الغربي وقدر لنفسك جهل الأول بالواجب ومعرفة الثاني بكل ما في الواجب من تبعات .

يظن بعض من تخدعهم الظواهر أن في رجال الدولة ذكاء فائقاً وعلماً نادراً وتجربة عظيمة ، ولو خبروهم لرأوا جمهرتهم من المتوسطين في مزاياهم على الأغلب ، وبالمصادفة او الاحتيال فقط وصلوا الى ماوصلوا اليه

دأبت جريدة المقتبس على ذكر الحسن والقبيح من أعمال رجال الادارة والقضاء على العهد العثماني . وكانت حكومة تلك الأيام ترتاح غالباً الى ملاحظاتها فتبادر الى نقل عمال السوء أو عزلهم او انهاء خدمتهم ، وقد سرحت مرة محكمة الاستئناف بكل ما ضمت من رئيس وأعضاء وكتاب حتى الآذنين والمحضرين . ويعدّ بالعشرات من كانت جريدتنا سبب زحزحتهم عن مراكزهم . ولما جئت أدون مذكراتي كان موضوع سيئات الموظفين من أهم ابحاثها ، ذلك لأن طلائع الاصلاح لا تبدو الا يوم يطرد الخائنون من خدمة الحكومة .

كنت في الجريدة أكتب كتابة تؤثر في الحال وتضيع من الغد ، واليوم أكتب ما يحفظ وينتفع به في الحاضر والمستقبل ، ولا قصد لي الا تطهير جهاز الحكم ليبدأ الاصلاح سليماً من الشوائب . فيما مضى كنت أتطلب الممكن من الاصلاحات فوفقت الى الضرب على أيدي بعض الخونة ، وبالطبع لم يرض عما كتبت من نكبوا برزقهم ، وافتضحوا بسيئات أعمالهم . ولقد اغتبطت بما أقدمت عليه لأني أفضل أن ينكب الفاسدون الذين اعتادوا الاضرار بالناس والدولة ، وأن أكون واسطة لتخفيف الظلم عن هذه الأمة المسكينة ولو بعض التخفيف .

ابتنى صاحب الحجاز ونجد وولي عهده قصرين فخمين في الطائف ومكة قيل انهما قاما عليهما مع فرشهما بمليونين من الجنيهات المصرية . ولو أنفقا هذا المال العظيم في نشر العلوم والصناعات وتعبيد الطرق والاصلاح والري بما يضمن للشعب القوت الضروري لأقام لهما قومهما متى شبعوا عشرة قصور أفخم من هذين القصرين اعترافا بجميل المليك العربي وابنه .

كنت منذ أيام الشباب اذا قرأت كتاباً باللغة الافرنجية في موضوع طريف أحدث من اجتمع اليهم بخلاصة ماطالعت ، وأورد عليهم ما علق في ذهني من موضوعه ، فاذا أتممت حديثي لا أعدم رجلا من أهل المجلس

يتمنى عليّ أن أنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ويصادق بعض من حضر على قوله . وقد يكون بعضهم ممن يحسن النقل من لغة غريبة وعلى شيء من العلم . وما شهدت واحداً يقول : في نيتي اقتناء هذا السفر وترجمته فما رأيك ؟ اعتاد قومي ان يحمّلوا جميع الأثقال على عاتق من يرون له بعض قوة ، لا أن يتقاسموا الحمل ليخف حمله ويشتركوا جميعهم في أجر حمله .

اتقاء ثلاثة امور تحفظ على المرء بعض صفائه في الحياة وهي الا يتزوج من أقاربه ولا يزوجهم ولا يشارك صديقاً له في أمور مالية ولا يفرق ثروته على ورثته في حياته .

عهدت رجالاً ظهروا فجأة في عالم الشهرة ، واقتربت منهم أمعن في حالهم ، فاستبان لي انهم دون الوسط بعقولهم ، وأقل من الوسط بمعارفهم ، سادوا وليس لهم من أسباب السيادة شيء يذكر ، فصدق عليهم ما وصف به فولتير الفيلسوف احد مواطنيه يوم قال انه كان قائداً وما مست يده سلاحاً طول حياته ، وكان عضواً في المجمع العلمي ولم يمسك القلم بيده .

كانت بريطانيا العظمى اذا جرى ذكر الدول تقول بلسان الحال انها ليس لها مع احداهن صداقة ولا عداوة . وانها لاتهتم لغير مصلحتها ولهذا لا يستغرب تخليها عن الصين الوطنية واعترافها بالصين الشيوعية ، وفي كل عصر كانت صداقة انكلترا موقتة تستعين بمن تصادق على الخروج من مأزق وقعت فيه فاذا امنت عدوتها تخلت عن صديقتها ، وسياستها على كل حال خالية من العاطفة .

مئات الالوف من السيارات صُرفت فيها عشرات الملايين من الجنيهات تجول في هذا الشرق القريب ، ناعية على أهله اسرافهم وعلى حكوماته

قلة بصيرتهن . ولقد كثرت السيارات في لبنان (فيه ٤٨ الف سيارة لمليون وربع مليون من السكان) حتى كادت تصبح عاصمتها مستودع سيارات . وكل ذلك دالٌ على أن أميركا ـ وفي معاملها تصنع معظم هذه الحوافل ـ تستعمر الشرق الأدنى استعماراً غير مباشر .

في حياة الشعوب أمور غامضة يصعب تعليلها . كتب الباحثون من أهل المشرق والمغرب في انحطاط المسلمين ألوفا من الصفحات ، ودوّن الموافقون والمخالفون ما هدتهم اليه آراؤهم من أسباب التدني ، وما يجب على المسلمين التذرع به لاصلاح ما هم فيه من نقص ، وما أظن ما قالوه هو كل مايجب أن يقال ، ولعل الايام تكشف عن أسباب ما مرت بخاطر أحد حتى اليوم .

قام مذهب الشيعة بدعوة أن صاحبهم (علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه) مظلوم في ابعاده عن الخلافة ، وما برحوا الى اليوم يحملون على كل من لم يوافقهم على رأيهم . فهرون الرشيد مثلًا لما لم يوافق العلويين على مشاكستهم العباسيين وما التوى في سبيل الذب عن الخلافة وأخذ القائمين على دولته بذنوبهم ، اختلقوا عليه ما كان بعيداً عن أخلاقه كل البعد ورموه بالفسق والفجور ، وقال المعتدلون منهم انه كان سيء التدبير وهو فرد الدهر محمود الصفات .

يُحتمل بعض ما وضعه الشيعة لتأييد دعوتهم الا شتم الصحابة الكرام ، أما قذفهم في الامويين والعباسيين وفي كل من يستشم منه ريح الانحراف عن أمير المؤمنين فمن أيسر ما ارتكبه دعاتهم . وما برحوا منذ قرون يندبون ويبكون ويلعنون لا ينتهون ، وهذا من أعجب ما سمع في المذاهب .

تغلغلت الفلسفة في طبقات الخواص منذ خمسة آلاف سنة وانتشر التصوف في طبقة العوام من المسلمين منذ الف سنة فكان من الاول توسيع المدارك ومن الثاني خمولها . عانى بعض النبهاء الفلسفة في كل جيل وأمة فقوي العقل فيهم . وزعم المتصوفة انهم ينظمون الحياة الاخرى بطرقهم على حين هي مبسوطة في كتب الدين فلا تحتاج الى زيادة جديدة . خرّجت الفلسفة رجالاً انتفع بهم العقل ، وخرّج التصوف رجالاً عبثوا بجوهر العقل .

قد تكظم أمة غيظها من انحراف راعيها عن الجادة ، وتغضي عن عبثه واهماله ، فاذا نفد صبرها تنفجر فجأة انفجار المرجل بالحرارة الشديدة وتقعد لمحاسبته على ما أتى ويأتي .

اذا جرأ عظيم على هتك شرف أمة وبدأ يهزأ بمقدساتها ومشخصاتها لا يصدها شيء عن نشر مثالبه في الخاصة والعامة وبين الابعدين والاقربين ، وقد تغضب عليه لأسباب يراها بعضهم غير جوهرية ، قال لي عالم سياسي ان عظيمنا قد جمع حوله صنوف العناصر من سكان حوض البحر المتوسط الا العرب فانه حرمهم خدمته وهم أحق بها من غيرهم . وهذه الغلطة كان قومه كثيراً ما يعدونها عليه وينسون ما له من حسنات .

نجاح الشباب في سياسة الممالك أقل من نجاح الكهول والشيوخ ، ذلك لان في دم هؤلاء من الصفاء ما ليس في دم أولئك . تكثر المغامرات في الشبان خلافاً للشيب . والملك في الاربعين والخمسين من عمره أقرب الى النجاح لأنه يحسن اختيار رجاله ، وبرجاله يحكم على عقله وجودة سياسته .

تكرر التآمر على سلامة الجمهورية السورية في هذه الايام . ومن المتآمرين من يحاول الدخول في الهلال الخصيب أي التحالف مع العراق ويقصد فريق انشاء سورية الكبري أي ضم شرقي الاردن الى سورية أو ضم سورية الى شرق الاردن وقد اهتدت حكومة الجمهورية الى ما يراد بها وسلمت الى القضاء من جرؤا على القضاء عليها .

اعتاد الشرقيون أن يتسرعوا في الحكم على الرجال ويكيلوا الاماديح بأعظم المكاييل لمن يتولى المناصب العالية من أول يوم يتولاها ، يعمونهم بالمصانعات ويطلقون عليهم من النعوت أفخمها ، حتى اذا بدت للأنظار غلطاتهم في تسرعهم يتراجعون عن أحكامهم الاولى . من عادة الناس أن يفرطوا في اثبات المناقب والمثالب ، وما كان أولاهم أن يجربوا من يمدحونهم أو يقدحون فيهم باديء بدء حتى لا يساء الظن فيهم مادحين وقادحين .

رأيت دعياً في الشعر يطعن في جماعة من العلماء من دون سبب ورأيته يعود بعد حين يترضاهم لانه بدا له أن يدخل في جمعيتهم وهم ما عرفوه الا متشرداً طرد من بلده لسوء أخلاقه في تدخله فيما لا يعنيه وعاش وما يزال يعيش بالجاسوسية للغريب على قومه .

قيل ان نظام حيدر آباد الدكن أدخلته حكومة هندستان في جملتها وفقد استقلاله في امارته وتبددت أمواله العظيمة . وكان أغنى غني في العالم جمع ثروته من قاصديه ، فكان بدلا من أن يعطيهم يأخذ منهم . وكان حريصاً بكل ما في الحرص من معنى قبيح ، وما رقّ قلبه يوماً فنزل عن جزء من ماله ليعاون قومه وينفع الانسانية .

قال أحد المفكرين لا يخلو بعض من دخلوا في جمعية الارهاب من ذكاء ومعرفة فكيف أقدموا على ما لا تضمن نتيجته فعرضوا سمعتهم

للزوال ووطنيتهم للخطر ، فأجبت ما دفعهم الى ارتكاب ما ارتكبوه الا حب الظهور والغرام بالمناصب وما تسرب اليهم من أموال اطلقتها لهم بعض الدول المجاورة . ولو كان الدافع الى ذلك وطنيا صرفاً لكانوا سلكوا طرقاً أخرى ليس فيها تدمير ولا قتل .

ما دام مقامك في الارض غير طويل خفف عن نفسك وطأة الاحزان واجلب لها السرور ما استطعت « لا تكن أنت والزمان عليها » .

عوّد نفسك التدقيق في أكلك ومنامك ونزهتك واجتماعك وعملك اليومي حتى يصبح لك كل ذلك عادة مستحكمة . وخذ أبناءك بهذا الادب منذ نعومة أظفارهم لينشأوا على حب النظام ويصبح ذلك طبيعة ثانية لهم .

تزيد قيمة المرء بما ينطوي عليه من صفات صالحة . من الناس من قيمتهم قيمة الماس ومنهم من قيمتهم قيمة الحصا .

كلما تقدمت المدنية ندر الزواج وزاد الفحش وقلّ النسل . الاقطار التي ظلت على الفطرة بعض الشيء تنسل أكثر من الاقطار التي سارت في طريق المدنية الفاسدة ، وأهل المدن أقل نسلاً من أهل القرى لصعوبة الحياة في الحواضر وسهولتها بين أهل الحرث والضرع .

لاحظ ملاحظ أنه كان الأولى السكوت عن نقد أخلاق بعضهم تفادياً من غضبهم ، وقد جاء ما بدر على ألسنتهم مصدقا لما وصفوا به . من تطلب رضا الناس كان عليه أن يعمى عن مساويهم ، ومن كانت له دعوة يريد توفيتها حقها لا يسعه الا قول الحق مهما كلفه الامر .

من أجمل العادات زيارة الأحياء قبور الأموات في الأعياد والمواسم

يبكونهم ويذكرونهم ويترحمون عليهم . بيد ان زيارة الاحياء بعضهم بعضاً تنفع أكثر من زيارة الموتى ، ومن الحي يستفاد ما لا يستفاد من الميت

كان الناس قبل انتشار المقاهي والملاهي والاندية يعقدون مجالسهم في بيوت مقدميهم يأنسون ويتعاطفون ، ويستفيد صغيرهم من كبيرهم ويعلم عالمهم جاهلهم . وقد بطلت هذه الاجتماعات المفيدة بهجوم المدنية الحديثة علينا ، فندر اجتماع المتحابين والمتماثلين الا اذا كان عرضاً في الشوارع والمجتمعات ، وقلت الفوائد التي كانت تجنى من التآلف . وكانت بيوت أعيان القوم أندية تفيض نفعاً ، فيها تعليم وتدريب وفيها طرب وسلوي ، وأجمل ما فيها اخاء دائم متبادل ، وصداقة ذات تراحم .

أدركت طبقة تعد من العوام كان أساتذتها من عمار المجالس الخاصة وأصبحوا بما أصابوا من تجارب وحفظوا من أحاديث جميلة يمتع تلذ محادثتهم وينتفع ببعض آرائهم . بطلت هذه المجالس ويالأسف وما أكثر ما أتت الايام والليالي على المفيد فأبطلته .

لايسوغ لك أن تعد بلدك آخذاً بأسباب الحضارة الا اذا شاهدت فيه صورة الماضي الى صورة الحاضر حتى تعلم فضل أجدادك وآبائك ، ويعلم أبناؤك غداً فضلك عليهم .

كثيرا ما نوهت بما تم على ايدي اعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر من الفائدة العامة للعلوم والأدب ، بما وفقت الى نشره من الكتب المحررة المنقحة ، وما كان اعجابي اقل من ذلك باجتماع بعض اعضائها والطارئين على القاهرة من المصريين وغير المصريين في ناديهم كل اسبوع ، يستفيد المبتدىء من المنتهي ، ويأخذ كل طالب ما يفيده ، خصوصاً وأعضاء اللجنة من الاساتذة الراقين ومنهم المؤلفون والمترجمون والناشرون الذين انفقوا أعمارهم في خدمة الآداب .

كلما قلت قال المصريون كذا وارتأى الشاميون كذا ، وودالعراقيون كذا ، أقصد بقولي الخاصة من أهل كل قطر ، وفيهم يدخل القابضون على زمام الحكم وأرباب الافكار والصحافة والعلماء والأدباء وغيرهم ممن دخلوا في الطبقات الراقية وخرجوا من الطبقات النازلة . ولما هبطت مصر قبل نصف قرن اعتقدت أنها أرقى الاقطار العربية ومازلت على رأيي الى هذا العهد ، بيد أن اقراري هذا لا يحول دون نقد مواضع النقد فيها ، لأنني أريد لها الكمال في جميع حالاتها .

أنا لا أعتقد الى الآن ان المصريين يعرفون الشعوب العربية معرفة جيدة ، وكذلك هؤلاء لا يعرفون المصريين ، وحبذا لو اكثر المصريون من الرحلة الى الاقطار العربية كما اشرت الى ذلك في هذه المذكرات على ان يطيلوا مقامهم فيها ويختلطوا بأهلها اختلاط من ينوي الافادة والاستفادة لا يقتصرون على لقاء من يصادفونهم في الفنادق والمتنزهات ودور اللهو والقصف ، ولا على الاجتماع ساعة الى بعض رجال الحكم ولا على الاختلاط باهل المدن دون أهل القرى ، والواجب دخولهم في صميم الشعب ليعرفوه حق معرفته ، وكذلك يفعل الشاميون وكذلك العراقيون وسائر الشعوب العربية . ومن اطلع على خصائص قوم احبهم ومن طالت عشرته لأناس حن عليهم ونفعهم وانتفع بهم .

إذا عرف الناس قيمة الوقت مالوا الى الايجاز في كل ما امكنهم ايجازه ، يوجزون في زياراتهم وافراحهم واتراحهم كما يوجزون اذا تحدثوا او تناقشوا واذا كتبوا وخطبوا . أصبح الايجاز في شرح العلوم وعرض الافكار من طبيعة هذا القرن ، كما عُدّ الاسراع في كل شيء من ميزاته . حالة العصر لا تحتمل التطويل والبطء ، والكلام الموجز تتشربه النفس ويبقى على ذكر من سامعه وتاليه على ما لا يكون مثله للمطول .

ولا يبعد ان تستحيل الكتب بعد حين الى مقاطع صغيرة تتشربها النفوس بلا عنـــاء وقد أصبح الانسان يفضل السفر في الطيارة والسيارة

على ركوب القطار ومتون البحار ، فكيف يسمح لنفسه ان يضيع اياماً طويلة في سفرة وفي وسعه ان يكتفي لاتمامها بساعات قليلة . وليس من المستبعد ايضاً ان تختصر احجام الكتب في المستقبل فتصدر في صفحات مصغرة بحجم الكف قليلــة الاوراق ، دقيقة الحروف خفيفة المحمل هينة الثمن .

من حوادث هذا القرن : حشر البابا في رومية مليون كاثوليكي من اقطار العالم ليصرح لهم ان مريم العذراء رفعت الى السماء وعليهم ان يعتقدوا ذلـك ، الا أن البرتستانت في جنوبي افريقية بعثوا الى قداسته يقولون ان رفع السيدة العذراء الى السماء « اسطورة » انتقلت من خرافات الوثنيين . وقد سئل شيخ الازهر عن صعود العذراء الى السماء فقال : لم يقع ذلك !

قال احد العلماء المعاصرين : ان الوسيلة الوحيدة ان تصل الى تحقيق الممكن هي الا تحلم بغير الممكن . وقالت العرب : إذا اردت ان تطاع فسل ما يستطاع .

كان غستاف الخامس ملك السويد من اعقل الملوك يقصد كل سنة الى جنوب أوربا للاستجمام وقال في آخر رحلة له الى نيس : ارجو أن اعود في السنة القادمة ان شاء الله . اقول هذا لأنه لم يبق اليوم غيره ملكاً مطلقاً .

فيما مضى سيطر رجال الدين على كل شيء في عالم المدنية وهاجم بعض من حرر العلم نفوسهم من الغربيين يحاولون نزع وصمات الدينيين . قال فريق من الخبراء العالميين في باريز ان الكتاب الغربيين يعمدون غالباً عند وضع كتب التاريخ الى اغفال ما قدمته الامم الاسلامية والاسيوية من خدمات جليلة للعالم وقال احد هؤلاء الخبراء وهو استاذ التربية المقارنة بجامعة

لندن ان تشويه التاريخ على هذه الصورة كان سبباً في كثير من مناعب العالم . وقد اجتمع هؤلاء الخبراء لتقديم مجموعة من التوصيات لهيئة الفقه الدولية لوضع ترتيب يرشد المؤلفين والناشرين الى الطريقة المثلى لتأليف كتب التاريخ المدرسية . وصرح المستر سيثي الهندي والمستر ميونبخ السيامي بأن تاريخ أمم العالم يتضمن التنويه بمجد أميركا في الغالب على حين أغفل من كتب التاريخ ذكر الأمم الاسلامية ، والاسيوية ، والافريقية ، وجاء في توصيات الخبراء وجوب جعل التاريخ دولياً وأن يتضمن كل شيء عن الشرق وافريقية .

تطورت المنازع بتطور الزمان وأصبح الناس لا يهمهم من العلوم الا ما يسليهم ويفيدهم في مادياتهم مباشرة ، ذلك لانهم شهدوا في الحرب الاخيرة نجاح الجهلاء اكثر من المتعلمين حتى لقد اقتنوا العقارات وعمروا القصور واستعمروا القرى والمزارع فزهد الناظرون الى كل ذلك في العلم لانه في نظرهم من العوائق عن جلب المال !

دأبت المجلات الهزلية على نشر صور كواكب السينما والراقصات والمغنيات في أوضاع مغرية . وكثيراً ما تصفحت هذه المجلات فرأيتها على الاكثر تافهة لانها كتبت للجمهور والجمهور لا يهمه أن يتعلم بقدر ما يهمه أن يتسلى واكثر ارباب هذه المجلات تجار ماهرون جسوا نبض قرائهم فثبت لهم انهم لا يقبلون الا هذا الصنف الرخيص من الادب .

لو نجحت بلادنا في سياستها الخارجية حتى تصبح بمأمن من الاشتراك بالحروب بمجاراة الدول العظمى على أغراضها لكانت أسعد الممالك اليوم بما قدّر لها من انصراف الهمم الى العلم والاخصاء في الفنون والاهتداء الى أساليب الاستغناء من طريق الزراعة والتجارة والصناعة على أحدث الاصول الحديثة .

نجحت مصر في العهد الاخير بانشاء الجرائد السياسية أكثر من نجاحها بالمجلات العلمية وذلك لسببين وهما رغبة الناس عن العلم والادب وغرامهم بالجرائد الفكاهية تنشر ما يلذ العامة من مناظر وحكايات ، وتمثل لذلك باربع مجلات في مصر وثنتين في الشام . فالمجلة الاولى أقدم المجلات مات منشئها فلم تجد لها منشئاً من عياره ، ولا تهيأ لها من ينفق عليها لاستخدام أقلام كتاب بارعين فلفقت لفقات ثم قضت نحبها . والثانية غير ورثتها صورتها ونقلوها من مجلة ادبية الى مجلة فكاهية لا تقصد من كل ما تنشر الا ارضاء العامة بما يناسب عقولهم . والثالثة والرابعة اتكل القائمون عليها في انشائها على مقالات المؤازرين فان اتفق ان ظفرت المجلة بمقالة تعب كاتبها في تحضيرها والا اضطر قيّم المجلة أن يحشوها بما هب ودب . والمجلتان الشاميتان ليس فيها من المزايا الا الثبات على اصدارهما ، وهما تستجديان المقالات وتكون على الاغلب من الدرجة الخامسة والسادسة ، وقد تمر السنة على هاتين المجلتين ولا تسقط فيها على مبحث مفيد فيعمد صاحباهما الى النقل والاقتباس . وهناك ولا نكران للحق مجلات علمية قليلة منها ما يصدر في الشام والعراق ومصر استوفت شروط الاجادة وهي ذات موضوعات معينة والقائمون على انشائها علماء أذكياء يعرفون ما له قيمة للنشر من الابحاث .

الناقدون والناقمون

من حسن التوفيق أن نشرت مذكراتي في حياتي ، فسمعت ما قاله فيها الناقدون والناقمون . زعم بعضهم أني أغضبت الكثيرين وأرضيت القليلين ، وأنني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات . وكان عليه أن يعكس حكمه فيقول اني أرضيت الكثيرين وأغضبت القليلين . ذلك أن مجموع من تصفحوا الكتاب ، ومن المثقفين خاصة ، قد أكبروا حريته ، وصفقوا للشدة على أرباب السير الرديئة من العمال وغيرهم . وما كان من غضبوا في الواقع الا طائفة قليلة من السياسيين والمتلاعبين ، وغير صحيح أني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات ، فأنا ذكرت الماضي ولم أتعرض للمستقبل على ما يلائم روح المذكرات . كتبت ما شهدته وأنكرته وشهده غيري وأنكره ، وما سجلت الا ما يجب تسجيله . أما ما كان محجوباً عن العيون فهو فيما أرى من علم الغيب ، وما أنا ولا غيري بعلم الغيب من العارفين ، حتى أضمن سلامة النفوس من العيوب أبداً ، أو أؤاخذ عما سيأتيه بعد حين من تعرضت لذكرهم . فحكمي اذاً كان على ما وقع لا على ما سيقع أو سوف يقع .

وبعد فما كنت الا صادقاً في حكمي على صاحب الثورة الاولى المشير حسني الزعيم ، وقد أعجب بثورته عقلاء الامم ، وما اختلف العارفون في عظم شخصيته . أما ما كتبته في رئيس الجمهورية الثالث فكلام غير منقوض بما كتبته في جده مثلاً ، فهو غير جده ، هو كان طموحاً الى المجد بطرق له خاصة خالف فيها أصول الحكم فعطل الحدود ولم يرع القوانين ، وبذّر الأموال ولم يصرفها في وجوهها ، وقرّب الرعاع الجاهلين وأقصى النبلاء العارفين . وأنا لا أسأل عما يطرأ على أخلاق الافراد ما داموا طول

حياتهم عرضة لتغيير أفكارهم ومنازعهم ، وارتكاب ما يبدل نظر الناس فيهم . ويقلُّ في الخلق من يسير على وتيرة واحدة طول حياته . وواجب المؤرخ على أي حال ان يحكم على من يعرض لهم بماضيهم وحاضرهم ، ولا شأن له بمستقبلهم . فقد يكون الرجل في آخر عمره غيره في وسطه وأوله ، فلا ملام على من ترجم له اذا اعتمد على ما رأى وسمع ، ما دام المرء مفطوراً على الطمع يفعل فيه الزمان والمكان .

وقال صديقي الاستاذ علي عبد الرازق باشا من علماء مصر من كتاب : وجدتك في بعض المواقف مهاجماً عنيفاً في صراحة لا يمازجها حذر ، وفي مواقف أخرى كنت أقرب الى المداورة وأدنى الى الابهام ولكنك في كلتا الحالتين واضح العبارة ومستظرف ومحبوب . ولقد اكون وقفت موقف الشك والتردد ازاء ما جرى به قلمك في بعض المواضع ، ولكن لم يخامرني ادنى اثر للشك ولا للتردد في انك وضعت بهذه المذكرات سجلاً حافلا بالحوادث مليئاً بالمعلومات .

وقال صديقي الاستاذ محمد بهجة الأثري من علماء العراق من كلام على المذكرات في الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٣٦٩ — ١٩٥٠ ص ٣٥١ و ٣٥٣) : لست ازعم ان المؤلف قد سلم له كل ما دونه في ارتساماته وآرائه ، ولا سيما في السياسة والرجال ، فانه هو نفسه يعترف في آخر هذه المذكرات (ص ٩٩١) بأنه ربما وقعت له هنات كان الاجدر ان يسلم منها كتابه ، ثم يذكر السبب في وقوع هذه الهنات له فيقول : وما كان السبب فيها الا بعض من أدلوا الينا بمعلومات وهموا فيها . وليته أشار الى هذه الهنات ، وبين وجه الخطأ الذي لم يعصم منه لتمييز مرئياته عن انطباعاته وآرائه ، وليعرف الناس — ومن حقهم أن يعرفوا — هذه الهنات التي وقعت له « ومن فيك أحلى »

قال وقد مررت في كتابه بأشياء لا أحسبها من هذه الهنات التي عناها بل هي من باب آخر مما يتصل بالسياسة وبالرجال ، وعلى بعضها

طابع العجلة والارتجال ، وعلى بعضها أثر الحدة والانفعال . وما يدرينا اذا أخذنا في سردها ، وهي ليست بالكثيرة أنه سيقول في ردنا ما قاله في تلك الهنات من ذا الذي عصم من الخطأ ؟ . . . فيسد بوجهنا الطريق الى مجاذبته أطراف الحوار !

الى أن قال : وبديهي أن من يكتب بهذا الأسلوب المطلق عن أهل عصر يعيش بين ظهرانيهم ، ويعطي كل انسان كتابه بشماله ، انما يعرض نفسه لغضب الناس وسوء قالتهم في حقه كالذي حدث له مع أصحابه وأحبائه بمصر حين نقد سلوكهم معه فثاروا عليه يناوشونه المطاعن ، وقوارص الكلام . وليس بمثل هذه السهولة تنسخ المودات بين الأصدقاء وتنسى العهود بين العلماء اهـ .

وتلطف الاستاذ أحمد شكري فلاحظ في جريدة النصر قائلاً : « ان هذه المذكرات هي أكثر من مذكرات هي تاريخ وتحليل أشخاص واصدار أحكام مختلفة عليهم . وأشهد أن الأستاذ كردعلي كان مؤرخاً صارماً ، فأصدر أحكاماً جريئة على أشخاص أصبحوا ملك التاريخ ، ومنحتهم الامة العربية مكاناً رفيعاً في أفكارها وذكرياتها . وأنا لا أشك أن علامتنا الكبير صادق فيما يقول ، ولكن لعل الأمر جوانب أخرى ولعل ما انتقده في أولئك الاشخاص صحيح ، ولكنه عبارة عن هنات شخصية وتصرفات توجبها ظروف لا نستطيع تقديرها ، فان من المؤكد أن عبد الكريم الخليل والشيخ عبد الحميد الزهراوي والسيد عبد الغني العريسي والشيخ أحمد طبارة وغيرهم من الشهداء الذين علقهم أحمد جمال باشا على أعواد المشانق عام ١٩١٦ في ساحتي المرجة والبرج في دمشق وبيروت لم يكونوا معصومين من الأخطاء فهم بشر كغيرهم ، الا أن كونهم القافلة الأولى من شهداء النهضة العربية جعل لهم حرمة في النفوس ومكانة في القلوب ، فهم أول من فقدوا حياتهم لأنهم أعربوا عن عقيدة عربية . أما أخطاؤهم الشخصية فالأمة لا تأبه بها كثيراً . ثم قال : انه كان يود أن

أصدر عليهم أحكاماً عامة تتناول عقيدتهم القومية ومبلغ اخلاصهم لها في معزل عن التصرفات الجزئية التي قاموا بها . وقال انه فاتني أن أبدي رأيي في أحمد جمال باشا مع أني أسهبت في ذكر العلاقات التي تربطه بي شخصياً والاتصالات القائمة بيننا حتى أنه كاد يعتقد ان لي في جمال باشا رأيا آخر غير الرأي الذي اعتنقه المؤرخون العرب في أن هـذا التركي كان سفاحاً غاشماً يبغض العرب . . .

وأجيب على هذا أني ماطعنت في وطنية هؤلاء الرجال الأربعة الذين ذكرهم الأستاذ الناقد ، بل أشرت الى أن بعضهم ظلموني بنسبتهم اليّ أموراً مافعلتها ولا دخل لي فيها لو صدقها القائمون بالأمر يومئذ لأودت بحياتي ، وأنا لم أشترك في الاحزاب العربية ، وما كان عملي منذ أنشأت المقتبس الا عمل صحافي حر ، ولذلك لم أفسر ماعزاه اليّ الاستاذ الزهراوي الا أنه يبغي اتهامي بما أنا منه بريء ، ولا يبالي عشت بعدها أو قتلت .

هذا وجه تعريضي ببعضهم ، وماذا أعمل وواجب المؤرخ أن يكتب للناس ماوقع ، وأنا لا أكتب كتاب أدب وعواطف ، بل أكتب تاريخاً ومذكرات . جريت على هذا القانون معظم أيام حياتي في الصحافة أولاً والتأليف ثانياً ، مع علمي بأن عملي لا يرضي جميع الطبقات ، ولا يخليني من ملامة . وكيف يريدني الأخ الناقد ألا أذكر من ذكرت الا بالخير لشرف المقصد الذي أخـــذوا به ، ومنهم من استخـدم اسمي ليروج بضاعته وان اعتقد اعتقاداً جازماً أنه يلحق بي ضرراً ، ومنهم من حاول اتهامي زوراً بما صورته له أخلاقه ، وما عبأ بما يترتب على شهادته المعلولة وما أظن النـاقد الحصيف الا موافقاً لي . على أن من قتلهم الأتراك في الحرب الأولى من رجال العرب ليسوا كلهم من طراز واحد وان فيهم الشريف ، وفيهم من تجسس للغريب وشهـد الزور ، وهم كلهم ليسوا كالاساتذة عبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي وسليم الجزائري وتوفيق بساط .

أما طلب رأيي في أحمد جمال باشا ، فأذكر أني وفيته حقه من وصف فظائعه في سورية والاستانة وأذنة وبغداد ، ولك أن تدعو من ارتكب هذه الجنايات الفظيعة سفاحاً ، وأكثر من سفاح . والانصاف يقضي مع هذا ألا نلقي عليه وحده كل ما وقع للعرب من قتل ، وأن نقسم هذا الظلم الفادح بينه وبين حزبه ، حزب الاتحاد والترقي ، وهذا كان يقرر وجمال باشا ينفذ .

وجوز الدكتور احمد امين بك المصري لنفسه في نقد المذكرات ، الخروج على الانصاف وزيف كل ماعرفت به ، فطعن في أمانتي في التاريخ دون أن يأتي ببرهان ، وقال انه لايرضيه أسلوبي في كتابتي ولا طريقتي في البحث ، أما أنا فيرضيني أسلوبه وبحثه ، ولا ترضيني بعض جوانب من أخلاقه . وادعى أني هيأت لفرنسا تقسيم سورية ، فكافأتني بتوسيد الوزارة الي ، وهي دعوى أشهد بها على نفسه أنه قليل البضاعة في التاريخ والسياسة ، كما هو ضعيف في الفلسفة . وعجيب كيف لم يعرف أن الوزراء ورؤساء الوزارات ما كانوا في عهد الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان أكثر من رؤساء دواوين وعملهم اداري بحت . وكانت السياسة كلها بيد المفوض السامي يستوحي فيها وزارة خارجيته .

ولقد كنت منذ أول الاحتلال من أكبر المعارضين في هذا التقسيم ، وكتبت بذلك أنا ورصفائي الى المفوض السامي الجنرال غورو نعترض على اقتطاع الاقضية الأربعة من جسم سورية والحاقها بلبنان . ثم طلبت الى المفوض السامي المسيو دي مارتيل أن يتقدم بضم لبنان الى سورية على صورة وحدة أو اتحاد ، فغضب غضباً شديداً وكان ذلك سبباً في اقصائي عن الوزارة . وقد كررت القول لأمين سر المفوضية المسيو روبردي كه في أوقات مختلفة بضم لبنان الى سورية ، واذا تعذر ذلك أن يرجع لبنان الى ما كان عليه زمن العثمانيين متصرفية أو لواء مستقلا فتألم

من مقترحي ايضاً وتقاطعنا من اجل هذه التصريحات (على ما فصلت ذلك في مكان آخر من المذكرات) وهكذا كنت في كل فرصة أطالب بالجمع بين سورية ولبنان وأطلب ضم جبل الدروز ودولة العلويين ولواء الاسكندرونة الى سورية الأم . فهل أكون بعد هذا أداة من ادوات الانفصال حتى تكافئني فرنسا بالوزارة ? على ان برنامجي كان اوسع من ذلك ، كنت من دعاة الوحدة العربية ، صرحت بذلك للفرنسيين غير مرة ، وقبلوني في الوزارة على علاتي ، وما أنكرت قط دعوتي ، وكان تقسيم سورية من اعظم ما آلمني من هزل السياسة الفرنسية والانكليزية . كل هذا واحمد امين لا يرضى الا ان يفتري عليّ وعلى التاريخ ليتخذ مما اختلق واسطة للطعن وما وجد غير الكذب سلاحاً يقاتلني به . اما انا فما زلت على رأيي في اخلاقه مهما تحامل وتبجح ، وكتب عن نفسه يجمل بقلمه سيرته . وكان من زميله أحمد حسن الزيات ان استعمل الشتائم على طريقة سفهاء الصحافيين في مصر اوائل هذا القرن ، والسفيه لا جواب له عندي .

محمد رسول الله

انصاف المخالف أشد وقعاً في النفس من انصاف الموافق . كتب العلماء المفكرون من الغربيين الاحرار في وصف رسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ما كان الانصاف ظاهره وباطنه ومنهم كارلايل الانكليزي وقد أشرنا الى بعض مـــا قالوه فيه في كتابنا (الاسلام والحضارة العربية) وآخر ما قرأناه في سيرة النبي العربي وتحليل عمله العظيم ما قاله شاعر فرنسا العظيم لامارتين قال : لم يقصد رجل قط مختاراً أو غير مختار الى غاية أسمى ، لأن تلك الغاية كانت فوق طاقة البشر وهي القضاء على مادخل من الخرافات بين الخالق والمخلوق ليجعل

الله للعبد والعبد لله ، وأن يعدّل فكرة الألوهية المعقولة في الوثنية المادية المشوهة . وما عهد قط رجل مثله قام في وقت قصير بثورة عظيمة مستديمة في العالم ، لان الاسلام بعد أقل من قرنين من انتشاره بالدعاة والقوة عم الأقطار العربية الثلاثة ودعا الى الله الواحد الأحد في فارس وخراسان وما وراء النهر والهند الغربية والشام ومصر والحبشة وجميع الأقطار المعروفة من شمالي افريقية وعدة اجزاء من البحر المتوسط واسبانيا وشطر من غاليا (فرنسا) .

فاذا كانت عظمة الغاية وقلة الوسائط ووفرة النتيجة هي الاسباب الثلاثة التي تبين عن نبوغ المرء ، فمن يجرؤ أن يشبه بمحمد رجلاً عظيماً من رجال التاريخ الحديث ، فان من اشتهر منهم لم يجيش الا جيوشاً ولم يسن الا قوانين ، ولم يؤسس الا ممالك ، فلم ينشئوا فيما أنشأوا الا دولاً عادية كان حظها أن تداعت أركانها بعدهم . اما ذاك الرجل فأباد جيوشاً ، ووضع شرائع ، وأسس ممالك ، وألف بين شعوب ، وأقام دولاً ، وضم شمل ملايين من البشر في ثلث العالم المعمور ، وزاد على ذلك أن بدل أفكاراً ومعتقدات وارواحاً ، واتى بكتاب اصبح كل حرف من حروفه شريعة قومية روحية سرت الى شعوب من جميع اللغات والعناصر ، وطبع هذه الجنسية الاسلامية بطابع ثابت ، وقضى على الارباب المصنوعة ودعا الى الاعتقاد بالله الواحد الاحد مجرداً عن المادة والهيولى .

ومن يكون اكثر عظمة اذا قيست العظمة البشرية بكل مظاهرها بعظمة محمد الحكيم الخطيب الداعية المشرع المحارب المبدع في افكاره ، ومؤسس التعاليم القائمة على العقل ، وعلى عبادة لاصور فيها ، ومنشيء عشرين مملكة ارضية ، ومملكة روحية واحدة .

قال مؤلف كتاب اوجه الاسلام Les visages de l'Islam جورج ريفوار : من الجرأة ان يحاول المرء اضافة شيء الى صورة هذا النبي التي صوره بها لامارتين .

وصف الشيوخ

وصف باكون الفيلسوف الانكليزي جماعة الشيوخ وصفاً ينطبق عليهم من أكثر الوجوه قال : انهم يكثرون من الاعتراض ، ويطيلون في استشارتهم ، ويخاطرون قليلاً ، ويسارعون الى ابداء التأسف ، ويندر فيهم من يعمل في الوقت المناسب ، ويقنعون بالنجاح الوسط . ونزيد عليه انهم اذا اجتمع بعضهم الى بعض يبدأون بالكلام عن أمراضهم ووصف ما يتناولون من أدوية وعقاقير .

النبوغ فى اسبانيا

وصف هوفار أحد ساسة الانكليز في هذا العصر نبغاء اسبانيا فقال انها أخرجت للامبراطورية الرومانية أدريان وتراجان وسنيك وكنتلين وللكنيسة سان دومينيك وسان تريز وسان اغناطيوس دي لويولا وسان جان دلاكروا وللأدب سرفنتس ولوب دي فيكا وكالدرون ، وللتصوير فلاسكيز وموريللو وكويا — وأمة أنبغت مثل هؤلاء هي ولا شك ذات مدنية غير عادية . قال هذا وهو من رجال السياسة . وأجمع مؤرخو البريطانيين أو كادوا يجمعون على أن اسبانيا أحط أمة في قارة أوروبا . وقال العارفون انه قلما تمَّ شيء في اسبانيا الا دير الاسكوريال ورواية دون كيشوت .

الاستعمار الممقوت

قلنا ان فرنسا أساءت باستعمارها الى المسلمين خاصة والى الشرقيين عامة . كتب روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق الى وزير خارجيته يقول ما نصه :

عزيزي كوردل هول

قابلني أمس اللورد هاليفاكس (سفير انكلترا في واشنطن) وطلب مني تأكيداً عن الحديث الذي روي على لساني والذي ألحت فيه الى وجوب وضع الهند الصينية بعد الحرب تحت الوصاية الدولية ثم منحها الاستقلال بعد ذلك .

لقد استعمر الفرنسيون هـــذه البلاد التي بلغ سكانها ثلاثين مليوناً مدة مائة سنة تقريباً ، وأهلها الآن لا يختلفون مطلقاً عما كانوا عليـه قبل مائة عام . حلبت فرنسا هذه البقرة حتى لم يبق في ضرعها شيء ، والعدل يقضي بان تحرر الهند الصينية من نير هؤلاء ويعطى لها استقلالها في حينه .

١٩٤٥/١/٢٤ فرانكلين بالاتور روزفلت

هذا ما قاله سياسي غربي كبير خالي الغرض في استعمار فرنسا وقال الاستاذ عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية في مؤتمر الشعوب الآسيوية نحن شعوب الشرق من أطراف المحيط الأطلنطي الى أندنوسيا ذقنا الأمرّين في الروح وفي العقل وفي المادة على أيدي الأوربيين المستعمرين وما أمانينا سوى أن نضمد الجراح التي أحدثها الاستعمار في أجسادنا وما واجبنا الا أن نرعى الحرية ونثبت دعائمها فقد دفعت شعوبنا من أجل ذلك ثمناً غالياً ولا يسعنا أن نغمض أعيننا أبداً عن واجبنا نحو تلك الشعوب الآسيوية التي ما برحت ترزح تحت عبء الاستعمار .

فهرس عام